

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وضع التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف المشتملي

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الأول

طبعة جليدة مصححة ومنقحة وُضِعَ التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٢ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَحَّيَ إِلَيْهَا رُوحَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٥] ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [٧٦] [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد، فإن التفسير المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»^(١) للعلامة القاضي المفسر ناصر الدين أبي الخير، عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي (ت ٦٨٥ هـ) يعتبر من أهم كتب التفسير بالرأي^(٢)، فهو كتاب جليل دقيق، جمع بين التفسير والتأويل على قانون اللغة العربية، وقرر الأدلة على أصول السنة.

وقد اختصره مؤلفه من «كشف» الزمخشري^(٣) محمود بن عمر أبي القاسم (ت ٥٣٨ هـ) مع ترك ما فيه من اعتزالات، كما استمدّه من «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي^(٤) محمد بن عمر بن حسين الشافعي الطبرستاني (ت ٦٠٦ هـ) وبه تأثر عند عرضه للآيات الكونية ومباحث الطبيعة، ومن تفسير الراغب الأصبهاني الحسين بن محمد بن المفضل أبي القاسم (ت ٥٠٢ هـ) المسمى «تحقيق البيان في تأويل القرآن»، فأصبح من أهم كتب التفسير التي لا يستغني عنها الطالب لفهم كلام الله عز وجل.

والبيضاوي رحمه الله مُقلّ جداً من الروايات الإسرائيلية، لكنه يذكر في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها - كما وقع فيه صاحب «الكشاف» - وهي موضوعة باتفاق أهل الحديث وهذا من هنائه رحمه الله.

هذا وقد ضمّن البيضاوي تفسيره نكتاً بارعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز، وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها، فيذكر الشاذ، كما أنه يتعرض لبعض المسائل الفقهية عند آيات الأحكام دون توسع منه، مع عرض للصناعة النحوية.

ونظراً لما يحتله هذا الكتاب من أهمية في عالم التفاسير، فقد وضع عليه العلماء الحواشي والتعليقات

(١) طبع مرات عديدة، منها طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر عام ١٣٣٠ هـ / ١٩١٠ م وبهامشه حاشية العلامة الكازروني (ت ٩٤٥ هـ) في خمس أجزاء في مجلدين، وهي الأصل الذي اعتمدناه في طبعتنا هذه وعليه ختم المطبعة الميمنية بمصر عام ١٣٠٦.

(٢) كما أكدّه العلامة محمد عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن» (١/ ٥٣٥).

(٣) طبع مؤخراً بدار إحياء التراث العربي في طبعته الأولى عام (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م) بتحقيق عبد الرزاق المهدي.

(٤) طبع بدار إحياء التراث العربي بحلّة قشبية وملونة ومصححة عام (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م).

الكثيرة، فمنهم من علّق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشّى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه^(١).

وأحسن حواشيه المتداولة حاشية الشهاب الخفاجي المصري أحمد بن محمد بن عمر (ت ١٠٦٩ هـ) وسماها «عناية القاضي وكفاية الراضي» وهي مطبوعة وتقع في ثمانية مجلدات^(٢).

ونظراً لما يحتله هذا الكتاب من أهمية، فقد رأيت دار إحياء التراث العربي طبعه بهذه الحلة القشبية، بعدما قامت بتصحيح ألفاظه وتجاريه ومراجعته بما قدّر الله به وأعان.

هذا وقد وضعنا وراء هذه الكلمة مقدمة: تَرْجَمْنَا فِيهِ لِمُؤَلِّفِ هَذَا التَّفْسِيرِ، وَعَرَّفْنَا بِهِ، وبطريقة مؤلّفه فيه بشيء من التفصيل مع ذكر التعليقات والحواشي عليه.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا هَذَا الْعَمَلُ خَالِصاً لَوَجْهِكَ الْكَرِيمِ، واجعله في صحائف أعمال أصحابه وانفع به، إنك يا مولانا على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه محمد عبد الرحمن المرعشلي

بيروت ٢١ شوال ١٤١٨ هـ

الموافق ١٨ شباط ١٩٩٨

(١) وقد وصلت هذه الحواشي والتعليقات إلى نحو خمسين حاشية وتعليقة انظرها في الصفحة (١٦).

(٢) انظرها في «أعلام» الزركلي (١/٢٣٨).

مقدمة

- أولاً: ترجمة صاحب التفسير ٩
- ثانياً: التعريف بأنوار التنزيل وطريقة مؤلفه فيه ١٢
- اختصار البيضاوي تفسيره من «الكشاف» للزمخشري ١٢
 - استمداد البيضاوي تفسيره من «مفاتيح الغيب» للرازي ومن «تفسير الراغب الأصفهاني» ١٢
 - اهتمامه بالقراءات وذكر الشاذ منها ١٢
 - عرضه للصناعة النحوية ١٢
 - تعرضه لبعض المسائل الفقهية دون توسع ١٢
 - تقرير وترجيح مذهب أهل السنة ١٣
 - التقليل من ذكر الروايات الإسرائيلية ١٣
 - الخوض في مباحث الكون والطبيعة تأثراً بالرازي ١٣
 - تقييد هذا التفسير ١٤
 - قول الإمام جلال الدين السيوطي في حاشيته «نواهد الأبيكار وشواهد الأفكار» ١٤
 - - قول حاجي خليفة في «كشف الظنون» ١٤
 - الحواشي المكتوبة على تفسير البيضاوي ١٦

أولاً: ترجمة صاحب التفسير^(١)

١ - اسمه ونسبه:

هو العلامة المفسر قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو الخير (وقيل أبو سعيد) عبد الله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي - بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها وفتح الضاد المعجمة وفي آخرها الواو - هذه النسبة إلى بيضاء وهي بلدة من بلاد فارس. لم تذكر المصادر سنة ولادته.

٢ - نبوغه:

قال السيوطي في «بغية الوعاة»: كان إماماً علامة، عارفاً بالفقه والأصليين والعربية والمنطق، نظاراً صالحاً، متعبداً، شافعيّاً.

وقال ابن قاضي شعبة في «طبقاته»: «صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان، وشيخ تلك الناحية».

قال السبكي في «طبقاته الكبرى»:

وَلِيَ قِضَاءَ الْقِضَاءِ بِشِيرَازَ، وَدَخَلَ تَبْرِيزَ، وَنَظَرَ بِهَا، وَصَادَفَ دُخُولَهُ إِلَيْهَا مَجْلِسَ دَرَسٍ قَدْ عُقِدَ بِهَا لِبَعْضِ الْفَضَلَاءِ، فَجَلَسَ الْقَاضِي نَاصِرُ الدِّينِ فِي أَخْرِيَاتِ الْقَوْمِ، بِحَيْثُ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ، فَذَكَرَ الْمُدْرُسُ نُكْتَةً زَعَمَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَوَابِهَا، وَطَلَبَ مِنَ الْقَوْمِ حَلَّهَا، وَالْجَوَابَ عَنْهَا، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا فَالْحَلَّ فَقَطْ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا فإِعَادَتَهَا.

فلما انتهى من ذكرها، شرع القاضي ناصر الدين في الجواب، فقال له: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها. فخبره بين إعادتها، بلفظها أو معناها، فبهت المدرس، وقال: أعدها بلفظها. فأعادها.

ثم حلها وبيّن أن في تركيبه إيّاها خللاً، ثم أجاب عنها، وقابلها في الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى حلها، فتعذر عليه ذلك، فأقامه الوزير من مجلسه، وأذناه إلى جانب، وسأله من أنت؟ فأخبره أنه البيضاوي، وأنه جاء في طلب القضاء بشيراز، فأكرمه، وخلع عليه في يومه، وزّده وقد قضى حاجته.

وأهمله الذهبي ولم يذكره في «العبر» كما قال ابن شعبة.

٣ - ثناء العلماء عليه:

قال السبكي: «كان إماماً مبرزاً نظاراً خيراً، صالحاً متعبداً».

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/٣٠٩)، و«الفهرس التمهيدي» الصفحة (٢٠٥) و(٥٦١)، و«بروكلمان» دائرة المعارف الإسلامية (٤/٤١٨)، و«بغية الوعاة» للسيوطي (٢/٥٠ - ٥١) ترجمة رقم (١٤٠٦)، و«نزهة الجليس ومنية الأديب النفيس» للموسوي (٢/٨٧)، و«مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده (١/٤٣٦)، و«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٨/١٥٧) بتحقيق الحلو، ترجمة رقم (١١٥٣) و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شعبة (٢/٢٨) ترجمة (٤٦٩) بتحقيق عبد العليم خان، و«طبقات الشافعية» للإسنوي (١/١٣٦) ترجمة (٢٦٠)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٥/٣٩٢ - ٣٩٣)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٤/٢٢٠)، و«إيضاح المكنون» (٢/٥٦٩)، و«هدية العارفين» للبغدادي (١/٤٦٢، ٤٦٣) و«كشف الظنون» لحاجي خليفة الصفحة (١٨٦)، ١٠٣٢، ١١١٦، ١١٩٢، ١٢٧٣، ١٤٨١، ١٥٤٦، ١٦٩٨، ١٧٠٤، ١٧٠٥، ١٨٥٤، ١٨٥٨، ١٨٧٨)، و«طبقات المفسرين» للدواودي الصفحة (١٠٢ - ١٠٣)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (٦/٩٧)، و«الأعلام» للزركلي (٤/١١٠).

وقال ابن حبيب: «وتكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غير «المنهاج» الوجيز لفظه المحرر لكفاه».

ولي القضاء بشيراز.

٤ - ومن أهم مصنفاته:

- ١ - كتاب «المنهاج» مختصر من الحاصل والمصباح و«شرحه» (في أصول الفقه) وهو «منهاج الوصول إلى علم الأصول» وهو مطبوع^(١).
- ٢ - وكتاب «الطوابع» وهو «طوابع الأنوار»، مطبوع (في أصول الدين والتوحيد) قال السبكي: وهو أجل مختصر أُلّف في علم الكلام.
- ٣ - و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (في التفسير) وسماه بعضهم «مختصر الكشاف»، وهو ما نحن بصدد الآن. وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولاً بين أهل العلم.
- ٤ - «المصباح» (في أصول الدين).
- ٥ - «شرح مختصر ابن الحاجب» (في الأصول).
- ٦ - «شرح المنتخب في الأصول» للإمام فخر الدين.
- ٧ - «شرح المطالع» (في المنطق).
- ٨ - «الإيضاح» (في أصول الدين).
- ٩ - «شرح الكافية» لابن الحاجب (في النحو).
- ١٠ - «لبّ الباب في علم الإعراب».
- ١١ - «نظام التواريخ» كتبه باللغة الفارسية.
- ١٢ - «رسالة في موضوعات العلوم وتعاريفها» مخطوط.
- ١٣ - «الغاية القصوى في دراية الفتوى» مخطوط (في فقه الشافعية) مختصر «الوسيط».
- ١٤ - «شرح المصابيح» (أي مصابيح السُّنة للبخاري في الحديث) سماه «تحفة الأبرار».
- ١٥ - «شرح المحصول».
- ١٦ - «شرح التنبيه» (في أربعة مجلدات).
- ١٧ - «تهذيب الأخلاق» (في التصوف).

(١) وهو من أهم كتب الأصول عند الشافعية، وله شروح كثيرة، منها «نهاية السؤل في شرح منهاج الأصول للبيضاوي» للإسنوي جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ) وهو مطبوع في القاهرة عام (١٤٤٣ هـ) ويقع في (٤) أجزاء بإدارة جمعية نشر الكتب العربية، ومنها «معراج المنهاج شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي» تأليف شمس الدين الجزري، محمد بن يوسف (ت ٧١١ هـ)، وهو مطبوع أيضاً ويقع في جزئين بتحقيق د/ شعبان محمد إسماعيل، مطبعة الحسين الإسلامية الطبعة الأولى عام (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م)، ومنها شرح البدخشي «منهاج العقول» للإمام محمد بن الحسن البدخشي وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء في القاهرة وطبع بدار الكتب العلمية - بيروت في طبعته الأولى عام (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م) وبأسفله «نهاية السؤل» للإسنوي.

وفاته:

وتوفي بمدينة تبريز.
قال السُّبْكِيُّ والإِسْتَوِيُّ: سنة (٦٩١ هـ) إحدى وتسعين وستمائة.
وقال ابن كثير وغيره: سنة (٦٨٥ هـ) خمس وثمانين وستمائة.

ثانياً: التحريف بأنوار التنزيل وطريقة مؤلفه فيه^(١)

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

* وقد اختصر البيضاوي تفسيره من «الكشاف» للزمخشري.

ولكنه ترك ما فيه من اعتراضات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما ذهب إليه صاحب «الكشاف».

ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٢)... الآية، وجدناه يقول: «إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع».. ثم يُفسر المس بالجنون ويقول «وهذا أيضاً من زعمانهم أن الجني يمس الرجل فيختلط عقله».

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تَسْلُطُ لها على الإنسان إلا بالسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب «الكشاف»، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتربها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

* استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى «بمفاتيح الغيب» للفيروز الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني.

وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين.

كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز، وعبرة تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة.

* وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ.

* كما أنه يعرض للصناعة النحوية.

ولكن بدون توسع واستفاضة.

* كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك:

وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة ﴿وَالطَّلَقُ ثَلَاثًا فَرَوْهُ﴾ يقول ما نصه: وقروء جمع قرء، وهو يُطْلَقُ للحيض

(١) اقتبسنا هذا من كلام الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون» (١/٢٩٦) وما بعدها.

كقوله عليه الصلاة والسلام: دعي الصلاة أيام أقرائك، وللطهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

مورثة مالا وفي الحي رفعه لما ضاع فيهما من قروء نائكا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: ﴿فَطْلِقُوهُنَّ لِإِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان، فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر: مرة فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فذلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء... الخ.

* كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة:

عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم وبين مذهب المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٣، ٢) من سورة البقرة ﴿... هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُمْنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق؛ مع ترجيحه لمذهب أهل السنة.

* والبيضاوي رحمه الله مقلٌ جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية:

وهو يصدر الرواية بقوله: رَوَى أَوْ قِيلَ، إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية: (٢٢) من سورة النمل ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حُطِّ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَكٍ لَبِئْسَ يَقِينٌ﴾ [النمل: ٢٢] يقول بعد فراغه من تفسيرها: رَوَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَتَمَّ بِنَاءَ بَيْتِ الْمَقْدَسِ تَجَهَّزَ لِلْحَجِّ. الخ القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه «ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها، ويستنكرها من ينكرها».

* ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة

ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق «التفسير الكبير» للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَعَثُ... شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول: الشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض. ثم يرد على من يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك... إلى آخر كلامه في هذا الموضوع.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة «تفسيره» هذا بعد الديباجة ما نصه:

«... ولطالما أخذت نفسي بأن أصنف في هذا الفن - يعني التفسير - كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعترين، إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنع لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على

الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل...»^(١). ويقول في آخر الكتاب^(٢) ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنظوي على فوائد ذوي الألباب، المُشتمِل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، المرسوم «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل...».

وكأنني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصر من تفسير «الكشاف» ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

تقريظ هذا التفسير:

١ - قول الإمام السيوطي في هذا التفسير:

ويقول الجلال السيوطي - رحمه الله - في حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ «نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار» ما نصه:

«وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تلمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، واشتهر اشتها الشمس في رائحة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدرساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»^(٣).

٢ - ويقول صاحب «كشف الظنون»^(٤) ما نصه:

وتفسيره هذا - يريد تفسير البيضاوي - كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من «الكشاف» ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن «التفسير الكبير» ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن «تفسير الراغب» ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات.

وضم إليه ما روى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشي:

أولوا الأبواب لم يأتوا بكشف قناع ما يُثلى
ولكن كان للقاضي بدبيضاء لا تُبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرساون الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام. كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، ودلّل لهم صعب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة وأوضح لهم مناهج الأدلة.

والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

(١) انظر مقدمة الجزء الأول.

(٢) من الجزء الخامس.

(٣) «المدخل المنير» للشيخ مخلوف الصفحة (٤١).

(٤) «كشف الظنون» لحاجي خليفة الصفحة (١٨٧).

وأما الوجه الذي تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وَحَمَلُ الْمَلَائِكَةِ الْعَرْشَ وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتديبرهم له^(١)، ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه، فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الجبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة والجماعة.

وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأغمى عين هواه، واستعبد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رُزِقَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقه على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه^(٢) انتهى.

وأشهر هذه الحواشي وأكثرها تداولاً ونفعاً: «حاشية قاضي زاده»، و«حاشية الشهاب الخفاجي»، و«حاشية القنوي».

وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يَسْتَغْنِي عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى.

(١) انظر تفسير البيضاوي عند قوله تعالى في الآية (٧) من سورة غافر ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ...﴾ الآية.

(٢) «كشف الظنون»: لحاجي خليفة (١/ ١٨٧ - ١٨٨).

الحواشي والتحليقات المكتوبة على تفسير البيضاوي^(١)

وهي كثيرة جداً، وصل بها صاحب «كشف الظنون» إلى نحو خمسين، منها ما يقع في مجلدات، ومنها دون ذلك، وهي تعكس أهمية هذا التفسير، ومنها:

١ - حاشية العالم الفاضل محيي الدين محمد بن الشيخ مصلح الدين مصطفى القوجوي المتوفى سنة إحدى وخمسين وتسعمائة (ت ٩٥١ هـ).

وهي أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعاً وأسهلها عبارة، كتبها أولاً على سبيل الإيضاح والبيان للمبتدئ في ثمانين مجلدات، ثم استأنفها ثانياً بنوع تصرف فيه وزيادة عليه، فانتشر هاتان النسختان وتلاعب بهما أيدي النساخ حتى كاد أن لا يفرق بينهما. ولبعض الفضول منتخب تلك الحاشية، ولا يخفى أنها من أعز الحواشي وأكثرها قيمة واعتباراً وذلك لبركة زهده وصلاحه.

٢ - حاشية العالم مصلح الدين مصطفى بن إبراهيم المشهور بابن التمجيد (ت نحو ٨٨٠ هـ).

معلم السلطان محمد خان الفاتح وهي مفيدة جامعة أيضاً لخصها من حواشي «الكشاف» في ثلاث مجلدات.

٣ - حاشية الفاضل القاضي زكريا بن محمد الأنصاري المصري^(٢) المتوفى سنة ست وعشرين وتسعمائة (٩٢٦ هـ).

وهي في مجلد سماها «فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل»، أولها: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، نبه فيها على الأحاديث الموضوعة التي في أواخر السور.

٤ - حاشية الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة (ت ٩١١ هـ).

وهي في مجلد أيضاً سماه «نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار».

٥ - حاشية الفاضل أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب المشهور بالكازروني المتوفى في حدود سنة أربعين وتسعمائة (٩٤٥ هـ).

وهي حاشية لطيفة في مجلد، أورد فيها من الدقائق والحقائق ما لا يُحصى، أولها الحمد لله الذي أنزل آيات بينات محكمة.

٦ - حاشية شمس الدين محمد بن يوسف الكرمانلي المتوفى سنة ست وثمانين وسبعمائة (٧٨٦ هـ).

في مجلد أيضاً أولها الحمد لله الذي وفقنا للخوض.

٧ - حاشية العالم الفاضل محمد بن جمال الدين بن رمضان الشرواني (ت ١٠٦٣ هـ).

في مجلدين أولها: قال الفقير بعد حمد الله العليم العلام.

(١) انظر «كشف الظنون» لحاجي خليفة الصفحات (١٨٨ - ١٩٣).

(٢) ذكر الشمراني في «المنن» أن القاضي زكريا علّق إملاء بعد أن كُفَّ بصره لما قرأ عليه، قال: وغالبها بخطي وخط ولده جمال الدين، انتهى منه.

- ٨ - حاشية الشيخ الفاضل صبغة الله بن إبراهيم الحيدري شيخ مشايخ بغداد في عصره (ت ١١٨٧ هـ). وهي كُبْرَى وَصُغْرَى، جمع من ثماني عشرة حاشية.
- ٩ - وحاشية صبغة الله بن روح الله بن جمال الله البزْوَجي الحسيني النقشبندي الفقيه المتصوِّف (ت ١٠١٥ هـ) وسمّاها «إراءة الدقائق».
- ١٠ - حاشية الشيخ الفاضل جمال الدين إسحاق القراماني المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة (ت ٩٣٣ هـ) وهي حاشية مفيدة جامعة.
- ١١ - حاشية العالم المشهور بروشني الأيديني.
- ١٢ - حاشية الشيخ محمود بن الحسين الأفضلي الحاذقي الشهير بالصادقي الكيلاني المتوفى في حدود سنة سبعين وتسعمائة (ت ٩٧٠ هـ).
- وهي من سورة الأعراف إلى آخر القرآن سماها «هداية الرواة إلى الفاروق المداوي للمعجز عن تفسير البيضاوي» وفرغ من تحريرها سنة ثلاث وخمسين تسعمائة.
- ١٣ - حاشية الشيخ بابا نعمة الله بن محمد النخبجواني المتوفى في حدود سنة تسعمائة (ت ٩٠٠ هـ).
- ١٤ - حاشية العالم مصطفى بن شعبان الشهير بالسروري المتوفى سنة تسع وستين وتسعمائة (ت ٩٦٩ هـ).
- وهي كُبْرَى وَصُغْرَى، أول الكبرى الحمد لله الذي جعلني كشاف القرآن، ذكر العاشق في ذيل الشقائق أنه كان يكتب كل ما يخطر بالبال في بادي النظر والمطالعة ولا ينظر إليه بعد ذلك.
- ١٥ - وحاشية المولى الشهير بمنا وعوض المتوفى سنة أربع وتسعين وتسعمائة (ت ٩٩٤ هـ). وهو في نحو ثلاثين مجلداً.
- ١٦ - وحاشية الشيخ أبي بكر بن أحمد بن الصائغ الحنبلي المتوفى سنة أربع عشرة وسبعمائة (ت ٧١٤ هـ).
- وسماه «الحسام الماضي في إيضاح غريب القاضي» شرح فيه غريبه، وضم إليه فوائد كثيرة.

وأما التعليقات والحواشي الغير التامة فكثيرة جداً:

- فتذكر منها ما وصل إلينا خبره، ونقدم الأشهر فالأشهر فمنها:
- ١٧ - حاشية المولى المحقق محمد بن فرامرز الشهير بملا خسرو المتوفى سنة خمس وثمانين وثمانمائة (ت ٨٨٥ هـ).
 - وهي من أحسن التعليقات عليه بل أرجحها إلى قوله سبحانه وتعالى: «سيقول السفهاء» وذيلها إلى تمام سورة البقرة لمحمد بن عبد الملك البغدادي (الحنفي المتوفى بدمشق سنة ١٠١٦ ذكره «خلاصة الأثر») ألفه سنة اثنتي عشرة وألف، أوله الحمد لله هادي المتقين.
 - ١٨ - وحاشية العالم الفاضل نور الدين حمزة «بن محمود» القراماني المتوفى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة (ت ٨٧١ هـ).
 - وهي على الزهراوي سماها «تقشير التفسير».

- ١٩ - وتعليقة سنان الدين يوسف البردعي الشهير بمجم سنان المحشي لشرح الفرائض .
 كتبها إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وما كادوا يفعلون﴾ وهي كالخسروية حجماً عبر فيها عن ملا حمزة بالأستاذ الأوسط وعن ملا خسرو بالأستاذ الأخير، أوله الحمد لله الذي نور قلوبنا .
- ٢٠ - وحاشية الفاضل المحقق عصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الإسفرايني المتوفى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة (ت ٩٤٣ هـ) .
- وهي مشحونة بالتصرفات اللائقة والتحقيقات الفائقة من أول القرآن إلى آخر الأعراف ومن أول سورة النبأ إلى آخر القرآن، أهداها إلى السلطان سليمان خان أوله: الحمد لله الذي عم بارفاد إرشاد الفرقان .
- ٢١ - وحاشية المولى العلامة سعد الله بن عيسى الشهير بسعدي أفندي المتوفى سنة خمس وأربعين وتسعمائة (ت ٩٤٥ هـ) .
- وهي من أول سورة هود إلى آخر القرآن .
- وأما التي وقعت على الأوائل فجمعها ولده بير محمد من الهوامش فألحقها إلى ما علقه، وفيها تحقيقات لطيفة ومباحث شريفة لخصها من حواشي «الكشاف» وضم إليها ما عنده من تصرفاته المسلمة فوق اعتماد المدرسين عليها ورجوعهم عند البحث والمذاكرة إليها، وقد علقوا عليها رسائل لا تُحصى .
- ٢٢ - وحاشية الفاضل سنان الدين يوسف بن حسام المتوفى سنة ست وثمانين وتسعمائة (ت ٩٨٦ هـ) .
- وهي أيضاً حاشية مقبولة من أول الأنعام إلى آخر الكهف، وعلق على سورة الملك والمدثر والقمر وألحقها وأهداها إلى السلطان السليم خان الثاني .
- ٢٣ - وحاشية المولى محمد بن عبد الوهاب الشهير بعبد الكريم زاده المتوفى سنة خمس وسبعين وتسعمائة (ت ٩٧٥ هـ) .
- وهي من أول القرآن إلى سورة طه ولم تنتشر .
- ٢٤ - وتعليقة المولى مصطفى بن محمد الشهير بيستان أفندي المتوفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة (ت ٩٧٧ هـ) .
- وهي على سورة الأنعام خاصة .
- ٢٥ - وتعليقة محمد بن مصطفى بن الحاج حسن المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة (ت ٩١١ هـ) .
- وهي أيضاً على سورة الأنعام .
- ٢٦ - وتعليقة العالم الفاضل مصلح الدين محمد اللاري المتوفى سنة سبع وسبعين وتسعمائة (ت ٩٧٧ هـ) .
- وهي إلى آخر الزهراوين مشحونة بالمباحث الدقيقة .
- ٢٧ - وتعليقة نصر الله الرومي .
- وفي «أعلام» الزركلي (٣١/٨): نصر الله بن محمد العجمي الخلخالي الشافعي (ت ٩٦٢ هـ) له «حاشية على أنوار التنزيل» للبضاوي .
- ٢٨ - وتعليقة الشيخ الأديب غرس الدين الحلبي الطبيب .
- ٢٩ - وتعليقة المحقق الملا حسين (حسن) الخلخالي الحسيني (ت ١٠١٤ هـ) .
- من سور يس إلى آخر القرآن، أولها: الحمد لله الذي توله العرفاء في كبرياء ذاته .

- ٣٠ - وتعليقة محيي الدين محمد الإسكليبي المتوفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (ت ٩٢٢ هـ).
- ٣١ - وتعليقة محيي الدين محمد بن القاسم الشهير بالأخوين المتوفى سنة أربع وتسعمائة (ت ٩٠٤ هـ).
- وهي على الزهراوين.
- ٣٢ - وتعليقة السيد أحمد بن عبد الله القريمي المتوفى سنة خمسين وثمانمائة (٨٥٠).
- وهي إلى قريب من تمامه.
- ٣٣ - وتعليقة الفاضل محمد بن كمال الدين التاشكندي.
- على سورة الأنعام أهداها إلى السلطان سليم خان.
- ٣٤ - وتعليقة المولى زكريا بن بيرام الأنقروي المتوفى سنة إحدى وألف (ت ١٠٠١ هـ).
- وهي على سورة الأعراف.
- ٣٥ - وتعليقة المولى محمد بن عبد الغني المتوفى سنة ست وثلاثين وألف (ت ١٠٣٦ هـ).
- إلى نصف البقرة في نحو خمسين جزءاً.
- ٣٦ - وتعليقة الفاضل محمد أمين الشهير بابن صدر الدين الشرواني المتوفى سنة عشرين وألف (ت ١٠٢٠ هـ).
- وهي إلى قوله تعالى: ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ أورد عبارة البيضاوي تماماً بقوله وبدأ بما بدأ في الصفدي في «شرح لامية المعجم» وهو قوله: الحمد لله الذي شرح صدر من تأدب.
- ٣٧ - وتعليقة المولى هداية الله العلاني المتوفى سنة تسع وثلاثين وألف (ت ١٠٣٩ هـ).
- ٣٨ - وتعليقة الفاضل محمد الشراشي.
- وهي على جزء النبأ.
- ٣٩ - وتعليقة الفاضل محمد أمين بن محمود الشهير بأمير بادشاه البخاري الحسيني نزيل مكة المتوفى سنة (٩٧٢ هـ).
- وهي إلى سورة الأنعام.
- ٤٠ - وتعليقة الفاضل محمد بن موسى البسنوي المتوفى سنة ست وأربعين وألف (ت ١٠٤٦ هـ).
- وهي إلى آخر سورة الأنعام كتبها على طريق الإيجاز، بل على سبيل التعمية والألغاز، أولها: الحمد لله الذي فضل بفضله العالمين على الجاهلين.
- ٤١ - وتعليقة الفاضل المشهور بالعلاني ابن محبتي الشيرازي «علاء الدين علي بن محيي الدين محمد المتوفى سنة (٩٤٥) الشريف.
- وهي على الزهراوين، أولها: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، فرغ عنها في رجب سنة خمس وأربعين وتسعمائة وسماها «مصباح التعديل في كشف أنوار التنزيل».
- ٤٢ - وتعليقة المولى أحمد بن روح الله الأنصاري المتوفى سنة تسع وألف (ت ١٠٠٩ هـ).
- وهي إلى آخر الأعراف.
- ٤٣ - وتعليقة محمد بن إبراهيم ابن الحنبلي الحلبي المتوفى سنة إحدى وسبعين وتسعمائة (ت ٩٧١ هـ).

- ٤٤ - وصنف الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (ت ٩٤٢ هـ) الشافعي الشافعي مختصراً سماه «الإتحاف بتميز ما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف».
- أوله الحمد لله الهادي للصواب.
- ٤٥ - والشيخ عبد الرؤوف المُنَاوِي خرج أحاديثه في كتاب أوله: الله أحمَد أن جَعَلَنِي من خدام أهل الكتاب، وسماه «الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي».
- ٤٦ - وممن علق عليه كمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف القدسي المتوفى سنة ثلاث وتسعمائة (ت ٩٠٣ هـ).
- ٤٧ - والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي المتوفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة (ت ٨٧٩ هـ).
- كتب إلى قوله سبحانه وتعالى ﴿فهم لا يرجعون﴾.
- ٤٨ - والعلامة السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة عشرة وثمانمائة (ت ٨١٦ هـ).
- ذكره السخاوي نقلاً عن سبطه.
- ٤٩ - ومن التعليقات عليه مع الكشاف وتفسير أبي السعود تعليقة الشيخ رضي الدين محمد بن يوسف الشهير بابن أبي اللطف القدسي (المتوفى سنة ١٠٢٨).
- وهي في مجلد ضخم أوله: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، علقها في درسه عند الصخرة إلى آخر الأنعام، فيبضها وأرسلها إلى المولى أسعد المفتي.
- ٥٠ - ومختصر تفسير البيضاوي، لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بإمام الكاملية الشافعي القاهري المتوفى سنة أربع وسبعين وثمانمائة (ت ٨٧٤ هـ).

أنوار التنزيل وأسرار التأويل
المعروف
بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾
«قرآن كريم»

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فتحدى بأقصر سورة من سورة مصافع الخطباء من العرب العرياء فلم يجد به قديراً، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان وبلغاء قحطان حتى حسوا أنهم سحروا تسحيراً، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عن لهم من مصالحهم ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب تذكيراً، فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات هن رموز الخطاب تأويلاً وتفسيراً، وأبرز غوامض الحقائق ولطائف الدقائق، ليتجلى لهم خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت ليتفكروا فيها ففكيراً، ومهد لهم قواعد الأحكام وأوضاعها من نصوص الآيات وألماعها، ليذهب عنهم الرجس ويبطروهم تطهيراً، فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فهو في الدارين حميد وسعيد، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفاً نبراسه، يعيش ذميماً ويصل سعيماً فيا واجب الوجود، ويا فائض الجود، ويا غاية كل مقصود، صل عليه صلاة توازي غناه، وتجازي عناه، وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً، وأفض علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً، علم التفسير الذي هو رئيس العلوم الدينية ورأسها، ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها، وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها.

ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة مما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكت بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزوة إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعبرين.

إلا أن قصور بضاعتي يشبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام حتى سنح لي بعد الاستشارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بعد أن أتممه «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل».

فها أنا الآن أشرع ويحسن توفيقه، أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول.

(١) سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وتسمى أم القرآن، لأنها مفتتحة ومبدؤه فكانها أصله ومنشؤه، ولذلك تسمى أساساً. أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده. أو على جملة معانيه من الحكم النظرية، والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك. وسورة الحمد والشكر والدعاء. وتعليم المسألة لاشتمالها عليها والصلاة لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام: «هي شفاء من كل داء». و «السبع المثاني» لأنها سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عد التسمية دون «أنعمت عليهم»، ومنهم من عكس، وتثنى في الصلاة، أو الإنزال إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، وبالمدينة حين حولت القبلة، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني»، وهو مكي بالنص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

«بسم الله الرحمن الرحيم» من الفاتحة، ومن كل سورة، وعليه قراءة مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك رحمه الله تعالى والشافعي. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك والأوزاعي، ولم ينص أبو حنيفة رحمه الله تعالى فيه بشيء فظن أنها ليست من السورة عنده. وسئل محمد بن الحسن عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. ولنا أحاديث كثيرة: منها ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم». وقول أم سلمة رضي الله عنها «قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعد «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين» آية ومن أجلهما اختلف في أنها آية برأسها أم بما بعدها، والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى، والوفاق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب أمين. والباء متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأ لأن الذي يتلوه مقروء. وكذلك يضم كل فاعل ما يجعل التسمية مبدأ له، وذلك أولى من أن يضمراً أبداً لعدم ما يطابقه ويدل عليه. أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه، وتقديم المعمول ههنا أوقع كما في قوله: «بسم الله مجراها» وقوله: «إياك نعبد» لأنه أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مقدم على القراءة، كيف لا وقد جعل آلة لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبتى»، وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقول على السنة العباد ليعلموا كيف يتبرك باسمه، ويحمد على نعمه، ويسأل من فضله، وإنما كسرت ومن حق الحروف المفردة أن تفتح، لاختصاصها باللزوم الحرفية والجبر، كما كسرت لام الأمر ولام الإضافة داخل على المظهر للفصل بينهما وبين لام الابتداء، والاسم عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حذفت أعجازها لكثرة الاستعمال، وبنيت أوائلها على السكون، وأدخل عليها مبتدأ بها همزة الوصل، لأن من دأبهم أن يبتدئوا

بالمتحرك ويقفوا على الساكن. ويشهد له تصريحه على أسماء وأسامي وسمى وسميت ومجيء سمي كهدي لغة فيه قال:

والله أسماك سمي مُباركاً أترك الله به إِيَّارَكَا

والقلب بعيد غير مطرد، واشتقاقه من السمو لأنه رفعة للمسمى وشعار له. ومن السمة عند الكوفيين، وأصله وسم حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليقل إعلاله. ورد بأن الهمزة لم تعهد داخله على ما حذف صدره في كلامهم، ومن لغاته سم وسم قال:

بِسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سِمَةٌ

والاسم إن أريد به اللفظ فغير المسمى، لأنه يتألف من أصوات متقطعة غير قارة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدد تارة ويتحد أخرى. والمسمى لا يكون كذلك، وإن أريد به ذات الشيء فهو المسمى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ و ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى وصفاته عن النقائص، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب. أو الاسم فيه مقحم كما في قول الشاعر:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

وإن أريد به الصفة، كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعري، انقسم انقسام الصفة عنده: إلى ما هو نفس المسمى، وإلى ما هو غيره، وإلى ما ليس هو ولا غيره. وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله، لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه. أو للفرق بين اليمين واليمين. ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط لكثرة الاستعمال وطولت الباء عوضاً عنها. والله أصله إله، فحذفت الهمزة وعوض عنها الألف واللام ولذلك قيل: يا الله، بالقطع إلا أنه مختص بالمعبود بالحق. والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أله ألهة وألوهة وألوهية بمعنى عبد، ومنه تأله واستأله، وقيل من أله إذا تحير لأن العقول تحير في معرفته. أو من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه، لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته. أو من أله إذا فرغ من أمر نزل عليه، وألهة غيره أجاره إذ العائد يفرغ إليه وهو يجيره حقيقة أو بزعمه. أو من أله الفصل إذا ولع بأمه، إذ العباد يولعون بالتضرع إليه في الشدائد. أو من وله إذا تحير وتخطب عقله، وكان أصله ولاء فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها استثقال الضمة في وجوه، فقلبت إله كإعاء وإشاح، ويرده الجمع على آلهة دون أولهة. وقيل أصله لاه مصدر لاه يليه ليها ولاها، إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع على كل شيء وعمّا لا يليق به ويشهد له قول الشاعر:

كَجِلْفَةٍ مِنْ أَبِي رِيَّاحٍ يُشْهَدُهَا لَاهَةُ الْكِبَارِ

وقيل علم لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به، ولأنه لا بد له من اسم تجري عليه صفاته ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه، ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إله إلا الله، توحيداً مثل: لا إله إلا الرحمن، فإنه لا يمنع الشركة، والأظهر أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعلم مثل: الثريا والصعق أجرى مجراه في إجراء الأوصاف عليه، وامتناع الوصف به، وعدم تطرق احتمال الشركة إليه، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر، فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ معنى صحيحاً، ولأن معنى الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب، وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة، وقيل أصله لاها بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة، وإدخال اللام عليه، وتفخيم لاه إذا انفتح ما قبله أو انضم سنة، وقيل مطلقاً، وحذف ألفه لحن تفسد به

الصلاة، ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

أَلَا لَا بَارِكُ اللَّهَ فِي سُهَيْلٍ إِذَا مَا اللَّهُ بَارَكَ فِي الرُّجَالِ

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان بنيا للمبالغة من رحم، كالغضبان من غضب، والعليم من علم، والرحمة في اللغة: رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرِّجَم لانعطافها على ما فيها. وأسماء الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادي التي تكون انفعالات. و ﴿الرحمن﴾ أبلغ من ﴿الرحيم﴾، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَعَ وَقَطَعَ وَكَبَّرَ وَكَبَّرَ، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية، وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، لأن النعم الأخروية كلها جسام، وأما النعم الدنيوية فجذيلة وحقيرة، وإنما قدم والقياس يقتضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يصدق على غيره لأن من عداه فهو مستعيز بلطفه وإنعامه يريد به جزيل ثواب أو جميل ثناء أو مزيج رقة الجنسية أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها، والقدرة على إيصالها، والداعية الباعثة عليه، والتمكن من الانتفاع بها، والقوى التي بها يحصل الانتفاع، إلى غير ذلك من خلقه لا يقدر عليها أحد غيره. أو لأن الرحمن لما دل على جلال النعم وأصولها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها، فيكون كاللتممة والرديف له. أو للمحافظة على رؤوس الآي.

والأظهر أنه غير مصروف وإن حظر اختصاصه بالله تعالى أن يكون له مؤنث على فعلى أو فعلائة إلحاقاً له بما هو الغالب في باب. وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور، هو المعبود الحقيقي الذي هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها، جليلها وحقيرها، فيتوجه بشرائره إلى جناب القدس، ويتمسك بحبل التوفيق، ويشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿الحمد لله﴾ الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، والمدح: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيدا على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحته. وقيل هما أخوان. والشكر: مقابلة النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً قال:

أَفَادَتْكُمْ الثُّغَمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضُّمِيرُ الْمُحَجَّبُ

فهو أعم منهما من وجه، وأخص من آخر ولما كان الحمد من شعب الشكر أشيع للنعمة، وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد، وما في آداب الجوارح من الاحتمال جعل رأس الشكر والعمدة فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد رأس الشكر، وما شكر الله من لم يحمده».

والذم نقيض الحمد والكفران نقيض الشكر. ورفع بالابتداء وخبره الله وأصله نصب وقد قرئ به، وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجدد وحدوثه. وهو من المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها، والتعريف فيه للجنس ومعناه: الإشارة إلى ما يعرف كل أحد أن الحمد ما هو؟ أو للاستغراق، إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو مولى بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم. إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه. وقرئ الحمد لله باتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة.

﴿رب العالمين﴾ الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت من ربه فهو رب، كقولك نم ينم فهو نم، ثم سمي به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويريه. ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿أَزْجَعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ والعالم اسم لما يعلم به، كالأخاتم والقلب، غلب فيما يعلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وضع لذوي العلم من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عني به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث أنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعَلِّمُ بها الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم الكبير، ولذلك سوى بين النظر فيهما، وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وقرئ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالنصب على المدح. أو النداء. أو بالفعل الذي دل عليه الحمد، وفيه دليل على أن الممكنات كما هي مفتقرة إلى المحدث حال حدوثها فهي مفتقرة إلى المبقي حال بقائها.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٣﴾ ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾.

﴿الرحمن الرحيم﴾ كرهه للتعليل على ما سنذكره..

﴿مالك يوم الدين﴾ قراءة عاصم والكسائي ويعقوب وبعضه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. وقرأ الباقر: ﴿مَلِكٍ﴾. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين ولقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾. ولما فيه من التعظيم. والمالك هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء من الملك. والملك هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين من الملك. وقرئ ملك بالتخفيف وملك بلفظ الفعل. ومالكا بالنصب على المدح أو الحال، ومالك بالرفع منوئاً ومضافاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، وملك مضافاً بالرفع والنصب. ويوم الدين يوم الجزاء ومنه «كما تدين تدان» وبيت الحماسة:

وَلَمْ يَنْبُقْ سِوَى الْعَدُوِّ نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَأُّوا

أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراء له مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارق الليلة أهل الدار، ومعناه، ملك الأمور يوم الدين على طريقة ﴿ونادى أصحاب الجنة﴾. أوله الملك في هذا اليوم، على وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة، وقيل: ﴿الدين﴾ الشريعة، وقيل: الطاعة. والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة: إما لتعظيمه، أو لتفردته تعالى بنفوذ الأمر فيه، وإجراء هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجداً للعالمين رباً لهم منعماً عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها، مالكاً لأموارهم يوم الثواب والعقاب، للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحد أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف يشعر بعليته له، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يستأهل لأن يحمد فضلاً عن أن يعبد، فيكون دليلاً على ما بعده، فالوصف الأول لبيان ما هو الموجب للحمد، وهو الإيجاد والتربية. والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه، ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد. والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمنين الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر

الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً.

اللهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر. ومن عادة العرب التفتن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر نظرية له وتنشيطاً للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَاهُ﴾ وقول امرئ القيس:

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْإِثْمِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَزُقْ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْمِ
وَذَلِكَ مِنْ نَبَأِ جَاءَنِي وَخَبَرْتُهُ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ

وإيا ضمير منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنت والكاف في أرأيتك. وقال الخليل: إيا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب، وهو شاذ لا يعتمد عليه. وقيل: هي الضمائر، وإيا عمدة فإنها لما فصلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فضم إليها إيا لتستقل به، وقيل: الضمير هو المجموع. وقرئ ﴿أَيَّاكَ﴾ بفتح الهمزة و «هياك» بقلبها هاء.

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه طريق معبد أي مذلل، وثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى.

والاستعانة: طلب المعونة وهي: إما ضرورية، أو غير ضرورية. والضرورية ما لا يتأتى الفعل دونه كاعتدال الفاعل وتصوره وحصول آلة ومادة يفعل بها فيها وعند اجتماعها يوصف الرجل بالاستطاعة ويصح أن يكلف بالفعل. وغير الضرورية تحصيل ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يقرب الفاعل إلى الفعل ويحثه عليه، وهذا القسم لا يتوقف عليه صحة التكليف والمراد طلب المعونة في المهمات كلها، أو في أداء العبادات، والضمير المستكن في الفعلين للقارىء ومن معه من الحفظة، وحاضري صلاة الجماعة. أو له ولسائر الموحدين. أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها ولهذا شرعت الجماعة وقدم المفعول للتعظيم والاهتمام به والدلالة على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما (معناه نعبدك ولا نعبد غيرك) وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ومنه إلى العبادة لا من حيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة سنية بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومنتسبة إليه، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. على ما حكاه عن كلمه حين قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. وكرر الضمير للتنصيص على أنه المستعان به لا غير، وقدمت العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي، ويعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

وأقول: لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أو هم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه، فعقبه بقوله:

﴿وإياك نستعين﴾ ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يتم ولا يستتب له إلا بمعونة منه وتوفيق، وقيل: الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك. وقرئ بكسر النون فيهما وهي لغة بني تميم فإنهم يكسرون حروف المضارعة سوى الياء إذا لم ينضم ما بعدها.

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ بيان للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أعينكم فقالوا ﴿اهدنا﴾. أو أفراد لما هو المقصود الأعظم. والهداية دلالة بلطف ولذلك تستعمل في الخير وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وارد على التهكم. ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى، وأصله أن يعدى باللام، أو إلى، فعمل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ وهداية الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يحصيها عد كما قال تعالى: ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ ولكنها تنحصر في أجناس مرتبة:

الأول: إفاضة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصالح والفساد وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾.

الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وقوله: ﴿إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

الرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويربهم الأشياء كما هي بالوحي، أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عنى بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ افْتَنَدُ﴾. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. فالمطلوب إما زيادة ما منحوه من الهدى، أو الثبات عليه، أو حصول المراتب المرتبة عليه. فإذا قاله العارف بالله الواصل عنى به: أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا، وتميط غواشي أبداننا، لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك. والأمر والدعاء يتشاركان لفظاً ومعنى ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفل، وقيل: بالرتبة.

والسراط: من سراط الطعام إذا ابتلعه فكأنه يسراط السابلة، ولذلك سمي لقما لأنه يلتقمهم. و ﴿الصراط﴾ من قلب السين صاداً ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يشم الصاد صوت الزاي ليكون أقرب إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير برواية قبل عنه، وروى عن يعقوب بالأصل، وحمزة بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قریش، والثابت في الإمام وجمعه سُرْط ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث.

و ﴿المستقيم﴾ المستوي والمراد به طريق الحق، وقيل: هو ملة الإسلام.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل من الأول بدل الكل، وهو في حكم تكرير العامل من حيث إنه المقصود بالنسبة، وفائدته التوكيد والتنقيص على أن طريق المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على أكد وجه وأبلغه لأنه جعل كال تفسير والبيان له فكأنه من البين الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين. وقيل: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ الأنبياء، وقيل: النبي ﷺ وأصحابه وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ. وقرئ: «صراط من أنعمت عليهم» والإنعام: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللين، ونعم الله وإن كانت

لا تحصى كما قال: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

والأول قسمان: موهبي وكسبي والموهبي قسمان: روحاني كتفخ الروح فيه وإشراقه بالعقل وما يتبعه من القوى كالفهم والفكر والنطق، وجسماني كتخليق البدن والقوى الحالة فيه والهيئات العارضة له من الصحة وكمال الأعضاء والكسبي تزكية النفس عن الرذائل وتحليتها بالأخلاق السنية والملكات الفاضلة، وتزيين البدن بالهيئات المطبوعة والحلى المستحسنة وحصول الجاه والمال.

والثاني: أن يغفر له ما فرط منه ويرضى عنه ويبوئه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أبد الأبد. والمراد هو القسم الأخير وما يكون وصلة إلى نيله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ بدل من ﴿الذين﴾ على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال. أو صفة له مميّنة أو مقيدة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من الغضب والضلال وذلك إنما يصح بأحد تأويلين، إجراء الموصول مجرى النكرة إذا لم يقصد به معهود كالمحلي في قوله:

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُوبُنِي

وقولهم: إني لأمر على الرجل مثلك فيكرمني. أو جعل غير معرفة بالإضافة لأنه أضيف إلى ماله ضد واحد وهو المنعم عليهم، فيتعين تعيين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نصبه على الحال من الضمير المجرور والعامل أنعمت. أو بإضمار أعني. أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين، والغضب: ثوران النفس إرادة الانتقام، فإذا أسند إلى الله تعالى أريد به المنتهى والغاية على ما مر، وعليهم في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول، ولا مزيدة لتأكيد ما في غير من معنى النفي، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين، ولذلك جاز أنا زيدا غير ضارب، كما جاز أنا زيدا لا ضارب، وإن امتنع أنا زيدا مثل ضارب، وقرئ «وغير الضالين» والضلال: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير.

قيل: ﴿المغضوب عليهم﴾ اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾. و ﴿الضالين﴾ النصراني لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾. وقد روي مرفوعاً، ويتجه أن يقال: المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله، لأن المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته والخير للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيهِ العاقلة والعاملة. والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾. والمخل بالعقل جاهل ضال لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾. وقرئ: ولا «الضالين» بالهمزة على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين.

. آمين. اسم الفعل الذي هو استجب. وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال: «افعل بني على الفتح كآين لالتقاء الساكنين»، وجاء مد ألفه وقصرها قال:

وَيَرْحَمُ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ آمِينَ

وقال:

أَمِينَ فَرَاذَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بَعْدًا

وليس من القرآن وفاقاً، لكن يسن ختم السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام «علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة وقال إنه كالتخم على الكتاب». وفي معناه قول علي رضي الله عنه: آمين خاتم رب العالمين، ختم به دعاء عبده. يقول الإمام ويجهز به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته».

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله، والمشهور عنه أنه يخفيه كما رواه عبد الله بن مغفل وأنس، والمأموم يؤمن معه لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قال الإمام «ولا الضالين» فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبي «ألا أخبرك بسورة لم يُنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها». قال: قلت بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله ﷺ جالس إذ أتاه ملك فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته».

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة».

(٢) سورة البقرة

مجدنية وأبها مائتان وسبع وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم﴾

﴿الْم﴾ وسائر الألفاظ التي يتجهى بها، أسماء مسمياتها الحروف التي ركبت منها الكلم لدخولها في حد الاسم، واعتوار ما يخص به من التعريف والتكثير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي. وما روي ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف» فالمراد به غير المعنى الذي اصطلاح عليه، فإن تخصيصه به عرف مجدّد بل المعنى اللغوي، ولعله سماه باسم مدلوله.

ولما كانت مسمياتها حروفاً وحداناً وهي مركبة، صدرت بها لتكون تأديتها بالمسمى أول ما يقرع السمع، واستعيرت الهمزة مكان الألف لتعذر الابتداء بها وهي ما لم تلها العوامل موقوفة خالية عن الإعراب لفقد موجهه ومقتضيه، لكنها قابلة إياه ومعرضة له إذ لم تناسب مبنى الأصل ولذلك قيل: ﴿صَ﴾ و ﴿قَ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين ولم تعامل معاملة أين وهؤلاء. ثم إن مسمياتها لما كانت عنصر الكلام وبسائطه التي يتركب منها. افتتحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم مع تظاهروهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس، فأما من الأمي الذي لم يخالف الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه، وهو أنه أورد في هذه الفواتح أربعة عشر اسماً هي نصف أسامي حروف المعجم، إن لم يعد فيها الألف حرفاً برأسها في تسع وعشرين سورة بعددها إذا عد فيها الألف الأصلية مشتملة على أنصاف أنواعها، فذكر من المهموسة وهي ما يضعف الاعتماد على مخرجه ويجمعها (ستشحك خصفه) نصفها الحاء والكاف والهاء والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورة نصفها يجمعها (لن يقطع أمر). ومن الشديدة الثمانية المجموعة في (أجدت طبقك) أربعة يجمعها (أطقك). ومن البواقي الرخوة عشرة يجمعها «خمس» على نصره، ومن المطبقة التي هي الصاد والضاد والطاء والظاء نصفها، ومن البواقي المفتحة نصفها، ومن القلقة وهي: حروف تضطرب عند خروجها ويجمعها (قد طبع) نصفها الأقل لقلتها، ومن الليتين الياء لأنها أقل ثقلًا، ومن المستعلية وهي: التي يتصعد الصوت بها في الحنك الأعلى، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والحاء والغين والضاد والطاء نصفها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفها، ومن حروف البدل وهي أحد عشر على ما ذكره سيبويه، واختاره ابن جني ويجمعها (أجد طويت) منها الستة الشائعة المشهورة التي يجمعها (أهطمين) وقد زاد بعضهم سبعة أخرى وهي اللام في (أصيلال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجداف) والعين في (أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في «باسمك» حتى صارت ثمانية عشر وقد ذكر منها تسعة الستة المذكورة

واللام والصاد والعين. ومما يدغم في مثله ولا يدغم في المقارب وهي خمسة عشر: الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزاي والواو نصفها الأقل. ومما يدغم فيهما وهي الثلاثة عشر الباقية نصفها الأكثر: الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون لما في الإدغام من الخفة والفصاحة، ومن الأربعة التي لا تدغم فيما يقاربها ويدغم فيها مقاربها وهي: الميم والزاي والسين والفاء نصفها.

ولما كانت الحروف الذلقية التي يعتمد عليها بذلق اللسان وهي ستة يجمعها (رب منفل) والحلقية التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة، كثيرة الوقوع في الكلام ذكر ثلثيهما. ولما كانت أبنية المزيد لا تتجاوز عن السباعية ذكر من الزوائد العشرة التي يجمعها (اليوم تنساه) سبعة أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقرت الكلم وتراكيبها وجدت الحروف المتروكة من كل جنس مكثورة بالمذكورة ثم إنه ذكرها مفردة وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية، إيداناً بأن المتحدى به مركب من كلماتهم التي أصولها كلمات مفردة، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة، وذكر ثلاث مفردات في ثلاث سور لأنها توجد في الأقسام الثلاثة: الاسم والفعل والحرف وأربع ثنائيات لأنها تكون في الحرف بلا حذف (كبل)، وفي الفعل بحذف ثقل (كقل). وفي الاسم بغير حذف (كمن)، وبه (كدم) في تسع سور لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة على ثلاثة أوجه: ففي الأسماء من وإذ وذو. وفي الأفعال قل وبع وخف. وفي الحروف من وإن ومذ على لغة من جربها. وثلاث ثنائيات لمجيئها في الأقسام الثلاثة في ثلاث عشرة سورة تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملة ثلاثة عشر، عشرة منها للأسماء، وثلاثة للأفعال، ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً: كجعفر وسفرجل، وملحقاً: كقردد وجحنفل، ولعلها فرقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكرير التنبيه والمبالغة فيه.

والمعنى أن هذا المتحدى به مؤلف من جنس هذه الحروف. أو المؤلف منها، كذا وقيل: هي أسماء للسور، وعليه إطباق الأكثر. سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها، واستدل عليه بأنها لو لم تكن مفهومة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهملة والتكلم بالزنجي مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدى. ولما أمكن التحدي به وإن كانت مفهومة، فإما أن يراد بها السور التي هي مستهلها على أنها ألقابها، أو غير ذلك. والثاني باطل لأنه؛ إما أن يكون المراد ما وضعت له في لغة العرب فظاهر أنه ليس كذلك، أو غيره وهو باطل لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فلا يحمل على ما ليس في لغتهم.

لا يقال: لم لا يجوز أن تكون مزيدة للتنبيه؟ والدلالة على انقطاع كلام واستئناف آخر؟ كما قاله قطرب، أو إشارة إلى كلمات هي منها اقتضرت عليها اقتصار الشاعر في قوله:

قُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَاف

كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الألف آلاء الله، واللام لفظه، والميم ملكه. وعنه أن ألّ وحم ون مجموعها الرحمن. وعنه أن ألمّ معناه: أنا الله أعلم ونحو ذلك في سائر الفواتح. وعنه أن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد أي: القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام، أو إلى مدد أقوام وأجال بحساب الجمل كما قال أبو العالية متمسكاً بما روى: «أنه عليه الصلاة والسلام لما أتاه اليهود تلا عليهم ألم البقرة. فحسبوه وقالوا: كيف ندخل في دين مدته إحدى وسبعون سنة، فتبسم رسول الله ﷺ فقالوا: فهل غيره، فقال: المص والر والمر، فقالوا: خلطت علينا فلا ندري بأيها نأخذ». فإن تلاوته إياها بهذا الترتيب عليهم وتقريرهم على استنباطهم دليل على ذلك، وهذه الدلالة وإن لم تكن عربية لكنها لاشتهارها فيما بين الناس حتى العرب تلحقها بالمعربات كالمشكاة والسجيل

والقسطاس، أو دلالة على الحروف المبسوطة مقسماً بها لشرفها من حيث إنها بسائط أسماء الله تعالى ومادة خطابه.

هذا وإن القول بأنها أسماء السور يخرجها ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكره عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، ويستدعي تأخر الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخر عن المسمى بالرتبة، لأننا نقول: إن هذه الألفاظ لم تعهد مزيدة للتنبيه والدلالة على الانقطاع والاستئناف يلزمها وغيرها من حيث إنها فواتح السور، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعر فشاذ، وأما قول ابن عباس، فتنبية على أن هذه الحروف منبع الأسماء ومبادئ الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عد كل حرف من كلمات متباعدة لا تفسير، وتخصيص بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصص لفظاً ومعنى ولا بحساب الجمل فتلحق بالمعربات، والحديث لا دليل فيه، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم، وجعلها مقسماً بها وإن كان غير ممتنع لكنه يحوج إلى إضمار أشياء لا دليل عليها، والتسمية بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بعلبك، فأما إذا نثرت نثر أسماء العدد فلا، وناهيك بتسوية سبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم، والمسمى هو مجموع السورة والاسم جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً، فلا دور لاختلاف الجهتين. والوجه الأول أقرب إلى التحقيق وأوفق للطائفت التنزيل وأسلم من لزوم النقل ووقوع الاشتراك في الأعلام من واضع واحد فإنه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعلمية، وقيل: إنها أسماء القرآن ولذلك أخبر عنها بالكتاب والقرآن.

وقيل: إنها أسماء الله تعالى ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيص، ويا حمعسق، ولعله أراد يا منزلهما.

وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماء إلى أن العبد ينبغي أن يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى.

وقيل: إنه سر استأثر الله بعلمه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلمهم أرادوا أنها أسرار بين الله تعالى ورسوله ورموز لم يقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد. فإن جعلتها أسماء الله تعالى، أو القرآن، أو السور كان لها حظ من الإعراب إما الرفع على الابتداء، أو الخبر، أو النصب بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلن بالنصب أو غيره كما ذكر، أو الجر على إضمار حرف القسم، ويتأتى الإعراب لفظاً والحكاية فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحم فإنها كهابيل، والحكاية ليست إلا فيما عدا ذلك، وسيعود إليك ذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى، وإن أبقيتها على معانيها فإن قدرت بالمؤلف من هذه الحروف كان في حيز الرفع بالابتداء أو الخبر على ما مر، وإن جعلتها مقسماً بها يكون كل كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلن، وتكون جملة قسمية بالفعل المقدر له، وإن جعلتها أبعاض كلمات أو أصواتاً منزلة منزلة حروف التنبيه لم يكن لها محل من الإعراب كالجمل المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقف عليها وقف التمام إذا قدرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها، وليس شيء منها آية عند غير الكوفيين. وأما عندهم فـ ﴿الْم﴾ في مواقعها، و ﴿الْمَصَّ﴾ و ﴿كَهَيْصَ﴾ و ﴿طِهْ﴾ و ﴿طَسَمَ﴾ و ﴿طَسَّ﴾ و ﴿يَسَّ﴾ و ﴿حَمَّ﴾ آية، و ﴿حَمَّ عَسَقَ﴾ آيتان، والبواقي ليست بآيات وهذا توقف لا مجال للقياس فيه.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٢)

﴿ذلك الكتاب﴾ ذلك إشارة إلى ﴿الْم﴾ إن أول المؤلف من هذه الحروف أو فسر بالسورة أو القرآن فإنه لما تكلم به وتقصي، أو وصل من المرسل إلى المرسل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يشار به إلى البعيد

وتذكيره، متى أريد بـ ﴿الْم﴾ السورة لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى الكتاب فيكون صفته والمراد به الكتاب الموعود إنزاله بنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾. أو في الكتب المتقدمة. وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل فعال بمعنى المفعول كاللباس، ثم أطلق على المنظوم عبارة قبل أن يكتب لأنه مما يكتب. وأصل الكتب الجمع ومنه الكتبية.

﴿لا ريب فيه﴾ معناه أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتاب العاقل بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز، لا أن أحداً لا يرتاب فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وإن كُنتُمْ في ريب مما نزلنا على عَبْدِنَا﴾. الآية فإنه ما أبعد عنهم الريب بل عرفهم الطريق المريح له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجم من نجومه ويبدلوا فيها غاية جهدهم حتى إذا عجزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين. وهدي حال من الضمير المجرور، والعامل فيه الظرف الواقع صفة للمتقي. والريب في الأصل مصدر رابى الشيء إذا حصل فيك الريبة، وهي قلق النفس واضطرابها، سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة، ومنه ريب الزمان لنوائبه.

﴿هدي للمتقين﴾ يهديهم إلى الحق، والهدى في الأصل مصدر كالسرى والتقى ومعناه الدلالة.

وقيل: الدلالة الموصلة إلى البغية لأنه جعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولأنه لا يقال مهدي إلا لمن اهتدى إلى المطلوب. واختصاصه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمتنفعون بنصه، وإن كانت دلالة عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾. أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صقل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات، وتعرف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً ما لم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. ولا يقدر ما فيه من المجمال والمثابه في كونه هدى لما لم ينفك عن بيان يعين المراد منه.

والمتقي أسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية: فرط الصيانة. وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾.

الثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾.

الثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشرائره وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وقد فسر قوله: ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة.

واعلم أن الآية تحتل أوجهاً من الإعراب: أن يكون ﴿الْم﴾ مبتدأ على أنه اسم للقرآن. أو السورة. أو مقدر بالمؤلف منها، وذلك خبره وإن كان أخص من المؤلف مطلقاً، والأصل أن الأخص لا يحمل على الأعم لأن المراد به المؤلف الكامل في تأليفه البالغ أقصى درجات الفصاحة ومراتب البلاغة والكتاب صفة ذلك.

وأن يكون ﴿الْم﴾ خبر مبتدأ محذوف و﴿ذلك﴾ خبراً ثانياً. أو بدلاً و﴿الكتاب﴾ صفته، و﴿لا ريب﴾ في المشهورة مبني لتضمنه معنى من منصوب المحل على أنه اسم لا نافية للجنس العاملة عمل إن، لأنها

نقيضتها ولازمة للأسماء لزومها. وفي قراءة أبي الشعثاء مرفوع بلا التي بمعنى ليس وفيه خبره ولم يقدم كما قدم في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ لأنه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمة، أو صفته وللمتقين خبره. وهدي نصب على الحال، أو الخبر محذوف كما في ﴿لَا ضِيرَ﴾، فلذلك وقف على ﴿لَا ريبَ﴾، على أن فيه خبر هدى قدم عليه لتكثيره والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ و ﴿الكتاب﴾ خبره على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، أو صفته وما بعده خبره والجملة خبر ﴿الآم﴾.

والأولى أن يقال إنها أربع جمل متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يدخل العاطف بينها. فـ ﴿الآم﴾، جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم، و ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية مقررة لجهة التحدي، و ﴿لَا ريب فيه﴾، جملة ثالثة تشهد على كماله بأن الكتاب المنعوت بغاية الكمال إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين. و ﴿هدى للمتقين﴾، بما يقدر له مبتدأ جملة رابعة تؤكد كونه حقاً لا يحوم الشك حوله بأنه ﴿هدى للمتقين﴾، أو تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول، وبيانه أنه لما نبه أولاً على إعجاز المتحدى به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته، استنتج منه أنه الكتاب البالغ حد الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبه الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة ﴿هدى للمتقين﴾، وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إيهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة وإيراده منكراً للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية تسمية المشارف للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ﴾.

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة مقيدة له إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مرتبة عليه ترتيب التحلية على التخلية، والتصوير على التصقيل. أو موصلة إن فسر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتعبة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قطرة الإسلام». أو مسوقة للمدح بما تضمنه المتقين. وتخصيص الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهار لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء وخبره أولئك على هدى، فيكون الوقف على المتقين تاماً.

والإيمان في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذ من الأمن، كأن المصدق آمن النبوة والبعث والجزاء والمخالفة، وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث إن الواصل بالشيء صار ذا أمن منه، ومنه ما أمنت أن أجد صحابة وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ومجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج. فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخل بالإقرار فكافر، ومن أخل بالعمل ففاسق وفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة، والذي يدل على أنه التصديق وحده أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾، «وقلبه مطمئن بالإيمان»،

﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وعطف عليه العمل الصالح في مواضع لا تحصى وقرنه بالمعاصي فقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ مع ما فيه من قلة التغيير فإنه أقرب إلى الأصل وهو متعين الإرادة في الآية، إذ المعدى بالبلاء هو التصديق وفاقاً. ثم اختلف في أن مجرد التصديق بالقلب هل هو كاف لأنه المقصود أم لا بد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه، ولعل الحق هو الثاني لأنه تعالى ذم المعاند أكثر من ذم الجاهل المقصر، وللمانع أن يجعل الذم للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه.

والغيب مصدر، وصف به للمبالغة كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ والعرب تسمي المطمئن من الأرض والخمصة التي تلي الكلية غيباً، أو فيعمل خفف كقيل، والمراد به الخفي الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهية العقل، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وقسم نصب موقع عليه دليل: كالصانع وصفاته واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية، هذا إذا جعلته صلة للإيمان وأوقعته موقع المفعول به. وإن جعلته حالاً على تقدير ملتبسين بالغيب كان بمعنى الغيبة والخفاء. والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمنافقين الذين إذا ﴿لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. أو عن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية. وقيل المراد بالغيب: القلب لأنه مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. فالباء على الأول للتعدي. وعلى الثاني للمصاحبة. وعلى الثالث للآلة.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يعدلون أركانها ويحفظونها من أن يقع زيغ في أفعالها، من أقام العود إذا قوم أو يواظبون عليها، من قامت السوق إذا نفقت وأقمته إذا جعلتها نافقة قال:

أقامت غزالةً سوقَ الضُّرابِ لأهلِ العِراقِ حِوْلاً قَومِيطاً

فإنه إذا حووظ عليها كانت كالنافق الذي يرغب فيه، وإذا ضيعت كانت كالكاسد المرغوب عنه، أو يتشمترون لأدائها من غير فتور ولا توان، من قولهم قام بالأمر وأقامه إذا جد فيه وتجلد، وضده قعد عن الأمر، وتقاعد. أو يؤدونها. عبر عن الأداء بالإقامة لاشتغالها على القيام، كما عبر عنها بالقنوت والركوع والسجود والتسبيح. والأول أظهر لأنه أشهر وإلى الحقيقة أقرب، وأفيد لتضمنه التنبيه على أن التحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولذلك ذكر في سياق المدح والمقيمين الصلاة، وفي معرض الذم فويل للمصلين، والصلاة فعلة من صلى إذا دعا كالزكاة من زكى، كتبنا بالواو على لفظ المفخم، وإنما سمي الفعل المخصوص بها لاشتماله على الدعاء.

وقيل: أضل صلى حرك الصلوتين لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهار هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتغاره في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مصلياً تشبيهاً له في تخشعه بالراكم الساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: الحظ قال تعالى: ﴿وَتَجَمَّلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾. والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه.

وأما المعتزلة لما استحالوا على الله تعالى أن يمكن من الحرام لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه، قالوا: الحرام ليس برزق، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلى نفسه إيداناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق. فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وذم المشركين على تحريم بعض ما رزقهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ

ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً». وأصحابنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريض على الإنفاق، والذم لتحريم ما لم يحرم. واختصاص ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسكوا لشمول الرزق له بقوله ﷺ في حديث عمرو بن قرة: «لقد رزقك الله طيباً فاخترت ما حرم الله عليك من رزقه مكان ما أحل الله لك من حلاله». ويأنه لو لم يكن رزقاً لم يكن المتغذي به طول عمره مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

وأنفق الشيء وأنفده أخوان، ولو استقرت الألفاظ وجدت كل ما فاؤه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج، والظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير من الفرض والنفل. ومن فسرهُ بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه، أو خصصه بها لاقتراحه بما هو شقيقها. وتقديم المفعول للاهتمام به وللمحافظة على رؤوس الآي، وإدخال من التبعية عليه لمنع المكلف عن الإسراف المنهي عنه. ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعاون التي أتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنْ عَلِمَا لَا يُقَالُ بِهِ، كَكَتَرُ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ». وإليه ذهب من قال: ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنوا أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه وأضرابه، معطوفون على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخصين تحت أعم، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار، وبهؤلاء مقابلوهم فكانت الآيتان تفصيلاً ﴿للمتقين﴾، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو على المتقين وكأنه قال ﴿هدى للمتقين﴾ عن الشرك، والذين آمنوا من أهل الملل. ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم، ووسط العاطف كما وسط في قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقوله:

يا لهف ذوبة للحارث الصائح فالغنام فالأب

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جملة والإتيان بما يصدق من العبادات البدنية والمالية وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصول تنبيهاً على تغاير القبيلين وتباين السبيلين. أو طائفة منهم وهم مؤمنوا أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم.

والإنزال نقل الشيء من الأعلى إلى الأسفل وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها، ولعل نزول الكتب الإلهية على الرسل بأن يلتقطه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً، أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به فيبلغه إلى الرسول. والمراد ﴿بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن بأسره والشرعة عن آخرها، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقباً تغليفاً للموجود على ما لم يوجد. أو تنزيلاً للمتنظر منزلة الواقع، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُسَوِّمَ﴾. فإن الجن لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنْزَلاً حينئذ. وبما ﴿أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمان بها جملة فرض عين، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية. لأن وجوبه على كل أحد يوجب الحرج وفساد المعاش.

﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً

أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، واختلافهم في نعيم الجنة: أهو من جنس نعيم الدنيا أو غيره؟ وفي دوامه وانقطاعه، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هم تعريض لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق ولا صادر عن إيقان. واليقين: إتيان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصف به علم الباري، ولا العلوم الضرورية. والآخرة تأنيث الآخر، صفة الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة﴾ فغلبت كالدنيا، وعن نافع أنه خففها بحذف الهمزة إلقاء حركتها على اللام، وقرأ «يوقنون» بقلب الواو همزة لضم ما قبلها إجراء لها مجرى المضمومة في وجوه ووقت ونظيره:

لَحَبِّ الْمُؤَقَّدِ إِنْ إِلَى مُؤَسَى وَجَعَدَ إِذْ أَضَاءَ هُمَا الْوَقُودُ

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ الجملة في محل الرفع إن جعل أحد الموصولين مفعولاً عن المتقين خبر له، فكأنه لما قيل ﴿هدى للمتقين﴾ قيل ما بالهم خصوا بذلك؟ فأجيب بقوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ إلى آخر الآيات. وإلا فاستئناف لا محل لها، فكأنه نتيجة الأحكام والصفات المتقدمة. أو جواب سائل قال: ما للموصوفين بهذه الصفات اختصوا بالهدى؟ ونظيره أحسنت إلى زيد صديقك القديم حقيق بالإحسان، فإن اسم الإشارة ههنا كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة، وهو أبلغ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقتضى وتلخيصه، فإن ترتب الحكم على الوصف إيدان بأنه الموجب له. ومعنى الاستعلاء في ﴿على هدى﴾ تمثيل تمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه بحال من اعتلى الشيء وركبه، وقد صرحوا به في قولهم: امتطى الجهل وغوى واقتعد غارب الهوى، وذلك إنما يحصل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نصب من الحجج والمواظبة على محاسبة النفس في العمل. ونُكِّرَ هدىً للتعظيم. فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره، ونظيره قول الهذلي:

فلا وأبي الطير المريرة بالضحى على خالدٍ لقد وقفت على لحم

وأكد تعظيمه بأن الله تعالى مآخذه والموفق له، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة.

﴿وأولئك هم المفلحون﴾ كرر فيه اسم الإشارة تنبيهاً على أن اتصافهم بتلك الصفات يقتضي كل واحدة من الأثرين وإن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم، ووسط العاطف لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾، فإن التسجيل بالغفلة والتشبيه بالبهائم شيء واحد فكانت الجملة الثانية مقررة للأولى فلا تناسب العطف. وهم: فصل يفصل الخبر عن الصفة ويؤكد النسبة، ويفيد اختصاص المسند إليه، أو مبتدأ والمفلحون خبره والجملة خبر أولئك. والمفلح بالحاء والعجم: الفائز بالمطلوب، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر، وهذا التركيب وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشق. والفتح وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة. أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوبياتهم.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله كل أحد من وجوه شتى، وبناء الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز وتكريره وتعريف الخبر وتوسيط الفصل، لإظهار قدرهم والترغيب في اقتفاء أثرهم، وقد تشبث به الوعيدية في خلود الفساق من أهل القبلة في العذاب، ورد بأن المراد بالمفلحين الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم، لا عدم الفلاح له رأساً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما ذكر خاصة عباده، وخلاصة أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح، عقبهم بأضدادهم العتاة المردة، الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآيات والنذر، ولم يعطف قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ لتباينهما في الغرض، فإن الأولى سبقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقة لشرح تمردهم، وانهماكهم في الضلال، و (إن) من الحروف التي تشابه الفعل في عدد الحروف والبناء على الفتح ولزوم الأسماء وإعطاء معانيه، والمتعدي خاصة في دخولها على اسمين. ولذلك أعملت عمله الفرعي وهو نصب الجزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيل فيه.

وقال الكوفيون: الخبر قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية، وهي بعد باقية مقتضية للرفع قضية للاستصحاب فلا يرفعه الحرف. وأجيب بأن اقتضاء الخبرية الرفع مشروط بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعمال الحرف. وفائدتها تأكيد النسبة وتحقيقها، ولذلك يُتَلَقَّى بها القَسَم ويصدر بها الأجوبة، وتذكر في معرض الشك مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكْنُؤُهُ فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال المبرد (قولك: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وإن عبد الله قائم، جواب سائل عن قيامه، وإن عبد الله لقائم، جواب منكر لقيامه). وتعريف الموصول: إما للعهد، والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأحبار اليهود. أو للجنس، متناولاً من صمم على الكفر، وغيرهم. فخص منهم غير المصريين بما أسند إليه. والكفر لغة: ستر النعمة، وأصله الكُفْر بالفتح وهو الستر، ومنه قيل للزراع وللليل كافر، ولكمام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ به، وإنما عدَّ لبس الغيار وشذ الزنار ونحوهما كفراً لأنها تدل على التكذيب، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترئ عليها ظاهراً لا لأنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقة المخبر عنه، وأجيب بأنه مقتضى التعلق وحدثه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ خبر إن وسواء اسم بمعنى الاستواء، نعت به كما نعت بالمصادر قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ رفع بأنه خبر إن وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارك وعدمه سيان عليهم، والفعل إنما يمتنع الإخبار عنه إذا أريد به تمام ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ، أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسناد إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقولهم: تَسْمَعُ بِالْمَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ.

وإنما عدل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد وحسن دخول الهمزة، وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء، كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذار: التخويف أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس، من حيث إن دفع الضر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى، وقرئ ﴿أُنذِرْتَهُمْ﴾ بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بين بين، وقلبها ألفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تقلب، ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، ويتوسط ألف بينهما محققتين، ويتوسطها والثانية بين بين ويحذف الاستفهامية، ويحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها أو حال مؤكدة. أو بدل عنه. أو خبر إن والجملة قبلها اعتراض بما هو علة الحكم.

والآية مما احتج به من جوز تكليف ما لا يطاق، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبره كذباً. وشمل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمع الضدان، والحق أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيث إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال، لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبار بوقوع الشيء أو عدمه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره، وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجع إلزام الحجة، وحياسة الرسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال ﴿سواء عليهم﴾ ولم يقل سواء عليك. كما قال لعبدة الأصنام ﴿سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾. وفي الآية إخبار بالغيب على ما هو به إن أريد بالموصول أشخاص بأعيانهم فهي من المعجزات.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧)

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ تعليل للحكم السابق وبيان لما يقتضيه. والختم الكتم، سمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه لأنه كتم له والبلوغ آخره نظراً إلى أنه آخر فعل يفعل في إحرازه. والغشاة: فعالة من غشاها إذا غطاه، بنيت لما يشتمل على الشيء، كالعصابة والعمامة ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباح الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق، وأسماعهم تعاف استماعه فتصير كأنها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لا تجتلي الآيات المنصوبة لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصير كأنها غُطِّي عليها. وحيل بينها وبين الإبصار، وسماه على الاستعارة ختماً وتغشية. أو مثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ختماً وتغشية، وقد عبر عن إحداث هذه الهيئة بالطبع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾. وبالاغفال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾، وبالإقساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندة إلى الله تعالى واقعة بقدرته أسندت إليه ومن حيث إنها مسببة مما اقترفوه بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وردت الآية ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم. واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل:

الأول: أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم، شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه.

الثاني: أن المراد به تمثيل حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن. أو قلوب مقدر ختم الله عليها، ونظيره: سال به الوادي إذا هلك. وطارت به العققاء إذا طالت غيبته.

الثالث: أن ذلك في الحقيقة فعل الشيطان أو الكافر، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أسند إليه إسناد الفعل إلى المسبب.

الرابع: أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبق طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يقسرهم إبقاء على غرض التكليف، عبر عن تركه بالختم فإنه سد لإيمانهم. وفيه إشعار على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي.

الخامس: أن يكون حكاية لما كانت الكفرة يقولون مثل: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ تهكماً واستهزاء بهم كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

السادس: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحقيقه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبِكُمَا وَصَمَّا﴾.

السابع: أن المراد بالختم وَشَمُّ قُلُوبِهِمْ بسمَةِ تعرفها الملائكة، فيغضونهم وينفرون عنهم، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما.

و ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ وللوفاق على الوقف عليه، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جعل ما يمنعهما من خاص فعلهما الختم الذي يمنع من جميع الجهات، وإدراك الأبصار لما اختص بجهة المقابلة جعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة، وكرر الجار ليكون أدل على شدة الختم في الموضعين واستقلال كل منهما بالحكم. ووجد السمع للأمن من اللبس واعتبار الأصل، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تجمع. أو على تقدير مضاف مثل وعلى حواس سمعهم.

والأبصار جمع بصر وهو: إدراك العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة، وعلى العضو وكذا السمع، ولعل المراد بهما في الآية العضو لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية، وبالقلم ما هو محل العلم وقد يطلق ويراد به العقل والمعرفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾. وإنما جاز إمالتها مع الصاد لأن الرءاء المكسورة تغلب المستعيلة لما فيها من التكرير. وغشاوة رفع بالابتداء عند سيويوه، وبالجار والمجرور عند الأخفش، ويؤيده العطف على الجملة الفعلية. وقرئ بالنصب على تقدير، وجعل على أبصارهم غشاوة، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى: وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرئ بالضم والرفع، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. و«غشوة» بالكسر مرفوعة، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة و«غشاوة» بالعين الغير المعجمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد وبيان لما يستحقونه. والعذاب كالنكال بناء، ومعنى تقول: عذب عن الشيء ونكل عنه إذا أمسك، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ويردعه ولذلك سمي نقاحاً وفراتاً، ثم اتسع فأطلق على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً، أي: عقاباً يردع الجاني عن المعاودة فهو أعم منهما. وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كالتقذية والتمريض. والعظيم نقيض الحقيق، والكبير نقيض الصغير، فكما أن الحقيق دون الصغير، فالعظيم فوق الكبير، ومعنى التوصيف به أنه إذا قيس بسائر ما يجانسه قصر عنه جميعه وحقر بالإضافة إليه ومعنى التنكير في الآية أن على أبصارهم نوع غشاوة ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه، ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفئة رأساً، ثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاء، ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزاء بهم، وتهكم بأفعالهم وسجل على عملهم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وقصتهم عن آخرها معطوفة على قصة المضرين.

والناس أصله أناس لقولهم: إنسان وأنس وأناسي فحذفت الهمزة حذفتها في لوقه وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجْمَع بينهما. وقوله:

إِنَّ الْمَنِيَا يَطْلُبْنَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَمْنِيَّةَ

شاذ. وهو اسم جمع كرجال، إذ لم يثبت فعال في أبنية الجمع. مأخوذ من أنس لأنهم يستأنسون بأمثالهم. أو آنس لأنهم ظاهرون مبصرون، ولذلك سمووا بشراً كما سمي الجن جنّاً لاجتماعهم. واللام فيه للجنس، ومن موصوفة إذ لا عهد فكأنه قال: ومن الناس ناسٌ يقولون. أو للعهد والمعهود: هم الذين كفروا، ومن موصولة مراد بها ابن أبي وأصحابه ونظراؤه، فإنهم من حيث إنهم صمموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم، واختصاصهم بزيادات زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس، فإن الأجناس إنما تتنوع بزيادات يختلف فيها أعضائها فعلى هذا تكون الآية تقسيماً للقسم الثاني.

واختصاص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر، تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاء بأنهم احتازوا الإيمان من جانبيه وأحاطوا بقطريه، وإيدان بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يقصدون به النفاق، لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً كلاً إيمان، لاعتقادهم التشبيه واتخاذ الولد، وأن الجنة لا يدخلها غيرهم، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة وغيرها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مثل إيمانهم. وبيان لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم، لأن ما قالوه لو صدر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتهم عقيدتهم لم يكن إيماناً، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم. وفي تكرار الباء ادعاء الإيمان بكل واحد على الأصالة والاستحكام.

والقول هو التلفظ بما يفيد، ويقال بمعنى المقول، وللمعنى المتصور في النفس المعبر عنه باللفظ وللرأي والمذهب مجازاً. والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا ينتهي. أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة.

﴿وما هم بمؤمنين﴾ إنكار ما ادعوه ونفي ما انتحلوا إثباته، وكان أصله وما آمنوا ليطابق قولهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عكس تأكيداً. أو مبالغة في التكذيب، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان، ولذلك أكد النفي بالباء وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويحتمل أن يقيد بما قيدوا به لأنه جوابه.

والآية تدل على أن من ادعى الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقه أو ينافيه لم يكن مؤمناً. والخلاف مع الكرامية في الثاني فلا ينهض حجة عليهم.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ الخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو فيه، وعما هو بصدده من قولهم: خدع الضب. إذ توارى في جحره، وضب خادع وخدع إذا أوهم الحارث إقباله عليه، ثم خرج من باب آخر وأصله الإخفاء ومنه المخدع للخزانة، والأخدعان لعرقين خفيين في العنق، والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره لأنه لا تُخْفَى عليه خافية، ولأنهم لم يقصدوا خديعته. بل المراد إما مخادعة رسوله على حذف المضاف، أو على أن معاملة الرسول معاملة الله من حيث إنه خليفته كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾. وإما أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطان الكفر، وصنع الله معهم بإجراء أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبث الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار، استدراجاً لهم وامتنال الرسول ﷺ والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم، وإجراء حكم الإسلام عليهم مجازاة لهم بمثل صنيعهم صورة صنيع المتخادعين. ويحتمل أن يراد بـ ﴿يخادعون﴾ يخدعون لأنه بيان ليقول، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه، إلا أنه أخرج

في زنة قَاعَلٍ للمغالبة، فإن الزنة لما كانت للمغالبة والفعل متى غلب فيه، كان أبلغ منه إذا جاء بلا مقابلة معارض ومبار استصحب ذلك، ويعضده قراءة من قرأ ﴿يُخَدَعُونَ﴾. وكان غرضهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم ما يطرق به من سواهم من الكفرة، وأن يفعل بهم ما يفعل بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابذهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد.

﴿وما يخادعون إلا أنفسهم﴾ قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. والمعنى: أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررها يحيق بهم. أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لما غروها بذلك. وخدعتهم أنفسهم حيث حدثتهم بالأمانى الفارغة وحملتهم على مخادعة من لا تخفى عليه خافية.

وقرأ الباقر ﴿وما يخدعون﴾، لأن المخادعة لا تتصور إلا بين اثنين وقرئ و «يخدعون» من خدع و«يخدعون» بمعنى يختدعون و «يخدعون» و «يخادعون» على البناء للمفعول، ونصب أنفسهم بنزع الخافض، والنفس ذات الشيء وحقيقتها، ثم قيل للروح لأن نفس الحي به، وللقلب لأنه محل الروح أو متعلقه، وللدن لأن قوامها به، وللماء لفرط حاجتها إليه، وللرأي في قولهم فلان يؤامر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتاً تأمره وتشير عليه. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها على أرواحهم وآرائهم.

﴿وما يشعرون﴾ لا يحسون لذلك لتماذي غفلتهم. جعل لحوق وبال الخداع ورجوع ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس. والشعور: الإحساس، ومشاعر الإنسان حواسه، وأصله الشعر ومنه الشعار.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ المرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله. ومجاز في الأعراض النفسانية التي تخل بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي، لأنها مانعة من نيل الفضائل، أو مؤدية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآية الكريمة تحتملها فإن قلوبهم كانت متألمة تحرقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسهم كانت موصوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطبع. أو بازدياد التكاليف وتكرير الوحي وتضاعف النصر، وكان إسناد الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه مسبب من فعله وإسنادها إلى السورة في قوله تعالى ﴿فزادتهم رجساً﴾ لكونها سبباً.

ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخل قلوبهم من الجبن والخور حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمداد الله تعالى لهم بالملائكة، وقذف الرعب في قلوبهم وبزيادته تضعيفه بما زاد لرسول الله ﷺ نصرة على الأعداء وتبسطاً في البلاد.

﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم يقال: ألم فهو أليم كوجع فهو وجيع، وصف به العذاب للمبالغة كقوله:

تَحِيَةً بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

على طريقة قولهم: جد جده. ﴿بما كانوا يَكْذِبُونَ﴾ قرأها عاصم وحمره والكسائي، والمعنى بسبب كذبهم، أو ببدله جزاء لهم وهو قولهم آمنا. وقرأ الباقر ﴿يَكْذِبُونَ﴾، من كذبه لأنهم كانوا يكذبون الرسول عليه الصلاة والسلام بقلوبهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم. أو من كذب الذي هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشيء وموتت البهائم. أو من كذب الوحشي إذا جرى شوطاً وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متحير متردد. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به. وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب حيث

رتب عليه. وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات، فالمراد التعريض. ولكن لما شابه الكذب في صورته سمي به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطف على «يكذبون» أو «يقولون». وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعد فعله أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط، بل وسيكون من بعد من حاله حالهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها. والفساد: خروج الشيء عن الاعتدال. والصلاح ضده وكلاهما يعمان كل ضار ونافع.

وكان من فسادهم في الأرض هنج الحروب والفتن بمخادعة المسلمين، وممالة الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحرث.

ومنه إظهار المعاصي والإهانة بالدين فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج ويخل بنظام العالم. والقاتل هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعض المؤمنين. وقرأ الكسائي وهشام (قيل) بإشمام الضم الأول.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جواب لـ ﴿إِذَا﴾ رد للناصح على سبيل المبالغة، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح، وإن حالنا متمحضة عن شوائب الفساد، لأن (إنما) تفيد قصر ما دخلت عليه على ما بعده. مثل: إنما زيد منطلق، وإنما ينطلق زيد، وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَقْمِنَ زَيْنٌ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢)

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ رد لما ادعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد: (ألا) المنبهة على تحقيق ما بعدها، فإن همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت على النفي أفادت تحقيقاً، ونظيره (أليس ذلك بقادر)، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بما يتلقى به القسم، وأختها أما التي هي من طلائع القسم: وإن المقررة للنسبة، وتعريف الخبر وتوسيط الفصل لرد ما في قولهم (إنما نحن مصلحون) من التعريض للمؤمنين، والاستدراك بـ «لا يشعرون».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ من تمام النصح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراض عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله: «لا تفسدوا»، والإتيان بما ينبغي وهو المطلوب بقوله: «آمنوا».

﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ في حيز النصب على المصدر، وما مصدريه أو كافة مثلها في ربما، واللام في الناس للجنس والمراد به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل، فإن اسم الجنس كما يستعمل لسماءه مطلقاً يستعمل لما يستجمع المعاني المخصوصة به والمقصودة منه، ولذلك يسلب عن غيره فيقال: زيد ليس بإنسان، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿ضُمُّكُمْ عَمِّي﴾ ونحوه وقد جمعهما الشاعر في قوله:

إِذَا النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ

أو للعهد، والمراد به الرسول ﷺ ومن معه. أو من آمن من أهل جلدتهم كابن سلام وأصحابه،

والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم، واستدل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يقد التقييد.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الهمزة فيه للإنكار، واللام مشار بها إلى الناس، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم، وإنما سَفَهُوْهُم لاعتقادهم فساد رأيهم، أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالى: كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فسر الناس بعبد الله بن سلام وأشياعه. والسفه: خفة وسخافة رأي يقتضيهما نقصان العقل، والحلم يقابله.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ رد ومبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالة وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله، فإنه ربما يعذر وتنفعه الآيات والنذر، وإنما فصلت الآية بـ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ والتي قبلها بـ ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه أكثر طباقاً لذكر السفه، ولأن الوقوف على أمر الدين والتمييز بين الحق والباطل مما يفتقر إلى نظر وفكر. وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يدرك بأدنى تفتن وتأمل فيما يُشاهد من أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾

(١٤)

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بيان لمعاملتهم المؤمنين والكفار، وما صدرت به القصة فمساقه لبيان مذهبهم وتمهيد لنفاقهم فليس بتكرير. روي أن ابن أبي وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة، فقال لقومه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عدي الفاروق القوي في دينه، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مرحباً يا ابن عم رسول الله ﷺ وختنه سيد بني هاشم، ما خلا رسول الله ﷺ. فنزلت. واللقاء المصادفة يقال؛ لقيته ولاقيته، إذا صادفته واستقبلته، ومنه ألقيته إذا طرحته فإنك بطرحه جعلته بحيث يلقى.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه. أو من خلاك دَمَّ أي عداك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية. أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمن معنى الإنهاء، والمراد بشياطينهم الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهرون كفرهم، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر. أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم. وجعل سيبويه نونه تارة أصلية على أنه من شطن إذا بعد فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن. وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بطل، ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية، والشياطين بالجملة الإسمية المؤكدة بأنهم قصدوا بالأولى دعوى إحداث الإيمان، وبالثانية تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدق رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا توقع رواج ادعاء الكمال في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ تأكيد لما قبله، لأن المستهزء بالشيء المستخف به مُصِرٌّ على خلافه. أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر. أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لما (قالوا إنا معكم) إن صح ذلك فما بالكم توافقون المؤمنين وتدعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاء السخرية والاستخفاف يقال: هزئت واستهزأت بمعنى كأجبت واستجبت، وأصله الخفة من الهزء وهو القتل السريع يقال: هزأ فلان إذا مات على مكانه، وناقته تهزأ به أي تسرع وتخف.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥).

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم، سمي جزء الاستهزاء باسمه كما سمي جزء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القدر، أو يرجع وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستهزء بهم، أو ينزل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازم الاستهزاء، أو الغرض منه، أو يعاملهم معاملة المستهزء: أما في الدنيا فيلجأ أحكام المسلمين عليهم، واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبأن يفتح لهم وهم في النار باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ وإنما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأن استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعل الله تعالى بهم ولعله لم يقل: الله مستهزء بهم ليطابق قولهم، إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالاً فحلاً ويتجدد حيناً بعد حين، وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ من مد الجيش وأمدّه إذا زاده وقواه، ومنه مددت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسماذ، لا من المد في العمر فإنه يعدى باللام كأملى له. ويدل عليه قراءة ابن كثير (ويمدهم). والمعتزلة لما تعذر عليهم إجراء الكلام على ظاهره قالوا: لما منعهم الله تعالى الطاعة التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم، وسدهم طرق التوفيق على أنفسهم فتزايدت بسببه قلوبهم ريناً وظلمة، تزايد قلوب المؤمنين انشراحاً ونوراً، وأمكن الشيطان من إغوائهم فزادهم طغياناً، أسند ذلك إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى المسبب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لثلاثتهم أن إسناد الفعل إليه على الحقيقة، ومصدق ذلك أنه لما أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي وقال ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾. أو أصله يمد لهم بمعنى يملي لهم ويمد في أعمارهم كي يتنبهوا ويطيعوا، فما زادوا إلا طغياناً وعمهاً، فحذفت اللام وعدى الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾. أو التقدير يمدهم استصلاحاً، وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم. والطغيان بالضم والكسر كلقيان، والطغيان: تجاوز الحد في العتو، والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ﴾. والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، وهو: التحير في الأمر يقال رجل عامه وعمه، وأرض عمها لا منار بها، قال:

أَغْمَى الْهُدَى بِالْجَاهِلِينَ الْعَمَى

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ بِخَبْرَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأعيان، فإن كان أحد العوضين ناضجاً تعين من حيث إنه لا يطلب لعينه أن يكون ثمناً وبذله اشتراء، وإلا فأَي العوضين تصورته بصورة الثمن فبإذله مشتري وأخذه بائع، ولذلك عدت الكلمتان من الأضداد، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلاً به غيره، سواء كان من المعاني أو الأعيان، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بِالْجُمْلَةِ رَأْساً أَزْعَرَا وبِالْثَّنَائِيَا الْوَاضِحَاتِ الدَّرَدَا

وبِالطَّوِيلِ الْعُمَرِ عَمراً جِيدراً كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا

ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى أنهم أخلوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فطر الناس عليها محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها. أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى.

﴿ثُمَّ رَاحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾. ترشيح للمجاز، لَمَّا استعملوا في معاملتهم أتبعه ما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم، ونحوه:

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّسْرَ عَزَّابِنَ دَائِيَةً وَعَشَّشَ فِي وَكْرَتِهِ جَاشَ لَهُ صَدْرِي

والتجارة: طلب الربح بالبيع والشراء. والربح: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي شفاً، وإسناده إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبسها بالفاعل، أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ل طرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبتين لأن رأس مَالِهِمْ كان الفطرة السليمة، والعقل الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم، واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأس مال يتوسلون به إلى درك الحق، ونيل الكمال، فبقوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٧).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقبها بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير، فإنه أوقع في القلب وأقنع للخصم الألد، لأنه يريك المتخيل محققاً والمعقول محسوساً، ولأمر ما أكثر الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء. والمثل في الأصل بمعنى النظير يقال: مَثَلٌ وَمِثْلٌ وَمِثْلٌ كشبه وشبه وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة، ولذلك حوِّظ عليه من التغيير، ثم استعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

والمعنى حالهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً، والذي: بمعنى الذين كما في قوله تعالى: ﴿وَنُحْضِثُهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ إن جعل مرجع الضمير في بنورهم، وإنما جاز ذلك ولم يجرز وضع القائم موضع القائم لأنه غير مقصود بالوصف، بل الجملة التي هي صلته وهو وصلة إلى وصف المعرفة بها لأنه ليس باسم تام بل هو كالجاء منه، فحقه أنه لا يجمع كما لا تجمع أخواتها، ويستوي فيه الواحد والجمع وليس الذين جمعه المصحح، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل، ولكونه مستطالاً بصلته استحق التخفيف، ولذلك بولغ فيه فحذف ياءه ثم كسرت ثم اقتصر على اللام في أسماء الفاعلين والمفعولين، أو قصد به جنس المستوقدين، أو الفوج الذي استوقد. والاستيقاد: طلب الوقود والسعي في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها. واشتقاق النار من: نار ينور نوراً إذا نفر لأن فيها حركة واضطراباً.

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أي: النار، ما حول المستوقد إن جعلتها متعدية، وإلا أمكن أن تكون مسندة إلى ما، والتأنيث لأن ما حوله أشياء وأماكن أو إلى ضمير النار، وما: موصولة في معنى الأمكنة، نصب على الظرف، أو مزيدة، وحوله ظرف وتأليف الحول للدوران. وقيل للعام حول لأنه يدور.

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ جواب لما، والضمير للذي، وجمعه للحمل على المعنى، وعلى هذا إنما قال: ﴿بنورهم﴾ ولم يقل: بنارهم لأنه المراد من أيقادها. أو استئناف أجيب به اعتراض سائل يقول: ما بالهم شبهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره؟ أو بدل من جملة التمثيل على سبيل البيان. والضمير على الوجهين للمنافقين، والجواب محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾ للإيجاز وأمن الالتباس. وإسناد الذهاب

إلى الله تعالى إما لأن الكل بفعله، أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفي، أو أمر سماوي كريح أو مطر، أو للمبالغة ولذلك عدي الفعل بالياء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك، يقال: ذهب السلطان بماله إذا أخذه، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسل له، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ إلى النور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً ألا ترى كيف قرر ذلك وأكد به قوله ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ فذكر الظلمة التي هي عدم النور، وانطماسه بالكلية، وجمعها ونكرها ووصفها بأنها ظلمة خالصة لا يترأى فيها شبحان. وترك في الأصل بمعنى طرح وخلي، وله مفعول واحد فضمن معنى صير، فجرى مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿وتركهم في ظلمات﴾.

وقول الشاعر:

فتركته جزر السباع ينشئه يقضن حسن بنائه والمغصم

والظلمة مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعل كذا، أي ما منعك، لأنها تسد البصر وتمنع الرؤية. وظلماتهم: ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة يوم القيامة ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾. أو ظلمة الضلال، وظلمة سخط الله، وظلمة العقاب السرمدي، أو ظلمة شديدة كأنها ظلمة متراكمة، ومفعول ﴿لا يبصرون﴾ من قبيل المطروح المتروك فكأن الفعل غير متعد.

والآية مثل ضربه الله لمن آتاه ضرباً من الهدى فأضاعه، ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فبقي متحيراً متحسراً، تقريراً وتوضيحاً لما تضمنته الآية الأولى، ويدخل تحت عمومها هؤلاء المنافقون فإنهم أضاعوا ما نطق به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر، وإظهاره حين خلوا إلى شياطينهم، ومن أثر الضلالة على الهدى المجهول له بالفطرة، أو ارتد عن دينه بعدما آمن، ومن صح له أحوال الإرادة فادعى أحوال المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة، أو مثل لإيمانهم من حيث إنه يعود عليهم يحقن الدماء، وسلامة الأموال والأولاد، ومشاركة المسلمين في المغانم. والأحكام بالنار الموقدة للاستضاءة، ولذهاب أثره وانطماس نوره بإهلاكهم وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها.

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعِرفُونَ﴾ (١٨)

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ﴾ لما سدوا مسامعهم عن الإصاغة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ويتبصروا الآيات بأبصارهم، جعلوا كأنما أفت مشاعرهم وانتفت قواهم كقوله:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذَكَرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا
وكقوله:

أَصُمُّ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَأَسْمَعُ خَلْقِ اللَّهِ حِينَ أُرِيدُ
وإطلاقها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يطوي ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينة كقول زهير:

لَدَىٰ أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَدِّفٌ لَّهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمْ
ومن ثم ترى المقلقين السحرة يضربون عن توهم التشبيه صفحاً كما قال أبو تمام الطائي:

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنُّ الْجَهْلُ بِأَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي السَّمَاءِ

وهنا وإن طوى ذكره بحذف المبتدأ لكنه في حكم المنطوق به، ونظيره:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَحَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

هذا إذا جعلت الضمير للمنافقين على أن الآية فذلكت التمثيل ونتيجته، وإن جعلته للمستوقدين، فهي على حقيقتها. والمعنى: أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسهم وانتقصت قواهم. وثلاثتها قرئت بالنصب على الحال من مفعول تركهم. والصمم: أصله صلابة من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء، وصمام القارورة، سمي به فقدان حاسة السمع لأن سببه أن يكون باطن الصماخ مكتنزاً لا تجويف فيه، فيشتمل على هواء يسمع الصوت بتموجه. والكم الخرّس. والعمى: عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة.

﴿فهم لا يرجعون﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه. أو عن الضلالة التي اشتروها، أو فهم متحيرون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون، وإلى حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون. والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم.

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيهِ أَذَانَهُمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١٩).

﴿أو كصيب من السماء﴾ عطف على الذي استوقد أي: كمثل ذوي صيب لقوله: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾ و ﴿أو﴾ في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شك مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾. فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العصيان ومن ذلك قوله: ﴿أو كصيب﴾ ومعناه أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مخير في التمثيل بهما أو بأيهما شئت. والصيب: فيعمل من الصوب، وهو النزول، يقال للمطر وللحباب. قال الشماخ:

وَأَسْحَمَ دَانٍ صَادِقِ الرِّغْدِ صَيْبٍ

وفي الآية يحتملها، وتنكيره لأنه أريد به نوع من المطر شديد. وتعريف السماء للدلالة على أن الغمام مطبق آخذ بأفاق السماء كلها فإن كل أفق منها يسمى سماء كما أن كل طبقة منها سماء، وقال:

وَمِنْ بَسْغِدِ أَرْضٍ بَيْئَتَا وَسْمَاءٍ

أمد به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير، وقيل المراد بالسماء السحاب فاللام تعريف الماهية.

﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ إن أريد بالصيب المطر، فظلماته ظلمة تكاثفه يتتابع القطر، وظلمة غمامه مع ظلمة الليل وجعله مكاناً للرعْد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحدره ملتبسين به. وإن أريد به السحاب، فظلماته سمحته وتطبيقه مع ظلمة الليل. وارتفاعها بالظرف وفاقاً لأنه معتمد على موصوف. والرعْد: صوت يسمع من السحاب. والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد. والبرق ما يلمع من السحاب، من برق الشيء بريقاً، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يجمعاً.

﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ الضمير لأصحاب الصيب وهو وإن حذف لفظه وأقيم الصيب مقامه لكن معناه باق، فيجوز أن يعول عليه كما عول حسان في قوله:

يَسْقُونَ مَن وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يَصْفُقُ بِالرَّحِيْقِ السَّلْسَلِ

حيث ذكر الضمير لأن المعنى ماء بردى، والجملة استئناف فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة واليهول قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك؟ فأجيب بها، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة.

﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون، كقولهم سقاه من الغيمة. والصاعقة قصفة رعد

هائل معها نار لا تمر بشيء إلا أتت عليه، من الصعق وهو شدة الصوت، وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهد، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت، وقرئ من «الصواعق» وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كلا البناءين في التصرف يقال صعق الديك، وخطيب مصقع، وصعقته الصاعقة، وهي في الأصل إما صفة لقصفة الرعد، أو للرعد. والتاء للمبالغة كما في الرواية أو مصدر كالعافية والكاذبة. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ نصب على العلة كقوله:

وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ أَذْخَارُهُ وَأَصْفَحُ عَنْ شَتَمِ اللَّئِيمِ تَكْرُمًا
والموت: زوال الحياة، وقيل عرض يضادها لقوله: ﴿خلق الموت والحياة﴾، وَرَدُّ بَأْنِ الخلق بمعنى التقدير، والاعدام مقدرة.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط، لا يخلصهم الخداع والحيل، والجملة اعتراضية لا محل لها.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول: ما حالهم مع تلك الصواعق؟ وكاد من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعروض سببه لكنه لم يوجد، إما لفقد شرط، أو لوجود مانع وعسى موضوعة لرجائه، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفة بخلاف عسى، وخبرها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً تنبيهاً على أنه المقصود بالقرب من غير أن، لتوكيد القرب بالدلالة على الحال، وقد تدخل عليه حملاً لها على عسى، كما تحمل عليها بالحذف من خبرها لمشاركتها في أصل معنى المقاربة. والخطف الأخذ بسرعة وقرئ (يَخْطِفُ) بكسر الطاء ويخطف على أنه يختطف، فنقلت فتحة التاء إلى الخاء ثم ادغمت في الطاء، ويخطف بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها، ويخطف ويختطف.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتي خفوق البرق، وخفيت؟ فأجيب بذلك. وأضاء إما متعد والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشي أخذه، أو لازم بمعنى، كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره، وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظلم الليل، ويشهد له قراءة أظلم على البناء للمفعول، وقول أبي تمام:

هَمَّا أَظْلَمَا حَالِي ثَمَّةَ أَجْلِيَا ظَلَامِيَهُمَا عَلَنَ وَجْهَ أَمْرَدَ أَشْيَبِ

فإنه وإن كان من المحدثين لكنه من علماء العربية، فلا يبعد أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وإنما قال مع الإضاءة «كلما» ومع الإظلام «إذا» لأنهم حراس على المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها ولا كذلك التوقف. ومعنى (قاموا) وقفوا، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جمد. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارهم بوميض البرق لذهب بهما فحذف المفعول لدلالة الجواب عليه، ولقد تكاثر حذفه في شاء وأراد حتى لا يكاد يذكر إلا في الشيء المستغرب كقوله:

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَمًا لَبَكَيْتُهُ

(ولو) من حروف الشرط، وظاهرها الدلالة على انتفاء الأول لانتهاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازمه، وقرئ: لأذهب بأسماعهم، بزيادة الباء كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾.

وفائدة هذه الشرطية إبداء المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير

الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته وقوله.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتصريح به والتقرير له. والشيء يختص بالموجود، لأنه في الأصل مصدر شاء أطلق بمعنى شاء تارة، وحينئذ يتناول الباري تعالى كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وبمعنى شيء أخرى، أي شيء وجوده وما شاء الله وجوده فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهما على عمومهما بلا مشنوية. والمعتزلة لما قالوا الشيء ما يصح أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه فيعم الممتنع أيضاً، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضعين بدليل العقل.

والقدرة: هو التمكن من إيجاد الشيء. وقيل صفة تقتضي التمكن، وقيل قدرة الإنسان، هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى: عبارة عن نفي العجز عنه، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصف به غير الباري تعالى، واشتقاق القدرة من القدر لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته، أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته. وفيه دليل على أن الحادث حال حدوثه والممكن حال بقاءه مقدوران وأن مقدور العبد مقدور لله تعالى، لأنه شيء وكل شيء مقدور لله تعالى. والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة، وهو أن يشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامات أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ الآية، فإنه تشبيه حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرض منهما تمثيل حال المنافقين من الحيرة والشدة، بما يكابد من انطفأت ناره بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصف وبرق خاطف وخوف من الصواعق. ويمكن جعلهما من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبهها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظَّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ وقول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَأْساً لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

بأن يشبه في الأول: ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الإيمان باستيقاد النار وما انتفعوا به من حقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغير ذلك بإضاعة النار ما حول المستوقدين، وزوال ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإيقائهم في الخسار الدائم، والعذاب السرمد بإطفاء نارهم والذهاب بنورهم. وفي الثاني: أنفسهم بأصحاب الصيب وإيمانهم المخالط بالكفر والخداع بصيب فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعاً في نفسه لكنه لما وجد في هذه الصورة عاد نفعه ضرراً ونفاقهم حذراً عن نكايات المؤمنين، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعل الأصابع في الأذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يرد من قدر الله تعالى شيئاً، ولا يخلص مما يريد بهم من المضار وتحيرهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون، ويدرون بأنهم كلما صادفوا من البرق خفقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تخطف أبصارهم فخطوا خطيئ يسيرة، ثم إذا خفي وفتّر لَمَعَانُهُ بقوا متقيدين لا حراك بهم. وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسان من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصَّيْب الذي به حياة الأرض. وما ارتكبت بها من الشبه المبطله، واعترضت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات. وشبه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة بالبرق، وتصامهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. واهتزازهم لما يلهم لهم من رشد يدركونه، أو رعد تطمح إليه أبصارهم بمشيئهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفهم في الأمر حين تعرض لهم شبهة، أو تعن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار

ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة، وسدوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ لما عدد فرق المكلفين وذكر خواصهم ومصارف أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هزاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. و (يا) حرف وضع لنداء البعيد، وقد ينادي به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد. إما لعظمته كقول الداعي: يا رب، ويا الله، هو أقرب إليه من حبل الوريد. أو لغفلته وسوء فهمه. أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه. وهو مع المنادى جملة مفيدة، لأنه نائب مناب فعل. وأي: جعل وصلة إلى نداء المعرف باللام، فإن إدخال «يا» عليه متعذر لتعذر الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كمثليين وأعطى حكم المنادى وأجري عليه المقصود بالنداء وصفاً موضعاً له، والتزام رفعه إشعاراً بأنه المقصود، وأقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيداً وتعويضاً عما يستحقه، أي من المضاف إليه، وإنما كثر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكل ما نادى الله له عباده من حيث إنها أمور عظام، من حقها أن يتفطنوا إليها، ويقبلوا بقلوبهم عليها، وأكثرهم عنها غافلون، حقيق بأن ينادي له بالأكّد الأبلغ والجموع وأسمائها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد، ويدل عليه صحة الاستثناء منها. أو التأكيد بما يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ واستدلال الصحابة بعمومها شائعاً وذائعاً، فالناس يعم الموجودين وقت النزول لفظاً ومن سيجد، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل، وما روي عن علقمة والحسن أن كل شيء نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فمديني، إن صح رفعه فلا يوجب تخصيصه بالكفار، ولا أمرهم بالعبادة، فإن المأمور به هو القدر المشترك بين بدء العبادة، والزيادة فيها، والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجب تقديمه من المعرفة والإقرار بالصانع، فإن من لوازم وجوب الشيء وجوب ما لا يتم إلا به، وكما أن الحدث لا يمنع وجوب الصلاة، فالكفر لا يمنع وجوب العبادة، بل يجب رفعه والاشتغال بها عقيب. ومن المؤمنين ازديادهم وثباتهم عليها وإنما قال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تنبيهاً على أن الموجب للعبادة هي الربوبية.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة جَرَتْ عليه تعالى للتعظيم والتعليل، ويحتمل التقييد والتوضيح إن خص الخطاب بالمشرّكين، وأريد بالرّب أعم من الرب الحقيقي، والآلهة التي يسمونها أرباباً. والخلق إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصله التقدير يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متناول كل ما يتقدم الإنسان بالذات أو بالزمان. منصوب معطوف على الضمير المنصوب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾. والجملة أَخْرَجَتْ مَخْرَجَ المقرر عندهم، إما لاعترافهم به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُوا اللَّهُ﴾ أو لتمكنهم من العلم به بأدنى نظراً وقرئ «مَنْ قَبْلَكُمْ» على إقحام الموصول الثاني بين الأول وصلته تأكيداً، كما أقحم جرير في قوله:

يا تيم تيم عُدِّي لا أبألكم

تيماً، الثاني بين الأول وما أضيف إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿اعْبُدُوا﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح، المستوجبين جوار الله تعالى. نبه به على أن التقوى تنتهي درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكون ذا خوف

ورجاء قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ﴿يَزُجُّونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾. أو من مفعول ﴿خلقكم﴾ والمعطوف عليه على معنى أنه خلقكم ومن قبلكم في صورة من يرجى منه التقوى لترجح أمره باجتماع أسبابه، وكثرة الدواعي إليه. وغلب المخاطبين على الغائبين في اللفظ، والمعنى على إرادتهم جميعاً. وقيل تعليل للخلق أي خلقكم لكي تتقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وهو ضعيف إذ لم يثبت في اللغة مثله.

والآية تدل على أن الطريق إلى معرفة الله تعالى والعلم بوحدانيته واستحقاقه للعبادة، النظر في صنعه والاستدلال بأفعاله، وأن العبد لا يستحق عبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شكراً لما عدده عليه من النعم السابقة فهو كأجير أخذ الأجر قبل العمل.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ صفة ثانية، أو مدح منصوب، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا وجعل من الأفعال العامة يجيء على ثلاثة أوجه: بمعنى صار، وطفق فلا يتعدى كقوله:

فَقَدْ جَعَلْتُ قُلُوصَ بَنِي سُهَيْلٍ مِنَ الْأَكْوَارِ مَرْتَعًا قَرِيبًا

وبمعنى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وبمعنى صير، ويتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ والتصيير يكون بالفعل تارة، وبالقول أو العقد أخرى. ومعنى جعلها فراشاً أن جعل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء، مع ما في طبعه من الإحاطة بها، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهياة لأن يقدعوا ويناموا عليها كالفرش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كرية شكلها مع عظم حجمها. واتساع جرمها لا تأبى الافتراض عليها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ قبة مضروبة عليكم. والسماء اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد كالدينار والدرهم، وقيل: جمع سماء. والبناء مصدر، سمي به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خباء، ومنه بني على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباء جديداً.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ عطف على (جعل)، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشيته، ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكمياتها على المادة الممتزجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواع الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال، صنائع وحكم يحدد فيها لأولي الأبصار عبراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و ﴿مِنْ﴾ الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحاب فإن ما علاك سماء، أو الفلك فإن المطر يبتدىء من السماء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر. أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرطبة من أعماق الأرض إلى جو الهواء فتتعد سحاباً مائلاً. و ﴿مِنْ﴾ الثانية للتبويض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾ واكتناف المنكرين له أعني ماء ورزقاً كأنه قال: وأنزلنا من السماء بعض الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، وهكذا الواقع إذ لم ينزل من السماء الماء كله، ولا أخرج بالمطر كل الثمرات، ولا جعل كل المرزوق ثماراً. أو للتبيين، ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفاً. وإنما ساغ الثمرات والموضع موضع الكثرة، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه، ويؤيده قراءة من قرأ: «من الثمرة» على التوحيد. أو لأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾

قُرُوءٌ . أو لأنها لما كانت محلاة باللام خرجت عن حد القلة . و **لَكُمْ** صفة رزقاً إن أريد به المرزوق ومفعوله إن أريد به المصدر كأنه قال : رزقاً إياكم .

فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أُنْدَادًا متعلق باعبدوا على أنه نهي معطوف عليه . أو نفي منصوب بإضمار أن جواب له . أو بلعل على أن نصب تجعلوا نصب فاطلع في قوله تعالى : **لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ** إلحاقاً لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجبة ، والمعنى : إن تتقوا لا تجعلوا لله أنداداً ، أو بالذي جعل ، إن استأنفت به على أنه نهي وقع خبراً على تأويل مقول فيه : لا تجعلوا ، والفاء للسببية أدخلت عليه لتضمن المبتدأ معنى الشرط والمعنى : أن من خصكم بهذه النعم الجسام والآيات العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به . والنَّد : المثل المناوئ ، قال جرير :

أَتِيماً تَجْعَلُونَ إِلِيَّ نَدًّا وما تيمم لذي حَسَبٍ نَدِيدًا

من ند يند ندوداً : إذا نفر ، وناددت الرَّجُلَ خالفته ، خصص بالمخالف المماثل في الذات كما خصص المساوي بالمماثل في القدر ، وتسمية ما يعبد المشركون من دون الله (أنداداً) ، وما زعموا أنها تساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفه في أفعاله لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات ، قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله ، وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير ، فنهكم بهم وشنع عليهم بأن جعلوا أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند . ولهذا قال موحد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل :

أَرَبًا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ
تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعًا كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْبَصِيرُ

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ حال من ضمير فلا تجعلوا ، ومفعول تعلمون مطروح ، أي : وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي ، فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم إلى إثبات موجد للمكانات منفرد بوجوب الذات ، متعال عن مشابهة المخلوقات . أو منوي وهو أنها لا تماثل ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى : **هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ** وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والتثريب ، لا تقييد الحكم وقصره عليه ، فإن العالم والجاهل المتمكن من العلم سواء في التكليف .

واعلم إن مضمون الآيتين هو الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى ، والنهي عن الإشراك به تعالى ، والإشارة إلى ما هو العلة والمقتضى . وبيانه أنه رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها ، ثم بين ربوبيته بأنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المقلة والمظلة والمطاعم والملابس ، فإن الثمرة أعم من المطعم ، والرزق أعم من المأكول والمشروب . ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته تعالى ، رتب تعالى عليها النهي عن الإشراك به ، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة مع ما دل عليه الظاهر وسبق فيه الكلام ، الإشارة إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل ، فمثل البدن بالأرض ، والنفس بالسماء ، والعقل بالماء ، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس ، وازدواج القوى النفسانية والبدنية ، بالثمرات المتولدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفوعة بقدرة الفاعل المختار ، فإن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حد مطلقاً .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ لما قرر وحدانيته تعالى وبين الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطق وإفحامه، من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازة والمعاراة، وعرف ما يتعرف به إعجازه ويتيقن أنه من عند الله كما يدعيه. وإنما قال: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ لأن نزوله نجماً منجماً بحسب الوقائع على ما ترى عليه أهل الشعر والخطابة مما يريهم، كما حكى الله عنهم فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾. فكان الواجب تحديدهم على هذا الوجه إزاحة للشبهة والزاماً للحجة، وأضاف العبد إلى نفسه تعالى تنوياً بذكره، وتنبيهاً على أنه مختص به منقاد لحكمه تعالى، وقرئ «عبادنا» يريد محمداً ﷺ وأمه. والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي أفلها ثلاث آيات، وهي إن جعلت واوها أصلية منقولة من سور المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

وَلِرَهْطٍ حَرَابٍ وَقَدْ سُورَةٌ فِي الْمَجْدِ لَيْسَ غَرَابُهَا بِمَطَارٍ

لأن السور كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارئ، أولها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مبدلة من الهمزة فمن السورة التي هي البقية والقطعة من الشيء. والحكمة في تقطيع القرآن سوراً: إفراد الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجاوب النظم، وتنشيط القارئ، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه. فإنه إذا ختم سورة نفّس ذلك عنه، كالسافر إذا علم أنه قطع ميلاً أو طوى بريداً، والحافظ متى حذفها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فعظم ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد.

﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ صفة سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضمير لما نزلنا، و (من) للتبعض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحسن النظم. أو لعبدنا، و (من) للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشراً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلة ﴿فَأْتُوا﴾، والضمير للعبد ﷺ، والرد إلى المنزل أوجه لأنه المطابق لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلام فيه لا في المنزل عليه فحقه أن لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم، ولأن مخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جلدتهم أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت بنحو ما أتى به هذا آخر مثله، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾. ولأن رده إلى عبدنا يوهم إمكان صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يحضر النوادي وتبرم بمحضره الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضره. ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرتب فقليل: زيد دون عمرو أي: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية:

يَا نَفْسُ مَا لَكَ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

أي إذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيك غيره، و ﴿مَنْ﴾ متعلقة بـ ﴿أَدْعُوا﴾. والمعنى ﴿وادعوا﴾ للمعارضة من حضركم، أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وألهتكم غير الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله. أو: ﴿وادعوا﴾ من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله فإنه من ديدن المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. أو بـ ﴿شهادتكم﴾ أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياء وآلهة، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة. أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الأعشى:

ثُرَيْكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونُ

ليعينوكم وفي أمرهم أن يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غاية التبيكيت والتهكم بهم. وقيل: ﴿من دون الله﴾ أي من دون أوليائه، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله، فإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فسادُه وبأن اختلاله.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله. والصدق: الإخبار المطابق، وقيل: مع اعتقاد المخبر أنه كذلك عن دلالة أو أمانة، لأنه تعالى كذب المنافقين في قولهم: ﴿إنك لرسول الله﴾، لما لم يعتقدوا مطابقتها. ورد بصرف التكذيب إلى قولهم ﴿نشهد﴾، لأن الشهادة إخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمر الرسول ﷺ وما جاء به، وميز لهم الحق عن الباطل، رتب عليه ما هو كالفذلكة له، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب، فأمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب، فعبر عن الإتيان المكيف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازاً، ونزل لازم الجزء منزلته على سبيل الكناية تقريراً للمكنى عنه، وتهويلاً لشأن العناد، وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدر الشرطية بأن التي للشك والحال يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفى إتيانهم معترضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم وخطاباً معهم على حسب ظنهم، فإن العجز قبل التأمل لم يكن محققاً عندهم. و ﴿تفعلوا﴾ جزم بـ ﴿لم﴾ لأنها واجبة الأعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيرته ماضياً صارت كالجزء منه، وحرف الشرط كالدخول على المجموع فكانه قال: فإن تركتم الفعل، ولذلك ساغ اجتماعهما. ﴿ولن﴾ كلا في نفي المستقبل غير أنه أبلغ وهو حرف مقتضب عند سيبويه والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى أصله لا أن، وعند الفراء لا فأبدلت ألفها نوناً. والوقود بالفتح ما توقد به النار، وبالضم المصدر وقد جاء المصدر بالفتح قال سيبويه: وسمعنا من يقول وقدت النار وقوداً عالياً، والاسم بالضم ولعله مصدر سمي به كما قيل: فلان فخر قومه وزين بلده، وقد قرئ به والظاهر أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف أي: وقودها احتراق الناس، والحجارة: وهي جمع حجر. كجمالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس، والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾. عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه. أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسره. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها، وعلى هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجه، وقيل: حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطال للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقم لهيها بحيث تتقد بما لا

يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضعفت، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلعله عني به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران. ولما كانت الآية مدنية نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾. وسمعه صح تعريف النار. ووقوع الجملة صلة «بإزائها» فإنها يجب أن تكون قصة معلومة.

﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم. وقرئ: «أعدت» من العتاد بمعنى العدة، والجملة استئناف، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها، وإن جعلته مصدراً للفصل بينهما بالخبر. وفي الآيتين ما يدل على النبوة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد، وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتغالهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته، والتجؤوا إلى جلاء الوطن وبذل المهج.

الثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابين عنه في كل عصر.

الثالث: أنه ﷺ لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافة أن يعارض فتدحض حجته. وقوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ دل على أن النار مخلوقة معدة الآن لهم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ عطف على الجملة السابقة، والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به، وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الإلهية من أن يشفع الترغيب بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي، وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي، لا عطف الفعل نفسه حتى يجب أن يطلب له ما يشاكلة من أمر أو نهى فيعطف عليه أو على فاتقوا، لأنهم إذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازه، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب، ومن آمن به استحق الثواب، وذلك يستدعي أن يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء، وإنما أمر الرسول ﷺ، أو عالم كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم. ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم.

وقرئ «وَبَشِّرِ» على البناء للمفعول عطفاً على أعدت فيكون استئنافاً. والبشارة: الخبر السار فإنه يظهر أثر السرور في البشارة، ولذلك قال الفقهاء البشارة: هي الخبر الأول، حتى لو قال الرجل لعبيده: من بشرني بقدم ولدي فهو حر، فأخبروه فرادى عتق أولهم، ولو قال: من أخبرني، عتقوا جميعاً، وأما قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فعلى التهكم أو على طريقة قوله: تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ.

و «الصالحات» جمع صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرى الأسماء كالحسنة، قال الخطيب:

كَيْفَ الْهِجَاءُ وَمَا تُنْفَكُ صَالِحَةٌ مِنْ آلٍ لَا مَظْهَرَ الْعُغَيْبِ تَأْتِينِي

وهي من الأعمال ما سوغه الشرع وحسنه، وتأنيثها على تأويل الخصلة، أو الخلعة، واللام فيها للجنس، وعطف العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين

والجمع بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أس، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غناء بأس لا بناء عليه، ولذلك قلما ذكرنا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

﴿أن لهم﴾ منصوب بنزع الخافض وإفضاء الفعل إليه، أو مجرور بإضماره مثل: الله لأفعلن. والجنة: المرة من الجن وهو مصدر جنة إذا ستره، ومدار التركيب على السترة، سمي بها الشجر المظلل للاتفاف أغصانه للمبالغة كأنه يستر ما تحته سترة واحدة قال زهير:

كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحفا

أي نخلاً طوالاً، ثم البستان، لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظلمة، ثم دار الثواب لما فيها من الجنان، وقيل: سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أعد فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ وجمعها وتنكيرها لأن الجنان على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليون، وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال. واللام في ﴿لهم﴾ تدل على استحقاقهم إياها، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح، لا لذاته فإنه لا يكافئ النعم السابقة، فضلاً عن أن يقتضي ثواباً وجزاء فيما يستقبل بل يجعل الشارع، ومقتضى وعده تعالى لا على الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ وقوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ وأشباه ذلك، ولعله سبحانه وتعالى لم يقيد ههنا استغناء بها.

﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت أشجارها، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها. وعن مسروق أنهار الجنة تجري في غير أخدود: واللام في ﴿الأنهار﴾ للجنس، كما في قولك لفلان: بستان في الماء الجاري، أو للعهد، والمعهود: هي الأنهار المذكورة في قوله تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية. والنهر بالفتح والسكون: المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، كالنيل والفرات، والتركيب للسعة، والمراد بها ماؤها على الإضمار، أو المجاز، أو المجاري أنفسها. وإسناد الجري إليها مجاز كما في قوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرض أنقالها﴾ الآية.

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا﴾ صفة ثانية لجنات، أو خير مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة. كأنه لما قيل: إن لهم جنات، وقع في خلد السامع أثمارها مثل ثمار الدنيا، أو أجناس أخر فأزيع بذلك، و ﴿كلما﴾ نصب على الظرف، و ﴿رزقا﴾ مفعول به، ومن الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال، وأصل الكلام ومعناه: كل حين رزقوا رزقاً موزقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات، وابتدأه منها بابتدائه من ثمرة فصاحب الحال الأولى رزقاً وصاحب الحال الثانية ضميره المستكن في الحال، ويحتمل أن يكون من ثمرة، بياناً تقدم كما في قولك: رأيت منك أسداً، وهذا إشارة إلى نوع ما رزقوا كقولك مشيراً إلى نهر جار: هذا الماء لا يتقطع، فإنك لا تعني به العين المشاهدة منه، بل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلى عينه، فالمعنى هذا مثل رزقنا ولكن لما استحکم الشبه بينهما جعل ذاته كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة.

﴿من قبل﴾ أي: من قبل هذا في الدنيا، جعل ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يرى، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غيره، ويتبين لها مزيتها وكنه النعمة فيه، إذ لو كان جنساً لم يعهد ظن أنه لا يكون إلا كذلك، أو في الجنة لأن طعامها متشابه في الصورة، كما حكى ابن كثير عن الحسن رضي الله عنهما: (أن أحدهم يؤتى بالصحفة يأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول

ذلك، فيقول الملك: كل فاللون واحد والطعم مختلف). أو كما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصلة إلى فيه، حتى يبذل الله تعالى مكانها مثلها». فلعلهم إذا رأوها على الهيئة الأولى قالوا ذلك، والأول أظهر لمحافظة على عموم **﴿كلما﴾** فإنه يدل على ترديد هذا القول كل مرة رزقوا، والداعي لهم إلى ذلك فرط استغرابهم وتبجحهم بما وجدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابه البليغ في الصورة.

﴿وَأَنَّا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اعتراض يقرر ذلك، والضمير على الأول راجع إلى ما رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل **﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾** ونظيره قوله عز وجل: **﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾** أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق. فإن قيل: التشابه هو التماثل في الصفة، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء. قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناط الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه. هذا: وإن للآية الكريمة محملاً آخر، وهو أن مستلذات أهل الجنة في مقابلة ما رزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات، متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من **﴿هذا الذي رزقنا﴾** أنه ثوابه، ومن تشابههما تماثلهما في الشرف والمزية وعلو الطبقة، فيكون هذا في الوعد نظير قوله: **﴿ذوقوا ما كنتم تعملون﴾** في الوعيد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن، كالحيض والدرن وندس الطبع وسوء الخلق، فإن التطهير يستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقرئ: «مطهرات» وهما لغتان فصيحتان يقال النساء فعلت وفعلن، وهن فاعلة وفواعل، قال:

وَإِذَا الْعَذَارَىٰ بِالدَّخَانِ تَقَشَّعَتْ وَاسْتَعْجَلَتْ نَضَبَ الْقُدُورِ فَمَلَّتْ

فالجمع على اللفظ، والإفراد على تأويل الجماعة، ومطهرة بتشديد الطاء وكسر الهاء بمعنى مطهرة، ومطهرة أبلغ من طاهرة ومطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن وليس هو إلا الله عز وجل. والزوج يقال للذكر والأنثى، وهو في الأصل لما له قرين من جنسه كزوج الخف، فإن قيل: فائدة المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع، وفائدة المنكوح التوالد وحفظ النوع، وهي مستغنى عنها في الجنة. قلت: مطاعم الجنة ومناكحها وسائر أحوالها إنما تشارك نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات، وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل، ولا تشاركها في تمام حقيقتها حتى تستلزم جميع ما يلزمها وتفيد عين فائدتها.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون. والخلد والخلود في الأصل الثبات المديد دام أم لم يدم، ولذلك قيل للأثافي والأحجار خوالد، وللجزء الذي يبقى من الإنسان على حاله ما دام حياً خلد، ولو كان وضعه للدوام كان التقييد بالتأييد في قوله تعالى: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾** لغوا واستعماله حيث لا دوام، كقولهم وقف مخلد، يوجب اشتراكاً، أو مجازاً. والأصل ينفيهما بخلاف ما لو وضع للأعم منه فاستعمل فيه بذلك الاعتبار، كإطلاق الجسم على الإنسان مثل قوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾** لكن المراد به ههنا الدوام عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسنن.

فإن قيل: الأبدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية، معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها في الجنان. قلت: إنه تعالى يعيدها بحيث لا يعثرها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلاً متقاومة في الكيفية، متساوية في القوة لا يقوي شيء منها على إحالة الآخر، متعاقبة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد في بعض المعادن.

هذا وإن قياس ذلك العالم وأحواله على ما نجده ونشاهده من نقص العقل وضعف البصيرة. واعلم أنه

لما كان معظم اللذات الحسية مقصوراً على: المساكن والمطاعم، والمناكح، على ما دل عليه الاستقراء كان ملاك ذلك كله الدوام والثبات، فإن كل نعمة جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم، بشر المؤمنين بها ومثل ما أعد لهم في الآخرة بأبهى ما يستلذ به منها، وأزال عنهم خوف القوات بوعد الخلود ليدل على كمالهم في التمتع والسرور.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ لما كانت الآيات السابقة متضمنة لأنواع من التمثيل، عقب ذلك ببيان حسنه، وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التي تعلق بها التمثيل في العظم والصغر والخسة والشرف دون الممثل، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء، فيمثل الحقيير بالحقيير كما يمثل العظيم بالعظيم، وإن كان المثل أعظم من كل عظيم، كما مثل في الإنجيل غل الصدور بالنخالة، والقلوب القاسية بالحصاة. ومخاطبة السفهاء بإثارة الزنايب. وجاء في كلام العرب: أسمع من قراد وأطيش من فراشة، وأعز من مخ البعوض. لا ما قالت الجهلة من الكفار: لِمَا مثل الله حال المنافقين بحال المستوقدين؟ وأصحاب الصيب وعبادة الأصنام في الوهن والضعف بيت العنكبوت؟ وجعلها أقل من الذباب وأخس قدراً منه؟ الله سبحانه وتعالى أعلى وأجل من أن يضرب الأمثال ويذكر الذباب والعنكبوت. وأيضاً، لِمَا أرشدهم إلى ما يدل على أن المتحدي به وحي منزل؟ ورتب عليه وعيد من كفر به ووعد من آمن به بعد ظهور أمره؟ شرع في جواب ما طعنوا به فيه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحي أن يمثل بها لحقارتها. والحياء: انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم، وهو الوسط بين الوقاحة التي هي الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها، والخجل: الذي هو انحصار النفس عن الفعل مطلقاً. واشتقاقه من الحياة فإنه انكسار يعتري القوة الحيوانية فيردها عن أفعالها فليل: حيي الرجل كما يقال نسي وحشي، إذا اعتلت نساؤه وحشاه. وإذا وصف به الباري تعالى كما جاء في الحديث «إن الله يستحي من ذي الشبهة المسلم أن يعذبه». «إن الله حي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما خيراً» فالمراد به الترك اللازم للانقباض، كما أن المراد من رحمته وغضبه إصابة المعروف والمكروه اللازمين لمعنيهما، ونظيره قول من يصف إبلاً:

إذا ما استحى الماء يغرض نفسه كَرَعَنَ بِسَبَبٍ فِي إِنْاءٍ مِنَ الْوَرْدِ

وإنما عدل به عن الترك، لما فيه من التمثيل والمبالغة، وتحتل الآية خاصة أن يكون مجيئه على المقابلة لما وقع في كلام الكفرة. وضرب المثل اعتماله من ضرب الخاتم، وأصله وقع شيء على آخر، وأن بصلتها مخفوض المحل عند الخليل بإضمار من، منصوب بإفضاء الفعل إليه بعد حذفها عند سيبويه. وما إبهامية تزيد النكرة إبهاماً وشياعاً وتسد عنها طرق التقييد، كقولك أعطني كتاباً ما، أي: أي كتاب كان. أو مزيدة للتأكيد كالتي في قوله تعالى: ﴿فبما رحمة من الله﴾ ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدى وبيان، بل ما لم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة وهو زيادة في الهدى غير قاذح فيه. وبعوضة عطف بيان لمثلاً. أو مفعول ليضرب، ومثلاً حال تقدمت عليه لأنه

نكرة. أو هما مفعولاه لتضمنه معنى الجعل. وقرئت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى هذا يحتمل **﴿ما﴾** وجوهاً آخر: أن تكون موصولة حذف صدر صلتها، كما حذف في قوله: **﴿تماماً على الذي أحسن﴾** وموصوفة بصفة كذلك، ومحلها نصب بالبدلية على الوجهين. واستفهامية هي المبتدأ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده: ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل، بل له أن يمثل بما هو أحقر من ذلك. ونظيره فلان لا يبالي مما يهب ما دينار وديناران. والبعوض: فعول من البعض، وهو القطع كالبضع والعضب، غلب على هذا النوع كالخמוש.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطف على بعوضة، أو ما إن جعل اسماً، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت، كأنه قصد به رد ما استنكروه. والمعنى: أنه لا يستحيي ضرب المثل بالبعوض فضلاً عما هو أكبر منه، أو في المعنى الذي جعلت فيه مثلاً، وهو الصغر والحقارة كجناحها فإنه عليه الصلاة والسلام ضربه مثلاً للدنيا، ونظيره في الاحتمالين ما روي أن رجلاً بمنى خَرَّ على طنب فسقاط فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكه فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة». فإنه يحتمل ما تجاوز الشوكه في الألم كالخزور وما زاد عليها في القلة كنخبة النملة، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياها حتى نخبة النملة».

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط، ولذلك يجاب بالفاء. قال سيبويه: أما زيد فذاهب معناه، مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة، وكان الأصل دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء، لكن كرهوا إيلاءها حرف الشرط فأدخلوها على الخبر، وعوضوا المبتدأ عن الشرط لفظاً، وفي تصديره الجملتين به إحماد لأمر المؤمنين واعتداد بعلمهم، وذم بليغ للكافرين على قولهم، والضمير في **﴿أنه﴾** للمثل، أو لأن يضرب. و **﴿الحق﴾** الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، يعم الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة، من قولهم حق الأمر، إذا ثبت ومنه: ثوب محقق أي: محكم النسيج.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ﴾ كان من حقه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينه ويقابل قسمه، لكن لما كان قولهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه.

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ يحتمل وجهين: أن تكون «ما» استفهامية و «ذا» بمعنى الذي وما بعده صلتها، والمجموع خبر ما. وأن تكون «ما» مع «ذا» اسماً واحداً بمعنى: أي شيء، منصوب المحل على المفعولية مثل ما أراد الله، والأحسن في جوابه الرفع على الأول، والنصب على الثاني، ليطابق الجواب السؤال. والإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غير متصور اتصاف البارئ تعالى به، ولذلك اختلف في معنى إرادته ف قيل: إرادته لأفعاله أنه غير ساه ولا مكروه، ولأفعال غيره أمره بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته، وقيل: علمه باشتغال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصح فإنه يدعو القادر إلى تحصيله، والحق: أنه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر وتخصيصه بوجه دون وجه، أو معنى يوجب هذا الترجيح، وهي أعم من الاختيار فإنه ميل مع تفضيل وفي هذا استحقار واستردال. و **﴿مثلاً﴾** نصب على التمييز، أو الحال كقوله تعالى: **﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾**.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ جواب ماذا، أي: إضلال كثير وإهداء كثير، وضع الفعل موضع المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد، أو بيان للجملتين المصدرتين بإما، وتسجيل بأن العلم بكونه حقاً هدى وبيان، وأن الجهل بوجه إيراده والإنكار لحسن مورده ضلال وفسوق، وكثرة كل واحد من القيلتين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابليهم، فإن المهديين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال كما قال تعالى: **﴿وقليل ما**

هم»، «وقليل من عبادي الشكور» ويحتمل أن يكون كثرة الضالين من حيث العدد، وكثرة المهديين باعتبار الفضل والشرف كما قال:

قَلِيلٌ إِذَا عُذُّوا كَثِيرٌ إِذَا شُدُّوا

وقال:

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قُلُّوا كَمَا غَيْرَهُمْ قَلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» من قولهم: فسقت الرطبة عن قشرها إذا خرجت. وأصل الفسق: الخروج عن القصد قال رؤبة:

فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

والفاسق في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبها أحياناً مستقبحاً إياها.

الثانية: الانهماك وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبال بها.

الثالثة: الجحود وهو أن يرتكبها مستصوباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطى خططه خلع ربة الإيمان من عنقه، ولا بس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يسلب عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمى الإيمان، ولقوله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» والمعتزلة لما قالوا: الإيمان: عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعمل، والكفر تكذيب الحق وجحوده. جعلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام، وتخصيص الإضلال بهم مرتباً على صفة الفسق يدل على أنه الذي أعدهم للإضلال، وأدى بهم إلى الضلال. وذلك لأن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم بالباطل صرفت وجوه أفكارهم عن حكمة المثل إلى حقارة الممثل به، حتى رسخت به جهالتهم وازدادت ضلالتهم فأنكروه واستهزؤوا به. وقرئ (يضل) بالبناء للمفعول و«الفاسقون» بالرفع.

«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾.

«الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ» صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق. والنقض: فسخ التركيب، وأصله في طاقات الحبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث إن العهد يستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإن أطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذكر مع العهد كان رمزاً إلى ما هو من رواده وهو أن العهد حبل في ثبات الوصلة بين المتعاهدين كقولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يفترق منه الناس فإن فيه تنبيهاً على أنه أسد في شجاعته بحر بالنظر إلى إفادته. والعهد: الموثق ووضعه لما من شأنه أن يراعي ويتعهد كالوصية واليمين، ويقال للدار، من حيث إنها تراعي بالرجوع إليها. والتاريخ لأنه يحفظ، وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالة على توحيده وجوب وجوده وصدق رسوله، وعليه أول قوله تعالى: «وأشهدهم على أنفسهم». أو: المأخوذ بالرسول على الأمم، بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه، ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب» ونظائره. وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته، وعهد أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموا.

«مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» الضمير للعهد والميثاق: اسم لما يقع به الوثاقة وهي الاستحكام، والمراد به ما وثق

الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وثقوه به من الالتزام والقبول، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر. و ﴿من﴾ للابتداء فإن ابتداء النقض بعد الميثاق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير. أو تعاطي شر فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل، والأمر هو للقول الطالب للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمر به كما قيل: له شأن وهو الطلب. والقصد يقال: شأنت شأنه، إذا قصدت قصده. و﴿أن يوصل﴾ يحتمل النصب والخفض على أنه بدل من ما، أو ضميره. والثاني أحسن لفظاً ومعنى.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقض بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استخبار فيه إنكار، وتعجب لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها على الطريق البرهاني، فإن صدوره لا ينفك عن حال وصفة فإذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها استلزم ذلك إنكار وجوده، فهو أبلغ وأقوى في إنكار الكفر، من (أنكفرون) وأوفق لما بعده من الحال، والخطاب مع الذين كفروا لما وصفهم بالكفر وسوء المقال وخيب الفعّال، خاطبهم على طريقة الالتفات، وويخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضية خلاف ذلك، والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون.

﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي أجساماً لا حياة لها، عناصر وأغذية، وأخلاقاً ونطقاً، ومضغاً مخلفة وغير مخلفة. ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم، وإنما عطفه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غير متراخ عنه بخلاف البواقي.

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عندما تقضي آجالكم. ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم يتفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الحشر فيجازيكم بأعمالكم. أو تنشرون إليه من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه. فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم، لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون. قلت: تمكنهم من العلم بهما لما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر، سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما وهو: أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولاً قدر على أن يحييهم ثانياً، فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته. أو الخطاب مع القبليين فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة، ووعدهم على الإيمان، وأوعدهم على الكفر، أكد ذلك بأن عدد عليهم النعم العامة والخاصة، واستبجح صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم، فإن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وصلة إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾، كانت من النعم العظيمة

مع أن المعدود عليهم نعمة هو المعنى المنتزع من القصة بأسرها، كما أن الواقع حالاً هو العلم بها لا كل واحدة من الجمل، فإن بعضها ماض وبعضها مستقبل وكلاهما لا يصح أن يقع حالاً. أو مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم، وتبعد الكفر عنهم على معنى، كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتاً جهالاً، فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان، ثم يميّتكم الموت المعروف، ثم يحييكم الحياة الحقيقية، ثم إليه ترجعون، فيثيكم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والحياة حقيقة في القوة الحساسة، أو ما يقتضيها وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يخص الإنسان من الفضائل، كالعقل والعلم والإيمان من حيث إنها كمالها وغايتها، والموت بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾. وقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقال: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وإذا وصف به الباري تعالى أريد بها صحة اتصافه بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنى قائم بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة. وقرأ يعقوب ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٦).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ بيان نعمة أخرى مرتبة على الأولى، فإنها خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم وتم به معاشهم. ومعنى ﴿لكم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالح أبدانكم بوسط أو بغير وسط، ودينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرف لما يلائمها من لذات الآخرة وآلامها، لا على وجه الغرض، فإن الفاعل لغرض مستكمل به، بل على أنه كالغرض من حيث إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة، ولا يمنع اختصاص بعضها ببعض لأسباب عارضة، فإنه يدل على أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد. وما يعم كل ما في الأرض، إلا إذا أريد بها جهة السفلى كما يراد بالسماة جهة العلو. وجميعاً: حال من الموصول الثاني.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد إليها بإرادته، من قولهم استوى إليه كالسهم المرسل، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. وأصل الاستواء طلب السواء، وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوى أي: استولى ومَلَكَ، قال:

قَدْ اسْتَوَىٰ بِشَرْ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

والأول أوفق للأصل والصلة المعدى بها والتسوية المترتبة عليه بالفاء، والمراد بالسماة هذه الأجرام العلوية، أو جهات العلو، و ﴿ثم﴾ لعله لتفاوت ما بين الخلقين وفضل خلق السماء على خلق الأرض كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا للتراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فإنه يدل على تأخر دحو الأرض المتقدم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها، إلا أن تستأنب بدحاهما مقدراً لنصب الأرض فعلاً آخر دل عليه ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً﴾ مثل تعرف الأرض وتدبر أمرها بعد ذلك لكنه خلاف الظاهر.

﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ عدلهن وخلقهن مصونة من العوج والفتور. و ﴿هن﴾ ضمير السماء إن فسرت بالأجرام لأنه جمع. أو هو في معنى الجمع، وإلا فمبهم يفسره ما بعده كقولهم: ربه رجلاً.

﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ بدل أو تفسير. فإن قيل: أليس إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت: فيما ذكروه شكوك، وإن صح فليس في الآية نفي الزائد مع أنه إن ضم إليها العرش والكرسي لم يبق خلاف.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليل كأنه قال: ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب، والترتيب الأنيق كان عليمًا، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع، لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحة لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت، وتفتت أجزاءها، واتصلت بما يشاكلها، كيف تجمع أجزاء كل بدن مرة ثانية بحيث لا يشذ شيء منها، ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن صحة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى فهي: أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياة وأشار إلى البرهان عليها بقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خلقاً وأعجب صنأً فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت واختلال مراعي فيه مصالحهم وسد حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته. وقد سَكَنَ نافع وأبو عمرو والكسائي: الهاء من نحو فهو وهو تشبيهاً له بعضد.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامه وتفضيله على ملائكته بأن أمرهم بالسجود له، إنعام يعم ذريته. وإذ: ظرف وضع لزمان نسبة ماضية وقع فيه أخرى، كما وضع إذا لزمان نسبة مستقبلية يقع فيه أخرى، ولذلك يجب إضافتهما إلى الجمل كحيث في المكان، وبنيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستعملتا للتعليل والمجازاة، ومحلها نصب أبدأ بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَكْرَأَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذ كان كذا، فحذف الحادث وأقيم الظرف مقامه، وعامله في الآية قالوا، أو اذكر على التأويل المذكور لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مضمر دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثل وبدأ خلقكم إذ قال، وعلى هذا فالجملة معطوفة على خلق لكم داخلية في حكم الصلة. وعن معمر أنه مزيد. والملائكة جمع ملاك على الأصل كالشمائل جمع شمال، والتاء لتأنيث الجمع، وهو مقلوب مآلك من الألوكه وهي: الرسالة، لأنهم وسائط بين الله تعالى، وبين الناس، فهم رسل الله. أو كالرسل إليهم. واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها. فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك. وقالت طائفة من النصارى: هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان. وزعم الحكماء أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة، منقسمة إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق جل جلاله والتتزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ وهم العلويون والملائكة المقربون. وقسم يذبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهم المدبرات أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية، على تفصيل أثبتته في كتاب الطوالع.

والمقول لهم: الملائكة كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص، وقيل ملائكة الأرض، وقيل إبليس ومن

كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليس في جند من الملائكة فدمرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعل: من جعل الذي له مفعولان وهما في ﴿الأرض خليفة﴾ أعمل فيهما، لأنه بمعنى المستقبل ومعتمد على مسند إليه. ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه، والهاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا حاجة به تعالى إلى من ينوبه، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه، وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبئ ملكاً كما قال الله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ ألا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتهم، واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا واسطة، كما كلم موسى عليه السلام في الميقات، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظير ذلك في الطبيعة أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد، جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروف المناسب لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفة من سكن الأرض قبله، أو هو وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً. وإفراد اللفظ: إما للاستغناء بذكره عن ذكر بنيه كما استغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مضر وهاشم. أو على تأويل من يخلفكم، أو خلفاً يخلفكم. وفائدة قوله تعالى هذا للملائكة، تعليم المشاورة، وتعظيم شأن المجمعول، بأن بشر عز وجل بوجود سكان ملكوته، ولقبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهار فضله الراجح على ما فيه من المفاسد بسؤالهم، وجوابه وبيان أن الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره، فإن ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

﴿قَالُوا أَنْجِمْ لَنَا فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾ تَعَجَّبَ من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد والفتها، واستخبار عما يرشدكم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلّت قدرته، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو تلقى من اللوح، أو استنباط عما ركز في عقولهم أن العصمة من خواصهم، أو قياس لأحد الثقلين على الآخر. والسُّفْكُ والسَّبْكُ والسَّفْعُ والشُّنُّ أنواع من الصب، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبك في الجواهر المذابة، والسفع في الصب من أعلى، والشن في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السن، وقرئ «يُسْفِكُ» على البناء للمفعول، فيكون الراجع إلى «من»، سواء جعل موصولاً أو موصوفاً محذوفاً، أي: يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ حال مقررة لجهة الإشكال كقولك: أحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم. والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك، والمقصود منه، الاستفسار عما رجحهم ومع ما هو متوقع منهم. على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم علموا أن المجمعول خليفة ذو ثلاث قوى عليها مدار أمره: شهوية وغضبية تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء، وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه، وهو باعتبار تينك القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاداً فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد. وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطوعة للعقل، متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف. ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد، كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ» والتسبيح تبعيد الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سَبَّحَ في الأرض والماء، وقُدس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قُدُس إذا طهر لأن مطهر الشيء مبعد له عن الأذى. و «بِحَمْدِكَ» في موضع الحال، أي: متلبيين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتك ووفقتنا لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسناده التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نظهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح، وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفوس عن الآثام وقيل: نقدسك واللام مزيدة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿٣٢﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاء في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالباً، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. و «آدَمَ» اسم أعجمي كآزر وشالج، واشتقاقه من الأذمة أو الأذمة بالفتح بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم» فلذلك يأتي بنوه أخفافاً، أو من الأدم أو الأذمة بمعنى الألفة، تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامة للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعماله عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى سواء كان مركباً أو مفرداً مخبراً عنه أو خيراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً: في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة. والمراد في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوى متباينة، مستعداً لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات، والمتخيلات والموهومات. وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلاتها.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الضمير فيه للمسميات المدلول عليها ضمناً إذ التقدير أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه للدلالة المضاف عليه وعرض عنه اللام كقوله تعالى: «واشتمل الرأس شيئاً» لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفس الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمراد به ذوات الأشياء، أو مدلولات الألفاظ، وتذكيره ليغلب ما اشتمل عليه من العقلاء، وقرئ «عرضهن» و«عرضها» على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ تبيكت لهم وتنبه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوف على مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنابة: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازم مقالهم. والتصديق كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

﴿٣٣﴾

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعتراف بالعجز والقصور، وإشعار بأن سؤلهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهار لشكر نعمته

بما عرفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه. وسبحان: مصدر كغفران ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله، كعماذ الله. وقد أُجْريَ علماً للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ في قوله: سبحان من علقمة الفاخر. وتصدير الكلام به اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال، ولذلك جعل مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام: ﴿سبحانك تبت إليك﴾ وقال يونس: ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفي عليه خافية. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وأنت فصل، وقيل: تأكيد للكاف كما في قولك: مررت بك أنت، وإن لم يجز: مررت بأنت، إذ التابع يسوغ فيه ما لا يسوغ في المتبوع، ولذلك جاز: يا هذا الرجل، ولم يجز: يا الرجل، وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن.

﴿قَالَ يَكَادُمُ أَنْبَتْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٢).

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبَتْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أعلمهم، وقرئ بقلب الهمزة ياء وحذفها بكسر الهاء فيهما. ﴿فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ استحضار لقوله تعالى: ﴿إِنْني أعلم ما لا تعلمون﴾ لكنه جاء به على وجه أبسط ليكون كالحجة عليه، فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض، وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم ما لا يعلمون، وفيه تعريض بمعابرتهم على ترك الأولى، وهو أن يتوقفوا مترصدين لأن يبين لهم، وقيل: ﴿ما تبذون﴾ قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. وما ﴿تكتمون﴾ استبطانهم أنهم أحقاء بالخلافة، وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. وقيل: ما أظهروا من الطاعة، وأسر إبليس منهم من المعصية، والهمزة للإنكار دخلت حرف الجحد فأفادت الإثبات والتقرير.

واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة، وأنه شرط في الخلافة بل العمدة فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمها ظاهر في إلقيائها على المتعلم مبيناً له معانيها، وذلك يستدعي سابقة وضع، والأصل ينفي أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم فيكون من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم وإلا لتكرر قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منعوا ذلك في الطبقة العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم، والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له، اعترافاً بفضله، وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله. والعاطف عطف الظرف على الظرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عطفه بما يقدر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم. والسجود في الأصل تذلل مع تطامن قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَامَ فِيهَا سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ

وقال آخر:

وَقُلْنَا لَهُ اسْجُدْ لِإِلَهِى فَاسْجَدَا

يعني البعير إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وضع الجبهة على قصد العبادة، والمأمور به إما المعنى الشرعي فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى، وجعل آدم قبله لسجودهم تفخيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه فكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها، ونسخة لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعة للملائكة إلى استيفاء ما قدر لهم من الكمالات، ووصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أمرهم بالسجود تذلاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته، وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقَبْلَتِكُمْ وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

أو في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾.

وأما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والإنقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم. والكلام في أن المأمورين بالسجود، الملائكة كلهم، أو طائفة منهم ما سبق.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ امتنع عما أمر به، استكباراً من أن يتخذة وصلة في عبادة ربه، أو يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه. والإباء: امتناع باختيار. والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب ذلك بالتشيع.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتخضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله: ﴿أَنَا خَيْرُ مَنْهُ﴾ جواباً لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾. لا بترك الواجب وحده. والآية تدل على أن آدم عليه السلام أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له، ولو من وجه، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناولوه أمرهم ولا يصح استثنائهم منهم، ولا يرد على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روي: أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس. ولمن زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول: إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة، وكان مغموراً بالآلوف منهم فغلبوا عليه، أو الجن أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، فإنه إذا علم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به، علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به. والضمير في فسجدوا راجع إلى القبليين كانه، قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة، كما أن من الإنس معصومين والغالب فيهم عدم العصمة، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما. وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله، كما أشار إليه بقوله عز وعلا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ لا يقال: كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار؟ لما روت عائشة رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجن من نار» لأنه كالتمثيل لما ذكرنا، فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك، غير أن ضوءها مكدر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب ما

يصحبه من فرط الحرارة والإحراق، فإذا صارت مهذبة مصفاة كانت محض نور، ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذعة ولا تزال تتزايد حتى ينطفئ نورها ويبقى الدخان الصرف، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

ومن فوائد الآية استقبح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥).

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ السكنى من السكون لأنها استقرار ولبت، و﴿أَنْتَ﴾ تأكيد أكد به المستكن ليصح العطف عليه، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تبع له. والجنة دار الثواب، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها. ومن زعم أنها لم تخلق بعد قال إنه بستان كان بأرض فلسطين، أو بين فارس وكرمان خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحمل الإيهاب على الانتقال منه إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً، صفة مصدر محذوف.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحة للعلة، والعذر في تناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفاتنة للحصر.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه مبالغات، تعليق النهي بالقرب الذي هو من مقدمات تناول مبالغة في تحريره، ووجوب الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورث داعية، وميلاً يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم» فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافة أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظهما بالإتيان بما يخل بالكرامة والنعيم، فإن الفاء تفيد المسببية سواء جعلت للعطف على النهي أو الجواب له. والشجرة هي الحنطة، أو الكرم، أو التينة، أو شجرة من أكل منها أحدث، والأولى أن لا تعين من غير قاطع كما لم تعين في الآية لعدم توقف ما هو المقصود عليه. وقرئ بكسر الشين، و«تقربا» بكسر التاء و«هذي» بالياء.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسَقَرٌّ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦).

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أصدر زلتها عن الشجرة وحملهما على الزلة بسببها، ونظير «عن» هذه في قوله تعالى ﴿وما فعلته عن أمري﴾. أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضده قراءة حمزة «فأزالهما» وهما متقاربان في المعنى، غير أن أزل يقتضي عشرة مع الزوال، وإزاله قوله: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ وقوله: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ ومقاسمته إياها بقوله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾. واختلف في أنه تمثل لهما فقالولهما بذلك، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة، وأنه كيف توصل إلى إزالتهما بعدما قيل له: ﴿اخرج منها فإنك رجيم﴾. فقيل: إنه منع من الدخول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وجواء. وقيل: قام عند الباب فناداهما. وقيل: تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخزنة. وقيل: دخل في فم الحية

حتى دخلت به. وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الكرامة والنعيم.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾. وجمع الضمير لأنهما أصلاً الجنس فكأنهما الإنس كلهم. أو هما وإبليس أخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، والمعنى متعادين يبغى بعضكم على بعض بتضليله.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرار.

﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتع. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧).

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرأ ابن كثير بنصب ﴿آدَمَ﴾ ورفع الكلمات على أنها استقبلته وبلغته وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الآية، وقيل: سبحانه اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك، قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك، قال: بلى، قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك، قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك، قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة قال: نعم. وأصل الكلمة: الكلم، وهو التأثير المدرك بإحدى الحاستين السمع والبصر كالكلام والجراحة والحركة.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، وإنما رتبته بالفاء على تلقي الكلمات لتضمنه معنى التوبة: وهو الإقرار بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه. وأكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر القرآن والسنن.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاء على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثّر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها البارئ تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين، وعد للتائب بالإحسان مع العفو.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨).

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ كرر للتأكيد، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضله هلك، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بالمقترن بهما، ولكنه نسي ولم نجد له عزماً، وأن كل واحد منهما كفى به نكالاً لمن أراد أن يذكر. وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض وهو كما ترى. و ﴿جَمِيعًا﴾ حال في اللفظ تأكيد في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعهم على الهبوط في زمان واحد كقولك: جاؤوا جميعاً ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَعْرِضُونَ» الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أكدت به إن ولذلك حسن تأكيد الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب، والمعنى: إن يأتينكم مني هدى يأنزال أو إرسال، فمن تبعه منكم نجا وفاز، وإنما جيء بحرف الشك، وإتيان الهدى كائن لا محالة لأنه محتمل في نفسه غير واجب عقلاً، وكرر لفظ الهدى ولم يضمن لأنه أراد بالثاني أعم من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي: فمن تبع ما أتاه مراعيّاً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يحل بهم مكروه، ولا هم يفوت عنهم محبوب فيحزنوا عليه، فالخوف على المتوقع والحزن على الواقع نفى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على أكد وجهه وأبلغه. وقرئ «هدى» على لغة هذيل و«لا خوف» بالفتح.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ عطف على ﴿فمن تبع﴾ إلى آخره قسيم له كأنه قال: ومن لم يتبع بل كفروا بالله، وكذبوا بآياته، أو كفروا بالآيات جنائاً، وكذبوا بها لساناً فيكون الفعلان متوجهين إلى الجار والمجرور. والآية في الأصل العلامة الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقها من أي لأنها تبين آياً من أي أو من أوى إليه، وأصلها أية أو أوية كتمر، فأبدلت عينها ألفاً على غير قياس. أو أوية. أو أوية كرمكة فأعلت. أو آية كقائلة فحذفت الهمزة تخفيفاً. والمراد ﴿بآياتنا﴾ الآيات المنزلة، أو ما يعمها والمغقولة. وقد تمسكت الحشوية بهذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً، وارتكب المنهي عنه والمرتكب له عاص.

والثاني: أنه جعل بارتكابه من الظالمين والظالم ملعون لقوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾.

والثالث: أنه تعالى أسند إليه العصيان، فقال ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾.

والرابع: أنه تعالى لقنه التوبة، وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه.

والخامس: اعترافه بأنه خاسر لولا مغفرة الله تعالى إياه بقوله: ﴿وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من

الخاسرين﴾ والخاسر من يكون ذا كبيرة.

والسادس: أنه لو لم يذنب لم يجر عليه ما جرى. والجواب من وجوه.

الأول: أنه لم يكن نبياً حيثئذ، والمدعي مطالب بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سمي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الأولى له. وأما

إسناد الغي والعصيان إليه، فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى. وإنما أمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه، وجرى عليه ما جرى معاتبته له على ترك الأولى، ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه.

والثالث: أنه فعله ناسياً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فنسي ولم نجد له عزماً﴾ ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان، ولعله وإن حط عن الأمة لم يحط عن الأنبياء لعظم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل». أو أدى فعله إلى ما جرى عليه على طريق السببية المقدرة دون المؤاخذه على تناوله، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى: ﴿ما نهاكما ربكما﴾، و ﴿قاسمهما﴾ الآيتين، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناوله حين ما قال له إبليس، فلعل مقاله أورث فيه ميلاً طبيعياً، ثم إنه كف نفسه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلى أن نسي ذلك، وزال المانع فحمله الطبع عليه.

والرابع: أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه، فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد بها الإشارة إلى النوع، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإنائهما». وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده. وفيها دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية، وأن التوبة مقبولة، وأن متبع الهدى مأمون العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلد، وأن غيره لا يخلد فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وعقبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيذاً، فإنها من حيث إنها حوادث محكمة تدل على محدث حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيث إن الإخبار بها على ما هو مثبت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمها، ولم يمارس شيئاً منها إخبار بالغيب معجز يدل على نبوة المخبر عنها، ومن حيث اشتغالها على خلق الإنسان وأصوله وما هو أعظم من ذلك، تدل على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهل العلم والكتاب منهم، وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم، ويوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد ﷺ وما أنزل عليه فقال:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَلِئَنِّي فَأَرْهَبُوكُمْ﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أولاد يعقوب، والابن من البناء لأنه مبني أبيه، ولذلك ينسب المصنوع إلى صانعه فيقال: أبو الحرب، وبنو الفكر. وإسرائيل لقب يعقوب عليه السلام ومعناه بالعبرية: صفوة الله، وقيل: عبد الله، وقرىء «إسرائيل» بحذف الياء و«إسرال» بحذفهما و«إسرائيل» بقلب الهمزة ياء.

﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتشكر فيها والقيام بشكرها، وتقبيد النعمة بهم لأن الإنسان غيور حسود بالطبع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حمله الغيرة والحسد على الكفران والسخط، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حمله حب النعمة على الرضى والشكر. وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق، ومن العفو عن اتخاذ العجل، وعليهم من إدراك زمن محمد ﷺ وقرىء «اذكروا» والأصل اذكروا. ونعمتي بإسكان الياء وقفاً وإسقاطها درجاً هو مذهب من لا يحرك الياء المكسور ما قبلها.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿أُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عهد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووعد لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومن الله تعالى حقن الدم والمال، وآخرها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد ﷺ، أوف بعهدكم في رفع الأصار والإغلال. وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أوف بالمغفرة والثواب. أو أوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم، أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط. وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة، أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة. وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا دَخَلَكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وقرىء «أوف» بالتشديد للمبالغة.

﴿وَلِئَنِّي فَأَرْهَبُوكُمْ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد، وهو أكد في إفادة التخصيص من إياك

نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول، والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون. والرهبة: خوف مع تحرز. والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى.

﴿وَأٰمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ (٤١).

﴿وَأٰمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ إفراد للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصود والعمدة للوفاء بالعهود، وتقييد المنزل بأنه مصدق لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازل حسبما نعت فيها، أو مطابق لها في القصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حق بالإضافة إلى زمانها، مراعى فيها صلاح من خطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وفقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»، تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه ولذلك عرض بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهل النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشرين بزمانه. و «أول كافر به» وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك كسانا حلة فإن قيل كيف نهوا عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركوا العرب؟ قلت المراد به التعريض لا الدلالة على ما نطق به الظاهر كقولك أما أنا فلست بجاهل أو لا تكونوا أول كافر به. من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما معه فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة. و «أول»: أفعل لا فعل له، وقيل: أصله أو آل من آل، فأبدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أول من آل فقُلِّبت همزته واواً وأدغمت.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جلت قليلة مستزلة بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم، فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله ﷺ فاختاروها عليه. وقيل: كانوا يأخذون الرشى فيحرفون الحق ويكتمونه.

﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا. ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية، فصلت بالرهبة التي هي مقدمة التقوى، ولأن الخطاب بها عم العالم والمقلد. أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطاب بالثانية لما خص أهل العلم، أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَآثِمًا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ عطف على ما قبله. واللبس الخلط وقد يلزمه جعل الشيء مشتبهاً بغيره، والمعنى لا تخلطوا الحق بالمنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله، أو تذكرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ جزم داخل تحت حكم النهي كأنهم أمروا بالإيمان وترك الضلال، ونهوا عن الإضلال بالتلبس على من سمع الحق والإخفاء على من لم يسمعه، أو نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع بمعنى مع، أي لا تجمعوا لبس الحق بالباطل وكتمان، وبعضه أنه في مصحف ابن مسعود «وتكتمون» أي وأنتم

تكتُمون بمعنى كاتمِين، وفيه إشعار بأن استقباح اللبس لما يصحبه من كتمان الحق.
﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بأنكم لا بسون كاتمون فإنه أقبح إذ الجاهل قد يعذر.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة. أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بها. و ﴿الزَّكَاةَ﴾ من زكا الزرع، إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم. أو من الزكاة بمعنى: الطهارة، فإنها تطهر المال من الخبث والنفس من البخل.

﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع: الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع، قال الأصبط السعدي:

لَا تَذَلُّ الضُّعُفَ عَلَيْكَ أَنْ تَرُ كَعَ يَوْمًا وَالدُّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبر: التوسع في الخير، من البر وهو الفضاء الواسع يتناول كل خير، ولذلك قيل البر ثلاثة: بر في عبادة الله تعالى، وبر في مراعاة الأقارب. وبر في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وتركونها من البر كالمُنسيات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرُونَ سراً من نصحوه باتباع محمد ﷺ ولا يتبعونه. وقيل: كانوا يأمرُونَ بالصدقة ولا يتصدقون. ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ تبكيت كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول بالعمل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم فيصدكم عنه، أو أفلا عقل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والعقل في الأصل الحبس، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبس عما يقبح، ويعقله على ما يحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك. والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوء صنيعه وخبث نفسه، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع أو الأحق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شكيمة، والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لتقوم فيقيم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ متصل بما قبله، كأنهم لما أمروا بما يشق عليهم لما فيه من الكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال عولجوا بذلك، والمعنى استعينوا على حوائجكم بانتظار النجاح والفرج توكلاً على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة، وتصفية النفس. والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطييين حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. ويجوز أن يراد بها الدعاء:

﴿وإنها﴾: أي وإن الاستعانة بهما أو الصلاة وتخصيصها برد الضمير إليها، لعظم شأنها واستجماعها ضرورياً من الصبر. أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: لثقل شاقة كقوله تعالى: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾.

﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: أي المخبتين، والخشوع الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦).

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيل ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيهم، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود «يعلمون» وكان الظن لما شابه العلم في الرجحان أطلق عليه لتضمن معنى التوقع، قال أوس بن حجر:

فَأَرْسَلَتْهُ مُسْتَيْقِنَ الظَّنِّ أَنَّهُ مُخَالِطٌ مَا بَيْنَ الشَّرَاسِيفِ جَائِفٌ

وإنما لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضة بأمثالها، متوقعة في مقابلتها ما يستحق لأجله مشاقها ويستلذ بسببه متاعها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام «وجعلت قرّة عيني في الصلاة».

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧).

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ كرهه للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربطه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها.

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ عطف على نعمتي.

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي عالمي زمانهم، يريد به تفضيل آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة والسلام وبعده، قبل أن يضروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على الملك وهو ضعيف.

﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَأَنفِقُوا يَوْمًا﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر، وقرئ لا «تجزى» من أجزاء عنه إذا أغنى وعلى هذا تعين أن يكون مصدراً، وإبراده منكرأ مع تنكير النفسين للتعميم والإقناط الكلي والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تجزي فيه، ومن لم يجوز حذف العائد المجزور قال: اتسع فيه فحذف عنه الجار وأجري مجرى المفعول به ثم حذف كما حذف من قوله: أم مال أصابوا.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي من النفس الثانية العاصية، أو من الأولى، وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره، والأول النصر، والثاني إما أن يكون مجاناً أو غيره. والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزي عنه، أو بغيره وهو أن يعطى عنه عدلاً. والشفاعة من الشفع كأن المشفوع له كان فرداً فجعله الشفع شفعاً بضم نفسه إليه، والعدل الفدية. وقيل: البدل وأصله التسوية سمي به الفدية لأنها سويت بالمفدى، وقرأ ابن

كثير وأبو عمرو ﴿وَلَا تَقْبَل﴾ بالتاء.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله، والضمير لما دلت عليه النفس الثانية المنكرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة، وتذكيره بمعنى العباد. أو الأناسي والنصر أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضر. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت ردّاً لما كانت اليهود تزعم أن آباءهم تشفع لهم.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تفصيل لما أجمله في قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعطف على ﴿نِعْمَتِي﴾ عطف ﴿جبريل﴾ و ﴿ميكائيل﴾ على ﴿الملائكة﴾، وقرئ «أنجيتكم». وأصل ﴿آل﴾ أهل لأن تصغيره أهيل، وخص بالإضافة إلى أولي الخطر كالأنبياء والملوك. و ﴿فرعون﴾ لقب لمن ملك العمالة ككسرى وقيصر لملكي الفرس والروم. ولعتوهم اشتق منه تفرعن الرجل إذا عتا وتجبر، وكان فرعون موسى، مصعب بن ريان، وقيل ابنه وليد من بقايا عاد. وفرعون يوسف عليه السلام، ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ييغونكم، من سامه خسفاً إذا أولاه ظملاً، وأصل السوم الذهب في طلب الشيء.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أفظعه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائره، والسوء مصدر ساء يسوء ونصبه على المفعول ليسومونكم، والجملة حال من الضمير في نجيناكم، أو من ﴿آل فرعون﴾، أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما.

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يعطف، وقرئ «يُذَبِّحُونَ» بالتخفيف. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد منهم من يذهب بملكه، فلم يرد اجتهدهم من قدر الله شيئاً.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ محنة، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمة إن أشير به إلى الإنجاء، وأصله الاختبار لكن لما كان اختبار الله تعالى عباده تارة بالمحنة وتارة بالمنحة أطلق عليهما، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتسليطهم عليكم، أو بيعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم، أو بهما. ﴿عَظِيمٌ﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر إختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْلَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ فللقائه وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك بسلوككم فيه. أو بسبب إنجائكم، أو ملتبساً بكم كقوله:

تَدُوسُ بِنَا الْجَمَاجِمَ وَالْثَّرِيبَا

وقرئ «فَرَقْنَا» على بناء التثنية لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط.

﴿فَأَمْلَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أراد به فرعون وقومه، واقتصر على ذكرهم للعلم بأنه كان أولى به،

وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمد: أي شخصه واستغني بذكره عن ذكر أتباعه.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ذلك، أي غرقهم وإطباق البحر عليهم، أو انفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة، أو جشهم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضهم بعضاً. روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم فصبحهم فرعون وجنوده، وصادفهم على شاطئ البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن أضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلکوها فقالوا: يا موسى نخاف أن يغرق بعضنا ولا نعلم، ففتح الله فيها كوى فتراؤوا وتسامعوا حتى عبروا البحر، ثم لما وصل إليه فرعون ورآه منفلقاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين.

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ونحو ذلك، فهم بمعزل في الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع عن أمة محمد ﷺ، مع أن ما تواتر من معجزاته أمور نظرية مثل: القرآن والتحدي به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد ﷺ دقيقة تدركها الأذكىاء، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١).

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿وَعَدْنَا﴾ لأنه تعالى وعده الوحي. ووعدته موسى عليه السلام المجيء للميقات إلى الطور.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً أو معبوداً.

﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى عليه السلام، أو مضيئه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ بإشراككم.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

﴿٥٢﴾

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ حين تبتهم، والعفو محو الجريمة، من عفا إذا درس. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي الاتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لكي تشكروا عفو.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ يعني التوراة الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تفرق بين الحق والباطل. وقيل أراد بالفرقان معجزاته الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى، أو بين الكفر والإيمان. وقيل الشرع الفارق بين الحلال والحرام، أو النصر الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يريد به يوم بدر.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا

أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ فاعزموا على التوبة والرجوع إلى من خلقكم برأى من التفاوت، ومميزاً بعضكم عن بعض بصور وهيئات مختلفة، وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم برىء المريض من مرضه والمديون من دينه، أو الإنشاء كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا.

﴿فَأَقْبَلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخ، أو قطع الشهوات كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها. وقيل أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً. وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتل العبد. روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضي لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتبصرون، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفاً. والفاء الأولى للتسبب، والثانية للتعقيب.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ من حيث إنه طهرة من الشرك، ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بمحذوف إن جعلته من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره: إن فعلتم ما أمرتم به فقد تاب عليكم، أو عطف على محذوف إن جعلته خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، كأنه قال: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم باريكم. وذكر الباري وترتيب الأمر عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة، وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن لا يسترد منه، ولذلك أمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ للذي يكثر توفيق التوبة، أو قبولها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لأجل قولك، أو لن نقر لك.

﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً وهي في الأصل مصدر قولك: جهرت بالقراءة، استعيرت للمعاينة، ونصبها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو الحال من الفاعل، أو المفعول. وقرئ جهرة بالفتح على أنها مصدر كالغلبة، أو جمع جاهر كالكتابة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات. وقيل عشرة آلاف من قومه. والمؤمن به: إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك، أو إنك نبي.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لفرط العناد والنعث وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤية الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمعوا بحسبها فخرجوا صغقين ميتين يوماً وليلة.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره.

﴿ثُمَّ بَشَّيْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلَّاءٍ مِنْ طَبَّيْتِ مَا رَزَقْتَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ثُمَّ بَشَّيْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء، أو نوم كقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة البعث، أو ما كفرتموه لما رأيتم بأس الله بالصاعقة.

﴿وَوَهَبْنَا عَلَيْكُمُ الْمَمَاءَ﴾ سخر الله لهم السحاب يظلمهم من الشمس حين كانوا في التيه.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى﴾ الترنجيبين والسماوي. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع، وتبعث الجنوب عليهم السماوي، وينزل بالليل عمود نار يسيرون في ضوئه، وكانت ثيابهم لا تسخ ولا تبلى.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ على إرادة القول.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه اختصار، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره.

﴿وَإِذْ قُنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَإِذْ قُنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ يعني بيت المقدس، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً، ونصبه على المصدر، أو الحال من الواو.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي باب القرية، أو القبة التي كانوا يصلون إليها، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿سُجَّدًا﴾ متطامنين مخبتين، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي مسألتنا، أو أملك حطة وهي فعلة من الحط كالجلسة، وقرئ بالنصب على الأصل بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، أو على أنه مفعول ﴿قولوا﴾ أي قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها.

﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم. وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول. وخطايا أصله خطايء كخطايح، فعند سيبويه أنه أبدلت الياء الزائدة همزة لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء. وعند الخليل قدمت الهمزة على الياء ثم فعل بهما ما ذكر.

﴿وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً، جعل الامتثال توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله، وأنه تعالى يفعل لا محالة.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٥٩).

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب ما يشتهون من أعراض الدنيا.

﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كرره مبالغة في تقييح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعه، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها.

﴿وَجَزَاءٌ مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجز في الأصل: ما يعاف عنه، وكذلك الرجز. وقرئ بالضم وهو لغة فيه والمراد به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾
﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ لما عطشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ اللام فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً. مكعباً حمله معه، وكانت تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا، أو الحجر الذي فر بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من الأذرة، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهر في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها؟ حمل حجراً في مخلاته، وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر، ويضربه بها إذا ارتحل فيبیس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه متناً عطشاً، فأوحى الله إليه لا تقرع الحجر وكلمه يطعك لعلهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة.

﴿فَإِنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فإن ضربت فقد انفجرت، أو فضربت فانفجرت، كما مر في قوله تعالى: ﴿فَنَابِ عَلَيْهِمْ﴾. وقرئ «عشرة» بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه.
﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾ عيנם التي يشربون منها. ﴿كُتُوبًا وَاشْرَبُوا﴾ على تقدير القول:

﴿مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون. وقيل الماء وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تعتدوا حال إفسادكم، وإنما قيده لأنه وإن غلب في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقتل الخضر عليه السلام الغلام وخرقه السفينة، ويقرب منه العيث غير أنه يغلب فيما يدرك حساً، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله وقلة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر وينفر عن الخل ويجذب الحديد، لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَسْمُو سَيِّدَنَا نَاصِرٌ وَعَظِيمٌ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَمِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتُبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ آذَنٌ بِالَّذِي هُوَ حَرٌّ أَهْطِلُوا يَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالسَّكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَمِّتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتُبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ آذَنٌ بِالَّذِي هُوَ حَرٌّ أَهْطِلُوا يَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَصُرِّيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالسَّكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ يريدون به ما رزقوا في التيه من المن والسلوى. وبوحدته أنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه وبذلك أجمعوا أو ضرب واحد، لأنهما طعام أهل التلذذ وهم كانوا فلاحه فنزعوا إلى عكرهم واشتهوا ما ألفوه. ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾

رَبِّكَ ﴿سَلِّهْ لَنَا بَدْعَاتِكَ إِيَّاهُ﴾ يُخْرِجُ لَنَا يظهر ويوجد، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة. ﴿مِمَّا تُثَبِّتُ الْأَرْضُ﴾ من الإسناد المجازي، وإقامة القابل مقام الفاعل، ومن للتبعية. ﴿مِنْ بَقْلِهَا وَقُثَاثِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال، وقيل بدل بإعادة الجار. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنظلة ويقال للحبز ومنه فوموا لنا، وقيل الثوم وقرىء «قُثَاثِهَا» بالضم، وهو لغة فيه. ﴿قَالَ﴾ أي الله، أو موسى عليه السلام. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منزلة وأدون قدراً. وأصل الدنو القرب في المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة، وقرىء «أدنا» من الدناءة. ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خير في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ انحدروا إليه من التيه، يقال هبط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج منه، وقرىء بالضم والمصر البلد العظيم وأصله الحد بين الشيتين، وقيل أراد به العلم، وإنما صرفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود. وقيل أصله مصراتيم فعرب. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضرب الطين على الحائط، مجازاة لهم على كفران النعمة. واليهود في غالب الأمر أذلاء مساكين، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم. ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبِ اللَّهِ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، من باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، وأصل البؤ المساواة. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبؤ بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يُكَفِّرُونَ بَأْيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان، وآية الرجم والتي فيها نعت محمد ﷺ من التوراة، وقتلهم الأنبياء فإنهم قتلوا شعياً وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات، وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها. وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر، والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى. وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل، والباء بمعنى مع وإنما جوزت الإشارة بالمفرد إلى شيتين فصاعداً على تأويل ما ذكر، أو تقدم للاختصار، ونظيره في الضمير قول رؤية يصف بقرة:

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَيَلْقَى كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلِيغُ الْبَهَقِ

والذي حسن ذلك أن تشية المضمرات والمبهمات وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ مِنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالسنتهم، يريد به المتدينين بدين محمد ﷺ المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفرة ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا، يقال هاد وتهود إذا دخل في اليهودية، ويهود: إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكانهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع نصران كندامى وندمان، والياء في نصراني للمبالغة كما في أحمرى، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها. ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح

عليه السلام. وقيل هم عبدة الملائكة. وقيل عبدة الكواكب، وهو إن كان عربياً فمن صبا إذا خرج. وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء، أو لأنه من صبا إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم، أو من الحق إلى الباطل.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ من كان منهم في دينه قبل أن ينسخ. مصداقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في الإسلام دخلاً صادقاً: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الذي وعد لهم على إيمانهم وعملهم. ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب. و ﴿مَنْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والجملة خبر إن، أو بدل من اسم إن وخبرها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ والفاء لتضمن المسند إليه معنى الشرط، وقد منع سيبويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تدخل الشرطية، ورد بقوله تعالى: ﴿إِنْ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ باتباع موسى والعمل بالتوراة. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ حتى أعطيت الميثاق، روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قبلوا. ﴿خُذُوا﴾ على إرادة القول: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدة وعزيمة. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذكر بالقلب، أو اعملوا به. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو رجاء منكم أن تكونوا متقين. ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف، أي: قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد ﷺ يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه. ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخط والضلال في فترة من الرسل. ولو في الأصل لامتناع الشيء لامتناع غيره، فإذا دخل على لا أفاد إثباتاً وهو امتناع الشيء لثبوت غيره، والاسم الواقع بعده عند سيبويه مبتدأ خبره واجب الحذف لدلالة الكلام عليه وسد الجواب مسده، وعند الكوفيين فاعل فعل محذوف.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِلْنَاهَا نُكْلًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ اللام موطئة لقسم، والسبت مصدر قولك سبت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصله القطع أمروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدى فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام، واشتغلوا بالصيد، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على ساحل يقال لها أيلة، وإذا كان يوم السبت لم يبق حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خرطومهم، فإذا مضى تفرقت فحفروا حياضاً وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ جامعين بين صورة القردة والخسوء: وهو الصغار والطرء، وقال مجاهد ما مسخت صورهم ولكن قلوبهم، ففشلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿كَمِثْلَ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وقوله: ﴿كُونُوا﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المراد به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم، وقرئ «قردة» بفتح القاف وكسر الراء، و«خاسين» بغير همزة.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي المسخة، أو العقوبة. ﴿نَكَالًا﴾ عبرة تنكل المعتر بها، أي تمنعه. ومنه النكل للقيد. ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذكرت حالهم في زبر الأولين، واشتهرت قصتهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حوالها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٧)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أول هذه القصة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا﴾ وإنما فكت عنه وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال. وقصته: أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه طمعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله. ﴿قَالُوا أَنْتَجِدُهَا هُزُوًا﴾ أي مكان هزؤ، أو أهله ومهزوءاً بنا، أو الهزأ نفسه لفرط الاستهزاء استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، وقرأ حمزة وإسماعيل عن نافع بالسكون، وحفص عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واواً. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذه استفظاعاً له.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ (١٨)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما حالها وصفتها، وكان حقهم أن يقولوا: أي بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ﴿مَا﴾ يسأل به عن الجنس غالباً، لكنهم لما رأوا ما أمروا به على حال لم يوجد بها شيء من جنسه، أجروه مجرى ما لم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله. ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ﴾ لا مسنة ولا فتية، يقال فرضت البقرة فروضاً من الفرض وهو القطع، كأنها فرضت سنها، وتركيب البكر للأولية ومن البكرة والباكورة.

﴿عَوَانٌ﴾ نصف. قال شعر: نواعِمُ بَيْنَ أَبْكَارٍ وَعَوْنُ.

﴿يُبَيِّنْ ذَلِكَ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بين، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد، وعود هذه الكنايات وإجراء تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينة، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب، ومن أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة من شق البقر غير مخصوصة ثم انقلبت مخصوصة بسؤالهم، ويلزمه النسخ قبل الفعل، فإن التخصيص يبطل للتخيير الثابت بالنص والحق جوازهما، ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم». وتقرعهم بالتمادي وزجرهم على المراجعة بقوله: ﴿فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قولهم: أمرتك الخير فافعل ما أمرت به، أو أمركم بمعنى مأموركم.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ (١٩)

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الفقوع نصوع الصفرة

ولذلك تؤكد به، فيقال: أصفر فاقع كما يقال أسود حالك، وفي إسناده إلى اللون وهو صفة صفراء لملاسته بها فضل تأكيد كأنه قيل؛ صفراء شديدة الصفرة صفرتها، وعن الحسن سوداء شديدة السواد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جَمَلَاتِ صَفَرٍ﴾. قال الأعشى:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي هُنَّ صُفْرُ أَوْلَادِهَا كَالزَّرْبِ

ولعله عبر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته، أو لأن سواد الإبل تعلوه صفرة وفيه نظر، لأن الصفرة بهذا المعنى لا تؤكد بالفقوع ﴿تَسْرُ النَّاطِرِينَ﴾ أي تعجبهم، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، أو توقعه من السر.

﴿قَالُوا أَذُعْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠).

﴿قَالُوا أَذُعْ لَنَا رَيْكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد. وقوله: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذار عنه، أي إن البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا، وقرئ «إن البقرة» وهو اسم لجماعة البقر والأبقار والبواقر، ويتشابه وتتشابه بالياء والتاء، وتشابه ويشابه وتشابه بطرح التاء وإدغامها في الشين على التذكير والتأنيث، وتشابهت وتشابهت مخففاً ومشدداً، وتشابه بمعنى تشابه وتشابه بالتذكير ومتشابهة ومتشابهة. ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل، وفي الحديث «لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد». واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأن الأمر قد ينفك عن الإرادة وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنى. والمعتزلة والكرامية على حدوث الإرادة، وأجيب بأن التعليق باعتبار التعلق.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَتَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لم تذلل لكراب الأرض وسقي الحرث، و ﴿لَا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة بمعنى غير ذلول، ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرئ «لا ذلول» بالفتح أي حيث هي، كقولك مررت برجل لا بخيل ولا جبان، أي حيث هو، وتسقي من أسقى. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سلمها الله تعالى من العيوب، أو أهلها من العمل، أو أخلص لونها، من سلم له كذا إذا خلص له ﴿لَا شِئَةَ فِيهَا﴾ لا لون فيها يخالف لون جلدها، وهي في الأصل مصدر، وشاه وشيا وشية إذا خلط بلونه لونا آخر. ﴿قَالُوا آلَتَنَ جَنَّتْ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة وحقيقتها لنا، وقرئ «آلَن» بالمد على الاستفهام، و«آلَن» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿فَذَبْحُوهَا﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصلوا البقرة المنعوتة فذبحوها. ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها. إذ روي: أن شيخاً صالحاً منهم كان له عجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. وكاد من أفعال المقاربة وضع لدنو الخبر حصولاً، فإذا دخل عليه النفي قيل معناه الإثبات مطلقاً. وقيل ماضياً، والصحيح أنه كسائر الأفعال ولا ينافي قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ قوله ﴿فَذَبْحُوهَا﴾ لاختلاف وقتيهما، إذ المعنى أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم، وانقطعت تعللاتهم، ففعلوا كالمضطر الملجأ إلى الفعل.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذَرْنَاهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ

الْمَوْتِ وَرَبِّكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خطاباً للجميع لوجود القتل فيهم ﴿فَإِذَا رَأَيْتُمْ فِيهَا﴾ اختصمتم في شأنها، إذ المتخاصمان يدفع بعضهما بعضاً، أو تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه إلى صاحبه، وأصله تدارأتم فأدغمت التاء في الدال واجتلبت لها همزة الوصل ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مظهره لا محالة، وأعمل مخرج لأنه حكاية مستقبل كما أعمل ﴿بِاسْطِ ذِرَاعِيهِ﴾ لأنه حكاية حال ماضية.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ عطف على ادارأتم وما بينها اعتراض، والضمير للنفس والتذكير على تأويل الشخص أو القتل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي بعض كان، وقيل: بأصغريها، وقيل بلسانها، وقيل بفخذها اليمنى، وقيل بالأذن، وقيل بالعُجب ﴿كَذَلِكَ يُخَوِّي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يدل على ما حذف وهو فضربه فحيي، والخطاب مع من حضر حياة القتل، أو نزول الآية ﴿وَرَبِّكُمْ ءَايَتِهِ﴾ دلالته على كمال قدرته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها، أو تعملوا على قضيته. ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب، ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قرية، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بشمته، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه ضحى بنجبية اشتراها بثلاثمائة دينار. وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا إثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إيماته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا، ولم يلحقها ضعف الكبر، وكانت معجبة راقية المنظر غير مذلة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سمة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيباً، وتعرب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والتزاع.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ .

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مثل في نبوه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يعني إحياء القتل، أو جميع ما عدد من الآيات فإنها مما توجب لين القلب. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها، والمعنى أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلها، أو مثل ما هو أشد منها قسوة كالحديد، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وإنما لم يقل أقسى لما في أشد من المبالغة، والدلالة على اشتداد القسوتين واشتمال المفضل على زيادة و ﴿أَوْ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تحليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثر وتنفلع فإن منها ما يشقق فينبع منه الماء، وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفلع عن أمره تعالى. والتفجر التفتح بسعة وكثرة، والخشية مجاز عن الانقياد، وقرئ ﴿إِنَّ﴾ على أنها المخففة من الثقلة وتلزمها اللام الفارقة بينها وبين إن النافية، ويهبط بالضم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد على ذلك، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف وأبو بكر بالياء ضمناً إلى ما بعده، والباقون بالتاء.

﴿فَلْيَعْلَمُوا أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

﴿فَلْيَعْلَمُوا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يصدقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم. يعني اليهود. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني التوراة. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ كُنت محمد ﷺ، وآية الرجم. أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور، ثم قالوا سمعنا الله تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريب. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، ومعنى الآية: أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة، فما ظنك بسفلتهم وجهالهم، وأنهم إن كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧).

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني منافقيهم. ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بِغَضِهمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتيين على من نافق. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد ﷺ، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقريع وعلى الثاني إنكار ونهي ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجتهم بكتاب الله وحكمه محاجة عنده كما يقال عند الله كذا، ويراد به أنه جاء في كتابه وحكمه، وقيل عند ذكر ربكم، أو بين يدي رسول ربكم. وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذ الإخفاء لا يدفعه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إما من تمام كلام اللاتمين وتقديره: أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم، أو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله: ﴿فَلْيَعْلَمُوا﴾، والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم. ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللاتمين، أو كليهما، أو إياهم والمحرفين. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن جملتهما إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٧٩).

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ جهلة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها. أو التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ استثناء منقطع. والأمانى: جمع أمنية وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من منى إذا قدر، ولذلك تطلق، على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ والمعنى لكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المحرفين أو مواعيد فارغة. سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. وقيل إلا ما يقرؤون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلٍ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِشْلِ

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا علم لهم، وقد يطلق الظن بإزاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير قاطع، وإن جزم به صاحبه: كاعتقاد المقلد والزائع عن الحق لشبهة.

﴿قَوْلٍ﴾ أي تحسر وهلك. ومن قال إنه واد أو جبل في جهنم فمعناه: أن فيها موضعاً يتبوأ فيه من جعل له الويل، ولعله سماه بذلك مجازاً. وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرة لأنه دعاء. ﴿الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ﴾ يعني المحرفين، ولعله أراد به ما كتبه من التأويلات الزائغة. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد كقولك: كتبه بيدي. ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ كي يحصلوا به عرضاً من أعراض الدنيا، فإنه وإن جعل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم. ﴿قَوْلٍ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني المحرف. ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يريد به الرشى.

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨١).

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسه فلا أجد. ﴿إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ محصورة قليلة، روي أن بعضهم قالوا نعذب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوماً، وبعضهم قالوا مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ خبراً أو وعد بما تزعمون. وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال. والباقون بإدغامه ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخلف في خبره محال.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم معادلة لهمزة الاستفهام بمعنى أي الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدهما، أو منقطعة بمعنى: بل أتقولون، على التقرير والتقرير.

﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢).

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من مساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، وتختص بجواب النفي ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والفرق بينها وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يقصد بالذات، والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنه من الخطأ، والكسب: استجلاب النفع. وتعليقه بالسيدة على طريق قوله: ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ﴾ أي استولت عليه، وشملت جملة أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه، وهذا إنما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فلم تحط الخطيئة به، ولذلك فسرهما السلف بالكفر. وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجره إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها معتقداً أن لا لذة سواها، مبغضاً لمن يمنعه عنها مكذباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ﴾. وقرأ نافع ﴿خَطِيئَاتِهِ﴾. وقرئ «خطيئته» و «خطيئته» على القلب والإدغام فيها. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون، أو لا يثون لبثاً طويلاً. والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجى رحمته ويخشى عذابه، وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخبار في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾. وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهي سارع إلى الانتهاء فهو يخبر عنه ويعضده قراءة: «لا تعبدوا». وعطف ﴿قولوا﴾ عليه فيكون على إرادة القول. وقيل: تقديره أن لا يعبدوا فلما حذف أن رفع كقوله:

ألا أي هذا الزاجري أحضر الوعى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخِلِدِي

ويدل عليه قراءة: «ألا تعبدوا»، فيكون بدلاً عن الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار. وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قال: وحلفناهم لا يعبدون. وقرأ نافع وابن عمر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيب ﴿وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا﴾ تعلق بمضمر تقديره: وتحسنون، أو أحسنوا ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ عطف على الوالدين. ﴿واليتامى﴾ جمع يتيم كنديم وندامى وهو قليل. ومسكين مفعيل من السكون، كان الفقر أسكنه ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي قولاً حسناً، وسماء ﴿حسناً﴾ للمبالغة. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿حسناً﴾ بفتحيتين. وقرئ «حسناً» بضميتين وهو لغة أهل الحجاز، وحسنى على المصدر كبرى والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ يريد بهما ما فرض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقة الالتفات، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومن قبلهم على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ قوم عادتكم الإعراض عن الوفاء والطاعة. وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة إلى جهة العرض.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ (٨٤).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ على نحو ما سبق والمراد به أن لا يتعرض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جعل قتل الرجل غيره قتل نفسه، لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجب قصاصاً. وقيل معناه لا تتركبوا ما يبيح سفك دمائكم وإخراجكم من دياركم، أو لا تفعلوا ما يريدكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقتربوا ما تمنعون به عن الجنة التي هي داركم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتهم بلزومه ﴿وَأَنْتُمْ تَسْهَوْنَ﴾ تركيد كقولك. أقر فلان شاهداً على نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْ دِيَارِهِمْ تَقَطَّعُوا عَنْهُمْ بِالْأَلَمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهَلْ تُحَرِّمُ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتَوُمُونُ بِبَعْضِ الْكِتَابِ

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ .

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما ارتكبه بعد الميثاق والإقرار به والشهادة عليه. وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره على معنى أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقصون، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا، نزل تغير الصفة منزلة تغير الذات، وعدهم باعتبار ما أسند إليهم حضوراً وباعتبار ما سيحكي عنهم غيباً. وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ إما حال والعامل فيها معنى الإشارة، أو بيان لهذه الجملة. وقيل: هؤلاء تأكيد، والخبر هو الجملة. وقيل بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر، وقرئ «تُقْتَلُونَ» على التثنية. ﴿تُظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ حال من فاعل تخرجون، أو من مفعوله، أو كليهما. والتظاهر التعاون من الظهر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإظهارها، وتظهرون بمعنى تتظهرون ﴿وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تَفَادَوْهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كل فريق حلفاءه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. وقرأ حمزة «أسرى» وهو جمع أسير كجريح وجرحى، وأسارى جمعه كسكرى وسكاري. وقيل هو أيضاً جمع أسير، وكأنه شبه بالكسلان وجمع جمعه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر «تفدوهم» ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ متعلق بقوله ﴿وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾، وما بينهما اعتراض، والضمير للشان، أو مبهم ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر. وإخراجهم بدل أو بيان ﴿أَفْتَوْمُنَّوْنَ بِنِغْصِ الْكِتَابِ﴾ يعني الفداء.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ يعني حرمة المقاتلة والإجلاء. ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كقتل قريظة وسبيهم. وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية على غيرهم. وأصل الخزي ذل يستحيا منه، ولذلك يستعمل في كل منهما. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد، أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفل عن أفعالهم. وقرأ عاصم في رواية المفضل، «تردون» على الخطاب لقوله ﴿منكم﴾. وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف ويعقوب «يعملون» على أن الضمير لمن.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بنقص الجزية في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾. يقال قفاه إذا تبعه، وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا، نحو ذنبه من الذنب ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص، والإخبار بالمغيبات. أو الإنجيل، وعيسى بالعبرية أشوع. ومريم بمعنى الخادم، وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال، قال رؤبة: قُلْتُ لِرِزْرِ لَمْ تُصَلِّهِ مَرْيَمُ. ووزنه مفعول إذ لم يثبت فعيل ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وقويناه،

وقرىء «آيدناه» بالمد «بِرُوحِ الْقُدُسِ» بالروح المقدسة كقولك: حاتم الجود، ورجل صدق، وأراد به جبريل. وقيل: روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى، أو لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، أو الإنجيل، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى، وقرأ ابن كثير «الْقُدُسُ» بالإسكان في جميع القرآن «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ» بما لا تحبه. يقال هَوِيَ بالكسر هَوَى إذا أحب وهَوَى بالفتح هَوياً بالضم إذا سقط. ووسطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجبياً من شأنهم، ويحتمل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدر، «اسْتَكْبَرْتُمْ» عن الإيمان واتباع الرسل. «فَقَرِيقًا كَذَبْتُمْ» كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل «وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فطيع. أو مراعاة للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ، لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨)

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مغشاة بأغطية خلقية لا يصل إليها ما جئت به ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يخنن وقيل أصله غلف جمع غلاف فخفف، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تسمع علماً إلا وعته، ولا تعي ما تقول. أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره. «بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ» رد لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم، أو أنها لم تأب قبول ما تقوله لخلل فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم كما قال تعالى: «فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ»، أو هم كفرة ملعونون، فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟ «فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ» فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيده للمبالغة في التقليل، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: أراد بالقلة العدم.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» من كتابهم، وقرىء بالنصب على الحال من كتاب لتخصيصه بالوصف، وجواب لما، محذوف دل عليه جواب لما الثانية. «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» أي يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المنعوت، في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم، وقد قرب زمانه، والسين للمبالغة والإشعار أن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا» من الحق. «كَفَرُوا بِهِ» حسداً وخوفاً على الرياسة. «فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ» أي عليهم، وأتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم، فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولاً لأن الكلام فيهم.

﴿يَسْأَلُ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠)

﴿يَسْأَلُ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ ما نكرة بمعنى شيء مميزة لفاعل بشس المستكن، واشتروا صفته ومعناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا. «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» هو المخصوص بالذم «بَقِيًّا» طلباً لما ليس لهم وحسداً، وهو علة «أَنْ يَكْفُرُوا» دون «اشتروا»

للفصل. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ﴾ لأن ينزل، أي حسدوه على أن ينزل الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب بالتخفيف. ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني الرحي. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿فَبَاؤُوا بَغْضَ عَلَى غَضَبٍ﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد ﷺ بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزيز ابن الله ﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يراد به إذلالهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة لذنوبه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفُونَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا رَبَّنَا﴾ وهو الحق مَصْدَقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها. ﴿قَالُوا تَوْفُونَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل جعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدامه، ولذلك عد من الأضداد. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع إدعاء الإيمان بالتوراة والتوراة لا تسوغه، وإنما أسنده إليهم لأنه فعل آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه. وقرأ نافع وحده ﴿أَنْبِيَاءَ اللَّهِ﴾ مهموزاً في جميع القرآن.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ أي إلهاً ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد مجيء موسى، أو ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى، أو اعتراض بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم. ومساق الآية أيضاً لإبطال قولهم ﴿تَوْفُونَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ والتنبيه على أن طريقتهم مع الرسول طريقة أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعدها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجد واسمعوا سماع طاعة. ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أملك ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ تداخلهم حبه ورسخ في قلوبهم صورته، لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن. وفي قلوبهم: بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ ﴿يَكْفُرُهُمْ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مجسمة، أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري ﴿قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ أي بالتوراة، والمخصوص بالذم محذوف نحو هذا الأمر، أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاماً عليهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تقرير للقدح. في دعواهم الإيمان بالتوراة، وتقديره إن كنتم مؤمنين بها لم يأمركم بهذه القبائح ولا يرخص لكم فيها إيمانكم بها، أو إن كنتم مؤمنين بها فبشما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذا لستم بمؤمنين.

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ ونصبها على الحال من الدار. ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ سائرهم، واللام للجنس، أو المسلمين واللام للعهد ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها، وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال على رضي الله تعالى عنه: (لا أبالي سقطت على الموت، أو سقط الموت علي). وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفين: (الآن ألقى الأحبة محمداً وحزبه). وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتضر: (جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم) أي: على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد ﷺ، والقرآن، وتحريف التوراة. ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان، آلة لقدرته بها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه، عبر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي ﷺ «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، وما بقي على وجه الأرض يهودي» ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيه عنهم هو لهم.

﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ من وجد بعقله الجاري مجرى علم، ومفعولاه هم وأحرص الناس، وتنكير حياة لأنه أريد بها فرد من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة، وقرئ باللام. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا. وإفراده بالذكر للمبالغة، فإن حرصهم شديد إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة، والزيادة في التوبيخ والتقريع، فإنهم لما زاد حرصهم. وهم مقرون بالجزاء على حرص المنكرين. دل ذلك على علمهم بأنهم صائرون إلى النار، ويجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا، فحذف أحرص لدلالة الأول عليه، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا: ﴿عزير ابن الله﴾، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو على الأولين بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف. ﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حكاية لودادتهم، ولو بمعنى ليت وكان أصله: لو أعمر، فأجرى على الغيبة لقوله: يود، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ الضمير لأحدهم، وأن يعمر فاعل مزحجه، أي وما أحدهم بمن يمزحجه من العذاب تعميره، أو لما دل عليه يعمر. وأن يعمر بدل منه. أو مبهم، وأن يعمر موضحه وأصل سنة سنة لقولهم سنوات. وقيل سنة كجبهة لقولهم سانهته وتسنته النخلة إذا أتت عليها السنون، والمزحجة التباعد ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ .

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن سوريا، سأل رسول الله ﷺ عن ينزل عليه بالوحي؟

فقال: جبريل، فقال: ذاك عدونا عادانا مراراً، وأشدّها أنه أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرجه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرأه ببابل فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ريكّم أمره بهلاككم فلا يسلطكم عليه وإلا فيم تقتلونهم؟. وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر». وفي جبريل ثمان لغات قرىء بهن أربع في: المشهور «جبرئيل» كسلسيل قراءة حمزة والكسائي، و«جبريل» بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، و«جبرئيل» كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، و«جبريل» كقنديل قراءة الباقرين. وأربع في الشواذ: جبرئيل و«جبرائيل» كجبراعيل، و«جبريل» وجبرين ومنع صرفه للعجمة، والتعريف، ومعناه عبد الله. «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ» البارز الأول لجبريل، والثاني للقرآن، وإضمامه غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعيينه وفرط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. «عَلَى قَلْبِكَ» فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حقه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. «يُؤَذِّنُ اللَّهَ» بأمره، أو تيسيره حال من فاعله نزله. «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أحوال من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ»، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع ربه الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزول كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علته مقامه، أو من عاداه فالسبب في عداوته أنه نزل عليه. وقيل محذوف مثل: فليمت غيظاً، أو فهو عدو لي وأنا عدو له. كما قال:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أراد بعداوة الله مخالفته عناداً، أو معاداة المقربين من عباده، وصدر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى: «والله ورسوله أحق أن يرضوه». وأفرد الملكين بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواء في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن الحاجة كانت فيهما. ووضع الظاهر موضع المضمحل للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسول كفر. وقرأ نافع «ميكائيل» كميكاعل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص «ميكال» كميعاد، والباقون «ميكائيل» بالهمزة والياء بعدها. وقرىء «ميكتل» كميكمل، و«ميكتيل» كميكعيل، وميكال.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩) أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي المتمردون من الكفرة، والفسق إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عظمه كأنه متجاوز عن حده. نزل في ابن سوريا حين قال لرسول الله ﷺ، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فتبتعك.

﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا، وقرىء بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، «أو كلما عاهدوا»، وقرىء «عوهدوا» و

«عهدوا». «نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ» نقضه، وأصل النبد الطرح، لكنه يغلب فيما ينسى، وإنما قال فريق لأن بعضهم لم ينقض «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» رد لما يتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبذ جهاراً فهم مؤمنون به خفاء.

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾».

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ» كيمسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. «نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ» يعني التوراة، لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدق، ونبد لما فيها من وجوب الإيمان بالرسول المؤيدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول ﷺ هو القرآن.

«وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» مثل لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يرمي به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه. «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». وفرقة جاهرُوا بنبد عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: «نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ». وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْئَسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾».

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ» عطف على نبذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرأها، أو تتبعها الشياطين من الجن، أو الإنس، أو منهما. «عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ» أي عهده، وتتلو حكاية حال ماضية، قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يعلمون الغيب، وأن مُلْكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم، وأنه تُسَحَّرُ به الجن والإنس والريح له. «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ» تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه. «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا» باستعماله، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي و«لكن» بالتخفيف، ورفع «الشياطين». «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ» إغواء وإضلالاً، والجملة حال من الضمير، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس. فإن التناسب شرط في التضام والتعاون، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعوثة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه. «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وما روي أنهما مثلاً بشرين، وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها: زهرة،

فحملتهما على المعاصي والشرك، ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفي على ذوي البصائر. وقيل: رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما، ويؤيده قراءة «الملكين» بالكسر. وقيل: ما أنزل نفي معطوف على ما كفر سليمان تكذيب لليهود في هذه القصة. ﴿بَابِلْ﴾ ظرف، أو حال من الملكين، أو الضمير في أنزل والمشهور أنه بلد من سواد الكوفة. «هَارُوتَ وَمَارُوتَ» عطف بيان للملكين، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا. ومن جعل ما نافية أبدلها من الشياطين بدل البعض، وما بينهما اعتراض. وقرأ بالرفع على هما «هَارُوتَ وَمَارُوتَ». ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحا ويقلوا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقلوا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الضمير لما دل عليه من أحد. ﴿مَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ﴾ أي من السحر ما يكون سبب تفريقهما. ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثرة بالذات، بل بأمره تعالى وجعله. قرأ «بضاري» على الإضافة إلى أحد، وجعل الجار جزء منه والفصل بالظرف. ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود. ﴿لِمَنْ اشْتَرَاهُ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهر أن اللام لام الإبتداء علقت علموا عن العمل ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب ﴿وَلَيْشَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يحتمل المعنيين على ما مر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يتفكرون فيه، أو يعلمون قبحه على التعيين، أو حقية ما يتبعه من العذاب، والمثبت لهم أولاً على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي يقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بالرسول والكتاب. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ جواب لو، وأصله لأثيبوا ماثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات الماثوبة والجزم بخيريتها، وحذف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن ينسب إليه، وتنكير الماثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير، وقيل: لو للتمني، و «لماثوبة» كلام مبتدأ. وقرأ «لماثوبة» كمشورة، وإنما سمي الجزاء ثواباً وماثوبة لأن المحسن يثوب إليه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا لكنه جهلهم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِكِنَّ عَذَابَ آيَةٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ الرعي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعنا أي راقبنا وتأن بنا فيما تلقنا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرعن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبس، وهو انظرونا بمعنى انظر إلينا. أو انتظرونا من نظره إذا انتظره. وقرأ «انظرونا» من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ. وقرأ «راعونا» على لفظ الجمع للتوقير، وراعنا بالتثنية أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج، لما شابه قولهم راعينا وتسبب للسب. ﴿وَاسْمَعُوا﴾ وأحسنوا

الاستماع حتى لا تفتقروا. إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتهم عنه. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه السلام وسبوه.

﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥).

﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير. والود: محبة الشيء مع تمنيه، ولذلك يستعمل في كل منهما، ومن للتبيين كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾. ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مفعول يود، ومن الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للابتداء، وفسر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم وبالنصرة، ولعل المراد به ما يعم ذلك ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يستنبه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حق ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٦)
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٠٧).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتها في غيره، كنسخ الظل للشمس والنقل، ومنه التناسخ. ثم استعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخت الريح الأثر، ونسخت الكتاب. ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها، أو الحكم المستفاد منها، أو بهما جميعاً. وإنساؤها إذهابها عن القلوب، وما شرطية جازمة للنسخ منتصبة به على المفعولية. وقرأ ابن عامر ما نسخ من أنسخ أي تأمرك أو جبريل بنسخها، أو نجدها منسوخة. وابن كثير وأبو عمرو «ننساها» أي نؤخرها من النسء. وقرئ «ننساها» أي ننس أحداً إياها، و«ننساها» أي أنت، و«تنسها» على البناء للمفعول، و«ننسكها» بإضمار المفعولين ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب. وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو خير منه. والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة، وذلك لأن الأحكام شرعت، والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يضر في عصر غيره. واحتج بها من منع النسخ بلا بدل، أو ببدل أثقل. ونسخ الكتاب بالسنة، فإن الناسخ هو المأني به بدلاً والسنة ليست كذلك والكل ضعيف، إذ قد يكون عدم الحكم، أو الأثقل أصلح. والنسخ قد يعرف بغيره، والسنة مما أتى به الله تعالى، وليس المراد بالخير والمثل ما يكون كذلك في اللفظ. والمعتزلة على حدوث القرآن فإن التغير والتفاوت من لوازمه. وأجيب: بأنهما من عوارض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأمه، لقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وإنما أفردته لأنه أعلمهم، ومبدأ علمهم. ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ

على كل شيء قدير» أو على جواز النسخ ولذلك ترك العاطف. «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم، والفرق بين الولي والنصير. أن الولي قد يضعف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٧٨).

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ أم معادلة للهمزة في «الم تعلم» أي: ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادر على الأشياء كلها يأمر وينهى كما أراد، أم تعلمون وتقرحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام. أو منقطعة والمراد أن يوصيهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه. قيل: نزلت في أهل الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء. وقيل: في المشركين لما قالوا «لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» «وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» ومن ترك الثقة بالآيات البينات وشك فيها واقتراح غيرها، فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية لا تقرحوا ففضلوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان. وقرئ «يبدل» من أبدل.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٨٠).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني أحبارهم. «لَوْ يَرُدُّونَكُمْ» أن يردوكم، فإن لو تنوب عن أن في المعنى دون اللفظ: «مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا» مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين «حَسَدًا» علة ود. «مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ» يجوز أن يتعلق بـ «وَدَّ» أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهيم، لا من قبل التدين والميل مع الحق. أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم «مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» بالمعجزات والتعوت المذكورة في التوراة. «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا» العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تشريبه. «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» الذي هو الإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف، وفيه نظر إذ الأمر غير مطلق «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فيقدر على الانتقام منهم.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على فاعفوا كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والرجاء إلى الله تعالى بالعبادة والبر «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ» كصلة وصدقة. وقرئ «تقدموا» من أقدم «تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» أي ثوابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع عنده عمل. وقرئ بالياء فيكون وعيداً.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ آمَانِيُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٨٢).

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على ﴿وَد﴾، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ ثقة بفهم السامع، وهود جمع هائد كعوذ وعائد، وتوحيد الاسم المضممر في كان، وجمع الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إشارة إلى الأمانى المذكورة، وهي أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم، وأن يردوهم كفاراً، وأن لا يدخل الجنة غيرهم، أو إلى ما في الآية على حذف المضاف أي أمثال تلك الأمانى أمانيتهم، والجملة اعتراض والأمانى أفعولة من التمني كالأضحوكة والأعجوبة. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت.

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه، أو قصده، وأصله العضو ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ الذي وعد له على عمله ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا ينقص، والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة. والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله: بلى وحده، ويحسن الوقف عليه. ويجوز أن يكون من أسلم فاعل فعل مقدر مثل بلى يدخلها من أسلم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي على أمر يصح ويعتد به. نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ، وأتاهم أحرار اليهود فتناظروا وتناولوا بذلك. ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس أي: قالوا ذلك وهم من أهل العلم والكتاب. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كعبدة الأصنام، والمعطلة. وبخهم على المكابرة والتشبه بالجهال. فإن قيل: لم وبخهم وقد صدقوا، فإن كلا الدينين بعد النسخ ليس بشيء؟ قلت: لم يقصدوا ذلك، وإنما قصد به كل فريق إبطال دين الآخر من أصله، والكفر بنبيه وكتابه مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجب القبول والعمل به ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يفصل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بما يقسم لكل فريق ما يليق به من العقاب. وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١١٤﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة. وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله. أو في المشركين لما منعوا رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ثاني مفعولي منع ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم، أو التعطيل ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً عن أن يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم.

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٥).

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له الأرض كلها لا يختص به مكان، دون مكان، فإن منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجداً. ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان. أو ﴿فَثَمَّ﴾ ذاته: أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ بإحاطته بالأشياء. أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنها أنها نزلت في صلاة المسافرين على الرحلة: وقيل: في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطاهم، وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القبلة وتنزيه للمعبود أن يكون في حيز وجهة.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَكُمْ قَانُونٌ﴾ (١١٦).

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: ﴿عزير ابن الله﴾، والنصارى: ﴿المسيح ابن الله﴾، ومشركوا العرب: الملائكة بنات الله، وعطفه على قالت اليهود، أو منع، أو مفهوم قوله تعالى ومن أظلم. وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيه والحاجة وسرعة الفناء، ألا ترى أن الأجرام الفلكية. مع إمكانها وفنائها. لما كانت باقية ما دام العالم، لم تتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذ الحيوان والنبات، اختياراً أو طبعاً. ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رد لما قالوه، واستدلال على فساد، والمعنى أنه تعالى خالق ما في السموات والأرض، الذي من جملة الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلٌّ لَكُمْ قَانُونٌ﴾ منقادون لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانس مكوّنه الواجب لذاته: فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانس والده، وإنما جاء بما الذي لغير أولي العلم، وقال قانتون على تغليب أولي العلم تحقيراً لشأنهم، وتنوين كل عوض عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما. ويجوز أن يراد كل من جعلوه ولداً له مطيعون مقرون بالعبودية، فيكون إلزاماً بعد إقامة الحجة، والآية مشعرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه، واحتج بها الفقهاء على أن من ملك ولده عتق عليه، لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (١١٧).

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، ونظيره السميع في قوله:

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤْزِقُنِي وَأُضْحَابِي هُجُوعٌ

أو بديع سمواته وأرضه، من بدع فهو بديع، وهو حجة رابعة. وتقريرها أن الوالد عنصر الولد المتفعل بانفصال مادته عنه، والله سبحانه وتعالى مبدع الأشياء كلها، فاعل على الإطلاق، منزّه عن الانفعال، فلا يكون والداً. والإبداع: اختراع الشيء لا عن الشيء دفعة، وهو أليق بهذا الموضوع من الصنع الذي هو: تركيب الصور لا بالعنصر، والتكوين الذي يكون بتغيير وفي زمان غالباً. وقرئ بديع مجروراً على البذل من الضمير في له. وبديع منصوباً على المدح.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئاً، وأصل القضاء إتمام الشيء قوة كقوله تعالى: ﴿وقضى ربك﴾، أو فعلاً كقوله تعالى: ﴿فققضاهن سبع سموات﴾. وأطلق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يوجبه. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ من كان التامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتنال، بل

تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماء إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة، وفعله تعالى مستغن عن ذلك. وقرأ ابن عامر «فيكون» بفتح النون. واعلم أن السبب في هذه الضلالة، أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا إن الأب هو الرب الأصغر، والله سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كُفِّرَ قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله. ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ حجة على صدقك، والأول استكبار والثاني جحود، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً، ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقالوا: ﴿أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً﴾. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةٌ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومن قبلهم في العمى والعناد. وقرئ بتشديد الشين. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعترهم شبهة ولا عناد. وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لحفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعناداً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ أَلَمٍ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ متلبساً مؤيداً به. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا. ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلغت. وقرأ نافع ويعقوب: ﴿لَا تُسْأَلُ﴾، على أنه نهي للرسول ﷺ عن السؤال عن حال أبويه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يقدر أن يخبر عنها، أو السامع لا يصبر على استماع خبرها فنهاء عن السؤال. والجحيم: المتأجج من النار.

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته. ولعلمهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قال: ﴿قُلْ﴾ تعليماً للجواب. ﴿إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ أي هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدعون إليه. ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ آراءهم الزائفة. والملة ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أملت الكتاب إذا أملتته، والهوى: رأى يتبع الشهوة ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحته. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لئن.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدرة والخبر ما بعده، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنوا

أهل الكتاب ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بكتابهم دون المحرفين. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالتحريف والكفر بما يصدقه ﴿قَالُوا لَكُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لما صدر قصتهم بالأمر بذكر النعم، والقيام بحقوقها، والحذر من إضاعتها، والخوف من الساعة وأحوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم بمبالغة في النصيح، وإيداناً بأنه فذلكة القضية والمقصود من القصة.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ كلفه بأوامر ونواه، والابتلاء في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء، لكنه لما استلزم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظن ترادفهما، والضمير لإبراهيم، وحسن لتقدمه لفظاً وإن تأخر رتبة، لأن الشرط أحد التقديمين، والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ كما فسرت بها في قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ وبالعشر التي هي من سنته، وبمناسك الحج؛ وبالكواكب، والقمرين، والختان، وذبح الولد، والنار، والهجرة. على أنه تعالى عامله بها معاملة المختبر بهن وبما تضمنته الآيات التي بعدها. وقرئ «إبراهيم ربه» على أنه دعا ربه بكلمات مثل «أرني كيف تحيي الموتى». ﴿وَجَعَلَ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ ليرى هل يجيبه. وقرأ ابن عامر إبراهيم بالألف جميع ما في هذه السورة. ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهن كمالاً وقام بهن حق القيام، لقوله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ وفي القراءة الأخيرة الضمير لربه، أي أعطاه جميع ما دعاه. ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استئناف إن أضمرت ناصب إذ كأنه قيل: فماذا قال ربه حين أتمهن، فأجيب بذلك. أو بيان لقوله ابتلى فتكون الكلمات ما ذكره من الإمامة، وتطهير البيت، ورفع قواعده، والإسلام. وإن نصبته يقال فالمجموع جملة معطوفة على ما قبلها، أو جاعل من جعل الذي له مفعولان، والإمام اسم لمن يؤتم به وإمامته عامة مؤبدة، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على الكاف أي وبعض ذريتي، كما تقول: وزيداً، في جواب: سأكرمك، والذرية نسل الرجل، فعلية أو فعولة قلبت راؤها الثانية ياء كما في تقضيت. من الذر بمعنى التفريق، أو فعولة أو فعيلة قلبت همزتها من الذرة بمعنى الخلق. وقرئ «ذريتي» بالكسر وهي لغة. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ إجابة إلى ملتسمه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. وقرئ «الظالمون» والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَانْجِدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غلب عليها كالنجم على الثريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان

الزوار أو أمثالهم، أو موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره. وقرئ: «مثابات» أي لأنه مثابة كل أحد. ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضع أمن لا يتعرض لأهله كقوله تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾. ويتخطف الناس من حولهم، أو يأمن حاجته من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يجب ما قبله، أولاً يؤاخذ الجاني الملتجئ إليه حتى يخرج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أو عطف على المقدر عاملاً لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمير تقديره توبوا إليه واتخذوا، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدمه، أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج، أو رفع بناء البيت وهو موضعه اليوم. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت» وقيل المراد به الأمر بركعتي الطواف، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام: لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وللشافعي رحمه الله تعالى في وجوبهما قولان. وقيل: مقام إبراهيم الحرم كله. وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعي فيها، ويتقرب إلى الله تعالى. وقرأ نافع وابن عامر ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ بلفظ الماضي عطفاً على ﴿جَعَلْنَا﴾، أي: واتخذوا الناس مقامه الموسوم به، يعني الكعبة قبله يصلون إليها. ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما. ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ بأن طهرا بيتي ويجوز أن تكون أن مفسرة لتضمن العهد معنى القول، يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أخلصاه. ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ حوله. ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. أي المصلين، جمع راعع وساجد.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَتُسْ أَلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان. ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذا أمن كقوله تعالى: ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. أو آمناً أهله كقولك: ليل نائم ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أبدل من ﴿مَنْ آمَنَ﴾ ﴿أَهْلَهُ﴾ بدل البعض للتخصيص ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف على ﴿آمَنَ﴾ والمعنى وارزق من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فبه سبحانه على أن الرزق رحمة دينوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين. أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ خبره، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب، ولذلك عطف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي ألزه إليه لئلا المضطر لكفره وتضييعه ما متعته به من النعم، وقليلاً نصب على المصدر، أو الظرف. وقرئ بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره. وقرأ ابن عامر ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ من أمتع. وقرئ «فتمتعته» ثم نضطره، و «إضطره» بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة، و «أطره» بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس.

﴿وَتُسْ أَلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوف، وهو العذاب.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ حكاية حال ماضية، و ﴿القواعد﴾ جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبية من القعود، بمعنى الثبات، ولعله مجاز من المقابل للقيام، ومنه قعدك الله، ورفعها البناء عليها فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، ويحتمل أن يراد بها سافات البناء فإن كل ساف قاعدة ما يوضع

فوقه ويرفعها بناؤها. وقيل المراد رفع مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه، ودعاء الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لسانها. ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ كان يناوله الحجارة، ولكنه لما كان له مدخل في البناء عطف عليه. وقيل: كانا بينان في طرفين، أو على التناوب. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا، وقد قرئ به والجملة حال منهما. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَآرِنَا مَنَاسِكَكَ وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْهَكِيمِ (١٢٩).

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه. وقرئ «مسلمين» على أن المراد أنفسهما وهاجر. أو أن التنية من مراتب الجمع. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصنا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصا بعضهم لما أعلمنا أن في ذريتهما ظلمة، وعلمنا أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخرت الدنيا، وقيل: أراد بالأمّة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون من للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ قدم على المبين وفصل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. ﴿وَأَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر، أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَكَ﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا. والنسك في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن العادة. وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب ﴿أَرِنَا﴾، قياساً على فخذ في فخذ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها. وقرأ الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ استتابه لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلمهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي». ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ المحكم له.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةِ نَفْسِهِ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠).

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يرغب عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد من ملته. ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرد وتعلب سفه بالكسر متعد وبالمضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق، وتغصص الناس». وقيل: أصله سفه نفسه على الرفع، فنصب على التمييز نحو غبن رأيه وألم رأسه، وقول جرير:

وَنَأْخُذُ بَعْدَهُ بِذُنَابِ عَيْشٍ أَجَبَ الظُّهْرَ لَيْسَ لَهُ سِنَامٌ

أو سفه في نفسه، فنصب بنزع الخافض. والمستثنى في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في

يرغب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة، كان حقيقاً بالاتباع له لا يرغب عنه إلا سفيه، أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١).

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ظرف لـ ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾، أو تعليل له، أو منصوب بإضمار اذكر. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلم أنه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين، دعاه ربه وأخطر بباله دلائله المؤدية إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام. روي أنها نزلت لما دعا عبد الله بن سلام ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمة وأبى مهاجر.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَتِيمًا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢).

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعل فيه صلاح وقربة، وأصلها الوصل يقال: وصاه إذا وصله، وفصاه: إذا فصله، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصى، والضمير في بها لليلة، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة، أو الجملة وقرأ نافع وابن عامر ﴿وَأَوْصَى﴾ والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي ووصى هو أيضاً بها بنيه. وقرئ بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿يَا بَنِي﴾. على إضمار القول عند البصريين، متعلق بوصى عند الكوفيين لأنه نوع منه ونظيره:

رَجُلَانِ مِنْ ضَبَّةٍ أَخْبَرَانَا أَنَا رَأَيْنَا رَجُلًا عَرَبِيًّا

بالكسر، وبنو إبراهيم كانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة عشر: وبنو يعقوب اثنا عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وزبولون ونفتوني ودون وكودا وأوشير وبنامين ويوسف ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ظاهره النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصل إلا وأنت خاشع، وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه، وأن من حقه أن لا يحل بهم، ونظيره في الأمر مت وأنت شهيد. وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: أأنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات فترلت.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَدُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموت وقال لبنيه ما قال فلم تدعون اليهودية عليه، أو متصلة بمحذوف تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين. وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرئ «حَضَرَ» بالكسر.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ بدل من ﴿إِذْ حَضَرَ﴾. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ أي: أي شيء تعبدونه، أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما، وما يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف، فإذا عرف خص العقلاء بمن إذا سئل عن تعيينه، وإن سئل عن وصفه قيل: ما زيد أفضيه أم طيب؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ

إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» المتفق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته، وعد إسماعيل من آبائه تغليبا للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عم الرجل صنو أبيه». كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه «هذا بقية آبائي». وقرئ «إله أبيك»، على أنه جمع بالواو والنون كما قال:

وَلَمَّا تَبَيَّنَ أَصَوَاتُنَا بَكَيْنَ وَقَدِينَا بِالْأَبِينَا

أو مفرد وإبراهيم وحده عطف بيان.

﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى: «بِالْناصية ناصية كاذبة». وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشئ من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد، أو نصب على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو مفعوله، أو منهما، ويحتمل أن يكون اعتراضاً.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما، والأمة في الأصل المقصود وسمي بها الجماعة، لأن الفرق تؤمها. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ لكل أجر عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بانتسابكم» ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب وأو للتوزيع، والمعنى مقاتلتهم أحد هذين

القولين. قالت اليهود كونوا هوداً. وقال النصارى كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ جواب الأمر. ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل تكون ملة إبراهيم، أي أهل ملته، أو بل تتبع ملة إبراهيم. وقرئ بالرفع أي ملته ملتنا، أو عكسه، أو نحن ملته بمعنى نحن أهل ملته. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق. حال من المضاف، أو المضاف إليه كقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾. ﴿وَمَا كَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَمَا أَوْحَىٰ إِلَيْنَا وَمَا أَوْحَىٰ إِلَىٰ آلِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، قدم ذكره لأنه أول بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا متعبدين بتفاصيلها داخلين تحت أحكامها فهي أيضاً منزلة إليهم، كما أن القرآن منزل إلينا، والأسباط جمع سبط وهو الحافد، يريد به حفدة يعقوب، أو أبناءه وذرائعهم فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق ﴿وَمَا أَوْحَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ التوراة والإنجيل، أفردهما بالذكر بحكم أبلغ لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما ﴿وَمَا أَوْحَىٰ النَّبِيُّونَ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ منزلاً عليهم من ربهم. ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كاليهود، فتؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأحد لوقوعه في سياق النفي عام فساغ أن يضاف إليه بين. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي لله. ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مدعون مخلصون.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣٧)

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ من باب التعجيز والتبكيث، كقوله تعالى: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. وقيل: الباء للآلة دون التعدية، والمعنى إن تحروا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثل طريقكم، فإن وحدة المقصد لا تأبى تعدد الطرق، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾. والمعنى فإن آمنوا بالله إيماناً مثل إيمانكم به، أو المثل مقحم كما في قوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي عليه، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به أو بالذي آمنتم به ﴿وإن تولوا فإنما هم في شقاق﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة والمخالفة، فإن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ تسلياً وتسكيناً للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ (١٣٨)

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي صبغنا الله صبغته، وهي فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حلية الإنسان كما أن الصبغة حلية المصبوغ، أو هداية الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماء صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ الثوب، أو للمشاكلة، فإن النصراني كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتهم، ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله ﴿آمنّا﴾، وقيل على الإغراء، وقيل على البذل من ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صبغة أحسن من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ تعريض بهم، أي لا نشرك به كشرركم. وهو عطف على آمنة، وذلك يقتضي دخول قوله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ في مفعول ﴿قولوا﴾ ولمن ينصبها على الإغراء، أو البذل أن يضم قولوا معطوفاً على الزموا، أو اتبعوا ملة إبراهيم و ﴿قولوا آمنة﴾ بدل اتبعوا، حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب.

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩)

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا. ﴿في الله﴾ في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم، روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، لو كنت نبياً لكنت منا. فنزلت: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاص له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فلا يبعد أن يكرمنا بأعمالنا، كأنه ألزمهم على كل مذهب يتحلونه إفحاماً وتبكيثاً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله على من يشاء والكل فيه سواء، وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص. وكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم.

﴿أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ مَا أَشْتَرُ بِعِلْمٍ أَلِ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٠)

﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار. وعلى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادلة للهمزة في ﴿أَتَحْجُونَنَا﴾، بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة، أو ادعاء اليهودية، أو النصرانية على الأنبياء. ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْتُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾. وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو منا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، ومن للابتداء كما في قوله تعالى: ﴿بِرَأْيِهِ﴾ ورسوله. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، وقرء بالياء.

﴿يَلَيْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْسَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١).

﴿يَلَيْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْسَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحکم في الطباع من الافتخار بالأباء والانتكال عليهم. قيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة في الأول الأنبياء، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢).

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الذين خفت أحلامهم، واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر. يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدة تقديم الإخبار به توطئ النفس وإعداد الجواب وإظهار المعجزة. ﴿مَا وَلَّيْنَاهُمْ﴾ ما صرفهم. ﴿عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني بيت المقدس، والقبلة في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال، فصارت عرفاً للمكان المتوجه نحوه للصلاة ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة، وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٣).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة، أي كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلكم أفضل القبل. ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكّين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها، مستوياً فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستدل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلمت به عدالتهم ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصب لكم من الحجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخل على

أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا. ولكن الذين كفروا حملهم الشقاء على اتباع الشهوات، والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين من قبلكم، أو بعدكم. روي «أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ. وهو أعلم بهم. إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم» وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمته عدى بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم يكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أي الجهة التي كنت عليها، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أمر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود. أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما (كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينه فالمخبر به على الأول الجعل الناسخ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ إلا لنمتحن به الناس ونعلم من يتبعك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلماً لقبله آباءه. أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه، وما كان لعارض يزول بزواله. وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها، إلا لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه لقلقه وضعف إيمانه. فإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً. قلت: هذا وأشباهه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسوله والمؤمنون لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصه، أو لتمييز الثابت من المتزلزل كقوله تعالى: ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ فوضع العلم موضع التمييز المسبب عنه، ويشهد له قراءة ليعلم على البناء للمفعول، والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في مَنْ من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن ينقلب. ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إن هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة. وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعنى إلا. والضمير لما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ من الجعلة، أو الردة، أو التولية، أو التحويلة، أو القبلة. وقرئ «الكبيرة» بالرفع فتكون كان زائدة ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى حكمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي ثباتكم على الإيمان. وقيل: إيمانكم بالقبلة المنسوخة، أو صلاتكم إليها لما روي: أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم، ولعله قدم الرؤوف وهو أبلغ محافظة على الفواصل وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص لرؤوف بالمد، والباقون بالقصر.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤).

﴿قَدْ نَرَى﴾ ربما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ تردد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبله أبيه إبراهيم، وأقدم القبلتين وأدعى للعرب إلى الإيمان، ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾ فلنمكنك من استقبالها من قولك: وليته كذا، إذا صيرته والياً له، أو فلنجعلك تلي جهتها ﴿تَرْضَاهَا﴾ تحبها وتشوق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ اصرف وجهك. ﴿شَطْرَ

المَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿نحوه. وقيل: الشطر في الأصل لما انفصل عن الشيء إذا انفصل، ودار شطوره: أي منفصلة عن الدور، ثم استعمل لجانبه، وإن لم ينفصل كالقطر، والحرام المحرم أي محرم فيه القتال، أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذكر المسجد دون الكعبة لأن عليه الصلاة والسلام كان في المدينة، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب. روي: أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وجه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين. وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسمي المسجد مسجد القبلتين. ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوُتُوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ خص الرسول بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عمم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيذاً لأمر القبلة وتضيضاً للأمة على المتابعة. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ جملة لعلمهم بأن عادته تعالى تخصيص كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين، والضمير للتحويل أو التوجه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للفريقين. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بالياء.

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَكِنَّ آتَيْنَا أَحْقَافَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤٥).

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبله، واللام موطئة للقسم ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ جواب للقسم المضمر، والقسم وجوابه ساد مسد جواب الشرط، والمعنى ما تركوا قبلك لشبهة تربلها بالحجة، وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ قطع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذي ننتظره، تغريراً له وطمعاً في رجوعه، وقبلتهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق. ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة، والنصارى مطلع الشمس. لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه ﴿وَلَيْنَ أَتَيْنَا أَحْقَافَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أي: ولئن اتبعتهم مثلاً بعدما بان لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وأكد تهديده وبالحق فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطئة للقسم: ثانيها: القسم المضمر. ثالثها: حرف التحقيق وهو أن. رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية. وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جعله من ﴿الظالمين﴾، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريضاً على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني علماءهم ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكره لدلالة الكلام عليه. وقيل للعلم، أو القرآن، أو التحويل ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يشهد للأول: أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم. عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم، قال: لأنني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ كلام مستأنف، والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد، والإشارة إلى ما عليه

الرسول ﷺ، أو الحق الذي يكتمنونه، أو للجنس. والمعنى أن ﴿الحق﴾ ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا ما لم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب، وإما خير مبتدأ محذوف أي هو ﴿الحق﴾. ومن ربك حال، أو خبر بعد خبر. وقرئ بالنصب على أنه بدل من الأول، أو مفعول ﴿يعلمون﴾ ﴿فَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُكْذِبِينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك، أو في كتمانهم الحق عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه، لأنه غير متوقع منه وليس بقصد واختيار، بل إما تحقيق الأمر وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ.

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨).

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ﴾ ولكل أمة قبله، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، والتثنوي بدل الإضافة ﴿هُوَ مُوَلِّيًا﴾ أحد المفعولين محذوف، أي هو موليا وجهه، أو الله تعالى موليا إياه. وقرئ: «ولكل وجهة» بالإضافة، والمعنى وكل وجهة الله موليا أهلها، واللام مزيدة للتأكيد جبراً لضعف العامل. وقرأ ابن عامر: «مولاها» أي هو مولى تلك الجهة أي قد وليها ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ من أمر القبلة وغيره مما ينال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامطة للكعبة ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها، يحشركم الله إلى المحشر للجزاء، أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقلل الجبال، يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة، يأت بكم الله جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الأمارة والإحياء والجمع.

﴿وَمَنْ حِينَ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩) ﴿وَمَنْ حِينَ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِذَا نَقَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَمَّا كُنْتُمْ تُهْتَدُونَ﴾ (١٥٠).

﴿وَمَنْ حِينَ خَرَجْتَ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُ﴾ وإن هذا الأمر ﴿لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء.

﴿وَمَنْ حِينَ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل. تعظيم الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجري العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها. ودفع حجج المخالفين على ما نبينه. وقرن بكل علة معلولها كما يقرن المدلول بكل واحد من دلالاته تقريباً وتقريباً، مع أن القبلة لها شأن. والنسخ من مظان الفتنة والشبهة فبالحري أن يؤكد أمرها ويعاد ذكرها مرة بعد أخرى. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقوله ﴿فَوَلُّوا﴾، والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وأن محمداً يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا. والمشركون بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحياً لبلده، أو بدا له فرجع إلى قبله آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وسمى هذه حجة كقوله تعالى: ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم يسوقونها

مساقتها. وقيل الحجة بمعنى الاحتجاج. وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأساً كقوله:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ شَيْوَفَهُمْ بِهِنْ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

للعلم بأن الظالم لا حجة له، وقرئ: «ألا الذين ظلموا منهم». على أنه استئناف بحرف التنبيه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مطاعينهم لا تضركم. ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتكم به. ﴿وَلَا تَمْنَعُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علة محذوف أي وأمرتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتدائكم، أو عطف على علة مقدرة مثل: وإخشوني لأحفظكم منهم ولأنتم نعمتي عليكم، أو لئلا يكون وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة». وعن علي رضي الله تعالى عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام».

﴿كَأَمْ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ (١٥٢).

﴿كَأَمْ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ متصل بما قبله، أي ولأنتم نعمتي عليكم في أمر القبله، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده كما ذكرتكم بالإرسال فاذكروني. ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَزَكَاةً﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكياء، قدمه باعتبار القصد وآخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، وكرر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالطاعة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ما أنعمت به عليكم. ﴿وَلَا تَكْفُرُون﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحفظ النفس، ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أي بل هم أحياء. ﴿وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم، وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن (إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرواحهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع). والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى، ومزيد البهجة والكرامة.

﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ فِي شَرِّ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥).

﴿وَلَتَبْلُغُنَّكُمْ﴾ ولنصيبينكم إصابة من يختبر لأحوالكم، هلى تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿بَشِيرٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلله بالإضافة إلى ما وقاهم منه ليخفف عليهم، ويريههم أن رحمته لا تفارقهم، أو بالنسبة إلى ما يصيب به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطنوا عليه نفوسهم ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ عطف شيء، أو الخوف، وعن الشافعي رضي

الله عنه الخوف: خوف الله، والجوع: صوم رمضان، والنقص: من الأموال الصدقات والزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن: الثمرات موت الأولاد. وعن النبي ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول الله: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد». ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧).

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى منه البشارة. والمصيبة تعم ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة». وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله، وأنه راجع إلى ربه، ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقي عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه، ويستسلم له. والمبشر به محذوف دل عليه.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطف والإحسان. وعن النبي ﷺ «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبتيه، وأحسن عقابه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه» ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ للحق والصواب حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٥٨).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ هما علما جبلين بمكة. ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه، جمع شعيرة وهي العلامة ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ الحج لغة القصد، والاعتمار الزيارة. فغلبا شرعاً على قصد البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوما. فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تخرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك فنزلت. والإجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجوبه. فعن أحمد أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ فإنه يفهم منه التخيير وهو ضعيف، لأن نفي الجناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب، فلا يدفعه. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه واجب، يجبر بالدم. وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنه ركن لقوله عليه الصلاة والسلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي». ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فعل طاعة فرضاً كان أو نفلًا، أو زاد على ما فرض الله عليه من حج أو عمرة، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة. و «خيرًا» نصب على أنه صفة مصدر محذوف، أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه، أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى أتى أو فعل. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب «يطوع»، وأصله يتطوع فأدغم مثل يطوف ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مثبت على الطاعة لا تخفى عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أُنزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ (١٥٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ كآحبار اليهود. ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ كآلايات الشاهدة على أمر محمد ﷺ. ﴿وَالْهُدَى﴾ وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به. ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه. ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة. ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا بالتدارك. ﴿وَيَبْتَغُوا﴾ ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتهم. وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحو به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابهم ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ بالقبول والمغفرة. ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿أُولَئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ استقر عليهم اللعن من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه. وقيل؛ الأول لعنهم أحياء، وهذا لعنهم أمواتاً. وقرئ و «الملائكة والناس أجمعون» عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبنى ضرب زيد وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، أو النار. وإضمارها قبل الذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليه. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة.

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ﴾ خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يعبد أو يسمى إلهاً. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة. ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مولى النعم كلها أصولها وفروعها وما سواه إما نعمة أو منعم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره، وهما خبران آخران لقوله إلهكم، أو لمبتدأ محذوف. قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فأت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما جمع السموات وأفرد الأرض، لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين. ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾. ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي بنفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص «الفلك» بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه، ولذلك قدمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيت «الفلك» لأنه بمعنى السفينة. وقرئ بضممتين على الأصل، أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين. ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ من الأولى للإبتداء، والثانية للييان. والسماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو. ﴿فَأَخْبَا بِهِ﴾

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحياء فإن الدواب ينمون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث النشر والتفريق. ﴿وَتَضْرِيفَ الرِّيحِ﴾ في مهابها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي على الأفراد. ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا ينزل ولا يتقشع، مع أن الطبع يقتضي أحدهما حتى يأتي أمر الله تعالى. وقيل: مسخر الرياح قلبه في الجو بمشيئة الله تعالى، واشتقاقه من السحب لأن بعضه يجر بعضاً. ﴿لَا يَأْتِ لِقَوْمٍ يُفْقَلُونَ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، وعنه ﴿وَبَلَّغْ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ فَمَجَّ بِهَا﴾ أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها: أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة، وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات، أو بعضها كالأرض وأن تتحرك بعكس حركاتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارة بالقطبين، وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها، فلا بد لها من موجد قادر حكيم، يوجدها على ما تستدعيه حكمته وتقضيته مشيئته، متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر. فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما، لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ ولعل المراد أعم منهما وهو ما يشغله عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحب، استعير لحنة القلب، ثم اشتق منه الحب لأنه أصابها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والإعانة بتحصيل مرضاه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة، وصونه عن المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراض فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة. وأجرى المستقبل مجرى الماضي لتحقيقه كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ساد مسد مفعولي ﴿يرى﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف. أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان، والتقدير: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع، لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره. وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: و «لو ترى» على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي ولو ترى ذلك لرأيت أمراً عظيماً، وابن عامر: «إذ يرون» على البناء للمفعول، ويعقوب «إن» بالكسر وكذا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ على الاستئناف، أو إضمار القول.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ مِثْلَ مَا كَرِهْنَا لَأَكْثَرَ فَتَتَّبِعُوا مِثْلَ مَا كَرِهْنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ بدل من ﴿إِذْ يرون﴾، أي إذ تبرأ المتبوعون من الأتباع. وقرئ بالعكس، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي راثين له، والواو للحال، وقد مضى. وقيل؛ عطف على تبرأ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ يحتمل العطف على تبرأ، أو رأوا والواو للحال، والأول أظهر. و﴿الأسباب﴾: الوصل التي كانت بينهم من الإتيان والاتفاق على الدين، والأغراض الداعية إلى ذلك. وأصل السبب: الحبل الذي يرتقي به الشجر. وقرئ و ﴿تقطعت﴾ على البناء للمفعول.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعَهُمْ مِثْلَ مَا كَرِهْنَا﴾ (١٦٦) ﴿لَوْ﴾ للتمني ولذلك أوجب بالفاء، أي ليت لنا كرة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإراء الفطيع. ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي ثالث مفاعيل يرى أن كان من رؤية القلب وإلا فحال ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أصله وما يخرجون، فعدل به إلى هذه العبارة، للمبالغة في الخلود والإفراط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس، وحلالاً مفعول كلوا، أو صفة مصدر محذوف، أو حال مما في الأرض ومن للتبعيض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿طَيِّبًا﴾ يستطيبه الشرع، أو الشهوة المستقيمة. إذ الحلال دل على الأول. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والبزي وأبو بكر حيث وقع بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الخاطي. وقرئ بضميتين وهمة جعلت ضمة الطاء كأنها عليها، ويفتحيتين على أنه جمع خطوة وهي المرة من الخطو ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يظهر الموالاتة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩).

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعتها. واستعير الأمر لترزيهه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه. وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر. وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني ما شرع فيه الحد ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً. وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظن مستند إلى مدرك شرعي فوجوبه قطعي، والظن في طريقه كما بيناه في الكتب الأصولية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٧٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الضمير للناس، وعدل بالخطاب عنهم للدعاء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون. ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ما وجدناهم عليه نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد. وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا لأنهم كانوا خير منا وأعلم. وعلى هذا فيعم ما أنزل الله التوراة لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام. ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال، أو العطف. والهمزة للرد والتعجيب. وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي لو كان آبائهم جهلة لا يفكرون في أمر الدين، ولا يهتدون إلى الحق لاتبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد. وأما اتباع الغير في الدين إذا علم بدليل ما أنه محق كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام، فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمْ بِكُمُ غَنَمٌ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧٢)

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ على حذف مضاف تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينق، أو مثل الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينق. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم، ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه. وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها، بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته. أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام، بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قوله إلا دعاء ونداء، لأن الأصنام لا تسمع إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب.

﴿صُمْ بِكُمُ غَنَمٌ﴾ رفع على الذم. ﴿فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لما وسع الأمر على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروا طيبات ما رزقوا ويقوموا بحقوقها فقال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم. ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة، وتقرون أنه مولى النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر. فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه، وهو عدم عند عدمه. وعن النبي ﷺ «يقول الله تعالى: إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري».

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٤)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكلها، أو الانتفاع بها. وهي التي ماتت من غير ذكاة. والحديث ألحق بها ما أبين من حي. والسّمك والجراد أخرجهما العرف عنها، أو استثناء الشرع. والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل، كالتصرف في المدبوغ. ﴿وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ إنما خص اللحم بالذكر، لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له. ﴿وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي رفع به

وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ﴿البر﴾ كل فعل مرضٍ، والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال؛ ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ، ولكن البر ما بينه الله واتبعه المؤمنون. وقيل عام لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يحسن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها، وقرأ حمزة وحفص ﴿البر﴾ بالنصب ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يهتم به بر من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن «البار». والأول أوفق وأحسن. والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن. وقرأ نافع وابن عامر ﴿ولكن﴾ بالتخفيف ورفع ﴿البر﴾. ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي على حب المال، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل قال «أن تؤتيه وأنت صحيح صحيح تأمل العيش، وتخشى الفقر». وقيل الضمير لله، أو للمصدر. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ يريد المحاويج منهم، ولم يقيد لعدم الالتباس. وقدم ذوي القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة». ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكنته الخلة، وأصله دائم السكون كالمسكير للدائم السكر. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر، سمي به لملازمته السبيل كما سمي القاطع ابن الطريق. وقيل الضيف لأن السبيل يعرف به. ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، وقال عليه السلام «للسائل حق وإن جاء على فرسه». ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين، أو فك الأساري، أو ابتياع الرقاب لعنتها. ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة. وفي الحديث «نسخت الزكاة كل صدقة». ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ عطف على ﴿من آمن﴾. ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ نصبه على المدح ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال. وعن الأزهري: البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت مجاهدة العدو. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها، دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿من آمن بالله﴾ إلى ﴿والنبيين﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ إلى ﴿وفي المرقاب﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ إلى آخرها ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده بالتقوى، اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق. وإليه أشار بقوله عليه السلام «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد

والذكر بالأثني. فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأمرهم أن يتباوؤا. ولا تدل على أن لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأثني، كما لا تدل على عكسه، فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم وقد بينا ما كان الغرض وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما. قتل الحر بالعبد سواء كان عبده أو عبد غيره، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قتل عبده فجلدته الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يقده به. وروي عنه أنه قال: من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ولا حر بعبد ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير. وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالة فليس له دعوى نسخه بقوله تعالى: ﴿النفس بالنفس﴾ لأنه حكاية ما في التوراة فلا ينسخ ما في القرآن. واحتجت الحنفية به على أن مقتضى العمد القود وحده، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يصدق عليه أنه وجب وكتب، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه. وقرئ «كُتِبَ» على البناء للفاعل و«الْقِصَاصُ» بالنصب، وكذلك كل فعل جاء في القرآن. ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي شيء من العفو، لأن عفا لازم. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التام في إسقاط القصاص. وقيل عفا بمعنى ترك، وشيء مفعول به وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيء بمعنى تركه بل أعفاه. وعفا يعدي بعن إلى الجاني وإلى الذنب، قال الله تعالى ﴿عفا الله عنك﴾ وقال ﴿عفا الله عما سلف﴾. فإذا عدي به إلى الذنب عدي إلى الجاني باللام وعليه ما في الآية كأنه قيل: فمن عفي له عن جنايته من جهة، أخيه، يعني ولي الدم. وذكره بلفظ الإخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرق له ويعطف عليه. ﴿فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءَ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع. والمراد به وصية العافي بأن يطلب الدية بالمعروف فلا يعنف، والمعفو عنه بأن يؤديها بالإحسان: وهو أن لا يمطل ولا يبخس. وفيه دليل على أن الدية أحد مقتضى العمد، وإلا لما رتب الأمر بأدائها على مطلق العفو. وللشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة قولان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية. ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل كتب على اليهود القصاص وحده، وعلى النصارى العفو مطلقاً. وخيرت هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حسب مراتبهم. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ﴾ أي قتل بعد العفو وأخذ الدية. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل في الدنيا بأن يقتل لا محالة لقوله عليه السلام «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية».

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَأْتُوايَ الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتصر من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتصر منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ يحتمل أن يكونا خيرين لحياة وأن يكون أحدهما خيراً والآخر صلة له، أو حالاً من الضمير المستكن فيه. وقرئ في «القصص» أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب. ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ذوي العقول الكاملة. ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكفوا عن القتل.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى

الْمُتَّقِينَ ﴿١٨١﴾ .

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته. ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا. وقيل مالا كثيرا، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن مولى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم، فمنعه وقال قال الله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ والخير هو المال الكثير. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن رجلا أراد أن يوصي فسأله كم مالك، فقال: ثلاثة آلاف فقالت: كم عيالك قال: أربعة قالت: إنما قال الله تعالى ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ وإن هذا الشيء يسير فاتركه لعيالك. ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بكتب، وتذكير فعلها للفصل، أو على تأويل أن يوصي، أو الإيصاء ولذلك ذكر الراجع في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾. والعامل في إذا مدلول كتب لا الوصية لتقدمه عليها. وقيل مبتدأ خبره ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرَهَا وَالشَّرَّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلَانِ

وَرَدُّ بَأَنَّهُ إِنْ صَحَّ فَمِنْ ضَرُورَاتِ الشَّعْرِ. وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية الموارث ويقول عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث». وفيه نظر: لأن آية الموارث لا تعارضه بل تؤكد من حيث إنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً، والحديث من الآحاد، وتلقي الأمة له بالقبول لا يحلقة بالمتواتر. ولعله احتراز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾. أو بإيصاء المحتضر لهم بتوفير ما أوصى به الله عليهم ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل فلا يفضل الغنى، ولا يتجاوز الثلث. ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً.

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٨٢﴾ .

﴿فَمَنْ بَدَلَهُ﴾ غيره من الأوصياء والشهود. ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي وصل إليه وتحقق عنده، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فما إثم الإيصاء المغير أو التبديل، إلا على مبدليه لأنهم الذين خافوا وخالفوا الشرع. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ أي توقع وعلم، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر ﴿مَوْصٍ﴾ مشدداً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ تعمداً للحيف. ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعد للمصلح، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام، وفيه تأكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطبيب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتبه النفس. ﴿لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ المعاصي فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء» أو الإخلال بأدائه لأصالته وقدمه.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل. فإن القليل من المال يعد عدا والكثير يهال هيلاً، ونصبها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدلالة الصيام عليه، والمراد بها رمضان أو ما وجب صومه قبل وجوبه ونسخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر، أو بكما كتب على الظرفية، أو على أنه مفعول ثانٍ لـ ﴿كتب عليكم﴾ على السعة. وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي: أن رمضان كتب على النصارى، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارة لتحويله. وقيل زادوا ذلك لموتان. أصابهم. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أو راكب سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر. ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعلية صوم عدد أيام المرض، أو السفر من أيام آخر إن أفطر، فحذف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها. وقرئ بالنصب أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بر أو صاع من غيره عند فقهاء العراق، ومد عند فقهاء الحجاز. رخص لهم في ذلك أول الأمر لما أمروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه، ثم نسخ. وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع «المساكين». وقرأ ابن عامر برواية هشام «مساكين» بغير إضافة الفدية إلى الطعام، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين، وقرئ «يطوقونه» أي يكلفونه ويقلدونه في الطوق بمعنى الطاقة أو القلادة ويتطوقونه أي يتكلفونه، أو يتقلدونه ويطوقونه بالإدغام، و «يطيقونه» و «يطيقونه» على أن أصلهما يطيقونه ويتطوقونه من فيعل وتفعيل بمعنى يطوقونه ويتطوقونه، وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده. وهم الشيوخ والعجائز. في الإفطار والفدية، فيكون ثابتاً وقد أول به القراءة المشهورة، أي يصومونه جهدهم وطاقتهم. ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية. ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع أو الخير. ﴿خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا﴾ أيها المطيقون، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم. أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر. ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه. وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذف المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان. وقرئ بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشهرة، ورمضان: مصدر رمض إذا احترق؛ فأضيف إليه الشهر وجعل علماً ومنع من الصرف للعلمية والألف والنون، كما منع دأية في ابن دأية علماً للغراب للعلمية والتأنيث، وقوله عليه الصلاة والسلام «من صام رمضان» فعلى حذف المضاف لأمن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رمض الحر حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ﴾

الْقُرْآنُ﴾ أي ابتدء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. وعن النبي ﷺ «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين، والإنجيل لثلاث عشرة، والقرآن لأربع وعشرين» والموصول بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معنى الشرط. وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم. ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن، أن أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام. ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه، لكن وضع المظهر موضع المضمحل الأول للتعظيم، ونصب على الظرف وحذف الجار ونصب الضمير الثاني على الاتساع. وقيل: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ﴾ هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر ولعل تكريره لذلك، أو لثلاث يتوهم نسخه كما نسخ قرينه. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر عليكم، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علل لفعل محذوف دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالقضاء ومراعاة عدة ما أفطر فيه، والترخيص «لتكملوا العدة» إلى آخرها على سبيل اللف، فإن قوله «ولتكمّلوا العدة» علة الأمر بمراعاة العدة، «ولتكبّروا الله» علة الأمر بالقضاء وبيان كيفيته، «ولعلكم تشكرون» علة الترخيص والتيسير. أو الأفعال كل لفعله، أو معطوفة على علة مقدرة مثل ليسهل عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون وتكملوا العدة، ويجوز أن يعطف على اليسر أي ويريد بكم لتكملوا كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ﴾. والمعنى بالتكبير تعظيم الله بالحمد والثناء عليه، ولذلك عدي بعلی. وقيل تكبير يوم الفطر، وقيل التكبير عند الإهلال وما يحتمل المصدر، والخبر أي الذي هداكم إليه وعن عاصم برواية أبي بكر ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بالتشديد.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم، روي: أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب. ووعد للداعي بالإجابة. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهامهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرشd وهو إصابة الحق. وقرئ بفتح الشين وكسرهما. واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه، ثم بين أحكام الصوم فقال:

﴿أَحَلَّ لَكُمُ لَيْلَةَ النَّصِيَّاءِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ مِّنْ لَّيَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا سَ لَهْنٌ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَلَتُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَ شِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا النَّصِيَّاءَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ

وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حل لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: إن عمر رضي الله عنه باشر بعد العشاء فندم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً، والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رفث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعدي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء، وإثاره هنا لتقبيح ما ارتكبه ولذلك سماه خيانة. وقرئ «الرفوث» ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن، وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابس، ولما كان الرجل والمرأة يعتقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شبه باللباس قال الجعدي:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نُسِيَ عَظْمَهَا تَثَلَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغ من الخيانة كالاكتساب من الكسب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترتموه. ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره. ﴿فَالَاَنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ لما نسخ عنكم التحريم وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البشرة كني به عن الجماع. ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبتته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد فإنه الحكمة من خلق الشهوة. وشرع النكاح لا قضاء الوطر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأني. والتقدير وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق وما يمتد معه من غيش الليل، بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله ﴿من الفجر﴾ عن بيان ﴿الخيط الأسود﴾، لدلالته عليه. وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل. ويجوز أن تكون من للتبويض، فإن ما يبدو بعض الفجر. وما روي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعمد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبين لهم فنزلت، إن صح فلعلة كان قبل دخول رمضان وتأخير البيان إلى وقت الحاجة جائزة، أو أكتفى أولاً باشتهاهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة صوم المصباح جنبا ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ بيان لآخر وقته، الليل عنه فينفي صوم الوصال ﴿وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ معتكفون فيها والاعتكاف هو اللبث في المسجد بقصد القرية. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك. وفي دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد. وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذكرت. ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه». وهو أبلغ من قوله ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾، ويجوز أن يريد بـ ﴿حدود الله﴾ محارمه ومناهيه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّارِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾

بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبيحه الله تعالى . وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال . ﴿وَتَذْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن والإدلاء الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام . ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم . ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة . ﴿مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثماً، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم . ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح . روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرئ القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بينة، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهم به فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية . فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت . وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفذ باطناً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي . ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه وإنما أقضي له قطعة من ناره» .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ سألوه معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم فقالوا: (ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا) ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقتة يعرف بها أوقاتها . وخصوصاً الحج فإن الوقت مراعي فيه أداء وقضاء . والمواقيت: جمع ميقات، من الوقت والفرق بينه وبين المدة والزمان: أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها . والزمان: مدة مقسومة، والوقت: الزمان المفروض لأمر . ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وقرأ أبو عمرو وورش وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر . ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ﴿وَلَكِنْ﴾، ورفع ﴿البر﴾ . كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من ثقب أو فرجة وراءه، ويعدون ذلك براً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر: برٌّ من اتقى المحارم والشهوات، ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين . أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عما لا يعنيه ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيه ويختص بعلم النبوة، عقب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللاتق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه . والمعنى: وليس البر بأن تعكسوا مسائلكم ولكن البر بر من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله . ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ إذ ليس في العدول بر فباشروا الأمور من وجوها . ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله . ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ .

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه . ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أمروا بقتال المشركين كافة المقاتلين منهم والمجاهزين . وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده . ويؤيد الأول ما روى: أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من

قابل فيخلوا له مكة . شرفها الله . ثلاثة أيام ، فرجع لعمره القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم . أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت ﴿وَلَا تَغْتُلُوا﴾ بابتداء القتال ، أو بقتال المعاهد ، أو المفاجأة به من غير دعوة ، أو المثلة ، أو قتل من نهيتهم عن قتله . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا يريد بهم الخير .

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩١) .

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُونَهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في حل أو حرم . وأصل الثقف : الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً . فهو يتضمن معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال :

فَأَمَّا تَثْقَفُونِي فَاَقْتُلُونِي فَمَنْ أَثَقَفَ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح . ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتن بها الإنسان ، كالأخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها . وقيل : معناه شركهم في الحرم وصددهم إياكم عنه أشد من قتلهم إياهم فيه . ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تقاتلوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام . ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمة . وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ﴾ . والمعنى حتى يقتلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو أسد . ﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا .

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٢) ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣) .

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب . ﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الشرك . ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم ، فوضع العلة موضع الحكم . وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ . أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم ، والفاء الأولى للتعقيب والثانية للجزاء .

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤) .

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجهم لعمره القضاء فيه ، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحرمة فليل لهم هذا الشهر بذاك وهتكه بهتكم فلا تبالوا به . ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه ، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يحافظ عليها يجري فيها القصاص . فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله ، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم . كما قال : ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وهو فذلكة التقرير . ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلى ما لم يرخص لكم . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم .

﴿وَأَتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥) .

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهاليها وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت، أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد، والإلقاء: طرح الشيء، وعدى بآلى لتضمن معنى الانتهاء، والباء مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس، والتهلكة والهلاك والهلك واحد فهي مصدر كالتضررة والتسرة، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك وقيل: معناه لا تجعلوها آخذة بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إليها فحذف المفعول. ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاييج. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاظِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي اتوا بهما تامين مستجمعي المناسك لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدل على وجوبهما ويؤيده قراءة من قرأ ﴿واقموا الحج والعمرة لله﴾، وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج، فقال: لا ولكن إن تعتمر خير لك» فمعارض بما روي «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك» ولا يقال إنه فسر وجد أنهما مكتوبين بقوله أهللت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاله بهما، لأنه رتب الإهلال على الوجدان وذلك يدل على أنه سبب الإهلال دون العكس. وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من ديرة أهلك، أو أن تفرد لكل منهما سفراً، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دينوي، أو أن تكون النفقة حلالاً. ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ منعتم، يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضي، مثل صده وأصده، والمراد حصر العدو عند مالك والشافعي رحمهما الله تعالى لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ ولنزوله في الحديبية، ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا حصر إلا حصر العدو وكل منع من عدو أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «من كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل» وهو ضعيف مؤول بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير «حجبي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني» ﴿لَمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليكم ما استيسر، أو فالواجب ما استيسر. أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى إن أحصر المحرم وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدي تيسر عليه، من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر. لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به، ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي لا تحلوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ محله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، وحمل الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حلاً كان أو حرماً، واقتصراره على الهدي دليل على عدم القضاء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء، والمحل. بالكسر. يطلق على المكان والزمان. والهدي: جمع هدية كجدي وجدية، وقرئ من «الهدى» جمع هدية كمطى في مطية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحل. ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ كجراحة وقمل. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعلية فدية إن حلق. ﴿مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة «لكم آذاك هَوَامُكُ»، قال:

نعم يا رسول الله قال: اخلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق على ستة مساكين أو انسك شاة والفرق ثلاثة أصع ﴿فَإِذَا أَمِثْتُمْ﴾ الإحصار. أو كنتم في حال سعة وأمن. ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ فَمَنْ اسْتَمْتَعَ وَانْتَفَعَ بالتقرب إلى الله بالعمرة قبل الانتفاع بتقريبه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج. ﴿فَمَا اسْتَنْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دم جبر أن يذبحه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إنه ندم نسك فهو كالأضحية ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صوم يوم النحر وأيام التشريق عند الأكثرين. ﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وقرئ «سبعة» بالنصب عطفًا على محل «ثلاثة أيام». ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ﴾ فذلك الحساب، وفائدتها أن لا يتوهم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين. وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما «كاملة» صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبينة كمال العشرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها، أو مقيدة تقيد كمال بدليتها من الهدي. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور عندنا. والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى لأنه لا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعليه دم جناية. ﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا، فإن كان على أقل فهو مقيم في الحرم، أو في حكمه. ومن مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحل عند طائوس وغير المكي عند مالك. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتقه كي يصدكم العلم به عن العصيان.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧).

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته. كقولك البرد شهران. ﴿مَعْلُومَاتٌ﴾ معروفة وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذو الحجة كله عند مالك. وبناء على الخلاف على أن المراد بوقته وقت إحرامه، أو وقت أعماله ومناسكه، أو ما لا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً، فإن مالكا كره العمرة في بقية ذي الحجة. وأبو حنيفة رحمه الله وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه. وإنما سمي شهران وبعض شهر أشهراً إقامة للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد. ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا، أو بالتلبية أو سوق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلا جماع، أو فلا فحش من الكلام. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا وراء مع الخدم والرفقة. ﴿فِي الْحَجِّ﴾ في أيامه، نفي الثلاثة على قصد النهي للمبالغة ولللدالة على أنها حقيقة بأن لا تكون، وما كانت منها مستبحة في أنفسها ففي الحج أقبح كلبسة الحرير في الصلاة. والتطريب بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى مخض العبادة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأولين بالرفع على معنى: لا يكونن رفث ولا فسوق. والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تحالف سائر العرب فتقف بالمعشر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقموا أيضاً بعرفة. ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ حث على الخير

عقب به النهي عن الشر ليستبدل به ويستعمل مكانه. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وتزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كلا على الناس، فأمرُوا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والتثقل على الناس. ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية اللب خشية الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الأبواب بهذا الخطاب.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (١٩٨).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا. ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الريح بالتجارة، وقيل: كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأمروا منه فنزلت. ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ دفعت منها بكثرة، من أفضت الماء إذا صبيته بكثرة. وأصله أفضتم أنفسكم فحذف المفعول كما حذف في دفعت من البصرة. و ﴿عَرَفَاتٍ﴾ جمع سمي به كأذراعات، وإنما نون وكسر وفيه العلمية والتأنيث لأن تنوين الجمع تنوين المقابلة لا تنوين التمكين ولذلك يجمع مع اللام، وذهاب الكسرة تبع ذهاب التنوين من غير عوض لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك. أو لأن التأنيث إما أن يكون بالتاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث. وإنما هي مع الألف التي قبلها علامة جمع المؤنث، أو بتاء مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبدل لها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت، وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فلما أبصره عرفه أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال قد عرفت، أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا. أو لأن الناس يتعارفون فيه. وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتجلة إلا أن يجعل جمع عارف، وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب. وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته والأمر به غير مطلق. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جبل يقف عليه الإمام ويسمى «قرح». وقيل: ما بين مأزمي عرفة ووادي محسر، ويؤيد الأول ما روي جابر: أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر - يعني بالمزدلفة بغلس - ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر وإنما سمي مشعراً لأنه معلم العبادة، ووصف بالحرام لحرمة: ومعنى عند المشعر الحرام: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر. ﴿وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ كما علمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها. وما مصدرية أو كافة. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ أَى الْهُدَى. ﴿لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة، وأن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. وقيل: إن نافية واللام بمعنى إلا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩).

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأمرُوا بأن يساووهم. وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم. وقيل: من مزدلفة إلى منى بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام. وقرئ «الناس» بالكسر أي الناسي يريد آدم من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ والمعنى

أن الإفاضة من عرفة شرع قديم فلا تغيروه. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ الْنَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ فإذا قضيت العبادات الحسية وفرغتم منها. ﴿فَازْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفارقة. وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إما مجرور معطوف على الذكر يجعل الذكر ذكراً على المجاز والمعنى: فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو كذكر أشد منه وأبلغ. أو على ما أضيف إليه على ضعف بمعنى أو كذكر قوم أشد منكم ذكراً. وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكرهم من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكورية من آباءكم. أم بمضمرة دل عليه المعنى تقديره: أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم. ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مقل لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا ومكثر يطلب به خير الدارين، والمراد الحث على الإكثار والإرشاد إليه. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا، أو من طلب خلاق.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يعني الصحة والكفاف وتوفيق الخير. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يعني الثواب والرحمة. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالعفو والمغفرة، وقول علي رضي الله تعالى عنه: الحسنه في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء. وعذاب النار المرأة السوء وقول الحسن: الحسنه في الدنيا العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب والمؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني. وقيل إليهما. ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله كقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا﴾ أو مما دعوا به نعطيههم منه ما قدرناه فسمي الدعاء كسباً لأنه من الأعمال. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحمة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلى الطاعات واكتسبوا الحسنات.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ كبروه في أديار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النفر. ﴿فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ كبروه في أديار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النفر. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القر والذي بعده، أي فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة. ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله. ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث بعد الزوال، وقال أبو حنيفة: يجوز تقديم رميه على الزوال. ومعنى نفي الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثم المتعجل ومنهم من أثم المتأخر. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي الذي ذكر من التخيير، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه

الحاج على الحقيقة والمنفعة به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهيمه منهما. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بعد الإحياء. وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ

﴿٢٠٤﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾ يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجب منه. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من إدعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو يعجبك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحسرة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يحلف ويستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين، والخصام المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خصم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة. قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدعي الإسلام. وقيل في المنافقين كلهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ ﴿٢٠٦﴾

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار والياً. ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَهُلِكَ الْحَرْثُ وَالنَّسْلُ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيثهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولادة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ لا يرضيه فاحذروا غضبه عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقائه لجاجاً، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه. ﴿فَحَسْبُ جَهَنَّمَ﴾ كفته جزاء وعذاباً، و ﴿جَهَنَّمَ﴾ علم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرب. ﴿وَلَيْسَ الْمُهَادُ﴾ جواب قسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْغَاتٍ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٢٠٧﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبيعها أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ﴿ابْتِغَاءَ مَرْغَاتٍ اللَّهِ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنتم معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخلوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبلوه منه وأتى المدينة. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً﴾ بالسلم والكسر والفتح الاستسلام والطاعة، ولذلك يطلق في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافة اسم للجملة لأنها تكف الأجزاء

من التفرق حال من الضمير أو السلم لأنها تؤنث كالحرب قال:

السَّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيَتْ بِهِ - وَالْحَزْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرْعُ

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين، أو ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره. والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عظموا السبت وحرّموا الإبل والبانها، أو في شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب، أو في شعب الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشيء والخطاب للمسلمين. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ بالتفرق والتفريق. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ عن الدخول في السلم. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

﴿٢١٠﴾

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ استفهام في معنى النفي ولذلك جاء بعده. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرِي﴾ ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَا﴾ أو يأتيهم الله بآسئه فحذف المأتي به للدلالة عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة كقلة وقلل وهي ما أظلك، وقرئ «ظلال» كقلال. ﴿مِنْ الْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أفظع لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يحتسب الخير. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فإنهم الراسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة بآسئه. وقرئ بالجبر عطفاً على ﴿ظُلَلٍ﴾ أو ﴿الغمام﴾. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أتم أمر إهلاكهم وفرغ منه، وضع الماضي موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه. وقرئ و «قضاء الأمر» عطفاً على الملائكة. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع، وقرأ الباقر على البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع، وقرئ أيضاً بالتذكير وبناء المفعول.

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا يَنْبُذُونَ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ﴾ ﴿٢١١﴾

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ، أو لكل أحد والمراد بهذا السؤال تفرعهم. ﴿كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، و ﴿كَمَا﴾ خبرية أو استفهامية مقررّة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذف العائد من الخبر إلى المبتدأ. وآية مميزة. ومن للفصل. ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أي آيات الله فإنها سبب الهدى الذي هو أجل النعم، يجعلها سبب الضلالة وازدياد الرجس، أو بالتحريف والتأويل الزائغ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها، وفيه تعريض بأنهم بدلوا بعد ما عقلوها ولذلك قيل تقديره فبدلوا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة.

﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ

مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢١٢﴾

﴿رُئِنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها، والمزين في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، ويدل عليه قراءة «رُئِنَ» على البناء للفاعل، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلقه الله فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مزين بالعرض.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي يستردلونهم ويستهنئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العقبى، ومن للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لأنهم في عِلين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مذلة، أو لأنهم يتناولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا، ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للفقراء. ﴿وَاللَّهُ يَزُرُّكَ مَنْ يَشَاءُ﴾ في الدارين. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسع في الدنيا استدراجاً تارة وابتلاء أخرى.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بِهِتَّ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢١٣).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس أو نوح. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي فاختلّفوا فبعث الله، وإنما حذف لدلالة قوله فيما اختلّفوا فيه. وعن كعب (الذي علمته من عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون). ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم، وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم. ﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي ملتبساً بالحق شاهداً به. ﴿لِيَحْكُمَ بِهِتَّ النَّاسِ﴾ أي الله، أو النبي المبعوث، أو كتابه. ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في الحق الذي اختلّفوا فيه، أو فيما التبس عليهم. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق، أو الكتاب. ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف أي عكسوا الأمر فجعلوا ما أنزل مزيجاً للاختلاف سبباً لاستحكامه. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختلف فيه من اختلف. ﴿مِنْ الْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يضل سالكه.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَرَزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات، تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم. و ﴿أَمْ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ ولم يأتكم، وأصل ﴿لَمَّا﴾ لم زيدت عليها ما وفيها توقع ولذلك جعلت مقابل قد. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ حالهم التي هي مثل في الشدة. ﴿مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ بيان له على الاستئناف. ﴿وَرَزِلُوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد. ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر. وقرأ نافع يقول بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مرض حتى لا يرجونه. ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ استبطاء له لتأخره. ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ استئناف على إرادة القول أي

فقليل لهم ذلك اسعافاً لهم إلى طلبتهم من عاجل النصر، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات، ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات».

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِلسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخاً هماً ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا تنفق من أموالنا وأبن نضعها فنزلت) ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سئل عن المنفق فأجيب ببيان المصروف لأنه أهم فإن اعتداد الثقة باعتباره، ولأنه كان في سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً في الآية، واقتصر في بيان المنفق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في معنى الشرط. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ جوابه أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوفي ثوابه، وليس في الآية ما ينافيه فرض الزكاة لينسخ به.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ شاق عليكم مكروه طبعاً، وهو مصدر نعت به للمباغلة، أو فعل بمعنى مفعول كالخيز. وقرئ بالفتح على أنه لغة فيه كالضعف والضعف، أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدة وعظم مشقته كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾. ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما كلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم. ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وهو جميع ما نهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى، وإنما ذكر ﴿عسى﴾ لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينها.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَايِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ روي (أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة. قبل بدر بشهرين. ليرصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونهم من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، وينذر فيه الناس إلى معاشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا، ورد رسول الله ﷺ العير والأسارى). وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام) والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشييعاً وتعبيراً وقيل أصحاب السرية. ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ بدل اشتغال من الشهر الحرام. وقرئ «عن قتال» بتكرير العامل. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي ذنب كبير، والأكثر أنه

منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ خلافاً لعطاء وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف، والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في الشهر الحرام مطلقاً فإن قتال فيه نكرة في حيز مثبت فلا يعم. ﴿وَصَدَّ﴾ صرف ومنع. ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات. ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ أي بالله. ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ على إرادة المضاف أي وصد المسجد الحرام كقول أبي دؤاد:

أَكُلُّ أَمْرِي تَخْسِيبُ أَمْرًا وَنَارُ تَوْقُدُ بِاللَّيْلِ نَارًا

ولا يحسن عطفه على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن عطف قوله: ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ على ﴿وَصَدَّ﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة ولا على الهاء في ﴿بِهِ﴾، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار. ﴿وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ والمؤمنون. ﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأ وبناء على الظن، وهو خير عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش. وأفعل مما يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي ما ترتكبه من الإخراج والشرك أقطع مما ارتكبه من قتل الحضرمي. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزُودَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل كقولك أعبد الله حتى أدخل الجنة. ﴿إِنْ امْتِطَعُوا﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواثق بقوته على قرنه: إن ظفرت بي فلا تبق علي، وإيذان بأنهم لا يردونهم. ﴿وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ قيد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والمراد بها الأعمال النافعة. وقرئ «حَبِطَتْ» بالفتح وهي لغة فيه. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لبطان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية. ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بسقوط الثواب. ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كسائر الكفرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأ وقلة احتياط. ﴿رَحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ نَفَعُ لِلنَّاسِ مِنَ الْإِثْمِ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ روي (أنه نزل بمكة قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَلَوْنَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأم أحدهم فقراً: «قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون» فنزلت ﴿لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ فقل من يشربها، ثم دعا عتيان بن مالك سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعراً فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى بغير فشجه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. والخمر في الأصل مصدر خمره إذا

ستره، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل، كما سمي سكرأ لأنه يسكره أي يحجزه، وهي حرام مطلقاً وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر. **﴿والميسر﴾** أيضاً مصدر كالموعد، سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير ييسر أو سلب يساره، والمعنى يسألونك عن تعاطيها لقوله تعالى: **﴿قُلْ فِيهِمَا﴾** أي في تعاطيها. **﴿إِنَّمْ كَبِيرٌ﴾** من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب عن الأمور، وارتكاب المحظور. وقرأ حمزة والكسائي «كثير» بالثاء. **﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾** من كسب المال والطرب والالتذاذ ومصادقة الفتيان، وفي الخمر خصوصاً تشجيع الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة. **﴿وَأَمُّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾** أي المفساد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما. ولهذا قيل إنها المحرمة للخمر لأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهر أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. **﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾** قيل سائله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المنفق والمصرف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. **﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾** العفو نقيض الجهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذله ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوَرَتِي حِينَ أَعْصَبُ

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغنم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً فقال: هاتها مغضباً فأخذها فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى». وقرأ أبو عمرو برفع **﴿الْعَفْوَ﴾**. **﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾** أي مثل ما بين أن العفو أصلح من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيناً مثل هذا التبيين، وإنما وحد العلامة والمخاطب به جمع على تأويل القليل والجمع، **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾** في الدلائل والأحكام.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٢٠).

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في أمور الدارين فتأخذوا بالأصلح والأنفع فيهما، وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾** لما نزلت **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾** الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم والاهتمام بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت **﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾** أي مداخلتهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتهم. **﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾** حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومن حق الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾** وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمره فيجازيه عليه. **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ﴾** أي ولو شاء الله إعانتكم لأعتنكم، أي كلفكم ما يشق عليكم، من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتكم. **﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾** غالب يقدر على الاعانت. **﴿حَكِيمٌ﴾** يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْبَبْتُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٢١).

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ أي ولا تتزوجوهن. وقرئ بالضم أي ولا تزوجوهن من المسلمين، والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِيرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ وقالت النصارى المسيح ابن الله إلى قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولكنها خصت عنها بقوله: ﴿وَالْمَحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ روي (أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأنته عناق وكان يهواها في الجاهلية فقالت: ألا تخلو. فقال: إن الإسلام حال بيننا فقالت: هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن استأمر رسول الله ﷺ فاستأمره) فنزلت ﴿وَلَا مَآئِمَةً مِّنْ مَّشْرِكَةٍ﴾ أي ولا امرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. ﴿وَلَوْ أَغَبْتَكُمْ﴾ بحسنها وشمائلها، والواو للحال ولو بمعنى إن وهو كثير. ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم، وترغيب في مواصلة المؤمنين. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتهم ومصاهرتهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ أي وأولياؤه، يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم. ﴿يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد والعمل الموصلين إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته. ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكروا، أو ليكونوا بحيث يرجي منهم التذكر لما ركز في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي (أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحيض ولا يواكلونها، كفعل اليهود والمنجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت). والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر يسألونك بغير واو ثلاثاً ثم بها ثلاثاً، لأن السؤالات الأولى كانت في أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقره نفرة منه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهم لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهم إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم». وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود، وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعون ولا يباليون بالحيض. وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحاً قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية ابن عباس «يَطْهُرْنَ» أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاماً لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانها قبل الغسل. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي المأني الذي أمركم الله به وحلله لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتزهين عن الفواحش والأفذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأني.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ وَقَدْ مَوَّأَ لَأَنْفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ قُلُوبُ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُونَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شبهن بها تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فأتوهن كما تاتون المحارث، وهو كالبيان لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾

﴿أَتَى شَنْتُمْ﴾ من أي جهة شنتم، روي (أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت). ﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ ما يدخر لكم من الثواب. وقيل هو طلب الولد. وقيل التسمية عند الوطء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقَةُ﴾ فتزودوا ما لا تفتضحون به. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم. أمر الرسول ﷺ أن ينصحهم ويشر من صدقه وامثل أمره منهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿٢٢٤﴾

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في الصديق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبد الله بن رواحة حلف أن لا يكلم ختنه بشير بن النعمان ولا يصلح بينه وبين أخته. والعرضة فعلة بمعنى المفعول كالقبضة تطلق لما يعرض دون الشيء وللمعرض للأمر، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلقتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالإيمان الأمور المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة «إذا حلقت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». وأن مع صلتها عطف بيان لها، واللام صلة عرضة لما فيها من معنى الاعتراض، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعرضة أي ولا تجعلوا الله عرضة لأن تبرؤوا لأجل إيمانكم به، وعلى الثاني ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم الحلاف بقوله: ﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْنًا﴾ و «أن تبرؤا» علة للنهي أي أنهاكم عنه إرادة بركم وتقواكم وإصلاحكم بين الناس، فإن الحلاف مجترى على الله تعالى، والمجترى عليه لا يكون براً متقياً ولا موثقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره، ولغو اليمين مالا عقد معه كما سبق به اللسان، أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب: لا والله وبلى والله، لمجرد التأكيد لقوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ والمعنى لا يؤاخذكم الله بعقوبة ولا كفارة بما لا قصد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطأت فيها قلوبكم ألسنتكم. وقال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخاة على يمين الجد تريباً للتوبة.

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يحلفون على أن لا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القسم معنى البعد عدي بمن. ﴿تَرِيصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ وما قبله خبره، أو فاعل الظرف على خلاف سبق، والتريص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع، أي للمولي حق التلبث في هذه المدة فلا يطالب بفيء، ولا طلاق، ولذلك قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿فَإِنْ فاءُوا﴾ رجعوا في اليمين بالحنث، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمولى إثم حنثه إذا كفر، أو ما توخى بالإيلاء من

ضرار المرأة ونحوه، بالفئة التي هي كالتوبة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ وإن صمموا قصده ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه، وقال أبو حنيفة: الإيلاء في أربعة أشهر فما فوقها، وحكمه أن المولي إن فاء في المدة بالوطء إن قدر، وبالوعد إن عجز، صح الفیء ولزم الواطء أن يكفر وإلا بانت بعدها بطلقة. وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الإقراء لما دلت عليه الآيات والأخبار أن حكم غيرهن خلاف ما ذكر. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغيير العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يسار إلى امتثاله، وكان المخاطب قصد أن يمثل الأمر فيخبر عنه كقولك في الدعاء: رحمك الله، وبنائه على المبتدأ يزيده فضل تأكيد. ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ تهيج وبعث لهن على التربص، فإن نفوس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربص. ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ نصب على الظرف، أو المفعول به. أي يتربصن مضيتها. و ﴿قُرُوءٍ﴾ جمع قرء وهو يطلق للحيض، كقوله عليه الصلاة والسلام «دعي الصلاة أيام أقرائك» وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

مُورِثَةٌ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رَفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض، كما قاله الحنفية لقوله تعالى: ﴿فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي وقت عدتهن. والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان» فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء». وكان القياس أن يذكر بصيغة القلة التي هي الأقراء، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر، ولعل الحكم لما عم المطلقات ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسن بناؤها. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحق الرجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان، وأن المؤمن لا يجترئ عليه ولا ينبغي له أن يفعل. ﴿وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ﴾ أي أزواج المطلقات. ﴿أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً للآية التي تنلونها فالضمير أخص من المرجوع إليه ولا امتناع فيه، كما لو كرر الظاهر وخصصه. والبعولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخولة، أو مصدر من قولك بعل حسن البعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أي وأهل بعولتهن، وأفعل ههنا بمعنى الفاعل. ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي في زمان التربص. ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بالرجعة لا لإضرار المرأة، وليس المراد منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريض عليه والمنع من قصد الضرر. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي ولهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لا في الجنس. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرر ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قوام عليهن وحراس لهن يشاركونهن في غرض الزواج ويخصون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام.

﴿حَكِيمٌ﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ أي التطلق الرجعي اثنان لما روي (أنه ﷺ سئل أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿أو تسريح بإحسان﴾). وقيل؛ معناه التطلق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة. ﴿فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة، وهو يؤيد المعنى الأول. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لا يراجعها حتى تبين، وعلى المعنى الأخير حكم مبتدأ وتخيير مطلق عقب به تعليمهم كيفية التطلق. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي من الصدقات. روي (أن جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: لا أنا ولا ثابت لا يجمع رأسي ورأسه شيء، والله ما أعيبه في دين ولا خلق ولكنني أكره الكفر في الإسلام، وما أطيقه بعضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيتُه أقبِل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. فنزلت فاختلعت منه بحديقة كان أصدقها إياها. والخطاب مع الحكام وإسناد الأخذ والإيتاء إليهم لأنهم الأمرون بهما عند الترافع. وقيل إنه خطاب للزواج وما بعده خطاب للحكام وهو يشوش النظم على القراءة المشهورة. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان. وقرئ «يظننا» وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن. ﴿أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية. وقرأ حمزة ويعقوب «يخافا» على البناء للمفعول وإبدال أن بصلته من الضمير بدل الاشتمال. وقرئ «تخافا» و «تقيما» بناء الخطاب. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام. ﴿أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على الرجل في أخذ ما افتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما حد من الأحكام. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتعدوها بالمخالفة. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهي بالوعيد مبالغة في التهديد، واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخلع لا يجوز من غير كراهة وشقاق، ولا بجميع ما سبق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قوله ﷺ «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة: «أتردين عليه حديقته؟ فقالت: أرداه وأزيد عليها، فقال عليه الصلاة والسلام أما الزائد فلا». والجمهور استكراهه ولكن نفذوه فإن المنع عن العقد لا يدل على فساده، وأنه يصح بلفظ المفاداة، فإنه تعالى سماه افتداء. واختلف في أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق، ومن جعله فسخاً احتج بقوله:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا حِلَّ لَهَا مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ فإن تعقيبها للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طليقة رابعة لو كان الخلع طلاقاً. والأظهر أنه طلاق لأنه فرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعوض، وقوله فإن طلقها متعلق بقوله: ﴿الطلاق مرتان﴾ أو تفسير لقوله: ﴿أو تسريح بإحسان﴾ اعترض بينهما ذكر الخلع دلالة على أن الطلاق يقع مجاناً تارة ويعوض أخرى، والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين. ﴿فَلَا حِلَّ لَهَا مِنْ بَعْدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق. ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاح يستند إلى كل منهما كالزوج، وتعلق بظاهره من اقتصر على العقد كابن المسيب واتفق الجمهور على أنه لا بد من الإصابة لما روي: أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ: إن

رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني وإن ما معه مثل هدية الثوب. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ قالت: نعم، قال: لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك». فالآية مطلقة قيدها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج. والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها، والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر. وجوزه أبو حنيفة مع الكراهة، وقد لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. «فَإِنْ طَلَّقَهَا» الزوج الثاني «فَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا» أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج، «إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسير الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تظن ولا تعلم، ولأنه لا يقال علمت أن يقوم زيد لأن أن الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. «وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ» أي الأحكام المذكورة. «بَيْنَئِهَا لِقُومٌ يَعْلَمُونَ» يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا لِهِنَّ أَجْلاً فَامَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا لِهِنَّ أَجْلاً» أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولمنتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كُلَّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ الْعُمُرِ وَوَمَوَدٌ إِذَا أُنْتَهَى أَجْلُهُ

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يرتب عليه. «فَإِمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ» إذ لا إمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صورته للاهتمام به. «وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا» ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهى عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونصب ضراراً على العلة أو الحال بمعنى مضارين. «لِّتَعْتَدُوا» لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الإفتداء، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده. «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» بتعريضها للعقاب. «وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا» بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازئ، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده. وقيل؛ (كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب) فنزلت. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، الطلاق والنكاح والعتاق» «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» التي من جملتها الهداية، وبيعة محمد ﷺ بالشكر والقيام بحقوقها. «وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ» القرآن والسنة أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما. «يَعِظُكُمْ بِهِ» بما أنزل عليكم. «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» تأكيد وتهديد.

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا لِهِنَّ أَجْلاً فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا لِهِنَّ أَجْلاً» أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين. «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ» المخاطب به الأولياء لما روي (أنها

نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلاء أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئناف) فيكون دليلاً على أن المرأة لا تزوج نفسها، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى، ولا يعارض بإسناد النكاح إليهن لأنه بسبب توقفه على إذهنهن. وقيل الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد مضي العدة ولا يتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً، لأنه جواب قوله ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾. وقيل الأولياء والأزواج. وقيل الناس كلهم، والمعنى: لا يوجد فيما بينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا الفاعلين له. والعضل الحبس والتضييق ومنه عضلت الدجاجة إذا نشب بيضها فلم يخرج. ﴿إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأنه ينكحن أو لا تعضلوهن. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة، حال من الضمير المرفوع، أو صفة لمصدر محذوف، أي تراضياً كائناً بالمعروف. وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غير منهي عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مضى ذكره، والخطاب للجميع على تأويل القبيل، أو كل واحد، أو أن الكاف لمجرد الخطاب. والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، أو للرسول ﷺ على طريقة قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لا يكاد يتصوره كل أحد. ﴿يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنه المتعظ به والمنفع. ﴿ذَلِكَ﴾ أي العمل بمقتضى ما ذكر. ﴿أَزَكَّى لَكُمْ﴾ أنفع. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من دنس الآثام. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه من النفع والصلاح. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُمْ بَوْلِدُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة ومعناه الندب، أو الوجوب فيخص بما إذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر، أو عجز الوالد عن الاستئجار. والوالدات يعم المطلقات وغيرهن. وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن. ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أكد بصفة الكمال لأنه مما يتسامح فيه. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرِّضَاعَةَ﴾ بيان للمتوجه إليه الحكم أي ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة، والأم ترضع له. وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولا عبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي الذي يولد له يعني الوالد، فإن الولد يولد له وينسب إليه. وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضى لوجوب الإرضاع ومؤن المرضعة عليه. ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أجرة لهن، واختلف في استئجار الأم، فجوزها الشافعي، ومنعه أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما دامت زوجة أو معتدة نكاح. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ حسب ما يراه الحاكم وفيه به وسعه. ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييد بالمعروف، ودليل على أنه سبحانه وتعالى لا يكلف العبد بما لا يطيقه وذلك لا يمنع إمكانه. ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدُهُ﴾ تفصيل له وتقرير، أي لا يكلف كل واحد منهما الآخر ما ليس في وسعه، ولا يضار به بسبب الولد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَا تُضَارُّ﴾ بالرفع بدلاً من قوله ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، وأصله على القراءتين تضارر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضرر والباء من صلته أي لا يضر الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له. وقرأ ﴿لَا تُضَارُّ﴾ بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضار به يضيره، وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطاف لهما عليه، وتنبه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يضرا به، أو أن يتضارا بسبه. ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ عطف على

قوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، وما بينهما تعليل معترض. والمراد بالوارث وارث الأب وهو الصبي أي مؤن المرضعة من ماله إذا مات الأب. وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام «واجعله الوارث منا»، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لا نفقة عنده فيما عدا الولادة. وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى. وقيل وارثه المحرم منه، وهو مذهب أبي حنيفة. وقيل عصباته وبه قال أبو زيد وذلك إشارة إلى ما وجب على الأب من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي فصلاً صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين، والتشاور والمشاورة والمشورة والمشورة استخراج الرأي، من شُرِث العسل إذا استخرجته. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصالح الطفل، وحذراً أن يقدم أحدهما على ما يضرُّ به لغرض أو غيره. ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها إياه، كقولك أنجح الله حاجتي واستنجحته إياها، فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه وإطلاقه يدل على أن للزوج أن يسترضع الولد ويمنع الزوجة من الإرضاع. ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إلى المراضع. ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ ما أردتم إيتاءه كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وقراءة ابن كثير ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾، من أتى إحساناً إذا فعله. وقرئ «أوتيتم» أي ما آتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صلة سلمتم، أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً. وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله، وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ما هو الأولى والأصلح للطفل. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ما شرع في أمر الأطفال والمراضع. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حث وتهديد.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٥).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أزواج الذين، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدهم، كقولهم السمن منوان بدرهم. وقرئ «يَتَوَفَّوْنَ» بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وتأنيث العشر باعتبار الليالي لأنها غرر الشهور والأيام، ولذلك لا يستعملون التذكير في مثله قط ذهاباً إلى الأيام حتى إنهم يقولون صمت عشراً ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ثم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ولعل المقتضى لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فاعتبر أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضعف حركته في المبادي فلا يحس بها، وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية فيه، كما قاله الشافعي والحرّة والأمة كما قاله الأصم، والحامل وغيرها، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة، والإجماع خص الحامل منه لقوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وعن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ما حرم عليهن للعدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ما ينكره فعليهن أن يكفوهن، فإن قصرن فعليهن الجناح. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَرْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ ذَلِيلٌ﴾ (٢٣٥).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازاً، كقول السائل جئتكم لأسلم عليكم، والكناية هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك الطويل النجاد للطويل، وكثير الرماد للمضيف. والخطبة بالضم والكسر اسم الحالة، غير أن المضمومة خصت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. ﴿أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولا تعريضاً. ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولا تصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. ﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يسر ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لا تواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بما يستهجن. ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن تعرضوا ولا تصرحوا والمستثنى منه محذوف أي: لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة معروفة، أو إلا مواعدة بقول معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سرّاً وهو ضعيف لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختلف في معتدة الفراق البائن والأظهر جوازه. ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عَقْدَ النِّكَاحِ﴾ ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولا تعزموا عقد عقدة النكاح. وقيل معناه ولا تقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ حتى ينتهي ما كتب من العدة. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَفْلَحُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز. ﴿فَاخْذُرُوهُ﴾ ولا تعزموا. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعة من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل الميسر. وقيل: كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطرق فظن أن فيه حرجاً فنفي ﴿إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن. وقرأ حمزة والكسائي «تماسوهن» بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا. والفرض تسمية المهر، وفريضة نصب على المفعول به، فعيلة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى أنه لا تبعة على المطلق من مطالبة المهر إذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسم لها مهراً، إذ لو كانت ممسوسة فعيلة المسمى، أو مهر المثل. ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الأخيرتين. ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن، والحكمة في إيجاب المتعة جبر إباحاش الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله: ﴿عَلَى الْوُسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ أي على كل من الذي له سعة، والمقتر الضيق الحال ما يطيقه ويليق به، ويدل عليه قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوضة قبل أن يمسه «متعها بقلنسوتك». وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي درع وملحفة وخمار على حسب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوضة التي لم يمسه الزوج، وألحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان بفتح الدال ﴿مَتَاعًا﴾ متيعاً. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً. ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الذي يحسنون إلى

أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشاركة ترغيباً وتحريضاً.

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لما ذكر حكم المفوضة أتبعه حكم قسمها. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن، وهو دليل على أن الجناح المنفي ثم تبعه المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسمها ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً، والصيغة تحتل التذكير والتأنيث، والفرق أن الواو في الأول ضمير والنون علامة الرفع وفي الثاني لام الفعل والنون ضمير والفعل مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه. ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاجِ﴾ أي الزوج المالك لعقده وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخير للزوج غير مشطر بنفسه، وإليه ذهب بعض أصحابنا والحنفية. وقيل الولي الذي يلي عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلى الوجه الآخر عبارة عن الزيادة على الحق، وتسميتها عفواً إما على المشالكة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يسترده فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو. ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها، ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لثلا يلهمهم الاشتغال بشأنهم عنها. ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملاً الله بيوتهم ناراً». وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها، واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمرها». وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة. وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد وتر النهار. وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفي الليل. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ: «والصلاة الوسطى صلاة العصر»، فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل. وقرىء بالنصب على الاختصاص والمدح. ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ في الصلاة. ﴿قَانِتِينَ﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل خاشعين، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره. ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو

رجل بمعناه كقائم وقيام، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال المسافعة وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلى حال المشي والمسافعة ما لم يكن الوقوف. ﴿فَإِذَا أَمِثُمْ﴾ وزال خوفكم. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن أو اشكروه على الأمن ﴿كَمَا عَلِمَكُمْ﴾ ذكراً مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن. أو شكراً يوازيه وما مصدرية أو موصولة. ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ مفعول علمكم.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٥)

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصية، أو ليوصوا وصية، أو كتب الله عليهم وصية، أو ألزم الذين يتوفون وصية. ويؤيد ذلك قراءة كتب عليكم الوصية لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه. وقرأ الباقون بالرفع على تقدير ووصية الذين يتوفون، أو وحكمهم وصية، أو والذين يتوفون أهل وصية، أو كتب عليهم وصية، أو عليهم وصية وقرئ «متاع» بدلها. ﴿مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ نصب بيوصون إن أضمرت وإلا فبالوصية وبمتاع على قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتع. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول، أو حال من أزواجهم أي غير مخرجات، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتنع بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وهو وإن كان متقدماً في التلاوة فهو متأخر في النزول، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن، والسكنى لها بعد ثابتة عندنا خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ كالطيب وترك الإحداد. ﴿وَمِنْ مَّعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالحهم.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤٦) ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٧)

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أثبت المتعة للمطلقات جميعاً بعدما أوجبها لواحدة منهن، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير لكل مطلقة، وأول غيره بما يعم التمتع الواجب والمستحب. وقال قوم المراد بالمتاع نفقة العدة، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرار القضية ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٨)

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ، وقد يخاطب به من لم ير ومن لم يسمع فإنه صار مثلاً في التعجيب. ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان قرية قبل

واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هارين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. ﴿وَهُمْ أَلُوفٌ﴾ أي ألوف كثيرة. قيل عشرة. وقيل ثلاثون. وقيل سبعون وقيل متألفون جمع ألف أو ألف كقاعد وقعود والواو للحال. ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مفعول له. ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة، بأمر الله تعالى ومشيته. وقيل ناداهم به ملك وإنما أسند إلى الله تعالى تخويفاً وتهويلاً. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ قيل مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان وقد عريت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجب من ذلك فأوحى الله تعالى إليه ناد فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة، وحثهم على التوكل والاستسلام للقضاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥)

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه وأن المقدر لا محالة واقع، أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم في سبيل الله وإلا فالنصر والثواب. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلف والسابق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمrane وهو من وراء الجزء.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ ﴿مَنْ﴾ استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء، و ﴿ذَا﴾ خبره، و ﴿الَّذِي﴾ صفة ذا أو بدله، وإقراض الله سبحانه وتعالى مثل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى، فإن ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ في معنى أيقرض الله أحد. وقرأ ابن كثير «فيضعفه» بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب. ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل الواحد بسبعمائة، و «أضْعَافًا» جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب، أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتثنية. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقتر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم. وقرأ نافع والكسائي والبرقي وأبو بكر بالصاد ومثله في الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَوَّاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لَهُمْ رَبَّنَا وَلَكِنَّا نَلْقَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ كِتَابَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ أَلا نَقَاتِلْ أَلا تُلْقُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِينِنَا وَأَنْسَابِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٦)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿الْمَلَأُ﴾ جماعة يجتمعون للتشاور، ولا واحد له كالقوم ومن للتبعيض. ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ومن للابتداء. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو

شمويل عليهم السلام. ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أقم لنا أميراً ننهض معه للقتال يدبر أمره ونصدر فيه عن رأيه، وجزم نقاتل على الجواب. وقرىء بالرفع على أنه حال أي ابعثة لنا مقدرين القتال، ويقاقل بالياء مجزوماً ومرفوعاً على الجواب والوصف لملكا. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فصل بين عسى وخبره بالشرط، والمعنى أتوقع جينكم عن القتال إن كتب عليكم، فأدخل هل على فعل التوقع مستفهماً عما هو المتوقع عنده تقريراً وتثبيتاً. وقرأ نافع ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي أي غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمائة وأربعين. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْأَعْمَالِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ طالوت علم عبري كداود وجعله فعلوتاً من الطول تعسف يدفعه منع صرفه، روي أن نبيهم ﷺ لما دعا الله أن يملكهم أتى بعضا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل. ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه ورائه ومكنه وإنه فقير لا مال له يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً راعياً أو سقاء أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوى بن يعقوب والملك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطين خلق. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك. أولاً بأن العمدة فيه اصطفاؤه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، لا ما ذكرتم. وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه، وثالثاً بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتبه من يشاء، ورابعاً أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق فعلوت من التوب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفاعول لقلة نحو سلس وقلق، ومن قرأه بالهاء فلعله أبدله منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتأبوت أي مودع فيه

ما تسكنون إليه وهو التوراة. وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فثن فيزف الثابت نحو العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل الثابت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقراً للعلم والوقار بعد أن لم يكن. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ راض الألواح وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون، وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما. والآل مقحم لتفخيم شأنهما، أو أنبياء بني إسرائيل لأنهم أبناء عمهما. ﴿تَجْمَلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملك الله طالوت فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالثابت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي عليه السلام وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالى.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ فَلَئِنَّ عَلَيْهِمْ عَذَابٌ كَثِيرٌ إِيذِنَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة، وأصله فصل نفسه عنه ولكن لما كثرت حذف مفعوله صار كاللازم. روي: أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب النشيط الفارع، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيطاً فسلكوا مفازه وسألوه أن يجري الله لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ معاملكم معاملة المختبر بما اقترحاته. ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمتحد معي. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي من لم يذقه من طعم الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً قال الشاعر:

وَإِنْ شِئْتُ لَمْ أَطْعِمْ نَقَاحاً وَلَا بَرّاً

وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً كما قيل، أو بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه، وإنما قدمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قدم والصائبون على الخبر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير، وقرأ ابن عامر والكوفيون ﴿غُرْفَةً﴾ بضم الغين. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فكرعوا فيه إذ الأصل في الشرب منه أن لا يكون بوسط، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء، أو أفرطوا في الشرب منه إلا قليلاً منهم. وقرئ بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ في معنى فلم يطعوه والليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل ثلاثة آلاف. وقيل: ألفاً. روي أن من اقتصر على الغرفة كفته لشربه وإداوته، ومن لم يقتصر غلب عليه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي القليل الذين لم يخالفوه. ﴿قَالُوا﴾ أي بعضهم لبعض. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لكثرتهم وقوتهم. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاؤُوا اللَّهَ﴾ أي قال الخالص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل: هم القليل الذين ثبتوا معه، والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكثير المنحذين عنه اعتذاراً في التخلف وتخليلاً للقليل، وكأنهم تناولوا به والنهر بينهما. ﴿كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً إِيذِنَ

الله ﴿بحكمه وتيسيره، و ﴿كم﴾ تحتل الخبر والاستفهام، و ﴿من﴾ مينة أو مزيدة. والفتنة الفرقة من الناس من فأوت رأسه إذا شققته، أو من فاء رجع فوزنها فعة أو فلة. ﴿والله مع الصابرين﴾. بالنصر والإثابة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥١) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥٢)

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهوروا لهم ودنوا منهم. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان إيشا في عسكر طالوت معه ستة من بني، وكان داود سابعهم وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت، فحملها في مخلاته ورمها بها فقتله ثم زوجه طالوت بنته. ﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على ملك. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة. ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كالسرد وكلام الدواب والطير. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم، لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم. وقرأ نافع هنا وفي الحج «دفاع الله».

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٥٣)

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهمزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لما أخبرت بها من غير تعرف واستماع.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِّنْ نَّمِّهِمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَقَلْنَا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٤)

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة، أو المعلومة للرسول ﷺ، أو جماعة الرسل واللام للاستغراق. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ تفضيل له، وهو موسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، كلم الله موسى ليلة الحيرة وفي الطور، ومحمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بون بعيد، وقرئ «كلم الله» و «كالم الله» بالنصب، فإنه كلم الله كما أن الله كلمه ولذلك قيل كلم الله بمعنى مكالمه. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بأن فضله على غيره من وجوه متعددة، أو بمراتب متباعدة. وهو محمد

فإنه خصه بالدعوة العامة والحجج المتكاثرة والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر، والفضائل العلمية والعملية الفاتنة للحصر. والإيهام لتفخيم شأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصه بالخلة التي هي أعلى المراتب. وقيل: إدريس عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾. وقيل: أولو العزم من الرسل. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ خصه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي هدى الناس جميعاً. ﴿مَا أَفْتَلَّ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَاتُ﴾ أي المعجزات الواضحة لاختلافهم في الدين، وتضليل بعضهم بعضاً. ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه بخذلانه. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَوْا﴾ كرره للتأكيد. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفى من يشاء فضلاً، ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتة الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ما أوجب عليكم إنفاقه. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرطتم، والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه، أو تفتنون به من العذاب ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحكم به ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ حتى تتكلموا على شفاء تشفع لكم في حط ما في ذمكم، وإنما رفعت ثلاثتها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب: هل فيه بيع؟ أو خلة؟ أو شفاعة؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب على الأصل. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يريد والطاركون للزكاة هم ظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غيره موضعه وصرفوه على غير وجهه، فوضع الكافرون موضعه تغليظاً لهم وتهديداً كقوله: ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج وإيداناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره. وللنحاة خلاف في أنه هل يضرر للأخير مثل في الوجود أو يصح أن يوجد. ﴿الْحَيُّ﴾ الذي يصح أن يعلم ويقدر وكل ما يصح له فهو واجب لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان. ﴿الْقَيُّومُ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه فيعول من قام بالأمر إذا حفظه، وقرئ «القيام» و «القيم». ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة فتور يتقدم النوم قال ابن الرقاع:

وَسَنَانٌ أَفْضَلُهُ النَّعَاسُ فَرَنَقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَائِمٍ

والنوم حال تعرض للحيوان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً، وتقديم السنة عليه وقياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود، والجملة

نفى للتشبيه وتأکید لكونه حياً قيوماً، فإن من أخذه نعاس أو نوم كان مؤف الحياة قاصراً في الحفظ والتدبير، ولذلك ترك العاطف فيه وفي الجمل التي بعده. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لقيوميته واحتجاج به على تفرده في الألوهية، والمراد بما فيهما داخلياً في حقيقتيهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فهو أبلغ من قوله: ﴿لَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ﴾، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة أي مخاصمة. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس لأنك مستقبل المستقبل ومستدبر الماضي، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو عكسه، أو ما يحسونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه، والضمير لما في السموات والأرض، لأن فيهما العقلاء، أو لما دل عليه من ذا من الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ من معلوماته. ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يعلموه، وعطفه على ما قبله لأن مجموعهما يدل على تفرده بالعلم الذاتي التام الدال على وحدانيته سبحانه وتعالى. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ولا كرسي في الحقيقة، ولا قاعد. وقيل كرسيه مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العالم والملك. وقيل جسم بين يدي العرش ولذلك سمي كرسيّاً محيط بالسموات السبع، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي، إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة» ولعله الفلك المشهور بفلك البروج، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو الملبد. ﴿وَلَا يَؤُودُهُ﴾ أي ولا يثقله، مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج. ﴿حَفِظَهُمَا﴾ أي حفظه السموات والأرض، فحذف الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه. ﴿الْعَظِيمُ﴾ المستحق للإضافة إليه كل ما سواه.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته موجد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يناسب الأشياء ولا يعتريه ما يعترى الأرواح، مالك الملك والملوك، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له عالم الأشياء كلها، جليها وخفيها، كليها وجزئها، واسع الملك والقدرة، كل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يؤده شاق، ولا يشغله شأن، متعال عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله ملكاً يكتب من حسناته، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة». وقال «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صديق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والآيات حوله».

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٥٦).

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه، ولكن ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقلة متى تبين له ذلك بادرت بنفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. وقبل إخبار في معنى النهي، أي لا تكرهوا في الدين، وهو إما عام منسوخ بقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، أو خاص بأهل

الكتاب لما روي (أن أنصارياً كان له ابنان تنصرا قبل المبعث، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما فأبيا، فاخصموا إلى رسول الله ﷺ فقال: الأنصاري يا رسول الله أيدخل بعقبي النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما). ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عبد من دون الله، أو صد عن عبادة الله تعالى. فعلوت من الطغيان قلبت عينه ولامه. ﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل. ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ طلب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم. ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع لها يقال فصمته فانفصم إذا كسره. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ محبهم، أو متولي أمورهم، والمراد بهم من أراد إيمانه وثبت في علمه أنه يؤمن. ﴿يُخْرِجُهُم﴾ بهدأته وتوفيقه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوسواس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى الموصول إلى الإيمان، والجملة خير بعد خير، أو حال من المستكن في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبين، أو مقرر للولاية. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما. ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات. وقيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبب لا يأبى تعلق قدرته تعالى وإرادته به. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعيد وتحذير، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ تعجيب من محاجة نمرود وحماقته. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه أي أبطره إتياء الملك وحمله على المحاجة، أو حاج لأجله شكراً له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأنني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملك وهو حجة على من منع إتياء الله الملك الكافر من المعتزلة. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لـ ﴿حَاجَّ﴾، أو بدل من ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ على الوجه الثاني. ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد. وقرأ حمزة «رب» بحذف الياء. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو عن القتل والقتل. وقرأ نافع «أنا» بلا ألف. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثال خفي إلى مثال جلي من مقدوراته التي يعجز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمرود زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حملة عليه بطر الملك وحماقته، أو اعتقاد الحلول. وقيل لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياً ما ثم أخرجه ليحرقه، فقال له من ربك الذي تدعو إليه وحاجه فيه. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ فصار مبهوراً. وقرئ «فبهت» أي غلب إبراهيم الكافر. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْوُطَامِ كَيْفَ تُنْشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ تقديره أو أرايت مثل الذي فحذف لدلالة ألم تر عليه، وتخصيصه بحرف التشبيه لأن المنكر للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى، بخلاف مدعي الربوبية، وقيل الكاف مزيدة وتقدير الكلام ألم تر إلى الذي حاج أو الذي مر. وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل: ألم تر كالذي حاج، أو كالذي مر. وقيل: إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديره أو إن كنت تحيي فأحيي كإحياء الله تعالى الذي مر على قرية. وهو عزيز بن شرحيا. أو الخضر، أو كافر بالبعث. ويؤيده نظمه مع نمرود. والقرية بيت المقدس حين خربه بختنصر. وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القرى وهو الجمع. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانها على سقوفها. ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظماً لقدرة المحيي إن كان القاتل مؤمناً، واستبعاداً إن كان كافراً. و ﴿أَنَّى﴾ في موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو على الحال بمعنى كيف. ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ﴾ فألبسه ميتاً مائة عام، أو أماته الله فلبث ميتاً مائة عام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بالإحياء. ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُ﴾ القاتل هو الله وسأخ أن يكلمه وإن كان كافراً لأنه آمن بعد البعث أو شارف الإيمان. وقيل ملك أو نبي. ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظان. وقيل: إنه مات ضحى وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب. ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان، واشتقاقه من السنة. والهاء أصلية إن قدرت لأم السنة هاء وهاء سكت إن قدرت واواً. وقيل أصله لم يتسنن من اللحم المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقضي البازي، وإنما أفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد. وقيل كان طعامه تيناً وعنباً وشرابه عصيراً أو لبناً وكان الكل على حاله. وقرأ حمزة والكسائي «لم يتسن» بغير الهاء في الوصل. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامه، أو انظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظنا الطعام والشراب من التغير، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزيز فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله. وقيل لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً فإذا حدثهم بحديث قالوا حديث مائة سنة. ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم. ﴿كَيْفَ تُنْشِئُهَا﴾ كيف نحییها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه، وكيف منصوب بنشزها والجملة حال من العظام أي: انظر إليها محيية. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب «ننشزها» من أنشر الله الموتى، وقرأ «ننشزها» من نشر بمعنى أنشر. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعل تبين مضمير يفسره ما بعده تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، أو يفسره ما قبله أي فلما تبين له ما أشكل عليه. وقرأ حمزة والكسائي «قال اعلم» على الأمر والأمر مخاطبة، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَىٰ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْخُوهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ إنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً، وقيل لما قال نمرود أنا أحيي وأميت قال له: إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال نمرود: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم. وانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إن سئل عنه مرة أخرى. ﴿قَالَ أُولَٰئِمُتَىٰ تُوْمِنُ﴾ بآني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك وقد علم أنه أغرق الناس في الإيمان ليجيب بما أجاب به فيعلم السامعون غرضه. ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي بلى أمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بمضامة العيان إلى الوحي أو الاستدلال. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ قيل طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاوس، والصولة المشهور بها الديك وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترف والمسارة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خص الطير لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير مصدر سمي به أو جمع كصحب. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأملهن واضممنهن إليك لتتأملها وتعرف شياتها لثلاث تلبس عليك بعد الإحياء. وقرأ حمزة ويعقوب ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ بالكسر وهما لغتان قال:

وَمَا صَيَّدُ الْأَعْنَاقِ فِيهِمْ جَبَلَةٌ وَلَٰكِن أَطْرَافَ الرُّمَاحِ تَصُورُهَا

وقال:

وَقَرَعَ بِصِيرُ الْجَيْدِ وَخَفَّ كَأَنَّهُ عَلَى اللَّيْلِ قَنَوانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِحِ

وقرىء «فصُرهن» بضم الصاد وكسرهما وهما لغتان، مشددة الراء من صره يصره ويصره إذا جمعه وفصُرهن من التصرية وهي الجمع أيضاً. ﴿ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي ثم جزئنهم وافرأ أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك. قيل كانت أربعة. وقيل سبعة. وقرأ أبو بكر «جزؤاً» و «جزؤ» بضم الزاي حيث وقع. ﴿ثُمَّ أَدْخُوهُنَّ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى. ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أمر بأن يذبحها ويتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلط سائر أجزائها ويوزعها على الجبال، ثم يناديهم. ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يقبل على القوى البدنية فيقتلها ويمزج بعضها ببعض حتى تنكسر سورتها، فيطاوعنه مسرعات متى دعاها بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويؤمن الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عزيزاً بعد أن أماته مائة عام. ﴿وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجز عما يريد. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَكْبَتْتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ وَتِلْكَ أُمُوتُ النَّاسِ وَأَلَّا يَصْلَوْهُ لِمَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مثل نفقتهم كمثل حبة، أو مثلهم كمثل باذر حبة على حذف المضاف. ﴿أَكْبَتْتَ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةٌ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب، كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى والمعنى: أنه يخرج منها ساق

يتشعب لكل منه سبع شعب، لكل منها سنبلة فيها مائة حبة. وهو تمثيل لا يقتضي وقوعه وقد يكون في الذرة والدخن في البر في الأراضي المغلة. ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ تلك المضاعفة. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بفضله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يفضل به من الزيادة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ﴾ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ﴾ نزلت في عثمان رضي الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقنابها وأحلاسها. وعبد الرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة. والمن أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتناول عليه بسبب ما أنعم عليه، وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لعله لم يدخل الفاء فيه وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط إيهاماً بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغفر رده. ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ﴾ خير عنهما، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة. ﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾ عن إنفاق بمن وإيذاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معالجة من يمن ويؤذي بالعقوبة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢١٨﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ لا تحبطوا أجرها بكل واحد منهما. ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كإبطال المناق الذي يراني بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة، أو مماثلين الذي ينفق رثاء الناس، والكاف في محل النصب على المصدر أو الحال، و﴿رِثَاءَ﴾ نصب على المفعول له أو الحال بمعنى مراثياً أو المصدر أي إنفاق ﴿رِثَاءَ﴾. ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي فمثل المرثي في إنفاقه. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس نقياً من التراب. ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ لا ينتفعون بما فعلوا رثاء ولا يجدون له ثواباً، والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس، أو الجمع كما في قوله:

إِنَّ الَّذِي حَاسَتْ بِقُلُوبِهِ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرثاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَلْبِيسًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢١٩﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَلْبِيسًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وتلبساً بعض أنفسهم على الإيمان، فإن

المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم، وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي ومثل نفقة هؤلاء في الزكاة، كمثلي بستان بموضع مرتفع، فإن شجرة يكون أحسن منظراً وأزكى ثمرأ. وقرأ ابن عامر وعاصم ﴿بربوة﴾ بالفتح وقرئ بالكسر وثلاثها لغات فيها. ﴿أَصَابَهَا وَاِبِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَاتَتْ أَكْلَهَا﴾ ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما كانت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كُلَّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقيل: أربعة أمثاله ونصبه على الحال أي مضاعفاً. ﴿فَإِنْ لَمْ يَصْبِهْهَا وَاِبِلٌ فَطَلٌ﴾ أي فيصيبها، أو فالذي يصيبها طل، أو فطل يكفيها لكرم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر، والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زلفاهم بالوابل والطل. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن الرثاء وترغيب في الإخلاص.

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار. ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ جعل الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغلياً لهما لشرفهما وكثرة منافعهما، ثم ذكر أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع. ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ أي كبر السن، فإن الفاقة والعاله في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملاً على المعنى، فكانه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب. ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى. والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يحبطها كrieb وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة بحال من هذا شأنه، وأشبههم به من جال بسره في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نکص على عقبيه إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تفكرون فيها فتعتبرون بها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ من حلاله أو جياده. ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن، فحذف المضاف لتقدم ذكره. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال، أو مما أخرجنا لكم. وتخصيصه بذلك لأن التفاوت فيه أكثر، وقرئ «ولا تؤمموا» «ولا تيمموا» بضم التاء. ﴿تُنْفِقُونَ﴾ حال مقدرة من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالاً منه. ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أي وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته. ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه، مجاز من أغمض بصره إذا غضه. وقرئ

«تُعْمَضُوا» أي تحملوا على الإغماض، أو توجدوا مغمضين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ» عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم. «حَمِيدٌ» بقبوله وإثابته.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿٢٦٨﴾

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ» في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر. وقرئ «الفقر» بالضم والسكون وبضميتين وفتحيتين. «وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ» ويغريكم على البخل، والعرب تسمي البخل فاحشاً. وقيل المعاصي «وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ» أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم. «وَفَضْلاً» خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا، أو في الآخرة. «وَاللَّهُ وَاسِعٌ» أي واسع الفضل لمن أنفق. «عَلِيمٌ» بإنفاقه.

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

الْأَلْبَابِ﴾

«يُؤْتِي الْحِكْمَةَ» تحقيق العلم وإتقان العلم. «مَنْ يَشَاءُ» مفعول أول آخر للإهتمام بالمفعول الثاني «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ» بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يؤته الله الحكمة. «فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا» أي: أي خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. «وَمَا يَذَّكَّرُ» وما يتعظ بما قص من الآيات، أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. «إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» ذوو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

﴿٢٦٩﴾

«وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

«وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ» قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حق أو باطل. «أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ» بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية. «فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا» فيجازيكم عليه. «وَمَا لِلظَّالِمِينَ» الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. «مِنْ أَنْصَارٍ» من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ فنعمة شيئاً إبداءها. وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بفتح النون وكسر

العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. «وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ» أي تعطوها مع الإخفاء. «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمن لم يعرف بالمال فإن إبداء الفرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه. عن ابن عباس رضي الله عنهما (صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً). «وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عباس ويعقوب بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو إسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر. وقرأ نافع وحزمة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده. وقرئ بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» ترغيب في الإسرار.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن، والنهي عن المقايح كالمن والأذى وإنفاق الخيث. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلَا تُفْسِدُوا﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا عليه ولا تنفقوا الخيث. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلا أنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله وطلب ثوابه. أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً» روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكروهوا لما أسلموا أن ينفعوهم فنزلت. وهذا في غير الواجب أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾ أي لا تنقصون ثواب نفقاتكم.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَبِلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ﴾

﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف وراثاة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحافاً، وهو أن يلزم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم لحفني من فضل لحافه، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا. وقيل: هو نفي للأمرين كقوله:

على لا حسب يهتدي بمناره

ونصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يعمون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سرّاً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على علانية.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ

قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٥﴾.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم، أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء. ﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجن يمسهم فيختلط عقله ولذلك قيل: جَنَّ الرجل. وهو متعلق بـ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو يقوم أو يتخبط فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأنقلهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا الربا والبيع في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله. وكان الأصل إنما الربا مثل البيع ولكن عكس للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بين فإن من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ إنكار لتسويتهم، وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فمن بلغه وعظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا. ﴿فَانتَهَى﴾ فانتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت من موصولة، وبالإبتداء إن جعلت شرطية على رأي سيبويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

﴿يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيءُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُزِيءُ الصَّدَقَاتِ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربها كما يربي أحدكم مهره». وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط». ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوايين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مصر على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ عطفهما على ما يعمهما لإناثتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفُسُ اللَّهِ وَدَرُؤُا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِعَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُهُورُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿١٧٦﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أمركم به. روي: أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا علم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عباس «فأذنوا» أي فاعلموا بها غيركم، من الأذن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم، وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يقاتل المربي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله، كالبಾಗಿ ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثقيف لا يدي لنا بحرب الله ورسوله. ﴿وَإِنْ ثَبُتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حله. ﴿فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان، ويفهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه، إذ المصر على التحليل مرتد وماله فيء:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨١﴾

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرئ «ذا عسرة» أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكم نظرة، أو فعليكم نظرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرئ «فناظره» على الخبر أي فالمستحق ناظره بمعنى منتظره، أو صاحب نظرته على طريق النسب وفناظره على الأمر أي فسامحه بالنظرة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحمزة بضم السين، وهما لغتان كمشركة ومشرقة. وقرئ بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله: وأخلفوك وعد الأمر الذي وعدوا. ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام، «لا يحل دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة» ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر الجميل الجزيل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨٢﴾

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس الماتين والثمانين من البقرة) وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيُكْتُبْ بِالْعَدْلِ وَأَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ أَنْ تَكُونُوا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَانِ يَمْنَنَ رَضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَقْضَلَ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَدَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٨٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي إذا دأب بعضكم بعضاً، تقول: دأبته إذا عاملته نسيئة معطياً أو أخذاً. وفائدة ذكر الدين أن لا يتوهم من التداين المجازاة ويعلم تنوعه إلى المؤجل والحال، وأنه الباعث على الكتابة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم بالأيام والأشهر لا بالحصاد وقدم الحاج. ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لأنه أوثق وادفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما (أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم). ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ من يكتب السوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتدائنين باختيار كاتب فقيه دين حتى يجيء مكتوبه موثقاً به معدلاً بالشرع. ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ مثل ما علمه الله من كتبه الوثائق، أو لا يَأْبَ أن ينفع الناس بكتابه كما نفعه الله بتعليمها كقوله: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة المعلمة. أمر بها بعد النهي عن الإياء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ وليكن المملي من عليه الحق لأنه المقر المشهود عليه، والإملاء والإملاء واحد. ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي المملي. أو الكاتب. ﴿وَلَا يَخْشَى﴾ ولا ينقص. ﴿مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي من الحق، أو مما أُملي عليه. ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ مَفْهِمًا﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ صيباً أو شيخاً مختلاً. ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ﴾ أو غير مستطيع للإملاء بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿فَلْيُمْلِلِ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قيم إن كان صيباً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جريان النيابة في الإقرار ولعله مخصوص بما تعاطاه القيم أو الوكيل. ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾ واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان. ﴿مِنْ رِّجَالِكُمْ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فليشهد أو فليستشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة. ﴿وَمِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لعلمكم بعدالتهم. ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ علة اعتبار العدد أي لأجل أن إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتهما ذكرتها الأخرى، والعلة في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضلال سبباً له نزل منزلته كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فادفعه، وكأنه قيل: إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾ على الشرط «فتذكر» بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب «فتذكر» من الإذكار. ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو التحمل. وسموا شهداء قبل التحمل تنزيلاً لما يشارف منزلة الواقع و «ما» مزيدة. ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ ولا تملوا من كثرة مدايناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كنى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت» «صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا» صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مشيعاً. ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المديون. ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن تكتبوه. ﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أكثر قسطاً. ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسط بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في «أقوم» كما صحت في التعجب لجموده. ﴿وَأَذْنَى الْأُتْرَاقِيَّاتِ﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقدره وأجله والشهود ونحو ذلك. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ استثناء من الأمر بالكتابة والتجارة الحاضرة تعم المبايعه بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبعده عن التنازع والنسيان. ونصب عاصم «تجارة» على أنه الخبر والاسم مضمّر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْنَعَا

ورفعها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختلف في إحكامها ونسخها. «وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» يحتمل البناءين، ويدل عليه أنه قرئ «ولا يضار» بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكتب والشهادة، أو النهي عن الضرر بهما مثل أن يعجلا عن مهم ويكلفا الخروج عما حد لهما، ولا يعطى الكاتب جعله، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. «وَأَنْ تَفْعَلُوا» الضرر أو ما نهيتهم عنه. «فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ» خروج عن الطاعة لا حق بكم. «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في مخالفة أمره ونهيه. «وَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ» أحكامه المتضمنة لمصالحكم. «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» كرر لفظه الله في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ فِي النَّارِ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣)

«وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ» أي مسافرين. «وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ» فالذي يستوثق به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الإرتهان كما ظنه مجاهد والضحاك رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رهن درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله، بل لإقامة التوثق للإرتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي هو مظنة إغواها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «فرهن» كسقف وكلاهما جمع رهن بمعنى مرهون: وقرئ بإسكان الهاء على التخفيف. «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» أي بعض الدائنين بعض المدينين واستغنى بأمانته عن الارتهان. «فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ» أي دينه سماه أمانة لا تمانه عليه بترك الإرتهان به. وقرئ «الذي أئتمن» بقلب الهمزة ياء، و «الذي أئتمن» بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم. «وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات. «وَلَا تَكُونُوا الشَّاهِدَةَ» أيها الشهود، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. «وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ فِي النَّارِ قَلْبُهُ» أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم. والجملة خبر إن وإسناد الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترفه ونظيره: العين زانية والأذن زانية. أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه. وقرئ «قلبه» بالنصب كحسن وجهه. «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ» تهديد.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

«لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» خلقاً وملكاً. «وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ» يعني ما فيها من سوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. «يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض. «فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ» مغفرته. «وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفعهما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجزمهما الباقون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكل أو الاشتمال كقوله:

مَتَى تَأْتَيْنَا نُلْهِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَاراً تَأْجَجَا

وإدغام الراء في اللام لحن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة.

﴿أَمَّا الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥).

﴿أَمَّا الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ شهادة وتخصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والإعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شاك فيه. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ لا يخلو من أن يعطف «المؤمنون» على «الرسول»، فيكون الضمير الذي ينوب عنه التثنية راجعاً إلى «الرسول» «والمؤمنين»، أو يجعل مبتدأ فيكون الضمير للمؤمنين. وباعتباره يصح وقوع كل بخبره خبر المبتدأ، ويكون إفراد الرسول بالحكم إما لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان، وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: «وكتابه» يعني القرآن، أو الجنس. والفرق بينه وبين الجمع أنه شائع في وحدان الجنس والجمع في جموعه ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب. ﴿لَا تَفِرُّ مِنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي يقولون لا تفرق. وقرأ يعقوب «لا يفرق» بالياء على أن الفعل لـ «كل». وقرأ «لا يفرقون» حملاً على معناه كقوله تعالى: «وكل أتوه داخرين» واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى: «فما منكم من أحد عنه حاجزين». ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب «وَقَالُوا سَمِعْنَا أَجْبَا. وَأَطَعْنَا» أمر. «غُفْرَانَكَ رَبَّنَا» اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك. «وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦).

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما تسعه قدرتها فضلاً ورحمة، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليها كقوله تعالى: «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. «لَهَا مَا كَسَبَتْ» من خير. «وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» من شر لا ينتفع بطاعتها ولا يتضرر بمعاصيها غيرها. وتخصيص الكسب بالخير والاكْتِسَابُ بالشر لأن الاكْتِسَابَ فيه احتمال والشر تشبهه النفس وتنجذب إليه فكانت أجد في تحصيله وأعمل بخلاف الخير. «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» أي لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تمتنع المؤاخظة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك. وإن كان خطأ. فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلاً فيجوز أن يدعو الإنسان به استدامة واعتداداً بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفعوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان». «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا» عبأ ثقیلاً يأصر صاحبه، أي يحبس في مكانه. يريد به التكليف الشاق. وقرأ «ولا تحمل» بالتشديد للمبالغة. «كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» حملاً مثل حملك إياه على «من قبلنا»، أو مثل الذي حملته إياهم فيكون صفة لإصرأ، والمراد به ما كلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس، وقطع موضع النجاسة، وخمسين صلاة في اليوم والليل، وصرف ربع المال للزكاة. أو ما أصابهم من الشدائد والمحن. «رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» من البلاء والعقوبة، أو من التكليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق وإلا لما سئل التخلّص منه، والتشديد ههنا لتعدية

الفعل إلى المفعول الثاني. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا. ﴿وَاعْفُ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذه. ﴿وَإِزْهِقْنَا﴾ وتعطف بنا وتفضل علينا. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا. ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت. وعنه عليه السلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة. كتبها الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأته عن قيام الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». وهو يرد قول من استكره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البطلة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة».

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع المجلد الأول من
تفسير البضاوي في مطابع دار إحياء التراث العربي - بيروت الزاهرة
أدامها الله لطبع المزيد من الكتب النافعة
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

محتوى الجزء الأول من تفسير البيضاوي

مقدمة

٩	 أولاً: ترجمة صاحب التفسير
١٢	 ثانياً: التعريف بأنوار التنزيل وطريقة مؤلفه فيه
١٢	 اختصار البيضاوي تفسيره من «الكشاف» للزمخشري
١٢	 استمداد البيضاوي تفسيره من «مفاتيح الغيب» للرازي ومن «تفسير الراغب الأصفهاني»
١٢	 اهتمامه بالقراءات وذكر الشاذ منها
١٢	 عرضه للصناعة النحوية
١٢	 تعرضه لبعض المسائل الفقهية دون توسع
١٣	 تقرير وترجيح مذهب أهل السنة
١٣	 التقليل من ذكر الروايات الإسرائيلية
١٣	 الخوض في مباحث الكون والطبيعة تأثراً بالرازي
١٤	 تقرّظ هذا التفسير
١٤	 قول الإمام جلال الدين السيوطي في حاشيته: «نواهد الأبتكار وشواهد الأفكار»
١٤	 قول حاجي خليفة في «كشف الظنون»
١٦	 الحواشي المكتوبة على تفسير البيضاوي
٢٣	 خطبة الكتاب
٢٣	 بيان كون اللام في الحمد للاختصاص والكلام في القصر وغيره
٢٣	 بيان أرفع العلوم قدراً
٢٥	 تفسير سورة الفاتحة
٢٥	 بيان أسامي الفاتحة
٢٥	 بيان كون البسملة من الفاتحة أم لا؟
٢٥	 بيان متعلق البسملة
٢٥	 بيان تحقيق معنى الباء
٢٥	 بيان الكلام في لفظ الاسم واشتقاقه وما فيه من الخلاف
٢٦	 بيان أصل لفظ الجلالة وتحقيق اشتقاقه

٢٧	بيان تحقيق القول في ﴿الرحمن الرحيم﴾
٢٧	بيان مباحث ﴿الحمد لله﴾
٢٧	بيان مباحث (أل) الجنسية
٢٨	بيان الفرق بين الملك والمالك
٢٩	بيان الالتفات
٢٩	بيان الضمائر وملحقاتها
٣٠	بيان تقسيم النعم
٣١	بيان الكلام على أمين وتحقيق معنى اسم الفعل
٣٣	تفسير سورة البقرة
٣٣	بيان تحقيق القول في الحروف المبدوء بها السور
٣٦	بيان معنى الهدى وأقسامه
٣٧	بيان معنى التضمن وتحقيق القول فيه
٣٧	بيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج
٣٨	بيان دليل من ذهب إلى أن الرزق يعم الحلال والحرام
٤٠	بيان معنى اليقين وأنه لا يوصف به علم الباري تعالى
٤١	بيان معنى الكفر في الشرع
٤٢	بيان أن الأخبار بوقوع شيء لا ينفي كونه مقدوراً
٤٢	بيان تأويلات المعتزلة للختم ونحوه المسند إلى الله تعالى
٤٣	بيان كون المنافقين أخبث الكفرة
٤٦	بيان أن كمال الإيمان بماذا يكون
٤٨	بيان أن الطلب غير الإرادة
٤٩	بيان فائدة ضرب الأمثال
٥٣	بيان معنى الشيء وأنه يعم الباري في بعض الإطلاقات
٥٤	بيان أن أسماء الجموع للعموم
٥٥	بيان كيفية المطر والسحاب
٥٧	بيان الدليل على إعجاز القرآن وكونه حجة
٦٠	بيان أنه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء
٦٢	بيان حسن التمثيل وشروطه

٦٢	بيان معنى ﴿أَمَّا﴾ وتحقيق القول فيها
٦٤	بيان الفسق ودرجات الفاسق
٦٧	بيان إثبات صحة الحشر وبيان المقدمات المتوقعة عليها
٦٧	بيان الاختلافات في حقيقة الملائكة
٦٩	بيان القول في معنى الأسماء التي علمها الله للملائكة
٦٩	بيان التكليف بالمحال وما قيل فيه
٧٠	بيان مزية الإنسان بالعلم وأن اللغات توقيفية
٧١	بيان أن آدم أفضل من الملائكة وأن إبليس قيل إنه من الملائكة وإنه منهم نوعاً يتوالدون
٧٢	بيان ما قيل في وسوسة إبليس لآدم مع طرده من الجنة
٧٤	بيان ما تمسكت به الحشوية من عدم عصمة الأنبياء والجواب عنه
٧٩	بيان ما تمسكت به المعتزلة من عدم الشفاعة لأرباب الكبائر والجواب عنه
٧٩	بيان كيفية انفلاق البحر لبني إسرائيل وأنه من الآيات الملجئة للإيمان
٨٥	بيان ما قيل في مسخ المعتدين في السبت قردة أنه من مسخ القلوب
٨٦	بيان قصة أصحاب البقرة
٩٠	بيان أن المعاصي يجر بعضها بعضاً حتى تؤدي إلى الكفر
٩٥	بيان أن من أيقن بالجنة أحب التخلص إليها بالموت
٩٥	بيان السر في كراهة اليهود لسيدنا جبريل
٩٧	بيان أن جيل اليهود أربع فرق
٩٧	بيان أن الساحر لا يكون إلا خبيث النفس مثل الشيطان
٩٩	بيان النسخ وأنه من المصالح
١٠١	بيان اختلاف الأئمة في دخول الكفار المساجد
١٠٢	بيان الدليل على إبطال الولد له سبحانه
١٠٤	بيان الأشياء التي كلف بها سيدنا إبراهيم
١٠٥	بيان مقام إبراهيم والصلاة التي تُصَلَّى عنده
١٠٧	بيان أولاد إبراهيم
١٠٨	بيان أن الانتساب إلى الأشراف لا ينفع عند الله بمجرد
١١١	بيان أن التوجه إلى جهة الكعبة أو عينها
	بيان أن حياة الشهداء لا تدرك إلا بالوحي وأن الأرواح جواهر قائمة بنفسها تبقى بعد الموت

١١٤	دراكة
١١٧	بيان الدليل على وجود الإله ووحدته
١٢١	بيان انحصار الكمالات الإنسانية في ثلاثة وبيانها
١٢٣	بيان نسخ الوصية للوارث بعد وجوبها
١٢٥	بيان وقت نزول صحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والقرآن
١٢٦	بيان الاعتكاف وأنه خاص بالمسجد
١٢٩	بيان الحصر في الحج وفدائه
١٣١	بيان المشعر الحرام ما هو
١٣٥	بيان عدد الأنبياء والرسل
١٣٦	بيان سرية عبد الله بن جحش
١٣٧	بيان ما نزل في الخمر من الآيات
١٣٨	بيان إطلاق المشركين على اليهود والنصارى
١٤٠	بيان الإيلاء وحكمه
١٤١	بيان القرء والاختلاف فيه
١٤٢	بيان الخلع وابتدائه
١٤٤	بيان أقصى مدة الرضاع
١٤٥	بيان عدة المتوفى عنها زوجها
١٥٢	بيان فضل بعض الأنبياء على بعض
١٥٥	بيان المحاجة التي قام بها سيدنا إبراهيم مع النمرود

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وضع التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف المثنائي

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الثاني

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وُضِعَ التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

تفسير البيضاوي

(٢)

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ٧٩٥٧/١١

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box: 7957/11

(٣) سورة آل عمران

مجدنية وآيها مائتات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ .

﴿الَمْ * الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنما فتح الميم في المشهور وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ليدل على أنها في حكم الثابت، لأنها أسقطت للتخفيف لا للدرج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحد اثنان بإلقاء حركة الهمزة على الدال لا لالتقاء الساكنين، فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام. وقرئ بكسرها على توهم التحريك لالتقاء الساكنين. وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم».

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ .

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن نجوماً. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله وهو في موضع الحال. ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ جملة على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوري والنجل، ووزنهما بتفعلة وافعليل تعسف لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرئ «الأنجيل» بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي «التوراة» بالإمالة في جميع القرآن، ونافع وحزمة بين اللفظين إلقاؤون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقيين.

﴿مِنْ قَبْلِ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع من قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنس الكتب الإلهية، فإنها فارقة بين الحق والباطل. ذكر ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعم ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكرر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً، وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً منزلاً ويتميز بأنه معجز يفرق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنقمة عقوبة المجرم والفعل منه نقم بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر، وزجراً عن الإعراض عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً، إيماناً أو كفراً. فعبر عنه بالسماء والأرض إذ الحس لا يتجاوزهما، وإنما قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اختلف فيه. وهو كالدليل على كونه حياً وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية، والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرئ «تصوركم» أي صوركم لنفسه وعبادته. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يعلم غيره جملة ما يعلمه ولا يقدر على مثل ما يفعله. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة، من أولها إلى نيف وثمانين آية تقريراً لما احتج به عليهم وأجاب عن شبههم.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أحكمت عبارتها بأن حفظت من الإجمال والاحتمال. ﴿مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ﴾ أصله يرد إليها غيرها والقياس أمهات فأفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ محتملات لا يتضح مقصودها. لإجمال أو مخالفة ظاهر. إلا بالفحص والنظر ليظهر فيها فضل العلماء، ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها. وبتأويل القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات. معالي الدرجات. وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكِتَابَ مُحْكَمَاتٌ﴾ فمعناه أنها حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ، ﴿وَأُخَرُ﴾ جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرف ولم يعرف لا أنه في معنى المعرف أو عن «آخر» من ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عدول عن الحق كالمبتدعة. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلب أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطلبتين، أو كل واحدة منهما على التعاقب. والأول يناسب المعاند والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه، ومن وقف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه: كمدة بقاء الدنيا، ووقت قيام الساعة، وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بما دلَّ القاطع على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ استئناف موضح لحال الراسخين، أو حال منهم أو خبر إن جعلته مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر، وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس، واتصال الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته، وما قبلها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمْتَهُ لَقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ﴾. كما أنه جواب عن قوله لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصور الأجنة كيف يشاء فيصور من نقطة أب ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصور لا يكون أب المصور.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَمَاعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٩﴾﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف والمعنى. لا ترغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاعه عنه». وقيل: لا تبلنا ببلايا ترغ فيها قلوبنا. ﴿تَغْدُ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقسمين. من المحكم والمتشابه، وبعد نصب على الظرف، وإذ في موضع الجر بإضافته إليه. وقيل إنه بمعنى إن. ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤل، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم على عباده لا يجب عليه شيء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَمَاعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فإن الإلهية تنافيه وللإشعار به وتعظيم الموعود لَوْن الخطاب، واستدل به الوعيدية. وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل مفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركوا العرب. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ خطبها. وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها.

﴿كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغن عن أولئك، أو توقد بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأب هؤلاء كذابهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ عطف على ﴿آل فرعون﴾. وقيل استئناف. ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأت بالذين من قبلهم. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهويل للمواخذة وزيادة تخويف الكفرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس، فنزلت. وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقدير بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَمَثَلٌ تَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخَرَى كَافَّةً يَرَوْنَهُمْ مَثَلِيهِمْ رَأَى أَعْيُنُ اللَّهِ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُمْ مِنْ شَاءِ إِيَّاكَ فِي ذَلِكَ لَعْنَةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ التَّقَاتَا﴾ يوم بدر. ﴿وَفَتْةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قللهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا مدداً من الله تعالى للمؤمنين، أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾. ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء وقرئ بهما على البناء للمفعول أي يريهم الله، أو يريكم ذلك بقدرته، وفئة بالجر على البذل من فتنين والنصب على الاختصاص، أو الحال من فاعل التقا. ﴿رَأَى الْعَيْنَ﴾ رؤية ظاهرة معانية. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ نصره كما أيد أهل بدر. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير، أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح، وكون الواقعة آية أيضاً يحتملها ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ. ﴿لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وقيل لمن أبصرهم.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ (١٤).

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي المشتبهات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهكوا في محبتها حتى أحبوا شهواتها كقوله تعالى: ﴿أَحَبُّتِ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ والمزين هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الآخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم. وفرق الجبائي بين المباح والمحرم. ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْضَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات، والقنطار المال الكثير. وقيل مائة ألف دينار. وقيل ملء مسك ثور. واختلف في أنه فعلا أو فاعلا، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بكرة مبدرة. والمسومة المعلمة من السومة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة وسومها، أو المطهمة. والأنعام الإبل والبقر والغنم ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

﴿قُلْ أَزْوَاجُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١٥) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَاهُ فَاعْفُ عَنَّا إِنَّنَا لَمُذْنِبُونَ﴾ (١٦).

﴿قُلْ أَزْوَاجُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا. ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ استئناف لبيان ما هو خير، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات، ويؤيده قراءة من جرها بدلاً من «خير». ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء. ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالى: ﴿رِضْوَانُهُ سَبِيلُ السَّلَامِ﴾ بكسر الراء وهما لغتان. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا فلذلك أعد لهم جنات، وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ صفة للمتقين، أو للعباد، أو مدح منصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

﴿الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ﴾.

﴿الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحسبها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبيل الخير، وأما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتوسط الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع للمجتهدين. قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿١٧﴾

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بين وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار. ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه وانتصابه على الحال من الله، وإنما جاز إفراده بها ولم يجرى جاء زيد وعمرو راكباً لعدم اللبس كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾. أو من هو العامل فيها معنى الجملة أي تفرد قائماً، أو أحقه لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفة للمنفي وفيه ضعف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة، أو حالاً من الضمير. وقرئ «القائم بالقسط» على البدل عن هو أو الخبر لمحذوف. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما، وقدم العزيز لتقديم العلم بقدرته على العلم بحكمته، ورفعهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: «إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْهَمُوا الْإِسْلَامَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَحْيُ بَقِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِقَايِمَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿١٨﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْهَمُوا الْإِسْلَامَ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدريج بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ، وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل أن فسر الإسلام بالإيمان، أو بما يتضمنه وبدل اشتمال إن فسر بالشرعة. وقرئ أنه بالكسر وأن بالفتح على وقوع الفعل على الثاني، واعتراض ما بينهما أو إجراء شهد مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معانها. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلث النصارى «وقالت اليهود عزير ابن الله». وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه

السلام. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاء في الأمر. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعد ما أقمت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسول، وإنما عبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب. ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة، أم أنتم بعد على كفركم ونظيره وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وفيه تعبير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وعد ووعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٢٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام. قتل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة «ويقاتلون الذين». وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إن كليتي ولعل ولذلك قيل الخير.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كقولك زيد فافهم رجل صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعية أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقيق. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبى فزلت). وقيل نزلت في الرجم. وقرئ ليحكم على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّمُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٥).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائف والطمع الفارغ. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيُّومٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي: أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أجزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تحبط وأن المؤمن لا يخلد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذا نهي بعد الخلاص منها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦).

﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا الله أمنا بخير، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَالِكُ الْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيوييه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ تعطي منه ما تشاء من تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرض، إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيراً كلياً، أو لمرعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي (أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاول، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها. وبرق منها برق أضاء منه ما بين لابتيتها لكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء» وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة على كلها فابشروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يصير من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق) فترلت. فنه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عقب ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله، دلالة على

أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذل والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مضيق. وإبلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس. إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ﴿الميت﴾ بالتخفيف.

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهُمْ نَهْيَهُمْ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨).

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ نهوا عن موالاتهم لقراية وصداقة جاهلية ونحوهما، حتى لا يكون حبههم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية. ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالة الكفرة. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء. ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي من ولايته في شيء يصح أن يسمى ولاية، فإن موالاتي المتعاضدين لا يجتمعان قال:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقُكَ لَيْسَ النُّوْكَ عَنْكَ بِعَارِزٍ

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّبِعُوا مِنْهُمْ نَهْيَهُمْ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، أو اتقاء. والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا. وقرأ يعقوب «تقية». منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالة أعدائه، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النهي في القبح وذكر النفس، ليعلم أن المحذر منه عقاب يصدر منه تعالى فلا يؤبه دونه بما يحذر من الكفرة.

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْنَ يَحِلُّهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْنَ يَحِلُّهُ اللَّهُ﴾ أي أنه يعلم ضمائرهم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبذوها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيعلم سرهم وعلمكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتهم عنه. والآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها، وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٣٠).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ «يوم» منصوب بتود أي تمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها، أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم، وهو له أمداً بعيداً، أو بمضمر نحو اذكر، و «تود» حال من الضمير في عملت أو خبر لما عملت من سوء وتجد مقصور على «ما عملت من خير»، ولا تكون «ما» شرطية لارتفاع «تود». وقرئ «ودت» وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أوقع معنى لأنه حكاية

كائن وأوفق للقراءة المشهورة. ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كرره للتأكيد والتذكير. ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رافة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا الله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا الله وفي الله وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزماً لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته. ﴿يُحِبُّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر أي يرض عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويوثقكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تحب إليه بطاعته واتباع نبيه ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه. وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله. وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأمروا أن يجعلوا لقولهم تصديقاً من العمل.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يحتمل الماضي والمضاربة بمعنى فإن تتولوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يشي عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية والجسمانية، ولذلك قوا على ما لم يقو عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقب ذلك بيان مناقبهم تحريضاً عليها، وبه استدل على فضلهم على الملائكة، ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾، إسماعيل وإسحق وأولادهما. وقد دخل فيهم الرسول ﷺ، ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ موسى وهرون ابنا عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن ساقط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشي بن عوبد بن سلمون بن ياعز بن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانيين ألف وثمانمائة سنة.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فعليه من الذر أو فعولة من الذرة أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليهم بنيتها.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا فَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ فينتصب به إذ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهرون فظن أن المراد زوجته ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج بنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خدمه، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فاعلمها بنت الأمر على التقدير أو طلبت ذكراً ﴿مُحَرَّراً﴾ معتقاً لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنثه لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنثها علم منه فإن الحال وصاحبها بالذات واحداً. أو على تأويل مؤنث كالنفس والحيلة. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿وَضَعْتُ﴾ على أنه من كلامها تسلياً لنفسها أي ولعل الله سبحانه وتعالى فيه سرّاً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرئ «وضعت» على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا كَالْأُنْثَىٰ﴾ بيان لقوله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقريباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجبرها بحفظك. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل من مسّه إلا مريم وابنها». ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّىٰ لَئِذَا هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذكر. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يقبل به النذر، وهو إقامتها مقام الذكر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لفتها في خرقه وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فآلقوا فيه أقلامهم فطفأ قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذى قبول حسن، وأن يكون تقبل بمعنى استقبل كتقضي وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا

غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. ومدوا «زكرياء» مرفوعاً. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس. ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ جواب ﴿كلما﴾ وناصبه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبواب مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. جعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تستبعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرتة، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي (أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: هلمي يا بنية، فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فقال لها: أتى لك هذا! فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل، ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (٣٨) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٩).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ في ذلك المكان، أو الوقت إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان، لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتها لحنه العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أوانها انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي «فناداه» بالإمالة والتذكير. ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة، و (يصلي) صفة قائم أو خبر أو حال آخر أو حال عن الضمير في قائم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي (يبشرك)، و (يحیی) اسم أعجمي وإن جعل عربياً فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام، سمي بذلك لأنه وجد بأمره تعالى دون أب فشابهه البدعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله، سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم وكان فائقاً للناس كلهم في أنه ما هم بمعصية قط. ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظاماً أو تعجباً أو استفهاماً عن كيفية

حدوثه. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر في. وكان له تسع وتسعون ولأمراته ثمان وتسعون سنة. ﴿وَأَمْرَانِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العقر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فان وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثل هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤١).

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحبل لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة الانتظار. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حبس لسانه عن مكالمتهم خاصة ليخلص المدة لذكر الله تعالى وشكره، قضاء لحق النعمة وكأنه قال آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال. ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إشارة بنحو يد أو رأس، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرئ «رَمَزًا» بفتحين كخدم جمع رامز ورَمَزًا كرمل جمع رموز على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

مَتَى مَا تَلَقَّنِي فَرْدَيْنِ تَرْجِفُ رَوَائِفُ أَلْيَتَيْنِ وَتُسْتَطَارَا

﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحبسة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقيد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرئ بفتح الهمزة جمع بكر كسحر وأسحار.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢) يَمْرُؤُا أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَازْكُرِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لذكراها أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبي امرأة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾. وقيل ألهموها، والاصطفاء الأول قبلها من أمها ولم يقبل قبلها أنثى وتفريغها للعبادة وإغناؤها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرها عما يستقذر من النساء. والثاني هدايتها وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتها مما قذفها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنة آية للعالمين.

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَازْكُرِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها، وقدم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيدان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى: ﴿أَمِنْ هُوَ قَانَتْ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ وبالسجود الصلاة كقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارُ السُّجُودِ﴾. وبالركوع الخشوع والإخبات.

﴿كَذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمُ أَفْلَهُمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤).

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ أقداحهم للاقتراع. وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً، والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكره، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الإتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَتُنْهَمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿يلقون أقلامهم﴾ أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا ﴿أيهم يكفل مريم﴾. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالتها.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾ بدل من ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ الأولى وما بينهما اعتراض، أو من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على أن وقوع الاختصاص والبشارة في زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا. ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبْشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرفة كالصديق وأصله بالعبرية مشيحاً معناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقهما من المسح لأنه مسح بالبركة أو بما طهره من الذنوب، أو مسح الأرض ولم يبق في موضع، أو مسحه جبريل، ومن العيس وهو بياض يعلوه حمرة، تكلف لا طائل تحته، وابن مريم لما كان صفة تميز تمييز الأسماء نظمت في سلوكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضاف ويحتمل أن يراد به أن الذي يعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة، فإن الاسم علامة المسمى والتميز له ممن سواه ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة وتذكيره للمعنى، والوجهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رفعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً، كلام الأنبياء من غير تفاوت. والمهد مصدر سمي به ما يمهد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رفع شاباً والمراد وكهلاً بعد نزوله، وذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرها الذي في يكلم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

﴿وَعَلَّمَهُ الْقَتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّلِيحِ فَأَنْشُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيِّراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْرَعُ الْأَكْمَةَ

وَالْأَبْرَصَ وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على ييشرك، أو وجيهاً و ﴿الكتاب﴾ الكتبة أو جنس الكتب المنزلة. وخص الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ﴿ويعلمه﴾ بالياء.

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أرسلت رسولاً بأنني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأنني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم. ﴿أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ نصب بدل من أني قد جئتكم، أو جر بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع ﴿إني﴾ بالكسر ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة «طائراً» بالالف والهمزة. ﴿وَأَبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ﴾ الأكمة الذي ولد أعمى أو الممسوح العين. روي: أن ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى من أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء. ﴿وَأَخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأَتَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا يتنفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُجِزَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف على ﴿رسولاً﴾ على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعل دل عليه ﴿قد جئتكم﴾ أي وجئتكم مصداقاً. ﴿وَلَأُجِزَّ لَكُمْ﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: ﴿أنني قد جئتكم بآية﴾، أو معطوف على معنى ﴿مصدقاً﴾ كقولهم جئتكم معذراً ولأطيب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان نسخاً لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يخل ذلك بكونه مصداقاً للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربكم وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتب عليه بالفاء قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعوا فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي

وربكم» إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: ﴿فاعبدوه﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملزمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتها عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بين أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم».

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢).

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ تحقق كفرهم عنده تحقق ما يدرك بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئاً إلى الله تعالى أو ذاهباً أو ضامماً إليه، ويجوز أن يتعلق الجار بـ ﴿أنصاري﴾ مضمناً معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل إلى ها هنا بمعنى (مع) أو (في) أو (اللام). ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ﴾ حواري الرجل خاصته من الحور وهو البياض الخالص، ومنه الخواريات للحضريات لخلوص ألوانهن. سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم. وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود. وقيل قصارين يحورون الثياب أي يبيضونها. ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم.

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣) ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤).

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

﴿وَمَكْرُوا﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة. ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والإردواج. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أفواههم مكرراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٥٥).

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ظرف لمكر الله أو خير الماكرين، أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى، عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهب النصاري. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من سوء جوارهم أو قصدهم ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصاري وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به، وغلب المخاطبين على الغائبين. ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص ﴿فيوفيههم﴾ بالياء. ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ تقرير لذلك.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبي عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره. ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿مِنْ الْآيَاتِ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبر وتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة وأن يكونا خبرين وأن يتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه يريد به القرآن. وقيل اللوح.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشبه، وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم، شبه حاله بما هو أعرب منه إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة والمعنى خلق قلبه من التراب. ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أو قدر تكوينه من التراب ثم كونه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخبر لا المخبر. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل ﴿الحق﴾ مبتدأ و ﴿من ربك﴾ خبره أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهيج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَكُمُ وَنِسَاءَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ من النصارى. ﴿فيه﴾ في عيسى. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من البيانات الموجبة للعلم. ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَكُمُ وَنِسَاءَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي يدع كل منا ومنكم نفسه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحمل عليها، وإنما قدمهم على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا. والمباهلة بالضم والفتح اللعنة وأصله الترك من قولهم بهلت الناقة إذا تركتها بلا صرار. ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ عطف فيه بيان روي (أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالوا قالوا للعاقب وكان ذا رأيهم: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم والله ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا، فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين أخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأموتوا، فقال أسقفهم يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا فتهلكوا، فادعونا

لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حلة حمراء وثلاثين درعاً من حديد، فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر). وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَئِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ الْمَفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي ما قص من نبا عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إن، أو هو فصل يفيد أن ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكروه، وما بعده خبر واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ صرح فيه بـ ﴿من﴾ المزيدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى في ثلثيهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركة في الألوهية.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ الْمَفْسِدِينَ﴾ وعيد لهم ووضع المظهر موضع المضمهر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد، إفساد للدين والاعتقاد المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعم أهل الكتابين. وقيل يريد به وفد نجران، أو يهود المدينة. ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها ما بعدها. ﴿أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها. ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأخبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بعضنا بشر مثلنا روي أنه لما نزلت ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَكُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدكم يا رسول الله قال «أليس يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال نعم قال: هو ذاك». ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتمكم الحجة فاعترفوا بأننا مسلمون دونكم، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحجاج بين: أولاً، أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل، وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ تنازعت اليهود

والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدعون المحال.

﴿هَاتَانِ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمَا فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمَا فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها حرف تنبيه نيهوا بها على حالهم التي غفلوا عنها، وأنتم مبتدأ و ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبره و ﴿حَاجِبْتُمَا﴾ جملة أخرى مبنية للأولى. أي أنتم هؤلاء الحمقى وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل ﴿هَؤُلَاءِ﴾ بمعنى الذين و ﴿حَاجِبْتُمَا﴾ صلتها. وقيل ها أنتم أصله أنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿ها أنتم﴾ حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مداً، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء والباقون بالمد والهمز، والبزي بقصر المد على أصله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاجبتم فيه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ بَآمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مانعاً عن العقائد الزائفة. ﴿مُّسْلِمًا﴾ متقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم مشركون لاشراكهم به عزيزاً والمسيح ورد لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الولي وهو القرب، ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته. ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لموافقته له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرىء والنبى بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجر عطفاً على إبراهيم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩).

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ نزلت في اليهود لما دعوا حذيفة وعماراً ومعاداً إلى اليهودية و ﴿لو﴾ بمعنى أن. ﴿وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وباله إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وزره واختصاص ضرره بهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنها آيات الله أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعمته في الكتابين أو تعلمون بالمعجزات أنه حق.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقرئ «تَلْبُسُونَ» بالتشديد و«تَلْبُسُونَ» بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام «كلا بس ثوبي زور» ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نبوة محمد عليه السلام ونعته. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بما تكتُمونه.

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكُفِرُوا آخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢).

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار. ﴿وَآكُفِرُوا آخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يشكون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف قالوا لأصحابهما لما حولت القبلة: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم وصلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون. وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تفاولوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنعته الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يشكون فيه.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤).

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ولا تقروا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أو لا تظهروا إيمانكم وجه النهار لمن كان على دينكم فإن رجوعهم أرجى وأهم. ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ هو يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبت عليه. ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ متعلق بمحذوف أي دَبَّرْتُمْ ذلك وقتلتم لأن يؤتى أحد، والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك أو بلا تؤمنوا أي ولا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم، ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدي بطائل، أو خبر إن على أن هدى الله بدل من الهدى. وقراءة ابن كثير ﴿أَن يُؤْتَى﴾ على الاستفهام للتقريع، تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دبّرتم. وقرئ «إن» على أنها نافية فيكون من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على ﴿أَن يُؤْتَى﴾ على الوجهين الأولين وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حججتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِنِظَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِنِظَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ كعبد الله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فاداه إليه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً

فجحدته. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو «يؤده إليك» و «لا يؤده إليك» بإسكان الهاء وقالون باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص والباقون بإشباع الكسرة. «إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البيعة. «ذَلِكَ» إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله «لا يؤده». «بِأَنَّهُمْ قَالُوا» بسبب قولهم. «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب، ولم يكونوا على ديننا، عتاب وذم. «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ» بادعائهم ذلك «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهود رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر».

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)﴾.

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. «مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» استئناف مقرر للجملة التي سدت «بلى» مسدها، والضمير المجرور لمن أو لله وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى «من»، وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَآيَمَنَ بِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. «بِعَهْدِ اللَّهِ» بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. «وَأَيَمَنَ بِهِمْ» وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، «ثَمَنًا قَلِيلًا» متاع الدنيا. «أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» بما يسرهم أو بشيء أصلاً، وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فإن من سخط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. «وَلَا يُزَكِّيهِمْ» ولا يشني عليهم «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به. وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على اليهودي.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحبي بن أخطب. «يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ» يفتلون بها بقراته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرئ «يلون» على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. «لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ» الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله «يلوون». وقرئ «ليحسبوه» بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» تأكيد لقوله: «وما هو من الكتاب» وتشنيع عليهم وبيان لأنهم

يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعل العبد فعل الله تعالى. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩).

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل (أن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً، فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني) فنزلت. وقيل (قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك. قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله) ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتَيْنِ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيتين، والرباني منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللحياني والرقباني وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى عالمين. وقرئ «تدرسون» من التدريس وتدرسون من أدرس بمعنى درس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس.

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ﴿مَا كَانَ﴾، أي ما كان لبشر أن يستتبّه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً، بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة. ورفع الباقون على الاستئناف، ويحتمل الحال وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدوري باختلاس الضم. ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾ إنكار، والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذنون لأن يسجدوا له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأمهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الأنبياء على أمهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف، وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأننا أهل الكتاب والنبيون كانوا منا، واللام في ﴿لَمَا﴾ موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتمل الشرطية ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرأ حمزة «لما» بالكسر على أن ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب، ثم مجيء رسول مصدق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له. وقرئ «لما» بمعنى حين

آتيتكم، أو لمن أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقلاً. وقرأ نافع «آتيناكم» بالنون والالف جميعاً. «قَالَ أَفَرَزْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي» أي عهدي، سمي به لأنه يؤصر أي يشد. وقرأ بالضم وهو إما لغة فيه كعبر وعبر أو جمع إصار وهو ما يشد به. «قَالُوا أَفَرَزْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا» أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار. وقيل الخطاب فيه للملائكة. «وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» وأنا أيضاً على إقراركم وتشاهدكم شاهد، وهو تأكيد وتحذير عظيم.

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٢) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣).

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيد بالإقرار والشهادة. «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» المتمردون من الكفرة.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطف على الجملة المتقدمة والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتولون غير دين الله تبغون، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار والفعل بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالناء عند الباقيين على تقدير وقل له. «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» أي طائعين بالنظر واتباع الحجة، وكارهين بالسيف ومعانبة ما يلجئ إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الفرق، والإشراف على الموت. أو مختارين كالملائكة والمؤمنين ومسخرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن يمتنعوا عما قضى عليهم «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» وقرأ بالياء على أن الضمير لمن.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أمر للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان، والقرآن كما هو منزل عليه منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له، والنزول كما يعدى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قدم المنزل عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرف له والعيار عليه «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» بالتصديق والتكذيب. «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» متقادون أو مخلصون في عبادته.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والإنقياد لحكم الله. «فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» الواقعين في الخسران، والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقدر للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، واستدل به على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل. والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغيره لا قبول كل ما يغيره، ولعل الدين أيضاً للأعمال.

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وضع له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفي وإنكار له وذلك

يقتضي أن لا تقبل توبة المرتد، ﴿وشهدوا﴾ عطف على ما في ﴿إيمانهم﴾ من معنى الفعل ونظيره فأصدق وأكن، أو حال بإضمار قد من كفروا وهو على الوجهين دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم، وبمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم. ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن منكر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة، أو العقوبة، أو النار وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدر له مفعول بمعنى ودخلوا في الصلاح. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يقبل توبته. ﴿رَحِيمٌ﴾ يتفضل عليه. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رده فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجلاس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعدما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نترى بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه ونناقضه بإظهاره. ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكفي عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لما كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أدخل الفاء ها هنا للإشعار به، وملء الشيء ما يملؤه. و ﴿ذَهَبًا﴾ نصب على التمييز. وقرئ بالرفع على البدل من ﴿ملء﴾ أو الخبر لمحدوف. ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى

بمثله كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ﴾ والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكراً ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ في دفع العذاب ومن مزيدة للاستغراق.

﴿لَن نَّأَلُوا الْآلِرَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢).

﴿لَن نَّأَلُوا الْبِرَّ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بر الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال، أو ما يعمه وغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبدن في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي (أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رايح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها فقال عليه السلام: إن الله قد قبلها منك). وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرئ «بعض ما تحبون» وهو يدل على أن من للتبعض ويحتمل التبيين. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ أي المطاعم والمراد أكلها. ﴿كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى: ﴿لَا هِنَ حِلْ لَهُمْ﴾. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ يعقوب. ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ كلحوم الإبل والبانها. وقيل كان به عرق النسا فنذر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء. واحتج به من جوز للنبي أن يجتهد، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريره ابتداء. ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً، وذلك رد على اليهود في دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ﴾ وقوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ الآيتين، بأن قالوا لسا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وفي منع النسخ والطعن في دعوى الرسول عليه السلام موافقة إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل والبانها. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيته بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً. روي: أنه عليه السلام لما قاله لهم بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة. وفيه دليل على نبوته.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥).

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم. ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد ما لزمهم الحجة. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضح لهم.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾

حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، أو مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التي اضطركم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية، وألزمتكم تحريم طيبات أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعرض بشرك اليهود.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرئ على البناء للفاعل. ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي «ببكة»، وهي لغة في مكة كالنبيط والنبيط، وأمر راتب وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بكة إذا زحمه، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبابرة روي (أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: المسجد الحرام، ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة). وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هدم فبناه قوم من جرهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان، ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضراح يطوف به الملائكة، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكن في الظرف ﴿وَهَدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧).

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ كانهراف الطيور عن موازة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيد في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مِّمَّا يُرَاهِمُ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أثر القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين، وتخصيصها بهذه الإلانة من بين الصخار وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة. ويؤيده أنه قرئ «آية» بيّنة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنیان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماء. ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى أمن من دخله أي ومنها أمن من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله. اقتصر يذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذكر غيرهما كقوله عليه السلام «حبيب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة» لأن فيها غنية عن غيرها في الدارين بقاء الأثر مدى الدهر والأمن من العذاب يوم القيامة، قال عليه السلام: «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً». وعند أبي حنيفة من لزمه القتل بردة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولكن ألجئ إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿حِجْ﴾ بالكسر وهو لغة نجد. ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة «بالزاد والراحلة» وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أوجب الاستنابة على الزمن إذا وجد أجره من ينوب عنه. وقال مالك رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قدر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها

بمجموع الأمرين. والضمير في إليه للبيت، أو الحج وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وضع كفر موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً» وقد أكد أمر الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوه بصيغة الخبر، وإبرازه في الصورة الإسمية وإيراده على وجه يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إيهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسمية ترك الحج كفراً من حيث إنه فعل الكفرة، وذكر الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذلان وقوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعظم السخط، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتاع البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي (أنه) لما نزل صدر الآية جمع رسول ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال إن الله تعالى: كتب عليكم الحج فحجوا فأمنت به ملة واحدة وكفرت به خمس ملل فتزل ومن كفر).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدعيه من وجوب الحج وغيره، وتخصيص أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسار.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغة في التقرير ونفي العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مستقبح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب، وسبيل الله في دينه الحق المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يفتنون المؤمنين ويحرشون بينهم حتى أتوا الأوس والخزرج فذكروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصددهم عنه. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تلبسوا على الناس وتوهمو أن فيه عوجاً عن الحق، بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ إنها سبيل الله والصد عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، ولما كان المنكر في الآية الأولى كفرهم وهم يجهرون به ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾. ولما كان في هذه الآية صددهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يخفونه ويحتالون فيه قال وما الله بغافل عما تعملون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألفهم واجتماعهم فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعث وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا السلاح السلاح، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بين قلوبكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فآلقوا السلاح

واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ. وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ إنكار وتعجيب لكفرهم في حال اجتماع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر. ﴿وَمَنْ يَغْتَصِم بِاللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجئ إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هَدَيْنَا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا محالة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو است فراغ الوسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وقيل هو: أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها. وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، وأصل تقاة وقية فقلبت واوها المضمومة تاء كما في تودة وتخمة والياء ألفاً. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فإن النهي عن المقيد بحال أو غيرها قد يتوجه بالذات نحو الفعل تارة والقيد أخرى وقد يتوجه نحو المجموع دونهما وكذلك النفي.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين». استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردي والوثوق به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أي ولا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضهم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل اللفة. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغل. ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين فوق بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعت في النار. ﴿فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام، والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشفا. وتأنيثه لتأنيث ما أضيف إليه أو لأنه بمعنى الشفة فإن شفا البشر وشفتها طرفها كالجانبة والجانية، وأصله شفو فقلبت الواو ألفاً في المذكر وحذفت في المؤنث. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلالته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿١٠٢﴾

﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ من للتبويض، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترط

فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعل بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يدعون كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطف الخاص على العام للإيذان بفضله. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح وروي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال: «أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم». والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يؤمر به. والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركه وإنكاره فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتنزیه وأحوال الآخرة على ما عرفت. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة». ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد». ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٧).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياض الوجه وسواده كنايةان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، أو جميع الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عبر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حلية المؤمنين وثوابهم. ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١١٩).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعد له وأوعده.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠).

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طراً كقوله تعالى: ﴿إِن اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ، أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ استئناف بين به كونهم ﴿خير أمة﴾، أو خير ثان لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به، وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه، واستدل بهذه الآية على إن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونهم أمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها وارتدان على سبيل الاستطراد.

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ (١١١).

﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ضرراً يسيراً كقطعن وتهديد. ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ﴾ يهزموا ولا يضرركم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفي إضرارهم سوى ما يكون بقول وقرر ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدبرة عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرئ «لا ينصروا» عطفاً على يولوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيداً بقتالهم، وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقَفُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ يَأْتِيهِمُ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيْنَمَا تُقَفُّوا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتمسين، أو ملتبسين بذمة الله أو كتابة الذي آتاهم وذمة المسلمين، أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبؤ بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلن بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم

واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَهُ أَلِيلَ وَهُمْ يَسْتَجِدُونَ﴾ (١١٣).

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ في المساوي والضمير لأهل الكتاب. «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» استئناف لبيان نفي الاستواء، والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. «يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَهُ أَلِيلَ» وهم يستجدون يتلون القرآن في تهجدهم. عبّر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم).

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥).

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفات أخرى لأمة وصفهم بخصائص ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مدهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات. «وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه البتة، سمي ذلك كفراً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان، وقرأ حفص وحمزة والكسائي «وما يفعلوا من خير فلن يكفروه» بالياء والباقيون بالتاء. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ من العذاب، أو من الغناء فيكون مصدراً. «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ» ملازموها. «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرة قربة، أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. «فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ» برد شديد والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر، فهو في الأصل مصدر نعت به أو نعت وصف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. «أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بالكفر والمعاصي «فَأَمْلَكَتْهُ» عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما انفقوا في ضياعه بحرث كفار ضربته صر فاستأصلته ولم يبق لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركب ولذلك لم يبال بزيادة كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدر كمثل مهلك ريح وهو الحرث. «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» أي ما ظلم المنفقين بضياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتد بها، أو ما ظلم أصحاب الحرث بإهلاكه ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به العقوبة. وقرئ «ولكن» أي ولكن أنفسهم يظلمونها، ولا يجوز أن يقدر ضمير الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

وَمَا كُنْتُمْ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقَ قَلْبَهُ وَلَكِنْ مِّنْ يُبْصِرْ جُفُوءَكُمْ يَغْشَى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يعرفه الرجل أسرارَه ثقة به، شبه ببطانة الثوب كما شبه بالشعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شعار والناس دثار». ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا، أو بمحذوف هو صفة بطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والألو التقصير وأصله أن يعدي بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا ألوك نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنوا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم. ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بين لكم، والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لبطانة.

﴿هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا عِلْمِي يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿هَآ أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاتهم، وهو خبر ثان أو خبر لأولاء والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو صلته أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن ينصب أولاء بفعل مضمر يفسره ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال من لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلاً. ﴿قُلْ مُؤْتُوا عِلْمِي﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحق، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي قل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من اطلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة، وشمتموا بما أصابهم من ضر وشدة، والمس مستعار للإصابة ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكليف. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ بفضل الله عز وجل وحفظه الموعود للصابرين والمتقين ولأن المحذ في الأمر، المتدرب بالاتقاء والصبر يكون قليل الانفعال جرياً على الخصم، وضمه الرأ للاتباع كضمة مد. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ من ضاره يضره. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط

علمه فيجازيكم مما أنتم أهله. وقرىء بالياء أي «بما يعملون»، في عداوتكم عليهم فيعاقبهم عليه.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت. «مِنْ أَهْلِكَ» أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. «تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ» تنزلهم. أو تسوي وتهيب لهم ويؤيده القراءة باللام. «مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ» مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المقعد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى: «فِي مَقْعَدِ صَدْقٍ» وقوله تعالى: «قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ». «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» لأقوالكم. «عَلِيمٌ» بياتكم روي (أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء. ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة. فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قبل فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: «رَأَيْتَ فِي مَنَامِي بَقْرَةً مَذْبُوحَةٌ حَوْلِي فَأَوْلَتْهَا خَيْرًا، وَرَأَيْتَ فِي ذَبَابٍ سَيْفِي ثَلَمًا فَأَوْلَتْهُ هَزِيمَةً، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دَرَجٍ حَصِينَةٍ فَأَوْلَتْهَا الْمَدِينَةَ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ فَاتَتْهُمْ بَدْرٌ وَأَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِالشَّهَادَةِ يَوْمَ أَحَدٍ أَخْرَجَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ. وَبَالِغُوا حَتَّى دَخَلَ وَلَيْسَ لَامَتُهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ نَدَمُوا عَلَى مَبَالِغَتِهِمْ وَقَالُوا: اصْنَعْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتَ فَقَالَ «لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ أَنْ يَلْبِسَ لَامَتَهُ فَيَضَعُهَا حَتَّى يُقَاتِلَ». فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أخذ يوم السبت، ونزل في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسوى صفهم، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال: انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا).

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿إِذْ هَمَّتْ﴾ متعلق بقوله: «سَمِيعٌ عَلِيمٌ» أو بدل من إذ غدوت. «طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ» بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر. «أَنْ تَفْشَلَا» أن تجبنا وتضعفا. روي (أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زهاء ألف رجل ووعد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبي في ثلاثمائة رجل وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري وقال: أنشدكم الله والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبي لو تعلم قتالاً لاتبعناكم، فهم الحيان باتباعه فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله ﷺ. والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى: «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» أي عاصمهما من اتباع تلك الخطرة، ويجوز أن يراد والله ناصرهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله. «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم بيدر.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رَبُّكُمْ رَبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبدر ماء بين مكة والمدينة كان لرجل يسمى بدران فسمي به. «وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائل تنبيهاً على قتلهم مع ذلتهم لضعف الحال وقلة المراكب والسلاح. «فَاتَّقُوا اللَّهَ» في الثبات. «لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ» بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم بنعم الله عليكم فتشكرون، فوضع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصركم. وقيل بدل ثان من إذ غدوت على أن قوله لهم يوم أحد وكان مع

اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة. ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزِلِينَ﴾ إنكار أن لا يكفيهم، ذلك وإنما جيء بـ «لن» إشعاراً بأنهم كانوا كالأيسين من النصر لضعفهم وقتلهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر ﴿مُنْزِلِينَ﴾ بالتشديد للتكثير أو للتدرج.

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وعد لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ﴾ أي المشركون. ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدر من فارت القدر إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا ريث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ معلمين من التسويم الذي هو إظهار سيما الشيء لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه. «تسوموا فإن الملائكة قد تسومت». أو مرسلين من التسويم بمعنى الأسماء. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غَلَبًا يَغْلِبُهُمْ فَيُضْلِتُوا﴾ ﴿١٢٧﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا من العدة والعدد، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مدد وإنما أمدهم ووعد لهم به بشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر، وحثاً على أن لا يبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغالب في أقضيته. ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي ينصر ويخذل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متعلق بنصركم، أو ﴿وما النصر﴾ إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى لينقص منهم بقتل بعض وأسر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْتَسِبَ غَلَبًا﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وهن يقع في القلب، وأو للتنويع دون الترديد ﴿فَيُضْلِتُوا﴾ خائبين فينهزموا منقطعي الأمال.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكتبهم، والمعنى أن الله مالك أمرهم فإذا أن يهلكهم أو يكتبهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيء بإضمار أن، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء. أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبة عليهم أو تعذيبهم. وأن تكون أو بمعنى إلا أن. أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتسرب به أو يعذبهم فتشفى منهم. روي (أن عتبة بن أبي وقاص شجّه يوم أحد وكسر رباعيته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم) فنزلت. وقيل هم أن يدعوا عليهم فنهاه

الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن. ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٩) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة، ولعل التخصيص بحسب الواقع. إذ كان الرجل منهم يربي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشئ الطفيف مال المديون. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «مضاعفة». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتهم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجعين للفلاح.

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٣٢).

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات معدة للكافرين وبالعرض للعصاة. ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليل عزة التوصل إلى ما جعل خيراً له.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ الْكَافِطِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣٤).

﴿وَسَارِعُوا﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة، كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر «سارعوا» بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي عرضها كعرضهما، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة على طريقة التمثيل، لأنه دون الطول. وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وإنها خارجة عن هذا العالم.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدّة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يخلو في حال ما يوافق ما قدروا عليه من قليل أو كثير، ﴿وَالْكَافِطِينَ الْغَيْظِ﴾ المسكين عليه الكافين عن إمضائه مع القدرة، من كظمت القرية إذا ملأتها وشدت رأسها. وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنقاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله» وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي ذنب كان وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكَرُوا﴾

الله ﴿ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم ﴾ ﴿ فاستغفروا لذُنُوبِهِمْ ﴾ بالندم والتوبة. ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿ وَلَمْ يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة». ﴿ وَهُمْ يَغْلُمُونَ ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣٦).

﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ خير للذين إن ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفته على المتقين، أو على الذين ينفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم إن لا يدخلها المصرون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرهم، وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما هم أدون مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القليلين أنه فصل آيتهم بأن بين أنهم محسنون مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصيص بمكافئهم، وفصل آية هؤلاء بقوله: ﴿ وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ لأن المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذه النكتة، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفرة والجنات.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨).

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ وقائع سننها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوا نَفْسًا سَنَّا اللَّهُ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلٍ ﴾ وقيل أمم قال:

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمْو وَلَا رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السَّنَنِ

﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إشارة إلى قوله ﴿ قد خلت ﴾، أو مفهوم قوله ﴿ فانظروا ﴾ أي أنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للبعث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩).

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تضعفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ وحالكم إنكم أعلى منهم شأنًا، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاككم في الجنة، وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلون في العاقبة فيكون بشارة لهم بالنصر والغلبة. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون.

﴿ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَلَتَكُ الْآيَاتُ نَذِيرًا لَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ .

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضعف والضعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألمها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثله، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كلا المسمي كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْمًا عَلَيْنَا وَيَوْمًا لَنَا وَيَوْمًا لِنَسَاءٍ وَيَوْمًا لِنَسَرٍ

والمداولة كالمعاودة يقال داولت الشيء بينهم فتداولوه، والأيام تحتل الوصف والخبر و ﴿نداولها﴾ يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة. ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على علة محذوفة أي نداولها ليكون كيت وكيت وليعلم الله إيداناً بأن العلة فيه غير واحدة، وإن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يعلم، أو الفعل المعلل به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حرف فعلنا ذلك، والقصد في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثبات علمه تعالى ونفيه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه ليعلمهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريد شهداء أحد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنما يغلبهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾ .

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليظهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم. ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية والفرق بين ﴿لَمَّا﴾ ولم إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرئ «يعلم» بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرئ بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون.

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٤٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بداراً وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معابنين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو على تمنى الشهادة فإن في تمنى غلبة الكفار.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾ .

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فسيخلوا كما خلوا بالموت أو القتل. ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته. روي (أنه لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبح عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو إليَّ عباد الله فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقيون، وقال بعضهم: ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعترز إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل) فنزلت. ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ بارتداده بل يضر نفسه. ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنس وأضرابه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُتِبَ مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لملك الموت عليه الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بالإحجام عن القتال والإقدام عليه. وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَاباً﴾ مصدر مؤكد إذ المعنى كتب الموت كتاباً. ﴿مُوجَّلاً﴾ صفة له أي مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلته الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهاون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخلوا مكانهم فانتهاز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

﴿وَكَايْنٍ مَنِ نَبَى قَتَلَ مَعَهُ رَيْثُيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦).

﴿وَكَايْنٍ﴾ أصله أي دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير «وكائن» ككاعن ووجهه أنه قلب قلب الكلمة الواحدة كقولهم رعملي في لعمرى، فصار كيأن ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي «مَنْ نَبَى» بيان له. ﴿قَاتِلَ مَعَهُ رَيْثُيُونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب «قتل»، وإسناده إلى «رييون» أو ضمير النبي ومعه رييون حال منه ويؤيد الأول أنه قرئ بالتشديد وقرئ «رييون» بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جدهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد، والألف من إشباع الفتحة أو استكون من

الكون لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريض بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧) فَقَالَهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربابين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضمًا لها وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طلب الثبوت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى الإجابة، وإنما جعل قولهم خبراً لأن أن قالوا أعرف لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

﴿فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فاتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر في الدنيا، والجنة والنعيم في الآخرة، وخص ثوابها بالحسن إشعاراً بفضلته وأنه المعتمد به عند الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ﴾ أي إلى الكفر ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قتل. وقيل أن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم.

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم. وقرئ بالنصب على تقدير بل أطيعوا الله مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ﴾ (١٥١).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ يريد ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أُخِذَ حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». وقيل لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فالقى الله الرعب في قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله:

وَلَا تَرَى الضُّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلطنة لحدة اللسان. ﴿وَمَاوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى الظَّالِمِينَ﴾ أي مثواهم، فوضع الظاهر موضع المضمَر للتغليظ والتعليل.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَكُمْ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعده إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. ﴿إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾ تقتلونهم، من حسه إذا أبطل حسه. ﴿حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعف رأيكم، أو ملتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه أميرهم في نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعنى بقوله: ﴿وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظة على أمر الرسول عليه السلام. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ تفضلاً ولما علم من ندمكم على المخالفة. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أدبيل لهم أو عليهم إذ الابتلاء أيضاً رحمة.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥٣﴾

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلق بصرفكم، أو لِيَبْتَلِيَكُمْ أو بمقدر كاذبوا. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال: أضعنا من مكة إلى المدينة. ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. ﴿وَالرُّسُلُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليّ عباد الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يكره له الجنة. ﴿فِي أَخْرَاجَكُمْ﴾ في سאתكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا يَغْمُرُ﴾ عطف على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غمماً متصلاً بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غمماً بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له. ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ لتتروا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضر لاحق. وقيل ﴿لَا﴾ مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فاتاكمم للرسول ﷺ أي فأساكم في الاغتمام فاغتم بما نزل عليكم، كما اغتمتم بما نزل عليه ولم يثر بكم على عصيانكم تسلياً لكم كيلاً تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ علیم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا نُعَاسًا يَعْشُونَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١٥٤﴾

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا﴾ أنزل الله عليكم الأمن حتى أخذكم النعاس، وعن أبي طلحة غشينا النعاس في المصاف حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه. والأمانة الأمن

نصب على المفعول ونعاساً بدل منها أو هو المفعول، و «أمنة» حال منه متقدمة أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أمنة أو على أنه جمع آمن كبار وبررة. وقرئ «أمنة» بسكون الميم كأنها المرة في الأمر «يَعْتَشِي طَائِفَةٌ مِنْكُمْ» أي النعاس وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأمنة والطائفة المؤمنون حقاً. «وَطَائِفَةٌ» هم المنافقون. «قَدْ أَهْمَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ» أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا هم أنفسهم وطلب خلاصها. «يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغير الحق نصب على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، و «ظن الجاهلية» بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. «يَقُولُونَ» أي لرسول الله ﷺ وهو بدل من يظنون. «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ» هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبي بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبق لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء «قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ» أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كله بالرفع على الابتداء. «يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ» حال من الضمير يقولون أي يقولون مظهرين إنهم مسترشدون طالبون النصر مبطلين الإنكار والتكذيب. «يَقُولُونَ» أي في أنفسهم وإذا خلا بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يخفون أو استئناف على وجه البيان له. «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان ابن أبي وغيره. «مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. «قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ» أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامة بالمدينة ولم ينج منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه. «وَلَيَبْتَغِيَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ» وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق، وهو علة فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي أو عطف على محذوف أي لبرز لنفاذ القضاء أو لمصالح جمعة وللابتلاء، أو على لكيلا تحزنوا. «وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» وليكشفه ويميزه أو يخلصه من الوسواس. «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فعل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة فمنعوا التأييد وقوة القلب. وقيل استزال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجز بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلفت منهم فكرهوا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ» لتوبتهم واعتذارهم. «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» للذنوب «حَلِيمٌ» لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٥١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني المنافقين. «وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ» لأجلهم وفيهم،

ومعنى إختوتهم اتفاقهم في النسب أو المذهب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ جمع غاز كعاف وعقى. ﴿لَوْ كَانُوا جُنْدًا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ مفعول قالوا وهو يدل على إن إخوانهم لم يكونوا مخاطبين به. ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ متعلق بـ ﴿قَالُوا﴾ على إن اللام لام العاقبة مثلها في ليكون لهم عدواً وحزناً، أو لا تكونوا أي لا تكونوا مثلهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعله حسرة في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد. وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما ينهم. ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامة والسفر فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا.

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧) وَلَيْنَ مُتْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِّلَّهِ تَحْشُرُونَ (١٥٨).

﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتْتُمْ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحزمة والكسائي بكسر الميم من مات يمات. ﴿لِمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ جواب القسم وهو ساد مسد الجزاء والمعنى: إن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء.

﴿وَلَيْنَ مُتْتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿لِلَّهِ تَحْشُرُونَ﴾ لآلى معبودكم الذي توجهتم إليه. وبذلك مهجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحزمة والكسائي ﴿متم﴾ بالكسر.

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهْتُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ قَطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَاَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١٥٩).

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهْتُمْ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيد والتنبيه والدلالة على أن لينة لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ قَطًّا﴾ سبب الخلق جافياً. ﴿غَلِظَ الْقَلْبُ﴾ قاسيه. ﴿لَاَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يختص بك. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما لله. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي في أمر الحرب إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يشاور فيه استظهاراً برأيهم وتطبيعاً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرأ «فإذا عزمتم»، على التكلم أي فإذا عزمتم لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٦٠).

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم. ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا

ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضى للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٦٦).

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يغل غلولاً وأغل إغلالاً إذا أخذه في خفية والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغة في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فنزلت. فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غلولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحزمة والكسائي ويعقوب ﴿أَنْ يَقُلَ﴾ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يوجد غللاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَى يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يأت بالذي غله يحمله على عنقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وباله وإثمه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطي جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللاتق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزداد في عقاب عاصيهم.

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ رَبِّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٧).

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بالطاعة. ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ رجع. ﴿بِسَخَطِ رَبِّهِ﴾ بسبب المعاصي. ﴿وَمَا وَآءُ جَهَنَّمَ وَيُشْرَى الْمَصِيرُ﴾ الفرق بينه وبين المرجع إن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع. ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شبهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالم بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيهم على حسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٦٨).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه وتخصيصهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرئ «المن من الله» على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل منه أو بعثه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من نسبهم، أو من جنسهم عربياً مثلهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرئ «من أنفسهم» أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب ويطونهم. ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إن هي المخففة من الثقلية واللام هي الفارقة والمعنى وإن الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ .

﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ الهمة للتعجب والتفكير، والواو عاطفة للجملتين على ما سبق من قصة أحد أو على محذوف مثل أفعلتم كذا وقلمتم، ولما ظرفه المضاف إلى ما أصابتكم أي أفلتم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يوم أحد، والحال إنكم نلتهم ضعفها يوم بدر من قتل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطوعة، أو اختيار الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومنعه وعلى أن يصيب بكم ويصيب منكم.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فَيَاذَنَ اللَّهُ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار سماها إذناً لأنها من لوازمه. ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخل في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيرهم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاء بالأنفس إلى التهلكة، أو لو نحسن قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دغلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ لانخدالهم وكلامهم هذا فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخدالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخديلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب وأنتم تعلمونه مجملًا بأمارات.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾ .

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ رفع بدلاً من واو ﴿يكتمون﴾، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جر بدلاً من الضمير في ﴿بأنفواهم﴾ أو ﴿قلوبهم﴾ كقوله:

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمًا عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمٌ
﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي لأجلهم، يريد من قتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم. ﴿وَقَعَدُوا﴾ حال مقدرة بقدر أي قالوا قاعدين عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود بالمدينة. ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم تقتل. قرأ هشام ﴿مَا قُتِلُوا﴾ بتشديد التاء. ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين إنكم تقدرون

على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى أن القعود غير مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعود سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ نزلت في شهداء أحد. وقيل في شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرئ بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول، أو من يحسب أو إلى الذين قتلوا. والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة. وقرأ ابن عامر ﴿قُتِلُوا﴾ بالتشديد لكثرة المقتولين. ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ أي بل هم أحياء. وقرئ بالنصب على معنى بل أحسبهم أحياء ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى منه. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَتَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١).

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة. ﴿وَتَسْتَبْشِرُونَ﴾ يسرون بالبشارة. ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي الذين من خلفهم زماناً أو رتبة. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين والمعنى: إنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحال من تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو إنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوف وقوع محذور، وحزن فوات محبوب. والآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس بل هو جوهر مدرك بذاته لا يفنى بخراب البدن، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاده، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون ﴿النار يعرضون عليها﴾ الآية وما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش». ومن أنكر ذلك ولم ير الروح إلا ريحاً وعرضاً قال هم أحياء يوم القيامة، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ودنوه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعم عليه، ويشري للمؤمنين بالفلاح.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد وليلحق به ما هو بيان لقوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وتنكيرهما للتعظيم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله محبطة وأجوره مضیعة.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢).

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح أو مبتدأ خبره. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته ومن للبيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي (أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا

الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبه وقال لا يخرج من معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد. وهي على ثمانية أميال من المدينة. وكان بأصحابه القرع فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣).

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ يعني الركب الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابل خرج في أهل مكة حتى نزل بمر الظهران فأنزل الله الرعب في قلبه وبدا له أن يرجع، فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب أن ثبطوا المسلمين. وقيل: لقي نعيم بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عُشراً من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد إلا شريد افترى أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ففتروا، فقال عليه السلام: والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد فخرج في سبعين ركباً وهم يقولون حسبنا الله. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الضمير المستكن للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله إن أريد به نعيم وحده، والبارز للمقول لهم والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص وبعضه قول ابن عمر رضي الله عنهما (قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار) وهذا ظاهر إن جعل الطاعة من جملة الإيمان وكذا إن لم تجعل فإن اليقين يزداد بالإلف وكثرة التأمل وتناصر الحجج. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ محسبنا وكافينا، من أحسبه إذا كفاه ويدل على أنه بمعنى المحسب إنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكل إليه هو.

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

﴿فَانْقَلَبُوا﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه. ﴿وَفَضْلٍ﴾ وريح في التجارة فإنهم لما أتوا بدرأ وأفوا بها سوقاً فاتجروا وربحوا. ﴿لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ﴾ من جراحة وكيد عدو. ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجراعتهم وخروجهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد، والتصلب في الدين وإظهار الجراءة على العدو، وبالحفظ عن كل ما يسوءهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل. وفيه تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ يريد به المشيط نعيماً أو أبا سفيان، والشيطان خبر ﴿ذَلِكُمْ﴾ وما بعده بيان لشيئته أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أوليائوه الذين هم

أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُونَ﴾ في مخالفة أمري فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يَقْتَضِي إِثَارَ خَوْفِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَوْفِ النَّاسِ.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧).

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعا حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قوم ارتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خوف أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتمل المفعول والمصدر وقرأ نافع ﴿يحزنك﴾ بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء لا يحزنهم الفزع الأكبر، فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه والباقون كذلك في الكل. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ الغاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وإن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلُ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يحسب. والذين مفعول و ﴿أَنَّمَا نَمْلِي﴾ لهم بدل منه، وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعليل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ﴾. أو المفعول الثاني على تقدير مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحاب أن الإملاء خير لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فاتبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ فاعل وإن مع ما في حيزه مفعول وفتح سينه في جميع القرآن ابن عامر وحمزة وعاصم. والإملاء الإمهال وإطالة العمر. وقيل تخليتهم وشأنهم، من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافة واللام لام الإرادة. وعند المعتزلة لام العقابة. وقرئ «إنما» بالفتح هنا وبكسر الأولى ولا يحسبن بالياء على معنى ﴿ولا يحسبن الذين كفروا﴾ أن إملاءنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، و ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ﴾ اعتراض. معناه أن إملاءنا خير لهم إن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثماً معداً لهم عذاب مهين.

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾



﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرف مخلصكم من منافقكم حتى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخالص المخلصون منكم، كبدل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبي به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾، هنا وفي «الأنفال» بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وما كان الله ليؤتي أحدكم علم الغيب فيطلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات، أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بصفة الإخلاص، أو بأن تعلموه وحده مطلقاً على الغيب وتعلموهم عبداً مجتبيين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحى إليهم روي (أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر) فنزلت. عن السدي أنه عليه السلام قال: «عرضت علي أمي وأعلمت من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إن يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفنا فنزلت. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ التفاف. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠).

﴿وَلَا تَحْسِنُ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ بالتاء قدر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو من يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة». ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ آلِدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ (١٨٢).

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً﴾. وروي (أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله) فنزلت. والمعنى أنه لم يخف عليه وأنه أعد لهم العقاب

عليه. ﴿سَتَكُتِبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتب، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نظمته مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أول جريمة ارتكبوها وأن من اجتراً على قتل الأنبياء لم يستبعد منه أمثال هذا القول. وقرأ حمزة ﴿سيكتب﴾ بالياء وضمها وفتح التاء وقتلهم بالرفع ويقول بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي وننتقم منهم بأن نقول لهم ذوقوا العذاب المحرق، وفيه مبالغات في الوعيد. والذوق إدراك الطعوم، وعلى الاتساع يستعمل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم ومعظم بخله به للخوف من فقده. ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيُودِيَكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما قدمت وسببته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّيَّ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨٣).

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحبي وفنحاص ووهب بن يهودا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَنَّ لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ بأن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب قربان فيقوم النبي فيدعو فتتزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَّيَّ قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزات أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوه، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجتروا على قتله.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤).

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ تسليية للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر ﴿وبالزبر﴾ وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وعد ووعد للمصدق والمكذب. وقرئ «ذائقة الموت» بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: «ولا ذاكر الله إلا قليلاً» ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافيّاً. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار». ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ بعد

عنها، والزحزحة في الأصل تكرير الزح وهو الجذب بعجلة. «وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَفَذَّ قَارَ» بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه». «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» أي لذاتها وزخارفها. «إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» شبهها بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه، وهذا لمن آثرها على الآخرة. فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ والغرور مصدر أو جمع غار.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٨٦).

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن. «فِي أَمْوَالِكُمْ» بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. «وَأَنْفُسِكُمْ» بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. «وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا» من هجاء الرسول ﷺ، والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين. أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال، ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها. «وَإِنْ تَصْبِرُوا» على ذلك. «وَتَتَّقُوا» مخالفة أمر الله. «فَإِنَّ ذَلِكَ» يعني الصبر والتقوى. «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» من معزومات الأمور التي يجب العزم عيها، أو مما عزم الله عليه أي أمر به وبإلحاح فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي اذكر وقت أخذه. «مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» يريد به العلماء. «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ» حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله: «أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ» والضمير للكتاب. «فَنَبَذُوهُ» أي الميثاق. «وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» فلم يراعوه ولم يلتفتوا إليه. والنبد وراء الظهر مثل في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جعله نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. «وَأَشْرَوْا بِهِ». وأخذوا بدله. «ثَمَنًا قَلِيلًا» من حطام الدنيا وأعراضها. «فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ» يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من كتم علمه عن أهله أَلْجَمَ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ». وعن علي رضي الله تعالى عنه (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضم الباء جعل الخطاب له وللمؤمنين، والمفعول الأول «الذين يفرحون» والثاني «بمفازة»، وقوله «فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ» تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق، بمفازة بمنجاة من العذاب أي فاترين بالنجاة منه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء وفتح الباء في الأول وضمها في الثاني على أن الذين فاعل ومفعولا يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولا مؤكدة، فكأنه قيل؛ ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام (سأل اليهود عن شيء مما في

التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا) فنزلت. وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به. وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمناقضتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة.

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقيل هو رد لقولهم إن الله فقير ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاختصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه معترضة لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها. وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يفكر فيها».

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله». وقيل معناه يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين: «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء». فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعا على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقادير بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة كالتفكير». لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشة إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له». وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكر فيه، أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقتة عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقتة لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يده على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ للإجلال بالنظر فيه، والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمهم بما لأجله خلقت السموات والأرض حملهم على الاستعاذة.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ غاية الإخزاء، وهو نظير قولهم: من أدرك مرعى الضمان فقد أدرك، والمراد به تهويل المستعاذ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أقطع. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أراد بهم المدخلين، ووضع المظهر موضع المضمحل للدلالة على

أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار وانقطاع النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفي الشفاعة لأن النصر دفع بقهر.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرَارِ ۖ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أوقع الفعل على المسموع وحذف المسموع لدلالة وصفه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع وفي تنكير المنادي وإطلاقه ثم تقييده تعظيم لشأنه، والمراد به الرسول عليه الصلاة والسلام وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدي بالي واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ أي بأن آمنوا فامتثلنا. ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا فإنها ذات تبعه. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة، ولكن مكفرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبته معدودين في زمرة، وفيه تنبيه على أنهم محبوبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع بر أو بار كأرباب وأصحاب.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۖ﴾.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتنا على تصديق رسلك من الثواب. لما أظهر امتثاله لما أمر به سأل ما وعد عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة، أو قصور في الامتثال أو تعبدًا واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً عليهم. وقيل معناه على السنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بأن تعصمنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد البعث بعد الموت. وتكرير ربنا للمبالغة في الابتهاال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار (من حزنه أمر فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلٍ وَقُتِلُوا وَقِيلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتُ جَحْدَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۖ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أجاب ويعدى بنفسه وباللام. ﴿أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي باني لا أضيع. وقرئ بالكسر على إرادة القول. ﴿مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُمْ مِّنَ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلٍ﴾ أي الذين هاجروا من الديار وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيل. ﴿وَقُتِلُوا﴾ أي قتلوا. ﴿وَقِيلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لا كفر عن سيئاتهم. ﴿وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّاتُ جَحْدَىٰ﴾ أي لا دُخِلَتْ جَنَّاتُ جَحْدَىٰ. ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ثواباً من عند الله. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي أيّيبهم بذلك إثابة من عند الله تفضلاً منه، فهو مصدر مؤكد. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ على

الطاعات قادر عليه .

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَشْسُ الْهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ .

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، أو تشييته على ما كان عليه كقوله ﴿فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ﴾ أو لكل أحد، والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ، ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم . روي (أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد) فنزلت .

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ مجذوف، أي ذلك القلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين . قال عليه الصلاة والسلام «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع» . ﴿ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَشْسُ الْهَادُ﴾ أي ما مهدوا لأنفسهم .

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ .

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ النزول والنزل: ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة، قال أبو الشعر الضبي:

وكننا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا وانتصابه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف، وقيل: إنه مصدر مؤكد، والتقدير: أنزلوها نزلاً ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لكثرتة ودوامه ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ .

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل في أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا . وقيل في أصحابة النجاشي لما نجاه جبريل إلى رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط . وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إن بالظرف . ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن . ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من الكتابين . ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما يفعله المحرفون من أجهارهم . ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لعلمه بالأعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغناؤه عن التأمل والاحتياط، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد . ﴿وَصَابِرُوا﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصه بعد الأمر بالصبر

مطلقاً لشدته. ﴿وَرَابِطُوا﴾ أبدانكم وخيولكم في الشغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة». وعنه عليه الصلاة والسلام «من رباط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه، لا يفطر ولا يفتل عن صلاته إلا لحاجة». ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فاتقوه بالتبري عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة، المرتبة التي هي الصبر على مضاها الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشرعية، والطريقة، والحقيقة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس». والله أعلم.

(٤) سورة النساء

مكية وهي مائة وخمسون وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَدَّ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَدَّ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ هي آدم. ﴿وَوَدَّ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخلقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما، والمعنى ونشر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر، وذكر ﴿كثيرون﴾ حملاً على الجمع وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليتها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرئ «وخالق» «وباث» على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فادغمت التاء الثانية في السين. وقرأ عاصم وحزمة والكسائي بطرحها. ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطف على محل الجار والمجرور كقولك: مرتت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجر عطفاً على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة. وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخير تقديره والأرحام كذلك، أي مما يتقى أو يتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أن صلتها بمكان منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله». ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَلْفِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا

﴿٢﴾﴾.

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتم وهو الانفراد. ومنه الدرة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جمع على يتائم، ثم قلب فقيل يتامى أو على أنه جمع على يتمى كأسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يتمى على يتامى كأسرى وأسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. ووروده في الآية إما للبلغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يدفع إليهم أموالهم أول بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً أو لغير البالغ والحكم مقيد فكأنه قال؛

وَأَتَوْهُمْ إِذَا بَلَغُوا. وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ مَا رَوَى: أَنَّ رَجُلًا مِنْ غُطَفَانَ كَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لِابْنِ أَخٍ لَهُ يَتِيمٌ فَلَمَّا بَلَغَ طَلَبَ الْمَالَ مِنْهُ فَمَنَعَهُ فَتَزَلَّتْ. فَلَمَّا سَمِعَهَا الْعَمَ قَالَ: أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْبِ الْكَبِيرِ. ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ وَلَا تَسْتَبَدُّوا الْحَرَامَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ بِالْحَلَالِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ، أَوِ الْأَمْرَ الْخَبِيثَ وَهُوَ اخْتِرَالُ أَمْوَالِهِمْ بِالْأَمْرِ الطَّيِّبِ الَّذِي هُوَ حِفْظُهَا. وَقِيلَ وَلَا تَأْخُذُوا الرِّفْعَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتَعْطُوا الْخَسِيسَ مَكَانَهَا، وَهَذَا تَبْدِيلٌ وَلَيْسَ بِتَبْدِيلٍ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ وَلَا تَأْكُلُوهَا مَضْمُومَةً إِلَى أَمْوَالِكُمْ، أَيِ لَا تَنْفَقُوهَا مَعًا وَلَا تَسْوُوا بَيْنَهُمَا، وَهَذَا حَلَالٌ وَذَلِكَ حَرَامٌ وَهُوَ فِيمَا زَادَ عَلَى قَدَرِ أَجْرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ الضَّمِيرُ لِلْأَكْلِ. ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذَنْبًا عَظِيمًا. وَقُرِئَ حُوبًا وَهُوَ مُصْدَرٌ حَابٍ ﴿حُوبًا﴾ وَحَابًا كَقَالَ قَوْلًا وَقَالَ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْوًى وَتِلْكَ وَرِثَةٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أَيِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِذَا تَزَوَّجْتُمْ بِهِنَّ، فَتَزَوَّجُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ غَيْرِهِنَّ. إِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَجِدُ يَتِيمَةً ذَاتَ مَالٍ وَجَمَالَ فَيَتَزَوَّجُهَا ضَنْأً بِهَا، فَرُبَّمَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ عَدَدٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِنَّ. أَوْ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِي حَقُوقِ الْيَتَامَى فَتُحَرِّجْتُمْ مِنْهَا فَخَافُوا أَيْضًا أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ فَانْكِحُوا مَقْدَارًا يُمْكِنُكُمْ الْوَفَاءَ بِحَقِّهِ، لِأَنَّ الْمُتَحَرِّجَ مِنَ الذَّنْبِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّجَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا عَلَى مَا رَوَى: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا عَظَّمَ أَمْرَ الْيَتَامَى تَحَرَّجُوا مِنْ وَلَايَتِهِمْ وَمَا كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ تَكْثِيرِ النِّسَاءِ وَإِضَاعَتِهِنَّ فَتَزَلَّتْ. وَقِيلَ: كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ مِنْ وَلَايَةِ الْيَتَامَى وَلَا يَتَحَرَّجُونَ مِنَ الزَّوْنِ، فَقِيلَ لَهُمْ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فِي أَمْرِ الْيَتَامَى فَخَافُوا الزَّوْنِ، فَانْكِحُوا مَا حَلَّ لَكُمْ. وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْهُمْ بِمَا ذَهَبَ إِلَى الصِّفَةِ أَوْ إِجْرَاءِ لِهَنْ مَجْرَى غَيْرِ الْعُقْلَاءِ لِنَقْصَانِ عَقْلِهِمْ، وَنَظِيرُهُ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وَقُرِئَ «تُقْسِطُوا» بِفَتْحِ التَّاءِ عَلَى أَنْ «لَا» مُزِيدَةٌ أَيِ إِنْ خِفْتُمْ إِنْ تَجَوَّرُوا. ﴿مَثْوًى وَثَلَاثَ وَرِثَاغٍ﴾ مُعَدُولَةٌ عَنْ أَعْدَادٍ مُكَرَّرَةٍ وَهِيَ: ثَنَتَيْنِ ثَلَاثَتَيْنِ، وَثَلَاثًا ثَلَاثًا، وَأَرْبَعًا أَرْبَعًا. وَهِيَ غَيْرُ مُنْصَرَفَةٍ لِلْعَدْلِ وَالصِّفَةِ فَإِنَّهَا بَنِيَتْ صِفَاتٍ وَإِنْ كَانَتْ أَصُولُهَا لَمْ تَبْنِ لَهَا. وَقِيلَ لَتَكْرِيرِ الْعَدْلِ فَإِنَّهَا مُعَدُولَةٌ بِاعْتِبَارِ الصِّفَةِ وَالتَّكْرِيرِ مُنْصَوْبَةٌ عَلَى الْحَالِ مِنْ فَاعِلٍ طَابَ وَمَعْنَاهَا: الْإِذْنُ لِكُلِّ نَاكِحٍ يَرِيدُ الْجَمْعَ أَنْ يَنْكِحَ مَا شَاءَ مِنَ الْعَدَدِ الْمَذْكُورِ مُتَّفِقِينَ فِيهِ وَمُخْتَلِفِينَ كَقَوْلِكَ: اقْتَسَمُوا هَذِهِ الْبَدْرَةَ دَرَاهِمِينَ دَرَاهِمِينَ، وَثَلَاثَةَ ثَلَاثَةٍ، وَلَوْ أَفْرَدْتَ كَانَ الْمَعْنَى تَجْوِيزَ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الْأَعْدَادِ دُونَ التَّوْزِيعِ وَلَوْ ذَكَرْتَ بِأَوَّلِ لَذَهَبَ تَجْوِيزُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْعَدَدِ. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بَيْنَ هَذِهِ الْأَعْدَادِ أَيْضًا. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فَاخْتَارُوا أَوْ فَانْكِحُوا وَاحِدَةً وَذَرُوا الْجَمْعَ. وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلٌ مُحْذُوفٌ أَوْ خَبَرُهُ تَقْدِيرُهُ فَتَكْفِيكُمْ وَاحِدَةً، أَوْ فَالْمَقْنَعُ وَاحِدَةً. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سَوَى بَيْنَ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَدَدِ مِنَ السَّرَارِيِّ لِحِفْظِ مَوْنِهِمْ وَعَدَمِ وَجُوبِ الْقِسْمِ بَيْنَهُمْ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ التَّقْلِيلِ مِنْهُمْ أَوْ اخْتِيَارِ الْوَاحِدَةِ أَوْ التَّسْرِي. ﴿أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أَقْرَبُ مِنْ أَنْ لَا تَعْمِلُوا، يَقَالُ عَالٌ الْمِيزَانُ إِذَا مَالَ وَعَالٌ الْحَاكِمُ إِذَا جَارَ، وَعَوَّلَ الْفَرِيضَةَ الْمِيلَ عَنْ حَدِّ السَّهَامِ الْمُسَمَاةِ. وَفَسَّرَ بَأَنَّ لَا تَكْثُرُ عِيَالُكُمْ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عَالِ الرَّجُلِ عِيَالَهُ يَعْمَلُهُمْ إِذَا مَانَهُمْ، فَعَبَّرَ عَنْ كَثْرَةِ الْعِيَالِ بِكَثْرَةِ الْمُؤْنِ عَلَى الْكِنَايَةِ. وَيُؤَيِّدُهُ قِرَاءَةُ «أَنْ لَا تَعْمِلُوا» مِنْ أَعَالِ الرَّجُلِ إِذَا كَثُرَ عِيَالُهُ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْعِيَالِ الْأَزْوَاجِ وَإِنْ أَرِيدَ الْأَوْلَادُ فَلَأَنَّ التَّسْرِي مُظَنَّةٌ قَلَّةُ الْوَلَدِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى التَّزْوِجِ لَجَوَازِ الْعَزْلِ فِيهِ كَتَزْوِجِ الْوَاحِدَةِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَزْوِجِ الْأَرْبَعِ.

﴿وَمَا أَتَوْا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَرِيحًا مَرِيحًا ۝﴾

﴿وَأَتَوْا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ مَهْوَرَهْنَ. وَقُرِئَ بِفَتْحِ الصَّادِ وَسَكُونِ الدَّالِ عَلَى التَّخْفِيفِ، وَبِضْمِ الصَّادِ

وسكون الدال، جمع صدقة كغرفة، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدقة كظلمة في ظلمة. ﴿نَحْلَةً﴾ أي عطية يقال نحلة كذا نحلة ونحلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض، ومن فسرهما بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ، ونصبها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة. وقيل المعنى نحلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات. وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شرعه، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مولياتهم. ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ الضمير للمصداق حملاً على المعنى أو مجري مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة:

كَأَنَّهُ فِي الْجَلْدِ تَوْلِيْعُ الْبُهَقِ

إذ سئل فقال: أردت كأن ذاك. وقيل للإيتاء، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحد، والمعنى فإن وهبن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس، لكن جعل العمدة طيب النفس للمبالغة وعداه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز، وقال منه بعثا لهن على تثقيل الموهوب ﴿فَتَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة. والهناء والمريء صفتان من هنا الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غصص، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جعلتا حالاً من الضمير. وقيل الهنيء ما يلذه الإنسان، والمريء ما تحمد عاقبته. روي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها. فنزلت.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾



﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة. وقيل نهى لكل أحد أن يعمد إلى ما حوله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قواماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي تقومون بها وتنتعشون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر «قيماً» بمعناه كعوذ بمعنى عياذ. وقرأ «قواماً» وهو ما يقام به. ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم، والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحسن، والمنكر ما أنكره أحدهما لقبحه.

﴿وَإِنَّمَا إِلَهُ الْبَنَاتِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُنَّ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

﴿وَإِنَّمَا إِلَهُ الْبَنَاتِ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين، والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يكل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يدفع إليه ما يتصرف فيه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة، كتب ماله وما عليه وأقيمت عليه الحدود». وثمانى

عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. ﴿فَإِنْ آتَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن أبصرتهم منهم رشداً. وقرئ أحستم بمعنى أحسستم. ﴿فَاذْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونظم الآية أن إن الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملة غاية الابتلاء فكأنه قيل؛ وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد منهم، وهو دليل على أنه لا يدفع إليهم ما لم يؤنس منهم الرشد. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ مسرفين ومبشرين كبرهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم. ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها. ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجري يتيماً أفاكل من ماله؟ قال: كل بالمعروف غير متأثل مالاً ولا واق مالك بماله» وإيراد هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهى للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموال اليتامى. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتهمة وأبعد من الخصومة، وجوب الضمان وظاهره يدل على أن القيم لا يصدق في دعواه إلا بالبيينة وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً فلا تخالفوا ما أمرتم به ولا تتجاوزوا ما حد لكم.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى: ﴿فريضة من الله﴾ أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيب، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه. روي (أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجته أم كحة وثلاث بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة. أو قتادة وعرفطة ميراثه عنهن على سنة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضخ فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تفرقا من مال أوس شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ فأعطى أم كحة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم). وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقف الخطاب.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ فاعطوهم شيئاً من المقسوم تطبيقاً لقلوبهم. وتصدقاً عليهم، وهو أمر ندب للبلغ من الورثة. وقيل أمر وجوب، ثم اختلف في نسخه والضمير لما ترك أو دل عليه القسمة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٩).

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه

في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرايرهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريض عند الإيضاء بأن يخشوا ربهم، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شفقتهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جعل صلة للذين على معنى وليخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شاربوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع، وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه، وبعث على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَقْتُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أمرهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى، إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يصده عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة، ويذكره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجر إلى النار، ويؤول إليها. وعن أبي بردة رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم نارا». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾». ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سيدخلون نارا وأي نار. وقرأ ابن عامر وابن عباس عن عاصم بضم الياء مخففاً. وقرأ به مشدداً يقال صلى النار قاسى حرها، وصليته شويته وأصليته وصليته ألقيته فيها، والسعير فاعيل بمعنى مفعول من سعرت النار إذا ألهمت بها.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٌ مَّا بَاؤَكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يأمركم ويعهد إليكم. ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ في شأن ميراثهم وهو إجمال تفصيله. ﴿لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي يعد كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبه، وتخصيص الذكر بالتخصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيه على أن التضعيف كاف للتفضيل فلا يحرم بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي إن كان الأولاد نساء خالصاً ليس معهن ذكر، فأنت الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامة، واختلف في اثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما. وقال الباقر حكمهما حكم ما فوقهما لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان، اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزداد النصيب بزيادة العدد رد ذلك بقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحققت الثلث مع أخيها فبالحري أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنيتين أمس

رحما من الأختين وقد فرض لهما الثلثين بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمَا الثَّلَاثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾. ﴿وَلَا بَوْنَهُ﴾ ولأبوي الميت. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ يدل منه بتكرير العامل وفائدته التنصيص على استحقاق كل واحد منهما السدس، والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً. ﴿السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ﴾ أي للميت. ﴿وَلَدٌ﴾ ذكر أو أنثى غير أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة، وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعصوبة. ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَثَةٌ أَبَوَاهُ﴾ فحسب. ﴿فَلِلَّامَةِ الثَّلَاثُ﴾ مما ترك وإنما لم يذكر حصة الأب، لأنه لما فرض أن الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم علم أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثلاثاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّامَةِ السُّدُسُ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يردونها من الثلث إلى السدس، وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حججوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخالص أخذاً بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَلِلَّامَةِ﴾ بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة الموارث كلها أي هذه الأنصاء للورثة من بعد ما كان من وصية. أو دين، وإنما قال بأو التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدين وهي متأخرة في الحكم لأنها مشبهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد. ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وأجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخر في الجنة سأل أن يرفع إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثيكم منهم أو من أوصى منهم فعرضكم للثواب بامضاء وصيته، أو من لم يوص فوفر عليكم ماله فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما قضى وقدر.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيتها، أو بني بنيتها وإن سفل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ فرض للرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما في النسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتق والمعتقة، وتستوي الواحدة

والعدد منهم في الربع والثلث. **﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ﴾** أي الميت. **﴿يُورَثُ﴾** أي يورث منه من ورث صفة رجل. **﴿كَلَالَةً﴾** خبر كان أو يورث خبره، وكلاله حال من الضمير فيه وهو من لم يخلف ولداً ولا والدًا. أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد. ويجوز أن يكون الرجل الوارث ويورث من أورث، وكلاله من ليس له بوالد ولا ولد. وقرئ **﴿يُورَثُ﴾** على البناء للفاعل فالرجل الميت وكلاله تحتل المعاني الثلاثة وعلى الأول خبر أو حال، وعلى الثاني مفعول له، وعلى الثالث مفعول به، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكلال قال الأعشى:

فَأَلَيْتُ لَا أَرْزِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ خَفَا حَتَّى أَلَايَ مُحَمَّدًا

فاستعيرت لقرابة ليست بالعضوية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورث والوارث بمعنى ذي كلاله كقولك فلان من قرابي. **﴿أَوْ امْرَأَةً﴾** عطف على رجل. **﴿وَلَهُ﴾** أي وللرجل، واكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه. **﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾** أي من الأم، ويدل عليه قراءة أبي وسعد بن مالك «وله أخ أو أخت من الأم»، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فرض الأم فيناسب أن يكون لأولادها. **﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾** سوى بين الذكر والأنثى في القسمة لأن الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع. **﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مَضَارٍ﴾** أي غير مضار لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارة بالوصية دون القرية والإقرار بدين لا يلزمه، وهو حال من فاعل يوصى المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عباس عن عاصم. **﴿وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ﴾** مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار على المفعول به، ويؤيده أنه قرئ «غير مضار وصية» بالإضافة أي لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما دونه بالزيادة، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار بالكاذب. **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾** بالمضار وغيره. **﴿حَلِيمٌ﴾** لا يعاجل بعقوبته.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ۝١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝١٤.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواثيق. **﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾** شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. **﴿وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾**.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله، وجمع **﴿خالدين﴾** لللفظ والمعنى. وقرأ نافع وابن عامر **﴿ندخله﴾** بالنون و **﴿خالدين﴾** حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائد به غدا، وكذلك خالدًا وليستا صفتين لجنات ونارًا وإلا لوجب إبراز الضمير لأنهما جريا على غير من هما له.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَدْحَشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾.

﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ أي يفعلنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغشيها ورهقها إذا فعلها،

والفاحشة الزنا لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ فاطلبوا ممن قذفهن أربعة من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجنًا عليهن. ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموت، أو يتوفاهن ملائكة الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنسخ بالحد، ويحتمل أن يكون المراد به التوصية بإمساكهن بعد أن يجلدن كيلا يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يذكر الحد استغناء بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحد المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَتَأْذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١٦).

﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير ﴿وَاللَّذَانِ﴾ بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقيون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَتَأْذُوهُمَا﴾ بالتوبيخ والتقريع، وقيل بالتعيير والجلد. ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ علة الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأولى في السحاقيات وهذه في اللواطين، والزانية والزاني في الزناة.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧).

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده من تاب عليه إذا قبل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفه وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبة فيطبع عليها فيتعذر عليهم الرجوع، و ﴿مَنْ﴾ للتبعية أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٨).

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ سوى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار، وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدم توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم، وبيان أن العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد بالتهيئة من العتاد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبية ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عضلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتزوجوهن كارهات لذلك أو مكراهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿كرهاً﴾ بالضم في مواضعه وهما لغتان. وقيل بالضم المشقة وبالفتح ما يكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ عطف على ﴿أَنْ تَرِثُوا﴾، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعهن من التزوج، وأصل العضل التضييق يقال عضلت الدجاجة بيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يجسسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كرهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل. ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعم عام الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعله إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿مبينة﴾ هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الياء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكرهه النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة فأقيم مقامه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝٢١﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوج أخرى. ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جمع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿قِنْطَارًا﴾ مالاً كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ إستفهام إنكار وتوبيخ، أي تأخذونه باهتين وأثمين، ويحتمل النصب على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جبناً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المأثم. قيل كان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بهت التي تحته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج الجديدة، فنهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر هنا بالظلم.

﴿وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر والحال أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحبة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله: ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾ أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آبائكم، وإنما ذكر ما دون من لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آبائكم إلا ما قد سلف، أو من اللفظ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَ فُلُوقٍ مِنْ قِرَاحِ الْكَثَائِبِ

والمعنى ولا تنكحوا حلائل آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن. وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف، فإنه لا مؤاخذه عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحهن كان فاحشة عند الله ما رخص فيه لأمة من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المقتي ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ سبيل من يراه ويفعله.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَنِسَائِكُمُ اللَّاتِي فِي خُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن لأنه معظم ما يقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحريم الأكل من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح، وأمهاتكم تعم من ولدتك أو ولدتك من ولدك وإن علت، وبناتكم تتناول من ولدتها أو ولدتك من ولدها وإن سفلت، وأخواتكم الأخوات من الأوجه الثلاثة. وكذلك الباقيات والعمة كل أنثى ولدها من ولد ذكر أو ولدك والخالة كل أنثى ولدها من ولد أنثى ولدتك قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القربى والبعدى. ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ نَزَلَ الله الرضاعة منزلة النسب حتى سمي المرضعة أمّاً والمرضعة أختاً، وأمرها على قياس النسب باعتبار المرضعة ووالد الطفل الذي در عليه اللبن قال عليه الصلاة والسلام: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب». واستثناء أخت ابن الرجل وأم أخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس بصحيح فإن حرمتها من النسب بالمصاهرة دون النسب. ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَنِسَائِكُمُ اللَّاتِي فِي خُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ﴾ ذكر أولاً محرمات النسب ثم محرمات الرضاعة، لأن لها لحمة كلحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج، والربائب جمع ربيبة. والريب ولد المرأة من آخر سمي به لأنه يربه كما يرب ولده في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً ومن نسائكم متعلق بربائبيكم، واللاتي بصلتها صفة لها مقيدة للفظ والحكم بالإجماع قضية للنظم، ولا يجوز تعليقها بالأمهات أيضاً لأن من إذا علقها بالربائب كانت ابتدائية، وإذا علقها بالأمهات لم يجز ذلك بل وجب أن يكون بياناً لنسائكم والكلمة الواحدة لا تحمل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصال كقوله:

إِذَا حَاوَلْتِ فِي أَسَدٍ فُجُورًا فَلِإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكَ وَلَسْتُ مِنِّي

على معنى أن أمهات النساء وبناتهن متصلات بهن، لكن الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها». وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييد التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساء لأن عاملهما مختلف، وفائدة قوله «في حجبكم» تقوية العلة وتكميلها، والمعنى أن الرئائس إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشبه بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تجروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء. وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والرئائس يتناولان القرية والبعيدة، وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن السر وهي كناية عن الجماع، ويؤثر في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة، أو ملك يمين. وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول. «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. «وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ» زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لحلها أو لحلولها مع الزوج. «الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ» احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهر أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرمتها آية وأحلتهما آية، يعنيان هذه الآية. وقوله: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فرجع علي كرم الله وجهه التحريم، وعثمان رضي الله عنه التحليل. وقول علي أظهر لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام». «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» استثناء من لازم المعنى، أو منقطع معناه لكن ما قد سلف مغفور لقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا».

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٤).

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ذوات الأزواج، أحصنهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحصن فروجهن. «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للساين، والنكاح مرتفع بالسبي لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نفع عليهن فسالنا النبي ﷺ، فنزلت الآية فاستحللناهن. وإياه عن الفرزدق بقوله:

وَذَاتُ حَلِيلٍ أَتَكَحَّشَهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

وقال أبو حنيفة لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للساين. وإطلاق الآية والحديث حجة عليه. «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» مصدر مؤكد، أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرأ «كتب» الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم «وكتب الله» بلفظ الفعل. «وَأَجَلَ لَكُمْ» عطف على الفعل المضمر الذي نصب كتاب الله وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على «حرمت». «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخص عنه بالسنة ما في معنى المذكورات كسائر محرمات الرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ» مفعول له والمعنى أحل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصراف في مهورهن، أو أثمانهن في حال كونكم محصنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يقدر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادته أن يضرّفوا أموالكم محصنين غير

مسافحين أو بدل مما وراء ذلك بدل الاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالا. ولا حجة فيه. والإحصان العفة فإنها تحصين للنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السفح وهو صب المني فإنه الغرض منه. ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فمن تمتع به من المنكوحات، أو فما استمتعتم به منهن من جماع أو عقد عليهن. ﴿فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاء مفروضاً أو مصدر مؤكد. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ فيما يزداد على المسمى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فراق. وقيل: نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة». وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة، أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرع من الأحكام.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ يَفْتَحِسْنَ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْرُوهَا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥)

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ غنى واعتلاء وأصله الفضل والزيادة. ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في موضع النصب بطولاً. أو بفعل مقدر صفة له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات، أو من لم يستطع منكم غنى يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني الإماء المؤمنات، فظاهر الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه في تحريم نكاح الأمة على من ملك ما يجعله صداق حرة، ومنع نكاح الأمة الكتابية مطلقاً. وأول أبو حنيفة رحمه الله تعالى طول المحصنات بأن يملك فراشهن، على أن النكاح هو الوطاء وحمل قوله: ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ على الأفضل. كما حمل عليه في قوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ ومن أصحابنا من حملة أيضاً على التقييد وجوز نكاح الأمة لمن قدر على الحرة الكتابية دون المؤمنة حذراً عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأمة رق الولد، وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فافتقروا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر ويتفاضل ما بينكم في الإيمان، فرب أمة تفضل الحرة فيه، ومن حاكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه ويؤيده. ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نسبكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿فَاتَّكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ يريد أربابهن واعتبار إذهنهم مطلقاً لا إشعار له، على أن لهن أن يباشرن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن! فحذف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عوض حقه فيجب أن يؤدي إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة ذهاباً إلى الظاهر ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بغير مظل وإضرار ونقصان. ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف. ﴿غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أخلاء في السر ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحزمة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زنى. ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني الحرائر. ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ من الحد لقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يدل على أن

حد العبد نصف حد الحر، وأنه لا يرجم لأن الرجم لا ينتصف. ﴿ذَلِكَ﴾ أي نكاح الإمام. ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضرر أعظم من مواقعه الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإمام. ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإمام متعفين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه». ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن لم يصبر. ﴿رَحِيمٌ﴾ بأن رخص له.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي كُنْتُمْ تُرِيدُونَ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حَبْسٌ شَقِيحٌ﴾

﴿٢٦﴾

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريد واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَغْلِبَ النَّاسُ أَنَّهُ سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُقُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف، وليبين مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي كُنْتُمْ تُرِيدُونَ﴾ من تقدمكم من أهل الرشد لتسلخوا طرقهم. ﴿وَيُثَبِّتَ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارة لسيئاتكم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بها ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعها.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾

﴿٢٧﴾

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرهه للتأكيد والمبالغة. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الانتمار لها، وأما المتعاطي لما سوغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المجوس. وقيل: اليهود فإنهم يحلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. ﴿أَنْ تَمِيلُوا﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحل لها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ فلذلك شرع لكم الشريعة الحنيفة السمحة السهلة، ورخص لكم في

المضاييق كإحلال نكاح الأمة. ﴿وَوُضِعَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت هذه الثلاث: و ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، و ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، و ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ومن يعمل سوءاً يجز به، ﴿وما يفعل الله بعذابكم﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ

مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بما لم يبيحه الشرع كالغصب والربا والقمار. ﴿إِلَّا

أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ استثناء منقطع أي، ولكن كون تجارة عن تراض غير منهي عنه، أو اقصدا كون تجارة. وعن تراض صفة لتجارة أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيص التجارة من الوجوه التي بها يحل تناول مال الغير، لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً.

وقيل: المراد بالنهي المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله. وبالتجارة صرفه فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون ﴿تِجَارَةً﴾ بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارة أو الجهة تجارة. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بالبخع كما فعله جهلة الهند، أو بإلقاء النفس إلى التهلكة. ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوله التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي ﷺ أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها. أو باقتراف ما يذلها ويرديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس من كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جمع في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقها من حيث إنه سبب قوامها استبقاء لهم ريثما تستكمل النفوس، وتستوفي فضائلها رافة بهم ورحمة كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لفرط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيماً لما أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠).

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ندخله إياها. وقرئ بالتشديد من صلى، ويفتح النون من صلاه يصلية. ومنه شاة مصلية، ويصلية بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ (٣١).

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرئ «كبير» على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحوها عنكم.

واختلف في الكبائر، والأقرب أن الكبيرة كل ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه. وقيل ما علم حرمة بقاطع. وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع). وقيل أراد ههنا أنواع الشرك لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل صغر الذنوب وكبرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديث النفس وبينهما وسائط يصدق عليها الأمران، فمن عن له أمران منها ودعت نفسه إليهما بحيث لا يتمالك فكفها عن أكبرهما كفر عنه ما ارتكبه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر. ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطراته التي لم تعد على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذة عليها. ﴿وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يحتمل المكان والمصدر.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَلُّوْا إِلَيْهِ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣٢).

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال، فلعل عدمه خير والمقتضي للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي، معربة عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشبه لحصول

الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني ما لم يقدر له معارضة لحكمة القدر، وتمني ما قدر له بكسب بطالة وتضييع حظ، وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحال. ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد، والتمني كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمني». وقيل المراد نصيب الميراث وتفضيل الورثة بعضهم على بعض فيه، وجعل ما قسم لكل منهم على حسب ما عرف من حاله الموجبة للزيادة والنقص كالمكتسب له. ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله مثله من خزائنه التي لا تنفذ. وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أو لا تتمنوا واسألوا الله من فضله بما يقربه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي ﴿وسلوا الله من فضله﴾ وسلمهم فسل الذين وشبهه إذا كان أمراً مواجهاً به، وقبل السين واو أو فاء بغير همز وحزمة في الوقف على أصله والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي (أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا يغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً) فنزلت.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣).

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي ولكل تركة جعلنا وراثاً يلونها ويحزونها، ومما ترك بيان لكل مع الفصل بالعامل. أو لكل ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن من صلة موالي. لأنه في معنى الوارث، وفي ترك ضمير كل والوالدان والأقربون استئناف مفسر للموالي، وفي خروج الأولاد فإن الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو لكل قوم جعلناهم موالي حظ مما ترك الوالدان والأقربون، على أن جعلنا موالي صفة كل والراجع إليه محذوف على هذا فالجملة من مبتدأ وخبر. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ موالى الموالاة، كان الحليف يورث السدس من مال حليفه فنسخ بقوله: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقدا على أن يتعاقلا ويتوارثا صح وورث. أو الأزواج على أن العقد عقد النكاح وهو مبتدأ ضمن معنى الشرط وخبره. ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ أو منصوب بمضمّر يفسره ما بعده كقولك: زيداً فاضربه، أو معطوف على الوالدان، وقوله فاتوهم جملة مسببة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالي. وقرأ الكوفيون ﴿عقدت﴾ بمعنى عقدت عهودهم إيمانكم فحذف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه ثم حذف كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ تهديد على منع نصيبهم.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلَحَ قَنِينَتُ حَنِيفَتٍ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَحْنُ فِتْنَاهُ فَتُورُهُمْ فَيُطَوِّرُهُمْ وَأَهْجُرُهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَنْزَلُهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ (٣٤).

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، وعلل ذلك بأمرين وهبي وكسبي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر، والشهادة في مجامع القضايا، ووجوب الجهاد والجمعة ونحوها، والتعصيب وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي (أن سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، فلطمها فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكى فقال

رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير». ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج. ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية. وقيل لأسرارهم. ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حفظه الله لهن عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرئ ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بالنصب على أن ما موصولة فإنها لو كانت مصدرية لم يكن لحفظ فاعل، والمعنى بالأمر الذي حفظ حق الله وطاعته وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وترفعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز. ﴿فَعِظُوهُنَّ وَافْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تدخلوهن تحت اللحف، أو لا تباشروهن فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبات أي لا تباينوهن ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني ضرباً غير مبرح ولا شائن، والأمور الثلاثة مرتبة ينبغي أن يتدرج فيها. ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فاذلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم، أو أنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو أنه يتعالى ويتكبر أن يظلم أحداً أو ينقص حقه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (٣٥).

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها، أضمرهما وإن لم يجر ذكرهما لجرى ما يدل عليهما وإضافة الشقاق إلى الطرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أَهْلُ الدَّارِ. أو لفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ فابعثوا أيها الحكام متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين، رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للمصالح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نصب من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستدل به على جواز التحكيم، والأظهر أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إن وجدا الإصلاح فيه. ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ الضمير الأول للحكمين والثاني للزوجين، أي إن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وقيل كلاهما للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل للزوجين أي إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣٦).

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ صنماً أو غيره، أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾

أي الذي قرب جواره. وقيل الذي له الجوار قرب واتصال بسبب أو دين. وقرئ بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاث حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب». ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صاحبك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر أو الضعيف. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبيد والإماء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧).

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي «الحديد» ﴿بالبخل﴾ بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمهر إشعاراً بأن من هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، ومن كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحاً: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر. وقيل في الذين كنتموا صفة محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٢٨).

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسرف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفریط سواء في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مرضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قرنهم فحملهم على ذلك وزينة لهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾. والمراد إبليس وأعوانه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يقرن بهم الشيطان في النار.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٢٩).

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أي تبعة تحقيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة، والعوائد الجميلة. وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قُدِّمَ الإيمان ها هنا وأُخِّرَ في الآية الأخرى لأن القصد بذكره إلى التخصيص ها هنا والتعليل ثم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا ينقص من الأجر ولا يزيد في العقاب أصغر شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة. ويقال لكل جزء من أجزاء الهباء، والمثقال مفعال من الثقل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغر قدره عظم جزاؤه. ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة وأنت الضمير لتأنيث الخبر، أو لإضافة المثلث إلى مؤنث. وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع ﴿حسنة﴾ بالرفع على كان التامة. ﴿يَضَاعِفُهَا﴾ يضاعف ثوابها وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يضعفها وكلاهما بمعنى. ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ٤٢﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم؟. ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يعني نبههم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعامل في الظرف مضمون المبتدأ والخبر من هول الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامع قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ، أي يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرة والعصاة في ذلك الوقت أن يدفنوا فتسوى بهم الأرض كالموتى، أو لم يبعثوا أو لم يخلقوا وكانوا هم والأرض سواء. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرّون على كتمانهم لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالهم أنهم لا يكتُمون من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ إذ روي: أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم، فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر ﴿تُسَوَّى بِهِمْ﴾ على أن أصله تسوى فادغمت التاء في السين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿تُسَوَّى﴾ على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي (أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مائدة ودعا نفرًا من الصحابة. حين كانت الخمر مباحة. فأكلوا وشربوا حتى ثملوا، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقراً: أعبد ما تعبدون). فنزلت. وقيل أراد بالصلاة مواضعها وهي المساجد وليس المراد منه نهي السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب، والسكر من السكر وهو السد. وقرئ «سكارى» بالفتح وسكرى على أنه جمع كهلكى. أو مفرد بمعنى وأنتم قوم سكرى، أو جماعة سكرى وسكرى كحبل على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطف على

قوله ﴿وَأَنْتُمْ سَكَارَى﴾ إذ الجملة في موضع نصب على الحال، والجنب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ﴿وَلَا جَنْبًا﴾، استثناء من أعم الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقبيه بذكر التيمم، أو صفة لقوله ﴿جَنْبًا﴾ أي جنباً غير غابري سبيل. وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث. ومن فسر الصلاة بمواضعها فسر غابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوز الجنب عبور المسجد. وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة، وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهمه ويشغل قلبه، ويذكر نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مرضاً يخاف معه من استعمال الماء، فإن الواجد كالفاقد. أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السيلين، وأصل الغائط المكان المطمئن من الأرض. ﴿أَوْ لَأَسْتَمُ النِّسَاءَ﴾ أو ماستم بشرتهن ببشرتك، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة «المستم»، واستعماله كناية عن الجماع أقل من الملامسة. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ فلم تتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر. والجنب لما سبق ذكره اقتصر على بيان حاله والمحدث لما لم يجر ذكره من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعرض، واستغنى عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملاً فكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لأمستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيْمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي فتمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ أي بعضه، وجعل من لا بداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه، والقياس على الوضوء دليل على أن المراد ها هنا ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝١٥﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بإلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً سيراً من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود. ﴿يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلون بها بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أيها المؤمنون. ﴿السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعينكم فثقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء تزداد في فاعل كفى لتوكيد الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعَنَا لِيَّا

يَأْسِنْتَهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ .

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرهم، وما بينهما اعتراض أو بيان لأعدائكم أو صلة لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه. وقرئ «الكلم» بكسر الكاف وسكون اللام جمع كلمة تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك. ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرُ مُسْمَعٍ﴾ أي مدعوا عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه، أو اسمع غير مسموع كلاماً ترضاه، أو اسمع كلاماً غير مسموع إياك لأن أذنك تنبؤ عنه فيكون مفعولاً به، أو اسمع غير مسموع مكروهاً من قولهم أسمعه فلان إذا سبه، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَأَيْنَا﴾ انظرنا نكلمك أو نفهم كلامك. ﴿لَيْتَا بِالسَّيِّئَةِ﴾ فتلاً بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعنا المشابه لما يتسابقون به موضع انظرنا وغير مسموع موضع لا أسمعت مكروهاً، أو فتلاً بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمنون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَوَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أن عليه ووقوعه موقعه. ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يعبأ به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسول، ويحتمل أن يراد بالقلة العدم كقوله:

قَلِيلُ التَّشْكِيِّ لِمُهُمْ يَصِيبُهُ

أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نمحو تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الأقفاء، أو نكسها إلى ورائها في الدنيا، أو في الآخرة. وأصل الطمس إزالة الأعلام الماثلة وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة ولمطلق القلب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وجاهتها وإقبالها ونكسوها الصغار والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير، ويقرب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء، أو من قبل أن نطمس وجوهاً بأن نعمي الأبصار عن الاعتبار ونصم الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردها عن الهداية إلى الضلالة. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بعد مترقب أو كان وقوعه مشروطاً بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً وكائناً فيقع لا محالة ما أوعدتم به إن لم تؤمنوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾

﴿٤٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ لأنه بت الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة علقوه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب. وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحق دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٤٩﴾ أَنْظَرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني أهل الكتاب قالوا ﴿نحن أبناء الله وأحببوه﴾ وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: هل على هؤلاء ذنب قال لا قالوا: والله ما نحن إلا كهيتهم ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار. وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ اللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتمد بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكى المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسهم بغير حق. ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شق النواة يضرب به المثل في الحقارة.

﴿أَنْظَرْ كَيْفَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياؤه عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه ماثماً من بين آثامهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ ﴿٥١﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكرهم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. والجبت في الأصل اسم صنم فاستعمل في كل ما عبد من دون الله. وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سینه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَصِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أم منقطعة ومعنى الهزمة إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك وجحد لما زعمت اليهود من أن الملك سيصير إليهم. ﴿فَإِذَا لَا يُوْتُونُ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يوتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النقرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شحهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يوتون الناس شيئاً وإذا وقع بعد الواو والفاء لا لتشريك مفرد جاز فيه الإلغاء والإعمال، ولذلك قرئ فإذا لا يوتوا الناس على النصب.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل يحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن من حسد على النبوة فكأنما حسد الناس كلهم كمالهم. ورشدهم وبخهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكان بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء عمه. ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ فلا يبعد أن يؤتاه الله مثل ما آتاهم.

﴿فَمِنْهُمْ﴾ من اليهود. ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ بمحمد ﷺ أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يوهن كفر هؤلاء أمرك. ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يعجلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَتِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قرطاً، أو بأن يزال عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدركة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقب على وفق حكمته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ قدم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم، وذكر المؤمنين بالعرض. ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ فينانا لا جوب فيه ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيد كقولهم: شمس شامس وليل أليل ويوم أيوم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأمانات، وإن نزلت يوم الفتح في

عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة، وأبى أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلولي علي كرم الله وجهه يده وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين فلما خرج سأله العباس رضي الله عنه أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة. فنزلت فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيت بين من ينفذ عليه أمركم، أو يرضى بحكمكم ولأن الحكم وظيفة الولاة قبل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيء الذي يعظكم به فما منصوبة موصوفة بيعظكم به. أو مرفوعة موصولة به. والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول ﷺ وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماء الشرع لقوله تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾. ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم. ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينزع المجتهد في حكمه بخلاف المروءس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَالرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكر القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فَإِنَّ الْإِيمَانَ يوجب ذلك. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيْرٌ﴾ لكم. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلا رد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما. (أن منافقاً خاصم يهودياً فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي فلم يرض المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أذلك. فقال نعم. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله) فنزلت. وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوت على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه من يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه كما قال. ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وقرئ: أن «يكفروا بها» على أن الطاغوت جمع كقوله تعالى ﴿أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۖ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۖ﴾ (٦١)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وقرئ «تعالوا» بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لواء الضمير. ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصد، والفرق بينه وبين السد أنه غير محسوس والسد محسوس ويصدون في موضع الحال.

﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ قتل عمر المنافق أو النعمة من الله تعالى. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حال. ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا ويوفق بينه وبين خصمه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۖ﴾ (٦٢)

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكفهم عما هم عليه. ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع. ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم، أمره بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام، وتعليق الظرف بليغاً على معنى بليغاً في أنفسهم مؤثراً فيها ضعيف لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۖ﴾ (٦٣)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرض بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجب القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجب القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أن وإذ متعلق به. ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبت لهم شافعاً، وإنما عدل الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبهياً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن منصبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ۖ﴾ (٦٤)

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوريك، ولا مزيدة لتأكيد القسم لا لتظاهر لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تزداد أيضاً في الإثبات كقوله تعالى: ﴿لَا أَقْسَمُ بهذا البلد﴾. ﴿حَتَّى يَحْكُمُوا فِيكُمْ شَجَرٌ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو من حكمك أو شكاً من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيَسْأَلُوكَ تَسْلِيماً﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ۖ﴾ (٦٦).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوا كما قتل بنو إسرائيل وأن مصدرية أو مفسرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ خروجهم حين استتبوا من عبادة العجل، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أَنْ اقْتُلُوا﴾ بكسر النون على أصل التحريك، ﴿أَوْ أَخْرِجُوا﴾ بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ﴾ وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل والباقون بضمهما إجراء لهما مجرى الهمزة المتصلة بالفعل. ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم، نبه على قصور أكثرهم ووهن إسلامهم، والضمير للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدري الفعلين. وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورغبة. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلتا في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في شراج من الجرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمك. فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجدر واستوف حقه، ثم أرسله إلى جارك».

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً ۖ وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً ۖ﴾ (٦٧).

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل؛ وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لأتيناهم لأن ﴿إذا﴾ جواب وجزاء.

﴿وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً﴾ يصلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۚ﴾ (٦٨) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً ۖ﴾ (٦٩).

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ بيان للذين أو حال منه، أو من ضميره قسّمهم أربعة بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل. ثم الصديقون الذين سعدت نفوسهم تارة بمراقبي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها. ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد

في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى. ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان. والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو لا فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بآمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، و ﴿رَفِيقًا﴾ نصب على التمييز أو الحال ولم يجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحسن كل واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أنني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألفتك، ثم ذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أدخلت الجنة كنت في منزل دون منزلك، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً فنزلت.

﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ إشارة إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعم عليهم ومزيتهم. ﴿الْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ خبره أو الفضل خبره ومن الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالأثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَانْفِرُوا﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثبت على فلان تشبيه إذا ذكرت متفرق محاسنه ويجمع أيضاً على ثبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل القوات.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين والمبطلون منافقوهم ثاقلوا وتحلفوا عن الجهاد، من بطأ بمعنى أبطأ وهو لازم أو ثبطوا غيرهم كما ثبط ابن أبي ناساً يوم أحد، من بطأ منقولاً من بطؤ كقتل من ثقل واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف والقسم بجوابه صلة من والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير: وإن منكم لمن أقسم بالله ليبطئن. ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطل. ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣).

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكدته تنبيهاً على فرط تحسره، وقرىء بضم اللام إعادة للضمير إلى معنى ﴿من﴾. ﴿كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض بين الفعل ومفعوله وهو. ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم، وأن قولهم هذا قول من لا مواصلة بينكم وبينه، وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطل لمن يبطئه من المنافقين، وضعفة المسلمين تضريباً وحسداً، كان لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة

حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاد الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنى وكأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب ﴿تكن﴾ بالتاء لتأنيث لفظ المودة، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أطلق للتنبيه على الاتساع فأفوز نصب على جواب التمني وقرئ بالرفع على تقدير فأننا أفوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

﴿فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٥).

﴿فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطلون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد له الأجر العظيم غلب أو غلب، ترغيباً في القتال وتكديماً لقولهم ﴿قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ وإنما قال ﴿فيقتل أو يغلب﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو الدين، بالظفر والغلبة وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥).

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين، وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير، وتخليص ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمها وأخصها. ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقوا بمكة لصدة المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استئزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خير ولي وناصر بفتح مكة على نبيه ﷺ، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعز أهلها، والقرية مكة والظالم صفتها، وتذكيره لتذكير ما أسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هو له كان كالفعل يذكر ويؤنث على حسب ما عمل فيه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٧٦).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يصلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياء الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى

كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين، ضعيف لا يؤبه به فلا تخافوا أوليائه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً ۝﴾ (٧٧)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يخشون الكفار أن يقتلهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جواب لما وفريق مبتدأ منهم صفته ويخشون خبره وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى، يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدرأ فلا، لأن أفعال التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشية أشد خشية منه، على الفرض اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جد جده على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكف عن القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع التقضي ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقطرة. وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي ﴿ولا يظلمون﴾ لتقديم الغيبة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ قُلُّ كُلٌّ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ قُلْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝﴾ (٧٨)

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ قرئ بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرْهَا

أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بـ ﴿لا تظلمون﴾. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرزت المرأة إذا ظهرت. وقرئ مشيدة بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعرة، ومشيدة من شاد القصر إذا رفعه. ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ كما تقع الحسنة والسيئة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصيبهم نعمة كخصب نسبها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصيبهم بلية كقحط أضافوها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ييسط ويقبض حسب إرادته. ﴿فَمَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به، وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائم لا أفهام لها أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعملون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ (٧٩)

﴿مَا أَصَابَكَ﴾ يا إنسان. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة. ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ أي تفضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافئ نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى. قيل ولا أنت قال: ولا أنا». ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ من بلية. ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاداً وإيضالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر». والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حال قصد بها التأكيد إن علق الجار بالفعل والتعميم إن علق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خارجاً من في زور كلام. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٨١﴾.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مبلغ، والأمر هو الله سبحانه وتعالى. روي (أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً) فنزلت. ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وهو حال من الكاف.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أمرنا أو منا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ خرجوا. ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي زورت خلاف ما قلت لها، أو ما قالت لك من القبول وضمن الطاعة، والتبَيَّت إما من البيوتنة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيت الشعر، أو البيت المبنى لأنه يسوي ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحمزة ﴿بيت طائفة﴾ بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ يشته في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحى إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجاف عنهم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتأملون في معانيه ويتصورون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً، وبعضه يصعب معارضته وبعضه سهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلية للواقع دون بعض، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذكره ها هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف الأحوال في الحكم والمصالح.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظُّونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أفسوه كما كان يفعل قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحى إليه من وعد بالظفر، أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحدث. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ إلى رأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿لَعَلِمَهُمْ﴾ لَعَلِمَ ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدابيرهم بتجاربههم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالأعلى على المسلمين، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعه منهم وتعرفوا أنه هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط: وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب. ﴿لَآتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ والكفر والضلال. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب، وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل. أو إلا اتباعاً قليلاً على الندور.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أن تشبوا وتركوك وحدك. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ إلا فعل نفسك لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. روي (أنه عليه الصلاة والسلام دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج فكرهه بعضهم فنزلت. فخرج عليه الصلاة والسلام وما معه إلا سبعون لم يلو على أحد). وقرأ «لا تكلف» بالجزم، و «لا تكلف» بالنون على بناء الفاعل أي لا تكلفك إلا فعل نفسك، لا أنا لا تكلف أحداً إلا نفسك لقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا. ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا﴾ من قريش. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ (٨٥).

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً﴾ راعى بها حق مسلم ودفع بها عنه ضرراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك ولك مثل ذلك». ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً﴾ يريد بها محرماً. ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ مقتدرًا من أقات على الشيء إذا قدر قال:

وَذِي ضَعْفٍ كَفَفْتُ الضَّعْفَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيمًا

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من القوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيمًا﴾ (٨٦).

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب الجواب إما بأحسن منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله، فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية وإما برد مثله

لما روي (أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: وعليك السلام ورحمة الله. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك. فقال الرجل: نقصتني فأين ما قال الله تعالى وتلا الآية. فقال ﷺ: إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله. وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السلامة عن المضار وحصول المنافع وثباتها ومنه قيل، أو للترديد بين أن يحيى المسلم ببعض التحية وبين أن يحيى بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية وحيث السلام مشروع فلا يرد في الخطبة، وقراءة القرآن، وفي الحمام، وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحية في الأصل مصدر حيأك الله على الإخيار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧).

﴿الله لا إله إلا هو﴾ مبتدأ وخبر، أو ﴿الله﴾ مبتدأ والخبر ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ أي الله، والله ليحشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو، اعتراض. والقيام والقيامة كالطلاب والطلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لا ريب فيه﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ إنكار أن يكون أحد أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨).

﴿فما لكم في المنافقين﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فتنيتين﴾ أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما خرجوا لم يزالوا رحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركون، فاختلف المسلمون في إسلامهم. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة. و ﴿فتنيتين﴾ حال عاملها لكم كقولك: ما لك قائماً. و ﴿في المنافقين﴾ حال من ﴿فتنيتين﴾ أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفرقون فيهم، ومعنى الافتراق استفاد من ﴿فتنيتين﴾. ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركن رد الشيء مقلوباً. ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ إلى الهدى.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩).

﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا﴾ تمنوا أن تكفروا ككفرهم. ﴿فتكونون سواء﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نصب على جواب التمني لجاز. ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا﴾ في سبيل الله. فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلكه. ﴿فإن تولوا﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾

وَجَدْتُمُوهُمْ كَسَائِرِ الْكُفْرَةِ. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩٠).

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون ويتعهدون إلى قوم عاهدوكم، ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم المسلمون فإنه عليه الصلاة والسلام وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل ماله. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم، استثنى من المأمور بأخذهم وقتلهم من ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفة قوم وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله فإن اعتزلوكم. وقرئ بغير العاطف على أنه صفة بعد صفة أو بيان ليصلون أو استئناف. ﴿حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد ويدل عليه أنه قرئ «حصرة صدورهم» وحصرات صدورهم، أو بيان لجاءوكم وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاءوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي عن أن أو لأن أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يُعْتَزِلْوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فخذوهم وأقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ (٩١).

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبد الدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ دعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ عادوا إليها وقلبوا فيها أقيح قلب. ﴿فَإِنْ لَمْ يُعْتَزِلْوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ وينبذوا إليكم العهد. ﴿وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فخذوهم وأقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ حيث تمكنتم منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسليطاً ظاهراً حيث أذن لكم في قتلهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فإنه على عرضته، ونصبه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتله في شيء من الأحوال إلا حال الخطأ، أو لا يقتله لعلته إلا للخطأ أو على أنه صفة مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأ. وقيل ﴿مَا كَانَ﴾ نفي في معنى النهي، والاستثناء منقطع أي لكن إن قتله خطأ فجزاؤه ما يذكر، والخطأ ما لا يضامه القصد إلى الفعل أو الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محذور كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعل غير المكلف. وقرئ «خطاء» بالمد و «خطا» كعصا بتخفيف الهمزة، والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياش فقتله. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعله أو فواجهه تحرير رقبة، والتحرير الإعتاق، والحر كالعقيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكرم في الأحرار واللؤم في العبيد، والرقبة عبر بها عن النسمة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُؤْمِنَةً﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر الموارث، لقول ضحاك بن سفيان الكلابي: (كتب إلي رسول الله ﷺ يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابي من عقل زوجها). وهي على العاقلة فإن لم تكن فعلى بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية. سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبهها على فضله، وعن النبي ﷺ: «كل معروف صدقة» وهو متعلق بعليه، أو بمسلمة أي تجب الدية عليه أو يسلمها إلى أهله إلا حال تصدقهم عليه. أو زمانه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهل أو الظرف. ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثة بينه وبينهم ولأنهم محاربون. ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهدين، أو أهل الذمة فحكمه حكم المسلمين في وجوب الكفارة والدية ولعله فيما إذا كان المقتول معاهداً، أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ رقبة بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها. ﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعله أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شرع ذلك توبة، من تاب الله عليه إذا قبل توبته. أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة أو الحال بحذف مضاف أي فعله صيام شهرين ذا توبة. ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ صفتها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

﴿وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَلَعَنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

﴿وَمَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. «لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً». ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه. والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ ونحوه وهو عندنا إما مخصوص بالمستحل له كما ذكره عكرمة وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يظهر قاتله، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه ديته فدفعوا إليه ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكة مرتداً، أو المراد بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَلَسْتُمْ

مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ سافرتهم وذهبتهم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ في الموضعين هنا، وفي «الحجرات» من التثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة «السلم» بغير الالف أي الاستسلام والانقياد وفسر به السلام أيضاً. ﴿لَسْتُمْ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلت ذلك متعوذاً. وقرئ «مُؤْمِنًا» بالفتح أي مبذولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مشعر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك التثبت. ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم «كثيرة» تغنيكم عن قتل أمثاله لماله. ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة فحصنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يعلم مواطاة قلوبكم ألسنتكم. ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتجار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فعل الله بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألف كافر أهون عند الله من قتل امرئ مسلم. وتكريره تأكيد لتعظيم الأمر وترتيب الحكم على ما ذكر من حالهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به وبالغرض منه فلا تنهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي (أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فدك فهربوا وبقي مرداس ثقة بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فقتله أسامة واستاق غنمه) وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غنيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: ود لو فر بأهله وماله. وفيه دليل على صحة إيمان المكروه وأن المجتهد قد يخطئ وأن خطأه مغتفر.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدين أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يقصد به قوم بأعيانهم أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء. وقرئ بالجر على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمى فغشي رسول الله ﷺ في مجلسه الوحي، فوقعت فخذته على فخذي حتى خشيت أن ترضها ثم سري عنه فقال اكتب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ «وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة. وفائدته تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعا لرتبته وأنفه عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ جملة موضحة لما نفى الاستواء فيه والقاعدون على التقييد السابق، ودرجة نصب بنزع الخافض أي بدرجة أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المرة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقترض لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نصب على المصدر لأن فضل بمعنى أجر، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على

القاعدين أجراً عظيماً.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٦).

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضربته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما كرر تفضيل المجاهدين، وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهد وترغياً فيه. وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرار والقاعدون الثاني هم الذين أذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرين من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسى أن يفرط منهم. ﴿رَحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرئ «توفتهم» و«توفاهم» على مضارع وفيت بمعنى أن الله يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة. ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم. ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وبخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوا﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تبيكياً. ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبيشة. ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إن والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فِيمَ كنتم حال من الملائكة بإضمار قد أو الخير قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستنتجة منها. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم أو جهنم، وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي ﷺ «من فر بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونيه محمد عليهما الصلاة والسلام».

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨) ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٩٩).

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارة إليه، وذكر الولد إن أريد به الممالك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وجدان أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ ذكر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى

إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصده الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾.

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠).

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا﴾ متحولاً من الرغام وهو التراب. وقيل طريق يرغام قومه بسلوكه أي يفارقهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرغام. ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ وقرئ «يدركه» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه وبالنصب على إضمار أن كقوله:

سَأَتْرُكَ مَنْزِلِي بِبَنِي تَمِيمٍ وَالْحَقُّ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرْيِحَا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان والمعنى: ثبت أجره عند الله تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة حمله بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبيابك على ما بايع عليه رسولك ﷺ فمات.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١٠١).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ سافرتم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بتنصيف ركعاتها ونفي الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه، ويؤيده أن عليه الصلاة والسلام أتم في السفر. وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمدت مع رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله قصرت وأتممت، وصمت وأفطرت. فقال: «أحسن يا عائشة». وأوجه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ﷺ، ولقول عائشة رضي الله تعالى عنها: أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقرت في السفر وزيدت في الحضر. فظاهرها يخالف الآية الكريمة فإن صحا فالأول مؤول بأنه كالتام في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية. بأنهم ألفوا الأربع فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قصر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم. ونفي الجناح فيه لتطبيب به نفوسهم، وأقل سفر تقصر فيه أربعة برد عندنا وستة عند أبي حنيفة. قرئ «تقصروا» من أقصر بمعنى قصر ومن الصلاة صفة محذوف أي: شيئاً من الصلاة عند سيويه، ومفعول تقصروا بزيادة من عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ شريطة باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يعتبر مفهومها كما لم يعتبر في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يَفْتِنَكُمُ اللَّهُ﴾ فلا جناح عليهما فيما افتدت به. وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرئ «من الصلاة أن يفتنكم» بغير إن خفتكم بمعنى كراهة أن يفتنكم: وهو القتال والتعرض بما يكره.

﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بَأْسَلِحَتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ

كَانَ بِكُمْ أَدَىٰ مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١١٧﴾

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ تعلق بمفهومه من خصص صلاة الخوف بحضرة الرسول ﷺ لفضل الجماعة، وعامة الفقهاء على أنه تعالى علم الرسول ﷺ كيفيتها ليأتى به الأئمة بعده فإنهم نواب عنه فيكون حضورهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلتقم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزمًا. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذكر الطائفة الأولى يدل عليهم. ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي غير المصلين. ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي ﷺ ومن يصلي معه، فغلب المخاطب على الغالب. ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ ظاهره يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله ﷺ بطن نخل، وإن أريد به أن يصلي بكل ركعة إن كانت الصلاة ركعتين فكيفيته أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله ﷺ بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر آلة يتحصن بها المغازي فجمع بينه وبين الأسلحة في وجوب الأخذ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ تمنوا أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة، وهو بيان ما لأجله أمروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَىٰ مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخصة لهم في وضعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبير فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١١٨﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ أدبتم وفرغتم منها. ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فادوها كيفما أمكن، قياماً مسايقين ومقارعين، وقعوداً مرامين وعلى جنوبكم مشخين. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فعدلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وانتوا بها تامة. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال، وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبة الأداء حال المسايقة والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإيتاء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئن.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي آتِيَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٩﴾

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرئ «أن تكونوا» بالفتح بمعنى ولا تهنوا لأن تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضماثركم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥) ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٦).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعا من جاره قتادة بن النعمان في جراب دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتصت الدرع عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي فأخذوها. فقال دفعها إلي طعمة وشهد له ناس من اليهود فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبريء اليهودي فهم رسول الله ﷺ أن يفعل ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ بما عرفك الله وأوحى به إليك وليس من الرؤية بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿خَصِيمًا﴾ للبراءة. ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مما هممت به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ لمن يستغفره.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (١٠٧) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٠٨).

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جعل المعضية خيانة لها كما جعلت ظلماً عليها، والضمير لطعمة وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخصموا عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفاً. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ لا يخفى عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ لا يفوت عنه شيء.

﴿هَذَا نَسَمُ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٠).

﴿هَذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جملة مبنية لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بما يختص به ولا يتعداه. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا﴾ لذنوبه ﴿رَحِيمًا﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ فلا يتعداه وباله كقوله تعالى: ﴿وإن أسأتم فلها﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ كما رمى طعمة زيداً، ووجد الضمير لمكان أو. ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مقترف أحدهما دون مقترف الآخر.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلام ما هم عليه بالوحي، والضمير لرسول الله ﷺ. ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا وليس القصد فيه إلى نفي همهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لأنه ما أزلك عن الحق وعاد وباله عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيء من الضرر ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أو من تناجيهم فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر أو على الانقطاع بمعنى ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير، والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل. وفسر هاهنا بالقرض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بني الكلام على الأمر ورتب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الأمر في زمرة الخيرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمد والغرض هو الفعل واعتبار الأمر من حيث إنه وصلة إليه، وقيد الفعل بأن يقول لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى، لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياء وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووصف الأجر بالعظم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو ﴿يُؤْتِيهِ﴾ بالياء.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿تُولِيهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونخل بينه وبين ما اختاره. ﴿وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ﴾ وندخله فيها. وقرئ بفتح النون من ضلاه. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم، والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاققة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يوجب أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاققة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم اتباع غير سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في مرصاد الأفهام إلى مبادئ الأحكام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝١١٦﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ كرره للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهمك في الذنوب إلا أنني لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته وأمنت به ولم اتخذ من دونه ولياً، ولم أوقع المعاصي جرأة، وما توهمت طرفة عين أنني أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى. فنزلت ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترى لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧﴾.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه ويسمونهم أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال:

وَمَا ذَكَرَ فَإِنْ يَسْمَنُ فَأَنْثَى شَدِيدَ الْأَزْمِ لَيْسَ لَهُ ضُرُوسٌ

فإنه عنى القراد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كبر سمي حلمة، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه يفعل ولا يفعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غير منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كريباب وربى، وقرئ «أنثى» على التوحيد وأنثا على أنه جمع أنثى كخبث وخبيث، ووثنا بالتخفيف ووثناً بالثقل وهو جمع وثن كاسد وأسد وأثنا وأثنا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكان طاعته في ذلك عبادة له، والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير. وأصل التركيب للملابسة. ومنه ﴿صرح ممرد﴾ وغلام أمرد وشجرة مرداء التي تنثر ورقها.

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا اخُذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨﴾.

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيْباً مَفْرُوضاً﴾ عطف عليه أي شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل، بأن ما يشركون به يفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادة الشيطان وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه. الأول: أنه مريد منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تستجلب مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي في إهلاكهم وموالة من هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قدر لي وفرض من قولهم فرض له في العطاء.

﴿وَلَا أَضِلُّهُمْ وَلَا أَهْلِيْنَهُمْ وَلَا أَمْنِيْنَهُمْ وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَتَّكِنْ ءَاذَانَ الْاَنْعَامِ وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللّٰهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰنَ وَلِيًّا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰنًا مُّبِيْنًا﴾ (١١٩).

﴿وَلَا أَضِلُّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَا أَمْنِيْنَهُمْ﴾ الأمانى الباطلة كطول الحياة وأن لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَتَّكِنْ ءَاذَانَ الْاَنْعَامِ﴾ يشقونها لتحريم ما أحل الله وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسواحب، وإشارة إلى تحريم ما أحل ونقص كل ما خلق كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَا أَمْرُهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللّٰهِ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته. ويندرج فيه ما قيل من فقه عين الحامي، وخصاء العبيد، والوشم، والوشر، واللواط، والسحق، ونحو ذلك وعبادة الشمس، والقمر، وتغيير فطرة الله تعالى التي هي الإسلام، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى. وعموم اللفظ يمنع الخصاء مطلقاً لكن الفقهاء رخصوا في خصاء البهائم للحاجة. والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو آثاء فعلاً. ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰنَ وَلِيًّا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰنًا مُّبِيْنًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيْنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠) ﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١).

﴿يَعِدُّهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيَمْنِيْنُهُمْ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه. ﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل وعنها حال منه، وليس صلة له لأنه اسم مكان وإن جعل مصدراً فلا يعمل أيضاً فيما قبله.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيْهَا اَبَدًا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا وَمَنْ اَصْدَقُ مِنَ اللّٰهِ قِيْلًا﴾ (١٢٢).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيْهَا اَبَدًا وَعَدَ اللّٰهُ حَقًّا﴾. أي وعده وعداً وحق ذلك حقاً، فالأول مؤكد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله وعده، والثاني مؤكد لغيره ويجوز أن ينصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووعد الله بقوله ﴿سندخلهم﴾ لأنه بمعنى

نعدمهم إدخالهم وحققاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة، والمقصود من الآية معارضة المواعيد الشيطانية الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغة في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأمانني أهل الكتاب، وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل. روي (أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا. فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب المتقدمة) فنزلت. وقيل: الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدم ذكرهم أي: ليس الأمر بأمانني المشركين، وهو قولهم لا جنة ولا نار، وقولهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً، ولا أمانني أهل الكتاب وهو قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ وقولهم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ عاجلاً أو آجلاً لما روي (أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما يصيبك اللأواء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: هو ذاك). ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز موالة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، و ﴿مِنْ﴾ للبيان أو من الصالحات أي كائنة من ذكر أو أنثى ومن للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال شرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ينقص شيء من الثواب وإذا لم ينقص ثواب المطيع فبالحري أن لا يزداد عقاب العاصي، لأن المجازي أرحم الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ﴿يدخلون الجنة﴾ هنا وفي «غافر» و «مريم» بضم الياء وفتح الخاء، والباقيون بفتح الياء وضم الخاء.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه. وقيل بذل وجهه له في السجود وفي هذا الاسفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الموافقة لدين الإسلام المتفق على صحتها «حنيفاً» مائلاً عن سائر الأديان، وهو حال من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذكره ولم يضم تفضيماً لشأنه وتنصيماً على أنه الممدوح. والخلة من الخلل فإنه ود تخلل النفس وخلطها. وقيل من الخلل فإن كل واحد من الخليين يسد خلل الآخر، أو

من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخلعة بمعنى الخصلة فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته ﷺ والإيدان بأنه نهاية في الحسن وغاية كمال البشر. روي (أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمة أصابت الناس بمتار منه فقال خليل: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلماناه ببطحاء لينة فملؤوا منها الغرائر حياء من الناس فلما اخبروا إبراهيم ساءه الخبر، فغلبته عيناه فنام وقامت سارة إلى غرارة منها فأخرجت حوارى واختبزت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتتم رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلًا).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكر العمال مقرر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض، وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدره فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَضَوْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٧٧).

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في ميراثهن إذ سبب نزوله (أن عيينة بن حصن أتى النبي ﷺ فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة فقال عليه الصلاة والسلام: كذلك أمرت) ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن والافتاء تبين المبهم. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ عطف على اسم الله تعالى، أو ضميره المستكن في يفتيكم وساغ للفصل فيكون الإفتاء مسنداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ونحوه، والفعل الواحد ينسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارين مختلفين، ونظيره أغناني زيد وعطاؤه، أو استئناف معترض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبره. والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوز أن ينصب على معنى ويبين لكم ما يتلى عليكم أو يخفض على القسم كانه قيل: وأقسم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلاله لفظاً ومعنى ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ صلة يتلى إن عطف الموصول على ما قبله أي يتلى عليكم في شأنهن وإلا فبدل من فيهن، أو صلة أخرى ليفتيكم على معنى الله يفتيكم فيهن بسبب يتامى النساء كما تقول: كلمتك اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى من لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرئ «ييامي» بياءين على أنه أيامي فقلت همزته ياء. ﴿الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فرض لهن من الميراث ﴿وَرَضَوْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي أن تنكحوهن، أو عن أن تنكحوهن. فإن أولياء اليتامى كانوا أي يرغبون فيهن إن كن جميلات ويأكلون ما لهن، وإلا كانوا يعضلونهن طمعاً في ميراثهن والواو تحتمل الحال والعطف، وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جريان العقد في صغرها. ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ عطف على يتامى النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ أيضاً عطف عليه أي وفتيكم أو ما يتلى في أن تقوموا، هذا إذا جعلت في يتامى صلة لأحدهما فإن جعلته بدلاً فالوجه نصبهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن ينصب وأن تقوموا بإضمار فعل أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقوام بالنصفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وعد لمن أثر الخير في ذلك.

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ

خَيْرٌ وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا﴾ توقعت منه لما ظهر لها من المخايل، وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿تُشْوِزُ﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاضاً﴾ بأن يقل مجالستها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُضَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تحط له بعض المهر، أو القسم، أو تهب له شيئاً تستميلة به. وقرأ الكوفيون ﴿أَنْ يَصْلِحَا﴾ من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن يتصب صلحاً على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه أو على المصدر كما في القراءة الأولى والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرأ «يصلحا» من أصلح بمعنى اصطلاح. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة أو سوء العشرة أو من الخصومة. ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ ولذلك اغتفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتهديد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار النفس الشح جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحققها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ في العشرة. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿خَبِيرًا﴾ عليمًا به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامة للسبب مقام المسبب.

﴿وَأَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَأَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر فلذلك كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا توأخذني فيما تملك ولا أملك». ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله. ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذات بعل ولا مطلقة. وعن النبي ﷺ «من كانت له امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل». ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا﴾ وقرأ «وإن يفارقا» أي: وإن يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببذل أو سلوة. ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدرًا متقنًا في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن قبلهم، و «الكتاب» للجنس و «من» متعلقة بـ «وصينا» أو بـ «أوتوا» ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أن مفسرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الأرض ﴿على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم إن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشرككم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حمد أو لم يحمد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله ﴿يَغْنِ اللَّهُ كَلَامًا مِنْ سَعَتِهِ﴾، فإنه توكل بكفائتهما وما بينهما تقرير لذلك.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٢﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٣﴾.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ ويوجد قوماً آخرين مكانكم أو خلقاً آخرين مكان الإنس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته، وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب ومعناه معنى قوله تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: إنهم قوم هذا.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة. ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فما له يطلب أحسهما فليطلبهما كمن يقول: ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾، أو ليطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة، ما هي في جنبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطى كلا ما يريد كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلاً بحسب قصده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَلَا تَعْرِضُوا عَنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله سبحانه وتعالى، وهو خير ثان أو حال. ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تقرروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره. ﴿أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم. ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ أي المشهود عليه أو كل واحد منه ومن المشهود له. ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحموا. ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شرعها، وهو علة الجواب أقيمت مقامه والضمير في بهما راجع لما دل عليه المذكور، وهو جنس الغني والفقير لا إليه وإلا لوحد، ويشهد عليه أنه قرىء «فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا». ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ لأن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا من العدل. ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل. قرأه نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإسكان اللام وبعدها واوان الأولى مضمومة، والثانية ساكنة. وقرأ حمزة وابن عامر ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا﴾ بمعنى وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها. ﴿أَوْ نَعَرَضُوا﴾ عن آذانها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم عليه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت. ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك ودأبوا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بالستكم، أو آمنوا إيماناً عاماً يعم الكتب والرسول، فإن الإيمان ببعض كلا إيمان والكتاب الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ و ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ بفتح النون والهمزة والزاي، والباقون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني اليهود آمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ، أو قوماً تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وأزدادوا تمادياً في الغي. ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبهم ضربت بالكفر وبصائرهم عميت عن الحق لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم يغفر لهم، وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريداً ليغفر لهم.

﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِّينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِّينَ﴾ بَأَنَّهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين، ووضع ﴿بَشِّرْ﴾ مكان أُنذر تهكم بهم.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب، أو الرفع على الذم بمعنى أريد الذين أو هم الذين. ﴿أَيْبَنُوهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ أيتعززون بمواليتهم. ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كُتِبَ العزة لأوليائه فقال ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ولا يؤبَّه عزة غيرهم بالإضافة إليهم.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُتَفَقِّينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن. وقرأ عاصم ﴿نَزَلَ﴾ وقرأ الباقر ﴿نَزَلْ﴾ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللهِ﴾ وهي المخففة والمعنى أنه إذا سمعتم. ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده

الغاية. وهذا تذكار لما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية. والضمير في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يكفر بها ويستهزأ بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحزاب كانوا منافقين، وبدل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم، وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يذكر بعدها الفعل وإفراد مثلهم، لأنه كالمصدر أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرئ بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني كقوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم، وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين أو ذم مرفوع أو منصوب أو مبتدأ خبره. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فاسهموا لنا مما غنمتم. ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سجال ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم، والاستحاذ الاستيلاء وكان القياس أن يقال استحاذ يستحذ استحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشركونا فيما أصبتم، وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حيثذ أو في الدنيا والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم. والحنفية على حصول البيئونة بنفس الارتداد وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢) ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٤٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ متساقلين كالمكره على الفعل وقرئ كسالى بالفتح وهما جمعا كسلان. ﴿يُرَآؤُونَ النَّاسَ﴾ ليخالوهم مؤمنين المراءة مفاعلة بمعنى التفعيل كنعم وناعم أو للمقابلة فإن المرائي يري من يرائيه عمله وهو يريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه، وهو أقل أحواله أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذكر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ حال من واو ﴿يُرَآؤُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ﴾ أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبيين أو واو يذكرون أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر من الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرئ بكسر الذاًل بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل. وقرئ بالذال الغير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبة وتارة في دبة وهي

الطريقة. ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ لا منسويين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحد الفريقين بالكلية. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه صنيع المنافقين وديدنهم فلا تشبهوا بهم، ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتهم دليل على النفاق أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: «من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ، وإنما سميت طبقاتها السبع دركات لأنها متدركة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء وهي لغة كالسطر والسطر والتحريك أوجه لأنه يجمع على إدراك. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجهه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيساهمونهم فيه.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ أيتشفى به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضرر، وإنما يعاقب المصير بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر. ونفى نفسه عنه. تخلص من تبعته، وإنما قدم الشكر لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ شيئاً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوهُ عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ إلا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم والتظلم منه. وروي أن رجلاً ضاف قوماً فلم يطعموه فاشتكاهم فعوتب عليه. فنزلت وقرئ من ظلم على البناء للفاعل فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل ما لا يحبه الله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ طاعة وبرا. ﴿أَوْ تُخْفَوْهُ﴾ أو تفعلوه سرا. ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ لكم المؤاخذه عليه، وهو المقصود وذكر إبداء الخير وإخفائه تشبيب له، ولذلك رتب عليه قوله. ﴿فَإِنْ اللَّهُ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رخص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۖ ﴿١٥١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ۖ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم، وإنما دخل بين على أحد وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ الموعودة لهم وتصديره بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر. وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالياء على تلوين الخطاب. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَحِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۖ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فأتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى به موسى عليه السلام، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعيته حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرت ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهدْيهم. والمعنى إن عرقهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرنا نره جهره، أو مجاهرين معانين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم وهو تعنتهم وسؤالهم، ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلهم، والبيّنات،

المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأتهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤)

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليقبلوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مطل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين طلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام، وقرأ ورش عن نافع ﴿لَا تَعْدُوا﴾ على أن أصله لا تتعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِا بِكَفَرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥)

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي فخالفوا ونقضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد والباء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحرمانا عليهم طيات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطف عليه إلى قوله فبظلم لا بما دل عليه قوله: ﴿بَلْ طَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِا﴾ مثل لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون من صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جاره. ﴿وَكُفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالقرآن أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنة مما تدعوننا إليه. ﴿بَلْ طَعَنَ اللَّهُ عَلَيْهِا بِكَفَرِهِمْ﴾ فجعلها محجوبة عن العلم، أو خذلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبد الله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

﴿وَبِكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦)

﴿وَبِكَفَرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على بكفرهم لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ﴾ ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله ويكون تكرير ذكر الكفر إيداناً بتكرار كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْتَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعاً للذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي (أن رهطاً من اليهود سبوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قرودة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبيهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقام رجل منهم فألقى الله عليه

شبهه فقتل وصلب. وقيل (كان رجلاً يناقشه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شبهه فأخذ وصلب وقتل) وقيل: (دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شبهه فلما خرج ظن أنه عيسى فأخذ وصلب. وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسابنا، و «شبه» مسند إلى الجار والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول أو في الأمر على قول من قال: لم يقتل أحد ولكن أرجف بقتله فشاخ بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثم قتيلاً. «وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ» في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء. وقال قوم: صلب الناسوت وصعد اللاهوت. «لَفِي شَكٍّ مِنْهُ» لفي تردد، والشك كما يطلق على ما لا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكد بقوله: «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعُ الظَّنِّ» استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. «وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا» قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم «إنا قتلنا المسيح»، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَذَاكَ تُخْبِرُ عَنْهَا الْعَالِمَاتُ بِهَا وَقَدْ قَتَلْتُ بِعِلْمِي ذَلِكُمْ يَقِينًا

من قولهم قتل الشيء علماً ونحرته علماً إذا تبالغ في علمك.

«بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ» رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. «وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا» لا يغلب على ما يريد. «حَكِيمًا» فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

«وَأَنَّ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» (١٥٩)

«وَأَنَّ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله «ليؤمنن به» جملة قسمية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن ترهق روحه ولا ينفعه إيمانه ويؤيد ذلك أنه قرئ. «إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاملة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم يتفعهم إيمانهم. وقيل الضميران لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الصبيان بالحيات. ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه، «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» فيشهد على اليهود بالكذب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

«فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَتْ لَهُمْ وَبَصَدَّتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا» (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هَوَّاهُ عَنْهُمْ وَأَمْوَالُهُمُ الْبَاطِلُ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (١٦١)

«فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا» أي فبأي ظلم منهم. «حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَتْ لَهُمْ» يعني ما ذكره في

قوله وعلى الذين هادوا حرماً. ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً أو صداً كثيراً.

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْباطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وآمن.

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٦٢)

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرىء بالرفع عطفاً على ﴿الرَّاْسِخُونَ﴾ أو على الضمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أو على أنه مبتدأ والخبر ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدق من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة ﴿سَيُؤْتِيهِمْ﴾ بالياء.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١٦٣)

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ خصهم بالذكر مع اشتغال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقيين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة ﴿زَبُورًا﴾ بالضم وهو جمع زبر. بمعنى مزبور.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤)
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥)

﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر دل عليه أوحينا إليك كإرسالنا أو فسره: ﴿قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهو منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطناً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً فينبهنا ويعلمنا ما لم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها، واللام متعلقة بإرسالنا أو بقوله ﴿مبشرين ومنذرين﴾، و ﴿حجة﴾ اسم كان وخبره ﴿للناس﴾ أو ﴿على الله﴾ والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر وبعد ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦)

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكأنه لما تعنتوا عليه بسؤال كتاب ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ قال: إنهم لا يشهدون ولكن الله يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يشبهه ويقرره. ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل إنا أوحينا إليك قالوا ما نشهد لك فنزلت. ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله ملتبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نظم يعجز عنه كل بليغ، أو بحال من يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوى النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨) ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٦٩)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناس بصددهم عما فيه صلاحهم وخلصهم أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لجري حكمه السابق ووعدته المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧٠)

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لما قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعد من أنكروها، خاطب الناس عامة بالدعوة والزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم أو اتنوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم ومنعه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لا بد منه ولأنه يؤدي إلى حذف الشرط وجوابه. ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله: ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما تركبنا منه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم.

﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا

لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها. ﴿وَزُوْجُ مِنْهُ﴾ وذو روح صدر منه لا بتوسط ما يجري مجرى الأصل والمادة له، وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات، وبالابن العلم، وروح القدس الحياة. ﴿انْتَهَوْا﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي أسبغه تسييحاً من أن يكون له ولد، فإنه يكون لمن يعادله مثل، ويتطرق إليه فناء. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتحذه ولداً. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عن من يخلقه أو يعينه.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ ﴿١٧٢﴾

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نكفت الدمع إذا نحته بأصبعك كيلا يرى أثره عليك. ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي (أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال رسول الله ﷺ: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى عليه السلام، قال عليه السلام: وأي شيء أقول. قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله، قالوا: بلى) فزلت ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله، واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقال مساقه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه، وجوابه أن الآية للرد على عبدة المسيح والملائكة فلا يتجه ذلك وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مروؤس، وإن أراد به التكبير فغاياته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هو حول العرش، أو من أغلى منهم رتبة من الملائكة أعلى المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث لا استحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَزَيَّدْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧٣﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا فَاسْتَكَبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مقابلتهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (١٧٢) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٧٥).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ عني بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبق لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ في ثواب قدره بإزاء إيمانه وعمله رحمة منه لا قضاء لحق واجب ﴿وَفَضْلٍ﴾ إحسان زائد عليه ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى. وقيل إلى الموعود. ﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا، وطريق الجنة في الآخرة. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة حذفت لدلالة الجواب عليه. روي (أن جابر بن عبد الله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كلاله فكيف أصنع في مالي) فنزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ (١٧٦) ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ (١٧٧) ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلِيمٌ﴾ (١٧٨).

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع ﴿امروء﴾ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفة له أو حال من المستكن في هلك، والواو في ﴿وله﴾ يحتمل الحال والعطف، والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه جعل أخوها عصبة وابن الأم لا يكون عصبة، والولد على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء. غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. لكنها لا تترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا﴾ أي والمرء يرث أخته إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ذكرأ كان أو أنشأ إن أريد بيرثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذكر إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿إِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيه على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغير والكبير وغيرهما. ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكر. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي يبين الله لكم ضلالكم الذي من شأنكم إذا خليتم وطباعكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافة، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لثلاث تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلِيمٌ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، وورث ميراثاً وأعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرى من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم».

(٥) سورة المائدة

مَدَنِيَّة وَآيَهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد وكذلك الإيفاء والعقد العهد الموثق قال الحطية:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لَجَّارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا قَرْقَةَ الْكَرْبَا

وأصله الجمع بين الشئتين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكليف، وما يعقدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود، والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام. وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الطباء ويقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملازمة الشبه. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ أو إلا ما يتلى عليكم تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وقيل من واو ﴿أَوْفُوا﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف و﴿الصَّيْدِ﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال مما استكن في ﴿محلي﴾، وال ﴿حُرْمٌ﴾ جمع حرام وهو المحرم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحريم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَيْمَانَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أشعر أي جعل شعاراً سمي به أعمال الحج وموافقه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يَعْظُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجدي في جمع جدية السرح. ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. والقلائد جمع قلادة

وهي ما قلد به الهدي من نعل أو لحاء شجر أو غيرهما ليعلم به أنه هدي فلا يتعرض له. ﴿وَلَا آمَنَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم، والجملة في موضع الحال من المستكن في آمين وليست صفة له، لأنه عامل والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يعمل، وفائدته استنكار تعرض من هذا شأنه والتنبيه على المانع له. وقيل معناه يبتغون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعمهم إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح بن ضبيعة، وكان قد استاق سرح المدينة وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرئ «تبتغون» على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ إذن في الاصطياد بعد زوال الإحرام ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرئ بكسر الفاء على إلقاء حركة همزة الوصل عليها وهو ضعيف جداً. وقرئ «أحللتكم» يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغض قوم وفعلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم. ﴿أَنْ تَعْتَدُوا﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمنكم فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. ومن قرأ ﴿يجرمنكم﴾ بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ على العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ للتشفي والانتقام. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فانتقامه أشد.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَسْتُ عَلَيْكُمْ نَعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَالْدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وكان أهل الجاهلية يصبونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزى عند ذبحه. ﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بنحر خشب، أو حجر حتى تموت من وقذته إذا ضربته. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علو أو في بئر فماتت. ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكلت مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدد. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النصب واحد الأنصاب وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويعدون ذلك قرية. وقيل هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمى على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي وحرّم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح. مكتوب على أحدها، أمرني ربي. وعلى الآخر: نهاني ربي. والثالث غفل، فإن خرج الأمر مضوا على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصاب المعلومه وواحد الأزلام زلم كجمل وزلم

كصرد. ﴿ذَلِكُمْ فَسُقْ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، واقتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشرك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿الْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية. وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَتَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها أو من أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَآخِشُونَ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتخصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق أو بإكمال الدين أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي. والمعنى: فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيمٍ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله: ﴿غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ به بأكمله.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْفِقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ﴿مَاذَا﴾ وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أحل لهم من المطاعم كأنهم لما تلي عليهم ما حرم عليهم سألوا عما أحل لهم. ﴿قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ ما لم تستخيه الطباع السليمة ولم تنفر عنه ومن مفهومه حرم مستخبات العرب، أو ما لم يدل نص ولا قياس على حرمة. ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ عطف على ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ إن جعلت ﴿مَا﴾ موصولة على تقدير وصيد ما علمتم، وجملة شرطية إن جعلت شرطاً وجوابها ﴿فَكُلُوا﴾ و ﴿الجوارح﴾ كواسب الصيد على أهلها من سباع ذوات الأربع والطيور ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلمين إياه الصيد، والمكلب مؤدب الجوارح ومضرب بها بالصيد. مشتق من الكلب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وأثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» وانتصابه على الحال من علمتم وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم تأكل منه لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «إن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على نفسه». وإليه ذهب أكثر الفقهاء وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون لا يشترط مطلقاً. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَآتَقُوا اللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جل ودق.

﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي

أَخَذَانِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾ .

﴿الْيَوْمَ أَجِلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية، ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر. ولا يلحق بهم المجوس في ذلك وإن ألحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سنا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم ولا أكلي ذبائحهم» ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوهم منهم ولو حرم عليهم لم يجز ذلك. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر أو العفائف، وتخصيصهن بعث على ما هو الأولى. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حريبات وقال ابن عباس لا تحل الحريبات. ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن وتقييد الحل بآياتها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل المراد بآياتها التزامها «مُحْصَنِينَ» أعفاء بالنكاح. ﴿غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ مسرين به، والخذن الصديق يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر إنكاره والامتناع عنه.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ عبر عن إرادة الفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة، أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له، وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه فقال عمداً فعلته» فقليل مطلق أريد به التقييد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نسخ وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها». ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أمروا الماء عليها ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لما لك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغمسول ولذلك قيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى مع كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافة إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبق لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث أنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فَنظَرْنَا إِلَى مِيسِرَةٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَثْمَرُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ لكن لما لم تتميز الغاية ها هنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً. ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعض، فإنه الفارق بين قولك مسحتم المنديل وبالمندبل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإصاق فكأنه قيل: وألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما

لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب. فأوجب الشافعي رضي الله تعالى عنه: أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين. وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: مسح ربع الرأس، لأنه عليه الصلاة والسلام مسح على ناصيته وهو قريب من الربع. ومالك رضي الله تعالى عنه: مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلُكُمْ إِلَى الْكَفَّيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم وبؤيده: السنة الشائعة، وعمل الصحابة، وقول أكثر الأئمة، والتحديد، إذ المسح لم يحد. وجره الباقر على الجوار ونظيره كثير في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ الْيَمِّ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم جحر ضب خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليها ويغسل غسلاً يقرب من المسح، وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرأ بالرفع على «وأرجلكم» مغسولة. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فاغتسلوا. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريره ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء. فمفعول «يريد» في الموضعين محذوف واللام للعلة. وقيل مزيدة والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن أن لا تقدر بعد المزيدة. ﴿وَلَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ ليم بشعره ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمته عليكم في الدين، أوليتم برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثني: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن أكتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٧).

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، أو ميثاقه ليلة العقبة أو بيعة الرضوان. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ عداه بعلی لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعدتوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصيبة ونقض عهد تشفياً مما في قلوبكم. ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجور وبين أنه مقتضى الهوى، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم به، وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في

المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء نائرة الغيظ.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وعد استغناء بقوله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ فإنه استئناف بيينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطبيب لقلوبهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ روي (أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى الظهر معاً فلما صلوا ندموا ألا كانوا أكبوا عليهم وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف). والآية إشارة إلى ذلك وقيل إشارة إلى ما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري بحسبهما مشركين، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحي عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج). وقيل (نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسل سيفه وقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: من يمنعك مني فقال لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فنزلت ﴿إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ منعها أن تمت إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّيْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فأخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فلإني ناصركم، وأمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به، فأخذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم، فأروا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومهم ونكت الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا، ويوشع بن نون

من سبط افرائيم بن يوسف. «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» بالنصرة «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» أي نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب ومنه التعزيز. «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» بالإنفاق في سبيل الخير وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. «لَا تُكْفِرُوا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» جواب للقسم المدلول عليه باللام في لئن ساد مسد جواب الشرط. «وَلَا دَخَلَتْكُمْ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ» بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم. «مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣).

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم أو ضربنا عليهم الجزية. «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً» لا تفعل عن الآيات والنذر. وقرأ حمزة والكسائي «قنسية» وهي إما مبالغة «قاسية» أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قسي إذا كان مغشوشاً، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه ييس وصلابة وقرىء «قسية» بإتباع القاف للسين. «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول «لَعَنَّاهُمْ» لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه. «وَنَسُوا حَظًّا» وتركوا نصيباً وافياً. «مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حفظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه، وقيل معناه أنهم حرفوها فزلت بشؤمه أشياء منها عن حفظهم، لما روي أن ابن مسعود قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية. «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» خيانة منهم، أو فرقة خائنة أو خائن والتاء للمبالغة. والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم. «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله: «وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسَةً» «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ» إن تابوا وآمنوا أو عاهدوا والتزموا الجزية. وقيل: مطلق نسخ بآية السيف. «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتبنيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٤).

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا، وإنما قال قالوا إنا نصارى ليدل على أنهم سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى. «فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا» فالزمننا من غري بالشئ إذا لصق به. «بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» بين فرق النصارى، وهم نسطورية ويعقوبية وملكانية، أو بينهم وبين اليهود. «وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» بالجزاء والعقاب.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى، ووحد الكتاب لأنه للجنس. «قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب كنت محمد ﷺ وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد ﷺ في الإنجيل. ﴿وَتَقَفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذا لم يضطر إليه أمر ديني، أو عن كثير منكم فلا يؤخذه بجرمه. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز. وقيل يريد بالنور محمد ﷺ.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ وحد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته أو توفيقه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤد إليه لا محالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا الله واحد لهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ عيسى ﴿ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ احتج بذلك على فساد عقولهم وتقديره: أن المسيح مقدور مقهور قابل للفناء كسائر الممكنات ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنى أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض، ومن أصل كخلق ما بينهما فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات، ومن أصل يجانسه إما من ذكر وحده كما خلق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى، أو منهما كسائر الناس.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أشياخ ابنه عزيزاً والمسيح كما قيل لأشياخ ابن الزبير الخبييون أو المقربون عنده قرب الأولاد من والدهم وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة «آل عمران». ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي فإن صح ما زعمتم فلم يعذبكم بذنوبكم فإن من كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسح واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملكم معاملة سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أي الدين، وحذف لظهوره، أو ما كتتمتم وحذف لتقدم ذكره ويجوز أن لا يقدر مفعول على معنى يبذل لكم البيان والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو يبين حال من الضمير فيه. ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَاءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، إذ كان بينهما ألف وسبعمئة سنة وألف نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة وأربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبيسي، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم ولم يبعث في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثراً الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهما بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكيين لأنفسهم وأمورهم سماهم ملوكاً. ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالمين عالمي زمانهم.

﴿يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١).
قَالُوا يَمْوَسَّى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢).

﴿يَا قَوْمِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قسمها لكم أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتكم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصوا ﴿فإنها محرمة عليهم﴾. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة قيل لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا وقالوا: ليتنا متنا بمصر تعالوا نجعل علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر، أو لا ترتدوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله سبحانه وتعالى. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ثواب الدارين، ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف والنصب على الجواب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأني مقاومتهم، والجبار فعال من جبره على الأمر بمعنى أجبره وهو الذي يجبر الناس على ما يريده. ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ إذ لا طاقة لنا بهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا دُخُلَا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣).

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كان رجلا من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا الواو لبني إسرائيل والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرئ «الَّذِينَ يَخَافُونَ» بالضم أي المخوفين، وعلى المعنى الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يخوفون من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الرعيد. ﴿أَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتشيت وهو صفة ثانية لرجلان أو اعتراض. ﴿ادْخُلَا عَلَيْهِمُ الْبَابُ﴾ باب قريتهم أي باغثوهم وضاعطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصحار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ﴾ لتعسر الكر عليهم في المضايق من عظم أجسامهم، ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون علمهما بذلك من إخبار موسى عليه الصلاة والسلام وقوله: ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أو مما علما من عادة الله سبحانه وتعالى في نصرته رسله، وما عهدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصدقين بوعد.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥).

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا﴾ نفوا دخولهم على التأكيد والتأييد. ﴿مَا دَامُوا فِيهَا﴾ بدل من أبدا بدل البعض. ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ قاله شكوى بثه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالى لما خالفه قومه وأيس منهم، ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يثق عليهما لما كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه، ويحتمل نصبه عطفاً على نفسي، أو على اسم إن ورفع عطفاً على الضمير في ﴿لَا أَمْلِكُ﴾، أو على محل إن واسمها، وجره عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتباعد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٦).

﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عامل الظرف إما محرمة فيكون التحريم موقتا غير مؤبد فلا يخالف ظاهر قوله ﴿التي كتب الله لكم﴾، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل ففتح أريحا، وأقام بها ما شاء الله ثم قبض وقيل: إنه قبض في التيه ولما احتضر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أمره بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرة وصار الشام كله لبني إسرائيل، وإما يتيهون أي يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل لم يدخل الأرض المقدسة أحد ممن قال إننا لن ندخلها بل هلكوا في التيه، وإنما قاتل الجبابرة أولادهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراعس يسيرون من الصباح إلى المساء، فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام

يظلمهم من الشمس وعمود من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤهم من الحجر الذي يحملونه، والأكثر على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك روحاً لهما وزيادة في درجتهم، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر ومات النقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسى عليه الصلاة والسلام لما ندم على الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْمَلَكِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحى الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، فسخط منه قابيل لأن توأمة كانت أجمل، فقال لهما آدم: قربا قرباناً فمن أيكما قُبِلَ تزوجها، فُقِبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يرد لهما ابني آدم لصلبه وأنهما رجلان من بني إسرائيل ولذلك قال: ﴿كُتِبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفة مصدر محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حال من الضمير في اتل، أو من نَبَأٍ أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كتب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرف لنَبَأٍ، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي واتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت، والقربان اسم ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحلوان اسم ما يحلى به أي يعطى، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يشن وقيل تقديره إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقرب أردأ قمح عنده، وهابيل صاحب زرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخط حكم الله سبحانه وتعالى ولم يخلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده. ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ نوعه بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أتيت من قبل نفسك بترك التقوى لا من قبلي فلم تقتلني، وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يرى حرمانه من تقصيره ويجتهد في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقي.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تخرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالى لأن الدفع لم يبع بعد، أو تحريماً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل». وإنما قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ في جواب ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً، والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه ولذلك أكد النفي بالباء.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما استسلم لك إرادة أن تحمل إثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك يدك إلي ونحوه المستبان ما قالوا فعلى البادى ما لم يعتد المظلوم. وقيل معنى بإثمي بإثم قتلي، وإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يرد معصية أخيه وشقاوته بل قصده بهذا الكلام إلى أن ذلك إن كان لا محالة واقفاً فأريد أن يكون لك لا لي،

فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادة عقاب العاصي جائزة.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته من طاع له المرتع إذا اتسع. وقرئ «فطاوعت» على أنه فاعل بمعنى فعل، أو على أن «قتل أخيه» كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله. ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عقبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُتَوَلَّىٰ أَعِزُّتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٢١).

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به إذ كان أول ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة والضمير في ليري، الله سبحانه وتعالى، أو للغراب، وكيف حال من الضمير في «يواري» والجملة ثاني مفعولي يري، والمراد بسوءة أخيه جسده الميت فإنه مما يستبجح أن يري. ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا﴾ كلمة جزع وتحسر والالف فيها بدل من ياء المتكلم. والمعنى يا ويلتي احضري فهذا أوانك، والويل والويلة الهلكة. ﴿أَعِزُّتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي﴾ لا أهتدي إلى مثل ما أهتدى إليه، وقوله: «فأواري» عطف على «أكون» وليس جواب الاستفهام إذ ليس المعنى ههنا لو عجزت لوأريت، وقرئ بالسكون على فأنأ أوأري أو على تسكين المنصوب تخفيفاً. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره وحمله على رقبته سنة أو أكثر على ما قيل، وتلمذه للغراب واسوداد لونه وتبري أبويه منه، إذ روي أنه لما قتله اسود جسده فسأله آدم عن أخيه فقال ما كنت عليه وكيلاً فقال بل قتلته ولذلك اسود جسديك وتبرأ منه ومكث بعد ذلك مائة سنة لا يضحك وعدم الظفر بما فعله من أجله.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ (٢٢).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بسببه قضينا عليهم، وأجل في الأصل مصدر أجل شراً إذا جنأ استعمل في تحليل الجنايات كقولهم، من جراك فعلته، أي من أن جررت أي جنيته ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تحليل، ومن ابتدائية متعلقة بكتبنا أي ابتداء الكتب ونشؤه من أجل ذلك. ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص. ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسن القتل، وجراً الناس عليه، أو من حيث أن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم. ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل، أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهم تعظيماً. وأصل الحرب السلب والمراد به ههنا قطع الطريق. وقيل المكابرة باللصوصية وإن كانت في مصر. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكأنه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي قصاصاً من غير صلب إن أفردوا القتل. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي يصلبوا مع القتل إن قتلوا وأخذوا المال، وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ تقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يقتلوا. ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع إن اقتصرنا على الإخافة. وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس، وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخيير والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ﴿ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا﴾ ذل وفضيحة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٤﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣٥﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله سبحانه وتعالى ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما القتل قصاصاً فالإلى الأولياء يسقط بالتوبة وجوبه لا جوازه، وتقيد التوبة بالتقدم على القدرة يدل أنها بعد القدرة لا تسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قطاع المسلمين لأن توبة المشرک تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وسل إلى كذا إذا تقرب إليه وفي الحديث «الوسيلة منزلة في الجنة». ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَكُمْ لَيَفْتَنَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٧﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَنَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكور شيان إما لإجرائه مجرى اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾. أو لأن الواو ومثله بمعنى مع. ﴿مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ جواب لو، ولو بما في حيزه خبر إن والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

﴿يُزِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ الثَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وقرئ ﴿يُخْرِجُوا﴾ من أخرج وإنما قال ﴿وما هم بخارجين﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾
تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمهما، وجملة عند المبرد والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سرت، وقرئ بالنصب وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل. والسرقة: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من حرز والمأخوذ ربع دينار أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام «القطع في ربع دينار فصاعداً» وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديث وردت فيه وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح، والمراد بالأيدي الأيمان ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أيمانهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ اكتفاء بثنية المضاف إليه، واليد اسم لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتى بسارق فأمر بقطع يمينه منه. ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا ﴿والله عزيز حكيم﴾.

﴿فَمَنْ تَابَ﴾ من السارق. ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ أي بعد سرقته. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يسقط بها عند الأكثرين لأن فيه حق المسروق منه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ أو لكل أحد. ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مقدم أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ سَتَمُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتُهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي صنع الذين يقعون في الكفر سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة. ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي من المنافقين والباء متعلقة بقالوا لا بآمنوا والواو تحتل الحال والعطف. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ عطف على ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ ﴿سَتَمُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون، والضمير للفرقيين، أو للذين يسارعون ويجوز أن يكون مبتدأ ومن الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون واللام في للكذب، إما مزيدة للتأكيد أو لتضمين السماع معنى القبول

أي؛ قابلون لما تفتريه الاحبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليكذبوا عليك فيه. ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجاؤا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مصغنون لهم قابلون كلامهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاء إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿يَحْرِقُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنى: بحمله على غير المراد وإجرائه في غير مودره، والجملة صفة أخرى لقوم أو صفة لسماعون أو حال من الضمير فيه أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرقون وكذلك ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن أوتيتهم هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَاخْذُرُوا﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي (أن شريفاً من خير زنى بشريفة وكانا محصنين فكرها رجمهما، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله ﷺ عنه وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فأمرهم بالرجم فأبوا عنه، فجعل ابن صوريا حكماً بينه وبينهم، وقال له: أنشدك الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى، ورفع فوقكم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هل تجدون فيه الرجم على من أحصن، قال: نعم. فوثبوا عليه فقال: خفت إن كذبت أن ينزل علينا العذاب، فأمر رسول الله ﷺ بالزانيين فرجما عند باب المسجد). ﴿وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَةً﴾ ضلّاته أو فضيخته ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من الكفر وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هو أن بالجزية والخوف من المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في النار، والضمير للذين هادوا إن استأنفت بقوله ومن الذين وإلا فللفريقين.

﴿سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْالُونَ لِلْسُّخْتِ إِنْ جَاءَكُمْ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَانَ يَضْرُوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢).

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرهه للتأكيد. ﴿أَكَالُونَ لِلْسُّخْتِ﴾ أي الحرام كالرشا من سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضميتين وهما لغتان كالعنق والعنق، وقرأ بفتح السين على لفظ المصدر. ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحكم والإعراض ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي والأصح وجوبه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأننا التزمنا الذب عنهم ودفع الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً. ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَآخُكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ اللَّهُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

(٤٣)

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ اللَّهُ﴾ وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴿تعجب من تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع، وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم، و ﴿فيها حكم الله﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جعلتها مبتدأ فمن ضميرها المستكن فيه وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث

في كلامهم لفظاً كمومة ودودة. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخل في حكم التعجيب. ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَقْتُلُوا بِأَيْدِيكُمْ فَمَنْ قَتَلَ فَلَهُ قَتْلُكَ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق. ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف عما استبهم من الأحكام. ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومن بعده إن قلنا شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنوياً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاء هديهم. ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق بأنزل، أو يبحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم وهو يدل على أن النبيين أنبياءهم. ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ زهادهم وعلمائهم السالكون طريقة أنبيائهم عطف على النبيين ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى ما محذوف ومن للتبيين. ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يخفى منه كما فعل ابن سوريا. ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويدهنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها. ﴿فَمَنْ قَتَلَ﴾ هو الرشوة والجاه ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مستهيناً به منكرأ له. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله ﴿الكَافِرُونَ﴾ و ﴿الظَّالِمُونَ﴾ و ﴿الْفَاسِقُونَ﴾، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمة لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَا﴾ في التوراة. ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تقتل بالنفس. ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ﴾ رفعها الكسائي على أنها جمل معطوفة على أن وما في حيزها باعتبار المعنى وكأنه قيل: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، والعين بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجمل كالقول، أو مستأنفة ومعناها: وكذلك العين مفقودة بالعين، والأنف مجدوعة بالأنف، والأذن مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن، أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس، وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف، والجار والمجرور حال مبينة للمعنى، وقرأ نافع ﴿وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ﴾ وفي أذنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، وقرأ الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين. ﴿بِهِ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ للمتصدق يكفر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يسقط عنه ما لزمه. وقرئ «فهو كفارته له» أي فالتصدق كفارته التي يستحقها

بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبيون. ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعول ثانٍ عدي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وقرئ بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع نصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف أو تعلقاً به وعطف.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ «عليه» في قراءة حمزة، وعلى الأول اللام متعلقة بمحذوف أي وآتيناه ليحكم، وقرئ: «وأن ليحكم» على أن أن موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأمرنا بأن ليحكم. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عن حكمه، أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به، والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خلاف الظاهر.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ قُلُوبَهُمْ ۖ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ﴾ وريباً على سائر الكتب يحفظه عن التغير ويشهد له بالصحة والثبات، وقرئ على بنية المفعول أي هومن عليه وحفوظ من التحريف والحفاظ له هو الله سبحانه وتعالى، أو الحفاظ في كل عصر. ﴿فَأَخَكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي بما أنزل الله إليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه فعن صلة للاتبع لتضمنه معنى لا تنحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة وهي الطريق إلى الماء شبه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرئ بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمر إذا وضع. واستدل به على أنا غير متعبدین بالشرائع المتقدمة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوف دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعكم على الإسلام لأجبركم عليه. ﴿وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مدعين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفترطون في العمل. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل سبق والتقدم. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد

ووعيد للمبشرين والمقصرين. ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأن احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأمرنا أن احكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأن بصلته بدل من هم بدل الاشتغال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي (أن أبحار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلمنا فتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أبحار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، إن بيننا وبين قومنا خصومة فتتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ) فنزلت. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. ﴿فَاعْلَم أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبّر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَرْتَبِطُ بِنَفْسِ الثُّفُوسِ جَمَامُهَا

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لمتوردون في الكفر معتدون فيه.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٥٠).

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلى. وقرئ برفع الحكم على أنه مبتدأ، و ﴿يَبْغُونَ﴾ خبره، والراجع محذوف حذفه في الصلة في قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ واستضعف ذلك في غير الشعر وقرئ «أفحكم الجاهلية» أي يبغون حاكماً كحكم الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم. وقرأ ابن عامر «تبغون» بالتاء على قل لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشرهم معاشرة الأحاب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إيماء على علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتهم. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تترأى ناراها»، أو لأن الموالى لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار أو المؤمنين بموالاة أعدائهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشرهم معاشرة الأحاب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إيماء على علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتهم. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تترأى ناراها»، أو لأن الموالى لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار أو المؤمنين بموالاة أعدائهم.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ۝٥٢﴾ .

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني ابن أبي وأضرابه. ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم. ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي (أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي موالي من اليهود كثيراً عددهم، وإنني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبي: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي) فنزلت. ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يقطع شافة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيُضْبِحُوا﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ۝٥٣﴾ .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرفع قراءة عاصم وحزمة والكسائي على أنه كلام مبتدأ ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسى أن يأتي الله بالفتح ويقول الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسى مغنياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنى عسى الله أن يأتي بالفتح ويقول المؤمنون فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ يقول المؤمنون بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما من الله سبحانه وتعالى عليهم من الإخلاص أو يقولونه لليهود، فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكى الله تعالى عنهم ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم﴾ وجهد الأيمان أغلظها، وهو في الأصل مصدر ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة أو على المصدر لأنه بمعنى أقسموا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ يُضَيِّقُ لَهُمْ وَيُخَيِّبُهُمْ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام، والباقيون بالإدغام وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الحمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قبض رسول الله ﷺ من غدها وأخبر الرسول ﷺ في تلك الليلة فسر المسلمون وأتى الخبر في أواخر ربيع الأول. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأ وكتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وحشي قاتل حمزة. وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد تنبأ

فبعث إليه رسول الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبع فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم فرة بن سلمة القشيري وبنو سليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبشة زوجة مسيلمة، وكندة قوم الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطيم بن زيد وكفى الله أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسان قوم جبلة بن الأيهم تنصر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: هذا هم قوم هذا). وقيل الفرس لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: هذا وذووه. وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النخع وخمسة آلاف من كندة وبجيله، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلى من محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانهم ومحبة الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه. ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذلول فإن جمعه ذلل، واستعماله مع على إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ شداد متغلبين عليهم من عزه إذا غلبه، وقرئ بالنصب على الحال. ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه، أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالهم خلاف حال المنافقين، فإنهم يخرجون في جيش المسلمين خائفين ملامة أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم، واللومة المرة من اللوم وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمَئِذٍ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝﴾.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما نهى عن موالات الكفرة ذكر عقيبه من هو حقيق بها، وإنما قال ﴿وليكُم الله﴾ ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالى على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرى مجرى الاسم، أو بدل منه ويجوز نصبه ورفع على المدح. ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة بيوتون، أي يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومساوعه إليه، وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمه. واستدل بها الشيعة على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولي للأمر والمستحق للتصرف فيها، والظاهر ما ذكرناه مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلى هذا يكون دليل على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكانه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزب الله هم الغالبون وتنويعاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتكريهاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حَزَّ بِهِمْ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾. نزلت في رفاعه بن زيد وسويد بن الحرث أظهر الإسلام ثم نافقوا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هُزُؤًا ولَعِبًا إيماء إلى العلة وتنبهاً على أن من هذا شأنه بعيد عن الموالاته جدير بالمعاداة والبغضاء، وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار على قراءة من جره وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب، والكفار وإن عم أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، ومن نصبه عطفه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاته من ليس على الحق رأساً سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِنْ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كُتُمَ مؤمنين بوعده ووعيده.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أي اتخذوا الصلاة، أو المائدة وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أحرق الله الكاذب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطاير شررها في البيت فأحرقه وأهله. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِمَّا آتَا بِلَهُ اللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝٥٩﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِمَّا﴾ هل تنكرون منا وتعيبون، يقال نقم منه كذا إذا أنكره وانتقم إذا كافاه. وقرئ: ﴿تَنَقُمُونَ﴾ بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزلة كلها. ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ عطف على ﴿أَنْ آمَنَّا﴾ وكان المستثنى لازم الأمرين وهو المخالفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالفتكم حيث دخلنا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصل واعتقاد أن أكثركم فاسقون فحذف المضاف، أو على ما أي: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل وبأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير هل تنقمون منا إلا أن آمنا لقلّة إنصافكم وفسقكم، أو نصب بإضمار فعل يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفع على الابتداء والخبر محذوف أي: وفسقكم ثابت معلوم عندهم ولكن حب الرئاسة والمال يمنعكم عن الإنصاف. والآية خطاب لليهود سألو رسول الله ﷺ عن من يؤمن به فقال: أُوْمِنُ ﴿بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى قوله: ﴿ونحن له مسلمون﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَلِئَنَّا زِيرٌ وَعَبَدَ الْأَطَاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٦٠﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى، والمثوبة مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ها هنا موضعها على طريقة قوله:

تَجِيئُهُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبها على التمييز عن بشر. ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَمَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ يدل من بشر على حذف مضاف أي بشر من أهل ذلك من لعنه الله، أو بشر من ذلك دين من لعنه الله، أو خبر محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومسح بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسى عليه الصلاة والسلام. وقيل كلا المسخين في أصحاب السبت مسخت شبانهم قردة ومشايخهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة من وكذا ﴿عبد الطاغوت﴾ على البناء للمفعول، ورفع ﴿الطاغوت﴾ و ﴿عبد﴾ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجع محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ «وعابد الطاغوت» أو ﴿عبد﴾ على أنه نعت كفظن ويقظ أو عبدة أو ﴿عبد الطاغوت﴾ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطفه على القردة، ومن قرأ ﴿وعبد الطاغوت﴾ بالجر عطفه على من، والمراد ﴿من﴾ الطاغوت العجل وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرَّ مَكَانًا﴾ جعل مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل ﴿مكانًا﴾ منصرفاً. ﴿وَأَصْلُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ قصد الطريق المتوسط بين غلو النصارى وقذح اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَخْلَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢).

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلت في يهود نافقوا رسول الله ﷺ أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك، والجملتان حالان من فاعل قالوا وبالكفر وبه حالان من فاعلي دخلوا وخرجوا، وقد وإن دخلت لتقريب الماضي من الحال ليصح أن يقع حالاً أفادت أيضاً لما فيها من التوقع أن أمانة النفاق كانت لائحة عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْلَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود أو من المنافقين. ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عن قولهم الإثم﴾ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل ﴿الإثم﴾ ما يختص بهم والعدوان ما يتعدى إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبس شيئاً عملوه.

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣).

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله لبس ما كانوا يعملون من حيث إن الصنع عمل الإنسان بعد تدرب فيه وترو وتحمري إجادة، ولذلك ذم به خواصهم ولأن ترك الحسبة أقبح من مواقعه المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَنِيذِرَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُفَيْنَا وَكُفِّرْنَا وَآلَقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْفَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٤).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسك يقتر بالرزق وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا قصد فيه إلى إثبات يد وغل وبسط ولذلك يستعمل حيث لا يتصور ذلك كقوله:

جَادَ الْحِمَى بَسَطَ الْيَدَيْنِ بِوَابِلٍ شَكَرَتْ نَدَاهُ تَلَاعُهُ وَوَهَادَهُ

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد أو بالفقر والمسكنة، أو بغل الأيدي حقيقة يغفلون أسارى في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظ وملاحظة الأصل كقولك: سبني سب الله دابره. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثنى اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الجود، فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيديه، وتنبهها على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يعطي للاستدراج وما يعطي للإكرام. ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على تعاقب سعة وضيق في ذات يد، ولا يجوز جعله حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا من اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآية نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كف الله عن اليهود ما بسط عليهم من السعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ وأشرك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي هم طاعون كافرون ويزدادون طغياناً وكُفراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء. ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شر عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعة كف بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حرب أحد غلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بختنصر ثم أفسدوا فسلط عليهم فطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس، ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين، وللحرب صلة أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي للفساد وهو اجتهداهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما عدنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يجب ما قبله، وإن جل وأن الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يسلم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامها. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزل إليهم، أو القرآن ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لوسع عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغلة الزروع، أو يرزقهم الجنان البانعة الثمار. فيجتنونها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض بين بذلك أن ما كف عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقصور الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾

عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ. وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بشس ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه والإفراط في العداوة.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧).

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ جميع ما أنزل إليك غير مراقب أحداً ولا خائف مكرهاً. ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلغ جميعه كما أمرتك. ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كتمان بعضها يضيع ما أدى منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ من حيث أن كتمان البعض والكل سواء في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ﴿رسالاته﴾ بالجمع وكسر التاء. ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عده وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه ﷺ من تعرض الأعداء وإزاحة لمعاذيره. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضقت بها ذرعاً فأوحى الله تعالى إليّ إن لم تبلغ رسالتي عذبتك وضمن لي العصمة فقيوت». وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يحرس حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبة آدم فقال: انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس. وظاهر الآية يوجب تبليغ كل ما أنزل ولعل المراد به تبليغ ما يتعلق به مصالح العباد، وقصد بإنزاله إطلاعهم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يحرم افشاؤه.

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي دين يعتد به ويصح أن يسمى شيئاً لأنه باطل. ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعان لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها أمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزة ناطقة بوجوب الطاعة له، والمراد إقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ سبق تفسيره في سورة «البقرة» والصابئون رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن والتقدير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فَلِإِنِّي وَقَّيْتُ بِهَا الْغَرِيبَ

وقوله:

وَلَا فَاغْلَمُوا أَتْسًا وَأَنْتُمْ بُعَاةٌ مَا بَقِينَا فِي شِقَاقٍ

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراض دل به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح، كان غيرهم أولى بذلك. ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومن آمن خبرهما وخبر إن مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نَحْنُ بِمَا عَنِدْنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ

ولا يجوز عطفه على محل إن واسمها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبر خبر المبتدأ وخبر إن معاً فيجتمع عليه عاملان ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إن بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل «الصابئون» منصوب بالفتحة وذلك كما جوز بالياء جوز بالواو. «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا» في محل الرفع بالابتداء وخبره. «فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» والجملة خبر إن أو خبر المبتدأ كما مر والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عطف عليه. وقرئ «و» «الصابئين» وهو الظاهر و«الصابئون» بقلب الهمزة ياء و«الصابئون» بحذفها من صباً بإبدال الهمزة ألفاً، أو من صبوت لأنهم صبوا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شرعاً ولا عقلاً.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠).

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ليذكروهم وليبينوا لهم أمر دينهم. «قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ» بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكليف. «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» جواب الشرط والجملة صفة رسلاً والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف، وإنما جيء بـ «يقتلون» موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبهاً على أن ذلك من دينهم ماضياً ومستقبلاً ومحافظة على رؤوس الآي.

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب «لا تكون» بالرفع على أن أن المخففة من الثقيلة، وأصله أنه لا تكون فتنة فخففت أن وحذف ضمير الشأن فصار: أن لا تكون وإدخال فعل الحسبان عليها وهي للتحقيق تنزيل له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، و «أن» أو «أن» بما في حيزها ساد مسد مفعوليه. «فَعَمُوا» عن الدين أو الدلائل والهدى. «وَصَمُوا» عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. «ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. «ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا» كرة أخرى. وقرئ بالضم فيهما على أن الله تعالى عماهم وصمهم أي رماهم بالعمى والصمم، وهو قليل واللغة الفاشية أعمى وأصم. «كَثِيرٌ مِنْهُمْ» بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى والصمم كثير منهم. وقيل مبتدأ والجملة قبله خبره وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع. «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» فيجازيهم على وفق أعمالهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي إني عبد مريبوب مثلكم فاعبدوا خالقي وخالقكم. ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي في عبادته أو فيما يختص به من الصفات والأفعال. ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ يمنع من دخولها كما يمنع المحرم عليه من المحرم فإنها دار الموحدين. ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فإنها المعدة للمشركين. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعدلوا عن طريق الحق، وهو يحتمل أن يكون من تمام كلام عيسى عليه الصلاة والسلام وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به على أنهم قالوا ذلك تعظيماً لعيسى ﷺ، وتقرباً إليه وهو معاديتهم بذلك ومخاصمتهم فيه فما ظنك بغيره.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة، وهو حكاية عما قاله النسطورية والملكانية منهم القائلون بالأفانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وما في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدئ جميع الموجودات إلا إله واحد، موصوف بالوحدانية متعال عن قبول الشراكة ومن مزيدة للاستغراق. ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يوحدا. ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بقوا منهم على الكفر، أو ليمسن الذين كفروا من النصارى، وضعه موضع ليمسنهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه فلذلك عقبه بقوله:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا. وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانٍ أَلْطَعَامُ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله خصه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياء الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإن خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يلزمن الصدق، أو يصدقن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّا بِكُلَّانٍ أَلْطَعَامُ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات، بين أولاً أقصى ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهية لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عداد المركبات الكائنة الفاسدة، ثم عجب لمن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿أَنْظِرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرُ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن استماع الحق وتأمله وثم لتفاوت ما بين المعجبين أي إن بياننا للآيات عجب وإعراضهم عنها أعجب.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦).

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن

ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يملكه من ذاته ولا يملك مثل ما يضر الله تعالى به من البليات والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة وإنما قال ما نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئة لنفي القدرة عنه رأساً، وتنبهاً على أنه من هذا الجنس ومن كان له حقيقة تقبل المجانسة والمشاركة فبمعزل عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ٧٧﴾.

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غلوا باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أن تدعوا له الألوهية، أو تضعوه فترعّموا أنه لغير رشدة. وقيل الخطاب للنصارى خاصة. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبوه وبغوا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٧٩﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازير وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسح بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهى عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تعجب من سوء فعلهم مؤكداً بالقسم.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا بِهَذَا مَآذِنَ الْآخِرَةِ وَكَانُوا كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ٨١﴾.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدموه ليردوا عليه يوم القيامة ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علة الذم والمخصوص محذوف أي لبئس شيئاً ذلك لأنه كسبهم السخط والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يعني نبهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿وَمَا أَتَوْا بِهَذَا مَآذِنَ الْآخِرَةِ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم أو متمردون في نفاقهم.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ فَيُتْبِعُونَ رُءُوسَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٧)

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لشدة شكيמתهم وتضاعف كفرهم وانهم اكهم في اتباع الهوى، وركونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق، وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُوكَ﴾ للين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل وإليه أشار بقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ فَيُتْبِعُونَ رُءُوسَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ عطف على ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهو بيان لركة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأييم عنه، والفيض انصباب عن امتلاء، فوضع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ من الأولى للابتداء والثانية لتبيين ما عرفوا، أو للتبعيض بأنه بعض الحق. والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، من الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو من أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤)

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمع في الانخراط مع الصالحين، والدخول في مداخلهم أو جواب سائل قال لم آمنتم؟ و ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى الفعل، أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله، أي بوحدانيته فإنهم كانوا مثلثين. أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان به حقيقة وذكره توطئة وتعظيماً، ونطمع عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولى مقيداً بها أو نؤمن.

﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦)

﴿فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقده. ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور. والآيات الأربع روي (أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقرأه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكوا وآمنوا بالقرآن) وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يس فبكوا وآمنوا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ عطف التكذيب بآيات الله على الكفر، وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما طاب ولذ منه كأنه لما تضمن ما قبله مدح النصراني على ترهيبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عقبه النهي عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حرم داعية إلى القصد بينهما. روي (أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين، وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودك، ولا يقربوا النساء والطيب، ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح، ويسبحوا في الأرض، ويجبوا مذاكيرهم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: إني لم أؤمر بذلك إن لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وأكل اللحم والدسم، وآتي النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) فنزلت.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكون حلالاً مفعول كلوا ومما حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون من ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُوَاحِدُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿لَا يُوَاحِدُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلى والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن، وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وفي أيمانكم صلة يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر أو حال منه. ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية، والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم أو بنكث ما عقدتم فحذف للعلم به. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم «عقدتم» بالتخفيف، وابن عامر برواية ابن ذكوان «عاقدم» وهو من فاعل بمعنى فعل. ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ كفارة نكثه أي الفعل التي تذهب إثمه وتستره، واستدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام «من حلف على يمين ورأي غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير». ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من أقصده في النوع أو القدر، وهو مد لكل مسكين عندنا ونصف صاع عند الحنفية، وما محله النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديره: أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً من أوسط ما تطعمون، أو الرفع على البدل من إطعام، وأهلون كأرضون. وقرئ «أهاليكم» بسكون الياء على لغة من يسكنها في الأحوال الثلاث كالألف، وهو جمع أهل كاليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض.

وقيل هو جمع أهلاة. ﴿أَوْ كَسَوْتَهُمْ﴾ عطف على إطعام أو من أوسط إن جعل بدلاً وهو ثوب يغطي العورة. وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرئ بضم الكاف وهو لغة كقدوة في قدوة وكأسوتهم بمعنى أو كمثل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تطعموهم الأوسط، والكاف في محل الرفع وتقديره: أو إطعامهم كأسوتهم. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أو إعتاق إنسان، وشرط الشافعي رضي الله تعالى عنه في الإيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجاب إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخيير المكلف في التعيين. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي واحداً منها. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشرط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرئ «ثلاثة أيام متتابعات»، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبت كتاباً ولم ترو سنة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور. ﴿كَفَّارَةٌ لِّإِيمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تضنوا بها ولا تبدلوها لكل أمر، أو بأن تبروا فيها ما استطعتم ولم يفت بها خير، أو بأن تكفروها إذا حنثتم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ﴾ أعلام شرائعه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة التعليم أو نعمة الواجب شكرها فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالَّذِلَّةُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿٩١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام التي نصبت للعبادة. ﴿وَالْأَزْلَامُ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿رِجْسٌ﴾ قدر تعاف عنه العقول، وأفرده لأنه خبر للخمر، وخبر المعطوفات محذوف أو لمضاف محذوف كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. ﴿مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير للرجس أو لما ذكر أو للتعاطي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأن صدر الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وقرنها بالأنصاب والأزلام، وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرٌ بحت أو غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما وجعله سبباً يرجي منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفساد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٩٢﴾

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ وإنما خصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن». وخص الصلاة من الذكر بالإنفراد للتعظيم، والإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان من حيث إنها عماده والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعداء قد انقطعت.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به. ﴿وَاحْذَرُوا﴾ ما نهيا عنه أو مخالفتها. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾

فَاعْمَلُوا أَمَّا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» أي فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، وإنما عليه البلاغ وقد أدى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ مما لم يحرم عليهم لقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ ما حرم عليهم بعد كالخمر. ﴿وَآمَنُوا﴾ بتحريمه. ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي. ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ وتحروا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. روي (أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر) فنزلت. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمال الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارة إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يتقي فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذیباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ إِلَهٌ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ يُبَدِّلُ مَا كَفَرْتُمْ لَكُمْ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ إِلَهٌ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ يُبَدِّلُ مَا كَفَرْتُمْ لَكُمْ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل والتحقير في شيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ ليتيمز الخائف من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضعف قلبه وقلة إيمانه، فذكر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحق به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فَجَرَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلْفٍ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٩٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي محرمون جمع حرام كرداح وردح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم، الحداة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور». وفي رواية أخرى «الحية» بدل «العقرب»، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ، واختلف في أن هذا النهي هل

يلغى حكم الذبح فيلحق مذبوح المحرم بالميتة ومذبوح الوثني أو لا فيكون كالشاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب. **﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾** ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قبل ما يقتله، والأكثر على أن ذكره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العامد والمخطيء واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله: **﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾** ولأن الآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحش فطعنه أبو اليسر برمح فقتله. فنزلت. **﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾** برفع الجزاء، والمثل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعلية أي فواجهه جزاء يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجار بجزاء للفصل بينهما بالصفة فإن متعلق المصدر كالصلة له فلا يوصف ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مثل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا، والمعنى فعلية أن يجزى مثل ما قتل. وقرئ «فجزاء مثل ما قتل» بنصبهما على فليجز جزاء، أو فعلية أن يجزى جزاء يماثل ما قتل وفجزاؤه مثل ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يقوم الصيد حيث صيد فإن بلغت القيمة ثمن هدي تخير بين أن يهدي ما قيمته قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم واللفظ للأول أوفق. **﴿يُحَكِّمُ بِهِ ذَوْاً عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾** صفة جزاء ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته، أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تتشابه كثيراً. وقرئ «ذو عدل» على إرادة الجنس أو الإمام. **﴿هَدْيًا﴾** حال من الهاء في به أو من جزاء وإن نون لتخصصه بالصفة، أو بدل من مثل باعتبار محله أو لفظه فيمن نصبه. **﴿بِالْعِ كَعْبَةٍ﴾** وصف به هدياً لأن إضافته لفظية ومعنى بلوغه الكعبة ذبحه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. **﴿أَوْ كَفَّارَةً﴾** عطف على جزاء إن رفعته وإن نصبته فخير محذوف. **﴿طَعَامٌ مَسَاكِينَ﴾** عطف بيان أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارة **﴿طعام﴾** بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفر بالطعام مساكين ما يساوي قيمة الهدى من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مداً. **﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾** أو ما سواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرئ بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعدلي الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصياماً تمييز للعدل. **﴿لِيَذُوقَ وَيَاْلَ أَمْرِهِ﴾** متعلق بمحذوف أي فعلية الجزاء أو الطعام أو الصوم ليدوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى وأصل الويل الثقل ومنه الطعام الويل. **﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾** من قتل الصيد محرماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. **﴿وَمَنْ عَادَ﴾** إلى مثل هذا. **﴿فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾** فهو ينتقم الله منه وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكى عن ابن عباس وشريح. **﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾** مما أصر على عصيانه.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْسَّيَّارَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩٦).

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته». وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك. وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البر. **﴿وَوَطَعَامُهُ﴾** ما قذفه أو نصب عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أكله. **﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾** تمتعاً لكم نصب على الغرض. **﴿وَالِلْسَّيَّارَةِ﴾** أي ولسيارتكم يتزودونه قديداً. **﴿وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾** أي ما صيد فيه، أو الصيد فيه فعلى الأول يحرم على المحرم أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مدخل،

والجمهور على حلة لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يصد لكم» ﴿مَا دُفِنْتُمْ حُرْمًا﴾ أي محرمين وقرئ بكسر الدال من دام يدام. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (٩٧).

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ﴾ صيرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعبه. ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿فِيمَا لِلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلود به الخائف ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أمر دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر «قيماً» على أنه مصدر على فعل كالشبع أعل عينه كما أعل في فعله ونصبه على المصدر أو الحال. ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ﴾ سبق تفسيرها والمراد بالشهر الشهر الذي يؤدي فيه الحج، وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه وقيل الجنس. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حرمة الإحرام وغيره. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن شرع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها، دليل حكمة الشارع وكمال علمه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩).

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقبل عنه.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أمر به أي الرسول أتى بما أمر به من التبليغ ولم يبق لكم عذر في التفريط. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠).

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رغب به في مصالح العمل وحلال المال. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر، وآثروا الطيب وإن قل. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي: أنها نزلت في حجاج اليمامة لما هم المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين.

﴿يَتَأُولَى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوهَا إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٠١) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (١٠٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوهَا إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ الشرطية وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء إن تظهر لكم تخمكم وإن

تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم، وهما كمقدمتين تتجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقول لا يفعل ما يغمه، وأشياء اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء. وقيل أفعلاء حذف لامه جمع لشيء على أن أصله شيء كهين، أو شيء كصديق فخفف. وقيل أفعال جمع له من غير تغيير كبيت وأبيات ويرده منع صرفه. ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها. إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قال سراقه بن مالك: أكل عام فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم فاتركوني ما تركتكم» فنزلت أو استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا لمثلها. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيههم فقال: لا أسأل عن شيء إلا أجبت، فقال رجل: أين أبي فقال في النار، وقال آخر من أبي فقال: حذافة وكان يدعى لغیره) فنزلت.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يعد بعن أو لأشياء بحذف الجار. ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفة لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجنة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتروا بما سألوا جحوداً.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١١٣).

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ رد وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا أي شقوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقني سائبة ويجعلها كالبهيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكراً فهو لألتهم وإن ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى وقالوا: قد حمي ظهره، ومعنى ما جعل ما شرع ووضع، ولذلك تعدى إلى مفعول واحد وهو البهيرة ومن مزيدة. ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الأمر من الناهي ولكنهم يقلدون كبارهم وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١١٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه. ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ الواو للحال والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال، أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جهلة ضالين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن علم أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَ ثَمًّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٥).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي احفظوها والزموا إصلاحها، والجار مع المجرور جعل اسماً

لازموا ولذلك نصب أنفسكم. وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه». والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له سفهت آباءك فنزلت. و ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ يحتمل الرفع على أنه مستأنف ويؤيده أن قرىء «لا يضيركم» والجزم على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراء إتباعاً لضممة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة وتنصره قراءة من قرأ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بالفتح، و ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وعد ووعد للرفيقين وتنبه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْفَلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ﴾ أي فيما أمرتم شهادة بينكم، والمراد بالشهادة الإشهاد في الوصية وإضافتها إلى الظرف على الاتساع وقرىء «شهادة» بالنصب والتنوين على ليقم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أماراته وهو ظرف للشهادة. ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ بدل منه وفي إيداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يتهاون فيه أو ظرف حضر. ﴿اثْنَانِ﴾ فاعل شهادة ويجوز أن يكون خبرها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي من أقاربكم أو من المسلمين، وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ عطف على اثنان، ومن فسر الغير بأهل الذمة جعله منسوخاً فإن شهادته على المسلم لا تسمع إجماعاً. ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم فيها. ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ تقفونهما وتصبرونهما صفة لآخران والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله أو آخران من غيركم اعتراض، فائدته الدلالة على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر كما في السفر فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين فقال تحسبونهما. ﴿مِنْ بَعْدِ الْفَلَاةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً﴾ مقسم عليه، وإن ارتبتم اعتراض يفيد اختصاص القسم بحال الارتباب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقسم له قريباً منا، وجوابه أيضاً محذوف أي لا نشترى. ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي أنه وقف على شهادة ثم ابتدأ الله بالمد على حذف حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، وروي عنه بغيره كقولهم الله لأفعلن. ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثَمِينَ﴾ أي إن كتمنا. وقرىء «لَمِلَاثَمِينَ» بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها.

﴿إِنْ عَرَّ عَنَّا أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿إِنْ عَرَّ﴾ فإن اطلع. ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾ أي فعلاً ما أوجب إثماً كتحرير. ﴿فَآخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ من الذين جنى عليهم وهم الورثة. وقرأ حفص ﴿اسْتَحَقَّ﴾ على البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿الْأَوَّلَيَانِ﴾ الأحقان بالشهادة لقربتهما ومعرفتهما وهو خبر محذوف أي: هما الأوليان أو خبر ﴿آخَرَانِ﴾ أو مبتدأ خبره آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان.

وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم **«الأولين»** على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأولين الذين استحق عليهم. وقرئ **«الأولين»** على التثنية وانتصابه على المدح والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. **«فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا»** أصدق منها وأولى بأن تقبل. **«وَمَا اخْتَدَيْنَا»** وما تجاوزنا فيها الحق. **«إِنَّا إِذَا لَمَعَنَّ الظَّالِمِينَ»** الواضعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي نسبه أو دينه على وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فأخرين من غيرهم، ثم إن وقع نزاع وارتياب أقسما على صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على أنهما كذبا بأمانة أو مظنة حلف آخران من أولياء الميت، والحكم منسوخ إن كان الاثنان شاهدين فإنه لا يخلف الشاهد ولا يعارض يمينه يمين الوارث وثابت إن كانا وصيين ورد اليمين إلى الورثة إما لظهور خيانة الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغيير الدعوى. إذ روي أن تيمماً الداري وعدي بن يزيد خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حيثئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديل فدون ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات، ففتشاه وأخذوا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مثقال منقوشاً بالذهب فغيباه، فأصاب أهله الصحيفة فطالبوهما بالإناء فجحدا فترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»** الآية، فحلفهما رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلق سبيلهما، ثم وجد الإناء في أيديهما فأتاهما بنو سهم في ذلك فقالوا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بيعة فكرهنا أن نقر به فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت **«فَإِنْ عَشَرَ»** فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه. ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

«ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ» وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧٨﴾

«ذَلِكَ» أي الحكم الذي تقدم أو تحليف الشاهد. **«أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا»** على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها **«أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ»** أن ترد اليمين على المدعين. بعد آيماهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمين الكاذبة وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. **«وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا»** ما توصون به سمع إجابة. **«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»** أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين **«وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»** أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ ﴿١٧٩﴾

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ» ظرف له. وقيل بدل من مفعول واتقوا بدل الاشتغال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جمعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. **«فَيَقُولُ»** أي للرسول. **«مَاذَا أُجِبْتُمْ»** أي إجابة أجبتكم، على أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتكم فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال المؤودة لتوبيخ الوائد ولذلك **«قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا»** أي لا علم لنا بما لست تعلمه. **«إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ»** فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمرنا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرئ «علام» بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله **«إِنَّكَ أَنْتَ»**، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلام منصوب على الاختصاص أو النداء. وقرأ أبو بكر وحمزة الغيوب بكسر الغين حيث وقع.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّدُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَمْرِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَمْرِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَمْرِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَمْرِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبِلْيَنَتَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ بدل من يوم يجمع وهو على طريقة «وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم وتعدد ما أظهر عليهم من الآيات فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة. أو نصب بإضمار اذكر. ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي أو حال منه وقرىء «أيدتك». ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدين، أو النفس حياة أبدية ويظهر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي كائنًا في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاق حاله في الطفولية بحال الكهولة في كمال العقل والتكلم، وبه استدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يكتهل. ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَمْرِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَمْرِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِأَمْرِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَمْرِي﴾ سبق تفسيره في سورة «آل عمران». وقرأ نافع ويعقوب «طائراً» ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله. ﴿إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبِلْيَنَاتِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين. وقرأ حمزة والكسائي إلا «ساحر» بالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِ وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالُوا أَنُتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أمرتهم على السنة رسلي. ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِِي وَرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ منصوب بالذكر، أو ظرف لقالوا فيكون تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي «يستطيع ربك» أي سؤال ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من ماد الماء يمد إذا تحرك، أو من ماد إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليه ونظيرها قولهم شجرة مطعمة. ﴿قَالُوا أَنُتَقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

﴿قَالُوا زُبَيْدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِينَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿قَالُوا تُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَتَطْمَنُّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى. ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامهم الحجة بكمالها. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه. وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرئ «تكن» على جواب الأمر. ﴿لأَوْلَانَا وَآخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذها النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرئ «لأولانا وآخرانا» بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وآيَةً﴾ عطف على ﴿عيداً﴾. ﴿مِنْكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَأَزْرُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾

﴿١١٥﴾

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿منزلها﴾ بالتشديد. ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يعذب به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم أو العالمين مطلقاً فإنهم مسحوا قردة وخنازير، ولم يعذب بمثل ذلك غيرهم. روي: أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الثاني غسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة قال: ليس منهما ولكن اخترعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتهم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى فقال: يا سمكة احبي ياذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنت فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوا بعدها فمسحوا. وقيل كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفياء طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره، ولا مريض إلا بريء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمسح منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفوا وقالوا: لا نريد فلم تنزل. وعن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن بعض الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف، فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا ففعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم، ومن دون الله صفة لإلهين أو صلة اتخذوني، ومعنى دون إما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة، فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبد به أو القصور، فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وكأنه قيل: اتخذوني وأمِّي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضممر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله من ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول ولا أن تكون أن مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكان قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن ﴿اعبدوا الله﴾. ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ والتوفي أخذ الشيء وافيأً، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك. ﴿وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبت فعذل وإن غفرت ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع التردد والتعليق بأن.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع ﴿يَوْم﴾ بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرب والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومن فيهن تغليلاً للعقلاء وقال ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ اتباعاً لهم غير أولي العقل إعلماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».

(٦) سورة الأنعام

مكية غير ست آيات أو ثلاث آيات من قوله:

قل تعالوا وهي مائة وخمسة وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾



﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حمد أو لم يحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون، وجمع السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أنشأهما، والفرق بين خلق وجعل الذي له مفعول واحد أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمن. ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية، وجمع الظلمات لكثرة أسبابها والأجرام الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال، وبالنور الهدى والهدى واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عرض يضاد النور احتج بهذه الآية ولم يعلم أن عدم الملكة كالعمى ليس صرف العدم حتى لا يتعلق به الجعل. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطف على قوله الحمد لله على معنى أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكونهم وتعيشهم، فمن حقه أن يحمد عليها ولا يكفر، أو على قوله خلق على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى ثم: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان، والباء على الأول متعلقة بكفروا وصلة يعدلون محذوفة أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بـ ﴿يعدلون﴾ والمعنى أن الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي يسوونها به سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي ابتداء خلقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم فحذف المضاف. ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت، والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي، وأجل نكرة خصصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخير والاستئناف به لتعظيمه ولذلك نكر ووصف بأنه مسمى أي مثبت معين لا يقبل التغير، وأخبر عنه بأنه عند الله لا مدخل لغيره فيه يعلم ولا قدرة ولأنه المقصود بيانه. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامراتهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومعبيهم إلى آجالهم، فإن من

قدر على خلق المواد وجمعها وإبداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث، والامتراء الشك وأصله المري وهو استخراج اللبن من الضرع.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (٢)

﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى و ﴿اللَّهُ﴾ خبره. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق باسم ﴿اللَّهُ﴾ والمعنى هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر و ﴿اللَّهُ﴾ بدل، ويكفي لصحة الظرفية كون المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجه والصيد فيه أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سرهم وجهركم بيان وتقرير له وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٣) ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤)

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعض، أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ يعني القرآن وهو كاللازم مما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كالدليل عليه على معنى أنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٥)

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أهل زمان، والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة. وقيل ثمانون. وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم. قلت المدة أو كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقررناهم فيها وأعطيناهم من القوى والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة ما لم نعظكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿وَارْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ﴾ أي المطر أو السحاب، أو المظلة فإن مبدأ المطر منها. ﴿مِدْرَارًا﴾ أي مغزراً. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ وأحدثنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ بدلاً منهم، والمعنى أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك من قبلكم كعاد وثمود وينشئ مكانهم يعمر بهم بلاهه يقدر أن يفعل ذلك بكم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فمسوه، وتخصيص للمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقبيده بالأيدي لدفع التجوز فإنه قد يتجوز به للفحص كقوله: ﴿وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ ﴿لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تمتناً وعناداً.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ هلا أنزل معه ملك يكلمنا أنه نبي كقوله: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ جواب لقولهم وبيان هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن الملك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفه عين.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيْسُونَ﴾ جواب ثان إن جعل الهاء للمطلوب، وإن جعل للرسول فهو جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك، وتارة يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة. والمعنى ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه أو الرسول ملكاً لمثلناه رجلاً كما مثل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رأهم كذلك الأفراد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية، وللبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرئ «لبسنا» بلام واحدة و «للبسنا» بالتشديد للمبالغة.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مِن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به حيث أهلكوا لأجله، أو فترز بهم وبال استهزائهم. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ أن السير ثمة لأجل النظر ولا كذلك ها هنا، ولذلك قيل معناه إباحة السير للتجارة وغيرها وإيجاب النظر في آثار الهالكين.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبيكيت. ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإِنْفَاق، بحيث لا يمكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً والمراد بالرحمة ما يعم الدارين ومن ذلك الهداية إلى معرفته، والعلم بتوحيده بنصب الأدلة، وإنزال الكتب والإمهال على الكفر. ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئناف وقسم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم

النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة، فيجازيكم على شرككم. أو في يوم القيامة وإلى بمعنى في. وقيل بدل من الرحمة بدل البعض فإنه من رحمته بعثه إياكم وإنعامه عليكم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم. وهو الفطرة الأصلية والعقل السليم، وموضع الذين نصب على الذم أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين أو على الابتداء والخبر. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمان ﴿وَلَهُ﴾ عطف على الله. ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من السكنى وتعديته بقي كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ والمعنى ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء، ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٤).

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ إنكار لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي. فلذلك قدم وأولى الهمزة والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿فَأَطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما، أنا فطرتهما أي ابتدأتها. وجره على الصفة لله فإنه بمعنى الماضي ولذلك قرئ «فطر» وقرئ بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرئ «ولا يطعم» بفتح الياء وبمعكس الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أشرك بمن هو فاطر السموات والأرض ما هو نازل عن رتبة الحيوانية، وبينائهما لفاعل على أن الثاني من أطعم بمعنى استطعم، أو على معنى أنه يطعم تارة ولا يطعم أخرى كقوله: «يقبض ويبسط». ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابق أمته في الدين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكونن، ويجوز عطفه على قل.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) ﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمَيْنُ﴾ (١٦).

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغة أخرى في قطع أطعامهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يصرف العذاب عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم ﴿يُصْرِفُ﴾ على أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى. وقد قرئ بإظهاره والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَلِكَ الْقُورُ الْمَيْنُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

﴿وَإِنْ يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَصْرٌ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّنِكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١٨).

﴿وَإِنْ يَمَسُّنِكَ اللَّهُ بَصْرٌ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّنِكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كصحة وغنى. ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ﴾.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿الْحَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ نزلت حين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول الله. والشيء يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة «البقرة». ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أي الله أكبر شهادة ثم ابتداء ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، واكتفى بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومن بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحليته المذكورة في التوراة والإنجيل. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بحلامهم. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ كان كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً. وإنما ذكر (أو) وهم وقد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلا منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُ﴾ الضمير للشأن. ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فضلاً عما لا أحد أظلم منه.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقرأ يعقوب «يحشرهم» ويقول بالياء. ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكانهم غيب عنهم.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبته وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، من فتنت الذهب إذا خلصته. وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب، أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿لم تكن﴾ بالفاء و﴿فتنتهم﴾ بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو

عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصب على أن الاسم ﴿أَنْ قَالُوا﴾، والتأنيث للخبر كقولهم من كانت أمك والباقون بالياء والنصب. ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من فرط الحيرة والدهشة، كما يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾. وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥).

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحمله على كذبهم في الدنيا تعسف يخل بالنظم ونظير ذلك قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ وقرأ حمزة والكسائي رَبَّنَا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر ما يقول، فقال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً فقال أبو جهل كلا. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أعطية جمع كنان وهو ما يستر الشيء. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول «البقرة». ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لقرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاؤوك يجادلونك، وحتى هي التي تقع بعدها الجمل لا عمل لها، والجملة إذا وجوابه وهو ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإن جعل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حال لمجيئهم، ويجوز أن تكون الجارة وإذا جاؤوك في موضع الجر ويجادلونك حال ويقول تفسير له، والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو أسطورة أو أسطار جمع سطر، وأصله السطر بمعنى الخط.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦) وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. ﴿وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب. ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك. ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ جوابه محذوف أي: لو تراه حين يوقعون على النار حتى يعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمراً شنيعاً. وقرئ «وقفوا» على البناء للفاعل من وقف عليها وقوفاً. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تمنياً للرجوع إلى الدنيا. ﴿وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استئناف كلام منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتني، أو لم تتركني أو عطف على نرد أو حال من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ راجع إلى ما تضمنه التمني من الوعد، ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أن بعد الواو إجراء لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ الإضراب عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم، أو قبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو ردوا لآمنوا. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وعدوا به من أنفسهم.

﴿وَقَالُوا﴾ عطف على لعادوا، أو على إنهم لكاذبون أو على نهوا، أو استئناف بذكر ما قالوه في الدنيا. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الضمير للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وقفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزة للتقريع على التكذيب، والإشارة إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا﴾ إقرار مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. ﴿قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو ببذله.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعيم واستوجبوا العذاب المقيم ولقاء الله البعث وما يتبعه. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسارتهم لا غاية له. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ونصبها على الحال، أو المصدر فإنها نوع من المجيء. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي تعالي فهذا أوانك. ﴿عَلَى مَا فَرَطْنَا﴾ قصرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا أضمرت وإن لم يجر ذكرها للعلم بها، أو في الساعة يعني في شأنها والإيمان بها. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بشئ شيئاً يزرونه وزرهم.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ﴾ أي وما أعمالها إلا لعب ولهو يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية. وهو جواب لقولهم ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾. ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوامها وخلوص منافعها ولذاتها، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أن ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عامر «ولدار الآخرة». ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي الأمرين خير. وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب بالتاء على خطاب المخاطبين به، أو تغليب الحاضرين على الغائبين.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ بِمَحْذُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ معنى قد زيادة الفعل وكثرته كما في قوله:

وَلَكِنَّهُ قَدْ يَهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ

والهاء في أنه للشأن. وقرأ «لَيَحْزَنُكَ» من أحزن. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ في الحقيقة. وقرأ نافع

والكسائي ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ من أكذبه إذا وجده كاذباً، أو نسبته إلى الكذب. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبونها، فوضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا بجحودهم، أو جحدوا لتمرينهم على الظلم، والباء لتضمين الجحود معنى التكذيب. روي أن أبا جهل كان يقول: ما تكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما تكذب ما جئتنا به. فنزلت.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٤).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ، وفيه دليل على أن قوله: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾، ليس لنفي تكذبيه مطلقاً. ﴿فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم فتأس بهم واصبر. ﴿حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين. ﴿وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لمواعيده من قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٥).

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عظم وشق ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئت به. ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتطلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتنزل منها آية، وفي الأرض صفة لنفقاً وفي السماء صفة لسُلماً، ويجوز أن يكونا متعلقين بتبتي، أو حالين من المستكن وجواب الشرط الثاني محذوف تقديره فافعل، والجملة جواب الأول والمقصود بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ أي ولو شاء الله جمعهم على الهدى لوفهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته، فلا تتهاك عليه والمعتزلة أولوه بأنه لو شاء لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بالحرص على ما لا يكون، والجزع في مواطن الصبر فإن ذلك من دأب الجهلة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٢٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٧).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل لقوله: ﴿أَوِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فيعلمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كتنق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها، وأن إنزالها يستجلب عليهم البلاء، وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير ﴿ينزل﴾ بالتخفيف والمعنى واحد.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَاهُ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرئ «ولا طائر» بالرفع على المحل. ﴿إِلَّا أَمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ محفوظة أحوالها مقدرة أرزاقها وأجالها، والمقصود من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجمع الأمم للحمل على المعنى. ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من الجليل والدقيق لم يهمل فيه أمر حيوان ولا جماد. أو القرآن فإنه قد دون فيه ما يحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً، ومن مزيدة وشيء في موضع المصدر لا المفعول به، فإن فرط لا يتعدى بنفسه وقد عدي بفي إلى الكتاب. وقرئ «ما فرطنا» بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُخْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فينصف بعضها من بعض كما روي: أنه يأخذ للجماء من القرناء. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُورٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُورٌ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يضلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشده إلى الهدى ويحملة عليه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعِزَّ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ استفهام تعجيب، والكاف حرف خطاب أكد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرايتك زيداً ما شأنه فلو جعلت الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعديت الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرايتموكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرايتكم ألهمتكم تنفعكم. إذ تدعونها. وقرأ نافع أرايتكم وأرايت وأرايتم وأفرايت وأفرايت وشبهها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل الهمزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً والباقون يحققونها وحمزة إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى من قبلكم. ﴿أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ﴾ وهو لها ويدل عليه. ﴿أَعِزَّ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ وهو تبيكت لهم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة وجوابه محذوف أي فادعوه.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعون به إلى كشفه. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أي يتفضل عليكم ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتركوا ألهمتكم في ذلك الوقت لما ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي قبلك، ومن زائدة. ﴿فَآخَذْنَاهُمْ﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين

فَأَخَذْنَاهُمْ. ﴿بِالْبِأْسَاءِ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ والضر والآفات وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه نفى تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوهم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ استدراك على المعنى وبيان للمصارف لهم عن التضرع وأنه: لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع النعم مراوحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكرراً بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «مكر بالقوم ورب الكعبة». وقرأ ابن عامر «فتحنا» بالتشديد في جميع القرآن ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في «الأعراف». ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ أعجبوا ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ من النعم ولم يزدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ متحسرون آيسون.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد من دبره دبراً ودبوراً إذا تبعه. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على إهلاكهم فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم. ﴿وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه أو بأحد هذه المذكورات. ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ نكرها تارة من جهة المقدمات العقلية وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ يعرضون عنها، وثم لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمانة تؤذن بحلوله. وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرئ «بغته أو جهرة». ﴿هَلْ يُهْلِكُ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه، وقرئ «يهلك» بفتح الياء.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَسْمُومُ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة. ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهم بهم. ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات الثواب.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماساً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستغنى بتعريفه عن التوصيف. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥١) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥٢).

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائن رزقه. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ما لم يوح إلي ولم ينصب عليه دليل وهو من جملة المقول. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والملكية، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ مثل للضال والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي المستقيم كالنبوة. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهتدوا أو تميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحى إلي. ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المفرطون في العمل، أو المجوزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقراً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينجع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال من يحشروا فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٣).

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بعدما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا أمره بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردت هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان. جلسنا إليك وحادثناك فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين»، قالوا: فأقمهم عنا إذا جئناك قال «نعم». وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو فعلت حتى تنظر إلى ماذا يصيرون فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب فترلت. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتا الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر ﴿بِالْغَدَاةِ﴾ هنا وفي الكهف. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ حال من يدعون، أي يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر. ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي إبعادهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ليس عليك حساب إيمانهم فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، أو ليس عليك اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم. وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم. وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يهكم إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جواب النهي ويجوز عطفه على تطردهم على وجه التسبب وفيه نظر.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. ﴿فَتَنَّا﴾ أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدمنا هؤلاء الضعفاء على أشرف قريش بالسبق إلى الإيمان. ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي أهؤلاء من أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا، ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء. وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. واللام للعاقبة أو للتعليل على أن فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوقفه وبمن لا يقع منه فيخله.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يدعون ربهم وصفهم بالإيمان بالقرآن واتباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم ويشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، وببشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنباً عظيماً فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا فترلت. ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كعمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ أو خبر أي فأمره أو فله غفرانه.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح. ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصيرين منهم والأوابين. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يحق له فصلنا هذا التفصيل، وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولتبين سبيلهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي نفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدعونها آلهة أي تسمونها. ﴿قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهاال لهم، وبيان لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمْتُ اللَّهَ يَفْعَلْ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنِّي لَأَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا يَأْتِيَنِي الْغَيْبُ إِلَّا هُوَ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّأَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بين ما لا يجوز اتباعه. والبيينة الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية أو ما يعمها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبينة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ الضمير لربي أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بَعْدَ الْيَمِّ﴾. ﴿إِنْ أَلْحَمْتُ اللَّهَ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيرها. ﴿يَفْعَلْ﴾ أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿يَقْضُ﴾ من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاعِلِينَ﴾ القاضين.

﴿قُلْ لَوْ أَنِّي لَأَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ أي في قدرتي ومكنتي. ﴿مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ من العذاب. ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلككم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يمهل منهم.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مفتاح بفتح الميم، وهو المخزن أو ما يتوصل به إلى المغيبات مستعار من المفاتيح الذي هو جمع مفتاح بكسر الميم وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرئ «مفاتيح» والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيظهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ عطف للأخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ معطوفات على ورقة وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدل الكل على أن الكتاب المبين علم الله سبحانه وتعالى، أو بدل الاشتمال إن أريد به اللوح وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة أو رفعا على الابتداء والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ينيكم فيه ويراقبكم، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهم من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿فِيهِ﴾ في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن

ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينيحكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ (٦١) ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون، والحكمة فيه أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزرع عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشم منه احتشامه من خدمة المطلعين عليه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه. وقرأ حمزة «توفاه» بالالف مماله. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرئ بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ الذي يتولى أمرهم. ﴿الْحَقِّ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق وقرئ بالنصب على المدح. ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَنَّا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٣) ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٦٤).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ من شدائد هما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار فقبل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب «ينجيكم» بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسررين، أو إعلاناً وإساراراً وقرأ أبو بكر هنا وفي «الأعراف» «وخفية» بالكسر وقرئ «خيفة». ﴿لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون «لئن أنجانا» ليوافق قوله «تدعونه» وهذه إشارة إلى الظلمة.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ شدة الكوفيون وهشام وخففة الباقون. ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ غم سواها. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع تشركون موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن من أشرك في عبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبه رأساً.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ لِسِينًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦٦).

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون، وخسف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفنكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْسَكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿لِسِينًا﴾ فرقا متحزبين على أهواء شتى، فينشب القتال بينكم قال:

وَكَتِيبَةً لَّبَسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ حَتَّىٰ إِذَا التَّبَسَّثْتُ فَنَفَضْتُ لَهَا يَدَيَّ

﴿وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ بالوعد والوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أي بالعذاب أو بالقرآن. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق. ﴿قُلْ لَنْسُتَ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ وكل إلي أمركم فأمنعكم من التكذيب، أو أجازيكم إنما أنا منذر والله الحفيظ.

﴿لِكُلِّ نَبَرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ﴾ خبر يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به. ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار ووقوع. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطمع فيها. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم. ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن. ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي. وقرأ ابن عامر ﴿ينسينك﴾ بالتشديد. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى﴾ بعد أن تذكره. ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمرة دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٦٩).

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم. ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ شيء مما يحاسبون عليه. ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ ولكن عليهم أن يذكروهم ذكراً ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها وهو يحتمل النصب على المصدر والرفع على ولكن عليهم ذكراً، ولا يجوز عطفه على محل من شيء لأن من حسابهم يأباه ولا على شيء لذلك ولأن من لا تزداد في الإثبات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يجتنبون ذلك حياءً أو كراهة لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يشبثون على تقواهم ولا تشلم بمجالستهم. روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزؤوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ أي بنا أمر دينهم على الشهية وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً، عبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه لعباً ولهُوَ أَعْلَمُ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ﴾ أي بالقرآن. ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلاك وترهن بسوء عملها. وأصل الأبسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه، والباسل الشجاع لا تمتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أي حرام. ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ﴾ وإن تفد كل فداء والعدل الفدية لأنها تعادل المقيدي وها هنا الفداء وكل نصب على المصدرية. ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فإنه المقيدي به. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا

كَسَبُوا» أي سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائفة. «لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَلَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا. «وَنُرْزِقُ عَلَى أَعْقَابِنَا» ونرجع إلى الشرك «بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ» فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام. «كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ» كالذي ذهبت به مرده الجن في المهامة، استفعال من هوى يهوي هويًا إذا ذهب. وقرأ حمزة «استهواه» بألف مماله ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل «نرد» أي: مشبهين الذي استهوته، أو على المصدر أي ردًا مثل رد الذي استهوته. «فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ» متحيرًا ضالًّا عن الطريق. «لَهُ أَصْحَابٌ» لهذا المستهوى رفقة. «يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَى» إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، أو إلى الطريق المستقيم وسماء هدى تسمية للمفعول بالمصدر. «إِثْنَانِ» يقولون له اتننا. «قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ» الذي هو الإسلام. «هُوَ الْهُدَى» وحده وما عداه ضلال. «وَأْمُرْنَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» من جملة المقول عطف على أن هدى الله، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم. وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ (٧٦)

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام وإقامة الصلاة، أو على موقعه كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبد الرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيمًا لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. «وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ» يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٧)

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قائماً بالحق والحكمة. «وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ» جملة اسمية قدم فيها الخبر أي قوله الحق يوم يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين، وقوله الحق نافذ في الكائنات. وقيل يوم منصوب بالعطف على السموات أو الهاء في واتفقه، أو بمحذوف دل عليه بالحق. وقوله الحق مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون، والمراد به حين يكون الأشياء ويحدثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشر الأموات وإحياءها. «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» كقوله سبحانه وتعالى: «لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي هو عالم الغيب. «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» كالفلكة للآية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ آبَاءَ اللَّهِ عِزًّا إِنَّكَ وَوَعْدُكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٧٨) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٧٩)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ هو عطف بيان لأبيه، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقليل هما علمان له كإسرائيل ويعقوب، وقيل العلم تارح وآزر وصف معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الأزّر أو الوزر، والأقرب أنه علم أعجمي على فاعل كعابر وشالغ، وقيل اسم صنم يعبد فلقب به للزوم عبادته، أو أطلق عليه بحذف المضاف. وقيل المراد به الصنم ونصبه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال: ﴿اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ تفسيراً وتقريراً. ويدل عليه أنه قرئ «آزراً»، تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرهما وهو اسم صنم. وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق. ﴿مُبِينٍ﴾ ظاهر الضلالة.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ ومثل هذا التبصير نصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرئ: «تري» بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها. وقيل عجائبها وبدائعها والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أي ليستدل وليكون، أو وفعلنا ذلك ليكون.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تفصيل وبيان لذلك. وقيل عطف على قال إبراهيم وكذلك نري اعتراض فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، وجن عليه الليل ستره بظلامه والكواكب كان الزهرة أو المشتري وقوله: ﴿هذا ربي﴾ على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زمان مراهقته أو أول أوان بلوغه. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالاستار يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية.

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ مبتدأ في الطلوع. ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ استعجز نفسه واستعان بربه في درك الحق، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه إرشاداً لقومه وتبليهاً لهم على أن القمر أيضاً تغير حاله لا يصلح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ ذكر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هذا أكبر﴾ كبره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثّة المحتاجة إلى محدث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدتها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأفوال دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالاته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨١﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَحَاجَةُ قَوْمِهِ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَنَحَاجُونِي فِي اللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدْ هَدَانِي﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ كأنه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفساد والقادر والعاجز.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُكُمْ﴾ ولا يتعلق به ضرر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لأنه إشتراك للمصنوع بالصانع، وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصب عليه دليلاً. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أينما أنا أم أنتم احترازاً من تركية نفسه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استفهم عنه، والمراد بالظلم ها هنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا: أينما لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به. وقيل المعصية.

﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلَيْكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فلما جن عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ أو من قوله: ﴿أنحاجوني﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أرشدناه إليها أو علمناه إياها. ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ متعلق بـ ﴿حججتنا﴾ إن جعل خبر تلك وبمحذوف إن جعل بدله أي: آتيناه إبراهيم حجة على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتثنية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلا منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عد هذه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرف الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه. وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختصاص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها والمذكورون في الآية الثالثة عطف على

نوحاً ﴿ذَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿يُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نُجَزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزي المسحنيين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثر أولاده والنبوة فيهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَهَيْسَى﴾ هو ابن مريم وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَالْيَاسَ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمن في الآية الأولى. وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطاً وَكَلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي ﴿واليسع﴾ وعلى القراءتين هو علم أعجمي أدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكاً شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ

﴿وَيُوشَعَ﴾ هو يونس بن متى. ﴿وَلُوطاً﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكَلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عطف على ﴿كلاً﴾ أو ﴿نوحاً﴾ أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ عطف على ﴿فضلنا﴾ أو ﴿هدينا﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هدوا إليه.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم. ﴿لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق. ﴿وَالنَّبُوءَ﴾ والرسالة. ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني قريشاً. ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا﴾ أي بمراعاتها. ﴿قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به أو الفرس. وقيل الملائكة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَهُ قُلْ لَا أَشْتَلِكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْدَهُ﴾ فاختص طريقهم بالافتداء والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التآسي بهم جميعاً. فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله، والهاء في ﴿أقْدَهُ﴾ للوقف ومن أثبتها في الدرج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي وأشبعها بالكسر ابن

عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر وكسرها بغير إشباع برواية هشام. **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾** أي على التبليغ أو القرآن. **﴿أَجْرًا﴾** جعلاً من جهتك كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أمر بالاعتداء بهم فيه. **﴿إِنْ هُوَ﴾** أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. **﴿إِلَّا ذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ﴾** إلا تذكيراً وموعظة لهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ نَزَّلَهُ ذَرِّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. **﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾** حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وذلك من عظام رحمة وجلال نعمته أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم، وإلزامهم بقوله: **﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾** وقراءة الجمهور **﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾** بالتاء وإنما قرأ بالياء ابن كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدروا، وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداء بعض انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاء بعض لا يشتهونه. وروي (أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسول ﷺ بقوله: أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين قال: نعم إن الله يبغض الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: فأنت الحبر السمين) وقيل هم المشركون وإلزامهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم ولذلك كانوا يقولون **﴿لَوْ أَنَا أَنزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾** **﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾** على لسان محمد ﷺ. **﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾** زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ونظيره **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾**. وقيل الخطاب لمن آمن من قريش **﴿قُلْ اللَّهُ﴾** أي أنزله الله، أو الله أنزله. أمره بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره، وتنبهاً على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب. **﴿ثُمَّ ذَرَّهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾** في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. **﴿يَلْعَبُونَ﴾** حال من هم الأول، والظرف صلة ذرهم أو يلعبون أو حال من مفعوله، أو فاعل يلعبون أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. **﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** يعني التوراة أو الكتب التي قبله. **﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾** عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولتنذر أو علة لمحذوف أي ولتنذر أهل أُم القرى أنزلناه، وإنما سميت مكة بذلك لأنها قبله أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأنًا. وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء أي **﴿ولينذر﴾** الكتاب. **﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾** أهل الشرق والغرب. **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾** فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب، والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ﴾

اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرغم أنه بعثه نبياً كمسيلمة والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحي ومتابعيه. ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبد الله بن سعد بن أبي سرح (كان يكتب لرسول الله ﷺ فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ فلما بلغ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال عبد الله (فتبارك الله أحسن الخالقين) تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: اكتسبها فكذلك نزلت، فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه ولن كان كاذباً لقد قلت كما قال). ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كالذين قالوا لو نشاء لقلنا مثل هذا. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ حذف مفعوله للدلالة الظرف عليه أي ولو ترى الظالمين. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شدائده من غمره الماء إذا غشيه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ يقبض أرواحهم كالمقتاضي الملظ أو بالعذاب. ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أي يقولون لهم أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا. ﴿الْيَوْمَ﴾ يريدون وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهون لعراقته وتمكنه فيه. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له ودعوى النبوة والوحي كاذباً. ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء. ﴿فُرَادَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا، أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاءكم، وهو جمع فرد والألف للتأنيث ككسالى. وقرئ «فرد» كرخال و«فرد» كثلاث و«فردى» كسكرى. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدل منه أي على الهيئة التي ولدتكم عليها في الانفراد، أو حال ثانية إن جوز التعدد فيها، أو حال من الضمير في «فردى» أي مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما، أو صفة مصدر «جئتمونا» أي مجئنا كما خلقناكم. ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة. ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي شركاء الله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم. ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلكم ونشئت جمعكم، والبين من الأضداد يستعمل للوصل والفصل. وقيل هو الظرف أسند إليه الفعل اتساعاً والمعنى: وقع التقطع بينكم، ويشهد له قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على إضمار الفاعل لدلالة ما قبله عليه، أو أقيم مقام موصوفه وأصله لقد تقطع ما بينكم وقد قرئ به. ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ ضاع وبطل. ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاءكم أو أن لا بعث ولا جزاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. وقيل المراد به الشقاق الذي في الحنطة والنواة. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله. ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات، ذكره بلفظ الاسم حملاً على فالق الحب فإن

قوله: يخرج الحي واقع موقع البيان له. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة. ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ تصرفون عنه إلى غيره.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٩٦﴾.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار، أو شاق ظلمة الإصباح وهو الغبش الذي يليه والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح. وقرئ بفتح الهمزة على الجمع وقرئ «فالق الإصباح» بالنصب على المدح. ﴿وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به، أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ ونصبه بفعل دل عليه جاعل لا به، فإن في معنى الماضي. ويدل عليه قراءة الكوفيين ﴿وجعل الليل﴾ حملاً على معنى المعطوف عليه، فإن فالق بمعنى فلق ولذلك قرئ به، أو به على أن المراد منه جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءتهما بالجور والأحسن نصبهما بجعل مقدراً. وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب بهما الأوقات ويكونان علمي الحسبان، وهو مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب. وقيل جمع حساب كشهاب وشهبان. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أي ذلك التيسير بالحساب المعلوم. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿الْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٩٧﴾
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ٩٨﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر، وإضافتها إليهما للملازمة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو أفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله لكم. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ بينها فصلاً فصلاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفهمون به.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب، أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام، أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل، والمستودع اسم مفعول أي فمكنكم قار ومنكم مستودع، لأن الاستقرار منا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأن أمرها ظاهر، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٩٩﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات والمعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفضنة بماء واحد كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْاَكْثَلِ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر يقال أخضر كأعور وعور، وهو الخارج من الحبة المشعب. ﴿نُخْرَجُ مِنْهُ﴾ من الخضر. ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلوعها قنوان، أو من النخل شيء من طلوعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبر قنوان ومن طلوعها بدل منه والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأعذاق جمع قنو كصنوان جمع صنو. وقرئ بضم القاف كذئب وذؤبان ويفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس فعلاً من أبنية الجمع. ﴿ذَانِيَّةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو ملتفة قريب بعضها من بعض، وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالاتها عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنان أو من الكرم جنان، ولا يجوز عطفه على ﴿قِنْوَانٍ﴾ إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَالزُّيْنُونُ وَالرُّمَّانُ﴾ أيضاً عطف على نبات أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ حال من الرمان، أو من الجميع أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، وهو جمع ثمرة كخشبة وخشب، أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يثمر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به. ﴿وَيَنْبَغِي﴾ وإلى حال نضجه أو إلى نضيجة كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر ينبعث الثمر إذا أدركت. وقيل جمع يانع كتاجر وتجر. وقرئ بالضم وهو لغة فيه ويانعة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المفتنة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجع ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾



﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ﴾ أي الملائكة بأن عبدوهم وقالوا: الملائكة بنات الله. وسماهم جنًا لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطين لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع، والشيطان خالق الشر وكل ضار كما هو رأي الثنوية. ومفعولاً ﴿جعلوا﴾ الله شركاء والجن بدل من ﴿شركاء﴾ أو ﴿شركاء﴾ الجن و ﴿الله﴾ متعلق بـ ﴿شركاء﴾، أو حال منه وقرئ ﴿الجن﴾ بالرفع كأنه قيل: من هم فليل الجن، و ﴿الجن﴾ بالجر على الإضافة للتبيين. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرئ ﴿وخلقهم﴾ عطفاً على ﴿الجن﴾ أي وما يخلقونه من الأصنام، أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير. وقرئ «وخرقوا» أي وزوروا. ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقالت العرب الملائكة بنات الله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو، أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾



﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظر فيهما، وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفع على الخير والمبتدأ محذوف أو على الابتداء وخبره. ﴿أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ يكون منها الولد. وقرئ بالياء للفصل أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول، وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: (الأول) أنه من مبدعات السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. (والثاني) أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزّه عن المجانسة. (والثالث) أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤ له لوجهين: الأول أن كل ما عده مخلوقه فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
 ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١١٢).

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حكم مسبب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم ورقب على أعمالكم فيجازيكم عليها. ﴿لَا تَدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿الْأَبْصَارُ﴾ جمع بصر وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعلمه مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص، فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكفيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾
 وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١٣).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدلالة لأنها تجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أبصر لأن نفسه لها. ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وباله. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ ومثل ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف، وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرفنا واللام لام العاقبة، والدرس القراءة والتعليم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دارست﴾ أي دارست أهل الكتاب وذاكرتهم وابن عامر ويعقوب درست من الدروس أي قدمت هذه الآيات وعفت كقولهم أساطير الأولين. وقرئ ﴿دَرَسْتَ﴾ بضم الراء مبالغة في درست ودرست على البناء للمفعول بمعنى قرئت، أو عفيت ودارست بمعنى درست أو دارست اليهود محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسن أي عفون ودرس

أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمت أو ذوات درس كقوله تعالى: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. ﴿وَلْيُبَيِّنَنَّ﴾ اللام على أصله لأن التبيين مقصود التصريف والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً أو للمصدر. ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفهمون به.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١٠٧﴾.

﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة من ربك بمعنى مفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب ﴿عَدَوًّا﴾ يقال عدا فلان عدواً وعدواً وعداء وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك، فنزلت. وقيل كان المسلمون يسبوننا فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتحذيراً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكل أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبّه به تزيين سب الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ وَتَقَلِّبُ الْقُرْآنَ فِي أَيْدِيهِمْ وَأَنْصَرُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١١٠﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القسم والتأكيد فيه التحكم على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقار ما رأوا منها. ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يديركم استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَا﴾ أي أن الآية المقترحة. ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل لا مزيدة وقيل أن بمعنى لعل إذ قرئ لعلها قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبركم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون»

بالتاء وقرئ «وما يشعروهم أنها إذا جاءتهم» فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعروهم أن قلوبهم حينئذ لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

﴿وَتَقْلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقبل أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه، وأبصارهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَلَدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وتدعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرئ. «وَيَقْلِبُ» و «يذرهم» على الغيبة، و «تقلب» على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفئدة.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا أنزل علينا الملائكة فاتوا بآياتنا ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قُبَلًا﴾ وقبلاً جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بشروا به وأنذروا به، أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقبلا وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجوه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِتَرْصُوهُ وَلِتَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سببك عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ مرادة الفريقين، وهو بدل من عدواً، أو أول مفعولي ﴿جعلنا﴾ و ﴿عدواً﴾ مفعوله الثاني، ولكل متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعض الجن إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه من زخرفه إذا زين. ﴿غَرُورًا﴾ مفعول له أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم. ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاء الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للأيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ عطف على ﴿غَرُورًا﴾ إن جعل علة، أو متعلق بمحذوف أي وليكون ذلك ﴿جعلنا لكل نبي عدواً﴾. والمعتزلة لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة أو لام القسم كسرت لما لم يؤكد الفعل بالنون أو لام الأمر وضعفه أظهر، والصغى: الميل والضمير لما له الضمير في فعلوه. ﴿وَلِتَقْتَرِفُوا﴾ لأنفسهم. ﴿وَلِتَقْتَرِفُوا﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكَلِّمُونَ

أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، و «غير» مفعول «أبتغي» و «حكما» حال منه ويحتمل عكسه، و «حكما» أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن المعجز. ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مغن عن سائر الآيات. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل. وقيل المراد مؤمنون أهل الكتاب. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿منزل﴾ بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهيج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١١٥﴾ .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده. ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأنصية والأحكام ونصبهما يحتمل التمييز والحال والمفعول له. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله: ﴿وَأَنَا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب «كلمة ربك» أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

﴿وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ .

﴿وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال أو أتباع الهوى. وقيل الأرض أرض مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالى فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وصلة إليه، وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يقدر أنهم على شيء وحقيقته ما يقال عن ظن وتخمين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفريقين، و «من» موصولة أو موصوفة في محل النصب بفعل دل عليه أعلم لا به فإن أفعل لا ينصب الظاهر في مثل ذلك، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبر «يضل» والجملة معلق عنها الفعل المقدر. وقرئ «مَنْ يَضِلُّ» أي يضلله الله، فتكون من منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي: أعلم المضلين من قوله تعالى: ﴿مَنْ يَضِلُّ اللَّهُ﴾

أو من أضلته إذا وجدته ضالاً، والتفضيل في العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩).

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتف أنفه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استحابة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تتخرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿فصل﴾ على البناء للمفعول، ونافع ويعقوب وحفص ﴿حرم﴾ على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال. قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح. ﴿بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشبيههم من غير تعلق بدليل يفيد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (١٢١).

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ما يعلن وما يسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ يكتسبون.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر في تحريم متروك التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» وقرأ أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه ولا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حسن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢٢).

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مثل به من هداه الله سبحانه وتعالى وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب ﴿مِثْلًا﴾ على الأصل. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ صفته وهو مبتدأ خبره. ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ حال من المستكن في الظرف لا من الهاء في مثله للفصل، وهو مثل لمن بقي على الضلالة لا

يفارقها بحال. ﴿كَذَلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿رُئِيَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُّجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَكْتُمُونَ إِلَّا أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُّجْرِمِيهَا لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، و ﴿جعلنا﴾ بمعنى صيرنا ومفعولاه ﴿أكابر مجرميها﴾ على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية ﴿أكابر﴾ و ﴿مجرميها﴾ بدل ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فسر الجعل بالتمكين، وأفعل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الأفراد والمطابقة ولذلك قرئ «أكبر مجرميها»، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَكْتُمُونَ إِلَّا أَنْفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِیُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (١٢٤).

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يعني كفار قريش لما روي: أن أبا جهل قال زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يُوحى إليه، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، فنزلت: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتِهِ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنسب والمال وإنما هي بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿رِسَالَتِهِ﴾ سِیُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ ذل وحقارة بعد كبرهم. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يوم القيامة وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب مكربهم أو جزاء على مكربهم.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥).

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فيفتح له ويفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيةً لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمانة يعرف بها فقال: نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله. ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ﴿ضيقًا﴾ بالتخفيف ونافع وأبو بكر عن عاصم ﴿حرجًا﴾ بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شبهه بمبالغة في ضيق صدره بمن يزاو ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه، وأصل يصعد يتصعد وقد قرئ به وقرأ ابن كثير ﴿يصعد﴾ وأبو بكر عن عاصم ﴿يصاعد﴾ بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمير للتعليل.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦) ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ

وَلِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ .

﴿وَهَذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام أو إلى ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطرداً وهو حال مؤكدة كقوله ﴿وهو الحق مصداقاً﴾، أو مقيدة والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره أو دار تحيتهم فيها سلام. ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ مواليتهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نصب باضمار اذكر أو نقول، والضمير لمن يحشر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب ﴿يحشرهم﴾ بالياء. ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كقولهم استكثر الأمير من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجن بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاز وعند المخاوف، واستمتعاهم بالإنس اعترافهم بأنهم يقدرون على إجارتهم. ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ منزلكم أو ذات مثواكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال والعامل فيها مثواكم إن جعل مصدرأ، ومعنى الإضافة إن جعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير وقيل ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ نكل بعضهم إلى بعض، أو نجعل بعضهم يتولى بعضاً فيغويهم أو أولياء بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيره ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾ والمرجان يخرج من الملح دون العذب وتعلق بظاهرة قوم وقالوا بعث إلى كل من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُوا﴾ جواباً. ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب.

﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذير للسامعين من مثل حالهم.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك. ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ تعليل للحكم وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة أي: الأمر ذلك لاتقاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه، أو ملتبسين يظلم أو ظالماً وهم غافلون لم ينبهوا برسول أو بدل من ذلك.

﴿وَلِكُلِّ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ مراتب ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ من أعمالهم أو من جزائنها، أو من أجلها ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالناء على تغليب الخطاب على الغيبة.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ لَأَتِيٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيس لما بعده وهو قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ من الخلق. ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنه أبقاكم ترحماً عليكم. ﴿إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَأَتِيٌّ﴾ لكائن لا محالة. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ طالبكم به.

﴿قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَصْلَحُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اصْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمكان ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾ بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجعماً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به، إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ إن جعل ﴿مَنْ﴾ استفهامية بمعنى أينا تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار، فمحلها الرفع وفعل العلم معلق عنه وإن جعلت خبرية فالنصب بـ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب، وتنبيه على وثوق المنذر بأنه محق. وقرأ حمزة والكسائي ﴿يَكُونُ﴾ بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا

إِشْرَاقًا فَمَا كَانَ إِشْرَاقًا لَهُمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكَ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ .

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ روي: أنهم كانوا يعينون شيئاً؟ من حرث ونتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أذكى بدلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أذكى تركوه لها حباً لآلهتهم.. وفي قوله ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يقدر على شيء، ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله ﴿بِرْغَمِهِمْ﴾ تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم في الموضعين وهو لغة فيه وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالود والود. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك التزيين في قسمة القربان. ﴿زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ﴾ بالوأة ونحرمهم لآلهتهم. ﴿شُرَكَائُهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل ﴿زَيْنٍ﴾. وقرأ ابن عامر ﴿زَيْنٍ﴾ على البناء للمفعول الذي هو القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء بإضافة القتل إليه مفصلاً بينهما بمفعوله وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر كقوله:

فَرَجَجْتُهَا بِمَرْجَةٍ رَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مُرَّادَهُ

وقرىء بالبناء للمفعول وجر أولادهم ورفع شركائهم بإضمار فعل دل عليه ﴿زَيْنٍ﴾. ﴿لِيُزْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين والعاقبة إن كان من السدنة. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيين أو الفريقان جميع ذلك. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرْغَمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سُبْحَنَهُمَا بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ .

﴿وَقَالُوا هَذِهِ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهتهم. ﴿أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا﴾ حرام فعل بمعنى مفعول، كالذبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء «حجر» بالضم و«حرج» أي مضيق. ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ يعنون خدام الأوثان والرجال دون النساء. ﴿بِرْغَمِهِمْ﴾ من غير حجة. ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني البحائر والسوائب والحوامي. ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يحجون على ظهورها. ﴿افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوا تقول على الله سبحانه وتعالى، والجار متعلق بـ ﴿قَالُوا﴾ أو بمحذوف هو صفة له أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿سُبْحَنَهُمَا بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بسببه أو بدله.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَمُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ أَزْوَاجُهَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً

فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنون أجنة البحائر والسواحب. ﴿خَالِصَةً لِّلذَّكُورِ نَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الْأَوَانِ﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن ولد حيًا لقوله: ﴿وَأِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء وتأنيث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر ابن عامر في تكن بالناء، وخالفه هو وابن كثير في «ميتة» فنصب كغيرهم، أو الناء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرئ بالنصب على أنه مصدر مؤكد والخبر «لِلذَّكُورِ نَا»، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في لذكورنا ولا من الذكور لأنها لا تتقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرئ «خالص» بالرفع والنصب و«خالصة» بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد به ما كان حيًا، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. «سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ» أي جزاء وصفهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: «وتصف ألسنتهم الكذب» «إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر «قتلوا» بالتشديد بمعنى التكثير. «سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. «وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ» من البحائر ونحوها. «افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ» يحتمل الوجوه المذكورة في مثله. «قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» إلى الحق والصواب.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُمْتَلِكًا وَغَيْرَ مُمْتَلِكٍ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآمَنُوا بِحَقِّهِ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من الكروم. «مَعْرُوشَاتٍ» مرفوعات على ما يحملها. «وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ» ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال. «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ» ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه، أو للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. «وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُمْتَلِكًا وَغَيْرَ مُمْتَلِكٍ» يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضهما. «كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» من ثمر كل واحد من ذلك. «إِذَا أَثْمَرَ» وإن لم يدرك ولم ينع بعد. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. «وَأَمَنُوا بِحَقِّهِ يَوْمَ حَصَادِهِ» يريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد لأنها فرضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية. وقرأ ابن كثير ونافع وحزمة والكسائي «حصاده» بكسر الحاء وهو لغة فيه. «وَلَا تُسْرِفُوا» في التصديق كقوله تعالى: «وَلَا تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ» «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» لا يرتضي فعلهم.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤١﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ تَبْغُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُّوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرة العداوة.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ بدل من حمولة وفرشاً، أو مفعول كلوا، ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعل دل عليه أو حال من ما بمعنى مختلفة أو متعددة والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه وقد يقال لمجموعهما والمراد الأول. ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة، وهو بدل من ثمانية وقرئ «اثنان» على الابتداء. و «الضأن» اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين أو جمع ضائن كتاجر وتجر. وقرئ بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح وهو جمع ماعز كصاحب وصاحب وحارس وحرس، وقرئ «المعزى». ﴿قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ﴾ ذكر الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَمٌ أَمِ الْأُنثَيْنِ﴾ أم أنثيهما ونصب الذكرين والأنثيين بحرم ﴿أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿تَبْغُونِي بِعِلْمٍ﴾ بأمر معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ لِلَّذِكْرَيْنِ حَرَمٌ أَمْ الْأُنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ كما سبق والمعنى إنكار أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى وأولادها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين. ﴿إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسمع. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم، والمراد كباروهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قعدة المؤسس لذلك. ﴿لِيُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَنْ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحى إليّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ أن يكون الطعام ميتة، وقرأ ابن كثير وحمزة تكون بالثاء لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء، ورفع «ميتة» على أن كان هي

التامة وقوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ عطف على أن مع ما في حيزه أي: إلا وجود ميتة أو دماً مسفوحاً، أي مصبوحاً كالدم في العروق لا كالكدب والطحال. ﴿أَوْ لَحْمٍ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قدر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوْ فَسَقًا﴾ عطف على لحم خنزير. وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ صفة له موصحة وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أهل وهو عطف على يكون والمستكن فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكن في يكون. ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ فمن دعت الضرورة. إلى تناول شيء من ذلك ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ على مضطر مثله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذ، والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحى إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ كل ماله أصبع كالإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الشروب وشحوم الكلى والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء جمع حاوية، أو حاويات كقصاصاء وقواصع، أو حاوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما وأو بمعنى الواو. ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص. ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم أو الجزاء. ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في الإخبار أو الوعد والوعيد.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بامهاله فإنه لا يهمل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين، فأقام مقامه ولا يرد بأسه لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لا زب بهم لا يمكن رده عنهم.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار عن مستقبل ووقوع مخبره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئة ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لما فعلنا نحن ولا آبائنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذب الذين من قبلهم الرسل، وعطف آبائنا على الضمير في أشركنا من غير تأكيد للفصل بلا. ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به. على ما زعمتم. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾

فتظهره لنا. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيث يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المثانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه وهي من الحج بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

﴿قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز، وفعل يؤنث ويجمع عند بني تميم وأصله عند البصريين: ها لم من لم إذا قصد حذف ألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هل أم فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن هل لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلم إلينا. ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ يعني قدوتهم فيه استحضرهم ليلزمهم الحجة ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم، ولذلك قيد الشهاد بالإنفاذ ووصفهم بما يقتضي العهد بهم. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبين لهم فساده فإن تسلميه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ من وضع المظهر موضع المضمير للدلالة على أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصداقاً بها. ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كعبدة الأوثان. ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥١﴾.

﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ أمر من التعالي وأصله أن يقوله من كان في علو لمن كان في سفلى فأتسع فيه بالتعميم. ﴿أَتْلُ﴾ اقرأ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ منصوب بأتل وما تحتل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرم والجملة مفعول ﴿أتل﴾ لأنه بمعنى أقل، فكأنه قيل أتل أي شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾ أو ﴿أتل﴾. ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليق الفعل المفسر بـ ﴿مَا حَرَّمَ﴾، فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أصدادها ومن جعل أن ناصية فمحلها النصب بعلينكم على أنه للإغراء، أو البديل من ﴿مَا﴾ أو من عائد المحذوف على أن لا زائدة والجر بتقدير اللام، أو الرفع على تقدير المثل أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْئًا﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية. كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ منع لموجبة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاج عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ﴾ بدل منه وهو مثل قوله ﴿ظَاهِرُ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالقود وقتل المرتد ورجم المحسن. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى

ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَاكُم بِهِ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا رُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفعللة التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميته. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شدة كنعمة وأنعم أو شد كصر وأصر وقيل مفرد كأنك. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا رُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عسر عليكم فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ في حكومة ونحوها. ﴿فَاعْدِلُوا﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعظون به، وقرأ حمزة وحفص والكسائي ﴿تذكرون﴾ بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالهاء والباقون بتشديدها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿إِنَّ﴾ بالكسر على الاستثناف، وابن عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف. وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله. ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿صِرَاطِي﴾ بفتح الياء، وقرئ «وهذا صراطي» «وهذا صراط ربكم» «وهذا صراط ربك». ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع. ﴿وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ عطف على ﴿وصاكم﴾، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلکم وصاکم به قديماً وحديثاً ثم أعظم من ذلك ﴿أَنَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده إن قرئ «على الذين أحسنوا» أو «على الذي أحسن تبليغه» وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو «تماماً على ما أحسنه» أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي «على الذي هو أحسن» أو على الوجه الذي هو أحسن ما يكون عليه الكتب. ﴿وَنَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلقائه للجزاء.

﴿وَهَٰذَا كِتَابُنَا أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ

طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ كراهة أن تقولوا علة لأنزلناه. ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في ﴿إِنَّمَا﴾ لأن الباقي المشهور حيثذ من الكتب السماوية لم يكن غير كتبهم. ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ إن هي المخففة من الثقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان أي وإنه كنا. ﴿عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم، ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ .

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا فنونا من العلم كالقصص والأشعار والخطب على أنا أميون. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد. ﴿عَنْهَا﴾ فصل أو أضل. ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ شدته. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانًا لَوْ تَكَنَّ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني أهل مكة، وهم ما كانوا منتظرين لذلك ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء هنا وفي «النحل». ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي أمره بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشراف الساعة وعن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: (كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وناراً تخرج من عدن). ﴿يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرأ «تنفع» بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ عطف على «آمنت» والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل الترديد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً خلت عنها إيمانها، والعطف على لم تكن بمعنى لا ينفع نفساً إيمانها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً. ﴿قُلْ إِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وعيد لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة فإننا منتظرون له وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة». وقرأ حمزة والكسائي «فارقوا» أي باينوا. «وكانوا شيعاً» فرقاً تشيع كل فرقة إماماً. «لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهي عن التعرض لهم وهو منسوخ بآية السيف. «إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ» يتولى جزاءهم. «ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» بالعقاب.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب «عشرة» بالتنوين وأمثالها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمئة وبغير حساب ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا» قضية للعدل. «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» بنقص الثواب وزيادة العقاب.

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نصب من الحجج. «وَدِينًا» بدل من محل إلى صراط إذ المعنى، هداني صراطاً كقوله: «ويهديكم صراطاً مستقيماً» أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ. «قِيَمًا» فيعمل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «قيماً» على أنه مصدر نعت به وكان قياسه قوماً كعوض فاعل لإعلال فعله كالقيام. «مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» عطف بيان لدينا. «حَنِيفًا» حال من إبراهيم. «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» عطف عليه.

﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ .

﴿قُلْ إِن صَلَائِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني أو حجي. «وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي» وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع «محياي» بإسكان الياء إجراء للوصول مجرى الوقف. «لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» «لَا شَرِيكَ لَهُ» خالصة له لا أشرك فيها غيراً. «وَبِذَلِكَ» القول أو الإخلاص. «أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فأشركه في عبادتي وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. «وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» حال في موضع العلة للإنكار والدليل له أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» فلا ينعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» جواب عن قولهم: «اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم». «ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ» يوم القيامة. «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا

كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبطل .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلِيفَةَ فِي الْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الشرف والغنى. ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من الجاه والمال. ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب أو لأنه يسرع إذا أراحه. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وصف العقاب ولم يصفه إلى نفسه، ووصف ذاته بالمغفرة وضم إليه الوصف بالرحمة، وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعرض كثير الرحمة مبالغ فيها كثير العقوبة مسامح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة».

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع الجزء

الثاني من تفسير البيضاوي في مطابع دار إحياء

التراث العربي بيروت الزاهرة، أدامها الله لطبع

المزيد من الكتب النافعة، ويليها الجزء الثالث

وأوله سورة الأعراف، وآخر دعوانا أن الحمد لله

رب العالمين

محتوى الجزء الثاني من تفسير البيضاوي

- ٥ سورة آل عمران
- ٦ بيان إثبات علمه تعالى بالجُزئيات على وجه جزئي حتى على مذهب الفلاسفة
- ٦ بيان معنى المُحَكَّم والمُشَابَه
- ٦ بيان الرَّد على تشبُّث النَّصارى بِأَنْتِقَالِ اقْنوم العلم إلى المسيح
- ٧ بيان صدق وعد الله بنبيه بقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَلِبُونَ﴾ بما حَصَلَ بِبَدْرِ وَخَيْرٍ
- ٨ بيان معنى كون رضوان الله أكبر وما هو المراد بالرضوان
- ٩ بيان معنى شهادة الله بأنه لا إله إلا هو
- ٩ بيان الفَرْق بين التوحيد والإيمان والإسلام
- ١١ بيان أن أَوَّلَ رَايَةٍ تُرْفَعُ يوم القيامة راية اليهود ثم يفضحون
- ١٢ بيان ما ظهر للنبي ﷺ يوم الخندق من الآيات
- ١٣ بيان نَسَبِ موسى ومريم عليهما السلام
- ١٤ بيان معنى مَسِّ الشيطان للمولود حين وَضَعِهِ
- ١٦ بيان تكليم الملائكة لمريم وأنه لم تنبأ امرأة
- ١٧ بيان المسيح وأصل معناه
- ١٨ بيان معنى النسخ وأنَّ شريعة المسيح فيها نَسَخٌ لما في التوراة
- ١٩ بيان معنى قوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿إِنِّي مَتَوَفِّيكَ﴾ وما ذهبت إليه النصارى في ذلك
- ٢٠ بيان المجادلة التي حصلت بين النبي وأساقف نجران ومعنى المباهلة
- ٢١ بيان تنازع اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام
- ٢٢ بيان كون إبراهيم عليه السلام للمسلمين اختصاص بأتباعه
- ٢٣ بيان أن اليهود كانت تزعم أن أموال المسلمين كانت مُباحةً لهم في كتابهم
- ٢٦ بيان أن الإسلام هو دين الفطرة وأنَّ الطالِبَ لغيره واقع في الخُسران
- ٢٩ بيان أن أَوَّلَ تَيَبٍ وُضِعَ للناس المسجد الحرام ومن بناه
- ٣١ بيان أن الأمر بالمعروف فرض كفاية وذكر شروطه
- ٣٣ بيان كون هذه الأمة خَيْرُ الأُمَمِ والاستدلال على كون الإجماع حجة
- ٣٦ بيان ما حصل قبل غزوة أُحُدٍ مِنِ اسْتِشْارَةِ النَّبِيِّ لِأَصْحَابِهِ
- ٤١ بيان ما حصل للنبي ﷺ في غزوة أُحُدٍ من جرحه وكسر رباعيته وغير ذلك
- ٤٣ بيان ما حصل للمسلمين مِنَ النَّصْرِ بِأُحُدٍ وأسباب انهزامهم بعد ذلك
- ٤٥ بيان الأمر بالمُشاورة

- ٤٨ بيان أن الإنسان غير الهيكل المحسوس وأنه جوهر مدرك بذاته
- ٤٩ بيان أن الإيمان يَزِيدُ وَيَنْقُصُ
- ٥١ بيان أن الأنبياء لا يطلعون على الغيب إلا بإعلام الله لهم
- ٥٢ بيان أن المعجزات جميعها تُوجب الإيمان وأن اليهود كذبوا في دعواهم التخصيص
- ٥٤ بيان أن الاستدلال على وجود الباري طريقة تغير العالم
- ٥٨ تفسير سورة النساء
- ٥٨ بيان ما قيل في القراءات السبع من أن كُلَّ حَرْفٍ منها منقول بالتواتر أم لا؟
- ٥٩ بيان ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَانكحُوا ما طاب لكم﴾ الآية وتحقيق ذلك من جهة العربية
- ٦٠ بيان أن الشخص لا ينبغي له أن يعطي ما في يديه من المال لأهله بقعد ناظراً لما أعطاهم
- ٦١ بيان أن الإنسان الوصي يلزمه أن يحب لمن تحت رعايته ما يُحِبُّه لِنَبِيِّهِ
- ٦٣ بيان معنى الكلالة
- ٦٥ بيان أن التوبة تُقْبَلُ قبل الموت
- ٦٧ بيان محرمات النكاح وأن الربيبة لا تحرم إلا بالدخول بأمرها
- ٦٩ بيان عدم جواز نكاح الأمة إلا بشروط وبيانها
- ٧٠ بيان أن ثمان آيات في النساء هُنَّ خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس
- ٧١ بيان الكبائر والاختلاف فيها
- ٧٢ بيان الميراث بالمخالفة ونسخه
- ٧٣ بيان الحكم الذي يكون من أهل الرجل والمرأة في الشقاق ووظيفته
- ٧٤ بيان أن الإسراف مذموم كالْبُخْلِ
- ٧٤ بيان أن الإنسان إن دُعِيَ لأمرٍ لا ضرر فيه ينبغي له الإجابة
- ٧٨ بيان الاحتجاج على المعتزلة والخوارج في منعهم جواز غفران الذنوب
- ٧٩ بيان أن البُخْلَ والحَسَدَ شُرُّ الرذائل وأن بينهما تلازماً وتجاذباً
- ٨٠ بيان أن الناس مأمورون بطاعة الأمراء إذا حكموا بالعدل
- ٨٢ بيان أن المرضي عليهم من الناس أربعة، وبيان ما تميز به كل فريق
- ٨٦ بيان أن كل ما أصاب من بَلِيَّةٍ فمن ذَنْبٍ
- ٨٦ بيان معنى سلامة القرآن من الاختلاف
- ٨٨ بيان المواضع التي لا يستحسن فيها السلام
- ٩٠ بيان الْقَتْلِ الْخَطَأَ ودينه
- ٩١ بيان الدليل على صحة إيمان الْمُكْرَهَةِ وَأَنَّ الْمُجْتَهِدَ يُخْطِئُ وَأَنَّ خَطَأَهُ مَغْفَرٌ
- ٩٣ بيان قصر الصلاة ولو في سفر فيه أمن
- ٩٣ بيان صلاة الخوف
- ٩٦ بيان حكم مَنْ فَعَلَ الْعِبَادَةَ لِعَرَضٍ شرعي وديني

٩٩	بيان الخلة وكيف اتخذ الله إبراهيم خليلاً
١٠٠	بيان ما كانت العرب تفعله مع النساء وصغار الولدان من أكل حقوقهن
١٠٢	بيان ما يجب على الشاهد من إقامة الحق
١٠٥	بيان السبب في تغليظ عذاب المنافق وبيان التفاق الموجب للكفر
١٠٧	بيان ما فعلته اليهود مع المسيح وكيف رفعه الله
١٠٧	بيان نزول المسيح آخر الدنيا وإيمان كل العالم به
١٠٩	بيان أن بعثة الأنبياء من ضروريات مصالح الخلق
١١٠	بيان أن النظريات ضروريات للملائكة
١١٣	تفسير سورة المائدة
١١٤	بيان ما كانت تفعله الجاهلية من الاستقسام بالأزلام
١١٥	بيان الطيبات التي أجل أكلها
١١٦	بيان أن المائدة من آخر القرآن نزولاً وأنه لا نسخ فيها
١١٨	بيان أن العدل ولو مع الكفار مقتضى التقوى وأن الجور مقتضى الهوى
١٢٠	بيان ما ذهب إليه بعض فِرَق النَّصَارَى من قولهم المسيح هو الله
١٢١	بيان المدة والأنبياء بين موسى وعيسى وبين عيسى ومحمد عليهم السلام
١٢٢	بيان أن موسى عليه السلام مات بالتيه أو بعده
١٢٥	في بيان حدود قُطَاع الطريق من المسلمين
١٢٧	في بيان تحريف اليهود
١٢٨	في بيان كفر من لم يحكم بما أنزل الله
١٣٠	في بيان النهي عن موالاة الكفار
١٣١	بيان الفِرَق التي ارتدت من العرب في أواخر حياة رسول الله
١٣٥	بيان أن من الأسرار الإلهية ما يحرم إفشاؤه
١٥٠	بيان المائدة التي نزلت من السماء وكلام بعض الصوفية فيها
١٥٣	تفسير سورة الأنعام
١٦٣	بيان من طلبت قريش إبعادهم عن النبي ﷺ ليجالسوه ونهي الله له عن ذلك
١٦٩	بيان الخلاف في أبي سيدنا إبراهيم
١٧٥	بيان ما يعتقد المشركون في الجن من الشرقة
١٨٠	بيان الأمر بالتسمية عند الذبح
١٨٤	بيان ما كانت تفعله الجاهلية من القسمة لشركائهم في الزرع والأنعام
١٨٧	بيان ما حُرِّمَ على بني إسرائيل من الشحوم وغيرها
١٩١	بيان التفرق في الدين وأنه سُنة قديمة

طَبَعَ عَلَى مَطَابَعِ
وَلَا زِلْهِيْنَا، الزَّلْزَلَةُ الْعَرَبِيَّةُ

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وضع التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الثالث

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وُضِعَ التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

تفسير البيضاوي

(٣)

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ٧٩٥٧/١١

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

(٧) سورة الأعراف

مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَاسْأَلْهُمْ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ محكمة كلها. وقيل إلا قوله تعالى: ﴿وَاعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وأياها مائتان وخمس وست آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

﴿الْمَصَّ﴾ سبق الكلام في مثله.

﴿كِتَابٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر ﴿الْمَصَّ﴾ والمراد به السورة أو القرآن. ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ صفة. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شك، فإن الشاك حرج الصدر أو ضيق قلب من تبليغه مخافة أن تكذب فيه، أو تقصر في القيام بحقه، وتوجيه النهي إليه للمبالغة كقولهم: لا أرينك ها هنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ متعلق بأنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخفهم أو علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي: لتنذر به وتذكر ذكرى فإنها بمعنى التذكير، والجر عطفاً على محل تنذر والرفع عطفاً على ﴿كِتَابٌ﴾ أو خبر المحذوف.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعم القرآن والسنة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في ﴿من دونه﴾ لا ﴿ما أنزل﴾ أي: ولا تتبعوا من دون دين الله أولياء. وقرئ «ولا تبتغوا». ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرأ قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، و«ما» مزيدة لتأكيد القلة وإن جعلت مصدرية لم ينتصب ﴿قَلِيلًا﴾ بـ ﴿تذكرون﴾. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿تذكرون﴾ بحذف التاء، وابن عامر «يتذكرون» على أن الخطاب بعد مع النبي ﷺ.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥﴾

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ﴾ كثيراً من القرى. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿فَجَاءَهَا﴾ فجاء أهلها. ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا. ﴿بَيِّنًا﴾ بائتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ عطف عليه أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذف واو الحال استقلالاً لاجتماع حرفي عطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أقطع.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونهم من دينهم. ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه ويطلانه تحسراً عليهم.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عما أجابوا به، والمراد من هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريعهم، والمنفي في قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل حين يقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم فيخفي علينا شيء من أحوالهم.

﴿وَالْوِزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَالْوِزْنُ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم. ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، فيخرج له بطاقة فيها كلما الشهاداة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة». ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿الْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكنها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزة تشبيهاً بما الياء فيه زائدة كصحائف. ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ثم صورناه. نزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وقيل ثم لتأخير الأخبار. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا

يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ .

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد ولا صلة مثلها في ﴿لئلا يعلم﴾، مؤكدة معنى الفعل الذي دخلت عليه، ومنبهة على أن الموبخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكانه قيل: ما اضطررك إلى ألا تسجد. ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى استأنف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانع أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول، فكيف يحسن أن يؤمر به. فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وباعتبار الغاية وهو ملاكه ولذلك أمر الملائكة بسجوده لما بين لهم أنه أعلم منهم، وأن له خواص ليست لغيره، والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله».

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ .

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تمتني، أو لا تعجل عقوبتي. ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته.

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ .

﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي﴾ أي بعد أن أمهلني لأجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطة تسمية، أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غويت لأجله والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدن فإن اللام تصد عنه وقيل الباء للقسم: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الإسلام ونصبه على الظرف كقوله:

لَدُنْ بِهَرِ الْكَفِّ يَغْسِلُ مَشْنُوهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الثُّغْلَبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

﴿ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مثل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل

الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرّون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرّون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما متوجه إليهم وإلى الآخرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨) ﴿وَبَقَادُمْ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا﴾ مذوماً من ذامه إذا ذمه. وقرئ «مذوماً» كمسول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيماً. ﴿مَذْخُورًا﴾ مطروداً. ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم وجوابه: ﴿لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرئ «لمن» بكسر اللام على أنه خبر لأملان على معنى: لمن تبعك هذا الوعيد، أو علة لأخرج ولأملان جواب قسم محذوف ومعنى منكم منك ومنهم فغلب المخاطب.

﴿وَيَا آدَمُ﴾ أي وقلنا يا آدم. ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وقرئ «هذي» وهو الأصل لتصغيره على ذيا والهاء بدل من الياء. ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠).

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهينمة والخشخشة ومنه وسوس الحلي. وقد سبق في سورة «البقرة» كيفية وسوسته. ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسواة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ ما غطي عنهما من عورتهما، وكان لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أوصل تصغير واصل لأن الثانية مدة وقرئ «سواتهما» بحذف الهزة وإلقاء حركتها على الواو و «سواتهما» بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا﴾ إلا كراهة أن تكونا. ﴿مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تتقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية، والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لَيْنَ النَّصِيحَةِ﴾ (٢١) ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢).

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي أقسم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله أنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

﴿فَدَلَاهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أهيبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿بِغُرُورٍ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظناً أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا﴾ أي فلما وجدا طعمها أخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهاافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو حلة أو ظفراً. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء «يخصفان» من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويخصفان وأصله يخصفان. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤).

﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا تجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر ولذلك قالوا: إنما قال ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

﴿قَالَ أَهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَغَضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥) يَبْنِيْ اءَادَمَ قَدْ اُنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَ بَدَنِكُمْ وَرِدِّسًا وَّلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِّنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ (٢٦).

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ﴿ومنها تخرجون﴾، وفي «الزخرف» كذلك ﴿تخرجون﴾ بفتح التاء وضم الراء.

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. ﴿يُؤْوِي سَوَاتِكُمْ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا تطوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت. ولعله ذكر قصة آدم مقدمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾ ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالا ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء «ريشاً» وهو جمع ريش كشعب وشعاب. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوٰى﴾ خشية الله. وقيل الإيمان. وقيل السميت الحسن. وقيل لباس الحرب ورفع بالابتداء وخبره: ﴿ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خير وذلك صفته كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوٰى﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِبَاسًا﴾. ﴿ذٰلِكَ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿مِّنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿لَعَلَّهُمْ

يَذْكُرُونَ ﴿٧٦﴾ فيعرفون نعمته أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

﴿يَنْبَغُ بَنِي آدَمَ لَا يَقْنَنَ لَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمحنتكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم. ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا﴾ حال من ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ أو من فاعل ﴿أَخْرَجَ﴾ وإسناد النزاع إليه للتسبب. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأکید للتحذير من فتنته، وقبيله جنوده ورؤيتهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سولوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين تقليد الآباء والافتراء على الله سبحانه وتعالى، فأعرض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال. ولا دلالة عليه على أن قبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين متربين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا. فقيل ومن أين أخذ آبائكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وهو الوسط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمنأ وكافراً يعيدكم.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم أو تحقيق

لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطيء والمعاند سواء في استحقاق الدم، وللغفلة أن يحمله على المقصر في النظر.

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ خُدُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ (٣١)

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لموازة عورتكم. ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فهم المسلمون به، فنزلت. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة. وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: (كلوا واشربوا ولا تسرفوا). ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كَذٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ﴾ (٣٢)

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدرع. ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من المأكول والمشرب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالأصالة والكفرة وإن شاركهم فيها فتبع. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم تفصل سائر الأحكام لهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِۦ سُلْطٰنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ مَا لَا نَعْلَمُوْنَ﴾ (٣٣)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَالْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم تعميم بعد تخصيص، وقيل شرب الخمر. ﴿وَالْبَغْيَ﴾ الظلم، أو الكبير أفرد بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكداً له معنى. ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِۦ سُلْطٰنًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم ﴿اللّٰهُ أَمْرُنَا بِهَا﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة، أو وقت لنزول العذاب بهم وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ انقضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول.

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ اِمًا يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا بَعَثْنَا فِيْكُمْ رُسُلًا مِّنْكُمْ يَقُصُوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِنَا فَمَنْ اٰتَقٰنَ وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ﴾ (٣٥)

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ شرط ذكره بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها ما لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون وجوابه: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكبذب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آمَنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله. ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح المحفوظ أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل وحتى غاية لنيلهم وهي التي يتبدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوا﴾ جواب إذا ﴿أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها، وما وصلت بآين في خط المصحف وحققها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) وَقَالَتْ أُوْلَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة. ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية عن النوعين. ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ أي في النار. ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي ضلت بالاعتداء بها. ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ دخولا أو منزلة وهم الأتباع. ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ أي لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَوْا﴾ سنوا لنا الضلال فاقنديننا بهم ﴿فَاتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلوا وأصلوا. ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

﴿وَقَالَتْ أُوْلَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى ﴿لأخراهم﴾ ورتبه عليه أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنما وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من قول القادة أو من قول الفريقين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْعَلُ لَهُمْ أَعْيُنُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي

سَمِ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَّهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ لأدعيتهم وأعمالهم أو لأزواجهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والتاء في تفتح للتأنيث الأبواب والتشديد لكثرتها، وقرأ أبو عمرو بالتخفيف وحمة والكسائي به وبالياء، لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم. وقرئ على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء على أن الفعل للآيات وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم وهو البعير فيما هو مثل في ضيق المسلك وهو ثقبه الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرئ «الجمال» كالقمل، و«الجمال» كالنغر، و«الجمال» كالقفل، والجمال كالنصب، و«الجمال» كالجبل وهو الحبل الغليظ من القنب، وقيل حبل السفينة. وسم بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخياط ما يخاط به كالحزام والمحزم. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزء الفظيع. ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الإعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره، وقرئ «غواش» على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراض بين المبتدأ وخبره للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما يسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرئ «لا تكلف نفس».

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نظهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد. وعن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما جزاؤه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر «ما كنا» بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهدتنا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادى له بالذات. ﴿أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر والجنة صفة تلكم وأن في المواقع الخمسة هي المخففة أو المفسرة لأن المنادة والتأذين من القول.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال ﴿ما وعدنا﴾ لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم، كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر العين وهما لغتان. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل هو صاحب الصور. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين. ﴿أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقرأ ابن كثير في رواية للبرقي وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ﴾ بالتشديد والنصب. وقرأ «إن» بالكسر على إرادة القول أو إجراء أذن مجرى قال.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذم مرفوع أو منصوب. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيفاً وميلاً عما هو عليه، والعوج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبه، وبالفتح ما كان في المنتصبه، كالحائط والرمح. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بَسُورًا﴾ أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الفرس وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحددين قصرُوا في العمل فيحسبون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يرون في صورة الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كيباض الوجه وسواده، فعلى من سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو من رسم على القلب كالجاء من الوجه، وإنما يعرفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿وَنَادَاوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿لَنَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو على الوجه الأول ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ نعوذ بالله. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي في النار.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ أَهْلُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ كثرتكم أو جمعكم المال. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرأ «تستكثرون» من الكثرة. ﴿أَهْلُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ من تنمة قولهم للرجال، والإشارة إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن حسبوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما

قالوا. قيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة هؤلاء الذين أقسمتم. وقرئ «أدخلوا» و «دخلوا» على الاستئناف وتقديره دخلوا الجنة مقولاً لهم «لا خوف عليكم».

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ أي صوبه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً. ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ منعهما عنهم منع المحرم من المكلف.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ كتحريم البحيرة والتصدية والمكاء حول البيت واللهو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به، واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به. ﴿وَوَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فلم يخطر به ببالهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكبين أنها من عند الله.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتقاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرئ «فصلناه» أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلُ﴾ تركوه ترك الناسي. ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ اليوم. ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد إلى الدنيا. وقرئ بالنصب عطفاً على «فیشفعوا»، أو لأن «أو» بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب الاستفهام الثاني وقرئ بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْاِلَّ الْبَهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: «ومن يولهم يومئذ دبره» أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ، وفي خلق

الأشياء مدرجاً مع القدرة على إيجادها دفعة دليل للاختيار واعتبار للنظر وحث على الثاني في الأمور. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استوى أمره أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناء منزهاً عن الاستقرار والتمكن، والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير الملك فإن الأمور والتدابير تنزل منه وقيل الملك. ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يذكر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملها ولذلك قرئ ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ بنصب ﴿الليل﴾ ورفع ﴿النهار﴾. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي «الرعد» للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحديث فاعيل من الحث وهو صفة مصدر محذوف أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً، أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه وتصريفه ونصبها بالعطف على السموات ونصب مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية والله سبحانه وتعالى أعلم، أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً فيبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وعمد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للمصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثار والأفعال وأشار إليه بقوله وخلق الأرض أي ما في جهة السفلى في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام﴾ أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ثم لما تم له عالم الملك عمده إلى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوين الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾».

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بيعث الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أمالكهم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو الفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا فَقَالَا سُقْنَاهُ لِـبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي «الريح» على الوحدة. «نُشْرًا» جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر «نُشْرًا» بالتخفيف حيث وقع وحزمة والكسائي «نُشْرًا» يفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات، أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان. وعاصم «بُشْرًا» وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرئ به و «بُشْرًا» بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات، أو للبشارة وبشرى. «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» قدام رحمته، يعني المطر فإن الصبا تثير السحاب والشمال تجمععه والجنوب تدره والدبور تفرقه. «حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ» أي حملت، واشتقاقه من القلة فإن المقل للشيء يستقله. «سَحَابًا مَّيِّتًا» بالياء جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحاب. «سُقْنَاهُ» أي السحاب وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. «لِـبَلَدٍ مَّيِّتٍ» لأجله أو لاحتياته أو لسقيه. وقرئ «ميت». «فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ» بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح وكذلك. «فَأَخْرَجْنَا بِهِ» ويحتمل فيه عود الضمير إلى «الماء»، وإذا كان لـ «بلد» فالباء للإصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. «مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ» من كل أنواعها. «كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَ» الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات، أو إلى إحياء البلد الميت أي كما نحياه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات، نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. «يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ» بمشيئته وتيسيره، عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة. «وَالَّذِي خَبثَ» أي كالحره والسبخة. «لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا» قليلاً عديم النفع، ونصبه على الحال وتقدير الكلام، والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً وقرئ «يخرج» أي يخرججه البلد فيكون «إلا نكداً» مفعولاً و «نكداً» على المصدر أي ذا نكد و «نكداً» بالإسكان للتخفيف. «كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ» نردها ونكرها. «لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، والآية مثل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ» أي اعبدوه وحده لقوله تعالى: «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» وقرأ الكسائي «غيره» بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا كان قبل إله من التي تخفض. وقرئ «بالنصب على الاستثناء». «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي الأشراف فإنهم يملؤون العيون رواء. «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ» زوال عن الحق.

﴿مبين﴾ بين .

﴿قَالَ يَنْفَوِرَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِّبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ أي شيء من الضلال، بالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرض لهم به . ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدى كأنه قال: ولكنني على هدى في الغاية لأنني رسول من الله سبحانه وتعالى .

﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا لِّبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً . وقرأ أبو عمرو ﴿أَبْلَغُكُمْ﴾ بالتخفيف وجمع الرسالات لاختلاف أوقاتها أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواظع والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحى إليه وإلى الأنبياء قبله، كصحف شيث وإدريس وزيادة اللام في لكم للدلالة على إحاطة النصيح لهم، وفي أعلم من الله تقريراً لما أوعدهم به فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها .

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم . ﴿أَن جَاءَكُمْ﴾ من أن جاءكم . ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ رسالة أو موعظة . ﴿عَلَى رَجُلٍ﴾ على لسان رجل . ﴿مِّنكُمْ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَاءِنَا الْأُولِينَ﴾ . ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبة الكفر والمعاصي . ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ منهما بسبب الإنذار . ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بالتقوى، وفائدة حرف الترجي التنبيه على أن التقوى غير موجب والترحم من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وهم من آمن به وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة . وقيل تسعة بنوه سام وحام وياث وستة ممن آمن به . ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ متعلق بمعه أو بأنجينا، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه . ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمي القلوب غير مستبصرين، وأصله عمين فخفف وقرئ «عامين» والأول أبلغ لدلالته على الثبات .

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه ﴿هُودًا﴾ عطف ببيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقيل هود بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ استأنف به ولم يعطف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابهم . ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكان قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال أفلا تتقون ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ إذ كان من أشرفهم من آمن به كمرثد بن سعد .

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين قومك. ﴿وإِنَّا لَنَنظُّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قَالَ يَنْفُورُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧) ﴿أَتِلْفُكُمْ بِرِسَالَتِي ربي وَأَنَا لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨) أَوْ عَجِبْتَ أَنْ جَاءَكَ مِنْ رَبِّكَ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِتُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ (٦٩).

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِتُنذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين. وقرأ أبو عمرو ﴿أبلغكم﴾ في الموضعين في هذه السورة وفي «الأحقاف» مخففاً. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان، خوفهم من عقاب الله ثم ذكرهم بإنعامه. ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ قامة وقوة. ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١).

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استبعدوا اختصاص الله بالعبادة والإعراض عما أشرك به آبائهم انهماكاً في التقليد وجأً لما ألفوه، ومعنى المجيء في ﴿أجئتنا﴾ إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهمك، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبي. ﴿فَأَنَّا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نزل عليكم على أن المتوقع كالواقع، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَعَصْبٌ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي في أشياء سميتوها آلهة وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحققت كان استحقاقها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حجة، بين أن انتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمى، وإسناد الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستدل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً وضعفها ظاهر. ﴿فَانْظُرُوا﴾ لما وضع الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ في الدين. ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك

هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشرِكهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عتزر ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاد بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخاً أصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قيتان له، فلما رأى ذلولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يلتمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلم القيتين:

أَلَا يَا قِيلُ وَنَحَكَ قُمْ قَهْنِيْمَ لَعَلَّ اللَّهَ يُسْقِيْنَا الْغَمَامَا

فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادَا قَدْ ائْتَسُوا مَا يُبَيِّثُونَ الْكَلَامَا

حتى غتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنا لا يقدم معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عাদاً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحبات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك. فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: «هذا عارض مطرنا» فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا.

﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَكُفِّرُوا عَنْكَ اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَالِى ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب سموها باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموها به لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفًا بتأويل الحي أو باعتبار الأصل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. «أَخَاهُمْ صَالِحًا» صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي وقوله: «هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» استئناف لبيانها، وآية نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، ولكم بيان لمن هي له آية، ويجوز أن تكون «ناقة الله» بدلاً أو عطف بيان ولكم خبراً عاملاً في «آية»، وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية. «فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ» العشب. «وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ» نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر. «فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ» جواب للنهي.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا مَا لَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتُمْ تَقْلُمُونَ أَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ أَنْتُمْ تَقْلُمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض الحجر. «تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا» أي تبنيون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللبن والآجر. «وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ

يُوتَا» وقرىء «تنتحتون» بالفتح وتنتحتون بالإشباع، وانتصاب «بيوتا» على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتا من الجبال، أو تنتحتون بمعنى تتخذون «فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

«قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» أي عن الإيمان. «لِلَّذِينَ اسْتَظْعَفُوا» أي للذين استضعفوه واستذلوهم. «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» بدل من الذين استضعفوا بدل الكل إن كان الضمير لقومه وبدل البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملا بالواو. «اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ» قالوه على الاستهزاء. «قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» عدلوا به عن الجواب السري الذي هو نعم تنبيهاً على أن إرساله أظهر من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

«قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾».

«قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» على وجه المقابلة، ووضعوا «آمتهم به» موضع «أرسل به» رداً لما جعلوه معلوماً مسلماً.

«فَعَقَرُوا النَّاقَةَ» فنحروها. أسند إلى جميعهم فعل بعضهم للملاسة، أو لأنه كان برضاهم. «وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ» واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلغهم صبح عليه الصلاة والسلام بقوله: «فذروها». «وَقَالُوا يَا صَالِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنفَقُوا زَوْجٌ أَلْفَتْكُمْ رِسَالَةٌ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾».

«فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» الزلزلة. «فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمروا أعماراً طويلاً لا تفي بها الأبنية، فنتحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فعتوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشrafهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال آية آية تريدون قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وتدعو آلهتنا فمن استجيب له اتبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكائبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخرجة جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح موافقتهم لأن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النوتج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشاء جوفاء وبراء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم نتجت ولداً مثلها في العظم فأمن به جندع في جماعة، ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمرو والحياب صاحب أوثانهم ورباب بن صغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غياً فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه، وتشتو بيطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزيت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقى سقبها جبلاً اسمه قارة فرغا ثلاثاً فقال صالح لهم أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفونوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِيبُونَ النَّاصِحِينَ﴾ ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر وقال: «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً». أو ذكر ذلك على سبيل التحسر عليهم.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَلَوْطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وقت قوله لهم أو واذكر لوطاً وإذ بدل منه. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ توبيخ وتقرير على تلك الفعل المتبادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية ومن الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية للتبويض. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص «إنكم» على الإخبار المستأنف، وشهوة مفعول له أو مصدر في موقع الحال وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة، وتنبه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع، لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ نَاطِقَةٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَمَّا نِسَاءُ الْغَابِرِينَ وَاهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنْهُمْ قَرْيَتُهُنَّ وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قبلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ نَاطِقَةٌ﴾ أي من الفواحش.

﴿فَأَمَّا نِسَاءُ الْغَابِرِينَ وَاهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنْهُمْ قَرْيَتُهُنَّ وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ من الذين بقوا في ديارهم فهلكوا والتذكير لتغليب الذكور.

﴿وَأَمَّا نِسَاءُ الْغَابِرِينَ وَاهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنْهُمْ قَرْيَتُهُنَّ وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبين بقوله: ﴿وَأَمَّا نِسَاءُ الْغَابِرِينَ وَاهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِنْهُمْ قَرْيَتُهُنَّ وَمَطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ سجيل. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَكِيتَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل

ابن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التنين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها، ووقع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقابلة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاباً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإحصار، أو إطلاق الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة «هود» ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدراً كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مكاسبين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والحيث. ﴿يَفْضَحْضَحُهَا﴾ بعدما أصلح أمرها أو أهلها الأنبياء وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في «بل مكر الليل والنهار». ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحذوثة وجمع المال.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراط الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعبياً إنه كذاب فلا يفتك عن دينك ويوعدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضع الظاهر موضع المضمهر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقيحاً لما كانوا عليه أو الإيمان بالله. ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومن مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم وتوعدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في قعدوا. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾ عددكم أو غددكم. ﴿فَكَثَرْتُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأئم قبلكم فاعتبروا بهم. ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحققين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ﴾ (٨٨) قَدْ أَفَرَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مَبْلَغًا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (٨٩)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

أي ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غلبوا الجماعة على الواحد فخطوب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله. ﴿قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا.

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ قد اختلقنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ شرط جوابه محذوف دليله: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا﴾ وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه قد لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزع أن الله تعالى ندأ، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا﴾ وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَمِيعَ رَبِّنَا كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار. ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتاح القاضي، والفتاحة الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل من فتح المشكل إذا بينه. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ على المعنيين.

﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعْبًا كَذِبًا إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ (٩١) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا (٩٢).

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعْبًا﴾ وتركتم دينكم. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة وفي سورة «الحجر» ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ ولعلها كانت من مبادئها. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ أي في مدينتهم.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا يَفْنَوْنَ﴾ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣).

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَانُوا يَفْنَوْنَ فِيهَا﴾ أي استؤصلوا كان لم يقيموا بها والمغنى المنزل. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الراحون في الدارين. وللتنبية على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملة وأتى بهما اسميتين.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ قاله تأسفاً بهم لشدة حزنه عليهم ثم أنكر على نفسه فقال: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغت في الإيلاج والإنذار وبذلت وسعي في النصيح والإشفاق فلم تصدقوا قولِي، فكيف آسى عليكم. وقرئ «فكيف آسي» بإمالتين.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا

مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةِ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ بالبؤس والضر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ حتى يتضرعوا ويتذللوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين. ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ كثروا عفواً وعُدداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء اللحى. ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسرء وقد مس آبائنا منه مثل ما مسنا. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ ب نزول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بالتشديد. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض والمعنى: أبعد ذلك أمن أهل القرى. ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ ببيئاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوة ويحيى بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بيئات.

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر أو بالسكون على الترديد. ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت: ﴿وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ يلعبون من فرط الغفلة، أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ و ﴿مَكْرَ اللَّهِ﴾ استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي يخلفون من خلا قبليهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهد باللام لأنه بمعنى يبين. ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أن الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبليهم، وهو فاعل يهد ومن قرأه بالتون جعله مفعولاً. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهد أي يغفلون عن الهداية أو منقطع عنه بمعنى ونحن نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على

أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقة جواب لو لإفضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ يعني قرى الأمم المار ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ حال إن جعل ﴿القرى﴾ خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبر إن جعلت صفة ويجوز أن يكونا خبرين و ﴿من﴾ للتبويض أي نقص بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عند مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تلين شكيبتهم بالآيات والنذر. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِنْ عَهْدٍ﴾ من وفاء عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عهدوا إليه حين كانوا في ضرر ومخافة مثل ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾. ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علمناهم. ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ من وجدت زبداً ذا الحفاظ لدخول أن المخفقة واللام الفارقة، وذلك لا يسوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعال الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إن للنفي واللام بمعنى إلا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم﴾ أو للأمم. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعون لقب لمن ملك مصر ككسرى لمن ملك فارس وكان اسمه قابوس، وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك، وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يذكر لدلالة قوله ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ عليه وكان أصله ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ﴾ كما قرأ نافع فقلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمته، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبي الباء. وقرئ «حقيق أن أمراً» بدون «على». ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ (١٠٦) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ﴾ (١٠٨).

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ في الدعوى.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر. ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النظارة، أو بيضاء للنظار لا أنها كانت بيضاء في جبلتها. روي: أنه عليه السلام كان آدم شديد الأدمة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩) ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (١١٠) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾ (١١١) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (١١٢).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قيل قاله هو وأشرف قومه على سبيل التشاور في أمره، فحكى عنه في سورة الشعراء وعنهم ما هنا.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أن نفعل.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون، والإرجاء التأخير أي أخر أمره، وأصله أرجته كما قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب من أرجأت، وكذلك «أرجنوه» على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو «أرجهي» من أرجيت كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون «أرجه» بحذف الياء فلاكتفاء بالكسرة عنها، وأما قراءة حمزة وعاصم وحفص «أرجه» بسكون الهاء فلتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل «أرجه» كإبل في إسكان وسطه وأما قراءة ابن عامر بزواية ابن ذكوان «أرجته» بالهمزة وكسر الهاء فلا يرتضيه النحاة فإن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة، ووجهه أن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها. وقرأ حمزة والكسائي «بكل سحار» فيه وفي «يونس» ويؤيده اتفاقهم عليه في «الشعراء».

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ فَقَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (١١٤).

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم. ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم «إن لنا لأجراً» على الإخبار وإيجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكير للتعظيم.

﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عطف على ما سد مسده «نعم» وزيادة على

الجواب لتحريضهم.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۖ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَهْبَهُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ۝﴾

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ خيروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يلحقوا قبله فنبهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريف الخبر وتوسيط الفصل أو تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ كرمًا وتسامحًا، أو ازدراء بهم ووثوقًا على شأنه. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه. ﴿وَاسْتَهْبَهُهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي، وركب بعضها بعضاً.

﴿وَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝﴾ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ ﴿فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ۝﴾

﴿وَأَرْحَبْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقَى عَصَاكَ﴾ فآلقاها فصارت حية. ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزورونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون ما مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلقت حبالهم وعصيتهم وابتلعته بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا. وقرأ حفص عن عاصم ﴿تلقف﴾ ها هنا وفي «طه» و «الشعراء».

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ ثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة. ﴿فَغَلَبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مهزورين، والضمير لفرعون وقومه.

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ۝﴾

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ جعلهم ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبق لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خروهم وشدة. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لثلاث يتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا ۚ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنَاجِلُكُمْ مِن خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص ﴿آمنتم به﴾ على الإخبار، وقرأ قنبل ﴿قال فرعون﴾، و «آمنتم» يبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام وأواً مفتوحة ويمد بعدها مدة في تقدير ألفين وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير

ألفين، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتلين الثانية. ﴿قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْوهُ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبنى إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لامثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة لله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنفِقُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا. ﴿وَمَا نَنفِقُ مِنَّا﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّا أَنْ ءَمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فرعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يفرغ الماء، أو صب علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرُكَ وَيَءِثُّكَ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَتْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرُكَ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ

على معنى أكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرئ بالرفع على أنه عطف على أنذر أو استئناف أو حال. وقرئ بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذرك كقوله تعالى: ﴿فَأَصْدُقْ وَأَكْنُ﴾، ﴿وَأَلْهَتَكَ﴾ معبوداتك قيل كان يعبد الكواكب. وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً إليه ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ وقرئ «إلاهتك» أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَتَقْبَلُونَ أَتْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كما كنا نعمل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع ﴿سَتَقْتُلُونَ﴾ بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ قَالُوا أَوْدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ تسلياً لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والثبات في الأمر. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له. وقرىء «والعاقبة» بالنصب عطف على اسم إن واللام في «الأرض» تحتل العهد والجنس.

«قَالُوا» أي بنو إسرائيل. «أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا» بالرسالة بقتل الأبناء «وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا» بإعادته. «قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» تصريحاً بما كنى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فتح لهم في زمن داود عليه السلام «فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾»

«وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ» بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويورخ به، ثم اشتق منها فقيل أسنت القوم إذا قحطوا. «وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ» بكثرة العاهات. «لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ» لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعتظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفرغوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده.

«فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ» من الخصب والسعة. «قَالُوا لَنَا هَذِهِ» لأجلنا ونحن مستحقوها. «وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ» جذب وبلاء. «يَطَّيِّرُوا يُمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ» يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغي، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها، وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. «أَلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ» أي سبب خيرهم وشهرهم عنده وهو حكمه ومشيتته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقط إليهم ما يسوؤهم. وقرىء «إنما طيرهم» وهو اسم الجمع وقيل هو جمع. «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم.

«وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾»

«وَقَالُوا مَهْمَا» أصلها ما الشرطية ضمت إليها ما المزيدة للتأكيد، ثم قلبت ألفها هاء استقلالاً للتكرير. وقيل مركبة من مه الذي يصوت به الكاف وما الجزائية ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. «تَأْتِنَا بِهِ» أي أيما شيء تحضرنا تأتينا به. «مِنْ آيَةٍ» بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: «لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» أي لنسحر بها أعياننا وتشبه علينا، والضمير في به وبها لمهما ذكره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنه بعده باعتبار المعنى.

«فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ» ماء طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل. وقيل الجدرى، وقيل الموتان وقيل الطاعون. «وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ» قيل هو كبار القردان، وقيل أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها. «وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ» روي: أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل

الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم ونبت لهم من الكلاً والزرع ما لم يعهد مثله ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ففزعوا إليه ثانياً فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا، فسلط الله عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلم ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ثم نقضوا العهود، ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه. وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿آيَاتٍ﴾ نصب على الحال. ﴿مُفْصَلَاتٍ﴾ مبینات لا تشكل على عاقل أنها آيات الله ونعمته عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً، وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ۚ﴾ ﴿١٣٥﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ بعهد عندك وهو النبوة، أو بالذي عهدت إليك أن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في آياتك، وهو صلة لادع أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عندك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل أسعفنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ جواب لما أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ يَأْتُهُمْ كَذِبًا يَأْتِينَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ مَشْرِكَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّتِي بَلَغْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَتْرَاشُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرك قعره. وقيل لجته. ﴿يَأْتُهُمْ كَذِبًا يَأْتِينَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للنعمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَانْتَقَمْنَا﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مشارك الأرض ومغاريها﴾ يعني أرض الشام ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَوَثَّقْتُ كَلِمَةَ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عدته إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ وقرئ «كلمات ربك» لتعدد المواعيد ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿وَوَدَّعْنَا﴾ وخرينا. ﴿مَا كَانَ يَضَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القصور والعمارات. ﴿وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ﴾ من الجنات أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي «النحل» «يعرشون» بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وما بعده ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن من الله عليهم بالنعم الجسام، وأراهم من الآيات العظام تسلياً لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي: أن موسى عليه السلام عبر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم. ﴿يَمْكُونُ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم. وقيل من لخم، وقرأ حمزة والكسائي «يمكفون» بالكسر. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ مثلاً لعبده. ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها، وما كافة للكاف. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل المطلق وأكدته لبعده ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات الكبرى عن العقل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَمْكُونُ ﴿١٣٩﴾﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْيَاحَكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿مَثَبٌ﴾ مكسر مدمر. ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاءاً ﴿وَيَطْلُبُ﴾ مضمحل. ﴿مَا كَانُوا يَمْكُونُ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع اسم «هؤلاء» والإخبار عما هم فيه بالتبازار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لأن التنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة، وأن الإحباط الكلي لازم لما مضى عنهم تفتيراً وتحذيراً عما طلبوا.

﴿قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْيَاحَكُمْ إِلَهِهَا﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أحسن شيء من مخلوقاته.

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِمِثْرِ فِتْنَةِ رَبِّهِمْ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر «أنجاكم». ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ استناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال من المخاطبين، أو من آل فرعون أو منهما.

﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بدل منه مبين. ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ذا القعدة، وقرأ أبو عمرو ويعقوب «ووعدنا». ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ من ذي الحجة. ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه السلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣).

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ لوقتنا الذي وقتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المحدثين. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ دون لن أرى أو لن أريك أو لن تنظر إليّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجعل السؤال لتبكيته قومه الذين قالوا: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ ولا يتبع سيلهم كما قال لأخيه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ والاستدلال بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيره أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن، والجبل قيل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظيمته وتصدى له اقتداره وأمره. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مذكوكاً مفتتاً والدك والدق أخوان كالكشك والشق، وقرأ حمزة والكسائي «دكاء» أي أرضاً مستوية ومنه ناقة دكاء التي لا سنام لها. وقرئ «دكاً» أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا ترى في الدنيا.

﴿قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْبِكُمْ دَارَ الْفَلْسَفِينَ﴾ (١٤٥).

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارون وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ يعني أسفار التوراة وقرأ ابن كثير ونافع «برسالتني». ﴿وَبِكَلِمَاتِي﴾ وبتكليمي إياك. ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مُوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا أو بدل من قوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَكَ﴾ والهاء للألواح أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجهد وعزيمة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيف أحر من الشتاء. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاقِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرأ «سأوريكم» بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند و«سأورثكم»، ويؤيده قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بأعلائها أو بإهلاكهم. ﴿بَغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ﴾ منزلة أو معجزة. ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي «الرُّشْدُ» بفتحين وقرأ «الرشاد» وثلاثها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَداً لَّهُمْ خُوراً أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه للميقات. ﴿مِنْ خُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروا من القبط حين هموا

بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حلي كئدي وثدي. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدلي ويعقوب على الأفراد. ﴿عَجَلًا جَسَدًا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح ونصبه على البدل. ﴿لَهُ خَوَازٍ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حياً. وقيل صاغه بنوع من الحيل فتدخل الريح جوفه وتصوت، وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعله إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً. وقرأ ﴿جَوَارٍ﴾ أي صياح. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذهوا إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر. ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذهوا إلهاً. ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم فإن النادم المتحسر يعرض يده غماً فتصير يده مسقطاً فيها. وقرأ «سقط» على بناء الفعل للفاعل بمعنى وقع العض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوْا﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإتزال التوراة. ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرأهما حمزة والكسائي بالتاء و ﴿رَبَّنَا﴾ على النداء.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب وقيل حزناً. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتم العجل، والخطاب للعبدة أو أقمتم مقامي فلم تكفوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه، وما نكرة موصوفة تفسر المستكن في بشس والمخصوص بالذم محذوف تقديره بشس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام، كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدي تعديته، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً لينا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي «طه» «يا ابن أم» بالكسر وأصله يا ابن أُمي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادي المضاف إلى الياء، والياقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسة عشر. ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمواخذة أو نسبة التقصير.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ بما صنعت بأخي. ﴿وَلِإِخْوِي﴾ إن فرط في كفهم ضمه إلى نفسه في الاستغفار

ترضية له ودفعاً للشماتة عنه. ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْخَدُوا الْعِجْلَ سَيَّأَلَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾
﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْخَدُوا الْعِجْلَ سَيَّأَلَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي خروجهم من ديارهم. وقيل الجزية. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفتر مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد السيئات. ﴿وآمَنُوا﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل، وكثر كجرائم بني إسرائيل.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي تَشْخِيطِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (١٥٤).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن وقد قرئ به. ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالأمر به والمغري عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت. وقرئ «سكت» و «أسكت» على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾ التي ألغاه. ﴿وَفِي تَشْخِيطِهَا﴾ وفيما نسخ فيها أي كتب، فعلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة. ﴿هُدًى﴾ بيان للحق. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير. ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهبون معاصي الله لربهم.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوكَ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِثًّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ (١٥٥).

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختر من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال: ليتخلف منكم رجلان فتشاجروا فقال: إن لمن قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة، أو رجفة الجبل فصعقوا منها. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ تمنى هلاكهم وهلاكه، قبل أن يرى ما رأى أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحم عليهم بالإنقاذ منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. ﴿أَنَّهُلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِثًّا﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل السفهاء عبادة العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها فغشيتهم

هيبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تبين مفاصلهم، وأشرفوا على الهلاك فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجل خواراً فزاغوا به. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ ضلاله بالتجاوز عن حده أو باتباع المخايل. ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ هداة فيقوى بها إيمانه. ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ القائم بأمرنا. ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا. ﴿وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة.

﴿وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا عَلَيْنَا أَنْصِبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦).

﴿وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حسن معيشة وتوفيق طاعة. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُنَا إِلَيْنِكَ﴾ تبنا إليك من هاد يهود إذا رجع. وقرىء بالكسر من هاد يهيده إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول بمعنى أملنا أنفسنا وأملنا إليك، ويجوز أن يكون المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عود المريض. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأكتبها في الآخرة، أو فسأكتبها كنية خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ خصها بالذكر لإناقضها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٥٧).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾ مبتدأ خبره يأمرهم، أو خبر مبتدأ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿الْأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ اسماً وصفه. ﴿يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ كالدّم ولحم الخنزير أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ، وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة، وأصل الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر «أصارهم». ﴿فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَعَظَّمُوهُ بِالتَّقْوَةِ﴾ وقرىء بالتخفيف وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهر أمره مظهر غيره، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون معه متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى ابح الكتاب والسنة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى ﷺ.

﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الخطاب عام، كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعاً﴾ حال من إليكم. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أو مبتدأ خبره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه. الأول بيان لما قبله فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره وفي: ﴿يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالالوهية. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرئ «وكلمته» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له. ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ .

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ يعنى من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِ بِالْحَقِّ﴾ بالحق. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم والمراد بها الثابتون على الإيمان القائلون بالحق من أهل زمانه، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رأهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثانٍ لقطع فإنه متضمن معنى صير، أو حال وتأنيه للحمل على الأمة أو القطعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جمع، أو تمييز له على أن كل واحدة من اثنتي عشرة أسباط فكانه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرئ بكسر الشين وإسكانها. ﴿أُمَمًا﴾ على الأول بدل بعد بدل، أو نعت أسباط وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التيه. ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ﴾ أي فضرِب فانبجست وحذفه للإيماء على أن موسى ﷺ لم يتوقف في الامتثال، وأن ضربه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ ليقهيم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة «البقرة».

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ .

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكر والقرية بيت المقدس. ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة «البقرة» معنى غير أن قوله ﴿فَكُلُوا﴾ فيها بالفاء أفاد تسبب

سكناهم للأكل منها، ولم يتعرض له ها هنا اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه وأما تقديم قوله قولوا على وادخلوا فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أمروا به. وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب «تغفر» بالتاء والبناء للمفعول، و﴿خطيئاتكم﴾ بالجمع والرفع غير ابن عامر فإنه وحده وقرأ أبو عمرو «خطاياكم».

﴿قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ مضى تفسيره فيها.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٣).

﴿وَسَأَلْتَهُمْ﴾ للتقرير والتفريع بقديم كفرهم وعصيانهم، والإعلام بما هو من علومهم التي لا تعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقع بأهلها. ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قرية منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور على شاطئ البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، و﴿إِذْ﴾ ظرف لـ ﴿كَانَتْ﴾ أو ﴿حَاضِرَةَ﴾ أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف لـ ﴿يعدون﴾ أو بدل بعد بدل. وقرئ «يعدون» وأصله يعتدون ويعدون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت، وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت مصدر سبت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه، ويؤيد الأول إن قرئ يوم إسمائهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرئ «لا يسبتون» من أسبت و«لا يسبتون» على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، و﴿شُرْعًا﴾ حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شرع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيتهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بـ ﴿يعدون﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤).

﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطف على ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾. ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أسوا من اتعاضهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترمهم. ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاويل بينهم أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعو منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعاضهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُوا مَعْذِرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاء عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر. وقرأ حفص «معذرة» بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرة ووعظناهم معذرة. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦٥) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٦٦).

﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا ترك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد فعيل من بؤس يبؤس بؤساً إذا

اشتد. وقرأ أبو بكر ﴿بيس﴾ على فيعل كضيغم، وابن عامر «بش» بكسر الباء وسكون الهمز على أنه يش كحذر، كما قرىء به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككبد في كبد، وقرأ نافع «بيس» على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذئب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً، وقرىء «بيس» كريس على قلب الهمزة ثم ادغامها و «بيس» بالتخفيف كمين و «بائس» كفاعل. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك ما نهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والظاهر يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى. روي: أن الناهين لما أسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكتهم، فقسّموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأنًا فدخلوا عليهم فإذا هم قرود فلم يعرفوا أنسبائهم ولكن القرود تعرفهم، فجعلت تأتي أنسبائهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُمْ لَفُفُورٌ رَجِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ الْقَاتِلُونَ وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلم تفعل من الإيذان بمعناه كالتوعد والإيعاد، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله وأجري مجرى فعل القسم ﴿كعلم الله﴾ و ﴿شهد الله﴾. ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطن على اليهود. ﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية، بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فحرب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذرائعهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفُفُورٌ رَجِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تنمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط و ﴿أُمَمًا﴾ مفعول ثان أو حال. ﴿مِنْهُمْ الْقَاتِلُونَ﴾ صفة أو بدل منه وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظرائهم ﴿وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك أي منحطون عن الصلاح، وهم كفرتهم وفسقتهم. ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينهون فيرجعون عما كانوا عليه.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ مَا أَخَذُوا أَوْ يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلَفٌ﴾ بدل سوء مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع. وقيل جمع وهو شائع في الشر والخلف بالفتح في الخير والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرشا في

الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا» لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. «وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» حال من الضمير في «لَنَا» أي: يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدتين إلى مثله غير تائبين عنه. «أَلَمْ يُوْخِذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ» أي في الكتاب. «أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ» عطف على «أَلَمْ يُوْخِذْ» من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على «ورثوا» وهو اعتراض. «وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» مما يأخذ هؤلاء. «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد، وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين. «وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» عطف على الذين «يتقون» وقوله: «أَفَلَا يَعْقِلُونَ» اعتراض أو مبتدأ خبره: «إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ» على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمرة تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر «يُمَسِّكُونَ» بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات.

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٢)

﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم وأصل النفق الجذب. «كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» سقيفة وهي كل ما أظلك. «وَوَظَنُوا» وتيقنوا. «أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ» ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم. وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم. «خُذُوا» على إضمار القول أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. «مَا آتَيْنَاكُمْ» من الكتاب. «بِقُوَّةٍ» بجذ وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. «وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ» بالعمل به ولا تركوه كالمنسي. «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» قبائح الأعمال وردائل الأخلاق.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (١٧٣) «أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١٧٤) «وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١٧٥)

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، و «من ظهورهم» بدل «من بني آدم» بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب «ذرياتهم». «وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا» أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوههم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألسنت بربكم «قالوا بلى» فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكينهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل وبدل عليه قوله: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ» أي كرامة أن تقولوا. «إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» لم ننبه عليه بدليل.

﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ عطف على «أَنْ تَقُولُوا»، وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. «إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ» فاعتدنا بهم لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. «أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث رواه عمر رضي الله تعالى عنه، وقد حققت الكلام فيه في شرحي لكتاب «المصابيح»، والمقصود من إيراد هذا الكلام ها هنا الزام

اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد وحملهم على النظر والاستدلال كما قال:

﴿وَكَذَلِكَ تَفْضُلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ فَاغْلَبَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥)

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفر به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها. ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ حتى لحقه وقيل استتبعه. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومن معه فقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فالحوا حتى دعا عليهم فبقوا في التيه.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَشَتَلْنَا لَهُ الْكَلْبَ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ (١٧٧)

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿بِهَا﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مال إلى الدنيا أو إلى السفالة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ في إظهار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضى الآيات، وإنما علق رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العبد، تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالة انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث أن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، مبالغة وتنبيهاً على ما حملة عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿فَمَثَلُهُ﴾ فصفته التي هي مثل في الخسة. ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ كصفته في أخس أحواله وهو ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثُ﴾ أي يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك ولم يتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهث إدلاع اللسان من التنفس الشديد والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحاليتين، والتمثيل واقع موقع لازم التركيب الذي هو نفي الرفع ووضع المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى ﷺ خرج لسانه فوق على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاعتاظ.

﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ أي مثل القوم، وقرئ ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ على حذف المخصوص بالدم. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ إما أن يكون داخلياً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاحِشُونَ (١٧٩)

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تصريح بأن الهدى والضلال من الله، وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض، وأنها مستلزمة للاهتداء والإفراد في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين، والاختصار في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء، وتنبيه على أنه في نفسه كمال جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿إِلْجَهْتُمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ يعني المصيرين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار. ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبير، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨١﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ وتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمي به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كالكلمات من «الله»، والعزى من «العزير» ولا توافقوهم عليه أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي «فصلت» ﴿يلحدون﴾ بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»، إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن فائدة فإنه معلوم.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٤﴾ أُولَئِكَ يَنْفَكُّوْا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سنستدينهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستئزال درجة بعد درجة. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم عطف على «سنستدرجهم». ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

﴿أَوْ لَمْ يَنْفَكُّوْا مَا يَصَاحِبُهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ. ﴿مِّنْ جَنَّةٍ﴾ من جنون. روي: أنه ﷺ صعد على

الصفاء فدعاهم فخذاً فخذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون بات يهوت إلى الصباح، فنزلت. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ موضح انذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِيَ لَمْ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ نظر استدلال. ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها، ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكيها، ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوههم إليه. ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على ملكوت وأن مصدرية أو مخففة من الثقلية، واسمها ضمير الشأن وكذا اسم يكون والمعنى: أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم، قبل مغافصة الموت ونزول العذاب. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي بعد القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: عسى أن يكون، كأنه قيل لعل أجلكم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون بالإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به.

وقوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ كالتقرير والتعليل له. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بالرفع على الاستئناف، وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾، وحزمة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل ﴿فلا هادي له﴾، كأنه قيل: لا يهده أحد غيره ﴿ويذرهم﴾. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال من هم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾
﴿١٨٧﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إثباتها واستقرارها ورسو الشيء ثباته واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسي السفينة، واشتقاق ﴿أَيَّانَ﴾ من أي لأن معناه أي وقت، وهو من أويت إليه لأن البعض أو إلى الكل. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر به لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا. ﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا﴾ لا يظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقبت كاللام في قوله: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾. ﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه». ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ عالم بها، فعيل من حفى عن الشيء إذا سأل عنه، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عدي بعن. وقيل هي صلة ﴿يسألونك﴾. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتخصهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه، من حفى بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة والمبالغة. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضرر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسنني سوء. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المتفهمون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالـ ﴿بَشِيرٌ﴾ ومتعلق الـ ﴿نَذِيرٌ﴾ محذوف.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو آدم. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾. ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسب. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فاستمرت به أي قامت وقعدت، وقرئ «فمرت» بالتخفيف و«فاستمرت به» و«فمارت» من المور وهو المجيء والذهاب، أو من المربة أي فظنت الحمل وارتابت منه. ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرئ على البناء للمفعول أي أثقلها حملها. ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنه. ﴿لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المجددة.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي جعل أولادهما له شركاء فيما آتى أولادهما فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني الأصنام. وقيل: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإن دعوت الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبد الحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سميها عبد الحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء ويحتمل أن يكون الخطاب في ﴿خلقكم﴾ لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسميهم: عبد مناف، وعبد شمس، وعبد قصي، وعبد الدار. ويكون الضمير في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ لهما ولأعقابيهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر «شركاً» أي شركة بأن أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَعِزُّوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ

أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَمُوتُونَ ﴿١٩٣﴾ .

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعبدتهم . ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعترها .

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين . ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ إلى الإسلام . ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيف وفتح الباء ، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي : إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله . ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ وإنما لم يقل أم صمتتم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوى بالثبات على الصمات ، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل : سواء عليكم إحداثكم دعاءهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة . ﴿عِبَادُ أُمثَالِكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة . ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم آلهة ، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسي قال لهم : إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض ، ثم عاد عليه بالنقض فقال : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرأ «إن الذين» بتخفيف «إن» ونصب «عباد» على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله ، و «يبطشون» بالضم ها هنا وفي «القصص» و «الدخان» . ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي . ﴿ثُمَّ كِيدُوا﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر ، وهي أنتم وشركاؤكم . ﴿فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ فلا تمهلون فإني لا أبالي بكم لو ثوقني على ولاية الله تعالى وحفظه .

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ .

﴿إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن . ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه .

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاة بهم .
﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه .

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ .

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشق عليهم ، من العفو الذي هو ضد الجهد أو «خذ العفو» عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل وجوب الزكاة .
﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال . ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فلا تمارهم ولا تكافئهم بمثل

أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق أمرة للرسول باستجماعها.

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ ينخسك منه نخس أي وسوسة تحملك على خلاف ما أمرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزغ والنسخ والنخس الغرز شبه وسوسته للناس إغراء لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو ﴿سَمِيعٌ﴾ بأقوال من آذاك ﴿عليمٌ﴾ بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠١﴾ وَلِإِخْوَانِهِمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ لمة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب «طيف» على أنه مصدر أو تخفيف طيف كلين وهين، والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميره. ﴿تَذَكَّرُوا﴾ ما أمر الله به ونهى عنه. ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقع الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآية تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا بمددهم الشياطين. ﴿فِي الْغَيِّ﴾ بالتزيين والحمل عليه، وقرئ «يمدونهم» من أمد و«يمادونهم» كأنهم يعينونهم بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتباع والامتثال. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن اغوائهم حتى يردوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتقين، ويجوز أن يراد بال «الإخوان» الشياطين ويرجع الضمير إلى «الجاهلين» فيكون الخبر جارياً على ما هو له.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا﴾ هلا جمعناها تقولاً من نفسك كسائر ما تقرأه أو هلا طلبتها من الله. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ لست بمختلق للآيات أو لست بمقترح لها. ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له. وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يقرأ القرآن مطلقاً، وعامة العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾.

﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ عام في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أدخل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِالْفُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ بأوقات الفدو والعشيات. وقرئ «والأصال» وهو مصدر أصل إذا دخل في الأصل وهو مطابق

للغدو. ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملائكة الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار» وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدم شافعاً له يوم القيامة».

(٨) سورة الأنفال

مجدية وآياتها خمس وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾
 إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ أي الغنائم يعني حكمها، وإنما سميت الغنيمة نفلًا لأنها عطية من الله وفضل كما سمي به ما يشرطه الإمام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه. ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي أمرها مختص بهما يقسمها الرسول على ما يأمره الله به. وسبب نزوله اختلاف المسلمين في غنائم بدر أنها كيف تقسم ومن يقسم المهاجرون منهم أو الأنصار. وقيل شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينقله، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم. وكان المال قليلًا. فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات: كنا رداءً لكم وفئة تنحازون إلينا، فنزلت فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء، ولهذا قيل: لا يلزم الإمام أن يفي بما وعد وهو قول الشافعي رضي الله عنه، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر قتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، فأتيته به رسول الله ﷺ واستوهبته منه فقال: ليس هذا لي ولا لك اطرحه في القبض فطرحته، وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي فما جاوزت إلا قليلًا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: سألتني السيف وليس لي وأنه قد صار لي فاذهب فخذ. وقرئ «يسألونك الأنفال» بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام وإدغام نون عن فيها، و«يسألونك الأنفال» أي يسألك الشبان ما شرطت لهم. ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة. ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله وتسليم أمره إلى الله والرسول. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٤﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرغت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله. وقيل هو الرجل يهيم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفاً من عقابه. وقرئ «وَجِلَتْ» بالفتح وهي لغة، وفَرَّقَتْ أي خافت. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لزيادة المؤمن به، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون إليه أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة، و ﴿حَقًّا﴾ صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد كقوله: «هو عبد الله حقاً». ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ كرامة وعلو منزلة. وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أعد لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الحال في كراهتهم إياها كحال إخراجك للحرب في كراهتهم له، وهي كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة. أو صفة مصدر الفعل المقدر في قوله: ﴿الله والرسول﴾ أي الأنفال ثبتت لله والرسول ﷺ مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراجك ربك من بيتك، يعني المدينة لأنها مهاجرة ومسكنه أو بيته فيها مع كراهتهم. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ في موقع النحال أي أخرجك في حال كراهتهم، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل وعمرو بن هشام، فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقياً لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ الخبر أهل مكة، فنادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول، عيركم أموالكم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، وقد رأت قبل ذلك بثلاث عاتكة بنت عبد المطلب أن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت في مكة إلا أصابه شيء منها، فحدثت بها العباس وبلغ ذلك أبا جهل فقال: ما ترضى رجالهم أن يتنبؤوا حتى تتنبأ نساؤهم، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة ومضى بهم إلى بدر وهو ماء كانت العرب تجتمع عليه لسوقهم يوماً في السنة، وكان رسول الله ﷺ بوادي ذفران فنزل عليه جبريل عليه السلام بالوعد بإحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، فاستشار فيه أصحابه فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للعير، فردد عليهم وقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو، فغضب رسول الله ﷺ فقام أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وقالوا فأحسننا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض فيه فوالله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال مقداد بن عمرو: امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أشيروا علي أيها الناس» وهو يريد الأنصار لأنهم كانوا عددهم وقد شرطوا حين بايعوه بالعقبه أنهم برآء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على عدو دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال لكانك تزيدينا يا رسول الله فقال: أجل، قال: قد أمتنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا، وإننا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فبسر بنا على بركة الله تعالى، فنشطه قوله ثم قال: «سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم». وقيل إنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من بدر قيل له: عليك بالعير فناده العباس وهو في وثاقه لا يصلح فقال له «لم» فقال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك، فكره بعضهم قوله.

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦).

﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد بإظهار الحق لإيثارهم تلقي العير عليه. ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ لهم أنهم ينصرون أينما توجهوا بإعلام الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه، وكان ذلك لقلة عددهم وعدم تأهبهم إذ روي أنهم كانوا رجالاً وما كان فيهم إلا فارسان، وفيه إيماء إلى أن مجادلهم إنما كانت لفرط فرغهم ورعبهم.

﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧) ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨).

﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ على إضمار اذكر، وإحدى ثاني مفعولي ﴿يعدكم﴾ وقد أبدل منها. ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني العير فإنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ولذلك يتمنونها ويكرهون ملاقة النفير لكثرة عددهم، وعددهم والشوكة الحدة مستعارة من واحدة الشوك. ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يشبته ويعليه. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ الموحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالإمداد، وقرئ «بكلمته». ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ويستأصلهم، والمعنى: أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروهاً، والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي فعل ما فعل وليس بتكرير، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت، والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَعِدُّكُمْ﴾ أو متعلق بقوله ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾، أو على إضمار اذكر، واستغاثتهم أنهم لما علموا أن لا محيص عن القتال أخذوا يقولون: أي رب انصرنا على عدوك أغثنا يا غياث المستغيثين، وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه عليه السلام نظر إلى المشركين وهم ألف وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض» فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فقال أبو بكر يا نبي الله: كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ﴾ بأني ممدكم، فحذف الجار وسلط عليه الفعل وقرأ أبو عمرو بالكسر على إرادة القول أو إجراء استجابة مجرى قال لأن الاستجابة من القول. ﴿بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضاً من أردفته أنا إذا جئت بعده، أو متبعين بعضهم بعض المؤمنين، أو أنفسهم المؤمنين من أردفته إياه فردفه. وقرأ نافع ويعقوب ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بفتح الدال أي متبعين أو متبعين بمعنى أنهم كانوا مقدمة الجيش أو ساقتهم. وقرئ «مُرْدِفِينَ» بكسر الراء وضمها وأصله مرتدفين بمعنى متردفين فادغمت التاء في الدال فالتقى ساكنان فحركات الراء بالكسر على الأصل أو بالضم على الانباع. وقرئ «بِالْفِ» ليوافق ما في سورة «آل عمران»، ووجه التوفيق بينه وبين المشهور أن المراد بالالف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة، أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم واختلف في مقاتلتهم وقد روي أخبار تدل عليها.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ فيزول ما بها

من الوجع لقلبتكم وذلتكم: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوهما وسائط لا تأثير لها فلا تحسبوا النصر منها ولا تيأسوا منه بفقدها.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من ﴿إِذْ يَعِدْكُمْ﴾ لإظهار نعمة ثالثة أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل، أو بجعل أو بإضمار اذكر. وقرأ نافع بالتخفيف من أغشيته الشيء إذا غشيته إياه والفاعل على القراءتين هو الله تعالى وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «يغشاكم النعاس» بالرفع. ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أمانا من الله، وهو مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله «يغشاكم النعاس» متضمن معنى تنعسون، و «يغشاكم» بمعناه، وال «أَمَنَةً» فعل لفاعله ويجوز أن يراد بها الإيمان فيكون فعل المغشي، وأن تجعل على القراءة الأخيرة فعل النعاس على المجاز لأنها لأصحابه، أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف فلما غشاهم فكانه حصلت له أمانة من الله لولاها لم يغشهم كقوله:

بَهَابُ النُّوْمِ أَنْ يَغْشَى عُيُونًا تَهَابُكَ فَهُوَ نَفَارٌ شَرُودُ

وَقَرِءَ «أَمَنَةً» كرحمة وهي لغة. ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الحدث والجنابة. ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني الجنابة لأنها من تخيله، أو وسوسته وتخويفه إياهم من العطش. روي أنهم نزلوا في كتيب أغفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء وناموا فاحتلم أكثرهم وقد غلب المشركون على الماء، فوسوس إليهم الشيطان وقال: كيف تنصرون، وقد غلبتم على الماء وأنتم تصلون محدثين مجنين وتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله فأشفقوا فأنزل الله المطر، فمطروا ليلاً حتى جرى الوادي واتخذوا الحياض على عدوته وسقوا الركاب واغتسلوا وتوضؤوا، وتلبد الرمل الذي بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام وزالت الوسوسة. ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بالوثوق على لطف الله بهم. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ أي بالمطر حتى لا تسوخ في الرمل، أو بالربط على القلوب حتى تثبت في المعركة.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَغْنَقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢).

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ بدل ثالث أو متعلق بثبت. ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ﴾ في إيعانتهم وتثبيتهم وهو مفعول «يوحى». وقرىء بالكسر على إرادة القول أو إجراء الوحي مجراه. ﴿فَتَيَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالبخارة أو بتكثير سوادهم، أو بمحاربة أعدائهم فيكون قوله: ﴿سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ كالتفسير لقوله ﴿إِنِّي مَعَكُمْ فَتَيَاتُ﴾، وفيه دليل على أنهم قاتلوا ومن منع ذلك جعل الخطاب فيه مع المؤمنين إما على تغيير الخطاب أو على أن قوله: ﴿سَالِقِي﴾ إلى قوله: ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ تلقين للملائكة ما يشتون المؤمنين به كأنه قال: قولوا لهم قولوا هذا. ﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَغْنَقِ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس. ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أصابع أي جزوا رقابهم واقطعوا أطرافهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣) ذَلِكَمُ فَذُووهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب أو الأمر به والخطاب للرسول، أو لكل أحد من المخاطبين قبل: ﴿بِأَنَّهُمْ

شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بسبب مشاققتهم لهما واشتقاقه من الشق لأن كلاً من المتعادين في شق خلاف شق الآخر كالمعاداة من العدو والمخاصمة من الخصم وهو الجانب. ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما حاق بهم في الدنيا.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الخطاب فيه مع الكفرة على طريقة الالتفات ومنحله الرفع أي: الأمر ذلكم أو ذلكم واقع أو نصب يفعل دل عليه. ﴿فَلَوْ قُوَّةٌ﴾ أو غيره مثل باسروا أو عليكم فتكون الفاء عاطفة. ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه، والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة. ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما. وقرئ ﴿وَأَنَّ﴾ بالكسر على الاستئناف.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ كثيراً بحيث يرى لكثرتهم كأنهم يزحفون، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مقعده قليلاً قليلاً، سمي به وجمع على زحوف وانتصابه على الحال. ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ بالانهزام فضلاً أن يكونوا مثلكم أو أقل منكم، والأظهر أنها محكمة مخصوصة بقوله: ﴿حُرْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الآية، ويجوز أن ينتصب زحفاً حالاً من الفاعل والمفعول أي: إذا لقيتموهم متزاحفين يذبون إليكم وتذبون إليهم فلا تنهزموا، أو من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً.

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ يريد الكر بعد الفر وتغريب العدو، فإنه من مكاييد الحرب. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أو منحازاً إلى فئة أخرى من المسلمين على القرب ليستعين بهم، ومنهم من لم يعتبر القرب لما روى ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في سرية بعثهم رسول الله ﷺ ففروا إلى المدينة فقلت: يا رسول الله نحن الفرارون فقال: «بل أنتم العكارون وأنا فئتكم». وانتصاب متحرفاً ومتحيزاً على الحال وإلا لغو لا عمل لها، أو الاستثناء من المولين أي إلا رجلاً متحرفاً أو متحيزاً، ووزن متحير متفعل لا متفعل وإلا لكان متحزواً لأنه من حاز يحوز. ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هذا إذا لم يزد العدو على الضعف لقوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ الآية، وقيل الآية مخصوصة بأهل بيته والحاضرين معه في الحرب.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَّةٌ بَلَاءٌ حَسْبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ الْكَافِرِينَ ۝١٨﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم. روي: أنه لما طلعت قريش من العقنقل قال عليه الصلاة والسلام: هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك، اللهم إني أسألك ما وعدتني فاتاه جبريل عليه السلام وقال له: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فلما التقى الجمعان تناول كفاً من الحصاء فرمى بها في وجوههم وقال «شاهت الوجوه»، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، ثم لما انصرفوا أقبلوا على التفاخر فيقول الرجل قتلت وأسرت، فنزلت. وإلقاء جواب شرط محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله

قتلهم. ﴿وَمَا رَمَيْتُ﴾ يا محمد رمياً توصله إلى أعينهم ولم تقدر عليه. ﴿إِذْ رَمَيْتُ﴾ أي إذ أتيت بصورة الرمي. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أتى بما هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا وتمكنت من قطع دابرهم، وقد عرفت أن اللفظ يطلق على المسمى وعلى ما هو كماله والمقصود منه. وقيل معناه ما رميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ولكن الله رمى بالرعب في قلوبهم. وقيل إنه نزل في طعنة طعن بها أبي بن خلف يوم أحد ولم يخرج منه دم فجعل يخور حتى مات. أو رمية سهم رماه يوم خيبر نحو الحصن فأصاب كنانة بن أبي الحقيق على فراشه، والجمهور على الأول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿ولكن﴾ بالتخفيف ورفع ما بعده في الموضعين. ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات فعل ما فعل. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، أو القتل أو الرمي، ومحله الرفع أي المقصود أو الأمر ذلكم وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف عليه أي المقصود إبلاء المؤمنين وتوهمين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿موهن﴾ بالتشديد، وحفص ﴿موهن كيد﴾ بالإضافة والتخفيف.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين. ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلين. ﴿وَإِنْ تُعُودُوا﴾ لمحاربهته. ﴿نَعْدُ﴾ لنصرته عليكم. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ ولن تدفع. ﴿عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو المضار. ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فنتكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والمعونة. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿وَأَنَّ﴾ بالفتح على تقدير ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك. وقيل الآية خطاب للمؤمنين والمعنى: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهيج العدو، ولن تغني حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإنه مع الكاملين في إيمانهم ويؤيد ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي ولا تتولوا عن الرسول، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهي عن الإعراض عنه، وذكر طاعة الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله في طاعة الرسول لقوله تعالى ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقيل الضمير للجهد أو للأمر الذي دل عليه الطاعة. ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواظ على سماع فهم وتصديق.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالكفرة والمنافقين الذين ادعوا السماع. ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً يتفعون به فكأنهم لا يسمعون رأساً.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ شر ما يدب على الأرض، أو شر البهائم. ﴿الصُّمُّ﴾ عن الحق. ﴿الْبُكْمُ﴾ الَّذِينَ لَا يَفْقَهُونَ إِيَّاهُ، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ سعادة كتبت لهم أو انتفاعاً بالآيات. ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع تفهم. ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ وقد علم أن لا خير فيهم. ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ ولم ينتفعوا به، أو ارتدوا بعد التصديق والقبول. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لعنادهم. وقيل كانوا يقولون للنبي ﷺ: أخى لنا قضيأ فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك ونؤمن بك. والمعنى لأسمعهم كلام قصي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ (٢٤)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بالطاعة. ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحد الضمير فيه لما سبق ولأن دعوة الله تسمع من الرسول. وروي أنه عليه الصلاة والسلام مر على أبي وهو يصلي فدعاه ففعل في صلاته ثم جاء فقال: ما منعك عن إجابتي قال: كنت أصلي، قال: «لم تخبر فيما أوحى إلي» ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾. واختلف فيه فقيل هذا لأن إجابته لا تقطع الصلاة فإن الصلاة أيضاً إجابة. وقيل لأن دعاءه كان لأمر لا يحتمل التأخير وللمصلي أن يقطع الصلاة لمثله وظاهر الحديث يناسب الأول. ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية فإنها حياة القلب والجهل موته. قال:

لَا تَغْجِبَنَّ الْجَهْلُورَ جَلَّتْهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ وَوُجُوهُ كَفَنَ

أو مما يورثكم الحياة الأبدية في النعيم الدائم من العقائد والأعمال، أو من الجهاد فإنه سبب بقائكم إذ لو تركوه لغلبهم العدو وقتلهم، أو الشهادة لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ وتنبه على أنه مطلع على مكنونات القلوب مما عسى يغفل عنه صاحبها، أو حث على المبادرة إلى اخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول الله بينه وبين قلبه بالموت أو غيره، أو تصوير وتخيل لتملكه على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده ويحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته. وقرئ ﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ بالتشديد على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الراء وإجراء الوصل الوقف على لغة من يشدد فيه. ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥)

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ اتقوا ذنباً يعمكم أثره كإقرار المنكر بين أظهركم والمداهنة في الأمر بالمعروف وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل في الجهاد على أن قوله لا تصيب إنما جواب الأمر على معنى أن أصابكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة بل تعمكم، وفيه أن جواب الشرط متردد فلا يليق به التون المؤكدة لكنه لما تضمن معنى النهي ساغ فيه كقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ وأما صفة لـ ﴿فِتْنَةً﴾، ولا للنفي وفيه شدوذ لأن التون لا تدخل المنفي في غير القسم، أو لنهي على إرادة القول كقوله:

حتى إذا جن الظلام واختلط جاؤوا بمذق هل رأيت الذئب قط

وإما جواب قسم محذوف كقراءة من قرأ لتصيين وإن اختلفا في المعنى، ويحتمل أن يكون نهياً بعد الأمر باتقاء الذئب عن التعرض للظلم فإن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه، ومن في منكم على الوجوه

الأول للتبعيض وعلى الأخيرين للتبيين وفائدته التنبيه على أن الظلم منكم أقبح من غيركم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَاسْتَغِيثُوا مِنْ رَبِّكُمْ فَكَانَ لَكُمْ الْبَيْتُ الْمَعِينُ﴾ (٢٦).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش، والخطاب للمهاجرين. وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم. ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ﴾ كفار قريش أو من عداهم فإنهم كانوا جميعاً معادين لهم مضادين لهم. ﴿فَأَوَّكَكُمْ﴾ إلى المدينة، أو جعل لكم مأوى تحصنون به عن أعاديكم. ﴿وَاسْتَغِيثُوا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ على الكفار أو بمظاهرة الأنصار، أو بإمداد الملائكة يوم بدر. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من الغنائم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بتعطيل الفرائض والسنن، أو بأن تضمروا خلاف ما تظهرون، أو بالغلول في المغنم. وروي: (أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء بأرض الشام، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم، فبعثه إليهم فقالوا ما ترى هل نزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار إلى حلقه أنه الذبح، قال أبو لبابة: فما زالت قدماي حتى علمت أنني قد خنت الله ورسوله، فنزلت. فشد نفسه على سارية في المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه. فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده فقال إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام يجزيك الثلث أن تتصدق به). وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام، واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه. ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ فيما بينكم وهو مجزوم بالعطف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم تخونون، أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنهم سبب الوقوع في الإثم أو العقاب، أو محنة من الله تعالى ليلوكم فيهم فلا يحملنكم جهمهم على الخيانة كآبي لبابة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن أثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم، فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل أو نصراً يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين، أو مخرجاً من الشبهات، أو نجاة عما تحذرون في الدارين، أو ظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم من قولهم بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان أي

الصبح. ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ويسترها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالتجاوز والعفو عنكم. وقيل السيئات الصغائر والذنوب الكبائر. وقيل المراد ما تقدم وما تأخر لأنها في أهل بدر وقد غفرهما الله تعالى لهم. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان، وأنه ليس مما يوجب تقواهم عليه كالسيد إذا وعد عبده إنعاماً على عمل.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ

﴿٣٠﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تذكّر لما مكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خلاصه. من مكروهم واستيلائه عليهم، والمعنى واذكر إذ يمكرون بك. ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوثاق أو الحبس، أو الإتيان بالجرح من قولهم ضربه حتى أثبتته لا حراك به ولا براح، وقرئ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالتشديد و«ليثبتوك» من البيات و«ليقتلوك». ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ بسووفهم. ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة، وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم فرقوا واجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً فقال أبو البحتري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها حتى يموت، فقال الشيخ بش الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم، فقال هشام بن عمرو رأيي أن تحملوه على جمل فتخرجوه من أرضكم فلا يضركم ما صنع، فقال بش الرأي يفسد قوماً غيركم ويقاتلكم بهم، فقال أبو جهل أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربة واحدة فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناه. فقال صدق هذا الفتى فتفرقوا على رأيه، فأتى جبريل النبي عليهما السلام وأخبره الخبر وأمره بالهجرة، فبيت علياً رضي الله تعالى عنه في مضجعه وخرج مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى الغار. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ برد مكروهم عليهم، أو بمجازاتهم عليه، أو بمعاملة الماكرين معهم بأن أخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين في أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إذ لا يؤبه بمكروهم دون مكروه، وإسناد أمثال هذا مما يحسن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم.

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَاتَيْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَرْسِلْ رِجْلاً أَوْ آتِنَا

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَاتَيْنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ هو قول النضر بن الحارث، وإسناده إلى الجميع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم فإنه كان قاصهم، أو قول الذين ائتمروا في أمره عليه السلام وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم، إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين، ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سورة مع أنفتهم وفرط استكفافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره الأولون من القصص.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَرْسِلْ رِجْلاً أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا أيضاً من كلام ذلك القائل أبلغ في الجحود. روي أنه لما قال النضر إن هذا إلا أساطير الأولين قال له النبي ﷺ: «ويلك إنه كلام الله» فقال ذلك. والمعنى إن كان هذا القرآن حقاً منزلاً فأمطر الحجارة علينا عقوبة على

إنكاره، أو اثنتا بعدذاب أليم سواء، والمراد منه التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً. وقرئ «الحق» بالرفع على أن «هو» مبتدأ غير فصل، وفائدة التعريف فيه الدلالة على أن المعلق به كونه حقاً بالوجه الذي يدعيه النبي ﷺ وهو تنزيله لا الحق مطلقاً لتجوزهم أن يكون مطابقاً للواقع غير منزل كأساطير الأولين.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيان لما كان الموجب لإمهالهم والتوقف في إجابة دعائهم، واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبي ﷺ بين أظهرهم خارج عن عادته غير مستقيم في قضائه، والمراد باستغفارهم إما استغفار من بقي فيهم من المؤمنين، أو قولهم اللهم غفرانك، أو فرضه على معنى لو استغفروا لم يعذبوا كقوله: «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون».

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ وما لهم مما يمنع تعذيبهم متى زال ذلك وكيف لا يعذبون. «وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» وحالهم ذلك ومن صدهم عنه إلجاء رسول الله ﷺ والمؤمنين إلى الهجرة وإحصارهم عام الحديبية. «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ» مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهو رد لما كانوا يقولون نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء. «إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقيل الضميران لله. «وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أن لا ولاية لهم عليه كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥)

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعاؤهم أو ما يسمونه صلاة، أو ما يضعون موضعها. «إِلَّا مُكَاءً» صغيراً فعال من مكأ يكمأ إذا صفر. وقرئ بالقصر كالبكاء. «وَتَصْدِيَةً» تصفيقاً تفعله من الصدا، أو من الصد على إبدال أحد حرفي التضعيف بالياء. وقرئ «صلاتهم» بالنصب على أنه الخبر المقدم، ومساق الكلام لتقرير استحقاقهم العذاب أو عدم ولايتهم للمسجد فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. روي: أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون. وقيل: كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي ﷺ أن يصلي يخلطون عليه ويرون أنهم يصلون أيضاً. «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» يعني القتل والأسر يوم بدر، وقيل عذاب الآخرة واللام يحتمل أن تكون للعهد والمعهود: «اثنتا بعدذاب». «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» اعتقاداً وعملاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَرُونَهَا ثُمَّ كَانُوا عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾ (٣٦)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نزلت في المطعميين يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من قريش يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر، أو في أبي سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية. أو في أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش

يبدد قيل لهم أعيونوا بهذا المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا، والمراد بـ ﴿مَسِيلَ اللَّهِ﴾ دينه واتباع رسوله. ﴿فَسَيَنْفِقُونَهَا﴾ بتمامها ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر، والثاني إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو إنفاق أحد، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وإنه لم يقع بعد. ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير مقصود جعل ذاتها تصير حسرة وهي عاقبة إنفاقها مبالغته. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر وإن كان الحرب بينهم سجلاً قبل ذلك. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي الذين ثبتوا على الكفر منهم إذا أسلم بعضهم. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون.

﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨).

﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن، أو الفساد من الصلاح. واللام متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ أو ﴿يُغْلَبُونَ﴾ أو ما أنفقه المشركون في عداوة رسول الله ﷺ مما أنفقه المسلمون في نصرته، واللام متعلقة بقوله ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب ﴿لِيُمِيزَ﴾ من التمييز وهو أبلغ من الميز. ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ فيجمعه ويضم بعضه إلى بعض حتى يتراكبوا لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزيد به عذابه كمال الكافرين. ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ كله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنفقين. ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه والمعنى قل لأجلهم. ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام. ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذنوبهم، وقرئ بالتاء والكاف على أنه خاطبهم و«يغفر» على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى قتاله. ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِذَا انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ (٤٠).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لا يوجد فيهم شرك. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ وتضمحل عنهم الأديان الباطلة. ﴿فَإِذَا انتَهَوْا﴾ عن الكفر. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم. وعن يعقوب «تعملون» بالتاء على معنى فإن الله بما تعملون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير، فيجازيكم ويكون تعليقهم بانتهاهم دلالة على أنه كما يستدعي إنابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم للتسبب.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم ينتهوا. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم فتقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم. ﴿نِعَمَ الْمَوْلَىٰ﴾ لا يضيع من تولاه. ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ لا يغلب من نصره.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أي الذي أخذتموه من الكفار قهراً. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء حتى الخيط. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي: فثبت أن لله خمسة. وقرئ «فإن» بالكسر والجمهور على أن ذكر الله للتعظيم كما في قوله: ﴿وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾. وأن المراد قسم الخمس على الخمسة المعطوفين ﴿وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فكأنه قال: فإن لله خمسة يصرف إلى هؤلاء الأخصين به. وحكمه بعده، باق غير أن سهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين كما فعله الشيخان رضي الله تعالى عنهما. وقيل إلى الإمام. وقيل إلى الأصناف الأربعة. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه سقط سهمه وسهم ذوي القربى بوفاته وصار الكل مصروفاً إلى الثلاثة الباقية. وعن مالك رضي الله تعالى عنه الأمر فيه مفوض إلى رأي الإمام يصرفه إلى ما يراه أهم، وذهب أبو العالية إلى ظاهر الآية فقال يقسم ستة أقسام ويصرف سهم الله إلى الكعبة لما روي (أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ قبضة منه فيجعلها للكعبة ثم يقسم ما بقي على خمسة). وقيل سهم الله لبیت المال. وقيل هو مضموم إلى سهم الرسول ﷺ. وذو القربى: بنو هاشم، وبنو المطلب. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قسم سهم ذوي القربى عليهما فقال له عثمان وجبير بن مطعم رضي الله عنهما: هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام وشبك بين أصابعه». وقيل بنو هاشم وحدهم. وقيل جميع قريش الغني والفقير فيه سواء. وقيل هو مخصوص بفقرائهم كسهم بن السبيل. وقيل الخمس كله لهم والمراد باليتامى والمساكين وابن السبيل من كان منهم والعطف للتخصيص. والآية نزلت ببدر. وقيل الخمس كان في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء فسلموه إليهم واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية، فإن العلم العملي إذا أمر به لم يرد منه العلم المجرد لأنه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل. ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والملائكة والنصر. وقرئ «عبدنا» بضمين أي الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم بدر فإنه فرق فيه بين الحق والباطل. ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ الْمُشْرِكُونَ الْمَسْلُومِينَ وَالْكَافِرِينَ﴾ أي: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير والإمداد بالملائكة.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْفُضُؤَىٰ وَالرَّكْبَ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَأَخْلَفْتُمْ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنَّ اللَّهَ لَيَقْضِي أَمْرًا كَاتٍ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا﴾ بدل من «يوم الفرقان»، والعدوة بالحركات الثلاث شط الوادي وقد قرئ بها، والمشهور الضم والكسر وهو قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب. ﴿وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْفُضُؤَى﴾ البعدى من المدينة، تأنيث الأقصى وكان قياسه قلب الواو ياء كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقود وهو أكثر استعمالاً من القصيا. ﴿وَالرَّكْبَ﴾ أي العير أو قوادها. ﴿اسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ في مكان أسفل من مكانكم يعني الساحل، وهو منصوب على الظرف واقع موقع الخبر والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة عنها وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبدلوا منتهى جهدهم، وضعف شأن المسلمين واليتامى أمرهم واستبعاد غلبتهم عادة، وكذا ذكر

مراكز الفريقين فإن العدو الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء، بخلاف العدو القصوى وكذا قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِ الْمِيعَادِ﴾ أي لو تواعدتم أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلقتم أنتم في الميعاد هيبة منهم، وبأساً من الظفر عليهم ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ليس إلا صنعا من الله تعالى خارقاً للعادة فيزدادوا إيماناً وشكراً. ﴿وَلَكِنْ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد. ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ حقيقة بأن يفعل وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بدل منه أو متعلق بقوله مفعولاً والمعنى: ليموت من يموت عن بيينة عاينها ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها لئلا يكون له حجة ومعدرة، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة. أو ليصدر كفر من كفر وإيمان من آمن عن وضوح بيينة على استعارة الهلاك والحياة للكفر والإسلام، والمراد بمن هلك ومن حي المشارف للهلاك والحياة، أو من هذا حاله في علم الله وقضائه.

وقرىء ﴿لِيَهْلِكَ﴾ بالفتح وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر ويعقوب من ﴿حيي﴾ بفك الإدغام للحمل على المستقبل. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بكفر من كفر وعقابه، وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ إِذَاتِ الضُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَلَّلَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ مقدر باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان، أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح إذ بقللهم في عينك في رؤياك وهو أن تخبر به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم. ﴿وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ﴾ لجبتهم. ﴿وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع. ﴿إِنَّهُ عَلَيْهِ إِذَاتِ الضُّدُورِ﴾ يعلم ما سيكون فيها وما يغير أحوالها.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ الضميران مفعولاً يرى و ﴿قَلِيلًا﴾ حال من الثاني، وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين فقال أتراهم مائة، تثبيتاً لهم وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ.

﴿وَقَلَّلَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وقللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونها مثلهم لتفجأهم الكثرة فتبتهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظام آيات تلك الوقعة فإن البصر وإن كان قد يرى الكثير قليلاً والقليل كثيراً لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبطار بعض دون بعض مع التساوي في الشروط.

﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلن به، أو لأن المراد بالأمر ثمة الاكتفاء على الوجه المحكي وما هنا إعزاز الإسلام وأهله وإدلال الإشراك وحزبه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا تَنْزِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِرِينَ ﴿٤٦﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ حاربتهم جماعة ولم يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار، واللقاء مما غلب في القتال. ﴿فَأَبِئْتُوا﴾ للقاءهم. ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في مواطن الحرب داعين له مستظهريين بذكره مترقيين لنصره. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه بشرائره فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في شيء من الأحوال.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء كما فعلتم بيدر أو أحد. ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ جواب النهي. وقيل عطف عليه ولذلك قرئ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ بالجزم، والريح مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها ونفوذها. وقيل المراد بها الحقيقة فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثها الله وفي الحديث «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور». ﴿وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالكلاءة والنصرة.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿٤٧﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير. ﴿بَطَرًا﴾ فخراً وأشراً. ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبي سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بداراً ونشرب فيها الخمر وتعرف علينا القيان ونطعم بها من حضرنا من العرب، فوافوها ولكن سقوا كأس المنيا وناحت عليهم النوائح، فهي المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مراثين، وأمرهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص من حيث إن النهي عن الشيء أمر بضده. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معطوف على بَطَرًا إن جعل مصدراً في موضع الحال وكذا إن جعل مفعولاً له لكن على تأويل المصدر. ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ مقدر باذكر. ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ في معادة الرسول ﷺ وغيرها بأن وسوس إليهم. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ مقالة نفسانية والمعنى: أنه ألقى في روعهم وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم حتى قالوا: اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين، ولكم خير لا غالب أو صفته وليس صلته وإلا لا تنصب كقولك: لا ضارباً زيدا عندنا. ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أي تلاقى الفريقان. ﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ رجع القهقري أي بطل كيده وعاد ما خيل إليهم أنه مجيرهم سبب هلاكهم. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي تبرأ منهم وخاف عليهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة، وقيل: لما اجتمعت قريش على المسير ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة وكاد ذلك يشيهم، فتمثل لهم إبليس بصورة سراقه بن مالك الكناني وقال لا غالب لكم اليوم وإني مجيركم من بني كنانة، فلما رأى الملائكة تنزل نكص وكان يده في يد الحرث بن هشام فقال له: إلى أين أتخذلنا في هذه الحالة فقال إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقه فبلغه ذلك فقال: والله ما

شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلموا علموا أنه الشيطان. وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ إِنِّي أَخَافُهُ أَنْ يَصِيْبَنِي مَكْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ يَهْلِكُنِي وَيَكُونُ الْوَقْتُ هُوَ الْوَقْتُ الْمَوْعُودُ إِذْ رَأَى فِيهِ مَا لَمْ يَرْ قَبْلَهُ، وَالْأَوَّلُ مَا قَالَهُ الْحَسَنُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ بَحْرٍ. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. يجوز أن يكون من كلامه وأن يكون مستأنفاً.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩).

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ والذين لم يطمثوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة. وقيل هم المشركون. وقيل المنافقون والعطف لتغاير الوصفين. ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعنون المؤمنين. ﴿دِينُهُمْ﴾ حتى تعرضوا لما لا يدي لهم به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ جواب لهم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستعده العقل ويعجز عن إدراكه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ولو رأيت فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكس إن. ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ يبدر، وإذ ظرف ترى والمفعول محذوف أي ولو ترى الكفرة أو حالهم حينئذ، والملائكة فاعل يتوفى ويدل عليه قراءة ابن عامر بالتاء ويجوز أن يكون الفاعل ضمير الله عز وجل وهو مبتدأ خبره ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ والجملة حال من الذين كفروا، واستغني فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين. ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ظهورهم أو أستاهم، ولعل المراد تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ عطف على يضربون بإضمار القول أي ويقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب الآخرة. وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهب النار منها، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف لتقطع الأمر وتهويله.

﴿ذَلِكَ﴾ الضرب والعذاب. ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ بسبب ما كسبت من الكفر والمعاصي وهو خبر لذلك. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ عطف على «ما» للدلالة على أن سببته مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لا يمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا أن لا يعذبهم بذنوبهم. فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً حتى يتنهض نفي الظلم سبباً للتعذيب وظلام التكثير لأجل العبيد.

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢) ذَلِكَ يَأْتِيكَ مُغَيَّرًا نَعْمَةً أُنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يَأْتِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤).

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون وهو عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل آل فرعون. ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ تفسير لدأبهم. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أخذ هؤلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما حل بهم. ﴿يَأْنِ لِلَّهِ﴾ بسبب أن الله. ﴿لَمْ يَكْ مُغْتَبِراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنعمة. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يبدلوا ما بهم من الحال إلى حال أسوأ، كتغيير قريش حالهم في صلة الرحم والكف عن تعرض الآيات والرسول بمعادة الرسول عليه السلام ومن تبعه منهم، والسعي في إراقة دمائهم والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد المبعث، وليس السبب عدم تغيير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جري عادته على تغييره متى يغيروا حالهم، وأصل يك يكون فحذفت الحركة للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون.

﴿كَذَّابٍ أَلٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وبيان ما أخذ به آل فرعون. وقيل الأول لتشبيه الكفر والأخذ به والثاني لتشبيه التغيير في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم. ﴿وَكُلٌّ﴾ من الفرق المكذبة، أو من غرقى القبط وقتلى قريش. ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان، ولعله إخبار عن قوم مطبوعين على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف، وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ﴾ بدل من الذين كفروا بدل البعض للبيان والتخصيص، وهم يهود قريظة عاهدتهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا: نسينا ثم عاهدتهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم. ومن لتضمين المعاهدة معنى الأخذ والمراد بالمرة مرة المعاهدة أو المحاربة. ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ سبة الغدر ومغبتها، أو لا يتقون الله فيه أو نصره للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ﴾ فإذا تصادفهم وتظفرون بهم، ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ﴾ ففرق عن مناصبتك ونكل عنها بقتلهم والنكايه فيهم ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ من وراءهم من الكفرة والتشريد تفريق على اضطراب. وقرئ «فشرد» بالذال المعجمة وكأنه مقلوب شذر و ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾، والمعنى واحد فإنه إذا شرد من وراءهم فقد فعل التشريد في الراء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعل المشردين يتعظون.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين. ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بأمارات تلوح لك. ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم. ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على عدل وطريق قصد في العداوة ولا تناجزهم الحرب فإنه يكون خيانة منك، أو على سواء في الخوف أو العلم بنقض العهد وهو في موضع الحال من النابذ على الوجه الأول أي ثاباً على طريق سوي أو منه أو من المنبوذ إليهم أو منهما على غيره، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال على طريقة الاستئناف.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ خطاب للنبي ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ مفعولاه وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص

بالباء على أن الفاعل ضمير أحد أو «من خلفهم»، أو «الذين كفروا» والمفعول الأول أنفسهم فحذف للتكرار، أو على تقدير أن «سبقوا» وهو ضعيف لأن أن المصدرية كالموصول فلا تحذف أو على إيقاع الفعل على «أَنَّهُمْ لَا يُغْجِرُونَ» بالفتح على قراءة ابن عامر وأن «لا» صلة و «سبقوا» حال بمعنى سابقين أي مفلتين، والأظهر أنه تعليل للنهي أي: لا تحسبنهم سبقوا فأفلتوا لأنهم لا يفوتون الله، أو لا يجدون طالبهم عاجزاً. عن إدراكهم وكذا إن كسرت إن إلا أنه تعليل على سبيل الاستئناف، ولعل الآية إزاحة لما يحذر به من نبد العهد وإيقاظ العدو، وقيل نزلت فيمن أفلت من فل المشركين.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٦٠﴾﴾
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ لناقضي العهد أو الكفار. ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب. وعن عقبه بن عامر سمعته عليه الصلاة والسلام يقول على المنبر «ألا إن القوة الرمي قالها ثلاثاً» ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أقواه. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ اسم للخيل التي تربط في سبيل الله، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به يقال ربط ربطاً ورباطاً ورباطاً ورباطة ورباطاً، أو جمع ربيط كفصيل وفصال. وقرئ «ربط الخيل» بضم الباء وسكونها جمع رباط وعطفها على القوة كعطف جبريل وميكائيل على الملائكة. ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ﴾ تخوفون به، وعن يعقوب «ترهبون» بالتشديد والضمير لـ ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أو للإعداد. ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ يعني كفار مكة. ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ من غيرهم من الكفرة. قيل هم اليهود وقيل المنافقون وقيل الفرس. ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ لا تعرفونهم بأعيانهم. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ يعرفهم. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ بتضييع العمل أو نقص الثواب.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مالوا ومنه الجناح. وقد يعدى باللام وإلى. ﴿لِلسَّلَامِ﴾ للصلح أو الاستسلام. وقرأ أبو بكر بالكسر. ﴿فَاجْتَنَحْ لَهَا﴾ وعاهد معهم وتأنث الضمير لحمل السلم على تقيضها فيه. قال:

السَّلَامُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جَرَعٌ

وقرئ «فاجتنح» بالضم. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من إبطانهم خداعاً فيه، فإن الله يعصمك من مكرهم ويحيق بهم. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم. والآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم وقيل عامة نسختها آية السيف.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ
لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فإن محسبك الله وكافيك قال جرير:

إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبِسُوا حُرَّ الثِّيَابِ وَتَشَبِعُوا
﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً.

﴿وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما فيهم من العصبية والضعينة في أدنى شيء، والتهالك على الانتقام بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان حتى صاروا كنفس واحدة، وهذا من معجزاته ﷺ، وبيانه: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي تناهى عداوتهم إلى حد لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض

من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة، فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة لا يعصى عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريده، وقيل الآية في الأوس والخزرج كان بينهم محن لا أمد لها ووقائع هلكت فيها ساداتهم، فأنساهم الله ذلك وألف بينهم بالإسلام حتى تصافوا وصاروا أنصاراً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كافيك. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إما في محل النصب على المفعول معه كقوله:

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَاشْتَجَرَ الْقَنَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

أو الجر عطفاً على المكني عند الكوفيين، أو الرفع عطفاً على اسم الله تعالى أي كفاك الله والمؤمنون. والآية نزلت بالبدياء في غزوة بدر، وقيل أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة، ثم أسلم عمر رضي الله عنه فنزلت. ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت في إسلامه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٥) أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٦).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ بالغ في حثهم عليه، وأصله الحرص وهو أن ينهكه المرض حتى يشفي على الموت وقرئ «حرص» من الحرص. ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ شرط في معنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأييده. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تكن» بالتاء في الآيتين ووافقهم البصريان في «وإن تكن منكم مائة». ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ بسبب أنهم جهلة بالله واليوم الآخر لا يشبثون ثياب المؤمنين رجاء الثواب وعوالي الدرجات قتلوا أو قتلوا ولا يستحقون من الله إلا الهوان والخذلان.

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لما أوجب على الواحد مقاومة العشرة والثبات لهم وثقل ذلك عليهم خفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين، وقيل كان فيهم قلة فأمرهم بذلك ثم لما كثروا خفف عنهم، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد والضعف ضعف البدن. وقيل ضعف البصيرة وكانوا متفاوتين فيها، وفيه لغتان الفتح وهو قراءة عاصم وحمزة والضم وهو قراءة الباقيين. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧).

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وقرئ «للنبي» على العهد. ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ وقرأ البصريان بالتاء. ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يكسر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حربه ويعز الإسلام ويستولي أهله، من أسخنه المرض إذا

أثقله وأصله الشخانة، وقرئ «يشخن» بالتشديد للمبالغة. ﴿ثُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذكم الفداء. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة أو سبب نيل ثواب الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه. وقرئ بجر ﴿الْآخِرَةَ﴾ على إضمار المضاف كقوله:

أَكُلْ أَمْرِيءَ تَخَسَّيْنِ أَمْرًا وَتَارَ تُسَوِّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه. ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم ما يليق بكل حال ويخصه بها، كما أمر بالإثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين وخير بينه وبين المن لما تحولت الحال وصارت الغلبة للمؤمنين. روي أنه عليه السلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب فاستشار فيهم فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم وخذ منهم فدية تقوي بها أصحابك، وقال عمر رضي الله تعالى عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء، مكني من فلان - لنسب له - ومكن علياً وحمزة من أخويهما فلنضرب أعناقهم، فلم يهو ذلك رسول الله ﷺ وقال: إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ فخير أصحابه فأخذوا الفداء، فنزلت فدخل عمر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبيكان فقال: «يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت فقال: أبك على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة». والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يقرون عليه.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦٩).

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوماً بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها ستحل لهم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنالكم. ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روي أنه عليه السلام قال: «لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ». وذلك لأنه أيضاً أشار بالإثخان.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنائم. وقيل أمسكوا عن الغنائم فنزلت. والفاء للتسبب والسبب محذوف تقديره: أبحث لكم الغنائم فكلوا، وبنحوه تشبث من زعم أن الأمر الوارد بعد الحظر للإباحة. ﴿حَلَالًا﴾ حال من المغنوم أو صفة للمصدر أي أكلًا حلالاً، وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة، أو حرمتها على الأولين ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ غفر لكم ذنبكم ﴿رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ (٧٠) ﴿وَلَا يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ وقرأ أبو عمرو «من الأسارى». ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصاً. ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء. روي (أنها نزلت في العباس رضي الله عنه

كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت فقال: أين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم، فقال العباس: وما يدريك، قال: أخبرني به ربي تعالى، قال: فأشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسوله والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل، قال العباس فأبدلني الله خيراً من ذلك لي الآن عشرون عبداً إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفاً وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربكم) يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ يعني الأسرى. ﴿خِيَانَتَكَ﴾ نقض ما عاهدوك. ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ﴾ بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بالعقل. ﴿مِنْ قَبْلِ قَامَكُمْ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنك منهم كما فعل يوم بدر فإن أعادوا الخيانة فسيمكنك منهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ هم المهاجرون هاجروا أوطانهم حباً لله ولرسوله. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في الكراع والسلاح وأنفقوها على المحاولج. ﴿وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمباشرة القتال. ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار آووا المهاجرين إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم. ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب حتى نسخ بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ أَوْ بالنصرة والمظاهرة. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي من توليهم في الميراث، وقرأ حمزة ﴿ولايتهم﴾ بالكسر تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والإمارة كأنه بتولييه صاحبه يزاول عملاً. ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين. ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عهد فإنه لا ينقض عهدهم لنصرهم عليهم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في الميراث أو المؤازرة، وهو بمفهومه يدل على منع التوارث أو المؤازرة بينهم وبين المسلمين. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في التوارث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار. ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحصل فتنة فيها عظيمة، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر. ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ في الدين وقرىء «كثير».

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين في الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد

وبذل المال ونصرة الحق، ووعد لهم الموعد الكريم فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تبعة له ولا منة فيه، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في التوارث من الأجانب. ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في حكمه، أو في اللوح أو في القرآن وأستدل به على توريث ذوي الأرحام. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من الموارث والحكمة في إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة، أولاً واعتبار القرابة ثانياً. عن النبي ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةً فَأَنَا شَفِيعٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وشاهد أنه بريء من النفاق، وأعطى عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملته يستغفرون له أيام حياته».

(٩) سورة براءة

مدنية وقيل إلا آيتين من قوله: ﴿لقد جاءكم رسول﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهي آخر ما نزل ولها أسماء أخرى، «التوبة» و «المقشقة» و «البحوث» و «المبعثرة» و «المنقرة» و «المثيرة» و «الحافرة» و «المخزية» و «الفاضحة» و «المنكلة» و «المشردة» و «المدممة» و «سورة العذاب» لما فيها من التوبة للمؤمنين والقشقة من النفاق وهي التبري منه، والبحث عن حال المنافقين وإثارتها، والحفر عنها وما يخزيهم ويفضحهم وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم.

وأياها مائة وثلاثون وقيل تسع وعشرون، وإنما تركت التسمية فيها لأنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله أمان. وقيل كان النبي ﷺ إذا نزلت عليه سورة أو آية بين موضعها، وتوفي ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الأنفال وتناسبها لأن في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذها فضمت إليها. وقيل لما اختلفت الصحابة في أنها سورة واحدة هي سابعة السبع الطوال أو سورتان تركت بينهما فرجة ولم تكتب بسم الله.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعِزٌّ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي هذه براءة، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصله ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ويجوز أن تكون ﴿براءة﴾ مبتدأ لتخصيصها بصفتها والخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقرئ بنصبها على اسمعوا براءة، والمعنى: أن الله ورسوله برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين، وإنما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاودة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم وإن كانت صادرة بإذن الله تعالى واتفاق الرسول فإنهما برئا منها، وذلك أنهم عاهدوا مشركي العرب فنكثوا إلا أناساً منهم بنو ضمرة وبنو كنانة فأمرهم بنبد العهد إلى الناكثين وأمهل المشركين أربعة أشهر ليسيروا أين شاؤوا فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأنها نزلت في شوال. وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر لأن التبليغ كان يوم النحر لما روي (أنها) لما نزلت أرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأها على أهل الموسم، وكان قد بعث أبا بكر رضي الله تعالى عنه أميراً على الموسم فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني، فلما دنا علي رضي الله تعالى عنه سمع أبو بكر الرغاء فوقف وقال: هذا رغاء ناقة رسول الله ﷺ فلما لحقه قال: أمير أو مأمور قال مأمور، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله تعالى عنه وحدثهم عن مناسكهم وقام علي رضي الله عنه يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله إليكم، فقالوا بماذا فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده. ولعل قوله ﷺ «لا يؤدي عني إلا رجل مني» ليس على العموم، فإنه ﷺ بعث لأن يؤدي عنه كثير لم يكونوا من عترته، بل هو مخصوص بالعهود فإن عادة العرب أن لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل

منها، ويدل عليه أنه في بعض الروايات «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي». ﴿وَاعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ أي إعلام فعال بمعنى الإفعال كالأمان والعطاء، ورفع كرفع «براءة» على الوجهين. «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» يوم العيد لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله، ولأن الإعلام كان فيه ولما روي أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال «هذا يوم الحج الأكبر» وقيل يوم عرفة لقوله ﷺ «الحج عرفة». ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر، أو لأن المراد بالحج ما يقع في ذلك اليوم من أعماله فإنه أكبر من باقي الأعمال، أو لأن ذلك الحج اجتمع فيه المسلمون والمشركون ووافق عيده أعياد أهل الكتاب، أو لأنه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين. ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي بأن الله. «بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أي من عهودهم. «وَرَسُولُهُ» عطف على المستكن في «بريء»، أو على محل «إن» واسمها في قراءة من كسرهما إجراء للأذان مجرى القول، وقرئ بالنصب عطفاً على اسم إن أو لأن الواو بمعنى مع ولا تكرير فيه، فإن قوله «براءة من الله» إخبار بشبوت البراءة وهذه إخبار بوجوب الإعلام بذلك ولذلك علقه بالناس ولم يخصه بالمعاهدين. «فَإِنْ تُبْتُمْ» من الكفر والغدر. «فَهُوَ» فالتوب «خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن التوبة أو ثبتم على التولي عن الإسلام والوفاء. «فَاعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً في الدنيا. «وَنَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ» في الآخرة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ استثناء من المشركين، أو استدراك فكأنه قيل لهم بعد أن أمروا بنبذ العهد إلى الناكثين ولكن الذين عاهدوا منهم. «ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا» من شروط العهد ولم ينكثوه أو لم يقتلوا منكم ولم يضروكم قط. «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا» من أعدائكم «فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ» إلى تمام مدتهم ولا تجروهم مجرى الناكثين. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبية على أن إتمام عهدهم من باب التقوى.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَتَّهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَإِذَا انسَلَخَ﴾ انقضى، وأصل الانسلاخ خروج الشيء مما لابس من سلخ الشاة. «الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ» التي أبيع للناكثين أن يسيحوا فيها. وقيل هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم وهذا مخل بالنظم مخالف للإجماع فإنه يقتضي بقاء حرمة الأشهر الحرم إذ ليس فيما نزل بعد ما ينسخها. «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ» الناكثين. «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» من حل أو حرم. «وَخُذُوهُمْ» وأسروهم، والأخذ الأسير. «وَأَخْضُرُوهُمْ» واحبسوهم أو حيلوا بينهم وبين المسجد الحرام. «وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» كل ممر لثلاث يتبسطوا في البلاد، وانتصابه على الظرف. «فَإِنْ تَابُوا» عن الشرك بالإيمان. «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ» تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم.

﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ فدعوههم ولا تتعرضوا لهم بشيء من ذلك، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلو سبيله. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل للأمر أي فخلوهم لأن الله غفور رحيم غفر لهم ما قد سلف وعدهم الثواب بالتوبة.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ المأمور بالتعرض لهم. ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك. ﴿فَأَجِزْهُ﴾ فامنه. ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ موضع أمته إن لم يسلم، وأخذ رفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء لأن إن من عوامل الفعل. ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما الإيمان وما حقيقة ما تدعوههم إليه فلا بد من أمانهم ريثما يسمعون ويتدبرون.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار والاستبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع وغرة صدورهم، أو لأن يفي الله ورسوله بالعهد وهم نكثوه، وخبر يكون كيف وقدم للاستفهام أو للمشركين أو عند الله وهو على الأولين صفة للـ ﴿عهد﴾ أو ظرف له أو لـ ﴿يكون﴾، و ﴿كيف﴾ على الآخرين حال من الـ ﴿عهد﴾ و ﴿للمشركين﴾ إن لم يكن خبراً فتبيين. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هم المستثنون قبل ومحل النصب على الاستثناء أو الجر على البدل أو الرفع على أن الاستثناء منقطع أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي فتربصوا أمرهم فإن استقاموا على العهد فاستقيموا على الوفاء وهو كقوله ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَنِهِمْ﴾ غير أنه مطلق وهذا مقيد وما تحتل الشرطية والمصدرية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ سبق بيانه.

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨).

﴿كَيْفَ﴾ تكرار لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكمه مع التنبيه على العلة وحذف الفعل للعلم به كما في قوله:

وَحَبَّرْتُمَانِي أَنَّهَا الْمَوْتُ بِالْقَرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلِيبَ
أي فكيف مات. ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي وحالهم أنهم إن يظفروا بكم. ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعوا فيكم. ﴿إِلَّا﴾ حلفاً وقيل قرابة قال حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَاكَ مِنْ قُرَيْشٍ كِلَالُ السَّقَبِ مِنْ رَأْلِ السُّعَامِ
وقيل ربوبية ولعله اشتق للحلف من الأل وهو الجوار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، ثم استعير للقرابة لأنها تعقد بين الأقارب ما لا يعقده الحلف، ثم للربوبية والترية. وقيل اشتقاقه من ألل الشيء إذا حدده أو من آل البرق إذا لمع. وقيل إنه عبري بمعنى الإله لأنه قرئ إيلا كجبرئيل وجبرئيل. ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله. ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ استئناف لبيان حالهم المنافية لثباتهم على العهد المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر، ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقبوا فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون ولأن المراد إثبات إرضائهم المؤمنين بوعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد في الحال، واستبطان الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا لم يبقوا عليهم والحالية تنافيه ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ ما تنفوه به أفواههم. ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ متمردون لا عقيدة تزعمهم ولا مروءة تردعهم، وتخصيص الأكثر لما في بعض

الكفرة من التفادي عن الغدر والتعفف عما يجر إلى أحذوثة السوء.

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفُضِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات. ﴿فُضِّدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دينه الموصل إليه، أو سبيل بيته بحصر الحجاج والعمار، والفاء للدلالة على أن اشتراءهم أداهم إلى الصد. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عملهم هذا أو ما دل عليه قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لا تكرير. وقيل الأول عام في الناقضين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ في الشرارة.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم في الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم. ﴿وَتَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين أو خصال التائبين.

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ وإن نكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان أو الوفاء بالعهد. ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام. ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ أي فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاء بالقتل. وقيل المراد بالأئمة رؤساء المشركين فالتخصيص إما لأن قتلهم أهم وهم أحق به أو لمنع من مراقبتهم. وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي و ﴿روح﴾ عن يعقوب أئمة بتحقيق الهمزتين على الأصل والتصريح بالياء لحن. ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي لا إيمان لهم على الحقيقة وإلا لما طعنوا ولم ينكثوا، وفيه دليل على أن الذمي إذا طعن في الإسلام فقد نكث عهده، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر ليست يميناً وهو ضعيف لأن المراد نفي الوثوق عليها لا أنها ليست بأيمان لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ وقرأ ابن عامر لا إيمان لهم بمعنى لا أمان أو لا إسلام، وتشبث به من لم يقبل توبة المرتد وهو ضعيف لجواز أن يكون بمعنى لا يؤمنون على الإخبار عن قوم معينين أو ليس لهم إيمان فيراقبوا لأجله. ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ متعلق بـ «فقاتلوهم» أي ليكن غرضكم في المقاتلة أن يتنهوا عما هم عليه لا إيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذنين.

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾ تحريض على القتال لأن الهمزة دخلت على النفي للإنكار فأفادت المبالغة في الفعل. ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي حلفوها مع الرسول عليه السلام والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم فعاونوا بني بكر على خزاعة. ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة على ما مر ذكره في قوله: ﴿وَإِذَا يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. وقيل هم اليهود نكثوا عهد الرسول وهموا بإخراجه من المدينة. ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالمعاداة والمقاتلة لأنه عليه الصلاة والسلام بدأهم بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي

به، فعدلوا عن معارضته إلى المعادة والمقاتلة فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم. ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يخشى إلا منه.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾^(١٤)
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١٥).

﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ أمر بالقتال بعد بيان موجهه والتوبيخ على تركه والتوعد عليه. ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم إن قاتلوهم بالنصر عليهم والتمكن من قتلهم وإذلالهم. ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة. وقيل بطوناً من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذى شديداً فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أبشروا فإن الفرج قريب».

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لما لقوا منهم وقد أوفى الله بما وعدهم والآية من المعجزات. ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابتداء إخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وقد كان ذلك أيضاً، وقرئ «وَيَتُوبُ» بالنصب على إضمار أن على أنه من جملة ما أجيب به الأمر فإن القتال كما تسبب لتعذيب قوم تسبب لتوبة قوم آخرين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما سيكون. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١٦).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال. وقيل للمنافقين و «أم» منقطعة ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على الحسبان. ﴿أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ولم يتبين الخلف منكم وهم الذين جاهدوا من غيرهم، نفى العلم وأراد نفى المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث إن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على «جاهدوا» داخل في الصلة. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ بطلانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم. وما في «لما» من معنى التوقع منه على أن تبين ذلك متوقع. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم منه وهو كالمزيج لما يتوهم من ظاهر قوله: ﴿ولما يعلم الله﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾^(١٧).

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما صح لهم. ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام وقيل هو المراد وإنما جمع لأنه قبله المساجد وإمامها فعامره كعامر الجميع ويدل عليه قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب بالتوحيد. ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول، وهو حال من الواو والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره. روي (أنه لما أسر العباس غيره المسلمون بالشرك وقطعة الرحم وأغلظ له علي رضي الله تعالى عنه في القول فقال: ما بالكم تذكرون «مساوينا» وتكتمون محاسننا إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجاج ونفك العاني) فنزلت. ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها بما قارنها من الشرك. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لاجله.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا

اللَّهُ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ .

﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ أي إنما تستقيم عمارتها لهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية ومن عمارتها تزيينها بالفرش وتويرها بالسرج وإدامة العبادة والذكر ودرس العلم فيها وضيائتها مما لم تبين له كحديث الدنيا، وعن النبي ﷺ «قال الله تعالى إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره». وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول ﷺ لما علم أن الإيمان بالله قرينه وتمامه الإيمان به ولدلالة قوله ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ عليه. ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي في أبواب الدين فإن الخشية عن المحاذير جبلية لا يكاد العاقل يتمالك عنها. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان اهتداؤهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلموا عليها.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ السقاية والعمارة مصدر أسقى وعمر فلا يشبهان بالجثث بل لا بد من إضمار تقديره أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن. ويؤيد الأول قراءة من قرأ «سقاة الحاج وعمرة المسجد» والمعنى إنكار أن يشبه المشركون وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة ثم قرر ذلك بقوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الكفرة ظلمة بالشرك ومعاداة الرسول عليه الصلاة والسلام منهمكون في الضلالة فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب، وقيل المراد بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تستجمع فيه هذه الصفات أو من أهل السقاية والعمارة عندكم. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالثواب ونيل الحسنى عند الله دونكم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم، وقرأ حمزة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بالتخفيف، وتنكير المبشر به إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأييد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقرونه ما استوجبوه لأجله أو نعيم الدنيا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة

قالوا: إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرنا وزهبت تجارتنا ويقينا ضائعين. وقيل نزلت نهياً عن موالة التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة، والمعنى لا تتخذوهم أولياء يمنعونكم عن الإيمان ويصدونكم عن الطاعة لقوله: ﴿إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ إن اختاروه وحرصوا عليه. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعهم الموالة في غير موضعها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤).

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أقرباؤكم مأخوذ من العشرة. وقيل من العشرة فإن العشيرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة. وقرأ أبو بكر «وعشيرتكم» وقرأ «وعشائركم». ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها. ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ فوات وقت نفاقها. ﴿وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ الحب الاختياري دون الطبيعي فإنه لا يدخل تحت التكليف في التحفظ عنه. ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ جواب ووعد والأمر عقوبة عاجلة أو آجلة. وقيل فتح مكة. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يرشدهم، وفي الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص منه.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُذِيرَكُمْ﴾ (٢٥).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يعني مواطن الحرب وهي مواقفها. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وموطن يوم حنين ويجوز أن يقدر في أيام مواطن أو يفسر المواطن بالوقت ك مقتل الحسين ولا يمنع إبدال قوله: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ منه أن يعطف على موضع في «مواطن» فإنه لا يقتضي تشاركهما فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابها إياهم في جمع المواطن. و «حنين» واد بين مكة والطائف حارب فيه رسول الله ﷺ والمسلمون - وكانوا اثني عشر ألفاً، العشرة الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء - هوازن وثقيفاً وكانوا أربعة آلاف فلما التقوا قال النبي ﷺ أو أبو بكر رضي الله تعالى عنه أو غيره من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، إعجاباً بكثرتهم واقتتلوا قتالاً شديداً فأدرك المسلمين إعجابهم واعتمادهم على كثرتهم فانهزموا حتى بلغ فلهم مكة وبقي رسول الله ﷺ في مركزه ليس معه إلا عمه العباس أخذاً بلجامه وابن عمه أبو سفيان بن الحرث، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته فقال للعباس - وكان صَيِّباً - «صَنِيعَ النَّاسِ»، فنأدى: يا عباد الله يا أصحاب الشجرة يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً يقولون لبيك ليك ونزلت الملائكة فالتقوا مع المشركين فقال ﷺ «هذا حين حمي الوطيس»، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم ثم قال: «انهزموا ورب الكعبة» فانهزموا. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ أي الكثرة. ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء أو من أمر العدو. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ برحبها أي بسعتها لا تجدون فيها مفرأ تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه. ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ الْمُذِيرَ﴾ الكفار ظهوركم. ﴿مُذِيرِينَ﴾ منهزمين والإدبار الذهاب إلى خلف خلاف الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧).

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ مَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي سكنوا بها وأمّنوا. ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما. وقيل هم الذين ثبتوا مع الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفروا. ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأعينكم أي الملائكة وكانوا خمسة آلاف أو ثمانية أو ستة عشر على اختلاف الأقوال. ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والسبي. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي ما فعل بهم جزاء كفرهم في الدنيا.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ منهم بالتوفيق للإسلام. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم. روي (أن ناساً منهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبرهم وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا. وقد سبي يومئذ ستة آلاف نفس وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى. فقال ﷺ: اختاروا إما سبائكم وإما أموالكم؟ فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً فقام رسول الله ﷺ وقال: إن هؤلاء جاؤوا مسلمين وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً فمن كان بيده سبي وطابت نفسه أن يرده فشأنه ومن لا فليعطنا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه فقالوا: رضينا وسلمنا فقال: إني لا أدري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا فرفعوا أنهم قد رضوا).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ لخبث باطنهم أو لأنه يجب أن يجتنب عنهم كما يجتنب عن الأنجاس، أو لأنهم لا يتطهرون ولا يتجنبون عن النجاسات فهم ملابسون لها غالباً. وفيه دليل على أن ما الغالب نجاسته نجس. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن أعيانهم نجسة كالكلاب. وقرئ «نَجَسٌ» بالسكون وكسر النون وهو ككبد في كبد وأكثر ما جاء تابعا لرجس. ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لنجاستهم، وإنما نهى عن الاقتراب للمبالغة أو للمنع عن دخول الحرم. وقيل المراد به النهي عن الحج والعمرة لا عن الدخول مطلقاً وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى وقاس مالك سائر المساجد على المسجد الحرام في المنع، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ يعني سنة «براءة» وهي التاسعة. وقيل سنة حجة الوداع. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقرأ بسبب منعهم من الحرم وانقطاع ما كان لكم من قديمهم من المكاسب والأرفاق. ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه أو تفضله بوجه آخر وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً ووفق أهل تبالة وجرش فأسلموا وامتاروا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض. وقرئ «عائلة» على أنها مصدر كالعافية أو حال. ﴿إِنْ شَاءَ﴾ قيده بالمشيئة لتقطع الآمال إلى الله تعالى ولينبه على أنه تعالى متفضل في ذلك وأن الغني الموعود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩).

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يؤمنون بهما على ما ينبغي كما بيناه في أول «البقرة» فإن إيمانهم كلا إيمان. ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة وقيل رسوله هو الذي يزعمون اتباعه والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثابت الذي هو ناسخ سائر الأديان ومبطلها. ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين لا يؤمنون. ﴿حَتَّى

يُغَطُّوا الْجِزْيَةَ ﴿٣٠﴾ ما تقرر عليهم أن يعطوه مشتق من جزى دينه إذا قضاه. ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من الضمير أي عن يد مؤاتية بمعنى منقادين، أو عن يدهم بمعنى مسلمين بأيديهم غير باعثين بأيدي غيرهم ولذلك منع من التوكيل فيه، أو عن غنى ولذلك قيل: لا تؤخذ من الفقير، أو عن يد قاهرة عليهم بمعنى عاجزين أدلاء أو من الجزية بمعنى نقداً مسلمة عن يد إلى يد أو عن إنعام عليهم فإن إبقاءهم بالجزية نعمة عظيمة. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أدلاء وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: تؤخذ الجزية من الذمي وتوجأ عنقه. ومفهوم الآية يقتضي تخصيص الجزية بأهل الكتاب ويؤيده أن عمر رضي الله تعالى عنه لم يكن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، أنه ﷺ أخذها من مجوس هجر. وأنه قال: «سنا بهم سنة أهل الكتاب» وذلك لأنهم لهم شبهة كتاب فألحقوا بالكتابيين، وأما سائر الكفرة فلا تؤخذ منهم الجزية عندنا، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. تؤخذ منهم إلا مشركي العرب لما روى الزهري أنه ﷺ صالح عبدة الأوثان إلا من كان من العرب، وعند مالك رحمه الله تعالى تؤخذ من كل كافر إلا المرتد، وأقلها في كل سنة دينار سواء فيه الغني والفقير، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى على الغني ثمانية وأربعون درهماً وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها ولا شيء على الفقير غير الكسوب.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤْفِكُونَ﴾ (٣١).

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة، وهو لما أحياء الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا أنه ابن الله. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتونين على أنه عربي مخبر عنه بابن غير موصوف به وحذفه في القراءة الأخرى إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف، أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر. ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب أو لأن يفعل ما فعله من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً. ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجاوز عنها، أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان. ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم والمراد قداموهم على معنى أن الكفر قديم فيهم، أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله، أو اليهود على أن الضمير للنصارى، والمضاهاة المشابهة والهمز لغة فيه. وقرأ به عاصم ومنه قولهم امرأة ضهيأ على فعيل للتي شابهت الرجال في أنها لا تحيض. ﴿فَاتْلُهُمْ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك، أو تعجب من شناعة قولهم. ﴿أَنَّى يُؤْفِكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣٢) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٣).

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم. ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون

أرباباً فيكون كالدليل على بطلان اتخاذ. ﴿إِلَّا لِيُعْبَدُوا﴾ ليطيعوا. ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الرسول وسائر من أمر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد. ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ يخدموا. ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته وتقديسه عن الولد، أو القرآن أو نبوة محمد ﷺ. ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بشركهم أو بتكذيبهم. ﴿وَيَتَأْبَى اللَّهُ﴾ أي لا يرضى. ﴿إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ﴾ بإعلاء التوحيد وإعزاز الإسلام. وقيل إنه تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يطلب إطفاء نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده بنفخه، وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ محذوف الجواب لدلالة ما قبله عليه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ كاليان لقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ﴾ ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على أنهم ضمو الكفر بالرسول إلى الشرك بالله، والضمير في ﴿ليظهره﴾ للدين الحق، أو للرسول عليه الصلاة والسلام واللام في ﴿الدين﴾ للجنس أي على سائر الأديان فينسخها، أو على أهلها فيخذلهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذونها بالرشا في الأحكام سمي أخذ المال أكلاً لأنه الغرض الأعظم منه. ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه. ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يجوز أن يراد به الكثير من الأخبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص على المال والظن به وأن يراد المسلمون الذين يجمعون المال ويقتنونه ولا يؤدون حقه ويكون اقتراؤه بالمرتشين من أهل الكتاب للتغليظ، ويدل عليه أنه لما نزل كبر على المسلمين فذكر عمر رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أدي زكاته فليس بكنز» أي بكنز أوعده عليه، فإن الوعيد على الكنز مع عدم الإنفاق فيما أمر الله أن ينفق فيه، وأما قوله ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوي بها» ونحوه فالمراد منها ما لم يؤد حقها لقوله عليه الصلاة والسلام فيما أورده الشيخان مروياً عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فيكوى بها جيئه وجنبه وظهره» ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو الكي بهما.

﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكَوَّى بِهَا جَاحَهُمُ وَجُوبُهُمْ وَظُهُرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ﴾ (٣٥).

﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي يوم توقد النار ذات حمى شديد عليها، وأصله تخمى بالنار فجعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيهاً على المقصود فانتقل من صيغة

التأنيث إلى صيغة التذكير، وإنما قال ﴿عليها﴾ والمذكور شيان لأن المراد بهما دنائير ودراهم كثيرة كما قال علي رضي الله تعالى عنه: أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كثر. وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ وقيل الضمير فيهما للكنوز أو للأموال فإن الحكم عام وتخصيصهما بالذكر لأنهما قانون التمول، أو للفضة وتخصيصها لقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم. ﴿فَتُكَوَّى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ لأن جمعهم وإسماهم إياه كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعيم بالمطاعم الشهية والملابس البهية، أو لأنهم ازوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد، أو لأنها أصول الجهات الأربع التي هي مقادير البدن وماخيره وجنياه. ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ عَلَىٰ إِرَادَةِ الْقَوْلِ﴾. ﴿لَأَنْفُسِكُمْ﴾ لمنفعتهم وكان عين مضرتهما وسبب تعذيبها. ﴿فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي وبال كتركهم أو ما تكتزونهم وقرىء «تَكْتُمُونَ» بضم النون.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي مبلغ عددها. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ معمول عدة لأنها مصدر. ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ، أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما فيه من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً والمعنى: أن هذا أمر ثابت في نفس الأمر مذ خلق الله الأجرام والأزمنة. ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي تحريم الأشهر الأربعة هو الدين القويم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام والعرب ورثوه منهما. ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ بهتك حرمتها وارتكاب حرامها والجمهور على أن حرمة المقاتلة فيها منسوخة، وأولوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وحال الإحرام، وعن عطاء أنه لا يحل للناس أن يغزوا في الحرم وفي الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ويؤيد الأول ما روي (أنه عليه الصلاة والسلام حاصر الطائف وغزا هوازن بحنين في شوال وذو القعدة). ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ جميعاً وهو مصدر كف عن الشيء فإن الجميع مكفوف عن الزيادة وقع موقع الحال. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بشارة وضمنان لهم بالنصرة بسبب تقواهم.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ذُنُوبُهُمْ أَعْمَلُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أي تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرّموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر واعتبروا مجرد العدد، وعن نافع برواية ورش ﴿إنما النسيء﴾ بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء فيها. وقرىء «النسيء» بحذفها و«النساء» و«النساء» وثلاثها مصادر نساء إذا أخره. ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرّمه الله فهو كفر آخر ضممه إلى كفرهم. ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يُضَلُّ﴾ على البناء للمفعول، وعن يعقوب ﴿يُضَلُّ﴾ على أن الفعل لله تعالى. ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا﴾ يحلون المنسي من الأشهر الحرم سنة ويحرمون مكانه شهراً آخر. ﴿وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ فيتركونه على حرمة. قيل: أول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكناني كان يقوم على جمل في الموسم فينادي. إن ألهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ثم ينادي في القبائل إن ألهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. والجملتان تفسير للضلال أو حال. ﴿لِيُؤَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي ليوافقوا عدة الأربعة المحرمة، واللام متعلقة

بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين ﴿فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بمواطأة العدة وحدها من غير مراعاة الوقت. ﴿رُزِنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ وقرئ على البناء للفاعل وهو الله تعالى، والمعنى خذلهم وأضلهم حتى حسبوا قبيح أعمالهم حسناً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الاهتداء.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ﴾ تباطأتم، وقرئ «تثاقلتم» على الأصل و «أتأقلتم» على الاستفهام للتوبيخ. ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق به كأنه ضمن معنى الإخلاء والميل فعدى بإلى، وكان ذلك في غزوة تبوك أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف في وقت عسرة وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو فشق عليهم. ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وغرورها. ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدل الآخرة ونعيمها. ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فما التمتع بها. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مستحقر.

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إن لا تنفروا إلى ما استنفرتم إليه. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالإهلاك بسبب فطيع كقحط وظهور عدو. ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل بكم آخرين مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ إذ لا يقدح تثاقلكم في نصر دينه شيئاً فإنه الغني عن كل شيء وفي كل أمر. وقيل الضمير للرسول ﷺ أي ولا تضروه فإن الله سبحانه وتعالى وعد له بالعصمة والنصر ووعدده حق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي إن لم تنصروه فسينصره الله كما نصره. ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ ولم يكن معه إلا رجل واحد، فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل عليه مقامه، أو إن لم تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصره في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في غيره، وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن مهمهم بإخراجه أو قتله تسبب لإذن الله له بالخروج. وقرئ «ثاني اثنين» بالسكون على لغة من يجري المنقوص مجرى المقصور في الإعراب ونصبه على الحال. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ بدل من إذ أخرجه بدل البعض إذ المراد به زمان متسع، والغار نقب في أعلى ثور وهو جبل في اليمن مكة على مسيرة ساعة مكثا فيه ثلاثاً. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ بدل ثان أو ظرف لثاني. ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالعصمة والمعونة. روي (أن المشركين طلوعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، فأعماههم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه). وقيل لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله والعنكبوت فنسجت عليه. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أمنت التي تسكن عندها القلوب. ﴿عَلَيْهِ﴾ على النبي ﷺ، أو على صاحبه وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة أنزلهم ليحرسوه في الغار أو ليعينوه على العدو يوم بدر والأحزاب وحنين، فتكون الجملة معطوفة على قوله ﴿نَصَرَهُ اللَّهُ﴾. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يعني الشرك أو دعوة الكفر. ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ يعني التوحيد أو دعوة الإسلام، والمعنى وجعل ذلك بتخليص

الرسول ﷺ عن أيدي الكفار إلى المدينة فإنه المبدأ له، أو بتأييده إياه بالملائكة في هذه المواطن أو بحفظه ونصره له حيث حضر. وقرأ يعقوب ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ بالنصب عطفًا على كلمة ﴿الَّذِينَ﴾، والرفع أبلغ لما فيه من الإشعار بأن ﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولا اعتبار ولذلك وسط الفصل. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدييره.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

﴿انْفِرُوا خِفَافًا﴾ لنشاطكم له. ﴿وَوَثِقَالًا﴾ عنه لمشقته عليكم، أو لقلّة عيالكم ولكثرتها أو ركبانا ومشاة، أو خفافاً وثقلاً من السلاح، أو صحاحاً ومراضاً ولذلك لما قال ابن أم مكتوم لرسول الله ﷺ: أعلي أن أنفر قال «نعم». حتى نزل ﴿ليس على الأعمى حرج﴾. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من تركه. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير علمتم أنه خير، أو إن كنتم تعلمون أنه خير إذ إخبار الله تعالى به صدق فبادروا إليه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣).

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ أي لو كان ما دعوا إليه نفعاً دنيوياً. ﴿قَرِيبًا﴾ سهل المأخذ. ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً. ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك. ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ﴾ أي المسافة التي تقطع بمشقة. وقرئ بكسر العين والشين. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين. ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ يقولون لو كان لنا استطاعة العدة أو البدن. وقرئ «لو استطعنا» بضم الواو تشبيهاً لها بواو الضمير في قوله: ﴿اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ﴾. ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ساد مسد جوابي القسم والشرط، وهذا من المعجزات لأنه إخبار عما وقع قبل وقوعه. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بإيقاعها في العذاب، وهو بدل من سيحلفون لأن الحلف الكاذب إيقاع للنفس في الهلاك أو حال من فاعله. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذاك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ كناية لا عن خطئه في الإذن فإن العفو من رواده. ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ بيان لما كني عنه بالعفو ومعاتبته عليه، والمعنى لأي شيء أذنت لهم في القعود حين استأذنوك واعتلوا بكاذيب وهلا توقفت. ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار. ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه. قيل إنما فعل رسول الله ﷺ شيئين لم يؤمر بهما، أخذه للعداء وإذنه للمنافقين فعاتبه الله عليهما.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥).

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا فإن الخلاص منهم يبادرون إليه ولا يتوقفون على الإذن فيه فضلاً أن يستأذنوك في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه. ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التخلف. ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ تخصيص الإيمان بالله عز وجل

﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

و «عده» بكسر العين بالإضافة و«عدة» بغيرها. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ كأنه قال ما خرجوا ولكن تشبّطوا لأنه تعالى كره انبعاثهم أي نهوضهم للخروج. ﴿فَتَبَطَّهْمُ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل. ﴿وَقِيلَ افْعَلُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود، أو حكاية قول بعضهم لبعض، أو إذن الرسول عليه السلام لهم والقاعدين يحتمل المعدورين وغيرهم وعلى الوجهين لا يخلو عن ذم.

﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً. ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشرّاً ولا يستلزم ذلك أن يكون لهم خيال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء، ولأجل هذا التوهم جعل الاستثناء منقطعاً وليس كذلك لأنه لا يكون مفرغاً. ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ ولا أسرعوا ركائبهم بينكم بالنسيئة والتضريب، أو الهزيمة والتخذيل من وضع البعير وضعا إذا أسرع. ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِشَّةَ﴾ يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب في قلوبكم، والجملة حال من الضمير في «أوضعوا». ﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾ ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم، أو نامون يسمعون حديثكم للنقل إليهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم.

﴿لَقَدْ اتَّبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا نَفْعَ لِيَ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ تشيت أمرك وتفريق أصحابك. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعني يوم أحد فإن ابن أبي وأصحابه كما تخلفوا عن تبوك بعدما خرجوا مع الرسول ﷺ إلى ذي جدة أسفل من ثنية الوداع انصرفوا يوم أحد. ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ ودبروا لك المكاييد والحيل ودوروا الآراء في إبطال أمرك. ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ بالنصر والتأييد الإلهي. ﴿وَوَهَّزَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وعلا دينه. ﴿وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي على رغم منهم، والآيات لتسلية الرسول ﷺ والمؤمنين على تخلفهم وبيان ما ثبطهم الله لأجله وكره انبعاثهم له وهتك أستارهم وكشف أسرارهم وإزاحة اعتذارهم تداركاً لما فوت الرسول ﷺ بالمبادرة إلى الإذن ولذلك عوتب عليه. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ في القعود. ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ولا توقعني في الفتنة أي في العصيان والمخالفة بأن لا تأذن لي، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له أم لم يأذن، أو في الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي. أو في الفتنة نساء الروم لما روي: أن جد بن قيس قال: قد علمت الأنصار أنني مولع بالنساء فلا تفتني بينات الأصفر

ولكني أعينك بمالي فاتركني. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف أو ظهور النفاق لا ما احتزروا عنه. ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ جامعاً لهم يوم القيامة، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١).

﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض غزواتك. ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفر وغنيمة. ﴿سُؤْهُمْ﴾ لفرط حسدهم. ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعضها. ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسر أو شدة كما أصاب يوم أحد. ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ﴾ تبجحوا بانصرافهم واستحمدوا رأيهم في التخلف. ﴿وَيَسْتَوِلُوا﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له، أو عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون.

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إلا ما اختصنا بإثباته وإيجابه من النصرة، أو الشهادة أو ما كتب لأجلنا في اللوح المحفوظ لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم. وقرىء «هل يصيبنا» و «هل يصيبنا» وهو من يفعل لا من فعل لأنه من بنات الواو لقولهم صاب السهم يصوب واشتقاقه من الصواب لأنه وقوع الشيء فيما قصد به. وقيل من الصوب. ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن حقهم أن لا يتوكلوا على غيره.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣).

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا. ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى العواقب: النصرة والشهادة. ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أيضاً إحدى السوأتين ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ بقارعة من السماء. ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ﴾ أمر في معنى الخبر، أي لن يتقبل منكم نفقاتكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً. وفائدته المبالغة في تساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أمروا بأن يمتحنوا فينفقوا وينظروا هل يتقبل منهم. وهو جواب قول جد بن قيس وأعينك بمالي. ونفي التقبل يحتمل أمرين أن لا يؤخذ منهم وأن لا يثابوا عليه وقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل له على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٥٥).

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم. وقرأ حمزة والكسائي «أن يقبل» بالياء لأن تأنيث النفقات غير حقيقي. وقرىء «يقبل» على أن الفعل لله. ﴿وَلَا

يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴿٥٦﴾ مُتَقَلِّبِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٨﴾ لَأَنَّهُمْ لَا يَرْجُونَ بِهِمَا ثَوَاباً وَلَا يَخَافُونَ عَلَى تَرْكِهِمَا عِقَاباً.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ وَوَيْلٌ لَهُمْ كَمَا قَالَ. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب مَا يَكَابِدُونَ لَجَمْعِهَا وَحِفْظِهَا مِنَ الْمَتَاعِبِ وَمَا يَرُونَ فِيهَا مِنَ الشَّدَائِدِ وَالْمَصَائِبِ. ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فَيَمُوتُوا كَافِرِينَ مُشْتَغِلِينَ بِالْتَمَتِّعِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْعَاقِبَةِ فَيَكُونُ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً لَهُمْ. وَأَصْلُ الزَّهْوِ الْخُرُوجُ بِصُعُوبَةٍ.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ أَوْ مَفْزَعٌ أَوْ مَدْخَلٌ لَوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَيْسَ لَكُمْ﴾ إِنَّهُمْ لَمِنْ جَمَلَةِ الْمُسْلِمِينَ. ﴿وَمَا هُمْ بِمَنْكُورٍ﴾ لِكُفْرِ قُلُوبِهِمْ. ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يَخَافُونَ مِنْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا بِهِمْ مَا تَفْعَلُونَ بِالْمُشْرِكِينَ فَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ تَقِيَةً.

﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأٌ﴾ حَصْناً يُلْجَأُونَ إِلَيْهِ ﴿أَوْ مَفَارِجٌ﴾ غَيْرَ آتٍ. ﴿أَوْ مَدْخَلٌ﴾ نَفَقاً يَنْجَحِرُونَ فِيهِ مَفْتَعِلٌ مِنَ الدَّخُولِ وَقُرْأَ يَعْقُوبُ ﴿مَدْخَلٌ﴾ مِنْ مَدْخَلٍ. وَقُرِئَ «مَدْخَلٌ» أَيَّ مَكَاناً يَدْخُلُونَ فِيهِ أَنْفُسُهُمْ وَ«مَدْخَلٌ» وَ«مَدْخَلٌ» مِنْ تَدْخُلُ وَانْدَخَلَ ﴿لَوَلُّوا إِلَيْهِ﴾ لَأَقْبَلُوا نَحْوَهُ. ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يَسْرِعُونَ إِسْرَاعاً لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ. وَقُرِئَ «يَجْمَزُونَ» وَمِنْهُ الْجَمَازَةُ.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ﴾ يَعْيِيكَ. وَقُرْأَ يَعْقُوبُ ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بِالضَّمِّ وَابْنُ كَثِيرٍ «يَلْمِزُكَ». ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فِي قِسْمِهَا. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ قِيلَ إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي الْجَوَاظِ الْمَنَافِقِ قَالَ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى صَاحِبِكُمْ إِنَّمَا يَقْسِمُ صَدَقَاتِكُمْ فِي رِعَاةِ الْغَنَمِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَعْدِلُ. وَقِيلَ فِي ابْنِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ رَأْسِ الْخَوَارِجِ، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ غَنَائِمَ حَنِينٍ فَاسْتَعْطَفَ قُلُوبَ أَهْلِ مَكَّةَ بِتَرْفِيرِ الْغَنَائِمِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «وَيْلَكَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ فَمَنْ يَعْدِلُ». وَ﴿إِذَا﴾ لِلْمُفَاجَأَةِ نَائِبِ مَنْابِ الْفَاءِ الْجَزَائِيَةِ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ مَا أَعْطَاهُمُ الرَّسُولُ مِنَ الْغَنِيمَةِ أَوْ الصَّدَقَةِ، وَذَكَرَ اللَّهُ لِلتَّعْظِيمِ وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنْ مَا فَعَلَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ بِأَمْرِهِ. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كَفَانَا فَضْلُهُ ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ صَدَقَةٌ أَوْ غَنِيمَةٌ أُخْرَى. ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فَيُؤْتِينَا أَكْثَرَ مِمَّا آتَانَا. ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ فِي أَنْ يَغْنِيَنَا مِنْ فَضْلِهِ، وَالآيَةُ بِأَسْرَافِهَا فِي حِيزِ الشَّرْطِ، وَالْجَوَابُ مُحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ «خَيْرٌ لَهُمْ». ثُمَّ بَيْنَ مَصَارِفِ الصَّدَقَاتِ تَصْوِيباً وَتَحْقِيقاً لِمَا فَعَلَهُ الرَّسُولُ ﷺ فَقَالَ:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ أَيُّ الزُّكُوتِ لِهَؤُلَاءِ الْمَعْدُودِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُزْمِ لِمَزْمِهِمْ فِي قِسْمِ الزُّكُوتِ دُونَ الْغَنَائِمِ. وَالْفَقِيرُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَا كَسْبَ يَقَعُ مَوْقِعاً مِنْ حَاجَتِهِ مِنَ الْفَقَارِ كَأَنَّهُ أَصِيبَ فَقَارَهُ. وَالْمَسْكِينُ مَنْ لَهُ مَالٌ أَوْ كَسْبٌ لَا يَكْفِيهِ مِنَ السُّكُونِ كَأَنَّهُ الْعَجْزُ أَسْكَنَهُ، وَبَدَلَ عَلَيْهِ

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ وأنه ﷺ كان يسأل المسكينة ويتعوذ من الفقر. وقيل بالعكس لقوله تعالى: ﴿وَمَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في تحصيلها وجمعها. ﴿وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستأنف قلوبهم أو أشرف قد يترتب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم، وقد أعطى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس لذلك. وقيل أشرف يستألفون على أن يسلموا فإنه ﷺ كان يعطيهم والأصح أنه كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله وقد عد منهم من يؤلف قلبه بشيء منها على قتال الكفار ومآني الزكاة. وقيل كان سهم المؤلف لثكنة سواد الإسلام فلما أعزه الله وأكثر أهله سقط. ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وللصرف في فك الرقاب بأن يعاون المكاتب بشيء منها على أداء النجوم. وقيل بأن تبتاع الرقاب فتعتق وبه قال مالك وأحمد أو بأن يفدي الأسارى. والعدول عن اللام إلى ﴿فِي﴾ للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب. وقيل للإيدان بأنهم أحق بها. ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ والمديونين لأنفسهم في غير معصية ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين وإن كانوا أغنياء لقوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: لغار في سبيل الله أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني أو لعامل عليها» ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وللصرف في الجهاد بالإنفاق على المتطوعة وابتياح الكراع والسلاح. وقيل وفي بناء القناطر والمصانع. ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله. ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر لما دل عليه الآية الكريمة أي فرض لهم الله الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكن في ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾. وقرئ بالرفع على تلك فريضة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها، وظاهر الآية يقتضي تخصيص استحقاق الزكاة بالأصناف الثمانية ووجوب الصرف إلى كل صنف وجد منهم ومراعاة التسوية بينهم قضية للاشتراك وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين جواز صرفها إلى صنف واحد وبه قال الأئمة الثلاثة واختاره بعض أصحابنا، وبه كان يفتي شيعي والوادي رحمهما الله تعالى على أن الآية بيان أن الصدقة لا تخرج منهم لا إيجاب قسمها عليهم.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١١).

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كل ما يقال له ويصدق، سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملة آلة السماع كما سمي الجاسوس عيناً لذلك، أو اشتق له فعل من أذن أذنًا إذا استمع كأنف وشلل. روي أنهم قالوا محمد أذن سامعة نقول ما شئنا ثم تأتيه فيصدقنا بما نقول. ﴿قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تصديق لهم بأنه أذن ولكن لا على الوجه الذي ذموا به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة. ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدقهم لما علم من خلوصهم، واللام مزيدة للفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم وإيمان الأمان. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي وهو رحمة. ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحمًا عليكم. وقرأ حمزة ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالجر عطفًا على ﴿خَيْرٌ﴾. وقرئ بالنصب على أنها علة فعل دل عليه ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ﴾ أي يأذن لكم رحمة. وقرأ نافع ﴿أُذُنٌ﴾ بالتخفيف فيهما. وقرئ «أذن خير» على أن ﴿خَيْرٌ﴾ صفة له أو خبر ثان ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بإيذائه.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ لِيُضَوِّكُمُ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (١٣).

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا أو تخلفوا. ﴿لِيُرْضَوْكُمْ﴾ لترضوا عنهم والخطاب للمؤمنين. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ أحق بالإرضاء بالطاعة والوفاء، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين أو لأن الكلام في إيذاء الرسول ﷺ وإرضائه، أو لأن التقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك. ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أن الشأن وقرىء بالتاء. ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يشاقق مفاعلة من الحد. ﴿فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي فحق أن له أو على تكرير أن للتأكيد ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجواب محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك، وقرىء «فإن» بالكسر. ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الهلاك الدائم.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥).

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتهتك عليهم أستارهم، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقروء ومحتج به عليهم، وذلك يدل على ترددهم أيضاً في كفرهم وأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول ﷺ بشيء. وقيل إنه خبر في معنى الأمر. وقيل كانوا يقولونه فيما بينهم استهزاء لقوله: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَبْرُزٌ أَوْ مَظْهَرٌ﴾. ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم، أو ما تحذرون إظهاره من مساويكم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ روي: أن ركب المنافقين مروا على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فأخبر الله تعالى به نبيه فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا» فقالوا لا والله ما كنا في شيء من أمرك وأمر أصحابك ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر. ﴿قُلِ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء به، وإلزاماً للحجة عليهم ولا تعباً باعتذارهم الكاذب.

﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَفَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦).

﴿لَا تَعْذِرُوا﴾ لا تشتغلوا باعتذاراتكم فإنها معلومة الكذب. ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ قد أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول ﷺ والطعن فيه. ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بعد إظهاركم الإيمان. ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء. ﴿تَعَذَّبَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على النفاق أو مقدمين على الإيذاء والاستهزاء. وقرأ عاصم بالنون فيهما. وقرىء بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله «وإن تعف» بالتاء والبناء على المفعول ذهاباً إلى المعنى كأنه قال: إن ترحم طائفة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٦٨).

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كأبعض الشيء

الواحد. وقيل إنه تكذيب لهم في حلفهم بالله ﴿إِنَّهُمْ لَمُنْكَم﴾ وتقرير لقولهم ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ وما بعده كالدليل عليه، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وهو قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ عن الإيمان والطاعة. ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن المبار، وقبض اليد كناية عن الشح. ﴿تَسُوا اللَّهَ﴾ أغفلوا ذكر الله وتركوا طاعته. ﴿فَتَسِيئُهُمْ﴾ فتركهم من لطفه وفضله. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء وفيه دليل على عظم عذابها. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته وأهانهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ﴾ لا ينقطع والمراد به ما وعدوه أو ما يقاسونه من تعب النفاق.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩).

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي أنتم مثل الذين، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم. ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ﴾ بيان لتشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم. ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ نصيبهم من ملاذ الدنيا، واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإنه ما قدر لصاحبه. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدجة من الشهوات الفانية والتهائم بها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم. ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ودخلتم في الباطل. ﴿كَالَّذِينَ خَاضُوا﴾ كالذين خاضوا، أو كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه. ﴿أُولَئِكَ حِطَّةُ آَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أغرقوا بالطوفان. ﴿وَعَادٌ﴾ أهلكوا بالريح. ﴿وَتَمُودٌ﴾ أهلكوا بالرجفة. ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلك نمرود ببعوض وأهلك أصحابه. ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ وأهل مدين وهم قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ قريات قوم لوط اتفكت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل، وقيل قريات المكذبين المتمردين واتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر. ﴿أَتَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ يعني الكل. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لم يك من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في مقابلة قوله ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأمور. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة فإن السين مؤكدة للوقوع. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع

عليه ما يريد. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ تستطيعها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر. ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إقامة وخلود. وعنه عليه الصلاة والسلام عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك. ومرجع العطف فيها يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد أو للجميع على سبيل التوزيع، أو إلى تغاير وصفه فكانه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم، ثم وصفه بأنه محفوظ بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار عليين لا يعترهم فيها فناء ولا تغير، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء، وعنه ﷺ: إن الله تعالى يقول لأهل الجنة هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً. ﴿ذَلِكَ﴾ أي الرضوان أو جميع ما تقدم. ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَتَّخِذُوا يَوْمَئِذٍ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف. ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بإلزام الحجة وإقامة الحدود. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في ذلك ولا تحابهم. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ﴾ مصيرهم.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ روي أنه ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد: لئن كان ما يقول محمد لإخواننا حقاً لنحن شر من الحمير، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قاله فنزلت فتاب الجلاس وحسنت توبته. ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام. ﴿وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَتَّخِذُوا﴾ من فلك الرسول، وهو أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه من تبوك أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ تسنم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها، فينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقة السلاح فقال إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا، أو إخراجهم وإخراج المؤمنين من المدينة أو بأن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ. ﴿وَمَا تَقْمُوا﴾ وما أنكروا أو ما وجدوا ما يورث نقتهم. ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن أكثر أهل المدينة كانوا محاييج في ضنك من العيش، فلما قدمهم رسول الله ﷺ أثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى. والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل. ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وهو الذي حمل الجلاس على التوبة والضمير في ﴿يَكْ﴾

للتوب. ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ بالإصرار على النفاق. ﴿يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالقتل والنار. ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فينجيهم من العذاب.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ نزلت في ثعلبة بن حاطب أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يرزقني مالا فقال عليه الصلاة والسلام: يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمي الدود حتى ضياقت بها المدينة، فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد فقال: يا ويح ثعلبة، فبعث رسول الله ﷺ مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه الكتاب الذي فيه الفرائض فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية فارجعا حتى أرى رأيي فنزلت، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال النبي ﷺ: إن الله معني أن أقبل منك فجعل يحشو التراب على رأسه فقال هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني، فقبض رسول الله ﷺ فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها، ثم جاء إلى عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في زمان عثمان رضي الله تعالى عنه.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ منعوا حق الله منه. ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض عنها.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨).

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد في قلوبهم، ويجوز أن يكون الضمير للبخل والمعنى فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم. ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي جزاء وهو يوم القيامة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصديق والصلاح. ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ويكونهم كاذبين فيه فإن خلف الوعد متضمن للكذب مستقبح من الوجهين أو المقال مطلقاً وقرئ «يَكْذِبُونَ» بالتشديد.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي المنافقون أو من عاهد الله وقرئ بالتاء على الالتفات. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ ما أسروه في أنفسهم من النفاق أو العزم على الإخلاف. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن، أو تسمية الزكاة جزية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه ذلك.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩).

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ذم مرفوع أو منصوب أو بدل من الضمير في سرهم. وقرئ «يَلْمِزُونَ» بالضم. ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ روي: أنه ﷺ حث على الصدقة، فجاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعة آلاف درهم وقال كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة وأمسكت لعيالي أربعة، فقال رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله له حتى صولحت إحدى امرأته عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع

تمر فقال بت ليلتي أجر بالجري على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره على الصدقات فلمزمهم المنافقون وقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ولقد كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات. فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ إلا طاقتهم. وقرىء بالفتح وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه. ﴿فَيَسْتَخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون بهم. ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جازاهم على سخريتهم كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ﴾. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على كفرهم.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يريد به التساوي بين الأمرين في عدم الإفادة لهم كما نص عليه بقوله: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له، ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: لأزيدن على السبعين فنزلت: ﴿سواء عليهم استغفرت لهم أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾. وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه، فبين له أن المراد به التكثير دون التحديد، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعائة ونحوها في التكثير، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد فكأنه العدد بأسره. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إشارة إلى أن اليأس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم، وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق، والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقلع ولا يهتدي، والتنبيه على عذر الرسول في استغفاره وهو عدم يأسه من إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة، والمنع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قَرَبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١) ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ بعمودهم عن الغزو خلفه يقال أقام خلاف الحي أي بعدهم، ويجوز أن يكون بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال. ﴿وَكُرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إشاراً للدعة والخفض على طاعة الله، وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج. ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ أي قال بعضهم لبعض أو قالوه للمؤمنين تنبيطاً. ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرونها بهذه المخالفة. ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أن مأبهم إليها، أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ إخبار عما يؤول إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كناية عن السرور والغم والمراد من القلة العدم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ (٨٢).

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ فإن رذك إلى المدينة وفيها طائفة من المتخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين، أو من بقي منهم وكان المتخلفون اثني عشر رجلاً. ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ إخبار في معنى النهي للمبالغة. ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تعليل له وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم و ﴿أول مرة﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك. ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم للجهاد كالنساء والصبيان. وقرئ مع «الخالفين» على قصر «الخالفين».

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمَ فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٤) (٨٥).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ روي: (أن عبد الله بن أبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه، فلما دخل عليه سأل أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلي عليه فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه وذهب ليصلي عليه) فنزلت. وقيل صلى عليه ثم نزلت، وإنما لم ينه عن التكفين في قميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضن بالقميص كان مخللاً بالكرم ولأنه كان مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين أسر بيدر، والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر ولذلك رتب النهي على قوله: ﴿مَاتَ أَبَدًا﴾ يعني الموت على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحي. ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ولا تقف عند قبره للدفن أو الزيارة. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأبيد الموت.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمَ فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغتبطة عليها. ويجوز أن تكون هذه في طريق غير الأول.

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نْكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧).

﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ويجوز أن يراد بها بعضها. ﴿أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا بالله ويجوز أن تكون أن المفسرة. ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الفضل والسعة. ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نْكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ الذين قعدوا لعذر.

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع النساء جمع خالفة وقد يقال الخالفة للذي لا خير فيه. ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في التخلف عنه من الشقاوة.

﴿لَيْكِنَ الرُّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩).

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة. وقيل الحور لقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾ وهي جمع خيرة تخفيف خيرة. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الآخوية.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩٠).

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يعني أسداً وغطفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. وقيل هم رهط عامر بن الطفيل قالوا إن غزونا معك أغارت طييء على أهاليها ومواسينا. والمعذر إما من عذر في الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عذراً ولا عذر له، أو من اعتذر إذا مهد العذر بادغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين، ويجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع لكن لم يقرأ بهما. وقرأ يعقوب ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ من أعذر إذا اجتهد في العذر. وقرأ ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد العين والذال على أنه من تعذر بمعنى اعتذر وهو لحن إذ التاء لا تدغم في العين، وقد اختلف في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة فيكون قوله: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في غيرهم وهم منافقو الأعراب كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان وإن كانوا هم الأولين فكذبهم بالاعتذار. ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب أو من المعتذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بالقتل والنار.

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢).

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ كالهرمي والزمي. ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ لفقرهم كجهينة ومزينة وبني عذرة. ﴿حَرَجٌ﴾ إنم في التأخر. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي الناصح، أو بما قدروا عليه فعلاً أو قولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصالح. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل وإنما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتبين لذلك. ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو للمسيء فكيف للمحسن.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على ﴿الضعفاء﴾ أو على ﴿المحسنين﴾، وهم البكاؤون سبعة من الأنصار: معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعليه بن زيد، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا: قد نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغز معك، فقال عليه السلام: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وهم ييكون. وقيل هم بنو مقرن: معقل وسويد والنعمان. وقيل أبو موسى وأصحابه. ﴿قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في «أتوك» بإضمار قد. ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب إذا. ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل. ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي دمعاً فإن من

للبيان وهي مع المجرور في محل نصب على التمييز وهو أبلغ من يفيض دمعها، لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً. ﴿حَزَنًا﴾ نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ما قبله. ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ ثلاثا يجدوا متعلق بـ ﴿حَزَنًا﴾ أو بـ ﴿تَفِيضٍ﴾. ﴿مَا يَنْفَقُونَ﴾ في مغزاهم.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣) ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤).

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالمعاتبه. ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون الأهبة. ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر وهو رضاهم بالدناءة والانتظام في جملة الخوالم إشاراً للدعة. ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة. ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مغبته.

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ في التخلف. ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من هذه السفرة. ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة لأنه: ﴿لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم لأنه: ﴿قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا بالوحي إلى نبيه بعض أخباركم وهو ما في ضمائرهم من الشر والفساد. ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه فكانه استتابه وإمهال للتوبة. ﴿ثُمَّ تُزَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي إليه فوضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلمهم لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم. ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالتوبيخ والعقاب عليه.

﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥) ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٩٦).

﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا توبخوهم. ﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ لا ينفع فيهم التائب فإن المقصود منه التطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير فهو علة لإعراض وترك المعاتبه. ﴿وَمَا وَهُمْ مِنْكُمْ﴾ من تمام التعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لا ينفع فيهم التوبيخ في الدنيا والآخرة، أو تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم. ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة.

﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم. ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي فإن رضاكم لا يستلزم رضا الله ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وبصدد عقابه، وإن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله فلا يهتك سترهم ولا ينزل الهوان بهم، والمقصود من الآية النهي عن الرضا عنهم والاعتذار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض وعدم الالتفات نحوهم.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٩٧) ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨).

﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو. ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَتَفَاقًا﴾ من أهل الحضر لتوحشهم وقساوتهم وعدم مخالطتهم لأهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة. ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ وأحق بأن لا يعلموا. ﴿خُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الشرائع فرائضها وسنتها. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم عقاباً وثواباً.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ يَدُ﴾ يعدُّ ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ يصرفه في سبيل الله ويتصدق به. ﴿مَقْرَمًا﴾ غرامة وخسراناً إذ لا يحتسبه قرية عند الله ولا يرجو عليه ثواباً وإنما ينفق رياء أو تقية. ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان ونوبه لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق. ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون أو الإخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم، والدائرة في الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور وسمي به عقبه الزمان، و ﴿السَّوْءِ﴾ بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿السَّوْءِ﴾ هنا. وفي الفتح بضم السين. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند الإنفاق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٩).

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ سبب ﴿قربات﴾ وهي ثاني مفعولي ﴿يتخذ﴾، و﴿عند الله﴾ صفتها أو ظرف لـ ﴿يتخذ﴾. ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ وسبب صلواته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولذلك سن للمصدق عليه أن يدعو للمصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال ﷺ «اللهم صل على آل أبي أوفى»، لأنه منصبه فله أن يتفضل به على غيره. ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ شهادة من الله بصحة معتقدهم وتصديق لرجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه وإن المحققة للنسبة والضمير لنفقتهم وقرأ ورش ﴿قُرْبَةٍ﴾ بضم الراء. ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وعد لهم بإحاطة الرحمة عليهم والسين لتحقيقه وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لتقريره. وقيل الأولى في أسد وغطفان وبني تميم والثانية في عبد الله ذي البجادين وقومه.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبيلتين أو الذين شهدوا بدرأ أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَالْأَنْصَارُ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى. وكانوا سبعة وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة صعب بن عمير. وقرىء بالرفع عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقرأ ابن كثير «من تحتها الأنهار» كما في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هم الذين صلوا إلى القبيلتين أو الذين شهدوا بدرأ أو الذين أسلموا قبل الهجرة. ﴿وَالْأَنْصَارُ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى. وكانوا سبعة وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة صعب بن عمير. وقرىء بالرفع عطفاً على ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ اللاحقون بالسابقين من القبيلتين، أو من اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقرأ ابن كثير «من تحتها الأنهار» كما في سائر المواضع. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَنَفِّئُونَ وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١).

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَافِقُونَ﴾ هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها. ﴿وَمِمَّنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ عطف على ﴿مِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أو خبر لمحذوف صفته. ﴿مَرَدُّوْا عَلَى الثَّقَاقِ﴾ ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قوله:

أَنَا ابْنُ جَلَاءٍ وَطَلَّاعُ الشَّائِيَا

وعلى الأول صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعرفهم بأعيانهم وهو تقرير لمهارتهم فيه وتنوهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفى عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فراستك. ﴿تَخُنْ تَعْلَمُهُمْ﴾ ونطلع على أسرارهم إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا. ﴿سَتَعْلَبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالفضيحة والقتل أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ﴿ثُمَّ يَرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ إلى عذاب النار.

﴿وَأَخْرَجُوا عَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(١١٢)

﴿وَأَخْرَجُوا عَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سؤاري المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين، فقدم رسول الله ﷺ فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرأهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فاطلقهم. ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب بآخر سيئ هو التخلف وموافقة أهل النفاق، والواو إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشاة ودرهماً. أو للدلالة على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

(١١٣)

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ روي: أنهم لما أظفوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهرنا فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت. ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرئ «تطهرهم» من أطهره بمعنى طهره و «تطهرهم» بالجزم جواباً للأمر. ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم. ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعو لهم وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنداמתهم.

﴿أَلَمْ يَغْلَبُوا﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقائهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا صحت وتعديته بـ ﴿عَنْ﴾ لتضمنه معنى التجاوز. ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوْبَاتِ الرَّحِيمُ﴾ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ وَعَلَىٰ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ سَارِدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّبِ وَالشَّهَادَةُ فَتَشْكُرُ بِمَا كُنْتُمْ

(١١٤)

تَعْمَلُونَ﴾ وَأَخْرَجُوا مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٥).

﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا﴾ ما شئتم. ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه خيراً كان أو شراً. ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى لا يخفى عنهم كما رأيتم وتبين لكم. ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ بالموت. ﴿فَيَبْتَنُّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه.

﴿وَأَخْرُونَ﴾ من المتخلفين. ﴿مُرْجُونَ﴾ مؤخرون أي موقوف أمرهم من أرجأته إذا أخرته. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص «مرجون» بالواو وهما لغتان. ﴿لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ في شأنهم. ﴿إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إن أصروا على النفاق. ﴿وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا والترديد للعباد، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادة الله تعالى. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم. وقرئ «والله غفور رحيم»، والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع، أمر الرسول ﷺ أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧).

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ عطف على «وآخرون مرجون»، أو مبتدأ خبره محذوف أي وفيمن وصفنا الذين اتخذوا أو منصوب على الاختصاص. وقرأ نافع وابن عامر بغير الواو «ضِرَارًا» مضارة للمؤمنين. وروي: (أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف، فبنوا مسجداً على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام فلما أتموه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد بنينا مسجداً لذي الحاجة والعلة والليلة المطيرة والشاتية فصل فيه حتى نتخذه مصلى فأخذ ثوبه ليقوم معهم فنزلت، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي فقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعل واتخذ مكانه كناسة). ﴿وَكُفْرًا﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه. ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد الذي كانوا يجتمعون للصلاة في مسجد قباء. ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقباً. ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني الراهب فإنه قال لرسول الله ﷺ يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين حتى انهزم مع هوازن وهرب إلى الشام ليأتي من قيصر بجنود يحارب بهم رسول الله ﷺ، ومات بقنسرين وحيداً، وقيل كان يجمع الجيوش يوم الأحزاب فلما انهزموا خرج إلى الشام. و «من قبل» متعلق بـ «حارب» أو بـ «اتخذوا» أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف، لما روي أنه بني قبيل غزوة تبوك فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتيه فقال: أنا على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه فلما قفل كرر عليه. فنزلت ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ما أردنا ببناؤه إلا الخصلة الحسنى أو الإرادة الحسنى وهي الصلاة والذكر والتوسعة على المصلين ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨).

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة. ﴿لَمَسْجِدَ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ يعني مسجد قباء أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة لأنه أوفق للقصة، أو مسجد رسول الله ﷺ لقول أبي سعيد رضي الله عنه: «سألت رسول الله ﷺ عنه فقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة». ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام وجوده ومن يعم الزمان والمكان كقوله:

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الْحَجَرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ ذَهَبٍ

﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أولى بأن تصلي فيه. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وقيل من الجنابة فلا ينامون عليها. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ يرضى عنهم ويدنيههم من جنبه تعالى إثناء المحب حبيبه. قيل لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال عليه الصلاة والسلام: «أؤمنون أنتم؟» فسكتوا. فأعادها فقال عمر: «إنهم مؤمنون وأنا معهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «أترضون بالقضاء؟» قالوا: نعم. قال عليه الصلاة والسلام: «أتصبرون على البلاء؟» قالوا: نعم، قال: «أتشكرون في الرخاء؟» قالوا: نعم. فقال ﷺ: «أنتم مؤمنون ورب الكعبة». فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أتى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟» فقالوا: يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١١٩).

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ ببيان دينه. ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة. ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخصها. ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فآدى به لخوره وقلة استمسكه إلى السقوط في النار، وإنما وضع شفا الجرف وهو ما جرفه الوادي الهائر في مقابلة التقوى تمثيلاً لما بنوا عليه أمر دينهم في البطلان وسرعة الانطماس، ثم رشحه بانهياره به في النار ووضعه في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى رضوان الله ومقتضياته التي الجنة أدناها، وتأسيس هذا على ما هم بسببه على صدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم إن مصيرهم إلى النار لا محالة. وقرأ نافع وابن عامر ﴿أَسَّسَ﴾ على البناء للمفعول. وقرئ «أساس بنيانه» و «أسس بنيانه» على الإضافة و «أسس» و «أساس» بالفتح والمد و «إساس» بالكسر وثلاثها جمع أس، و «تقوى» بالتنوين على أن الألف للإلحاق لا للتأنيث كتنرى، وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر ﴿جرف﴾ بالتخفيف. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٢٠).

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ بناؤهم الذي بنوه مصدر أريد به المفعول وليس بجمع ولذلك قد تدخله التاء ووصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي شكاً ونفاقاً، والمعنى أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك ثم لما هدمه الرسول ﷺ رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ قطعاً بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية المبالغة والاستثناء. من أعم الأزمنة. وقيل المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار. وقيل التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً. وقرأ يعقوب «إلى» بحرف الانتهاء و «تقطع» بمعنى تنقطع وهو قراءة ابن عامر وحمزة وحفص. وقرئ «يقطع» بالياء و «تقطع» بالتخفيف و «تقطع قلوبهم» على خطاب الرسول، أو كل مخاطب ولو قطعت ولو قطعت على البناء للفاعل والمفعول. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنيانهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾

فَأَسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ تمثيل لإثابة الله إياهم الجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله. ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ استئناف ببيان ما لأجله الشراء. وقيل ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ في معنى الأمر. وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول وقد عرفت أن الواو لا توجب الترتيب وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل. ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الشراء فإنه في معنى الوعد. ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ مذكوراً فيهما كما أثبت في القرآن. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً. ﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فافرحوا به غاية الفرح فإنه أوجب لكم عظام المطالب كما قال: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾

﴿التَّائِبُونَ﴾ رفع على المدح أي هم التائبون، والمراد بهم المؤمنون المذكورون ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أو خبره ما بعده أي التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال. وقرئ بالياء نصباً على المدح أو جرراً صفة للمؤمنين. ﴿الْعَمَدُونَ﴾ الذين عبدوا الله مخلصين له الدين. ﴿السَّائِحُونَ﴾ لنعمائهم أو لما نابهم من السراء والضراء. ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون لقوله ﷺ «سياحة أمتي الصوم» شبه بها لأنه يعوق عن الشهوات أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على حفايا الملك والملوك، أو السائحون للجهاد أو لطلب العلم. ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ في الصلاة. ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة. ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك والمعاصي، والعاطف فيه للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة كأنه قال: الجامعون بين الوصفين، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي فيما بينه وبينه من الحقائق والشرائع للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل وهذا مجملها. وقيل إنه للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك سمي واو الثمانية. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل، ووضع ﴿المؤمنين﴾ موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل: وبشرهم بما يجمل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ روي: أنه ﷺ قال لأبي طالب لما حضرته الوفاة: «قل كلمة أحاج لك بها عند الله» فأبى فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه» فتزلت وقيل لما افتتح مكة خرج إلى الأبواء فزار قبر أمه ثم قام مستعبراً فقال: «إني استأذنت رب في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل علي الآيتين». ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بأن ماتوا على الكفر، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان وبه دفع النقص باستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر فقال:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وعدّها إبراهيم أباه بقوله: ﴿لأستغفرن لك﴾

أي لأطلبن مغفرتك بالتوفيق للإيمان فإنه يجب ما قبله، ويدل عليه قراءة من قرأ «أباه»، أو «وعدها إبراهيم أبوه» وهي الوعد بالإيمان ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بأن مات على الكفر، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قطع استغفاره. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ لكثير التأوه وهو كناية عن فرط ترحمه ورقة قلبه. ﴿حَلِيمٌ﴾ صبور على الأذى، والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار له مع شكاسته عليه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّئُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١١٥)

(١١٦)

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي ليسمهم ضللاً ويؤاخذهم مؤاخذتهم ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ للإسلام. ﴿حَتَّىٰ

يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ حتى يبين لهم حظر ما يجب اتقاؤه، وكأنه بيان عذر الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله لعمه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر ونحو ذلك، وفي الجملة دليل على أن الغافل غير مكلف. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيعلم أمرهم في الحالين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لما منعهم

عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وتضمن ذلك وجوب التبرؤ عنهم رأساً، بين لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه، ليتوجهوا بشراشرهم إليه ويتبرؤوا مما عدها حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويدرون سواه.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا

كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧)

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف أو برأهم عن علفة

الذنوب كقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وقيل: هو بعث على التوبة والمعنى: ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً﴾ إذ ما من أحد إلا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده. ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ في وقتها هي حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة الظهر تعتقب العسرة على بعير واحد والزاد حتى قيل إن الرجلين كانا يقتسمان ثمرة والماء حتى شربوا الفظ. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ عن الثبات على الإيمان أو اتباع الرسول عليه السلام وفي ﴿كاد﴾ ضمير الشأن أو ضمير القوم والعائد إليه الضمير في ﴿منهم﴾. وقرأ حمزة وحفص ﴿يزيغ﴾ بالياء لأن تأنيث القلوب غير حقيقي. وقرئ «من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم» يعني المتخلفين. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تكرير للتأكيد وتنبه على أنه تاب عليهم من أجل ما كابدوا من العسرة، أو المراد أنه تاب عليهم لكيدودتهم. ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا

أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨) يَتَابُهَا الَّذِينَ

ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ وتاب على الثلاثة كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع . ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ تخلفوا عن الغزو أو خلف أمرهم فإنهم المرجؤون . ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي برحبها لإعراض الناس عنهم بالكلية وهو مثل لشدة الحيرة . ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعها أنس ولا سرور . ﴿وَوَظُّنُوا﴾ وعلموا . ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه . ﴿إِلَّا إِلَيْهِ﴾ إلا إلى استغفاره . ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق للتوبة . ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التائبين ، أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم . ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة . ﴿الرَّحِيمُ﴾ المتفضل عليهم بالنعيم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما لا يرضاه ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم وعهودهم ، أو في دين الله نية وقولاً وعملاً . وقرئ «من الصادقين» أي في توبتهم وإنابتهم فيكون المراد به هؤلاء الثلاثة وأضرابهم .

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ .

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ نهي عبر عنه بصيغة النفي للمبالغة . ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ ولا يصونوا أنفسهم عما لم يضمن نفسه عنه ويكابدوا معه ما يكابده من الأهوال . روي : (أن أبا خيثمة بلغ بستانه ، وكانت له زوجة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصر وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله ﷺ في الضح والريح ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح ، فمد رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال : كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله ﷺ واستغفر له) وفي ﴿لَا يَرْغَبُوا﴾ يجوز النصب والجزم . ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف أو وجوب المشايعة . ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم . ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ شيء من العطش . ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب . ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة . ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ﴾ ولا يدوسون . ﴿مَوْطِئًا﴾ مكاناً . ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يغضبهم وطؤه . ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً﴾ كالقتل والأسر والنهب . ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم ، وهو تعليل لـ ﴿كُتِبَ﴾ وتنبه على أن الجهاد إحسان ، أما في حق الكفار فلأنه سعى في تكميلهم بأقصى ما يمكن كضرب المداوي للمجنون ، وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم .

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِعَجْرِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ .

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو علافة . ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة . ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في مسيرهم وهو كل منحرج ينفذ فيه السيل اسم فاعل من ودي إذا سال فشاع بمعنى الأرض . ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أثبت لهم ذلك . ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ﴾ بذلك . ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جزاء أحسن أعمالهم أو أحسن جزاء أعمالهم .

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢).

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتشبثوا جميعاً فإنه يخل بأمر المعاش. ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهلا نفر من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليتكلموا بالفقاهة فيه ويتجشمو مشاق تحصيلها. ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم، وتخصيصه بالذكر لأنه أهم وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ إرادة أن يحذروا عما يندرون منه، واستدل به على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة فردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر فرقته كي يتذكروا ويحذروا، فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يفد ذلك، وقد أشبعت القول فيه تقريراً واعتراضاً في كتابي «المرصاد». وقد قيل للآية معنى آخر وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون إلى النفير وانقطعوا عن التفقه، فأمرُوا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدل بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا. ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو، وفي رجعوا للطوائف أي ولينذروا البواقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل هم يهود حوالي المدينة كقرينة والنضير وخيبر. وقيل الروم فإنهم كانوا يسكنون الشام وهو قريب من المدينة. ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبراً على القتال. وقرىء بفتح الغين وضمها وهما لغتان فيها. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالحراسة والإعانة.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥).

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ﴾ فمن المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ انكار واستهزاء. ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة. ﴿إِيمَانًا﴾ وقرىء «أيكم» بالنصب على إضمار فعل يفسره «زادته». ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بزيادة العلم الحاصل من تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بتزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ كفر. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفرأ بها مضموماً إلى الكفر بغيرها. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ واستحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَآرٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٦).

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ﴾ يعني المنافقين وقرىء بالتاء. ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يتلون بأصناف البليات، أو بالجهاد مع رسول الله ﷺ فيعانون ما يظهر عليه من الآيات. ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم. ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ولا يعتبرون.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية، أو غيظاً لما فيها من عيوبهم. ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي يقولون هل يراكم أحد إن قمتم من حضرة الرسول ﷺ، فإن لم يره أحد قاموا وإن يره أحد أقاموا. ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان وهو يحتمل الإخبار والدعاء. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم. ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٧) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٨).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم عربي مثلكم. وقرىء «من أنفُسِكُمْ» أي من أشرفكم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد شاق. ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ عنتكم ولقاؤكم المكروه. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ منكم ومن غيركم. ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قدم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظة على الفواصل.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك. ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك معرفتهم ويعينك عليهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه. ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الملك العظيم، أو الجسم العظيم المحيط الذي تنزل منه الأحكام والمقادير. وقرىء «العظيم» بالرفع. وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: أن آخر ما نزل هاتان الآيتان وعن النبي ﷺ: «ما نزل القرآن علي إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد، فإنهما أنزلتا علي ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» والله أعلم.

(١٠) سورة يونس

مكية وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنُفِثَ إِلَيْهِمْ بَاسًا وَأَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾.

﴿الر﴾ فخمها ابن كثير ونافع برواية قالون وحفص وقرأ ورش بين اللفظين، وأمالها الباقون إجراء لآلف الراء مجرى المتقلبة من الياء. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة أو القرآن من الآي والمراد من الكتاب أحدهما، ووصفه بالحكيم لاشتماله على الحكم أو لأنه كلام حكيم، أو محكم آياته لم ينسخ شيء منها. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب و ﴿عَجَبًا﴾ خبر كان واسمه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ وقرأ بالرفع على أن الأمر بالعكس أو على «أن كان» تامة و ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ بدل من ﴿عَجَبًا﴾، واللام للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم. ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم. قيل كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الأمور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة. هذا وإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه إلا في المال وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك. وقيل تعجبوا من أنه بعث بشراً رسولاً كما سبق ذكره في سورة «الأنعام». ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة أو المخففة من الثقيلة فتكون في موقع مفعول أوحينا. ﴿وَنُفِثَ إِلَيْهِمْ بَاسًا﴾ عزم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه، وخصص البشارة بالمؤمنين إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به حقيقة ﴿أَنْ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدماً لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها والتنبية على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾ يعنون الكتاب وما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وقرأ ابن كثير والكوفيون «لساحر» على أن الإشارة إلى الرسول ﷺ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول ﷺ أموراً خارقة للعادة معجزة إياهم عن المعارضة. وقرأ «ما هذا إلا سحر مبين».

﴿إِنْ رَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

﴿إِنْ رَيْتُمْ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته وبهيبته بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أديار الأمور لتجيء محمودة العاقبة. ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ أي

الموصوف بتلك الصفات المنقضية للالوهية والربوبية. ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٤).

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره فاستعدوا للقاءه. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعد من الله. ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد بدنه وإهلاكه. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعدله أو بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم أو بإيمانهم لأنه العدل القويم كما أن الشرك ظلم عظيم وهو الأوجه لمقابلة قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإن معناه ليجزي الذين كفروا بشارب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم للعقاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلفظه وكرمه ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكانه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم. والآية كالتعليل لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿أَنَّهُ يَبْدَأُ﴾ بالفتح أي لأنه ويجوز أن يكون منصوباً أو مرفوعاً بما نصب ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ أو بما نصب ﴿حَقًّا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ (٦).

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي ذات ضياء وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وسوط والياء فيه منقلبة عن الواو. وقرأ ابن كثير برواية قبل هنا وفي «الأنبياء» وفي «القصص»: «ضياء» بهمزتين على القلب بتقديم اللام على العين. ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذا نور أو سمي نوراً للمبالغة وهو أعم من الضوء كما عرفت، وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، وقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على أنه خلق الشمس نيرة في ذاتها والقمر نيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتماس منها. ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل، أو قدره ذا منازل أو للقمر وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازل وإناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا ملتبساً بالحق مراعيّاً فيه مقتضى الحكمة البالغة. ﴿تَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المتفهمون بالتأمل فيها وقرأ ابن كثير والبصريان وحفص «يفصل» بالياء.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع الكائنات. ﴿لَآيَاتٍ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته. ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب فإنه يحملهم على التفكير والتدبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَنَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يتوقعونه لإنكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها. ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من الآخرة لغفلتهم عنها. ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ وسكنوا إليها مقصرين همهم على لذائذها وزخارفها، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها والعطف إما لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلاً، وإما لتغاير الفريقين والمراد بالأولين من أنكر البعث. ولم ير إلا الحياة الدنيا وبالأخريين من ألهاه حب العاجل عن التأمل في الآجل والإعداد له.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾
 ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يؤدي إلى الجنة، أو لإدراك الحقائق كما قال عليه الصلاة والسلام «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». أو لما يريدونه في الجنة، ومفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية هو الإيمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ على استقلال الإيمان بالسببية وأن العمل الصالح كالثمرة والرديف له. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ استئناف أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على المعنى الأخير، وقوله: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ خبر أو حال أخرى منه، أو من ﴿الْأَنْهَارِ﴾ أو متعلق بـ ﴿تَجْرِي﴾ أو يبهدي.

﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا﴾ أي دعاؤهم. ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ إنا نسبحك تسبيحاً. ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يحيى به بعضهم بعضاً، أو تحية الملائكة إياهم. ﴿فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ وآخر دعائهم. ﴿أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن يقولوا ذلك، ولعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعابوا عظمة الله وكبريائه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال، ثم خياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام، و ﴿أَنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة وقد قرئ بها وينصب «الحمد».

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَبُذِّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾
 ﴿١١﴾

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم. أو بأن المراد شر استعجلوه كقولهم ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وتقدير الكلام، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالاً كاستعجالهم بالخير، فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه. ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿لَقُضِيَ﴾ على البناء للفاعل وهو الله تعالى وقرئ «لقضينا». ﴿فَبُذِّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية كأنه قيل: ولكن لا نعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً لهم واستدراجاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْآسَافُ دَعَاؤَنَا لِجُنُودِهِمْ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى صَرْفِ مَسِّهِ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
 ﴿١٢﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه. ﴿لِجَنِّيهِ﴾ ملقى لجنبه أي مضطجعاً. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وفائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ يعني مضى على طريقته واستمر على كفره أو مر عن موقف الدعاء لا يرجع إليه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ كأنه لم يدعنا فحذف وحذف ضمير الشأن كما قال:

وَنَخْرُ مُشْرِقَ اللَّوْنِ كَأَن تَذِيَاهُ حُفَّانَ

﴿إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ إلى كشف ضر. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين. ﴿رُئِنَ لِلْمُفْسِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن العبادات.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ حين ظلموا بالكذب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الدالة على صدقهم وهو حال من الواو بإضمار قد أو عطف على ظلموا. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم، واللام لتأكيد النفي. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل وإصرارهم عليه بحيث تحقق أنه لا فائدة في إهلاكهم ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع المظهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم أعلام فيه.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر. ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أتعملون خيراً أو شراً فتعاملكم على مقتضى أعمالكم، وكيف معمول تعملون فإن معنى الاستفهام يحجب أن يعمل فيه ما قبله، وفائدته الدلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذاتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبح أخرى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِشْرَةٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني المشركين. ﴿آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معائب آلهتنا. ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى ولعلمهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيلزموه. ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ ما يصح لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ من قبل نفسي وهو مصدر استعمل ظرفاً، وإنما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه الإتيان بقرآن آخر. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تحليل لما يكون فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل في الجواب وسماه عصياناً فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي بالتبديل. ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك. ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وعن ابن كثير «ولأدراكم» بلام التأكيد أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري. والمعنى أنه الحق الذي لا محيص عنه لو لم أرسل به لأرسل به غيري. وقرئ «ولا أدراكم» «ولا أدراكم» بالهمز فيهما على لغة من يقلب الألف المبدلة من الياء همزة، أو على أنه من الدرء بمعنى الدفع أي ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤني بالجدال، والمعنى أن الأمر بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتي حتى أجعله على نحو ما تشتهونه ثم قرر ذلك بقوله: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مقداراً عمر أربعين سنة. ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن لا أتله ولا أعلمه، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشئ قريضاً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بزت فصاحته فصاحة كل منطق وعلا من كل منشور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه علم أنه معلوم به من الله تعالى. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس إلا من الله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ تفاد مما أضافوه إليه كناية، أو تظليم للمشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم إنه لذو شريك وذو ولد. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فكفر بها. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ فإنه جماد لا يقدر على نفع ولا ضرر، والمعبود ينبغي أن يكون مثيلاً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ﴾ الأوثان. ﴿شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا أو في الآخرة إن يكن بعث، وكأنهم كانوا شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعاً أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده. ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ﴾ أنخبرونه. ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً أو هؤلاء شفعاء عنده وما لا يعلمه العالم بجميع المعلومات لا يكون له تحقق ما وفيه تقريع وتهكم بهم. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكدة للنفي منبهة على أن ما يعبدون من دون الله إما سماوي وإما أرضي، ولا شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركونهم به. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الموضعين في أول «النحل» و «الروم» بالتاء.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موحدتين على الفطرة أو متفقين على الحق، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل أو بعد الطوفان، أو على الضلال في فترة من الرسل. ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ باتباع الهوى والأباطيل، أو ببعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام فتبعتهم طائفة وأصرت أخرى. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير الحكم بينهم أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة فإنه يوم الفصل والجزاء. ﴿لَقُضِيَ

يَنْتَهُمْ عَاجِلًا. ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي من الآيات التي اقترحوها. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه فلعله يعلم في إنزال الآيات المقترحة من مفسد تصرف عن إنزالها. ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ لنزول ما اقترحتموه. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجهودكم ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيره.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ صحة وسعة. ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهْمٍ﴾ كقحط ومرض. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ بالطعن فيها والاحتيال في دفعها. قيل قحط أهل مكة سبع سنين حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم الله بالحيا فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله. ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم، وإنما دل على سرعتهم المفضل عليها كلمة المفاجأة الواقعة جواباً لإذا الشرطية والمكر اخفاء الكيد، وهو من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيق للانتقام وتنبيه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى، وعن يعقوب يمكرون بالياء ليوافق ما قبله.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنْصِتْ لَهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يحملكم على السير ويمكنكم منه. وقرأ ابن عامر «ينشركم» بالنون والشين من النشر. ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ في السفن، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة الهبوب. ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ بتلك الريح. ﴿جَاءَتْهَا﴾ جواب إذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة، بمعنى تلقتها. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف شديدة الهبوب. ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء الموج منه. ﴿وُظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط به العدو. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل من ﴿ظَنُّوا﴾ بدل اشتغال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم. ﴿لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ على إرادة القول أو مفعول ﴿دَعَوُا﴾ لأنه من جملة القول.

﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ﴾ إجابة لدعائهم. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فاجؤوا الفساد فيها وسارعوا إلى ما كانوا عليه. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مبطلين فيه وهو احتراز عن تخريب المسلمين ديار الكفرة وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها إفساد بحق. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وباله عليكم أو أنه على أمثالكم أبناء جنسكم. ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منفعة الحياة الدنيا لا تبقى ويبقى عقابها، ورفع على أنه خبر ﴿بِغْيِكُمْ﴾ و ﴿على أنفسكم﴾ صلته، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا و ﴿على أنفسكم﴾ خبر ﴿بِغْيِكُمْ﴾، ونصبه حفص على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا أو مفعول البغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجار من صلته والخبر محذوف تقديره بغْيِكُمْ متاع الحياة الدنيا محذور أو ضلال، أو مفعول

فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبره. ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامة. ﴿فَتَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأجزاء عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَلْفَكُرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حالها العجيبة في سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها. ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً. ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ من الزروع والبقول والحشيش. ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها. ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة فتزينت بها، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أصله تزينت فأدغم وقد قرئ على الأصل «وازيئت» على أفعلت من غير إعلال كأغيلت، والمعنى صارت ذات زينة «وازيان» كإياضت. ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من حصدها ورفع غلتها. ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ فجعلنا زرعها. ﴿حَصِيدًا﴾ شبيهاً بما حصد من أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ﴾ كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث، والمضاف محذوف في الموضعين للمبالغة وقرئ بالياء على الأصل. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ فيما قبله وهو مثل في الوقت القريب والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات فجأة وذهابه حطاماً بعدما كان غصاً والتف، وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء وإن وليه حرف التشبيه لأنه من التشبيه المركب. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم المتفكرون به.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنَى وَزِيَادَةً وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَالله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ دار السلامة من التقضي والآفة، أو دار الله وتخصيص هذا الاسم أيضاً للتنبيه على ذلك، أو دار يسلم الله والملائكة فيها على من يدخلها والمراد الجنة. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقها وذلك الإسلام والتدريج بلباس التقوى، وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن المصير على الضلالة لم يرد الله رشد.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ المثوبة الحسنى. ﴿وَزِيَادَةً﴾ وما يزيد على المثوبة تفضلاً لقوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ وقيل الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، وقيل الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وقيل الحسنى الجنة والزيادة هي اللقاء. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ لا يغشاها. ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ هوان، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من حزن وسوء حال. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَتْ أَغْشِيَتِ وُجُوهَهُمْ قَطَعًا مِنَ أَلِيلٍ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرَيْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَقْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءَ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ على مذهب من يجوز: في الدار زيد والحجرة عمرو، أو ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، والخبر ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ على تقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها، أي أن تجازى سيئة بسيئة مثلاً لا يزداد عليها، وفيه تنبيه على أن الزيادة هي الفضل أو التضعيف أو ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾، أو ﴿أولئك أصحاب النار﴾ وما بينهما اعتراض فـ ﴿جزاء سيئة﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فجزاء سيئة بمثلها واقع، أو بمثلها على زيادة الباء أو تقدير مقدر بمثلها. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾ وقرئ بالياء. ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ﴾ ما من أحد يعصمهم من سخط الله، أو من جهة الله ومن عنده كما يكون للمؤمنين. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ غُطِيَّتٌ﴾ غُطِيَّتٌ. ﴿وَجُوهُهُمْ قُطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لفرط سوادها وظلمتها ومظلماً حال من الليل والعامل فيه ﴿أغشيت﴾ لأنه العامل في ﴿قطعا﴾ وهو موصوف بالجار والمجرور، والعامل في الموصوف عامل في الصفة أو معنى الفعل في ﴿من الليل﴾. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب ﴿قطعا﴾ بالسكون فعلى هذا يصح أن يكون ﴿مظلماً﴾ صفة له أو حالاً منه. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مما يحتج به الوعيدية. والجواب أن الآية في الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ولأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبيرة من أهل القبلة فلا يتناولهم قسيمه.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني الفريقين جميعاً. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يفعل بكم. ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إليه من عامله. ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف عليه وقرئ بالنصب على المفعول معه. ﴿فَنَزِيلُنَا يَنْتَهُمُ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا الوصل التي كانت بينهم. ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِثْنَا تَعْبُدُونَ﴾ مجاز عن براءة ما عبده من عبادتهم فإنهم إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم لأنها الأمرة بالإشراك لا ما أشركوا به. وقيل ينطق الله الأصنام فتشافههم بذلك مكان الشفاعة التي يتوقعون منها. وقيل المراد بالشركاء الملائكة والمسيح وقيل الشياطين.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه العالم بكنه الحال. ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام. ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما قدمت من عمل فتعابن نفعه وضره. وقرأ حمزة والكسائي «تتلوا» من التلاوة أي تقرأ ذكر ما قدمت، أو من التلو أي تتبع عملها فيقودها إلى الجنة أو إلى النار. وقرئ «تبلوا» بالنون ونصب «كل» وإبدال «ما» منه والمعنى نختبرها أي نفعل بها فعل المختبر لحالها المتعرف لسعادتها وشقاوتها بشعر ما أسلفت من أعمالها، ويجوز أن يراد به نصيب بالبلاء أي بالعذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر فتكون «ما» منصوبة بنزع الخافض. ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا. ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ ربهم ومتولي أمرهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولى، وقرئ «الحق» بالنصب على المدح أو المصدر المؤكد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَلِلَّهِ رِجْزُ الْحَقِّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي منهما جميعاً فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية أو «من» كل واحد منهما توسعة عليكم. وقيل من لبيان من على حذف المضاف أي من أهل السماء

والأرض. ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أم من يستطيع خلقهما وتسويتهما، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء. ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ومن يحيي ويميت، أو من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه. ﴿وَمَنْ يَدْبِرُ الْأُمُورَ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ إذ لا يقدرُونَ على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه. ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم عقابه بإشراككم إياه ما لا يشاركه في شيء من ذلك.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي المتولي لهذه الأمور المستحق للعبادة هو ربكم الثابت ربوبيته لأنه الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكار أي ليس بعد الحق إلا الضلال فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلال. ﴿فَأَنَّى تُضْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ تَوَفَّكُونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما حقت الربوبية لله أو أن الحق بعده الضلال، أو أنهم مصروفون عن الحق كذلك حقت كلمة الله وحكمه. وقرأ نافع وابن عامر «كلمات» هنا وفي آخر السورة وفي «غافر» ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد الاستصلاح. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة، أو تعليل لحقيتها والمراد بها العدة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن لم يساعدوا عليها، ولذلك أمر الرسول ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب فقال ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لأن لجأهم لا يدعهم أن يعترفوا بها. ﴿فَأَنَّى تَوَفَّكُونَ﴾ تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بنصب الحجج وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام والتوفيق للنظر والتدبر، وهدي كما يعدي بالي لتضمنه معنى الانتهاء يعدي باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ أم الذي لا يهتدي إلا أن يهدي من قولهم: هدي بنفسه إذا اهتدى، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله وهذا حال أشرف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير، وقرأ ابن كثير وورش عن نافع وابن عامر ﴿يَهْدِي﴾ بفتح الهاء وتشديد الدال. ويعقوب وحفص بالكسر والتشديد والأصل يهتدي فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين. وروى أبو بكر ﴿يَهْدِي﴾ باتباع الياء الهاء. وقرأ أبو عمرو بالإدغام المجرد ولم يبال بالالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك. وعن نافع برواية قالون مثله وقرئ «إلا أن يهدي» للمبالغة ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يقتضي صريح العقل بطلانه. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه. ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر الجميع أو من ينتمي منهم إلى تمييز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد

الحق. ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء ويجوز أن يكون مفعولاً به و ﴿من الحق﴾ حالاً منه، وفيه دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨).

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ افتراء من الخلق. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية المشهود على صدقها ولا يكون كذباً كيف وهو لكونه معجزاً دونها عيَّار عليها شاهد على صحتها، ونصبه بأنه خبر لكان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره: ولكن أنزله الله تصديق الذي. وقرئ بالرفع على تقدير ولكن هو تصديق. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ وتفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ متفياً عنه الرب وهو خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك، ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب فإنه مفعول في المعنى وأن يكون استئنافاً. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره كائناً من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو تفصيل، و ﴿لا ريب فيه﴾ اعتراض أو بالفعل المعلل بهما ويجوز أن يكون حالاً من الكتاب أو من الضمير في ﴿فيه﴾، ومساق الآية بعد المنع عن اتباع الظن لبيان ما يجب اتباعه والبرهان عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون. ﴿افْتَرَاهُ﴾ محمد ﷺ ومعنى الهمزة فيه للإنكار. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ ومع ذلك فاستعينوا بمن أمكنكم أن تستعينوا به. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله تعالى فإنه وحده قادر على ذلك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩).

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب. ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ بالقرآن أول ما سمعوه قبل أن يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علماً من ذكر البعث والجزاء وسائر ما يخالف دينهم. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ ولم يقفوا بعد على تأويله ولم تبلغ أذهانهم معانيه، أو ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب، والمعنى أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ثم إنهم فاجؤوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه ومعنى التوقع في لما أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي فزادوا قواهم في معارضته فتضاءلت دونها، أو لما شاهدوا وقوع ما أخبر به طبقاً لإخباره مراراً فلم يقلعوا عن التكذيب تمرداً وعناداً. ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءهم. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠) ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ (٤١).

﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المكذبين. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ من يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، أو من

سيؤمن به ويتوب عن الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ في نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره، أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندین أو المصيرين.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ وإن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة. ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ فتراهم فتراهم فقد أعدرت، والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقاً كان أو باطلاً. ﴿أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا تؤاخذون بعلمي ولا أؤاخذ بعملكم، ولما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخليه سبيلهم قيل إنه منسوخ بآية السيف.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكن لا يقبلون كالأصم الذي لا يسمع أصلاً. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ تقدر على إسماعهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم. وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام فهم المعنى المقصود منه ولذلك لا توصف به البهائم، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل السليم في تدبره وعقولهم لما كانت مؤفة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد، تعذر إفهامهم الحكم والمعاني الدقيقة فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناقع.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يعاينون دلائل نبوتك ولكن لا يصدقونك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ﴾ تقدر على هدايتهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار والعمدة في ذلك البصيرة، ولذلك يحسد الأعمى المستبصر ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم. ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادها وتفويت منافعها عليهم، وفيه دليل على أن للعبد كسباً وأنه ليس بمسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت المجبرة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله لا يظلمهم به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. وقرأ أبو عمرو والكسائي بالتخفيف ورفع ﴿النَّاسُ﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في القبور لهول ما يرون، والجملة التشبيهية في موضع الحال أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة، أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره: كأن لم يلبثوا قبله أو لمصدر محذوف، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، وهذا أول ما نشروا ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم وهي حال أخرى مقدرة، أو بيان لقوله: ﴿كَأَن لَّهُمْ يَلْبِثُوا﴾ أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون يوم يحشرهم. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ استئناف للشهادة على خسارتهم والتعجب منه، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في يتعارفون على إرادة القول. ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطرق استعمال ما منحوا من المعاون في تحصيل المعارف فاستكسبوا بها جهالات أدت بهم إلى الردى والعذاب الدائم.

﴿وَلَمَّا رُئِيَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّنَا فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ

رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نبصرك. ﴿بِنِعْمِ الَّذِي نَعْلَمُهُمْ﴾ من العذاب في حياتك كما أراه يوم بدر. ﴿أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نريك. ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه في الآخرة وهو جواب ﴿نتوفينك﴾ وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف مثل فذاك. ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ مجاز عليه ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها ولذلك رتبها على الرجوع بـ ﴿ثُمَّ﴾، أو مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية. ﴿رَسُولٌ﴾ يبعث إليهم ليدعوهم إلى الحق. ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه. ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الرسول ومكذبيه. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجي الرسول وأهلك المكذبون. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وقيل معناه لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بانجاء المؤمنين وعقاب الكفار لقوله: ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبعاداً له واستهزاء به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيف أملك لكم فاستعجل في جلب العذاب إليكم. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه أو ولكن ما شاء الله من ذلك كائن. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروب لهلاكهم. ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لا يتأخرون ولا يتقدمون فلا تستعجلون فسيحين وقتكم وينجز وعدكم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ بَيْنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أَتَرَوْا مَا وَقَعَ أَمْنْتُمْ بِهِ ؕ أَلَمْ تَكُنْ مِنْكُمْ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ الذي تستعجلون به. ﴿بَيْنَاتٍ﴾ وقت بيات واشتغال بالنوم. ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حين كنتم مشغولين بطلب معاشكم. ﴿مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي شيء من العذاب يستعجلونه، وكله مكروه لا يلائم الاستعجال وهو متعلق بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ لأنه بمعنى أخبروني، والمجرمون وضع موضع الضمير للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغي أن يفزعوا من مجيء العذاب لا أن يستعجلوه، وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا خطاه، ويجوز أن يكون الجواب ماذا كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني وتكون الجملة متعلقة بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أو بقوله:

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنْتُمْ بِهِ﴾ بمعنى إن أتاكم عذابه أمنتكم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وماذا يستعجل اعتراض ودخول حرف الاستفهام على «ثم» لإنكار التأخير. ﴿أَلَا نَ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب آلآن أمنتكم به. وعن نافع ﴿أَلَا نَ﴾ بحذف الهمزة والفاء حركتها على اللام. ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً واستهزاء.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُكَ أَهْلُ هُوٓ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَشَرُّ بِمُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على قيل المقدر. ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ المؤلم على الدوام. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَيَسْتَنبِثُونَكَ﴾ ويستخبرونك. ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أحق ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة تقوله بجد أم باطل تهزل به قاله حبي بن أخبط لما قدم مكة، والأظهر أن الاستفهام فيه على أصله لقوله: ﴿وَيَسْتَنبِثُونَكَ﴾ وقيل إنه للإنكار ويؤيده أنه قرئ «الحق هو» فإن فيه تعريضاً بأنه باطل، وأحق مبتدأ والضمير مرتفع به ساد مسد الخبر أو خير مقدم والجملة في موضع النصب بـ ﴿يَسْتَنبِثُونَكَ﴾. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب لكائن أو ما ادعيته لثابت. وقيل كلا الضميرين للقرآن، وإي بمعنى نعم وهو من لوازم القسم ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال إي والله ولا يقال إي وحده. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بفاتتين العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدي على الغير ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وأموالها. ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب، من قولهم افتداه بمعنى فداه. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا. وقيل ﴿أَسْرُوا النَّدَامَةَ﴾ أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها، أو لأنه يقال سر الشيء لخالصته من حيث إنها تخفى ويضن بها. وقيل أظهروها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليس تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم والثاني مجازاة المشركين على الشرك أو الحكومة بين الظالمين والمظلومين، والضمير إنما يتناولهم لدلالة الظلم عليهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦).

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب. ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما وعده من الثواب والعقاب كائن لا خلف فيه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون لقصور عقولهم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبى لأن القادر لذاته لا تزول قدرته، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت لهما أبداً. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت أو النشور.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها المرغبة في المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التي هي شفاء لما في الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم فنجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدتهم من طبقات النيران بمساعد من درجات الجنان، والتذكير فيها للتعظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ بإتزال القرآن، والباء متعلقة بفعل يفسره قوله: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فإن اسم الإشارة بمنزلة الضمير تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو فليفرحوا فبذلك فليفرحوا، وفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الإجمال وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح أو بفعل دل عليه ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾، وذلك إشارة إلى مصدره أي فبمجيئها فليفرحوا والفاء بمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فيهما فليفرحوا

أو للربط بما قبلها، والدلالة على أن مجيء الكتاب الجامع بين هذه الصفات موجب للفرح وتكريرها للتأكيد كقوله:

وَإِذَا هَلَكْتُ فِئْدٌ ذَلِكُ فَاجْزَعِي

وعن يعقوب «فلتفرحوا» بالثناء على الأصل المرفوض، وقد روي مرفوعاً ويؤيده أنه قرئ «فافرخوا». «هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من حطام الدنيا فإنها إلى الزوال قريب وهو ضمير ذلك. وقرأ ابن عامر تجمعون بالثناء على معنى فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خير مما تجمعونه أيها المخاطبون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذُنُكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرْتُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ جعل الرزق منزلاً لأنه مقدر في السماء محصل بأسباب منها، وما في موضع النصب بـ «أنزل» أو بـ «أرايتهم» فإنه بمعنى أخبروني، ولكم دل على أن المراد منه ما حل ولذلك وبخ على التبعض فقال: «فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا» مثل: «هذه أنعام وحرث حجر» [وعند قوله تعالى] «ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا» ﴿قُلْ اللَّهُ أُذُنُكُمْ﴾ في التحريم والتحليل فتقولون ذلك بحكمه. «أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» في نسبة ذلك إليه ويجوز أن تكون المنفصلة متصلة بـ «أرايتهم» وقل مكرر للتأكيد وأن يكون الاستفهام للإنكار، و «أَمْ» منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير لافتراءهم على الله.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم. «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أيحسبون أن لا يجازوا عليه، وهو منصوب بالظن ويدل عليه أنه قرئ بلفظ الماضي لأنه كائن، وفي إيهام الوعيد تهديد عظيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب. «وَلَئِنْ أَكْثَرْتُمْ لَا يَشْكُرُونَ» هذه النعمة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١).

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ولا تكون في أمر، وأصله الهمز من شأنت شأنه إذا قصدت قصده والضمير في «وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ» له لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول، أو لأن القراءة تكون لشأن فيكون التقدير من أجله ومفعول بتلو «مِنْ قُرْآنٍ» على أن «مِنْ» تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفي أو للـ «قُرْآنٍ»، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له أو لله. «وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ» تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير. «إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» رقباء مطلعين عليه. «إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» تخوضون فيه وتندفعون. «وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ» ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه، وقرأ الكسائي بكسر الزاي هنا وفي «سبأ». «مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ» موازن نملة صغيرة أو هباء. «فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» أي في الوجود والإمكان فإن العامة لا تعرف ممكناً غيرهما ليس فيهما ولا متعلقاً بهما، وتقديم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها. «وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» كلام برأسه مقرر لما قبله و «لَا» نافية و «أصغر» اسمها و «فِي كِتَابٍ» خبرها. وقرأ

حمزة ويعقوب بالرفع على الابتداء والخبر، ومن عطف على لفظ «مُثْقَل ذَرَّةٌ» وجعل الفتح بدل الكسر لامتناع الصرف أو على محله مع الجار جعل الاستثناء منقطعاً، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾﴾

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة. ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفوات مأمول. والآية كمجمل فسرهُ قوله:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وقيل الذين آمنوا وكانوا يتقون بيان لتوليهم إياه.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو ما بشر به المتقين في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ وما يريهم من الرؤيا الصالحة وما يسنح لهم من المكاشفات، وبشرى الملائكة عند النزاع. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة بيان لتوليهم لهم، ومحل ﴿الذين آمنوا﴾ النصب أو الرفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء وخبره ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين. ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله.

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ﴾ إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم. وقرأ نافع ﴿يَحْزَنُونَ﴾ من أحزنه وكلاهما بمعنى. ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ استئناف بمعنى التعليل ويدل عليه القراءة بالفتح كأنه قيل لا تحزن بقولهم ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرك عليهم. ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعزماهم فيكافئهم عليها.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثقلين، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً لا يصلح أحد منهم للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له نداً أو شريكاً فهو كالدليل على قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كان يسمونها شركاء، ويجوز أن يكون ﴿شركاء﴾ مفعول ﴿يدعون﴾ ومفعول ﴿يتبع﴾ محذوف دل عليه. ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنهم أنها شركاء، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿يتبع﴾ أو موصولة معطوفة على من وقرئ «تدعون» بالتاء الخطائية والمعنى: أي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين، أي إنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ فيكون إلزاماً بعد برهان وما بعده مصروف عن خطابه لبيان سندهم ومنشأ رأيهم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون فيما ينسبون إلى الله أو يحزرون ويقدرُونَ أنها شركاء تقديراً باطلاً.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمته المتوحد هو

بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة، وإنما قال «مبصراً» ولم يقل لتبصروا فيه تفرقة بين الظرف المجرد والظرف الذي هو سبب. «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» سماع تدبر واعتبار.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي تبناه. «سُبْحَانَهُ» تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء. «هُوَ الْغَنِيُّ» علة لتنزيهه فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة. «لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» تقرير لغناه. «إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا» نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطان قولهم، و «بِهٰذَا» متعلق بـ «سلطان» أو نعت «له» أو بـ «عندكم» كأنه قيل: إن عندكم في هذا من سلطان. «أُنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» توبيخ وتقريع على اختلافهم وجهلهم. وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد فيها غير سائغ.

﴿قُلْ لِّلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ لِّلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه. «لَا يُفْلِحُونَ» لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف أي افتراؤهم متاع في الدنيا يقيمون به رئاستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم، «متاع» مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا. «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» بالموت فيلقون الشقاء المؤبد. «ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» بسبب كفرهم.

﴿وَإِنلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَرُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِنلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه. «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ عِظَمُ عَلَيْكُمْ وشق. «مَقَامِي» نفسي كقولك فعلت كذا لمكان فلان، أو كوني وإقامتي بينكم مدة مديدة أو قيامي على الدعوة. «وَتَذَكَّرِي» إياكم. «بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ» وثقت به. «فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» فأعزموا عليه. «وَشُرَكَاءَكُمْ» أي مع شركائكم ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على الضمير المتصل، وجاز من غير أن يؤكد للفصل وقيل إنه معطوف على «أمركم» بحذف المضاف أي وأمر شركائكم. وقيل إنه منصوب بفعل محذوف تقديره وادعوا شركاءكم وقد قرئ به، وعن نافع «فاجمعوا» من الجمع، والمعنى أمرهم بالعزم أو الاجتماع على قصده والسعي في إهلاكه على أي وجه يمكنهم ثقة بالله وقلة مبالاة بهم. «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ فِي قُصْدِي» «عَلَيْكُمْ غُمَّةً» مستوراً واجعلوه ظاهراً مكشوفاً، من غمه إذا ستره أو ثم لا يكن حالكم عليكم غمّاً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري. «ثُمَّ اقْضُوا» أدوا. «إِلَيَّ» ذلك الأمر الذي تريدون بي، وقرئ «ثم أفضوا إلي» بالفاء أي انتهوا إلي بشركم أو ابرزوا إلي، من أفضى إذا خرج إلى الفضاء. «وَلَا تُنظِرُونِ» ولا تمهلوني.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٣﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْنِ وَمَا كَانَا مِنَ الْمَعْلُومِينَ﴾ أعرضتم عن تذكيري. ﴿فَمَا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرِ﴾ يوجب توليكم لثقله عليكم واتهامكم إياي لأجله، أو يفوتني لتوليكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي على الدعوة والتذكير. ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم يثبني به أمتهم أو توليتهم. ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه بعدما ألزمهم الحجة وبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمردهم لا جرم حقت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَتَجْنَبْنَاهُ﴾ من الغرق. ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ وكانوا ثمانين. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ من الهالكين به. ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول ﷺ وتسلية له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغِي عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أرسلنا. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح. ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه. ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم في الكفر وخذلان الله إياهم. ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرنهم عليه قبل بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَذَلِكَ نَطْغِي عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بخذلانهم لانهماكهم في الضلال واتباع المألوف، وفي أمثال ذلك دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسب العبد وقد مر تحقيق ذلك.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد هؤلاء الرسل. ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباعهما. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترأوا على ردها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وعرفوه بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك. ﴿قَالُوا﴾ من فرط تمردهم. ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر أنه سحر، أو فائق في فنه واضح فيما بين إخوانه.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ إنه لسحر فحذف المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون. ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ لأنهم بتوا القول بل هو استئناف بإنكار ما قالوه اللهم إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقريب والمحكي مفهوم قولهم، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ أتعيبونه من قولهم فلان يخاف القالة كقوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا نَقَالَ يَذْكُرُهُمْ﴾ فيستغني عن المفعول.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يظل سحر السحرة، ولأن العالم بأنه لا يفلح الساحر لا يسحر، أو من تمام قولهم إن جعل أسحر هذا محكياً كأنهم قالوا أجتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨)
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوْنِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا﴾ لتصرفنا واللفت والفتل أخوان. ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام.
 ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ﴾ الملك فيها سمي بها لاتصاف الملوك بالكبر، أو التكبر على الناس باستباعهم. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين فيما جئتما به.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوْنِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بكل «سحار». ﴿عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١)
 وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون وقومه سحراً. وقرأ أبو عمرو «السحر» على أن «ما» استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها و «السحر» بدل منه أو خبر مبتدأ محذوف تقديره أهر السحر، أو مبتدأ خبره محذوف أي السحر هو. ويجوز أن ينتصب ما بفعل يفسره ما بعده وتقديره أي شيء أتيتم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لا يشبهه ولا يقويه وفيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ﴾ ويشبهه. ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره وقضاياه وقرئ «بكلمته». ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى﴾ أي في مبدأ أمره. ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ إلا أولاد من أولاد قومه بني إسرائيل دعاهم فلم يجيبوه خوفاً من فرعون إلا طائفة من شبانهم، وقيل الضمير لـ «فرعون» والذرية طائفة من شبانهم آمنوا به، أو مؤمن آل فرعون وامرأته وأسرة وخازنه وزوجته وماشطته ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي مع خوف منهم، والضمير لـ «فرعون» وجمعه على ما هو المعتاد في ضمير العظماء، أو على أن المراد بـ «فرعون» آله كما يقال: ربيعة ومضر، أو لـ «ذرية» أو للقوم. ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أن يعذبهم فرعون، وهو بدل منه أو مفعول خوف وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملائكة كان بسببه. ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ لغالب فيها. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى تخوف المؤمنين به. ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فتقوا به واعتمدوا عليه. ﴿إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضي له، والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ونظيره إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ولذلك أجيبت دعوتهم. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾

موضع فتنة. ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

﴿وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كيدهم ومن شؤم مشاهدتهم، وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي له أن يتوكل أولاً لتجانب دعوته.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أي اتخذنا مباءة. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا﴾ تسكنون فيها أو ترجعون إليها للعبادة. ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أنتم وقومكم. ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك البيوت. ﴿قِبْلَةً﴾ مصلى وقيل مساجد متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، وكان موسى ﷺ يصلي إليها. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها، أمروا بذلك أول أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصرة في الدنيا والجنة في العقبى، وإنما ثنى الضمير أولاً لأن النبأ للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاور، ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما ينبغي أن يفعله كل أحد، ثم وحد لأن البشارة في الأصل وظيفة صاحب الشريعة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَتَهُ وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَتَهُ﴾ ما يترين به من الملابس والمراكب ونحوهما. ﴿وَأَمْوَالًا﴾ في الحياة الدنيا وأنواعاً من المال. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر بما علم من ممارسة أحوالهم أنه لا يكون غيره كقولك: لعن الله إبليس. وقيل اللام للعاقبة وهي متعلقة بـ﴿آتيت﴾ ويحتمل أن تكون للعلة لأن إيتاء النعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكانهم أوتوها ليضلوا فيكون ﴿رَبَّنَا﴾ تكريراً للأول تأكيداً وتنبيهاً على أن المقصود عرض ضلالهم وكفرانهم مقدمة لقوله: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلكها، والطمس المحق وقرئ ﴿اطمس﴾ بالضم. ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي واقبسها اطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان. ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على ﴿ليضلوا﴾ وما بينهم دعاء معترض.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمن. ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتم عليه من الدعوة والزام الحجة، ولا تستعجلا فإن ما طلبتما كائن ولكن في وقته. روي: أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة. ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى، وعن ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿ولا تتبعان﴾ بالنون الخفيفة وكسرهما لالتقاء الساكنين، ﴿ولا تتبعان﴾ من تبع ﴿ولا تتبعان﴾ أيضاً.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ مَا مَنَّتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) أَلْقَيْنَا وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١).

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جاوزناهم في البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم، وقرئ «جوزنا» وهو من فعل المرادف لفاعل كضعف وضاعف. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فأدركهم يقال تبعته حتى أتبعته. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾

بَغِيًّا وَعَدُوًّا» باغين وعادين، أو للبغي والعدو وقرىء «وعدوًّا». «حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ» لحقه. «قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ» أي بانه. «لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» وقرأ حمزة والكسائي أنه بالكسر على إضمار القول أو الاستئناف بدلاً وتفسيراً لـ «آمَنْتُ» فكذب عن الإيمان أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يقبل.

«الآن» أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار. «وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ» قبل ذلك مدة عمرك. «وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» الضالين المضلين عن الإيمان.

﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (٩٢)

﴿فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ﴾ ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل. وقرأ يعقوب «تنجيك» من أنجى، وقرىء «تنجيك» بالحاء أي نلقيك بناحية من الساحل. «يَدُنَا» أي بيدنا عارياً عن الروح، أو كاملاً سوياً أو عرياناً من غير لباس. أو بدرع وكانت له درع من ذهب يعرف بها. وقرىء «بأبدانك» أي بأجزاء البدن كلها كقولهم هوى بأجرامه أو بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها. «لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً» لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل إذ كان في نفوسهم من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك، حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطرحاً على ممرهم من الساحل، أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية. وقرىء «لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً أي لخالقك آية أي كسائر الآيات فإن إيفاء إياك بالإلقاء إلى الساحل دليل على أنه تعمد منه لكشف تزويرك وإمطة الشبهة في أمرك. وذلك دليل على كمال قدرته وعلمه وإرادته، وهذا الوجه أيضاً محتمل على المشهور. «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣)

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا. «بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ» منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر. «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ» من اللذائذ. «فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» فما اختلفوا في أمر دينهم إلا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلّموا أحكامها، أو في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته. «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القصص على سبيل الفرض والتقدير. «فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ» فإنه محقق عندهم ثابت في كتبهم على نحو ما ألقينا إليك، والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما في الكتب المتقدمة وأن القرآن مصدق لما فيها، أو وصف أهل الكتاب بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إليه، أو تهيج الرسول ﷺ وزيادة تثبيته لا إمكان وقوع الشك له ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا أشك ولا أسأل». وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أو لكل من يسمع أي إن كنت أيها

السامع في شك مما نزلنا على لسان نبينا إليك، وفيه تنبيه على أن كل من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم. ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ واضحاً أنه لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالترزول عما أنت عليه من الجزم واليقين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أيضاً من باب التهيج والتثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتت عليهم. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في العذاب. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ فإن السبب الأصلي لإيمانهم وهو تعلق إرادة الله تعالى به مفقود. ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وحيث لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (٩٨).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهنا كانت قرية من القرى التي أهلكتها آمنت قبل معاناة العذاب، ولم تؤخر إليها كما أخر فرعون. ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها. ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكن قوم يونس عليه السلام. ﴿لَمَّا ءَامَنُوا﴾ أول ما رأوا أمانة العذاب ولم يؤخروه إلى حلوله. ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه، فيكون الاستثناء متصلاً لأن المراد من القرى أهاليها كأنه قال: ما آمن أهل قرية من القرى العاصية فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس، ويؤيده قراءة الرفع على البدل. ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى آجالهم. روي: (أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل، فكذبوه وأصروا عليه فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث. وقيل إلى ثلاثين. وقيل إلى أربعين، فلما دنا الموعد أغامت السماء غيماً أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم، فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والددة وولدها فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى، فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد. ﴿جَمِيعاً﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، وهو دليل على القدرة في أنه تعالى لم يشأ إيمانهم أجمعين، وأن من شاء إيمانه يؤمن لا محالة، والتقييد بمشيئة الإلجاء خلاف الظاهر. ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ بما لم يشأ الله منهم. ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار، وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلاً عن الحث والتحريض عليه؛ إذ روي أنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الاهتمام به فتزلت. ولذلك قرره بقوله:

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ﴾ بالله. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بإرادته وألطافه وتوفيقه فلا تجهد نفسك في هداها فإنه إلى الله. ﴿وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ﴾ العذاب أو الخذلان فإنه سيبه. وقرىء بالزاي وقرأ أبو بكر «ونجعل» بالنون. ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع ويؤيد الأول قوله:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ أي تفكروا. ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من عجائب صنعه لتدلكم على وحدته وكمال قدرته، و ﴿مَاذَا﴾ إن جعلت استفهامية علقت ﴿انظروا﴾ عن العمل. ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في علم الله وحكمه ﴿وما﴾ نافية أو استفهامية في موضع النصب.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم إذ لا يستحقون غيره من قولهم أيام العرب لوقائعها. ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ لذلك أو فانتظروا هلاكي إني معكم من المنتظرين هلاككم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على محذوف دل عليه ﴿إلا مثل أيام الذين خلوا﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا ومن آمن بهم، على حكاية الحال الماضية. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كذلك الإنجاء أو إنجاء كذلك ننجي محمداً وصحبه حين نهلك المشركين، و ﴿حقاً علينا﴾ اعتراض ونصبه بفعله المقدر. وقيل بدل من كذلك. وقرأ حفص والكسائي ﴿ننجي﴾ مخففاً.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة. ﴿إِنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ وصحته. ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فهذا خلاصة ديني اعتقاداً وعملاً فاعرضوها على العقل الصرف وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا صحتها وهو أنني لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه، ولكن أعبد خالقكم الذي هو يوجدكم ويتوفاكم. وإنما خص التوفي بالذكر للتهديد. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل وينطق به الوحي، وحذف الجار من أن يجوز أن يكون من المطرود مع أن وأن يكون من غيره كقوله:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أُمِرْتُ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَسَبٍ

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطف على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ غير ﴿أَنْ﴾ صلة ﴿أَنْ﴾ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض لأن المقصود وصلها بما يتضمن معنى المصدر لتدل معه عليه، وصيغ الأفعال كلها كذلك سواء الخبر منها والطلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدين والاستبداً فيه بأداء الفرائض، والانتها عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ﴾

يُضَرِّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِّن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ بنفسه إن دعوته أو خذلته. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوته ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعه الدعاء.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وإن يصيبك به. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ يرفعه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله. ﴿وَإِن يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ فلا دافع. ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الذي أراذك به ولعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا استحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده. ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بالخير. ﴿مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ ﴿١١٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ رسوله أو القرآن ولم يبق لكم عذر. ﴿فَمَن اهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعة. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه لها. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر بهما. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال الضلال عليها. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكل إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير.

﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامثال والتبليغ. ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيتهم. ﴿حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ﴾ بالنصرة أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بيونس وكذب به وبعدد من غرق مع فرعون».

(١١) سُورَةُ هُودٍ

مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَخْكَمْتُ مَآبِئَهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ (١)

﴿الرَّ كِتَابٌ﴾ مبتدأ وخبر أو ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف. ﴿أَخْكَمْتُ آيَاتَهُ﴾ نظمت نظاماً محكماً لا يعتريه إخلال من جهة اللفظ والمعنى، أو منعت من الفساد والنسخ فإن المراد آيات السورة وليس فيها منسوخ، أو أحكمت بالحجج والدلائل أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم إذا صار حكيماً لأنها مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية. ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار، أو بجعلها سوراً أو بالإنزال نجماً نجماً، أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه. وقرئ «ثُمَّ فَصَّلْتُ» أي فرقت بين الحق والباطل وأحكمت آياته ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ على البناء للمتكلم، و ﴿ثُمَّ﴾ للتفاوت في الحكم أو للتراخي في الأخبار. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ صفة أخرى لـ ﴿كتاب﴾، أو خبر بعد خبر أو صلة لـ ﴿أَحْكَمْتُ﴾ أو ﴿فَصَّلْتُ﴾، وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر أمره وما خفي.

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْفِكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَأَنَّ أَجَلَ أَمَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣)

﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ لأن لا تعبدوا. وقيل أن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ للإغراء على التوحيد أو الأمر بالتبري من عبادة الغير كأنه قيل: ترك عبادة غير الله بمعنى الزموا أو اتركوها تركاً. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ من الله. ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عطف على ألا تعبدوا. ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم توسلوا إلى مطلوبكم بالتوبة فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من الرجوع. وقيل استغفروا من الشرك ثم توبوا إلى الله بالطاعة، ويجوز أن يكون ثم لتفاوت ما بين الأمرين. ﴿يُعْفِكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ مَّعَافاً حَسَناً﴾ يعفكم في أمن ودعة. ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو آخر أعماركم المقدرة، أو لا يهلككم بعذاب الاستئصال والأرزاق والآجال، وإن كانت متعلقة بالأعمار لكنها مسماة بالإضافة إلى كل أحد فلا تغير. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعط كل ذي فضل في دينه جزاء فضله في الدنيا والآخرة، وهو وعد للموحد النائب بخير الدارين. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وإن تولوا. ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يوم القيامة، وقيل يوم الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى أكلوا الجيف. وقرئ «وَإِن تَوَلَّوْا» من ولي.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ (٥)

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم في ذلك اليوم وهو شاذ عن القياس. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر

على تعذيبكم أشد عذاب وكأنه تقدير لكبر اليوم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يثنونها عن الحق وينحرفون عنه، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي ﷺ، أو يولون ظهورهم. وقرىء «يثنوني» بالياء والتاء من اثنوني، وهو بناء مبالغة. و«ثنون»، وأصله ثنوتن من الثن وهو الكلا الضعيف أراد به ضعف قلوبهم أو مطاوعة صدورهم للثني، و«يثنن» من اثنان كأبياض بالهمزة و«ثنوي». ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ من الله بسرهم فلا يطلع رسوله والمؤمنين عليه. قيل إنها نزلت في طائفة من المشركين قالوا: إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم. وقيل نزلت في المنافقين وفيه نظر إذ الآية مكية والتفاق حدث بالمدينة. ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ألا حين يأوون إلى فراشهم ويتغطون بثيابهم. ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم. ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ بأفواههم يستوي في علمه سرهم وعلنهم فكيف يخفى عليه ما عسى يظهره. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالأسرار ذات الصدور أو بالقلوب وأحوالها.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه تفضلاً ورحمة، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصوله وحملها على التوكل فيه. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أماكنها في الحياة والممات، أو الأصلاب والأرحام أو مساكنها من الأرض حين وجدت بالفعل ومودعها من المواد والمقار حين كانت بعد بالقوة. ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد من الدواب وأحوالها. ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ مذكور في اللوح المحفوظ، وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيهما كما مر بيانه في «الأعراف»، أو ما في جهتي العلو والسفل وجمع السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه كان موضوعاً على متن الماء، واستدل به على إمكان الخلاء وأن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل كان الماء على متن الريح والله أعلم بذلك. ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ متعلق بـ «خلق» أي خلق ذلك كخلق من خلق ليعاملكم معاملة المبتلي لأحوالكم كيف تعملون، فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما تحتاج إليه أعمالكم ودلائل وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها، وإنما جاز تعليق فعل البلوى لما فيه من معنى العلم من حيث إنه طريق إليه كالنظر والاستماع، وإنما ذكر صيغة التفضيل والاختبار شامل لفرق المكلفين باعتبار الحسن والقبح للتحريض على أحسن المحاسن، والتخصيص على الترقى دائماً في مراتب العلم والعمل فإن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح ولذلك قال النبي ﷺ «أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله». والمعنى أيكم أكمل علماً وعملاً. ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما البعث أو القول به أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر في الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة والكسائي «إلا ساحر» على أن الإشارة إلى القائل. وقرىء «أنكم» بالفتح على تضمن قلت معنى ذكرت أو أن يكون أن بمعنى على أي ولئن قلت عليكم مبعوثون، بمعنى توقعوا بعثكم ولا تبتوا بإنكاره لعدوه من قبيل ما لا حقيقة له مبالغة في إنكاره.

﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أَنَّهُ مَعْدُودَةٌ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الموعود. ﴿إِلَّا أَنَّهُ مَعْدُودَةٌ﴾ إلى جماعة من الأوقات قليلة. ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ استهزاء. ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ ما يمنعه من الوقوع. ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ كيوم بدر. ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ليس العذاب مدفوعاً عنهم، و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بخبر ﴿ليس﴾ مقدم عليه وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ وأحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد. ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا به يستعجلون، فوضع ﴿يستعجلون﴾ موضع يستعجلون لأن استعجالهم كان استهزاء.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴿٩﴾﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ولئن أعطيناه نعمة بحيث يجد لذتها. ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ ثم سلبنا تلك النعمة منه. ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ قطوع رجاءه من فضل الله تعالى لقلة صبره وعدم ثقته به. ﴿كَفُورٌ﴾ مبالغ في كفران ما سلف له من النعمة.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءَ مَسَتْهُ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم، وفي اختلاف الفعلين نكتة لا تخفى. ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي المصائب التي ساءتني. ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ بطر بالنعم مغتر بها. ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها، وفي لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان في الدنيا من النعم والمحن كالأنفودج لما يجده في الآخرة، وأنه يقع في الكفران والبطر بأدنى شيء لأن الذوق إدراك الطعم والمس مبتدأ الوصول.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الضراء إيماناً بالله تعالى واستسلاماً لقضائه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ شكراً لآلائه سابقها ولاحقها. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس فإذا كان محلى باللام أفاد الاستغراق ومن حمله على الكافر لسبق ذكرهم جعل الاستثناء منقطعاً.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم واستهزائهم به، ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسل عن الخيانة في الوحي والثقة في التبليغ ها هنا. ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ وعارض لك أحياناً ضيق صدرك بأن تلوهم عليهم مخافة. ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ﴾ ينفقه في الاستبعا كالملوك. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدق وقيل الضمير في ﴿به﴾ مبهم يفسره ﴿أن يقولوا﴾. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ولا عليك ردوا أو اقترحوا فما بالك يضيق به صدرك. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه فإنه عالم بحالهم. وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأَنزِلْهُ سُوْرٌ مِّثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَن أَسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَٰهَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتِرَاءَ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة والهاء ﴿لما يوحى﴾. ﴿قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ في البيان وحسن النظم تحداهم أولاً بعشر سور ثم لما عجزوا عنها سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة، وتوحيد المثل باعتبار كل واحدة. ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ مختلفات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص والأشعار وتعودكم القريض والنظم. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى المعاونة على المعارضة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه مفترى ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتهم إليه، وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول ﷺ أو لأن المؤمنين كانوا أيضاً يتحدونهم، وكان أمر الرسول ﷺ فتناولاً لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، وللتنبية على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم فلا يغفلون عنه ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه. ﴿وَأَنَّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ واعلموا أن لا إله إلا الله لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره، ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيب هذا الكلام الثابت صدقة بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه مخلصون إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً، ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين والضمير في ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ لمن استطعتم أي فإن لم يستجيبوا لكم إلى المظاهرة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله، وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة، وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبية على قيام الموجب وزوال العذر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بإحسانه وبره. ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ نوصل إليهم جزاء أعمالهم في الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد. وقرئ «يوف» بآياء أي يوف الله و«توف» على البناء للمفعول و«نوف» بالتخفيف والرفع لأن الشرط ماض كقوله:

وَأِنْ أَتَاهُ كَرِيمٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبَ مَسَالِي وَلَا حَرَمَ

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون شيئاً من أجورهم. والآية في أهل الرياء. وقيل في المنافقين. وقيل في الكفرة وغرضهم وبرهم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ مطلقاً في مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ لأنه لم يبق لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا به وجه الله والعمدة في اقتضاء ثوابها هو الإخلاص، ويجوز تعليق الظرف بـ«صنعوا» على أن الضمير لـ«الدنيا». ﴿وَبَاطِلٌ﴾ في نفسه. ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يعمل على ما ينبغي، وكان كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها. وقرئ «باطلاً» على أنه مفعول يعملون و«ما» إبهامية أو في معنى المصدر كقوله:

وَلَا خَارِجاً مِّنْ فِي زُورٍ كَلَامٍ

وبطل على الفعل.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ برهان من الله يدلّه على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره، والهمزة لإنكار أن يعقب من هذا شأنه هؤلاء المقصرين همهم وأفكارهم على الدنيا وأن يقارب بينهم في المنزلة، وهو الذي أغنى عن ذكر الخير وتقديره أَمِنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ كَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وهو حكم يعم كل مؤمن مخلص. وقيل المراد به النبي ﷺ وقيل مؤمنو أهل الكتاب. ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان الذي هو دليل العقل. ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن. ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ يعني التوراة فإنها أيضاً تتلوّه في التصديق، أو البينة هو القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ من التلاوة والشاهد جبريل، أو لسان الرسول ﷺ على أن الضمير له أو من التلو والشاهد ملك يحفظه. والضمير في ﴿يَتْلُوهُ﴾ إما لمن أو للبينة باعتبار المعنى ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى﴾ جملة مبتدأة. وقرئ ﴿كِتَابُ﴾ بالنصب عطفًا على الضمير في ﴿يَتْلُوهُ﴾ أي يتلو القرآن شاهد ممن كان على بينة دالة على أنه حق كقوله: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل﴾ وقرأ من قبل القرآن التوراة. ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤتمناً به في الدين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم لأنه الوصلة إلى الفوز بخير الدارين. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﷺ. ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يردها لا محالة. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من الموعده، أو القرآن وقرئ ﴿مِرْيَةٍ﴾ بالضم وهما الشك. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم واختلال فكرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كأن أسند إليه ما لم ينزله أو نفى عنه ما أنزله. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي الكاذبون. ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ في الموقف بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم. ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم، وهو جمع شاهد كأصحاب أو شهيد كأشراف جمع شريف. ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهويل عظيم مما يحق بهم حيث ذلّ لهم بالكذب على الله. ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن دينه. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب أو يبعثون أهلها أن يعوجوا بالردة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢١﴾﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ يمنعونهم من العقاب ولكنه آخر عقابهم إلى هذا اليوم ليكون أشد وأدوم. ﴿يُضَاعَفُ

لَهُمُ الْعَذَابُ استئناف وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يُضْعَفُ» بالتشديد. «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ» لتصامهم عن الحق وبغضهم له. «وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ» لتعاميهم عن آيات الله، وكأنه العلة لمضاعفة العذاب. وقيل هو بيان ما نفاه من ولاية الآلهة بقوله: «وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ» فإن ما لا يسمع ولا يبصر لا يصلح للولاية وقوله: «يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ» اعتراض.

«أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى «وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» من الآلهة وشفاعتها، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما حصلوا فلم يبق معهم سوى الحسرة والندامة. «لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ» لا أحد أبين وأكثر خسراناً منهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾
﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ اطمأنوا إليه وخشعوا له من الخبت وهو الأرض المطمئنة. «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» دائمون.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكافر والمؤمن. «كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ» يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصامه عن إسماع كلام الله تعالى وتأبيه عن تدبر معانيه، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون كل واحد منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين، أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة كقوله:

الصَّائِحُ فَالْعَانِمُ فَالْأَيْبُ

وهذا من باب اللف والطباق. «هَلْ يَسْتَوِيَانِ» هل يستوي الفريقان. «مَثَلًا» أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً. «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» بضرب الأمثال والتأمل فيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ﴾ بأني لكم. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة بالكسر على إرادة القول. «نَذِيرٌ مُّبِينٌ» أبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من «إني لكم»، أو مفعول مبين، ويجوز أن تكون أن مفسرة متعلقة بـ «أرسلنا» أو بـ «نذير». «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ» مؤلم وهو في الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جد جده ونهاره صائم للمبالغة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكْنَا أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ وَالرَّأْيَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا تخصك بالنبوة ووجوب الطاعة. «وَمَا تَرَكْنَا أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكَ» أخسأونا جمع أرذل فإنه بالغلبة صار مثل الاسم كالأكبر، أو أرذل جمع رذل. «بَادِي الرَّأْيِ» ظاهر الرأي من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء ميدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها. وقرأ أبو عمرو بالهمزة وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أي: وقت حدوث بادِي الرَّأْيِ، والعامل فيه «أتبعك». وإنما استرذلوهم لذلك أو لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من

العذاب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في الدعوى والوعيد فإن مناظرتك لا تؤثر فينا.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُنْعِجِينَ﴾ بدفع العذاب أو الهرب منه.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُخْتَرُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ شرط ودليل جواب والجملة دليل جواب قوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي، ولذلك نقول لو قال الرجل أنت طالق إن دخلت الدار إن كلمت زيدا فدخلت ثم كلمت لم تطلق، وهو جواب لما أوهموا من جداله كلام بلا طائل. وهو دليل على أن إرادة الله تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده محال. وقيل ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أن يهلككم من غوى الفصيل غوى إذا بشم فهلك. ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ هو خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ وباله وقرىء «أجرامي» على الجمع. ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُخْتَرُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إلى.

﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن ولا تتأسف. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أفنطه الله تعالى من إيمانهم ونهاه أن يغتم بما فعلوه من التكذيب والإيذاء.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ملتبساً بأعيننا، عبر بكثرة آله الحس الذي يحفظ به الشيء ويراعى عن الاختلال والزيغ عن المبالغة في الحفظ والرعاية على طريق التمثيل. ﴿وَوَحِّينَا﴾ إليك كيف تصنعها. ﴿وَلَا تَخْاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ محكوم عليهم بالإغراق فلا سبيل إلى كفه.

﴿وَصْنَعُ الْفُلِكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٢٩﴾.

﴿وَصْنَعُ الْفُلِكَ﴾ حكاية حال ماضية. ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزؤوا به لعمله السفينة فإنه كان يعملها في برية بعيدة من الماء وأوان عزته، وكانوا يضحكون منه ويقولون له: صرت نجاراً بعدما كنت نبياً. ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا أخذكم الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل المراد بالسخرية الاستجهال.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يعني به إياهم وبالعذاب الغرق. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ وينزل عليه، أو يحل عليه حلول الدين الذي لا انفكاك عنه. ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ غاية لقوله ﴿وَصْنَعُ الْفُلِكَ﴾ وما بينهما حال من الضمير فيه أو حتى هي التي يتبدأ

بعدها الكلام. ﴿وَقَارَ التَّنُورَ﴾ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور، و ﴿التَّنُورَ﴾ تنور الخبز ابتداءً منه النبوع على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجدها، أو في الهند أو بعين وردة من أرض الجزيرة وقيل التنور وجه الأرض أو أشرف موضع فيها. ﴿قُلْنَا اخْمِلْ فِيهَا﴾ في السفينة. ﴿مِنْ كُلِّ﴾ من كل نوع من الحيوانات المتفع بها. ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكرأ وأنثى هذا على قراءة حفص والباقون أضافوا على معنى احمل اثنين من كل صنف ذكر وصنف أنثى. ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿اثْنَيْنِ﴾، والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بأنه من المفارقة يريد ابنه كنعان وأمه واعلة فإنهما كانا كافرين. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ والمؤمنين من غيرهم. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين زوجته المسلمة وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث ونساؤهم وإثنان وسبعون رجلاً وامرأة من غيرهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام اتخذ السفينة في ستين من الساج وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين وسمكها ثلاثين، وجعل لها ثلاثة بطون فحمل في أسفلها الدواب والوحش وفي أوسطها الإنس وفي أعلاها الطير.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنْهَا مِنْ هَاجِلٍ وَرَمَسَهَا إِنْ رَزَقْنَاكَ مِنْهَا حَمْدًا لَقَدْ كُنَّا أَهْلَ عِلْمٍ لَخَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي صيروا فيها وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض. ﴿بِسْمِ اللَّهِ نَجِّنْهَا مِنْ هَاجِلٍ وَرَمَسَهَا﴾ متصل بـ ﴿ارْكَبُوا﴾ حال من الواو أي اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر، والمضاف محذوف كقولهم: أتيتك خفوق النجم، وانتصابهما بما قدرناه حالاً ويجوز رفعهما بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ وخبر، أي إجرائها ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ على أن ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ خبر أو صلة والخبر محذوف وهي إما جملة مقتضية لا تعلق لها بما قبلها أو حال مقدرة من الواو أو الهاء. وروي أنه كان إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست. ويجوز أن يكون الاسم مقحماً كقوله: ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم برواية حفص ﴿مَجْرَاهَا﴾ بالفتح من جرى وقرىء «مرسأها» أيضاً من رسا وكلاهما يحتمل الثلاثة و «مجرىها ومرسئها» بلفظ الفاعل صفتين لله. ﴿إِنْ رَزَقْنَاكَ مِنْهَا حَمْدًا لَقَدْ كُنَّا أَهْلَ عِلْمٍ لَخَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لفرطانكم ورحمته إياكم لما نجاكم.

﴿وَهُيَ تَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَؤُا زَكَّابًا وَمَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَهُيَ تَجْرِي فِي مَوْجٍ﴾ متصل بمحذوف دل عليه ﴿ارْكَبُوا﴾ فركبوا مسمين وهي تجري وهم فيها. ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ في موج من الطوفان، وهو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة منها كجبل في تراكبها وارتفاعها، وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً وإن صح فعل ذلك قبل التطبيق. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان، وقرىء «ابنهما» و «ابنه» يحذف الألف على أن الضمير لامرأته، وكان ربيبه وقيل كان لغير رشدة لقوله تعالى: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ وهو خطأ إذ الأنبياء عصمن من ذلك والمراد بالخيانة الخيانة في الدين، وقرىء «ابناه» على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف الحرف. ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه مفعول للمكان من عزله عنه إذا أبعد. ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ في السفينة، والجمهور كسروا الياء ليندل على ياء الإضافة المحذوفة في جميع القرآن، غير ابن كثير فإنه وقف عليها في «لقمان» في الموضع الأول باتفاق الرواة وفي الثالث في رواية قنبل وعاصم فإنه فتحها هنا اقتصاراً على الفتح من الألف المبدلة من ياء الإضافة، واختلفت الرواية عنه في سائر المواضع وقد أدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي وحفص لتقاربهما. ﴿وَلَا

تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» في الدين والانعزال.

﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَفْعَسُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣) وَقِيلَ يَتَّزِشْ أَبْنِي مَاءَكَ وَتَسْمَأَهُ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤).

﴿قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَفْعَسُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أن يفرقني ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى أو إلا مكان من رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللاتذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة. وقيل لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كقوله: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ وقيل الاستثناء منقطع أي لكن من رحمه الله يعصمه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ بين نوح وابنه أو بين ابنه والجبل. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ فصار من المهلكين بالماء.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ نوديا بما ينادي به أولو العلم وأمرًا بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المتقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمتة وخشية من أليم عقابه، والبلع النشف والإفلاق الإمساك. ﴿وَوُضِيَ الْمَاءُ﴾ نقص. ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين. ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ واستقرت السفينة. ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جبل بالموصل وقيل بالشام وقيل بآمل. روي أنه ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم فصام ذلك اليوم فصار ذلك سنة. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هلاكاً لهم، يقال: بعد بعداً وبعداً، إذا بعد بعداً بعيداً بحيث لا يرجى عوده، ثم استعير للهلاك وخص بدعاء السوء، والآية في غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، وفي إيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل، وأنه متعين في نفسه مستغن عن ذكره، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْحُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦).

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ وأراد ندائه بدليل عطف قوله: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فإنه النداء. ﴿وَأَنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ وإن كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه الخلف، وقد وعدت أن تنجي أهلي فما حاله، أو فما له لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه. ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم، أو لأنك أكثر حكمة من ذوي الحكم على أن الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمن والكافر وأشار إليه بقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فإنه تعليل لنفي كونه من أهله، وأصله إنه ذو عمل فاسد فجعل ذاته ذات العمل للمبالغة كقول الخنساء تصف ناقة:

نَرْتَعُ مَا رَتَعْتَ حَتَّى إِذَا اذْكُرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِذْبَارٌ

ثم بدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله عنه. وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي عمل عملاً غير صالح. ﴿فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا تعلم أصواب هو أم ليس كذلك، وإنما سمي ندائه سؤالاً لتضمن ذكر الوعد بنجاة أهله استنجاهه

في شأن ولده أو استفسار المانع للإنجاز في حقه، وإنما سماه جهلاً وزجر عنه بقوله: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دله على الحال وأغناه عن السؤال، لكن أشغله حب الولد عنه حتى اشتبه عليه الأمر. وقرأ ابن كثير بفتح اللام والنون الشديدة وكذلك نافع وابن عامر غير أنهما كسرا النون على أن أصله تسألنني فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت الشديدة للياء، ثم حذفت اكتفاء بالكسرة وعن نافع برواية رويس إثباتها في الوصل.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧) قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ يَسْلُومُ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ﴾ فيما يستقبل. ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لا علم لي بصحته. ﴿وَالْإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ وإن لم تغفر لي ما فرط مني في السؤال. ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بالتوبة والتفضل علي. ﴿أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أعمالاً.

﴿قِيلَ يَا نُوْحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ انزل من السفينة مسلماً من المكاره من جهتنا أو مسلماً عليك. ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ ومباركاً عليك أو زيادات في نسلك حتى تصير آدمياً ثانياً. وقرئ «اهبط» بالضم «وبركة» على التوحيد وهو الخير النامي. ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ وعلى أمم هم الذين معك، سموا أمماً لتحزبهم أو لشعب الأمم منهم، أو وعلى أمم ناشئة ممن معك والمراد بهم المؤمنون لقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أي وممن معك أمم ستمتعهم في الدنيا. ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة والمراد بهم الكفار من ذرية من معه. وقيل هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب، والعذاب ما نزل بهم.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى قصة نوح ومحلها الرفع بالإبتداء وخبرها: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي بعضها. ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ خبر ثان والضمير لها أي موحاة إليك، أو حال من الـ ﴿أَنْبَاءِ﴾ أو هو الخبر و ﴿مِنْ أَنْبَاءِ﴾ متعلق به أو حال من الهاء في ﴿نُوحِيهَا﴾. ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك من قبل ايحائنا إليك، أو حال من الهاء في نوحيتها أو الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾ أي: جاهلاً أنت وقومك بها، وفي ذكرهم تنبيه على أنه لم يتعلمها إذ لم يخالط غيرهم وأنهم مع كثرتهم لما لم يسمعوها فكيف بواحد منهم. ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاق الرسالة وأذية القوم كما صبر نوح. ﴿إِنَّ الْعَذَابَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي.

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠) يَنْفَوْرُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١).

﴿وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ عطف على قوله ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ و ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ وقرئ بالجذر حملاً على المجرور وحده. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خاطب كل رسول به قومه إزاحة للتهمة

وتمحيضاً للنصيحة فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ.

﴿وَيَقُومُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣).

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ اطلبوا مغفرة الله بالإيمان ثم توسلوا إليها بالتوبة وأيضاً التبري من الغير إنما يكون بعد الإيمان بالله والرغبة فيما عنده. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدر. ﴿وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويضعف قوتكم، وإنما رغبتهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل حبس الله عنهم القطر وأعظم أرحام نساءهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه. ﴿مُجْرِمِينَ﴾ مصرين على إجرامكم.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بحجة تدل على صحة دعواك وهو لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ بتاركي عبادتهم. ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إقناط له من الإجابة والتصديق.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦).

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ ما نقول إلا قولنا ﴿اعتراك﴾ أي أصابك من عراه يعروه إذا أصابه. ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ بجنون لسبك إياها وصدك عنها ومن ذلك تهذي وتكلم لخرافات، والجملة مقول القول وإلا لغو لأن الاستثناء مفرغ. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ أجاب به عن مقاتلتهم الحمقاء بأن أشهد الله تعالى على براءته من آلهتهم وفراغه عن إضرارهم تأكيداً لذلك وتثبيتاً له، وأمرهم بأن يشهدوا عليه استهانة بهم، وأن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتى إذا اجتهدوا فيه ورأوا أنهم عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء أن يضروه لم يبق لهم شبهة أن آلهتهم التي هي جماد لا يضر ولا ينفع لا تتمكن من إضراره انتقاماً منه، وهذا من جملة معجزاته فإن مواجهة الواحد الجرم الغفير من الجبابرة الفتاك العطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلا لثقتة بالله وتبطلهم عن إضراره ليس إلا بعصمته إياه ولذلك عقبه بقوله:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تقريراً له والمعنى أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لن تضروني فإني متوكل على الله واثق بكلايته وهو مالكي ومالككم لا يحيق بي ما لم يردده، ولا تقدرون على ما لم يقدره ثم برهن عليه بقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي إلا وهو مالك لها قادر عليها يصرفها على ما يريد بها والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي أنه على الحق والعدل لا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إِلَيْكُمْ وَسَخَّلْتُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن تولوا. ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقد أدبت ما علي من الإبلاغ والزام الحجة فلا تفريط مني ولا عذر لكم فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف قوماً آخرين في ديارهم وأموالهم، أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده القراءة بالجزم على الموضع كأنه قيل: وإن تولوا يعذرني ربي ويستخلف. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ بتوليكم. ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ومن جزم يستخلف أسقط النون منه. ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾ رقيب فلا تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم، أو حافظ مستول عليه فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا العذاب. ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ وكانوا أربعة آلاف. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تكرير لبيان ما نجاهم منه وهو السموم، كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أعضائهم، أو المراد به تنجيهم من عذاب الآخرة أيضاً، والتعريض بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم فهم معذبون في الآخرة بالعذاب الغليظ.

﴿وَبَلَّغَ عَادٌ جَحْدُوا بِكَائِتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَبَلَّغَ عَادٌ﴾ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى قبورهم وأثارهم. ﴿جَحْدُوا بِكَائِتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها. ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولا فكأنما عصى الكل لأنهم أمروا بطاعة كل رسول. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني كبراءهم الطاغين و ﴿عَنِيدٍ﴾ من عند عنداً وعنوداً وإذا طغى، والمعنى عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يردبهم.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم في العذاب. ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوه أو كفروا نعمه أو كفروا به فحذف الجار. ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفضيلاً لأمرهم وحشاً على الاعتبار بحالهم. ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لعاد، وفائدته تمييزهم عن عاد الثانية عاد إرم، والإيماء إلى أن استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود.

﴿وَإِنْ تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِلَى تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ هو كونكم منها لا غيره فإنه خلق آدم ومواد النطف التي خلق نسله منها من التراب. ﴿وَاسْتَغْفِرْكُمْ فِيهَا﴾ عمركم فيها واستبقاكم من العمر، أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها، وقيل هو من العمري بمعنى أعماركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ قريب الرحمة. ﴿مُجِيبٌ﴾ لداعيه.

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُشِيبٌ ﴿٦٢﴾﴾ قَالَ يَفْقَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَتَسَّرٍ مِنْ رَبِّي وَأَنَا لِنُفْسٍ مِنْهُ رَحِمَةٌ فَمَنْ يُضِلُّنِي مِنَ اللَّهِ

إِنْ عَصَيْتُمْ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ لما نرى فيك من مخايل الرشد والسادات أن تكون لنا سيداً ومستشاراً في الأمور، أو أن توافقنا في الدين فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا عنك. ﴿أَتُنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان. ﴿مُرِيبٌ﴾ موقع في الريبة من أراه، أو ذي ريبة على الإسناد المجازي من أراب في الأمر.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين. ﴿وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ﴾ نبوة. ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ فمن يمنعني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ إذن باستتباعكم إياي. ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعرض لعذابه، أو فما تزيدوني بما تقولون لي غير أن أنسبكم إلى الخسران.

﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ انتصب آية على الحال وعاملها معنى الإشارة، ولكم حال منها تقدمت عليها لتذكيرها. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ﴾ عيشوا في منازلكم أو في داركم الدنيا. ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة ثم تهلكون. ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه فاتسع فيه باجرائه مجرى المفعول به كقوله:

وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَامِرًا

أو غير مكذوب على المجاز، وكان الواعد قال له أفي بك فإن وفى به صدقة وإلا كذبه، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثمين ﴿١٧﴾ كَانُوا يَمْنُونُ فِيهَا إِلَّا نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِنَمُودٍ ﴿١٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة أو ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة. وعن نافع ﴿يومئذ﴾ بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه هنا وفي «المعارج» في قوله: ﴿من عذاب يومئذ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والغالب عليه.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثمين﴾ قد سبق تفسير ذلك في سورة «الأعراف».

﴿كَانُوا يَمْنُونُ فِيهَا إِلَّا نَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نَوْنُهُ أبو بكرها هنا وفي «النجم» والكسائي في جميع القرآن وابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو في قوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِنَمُودٍ﴾ ذهاباً إلى الحي أو الأب الأكبر.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني الملائكة، قيل: كانوا تسعة، وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل. ﴿بِالْبَشَرَى﴾ ببشارة الولد. وقيل بهلاك قوم لوط. ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ سلمنا عليك سلاماً ويجوز نصبه بـ ﴿قَالُوا﴾ على معنى ذكروا سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي أمركم أو جوابي سلام أو وعليكم سلام، رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم. وقرأ حمزة والكسائي «سلم» وكذلك في «الذاريات» وهما لغتان كحرم وحرام وقيل المراد به الصلح. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ﴾ فما أبطأ مجيئه به، أو فما أبطأ في المجيء به، أو فما تأخر عنه والجار في ﴿أَنْ﴾ مقدر أو محذوف والخنيذ المشوي بالرضف. وقيل الذي يقطر ودكه من حنذت الفرس إذا عرفته بالجلال لقوله: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (٧٠)

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لا يمدون إليه أيديهم. ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أنكر ذلك منهم وخاف أن يريدوا به مكروهاً، ونكر وأنكر واستنكر بمعنى والإيجاس الإدراك وقيل الإضمام ﴿قَالُوا﴾ له لما أحسوا منه أثر الخوف. ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ إنا ملائكة مرسله إليهم بالعذاب، وإنما لم نمد إليه أيدينا لأننا لا نأكل.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم أو على رؤوسهم للخدمة. ﴿فَضَحِكَتْ﴾ سروراً بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد أو بإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً فإنني أعلم أن العذاب ينزل بهؤلاء القوم. وقيل فضحكت فحاضت قال الشاعر:

وَعَهْدِي بِسَلْمَى ضَاحِكاً فِي لُبَابَةٍ وَلَمْ يَغْدُ خُفّاً تَذِيهَهَا أَنْ تَحَلَّماً

ومنه ضحكت السمرة إذا سال صمغها وقرىء بفتح الحاء. ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وحفص بفعل يفسره ما دل عليه الكلام وتقديره: ووهبناها من وراء إسحاق يعقوب. وقيل إنه معطوف على موضع ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ أو على لفظ ﴿إِسْحَاقَ﴾، وفتحته للجر فإنه غير مصروف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف. وقرأ الباقون بالرفع على أنه مبتدأ.

وخبره الظرف أي و ﴿يعقوب﴾ مولود من بعده. وقيل وراء ولد الولد ولعله سمي به لأنه بعد الولد وعلى هذا تكون إضافته إلى ﴿إِسْحَاقَ﴾ ليس من حيث أن يعقوب عليه الصلاة والسلام وراءه، بل من حيث إنه وراء إبراهيم من جهته وفيه نظر. والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به، وتوجيه البشارة إليها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها لا من هاجر ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد.

﴿قَالَتْ يَوْنُسَ أَلَيْدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٧١) ﴿قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَكْنُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٢).

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى﴾ يا عجباً، وأصله في الشر فأطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل. ﴿أَلَيْدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ابنة تسعين أو تسع وتسعين. ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي وأصله القائم بالأمر. ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة أو مائة وعشرين، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى اسم الإشارة. وقرىء بالرفع على أنه خبر محذوف أي هو شيخ، أو خبر بعد خبر أو هو الخبر و ﴿بَعْلِي﴾ بدل. ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يعني الولد من هرمين، وهو استعجاب من حيث العادة دون القدرة ولذلك:

﴿قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منكرين عليها فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات، وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلاً عما نشأت وشابت في ملاحظة الآيات، وأهل البيت نصب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد. ﴿مَجِيدٌ﴾ كثير الخير والإحسان.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ﴾ (٧٥) ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي ما أوجس من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم. ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ﴾ بدل الورع. ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ يجادل رسلنا في شأنهم ومجادلته إياهم قوله: ﴿إِنْ فِيهَا لُوطًا﴾ وهو إما جواب لما جيء به مضارعاً على حكاية الحال أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترأ على خطابنا أو شرع في جدالنا، أو متعلق به أقيم مقامه مثل أخذ أو أقبل يجادلنا.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام من المسيء إليه. ﴿أَوَّهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله، والمقصود من ذلك بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترجمه.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ على إرادة القول أي قالت الملائكة ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾. ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدل ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم. ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ مصروف بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧) ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ عَلَىٰ رِجْلٍ شَدِيدٍ﴾ (٧٨).

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ ساء مجيئهم لأنهم جاؤوه في صورة غلمان فظن أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بمكانهم صدره، وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتياال فيه. ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد من عصبه إذا شدة.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل ذلك الوقت. ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الفواحش فتمرنوا بها ولم يستحيوا منها حتى جاؤوا يهرعون لها مجاهرين. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فدى بهن أضيافه كرمًا وحمية، والمعنى هؤلاء بناتي فتزوجوهن، وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارىء أو مبالغة في تناهي خبث ما يرومونه حتى إن ذلك أهون منه، أو إظهاراً لشدة امتعاضه من ذلك كي يرقوا له. وقيل المراد بالبنات نساؤهم فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية وفي حرف ابن مسعود ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَهْمَاتُهُمْ﴾ وهو أب لهم ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أنظف فعلاً وأقل فحشاً كقولك: الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه. وقرئ ﴿أطهر﴾ بالنصب على الحال على أن ﴿هن﴾ خبر ﴿بناتي﴾ كقولك: هذا أخي هو لا فصل فإنه لا يقع بين الحال وصاحبها. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش أو بإيثارهن عليهم. ﴿وَلَا تَخْزَوْا﴾ ولا تفضحوني من الخزي، أو ولا تخجلوني من الخزية بمعنى الحياء. ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ في شأنهم فإن

إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه. ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ (٨٠).

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران. ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو قويت بنفسي على دفعكم. ﴿أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ إلى قوي أتمنع به عنكم. شبهه بركن الجبل في شدته. وعن النبي ﷺ «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد». وقرئ «أو آوى» بالنصب بإضمار أن كأنه قال: لو أن لي بكم قوة أو أويأ وجواب لو محذوف تقديره لدفعتمكم روي أنه أغلق بابَه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب.

﴿قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١).

﴿قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ لَنْ يَصِلُوا إِلَى إِضْرَارِكَ بِإِضْرَارِنَا فَهَوْنٌ عَلَيْكَ وَدَعْنَا وَايَاهُمْ، فخلاهم أن يدخلوا فضرِب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فخرجوا يقولون النجاء النجاء فإن في بيت لوط سحرة. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بالقطع من الإسرائ، وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث وقع في القرآن من السري. ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بطائفة منه. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا يتخلف أو لا ينظر إلى ورائه والنهي في اللفظ لأحد وفي المعنى للوط. ﴿إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ويدل عليه أنه قرئ فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك، وهذا إنما يصح على تأويل الالتفات بالتخلف فإنه إن فسر بالنظر إلى الوراء في الذهاب ناقض ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالرفع على البذل من أحد، ولا يجوز حمل القراءتين على الروايتين في أنه خلفها مع قومها أو أخرجها فلما سمعت صوت العذاب التفتت وقالت يا قوماء فأدركها حجر فقتلها، لأن القواطع لا يصح حملها على المعاني المتناقضة، والأولى جعل الاستثناء في القراءتين من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ﴾ مثله في قوله تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ولا يبعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفضح، ولا يلزم من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه استصلاحاً ولذلك علل على طريقة الاستئناف بقوله: ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعاً على قراءة الرفع. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ كأنه علة الأمر بالإسرائ. ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا مِنْ آلٍ ظَالِمِينَ يَبْعِدُ (٨٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا أو أمرنا به، ويؤيده الأصل وجعل التعذيب مسبباً عنه بقوله: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ فإنه جواب لما وكان حقه: جعلوا عاليها سافلها أي الملائكة المأمورون به، فأسند إلى نفسه من حيث إنه المسبب تعظيماً للأمر فإنه روي: (أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائنهم ورفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها عليهم). ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على المدن أو على شذاذها. ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر لقوله: ﴿حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ وأصله سنك كل فعرب. وقيل إنه من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته، والمعنى من مثل الشيء المرسل أو من مثل العطية في الإدرار،

أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً. ﴿مَنْشُودٌ﴾ نضد معداً لعذابهم، أو نضد في الإرسال بتتابع بعضه بعضاً كقطار الأمطار، أو نضد بعضه على بعض والصلق به.

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلمة للعذاب. وقيل معلمة بياض وحمرة. أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض، أو باسم من يُرمى بها. ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في خزائنه. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنه سأل جبريل عليه السلام فقال: يعني ظالمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة». وقيل الضمير للقرى أي هي قرية من ظالمي مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

﴿وَإِلَىٰ مَدِينٍ آخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ (٨٤).

﴿وَإِلَىٰ مَدِينٍ آخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أو أهل مدين وهو بلد بناه فسمي باسمه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أمرهم بالتوحيد أولاً فإنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة التعاض. ﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ﴾ بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكراً عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه وهو في الجملة علة للنهي. ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ لا يشد منه أحد منكم. وقيل عذاب مهلك من قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِشْمَرِهِ﴾. والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال، ووصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه.

﴿وَيَنْقُورِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ صرح بالأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبهاً على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمدتهم التطفيف، بل يلزمهم السعي في الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى بدونها. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقصان، فإن الزدياد إيفاء وهو مندوب غير مأمور به وقد يكون محظوراً. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون في المقدار، أو في غيره وكذا قوله: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن العتو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد. وقيل المراد بالبخس المكس كأخذ العشور في المعاملات، والعتو السرقة وقطع الطريق والغارة. وفائدة الحال إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه السلام. وقيل معناه ولا تعتوا في الأرض مفسدين في أمر دينكم ومصالح آخرتكم.

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ (٨٦).

﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ﴾ ما أبقاء لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تجمعون بالتطفيف. ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان. أو إن كنتم مصدقين لي في قلبي لكم. وقيل البقية الطاعة كقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وقرئ «تقية الله» بالتاء وهي تقواه التي تكف عن المعاصي.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها وإنما أنا

ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أئذرت، أو لست بحافظ عليكم نعم الله لو لم تركوا سوء صنيعكم.

﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧).

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام، أجابوا به أمرهم بالتوحيد على الاستهزاء به والتهمك بصلواته والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلي، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه. وكان شعيب كثير الصلاة فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر. وقرأ حمزة والكسائي وحفص على الأفراد والمعنى: أصلواتك تأمرك بتكليف أن نترك، فحذف المضاف لأن الرجل لا يؤمر بفعل غيره. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ عطف على ما أي وأن نترك فعلنا ما نشاء في أموالنا. وقرئ بالتاء فيهما على أن العطف على ﴿أَنْ نَتْرَكَ﴾ وهو جواب النهي عن التطفيف والأمر بالإيفاء. وقيل كان ينههم عن تقطيع الدراهم والدنانير فأرادوا به ذلك. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ تهكموا به وقصدوا وصفه بضد ذلك، أو عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك.

﴿قَالَ يَنْفَرُوا مِنْهُ يَنْفَرُوا إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٨٨).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من العلم والنبوة. ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال، وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع مع هذا الإنعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه، وأخالفه في أمره ونهيه. وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء، والضمير في ﴿منه﴾ لله أي من عنده وبإعانتة بلا كد مني في تحصيله. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ أي وما أريد أن آتي ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم، فلو كان صواباً لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهي عنه، يقال خالفت زيداً إلى كذا إذا قصدته وهو مول عنه، وخالفته عنه إذا كان الأمر بالعكس، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بأمري بالمعروف ونهبي عن المنكر ما دمت أستطيع الإصلاح، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، ولهذه الأجوبة الثلاثة على هذا النسق شأن: وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله تعالى، وثانيها حق النفس، وثالثها حق الناس. وكل ذلك يقتضي أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه. و ﴿مَا﴾ مصدرية واقعة موقع الظرف وقيل خبرية بدل من ﴿الإصلاح﴾ أي المقدار الذي استطعته، أو إصلاح ما استطعته فحذف المضاف. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدأيته ومعونته. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فإنه القادر المتمكن من كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته، بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محض التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد، وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل. وفي هذه الكلمات طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتيه ويذر من الله تعالى، والاستعانة به في مجامع أمره والإقبال عليه بشرائره، وحسم أطماع الكفار وإظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بمعاداتهم وتهديدهم بالرجوع إلى الله للجزاء.

﴿وَيَنْفَرُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٩) وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠).

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم. ﴿شِقَاقِي﴾ معاداتي. ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الفرق. ﴿أَوْ قَوْمِ هُودٍ﴾ من الريح. ﴿أَوْ قَوْمِ صَالِحٍ﴾ من الرجفة و ﴿أَنْ﴾ بصلتها ثاني مفعولي جرم، فإنه يعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب. وعن ابن كثير ﴿يجرمنكم﴾ بالضم وهو منقول من المتعدي إلى مفعول واحد، والاول أفصح فإن أجرم أقل دوراناً على السنة الفصحاء. وقرئ ﴿مثل﴾ بالفتح لإضافته إلى المبنى كقوله:

لَمْ يُمْنَعِ الشَّرْبُ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقْتُ حَمَامَةً فِي غُصُونِ ذَاتِ أَرْقَالِ

﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٌ﴾ زماناً أو مكاناً فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم، أو ليسوا ببعيد منكم في الكفر والمساوي فلا يبعد عنكم ما أصابهم، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو وما هم بشيء بعيد، ولا يبعد أن يسوى في أمثاله بين المذكر والمؤنث لأنها على زنة المصادر كالصهيل والشهيق.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ عما أنتم عليه. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للتائبين. ﴿وَدُودٌ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ما يفعل البليغ المودة بمن يوده، وهو وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ﴾ ما نفهم. ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقولهم وعدم تفكيرهم. وقيل قالوا ذلك استهانة بكلامه، أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم عنه. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً، أو مهيناً لا عز لك، وقيل أعمى بلغة حمير وهو مع عدم مناسبه يرده التقييد بالطرف، ومنع بعض المعتزلة استنباء الأعمى قياساً على القضاء والشهادة والفرق بين. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ قومك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم، فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى التسعة. ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك برمي الأحجار أو بأصعب وجه. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فتمنعنا عزتك عن الرجم، وهذا ديدن السفية المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب، والتهديد وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه ولذلك.

﴿قَالَ يَنْفَقُونَ آرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢) ﴿وَيَنْفَقُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ (٩٣) ﴿وَأَرْقَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٤).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به والإهانة برسوله فلا تبقون علي الله وتبقون علي لرهطي، وهو يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب، و ﴿ظَهْرًا﴾ منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

﴿وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ سبق مثله في سورة «الأنعام» والفاء في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثمة للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها ها هنا لأنه جواب سائل قال: فماذا يكون بعد ذلك؟ فهو أبلغ في التهويل. ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه لا لأنه قسيم له كقولك: ستعلم الكاذب والصادق، بل لأنهم لما أو عدوه وكذبوه قال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب مني ومنكم. وقيل كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه لكنهم

لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم. ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وانتظروا ما أقول لكم. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ متظر فعيل بمعنى الرقيب كالضريم، أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إنما ذكره بالواو كما في قصة عاد إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذكر بعد الوعد وذلك قوله: ﴿وَعَدَ غَيْرَ مَكْذُوبٍ﴾ وقوله: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصَّيْحُ﴾ فلذلك جاء بقاء السبيبة. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلخوا. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ ميتين، وأصل الجثوم اللزوم في المكان. ﴿كَانَ لَمْ يَغْتَوُوا فِيهَا﴾ كان لم يقيموا فيها. ﴿إِلَّا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ﴾ شبههم بهم لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة، غير أن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة مدین كانت من فوقهم. وقرئ «بَعْدَتْ» بالضم على الأصل فإن الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبعد مصدر لهما والبعد مصدر المكسور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالتوراة أو المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وهو المعجزات القاهرة أو العصا، وإفرادها بالذكر لأنها أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد أي: ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته واضحاً في نفسه أو موضحاً إياها، فإن أبان جاء لازماً ومتعدياً، والفرق بينهما أن الآية تعم الإمارة، والدليل القاطع والسلطان يخص بالقاطع والمبين يخص بما فيه جلاء.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ فاتبعوا أمره بالكفر بموسى أو فما تبعوا موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة، واتبعوا طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي إلى ما لا يخفى فساده على من له أدنى مسكة من العقل لفرط جهالتهم وعدم استبصارهم. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ مرشد أو ذي رشد، وإنما هو غي محض وضلال صريح.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال يقال قدم بمعنى تقدم. ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء فسمى إتيانها مورداً ثم قال: ﴿وَيَنْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي ينس المورد الذي وردوه فإنه يراد لتبريد الأكباد وتسكين العطش والنار بالضد، والآية كالدليل على قوله: ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ فإن من كان هذه عاقبته لم يكن في أمره رشد، أو تفسير له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يلعنون في الدنيا والآخرة. ﴿يَنْسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ينس العون المعان أو العطاء المعطى، وأصل الرفد ما يضاف إلى غيره ليعمده، والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهو اللعنة في الدارين.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١١٠) ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (١١١).

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النبا. ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ المهلكة. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ مقصود عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ من تلك القرى باق كالزراع القائم. ﴿وَحَصِيدٌ﴾ ومنها عافي الأثر كالزراع المحصود، والجملة مستأنفة وقيل حال من الهاء في نقصه وليس بصحيح إذ لا واو ولا ضمير.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكنا إياهم. ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن عرضوها له بارتكاب ما يوجب. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ فما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع عنهم بل ضررتهم. ﴿آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ حين جاءهم عذابه ونقمته. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ هلاك أو تخسير.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١١٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (١١٣).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الأخذ. ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ وقرئ «أخذ ربك» بالفعل وعلى هذا يكون محل الكاف النصب على المصدر. ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي أهلكها وقرئ «إذا» لأن المعنى على الماضي. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال من «القرى» وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامه أجريت عليها، وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وإنذار كل ظالم ظلم نفسه، أو غيره من وخامة العاقبة. ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع غير مرجو الخلاص منه، وهو مبالغة في التهديد والتحذير.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما نزل بالأمم الهالكة أو فيما قصه الله تعالى من قصصهم. ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة. ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يعتبر به عظيماً لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للمجرمين في الآخرة، أو ينزجر به عن موجباته لعلمه بأنها من إله مختار يعذب من يشاء ويرحم من يشاء. فإن من أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم لم يقل بالفاعل المختار، وجعل تلك الوقائع لأسباب فلكية اتفقت في تلك الأيام لا لذنوب المهلكين بها. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة وعذاب الآخرة دل عليه. ﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس، والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه من شأنه لا محالة وأن الناس لا ينفكون عنه فهو أبلغ من قوله: ﴿يَوْمٌ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ ومعنى الجمع له الجمع لما فيه من المحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي مشهود فيه أهل السموات والأرضين فأتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول به كقوله: في محفل من نواصي الناس مشهود، أي كثير شاهدوه، ولو جعل اليوم مشهوداً في نفسه لبطل الغرض من تعظيم اليوم وتمييزه فإن سائر الأيام كذلك.

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ﴾ (١١٤) ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ﴾ (١١٥).

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي اليوم. ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدودٍ﴾ إلا لانتها مدة معدودة متناهية على حذف المضاف وإرادة مدة التأجيل كلها بالأجل لا متناها فإنه غير معدود.

﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ أي الجزاء أو اليوم كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ﴾ على أن «يوم» بمعنى حين أو الله عز وجل كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ﴾ ونحوه. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمة ﴿يَأْتِ﴾

يحذف الباء اجتزاء عنها بالكسر. ﴿لَا تُكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة، وهو الناصب للظرف ويحتمل نصبه بإضمار اذكر أو بالانتهاء المحذوف. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ وهذا في موقف وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ في موقف آخر أو المأذون فيه هي الجوابات الحققة والممنوع عنه هي الأعذار الباطلة. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد. ﴿وَسَعِيدٌ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد والضمير لأهل الموقف وإن لم يذكر لأنه معلوم مدلول عليه بقوله: ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ أو للناس.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِالنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (١٠٦) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٠٧).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَبِالنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير إخراج النفس والشهيق رده، واستعمالهما في أول النهيق وآخره والمراد بهما الدلالة على شدة كربهم وغمهم وتشبيه حالهم بمن استولت الحرارة على قلبه وانحصر فيه روحه، أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرىء ﴿شَقُوا﴾ بالضم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ليس لارتباط دوامهم في النار بدوامهما فإن النصوص دالة على تأييد دوامهم وانقطاع دوامهما. بل التعبير عن التأييد والمبالغة بما كانت العرب يعبرون به عنه على سبيل التمثيل، ولو كان للارتباط لم يلزم أيضاً من زوال السموات والأرض زوال عذابهم ولا من دوامه دوامهما إلا من قبيل المفهوم، لأن دوامهما كالملزوم لدوامه، وقد عرفت أن المفهوم لا يقاوم المنطوق. وقيل المراد سموات الآخرة وأرضها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدِلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ وإن أهل الآخرة لا بد لهم من مظل ومقل، وفيه نظر لأنه تشبيه بما لا يعرف أكثر الخلق وجوده ودوامه، ومن عرفه فإنما يعرفه بما يدل على دوام الثواب والعقاب فلا يجدي له التشبيه. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ استثناء من الخلود في النار لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها، وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض، وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم مفارقون عن الجنة أيام عذابهم، فإن التأييد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء، وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تقسيماً صحيحاً لأن من شرطه أن تكون صفة كل قسم منتفية عن قسمه، لأن ذلك الشرط حيث التقسيم لانفصال حقيقي أو مانع من الجمع وها هنا المراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخلو عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين، أو لأن أهل النار ينقلون منها إلى الزمهرير وغيره من العذاب أحياناً، وكذلك أهل الجنة ينعمون بما هو أعلى من الجنة كالاتصال بجناب القدس والفوز برضوان الله ولقائه، أو من أصل الحكم والمستثنى زمان توقفهم في الموقف للحساب لأن ظاهره يقتضي أن يكونوا في النار حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقاً غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت. وقيل هو من قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وقيل إلا ها هنا بمعنى سوى كقولك على ألف إلا الألفان القديمان والمعنى سوى ما شاء ربك من الزيادة التي لا آخر لها على مدة بقاء السموات والأرض. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ من غير اعتراض.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُوزٌ﴾ (١٠٨).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِالْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ

مَجْلُودٌ غير مقطوع، وهو تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبه على أن المراد من الاستثناء في الثواب ليس الانقطاع، ولأجله فرق بين الثواب والعقاب بالتأييد. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «سعدوا» على البناء للمفعول من سعدة الله بمعنى أسعده، و «عطاء» نصب على المصدر المؤكد أي أعطوا عطاء أو الحال من الجنة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ (١١٩).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك بعد ما أنزل عليك من مال أمر الناس. «مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ» من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصت عليك سوء عاقبة عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه يضر ولا ينفع. «مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ» استئناف معناه تعليل النهي عن المرية أي هم وآباؤهم سواء في الشرك، أي ما يعبدون عبادة إلا كعبادة آبائهم أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آبائهم من ذلك فسيلحقهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات، ومعنى «كما يعبد» كما كان يعبد فحذف للدلالة من قبل عليه. «وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ» حظهم من العذاب كآبائهم، أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام ما يوجبه. «غَيْرَ مَنْقُوصٍ» حال من النصب لتقيد التوفية فإنك تقول: وفيه حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (١٢٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُوقِفْتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٢١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فآمن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن. «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة. «لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ» بإنزال ما يستحقه المبطل ليميز به عن المحق. «وَإِنَّهُمْ» وإن كفار قومك. «لَفِي شَكِّ مِنْهُ» من القرآن. «مُرِيبٍ» موقع في الريبة.

﴿وَإِنْ كَلَّا﴾ وإن كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين، والتنوين بدل من المضاف إليه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع الإعمال اعتباراً للأصل. «لَمَّا يُوقِفْتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ» اللام الأولى موطئة لقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس وما مزيدة بينهما للفصل. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «لَمَّا» بالتشديد على أن أصله لمن ما فقلبت النون ميماً للدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاهن، والمعنى لمن الذين يوفينهم ربك جزاء أعمالهم. وقرأ لما بالتنوين أي جميعاً كقوله: «أَكَلًا لَمَّا» «وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا» على أن «إِنْ» نافية و «لَمَّا» بمعنى إلا وقد قرئ به. «إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» فلا يفوته شيء منه وإن خفي.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٢٢).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة، وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله ﷺ بالاستقامة مثل ما أمر بها وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالوسط بين التشبيه والتعطيل بحيث يبقى العقل مصوناً من الطرفين، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها وهي في غاية العسر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «شيبتي هود». «وَمَنْ تَابَ مَعَكَ» أي تاب من الشرك والكفر وآمن معك، وهو عطف على المستكن في استقم وإن لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه. «وَلَا تَطْغَوْا» ولا تخرجوا عما حد لكم. «إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» فهو

مجازيكم عليه، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي. وفي الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير تصرف وانحراف بنحو قياس واستحسان.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

﴿١١٣﴾

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركوب هو الميل اليسير كالترزي بزيهم وتعظيم ذكرهم واستدامته. ﴿فْتُمْسِكُمْ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم وإذا كان الركوب إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك فما ظنك بالركوب إلى الظالمين أي الموسومين بالظلم، ثم بالميل إليهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه، وخطاب الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بها للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل، فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط وتفریط فإنه ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه. وقرئ «تَرْكَبُوا» «فْتُمْسِكُمْ» بكسر التاء على لغة تميم و «تركبوا» على البناء للمفعول من أركنه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من أنصار يمنعون العذاب عنكم والوار للحال. ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم ولا يبقي عليكم، وثم لاستبعاد نصره إياهم وقد أوعدهم بالعذاب عليه وأوجبه لهم، ويجوز أن يكون منزلاً منزلة الفاء لمعنى الاستبعاد، فإنه لما بين أن الله معذبهم وأن غيره لا يقدر على نصرهم أنتج ذلك أنهم لا ينصرون أصلاً.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ غدوة وعشية وانتصابه على الظرف لأنه مضاف إليه. ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ﴾ وساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قربه وهو جمع زلفة، وصلاة الغداة صلاة الصبح لأنها أقرب الصلاة من أول النهار، وصلاة العشي صلاة العصر، وقيل الظهر والعصر لأن ما بعد الزوال عشي وصلاة الزلف المغرب والعشاء. وقرئ «زلفا» بضميتين وضمة وسكون كسر وبسر في بسرة و «زلفى» بمعنى زلفة كقربى وقربة. ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُغْنِيَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ يكفرنها. وفي الحديث «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر» وفي سبب النزول «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال إني قد أصبت من امرأة غير أني لم أتها فنزلت». ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله «فاستقم» وما بعده وقيل إلى القرآن. ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ عظة للمتعتبين.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدول عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود ودليلاً على أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء بأنه لا يعتد بهما دون الإخلاص.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ إِنَّهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٦﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ فهلا كان. ﴿مِنْ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً﴾ من الرأي والعقل، أو أولو فضل وإنما سمي «بقية» لأن الرجل يستبقى أفضل ما يخرج، ومنه يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية أي ذو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب، ويؤيده أنه قرئ «بقية» وهي المرة

من مصدر بقاءه بيقية إذا راقبه. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك، ولا يصح اتصاله إلا إذا جعل استثناء من النفي اللازم للتحضيض. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات واهتموا بتحصيل أسبابها وأعرضوا عما وراء ذلك. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فشو الظلم فيهم واتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر، وقوله واتبع على معطوف مضمر دل عليه الكلام إذا المعنى: فلم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا وكانوا مجرمين عطف على ﴿اتبع﴾ أو اعترض. وقرئ «وَاتَّبَعَ» أي واتبعوا جزء ما أترفوا فتكون الواو للحال، ويجوز أن تفسر به المشهورة وبعضه تقدم الإنجاء.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك. ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فيما بينهم لا يضمنون إلى شركهم فساداً وتباعياً، وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه ومن ذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حقوق العباد. وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مسلمين كلهم، وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل أحد وأن ما أراده يجب وقوعه. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل لا تكاد تجد اثنين يتفقان مطلقاً.

﴿إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ إلا ناساً هداهم الله من فضله فاتفقوا على ما هو أصول دين الحق والعمدة فيه. ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كان الضمير لـ ﴿الناس﴾ فالإشارة إلى الاختلاف، واللام للعاقبة أو إليه وإلى الرحمة، وإن كان لمن فإلى الرحمة. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وعيد أو قوله للملائكة. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي من عصائهما ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو منهما أجمعين لا من أحدهما.

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠)

﴿وَكَلَّا﴾ وكل نبأ. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ نخبرك به. ﴿مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصاص وهو زيادة يقينه وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول ﴿وَكَلَّا﴾ منصوب على المصدر بمعنى كل نوع من أنواع الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة أو الأنباء المقتصة عليك. ﴿الْحَقُّ﴾ ما هو حق. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده العامة.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١) ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْتَظِرُونَ﴾ (١٢٢).

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ﴾ على حالكم. ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على حالنا.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْتَظِرُونَ﴾ بنا الدوائر. ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم.

﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾ .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خاصة لا يخفى عليه خافية مما فيهما. ﴿وَالَّذِي يُزَجِّعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ﴾ فيرجع لا محالة أمرهم وأمرك إليه. وقرأ نافع وحفص ﴿يرجع﴾ على البناء للمفعول. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك. وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع العابد. ﴿وَمَا رَيْكَ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت وهم فيجازي كلاً ما يستحقه. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء هنا وفي آخر «النمل». عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى».

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ

مكية وآيها مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ «تلك» إشارة إلى آيات السورة وهي المراد بـ «الكتاب»، أي تلك الآيات آيات السورة الظاهر أمرها في الإعجاز أو الواضحة معانيها، أو المبينة لمن تدبرها أنها من عند الله، أو لليهود ما سألوا إذ روي أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين سلوا محمداً لم ينتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام فنزلت:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي الكتاب. «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» سمي البعض «قُرْآنًا» لأنه في الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض وصار علماً للكل بالغلبة، ونصبه على الحال وهو في نفسه إما توطئة للحال التي هي «عَرَبِيًّا» أو حال لأنه مصدر بمعنى مفعول، و «عَرَبِيًّا» صفة له أو حال من الضمير فيه أو حال بعد حال وفي كل ذلك خلاف. «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» علة لإنزاله بهذه الصفة أي أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كي تفهموه وتحيطوا بمعانيه، أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أن اقتصاصه كذلك ممن لم يتعلم القصص معجز لا يتصور إلا بالإيهاء.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَائِلِينَ ﴿٣﴾﴾

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أحسن الاقتصاص لأن اقتص على أبداع الأساليب، أو أحسن ما يقص لاشتماله على العجائب والحكم والآيات والعبير فعل بمعنى مفعول كالتقص والسلب، واشتقاقه من قص أثره إذا تبعه «بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي بإيحاءنا. «هَذَا الْقُرْآنَ» يعني السورة، ويجوز أن يجعل هذا مفعول نقص على أن أحسن نصب على المصدر. «وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْقَائِلِينَ» عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تفرع سمعك قط، وهو تعليل لكونه موحى وإن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ بدل من «أحسن القصص» إن جعل مفعولاً بدل الاشتمال، أو منصوب باضمار اذكر و «يوسف» عبري ولو كان عربياً لصرف. وقرئ بفتح السين وكسرها على التلعب به لا على أنه مضارع بني للمفعول أو الفاعل من آسف لأن المشهورة شهدت بعجمته. «لَأَبِيهِ» يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعنه عليه الصلاة السلام «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». «يَا أَبَتِ» أصله يا أبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها هاء في الوقف ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وكسرها لأنها عوض حرف يناسبها، وفتحها ابن عامر في كل القرآن

لأنها حركة أصلها أو لأنه كان يا أبنا فحذف الألف وبقي الفتحة، وإنما جاز يا أبنا ولم يجز يا أبتي لأنه جمع بين العوض والمعوّض. وقرئ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالثاء من غير اعتبار التعويض، وإنما لم تسكن كأصلها لأنها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية لقوله: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ ولقوله: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿أَحَدَ عَشَرَ كُوزًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾. روي عن جابر رضي الله تعالى عنه (أن يهودياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف، فسكت فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال إذا أخبرتك هل تسلم قال نعم، قال جريان والطارق والذبال وقابس وعمودان والفليق والمصباح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي إي والله إنها لأسماؤها) ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ استئناف لبيان جالهم التي رآهم عليها فلا تكرير وإنما أجريت مجرى العقلاء لوصفها بصفاتهم.

﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

﴿٥﴾

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ تصغير ابن، صَغُرَ للشفقة أو لصغر السن، لأنه كان ابن اثنتي عشرة سنة. وقرأ حفص هنا وفي «الصفات» بفتح الياء. ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا لإهلاكك حيلة، فهم يعقوب عليه السلام من رؤياه أن الله يصطفيه لرسالته ويفوقه على إخوته، فخاف عليه حسدهم وبغيهم والرؤيا كالرؤية غير أنها مختصة بما يكون في النوم، فرق بينهما بحرفي التانيث كالقربة والقربى وهي انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ، فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك، ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة، ثم إن كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير وإلا احتاجت إليه، وإنما عدى كاد باللام وهو متعد بنفسه لتضمنه معنى فعل يعدى به تأكيداً ولذلك أكد بالمصدر وعمله بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم عليه السلام وحواء فلا يألوا جهداً في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُسَدِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿٦﴾

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي وكما اجتبتك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس. ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ للنبوة والملك أو لأمر عظام، والاجتباء من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك. ﴿وَيَعْلَمُكَ﴾ كلام مبتدأ خارج عن التشبيه كأنه قيل وهو يعلمك. ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من تعبير الرؤيا لأنها أحاديث الملك إن كانت صادقة، وأحاديث النفس أو الشيطان إن كانت كاذبة. أو من تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء وكلمات الحكماء، وهو اسم جمع للحديث كأباطيل اسم جمع للباطل. ﴿وَيُسَدِّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة أو بأن يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة. ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد به سائر بني، ولعله استدل على نبوتهم بضوء الكواكب أو نسله. ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ﴾ بالرسالة وقيل على إبراهيم بالخلة والإنجاء من النار وعلى إسحاق بإنقاذه من الذبح وفدائه بذبح عظيم. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلك أو من قبل هذا الوقت. ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾

وَإِسْحَاقَ عَظَفَ بِيَانٍ لِأَبْرِيكَ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْاجْتِبَاءَ. ﴿حَكِيمٌ﴾ يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ عَلَى مَا يَنْبَغِي.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَائِلِينَ﴾ (٧).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أَي فِي قِصَّتِهِمْ. ﴿آيَاتٌ﴾ دَلَالٌ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ، أَوْ عِلَامَاتُ نُبُوتِكَ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ «آيَةً». ﴿لِلِّسَائِلِينَ﴾ لِمَنْ سَأَلَ عَنْ قِصَّتِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِإِخْوَتِهِ بَنُو عِلَاتِهِ الْعَشِيرَةِ وَهُمْ: يَهُوذَا وَرُوبِيلُ وَشَمْعُونُ وَلاوِي وَزِبَالُونُ وَيَشْخَرُ وَدِينَةُ مِنْ بَنَاتِ خَالَتِهِ لِيَا تَزَوَّجَهَا يَعْقُوبُ أَوَّلًا فَلَمَّا تَوَفَّيَتْ تَزَوَّجَ أُخْتَهَا رَاحِيلَ فَوُلِدَتْ لَهُ بَنِيَامِينَ وَيُوسُفَ. وَقِيلَ جُمِعَ بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَكُنِ الْجُمُعُ مُحَرَّمًا حِينَئِذٍ وَأَرْبَعَةُ آخَرُونَ: دَانَ وَنَفْتَالِي وَجَادُ وَأَشْرُ مِنْ سَرِيَّتَيْنِ زَلْفَةٍ وَبِلَهَةٍ.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٨).

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ بَنِيَامِينَ وَتَخْصِيصُهُ بِالْإِضَافَةِ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْأَخُوَّةِ مِنَ الطَّرْفَيْنِ. ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ وَحْدَهُ لِأَنَّهُ أَفْعَلُ مِنْ لَا يَفْرُقُ فِيهِ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَمَا فَوْقَهُ، وَالْمَذْكُورُ وَمَا يَقَابِلُهُ بِخِلَافِ أَخُوهِ فَإِنَّ الْفَرْقَ وَاجِبٌ فِي الْمَحَلِّ جَائِزٌ فِي الْمُضَافِ. ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وَالْحَالُ أَنَا جَمَاعَةُ أَقْوِيَاءَ أَحَقَّ بِالْمَحَبَّةِ مِنْ صَغِيرِينَ لَا كِفَايَةَ فِيهِمَا، وَالْعُصْبَةُ وَالْعَصَابَةُ الْعَشِيرَةُ فَصَاعِدًا سَمَوًا بِذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمُورَ تَعْصِبُ بِهِمْ. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لِتَفْضِيلِهِ الْمَفْضُولُ أَوْ لَتَرْكِ التَّعْدِيلِ فِي الْمَحَبَّةِ. رَوَى أَنَّهُ كَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِ لَمَّا يَرَى فِيهِ مِنَ الْمَخَايِلِ وَكَانَ إِخْوَتُهُ يَحْسُدُونَهُ، فَلَمَّا رَأَى الرُّؤْيَا ضَاعَفَ لَهُ الْمَحَبَّةَ بِحَيْثُ لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ، فَتَبَالَعَ حَسْدهُمْ حَتَّى حَمَلَهُمْ عَلَى التَّعْرِضِ لَهُ.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠).

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ مِنْ جُمْلَةِ الْمُحْكَمِيِّ بَعْدَ قَوْلِهِ إِذْ قَالُوا كَانَهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ إِلَّا مَنْ قَالَ (لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ). وَقِيلَ إِنَّمَا قَالَهُ شَمْعُونُ أَوْ دَانَ وَرَضِيَ بِهِ الْآخَرُونَ.

﴿أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ مَنكُورَةٌ بَعِيدَةٌ مِنَ الْعِمْرَانِ، وَهُوَ مَعْنَى تَنْكِيرِهَا وَإِبْهَامِهَا وَلِذَلِكَ نَصَبَتْ كَالظُرُوفِ الْمُبْهَمَةِ. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ جَوَابُ الْأَمْرِ. وَالْمَعْنَى يَصِفُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ فَيَقْبَلُ بِكَلْبَتِهِ عَلَيْكُمْ وَلَا يَلْتَفِتُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ وَلَا يَنْزَعُكُمْ فِي مُحَبَّتِهِ أَحَدًا. ﴿وَتَكُونُوا﴾ جَزَمَ بِالْعَطْفِ عَلَى «يَخْلُ» أَوْ نَصَبَ بِإِضْمَارِ أَنْ. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ مَنْ بَعْدَ يُوسُفَ أَوْ الْفَرَاغُ مِنْ أَمْرِهِ أَوْ قَتْلِهِ أَوْ طَرَحِهِ. ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تَائِبِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا جَنَيْتُمْ أَوْ صَالِحِينَ مَعَ أَبِيكُمْ بِصُلْحٍ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ بَعْدَ تَمْهَدُونَهُ، أَوْ صَالِحِينَ فِي أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَإِنَّهُ يَنْتَظِمُ لَكُمْ بَعْدَهُ بِخُلُوعِ وَجْهِ أَبِيكُمْ.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي يَهُوذَا وَكَانَ أَحْسَنُهُمْ فِيهِ رَأْيًا. وَقِيلَ رُوبِيلُ. ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فَإِنَّ الْقَتْلَ عَظِيمٌ. ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ فِي قَعْرِهِ، سَمِيَ بِهَا لَغْيُوبَتِهِ عَنْ أَعْيُنِ النَّازِرِينَ. وَقَرَأَ نَافِعٌ فِي «غِيَابَاتٍ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ عَلَى الْجَمْعِ كَأَنَّهُ لَتِلْكَ الْجُبِّ غِيَابَاتٌ. وَقَرَأَ «غِيَّةً» وَ«غِيَابَاتٌ» بِالتَّشْدِيدِ. ﴿يَلْقَاهُ﴾ يَأْخُذُهُ. ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ بَعْضُ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ بِمَشُورَتِي أَوْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى أَنْ تَفْعَلُوا مَا يَفْرُقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ لم تخافنا عليه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ونحن نشفق عليه ونريد له الخير، أرادوا به استنزاله عن رأيه في حفظه منهم لما تنسم من حسدهم، والمشهور ﴿تأمننا﴾ بالإدغام بإشمام. وعن نافع بترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام لأنهما من كلمتين و«تيمناً» بكسر التاء.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء. ﴿نَرْتَعْ﴾ نتسع في أكل الفواكه ونجوها من الرتعة وهي الخصب. ﴿وَنَلْعَبُ﴾ بالاستيق والانتضال. وقرأ ابن كثير ﴿نرتع﴾ بكسر العين على أنه من ارتعى يرتعي ونافع بالكسر والياء فيه وفي ﴿يلعب﴾. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالياء والسكون على إسناد الفعل إلى يوسف. وقرئ «يرتع» من ارتع ماشيته و«يرتع» بكسر العين و«يلعب» بالرفع على الابتداء. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ لشدة مفارقتي علي وقلة صبري عنه. ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ لأن الأرض كانت مذابة. وقيل رأى في المنام أن الذئب قد شد على يوسف وكان يحذره عليه، وقد همزها على الأصل ابن كثير ونافع في رواية قالون، وفي رواية الزبيدي وأبو عمرو وقفاً وعاصم وابن عامر وحمة درجاً واشتقاقه من تذاقت الريح إذا هبت من كل جهة. ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿إِنَّا إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ ضعفاء مغبونون، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار والواو في ﴿ونحن عصبة﴾ للحال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ وعزموا على إلقائه فيها، والبئر بئر بيت المقدس أو بئر بارض الأردن أو بين مصر ومدین، أو على ثلاثة فراسخ من مقام يعقوب وجواب لما محذوف مثل فعلوا به ما فعلوا من الأذى. فقد روي (أنهم لما يروا به إلى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه، فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه فأتوا به إلى البئر، فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخواناه ردوا علي قميصي أتواري به فقالوا: ادع الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر يلبسوك ويؤنسوك، فلما بلغ نصفها ألقوه وكان فيها ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة كانت فيها فقام عليها يبكي فجاءه جبريل بالوحي) كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ وكان ابن سبع عشرة سنة. وقيل كان مراهقاً أوحى إليه في صغره كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وفي القصص: أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار جرد عن ثيابه فأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب فجعله في تيممة علقها بيوسف فأخرجه جبريل عليه السلام وألبسه إياه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ لتحدثهم بما فعلوا بك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وبعده عن أوهامهم وطول العهد المغير للحلى والهيئات، وذلك إشارة إلى ما قال لهم بمصر حين دخلوا عليه ممتارين ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾. بشره بما يؤول إليه أمره إيناساً له

وتطيباً لقلبه . وقيل «وهم لا يشعرون» متصل بـ «أوحينا» أي آنسناه بالوحي وهم لا يشعرون ذلك .

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَلْعُونَةٍ فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَجَاءُوا آبَاهُمْ عِشَاءً﴾ أي آخر النهار . وقرئ «عشيّاً» وهو تصغير عشي و«عشى» بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء . «يَبْكُونَ» متباكين . روي أنه لما سمع بكاءهم فزع وقال ما لكم يا بني يوسف .

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ﴾ تنسابق في العدو أو في الرمي ، وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل . «وَيُتْرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَلْعُونَةٍ فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا» بمصدق لنا «وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» لسوء ظنك بنا وفرط محبتك ليوسف .

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كذب بمعنى مكذوب فيه ، ويجوز أن يكون وصفاً بالمصدر للمبالغة وقرئ بالنصب على الحال من الواو أي جاؤوا كاذبين و «كذب» بالدال غير المعجمة أي كدر أو طري . وقيل : أصله البياض الخارج على أظفار الأحداث فشبه به الدم اللاصق على القميص ، وعلى قميصه في موضع النصب على الظرف أي فوق قميصه أو على الحال من الدم إن جوز تقديمها على المجرور . روي : أنه لما سمع بخبر يوسف صاح وسأل عن قميصه فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : ما رأيت كالיום ذنباً أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه . ولذلك «قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» أي سهلت لكم أنفسكم وهونت في أعينكم أمراً عظيماً من السؤل وهو الاسترخاء . «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ» أي فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل ، وفي الحديث «الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الخلق» . «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» على احتمال ما تصفونه من إهلاك يوسف وهذه الجريمة كانت قبل استبائهم إن صح .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ رفقة يسرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريباً من الجب وكان ذلك بعد ثلاث من إلقائه فيه . «فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ» الذي يرد الماء ويستقي لهم وكان مالك بن ذعر الخزاعي . «فَأَدْلَى دَلْوُهُ» فأرسلها في الجب ليملاها فتدلى بها يوسف فلما رآه . «قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ» نادى البشري بشارة لنفسه أو لقومه كأنه قال تعالى فهذا أوانك . وقيل هو اسم لصاحب له ناداه ليعينه على إخراجه . وقرأ غير الكوفيين «يا بشراي» بالإضافة ، وأمال فتحة الراء حمزة والكسائي . وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ «يا بشري» بالإدغام وهو لغة و «بشراي» بالسكون على قصد الوقف . «وَأَسَرُّهُ» أي الوارد وأصحابه من سائر الرفقة . وقيل أخفوا أمره وقالوا لهم دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر . وقيل الضمير لإخوة يوسف وذلك أن يهوذا كان يأتيه كل يوم بالطعام فاتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر إخوته فاتوا الرفقة وقالوا : هذا غلامنا أبق منا فاشتروه ، فسكت يوسف مخافة أن يقتلوه . «بِضَاعَةً» نصب على الحال أي أخفوه متاعاً للتجارة ، واشتقاقه من البضع فإنه ما

بضع من المال للتجارة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لم يخف عليه أسرارهم أو صنع إخوة يوسف بأبيهم وأخيه.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَشَرَوْهُ﴾ وباعوه، وفي مرجع الضمير الوجهان أو اشتروه من إخوته. ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ مبخوس لزيهه أو نقصانه. ﴿دَرَاهِمَ﴾ بدل من الثمن. ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ قليلة فإنهم يزنون ما بلغ الأوقية ويعدون ما دونها. قيل كان عشرين درهماً وقيل كان اثنين وعشرين درهماً. ﴿وَكَانُوا فِيهِ﴾ في يوسف. ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ الراغبين عنه والضمير في ﴿وَكَانُوا﴾ إن كان للإخوة فظاهر وإن كان للرفقة وكانوا بائعين فزهدهم فيه، لأنهم التقطوه والمثلقت الشيء متهاون به خائف من انتزاعه مستعجل في بيعه، وإن كانوا مبتاعين فلائهم اعتقدوا أنه أبى وفيه متعلق بالزاهدين إن جعل اللام للتعريف، وإن جعل بمعنى الذي فهو متعلق بمحذوف بينه ﴿الزاهدين﴾ لأن متعلق الصلة لا يتقدم على الموصول.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر واسمه قطفير أو إطفير، وكان الملك يومئذ ريان بن الوليد العمليقي وقد آمن بيوسف عليه السلام ومات في حياته. وقيل كان فرعون موسى عاش أربعمئة سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيْنَاتِ﴾. والمشهور أنه من أولاد فرعون يوسف. والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء. روي: أنه اشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة ولبت في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. واختلف فيما اشتراه به من جعل شراءه به غير الأول: عشرون ديناراً وزوجاً نعل وثوبان أبيضان. وقيل ملؤه فضة وقيل ذهباً. ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾ راعيل أو زليخا. ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ اجعلي مقامه عندنا كريماً أي حسناً والمعنى أحسني تعهده. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ نتبناه وكان عقيماً لما تفرس فيه من الرشد، ولذلك قيل: أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر، وابنة شعيب التي قالت ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله تعالى عنهما. ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ وكما مكنا محبته في قلب العزيز أو كما مكناه في منزله أو كما أنجينا عطفنا عليه العزيز مكنا له فيها. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ عطف على مضمرة تقديره ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه أي كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس، ويعلم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفذها، أو تعبير المنامات المنبئة على الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنيه. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا يرد شيء ولا ينازعه فيما يشاء أو على أمر يوسف أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره فلم يكن إلا ما أَرَادَهُ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كله بيده، أو لطائف صنعه وخفايا لطفه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مَاتَ وَكَانَ حُكْمًا وَعَلَّمَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل سن الشباب ومبدؤه بلوغ الحلم. ﴿مَاتَ وَكَانَ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل، أو حكماً بين الناس. ﴿وَعَلَّمَا﴾ يعني علم تأويل الأحاديث. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تنبيه على أنه تعالى إنما آتاه ذلك جزاء

على إحسانه في عمله وإتقانه في عنفوان أمره.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣).

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ طلبت منه وتمحلت أن يواقعها، من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد. ﴿وَوَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ قيل كانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة في الإيثاق. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي أقبل وبادر، أو تهيأت والكلمة على الوجهين اسم فعل بني على الفتح كأين واللام للتبيين كالتي في سقيا لك. وقرأ ابن كثير بالضم وفتح الهاء تشبيهاً له بحيث، ونافع وابن عامر بالفتح وكسر الهاء كعيط. وقرأ هشام كذلك إلا أنه يهمز. وقد روي عنه ضم التاء وهو لغة فيه. وقرئ «هيت» كجبر و «هت» كجث من هاء يهـ إذا تهيأ وقرئ «هيت» وعلى هذا فاللام من صلته. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أعوذ بالله معاذاً. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن. ﴿رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ سيدي قطفير أحسن تعهدي إذ قال لك في ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ فما جزاؤه أن أخونه في أهله. وقيل الضمير لله تعالى أي إنه خالقي أحسن منزلتي بأن عطف علي قلبه فلا أعصيه. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ المجازون الحسن بالسيء. وقيل الزناة فإن الزنا ظلم على الزاني والمزني بأمله.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾ (٢٤).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا﴾ وقصدت مخالطته وقصد مخالطتها، والهم بالشيء قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي إذا هم بالشيء أمضاه، والمراد بهم عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل التحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشاركة الهم كقولك قتلته لولم أخف الله. ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ في قبح الزنا وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلظة وكثرة المبالغة، ولا يجوز أن يجعل ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾ فإنها في حكم أدوات الشرط فلا يتقدم عليها جوابها، بل الجواب محذوف يدل عليه. وقيل رأى جبريل عليه الصلاة والسلام. وقيل تمثل له يعقوب عاشاً على أنامله. وقيل قطفير. وقيل نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التشبث ثباته، أو الأمر مثل ذلك. ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ خيانة السيد. ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ الزنا. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالكسر في كل القرآن إذا كان في أوله الألف واللام أي الذين أخلصوا دينهم لله.

﴿وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ ذُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥).

﴿وَأَسْبَقَ الْبَابَ﴾ أي تسابقا إلى الباب، فحذف الجار أو ضمن الفعل معنى الابتدار. وذلك أن يوسف فرّ منها ليخرج وأسرع وراءه لئلا تمنعه الخروج. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ ذُبُرٍ﴾ اجتذبت من ورائه فانقد قميصه والقدر الشق طولاً والقط الشق عرضاً. ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا﴾ وصادفا زوجها. ﴿لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إيهاماً بأنها فرث منه تبرئة لساحتها عند زوجها وتغييره على يوسف وإغراءه به انتقاماً منه، و ﴿مَا﴾ نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء جزاءه إلا السجن.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۖ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۖ﴾ (٢٧).

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ طالبتني بالمؤاتاة، وإنما قال ذلك دفعاً لما عرضته له من السجن أو العذاب الأليم، ولو لم تكذب عليه لما قاله. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قيل ابن عم لها. وقيل ابن خال لها صبيّاً في المهد. وعن النبي ﷺ «تكلم أربعة صغاراً ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام» وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها لتكون ألزم عليها. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأنه يدل على أنها قدت قميصه من قدامه بالدفع عن نفسها، أو أنه أسرع خلفها فتعثر بذيله فانقد جيئه.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته. والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول، وتسميتها شهادة لأنها أدت مؤداها والجمع بين إن وكان على تأويل إن يعلم أنه كان ونحوه ونظيره قولك: إن أحسنت إلى اليوم فقد أحسنت إليك من قبل، فإن معناه إن تمنن علي بإحسانك أمنن عليك بإحساني لك السابق. وقرئ «من قبل» «ومن دبر» بالضم لأنهما قطعاً عن الإضافة كقبل وبعد، وبالفتح كأنهما جعلاً علمين للجنتين فمنعا الصرف ويسكون العين.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِن كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ۖ﴾ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩).

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ إن قولك «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً» أو إن السوء أو إن هذا الأمر. ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ من حيلكن والخطاب لها ولأمثالها أو لسائر النساء. ﴿إِن كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فإن كيد النساء اللطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيراً في النفس ولأنهن يواجهن به الرجال والشيطان يوسوس به مسارقة. ﴿يُوسُفُ﴾ حذف منه حرف النداء لقربه وتغبطه للحديث. ﴿أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ اكتمه ولا تذكره. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يا راعيل. ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من القوم المذنبين من خطيء إذا أذنب متعمداً والتذكير للتغليب.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ﴾ (٣٠).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ هي اسم لجمع امرأة وتأتي به هذا الاعتبار غير حقيقي ولذلك جرد فعله وضم النون لغة فيها. ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ ظرف لقال أي أشعن الحكاية في مصر، أو صفة نسوة وكن خمساً زوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب. ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ تطلب مواعدة غلامها إياها. و ﴿العزیز﴾ بلسان العرب الملك وأصل فتى فتى لقولهم فتیان والفتوة شاذة. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ شق شغاف قلبها وهو حجابها حتى وصل إلى فؤادها حباً، ونصبه على التمييز لصرف الفعل عنه. وقرئ «شغفها» من شغف البعير إذا هنأه بالقطران فأحرقه. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في ضلال عن الرشد وبعد عن الصواب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًّا وَمَاءً كُلَّ وَجَدٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۖ﴾ (٣١).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ باغتيالهن، وإنما سماه مكرًا لأنهن أخفينه كما يخفي الماكر مكره، أو قلن ذلك لتهيئهن يوسف أو لأنها استكتمتهن سرها فأفشينه عليها. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهم قيل دعت أربعين امرأة فيهن الخمس المذكورات. ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً﴾ ما يتكئن عليه من الوسائد. ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ حتى يتكئن والسكاكين بأيديهن فإذا خرج عليهن يبهتن ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها فيكئن بالحجة، أو يهاب يوسف مكرها إذا خرج وحده على أربعين امرأة في أيديهن الخناجر. وقيل متكأ طعاماً أو مجلس طعام فإنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب ترفاً ولذلك نهى عنه. قال جميل:

فَطَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَتَكْنَا وَشَرَبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلِيلِهِ

وقيل المتكأ طعام يحز حزاً كأن القاطع يتكئ عليه بالسكين. وقرئ «متكأ» بحذف الهمزة و «متكأ» بإشباع الفتحة كمنتزح و «متكأ» وهو الأترج أو ما يقطع من متك الشيء إذا بتكه و «متكأ» من تكأ يتكأ إذا اتكأ. ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ عظمته وهبن حسنه الفائق. وعن النبي ﷺ «رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر» وقيل كان يرى تلالؤ وجهه على الجدران. وقيل أكبرن بمعنى حضن من أكبرت المرأة إذا حاضت لأنها تدخل الكبير بالحيض، والهاء ضمير للمصدر أو ليوسف عليه الصلاة والسلام على حذف اللام أي حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبي:

خَفِ اللَّيْلَ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبَرْقِعٍ فَإِنْ لَحَتْ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ

﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ جرحنها بالسكاكين من فرط الدهشة. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً له من صفات العجز وتعجباً من قدرته على خلق مثله، وأصله «حاشا» كما قرأ أبو عمرو في الدرج فحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما في قولك سقياً لك. وقرئ «حاش الله» بغير لام بمعنى براءة الله، و «حاشاً لله» بالتثنية على تنزيله منزلة المصدر. وقيل «حاشا» فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية الله مما يتوهم فيه. ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لأن هذا الجمال غير معهود للبشر، وهو على لغة الحجاز في إعمال ما عمل ليس لمشاركتها في نفي الحال. وقرئ «بَشَرًا» بالرفع على لغة تميم و «بشري» أي بعبد مشترى لثيم. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ فإن الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من خواص الملائكة، أو لأن جماله فوق جمال البشر ولا يفوقه فيه إلا الملك.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنِي عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُو لَيَكْسِبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٣٢).

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ أي فهو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني في الافتتان به قبل أن تتصوره حق تصويره، ولو تصورته بما عاينت لعذرتني أو فهذا هو الذي لمتني فيه فوضع ذلك موضع هذا رفعا لمنزلة الميثار إليه. ﴿وَلَقَدْ رَاودْنِي عَنْ نَفْسِهِ فاستعصم﴾ فامتنع طلباً للعصمة، أقرت لهن حين عرفت أنهن يعذرنها كي يعاونها على إلانة عريكته. ﴿وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ أي ما أمر به، فحذف الجار أو أمري إياه بمعنى موجب أمري فيكون الضمير ليوسف. ﴿لَيَكْسِبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ من الأذلاء وهو من صغر بالكسر يصغر صغراً وصغاراً والصغير من صغر بالضم صغراً. وقرئ «ليكونن» وهو يخالف خط المصحف لأن النون كتبت فيه بالالف «كسفعاً» على حكم الوقف وذلك في الحقيقة لشبهها بالتثنية.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤).

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ﴾ وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر. ﴿أَحْبُ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي أثر عندي من مواتاتها زناً نظراً إلى العاقبة وإن كان هذا مما تشتهي النفس وذلك مما تكرهه، وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن خوفته من مخالفتها وزين له مطاوعتها. أو دعونه إلى أنفسهن، وقيل إنما ابتلي بالسجن لقوله هذا وإنما كان الأولى به أن يسأل الله العافية ولذلك رد رسول الله ﷺ على من كان يسأل الصبر. ﴿وَلَا تُصْرَفْ عَنِّي﴾ وإن لم تُصْرَفْ عني. ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ في تحبيب ذلك إلي وتحسينه عندي بالتثيت على العصمة. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إلى جانبهن أو إلى أنفسهن بطبعي ومقتضى شهوتي، والصبوة الميل إلى الهوى ومنه الصبا لأن النفوس تستطيعها وتميل إليها. وقرئ ﴿أَصْبُ﴾ من الصباة وهي الشوق. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه فإن الحكيم لا يفعل القبيح، أو من الذين لا يعملون بما يعلمون فإنهم والجهال سواء.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ فأجاب الله دعاءه الذي تضمنه قوله: ﴿وَلَا تُصْرَفْ﴾. ﴿فَصُرِفَ عَنْهُ كَيْدُهُنَّ﴾ فثبته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن وآثرها على اللذة المتضمنة للعصيان. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجئين إليه. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّى جِيْنَ ٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٣٦﴾.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ ثم ظهر للعزير وأهله من بعد ما رأوا الشواهد الدالة على براءة يوسف كشهادة الصبي وقد القميص وقطع النساء أيديهن واستعصامه عنهن وفاعل ﴿بَدَأَ﴾ مضمَر يفسره. ﴿لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّى جِيْنَ﴾ وذلك لأنها خدعت زوجها وحملته على سجنه زماناً حتى تبصر ما يكون منه، أو يحسب الناس أنه المجرم فلبث في السجن سبع سنين. وقرئ بالتاء على أن بعضهم خاطب به العزيز على التعظيم أو العزيز ومن يليه، و«عني» بلغة هذيل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من عبيد الملك شرابيه وخبازه للاتهام بأنهما يريدان أن يسماه. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ يعني الشرابي. ﴿إِنِّي أَرَانِي﴾ أي في المنام وهي حكاية حال ماضية. ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنياً وسماء خمرأ باعتبار ما يؤول إليه. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ أي الخباز. ﴿إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ تنهش منه. ﴿نَبَثًا بَتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين يحسنون تأويل الرؤيا، أو من العالمين وإنما قالوا ذلك لأنهما رأياه في السجن يذكر الناس ويعبر رؤياهم، أو من المحسنين إلى أهل السجن فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا إن كنت تعرفه.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَآئُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَآئُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل ما قصصتما علي، أو بتأويل الطعام يعني بيان ماهيته وكيفيته فإنه يشبه تفسير المشكل، كأنه أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهما إلى الطريق القويم قبل أن يسعف إلى ما سألاه منه كما هو طريقة الأنبياء والتالزين منازلهم من العلماء في الهداية والإرشاد، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا﴾ أي

ذلك التأويل. ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ بالإلهام والوحي وليس من قبيل التكهن أو التنجيم. ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ تعليل لما قبله أي علمني ذلك لأنني تركت ملة أولئك.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أو كلام مبتدأ لتهيئ الدعوة وإظهار أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق عليه، ولذلك جوز للخامل أن يصف نفسه حتى يعرف فيقتبس منه، وتكرير الضمير للدلالة على اختصاصهم وتأکید كفرهم بالآخرة. ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ ما صح لنا معشر الأنبياء. ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيء كان. ﴿ذَلِكَ﴾ أي التوحيد. ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بالوحي. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ وعلى سائر الناس يبعثنا لإرشادهم وتبئيتهم عليه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ﴾ لا يشكرون هذا الفضل فيعرضون عنه ولا يتنبهون، أو من فضل الله علينا وعليهم بنصب الدلائل وإنزال الآيات ولكن أكثرهم لا ينظرون إليها ولا يستدلون بها فيلغونها كمن يكفر النعمة ولا يشكرها.

﴿يَصَدِّحِي السَّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَرَأَيْتَ إِنْ أُنْزِلَ إِلَهُ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ أَلْهَمَ اللَّهُ أَمْرًا أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ﴾ أي يا ساكنيه، أو يا صاحبي فيه فأضافهما إليه على الاتساع كقوله:

يَا سَارِقَ النَّيْلَةِ أَهْلَ الدَّارِ

﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ شتى متعددة متساوية الأقدام. ﴿خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالألوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب الذي لا يعادله ولا يقاومه غيره.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر. ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي إلا أشياء باعتبار أسام أطلقتم عليها من غير حجة تدل على تحقق مسمياتها فيها فكأنكم لا تعبدون إلا الأسماء المجردة. والمعنى أنكم سميت ما لم يدل على استحقاقه الألوهية عقل ولا نقل آلهة، ثم أخذتم تعبدونها باعتبار ما تطلقون عليها. ﴿إِنْ أَلْهَمَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ ما الحكم في أمر العباد. ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ لأنه المستحق لها بالذات من حيث إنه الواجب لذاته الموجد للكل والمالك لأمره. ﴿أَمْرٌ﴾ على لسان أنبيائه. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الذي دلت عليه الحجج. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الحق وأنتم لا تميزون المعوج عن القويم، وهذا من التدرج في الدعوة وإلزام الحجة، بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فإن استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنهما، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيخطئون في جهالاتهم.

﴿يَصَدِّحِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فَصَى الْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤٢).

﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ يعني الشرايبي. ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ كما كان يسقيه قبل ويعود إلى ما كان عليه. ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ يريد به الخباز. ﴿فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فقلا كذبنا فقال ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي قطع الأمر الذي تستفتيان فيه، وهو ما يؤول إليه أمركما ولذلك وحده، فإنهما وإن استفتيا في أمرين لكنهما أَرَادَا استبانة عاقبة ما نزل بهما.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ الظان يوسف إن ذكر ذلك عن اجتهاد وإن ذكره عن وحي فهو الناجي إلا أن يؤول الظن باليقين. ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ اذكر حالي عند الملك كي يخلصني. ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ فأنسى الشرايبي أن يذكره لربه، فأضاف إليه المصدر لملاسته له أو على تقدير ذكر أخبار ربه، أو أنسى يوسف ذكر الله حتى استعان بغيره، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لما لبث في السجن سبعاً بعد الخمس». والاستعانة بالعباد في كشف الشدائد وإن كانت محموددة في الجملة لكنها لا تليق بمنصب الأنبياء. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثلاث إلى التسع من البضع وهو القطع.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (٤٣) ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ لما دنا فَرَجَه رأى الملك سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات مهازيل فابتلعت المهازيل السمان. ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ قد انعقد حبها. ﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وسبعاً آخر يابسات قد أدركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غليت عليها، وإنما استغنى عن بيان حالها بما قص من حال البقرات، وأجرى السمان على المميز دون المميز لأن التمييز بها ووصف السبع الثاني بالعجاف لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف فإنه لبيان الجنس، وقياسه عجف لأنه جمع عجفاء لكنه حمل على «سمان» لأنه نقيضه. «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ» عبروها. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ إن كنتم عالمين بعبارة الرؤيا وهي الانتقال من الصور الخيالية إلى المعاني النفسانية التي هي مثالها من العبور وهي المجاوزة، وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيراً واللام للبيان أو لتقوية العامل فإن الفعل لما أخر عن مفعوله ضعف فقوي باللام كاسم الفاعل، أو لتضمن «تعبرون» معنى فعل يعدى باللام كأنه قيل: إن كنتم تتدبرون لعبارة الرؤيا.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ﴾ أي هذه أضغاث أحلام وهي تخاليلها جمع ضغت وأصله ما جمع من أخلاط النبات وحزم فاستعير للرؤيا الكاذبة، وإنما جمعوا للمبالغة في وصف الحلم بالبطلان كقولهم: فلان يركب الخيل، أو لتضمنه أشياء مختلفة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ يريدون بالأحلام المنامات الباطلة خاصة أي ليس لها تأويل عندنا، وإنما التأويل للمنامات الصادقة فهو كأنه مقدمة ثانية للعدر في جهلهم بتأويله.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ (٤٥) ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤٦).

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من صاحبي السجن وهو الشرايبي. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة أي مدة طويلة. وقرئ «إمة» بكسر الهمزة وهي النعمة أي بعد ما أنعم عليه بالنجاة، و«أمة» أي نسيان يقال أمة يأمهأ إذا نسي، والجملة اعتراض ومقول القول. ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أي إلى من عنده علمه أو إلى السجن.

﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي فأرسل إلى يوسف فجاءه فقال يا يوسف، وإنما وصفه بالصديق وهو المبالغ في الصدق لأنه جرب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه. ﴿أَفَتَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُتُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَىٰ يَاسَاتٍ﴾ أي في رؤيا ذلك. ﴿لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ﴾ أعود إلى الملك ومن عنده، أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك ومكانك، وإنما لم يبت الكلام فيهما لأنه لم يكن جازماً بالرجوع وربما اخترم دونه ولا يعلمهم.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدر بإضمار فعله أي تدأبون دأباً وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص ﴿دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل. وقيل ﴿تزرعون﴾ أمر أخرجه في صورة الخبر مبالغة لقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ لئلا يأكله السوس، وهو على الأول نصيحة خارجة عن العبارة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في تلك السنين.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي يأكل أهلهم ما ادخرتم لأجلهن فأسند إليهن على المجاز تطبيقاً بين المعبر والمعبر به. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ﴾ تحرزون لبذور الزراعة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يمتطرون من الغيث أو يغاثون من القحط من الغوث. ﴿وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ ما يعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار. وقيل يحلبون الضروع. وقرأ حمزة والكسائي بالثاء على تغليب المستفتي، وقرئ على بناء المفعول من عصره إذا أنجاه ويحتمل أن يكون المبني للفاعل منه أي يغنيهم الله ويغيث بعضهم بعضاً، أو من أعصرت السحابة عليهم فعدي بترع الخافض أو بتضمينه معنى المطر. وهذه بشارة بشرهم بها بعد أن أول البقرات السماء والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة، وابتلاع العجاف السماء بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة، ولعله علم ذلك بالوحي أو بأن انتهاء الجذب بالخصب، أو بأن السنة الإلهية على أن يوسع على عباده بعدما ضيق عليهم.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ﴾ بعد ما جاءه الرسول بالتعبير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ ليخرجه. ﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ إنما تأتي في الخروج وقدم سؤال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته ويعلم أنه سجن ظلماً فلا يقدر الحاسد أن يتوسل به إلى تقيح أمره. وفيه دليل على أنه ينبغي أن يجتهد في نفي التهم ويتقى مواقعها. وعن النبي ﷺ «لو كنت مكانه وليت في السجن ما لبثت لأسرعت الإجابة» وإنما قال ﴿فَسَأَلَ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ولم يقل فأسأله أن يفتش عن حالهن تهيجاً له على البحث وتحقيق الحال، وإنما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كراماً ومراعاة للأدب وقرئ «النسوة» بضم النون. ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ حين قلن لي أطع مولاتك، وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله عليه وعلى أنه بريء مما قذف به والوعيد لهن على كيدهن.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ

الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ﴾ قال الملك لهن ما شأنكن والخطب أمر يحق أن يخاطب فيه صاحبه. ﴿إِذْ رَاوَدْتُنِيُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه له وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ من ذنب. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ثبت واستقر من حصحص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ قال:

فَحَصْحَصَ فِي ضَمِّ الصَّفَا ثِقَاتِهِ وَتَاءً بِسَلَمَى نَوَاءً ثُمَّ صَمَمَا

أو ظهر من حص شعره إذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه. وقرىء على البناء للمفعول. ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ قاله يوسف لما عاد إليه الرسول وأخبره بكلامهن أي ذلك التثبت ليعلم العزيز. ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أي لم أخنه وأنا غائب عنه، أو وهو غائب عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ لا ينفذه ولا يسدده، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة. وفيه تعريض براعيل في خيانتها زوجها وتوكيد لأمانته ولذلك عقبه بقوله:

﴿وَمَا أَتْرَيْتُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿وَمَا أَتْرَيْتُ نَفْسِي﴾ أي لا أنزهها تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تركية نفسه والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتوفيق. وعن ابن عباس أنه لما قال: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال له جبريل ولا حين هممت فقال ذلك. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ﴾ من حيث إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات. ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا وقت رحمة ربي، أو إلا ما رحمه الله من النفوس فعصمه من ذلك. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة. وقيل الآية حكاية قول راعيل والمستثنى نفس يوسف وأضرابه. وعن ابن كثير ونافع ﴿بِالسُّوءِ﴾ على قلب الهمزة واواً ثم الإدغام. ﴿إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر هم النفس ويرحم من يشاء بالعصمة أو يغفر للمستغفر لذنبه المعترف على نفسه ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوقِي بِهِ اسْتِخْلَاصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوقِي بِهِ اسْتِخْلَاصَهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لنفسي. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي فلما أتوا به فكلّمه وشاهد منه الرشد والدهاء. ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء. روي أنه لما خرج من السجن اغتسل وتنظف ولبس ثياباً جددًا، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيرهِ وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرية فقال الملك: ما هذا اللسان قال: لسان آبائي، وكان الملك يعرف سبعين لساناً فكلّمه بها فأجابها بجميعها فتعجب منه فقال: أحب أن أسمع رؤياي منك، فحكّاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض إليه أمره. وقيل توفي قطفير في تلك الليالي فنصبه منصبه وزوج منه راعيل فوجدها عذراء وولد له منها أفرائيم وميشا.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا

حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ .

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ ولني أمرها والأرض أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيزٌ﴾ لها ممن لا يستحقها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بوجوه التصرف فيه، ولعله عليه السلام لما رأى أنه يستعمله في أمره لا محالة أثر ما تعم فوائده وتجل عوائده، وفيه دليل على جواز طلب التولية وإظهار أنه مستعد لها والتولي من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به. وعن مجاهد أن الملك أسلم على يده.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ في أرض مصر. ﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا خَيْرٌ يَشَاءُ﴾ ينزل من بلادها حيث يهوى وقرأ ابن كثير «نشاء» بالنون. ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفي أجورهم عاجلاً وأجلاً. ﴿وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشرك والفواحش لعظمه ودوامه.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ روي: أنه لما استوزره الملك أقام العدل واجتهد في تكثير الزراعات وضبط الغلات، حتى دخلت السنون المجدية وعم القحط مصر والشام ونواحيهما، وتوجه إليه الناس فباعها أولاً بالدرهم والدنانير حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلي والجواهر ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً ثم عرض الأمر على الملك فقال: الرأي رأيك فأعتقهم ورد عليهم أموالهم، وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب بنيه - غير بنيامين - إليه للميرة. ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي عرفهم يوسف ولم يعرفوه لطول العهد ومفارتهم إياه في سن الحداثة ونسيانهم إياه، وتوهمهم أنه هلك وبعد حاله التي رأوه عليها من حاله حين فارقه وقله تأملهم في حلاه من التهيّب والاستعظام.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلحهم بعدتهم وأوفر ركابتهم بما جاؤوا لأجله، والجهاز ما يعد من الأمتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة إلى أخرى وما تزف به المرأة إلى زوجها وقرىء «بجهازهم» بالكسر. ﴿قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ روي: أنهم لما دخلوا عليه قال: من أنتم وما أمركم لعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله إنما نحن بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب، قال كم أنتم؟ قالوا كنا اثني عشر فذهب أحدنا إلى البرية فهلك، قال: فكم أنتم ها هنا قالوا عشرة، قال: فأين الحادي عشر؟ قالوا: عند أبينا يتسلى به عن الهالك، قال: فمن يشهد لكم. قالوا: لا يعرفنا أحد ها هنا فيشهد لنا قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة واتوني بأخيكم من أبيكم حتى أصدقكم، فاقترعوا فأصاب شمعون. وقيل كان يوسف يعطي لكل نفر حملاً فسألوه حملاً زائداً لأخ لهم من أبيهم فأعطاهم وشرط عليهم أن يأتوه به ليعلم صدقهم. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ﴾ أتمه. ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ للضيف والمضيفين لهم وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تقربوني ولا تدخلوا ديارى، وهو إما نهي أو

نفى معطوف على الجزاء.

﴿قَالُوا سَتَرَاوُدُ عَنْهُ آيَاتُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه. ﴿وَأِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ذلك لا نتوانى فيه.

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿٦٢﴾

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْهِ﴾ لغلمان الكياليين جمع فتى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿لفتيانه﴾ على أنه جمع الكثرة ليوافق قوله: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ فإنه وكل بكل رحل واحداً يعبي فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام، وكانت نعلاً وأدماء وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضلاً عليهم وترفعاً من أن يأخذ ثمن الطعام منهم، وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لعلهم يعرفون حق ردها. أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ انصرفوا ورجعوا. ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وفتحوا أو عيبتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرجوع.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

﴿٦٤﴾

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم نذهب بينامين. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ﴾ نرفع المانع من الكيل ونكتل ما نحتاج إليه. وقرأ حمزة والكسائي بالياء على إسناده إلى الأخ أي يكتل لنفسه فينضم اكتياله إلى اكتيالنَا. ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وقد قلتم في يوسف: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا﴾ فاتوكل عليه وأفوض أمري إليه، وانتصاب «حفظاً» على التمييز و «حافظاً» على قراءة حمزة والكسائي وحفص يحتمله والحال كقوله: لله ذره فارساً، وقرئ «خير حافظ» و «خير الحافظين». ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع علي مصيبتين.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ وقرئ «ردت» بنقل كسرة الدال المدغمة إلى الراء نقلها في بيع وقيل. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ماذا نطلب هل من مزيد على ذلك أكرمنا وأحسن مثوانا وبيع منا ورد علينا متاعنا. أو لا نطلب وراء ذلك إحساناً أو لا نبغي في القول ولا نزيد فيما حكينا لك من إحسانه. وقرئ «ما نبغي» على الخطاب أي: أي شيء نطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الدليل على صدقنا؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضح لقوله «ما نبغي». ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ معطوف على محذوف أي ردت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانًا﴾ عن المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وسق بعير باستصحاب أخينا، هذا إذا كانت «ما» استفهامية فأما إذا كانت نافية احتمل ذلك واحتمل أن تكون الجمل معطوفة على «ما نبغي»، أي لا نبغي فيما نقول «ونمير أهلنا ونحفظ أخانا». ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أي مكيل قليل لا يكفينا، استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى كيل بعير أي ذلك شيء قليل لا يضايقنا فيه

الملك ولا يتعاضمه، وقيل إنه من كلام يعقوب ومعناه، إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦).

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت. ﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي عهداً مؤكداً بذكر الله. ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتيني به. ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا ذلك أو إلا أن تهلكوا جميعاً وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال والتقدير: لتأتيني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم، أو من أعم العلل على أن قوله لتأتيني به، في تأويل النفي أي لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم كقولهم: أقسمت بالله إلا فعلت، أي ما أطلب إلا فعلك. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ عهدهم. ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه. ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب مطلع.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة مشتهرين في مصر بالقرب والكرامة عند الملك، فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانونا، ولعله لم يوصهم بذلك في الكرة الأولى لأنهم كانوا مجهولين حينئذ، أو كان الداعي إليها خوفه على بنيامين. وللنفس آثار منها العين والذي يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في عودته «اللهم إني أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة». ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضى عليكم بما أشرت به إليكم فإن الحذر لا يمنع القدر. ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ﴾ يصيبكم لا محالة إن قضى عليكم سوءاً ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جمع بين الحرفين في عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كان الواو للعطف والفاء لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ رأي يعقوب واتباعهم له. ﴿مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مما قضاه عليهم كما قال يعقوب عليه السلام. فسرقوا وأخذ بنيامين بوجدان الصواع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب. ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ﴾ استثناء منقطع أي ولكن حاجة في نفسه، يعني شفقته عليهم وحرارته من أن يعانوا. ﴿قَضَاهَا﴾ أظهرها ووصى بها. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي ونصب الحجج، ولذلك قال ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولم يغتر بتدبيره. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر وأنه لا يغني عنه الحذر.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٩).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل روي: (أنه أضافهم

فأجلسهم مثني مثني فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لجلس معي، فأجلسه معه على مائدته ثم قال: لينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي فبات عنده وقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، قال: من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه و ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئُسْ﴾ فلا تحزن افتعال من البؤس. ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في حقنا فيما مضى.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿٧٠﴾
﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾ المشربة. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ قيل كانت مشربة جعلت صاعاً يكال به وقيل. كانت تسقى الدواب بها ويكال بها وكانت من قضة. وقيل من ذهب وقرىء «وجعل» على حذف جواب فلما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد. ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ لعله لم يقله بأمر يوسف عليه الصلاة والسلام أو كان تعبئة السقاية والنداء عليها برضا بنيامين. وقيل معناه إنكم لسارقون يوسف من أبيه أو أنكم لسارقون، والعير القافلة وهو اسم الإبل التي عليها الأحمال لأنها تعبر أي تتردد، فقليل لأصحابها كقوله عليه الصلاة والسلام «يا خيل الله اركبي». وقيل جمع عير وأصله فعل كسقف فعل به ما فعل ببيض تجوز به لقافلة الحمير، ثم استعير لكل قافلة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ أي شيء ضاع منكم؟ والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، وقرىء «تفقدون» من أفقده إذا وجدته فقيداً.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ وقرىء «صاع» و «صوع» بالفتح والضم والعين والغين و «صواع» من الصياغة. ﴿وَلَمَن جَاءَ بِهِ جِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جعلاً له. ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل أؤديه إلى من رده. وفيه دليل على جواز الجعالة وضمان الجعل قبل تمام العمل.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب، التاء بدل من الباء مختصة باسم الله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك مما يدل على فرط أمانتهم كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكعم الدواب لثلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الْفَاطِمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ فما جزاء السارق أو السرق أو الـ «صواع» على حذف المضاف. ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في ادعاء البراءة.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله واسترقاقه، هكذا كان شرع يعقوب عليه الصلاة والسلام. وقوله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ تقرير للحكم والإزام له، أو خبر «من» والفاء لتضمنها معنى الشرط أو جواب لها على أنها شرطية. والجملة كما هي خبر «جزاؤه» على إقامة الظاهر فيها

مقام الضمير كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله فهو هو. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بالسرقة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعَيْنَيْهِ قَبْلَ وَعَايَ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعَيْنَيْهِمْ﴾ فبدأ المؤذن. وقيل يوسف لأنهم ردوا إلى مصر. ﴿قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين نفياً للتهمة. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث. ﴿مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الكيد. ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ بأن علمناه إياه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ ملك مصر لأن دينه الضرب وتغريم ضعف ما أخذ دون الاسترقاق وهو بيان للكيد. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، فلا استثناء من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعاً أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى وإذنه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ بالعلم كما رفعنا درجته. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أرفع درجة منه، واحتج به من زعم أنه تعالى عالم بذاته إذ لو كان ذا علم لكان فوقه من هو أعلم منه. والجواب أن المراد كل ذي علم من الخلق لأن الكلام فيهم ولأن العليم هو الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي له العلم البالغ لغة ولأنه لا فرق بينه وبين قولنا فوق كل العلماء عليم وهو مخصوص.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون يوسف. قيل ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام وكانت تحضن يوسف وتجنبه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها فتفحص عنها فوجدت محزومة عليه فصارت أحق به في حكمهم. وقيل كان لأبي أمه صنم فسرقه وكسره وألقاه في الجيف. وقيل كان في البيت عناق أو دجاجة فأعطاهما السائل. وقيل دخل كنيسة وأخذ تمثالاً صغيراً من الذهب. ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ﴾ أكنها ولم يظهرها لهم، والضمير للإجابة أو المقالة أو نسبة السرقة إليه وقيل إنها كناية بشرطة التفسير يفسرها قوله: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنه بدل من أسرها. والمعنى قال في نفسه أنتم شر مكاناً أي منزلة في السرقة لسرقتكم أخاكم، أو في سوء الصنيع مما كنتم عليه، وتأنيثها باعتبار الكلمة أو الجملة، وفيه نظر إذ المفسر بالجملة لا يكون إلا ضمير الشأن. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ ۚ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا تَبَوُّنَ ۝٧٩﴾.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي في السن أو القدر، ذكروا له حاله استعطافاً له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ بدله فإن أباه ثكلان على أخيه الهالك مستأنس به. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إلينا فأتهم إحسانك، أو من المتعودين بالإحسان فلا تغير عادتك.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ﴾ فإن أخذ غيره ظلم علي فتواكم فلو أخذنا أحدكم مكانه. ﴿إِنَّا إِذَا لَطَالِمُونَ﴾ في مذهبكم هذا، وإن مراده أن الله أذن في أخذ من وجدنا الضاع في رحله لمصلحته ورضاه عليه فلو أخذت غيره كنت ظالماً.

﴿لَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ

اللَّهُ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿فَلَمَّا اسْتِئْذَنُوا مِنْهُ﴾ يتسوا من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا. ﴿تَجِبًا﴾ متناجين، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنته كما قيل هو صديق، وجمعه أنجية كندي وأندية. ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السن وهو روبيل، أو في الرأي وهو شمعون وقيل يهوذا. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ عهداً وثيقاً، وإنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه لأنه يأذن منه وتأكيد من جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ ومن قبل هذا. ﴿مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه، و ﴿مَا﴾ مزيدة ويجوز أن تكون مصدرية في موضع النصب بالعطف على مفعول تعلموا، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو على اسم ﴿أَنْ﴾ وخبره في ﴿يوسف﴾ أو ﴿من قبل﴾ أو الرفع بالابتداء والخبر ﴿من قبل﴾ وفيه نظر، لأن ﴿قَبْلُ﴾ إذا كان خبراً أو صلة لا يقطع عن الإضافة حتى لا ينقص وأن تكون موصولة أي: ما فرطتموه بمعنى ما قدمتموه في حقه من الجناية ومحلّه ما تقدم. ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أفارق أرض مصر. ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ في الرجوع. ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ أو يقضي لي بالخروج منها، أو بخلاص أخي منهم أو بالمقاتلة معهم لتخليصه. روي: أنهم كلموا العزيز في إطلاقه فقال روبيل: أيها الملك والله لتتركنا أو لأصيحن صيحة تضع منها الحوامل، ووقفت شعور جسده فخرجت من ثيابه فقال يوسف عليه السلام لابنه: قم إلى جنبه فمسه، وكان بنو يعقوب عليه السلام إذا غضب أحدهم فمسه الآخر ذهب غضبه. فقال روبيل من هذا إن في هذا البلد لبرزاً من بزر يعقوب. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾ وَشَلَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ على ما شاهدناه من ظاهر الأمر. وقرئ «سرق» أي نسب إلى السرقة. ﴿وَمَا شَهِدْنَا﴾ عليه. ﴿إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ بأن رأينا أن الصواع استخرج من وعائه. ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لباطن الحال. ﴿حَافِظِينَ﴾ فلا ندري أنه سرق أو سرق ودس الصواع في رحله، أو وما كنا للعواقب عالمين فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ يعنون مصر أو قرية بقربها لحقهم المنادي فيها، والمعنى أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة. ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب العير التي توجهنا فيهم وكنا معهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ تأكيد في محل القسم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَكِيمُ﴾ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْتَافُونَ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِيعْتَ عَيْنَاهُ مِنْكَ الْحَزْنَ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي فلما رجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي سولت وسهلت. ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أردتموه فقدرتموه، وإلا فما أدري الملك أن السارق يؤخذ بسرقة. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فامري صبر جميل، أو فصبر جميل أجمل. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ بيوسف وبنيامين وأخيها الذي توقف بمصر. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بحالي وحالهم. ﴿الْعَكِيمُ﴾ في تدبيرهما.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ وأعرض عنهم كراهة لما صادف منهم. ﴿وَقَالَ يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ﴾ أي يا أسفاً تعال فهذا أوانك، والأسف أشد الحزن والحسرة، والألف بدل من ياء المتكلم، وإنما تأسف على يوسف دون

أخويه والحادث رزؤهما لأن رزاه كان قاعدة المصيبات وكان غضاً أخذاً بمجامع قلبه، ولأنه كان واثقاً بحياتهما دون حياته، وفي الحديث: «لم تعط أمة من الأمم» **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾** عند المصيبة إلا أمة محمد **﴿ﷺ﴾**. ألا ترى إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام حين أصابه ما أصابه لم يسترجع وقال **﴿يا أسفا﴾**. **﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾** لكثرة بكائه من الحزن كأن العبرة محقت سوادهما. وقيل ضعف بصره. وقيل عمي، وقرأ «من الحزن» وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد، ولقد بكى رسول الله **﴿ﷺ﴾** على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون». **﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾** مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره، فعيل بمعنى مفعول كقوله تعالى: **﴿وهو مكظوم﴾** من كظم السقاء إذا شده على ملته، أو بمعنى فاعل كقوله: **﴿والكاظمين الغيظ﴾** من كظم الغيظ إذا اجترعه، وأصله كظم البعير جرتة إذا ردها في جوفه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ **﴿٨٥﴾**

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكره تفجعاً عليه، فحذف لا كما في قوله:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللَّهِ أَبْرَحَ قَاعِدًا

لأنه لا يلتبس بالإثبات، فإن القسم إذا لم يكن معه علامات الإثبات كان على النفي. **﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾** مريضاً مشفياً على الهلاك. وقيل الحرص الذي أذابه هم أو مرض، وهو في الأصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يجمع والنعت بالكسر كدنف ودنف. وقد قرئ به وبضمين كجنب. **﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾** من الميتين.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **﴿٨٦﴾** **﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** **﴿٨٧﴾**

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي﴾ همي الذي لا أقدر الصبر عليه من البث بمعنى النشر. **﴿إِلَى اللَّهِ﴾** لا إلى أحد منكم ومن غيركم، فخلوني وشكايي. **﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾** من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه ولا يدع الملتجئ إليه، أو من الله بنوع من الإلهام. **﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** من حياة يوسف. قيل رأى ملك الموت في المنام فسأله عنه فقال هو حي. وقيل علم من رؤيا يوسف أنه لا يموت حتى يخبر له إخوته سجداً.

﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ فتعرفوا منهما وتفحصوا عن حالهما والتحسس تطلب الإحساس. **﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾** ولا تقنطوا من فرجه وتنفيه. وقرأ «من روح الله» أي من رحمته التي يحيي بها العباد. **﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** بالله وصفاته فإن العارف المؤمن لا يقنط من رحمته في شيء من الأحوال.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ **﴿٨٨﴾**

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ بعدما رجعوا إلى مصر رجعة ثانية. **﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾** شدة الجوع. **﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ﴾** رديئة أو قليلة ترد وتُدفع رغبة عنها، من أزعجته إذا دفعته ومنه ترجية الزمان.

قيل كانت دراهم زيوفاً وقيل صوفاً وسمناً. وقيل الصنوبر والحبة الخضراء. وقيل الأقط وسويق المقل.
﴿قَاوِفْ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فأتهم لنا الكيل. ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أحنأ أو بالمسامحة وقبول المزجاة، أو بالزيادة على ما يساويها. واختلف في أن حرمة الصدقة تعم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو تختص بنبينا ﷺ. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء والتصدق التفضل مطلقاً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في القصر «هذه صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». لكنه اختص عرفاً بما يتغى به ثواب من الله تعالى.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩).

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي هل علمتم قبحه فنتيم عنه وفعلهم بأخيه إفراده عن يوسف وإذلاله حتى لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة. ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبحه فلذلك أقدمتم عليه أو عاقبته، وإنما قال ذلك تنصيحاً لهم وتحريضاً على التوبة، وشفقة عليهم لما رأى من عجزهم وتمسكهم لا معاتبه وتثريباً. وقيل أعطوه كتاب يعقوب في تخلص بنيامين وذكروا له ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف وأخيه فقال لهم ذلك، وإنما جهلهم لأن فعلهم كان فعل الجهال، أو لأنهم كانوا حيثذ صيباً طياشين.

﴿قَالُوا لَوْ أَنَّكَ لَأَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُمْ مِنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾

﴿قَالُوا أَتَيْتُكَ لَأَنْتَ يُّوسُفُ﴾ استفهام تقرير ولذلك حقق بأن ودخول اللام عليه. وقرأ ابن كثير على الإيجاب. قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به، وقيل تبسم فعرفوه بشنايه. وقيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكانت لسارة ويعقوب مثلها. ﴿قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه وإدخالاً له في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بالسلامة والكرامة. ﴿إِنَّهُمْ مِنْ يَتَّقِ﴾ أي يتق الله. ﴿وَيَصْبِرُ﴾ على البليات أو على الطاعات وعن المعاصي. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك.

﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢) أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْفُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَفْئِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا تأنيب عليكم تفعيل من الثرب وهو الشحم الذي يغطي الكرش للإزالة كالجليد، فاستعير للتقريع الذي يمزق العرض ويذهب ماء الوجه. ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلق بال «تثريب» أو بالمقدر للجار الواقع خيراً ل «لا تثريب» والمعنى لا أثربكم اليوم الذي هو مظنته فما ظنكم بسائر الأيام أو بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم حيثذ واعترفوا بها. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب، ومن كرم يوسف عليه السلام أنهم لما عرفوه أرسلوا إليه وقالوا: إنك تدعونا بالبكرة والعشي إلى الطعام ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك، فقال إن أهل مصر كانوا ينظرون إلي بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ، ولقد شرفت بكم وعظمت في عيوتهم حيث علموا أنكم اخوتي وأني من حفدة إبراهيم عليه السلام.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ القميص الذي كان عليه. وقيل القميص المتوارث الذي كان في التعويذ.
﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي يرجع بصيراً أي ذا بصر. ﴿وَأَتُونِي﴾ أنتم وأبي. ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾
بنسائكم وذرائعكم ومواليكم.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ (٩٥).

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ﴾ من مصر وخرجت من عمرانها. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره. ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أوجده الله ريح ما عبق بقميصه من ريحه حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً. ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم، ولذلك لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتي. وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لصدقتوني أو لقلت إنه قريب.
﴿قَالُوا﴾ أي الحاضرون. ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لفي ذهابك عن الصواب قدماً بالإفراط في محبة يوسف وإكثار ذكره والتوقع للقاءه.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يهوذا. روي: أنه قال كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه فأفرجه بحمل هذا إليه. ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام أو يعقوب نفسه. ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ عاد بصيراً لما انتعش فيه من القوة. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف عليه السلام، وإنزال الفرح. وقيل إني أعلم كلام مبتدأ والمقول ﴿لَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾، أو ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ومن حق المعترف بذنبه أن يصفح عنه ويسأله المغفرة.
﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخره إلى السحر أو إلى صلاة الليل أو إلى ليلة الجمعة تحريماً لوقت الإجابة، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف أو يعلم أنه عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة. ويؤيده ما روي: أنه استقبل القبلة قائماً يدعو وقام يوسف خلفه وقاموا خلفهما أدلة خاشعين حتى نزل جبريل وقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواعيقهم بعدك على النبوة، وهو إن صح فدليل على نبوتهم، وأن ما صدر عنهم كان قبل استنبائهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ فِي دَارِ اللَّهِ أَمِينِينَ﴾ (٩٩).

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ روي أنه وجه إليه رواحل وأموالاً ليتجهز إليه بمن معه، واستقبله يوسف والملك بأهل مصر وكان أولاده الذين دخلوا معه مصر اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وكانوا حين خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلاً سوى الذرية والهرمى. ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوهُ﴾ ضم إليه أباه وخالته واعتنقهما نزلها منزلة الأم تنزيل العم منزلة الأب في قوله: ﴿وإله آبائك إبراهيم

وإسماعيل وإسحاق» أو لأن يعقوب عليه السلام تزوجها بعد أمه والرابة تدعى أما «وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ» من القحط وأصناف المكاره، والمشيمة متعلقة بالدخول المكيف بالأمن والدخول الأول كان في موضع خارج البلد حين استقبالهم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠)

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ تحية وتكرمة له فإن السجود كان عندهم يجري مجراها. وقيل معناه خروا لأجله سجداً لله شكراً. وقيل الضمير لله تعالى والواو لأبويه وإخوته والرفع مؤخر عن الخور وإن قدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما. «وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ» التي رأيته أيام الصبا. «قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا» صدقاً. «وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ» ولم يذكر الحب لثلاث يكون تريباً عليهم. «وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ» من البادية لأنهم كانوا أصحاب المواشي وأهل البدو. «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» أفسد بيننا وحرش، من نزغ الرائض الدابة إذا نخسها وحملها على الجري. «إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ» لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها. «إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» بوجود المصالح والتدابير. الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة. روي: أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: أمرني جبريل عليه السلام قال: أو ما تسأله قال: أنت أبسط مني إليه فاسأله فقال جبريل: الله أمرني بذلك. لقولك: «وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ» قال فهلا خفتي.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١)

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر. «وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» الكتب أو الرؤيا، ومن أيضاً للتبعض لأنه لم يؤت كل التأويل. «فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» مبدعهما وانتصابه على أنه صفة المنادى أو منادى برأسه. «أَنْتَ وَلِيِّي» ناصرٍ ومتولي أمري. «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما. «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا» اقبضني. «وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة. روي أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به ودفنه ثمة ثم عاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة، ثم تآقت نفسه إلى الملك المخلد فتمنى الموت فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر في مدفنه حتى هموا بالقتال، فرأوا أن يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه في النيل بحيث يمر عليه الماء، ثم يصل إلى مصر ليكونوا شرعاً فيه، ثم نقله موسى عليه الصلاة والسلام إلى مدفن أبيه وكان عمره مائة وعشرين سنة، وقد ولد له من راعيل اثرائيم وميشا وهو جد يوشع بن نون، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السلام، والخطاب فيه للرسول ﷺ وهو مبتدأ. «مِنْ

أَنْبَاءَ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿١١٢﴾ خبران له. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كالدليل عليهما والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يَمْكُرُونَ به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه، وإنما حذف هذا الشق استغناء بذكره في غير هذه القصة كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾.

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم وبالغت في إظهار الآيات عليهم. ﴿يَمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٤﴾.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جعل كما يفعله حملة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ عامة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾ وكم من آية. والمعنى وكأي عدد شئت من الدلائل الدالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ على الآيات ويشاهدونها. ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقرئ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿يَمُرُّونَ﴾، فيكون لها الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ وبالنصب على ويطؤون الأرض. وقرئ و ﴿الْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا﴾ أي يترددون فيها فيرون آثار الأمم الهالكة.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٦﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٧﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ في إقرارهم بوجوده وخالقيته. ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره أو باتخاذ الأحبار أرباباً. ونسبة التنبئ إليه تعالى، أو القول بالنور والظلمة أو النظر إلى الأسباب ونحو ذلك. وقيل الآية في مشركي مكة، وقيل في المنافقين. وقيل في أهل الكتاب.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم. ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة من غير سابقة علامة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ يعني الدعوة إلى التوحيد والإعداد للمعاد ولذلك فسر السبيل بقوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وقيل هو حال من الياء. ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بيان وحجة واضحة غير عمياء. ﴿أَنَا﴾ تأكيد للمستتر في ﴿أَدْعُوا﴾ أو ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ لأنه حال منه أو مبتدأ خبره ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وأنزهه تنزيهاً من الشركاء.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾ رد لقولهم ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وقيل معناه نفي استنباء النساء ﴿يُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ كما يوحى إليك ويميزون بذلك عن غيرهم. وقرأ حفص ﴿نُوحِي﴾ في كل القرآن ووافقه

حمزة والكسائي في سورة «الأنبياء». ﴿مِنْ أَهْلِ الْفَرَى﴾ لأن أهلها أعلم وأحلم من أهل البدو. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك، أو من المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها. ﴿وَلَذَارِ الْأَخِرَةِ﴾ ولذار الحال أو الساعة أو الحياة الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا الشُّرْكَ وَالْمَعَاصِيَ﴾. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالتاء حملاً على قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي قل لهم أفلا تعقلون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتُجَىٰ مِنْ تَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ غاية محذوف دل عليه الكلام أي لا يغرهم تمادي أيامهم فإن من قبلهم أمهلوا حتى آيس الرسل عن النصر عليهم في الدنيا، أو عن إيمانهم لانهماكهم في الكفر مترفهيّن متمادين فيه من غير وازع. ﴿وَوَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو كذبهم القوم بوعده الإيمان. وقيل الضمير للمرسل إليهم أي وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم بالدعوة والوعيد. وقيل الأول للمرسل إليهم والثاني للرسل أي وظنوا أن الرسل قد كذبوا وأخلفوا فيما وعد لهم من النصر وخلط الأمر عليهم. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الرسل ظنوا أنهم أخلفوا ما وعدهم الله من النصر، إن صح فقد أراد بالظن ما يهجن في القلب على طريق الوسوسة. هذا وإن المراد به المبالغة في التراخي والإمهال على سبيل التمثيل. وقرأ غير الكوفيين بالتشديد أي وظن الرسل أن القوم قد كذبوهم فيما أوعدهم. وقرأ «كذبوا» بالتخفيف وبناء الفاعل أي وظنوا أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به عند قومهم لما تراخى عنهم ولم يروا له أثراً. ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتُجَىٰ مِنْ تَشَاءُ﴾ النبي والمؤمنين وإنما لم يعينهم للدلالة على أنهم الذين يستأهلون إن يشاء نجاتهم لا يشاركهم فيه غيرهم. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب على لفظ الماضي المبني للمفعول وقرأ «فنجأ» «ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين» إذا نزل بهم وفيه بيان للمشيتين.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ في قصص الأنبياء وأمهم أو في قصة يوسف وإخوته. ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدوي العقول. المبرأة من شوائب الإلف والركون إلى الحس. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ ما كان القرآن حديثاً يفتري. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين إذ ما من أمر ديني إلا وله سند من القرآن بوسط أو بغير وسط. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال. ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينال بها خير الدارين. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقونه. وعن النبي ﷺ «علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملك يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً».

(١٢) سورة الرعد

مَكْنِيَّةٌ وَقِيلَ مَكْنِيَّةٌ إِلَّا قَوْلُهُ: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا... الْآيَةُ

وهي ثلاث وأربعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

﴿المر﴾ قيل معناه أنا الله أعلم وأرى. ﴿تلك آيات الكتاب﴾ يعني بالكتاب السورة و ﴿تلك﴾ إشارة إلى آياتها أي: تلك الآيات آيات السورة الكاملة أو القرآن: ﴿والذي أنزل إليك من ربك﴾ هو القرآن كله ومحلّه الجبر بالعطف على ﴿الكتاب﴾ عطف العام على الخاص أو إحدى الصفتين على الأخرى، أو الرفع بالابتداء وخبره ﴿الحق﴾ والجملة كالحجة على الجملة الأولى، وتعريف الخبر وإن دل على اختصاص المنزل بكونه حقاً فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره مما نطق المنزل بحسن اتباعه. ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ لإخلالهم بالنظر والتأمل فيه.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢)

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ مبتدأ وخبر ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر ﴿يدبر الأمر﴾. ﴿بغير عمد﴾ أساطين جمع عماد كإهاب وأهب، أو عمود كأديم وأدم وقرىء «عمد» كرسل. ﴿ترونها﴾ صفة لـ ﴿عمد﴾ أو استئناف للاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم فإن ارتفاعها على سائر الأجسام المساوية لها في حقيقة الجرمية، واختصاصها بما يقتضي ذلك لا بد وأن يكون بمخصص ليس بجسم ولا جسماني يرجع بعض الممكنات على بعض بإرادته وعلى هذا المنهاج سائر ما ذكر من الآيات. ﴿ثم استوى على العرش﴾ بالحفظ والتدبير. ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. ﴿كل يجري لأجل مسمى﴾ لمدة معينة يتم فيها أدوارها، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره وهي ﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت﴾. ﴿يدبر الأمر﴾ أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وغير ذلك. ﴿يفصل الآيات﴾ ينزلها ويبينها مفصلة أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد. ﴿لعلكم بقاء ربكم توقنون﴾ لكي تتفكروا فيها وتحققوا كمال قدرته فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها قدر على الإعادة والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّغَرِاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوَاجِينَ اثْنَيْنِ يُغْشَىٰ الْبَيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)

﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَبِغَيْرِ غَفَضٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٤)

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً لتثبت عليها الأقدام وينقلب عليها الحيوان. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ جبلاً ثوابت من رسا الشيء إذا ثبت، جمع راسية والتاء للتأنيث على أنها صفة أجبل أو للمبالغة. ﴿وَأَنْهَاراً﴾ ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ متعلق بقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي اثْنَيْنِ﴾ أي وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات صنفين اثنين كالحلو والخامض، والأسود والأبيض والصغير والكبير. ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ يلبسه مكانه فيصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يُغْشَى﴾ بالتشديد. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم دبر أمراً وهياً أسبابها.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضها طيبة وبعضها سيخة، وبعضها رخوة وبعضها صلبة، وبعضها تصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس. ولولا تخصيص قادر موقع لأفعاله على وجه دون وجه لم تكن كذلك، لاشتراك تلك القطع في الطبيعة الأرضية وما يلزمها ويعرض لها بتوسط ما يعرض من الأسباب السماوية، من حيث إنها متضامة متشاركة في النسب والأوضاع. ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وبساتين فيها أنواع الأشجار والزرور، وتوحيد الزرع لأنه مصدر في أصله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص ﴿وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿وَجَنَّاتٌ﴾. ﴿صِنَوَانٌ﴾ نخلات أصلها واحد. ﴿وَعُغَيْرٌ صِنَوَانٌ﴾ متفرقات مختلفات الأصول. وقرأ حفص بالضم وهو لغة بني تميم كـ ﴿قِنَوَانٌ﴾ في جمع قنوا. ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ في الثمر شكلاً وقدرًا ورائحة وطعمًا، وذلك أيضاً مما يدل على الصانع الحكيم، فإن اختلافها مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار. وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿يسقى﴾ بالتذكير على تأويل ما ذكر، وحمزة والكسائي ﴿يفضل﴾ بالياء ليطابق قوله ﴿يدبر الأمر﴾. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم بالتفكر.

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَكُنْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ تَعْجَبَ﴾ يا محمد من إنكارهم البعث. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيق بأن يتعجب منه فإن من قدر على إنشاء ما قص عليك كانت الإعادة أيسر شيء عليه، والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته. ﴿أَلَمْ نَكُنْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدل من قولهم أو مفعول له، والعامل في إذا محذوف دل عليه: ﴿أَتُنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث. ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم أو يغفلون يوم القيامة. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها، وتوسط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعقوبة قبل العافية، وذلك لأنهم استعجلوا ما هددوا به من عذاب الدنيا استهزاء. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها ولم يجوزوا حلول مثلها عليهم، والمثلة بفتح الثاء وضمها كالصدقة والصدقة، العقوبة لأنها مثل المعاقب عليه، ومنه المثل للقصاص وأمثلة الرجل من صاحبه إذا اقتصصته منه. وقرئ «المثلات» بالتخفيف و«المثلات» بإتباع الفاء العين و«المثلات» بالتخفيف بعد الاتباع، و«المثلات» بفتح الثاء على أنها جمع مثلة كركبة

وركبات. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ مع ظلمهم أنفسهم، ومحلّه النصب على الحال والعامل فيه المغفرة والتقييد به دليل على جواز العفو قبل التوبة، فإن التائب ليس على ظلمه، ومن منع ذلك خص الظلم بالصغائر المكفرة لمجتنب الكبائر، أو أول المغفرة بالستر والإمهال. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ للكفار أو لمن شاء، وعن النبي ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنا أحد العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد».

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ٧﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة عليه واقتراحاً لنحو ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام. ﴿إِنْ مَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كغيرك من الرسل وما عليك إلا الإتيان بما تصح به نبوتك من جنس المعجزات لا بما يقترح عليك. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبي مخصوص بمعجزات من جنس ما هو الغالب عليهم يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب، أو قادر على هدايتهم وهو الله تعالى لكن لا يهدي إلا من يشاء هدايته بما ينزل عليك من الآيات. ثم أردف ذلك بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره، تنبيهاً على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه وإنما لم ينزل لعلمه بأن اقتراحهم للعناد دون الاسترشاد، وأنه قادر على هدايتهم وإنما لم يهديهم لسبق قضائه بالكفر فقال:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ٨﴾.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أي حملها أو ما تحمله على أي حال هو من الأحوال الحاضرة والمرتبة. ﴿وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ وما تنقصه وما تزداده في الجنة والمدة والعدد، وأقصى مدة الحمل أربع سنين عندنا وخمس عند مالك وستين عند أبي حنيفة. روي أن الضحاك ولد لستين وهرم بن حيان لأربع سنين وأعلى عدده لا حد له. وقيل نهاية ما عرف به أربعة وإليه ذهب أبو حنيفة رضي الله عنه، وقال الشافعي رحمه الله أخبرني شيخ باليمن أن امرأته ولدت بطوناً في كل بطن خمسة. وقيل المراد نقصان دم الحيض وازدياده، وغاض جاء متعدياً ولازماً وكذا ازداد قال تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ فإن جعلتهما لازمين تعين إما أن تكون مصدرية. وإسنادهما إلى الأرحام على المجاز فإنهما لله تعالى أو لما فيها. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر لا يجاوز ولا ينقص عنه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين، وهياً له أسباباً مسوقة إليه تقتضي ذلك. وقرأ ابن كثير ﴿هَادٍ﴾ و﴿وَوَالٍ﴾ و﴿وَوَاقٍ﴾ ﴿وما عند الله باقٍ﴾ بالتونين في الوصل فإذا وقف وقف بالياء في هذه الأحرف الأربعة حيث وقعت لا غير، والباقون يصلون بالتونين ويقفون بغير ياء.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ١٠﴾.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الغائب عن الحس. ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الحاضر له. ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء. ﴿الْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كبر عن نعت المخلوقين وتعالى عنه. ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ﴾ في نفسه. ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ لغيره. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ طالب للخفاء في مختبأ بالليل. ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز. ﴿بِالنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد من سرب سروباً إذا برز، وهو عطف على من أو مستخف على أن من في معنى الاثنين كقوله:

نكن مثل من يا ذئب يضطحبان

كانه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار، والآية متصلة بما قبلها مقررلة لكمال علمه وشموله.

﴿لَمْ مَعَقَبْتُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١).

﴿لَمْ﴾ لمن أسر أو جهر أو استخفى أو سرب. ﴿مَعَقَبَاتٌ﴾ ملائكة تعتقب في حفظه، جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه إذا جاء على عقبه كأن بعضهم يعقب بعضاً، أو لأنهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونها، أو اعتقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة، أو لأن المراد بالمعقبات جماعات. وقرئ «مَعَاقِبٌ» جمع معقب أو معقبة على تعويض الباء من حذف إحدى القافين. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ من جوانبه أو من الأعمال ما قدم وأخر. ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ من بأسه متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى. وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء. وقيل من أمر الله صفة ثانية لـ ﴿مَعَقَبَاتٍ﴾. وقيل المعقبات الحرس والجلالوة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فلا راد له فالعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دل عليه الجواب. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ ممن يلي أمرهم فيدفع عنهم السوء، وفيه دليل على أن خلاف مراد الله تعالى محال.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (١٣).

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من أذاه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف، أي إرادة خوف وطمع أو التأويل بالإخافة والإطماع، أو الحال من ﴿البرق﴾ أو المخاطبين على إضمار ذو، أو إطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء. ﴿الثِّقَالَ﴾ وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ ويسبح سامعوه. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ ملتبسين به فيضجون بسبحان الله والحمد لله، أو يدل الرعد بنفسه على وحدانية الله وكمال قدرته ملتبساً بالدلالة على فضله ونزول رحمته. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: سئل النبي ﷺ عن الرعد فقال: «ملك موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب». ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ من خوف الله تعالى وإجلاله وقيل الضمير لـ ﴿الرعد﴾. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فيهلكه. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ حيث يكذبون رسول الله ﷺ فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم، والجدال التشدد في الخصومة من الجدل وهو القتل، والواو إما لعطف الجملة على الجملة أو للحال فإنه روي أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا على رسول الله ﷺ قاصدين لقتله، فأخذ عامر بالمجادلة ودار أربد من خلفه ليضربه بالسيف، فتنبه له رسول الله ﷺ وقال: اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، ورمى عامراً بغدة فمات في بيت سلولية، وكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فنزلت. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ الماحلة المكيدة لأعدائه، من محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل إذا تكلف استعمال الحيلة،

ولعل أصله المحل بمعنى القحط. وقيل فعال من المحل بمعنى القوة. وقيل مفعول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على أنه مفعول من حال يحول إذا احتال، ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلاً في القوة والقدرة كقولهم: فساعد الله أشد وموساه أحد.

﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝﴾.

﴿لَمْ دَعُوهُ الْحَقُّ﴾ الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه، ويؤيده ما بعده و ﴿الْحَقُّ﴾ على الوجهين ما يناقض الباطل وإضافة الـ ﴿دَعُوهُ﴾ لما بينهما من الملازمة، أو على تأويل دعوة المدعو الحق. وقيل ﴿الْحَقُّ﴾ هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق، والمراد بالجمليتين إن كانت الآية في أريد وعامر أن إهلاكهما من حيث لم يشعر به محال من الله إجابة لدعوة رسوله ﷺ أو دلالة على أنه على الحق، وإن كانت عامة فالمراد وعيد الكفرة على مجادلة رسول الله ﷺ بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول ﷺ عليهم، أو بيان ضلالهم وفساد رأيهم. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي والأصنام الذين يدعوهم المشركون، فحذف الراجع أو والمشركون الذين يدعون الأصنام فحذف المفعول لدلالة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عليه. ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ من الطلبات. ﴿إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ﴾ إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه. ﴿إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يطلب منه أن يبلغه. ﴿وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ﴾ لأنه جماد لا يشعر بدعائه ولا يقدر على إجابته والإتيان بغير ما جبل عليه وكذلك آلهتهم. وقيل شبهوا في قلة جدوى دعائهم لها بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه فبسط كفيه ليشربه. وقرئ «تدعون» بالتاء وباسط بالتنوين. ﴿وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع وخسار وباطل.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقليين، طوعاً حالتي الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حال الشدة والضرورة. ﴿وَوِظَالُهُمْ﴾ بالعرض وأن يراد به انقيادهم لإحداث ما أَرَادَهُ مِنْهُمْ شَأْوًا أَوْ كَرْهًا، وانقياد ظلالهم لتصرفه إياها بالمد والتقليص وانتصاب ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ بالحال أو العلة وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ظرف لـ ﴿يَسْجُدُ﴾ والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال، وتخصيص الوقتين لأن الظلال إنما تعظم وتكثر فيهما، والغدو جمع غداة كقنى جمع قناة، و ﴿الْآصَالِ﴾ جمع أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قد قرئ و«الأيصال» وهو الدخول في الأصيل.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّحِيدُ الْقَهَّارُ ۝﴾.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومتولي أمرهما. ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أجب عنهم بذلك إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه البين الذي لا يمكن المراء فيه أو لقنهم الجواب به. ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم ألزمهم بذلك لأن اتخاذهم منكر بعيد عن مقتضى العقل. ﴿أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَعْمَ وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدرون على أن يجلبوا إليها نفعاً أو يدفعوا عنها ضرراً فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه، وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء رجاء أن يشفعوا لهم. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ المشرك

الجاهل بحقيقة العبادة والموجب لها والموحد العالم بذلك. وقيل المعبود الغافل عنكم والمعبود المطلع على أحوالكم. ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الشرك والتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالياء. ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ بل أجعلوا والهمزة للإنكار وقوله: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفة لشركاء داخله في حكم الإنكار. ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ خلق الله وخلقهم، والمعنى أنهم ما اتخذوا الله شركاء خالقين مثله حتى يتشابه عليهم الخلق فيقولوا هؤلاء خلقوا كما خلق الله فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً عما يقدر عليه الخالق. ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالق غيره فيشاركه في العبادة، جعل الخلق موجب العبادة ولازم استحقاقها ثم نفاه عن سواه ليدل على قوله: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ المتوحد بالالوهية. ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَثْءٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب أو من جانب السماء أو من السماء نفسها فإن المبادئ منها. ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه، واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع. ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير ضار أو بمقدارها في الصغر والكبر. ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾ رفعه والزبد وضر الغليان. ﴿رَابِيًا﴾ عالياً. ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يعم الفلزات كالذهب والفضة والحديد والنحاس على وجه التهاون بها إظهاراً لكبريائه. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب حلي. ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأواني وآلات الحرب والحرث، والمقصود من ذلك بيان منافعها. ﴿زَبَدٌ مِثْلُ بَثْءٍ﴾ أي ومما يوقدون عليه زيد مثل زيد الماء وهو خبثه، و ﴿مِنْ﴾ للإبتداء أو للتبعيض وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالياء على أن الضمير للناس وإضماره للعلم به. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ مثل الحق والباطل فإنه مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة فيتتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار، وبالفلز الذي ينتفع به في صنوغ الحلى واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله بزبدتهما وبين ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفاً به أي يرمي به السبيل والفلز المذاب واتصافه على الحال وقرئ جفلاً والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ كالماء وخلاصة الفلز. ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ ينتفع به أهلها. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ لايضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَيُسَّ لِلْهَادِ ﴿١٨﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ للمؤمنين الذين استجابوا. ﴿لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ الاستجابة الحسنى. ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفرة واللام متعلقة بيضرب على أنه جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما. وقيل للذين استجابوا خبر الحسنى وهي المثوبة أو الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره. ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ وهو على الأول كلام مبتدأ ليان مال غير المستجيبين. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وهو المناقشة فيه بأن يحاسب الرجل بذنبه لا يغفر منه شيء. ﴿وَمَا وَافَهُمْ﴾ مرجعهم. ﴿جَهَنَّمُ وَيُسَّ﴾

المهاد المستقر والمخصوص بالدم محذوف.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فيستجيب. ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عمى القلب لا يستبصر فيستجيب، والهمزة لإنكار أن تقع شبهة في تشابههما بعدما ضرب من المثل. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول المبرأة عن مشايعة الألف ومعارضة الوهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا بلى، أو ما عهد الله تعالى عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَتَّقُونَ الْمِثَاقَ﴾ ما وثقوه من الموائيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الرحم وموالة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ وعيده عموماً. ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصاً فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى. ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه لا لجزاء وسمعة ونحوهما. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه. ﴿سِرًّا﴾ لمن لم يعرف بالمال. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمن عرف به. ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعونها بها فيجازون الإساءة بالإحسان، أو يتبعون السيئة الحسنة فتمحوها. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أهلها وهي الجنة، والجملة خبر الموصولات إن رفعت بالابتداء وإن جعلت صفات لأولي الألباب فاستئناف بذكر ما استوجبوا بتلك الصفات.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عقبي الدار﴾ أو مبتدأ خبره ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ والعدن الإقامة أي جنات يقيمون فيها، وقيل هو بطنان الجنة. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على المرفوع في يدخلون، وإنما ساغ للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وإن لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعاً لهم وتعظيماً لشأنهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة أو أن الموصوفين بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم، وفي التقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة بدوام السلامة. ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بـ ﴿عليكم﴾ أو بمحذوف أي هذا بما صبرتم لا بـ ﴿سلام﴾، فإن الخبر فاصل والباء للنبئية أو للبدلية. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وقرئ «فَنِعْمَ» بفتح

النون والأصل نعم فسكن العين بنقل كسرتها إلى الفاء وبغيره.

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَلْفَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ (٢٥).

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ يعني مقابلي الأولين. ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ من بعد ما أوثقوه به من الإقرار والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالظلم وتهيج الفتن. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَلْفَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدنيا لأنه في مقابلة ﴿عقبي الدار﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۖ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۖ﴾ (٢٦).

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه. ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة. ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة. ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعي، والمعنى أنهم أشروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو في جنبه نزر قليل النفع سريع الزوال.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۚ﴾ (٢٧) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ۖ﴾ (٢٨).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أقبل إلى الحق ورجع عن العناد، وهو جواب يجري مجرى التعجب من قولهم كأنه قال قل لهم ما أعظم عنادكم إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية، ويهدي إليه من أناب بما جئت به بل بأدنى منه من الآيات.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف. ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أنسأ به واعتماداً عليه ورجاء منه، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته، أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعني القرآن الذي هو أقوى المعجزات. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تسكن إليه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فعلى من الطيب قلبت ياؤه واواً لضممة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى وزلفى، ويجوز فيه الرفع والنصب ولذلك قرئ ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ بالنصب.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَآبٍ ۖ﴾ (٢٩).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك يعني إرسال الرسل قبلك. ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا﴾ تقدمتها. ﴿أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليهم. ﴿لَبِثُوا عَلَىٰهَا الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لتقرأ عليهم الكتاب الذي أوحيناه إليك. ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وحالهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمته ووسعت كل شيء رحمته، فلم يشكروا نعمه وخصوصاً ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم، وإنزال القرآن الذي هو مناط المنافع الدينية والديناوية عليهم. وقيل نزلت في مشركي أهل مكة حين قيل لهم ﴿اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي الرحمن خالقي ومتولي أمري. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم. ﴿وَالِيهِ مَتَابٌ﴾ مرجعي ومرجعكم.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣١).

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ شرط حذف جوابه والمراد منه تعظيم شأن القرآن، أو المبالغة في عناد الكفرة وتصميمهم أي: ولو أن كتاباً زعزعت به الجبال عن مقارها. ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ تصدعت من خشية الله عند قراءته أو شققت فجعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿أَوْ كُلُّمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ فتسمع فتقرؤه، أو فتسمع وتجب عند قراءته لكان هذا القرآن لأنه الغاية في الإعجاز والنهاية في التذكير والإنذار، أو لما آمنوا به كقوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ الآية. وقيل إن قريشاً قالوا يا محمد إن شرك أن تتبعك فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فتتخذ فيها بساتين وقطائع، أو سخر لنا به الريح لتركبها ونتجر إلى الشام، أو ابعث لنا به قصي ابن كلاب وغيره من آبائنا ليكلمونا فيك، فنزلت. وعلى هذا فتقطع الأرض قطعها بالسير. وقيل الجواب مقدم وهو قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ وما بينهما اعتراض وتذكير ﴿كلم﴾ خاصة لاشتغال الموتى على المذكر الحقيقي. ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ بل لله القدرة على كل شيء وهو إضراب عما تضمنته ﴿لو﴾ من معنى النفي أي: بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم ويؤيد ذلك قوله: ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن إيمانهم مع ما رأوا من أحوالهم، وذهب أكثرهم إلى أن معناه أفلم يعلم لما روي أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين قرؤوا «أفلم يتبين»، وهو تفسيره وإنما استعمل اليأس بمعنى العلم لأنه مسبب عن العلم، فإن الميتوس عنه لا يكون إلا معلوماً ولذلك علقه بقوله: ﴿أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإن معناه نفي هدى بعض الناس لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم، وهو على الأول متعلق بمحذوف تقديره أفلم يأس الذين آمنوا عن إيمانهم علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً أو «بآمنوا». ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ من الكفر وسوء الأعمال. ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تفرعهم وتقلقلهم. ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها ويتطايروا إليهم شررها. وقيل الآية في كفار مكة فإنهم لا يزالون مصابين بما صنعوا برسول الله ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يزال يبعث سرايا عليهم فتغير حواليلهم وتختطف مواشيهم، وعلى هذا يجوز أن يكون تحل خطاباً للرسول عليه الصلاة والسلام فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الموت أو القيامة أو فتح مكة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢).

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلَ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تسلية لرسول الله ﷺ. ووعيد للمستهزئين به والمقترحين عليه، والإملاء أن يترك ملاوة من الزمان في دعة وأمن. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي إياهم.

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظِهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلِ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (٣٤).

﴿أَقْمِنَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ رَقِيبٌ عَلَيْهَا﴾ بِمَا كَسَبَتْ ﴿مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَا يَفُوتُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْ جَزَائِهِمْ، والخبر محذوف تقديره كمن ليس كذلك. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ استئناف أو عطف على ﴿كَسَبَتْ﴾ إن جعلت «ما» مصدرية، أو لم يوحده وجعلوا عطف عليه ويكون الظاهر فيه موضع الضمير للتنبيه على أنه المستحق للعبادة وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تنبيه على أن هؤلاء الشركاء لا يستحقونها، والمعنى صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة. ﴿أَمْ تُتَّبِئُونَهُ﴾ بل أتنبئونه. وقرئ «تنبئونه» بالتخفيف. ﴿بِمَا لَا يَغْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم، أو بصفات لهم يستحقونها لأجلها لا يعلمها وهو العالم بكل شيء. ﴿أَمْ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أم تسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة واعتبار معنى كتسمية الزنجي كافوراً وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب ينادي على نفسه بالإعجاز. ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ تمويههم فتخيلوا أباطيل ثم خالوها حقاً، أو كيدهم للإسلام بشركهم. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الحق، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿وَصُدُّوا﴾ بالفتح أي صدوا الناس عن الإيمان، وقرئ بالكسر «وَصَدَّ» بالتثنية. ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ يخذله. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يوقفه للهدى.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم من المصائب. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشدة ودوامه. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عذابه أو من رحمته. ﴿مِنْ وَّاقٍ﴾ حافظ.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفتها التي هي مثل في الغرابة، وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليكم مثل الجنة وقيل خبره. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ على طريقة قولك صفة زيد أسمر، أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري من تحتها الأنهار، أو على زيادة المثل وهو على قول سيبويه حال من العائد أو المحذوف أو من الصلة. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها. ﴿وَزُلْفَاهَا﴾ أي وظلها وكذلك لا ينسخ في الدنيا بالشمس ﴿بِئْكَ﴾ أي الجنة الموصوفة. ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ مآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ لا غير، وفي ترتيب النظمين إطماع للمتقين وإقنات للكافرين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْبَارِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُ أَدْعُوا وَإِلَهِه مَعَابٍ﴾ (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتُبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب كابين سلام وأصحابه ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثان وثلاثون بالحبيشة، أو عامتهم فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم. ﴿وَمِنَ الْأَخْبَارِ﴾ يعني كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة ككعب بن الأشرف وأصحابه والسيد والعاقب وأشياعهما. ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرفوه منها. ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ جواب للمنكرين أي قل لهم إني أمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحده، وهو العمدة في الدين ولا سبيل لكم إلى إنكاره، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. وقرئ «ولا أشرك» بالرفع على الاستئناف. ﴿إِلَهِه أَدْعُوا﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَهِه مَعَابٍ﴾ وإليه مرجعي للجزاء لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التفاريع فمما يختلف بالأعصار والأيام فلا معنى لإنكاركم المخالفة فيه.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَنْتَبْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۝٢٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٢٨﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا﴾ يحكم في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة. ﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجماً بلسان العرب ليسهل لهم فهمه وحفظه وانتصابه على الحال. ﴿وَلَئِنْ أَنْتَبْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها، كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعدما حولت عنها. ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بنسخ ذلك. ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ينصرك ويمنع العقاب عنك وهو حسم لأطماعهم وتهيج للمؤمنين على الثبات في دينهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ بشراً مثلك. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نساء وأولاداً كما هي لك. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما يصح له ولم يكن في وسعه. ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ﴾ تقترح عليه وحكم يلتزم منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنه المولى بذلك. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل وقت وأمد حكم يكتب على العباد على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٢٩﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوْفِيقَكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝٣٠﴾.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما تقتضيه حكمته. وقيل يمحو سيئات التائب ويثبت الحسنات مكانها. وقيل يمحو من كتاب الحفظ ما لا يتعلق به جزاء ويترك غيره مثبتاً أو يثبت ما رآه وحده في صميم قلبه. وقيل يمحو قرناً ويثبت آخرين. وقيل يمحو الفاسدات الكائنات. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ بالتشديد. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه.

﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوْفِيقَكَ﴾ وكيفما دارت الحال أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ لا غير. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ للمجازاة لا عليك فلا تحتفل بإعراضهم ولا تستعجل بعذابهم فإننا فاعلون له وهذا طلائعه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلَّمُ الْكَفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٤٢﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد له وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حكم للإسلام بالاقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره، ومحل ﴿لَا﴾ مع المنفي النصب على الحال أي يحكم نافذاً حكمه. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعدما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائهم والمؤمنين منهم. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يؤبه بمكر دون مكره فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعد جزاءها. ﴿وَسِعِلَّمُ الْكَفَّارُ﴾

لِمَنْ عُقِبَى الدَّارِ ﴿٤٣﴾ من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم، واللام تدل على أن المراد بالعقبي العاقبة المحمودة. مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿الكافر﴾ على إرادة الجنس، وقرأ «الكافرون» و «الذين كفروا» و «الكفر» أي أهله وسيعلم من أعلمه إذا أخبره.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل المراد بهم رؤساء اليهود. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه أظهر من الأدلة على رسالتي ما يغني عن شاهد يشهد عليها. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ علم القرآن وما أُلِّف عليه من النظم المعجز، أو علم التوراة وهو ابن سلام وأضرابه، أو علم اللوح المحفوظ وهو الله تعالى، أي كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو شهيداً بيننا فيخزي الكاذب منا، ويؤيده قراءة من قرأ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ بالكسر و «عِلْمُ الْكِتَابِ» وعلى الأول مرتفع بالظرف فإنه معتمد على الموصول، ويجوز أن يكون مبتدأ والظرف خبره وهو متعين على الثاني. وقرأ «ومن عنده علم الكتاب» على الحرف والبناء للمفعول. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى، وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله».

(١٤) سورة إبراهيم

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿الرَّ كِتَابٌ﴾ أي هو كتاب. ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه وتسهيله مستعار من الاذن الذي هو تسهيل الحجاب، وهو صلة ﴿لتخرج﴾ أو حال من فاعله أو مفعوله. ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾ بتكرير العامل أو استئناف على أنه جواب لمن يسأل عنه، وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له وتخصيص الوصفين للتبني على أنه لا يذل سالكه ولا يخيب سابله.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على قراءة نافع وابن عامر مبتدأ وخبر، أو ﴿الله﴾ خبر مبتدأ محذوف والذي صفته وعلى قراءة الباقي عطف بيان لـ ﴿العزیز﴾ لأنه كالعلم لاختصاصه بالمعبود على الحق. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، والويل نقيض الوال وهو النجاة، وأصله النصب لأنه مصدر إلا أنه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات.

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان. وقرئ "ويصدون" من أصد وهو منقول من صد صدوداً إذا تنكب وليس فصيحاً، لأن في صده مندوحة عن تكلف التعدية بالهمزة. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويبغون لها زيفاً ونكوباً عن الحق ليقدحوا فيه، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير والموصول بصلته يحتمل الجر صفة للكافرين والنصب على الذم والرفع عليه أو على أنه مبتدأ خبره. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل، والبعد في الحقيقة للضلال فوصف به فعله للمبالغة، أو للأمر الذي به الضلال فوصف به لملاسته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ إلا بلغة قومه الذي هو منهم وبعث فيهم. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما أمروا به فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوه ويترجموه إلى غيرهم فإنهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم، ولذلك أمر النبي ﷺ بإنذار عشيرته أولاً، ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على

استنتهم استقل ذلك بنوع من الإعجاز، لكن أدى إلى اختلاف الكلمة وإضاعة فضل الاجتهاد في تعلم الألفاظ ومعانيها، والعلوم المتشعبة منها وما في اتعاب القرائح وكد النفوس من القرب المقتضية لجزيل الثواب. وقرىء «بلسن» وهو لغة فيه كريش ورياش، ولسن بضمين وضمة وسكون على الجمع كعمد وعمد. وقيل الضمير في قومه لمحمد ﷺ وأن الله تعالى أنزل الكتب كلها بالعربية، ثم ترجمها جبريل عليه السلام أو كل نبي بلغة المنزل عليهم وذلك ليس بصحيح يرده قوله: «ليبين لهم» فإنه ضمير القوم، والتوراة والإنجيل ونحوهما لم تنزل لتبين للعرب. «فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ» فيخذله عن الإيمان. «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» بالتوفيق له. «وَهُوَ الْعَزِيزُ» فلا يغلب على مشيئته. «الْحَكِيمُ» الذي لا يضل ولا يهدي إلا لحكمة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾
 اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ يعني اليد والعصا وسائر معجزاته. «أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» بمعنى أي أخرج لأن في الإرسال معنى القول، أو بأن أخرج فإن صيغ الأفعال سواء في الدلالة على المصدر فيصح أن توصل بها أن الناصبة. «وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ» بوقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة وأيام العرب حروبها. وقيل بنعمائه وبلائه. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» يصبر على بلائه ويشكر على نعمائه، فإنه إذا سمع بما أنزل على من قبل من البلاء وأفيض عليهم من النعماء اعتبر وتنبه لما يجب عليه من الصبر والشكر. وقيل المراد لكل مؤمن وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن الصبر والشكر عنوان المؤمن.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَشُومُونَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي اذكروا نعمته عليكم وقت إنجائه إياكم، ويجوز أن ينتصب بـ «عليكم» إن جعلت مستقرة غير صلة للنعمة، وذلك إذا أريدت بها العطية دون الأنعام، ويجوز أن يكون بدلاً من «نعمته» بدل الاشتمال. «يَشُومُونَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ» أحوال من آل فرعون، أو من ضمير المخاطبين والمراد بالعذاب ها هنا غير المراد به في سورة «البقرة» و «الأعراف» لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة ومعطوف عليه التذبيح ها هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة. «وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ» من حيث إنه بإقدار الله إياهم وإمهالهم فيه. «بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» ابتلاء منه، ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء والمراد بالبلاء النعمة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أيضاً من كلام موسى ﷺ، و «تأذن» بمعنى آذن كتوعد وأوعد غير أنه أبلغ لما في الفعل من معنى التكلف والمبالغة. «لَئِنْ شَكَرْتُمْ» يا بني إسرائيل ما أنعمت عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان والعمل الصالح. «لَأَزِيدَنَّكُمْ» نعمة إلى نعمة. «وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ» ما أنعمت عليكم. «إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» فلعلي أعذبكم على الكفران عذاباً شديداً ومن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد، والجملة مقول قول مقدر أو مفعول «تأذن» على أنه جار مجرى «قال» لأنه ضرب منه.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقليين. «فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ» عن شكركم. «حَمِيدٌ» مستحق للحمد في ذاته، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمته ذرات المخلوقات، فما ضررتكم

بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتوها مزيد الأنعام وعرضتموها للعذاب الشديد.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ من كلام موسى عليه الصلاة والسلام أو كلام مبتدأ من الله. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ جملة وقعت اعتراضاً، أو الذين من بعدهم عطف على ما قبله ولا يعلمهم اعتراض، والمعنى أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه كذب النسابون. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فعصوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَمَلِ مِنَ الْغَيْظِ﴾. أو وضعوها عليها تعجباً منه أو استهزاء عليه كمن غلبه الضحك، أو إسكاتاً للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرأ لهم بإطباق الأفواه، أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا﴾ تنبيهاً على أن لا جواب لهم سواء أو ردوها في أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم، وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلاً. وقيل الأيدي بمعنى الأيادي أي ردوا أيادي الأنبياء التي هي مواعظهم وما أوحى إليهم من الحكم والشرائع في أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها فكانهم ردوها إلى حيث جاءت منه. ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان وقرىء «تدعوننا» بالإدغام. ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة أو ذي ريبة وهي قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشيء.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝﴾

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام في المشكوك فيه لا في الشك. أي إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة وظهور دلالتها عليه. وأشاروا إلى ذلك بقولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو صفة أو بدل، و «شك» مرتفع بالظرف. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى الإيمان ببعثه إيانا. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ أو يدعوكم إلى المغفرة كقولك: دعوتك لينصرتني، على إقامة المفعول له مقام المفعول به. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم وهو ما بينكم وبينه تعالى، فإن الإسلام يجبه دون المظالم، وقيل جيء بمن في خطاب الكفرة دون المؤمنين في جميع القرآن تفرقة بين الخطابين، ولعل المعنى فيه أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفار مرتبة على الإيمان وحيث جاءت في خطاب المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فتتناول الخروج عن المظالم. ﴿وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى وقت سماه الله تعالى وجعله آخر أعماركم. ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً لبعث من جنس أفضل. ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ بهذه الدعوى. ﴿فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية، أو على صحة ادعائكم النبوة كأنهم لم يعتبروا ما جاؤوا به من البينات والحجج واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرَنَّ عَلَى مَا عَادَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝﴾

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا نَبَشِّرُ بِمِثْلِكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُمِزُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ سلموا مشاركتهم في الجنس وجعلوا الموجب لاختصاصهم بالنبوة فضل الله ومنه عليهم، وفيه دليل على أن النبوة عطائية وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي ليس إلينا الإتيان بالآيات ولا تستبد به استطاعتنا حتى تأتي بما اقترحتموه، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى فيخص كل نبي بنوع من الآيات. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلنتوكل عليه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عموماً الأمر للإشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصداً أولاً ألا ترى قوله تعالى:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه. ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ التي بها نعرفه ونعلم أن الأمور كلها بيده. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف ههنا وفي «العنكبوت». ﴿وَلَنَضْرِبَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَاكُمْ مِنْ جَوَابٍ قِسْماً مَحْذُوفاً أَكْثَرُ مِنْ تَوَكُّلِهِمْ وَنُفِثَ الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَى مَا اسْتَحْدَثُوا مِنْ تَوَكُّلِهِمْ الْمَسْبُوبِ عَنْ إِيْمَانِهِمْ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسول أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إلى رسلكم. ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ على إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجراه لأنه نوع منه.

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. وقرئ «ليهلكن» «وليسكننكم» بالياء اعتباراً لأوحى كقولك: أقسم زيد ليخرجن. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ موقفي وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله وقيل المقام مقحم. ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيعٍ وَمَنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم من الفتاحة كقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ وهو معطوف على ﴿فَأَوْحَى﴾ والضمير للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل للكفرة وقيل للفريقين. فإن كلهم سألوه أن ينصر المحق ويهلك المبطل. وقرئ بلفظ الأمر عطفاً على «ليهلكن». ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي ففتح لهم فأفلق المؤمنون وخاب كل جبار عات متكبر على الله معاند للحق فلم يفلح، ومعنى الخيبة إذا كان الاستفتاح من الكفرة أو من القبيلين كان أوقع.

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي من بين يديه فإنه مرصد بها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة. وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك. ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ﴾ عطف على محذوف تقديره من وراء جهنم يلقي فيها ما يلقي ﴿ويسقى من ماء﴾. ﴿صَدِيدٍ﴾ عطف بيان لـ ﴿ماء﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يتكلف جرعه وهو صفة لماء، أو حال من الضمير في ﴿يسقى﴾ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه بل يغص به فيطول عذابه، والسوغ جواز الشراب على الحلق بسهولة وقبول

نفس. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي أسبابه من الشدائد فتحيط به من جميع الجهات. وقيل من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وإبهام رجله. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ ومن بين يديه. ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. وقيل هو الخلود في النار. وقيل حبس الأنفاس. وقيل الآية منقطعة عن قصة الرسل نازلة في أهل مكة طلبوا الفتح الذي هو المطر في سنيهم التي أرسل الله تعالى عليهم بدعوة رسوله، فخبب رجاءهم فلم يسقهم ووعد لهم أن يسقيهم في جهنم بدل سقياهم صديد أهل النار.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي فيما يتلى عليكم صفتهم التي هي مثل في الغرابة، أو قوله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ وهو على الأول جملة مستأنفة لبيان مثلهم. وقيل ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بدل من الـ ﴿مَثَلُ﴾ والخبر ﴿كَرَمَادٍ﴾. ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ حملته وأسرعت الذهاب به وقرأ نافع «الرياح». ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ العصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهارة صائم وليله قائم، شبه صائغهم من الصدقة وصلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب ونحو ذلك من مكارمهم في حيوطها وذهابها هباء منثوراً، لبنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والتوجه بها إليه، أو أعمالهم للأصنام برماد طيرته الريح العاصف. ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من أعمالهم. ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ لحبوطه فلا يرون له أثراً من الثواب وهو فذلّة التمثيل. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسيانهم أنهم محسنون. ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ فإنه الغاية في البعد عن طريق الحق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (٢٠).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته. وقيل لكل واحد من الكفرة على التلويح. ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة والوجه الذي يحق أن تخلق عليه، وقرأ حمزة والكسائي «خالق السموات». ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يعدمكم ويخلق خلقاً آخر مكانكم، رتب ذلك على كونه خالقاً للسموات والأرض استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع قدر أن يبدلهم بخلق آخر ولم يمتنع عليه ذلك كما قال:

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادر لذاته لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن كان هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمن به ويعبد رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

﴿وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَّحْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِيزٍ﴾ (٢١).

﴿وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لأمر الله تعالى ومحاسنته، أو ﴿لِلَّهِ﴾ على ظنهم فإنهم كانوا يخفون ارتكاب الفواحش ويظنون أنها تخفى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند أنفسهم، وإنما ذكر بلفظ الماضي لتحقق وقوعه. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الأتباع جمع ضعيف يريد به ضعاف

الرأي، وإنما كتبت بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لرؤوسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم، وهو جمع تابع كغائب وغيب، أو مصدر نعت به للمبالغة أو على إضمار مضاف. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ دافعون عنا. ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأولى للبيان واقعة موقع الحال، والثانية للتبعض واقعة موقع المفعول أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله، ويجوز أن تكونا للتبعض أي بعض شيء هو بعض عذاب الله، والإعراب ما سبق ويحتمل أن تكون الأولى مفعولاً والثانية مصدرأ، أي فهل أنتم مغنون بعض العذاب بعض الإغناء. ﴿قَالُوا﴾ أي الذين استكبروا جواباً عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم. ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ للإيمان ووفقنا له. ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناه عنكم كما عرضناكم له، لكن سد دوننا طريق الخلاص. ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُنْجِزَ أَمْ صَيَّرْنَا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر. ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ﴾ منجى ومهرب من العذاب، من الحيص وهو العدل على جهة الفرار، وهو يحتمل أن يكون مكاناً كالميميت ومصدرأ كالمغيب، ويجوز أن يكون قوله ﴿سواء علينا﴾ من كلام الفريقين ويؤيده ما روي أنهم يقولون: تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك ثم يقولون ﴿سواء علينا﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٢).

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أحكم وفرغ منه ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيباً في الأشقياء من الثقلين. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز أو وعداً أنجزه وهو الوعد بالبعث والجزاء. ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا حساب وإن كانا فالأصنام تشفع لكم. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه. ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط فالجئكم إلى الكفر والمعاصي. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائي إياكم إليها بتسويلي وهو ليس من جنس السلطان ولكنه على طريقة قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع. ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً. ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أسرعتم إجابتي. ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ بوسوستي فإن من صرح العداوة لا يلام بأمثال ذلك. ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث أطمعتموني إذ دعوتكم ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم، واحتجت المعتزلة بأمثال ذلك على استقلال العبد بأفعاله وليس فيها ما يدل عليه، إذ يكفي لصحتها أن يكون لقدرة العبد مدخل ما في فعله وهو الكسب الذي يقوله أصحابنا. ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم من العذاب. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ بمغيثي وقرأ حمزة بكسر الياء على الأصل في التقاء الساكنين، وهو أصل مرفوض في مثله لما فيه. من اجتماع ياءين وثلاث كسرات مع أن حركة ياء الإضافة الفتح، فإذا لم تكسر وقبلها ألف فبالحري أن لا تكسر وقبلها ياء، أو على لغة من يزيد ياء على ياء الإضافة إجراء لها مجرى الهاء والكاف في: ضربته، وأعطيتكه، وحذف الياء اكتفاء بالكسرة. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ «ما» إما مصدرية و «من» متعلقة بأشركتموني أي كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي في الدنيا بمعنى تبرأت منه واستنكرته كقوله: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾. أو موصولة بمعنى من نحو ما في قولهم: سبحان ما سخركن لنا، و «من» متعلقة بـ «كفرت» أي كفرت بالذي أشركتموني وهو الله تعالى بطاعتكم إياي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم، حين رددت أمره بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام وأشرك منقول من شركت زيداً للتعدية إلى مفعول ثان. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تنمة كلامه أو ابتداء كلام من الله تعالى وفي حكاية أمثال ذلك لطف للسامعين

وليقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم.

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ﴾ (٢٣).

﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بإذن الله تعالى وأمره والمدخلون هم الملائكة. وقرئ «وَأَدْخِلَ» على التكلم فيكون قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي تحييتهم الملائكة فيها بالسلام بإذن ربهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ كيف اعتمده ووضعه. «كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ» أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، وهو تفسير لقوله «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا»، ويجوز أن تكون «كَلِمَةً» بدلاً من «مَثَلًا» و «كَشَجَرَةٍ» صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي «كَشَجَرَةٍ»، وأن تكون أول مفعولي ضرب إجراء له مجرى جعل وقد قرئت بالرفع على الابتداء. «أَصْلُهَا ثَابِتٌ» في الأرض ضارب بعروقه فيها. «وَفَرْعُهَا» وأعلاها. «فِي السَّمَاءِ» ويجوز أن يريد وفروعها أي أفنانها على الاكتفاء بلفظ الجنس لاكتسابه الاستغراق من الإضافة. وقرئ «ثَابِتٌ أَصْلُهَا» والأول على أصله ولذلك قيل إنه أقوى ولعل الثاني أبلغ.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ تعطي ثمرها. «كُلَّ حِينٍ» وقته الله تعالى لإثمارها. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بإرادة خالقها وتكوينه. «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير، فإنه تصوير للمعاني وإدناء لها من الحسن.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۖ﴾ (٢٥).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كمثل شجرة خبيثة «اجْتُثَّتْ» استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية. «مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» لأن عروقتها قريبة منه. «مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ» استقرار. واختلف في الكلمة والشجرة ففسرت الكلمة الطيبة: بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والكلمة الخبيثة بالشرك بالله تعالى والدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق، ولعل المراد بهما ما يعم ذلك فالكلمة الطيبة ما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ما كان على خلاف ذلك وفسرت الشجرة الطيبة بالنخلة. وروي ذلك مرفوعاً وبشجرة في الجنة، والخبيثة بالحنظلة والكشوث، ولعل المراد بهما أيضاً ما يعم ذلك.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۖ﴾ (٢٦).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فلا يزالون إذا فتنوا في دينهم كزكريا ويحيى عليهما السلام وجرجيس وشمعون والذين فتنهم أصحاب الأخدود. «وَفِي الْآخِرَةِ» فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف، ولا تدهشهم أهوال يوم القيامة. وروي (أنه ﷺ ذكر قبض روح المؤمن فقال: ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فذلك قوله: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ». «وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ» الذين

ظلموا أنفسهم بالاقتصار على التقليد فلا يهتدون إلى الحق ولا يشتون في مواقف الفتن. ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ أَلْقَارَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي شكر نعمته كفرًا بأن وضعوه مكانه، أو بدلوا نفس النعمة كفرًا، فإنهم لما كفروها سلبت منهم فصاروا تاركين لها محصلين للكفر بدلها كاهل مكة، خلقهم الله تعالى وأسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته ووسع عليهم أبواب رزقه وشرفهم بمحمد ﷺ، فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وأسرروا وقتلوا يوم بدر وصاروا أذلاء، فبقوا مسلوبي النعمة وموصوفين بالكفر، وعن عمر وعلي رضي الله تعالى عنهما: هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين. ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعواهم في الكفر. ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر.

﴿جَهَنَّمَ﴾ عطف بيان لها. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال منها أو من القوم، أي داخلين فيها مقاسين لحرها، أو مفسر لفعل مقدر ناصب لجهنم. ﴿وَيَنْسَوْنَ الْقُرْآنَ﴾ أي وبش المقر جهنم.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بفتح الياء، وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض. ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بشهواتكم أو بعبادة الأوثان فإنها من قبيل الشهوات التي يتمتع بها، وفي التهديد بصيغة الأمر إيدان بأن المهدد عليه كالمطلوب لافضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لا محالة ولذلك علله بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من أمر مطاع.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خصهم بالإضافة تنويعاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية، ومفعول ﴿قُلْ﴾ محذوف يدل عليه جوابه: أي قل لعبادي الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا. ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فيكون إيداناً بأنهم لفرط مطاوعتهم للرسول ﷺ بحيث لا ينفك فعلهم عن أمره، وأنه كالسبب الموجب له، ويجوز أن يقدر بلام الأمر ليصح تعلق القول بهما وإنما حسن ذلك ها هنا ولم يحسن في قوله:

مُحَمَّدٌ تَفَدُّ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إِذَا مَا خَفَتْ مِنْ أَمْرِ رَبِّهَا

للدلالة قل عليه. وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا مقامين مقامهما، وهو ضعيف لأنه لا بد من مخالفة ما بين الشرط وجوابه ولأن أمر المواجهة لا يجاب بلفظ الغيبة إذا كان الفاعل واحداً. ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منتصبان على المصدر أي إنفاق سر وعلانية، أو على الحال أي ذوي سر وعلانية، أو على الظرف أي وقتي سر وعلانية، والأحب إعلان الواجب وإخفاء المتطوع به. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِجَ فِيهِ﴾ فيبتاع المقصر ما يتدارك به تقصيره أو يفدي به نفسه. ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ ولا مخالفة فيشفع لك خليل، أو من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالفة وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالفتح فيهما على النفي العام.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مبتدأ وخبر ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ تعيشون به وهو يشمل المطعوم والملبوس مفعول لأخرج و ﴿من الثمرات﴾ بيان له وحال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز أن يراد به المصدر فينتصب بالعلة، أو المصدر لأن أخرج في معنى رزق. ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم. ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ فجعلها معدة لانقاعكم وتصرفكم وقيل تسخير هذه الأشياء تعليم كيفية اتخاذها.

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يدأبان في سيرهما وإنارتها وإصلاح ما يصلحانه من المكونات. ﴿وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم. ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي بعض جميع ما سألتموه يعني من كل شيء سألتموه شيئاً، فإن الموجود من كل صنف بعض ما في قدرة الله تعالى، ولعل المراد بـ ﴿ما سألتموه﴾ ما كان حقيقاً بأن يسأل لاحتياج الناس إليه سئل أو لم يسأل، وما يحتمل أن تكون موصولة وموصوفة ومصدرية ويكون المصدر بمعنى المفعول. وقرئ «مِنْ كُلِّ» بالتثنية أي وأتاكم من كل شيء ما احتجتم إليه وسألتموه بلسان الحال، ويجوز أن تكون «ما» نافية في موقع الحال أي وأتاكم من كل شيء غير سائله. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ لا تحصروها ولا تطبقوا عد أنواعها فضلاً عن أفرادها، فإنها غير متناهية. وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها، أو يظلم نفسه بأن يعرضها للحرمان. ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران. وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفر في النعمة يجمع ويمنع.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعَثْ لِي رَسُولًا مِنْهُمْ فَاتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ بلدة مكة. ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها، والفرق بينه وبين قوله: ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أن المسؤول في الأول إزالة الخوف عنه وتصويره آمناً، وفي الثاني جعله من البلاد الآمنة. ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ بعدي وإياهم، ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ واجعلنا منها في جانب وقرئ «وأجنبني» وهما على لغة نجد وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره. وفيه دليل على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله وحفظه إياهم وهو بظاهره، لا يتناول أحفاده وجميع ذريته. وزعم ابن عيينة أن أولاد إسماعيل عليه الصلاة والسلام لم يعبدوا الصنم محتجاً به وإنما كانت لهم حجارة يدورون بها ويسمونها الدوار ويقولون البيت حجر فحيثما نصبنا حجراً فهو بمنزلة.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ﴾ فلذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضلالهم، وإسناد الإضلال إليهم باعتبار السببية كقوله تعالى: ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ لِضَلَالٍ كَثِيرٍ﴾ على ديني. ﴿فَمَنْ يَبْعَثْ لِي رَسُولًا مِنْهُمْ فَاتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وفيه دليل على أن كل ذنب فله أن يغفره حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَادَ

مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ .

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول وهم إسماعيل ومن ولد منه فإن إسماعيل متضمن لإسكانهم. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ فِي زَرْعٍ﴾ يعني وادي مكة فإنها حجرية لا تنبت. ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرمت التعرض له والتهاون به، أو لم يزل معظماً ممنعاً بهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقاً أي اعتق منه. ولو دعا بهذا الدعاء أول ما قدم فلعله قال ذلك باعتبار ما كان أو ما سيؤول إليه. روي أن هاجر كانت لسارة رضي الله عنها فوهبتها لإبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل عليه السلام، فغارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله عين زمزم، ثم إن جرهم رأوا ثم طيوراً فقالوا لا طير إلا على الماء، فقصدوه فأروهما وعندهما عين فقالوا أشركنا في مائك نشركك في ألباننا ففعلت. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ اللام لام كي وهي متعلقة بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع من كل مرتفع ومرتق إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم. وتكرير النداء وتوسيطه للإشعار بأنها المقصودة بالذات من إسكانهم ثمة، والمقصود من الدعاء توفيقهم لها. وقيل لام الأمر والمراد هو الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله تعالى أن يوفقهم لها. ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي أفئدة من أفئدة الناس، و ﴿مِنَ﴾ للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ولحجت اليهود والنصارى، أو للابتداء كقولك: القلب مني سقيم أي أفئدة ناس. وقرأ هشام «أفئدة» بخلف عنه بياء بعد الهمزة. وقرئ «أفدة» وهو يحتمل أن يكون مقلوب «أفئدة» كآدر في أدور وأن يكون اسم فاعل من أفدت الرحلة إذا عجلت أي جماعة يعجلون نحوهم «وأفدة» بطرح الهمزة للتخفيف، وإن كان الوجه فيه إخراجها بين يمين ويجوز أن يكون من أفد. ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً. وقرئ «تهوي» على البناء للمفعول من أهوى إليه غيره و«تهوي» من هوى يهوي إذا أحب، وتعديته بإلى لتضمنه معنى النزوع. ﴿وَارْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مع سكتاهم وادياً لا نبات فيه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله عز وجل دعوته فجعله حراماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ .

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ﴾ تعلم سرنا كما تعلم علتنا، والمعنى إنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكننا ندعوك إظهاراً لعبوديتك وافتقاراً إلى رحمتك واستعجالاً لنيل ما عندك. وقيل ما نخفي من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع إليك والتوكل عليك، وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجأ إلى الله تعالى. ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لأنه العالم بعلم ذاتي يستوي نسبه إلى كل معلوم، ومن للاستغراق.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد، قيد الهبة بحال الكبير استعظاماً للنعمة وإظهاراً لما فيها من آلائه. ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. روي أنه ولد له إسماعيل تسع وتسعين سنة وإسحاق لمائة واثني عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي لمجيبه من قولك سمع الملك كلامي إذا اعتد به، وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله تعالى على المجاز، وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلها.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ (٤٠) ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١).

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ معدلاً لها مواظباً عليها. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ عطف على المنصوب في ﴿اجْعَلْنِي﴾، والتبويض لعلمه بإعلام الله أو استقراء عادته في الأمم الماضية أن يكون في ذريته كفار. ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ واستجب دعائي أو تقبل عبادتي.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وقرئ «ولأبوي»، وقد تقدم عذر استغفاره لهما. وقيل أراد بهما آدم وحواء. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يثبت مستعار من القيام على الرجل كقولهم: قامت الحرب على ساق، أو يقوم إليه أهله فحذف المضاف أو أسند إليه قيامهم مجازاً.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُتَّعِينَ بِمَقْنَنٍ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتُمْ هَؤُلَاءَ﴾ (٤٣).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد به تشيته على ما هو عليه من أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو لكل من توهم غفله جهلاً بصفاته واعتراضاً بإمهاله. وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم وعن أبي عمرو بالنون. ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي تشخص فيه أبصارهم فلا تفر في أماكنها من هول ما ترى.

﴿مُتَّعِينَ﴾ أي مسرعين إلى الداعي، أو مقبلين بأبصارهم لا يطفون هيبة وخوفاً، وأصل الكلمة هو الإقبال على الشيء. ﴿مُقْنَنِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعيها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بل تثبت عيونهم شاخصة لا تطرف، أو لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم. ﴿وَأَفْنِدْتُمْ هَؤُلَاءَ﴾ خلاء أي خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة، ومنه يقال للأحمق وللجبان قلبه هواء أي لا رأي فيه ولا قوة قال زهير:

مَنْ الظَّالِمَانِ جَوْجُوهُ هَوَاءَ

وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ (٤٤).

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ يا محمد. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ يعني يوم القيامة، أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم، وهو مفعول ثانٍ لـ ﴿أَنْذِرْ﴾. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالشرك والتكذيب. ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أخر العذاب عنا أو ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ونحبب دعوتك. ﴿نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ جواب للأمر ونظيره ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ على إرادة القول و ﴿مَا لَكُمْ﴾ جواب القسم جاء بلفظ الخطاب على المطابقة دون الحكاية، والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت، ولعلمهم أقسموا بطراً وغروراً أو دل عليه حالهم حيث بنوا شديداً وأملاو بعيداً. وقيل أقسموا أن لا يتقلون إلى دار أخرى وأنهم إذا ماتوا لا يزالون على تلك الحالة إلى حالة أخرى كقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ مِّمُوتٍ﴾.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وثمود، وأصل سكن أن يعدى بغي كقر وغني وأقام، وقد يستعمل بمعنى التبويء فيجري مجراه كقولك سكنت الدار. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ بما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ من أحوالهم أي بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب، أو صفات ما فعلوا وفعل بهم التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ﴾ المستفرغ فيه جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل. ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ﴾ ومكتوب عنده فعلهم فهو مجازيهم عليه، أو عنده ما يكرههم به جزاء لمكرهم وإبطالاً له. ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ في العظم والشدة. ﴿لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ مسوى لإزالة الجبال. وقيل إن نافية واللام مؤكدة لها كقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ على أن الجبال مثل لأمر النبي ﷺ ونحوه. وقيل مخففة من الثقيلة والمعنى أنهم مكرروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً من آيات الله تعالى وشرائعه. وقرأ الكسائي ﴿لَيَرْزُلَ﴾ بالفتح والرفع على أنها المخففة واللام هي الفاصلة، ومعناه تعظيم مكرهم. وقرأ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرأ و «إن كاد مكرهم».

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٤٧﴾

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ مثل قوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ وأصله مخلف رسله وعده فقدم المفعول الثاني إيذاناً بأنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وإذا لم يخلف وعده أحداً فكيف يخلف رسله. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يماكر قادر لا يدافع. ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ لأوليائه من أعدائه.

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨﴾

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿يوم يأتيهم﴾ أو ظرف للانتقام، أو مقدر بذكر أو لا يخلف وعده. ولا يجوز أن ينتصب بمخلف لأن ما قبل إن لا يعمل فيما بعده. ﴿وَالسَّمَاءُ﴾ عطف على الأرض وتقديره والسموات غير السموات، والتبديل يكون في الذات كقولك: بدلت الدراهم دنائير وعليه قوله: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ وفي الصفة كقولك بدلت الحلقة خاتماً إذا أذبتها وغيّرت شكلها، وعليه قوله: ﴿يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ والآية تحتلها، فعن علي رضي الله تعالى عنه: تبدل أرضاً من فضة وسموات من ذهب، وعن ابن مسعود وأنس رضي الله تعالى عنهما: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها. ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «تبدل الأرض غير الأرض فتبسط وتمد مد الأديم العكاظي» لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً واعلم أنه لا يلزم على الوجه الأول أن يكون الحاصل بالتبديل أرضاً وسماء على الحقيقة، ولا يبعد على الثاني أن يجعل الله الأرض جهنم والسموات الجنة على ما أشعر به قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنِ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِينِ﴾. ﴿وَبَرَزُوا﴾ من أجدانهم ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ لمحاسبته ومجازاته، وتوصيفه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة كقوله:

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فَإِنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ لَوَاحِدٍ غَلَابَ لَا يَغَالِبُ فَلَا مُسْتَغَاثَ لِأَحَدٍ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا مُسْتَجَارَ.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ وَتَعَشَّىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ

﴿٥٠﴾﴾

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ﴾ قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم في العقائد والأعمال كقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أو قرنوا مع الشياطين أو مع ما اكتسبوا من العقائد الزائفة والملكات الباطلة، أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وهو يحتمل أن يكون تمثيلاً لمؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم وأرجلهم. ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ متعلق بـ ﴿مُقرَّنين﴾ أو حال من ضميره، والصفد القيد. وقيل الغل قال سلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صَفَاداً يَعْصُ بِسَاعِدٍ وَيَعْظُم سَاقُ
وأصله الشد.

﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قمصانهم. ﴿مِّنْ قِطْرَانٍ﴾ وجاء قطران لغتين فيه، وهو ما يتحلب من الأبهل فيطبخ فتناً به الإبل الجربى فيحرق الجرب بحدته، وهو أسود متين تشتعل فيه النار بسرعة تطفى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص، ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه وتتن ربحه مع إسراع النار في جلودهم، على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، ويحتمل أن يكون تمثيلاً لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديئة والهيات الوحشية فيجلب إليها أنواعاً من الغموم والآلام، وعن يعقوب ﴿قطران﴾ والقطر النحاس أو الصفر المذاب والآني المتناهي حره، والجملة حال ثانية أو حال من الضمير في ﴿مُقرَّنين﴾. ﴿وَتَعَشَّىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ وتغشاها لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خلقت فيها لأجله، كما تطلع على أفئدتهم لأنها فارغة عن المعرفة مملوءة بالجهالات ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ أي يفعل بهم ذلك ليجزي كل نفس مجزئة. ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أو كل نفس من مجزئة أو مطيعة لأنه إذا بين أن المجرمين يعاقبون لإجرامهم علم أن المطيعين يثابون لطاعتهم، ويتعين ذلك أن علق اللام بـ ﴿يُزَوِّا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه لا يشغله حساب عن حساب.

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن أو السورة أو ما فيه العظة والتذكير أو ما وصفه من قوله: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ﴾. ﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ كفاية لهم في الموعظة. ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ عطف على محذوف أي لينصحووا ولينذروا بهذا البلاغ، فتكون اللام متعلقة بالبلاغ، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: ولينذروا به أنزل أو تلي. وقرئ بفتح الياء من نذر به إذا علمه واستعد له.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ بالنظر والتأمل فيما فيه من الآيات الدالة عليه أو المنبهة على ما يدل عليه ﴿وَلِيَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فيرتدعوا عما يرددهم ويتدعوا بما يحظيهم، واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر لهذا

البلاغ ثلاث فوائد هي الغاية والحكمة في إنزال الكتب، تكميل الرسل للناس، واستكمال القوة النظرية التي تنتهي كمالها التوحيد، واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى، جعلنا الله تعالى من الفائزين بهما. وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة إبراهيم أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وعدد من لم يعبدها».

(١٥) سورة الحجر

ممكية وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يُؤْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى آيات السورة و ﴿الكتاب﴾ هو السورة، وكذا القرآن وتنكيهه للتفخيم أي آيات الجامع لكونه كتاباً كاملاً وقُرْآنًا يبين الرشد من الغي بياناً غريباً.

﴿رَبِّمَا يُؤْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حين عاينوا حال المسلمين عند نزول النصر أو حلول الموت أو يوم القيامة. وقرأ نافع وعاصم ﴿ربما﴾ بالتخفيف، وقرئ «ربما» بالفتح والتخفيف وفيه ثمان لغات ضم الراء وفتحها مع التشديد والتخفيف وبتاء التانيث ودونها، وما كافة تكفه عن الجور فيجوز دخوله على الفعل وحقه أن يدخل الماضي لكن لما كان المترقب في إخبار الله تعالى كالماضي في تحقيقه أجري مجراه. وقيل: ما نكرة موصوفة كقوله:

رَبِّمَا تَكْرَهُ النَّفْسُ مِنَ الْأَمْرِ رِأْيُهُ فُرْجَةٌ كَحُلِّ الْعُقَالِ

ومعنى التقليل فيه الإيذان بأنهم لو كانوا يودون الإسلام مرة فبالحري أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه كل ساعة. وقيل تدهشهم أهوال القيامة فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات تمنوا ذلك، والغيبة في حكاية ودادتهم كالغيبة في قولك: حلف بالله ليفعلن.

﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَرُّهُمْ﴾ دعهم. ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بديانهم. ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ ويشغلهم توقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه، والغرض إقناط الرسول ﷺ من ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان، وأن نصحتهم بعد اشتغال بما لا طائل تحته، وفيه إلزام للحجة وتحذير عن إثارة التمتع وما يؤدي إليه طول الأمل.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ، والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية، والأصل أن لا تدخلها الواو كقوله: ﴿إِلَّا لَهَا مَنْذُورٌ﴾ ولكن لما شابها صورتها الحال أدخلت تأكيداً للصوقها بالموصوف.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي وما يستأخرون عنه، وتذكير ضمير «أمة» فيه للحمل على

المعنى.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ نادوا به النبي ﷺ على التهكم، ألا ترى إلى ما نادوه له وهو قولهم. ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ونظير ذلك قول فرعون: ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، والمعنى إنك لتقول قول المجانين حين تدعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر، أي القرآن.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا﴾ ركب ﴿لو﴾ مع ﴿ما﴾ كما ركبنا مع لا لمعنيين امتناع الشيء لوجود غيره والتحضيض. ﴿بِالْمَلَائِكَةِ﴾ ليصدقوك ويصدقوك على الدعوة كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾. أو للعقاب على تكذيبنا لك كما أتت الأمم المكذبة قبل. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿مَا يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء ونصب ﴿الملائكة﴾ على أن الضمير لله تعالى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالنون وأبو بكر بالتاء والبناء للمفعول ورفع ﴿الملائكة﴾. وقرأ «تنزل» بمعنى تنزل. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فإنه لا يزيدكم إلا لبساً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة فإن منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان. وقيل الحق الوحي أو العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِذَا﴾ جواب لهم وجزاء لشروط مقدر أي ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم ولذلك أكدته من وجوه وقرره بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي من التحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزاً مبيناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل اللسان، أو نفى طرق الخلل إليه في الدوام بضممان الحفظ له كما نفى أن يطعن فيه بأنه المنزل له. وقيل الضمير في ﴿له﴾ للنبي ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ في فرقهم، جمع شيعه وهي الفرقة المتفقة على طريق ومذهب من شاعه إذا تبعه، وأصله الشيعاء وهو الحطب الصغار توقد به الكبار، والمعنى نبأنا رجالاً فيهم وجعلناهم رسلاً فيما بينهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما يفعل هؤلاء، وهو تسليه للنبي عليه الصلاة والسلام و﴿ما﴾ للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال، أو ماضياً قريباً منه وهذا على حكاية الحال الماضية.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُكُمْ﴾ ندخله. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والسلك إدخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط، والرمح في المطعون والضمير للاستهزاء. وفيه دليل على أن الله يوجد الباطل في قلوبهم. وقيل لـ ﴿الذكر﴾ فإن الضمير الآخر في قوله:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ له وهو حال من هذا الضمير، والمعنى مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين مكذباً غير مؤمن به، أو بيان للجملة المتضمنة له، وهذا الاحتجاج ضعيف إذ لا يلزم من تعاقب

الضمائر توافقها في المرجوع إليه ولا يتعين أن تكون الجملة حالاً من الضمير لجواز أن تكون حالاً من المجرمين، ولا ينافي كونها مفسرة للمعنى الأول بل يقويه. «وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» أي سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، أو يهلك من كذب الرسل منهم فيكون وعيداً لأهل مكة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ عَنَّا قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ﴾ (١٥).

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ أي على هؤلاء المقترحين. «بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ» يصعدون إليها ويربون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون، أو تصعد الملائكة وهم يشاهدونهم.

﴿لَقَالُوا﴾ من غلوهم في العناد وتشكيكهم في الحق. «إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا» سدت عن الإبصار بالسكر من السكر، ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف، أو حيرت من السكر ويدل عليه قراءة من قرأ «سكرت». «بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ» قد سحرنا محمد بذلك كما قالوه عند ظهور غيره من الآيات، وفي كلمتي الحصر والإضراب دلالة على البت بأن ما يروونه لا حقيقة له بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (١٧) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨).

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشر مختلفة الهيئات والخواص على ما دل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء. «وَزَيَّنَّاهَا» بالأشكال والهيئات البهية. «لِلنَّاظِرِينَ» الاعتباريين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرف في أمرها ويطلع على أحوالها.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ بدل من كل شيطان واستراق السمع اختلاسه سرّاً، شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات لما بينهم من المناسبة في الجوهر أو بالاستدلال من أوضاع الكواكب وحركاتها. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من كلها بالشهب. ولا يقدح فيه تكونها قبل المولد لجواز أن يكون لها أسباب أخرى. وقيل الاستثناء منقطع أي ولكن من استرق السمع. «فَأَتْبَعَهُ» فتابعه ولحقه. «شِهَابٌ مُّبِينٌ» ظاهر للمبصرين، والشهاب شعلة نار ساطعة، وقد يطلق للكوكب والسنان لما فيهما من البريق.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (١٩) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعِيشٍ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها. «وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ» جبالاً ثوابت. «وَأَنبَتْنَا فِيهَا» في الأرض أو فيها وفي الجبال. «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ» مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته، أو مستحسن، مناسب من قولهم كلام موزون، أو ما يوزن ويقدر أو له وزن في أبواب النعمة والمنفعة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٍ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس. وقرئ «معاش» بالهمزة على التشبيه بشمائل: «وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ» عطف على «معاش» أو على محل «لكم»، ويريد به العيال والخدم

والممالك وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظناً كاذباً، فإن الله يرزقهم وإياهم، وفذلكة الآية الاستدلال يجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء في الوضع محدثة فيا أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، مع جواز أن لا تكون كذلك على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد في الألوهية والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه، ثم بالغ في ذلك وقال:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١﴾

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ﴾ من بقاع القدرة. ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ حده الحكمة وتعلقت به المشيئة، فإن تخصيص بعضها بالإيجاد في بعض الأوقات مشتملاً على بعض الصفات والحالات لا بد له من مخصص حكيم.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ لَوَاقِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْنَا كُؤُومًا وَمَا أَنْشَرَهُ لَمْ يَخْزَنْ ۝٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ حوامل، شبه الريح التي جاءت بخير من إنشاء سحب ماطر بالحامل كما شبه ما لا يكون كذلك بالعميم، أو ملقحات للشجر ونظيره الطوائع بمعنى المطيحات في قوله:

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِفُ

وقرىء «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ» على تأويل الجنس. ﴿فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْفَقْنَا كُؤُومًا﴾ فجعلناه لكم سقياً. ﴿وَمَا أَنْشَرَهُ لَمْ يَخْزَنْ﴾ قادرين متمكنين من إخراجهم، نفى عنهم ما أثبتته لنفسه، أو حافظين في الغدران والعيون والآبار، وذلك أيضاً يدل على المدبر الحكيم كما تدل حركة الهواء في بعض الأوقات من بعض الجهات على وجه ينتفع به الناس، فإن طبيعة الماء تقتضي الغور فوقه دون حد لا بد له من سبب مخصص.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها. ﴿وَنُمِيتُ﴾ بإزالتها وقد أول الحياة بما يعم الحيوان والنبات وتكرير الضمير للدلالة على الحصر. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون إذا مات الخلاق كلها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ۝٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ من استقدم ولادة وموتاً ومن استأخر، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد، أو من تقدم في الإسلام والجهاد وسبق إلى الطاعة، أو تأخر لا يخفى علينا شيء من أحوالكم، وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته، فإن ما يدل على قدرته دليل على علمه. وقيل رغب رسول الله ﷺ في الصف الأول فازدحموا عليه فنزلت. وقيل إن امرأة حسناء كانت تصلي خلف رسول الله ﷺ فتقدم بعض القوم لثلاث ينظر إليها وتأخر بعض ليصبرها فنزلت.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لا محالة للجزاء، وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولي لحشرهم لا غير، وتصدير الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ لتحقيق الوعد والتنبيه على أن ما سبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة متقن في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝٢٦﴾ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ۝٢٧﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ من طين يابس يصلصل أي يصوت إذا نقر. وقيل هو من صلصل إذا اتنن تضعيف صل. ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ طين تغير واشود من طول مجاورة الماء، وهو صفة صلصال أي كائن ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾. ﴿مَسْنُونٍ﴾ مصور من سنة الوجه، أو منصوب لييس ويتصور كالجواهر المذابة تصب في القوالب، من السن وهو الصب كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف، فليس حتى إذا نقر صلصل، ثم غير ذلك طوراً بعد طور حتى سواه ونفخ فيه من روحه، أو متنن من سنتن الحجر على الحجر إذا حككته به، فإن ما يسيل بينهما يكون متناً ويسمى السنين.

﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن. وقيل إبليس ويجوز أن يراد به الجنس كما هو الظاهر من الإنسان، لأن تشعب الجنس لما كان من شخص واحد خلق من مادة واحدة كأن الجنس بأسره مخلوقاً منها وانتصابه بفعل يفسره. ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل خلق الإنسان. ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من نار الحر الشديد النافذ في المسام، ولا يمتنع خلق الحياة في الأجرام البسيطة كما لا يمتنع خلقها في الجواهر المجردة، فضلاً عن الأجساد المؤلفة التي الغالب فيها الجزء الناري، فإنها أقبل لها من التي الغالب فيها الجزء الأرضي، وقوله: ﴿مِنْ نَارٍ﴾ باعتبار الغالب كقوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ ومسايق الآية كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبية على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها إمكان الحشر، وهو قبول المواد للجمع والإحياء.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨) ﴿إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر وقت قوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقته وهيأته لنفخ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ إجرأ الريح في تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب وتفيض عليه الحيوانية فيسري حاملاً لها في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً وإضافة الروح إلى نفسه لما مر في «النساء». ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فاسقطوا له. ﴿سَاجِدِينَ﴾ أمر من وقع يقع.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١).

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ أكد بتأكيدين للمبالغة في التعميم ومنع التخصيص، وقيل أكد بالكل للإحاطة وبأجمعين للدلالة على أنهم سجدوا مجتمعين دفعة، وفيه نظر إذ لو كان الأمر كذلك كان الثاني حالاً لا تأكيداً.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ إن جعل منقطعاً اتصل به قوله: ﴿أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي ولكن إبليس أبى وإن جعل متصلاً كان استئنافاً على أنه جواب سائل قال هلا سجد.

﴿قَالَ يَبْنَائِيسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣٢) ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (٣٣).

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أي غرض لك في أن لا تكون. ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني وينافي حالي أن أسجد. ﴿لِشَيْءٍ﴾ جسماني كثيف وأنا ملك روحاني. ﴿خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخس العناصر وخلقته من نار وهي أشرفها، استقص آدم عليه السلام باعتبار النوع والأصل وقد سبق الجواب عنه في سورة «الأعراف».

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝٣٥﴾ .

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة أو زمر الملائكة . ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة، فإن من يطرد يرحم بالحجر أو شيطان يرحم بالشهب، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته .

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ هذا الطرد والإبعاد . ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه منتهى أمد اللعن، فإنه يناسب أيام التكليف ومنه زمان الجزاء وما في قوله: ﴿فَأَذِنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بمعنى آخر ينسى عنده هذه . وقيل إنما حد اللعن به لأنه أبعد غاية يضر بها الناس، أو لأنه يعذب فيه بما ينسى اللعن معه فيصير كالزائل .

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ فأخري، والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ . ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أراد أن يجد فسحة في الإغواء أو نجاة من الموت، إذ لا موت بعد وقت البعث فأجابه إلى الأول دون الثاني .

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله، أو انقراض الناس كلهم وهو النسخة الأولى عند الجمهور، ويجوز أن يكون المراد بالأيام الثلاثة يوم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبار فعبّر عنه أولاً بيوم الجزاء لما عرفته وثانياً بيوم البعث، إذ به يحصل العلم بانقطاع التكليف واليأس عن التضييل، وثالثاً بالمعلوم لوقوعه في الكلامين، ولا يلزم من ذلك أن لا يموت فلعله يموت أول اليوم ويبعث مع الخلائق في تضاعيفه، وهذه المخاطبة وإن لم تكن بواسطة لم تدل على منصب إبليس لأن خطاب الله له على سبيل الإهانة والإذلال .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الباء للقسمة وما مصدرية وجوابه . ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمعنى أقسم بإغوائك إياي لأزين لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله: ﴿أَخْلِدْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ وفي انعقاد القسم بأفعال الله تعالى خلاف . وقيل للسببية والمعتزلة أولوا الإغواء بالنسبة إلى الغي، أو التسبب له بأمره إياه بالسجود لآدم عليه السلام، أو بالإضلال عن طريق الجنة واعتذروا عن إمهال الله له، وهو سبب لزيادة غيه وتسليط له على إغواء بني آدم بأن الله تعالى علم منه ومن تبعه أنهم يموتون على الكفر ويصيرون إلى النار أمهل أو لم يمهل، وأن في إمهاله تعريضاً لمن خالفه لاستحقاق مزيد الثواب، وضعف ذلك لا يخفى على ذوي الالباب . ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأحملنهم أجمعين على الغواية .

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدي . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالكسر في كل القرآن أي الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى .

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ .

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ حق علي أن أراعيه . ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف عنه، والإشارة إلى ما تضمنه

الاستثناء وهو تخلص المخلصين من إغوائه، أو الإخلاص على معنى أنه طريق ﴿عَلَيَّ﴾ يؤدي إلى الوصول إلي من غير اعوجاج وضلال. وقرئ ﴿عَلَيَّ﴾ من علو الشرف.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أْتَيْتَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ تصديق لإبليس فيما استثناءه وتغيير الوضع لتعظيم ﴿المخلصين﴾، ولأن المقصود بيان عصمتهم وانقطاع مخالط الشيطان عنهم، أو تكذيب له فيما أوهم أن له سلطاناً على من ليس بمخلص من عباده، فإن انتهى تزيينه التحريض والتدليس كما قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعاً، وعلى الأول يدفع قول من شرط أن يكون المستثنى أقل من الباقي لإفضائه إلى تناقض الاستثناءين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لموعدهم الغاوين أو المتبعين. تأكيد للضمير أو حال والعامل فيها الموعد إن جعلته مصدراً على تقدير مضاف، ومعنى الإضافة إن جعلته اسم مكان فإنه لا يعمل.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة وهي: جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية، ولعل تخصيص العدد لانحصار مجامع المهلكات في الركود إلى المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، أو لأن أهلها سبع فرق. ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ﴾ من الاتباع. ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أفرز له، فأعلاها للموحدين العصاة، والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين، وقرأ أبو بكر «جزء» بالثقل. وقرئ «جز» على حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الزاي، ثم الوقف عليه بالتشديد ثم إجراء الوصل مجرى الوقف، ومنهم حال منه أو من المستكن في الظرف لا في «مقسوم» لأن الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ من اتباعه في الكفر والفواحش فإن غيرها مكفرة. ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكل واحد جنة وعين أو لكل عدة منهما كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ثم قوله: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ وقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية، وقرأ نافع وحفص وأبو عمرو وهشام ﴿وَعُيُونٍ﴾ والعيون بضم العين حيث وقع والباقون بكسر العين. ﴿أَدْخُلُوهَا﴾ على إرادة القول، وقرئ بقطع الهمزة وكسر الخاء على أنه ماض فلا يكسر التنوين. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمين أو مسلماً عليكم. ﴿ءَامِينَ﴾ من الآفة والزوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُحْرَجِينَ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَنَزَعْنَا﴾ في الدنيا بما ألف بين قلوبهم، أو في الجنة بتطبيب نفوسهم. ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم، أو من التحاسد على درجات الجنة ومراتب القرب. ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من الضمير في جنات، أو فاعل ادخلوها أو الضمير في آمين أو الضمير المضاف إليه، والعامل فيها معنى الإضافة وكذا قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ويجوز أن يكونا صفتين لإخواناً أو حال من ضميره لأنه بمعنى متصافين، وأن يكون متقابلين حالاً من المستقر في على سرر.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ استئناف أو حال بعد حال، أو حال من الضمير في متقابلين. ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فإن تمام النعمة بالخلود.

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (٥٠) وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١).

﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فذلك ما سبق من الوعد والوعيد وتقرير له، وفي ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده وفي عطف ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ على ﴿نَبِيٍّ عِبَادِي﴾ تحقيق لهما بما يعتبرون به.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٥٢) ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ (٥٣).
﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً أو سلمنا سلاماً. ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت، ولأنهم امتنعوا من الأكل والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره.
﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ وقرئ «لا تأجل» من أوجله «ولا تواجل» من واجله بمعنى أوجله. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل، فإن المبشر لا يخاف منه. وقرأ حمزة نبشرك بفتح النون والتخفيف من البشر. ﴿بِغُلَامٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام لقوله: ﴿وبشرناه بإسحاق﴾. ﴿عَلِيمٍ﴾ إذا بلغ.

﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ﴾ (٥٤) ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ (٥٥) ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦).

﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ تعجب من أن يولد له مع مس الكبر إياه، أو إنكار لأن يبشر به في مثل هذه الحالة وكذا قوله: ﴿فِيمَ بُشِّرُونَ﴾ أي فبأي أعجوبة تبشرون، أو فبأي شيء تبشرون فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء، وقرأ ابن كثير بكسر النون مشددة في كل القرآن على إدغام نون الجمع في نون الوقاية وكسرها وقرأ نافع بكسرها مخففة على حذف نون الجمع استئقلاً لاجتماع المثلثين ودلالة بإبقاء نون الوقاية وكسرها على الياء. ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ بما يكون لا محالة، أو باليقين الذي لا لبس فيه أو بطريقة هي حق وهو قول الله تعالى وأمره. ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ من الآيسين من ذلك فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشراً من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة ولذلك:

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ المخطئون طريق المعرفة فلا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو والكسائي ﴿يقنط﴾ بالكسر، وقرئ بالضم وماضيها قنط بالفتح.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٧) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٥٨).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أي فما شأنكم الذي أرسلتم لأجله سوى البشارة، ولغله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عدداً والبشارة لا تحتاج إلى العدد، ولذلك اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، أو لأنهم بشروه في تضاعيف الحال لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لا ابتدؤوا بها.

﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعني قوم لوط.

﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٩) ﴿إِلَّا أَمْرَانَهُمَا قَدْ رَزَّ إِنَّمَا لَمِنْ الْغَدِيرِ﴾ (٦٠).

﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾ إن كان استثناء من ﴿قوم﴾ كان منقطعاً إذ ال ﴿قوم﴾ مقيد بالإجرام وإن كان استثناء من الضمير في ﴿مجرمين﴾ كان متصلاً، والقوم والإرسال شاملين للمجرمين، و ﴿آءَالَ لُوطٍ﴾ المؤمنين به وكأن المعنى: إنا أرسلنا إلى قوم أجمع كلهم إلا آء لوط منهم لتهلك المجرمين وننجي آء لوط منهم، ويدل عليه قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي مما يعذب به القوم، وهو استئناف إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآء لوط جار مجرى خبر لكن إذا انقطع وعلى هذا جاز أن يكون قوله:

﴿إِلَّا أَمْرَانَهُمَا﴾ استثناء من ﴿آء لُوطٍ﴾، أو من ضميرهم، وعلى الأول لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين اللهم إلا أن يجعل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ اعتراضاً، وقرأ حمزة والكسائي ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ مخففاً. ﴿قَدْ رَزَّ﴾ إِنَّمَا لَمِنْ الْغَدِيرِ ﴿الباقين مع الكفرة لتهلك معهم. وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿قَدْ رَزَّ﴾ هنا وفي «النمل» بالتخفيف، وإنما علق والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم. ويجوز أن يكون ﴿قَدْ رَزَّ﴾ أجري مجرى قلنا لأن التقدير بمعنى القضاء قول، وأصله جعل الشيء على مقدار غيره وإسنادهم إياه إلى أنفسهم. وهو فعل الله سبحانه وتعالى لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾ (٦٢) ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٦٣) ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٦٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ﴾ تنكركم نفسي وتنفر عنكم مخافة أن تطرقوني

بشر.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما يسرك ويشفي لك من عدوك، وهو العذاب الذي توعدتهم به فيمترون فيه.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به.

﴿فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥).

﴿فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ﴾ فاذهب بهم في الليل، وقرأ الحجازيان بوصل الهمزة من السري وهما بمعنى وقرى «فسر» من السير. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ في طائفة من الليل وقيل في آخره قال:

افشحي الباب وأنظري في الشُّجُوم كَمَ عَلَيْنَا مِنْ قِطْعٍ لَّيْلِ بِهِم
﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وكن على أثرهم تدودهم وتسرع بهم وتطلع على حالهم. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لينظر ما وراءه فيرى من الهول ما لا يطيقه أو فيصيبه ما أصابهم أو ولا ينصرف أحدكم ولا يتخلف امرؤ لغرض فيصيبه العذاب. وقيل نهوا عن الالتفات ليوطنوا نفوسهم على المهاجرة. ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله بالمضي إليه، وهو الشام أو مصر فعدي ﴿وَامْضُوا﴾ إلى ﴿حَيْثُ﴾ و﴿تؤمرون﴾ إلى ضميره المحذوف على الاتساع.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (٦٦) ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٦٧).

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي وأوحينا إليه مقضياً، ولذلك عدي بآلى. ﴿ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ مبهم يفسره. ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾

﴿مَقْطُوعٌ﴾ ومحلّه النصب على البدل منه وفي ذلك تفخيم للأمر وتعظيم له. وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى: أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد. ﴿مُضْجِحِينَ﴾ داخلين في الصبح وهو حال من هؤلاء، أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى. ﴿إِنْ دَابَرِ هَؤُلَاءِ﴾ في معنى مدبري هؤلاء. ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ سدوم. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بأضياف لوط طمعاً فيهم.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفي فإن من أسى إلى ضيفه فقد أسى إليه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ركوب الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تذلونني بسببهم من الخزي وهو الهوان، أو لا تخجلوني فيهم من الخزية وهو الحياء.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧١﴾

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ على أن تجير منهم أحداً أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وسعه، أو عن ضيافة الناس وإنزالهم. ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساء القوم فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم، وفيه وجوه ذكرت في سورة «هود». ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ قضاء الوطر أو ما أقول لكم.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسم بحياة المخاطب والمخاطب في هذا القسم هو النبي عليه الصلاة والسلام وقيل لوط عليه السلام قالت الملائكة له ذلك، والتقدير لعمرك قسمي، وهو لغة في العمر يختص به القسم لإيثار الأخف فيه لأنه كثير الدور على ألسنتهم. ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ لفى غوايتهم أو شدة غلظتهم التي أزال عقولهم وتمييزهم بين خطئهم والصواب الذي يشار به إليهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون فكيف يسمعون نصحك. وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني صيحة هائلة مهلكة. وقيل صيحة جبريل عليه السلام. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا﴾ عالي المدينة أو عالي قراهم. ﴿سَافِلًا﴾ وصارت منقلبة بهم. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر أو طين عليه كتاب من السجل، وقد تقدم مزيد بيان لهذه القصة في سورة «هود».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿وَأَنَّا لَبَسِيلٌ مُقِيمٌ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفكرين المتفرسين الذين يتتبعون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

﴿وَأَنَّا﴾ وإن المدينة أو القرى. ﴿لَبَسِيلٌ مُقِيمٌ﴾ ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ لَكَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿فَأَنقَضْنَا مِنْهُمْ فِتْنَتَهُمَا لِيَأْمُرَ مُبِينٌ﴾ ﴿٧٩﴾

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ هم قوم شعيب كانوا يسكنون الغيضة فبعثه الله إليهم فكذبوه فأهلكوا بالظلة، و ﴿الأيكة﴾ الشجرة المتكاثفة.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالإهلاك. ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني سدوم والأيكة. وقيل الأيكة ومدين فإنه كان مبعوثاً إليهما فكان ذكر إحداهما منبهاً على الأخرى. ﴿لِيُؤْمِنَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لبطريق واضح، والإمام اسم ما يؤتم به فسمي به الطريق ومطمر البناء واللوح لأنها مما يؤتم به.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿وَإِنتَهُمُ عَائِلَتَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٨١﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ يعني ثمود، كذبوا صالحاً، ومن كذب واحداً من الرسل فكأنما كذب الجميع، ويجوز أن يكون المراد بالمرسلين صالحاً ومن معه من المؤمنين، و ﴿الحجر﴾ واد بين المدينة والشام يسكنونه.

﴿وَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني آيات الكتاب المنزل على نبيهم، أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها ودرها، أو ما نصب لهم من الأدلة.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها، أو من العذاب لفرط غفلتهم أو حسبانهم أن الجبال تحميهم منه.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ * ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة واستكثار الأموال والعدد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٦﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق لا يلائم استمرار الفساد ودوام الشرور، فلذلك اقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء وإزاحة فسادهم من الأرض. ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فينتقم الله لك فيها ممن كذبك. ﴿فاصصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ولا تعجل بانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم. وقيل هو منسوخ بآية السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم وبيده أمرك وأمرهم. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل ذلك إليه ليحكم بينكم، أو هو الذي خلقكم وعلم الأصلح لكم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح، وفي مصحف عثمان وأبي رضي الله عنهما «هو الخالق»، وهو يصلح للقليل والكثير و ﴿الخالق﴾ يختص بالكثير.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا﴾ سبع آيات وهي الفاتحة. وقيل سبع سور وهي الطوال وسابعتها «الأنفال» و «التوبة» فإنهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية. وقيل «التوبة» وقيل «يونس» أو الحواميم السبع. وقيل سبع صحائف وهي الأسباع. ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ بيان للسبع والمثاني من الشئ، أو الثناء فإن كل ذلك مثنى تكرر قراءته، أو ألفاظه أو قصصه ومواعظه أو مثنى عليه بالبلاغة والإعجاز، أو مثنى على الله بما هو أهله من صفاته

العظمى وأسمائه الحسنى، ويجوز أن يراد به «المثاني» القرآن أو كتب الله كلها فتكون «من» للتبعية. «وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ» إن أريد بالسبع الآيات أو السور فمن عطف الكل على البعض أو العام على الخاص، وإن أريد به الأسباع فمن عطف أحد الوصفين على الآخر.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك طموح راغب. «إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ» أصنافاً من الكفار، فإنه مستحق بالإضافة إلى ما أوتيته فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات. وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا وعظم صغيراً». وروي «أنه عليه الصلاة والسلام وافى بأذرعَات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها وأنفقناها في سبيل الله فقال لهم: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع». «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» أنهم لم يؤمنوا. وقيل إنهم المتمتعون به. «وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ» وتواضع لهم وارفق بهم.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أنذركم بيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ مثل العذاب الذي أنزلناه عليهم، فهو وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم الإثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ فأهلكهم الله تعالى يوم بدر أو الرهط الذين اقتسموا أي تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه الصلاة والسلام وقيل هو صفة مصدر محذوف يدل عليه. «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ» فإنه بمعنى أنزلنا إليك، والمقتسمون هم الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا عناداً: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل وبعضه باطل مخالف لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، أو أهل الكتاب آمنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على أن القرآن ما يقرؤون من كتبهم، فيكون ذلك تسلياً لرسول الله ﷺ، وقوله «لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ» الخ اعتراضاً ممدداً لها.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاء جمع عضة، وأصلها عضوة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء. وقيل فعلة من عضهته إذا بهته، وفي الحديث «لعن رسول الله ﷺ العاضة والمستعضة» وقيل أسحاراً وعن عكرمة العضة السحر، وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين أو مبتدأ خبره.

﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْتَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. «عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من التقسيم أو النسبة إلى السحر فنجازيهم عليه. وقيل هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي.

﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به، من صذغ بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، أو فافرق به بين الحق والباطل، وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة، والراجع محذوف أي بما تؤمر به من الشرائع. «وَأَعْرِضْ عَنِ

المُشْرِكِينَ ﴿ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَقُولُونَ .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بجمعهم وإهلاكهم . قيل كانوا خمسة من أشرف قريش : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، يبالغون في إيذاء النبي ﷺ والاستهزاء به فقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ : أمرت أن أكفيكمهم ، فأوماً إلى ساق الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظماً لأخذه ، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات ، وأوماً إلى أخمص العاص فدخل فيه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار إلى أنف عدي بن قيس فامتخط قبحاً فمات ، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات ، وإلى عيني الأسود بن المطلب فعمي .

﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فافزع إلى الله تعالى فيما نابك بالتسبيح والتحميد يكفك ويكشف الغم عنك ، أو فنزله عما يقولون حامداً له على أن هداك للحق . ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ من المصلين ، وعنه عليه الصلاة والسلام (أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) .

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ أي الموت فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق ، والمعنى فاعبده ما دمت حياً ولا تخل بالعبادة لحظة . عن رسول الله ﷺ « من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار والمستهزئين بمحمد ﷺ » والله أعلم .

(١٦) سورة النحل

مكية غير ثلاث آيات في آخرها وهي مائة و ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كانوا يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم كما فعل يوم بدر استهزاءً وتكديباً، ويقولون إن صح ما تقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت، والمعنى أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ وجل عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على وفق قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والباقون بالياء على تلوين الخطاب، أو على أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم، لما روي أنه لما نزلت أتى أمر الله فوثب النبي ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزلت ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بالوحي أو القرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، وذكره عقيب ذلك إشارة إلى الطريق الذي به علم الرسول ﷺ ما تحقق موعدهم به ودنوه وإزاحة لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنَزِّلُ﴾ من أنزل، وعن يعقوب مثله وعنه «تنزل» بمعنى تنزل. وقرأ أبو بكر «تنزل» على المضارع المني للمفعول من التنزيل. ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بأمره أو من أجله. ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أن يتخذة رسولاً. ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ بأن أنذروا أي اعلّموا من نذرت بكذا إذا علمته. ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أن الشأن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، أو خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وقوله ﴿فَاتَّقُونِ﴾ رجوع إلى مخاطبتهم بما هو المقصود، و ﴿أَنْ﴾ مفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول، أو مصدرية في موضع الجر بدلاً من الروح أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة. والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية. وأن النبوة عطائية والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته من حيث إنها تدل على أنه تعالى هو الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدّر على ذلك فيلزم التمانع.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾﴾

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أوجدهما على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة قدرها

وخصصها بحكمته. ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما. وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ﴾ جماد لا حس بها ولا حراك سيالة لا تحفظ الوضع والشكل. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ منطبق مجادل. ﴿مُبِينٌ﴾ للحجة أو خصيم مكافح لخالفه قائل: ﴿مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾. روي أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم رميم وقال: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رمم. فنزلت.

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿٦﴾.

﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ الإبل والبقر والغنم وانتصابها بمضمر يفسره. ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أو بالعطف على الإنسان، وخلقها لكم بيان ما خلقت لأجله وما بعده تفصيل له. ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ ما يدفأ به فيقي البرد. ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ نسلها ودرها وظهورها، وإنما عبر عنها بالمنافع ليتناول عوضها. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم والألبان، وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآي، أو لأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش، وأما الأكل من سائر الحيوانات المأكولة فعلى سبيل التداوي أو التفكه.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة. ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردونها من مراعيها إلى مرايحها بالعشي. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها بالغداة إلى المراعي فإن الألفية تتزين بها في الوقتين ويجل أهلها في أعين الناظرين إليها، وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملائى البطون حافلة الضروع، ثم تأوي إلى الحظائر حاضرة لأهلها. وقرئ «حيناً» على أن «تريحون» «وتسرحون» وصفان له بمعنى «تريحون» فيه «وتسرحون» فيه.

﴿وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ﴾ أحمالكم. ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ﴾ أي إن لم تكن الأنعام ولم تخلق فضلاً أن تحملوها على ظهوركم إليه. ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ إلا بكلفة ومشقة. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. وقيل المفتوح مصدر شق الأمر عليه وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف، كأنه ذهب نصف قوته بالتعب. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث رحمكم بخلقها لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ عطف على «الأنعام». ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ أي لتركبوها وتزينوا بها زينة. وقيل هي معطوفة على محل «لتركبوها» وتغيير النظم لأن الزينة بفعل الخالق والركوب ليس بفعله، ولأن المقصود من خلقها الركوب وأما التزين بها فحاصل بالعرض. وقرئ بغير واو وعلى هذا يحتمل أن يكون علة «لتركبوها» أو مصدراً في موضع الحال من أحد الضميرين أي: متزينين أو متزيناً بها، واستدل به على حرمة لحومها ولا دليل فيه إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً، ويدل عليه أن الآية مكية وعامة المفسرين والمحدثين على أن الحمر الأهلية حُرمت عام خبير. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصل الحيوانات التي يحتاج إليها غالباً احتياجاً ضرورياً أو غير ضروري أجمل غيرها، ويجوز أن يكون إخباراً بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، وأن يراد به ما خلق في الجنة والنار مما لم يخطر على قلب بشر.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩).

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق، أو إقامة السبيل وتعديلها رحمة وفضلاً، أو عليه قصد السبيل يصل إليه من يسلكه لا محالة يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم، كأنه يقصد الوجه الذي يقصده السالك لا يميل عنه، والمراد من ﴿السبيل﴾ الجنس ولذلك أضاف إليه الـ ﴿قصد﴾ وقال: ﴿وَمِنْهَا جَائِزٌ﴾ حائد عن القصد أو عن الله، وتغيير الأسلوب لأنه ليس بحق على الله تعالى أن يبين طرق الضلالة، أو لأن المقصود بيان سبيله وتقسيم السبيل إلى القصد والجائز إنما جاء بالعرض. وقرئ و «منكم جائزاً» أي عن القصد. ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ الله. ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ولو شاء هدايتكم أجمعين لهداكم إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتمام.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ (١٠).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من السحاب أو من جانب السماء. ﴿مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ ما تشربونه، ﴿وَلَكُمْ﴾ صلة ﴿أنزل﴾ أو خبر ﴿شراب﴾ و ﴿من﴾ تبعيضية متعلقة به، وتقديمها يوهم حصر المشروب فيه ولا بأس به لأن مياه العيون والآبار منه لقوله: ﴿فَسَلَكَ يَنْابِيعَ﴾ وقوله: ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه يكون شجر يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وقيل كل ما نبت على الأرض شجر قال: يَغْلِفُهَا اللَّخْمُ إِذَا عَزَّ الشَّجَرُ وَالْحَيْلُ فِي إِطْعَامِهَا اللَّخْمَ ضَرَرٌ ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ ترعون، من سامت الماشية وأسأماها صاحبها، وأصله السومة وهي العلامة لأنها تؤثر بالرعي علامات.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١).

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وقرأ أبو بكر بالنون على التفخيم. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وبعض كلها إذا لم ينبت في الأرض كل ما يمكن من الثمار، ولعل تقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لأنه سيصير غذاء حيوانياً هو أشرف الأغذية، ومن هذا تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على وجود الصانع وحكمته، فإن من تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها، فينشق أعلاها ويخرج منه ساق الشجرة، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقه. ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ولعل فصل الآية به لذلك.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ بأن هيأها لمنافعكم. ﴿مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ حال من الجميع أي نفعلكم بها حال كونها مسخرات لله تعالى خلقها ودبرها كيف شاء، أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه، وفيه إيذان بالجواب عما عسى أن يقال إن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب

وأوضاعها، فإن ذلك إن سلم فلا ريب في أنها أيضاً ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه المحتملة، فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعاً للدور والتسلسل، أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع. وقرأ حفص **«وَالْتَجُومُ مَسْخَرَاتُ»** على الابتداء والخبر فيكون تعميماً للحكم بعد تخصيصه ورفع ابن عامر **«الشمس والقمر»** أيضاً. **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»** جمع الآية، وذكر العقل لأنها تدل أنواعاً من الدلالة ظاهرة لذوي العقول السليمة غير محوجة إلى استيفاء فكر كأحوال النبات.

«وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ عَظْفٌ عَلَى اللَّيْلِ»، أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات. **«مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ»** أصنافه فإنها تتخالف باللون غالباً. **«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ»** أن اختلافها في الطباع والهيئات والمناظر ليس إلا بصنع صانع حكيم.

«وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (١٤).

«وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ» جعله بحيث يتمكنون من الانتفاع به بالركوب والاصطياد والغوص. **«لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا»** هو السمك، ووصفه بالطراوة لأنه أرطب للحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله، ولإظهار قدرته في خلقه عذبا طريا في ماء زعاق، وتمسك به مالك والثوري على أن من حلف أن لا يأكل لحما حنث بأكل السمك. وأجيب عنه بأن مبنى الأيمان على العرف وهو لا يفهم منه عند الإطلاق ألا ترى أن الله تعالى سمى الكافر دابة ولا يحنث الخالق على أن لا يركب دابة بركوبه. **«وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا»** كاللؤلؤ والمرجان أي تلبسها نساؤكم، فأسند إليهم لأنهم من جملتهم ولأنهم يتزين بها لأجلهم. **«وَتَرَى الْفُلْكَ»** السفن. **«مَوَاجِرَ فِيهِ»** جوارى فيه تشقه بحيزومها، من المخر وهو شق الماء. وقيل صوت جري الفلك. **«وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ»** من سعة رزقه بركوبها للتجارة. **«وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»** أي تعرفون نعم الله تعالى فتقومون بحقها، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام من حيث إنه جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش.

«وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (١٥).

«وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ» جبلاً رواسي. **«أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ»** كراهة أن تميل بكم وتضطرب، وذلك لأن الأرض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع، وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالأفلاك، أو أن تتحرك بأدنى سبب للتحريك فلما خلقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة. وقيل لما خلق الله الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال. **«وَأَنْهَارًا»** وجعل فيها أنهاراً لأن ألقى فيه معناه. **«وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»** لمقاصدكم، أو إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

«وَعَلَّمَنَّا وَإِلَّا تَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ» (١٦).

«وَعَلَامَاتٍ» معالم يستدل بها السابلة من جبل وسهل ورياح ونحو ذلك. **«وَالْتَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ»** بالليل في البراري والبحار، والمراد بالنجم الجنس ويدل عليه قراءة **«وَالْتَجْمِمْ»** بضم تين وضمة وسكون على الجمع. وقيل الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي، ولعل الضمير لقريش لأنهم كانوا كثيري الأسفار للتجارة مشهورين بالاهتداء في مسائرهم بالنجوم، وإخراج الكلام عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقحام الضمير

للتخصيص كأنه قيل: وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون، فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٧)

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ إنكار بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد بخلق ما عدد من مبدعاته لأن يساويه ويستحق مشاركته ما لا يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما، وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس تنبيهاً على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهاً بها، والمراد بمن لا يخلق كل ما عبد من دون الله سبحانه وتعالى مغلباً فيه أولو العلم منهم أو الأصنام، وأجروها مجرى أولي العلم لأنهم سموها آلهة ومن حق الإله أن يعلم، أو للمساكلة بينه وبين من يخلق أو للمبالغة وكأنه قيل: إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولي العلم فكيف بما لا علم عنده، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يحضر عنده بادني تذكر والتفات.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ

﴿١٩﴾

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوا عددها فضلاً أن تطبقوا القيام بشكرها، أتبع ذلك تعداد النعم والزام الحجة على تفرد باستحقاق العبادة تنبيهاً على أن وراء ما عدّد نعماً لا تنحصر، وأن حق عبادته تعالى غير مقدور. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها. ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يقطعها لتفريطكم فيه ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد وتزييف للشرك باعتبار العلم بعد تزييفه باعتبار القدرة.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

يَبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي والآلهة الذين تعبدونهم من دونه. وقرأ أبو بكر «يدعون» بالياء. وقرأ حفص ثلاثتها بالياء. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ لما نفى المشاركة بين من يخلق ومن لا يخلق بين أنهم لا يخلقون شيئاً لينتج أنهم لا يشاركونه، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافي الألوهية فقال: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأنهم ذوات ممكنة مفقورة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود.

﴿أَمْوَاتٌ﴾ هم أموات لا تعتبرهم الحياة، أو أموات حالاً أو مآلاً. ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ بالذات ليتناول كل معبود، والإله ينبغي أن يكون حياً بالذات لا يعتبره الممات. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ولا يعلمون وقت بعثهم، أو بعث عبدتهم فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم، والإله ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب مقدراً للثواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ تكرير للمدعى بعد إقامة الحجج. ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ

مُسْتَكْبِرُونَ». بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالباً للدلائل متأملاً فيما يسمع فينتفع به، والكافر بها يكون حالة بالعكس وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان إتباعاً للأسلاف وركوناً إلى المألوف، فإنه ينافي النظر والاستكبار عن اتباع الرسول وتصديقه والالتفات إلى قوله، والأول هو العمدة في الباب ولذلك رتب عليه ثبوت الآخرين.

«لَا جَرَمَ» حقاً. «أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» فيجازيهم، وهو في موضع الرفع بـ «جرم» لأنه مصدر أو فعل. «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» فضلاً عن الذين استكبروا عن توحيده أو اتباع الرسول.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِثُوا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ أَوْزَارُ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾»

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ» القائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون. «قَالُوا اسْطِغِثُوا الْأَوَّلِينَ» أي ما تدعون نزوله، أو المنزل أساطير الأولين، وإنما سموه منزلاً على التهكم أو على القرض أي على تقدير أنه منزل فهو أساطير الأولين لا تحقيق فيه، والقائلون قيل هم المقسمون.

«لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي قالوا ذلك إضلالاً للناس فحملوا أوزار ضلالهم كاملة فإن إضلالهم نتيجة رسوخهم في الضلال. «وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ» وبعض أوزار ضلال من يضلونهم وهو حصّة التسبب. «بِغَيْرِ عِلْمٍ» حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم أنهم ضلال، وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لا يعذرهم، إذ كان عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق والمبطل. «أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ» بشئ شيئاً يزرونه فعلهم.

«قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾»

«قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أي سوا منصوبات ليمكروا بها رسل الله عليهم الصلاة والسلام. «فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ» فأتاها أمره من جهة العمد التي بنوا عليها بأن ضعفت. «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ» وصار سبب هلاكهم. «وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» لا يحتسبون ولا يتوقعون، وهو على سبيل التمثيل. وقيل المراد به نمرود بن كنعان بنى الصرح ببابل سمكه خمسة آلاف ذراع ليرصد أمر السماء، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا.

«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾»

«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ» يذلهم أو يعذبهم بالنار كقوله تعالى: «وَبِئْسَ الْاُخْرَىٰ» «وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ» أضاف إلى نفسه استهزاء، أو حكاية لإضافتهم زيادة في توبيخهم. «الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ» تعادون المؤمنين في شأنهم. وقرأ نافع بكسر النون بمعنى تشاقوني فإن مشاقة المؤمنين كمشاقة الله عز وجل. «قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» أي الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو الملائكة. «إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ» الذلة والعذاب. «عَلَى الْكَافِرِينَ» وفائدة قولهم إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وحكايته لأن يكون لطفاً ووعظاً لمن سمعه.

«الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّلَامُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ وقرأ حمزة بالياء . وقرىء بإدغام التاء في التاء وموضع الموصول يحتمل الأوجه الثلاثة ﴿ظالمي أنفسهم﴾ بأن عرضوها للعذاب المخلد . ﴿فَالْقُوا السَّلَامَ﴾ فسالموا وأخبتوا حين عاينوا الموت . ﴿مَا كُنَّا﴾ قائلين ما كنا . ﴿نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ كفر وعدوان ، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ ﴿السَّلَامَ﴾ على أن المراد به القول الدال على الاستسلام . ﴿بَلَى﴾ أي فتجيبهم الملائكة بلى . ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه ، وقيل قوله : ﴿فَالْقُوا السَّلَامَ﴾ إلى آخر الآية استئناف ورجوع إلى شرح حالهم يوم القيامة ، وعلى هذا أول من لم يجوز الكذب يومئذ ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ بأننا لم نكن في زعمنا واعتقادنا عاملين سوءاً ، واحتمل أن يكون الراد عليهم هو الله تعالى ، أو أولوا العلم .

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل صنف بابها المعد له . وقيل أبواب جهنم أصناف عذابها . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿جهنم﴾ .

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ .

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يعني المؤمنين . ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي أنزل خيراً ، وفي نصبه دليل على أنهم لم يتلعمشوا في الجواب ، وأطبقوه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة . روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ ، فإذا جاء الوافد من المقتسمين قالوا له ما قالوا وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك . ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مكافأة في الدنيا . ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي ولثوابهم في الآخرة خير منها ، وهو عدة للذين اتقوا على قولهم ، ويجوز أن يكون بما بعده حكاية لقولهم بدلاً وتفسيراً لـ ﴿خَيْرٌ﴾ على أنه منتصب بـ ﴿قالوا﴾ . ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة فحذفت لتقدم ذكرها .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ .

وقوله : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح . ﴿يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ من أنواع المشتبهات ، وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة . ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ مثل هذا الجزاء يجزيهم وهو يؤيد الوجه الأول .

﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي لأنه في مقابلة ﴿ظالمي أنفسهم﴾ . وقيل فرحين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة ، أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس . ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يحقكم بعد مكروهه . ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حين تبعثون فإنها معدة لكم على أعمالكم . وقيل هذا التوفي وفاة الحشر لأن الأمر بالدخول حيثئذ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَاصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ .

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظر الكفار المار ذكرهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ القيامة أو العذاب المستأصل. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب. ﴿فَعَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأصابهم ما أصابوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بكفرهم ومعاصيهم المؤدية إليه. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسمها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاط بهم جزاؤه والحق لا يستعمل إلا في الشر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إنما قالوا ذلك استهزاء أو منعاً للبعثة والتكليف متمسكين بأن ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع فما الفائدة فيها، أو إنكاراً لقبح ما أنكر عليهم من الشرك وتحريم البحائر ونحوها محتجين بأنها لو كانت مستقبحة لما شاء الله صدورها عنهم ولشاء خلافه، ملجئاً إليه لا اعتذاراً إذ لم يعتقدوا قبح أعمالهم، وفيما بعده تنبيه على الجواب عن الشبهتين. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرّموا حله وردوا رسله. ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ إلا الإيلاغ الموضح للحق وهو لا يؤثر في هدى من شاء الله هداه لكنه يؤدي إليه على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً بل بأسباب قدرها له، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها سبباً لهدى من أراد اهتدائه وزيادة لضلال من أراد ضلاله، كالغذاء الصالح فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المنحرف ويفنيه بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦).

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ يأمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ وفقهم للإيمان بإرشادهم. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ إذ لم يوفقهم ولم يرد هداهم، وفيه تنبيه على فساد الشبهة الثانية لما فيه من الدلالة على أن تحقق الضلال وثباته بفعل الله تعالى وإرادته من حيث إنه قسم من هدى الله، وقد صرح به في الآية الأخرى. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا معشر قريش. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم لعلكم تعتبرون.

﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨).

﴿إِنْ تَحَرَّضَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ من يريد ضلاله وهو المعني بمن حقت عليه الضلالة. وقرأ غير الكوفيين ﴿لا يهدي﴾ على البناء للمفعول وهو أبلغ. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ من ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ عطف على ﴿وقال الذين أشركوا﴾ إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة في البت على فساده، ولقد رد الله عليهم أبلغ رد فقال: ﴿بَلَى﴾ يبعثهم. ﴿وَعَدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه ﴿بلى﴾ فإن يبعث موعداً من الله. ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازاً لامتناع الخلف في وعده، أو لأن البعث مقتضى حكمته. ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ

النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ» أنهم يبعثون إما لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التي جرت عادته بمراعاتها، وإما لقصور نظرهم بالمألوف فيتوهمون امتناعه، ثم إنه تعالى بين الأمرين فقال:

﴿لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ كَذِبِينَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠).

﴿لَيْسَ لَهُمُ﴾ أي يبعثهم «ليبين لهم». «الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ» وهو الحق. «وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ كَذِبِينَ» فيما يزعمون، وهو إشارة إلى السبب الداعي إلى البعث المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميز بين الحق والباطل والمنق والمبطل بالثواب والعقاب ثم قال:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهو بيان إمكانه وتقديره أن تكوين الله بمحض قدرته ومشيته لا توقف له على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة ومثال أمكن له تكوينها إعادة بعده، ونصب ابن عامر والكسائي ها هنا وفي «يس» فيكون عطفاً على نقول أو جواباً للأمر.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ هم رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون ظلمهم قريش فهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وبعضهم إلى المدينة، أو المحبوسون المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله ﷺ وهم بلال وصهيب وخباب وعمار وعابس وأبو جندل وسهيل رضي الله تعالى عنهم، وقوله. «فِي اللَّهِ» أي في حقه ولوجهه. «لَنَبْوِثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» مباءة حسنة وهي المدينة أو تبوئة حسنة. «وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» مما يعجل لهم في الدنيا. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل. «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزدادوا في اجتهادهم وصبرهم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الشدائد كاذى الكفار ومفارقة الوطن، ومحله النصب أو الرفع على المدح. «وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» منقطعين إلى الله مفوضين إليه الأمر كله.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٤).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، أي جرت السنة الإلهية بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشراً يوحي إليه على السنة الملائكة، والحكمة في ذلك قد ذكرت في سورة «الأنعام» فإن شككتهم فيه. «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ» أهل الكتاب أو علماء الأخبار ليعلموكم. «إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وفي الآية دليل على أنه تعالى لم يرسل امرأة ولا ملكاً للدعوة العامة وقوله: «جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رِسَالاً» معناه رسلاً إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقيل لم يبعثوا إلى الأنبياء إلا متمثلين بصورة الرجال. ورد بما روي: أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل صلوات الله عليه على صورته التي هو عليها مرتين. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي أرسلناهم بالبينات والزبر أي المعجزات والكتب، كأنه جواب: قائل قال: بم أرسلوا؟ ويجوز أن يتعلق بما أرسلنا داخلًا في الاستثناء مع رجالاً أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط، أو صفة لهم أي رجالاً ملتبسين بالبينات، أو بيوحي على المفعولية أو الحال من القائم مقام فاعله على أن قوله فاسألوا اعتراض، أو بلا تعلمون على أن الشرط للتبكيك والإلزام. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن وإنما سمي ذكراً لأنه موعظة وتنبية. ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذكر بتوسط إنزاله إليك مما أمروا به ونهوا عنه، أو مما تشابه عليهم والتبيين أعم من أن ينص بالمقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس. ودليل العقل. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وإرادة أن يتأملوا فيه فيتنبهوا للحقائق.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي المكرات السيئات وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا برسول الله ﷺ وراموا صد أصحابه عن الإيمان. ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بغتة من جانب السماء كما فعل بقوم لوط.

﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي متقلبين في مسائرهم ومتاجرهم. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ على مخافة بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوفون، أو على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأحوالهم حتى يهلكوا من تخوفته إذا تنقصته. روي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا التخوف التنقص، فقال هل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تَخَوُّفُ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرْداً كَمَا تَخَوُّفُ عُودِ النَّبْعَةِ السُّفْنِ

فقال عمر عليكم بديوانكم لا تضلوا قالوا: وما ديواننا قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾

﴿٤٨﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ استفهام إنكار أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع فما بالهم لم يتفكروا فيها ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه، وما موصولة مبهمة ببيانها. ﴿يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالُهُ﴾ أي أو لم ينظروا إلى المخلوقات التي لها ظلال متفتحة. وقرأ حمزة والكسائي «تَرَوْا» بالتاء وأبو عمرو «تفتيؤ» بالتاء. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ عن أيمنها وعن شمائلها أي عن جانبي كل واحد منها، استعارة من يمين الإنسان وشماله، ولعل توحيد اليمين وجمع الشمائيل باعتبار اللفظ والمعنى كتوحيد الضمير في ظلاله وجمعه في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وهما حالان من الضمير في ظلاله، والمراد من السجود الاستسلام سواء كان بالطبع أو الاختيار، يقال سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل وسجد البعير إذا طأطأ رأسه ليركب أو سجداً حال من الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حال من الضمير. والمعنى يرجع الظلال بارتفاع الشمس وانحدارها، أو باختلاف مشارقها ومغاربها بتقدير الله تعالى من جانب إلى جانب منقاداً لما قدر لها من التفتيؤ، أو واقعة على الأرض ملتصقة بها على هيئة الساجد والأجرام في أنفسها أيضاً داخرة أي صاغرة منقاداً لأفعال الله تعالى

فيها، وجمع ﴿داخرون﴾ بالواو لأن من جملتها من يعقل، أو لأن الدخور من أوصاف العقلاء. وقيل المراد بـ ﴿اليمين والشمائل﴾ يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لأن الكواكب تظهر منه آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله هو الجانب الغربي المقابل له من الأرض، فإن الظلال في أول النهار تبتدىء من المشرق واقعة على الربع الغربي من الأرض، وعند الزوال تبتدىء من المغرب واقعة على الربع الشرقي من الأرض.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ٤٩﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥٠﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يقاد انقياداً بعم الانقياد لإرادته وتأثيره طبعاً والانقياد لتكليفه وأمره طوعاً ليصح إسناده إلى عامة أهل السموات والأرض وقوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيان لهما لأن الديب هو الحركة الجسمانية سواء كانت في أرض أو سماء. ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ عطف على الميين به عطف جبريل على الملائكة للتعظيم، أو عطف المجردات على الجسمانيات، وبه احتج من قال إن الملائكة أرواح مجردة أو بيان لما في الأرض والملائكة تكرير لما في السموات وتعيين له إجلالاً وتعظيماً، أو المراد بها ملائكتها من الحفظه وغيرهم، و﴿مَا﴾ لما استعمل للعقلاء كما استعمل لغيرهم كان استعماله حيث اجتمع القبيلان أولى من إطلاق من تغليبا للعقلاء. ﴿وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾. والجملة حال من الضمير في ﴿لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾، أو بيان له وتقرير لأن من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من الطاعة والتدبير، وفيه دليل على أَنَّ الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ٥١﴾ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ٥٢﴾ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الْدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٣﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أو إيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهية كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحداية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية. ﴿فَإِنِّي فَارْهَبُونَ﴾ نقل من الغيبة إلى التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحاً بالمقصود فكانه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ أي الطاعة. ﴿وَاصِباً﴾ لازماً لما تقرر من أنه الإله وحده والحقيق بأن يرهب منه. وقيل ﴿وَاصِباً﴾ من الوصب أي وله الدين ذا كلفة. وقيل الدين الجزاء أي وله الجزاء دائماً لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر. ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ولا ضار سواء كما لا نافع غيره كما قال تعالى:

﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْتَمِرَ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ٥٤﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِحْتُمْ بِمَنِّكُمْ يَسُرُّكُمْ ٥٥﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَالَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٥٥﴾.

﴿وَمَا يَكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي وأي شيء اتصل بكم من نعمة فهو من الله، ﴿وما﴾ شرطية أو موصولة متضمنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله لا لحصولها منه. ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ فما تتضرعون إلا إليه، والجوار رفع الصوت في الدعاء والاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ﴾ وهم كفاركم. ﴿يَرْبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بعبادة غيره، هذا إذا كان الخطاب عاماً، فإن كان خاصاً بالمشركون كان من للبيان كأنه قال: إذا فريق وهم أنتم، ويجوز أن تكون من للتبعيض على أن يعتبر بعضهم كقوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أمر تهديد. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أغلظ وعيده، وقرئ ﴿فيمتعو﴾ مبنياً للمفعول عطفاً على ﴿ليكفروا﴾، وعلى هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له من قولهم، أو تعجب منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات على أن الجعل بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعد تجويزه في المعطوف.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد فيكون الضمير ﴿لما﴾، أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم على أن العائد إلى ما محذوف، أو لجهلهم على أن ما مصدرية والمجموع له محذوف للعلم به. ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الزروع والأنعام. ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ من أنها آلهة حقيقة بالتقرب إليها وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعة وكنانة يقولون الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له من قولهم، أو تعجب منه. ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، ويجوز فيما يشتهون الرفع بالابتداء والنصب بالعطف على البنات على أن الجعل بمعنى الاختيار، وهو وإن أفضى إلى أن يكون ضمير الفاعل والمفعول لشيء واحد لكنه لا يبعد تجويزه في المعطوف.

﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي يمسككم على هوب أم يدسكم في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴿٥٩﴾.

﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ﴾ أخبر بولادتها. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾ صار أو دام النهار كله. ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة والحياء من الناس. واسوداد الوجه كناية عن الاعتماد والتشوير. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً من المرأة.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم. ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من سوء المبرش به عرفاً. ﴿أَيْمِسْكُهُ﴾ محدثاً نفسه متفكراً في أن يتركه. ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ ذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يخفيه فيه ويشده، وتذكير الضمير للفظ ﴿ما﴾ وقرئ بالتأنيث فيها. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لمن تعالى عن الولد ما هذا محله عندهم.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء وهي الحاجة إلى الولد المنادية بالموت واستبقاء الذكور استظهاراً بهم وكراهة الإناث وأدهن خشية الإملاق. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ وهو الوجوب الذاتي والغنى المطلق والوجود الفائق والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المنفرد بكمال القدرة والحكمة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

﴿وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ بكفرهم ومعاصيهم. ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض، وإنما أضمرها من غير ذكر للدلالة الناس والدابة عليها. ﴿مِنْ ذَاتِهِ﴾ قط بشؤم ظلمهم. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: كاد الجعل يهلك في حجره بذنوب ابن آدم أو من دابة ظالمة. وقيل لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء. ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سماه لأعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ بل هلكوا أو عذبوا حينئذ لا محالة، ولا يلزم من عموم الناس وإضافة الظلم إليهم أن يكونوا كلهم ظالمين حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم وصدر عن أكثرهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْقَىٰ لَا جَرَماً أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مَقَرُّونَ﴾ (٦٢).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ما يكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة، والاستخفاف بالرسول وأراذل الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ﴾ مع ذلك وهو. ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي عند الله كقوله: «ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» وقرئ «الكذب» جمع كذوب صفة لللسنة. ﴿لَا جَرَماً أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا مَقَرُّونَ﴾ رد لكلامهم وإثبات لضده. ﴿وَأَنَّهُمْ مُّقَرَّبُونَ﴾ مقدمون إلى النار من أفرطته في طلب الماء إذا قدمته. وقرأ نافع بكسر الراء على أنه من الإفراط في المعاصي. وقرئ بالتشديد مفتوحاً من فرطته في طلب الماء ومكسوراً من الفريط في الطاعات.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣).

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فأصروا على قبائحها وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا، وعبر باليوم عن زمانها أو فهو وليهم حين كان يزين لهم، أو يوم القيامة على أنه حكاية حال ماضية أو آتية، ويجوز أن يكون الضمير لقريش أي زين الشيطان للكفرة المتقدمين أعمالهم وهو ولي هؤلاء اليوم يغريهم ويغويهم، وإن يقدر مضاف أي فهو ولي أمثالهم، والولي القرين أو الناصر فيكون نفعاً للناصر لهم على أبلغ الوجوه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في القيامة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معطوفان على محل لتبين فإنهما فعلا المنزل بخلاف التبيين. ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وإنصاف.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِئْتَانًا مِّن بَيْنِ يَدَيْنِ يَذَرَ بَنَاتًا خَالِصَاتٍ سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم. ﴿تُنْقِضُكُمْ بِهَا فِي بَطُونِهِ﴾ استئناف لبيان العبرة، وإنما ذكر الضمير ووحدها هنا للفظ وأثته في سورة «المؤمنين» للمعنى، فإن «الأنعام» اسم

جمع ولذلك عده سبويه في المفردات المبنية على أفعال كأخلاق وأكياس، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض فإن اللبن لبعضها دون جميعها أو لواحد أو له على المعنى، فإن المراد به الجنس. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب «نسقيكم» بالفتح هنا وفي «المؤمنين». ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ فإنه يخلق من بعض أجزاء الدم المتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرت، وهو الأشياء المأكولة المنهضة بعض الانهضام في الكرش. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن البهيمة إذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفله فرثاً وأوسطه لبناً وأعلاه دماً، ولعله إن صح فالمراد أن أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذي البدن، لأنهما لا يتكونان في الكرش بل الكبد يجذب صفاوة الطعام المنهضم في الكرش، ويبقى ثقله وهو الفرت ثم يمسكها ريشاً يهضمها هضمًا ثانياً فيحدث أخلطاً أربعة معها مائة، فتميز القوة المميزة تلك المائة بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية والمرارة والطحال، ثم يوزع الباقي على الأعضاء بحسبها فيجري إلى كل حقه على ما يليق به بتقدير الحكيم العليم، ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها، فيندفع الزائد أولاً إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع، فيبيض بمجاورة لحومها الغددية البيض فيصير لبناً، ومن تدبر صنع الله تعالى في إحداث الأخلط والألبان وإعداد مقارها ومجارها والأسباب المولدة لها والقوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به، اضطر إلى الإقرار بكمال حكمته وتناهي رحمته، و ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما في بطونها والثانية ابتدائية كقولك: سقيت من الحوض، لأن بين الفرت والدم المحل الذي يتبدأ منه الإسقاء وهي متعلقة بـ «نسقيكم» أو حال من «لبناً» قدم عليه لتكثيره وللتنبية على أنه موضع العبرة. «خَالِصًا» صافياً لا يستصحب لون الدم ولا رائحة الفرت، أو مصفى عما يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضييق مخرجه. «سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» سهل المرور في حلقهم، وقرئ «سَيْغًا» بالتشديد والتخفيف.

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٧).

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ متعلق بمحذوف أي ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أي من عصيرهما، وقوله: «نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا» استئناف لبيان الإسقاء أو بـ «تتخذون»، ومنه تكرير للظرف تأكيداً أو خبر لمحذوف صفته «تتخذون»، أي ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه، وتذكير الضمير على الوجهين الأولين لأنه للمضاف المحذوف الذي هو العصير، أو لأن الـ «ثمرات» بمعنى الشر والـ «سكر» مصدر سمي به الخمر. «وَرِزْقًا حَسَنًا» كالتمر والزبيب والدبس والخل، والآية إن كانت سابقة على تحريم الخمر فدالة على كراهتها وإلا فجاءة بين العتاب والمنة. وقيل الـ «سكر» النبيذ وقيل الطعم قال:

جَعَلْتُ أَغْرَاضَ الْكَرَامِ سُكْرًا

أي تنقلت بأغراضهم. وقيل ما يسد الجوع من السكر فيكون الرزق ما يحصل من أثمانه. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل في الآيات.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (١٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ (١٩).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ألهمها وقذف في قلوبها، وقرئ «إلى النحل» بفتحيتين. «إِنِ اتَّخِذِي» بأن اتخذي ويجوز أن تكون «أَنْ» مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيت الضمير على المعنى فإن النحل مذكر. «مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» ذكر بحرف التبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل

شجر وكل ما يعرش من كرم أو سقف، ولا في كل مكان منها وإنما سمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان، لما فيه من حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بالآلات وأنظار دقيقة، ولعل ذكره لتنبية على ذلك وقرىء «بيوتاً» بكسر الباء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر «يعرشون» بضم الراء.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من كل ثمرة تشتهينها مرها وحلوها. «فاسلكي» ما أكلت. «سُبُلَ رَبِّكَ» في مسالكه التي يحيل فيها بقدرته النور المر عسلاً من أجوافك، أو «فاسلكي» الطرق التي ألهمك في عمل العسل، أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك «سُبُلَ رَبِّكَ» لا تتوعر عليك. ولا تلتبس. «ذُللاً» جمع ذلول وهي حال من السبل، أي مذلة ذللها الله تعالى وسهلها لك، أو من الضمير في اسلكي أي وأنت ذلل منقادة لما أمرت به. «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا» كأنه عدل به عن خطاب النحل إلى خطاب الناس، لأنه محل الإنعام عليهم والمقصود من خلق النحل وإلهامه لأجلهم. «شَرَابٌ» يعني العسل لأنه مما يشرب، واحتج به من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلاً، ثم تقىء ادخاراً للشتاء، ومن زعم أنها تلتقط بأفواها أجزاء طلية حلوة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادخاراً فإذا اجتمع في بيوتها شيء كثير منها كان العسل فسر البطون بالأفواه. «مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ» أبيض وأصفر وأحمر وأسود بحسب اختلاف سن النحل والفصل. «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية، أو مع غيره كما في سائر الأمراض، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه، مع أن التنكير فيه مشعر بالتبويض، ويجوز أن يكون للتعظيم. وعن قتادة أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه فقال: «اسقه العسل»، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فما نفع فقال: «اذهب واسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك». فسقاه فشفاه الله تعالى فبرأ فكانما أنشط من عقال. وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله من أحوال النحل. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلمها ذلك ويحملها عليه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بآجال مختلفة. «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ» يعاد. «إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ» أخسه يعني

﴿٧٠﴾

الهرم الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل. وقيل هو خمس وتسعون سنة وقيل خمس وسبعون. «لِكَيْلَا يُغْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا» ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم. «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَقَادِيرِ أَعْمَارِكُمْ». «قَدِيرٌ» يميز الشاب النشط ويبقي الهرم الفاني، وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركب أبيتهم وعدل أمرجتهم على قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضى الطباع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ.

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَدْوٍ يَحْتَدُونَ﴾ ﴿٧١﴾

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فمنكم غني ومنكم فقير، ومنكم موال يتولون رزقهم ورزق غيرهم ومنكم ممالك حالهم على خلاف ذلك. «فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ» بمعطي رزقهم. «عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» على ممالكهم فإن ما يردون عليهم رزقهم الذي جعله الله في أيديهم. «فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ» فالموالي والممالك سواء في أن الله رزقهم، فالجملة لازمة للجملة المنفية أو مقرر لها، ويجوز أن تكون

واقعة موقع الجواب كأنه قيل: فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فيستووا في الرزق، على أنه رد وإنكار على المشركين فإنهم يشركون بالله بعض مخلوقاته في الألوهية ولا يرضون أن يشاركهم عبيدهم فيما أنعم الله عليهم فيساورهم فيه. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث يتخذون له شركاء، فإنه يقتضي أن يضاف إليهم بعض ما أنعم الله عليهم ويجحدوا أنه من عند الله، أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج بعدما أنعم الله عليهم بإيضاحها، والباء لتضمن الجحود معنى الكفر. وقرأ أبو بكر «تجحدون» بالتاء لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ و﴿فَضَلَ بَعْضَكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (٧٦).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي من جنسكم لتأنسوا بها ولتكون أولادكم مثلكم. وقيل هو خلق حواء من آدم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً﴾ وأولاد أولاد أو بنات، فإن الحافذ هو المسرع في الخدمة والبنات يخدمن في البيوت أتم خدمة. وقيل هم الأختان على البنات. وقيل الرائب ويجوز أن يراد بها البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من اللذائذ أو الحلالات و﴿مِنْ﴾ للتبويض فإن المرزوق في الدنيا أنموذج منها. ﴿أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيبات ما يحرم كالبخائر والسوائب. ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام، أو حرموا ما أحل الله لهم، وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام أو لإيهام التخصيص مبالغة، أو للمحافظة على الفواصل.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٦). ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ من مطر ونبات، و﴿رِزْقًا﴾ إن جعلته مصدراً فشيئاً منصوب به وإلا فبدل منه. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يملكوه أو لا استطاعة لهم أصلاً، وجمع الضمير فيه وتوحيده في ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ لأن ﴿مَا﴾ مفرد في معنى الألهة، ويجوز أن يعود إلى الكفار أي ولا يستطيع هؤلاء مع أنهم أحياء متصرفون شيئاً من ذلك فكيف بالجماد.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٧). ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تجعلوا له مثلاً تشركونه به، أو تقيسونه عليه فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تعولون عليه من القياس على أن عبادة عبيد الملك أدخل في التعظيم من عبادته وعظم جرمكم فيما تفعلون. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو تعليل للنهي، أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم دون نصه، ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الأمثال فإنه يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون. ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلاً لنفسه ولمن عبد دونه فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ مثل ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً ومثل نفسه بالحر المالك الذي رزقه الله - لا كثيراً فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق.

وقيل هو تمثيل للكافر المنخدول والمؤمن الموفق، وتقييد العبد بالملوكية للتمييز عن الحر فإنه أيضاً عبد الله ويسلب القدرة للتمييز عن المكاتب والمأذون وجعله قسيماً للمالك المتصرف يدل على أن المملوك لا يملك، والأظهر أن ﴿من﴾ نكرة موصوفة ليطابق ﴿عبداً﴾، وجمع الضمير في ﴿يستون﴾ لأنه للجنسين فإن المعنى هل يستوي الأحرار والعبيد؟ ﴿الحمد لله﴾ كل الحمد له، لا يستحقه غيره فضلاً عن العبادة لأنه مولى النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون نعمه إلى غيره ويعبدونه لأجلها.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس لا يفهم ولا يفهم. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ من الصنائع والتدابير لنقصان عقله. ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ عيال وثقل على من يلي أمره. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ حيثما يرسله مولاه في أمر، وقرئ «يوجه» على البناء للمفعول و «يوجه» بمعنى يتوجه كقوله أينما أوجه ألق سعداً «وتوجه» بلفظ الماضي. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنجح وكفاية مهم. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن هو فهم منطوق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بخبرهم على العدل الشامل لمجامع الفضائل. ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو في نفسه على طريق مستقيم لا يتوجه إلى مطلب إلا ويلغيه بأقرب سعي، وإنما قابل تلك الصفات بهذين الوصفين لأنهما كمال ما يقابلهما، وهذا تمثيل ثان ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام لإبطال المشاركة بينه وبينها أو للمؤمن والكافر.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يختص به علمه لا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس. وقيل يوم القيامة فإن علمه غائب عن أهل السموات والأرض. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته. ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إلا كرجع الطرف من أعلى الحديقة إلى أسفلها. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أو أمرها أقرب منه بأن يكون في زمان نصف تلك الحركة بل في الآن الذي تبدى فيه، فإنه تعالى يحيي الخلائق دفعة وما يوجد دفعة كان في آن، و ﴿أَوْ﴾ للتخيير أو بمعنى بل. وقيل معناه أن قيام الساعة وإن تراخى فهو عند الله كالشيء الذي تقولون فيه هو كلمح البصر أو هو أقرب مبالغة في استقرايه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر أن يحيي الخلائق دفعة كما قدر أن أحياهم متدرجاً، ثم دل على قدرته فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وقرأ الكسائي بكسر الهمزة على أنه لغة أو اتباع لما قبلها، وحمزة بكسرهما وكسر الميم والهاء مزيدة مثلها في إهراق. ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ جهالاً مستصحيين جهل الجمادية. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أداة تتعلمون بها فتحسون بمشاعرهم جزئيات الأشياء فتدركونها ثم تنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها يتكرر الإحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية، وتمكنوا من تحصيل المعالم الكسبية بالنظر فيها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم عليكم طوراً بعد طور فتشكروه.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَزُوا إِلَى الطَّيْرِ﴾ قرأ ابن عامر وحزمة ويعقوب بالتاء على أنه خطاب للعامة. ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المؤاتية له. ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ في الهواء المتباعد من الأرض. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه. ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ فإن ثقل جسدها يقتضي سقوطها ولا علاقة فوقها ولا دعامة تحتها تمسكها. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة يمكن معها الطيران، وخلق الجو بحيث يمكن الطيران فيه وإساقها في الهواء على خلاف طبعها. ﴿لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المستفعدون بها.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينَ﴾ (٨٠).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر، فعل بمعنى مفعول. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ هي القباب المتخذة من الأدم، ويجوز أن يتناول المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ وقت ترحالكم. ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ ووضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ الصوف للضائفة والوبر للابل والشعر للمعز، وإضافتها إلى ضمير ﴿الأنعام﴾ لأنها من جملتها. ﴿أَثْنَا﴾ ما يلبس ويفرش. ﴿وَمِئَةً﴾ ما يتجر به. ﴿إِلَى حِينَ﴾ إلى مدة من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة، أو إلى حين، مما تكم أو إلى أن تقضوا منه أوطاركم.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الشجر والجبل والأبنية وغيرها. ﴿ظِلَالًا﴾ تتقون بها حر الشمس. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ مواضع تسكنون بها من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها جمع كن. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها. ﴿تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ خصه بالذكر اكتفاء بأحد الضدين أو لأن وقاية الحر كانت أهم عندهم. ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدروع والجواشن، والسرابال يعم كل ما يلبس. ﴿كَذَلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت. ﴿يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ أي تنظرون في نعمه فتؤمنون به وتنقادون لحكمه. وقرئ «تُسْلِمُونَ» من السلامة أي تشكرون فتسلمون من العذاب، أو تنظرون فيها فتسلمون من الشرك. وقيل «تُسْلِمُونَ» من الجراح بلبس الدروع.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ

﴿٨٣﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ولم يقبلوا منك. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ فلا يضرك فإنما عليك البلاغ وقد بلغت، وهذا من إقامة السبب مقام المسبب.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعرف المشركون نعمة الله التي عددها عليهم وغيرها حيث يعترفون بها ويأنها من الله تعالى. ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم إنها بشفاعه آلهتنا، أو بسبب كذا أو بأعراضهم عن أداء حقوقها. وقيل نعمة الله نبوة محمد ﷺ عرفوها بالمعجزات ثم أنكروها عناداً ومعنى ثم استبعاد الإنكار بعد المعرفة. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون عناداً، وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرف الحق

لنقصان العقل أو التفريط في النظر، أو لم تقم عليه الحجة لأنه لم يبلغ حد التكليف وإما لأنه يقام مقام الكل كما في قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر. ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم. وقيل في الرجوع إلى الدنيا. و ﴿ثُمَّ﴾ لزيادة ما يحق بهم من شدة المنع عن الاعتذار لما فيه من الإقناط الكلي على ما يمتنون به من شهادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا هم يسترضون، من العتبي وهي الرضا وانتصاب يوم بمحذوف تقديره اذكر، أو خوفهم أو يحق بهم ما يحق وكذا قوله:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦).

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ عذاب جهنم. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ أي العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يمهلون. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم التي ادعوا شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه. ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس لأن يشطر عذابهم. ﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة وإنما عبدوا أهواءهم كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ولا يمتنع إطلاق الله الأصنام به حيث، أو في أنهم حملوهم على الكفر والزموهم إياه كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (٨٨).

﴿وَأَلْقُوا﴾ وألقى الذين ظلموا. ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع عنهم وبطل. ﴿مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بالمنع عن الإسلام والحمل على الكفر. ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا لَصْدَمَ﴾ ﴿فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ المستحق بكفرهم. ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بكونهم مفسدين بصددهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني نبيهم فإن نبي كل أمة بعث منهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ على أمتك. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ استئناف أو حال بإضمار قد. ﴿تِبْيَانًا﴾ بياناً بليغاً. ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين على التفصيل أو الإجمال بالإحالة إلى السنة أو القياس. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ للجميع وإنما حرمان المحروم من تفريظه. ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالتوسط في الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية كالنطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال عليه الصلاة والسلام «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». ﴿وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه وهو تخصيص بعد تعميم للمبالغة. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ عن الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقيح أحوال الإنسان وأشنعها. ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ ما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية. ﴿وَالْبَغْيِ﴾ والاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التي هي مقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد من الإنسان شر إلا وهو مندرج في هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر. وصارت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين، ولعل إيرادها عقيب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ للتنبيه عليه. ﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنهي والميز بين الخير والشر. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ يعني البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾. وقيل كل أمر يجب الوفاء به ولا يلائمه قوله: ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وقيل النذور، وقيل الأيمان بالله ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أي أيمان البيعة أو مطلق الأيمان. ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى، ومنه أكد بقلب الواو همزة ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً بتلك البيعة فإن الكفيل مراعى لحال المكفول به رقيب عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض الأيمان والعهود.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبْلُغَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ ما غزلته، مصدر بمعنى المفعول. ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بـ ﴿نَقَضَتْ﴾ أي نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام. ﴿أَنْكَاثًا﴾ طاقات نكت فتلها جمع نكت، وانتصابه على الحال من ﴿غَزْلَهَا﴾ أو المفعول الثاني لنقضت فإنه بمعنى صيرت، والمراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه. وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم القرشية فإنها كانت خرقاء تفعل ذلك. ﴿تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ حال من الضمير في ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾، أو في الجار الواقع موقع الخبر أي لا تكونوا متشبهين بامرأة هذا شأنها، متخذي أيمانكم مفسدة ودخلاً بينكم، وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه. ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَّةٍ﴾ لأن تكون جماعة أزيد عدداً وأوفر مالاً من جماعة، والمعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقتلهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش، فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم. ﴿إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ﴾ الضمير لأن تكون أمة لأنه بمعنى المصدر أي يختبركم بكونهم أربى لينظر. أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله أم تغتروا بكثرة قریش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم. وقيل

الضمير للرباء وقيل للأمر بالوفاء. ﴿وَلْيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالشواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متفقة على الإسلام. ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق. ﴿وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤال تبكيت ومجازاة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي. ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي عن محجة الإسلام. ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها والمراد أقدامهم، وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة. ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ﴾ العذاب في الدنيا. ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بصدكم عن الوفاء أو صدكم غيركم عنه، فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ ولا تستبدلوا عهد الله وبيعة رسوله ﷺ. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عرضاً يسيراً، وهو ما كانت قريش يعدون لضعفاء المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد. ﴿إِنْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النصر والتغنيص في الدنيا والثواب في الآخرة. ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما يعدونكم. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا. ﴿يَنْفَدُ﴾ يتقضي ويفنى. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من خزائن رحمته. ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد، وهو تعليل للحكم السابق ودليل على أن نعيم أهل الجنة باق. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ على الفاقة وأذى الكفار، أو على مشاق التكليف. وقرأ ابن كثير وعاصم بالنون. ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بما يرجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات، أو بجزاء أحسن من أعمالهم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ بينه بالتوعين دفعا للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما المتوقع عليها تخفيف العذاب. ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيباً فإنه إن كان موسراً فظاهر وإن كان معسراً يطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم في الآخرة، بخلاف الكافر فإنه إن كان معسراً فظاهر وإن كان موسراً لم يدعه الحرص وخوف القوات أن يتهنأ بعيشه. وقيل في الآخرة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة.

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَمْ يُلْنِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠).

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ إذا أردت قراءته كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فاسأل الله أن يعيذك من وساوسه لئلا يوسوسك في القراءة، والجمهور على أنه للاستحباب. وفيه دليل على أن المصلي يستعيز في كل ركعة لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً، وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد عليه إيدان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل. وعن ابن مسعود (قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال: قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تسلط وولاية ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على أولياء الله تعالى المؤمنين به والمتوكلين عليه فإنهم لا يطيعون أوامره ولا يقبلون وساوسه إلا فيما يحتقرون على ندور وغفلة ولذلك أمروا بالاستعاذة فذكر السلطنة بعد الأمر باستعاذة لئلا يتوهم منه أن له سلطاناً.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يحبونه ويطيعونه. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ بالله أو بسبب الشيطان. ﴿مُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١١١).

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بالنسخ فجعلنا الآية الناسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ من المصالح فلعل ما يكون مصلحة في وقت يصير مفسدة بعده فينسخه، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن فيثبت مكانه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُنْزِلُ﴾ بالتخفيف. ﴿قَالُوا﴾ أي الكفرة. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ متقول على الله تأمر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه، وهو جواب ﴿إِذَا﴾. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ﴾، اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم والتنبيه على فساد سندهم ويجوز أن يكون حالاً. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١١٢).

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني جبريل عليه الصلاة والسلام، وإضافة الروح إلى القدس وهو الطهر كقولهم: حاتم الجود وقرأ ابن كثير ﴿روح القدس﴾ بالتخفيف وفي ﴿يُنْزِلُ﴾ و ﴿نَزَّلَهُ﴾ تنبيه على أن إنزاله مدرجاً على حسب المصالح بما يقتضي التبديل. ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة. ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليثبت الله الذين آمنوا على الإيمان بأنه كلامه، وأنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية الصلاح والحكمة رسخت عقائدهم واطمأننت قلوبهم. ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين لحكمه، وهما معطوفان على محل ﴿ليثبت﴾ أي تثبيتاً وهداية وبشارة، وفيه تعريض بحصول أضرار ذلك لغيرهم وقرىء ﴿ليثبت﴾ بالتخفيف.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١١٣).

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي. وقيل جبراً وساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل، وكان الرسول ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه.

وقيل عائشاً غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب. وقيل سلمان الفارسي. ﴿لَسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾ لغة الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه، مأخوذ من لحد القبر. وقرأ حمزة والكسائي يلحدون بفتح الياء والحاء، لسان أعجمي غير بين. ﴿وَهَذَا﴾ وهذا القرآن. ﴿لَسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ذو بيان وفصاحة، والجملةتان مستأنفتان لإبطال طعنهم، وتقديره يحتمل وجهين أحدهما: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون ما تلقفه منه. وثانيهما: هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه اللفظ، لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجز من حيث اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجمية لعلهما لم يعرفا معناها، وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عجزهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤) ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لا يصدقون أنها من عند الله. ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق أو إلى سبيل النجاة. وقيل إلى الجنة. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، هددهم على كفرهم بالقرآن بعدما أمارت شبهتهم ورد طعنهم فيه، ثم قلب الأمر عليهم فقال:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا أو إلى قريش. ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب، أو الذين عادتهم الكذب لا يصرفهم عنه دين ولا مروءة، أو الكاذبون في قولهم: ﴿إنما أنت مفتر﴾، ﴿إنما يعلمه بشر﴾.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ بدل من الذين لا يؤمنون وما بينهما اعتراض، أو من ﴿أولئك﴾ أو من ﴿الكاذبون﴾، أو مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله: ﴿فعليهم غضب﴾ ويجوز أن يتصب بالدم وأن تكون من شرطية محذوفة الجواب دل عليه قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ على الافتراء أو كلمة الكفر، استثناء متصل لأن الكفر لغة يعم القول والعقد كالإيمان. ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب. ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ اعتقده وطاب به نفساً. ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذ لا أعظم من جرمه. روي (أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه يأسراً وسمية على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين وجيء بحربة في قبلها وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتلوا يأسراً وهما أول قتيلين في الإسلام، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً فقبل: يا رسول الله إن عماراً كفر فقال: كلا إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار: رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: ما لك إن عادوا لك فعد لهم بما قلت. وهو دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه لما روي (أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول في؟ فقال: أنت أيضاً فخلاه، وقال للآخر ما تقول في محمد قال: رسول الله ﷺ قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه

ثلاثاً فأعاد جوابه فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١١٧) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١١٨) ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١١٩).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد. ﴿بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ بسبب أنهم آثروها عليها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الكافرين في علمه إلى ما يوجب ثبات الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ فابت عن إدراك الحق والتأمل فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الحالة الراهنة عن تدبر العواقب. ﴿لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٠) ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٢١).

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ أي عذبوا كعمار رضي الله تعالى عنه بالولاية والنصر، و ﴿ثُمَّ﴾ لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك، وقرأ ابن عامر ﴿فَتَنُوا﴾ بالفتح أي من بعد ما عذبوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاة جبراً، حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا. ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق. ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر. ﴿لَغَفُورٌ﴾، لما فعلوا قبل. ﴿رَحِيمٌ﴾ منعم عليهم مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب بـ ﴿رحيم﴾ أو باذكر. ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ تجادل عن ذاتها وتسمى في خلاصها لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسي نفسي. ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ جزاء ما عملت. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١٢٢).

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته، أو لمكة. ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ لا يزعج أهلها خوف. ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها. ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً. ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع، أو جمع نعم كبؤس وأبؤس. ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه بالنظر إلى المستعار له كقول كثير: غمر الرداء إذا تبسّم ضاحكاً غلبت لضحكته رقاب المال.

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقي عليه، وأضاف إليه الغمر الذي هو وصف المعروف والنوال لا وصف الرداء نظراً إلى المستعار له، وقد ينظر إلى المستعار كقوله:

يُنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدُ عَمْرٍو رُوَيْدَكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بْنِ بَكْرِ
لِي الشَّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَاغْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرِ

استعار الرداء لسيفه ثم قال فاعتجر نظراً إلى المستعار. ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بصنيعهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٣٣).

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني محمداً ﷺ، والضمير لأهل مكة عاد إلى ذكرهم بعد ما ذكر مثلهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي حال التباسهم بالظلم والعذاب ما أصابهم من الجذب الشديد، أو وقعة بدر.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (١٣٤) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِنَعِيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (١٣٥).

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أمرهم بأكل ما أحل الله لهم وشكر ما أنعم عليهم بعدما زجرهم عن الكفر وهدهم عليه بما ذكر من التمثيل والعذاب الذي حل بهم، صلباً لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبها الفاسدة. ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتَاءَهُ تَعْبُدُونَ﴾ تطيعون، أو إن صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لِنَعِيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (١٣٥) لما أمرهم بتناول ما أحل لهم عدد عليهم محرماته ليعلم أن ما عداها حل لهم، ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (١٣٦) ﴿مَنْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣٧).

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ الآية، ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بإنما حصر المحرمات في الأجناس الأربعة إلا ما ضم إليه دليل: كالسباع والحرر الأهلية، وانتصاب ﴿الكذب﴾ بـ ﴿لا تقولوا﴾ و ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾ بدل منه أو متعلق بتصف على إرادة القول أي: ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم فتقولوا هذا حلال وهذا حرام، أو مفعول ﴿لا تقولوا﴾، و ﴿الكذب﴾ منتصب بـ ﴿تصف﴾ وما مصدرية أي ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، ووصف ألسنتهم الكذب مبالغة في وصف كلامهم بالكذب كأن حقيقة الكذب كانت مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها بكلامهم هذا، ولذلك عد من فصيح الكلام كقولهم: وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر. وقرئ ﴿الكذب﴾ بالجر بدلاً من «ما»، و ﴿الكذب﴾ جمع كذوب أو كذاب بالرفع صفة للألسنة وبالنصب على الذم أو بمعنى الكلم الكواذب. ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ تعليل لا يتضمن الغرض. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لما كان المفتري يفترى لتحصيل مطلوب نفى عنهم الفلاح وبينه بقوله:

﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ أي ما يفترون لأجله أو ما هم فيه منفعة قليلة تنقطع عن قريب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١١٨)

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ أي في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ «قصصنا» أو بـ «حرمانا». ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتحريم. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه، وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم في التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ﴾ بسببها أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر في العواقب لغلبة الشهوة، والسوء يعم الافتراء على الله وغيره. ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السوء. ﴿رَحِيمٌ﴾ يثيب على الإنابة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١) ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢)

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لكمال واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفردة في أشخاص كثيرة كقوله:

لَيْسَ مِنَ اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ

وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذي جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والظعن في النبوة وتحريم ما أحله، أو لأنه كان وحده مؤمناً وكان سائر الناس كفاراً. وقيل هي فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه إذا قصده، أو اقتدى به فإن الناس كانوا يؤمنونه للاستفادة ويقتدون بسيرته كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً له قائماً بأوامره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة فكيف بالكثيرة. ﴿اجْتَبَاهُ﴾ للنبوة. ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله. ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بأن حبيه إلى الناس حتى إن أرباب الملل يتولونه ويشنون عليه، ورزقه أولاداً طيبة وعمراً طويلاً في السعة والطاعة. ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَّ الصَّالِحِينَ﴾ لمن أهل الجنة كما سأل به بقوله: ﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، و ﴿ثُمَّ﴾ إما لتعظيمه والتنبيه على أن أجل ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول عليه السلام ملته، أو لتراخي أيامه. ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤).

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ تعظيم السبت، أو التخلي فيه للعبادة. ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبوا وقالوا: نريد يوم السبت لأنه تعالى فرغ فيه من خلق السموات والأرض، فألزهمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم. وقيل معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلَفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرّموه أخرى واحتالوا له الحيل، وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق بما يستحقه.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١٢٥).

﴿ادْعُ﴾ من بعث إليهم. ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى الإسلام. ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق المزيج للشبهة. ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الخطابات المقنعة والعبارة النافعة، فالأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم. ﴿وَجَادِلْهُمْ﴾ وجادل معانديهم. ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار الوجه الأيسر، والمقدمات التي هي أشهر فإن ذلك أنفع في تسكين لهبهم وتبيين شغبهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا إليك بل الله أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦).

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ لما أمره بالدعوة وبين له طرقها أشار إليه وإلى من يتابعه بترك المخالفة، ومراعاة العدل مع من يناصبهم، فإن الدعوة لا تنفك عنه من حيث إنها تتضمن رفض العادات، وترك الشهوات والقدح في دين الأسلاف والحكم عليهم بالكفر والضلال. وقيل إنه عليه السلام لما رأى حمزة وقد مثل به فقال: «والله لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك»، فنزلت. فكفر عن يمينه، وفيه دليل على أن للمقتصر أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزه، وحث على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الأكيد بقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾ أي الصبر. ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ من الانتقام للمتقين، ثم صرح بالأمر به لرسوله لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ووثوقه عليه فقال:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨).

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إلا بتوقيفه وتشيته. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين أو على المؤمنين وما فعل بهم. ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ في ضيق صدر من مكرهم، وقرأ ابن كثير في ﴿ضَيْقٍ﴾ بالكسر هنا وفي «النمل» وهما لغتان كالقول والقليل، ويجوز أن يكون الضيق تخفيف ضيق.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ المعاصي. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم بالولاية والفضل، أو مع الذين

اتقوا الله بتعظيم أمره والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلة كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية».

(١٧) سورة بني إسرائيل

مَكِّيَّةٌ وَقِيلَ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ﴾ إِلَى آخِرِ ثَمَانِ آيَاتٍ وَهِيَ مِائَةٌ وَاحِدٌ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحان اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد يستعمل علماً له فيقطع عن الإضافة ويمنع عن الصرف قال:

فَذُقْتُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ سبحان من علقمة الفاخر

وانتصابه بفعل متروك إظهاره، وتصدير الكلام به للتنزيه عن العجز عما ذكر بعد. و «أسرى» وسرى بمعنى، و «لَيْلًا» نصب على الظرف. وفائدته الدلالة بتكثيره على تقليل مدة الإسراء، ولذلك قرئ: «من الليل» أي بعضه كقوله: «ومن الليل فتهجد به». ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعينه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بيننا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذا أتاني جبريل بالبراق». أو من الحرم وسماه المسجد الحرام لأنه كله مسجد أو لأنه محيط به، أو ليطابق المبدأ المنتهى. لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به. ورجع من ليلته، وقص القصة عليها وقال: «مثل لي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصليت بهم»، ثم خرج إلى المسجد الحرام وأخبر به قريشاً فتعجبوا منه استحالة، وارتد ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: إن كان قال لقد صدق، فقالوا: أتصدقه على ذلك، قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق، واستنعت طائفة سافروا إلى بيت المقدس فجلى له فطفق ينظر إليه ويتعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن غيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورك، فخرجوا يشتدون إلى الثنية فصادفوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إلا سحر مبین وكان ذلك قبل الهجرة سنة. واختلف في أنه كان في المنام أو في اليقظة بروحه أو بجسده، والأكثر على أنه أسري بجسده إلى بيت المقدس، ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدة المنتهى، ولذلك تعجب قريش واستحالوه، والاستحالة مدفوعة بما ثبت في الهندسة أن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأرض مائة وثيقاً وستين مرة، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي ﷺ، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد. ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ ببركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من لدن موسى عليه الصلاة والسلام، ومحفوف بالأنهار والأشجار. ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾

كذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له، ووقوفه على مقاماتهم، وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات. وقرىء «اليريه» بالياء. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» لأقوال محمد ﷺ. «البَصِيرُ» بأفعاله فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا تَنَحَّضُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ۖ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾

﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا تَنَحَّضُوا﴾ على أن لا تتخذوا كقولك: كتبت إليك أن افعل كذا. وقرأ أبو عمرو بالياء على «أن لا يتخذوا». «مِنْ دُونِي وَكَيْلًا» رياء تكلون إليه أموركم غيري.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء إن قرىء «أن لا تتخذوا» بالناء على النهي يعني: قلنا لهم لا تتخذوا من دوني وكيلًا، أو على أنه أحد مفعولي «لا تتخذوا» و «مِنْ دُونِي» حال من «وكيلًا» فيكون كقوله: «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا» وقرىء بالرفع على أنه خير مبتدأ محذوف أو بدل من واو «تتخذوا»، و «ذرية» بكسر الذال. وفيه تذكير بأنعام الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق بحملهم مع نوح عليه السلام في السفينة. «إِنَّهُمْ» إن نوحاً عليه السلام. «كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا» يحمد الله تعالى على مجامع حالاته، وفيه إيماء بأن انجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به. وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝﴾

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وأوحينا إليهم وحياً مقضياً مبتوتاً. «فِي الْكِتَابِ» في التوراة. «لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ» جواب قسم محذوف، أو قضينا على إجراء القضاء المبتوت مجرى القسم. «مَرَّتَيْنِ» إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعيا وقيل أرمياء. وثانيهما قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام. «وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا» ولتستكبرن عن طاعة الله تعالى أو لتظلمن الناس.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ وعد عقاب أولاهما. «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا» بختنصر عامل لهراسف على بابل وجنوده. وقيل جالوت الجزري. وقيل سنحاريب من أهل نينوى. «أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ» ذوي قوة وبطش في الحرب شديد. «فَجَاسُوا» فترددوا لطلبكم. وقرىء بالحاء المهملة وهما أخوان. «خِلَالَ الدِّيَارِ» وسطها للقتل والغارة فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد. والمعتزلة لما منعوا تسليط الله الكافر على ذلك أولوا البعث بالتخلية وعدم المنع. «وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا» وكان وعد عقابهم لا بد أن يفعل.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ﴾ أي الدولة والغلبة. «عَلَيْهِمْ» على الذين بعثوا عليكم، وذلك بأن ألقى الله في قلب بهمن بن اسفنديار لما ورث الملك من جده كشتاسف بن لهراسف شفقة عليهم، فرد أسراهم إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر، أو بأن سلط الله داود عليه الصلاة والسلام على جالوت فقتله «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا» مما كنتم، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفروهم المجتمعون للذهاب إلى العدو.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأَ مَا عَلَوُا تَتَبَرَّأَ ﴿٧﴾

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها. ﴿وَأِنْ أَسَاءْتُمْ فَلَهَا﴾ فإن وبالها عليها، وإنما ذكرها باللام ازدواجاً. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ وعد عقوبة المرة الآخرة. ﴿لِيَسْوَؤُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ﴿لِيَسْوَؤُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي يجعلوها بادية آثار المساءة فيها، فحذف لدلالة ذكره أولاً عليه. وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر «ليسوء» على التوحيد، والضمير فيه للوعد أو للبعث أو لله، ويعضده قراءة الكسائي بالنون. وقرأ «النسوان» بالنون والياء والنون المخففة والمثقلة، و«النسوان» بفتح اللام على الأوجه الأربعة على أنه جواب إذا واللام في قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ متعلق بمحذوف هو بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا﴾ ليهلكوا. ﴿مَا عَلَوُا﴾ ما غلبوه واستولوا عليه أو مدة علوهم. ﴿تَتَبَرَّأُ﴾ ذلك بأن سلب الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جودرز، وقيل حردوس قيل دخل صاحب الجيش مذهب قرايينهم فوجد فيه دماً يغلي فسألهم عنه فقالوا: دم قريان لم يقبل منا فقال: ما صدقوني فقتل عليه ألفاً منهم فلم يهدأ الدم، ثم قال إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحداً، فقالوا: إنه دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم منكم، ثم قال يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك، فاهداً ياذن الله تعالى قبل أن لا أبقى أحداً منهم فهداً.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمۥ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَذَابًا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ بعد المرة الآخرة. ﴿وَإِنْ عُثِرْتُمْ﴾ نوبة أخرى. ﴿عَذَابًا﴾ مرة ثالثة إلى عقوبتكم وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ، وقصد قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير، وضرب الجزية على الباقيين هذا لهم في الدنيا. ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً لا يقدرّون على الخروج منها أبد الآباد. وقيل بساطاً كما ييسط الحصار.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَفْعَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للحالة أو الطريقة التي هي أقوم الحالات أو الطرق. ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف. ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَفْعَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾، والمعنى أنه يبشر المؤمنين بشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم، أو على ﴿يبشر﴾ بإضمار يخبر.

﴿وَيَذَرُ الْإِنْسَانَ بِالْخَيْرِ دُعَاةً بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

﴿وَيَذَرُ الْإِنْسَانَ بِالْخَيْرِ﴾ ويدعو الله تعالى عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله، أو يدعوه بما يحسبه خيراً وهو شر. ﴿دُعَاةً بِالْخَيْرِ﴾ مثل دعائه بالخير. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يسارع إلى كل ما يخطر بباله لا ينظر عاقبته. وقيل المراد آدم عليه الصلاة والسلام فإنه لما انتهى الروح إلى سرتة ذهب لينهض فسقط. روي: أنه عليه السلام دفع أسيراً إلى سودة بنت زمعة فرحمته لأبيه فأرخت كتافه، فهرب فدعا عليها بقطع اليد ثم ندم فقال عليه السلام: اللهم إنما أنا بشر فمن دعوت عليه فاجعل دعائي رحمة له فنزلت. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالذعاء استعجاله بالعذاب استهزاء كقول النضر بن الحرث: اللهم انصر خير الحزبين، ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية. فأجيب له فضرب عنقه صبراً يوم بدر.

بعثناه إليهم، ويدل على ذلك ما قبله وما بعده، فإن الفسق هو الخروج عن الطاعة والتمرد في العصيان، فيدل على الطاعة من طريق المقابلة، وقيل أمرناهم بالفسق لقوله: ﴿فَقَسَّوْا فِيهَا﴾ كقولك أمرته فقراً، فإنه لا يفهم منه إلا الأمر بالقراءة على أن الأمر مجاز من الحمل عليه، أو التسبب له بأن صب عليهم من النعم ما أبطرهم وأفضى بهم إلى الفسوق، ويحتمل أن لا يكون له مفعول منوي كقولهم: أمرته فعصاني. وقيل معناه كثرتنا يقال: أمرت الشيء وأمرته فأمر إذا كثرت، وفي الحديث «خير المال تسكة مابورة، ومهرة مأمورة»، أي كثرة النجاج. وهو أيضاً مجاز من معنى الطلب، ويؤيده قراءة يعقوب «أمرنا» ورواية «أمرنا» عن أبي عمرو، ويحتمل أن يكون منقولاً من أمر بالضم أمارة أي جعلناهم أمراء، وتخصيص المترفين لأن غيرهم يتبعهم ولأنهم أسرع إلى الحماقة وأقدر على الفجور. ﴿فَحَقَّقْ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ يعني كلمة العذاب السابقة بحلولة، أو بظهور معاصيهم أو بانهماكهم في المعاصي. ﴿فَدَمَّرْنَا مَا تَدْمِيرًا﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريب ديارهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧) مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً أهلكنا. ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ بيان لكم وتمييز له. ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعاد وثمود. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يدرك بواطنها وظواهرها فيعاقب عليها، وتقديم الخبر لتقدم متعلقة. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ مقصوراً عليها همه. ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يجد كل متمن ما يتمناه، ولا كل واجد جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة والهم فضل. ﴿وَلِمَنْ نُرِيدُ﴾ بدل من له بدل البعض. وقرئ «ما يشاء» والضمير فيه لله تعالى حتى يطابق المشهورة. وقيل ﴿لِمَنْ﴾ فيكون مخصوصاً بمن أراد الله تعالى به ذلك. وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم إلا مساهمتهم في الغنائم ونحوها. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩) كَلَّا ثَمِدًا يَهُوْلَاءُ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ حقها من السعي وهو الإتيان بما أمر به، والانتهاه عما نهى عنه لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة اللام اعتبار النية والإخلاص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة. ﴿كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ من الله تعالى أي مقبولاً عنده مثاباً عليه، فإن شكر الله الثواب على الطاعة.

﴿كَلَّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتونين بدل من المضاف إليه. ﴿ثَمِدًا﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى ونجعل أنفسه مدداً لسالفه. ﴿هُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ﴾ بدل من ﴿كَلَّا﴾. ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ من معطاء متعلق بـ ﴿نَمِدًا﴾. ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر تفضلاً.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَِّلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعَّدَ مَذْمُومًا مَحْذُورًا ﴿٢٢﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق، وانتصاب ﴿كَيْفَ﴾ بـ ﴿فَضَّلْنَا﴾ على الحال.

﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي التفاوت في الآخرة أكبر، لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها والنار ودرجاتها.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته أو لكل أحد. ﴿فَتَقَعِدَ﴾ فتصير من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أو فتعجز من قولهم قعد عن الشيء إذا عجز عنه. ﴿مَذْمُومًا مَعْدُومًا﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخدلان من الله تعالى، ومفهومه أن الموحّد يكون ممدوحاً منصوراً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٣).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر أمراً مقطوعاً به. ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ بأن لا تعبدوا. ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ لأن غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية العظمة ونهاية الإنعام، وهو كالتفصيل لسعي الآخرة. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة و ﴿لَا﴾ ناهية. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وبأن تحسنوا، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش، ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان لأن صلته لا تتقدم عليه. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إِمَّا هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً ولذلك صح لحق النون المؤكدة للفعل، وأحدهما فاعل ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ وبدل على قراءة حمزة والكسائي من ألف «يبلغان» الراجع إلى «الوالدين»، وكلاهما عطف على أحدهما فاعلاً أو بدلاً ولذلك لم يجز أن يكون تأكيداً للألف، ومعنى ﴿عِنْدَكَ﴾ أن يكونا في كنفك وكفالتك. ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ فلا تتصجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤنتهما، وهو صوت يدل على تصجر. وقيل هو اسم الفعل الذي هو أتصجر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين وتنوينه في قراءة نافع وحفص للتشكير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف. وقرئ به منوناً وبالضم للاتباع كمنذ منوناً وغير منون، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً بطريق الأولى. وقيل عرفاً كقولك: فلان لا يملك النقيير والقطمير، ولذلك منع رسول الله ﷺ حذيفة من قتل أبيه وهو في صف المشركين، نهى عما يؤذيها بعد الأمر بالإحسان بهما. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تترجرهما عما لا يعجبك بإغلاظ. وقيل النهي والنهر والنهم أخوات. ﴿وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأنيف والنهر. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً لا شراسة فيه.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ (٢٤).

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ تذلل لهما وتواضع فيهما، وجعل للذل جناحاً كما جعل للبد في قوله:

وَعَدَاةٌ رِيحٌ قَدْ كَشَفَتْ وَقَرَةً إِذْ أَضْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

للشمال يداً أو للقرة زماماً، وأمره بخفضه مبالغة أو أراد جناحه كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وإضافته إلى الذل للبيان والمبالغة كما أضيف حاتم إلى الجود، والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل. وقرئ «الذل» بالكسر وهو الانقياد والنعمة منه ذلول. ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله تعالى إليهما بالأمر. ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتف برحمتك الفانية وإن كانا كافرين لأن من الرحمة أن يهديهما. ﴿كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ رحمة مثل رحمتها علي وتربيتهما وإرشادهما لي في صغري وفاء بوعذك للراحمين. روي: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أبوي بلغا من الكبر أنني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما حقهما. قال: لا فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما).

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝﴾ (٢٥)

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من قصد البر إليهما واعتقاد ما يجب لهما من التوقير، وكأنه تهديد على أن يضمن لهما كراهة واستقلالاً. ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ قاصدين للصالح. ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ للتوابين. ﴿غَفُورًا﴾ ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير، وفيه تشديد عظيم، ويجوز أن يكون عاماً لكل تائب، ويندرج فيه الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

﴿وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّزْ تَبَذُّرًا ۝﴾ (٢٦) ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۝﴾ (٢٧)

﴿وَأَيُّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ﴾ من صلة الرحم وحسن المعاشرة والبر عليهم. وقال أبو حنيفة: حقهم إذا كانوا محارم فقراء أن ينفق عليهم. وقيل المراد بذى القربى أقارب الرسول ﷺ. ﴿وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا بُدَّزْ تَبَذُّرًا﴾ بصرف المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وأصل التبذير التفريق. «وعن النبي ﷺ أنه قال لسعد وهو يتوضأ: ما هذا السرف قال: أو في الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار».

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أمثالهم في الشرارة فإن التضييع والإتلاف شر، أو أصدقاءهم وأتباعهم لأنهم يطيعونهم في الإسراف والصرف في المعاصي. روي: أنهم كانوا ينحرون الإبل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم في السمعة، فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالإتفاق في القربات. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ مبالغاً في الكفر به فينبغي أن لا يطاع.

﴿وَأِمَّا تَغْرِضَ عَنْهُمْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝﴾ (٢٨)

﴿وَأِمَّا تَغْرِضَ عَنْهُمْ﴾ وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد، ويجوز أن يراد بالإعراض عنهم أن لا ينفعهم على سبيل الكناية. ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه، أو منتظرين له وقيل معناه لفقد رزق من ربك ترجوه أن يفتح لك فوضع الابتغاء موضعه لأنه مسبب عنه، ويجوز أن يتعلق بالجواب الذي هو قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي فقل لهم قولاً ليناً ابتغاء رحمة الله برحمتك عليهم بإجمال القول لهم، والميسور من يسر الأمر مثل سَعَدَ الرَّجُلُ ونحس، وقيل القول الميسور الدعاء لهم بالميسور وهو اليسر مثل أغناكم الله تعالى ورزقنا الله وإياكم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝﴾ (٢٩) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ۝﴾ (٣٠)

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر، نهى عنهما أمراً بالاعتقاد بينهما الذي هو الكرم. ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالإسراف وسوء التدبير. ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه. وعن جابر (بيننا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إن أمي تستكسيك درعاً، فقال ﷺ من ساعة إلى ساعة فعد إلينا، فذهب إلى أمه فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل ﷺ داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانياً وأذن بلال وانتظروه للصلاة فلم يخرج فأنزل الله ذلك) ثم سلاه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسعه ويضيقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة فليس ما يرهقك من الإضافة إلا لمصلحتك. ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم، ويجوز أن يراد أن البسط

والقبض من أمر الله تعالى العالم بالسرائر والظواهر، فأما العباد فعليهم أن يقتصدوا، أو أنه تعالى يسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته ولا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط، وأن يكون تمهيداً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرُّمٌ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرُّمٌ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾. مخافة الفاقة، وقتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم مخافة الفقر فنهاهم عنه وضمن لهم أرزاقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرُّمٌ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ذنباً كبيراً لما فيه من قطع التناسل وانقطاع النوع، والـ «خطأ» الإثم يقال خطيء خطأ كإثم إثمًا، وقرأ ابن عامر «خطأ» وهو اسم من أخطأ يضاد الصواب، وقيل لغة فيه كمثل ومثل وحذر وحذر. وقرأ ابن كثير «خطاء» بالمد والكسر وهو إما لغة فيه أو مصدر خطأ وهو وإن لم يسمع لكنه جاء تخاطباً في قوله:

تَخَاطَأَ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ وَخَرَطُومُهُ فِي مَشْجَعِ الْحَاءِ رَاسِبٌ

وهو مبني عليه وقرئ «خطاء» بالفتح والمد وخطا بحذف الهمزة مفتوحاً ومكسوراً.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلاً عن أن تباشروه. «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً» فعلة ظاهرة القبح زائدته. «وَسَاءَ سَبِيلًا» وبشس طريقاً طريقه، وهو الغصب على الألباض المؤدي إلى قطع الأنساب وهيج الفتن.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّكُمْ كَانُمْ مَنصُورًا﴾ (٣٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان: وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمداً. «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا» غير مستوجب للقتل. «فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ» للذي يلي أمره بعد وفاته وهو الوارث. «سُلْطَانًا» تسلطاً بالمواخذه بمقتضى القتل على من عليه، أو بالقصاص على القاتل فإن قوله تعالى «مَظْلُومًا» بدل على أن القتل عمد عدوان فإن الخطأ لا يسمى ظلماً. «فَلَا يَسْرِفُ» أي القاتل. «فِي الْقَتْلِ» بأن يقتل من لا يستحق قتله، فإن العاقل لا يفعل ما يعود عليه بالهلاك أو الولي بالمثلة، أو قتل غير القاتل ويؤيد الأول قراءة أبي «فلا تسرفوا». وقرأ حمزة والكسائي «فلا تسرف» على خطاب أحدهما. «إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا» علة النهي على الاستئناف والضمير إما للمقتول فإنه منصور في الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفي الآخرة بالشواب، وإما لوليّه فإن الله تعالى نصره حيث أوجب القصاص له وأمر الولاية بمعونته، وإما للذي يقتله الولي إسرافاً بإيجاب القصاص أو التعزير والوزر على المسرف.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٣٤).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فضلاً أن تتصرفوا فيه. «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» إلا بالطريقة التي هي أحسن. «حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» غاية لجواز التصرف الذي دل عليه الاستثناء. «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» بما عاهدكم الله من تكاليفه، أو ما عاهدتموه وغيره. «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا» مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه وفيه به، أو مسؤولاً عنه يسأل الناكث ويعاتب عليه لم نكثت، أو يسأل العهد تبيكناً للناكث كما يقال للموعدة «بأي ذنب قتلت»، فيكون تخيلاً ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥).

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ ولا تبخسوا فيه ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو روميّ عَرَبٌ ولا يقدح ذلك في عربية القرآن، لأن العجمي إذا استعملته العرب وأجرته مجرى كلامهم في الإعراب والتعريف والتذكير ونحوها صار عربياً. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف هنا وفي «الشعراء». ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وأحسن عاقبة تفصيل من آل إذا رجع.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦).

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبع وقرئ «ولا تقف» من قاف أثره إذا قفاه ومنه القافة. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب، واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند، سواء كان قطعاً أو ظناً واستعماله بهذا المعنى شائع. وقيل إنه مخصوص بالعقائد. وقيل بالرمي وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «من قفا مؤمناً بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج». وقول الكميت:

وَلَا أَزْمِي الْبَرِيءَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قَفِينَا

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي كل هذه الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسؤولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها، هذا وإن أولاء وإن غلب في العقلاء لكنه من حيث إنه اسم جمع لذا وهو يعم القبيلين جاء لغيرهم كقوله:

وَالْعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَيَّامِ

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ في ثلاثتها ضمير كل أي كان كل واحد منها مسؤولاً عن نفسه، يعني عما فعل به صاحبه، ويجوز أن يكون الضمير في عنه لمصدر ﴿لا تقف﴾ أو لصاحب السمع والبصر. وقيل ﴿مسؤولًا﴾ مسند إلى ﴿عنه﴾ كقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ والمعنى يسأل صاحبه عنه، وهو خطأ لأن الفاعل وما يقوم مقامه لا يتقدم، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية. وقرئ ﴿وَالْفُؤَادَ﴾ بقلب الهمزة واواً بعد الضمة ثم إبدالها بالفتح.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي ذا مرح وهو الاختيال. وقرئ ﴿مرحاً﴾ وهو باعتبار الحكم أبلغ وإن كان المصدر أكد من صريح النعت. ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لن تجعل فيها خرقاً بشدة وطأتك. ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتناولك وهو تهكم بالمختال، وتعليل للنهي بأن الاختيال حماقة مجردة لا تعود بجدوى ليس في التذلل.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة. من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنها المكتوبة في ألواح موسى عليه السلام. ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأمورات ومَنَاهُ. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿سَيِّئُهُ﴾ على أنها خبر ﴿كَانَ﴾ والاسم ضمير ﴿كل﴾، و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما نهى عنه خاصة وعلى هذا قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من ﴿سَيِّئُهُ﴾ أو صفة لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سيئاً وقد قرئ به، ويجوز أن ينتصب مكروهاً على الحال من المستكن في ﴿كان﴾ أو في الظرف على أنه صفة ﴿سَيِّئُهُ﴾، والمراد به المبعوض المقابل

للمرضى لا ما يقابل المراد لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾

﴿٢٩﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدمة. ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ كرهه للتبعية على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصد له بطل عمله ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه، وأنه رأس الحكمة وملاكها، ورتب عليه أولاً ما هو عائدة الشرك في الدنيا وثانياً ما هو نتيجته في العقبى فقال تعالى: ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك. ﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً من رحمة الله تعالى.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيماً﴾

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ خطاب لمن قالوا الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار والمعنى: أفخصكم ربكم بأفضل الأولاد وهم البنون. ﴿وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنشَاءً﴾ بنات لنفسه وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعادتكم. ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصة ببعض الأجسام لسرعة زوالها، ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف خلق الله أدونهم.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا

لَا بُتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا هذا المعنى بوجوه من التفسير. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في مواضع منه، ويجوز أن يراد بهذا القرآن إبطال إضافة البنات إليه على تقدير: ولقد صرّفنا هذا القول في هذا المعنى أو أوقفنا التصريف فيه، وقرئ «صرّفنا» بالتخفيف. ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ليتذكروا وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الفرقان ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ من الذكر الذي هو بمعنى التذكر. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وقلة طمأنينة إليه. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أيها المشركون، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم بالياء فيه وفيما بعده على أن الكلام مع الرسول ﷺ، ووافقهما نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب في الثانية على أن الأولى مما أمر الرسول ﷺ، أن يخاطب به المشركين، والثانية مما نزه به نفسه عن مقاتلتهم. ﴿إِذَا لَا بُتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جواب عن قولهم وجزاء لـ ﴿لَوْ﴾ والمعنى: لطلبوا إلى من هو مالك الملك سبيلاً بالمعازاة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، أو بالتقرب إليه والطاعة لعلمهم بقدرته وعجزهم كقولهم تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا

يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

﴿سُبْحَانَهُ﴾ ينزهه تنزيهاً. ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾ تعالياً. ﴿كَبِيرًا﴾ متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ينزهه عما هو من لوازم الإمكان وتوابع الحدوث بلسان الحال حيث تدل بإمكانها وحدوثها على الصانع القديم الواجب لذاته. ﴿وَلَكِنْ

لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم تسبيحهم، ويجوز أن يحمل التسييح على المشترك بين اللفظ والدلالة لإسناده إلى ما يتصور منه اللفظ وإلى ما لا يتصور منه وعليهما عند من جوز إطلاق اللفظ على معنييه. وقرأ ابن كثير وابن عامر ونافع وأبو بكر «يسبح» بالياء. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم. ﴿عَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ عُتْدَةً لَّكُمْ لَمَّا نُمَوْثَ لَكُمْ. ﴿٤٦﴾

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجبهم عن فهم ما تقرأه عليهم. ﴿مَسْتُورًا﴾ ذا ستر كقوله تعالى: ﴿وَعِدَهُ مَائِيًا﴾ وقولهم سيل مفعم، أو مستوراً عن الحسن، أو بحجاب آخر لا يفهمون ولا يفهمون أنهم لا يفهمون نفى عنهم أن يفهموا ما أنزل عليهم من الآيات بعدما نفى عنهم التفقه للدلالات المنصوبة في الأنفس والآفاق تقريراً له وبياناً لكونهم مطبوعين على الضلالة كما صرح به بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تكنها وتحول دونها عن إدراك الحق وقبوله. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، ويجوز أن يكون مفعولاً لما دل عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي منعناهم أن يفقهوه. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم عن استماعه. ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى أثبت لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراك اللفظ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَغَتْ فِي الْقُرْآنِ عُتْدَةً﴾ واحداً غير مشفوع به ألهمهم، مصدر وقع موقع الحال وأصله يحد وحده بمعنى واحداً وحده. ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى الَّذِينَ يَنْقُورُونَ﴾ هرباً من استماع التوحيد ونفرة أو تولية، ويجوز أن يكون جمع نافر كقاعد وقعود.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ (٤٧).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ بسببه ولأجله من الهراء بك وبالقُرآن. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وكذا. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك مضمرون له وحين هم ذوو نجوى يتناجون به، و ﴿نَجْوَى﴾ مصدر ويحتمل أن يكون جمع نجوى. ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ مقدر باذكر، أو بدل من ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ على وضع ﴿الظالمون﴾ موضع الضمير للدلالة على أن تناجيهم بقولهم هذا من باب الظلم، والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله. وقيل الذي له سحر وهو الرثة أي إلا رجلاً يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩).

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ مثلك بالشاعر والساحر والكاهن والمجنون. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحق في جميع ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طعن موجه فيهما فتون ويخطون كالمتحير في أمره لا يدرى ما يصنع أو إلى الرشاد. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفًا﴾ حطاماً. ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لما بين غضاضة الحي وبيوسة الرميم، من المباعدة والمنافاة، والعامل في إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها و ﴿خَلْقًا﴾ مصدر أو حال.

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِمَّنْ يُعِيدُنَا قُلْ

الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُقْضَوْنَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾

﴿قُلْ﴾ جواباً لهم. ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها، فإن قدرته تعالى لا تقصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً مرفوعة وقد كانت غضة موصوفة بالحياة قبل الشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً وما هو أبعد منه من الحياة. ﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ﴾ فسيحركونها نحوكم تعجباً واستهزاء. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإن كل ما هو آت قريب، وانتصابه على الخبر أو الظرف أي يكون في زمان قريب، و ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ اسم ﴿عسى﴾ أو خبره والاسم مضمرة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي يوم يبعثكم فتستجيبون، استعار لهما الدعاء والاستجابة للتنبيه على سرعتهم وتيسر أمرهما، وأن المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجزاء. ﴿بِحَمْدِهِ﴾ حال منهم أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته كما قيل إنهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مر على قرية، أو مدة حياتكم لما ترون من الهول.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنِ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزَحِّكْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾.

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ يعني المؤمنين. ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة التي هي أحسن ولا يخافوا المشركين. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ يهيج بينهم المراء والشر فلعل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد وازدياد الفساد. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزَحِّكْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ تفسير لـ ﴿التي هي أحسن﴾ وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تصرحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشر مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليك أمرهم تقصرهم على الإيمان وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالاحتمال منهم. وروي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. وقيل شتم عمر رضي الله تعالى عنه رجل منهم فهم به فأمره الله بالعفو.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم فيختار منهم لنبوته وولايته من يشاء، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً، وأن يكون العراة الجوع أصحابه. ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانية والشري عن العلائق الجسمانية، لا بكثرة الأموال والأتباع حتى داود عليه السلام فإن شرفه بما أوجي إليه من الكتاب لا بما أوتي من الملك. قيل هو إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأتمه خير الأمم المدلول عليه بما كتب في الزبور من أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، وتنكيره ها هنا وتعريفه في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ لأنه في الأصل فعول للمفعول كالحلوب، أو المصدر كالقبول ويؤيده قراءة حمزة بالضم وهو

كالعباس أو الفضل، أو لأن المراد وآتينا داود بعض الزبر، أو بعضاً من الزبور فيه ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهة. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ كالملائكة والمسيح وعزير. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون. ﴿كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا تحويل ذلك منكم إلى غيركم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله القرابة بالطاعة. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدل من واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أي يبتغي من هو أقرب منهم إلى الله الوسيلة فكيف بغير الأقرب. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كسائر العباد فكيف تزعمون أنهم آلهة. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقة بأن يحذره كل أحد حتى الرسل والملائكة.

﴿وَلَنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلَيْكُمُ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩﴾

﴿وَلَنْ مِنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بالموت والاستئصال. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواع البلية. ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ. ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوباً.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ وما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحها قريش. ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمرود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك، واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنتنا وقد قضينا أن لا نستأصلهم، لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال:

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ بِسَوَالِهِمْ﴾. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة ذات أبصار أو بصائر، أو جاعلتهم ذوي بصائر وقرىء بالفتح. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقرها. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ أي بالآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصل، فإن لم يخافوا نزل أو بغير المقترحة كالمعجزات وآيات القرآن إلا تخويفاً بعذاب الآخرة، فإن أمر من بعث إليهم مؤخر إلى يوم القيامة، والباء مزيدة أو في موقع الحال والمفعول محذوف.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاقَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَخَوْفَهُمْ مِمَّا يَرِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ واذكر إذ أوحينا إليك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم في قبضة قدرته، أو أحاط بقريش بمعنى أهلكهم من أحاط بهم العدو، فهي بشارة بوقعة بدر والتعبير بلفظ الماضي لتحقيق وقوعه. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاقَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ ليلة المعراج وتعلق به من قال إنه كان في المنام، ومن قال إنه كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية. أو عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة. وفيه أن الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حيثئذ،

ولعله رؤيا رآها في وقعة بدر لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ ولما روي (أنه لما ورد ماءه قال لكأني أنظر إلى مصارع القوم هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان، فستامعت به قریش واستسخرخوا منه). وقيل رأى قوماً من بني أمية يرقون منبره وينزون عليه نزو القردة فقال: «هذا حظهم من الدنيا يعطونه بإسلامهم»، وعلى هذا كان المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ ما حدث في أيامهم. ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ عطف على ﴿الرُّؤْيَا﴾ وهي شجرة الزقوم، لما سمع المشركون ذكرها قالوا إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر، ولم يعلموا أن من قدر أن يحمي وبر السمندر من أن تأكله النار، وأحشاء النعمة من أذى الجمر وقطع الحديد المحماة الحمر التي تبتلعها، قدر أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. ولعنها في القرآن لعن طاعمها وصفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعد مكان من الرحمة، أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعام ملعون لما كان ضاراً، وقد أولت بالشيطان وأبي جهل والحكم بن أبي العاصي، وقرأت بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي والشجرة الملعونة في القرآن كذلك. ﴿وَنُحُوفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ إلا عتواً متجاوز الحد.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ لمن خلقته من طين، فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الراجع إلى الموصول أي خلقته وهو طين، أو منه أي أسجد له وأصله طين. وفيه على الوجوه الثلاثة إيماء بعللة الإنكار.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب، وهذا مفعول أول والذي صفته والمفعول الثاني محذوف لدلالة صلته عليه، والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمرى بالسجود له لم كرمته علي. ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لاستأصلنهم بالإغواء إلا قليلاً لا أقدر أن أقاوم شقيمتهم، من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلاً، مأخوذ من الحنك وإنما علم أن ذلك يتسهل له إما استنباطاً من قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا﴾ مع التقرير، أو تفرساً من خلقه ذا وهم وشهوة وغضب.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَفَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ﴾

﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه. ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ﴾ جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون الخطاب للتابعين على الالتفات. ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ مكملًا من قولهم فر لصاحبك عرضه، وانتصاب جزاء على المصدر بإضمار فعله أو بما في ﴿جَزَاءُكُمْ﴾ من معنى تجاوز، أو حال موطئة لقوله ﴿مَوْفُورًا﴾.

﴿وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَفَ مِنْهُمْ﴾ أن تستغفره والفر الخفيف. ﴿بِصَوْتِكَ﴾ يدعائك إلى الفساد. ﴿وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ﴾ وضح عليهم من الجلبة وهي الصياح. ﴿بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ﴾ بأعوانك من راكب وراجل، والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «يا خيل الله اركبي» والرجل اسم جمع للراجل

كالصاحب والركب، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتسلطه على من يغويه بمغوار صوت على قوم فاستغفروهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم. وقرأ حفص «ورجلك» بالكسر وغيره بالضم وهما لغتان كندس وندس ومعناه: وجمعك الرجل. وقرأ «ورجلك» «ورجلك». «وشاركتهم في الأموال» بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغي. «والأولاد» بالحث على التوصل إلى الولد بالسبب المحرم، والإشراك فيه بتسميته عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة. «وعذبهم» المواعيد الباطلة كشفاة الآلهة والانتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة لطول الأمل. «وما يعدهم الشيطان إلا غروراً» اعتراض لبيان مواعيده الباطلة، والغرور تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥).

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يعني المخلصين، وتعظيم الإضافة والتقييد في قوله: «إلا عبادك منهم المخلصين» يخصصهم «لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ» أي على إغوائهم قدرة. «وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا» يتوكلون عليه في الاستعاذة منك على الحقيقة.

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّكُمْ كَأَنْتُمْ رَجِيمًا﴾ (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧).

﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي﴾ هو الذي يجري. «لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأُوا مِنْ فَضْلِهِ» الريح وأنواع الأمتعة التي لا تكون عندهم. «إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَجِيمًا» حيث هيا لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما تعسر من أسبابه.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ خوف الغرق. «ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ» ذهب عن خواطركم كل من تدعونه في حوادثكم. «إِلَّا إِلَاهُ» وحده فإنكم حينئذ لا يخطر ببالكم سواء فلا تدعون لكشفه إلا إياه، أو ضل كل من تعبدونه عن إغائتكم إلا الله. «فَلَمَّا نَجَّكُمْ» من الغرق. «إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ» عن التوحيد. وقيل اتسعتهم في كفران النعمة كقول ذي الرمة:

عطاء فتى تمكّن في المعالي فأعرض في المكارم واستطالاً
«وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا» كالتعليل للإعراض.

﴿أَفَأَمِنْتُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ (٦٨).

﴿أَفَأَمِنْتُ﴾ الهمزة فيه للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فامتنم فحملكم ذلك على الإعراض، فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره. «أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ» أن يقلبه الله وأنتم عليه، أو يقلبه بسيبكم فيكم حال أو صلة ليخسف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالنون وفي الأربعة التي بعده، وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل كفروا وأعرضوا وأن الجوانب والجهات في قدرته سواء لا معقل يؤمن فيه من أسباب الهلاك. «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا» ريحاً تحصب أي ترمي بالحصباء «ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا» يحفظكم من ذلك فإنه لا راد لفعله.

﴿أَمْ أَمِنْتُ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ ذَنْبًا نَقِيًّا﴾ (٦٩).

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر. ﴿نَارَةً أُخْرَى﴾ بخلق دواع تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه. ﴿فَيُنْزِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِصًا مِنَ الرِّيحِ﴾ لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرتة. ﴿فَيُفْرِقْكُمْ﴾ وعن يعقوب بالتاء على إسناده إلى ضمير ﴿الريح﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم أو كفرانكم نعمة الإنجاء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ مطالباً بتبعنا بانتصار أو صرف.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٥).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة والتميز بالعقل والإفهام بالنطق والإشارة والخط والتهدي، أو أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما في الأرض والتمكن من الصناعات وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك مما يقف الحصر دون إحصائه ومن ذلك ما ذكره ابن عباس وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفيه إلا الإنسان فإنه يرفعه إليه بيده ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على الدواب والسفن من حملته حملاً إذا جعلت له ما يركبه أو حملناهم فيهما حتى لم تخسف بهم الأرض ولم يفرقهم الماء ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالغلبة والاستيلاء أو بالشرف والكرامة، والمستثنى جنس الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو الخواص منهم، ولا يلزم من عدم تفضيل الجنس عدم تفضيل بعض أفرادهم والمسألة موضع نظر، وقد أول الكثير بالكل وفيه تعسف.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَاُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ﴾ (٧٦).

﴿يَوْمَ نَدْعُو﴾ نصب بإضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه ﴿ولا يظلمون﴾، وقرئ «يدعو» و «يدعي» و «يدعو» على قلب الألف وواو في لغة من يقول أفعو في أفعى، أو على أن الواو علامة الجمع كما في قوله: ﴿وَأَسْرُوا النِّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أو ضميره وكل بدل منه والنون محذوفة لقلة المبالة بها فإنها ليست إلا علامة الرفع، وهو قد يقدر كما في «يدعي». ﴿كُلُّ أَنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين. وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا صاحب كتاب كذا، أي تنقطع علاقة الأنساب وتبقى نسبة الأعمال. وقيل بالقوى الحاملة لهم على عقائدهم وأفعالهم. وقيل بأمهارتهم جمع أم كخف وخفاف، والحكمة في ذلك، إجلال عيسى عليه السلام وإظهار شرف الحسن والحسين رضي الله عنهما، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. ﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ﴾ من المدعويين. ﴿كِتَابُهُ يَمِينِهِ﴾ أي كتاب عمله. ﴿فَاُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ابتهاجاً وتبجحاً بما يرون فيه. ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ﴾ (٧٦) ولا ينقصون من أجورهم أدنى شيء، وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من أوتي في معنى الجمع، وتعليق القراءة بإتياء الكتاب باليمين يدل على أن من أوتي كتابه بشماله إذا اطلع على ما فيه غشيه من الخجل والحيرة ما يحبس ألسنتهم عن القراءة، ولذلك لم يذكرهم مع أن قوله:

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٧).

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أيضاً مشعر بذلك فإن الأعمى لا يقرأ الكتاب، والمعنى ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر رشده كان في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدنيا لزوال الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة. وقيل لأن الاهتداء بعد لا ينفعه والأعمى مستعار

من فاقد الحاسة. وقيل الثاني للتفضيل من عمي بقلبه كالأجهل والأبله ولذلك لم يمله أبو عمرو ويعقوب، فإن أفعّل التفضيل تمامه بمن فكانت ألفه في حكم المتوسطة كما في أعمالكم بخلاف النعت، فإن ألفه واقعة في الطرف لفظاً وحكماً فكانت معرضة للإمالة من حيث إنها تصير ياء في التثنية، وقد أمالهما حمزة والكسائي وأبو بكر، وقرأ ورش بين بين فيهما.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ۝٧٣﴾

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف قالوا لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصلاً نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك فقل إن الله أمرني. وقيل في قريش قالوا لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلم بآلهتنا وتمسها بيدك. وإن هي المخففة واللام هي الفارقة والمعنى: أن الشأن قاربوا بمبالغتهم أن يوقعوك في الفتنة بالاستئصال. ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من الأحكام ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً﴾ غير ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك بافتنانك ولياً لهم بريئاً من ولايتي.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۝٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ۝٧٥﴾

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ﴾ ولولا تبينتنا إياك. ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، والمعنى أنك كنت على صدد الركون إليهم لقوة خدعهم وشدة احتياليهم لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون فضلاً أن تركز إليهم، وهو صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه.

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ﴾ أي لو قاربت لأذقناك. ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما نعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير أخطر، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، ثم أضيفت كما يضاف موصوفها. وقيل الضعف من أسماء العذاب. وقيل المراد بـ ﴿ضعف الحياة﴾ عذاب الآخرة ﴿وضعف الممات﴾ عذاب القبر. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ يدفع العذاب عنك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۝٧٧﴾

﴿وَإِنْ كَادُوا﴾ وإن كاد أهل مكة. ﴿لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ ليزعجوك بمعاداتهم. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مكة. ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ﴾ ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك. ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلا زماناً قليلاً، وقد كان كذلك فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته بسنة. وقيل الآية: نزلت في اليهود خسدوا مقام النبي بالمدينة فقالوا: الشام مقام الأنبياء فإن كنت نبياً فالحق بها حتى نؤمن بك، فوقع ذلك في قلبه فخرج مرحلة فنزلت، فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة وأجلبي بنو النضير بقليل. وقرىء «لا يلبثوا» منصوباً بـ ﴿إِذَا﴾ على أنه معطوف على جملة قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ لا على خبر كاد فإن إذا لا تعمل إذا كان معتمداً ما بعدها على ما قبلها وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وحفص ﴿خِلْفَكَ﴾ وهو لغة فيه قال الشاعر:

عفت الديار خلافتهم فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيراً

﴿سُنَّةٌ مَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة، وهو أن يهلك كل أمة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، فالسنة لله وإضافتها إلى الرسل لأنها من أجلهم ويدل عليه. ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي تغييراً.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَيَّ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لزوالها ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام «أتاني جبريل للدُّلُوكِ الشمس حين زالت فصلى بي الظهر». وقيل لغروبها وأصل التركيب للانتقال ومنه الدالك فإن الدالك لا تستقر يده، وكذا كل ما تركب من الدال واللام: كدلج ودلح ودلف ودله. وقيل الدلوك من الدلك لأن الناظر إليها يدلك عينيه ليدفع شعاعها، واللام للتأقبت مثلها في: ثلاث خلون ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى ظلمته وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة. ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ وصلاة الصبح، سميت قرآناً لأنه ركنها كما سميت ركوعاً وسجوداً، واستدل به على وجوب القراءة فيها ولا دليل فيه لجواز أن يكون التجوز لكونها متدوبة فيها، نعم لو فسر بالقراءة في صلاة الفجر دل الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصاً وفي غيرها قياساً. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء والنوم الذي هو آخر الموت بالانتباه أو كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير، والآية جامعة للصلوات الخمس إن فسر الدلوك بالزوال وللصلوات الليل وحدها إن فسر بالغروب. وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب وقوله ﴿لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ بيان لمبدأ الوقت ومنتهاه، واستدل به على أن الوقت يمتد إلى غروب الشفق.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ (٧٩).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة والضمير للـ ﴿قُرْآنَ﴾. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ مقاماً يحمد القائم فيه وكل من عرفه، وهو مطلق في كل مقام يتضمن كرامة والمشهور أنه مقام الشفاعة. لما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي» ولإشعاره بأن الناس يحمدونه لقيامه فيه وما ذاك إلا مقام الشفاعة، وانتصابه على الظرف بإضمار فعله أي فيقيمك مقاماً أو بتضمنين ﴿يَبْعَثُكَ﴾ معناه، أو الحال بمعنى أن يبعثك ذا مقام.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١).

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ أي في القبر. ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إدخالاً مرضياً. ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ أي منه عند البعث. ﴿مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إخراجاً ملقى بالكرامة. وقيل المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة. وقيل إدخاله مكة ظاهراً عليها وإخراجه منها آمناً من المشركين. وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً. وقيل إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤدياً حقه. وقيل إدخاله في كل ما يلبسه من مكان أو أمر وإخراجه منه. وقرئ «مُدْخَلٌ» و «مَخْرَجٌ» بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخلاً وأخرجني فأخرج خروجاً. ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ حجة تنصرني على من خالفني أو ملكاً ينصر الإسلام على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمَ الْغَالِبُونَ﴾، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، ﴿لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وذهب وهلك الشرك من زهق روحه إذا خرج. ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

مضمحلًا غير ثابت، عن ابن مسعود رضي الله عنه (أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلثمائة وستون صنماً ينكت بمخصرته في عين كل واحد منها فيقول جاء الحق وزهق الباطل، فينكب لوجهه حتى ألقي جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال: يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره).

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢).

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى، و ﴿من﴾ للبيان فإن كله كذلك. وقيل إنه للتبويض والمعنى أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء. وقرأ البصريان ﴿نزل﴾ بالتخفيف. ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم وكفرهم به.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (٨٣) ﴿كُلُّ يَعْملُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٨٤).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بالصحة والسعة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكر الله. ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ لوى عطفه وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبد بأمره، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المستكبرين، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان هنا وفي «فصلت» «وناء» على القلب أو على أنه بمعنى نهض. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر. ﴿كَانَ يَؤُوسًا﴾ شديد اليأس من روح الله.

﴿كُلُّ يَعْملُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل كل أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أسد طريقاً وأبين منهجاً، وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به بدن الإنسان ويدبره. ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من الإبداعات الكائنة بـ ﴿كن﴾ من غير مادة وتولد من أصل كأعضاء جسده، أو وجد بأمره وحدث بتكوينه على أن السؤال عن قدمه وحدوثه. وقيل مما استأثر الله بعلمه. لما روي: أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة. وقيل الروح جبريل وقيل خلق أعظم من الملك وقيل القرآن، ومن أمر ربي معناه من وحيه. ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تستفيدونه بتوسط حواسكم، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية. إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات، ولذلك قيل من فقد حساً فقد فقد علماً. ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحواله المعروفة لذاته، وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى في جواب: وما رب العالمين بذكر بعض صفاته. روي: أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك قالوا: أنحن مختصون بهذا الخطاب؟ فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجب شأنك ساعة تقول ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. وساعة تقول هذا فنزلت ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ وما قالوه لسوء فهمهم لأن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير والحق ما تسعه القوة البشرية بل ما يتنظم به معاشه ومعاذه، وهو بالإضافة إلى معلومات الله التي لا نهاية لها قليل ينال به خير الدارين وهو بالإضافة إليه كثيراً.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧).

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اللام الأولى موطة للقسم و ﴿لندهبن﴾ جوابه النائب مناب جزاء الشرط. والمعنى إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوانه من المصاحف والصدور ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنه في تنزيهه. ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في حفظه.

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (٨٩).

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى. ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وفيهم العرب العرباء وأرباب البيان وأهل التحقيق، وهو جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة، ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم لكون الشرط ماضياً كقول زهير:

وَأَنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمٌ

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تظاهروا على الإتيان به، ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجهم عن كونه معجزاً، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه، ويجوز أن تكون الآية تقريراً لقوله: ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كررنا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان. ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعها في الأنفس. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً، وإنما جاز ذلك ولم يجز: ضربت إلا زبداً لأنه متأول بالنفي.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١).

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ تعنتاً واقتراحاً بعد ما لزمتهم الحجة ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات إليه، وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿تفجير﴾ بالتخفيف والأرض أرض مكة والينبوع عين لا ينضب ماؤها يفعل من نبع الماء كيعقوب من عب الماء إذا زخر.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك.

﴿أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَقِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كَلِمًا نَقْرُؤُهَا قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣).

﴿أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿أَوْ نَسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو قطع لفظاً ومعنى، وقد سكنه ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب في جميع القرآن إلا في «الروم»

وابن عامر إلا في هذه السورة، وأبو بكر ونافع في غيرهما وحفص فيما عدا «الطور»، وهو إما مخفف من المفتوح كسدره وسدر أو فعل بمعنى مفعول كالطحن. «أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» كقبلاً بما تدعيه أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه، أو مقابلاً كالعشير بمعنى المعاشر وهو حال من الله وحال الملائكة محدوفة لدالاتها عليها كما حذف الخبر في قوله: فإني وقَّارٌ بها لغريب. أو جماعة فيكون حالاً من «الملائكة».

«أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ» من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة. «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ» في معارجها. «وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرَبِّكَ» وحده. «حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفَرِّدُهُ» وكان فيه تصديقك. «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي» تعجباً من اقتراحاتهم أو تنزيهاً لله من أن يأتي أو يتحكم عليه أو يشاركه أحد في القدرة، وقرأ ابن كثير وابن عامر: «قال سبحان ربي» أي قال الرسول: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا» كسائر الناس. «رُسُولًا» كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم على ما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله حتى تتخيروها عليّ هذا هو الجواب المجمل وأما التفصيل فقد ذكر في آيات آخر كقوله: «ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس»، «ولو فتحنا عليهم باباً».

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ لُنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾».

«وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ» أي وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق: «إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا» إلا قولهم هذا، والمعنى أنه لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا إنكارهم أن يرسل الله بشراً.

«قُلْ» جواباً لشبهتهم. «لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُونَ» كما يمشي بنو آدم. «مُطْمَئِنِّينَ» ساكنين فيها. «لُنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا» لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه، وأما الإنس فعاتتهم عما عن إدراك الملك والتلفظ منه، فإن ذلك مشروط بنوع من التناسب والتجانس، وملكاً يحتمل أن يكون حالاً من رسولاً وأن يكون موصوفاً به وكذلك بشراً والأول أوفق.

«قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾».

«قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» على أني رسول الله إليكم بإظهاره المعجزة على وفق دعواي، أو على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم عانستم وشهداً نصب على الحال أو التمييز. «إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا» يعلم أحوالهم الباطنة منها والظاهرة فيجازيهم عليها، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار.

«وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَضُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْ آفًا لِمَبْعُوثِينَ خَلَقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾».

«وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ» يهدونه. «وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ» يسحبون عليها أو يمشون بها. روي (أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يمشون على وجوههم قال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم) «عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَضُمًّا» لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم، لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر وتصاموا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق، ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى

النار مؤفي القوى والحواس. ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهن بها بأن أكلت جلودهم ولحومهم. ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً بأن نبذل جلودهم ولحومهم فتعود ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء وإليه أشار بقوله:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأن الإشارة إلى ما تقدم من عذابهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ﴿١٠٠﴾.

﴿أَو لَمْ يَرَوْا﴾ أو لم يعلموا. ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم ولا الإعادة أصعب عليه من الإبداء. ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموت أو القيامة. ﴿فَأَنبَى الظَّالِمُونَ﴾ مع وضوح الحق. ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه، وأنتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده كقول حاتم: لو ذات سوار لطمتني. وفائدة هذا الحذف والتفسير المبالغة مع الإيجاز والدلالة على الاختصاص. ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ لبخلتم مخافة النفاق بالإففاق إذ لا أحد إلا ويختار النفع لنفسه ولو أثر غيره بشيء فإنما يؤثره لعوض يفوقه فهو إذن بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى وكرمه هذا وإن البخل أغلب فيهم. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ بخيلاً لأن بناء أمره على الحاجة والفضة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿١٠١﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الماء من الحجر وانفلاق البحر وتنق الطور على بني إسرائيل. وقيل الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الثلاثة الأخيرة. وعن صفوان أن يهودياً سأل النبي ﷺ عنها فقال: أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا بيريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت، فقبل اليهودي يده ورجله. فعلى هذا المراد بالآيات الأحكام العامة للملل الثابتة في كل الشرائع، سميت بذلك لأنها تدل على حال من يتعاطى متعلقها في الآخرة من السعادة أو الشقاوة. وقوله وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا، حكم مستأنف زائد على الجواب ولذلك غير فيه سياق الكلام. ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فقلنا له سلهم من فرعون ليرسلهم معك، أو سلهم عن حال دينهم ويؤيده قراءة رسول الله ﷺ «فسأل» على لفظ المضي بغير همز وهو لغة قريش و ﴿إِذْ﴾ متعلق بقلنا أو سأل على هذه القراءة أو فاسأل يا محمد بني إسرائيل عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم، أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك أو لتسلي نفسك، أو لتعلم أنه تعالى لو أتى بما اقترحوا لأصروا على العناد والمكابرة كمن قبلهم، أو ليزداد يقينك لأن تظاهر الأدلة يوجب قوة اليقين وطمأنينة القلب وعلى هذا كان ﴿إِذْ﴾ نصباً بـ ﴿آيَاتِنَا﴾ أو بإضمار يخبروك على أنه جواب الأمر، أو بإضمار اذكر على الاستئناف. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ سحرت فتخطب عقلك.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَكْفُرُونَ مَثُورًا﴾ (١٠٢)

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون وقرأ الكسائي بالضم على إخباره عن نفسه. ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ﴾ يعني الآيات. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ بينات تبصرك صدقي ولكنك تعاند وانتصابه على الحال. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثُورًا﴾ مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر من قولهم: ما تبرك عن هذا، أي ما صرفك أو هالكاً قارع ظنه بظنه وشتان ما بين الظنين فإن ظن فرعون كذب بحت وظن موسى يحوم حول اليقين من تظاهر أماراته. وقرئ: «وإن أخالك يا فرعون لمثوراً» على إن المخففة واللام هي الفارقة.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ (١٠٣) ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ (١٠٤).

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون. ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أن يستخف موسى وقومه وينفيهم. ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال. ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فعكسنا عليه مكروه فاستفزناه وقومه بالإغراق. ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد فرعون أو إغراقه. ﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ الكرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥) ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فِرْقَانَهُ لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّنٍ مِنْ رَبِّنَا نُنَزِّلُ لَهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَنْزِيلُ﴾ (١٠٦).

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق المقتضي لإنزاله، وما نزل على الرسول إلا ملتبساً بالحق الذي اشتمل عليه. وقيل وما أنزلناه من السماء إلا محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخطيط الشياطين. ولعله أراد به نفي اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثواب. ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعاصي بالعقاب فلا عليك إلا التبشير والإنذار.

﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فِرْقَانَهُ﴾ نزلناه مفروقاً منجماً. وقيل فرقنا فيه الحق من الباطل فحذف الجار كما في قوله: ويوماً شهدناه، وقرئ بالتشديد لكثرة نجومه فإنه نزل في تضاعيف عشرين سنة. ﴿لِنَقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّنٍ﴾ على مهل وتؤدة فإنه أيسر للحفظ وأعون في الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. ﴿وَنُنَزِّلُ لَهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَنْزِيلُ﴾ على حسب الحوادث.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧).

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإن إيمانكم بالقرآن لا يزيده كمالاً وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ تعليل له أي إن لم تؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منكم وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من الميز بين المحق والمبطل، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب، ويجوز أن يكون تعليلاً لـ ﴿قُلْ﴾ على سبيل التسلية كأنه قيل: تسلم بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكثرث بإيمانهم وإعراضهم. ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله أو شكرياً لإنجاز وعده في تلك الكتب ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزال القرآن عليه.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ (١١٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝

﴿١١٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عن خلف الموعد. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنه كان وعده كائنًا لا محالة.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ﴾ كرهه لاختلاف الحال والسبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله، وذكر الذن لأنه أول ما يلقي الأرض من وجه الساجد، واللام فيه لاختصاص الخرور به. ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماع القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ كما يزيدهم علماً و يقيناً بالله.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١١٩).

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله يقول: يا الله يا رحمن فقالوا إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر. أو قالت اليهود: إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة، والمراد على الأول هو التسوية بين اللفظين بأنهما يطلقان على ذات واحدة وإن اختلف اعتبار إطلاقهما، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود المطلق وعلى الثاني أنهما سيان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود وهو أجود لقوله: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والدعاء في الآية بمعنى التسمية وهو يتعدى إلى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه، و ﴿مَا﴾ صلة لتأكيد ما في ﴿أَيًّا﴾ من الإبهام، والضمير في ﴿فَلَهُ﴾ للمسمى لأن التسمية له لا للاسم، وكان أصل الكلام ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ فهو حسن، فوضع موضعه فله الأسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه وكونها حسنى لدلالاتها على صفات الجلال والإكرام. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ بقراءة صلاتك حتى تسمع المشركين، فإن ذلك يحملهم على السب واللغو فيها. ﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ حتى لا تسمع من خلفك من المؤمنين. ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الجهر والمخافة. ﴿سَبِيلًا﴾ وسطاً فإن الاقتصاد في جميع الأمور محبوب. روي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وعمر رضي الله عنه كان يجهر ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع قليلاً وعمر أن يخفض قليلاً. وقيل معناه لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلاً بالإخفات نهاراً والجهر ليلاً.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا﴾ (١٢٠)

﴿١٢١﴾

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ في الألوهية. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ ولي يواليه من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته نفى عنه أن يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختياراً واضطراً، وما يعاونه ويقويه، ورتب الحمد عليه للدلالة على أنه الذي يستحق جنس الحمد لأنه الكامل الذات المنفرد بالإيجاد، المنعم على الإطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة، أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكَبِيرًا تَكْبِيرًا﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك.

روي أنه ﷺ كان إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية، وعنه عليه السلام «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين، كان له قنطار في الجنة» والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

(١٨) سورة الكهف

مكية وقيل إلا قوله **وَاجْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ** الآية

وهي مائة وإحدى عشرة آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ (١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ يعني القرآن، رتب استحقاق الحمد على إنزاله تنبيهاً على أنه أعظم نعمائه، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كمال العباد والداعي إلى ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا﴾ شيئاً من العوج باختلال في اللفظ وتناف في المعنى، أو انحراف من الدعوة إلى جناب الحق وهو في المعاني كالعوج في الأعيان.

﴿فِيمَا يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢) ﴿مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣).

﴿فِيمَا﴾ مستقيماً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط، أو «قيماً» بمصالح العباد فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على الكتب السابقة يشهد بصحتها، وانتصابه بمضمر تقديره جعله قيماً أو على الحال من الضمير في «له»، أو من «الكتاب» على أن الواو «ولم يجعل» للحال دون العطف، إذ لو كان للعطف لكان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه ولذلك قيل فيه تقديم وتأخير وقرئ «قيماً». ﴿يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً، فحذف المفعول الأول اكتفاء بدلالة القرينة واقتصاراً على الغرض المسوق إليه. ﴿مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ صادراً من عنده، وقرأ أبو بكر ياسكان الدال كإسكان الباء من سبع مع الإشمام ليدل على أصله، وكسر النون لإلتقاء الساكنين وكسر الهاء للإتباع. ﴿وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة.

﴿مَّا كُنْتُمْ فِيهِ﴾ في الأجر. ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاع.

﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤) ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥).

﴿وَيُنذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم، وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بذكره.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذ أو بالقول، والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب، أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به، فإنهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر. أو بالله إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه. ﴿وَلَا لِابَائِهِمْ﴾ الذين تقولوه بمعنى

التبني. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه إلى غير ذلك من الزيف، و ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز وقرئ بالرفع على الفاعلية والأول أبلغ وأدل على المقصود. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم، والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها. وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبرها هنا بمعنى بش وقرئ «كبرت» بالسكون مع الإشمام. ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلها. ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ إذا ولوا عن الإيمان، شبهه لما يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقه أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم. وقرئ «باخع نفسك» على الإضافة. ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم، والأسف فرط الحزن والغضب. وقرئ «أن» بالفتح على لأن فلا يجوز إعمال «باخع» إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ ﴿٨﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والمعادن. ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ ولأهلها ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو من زهد فيه ولم يغتر به وقع منه بما يزجي به أيامه وصرفه على ما ينبغي، وفيه تسكين لرسول الله ﷺ.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا﴾ ترهيد فيه، والجرز الأرض التي قطع نباتها. مأخوذ من الجر وهو القطع، والمعنى إنا لنعيد ما عليها من الزينة تراباً مستویاً بالأرض ونجعله كصعيد أملس لا نبات فيه.

﴿أَمَرَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾.

﴿أَمَّ حَسِبْتَ﴾ بل أحسبت. ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ في إبقاء حياتهم مدة مديدة. ﴿كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ وقصتهم بالإضافة إلى خلق ما على الأرض من الأجناس والأنواع الفاتنة للحصر على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تعجب الناظرين من مادة واحدة، ثم ردها إليها ليس بعجيب مع أنه من آيات الله كالنزر الحقير. و ﴿الكهف﴾ الغار الواسع في الجبل. و ﴿الرقيم﴾ اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم، أو اسم قريتهم أو كلبهم. قال أمية بن أبي الصلت:

وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا وَصَيْدُهُمُ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ مُجَدِّدٌ

أو لوح رصاصي أو حجري رقت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف. وقيل أصحاب الرقيم قوم آخرون كانوا ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم، فأخذتهم السماء فأووا إلى الكهف فأنحطت صخرة وسدت بابه. فقال أحدهم اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته، فقال أحدهم: استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجرهم، فغضب أحدهم وترك أجره فوضعه في جانب البيت، ثم مر بي بقر فاشترت به فصيلة فبلغت ما شاء الله، فرجع إلي بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال: إن لي عندك حقاً وذكره لي حتى عرفته فدفعتهما إليه جميعاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا، فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء. وقال آخر: كان في فضل وأصاب الناس شدة، فجاءني امرأة فطلبت مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت ثم رجعت ثلاثاً، ثم ذكرت لزوجها فقال أجبي له وأغيثي عيالك، فأنت وسلمت إلي نفسها فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت: ما لك قالت أخاف الله،

فقلت لها: خفته في الشدة ولم أخفه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتصها، اللهم إن كنت فعلته لوجهك فافرج عنا، فانصدع حتى تعارفوا. وقال الثالث كان لي أبوان هرمان وكانت لي غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمي فحبسني ذات يوم غيث فلم أبرح حتى أمسيت، فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت فيه ومضيت إليهما، فوجدتهما نائمين فشق علي أن أوقظهما، فتوقعت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلته لوجهك فافرج عنا. ففرج الله عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك نعمان بن بشير.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١٢).

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ يعني فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو. ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار. ﴿رَشَدًا﴾ نصير بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا كله رشداً كقولك: رأيت منك أسداً وأصل التهئية إحداث هيئة الشيء.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي ضربنا عليهم حجاباً يمنع السماع بمعنى أنماهم إنامة لا تنبههم فيها الأصوات، فحذف المفعول كما حذف في قولهم: بنى على امرأته. ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ﴾ ظرفان لضربنا. ﴿عَدَدًا﴾ أي ذوات عدد، ووصف السنين به يحتمل التكثير والتقليل، فإن مدة لبثهم كبعض يوم عنده.

﴿ثُمَّ بَشَّرْتَهُمْ إِنَّهُمْ لَحَيَوَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (١٣) ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٤).

﴿ثُمَّ بَشَّرْتَهُمْ﴾ أيقظناهم. ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولاً تعلقاً استقبالياً. ﴿أَيُّ الْحَيَوَيْنِ﴾ المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم. ﴿أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ضبط أمد الزمان لبثهم وما في أي من معنى الاستفهام علق عنه لنعلم، فهو مبتدأ و﴿أَحْصَى﴾ خبره. وهو فعل ماضٍ و﴿أَمَدًا﴾ مفعول له و﴿لَمَّا لَبِثُوا﴾ حال منه أو مفعول له، وقيل إنه المفعول واللام مزيدة وما موصولة و﴿أَمَدًا﴾ تمييز، وقيل ﴿أَحْصَى﴾ اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزوائد كقولهم: هو أحصى للمال وأفلس من ابن المذلق، و﴿أَمَدًا﴾ نصب بفعل دل عليه ﴿أَحْصَى﴾ كقوله:

وَاضْرِبْ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَائِمَا

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ بالصدق. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ شبان جمع فتى كصبي وصبية. ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ بالثبوت.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (١٥) ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٦).

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وقويناها بالصبر على هجر الوطن والأهل والمال، والجرأة على إظهار الحق والرد على دقيانوس الجبار. ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يديه. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ والله لقد قلنا قولاً ذا شطط أي ذا بعد عن الحق مفرط في الظلم.

﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ. ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان. ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ خبره، وهو إخبار في معنى إنكار. ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ﴾ هلا يأتون. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على عبادتهم. ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ببرهان ظاهر فإن الدين لا يؤخذ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود وأن التقليد فيه غير جائز. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه.

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦).

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب بعضهم لبعض. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، أي وإذا اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية على تقدير وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، وأن تكون نافية على أنه إخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين ﴿إِذْ﴾ وجوابه لتحقيق اعتزالهم. ﴿فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ يسط الرزق لكم ويوسع عليكم. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ في الدارين. ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، وجزمهم بذلك لنصوع يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر ﴿مرفقا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء وهو مصدر جاء شاذاً كالمرجع والمحيض فإن قياسه الفتح.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا﴾ (١٧).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ لو رأيتم، والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل أحد. ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، لأن الكهف كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زورها عنهم. وأصله تتزاور فادغمت التاء في الزاي، وقرأ الكوفيون بحذفها وابن عامر ويعقوب «تزوور» كتحممر، وقرأ «تزوور» كتحممر وكلها من الزور بمعنى الميل. ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ جهة اليمين وحقيقتها الجهة ذات اسم اليمين. ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم وتصرم عنهم. ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ يعني يمين الكهف وشماله لقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي وهم في متسع من الكهف، يعني في وسطه بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس، وذلك لأن باب الكهف في مقابلة بنات نعش، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه، والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبيه، ويحلل عقوته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبيي ثيابهم. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي شأنهم وإبواؤهم إلى كهف شأنه كذلك، أو إخبارك قصتهم، أو ازورار الشمس عنهم وقرضها طالعة وغاربة من آيات الله. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بالتوفيق. ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما النناء عليهم أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله للتأمل فيها والاستبصار بها. ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ ومن يخذله. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْشِدًا﴾ من يليه ويرشده.

﴿وَنَحْسَبُهُمْ آتِظَاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ (١٨).

﴿وَنَحْسَبُهُمْ آتِظَاً﴾ لانفتاح عيونهم أو لكثرة تقلبهم. ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رقدتهم.

﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ﴾ كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان. وقرىء «ويقلبهم» بالياء والضمير لله تعالى، و «تَقْلِبُهُمْ» على المصدر منصوباً بفعل يدل عليه تحسبهم أي وترى تقلبهم. ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ هو كلب مروا به فتبعهم فطرده فأنطقه الله تعالى فقال: أنا أحب أحياء الله فناموا وأنا أحرسكم. أو كلب راع مروا به فتبعهم وتبعه الكلب، ويؤيده قراءة من قرأ: «وكالبهم» أي وصاحب كلبهم. ﴿بَاسِطُ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل. ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بقاء الكهف، وقيل الوصيد الباب، وقيل العتبة. ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم، وقرىء «لَوْ أَطَّلَعْتَ» بضم الواو. ﴿لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فَرَارًا﴾ لهربت منهم، و «فَرَارًا» يحتمل المصدر لأنه نوع من التولية والعلة والحال. ﴿وَلَمَلِثْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ خوفاً يملأ صدرك بما ألبسهم الله من الهيبة أو لعظم أجرامهم وانفتاح عيونهم. وقيل لوحشة مكانهم. وعن معاوية رضي الله عنه أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال: لو كشفت لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فَرَارًا﴾ فلم يسمع ويعث ناساً فلما دخلوا جاءت ريح فأحرقتهم. وقرأ الحجازيان ﴿لَمَلِثْتُ﴾ بالتشديد للمبالغة وابن عامر والكسائي ويعقوب ﴿رُغْبًا﴾ بالتحليل.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَكَا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ وكما أنماهم آية بعثناهم آية على كمال قدرتنا. ﴿لِنَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ ليسأل بعضهم بعضاً فتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيزدادوا يقيناً على كمال قدرة الله تعالى، ويستبصروا به أمر البعث ويشكروا ما أنعم الله به عليهم. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناء على غالب ظنهم لأن النائم لا يحصي مدة نومه ولذلك أحالوا العلم إلى الله تعالى. ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول بعضهم وهذا إنكار الآخرين عليهم. وقيل إنهم دخلوا الكهف غدوة وانتبهوا ظهيرة ووطنوا أنهم في يومهم أو اليوم الذي بعده قالوا ذلك، فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا هذا ثم لما علموا أن الأمر ملتبس لا طريق لهم إلى علمه أخذوا فيما يهيمهم وقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ والورق الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وحمزة وروح عن يعقوب بالتخفيف. وقرىء بالتثنية وإدغام القاف في الكاف وبالتخفيف مكسور الواو مدغماً وغير مدغم، ورد المدغم لإلتقاء الساكنين على غير حده، وحملهم له دليل على أن التزود رأي المتوكلين والمدينة طرسوس. ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا﴾ أي أهلها. ﴿أَزْكَى طَعَامًا﴾ أحل وأطيب أو أكثر وأرخص. ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن، أو في التخفي حتى لا يعرف. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم، والضمير للأهل المقدر في ﴿أَيُّهَا﴾. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم. ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أو يصيروكم إليها كرهاً من العود بمعنى الصيرورة. وقيل كانوا أولاً على دينهم فأمّنوا. ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَا﴾ إن دخلتم في ملتهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنماهم وبعثناهم لتزداد بصيرتهم أطلعنا عليهم. ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم. ﴿أَنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث أو الموعود الذي هو البعث. ﴿حَقٌّ﴾ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأن القيامة لا ريب في إمكانها، فإن من توفى نفوس جميع الناس وأمسكها ثلاثمائة سنين حافظاً أبدانها عن التحلل والتفتت، ثم أرسلها إليها قدر أن يتوفى نفوس جميع الناس ممسكاً إياها إلى أن يحشر أبدانهم فيردها عليها. ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ ظرف لـ ﴿أَغْتَرْنَا﴾ أي أغترنا عليهم حين يتنازعون. ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أمر دينهم، وكان بعضهم يقول تبعث الأرواح مجردة وبعضهم يقول يبعثان معاً ليرتفع الخلاف ويتبين أنهما يبعثان معاً، أو أمر الفتية حين أماتهم الله ثانياً بالموت فقال بعضهم، ماتوا وقال آخرون ناموا نومهم أول مرة، أو قالت طائفة بنبي عليهم بنياناً يسكنه الناس ويتخذونه قرية، وقال آخرون لتتخذن عليهم مسجداً يصلى فيه كما قال تعالى: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وقوله ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ اعتراض إما من الله رداً على الخائضين في أمرهم من أولئك المتنازعين أو من المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازعين للرد إلى الله بعد ما تذكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم فلم يتحقق لهم ذلك. حكى أن المبعوث لما دخل السوق وأخرج الدراهم وكان عليها اسم دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك. وكان نصرانياً موحداً. فقص عليه القصص، فقال بعضهم: إن آبائنا أخبرونا أن فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء، فانطلق الملك وأهل المدينة من مؤمن وكافر وأبصروهم وكلموهم، ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس ثم رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا فدفنهم الملك في الكهف وبني عليهم مسجداً. وقيل لما انتهوا إلى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولاً لئلا يفزعوا، فدخل فعمي عليهم المدخل فبنوا ثم مسجداً.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٢٢﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين. ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة رجال يربعهم كلبهم بانضمامه إليهم. قيل هو قول اليهود وقيل هو قول السيد من نصارى نجران وكان يعقوبياً. ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قاله النصارى أو العاقب منهم وكان نسطورياً. ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرمون رمية بالخبر الخفي الذي لا مطلع لهم عليه وإتياناً به، أو ظناً بالغيب من قولهم رجم بالظن إذا ظن وإنما لم يذكر بالسين إكتفاء بعطفه على ما هو فيه. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ إنما قاله المسلمون بإخبار الرسول لهم عن جبريل عليهما الصلاة والسلام وإيماء الله تعالى إليه بأن اتبعه قوله ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وأتبع الأولين قوله رجماً بالغيب وبأن أثبت العلم بهم لطائفة بعد ما حصر أقوال الطوائف في الثلاثة المذكورة، فإن عدم إيراد رابع في نحو هذا المحل دليل العدم مع أن الأصل ينفيه، ثم رد الأولين بأن أتبعهما قوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ليتعين الثالث وبأن أدخل فيه الواو على الجملة الواقعة صفة للنكرة تشبيهاً لها بالواقعة حالاً من المعرفة، لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت. وعن علي رضي الله عنه هم سبعة وثامنهم كلبهم وأسماءهم: يملیخا ومكشلینیا

ومشلينيا هؤلاء أصحاب يمين الملك، ومرونش ودبرنوش وشاذنوش أصحاب يساره وكان يستشيرهم، والسابع الراعي الذي وافقهم واسم كلهم قطمير واسم مدينتهم أفسوس. وقيل الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب والقليل منهم. ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَاهِرٍ﴾ فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن من غير تجهيل لهم والرد عليهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد فإن فيما أوحى إليك لمندوحة من غيره، مع أنه لا علم لهم بها ولا سؤال متعنت تريد تفضيح المسؤول وتزيف ما عنده فإنه مخل بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْذَكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ (٢٤).

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ نهي تأديب من الله تعالى لنبيه حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذوي القرنين، فسألوه فقال: «اثنوني غداً أخبركم» ولم يستثن فابطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً حتى شق عليه وكذبت قريش. والاستثناء من النهي أي ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه إني فاعله فيما يستقبل إلا بـ ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، أي إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله أو إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله بمعنى أن يأذن لك فيه، ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهي ﴿وَادْذَكُرْ رَبَّكَ﴾ مشيئة ربك وقل إن شاء الله. كما روي أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرط منك نسيان لذلك ثم تذكرته. وعن ابن عباس ولو بعد سنة ما لم يحدث، ولذلك جوز تأخير الاستثناء عنه. وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب، وليس في الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك به من القول السابق بل هو من مقدر مدلول به عليه، ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه، أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليعتذك على التدارك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي. ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي﴾ يدلني. ﴿لَأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رشداً وأظهر دلالة على أنني نبي من نبأ أصحاب الكهف. وقد هداه لأعظم من ذلك كقصص الأنبياء المتباعدة عنه أيامهم، والإخبار بالغيوب والحوادث النازلة في الأعصار المستقبل إلى قيام الساعة، أو لأقرب رشداً وأدنى خيراً من المنسي.

﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمَا ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (٢٥).

﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمَا ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ يعني لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم، وهو بيان لما أجمل قبل. وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فقال بعضهم ثلاثمائة وقال بعضهم ثلاثمائة وتسع سنين. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ثَلَاثُمِائَةٍ سِنِينَ﴾ بالإضافة على وضع الجمع موضع الواحد، ويحسنه ها هنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف من الواحد وأن الأصل في العدد إضافته إلى الجمع ومن لم يضيف أبدل السنين من ثلاثمائة.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦).

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ له ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها، فلا خلق يخفى عليه علماً. ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾ ذكر بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عما

عليه إدراك السامعين والمبصرين، إذ لا يحجبه شيء ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف وصغير وكبير وخفي وجلي، والهاء تعود إلى الله ومحلّه الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سبويه وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر، ثم نقل إلى صيغة الأمر بمعنى الإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياق الصيغة له أو لزيادة الباء كما في قوله تعالى ﴿وَكُفِيَ بِهِ﴾ والنصب على المفعولية عند الأخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة إن كانت الهمزة للتعدية ومعدية إن كانت للصورورة. ﴿مَا لَهُمْ﴾ الضمير لأهل السموات والأرض. ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيِّ﴾ من يتولى أمورهم. ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ﴾ في قضائه. ﴿أَخَذًا﴾ منهم ولا يجعل له فيه مدخلا. وقرأ ابن عامر وقالون عن يعقوب بالتاء والجزم على نهى كل أحد عن الإشراك، ثم لما دل اشتغال القرآن على قصة أصحاب الكهف من حيث إنها من المغيبات بالإضافة إلى الرسول ﷺ على أنه وحى معجز أمره أن يداوم درسه ويلازم أصحابه فقال:

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨).

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن، ولا تسمع لقولهم: ﴿أنت بقرآن غير هذا أو بدله﴾. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره. ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملتجأ عليه إن هممت به.

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبسها وثبتها. ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في مجامع أوقاتهم، أو في طرفي النهار. وقرأ ابن عامر «بالغدوة» وفيه أن غدوة علم في الأكثر فتكون اللام فيه على تأويل التنكير. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ رضا الله وطاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، وتعديته بعن لتضمينه معنى نبا. وقرئ «ولا تعد عينك» «ولا تعد» من أعداء وعداء. والمراد نهى الرسول ﷺ أن يزدرى بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثائه زبهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ حال من الكاف في المشهورة ومن المستكن في الفعل في غيرها. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ من جعلنا قلبه غافلاً. ﴿عَنْ ذِكْرِنَا﴾ كامية بن خلف في دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش. وفيه تنبيه على أن الداعي له إلى هذا الاستدعاء غفلة قلبه عن المعقولات وانهماكه في المحسوسات، حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد، وأنه لو أطاعه كان مثله في الغباوة. والمعتزلة لما غاظهم إسناد الإغفال إلى الله تعالى قالوا: إنه مثل أجبتة إذا وجدته كذلك أو نسبته إليه، أو من أغفل إبله إذا تركها بغير سمة أي لم نسمه بذكرنا كقلوب الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان، واحتجوا على أن المراد ليس ظاهر ما ذكر أولاً بقوله: ﴿وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وجوابه ما مر غير مرة. وقرئ «أغفلنا» بإسناد الفعل إلى القلب على معنى حسنا قلبه غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخاة. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي تقدماً على الحق ونبذاً له وراء ظهره يقال: فرس فرط أي متقدم للخيل ومنه الفرط.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَزَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الحق ما يكون من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى، ويجوز أن يكون الحق خبر مبتدأ محذوف و ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ حالاً. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ لا أبالي بإيمان من آمن ولا كفر من كفر، وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله فإنه وإن كان بمشيئته فمشيئته ليست بمشيئته. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾

هَيَانًا. ﴿لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ فسطاطها، شبه به ما يحيط بهم من النار. وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط. وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العطش. ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ﴾ كالجسد المذاب. وقيل كدردى الزيت وهو على طريقة قوله: فأعتبوا بالصيلم. ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قدم ليشرب من فرط حرارته، وهو صفة ثانية لماء أو حال من المهل أو الضمير في الكاف. ﴿يَنْشُ الثَّرَابَ﴾ المهل. ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار. ﴿مُرْتَفَقًا﴾ متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد، وهو لمقابلة قوله ﴿وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر إن الأولى هي الثانية بما في حيزها، والراجع محذوف تقديره من أحسن عملاً منهم أو مستغنى عنه بعموم من أحسن عملاً كما هو مستغنى عنه في قولك: نعم الرجل زيد، أو واقع موقعه الظاهر فإن من أحسن عملاً لا يحسن إطلاقه على الحقيقة إلا على الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وما بينهما اعتراض وعلى الأول استئناف لبيان الأجر أو خبر ثان. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ من الأولى للإبتداء والثانية للبيان صفة لـ ﴿أَسَاوِرَ﴾، وتنكيره لتعظيم حسناتها من الإحاطة به وهو جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة. ﴿مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ نمارق من الديباج وما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين. ﴿مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر كما هو هيئة المتنعمين. ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها. ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ متكأ.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢).

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ للكافر والمؤمن. ﴿رَجُلَيْنِ﴾ حال رجلين مقدرين أو موجودين هما أخوان من بني إسرائيل كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى. وقيل الممثل بهما أخوان من بني مخزوم كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين. ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ من كروم والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة للرجلين. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطة بهما مؤزرأ بها كرومهما، يقال حفه القوم إذا أطافوا به وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولاً ثانياً كقولك: غشيت به. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطهما. ﴿زَرْعًا﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه متواصل العمارة على الشكل الحسن والترتيب الأنيق.

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (٣٣) ﴿وَكَاثَ لَمْ نَمُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا﴾ ثمرها، وإفراد الضمير لإفراد ﴿كَلْنَا﴾ وقرىء «كل الجنتين آتى أكله». ﴿وَلَمْ

تَظْلِمُ مِنْهُ» ولم تنقص من أكلها. ﴿شَيْئًا﴾ يعهد في سائر البساتين فإن الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالباً. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ ليدوم شربهما فإنه الأصل ويزيد بهاؤهما، وعن يعقوب ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بالتخفيف.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين من ثمر ماله إذا كثره. وقرأ عاصم بفتح الثاء والميم، وأبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم والباقون بضمهما وكذلك في قوله ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه في الكلام من حار إذا رجع. ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ حَشَمًا وأعواناً. وقيل أولاداً ذكوراً لأنهم الذين ينفرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها، وإفراد الجنة لأن المراد ما هو جنته وما متع به من الدنيا تنبيهاً على أن لا جنة له غيرها ولا حظ له في الجنة التي وعد المتقون، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول يكون في واحدة واحدة. ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ ضار لها بعجبه وكفره ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أن تفتنى. ﴿هَذِهِ﴾ الجنة. ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كائنة. ﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث كما زعمت. ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا﴾ من جنته، وقرأ الحجازيان والشامي «منهما» أي من الجنتين. ﴿مُنْقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبة لأنها فانية وتلك باقية، وإنما أقسم على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه لاستتهاله واستحقاقه إياه لذاته وهو معه أينما تلقاه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه أصل مادتك أو مادة أصلك. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فإنها مادتك القريبة. ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ثم عدلك وملكك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال. جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب فإن من قدر على بدء خلقه منه قدر أن يعيده منه.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أصله لكن أنا فحذفت الهمزة بنقل الحركة أو دونه فتلاقت النونان فكان الإدغام، وقرأ ابن عامر ويعقوب في رواية بالألف في الوصل لتعويضها من الهمزة أو لإجراء الوصل مجرى الوقف، وقد قرئ «لكننا أنا» على الأصل وهو ضمير الشأن وهو بالجملة الواقعة خبراً له خبر «أنا» أو ضمير «الله» و «الله» بدله وربى خبره والجملة خبر «أنا» والاستدراك من أكفرت كأنه قال: أنت كافر بالله لكني مؤمن به، وقد قرئ «لكن هو الله ربي ولكن أنا لا إله إلا هو ربي».

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ وهلا قلت عند دخولها. ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأمر ما شاء أو ما شاء كائن على أن ما موصولة، أو أي شيء شاء الله كان على أنها شرطية والجواب محذوف إقراراً بأنها وما فيها بمشيئة الله إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وقلت لا قوة إلا بالله اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وإن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فمعموته وإقداره. وعن النبي ﷺ «من رأى شيئاً فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره». ﴿إِنْ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا﴾ يحتمل أن يكون فصلاً وأن يكون

تأكيداً للمفعول الأول، وقرئ «أقل» بالرفع على أنه خبر «أنا» والجملة مفعول ثاني لـ «تَرَنَ»، وفي قوله «وولداً» دليل لمن فسر النفر بالأولاد.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۖ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبْنَا ۖ﴾ (٤١).

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ في الدنيا أو في الآخرة لإيماني وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنتك لكفرتك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق. وقيل هو مصدر بمعنى الحساب والمراد به التقدير بتخريبها أو عذاب حساب الأعمال السيئة. ﴿فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساء يزلق عليها باستئصال نباتها وأشجارها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض مصدر وصف به كالزلق. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَمْ طَلَبْنَا﴾ للماه الغائر تردداً في رده.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْنِيهِ عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۖ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِصًا ۖ﴾ (٤٢).

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ وأهلك أمواله حسبما توقعه صاحبه وأندره منه، وهو مأخوذ من أحاط به العدو فإنه إذا أحاط به غلبه وإذا غلبه أهلكه، ونظيره أتى عليه إذا أهلكه من أتى عليهم العدو إذا جاءهم مستعلاً عليهم. ﴿فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْنِيهِ﴾ ظهراً لبطن تلهفاً وتحسراً. ﴿عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا﴾ في عمارتها وهو متعلق بـ «يقطب» لأن قلب الكفين كناية عن الندم فكانه قيل: فاصبح يندم، أو حال أي متحسراً على ما أئفق فيها. ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقطت عروشها على الأرض وسقطت الكروم فوقها عليها. ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على «يقطب» أو حال من ضميره. ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يهلك الله بستانه، ويحتمل أن يكون توبة من الشرك وندماً على ما سبق منه.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء لتقدمه. ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ يقدرون على نصره بدفع الإهلاك أو رد المهلك أو الإتيان بمثله. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فإنه القادر على ذلك وحده. ﴿وَمَا كَانَ مُنْصِصًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۖ﴾ (٤٣).

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وتلك الحال. ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ النصرة له وحده لا يقدر عليها غيره تقديراً لقوله «ولم تكن له فتنة ينصرونه» أو ينصر فيها أوليائه المؤمنين على الكفرة كما نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن وبعضه قوله: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا» أي لأوليائه. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر ومعناها السلطان والملك أي هنالك السلطان له لا يغلب ولا يمنع منه، أو لا يعبد غيره كقوله تعالى ﴿فَإِذَا رَكبُوا الْفَلَكَ﴾ دعوا الله مخلصين له الدين فيكون تنبيهاً على أن قوله «يا ليتني لم أشرك» كان عن اضطراب وجزع مما دهاه. وقيل «هنالك» إشارة إلى الآخرة وقرأ أبو عمرو والكسائي «الحق» بالرفع صفة للولاية، وقرئ بالنصب على المصدر المؤكد، وقرأ عاصم وحمزة «عُقْبًا» بالسكون، وقرئ «عُقْبَى» وكلها بمعنى العاقبة.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا لِّلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ۖ﴾

الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ .

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ واذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها أو صفتها الغربية. ﴿كَمَاءٍ﴾ هي كماء ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لـ ﴿اضْرِبْ﴾ على أنه بمعنى صير. ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتفت بسببه وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، أو نجع في النبات حتى روي ورف وعلى هذا كان حقه فاختلط نبات الأرض لكنه لما كان كل من المختلطين موصوفاً بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ مهشوماً مكسوراً. ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ تفرقه، وقرئ «تذريه» من أذرى والمشبّه به ليس الماء ولا حاله بل الكيفية المنتزعة من الجملة، وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفاً ثم هشيماً تطيره الرياح فيصير كأن لم يكن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء. ﴿مُقْتَدِرًا﴾ قادراً.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتزين بها الإنسان في دنياء وتفننى عنه عما قريب. ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الآباد، ويندرج فيها ما فسرت به من الصلوات الخمس وأعمال الحج وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدة. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمل بها في الدنيا.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ واذكر يوم نقلعها ونسيرها في الجو، أو نذهب بها فنجعلها هباء منبثاً. ويجوز عطفه على ﴿عند ربك﴾ أي الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر تسير بالتاء والبناء للمفعول وقرئ «تسير» من سارت. ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ بادية برزت من تحت الجبال ليس عليها ما يسترها، وقرئ «وترى» على بناء المفعول. ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ وجمعناهم إلى الموقف، ومجيئه ماضياً بعد «نسير» «وترى» لتحقيق الحشر أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وعد لهم، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار قد. ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ فلم نترك. ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر لترك الوفاء والغدير لما غادره السيل، وقرئ بالياء.

﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرْوَلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ شبه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان لا ليعرفهم بل ليأمر فيهم. ﴿صَفًّا﴾ مصطفين لا يحجب أحد أحداً. ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالاً أو عاملاً في يوم نسير. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة لا شيء معكم من المال والولد كقوله ﴿ولقد جئتمونا فرادى﴾ أو أحياء كخلقتكم الأولى لقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز الوعد بالبعث والنشور وأن الأنبياء كذبوكم به، ويل للخروج من قصة إلى أخرى.

﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ﴾ صحائف الأعمال في الإيمان والشمائل أو في الميزان وقيل هو كناية عن وضع

الحساب. ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من الذنوب. ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات. ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ تعجباً من شأنه. ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ هنة صغيرة. ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ إلا عددها وأحاط بها. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مكتوباً في الصحف. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ كرهه في مواضع لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك المحال، وما هنا لما شنع على المفتخرين واستقبح صنيعهم قرر ذلك بأنه من سنن إبليس، أو لما بين حال المغرور بالدنيا والمعرض عنها وكان سبب الاغترار بها حب الشهوات وتسويل الشيطان. زهدهم أولاً في زخارف الدنيا بأنها عرضة الزوال والأعمال الصالحة خير وأبقى من أنفسها وأعلاها، ثم نفرهم عن الشيطان بتذكير ما بينهم من العدواة القديمة وهكذا مذهب كل تكرير في القرآن. ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ حال بإضمار قد أو استئناف للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجد فقبل كان من الجن. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ فخرج عن أمره بترك السجود والفاء للسبب، وفيه دليل على أن الملك لا يعصى البتة وإنما عصى إبليس لأنه كان جنياً في أصله والكلام المستقصى فيه في سورة «البقرة». ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ﴾ أعقيب ما وجد منه تتخذونه والهمزة للإنكار والتعجب. ﴿وَذُرِّيَّتَهُ﴾ أولاده أو أتباعه، وسماهم ذرية مجازاً. ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدل طاعتي. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى، إبليس وذريته.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾. نفي إحضار إبليس وذريته خلق السموات والأرض وإحضار بعضهم خلق بعض ليدل على نفي الاعتضاد بهم في ذلك كما صرح به بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي أعواناً رداً لاتخاذهم أولياء من دون الله شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية والاشتراك فيه يستلزم الاشتراك فيها، فوضع «المضلين» موضع الضمير ذماً لهم واستبعاداً للاعتضاد بهم. وقيل الضمير للمشركين والمعنى: ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا تبعهم الناس كما يزعمون، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين فإنه لا ينبغي لي أن أعتضد بالمضلين لديني. وبعضه قراءة من قرأ ﴿وَمَا كُنْتُمْ﴾ على خطاب الرسول ﷺ، وقرئ «متخذاً المضلين» على الأصل و«عضداً» بالتخفيف و«عضداً» بالاتباع و«عضداً» كخدم جمع عاضد من عضده إذا قواه.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي الله تعالى للكافرين وقرأ حمزة بالنون. ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي وشفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي، وإضافة الشركاء على زعمهم للتوبيخ والمراد ما عبد من دونه، وقيل إبليس وذريته. ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادوهم للإغاثة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين الكفار وآلهمتهم. ﴿مَوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة هي في شدتها هلاك كقول عمر رضي الله عنه: لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً. وموبقاً اسم مكان أو مصدر من وبق يوبق وبقاً إذا هلك. وقيل البين الوصل أي وجعلنا تواصلهم في الدنيا هلاكاً يوم القيامة.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ .

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ فأيقنوا. ﴿أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا﴾ مخالطوها واقعون فيها. ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرفاً أو مكاناً ينصرفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل جنس يحتاجون إليه. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ يتأتى منه الجدال. ﴿جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل وانتصابه على التمييز.

﴿وَمَا مَنَّ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ .

﴿وَمَا مَنَّ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ من الإيمان. ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول الداعي والقرآن المبين. ﴿وَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ومن الاستغفار من الذنوب. ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا طلب أو انتظار أو تقدير أن تأتيتهم سنة الأولين، وهي الاستئصال فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عذاب الآخرة. ﴿قُبُلًا﴾ عياناً. وقرأ الكوفيون ﴿قُبُلًا﴾ بضمين وهو لغة فيه أو جمع قبيل بمعنى أنواع، وقرئ بفتحين وهو أيضاً لغة يقال لقيته مقابلة وقبلاً وقبلاً وقبلياً، وانتصابه على الحال من الضمير أو ﴿الْعَذَابُ﴾.

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۖ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾ .

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ للمؤمنين والكافرين. ﴿يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتاً. ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ ليزيلوا بالجدال. ﴿الْحَقَّ﴾ عن مقره ويطلوه، من إحداث القدم وهو إزلاقها وذلك قولهم للرسول ﴿ما أتم إلا بشر مثلنا﴾ ﴿ولو شاء الله لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ ونحو ذلك. ﴿وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي﴾ يعني القرآن. ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾ وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب. ﴿هُزُوًا﴾ استهزاء. وقرئ «هزاً» بالسكون وهو ما يستهزأ به على التقديرين.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَيْدَا ۝٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ۝٥٨﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بالقرآن. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم. ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه، وتذكير الضمير وإفراده للمعنى. ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه. ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَيْدَا﴾ تحقيقاً ولا تقليداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون وإذا كما عرفت جزاء وجواب للرسول ﷺ على تقدير قوله ما لي لا أدعوهم، فإن حرصه ﷺ على إسلامهم يدل عليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ البليغ المغفرة. ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الموصوف بالرحمة. ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استشهاد على ذلك بامهال قريش مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ. ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وهو يوم

بدر أو يوم القيامة. ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ منجأ ولا ملجأ، يقال وأل إذا نجا ووال إليه إذا لجأ إليه.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَفْلَكْتُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩).

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ يعني قرى عاد وثمود وأضرابهم، ﴿وتلك﴾ مبتدأ خبره. ﴿أفلكتاهم﴾ أو مفعول مضمر مفسر به، و ﴿القرى﴾ صفته ولا بد من تقدير مضاف في أحدهما ليكون مرجع الضمائر. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كقرش بالكذب والمراء وأنواع المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ لإهلاكهم وقتاً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم، وقرأ أبو بكر ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام أي لهلاكهم، وحفص بكسر اللام حملاً على ما شذ من مصادر يفعل كالمراجع والمحيض.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ (٦٠).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مقدر بذكر. ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم الصلاة والسلام فإنه كان يخدمه ويتبعه ولذلك سماه فتاه وقيل لعبده. ﴿لَا أُبْرَحُ﴾ أي لا أزال أسير فحذف الخبر لدلالة حاله وهو السفر وقوله: ﴿حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ من حيث إنها تستدعي ذا غاية عليه، ويجوز أن يكون أصله لا يبرح مسيري حتى أبلغ على أن حتى أبلغ هو الخبر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فانقلب الضمير والفعل وأن يكون ﴿لَا أُبْرَحُ﴾ هو بمعنى لا أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه فلا يستدعي الخبر، و ﴿مجمع البحرين﴾ ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وعَدَ لقاء الخضر فيه. وقيل البحران موسى وخضر عليهما الصلاة والسلام فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن. وقرىء «مجمع» بكسر الميم على الشذوذ من يفعل كالمشرق والمطلع ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً، والمعنى حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضي الحقب أو حتى أبلغ إلا أن أمضي زماناً أتيقن معه فوات المجمع، والحقب الدهر وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون. روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك فقال: لا، فأوحى الله إليه بل أعلم منك عبدنا الخضر وهو بمجمع البحرين، وكان الخضر في أيام افريدون وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر وبقي إلى أيام موسى. وقيل إن موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأبي عبادك أفضى، قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال فأبي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، فقال إن كان في عبادك أعلم مني فادلني عليه، قال أعلم منك الخضر قال: أين أطلبه، قال على الساحل عند الصخرة، قال كيف لي به قال تأخذ حوتاً في مكتل فحيث فقدته فهو هناك، فقال لفناه إذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٦١) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا

غَدَاءَنَا لَقَدْ لَغِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَضَبًا﴾ (٦٢).

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أي مجمع البحرين و ﴿بينهما﴾ ظرف أضيف إليه على الاتساع أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه الصلاة والسلام أن يطلبه ويتعرف حاله، ويوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. روي: أن موسى عليه السلام رقد فاضطرب الحوت المشوي ووثب في البحر معجزة لموسى أو الخضر. وقيل توطأ يوشع من عين الحياة فانتضح الماء عليه فعاش ووثب في الماء. وقيل نسيا تفقد أمره وما يكون منه أمانة على الظفر بالمطلوب ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فاتخذ الحوت

طريقه في البحر مسلکاً من قوله ﴿وسارب بالنهار﴾. وقيل أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه، ونصبه على المفعول الثاني وفي البحر حال منه أو من السيل ويجوز تعلقه باتخذ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين. ﴿قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءُنَا﴾ ما نتغدى به. ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ قيل لم ينصب حتى جاوز الموعد فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقي عليه الجوع والنصب. وقيل لم يعي موسى في سفر غيره ويؤيده التقييد باسم الإشارة.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ (٦٣).

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا﴾ أرايت ما دهاني إذ أويانا. ﴿إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يعني الصخرة التي رقد عندها موسى. وقيل هي الصخرة التي دون نهر الزيت. ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت منه. ﴿وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان فإن ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل من الضمير، وقرئ «أن أذكره». وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه، والحال وإن كانت عجيبة لا ينسى مثلها لكنه لما ضرى بمشاهدة أمثالها عند موسى وألفها قل اهتمامه بها، ولعله نسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار وانجذاب شراشره إلى جناب القدس بما عراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبته إلى الشيطان هضماً لنفسه أو لأن عدم احتمال القوة للجانبين واشتغالها بأحدهما عن الآخر يعد من نقصان. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ سبيلاً عجباً وهو كونه كالسرب أو اتخاذ عجباً، والمفعول الثاني هو الظرف وقيل هو مصدر فعله المضمر أي قال في آخر كلامه، أو موسى في جوابه عجباً تعجباً من تلك الحال. وقيل الفعل لموسى أي اتخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرَادْنَا عَلَى أَثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥).

﴿قَالَ ذَلِكَ﴾ أي أمر الحوت. ﴿مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ نطلب لأنه أمانة المطلوب. ﴿فَأَرَادْنَا عَلَى أَثَارِهِمَا﴾ فرجعنا في الطريق الذي جاء فيه. ﴿قَصَصًا﴾ يقصان قصصاً أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتضين حتى أتيا الصخرة. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ الجمهور على أنه الخضر عليه السلام واسمه بلياً بن ملكان، وقيل اليسع، وقيل إلياس. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ هي الوحي والنبوة. ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ﴾ على شرط أن تعلمني، وهو في موضع الحال من الكاف. ﴿مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ علماً ذا رشد وهو إصابة الخير، وقرأ البصريان بفتحيتين وهما لغتان كالبيخل والبخل، وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَ﴾ ومفعول ﴿علمت﴾ العائد المحذوف وكلاهما منقولان من علم الذي له مفعول واحد، ويجوز أن يكون رشداً علة لأتبعك أو مصدراً بإضمار فعله، ولا يتنافى نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه فيما بعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ .

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجوه من التأكيد كأنها مما لا يصح ولا يستقيم وعمل ذلك واعتذر عنه بقوله .

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي وكيف تصبر وأنت نبي على ما أتولى من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك، وخبراً تميز أو مصدر لأن لم تحط به بمعنى لم تخبره .

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩) قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ .

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير منكر عليك . ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطف على صابراً أي ستجدني صابراً وغير عاص، أو على ستجدني . وتعليق الوعد بالمشيئة إما للتيمن وخلفه ناسياً لا يقدر في عصمته أو لعلمه بصعوبة الأمر، فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد فلا خلف، وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى .

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ فلا تفتاحنني بالسؤال عن شيء أنكرته مني ولم تعلم وجه صحته . ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أبتدئك ببيانه، وقرأ نافع وابن عامر ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بالنون الثقيلة .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِيُفْرَقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ .

﴿فَانْطَلَقَا﴾ على الساحل يطلبان السفينة، ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً فخرق السفينة بأن قلع لوحين من ألواحها . ﴿قَالَ أَخَرَقَهَا لِيُفْرَقَ أَهْلُهَا﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها . وقرئ «لِيُفْرَقَ» بالتشديد للتكثير . وقرأ حمزة والكسائي «ليُفْرَقَ أهلها» على إسناده إلى الأهل . ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أتيت أمراً عظيماً من أمر الأمر إذا عظم . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ تذكير لما ذكره قبل .

﴿قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ (٧٣) .

﴿قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيت أو شيء نسيت، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه أو بنسياني إياها، وهو اعتذار بالنسيان أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذه مع قيام المانع لها . وقيل أراد بالنسيان الترك أي لا تأخذني بما تركت من وصيتك أول مرة . وقيل إنه من معاريض الكلام والمراد شيء آخر نسيه . ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ ولا تغشني عسراً من أمري بالمضايقة والمؤاخذه على المنسي، فإن ذلك يعسر على متابعتك و «عسراً» مفعول ثان لترهق فانه يقال : رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه، وقرئ «عُسْرًا» بضميتين .

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) .

﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي بعد ما خرجا من السفينة . ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل قتل عنقه، وقيل ضرب برأسه الحائط، وقيل أضجعه فذبحه والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير ترو واستكشاف حال ولذلك : ﴿قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي طاهرة من الذنوب، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ورويس عن يعقوب «زاكية» والأول أبلغ، وقال أبو عمرو الزاكية التي لم تذب قط والزكية التي أذنبت ثم غفرت، ولعله اختار

الأول لذلك فإنها كانت صغيرة ولم تبلغ الحلم أو أنه لم يرها قد أذنت ذنباً يقتضي قتلها، أو قتلت نفسها فتقاد بها، نبه به على أن القتل إنما يباح حداً أو قصاصاً وكلا الأمرين منتف، ولعل تغيير النظم بأن جعل خرقها جزاء، واعتراض موسى عليه الصلاة والسلام مستأنفاً في الأولى وفي الثانية قتله من جملة الشرط واعتراضه جزاء، لأن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديراً بأن يجعل عمدة الكلام ولذلك فصله بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ أي منكراً، وقرأ نافع في رواية قالون وورش وابن عامر ويعقوب وأبو بكر ﴿نُكْرًا﴾ بضمين.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ زاد فيه ﴿لَكَ﴾ مكافحة بالعتاب على رفض الوصية، ووسماً بقلّة الثبات والصبر لما تكرر منه الاشتزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير أول مرة حتى زاد في الاستنكار ثاني مرة.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ وإن سألت صحبتك، وعن يعقوب «فلا تصحيني» أي فلا تجعلني صاحبك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات. وعن رسول الله ﷺ «رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب». وقرأ نافع «من لدني» بتحريك النون والاكفاء بها عن نون الدعامة كقوله: قَدْ نِي مِنْ نُصْرِ الْحَيِّينِ قُدَى. وأبو بكر «لدني» بتحريك النون وإسكان الضاد من عضد.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ قرية أنطاكية وقيل أبله البصرة. وقيل باجروان أرمينية. ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرئ «يضيّفوهما» من أضافه يقال ضافه إذا نزل به ضيفاً وأضافه وضيفه أنزله، وأصل التركيب للميل يقال ضاف السهم عن الغرض إذا مال. ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشاركة كما استعير لها الهم والعزم قال:

يُرِيدُ الرُّفْحَ صَدَرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَغْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ
وقال:

إِنْ ذَهَبَ يَلْمُ شَفْلِي بِجَمَلٍ لَزِمَانٍ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ

وانقض انفعل من قضضته إذا كسرتة، ومنه انقضاض الطير والكواكب لهويه، أو أفعل من النقص. وقرئ «أن ينقض» و «أن ينقاض» بالصاد المهملة من انقاضت السن إذا انشقت طولاً. ﴿فَأَقَامَهُ﴾ بعمارته أو بعمود عمده به، وقيل مسح يده فقام. وقيل نقضه وبناه. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضاً على أخذ الجعل ليتعشا به، أو تعريضاً بأنه فضول لما في ﴿لو﴾ من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك نفسه، واتخذ افتعل من اتخذ كاتبع من تبع وليس من الأخذ عند البصريين، وقرأ ابن كثير والبصريان «لتخذت» أي لأخذت وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الدال وأدغمه الباقون.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨).

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله ﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي﴾ أو إلى الاعتراض

الثالث، أو الوقت أي هذا الاعتراض سبب فراقنا أو هذا الوقت وقته، وإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع، وقد قرئ على الأصل. ﴿سَأْتِيَنَّكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكراً من حيث الظاهر.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩).

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لمحاويع، وهو دليل على أن المسكين يطلق على من يملك شيئاً إذا لم يكفه. وقيل سمووا مساكين لعجزهم عن دفع الملك أو لزمانتهم فإنها كانت لعشرة إخوة خمسة زمني وخمسة يعملون في البحر. ﴿فَأَرْدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا﴾ أن أجعلها ذات عيب. ﴿وَوَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ قَدَامَهُمْ أَوْ خَلْفَهُمْ وَكَانَ رَجُوعُهُمْ عَلَيْهِ، واسمه جلندي بن كركر، وقيل منوار بن جلندي الأزدي. ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ من أصحابها. وكان حق النظم أن يتأخر قوله ﴿فَأَرْدْتُ أَنْ أُعِيبَهَا﴾ عن قوله ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ لأن إرادة التعيب مسببة عن خوف الغصب وإنما قدم للعناية أو لأن السبب لما كان مجموع الأمرين خوف الغصب ومسكنة الملاك رتبته على أقوى الجزأين وأدعاهما وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والتتميم، وقرئ «كل سفينة صالحة» والمعنى عليها.

﴿وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) ﴿فَأَرْدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ (٨١).

﴿وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يغشيهما. ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوبه فيلحقهما شراً، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يعديهما بعلته فيرتدا بإضلاله، أو بممالاته على طغيانه وكفره حباً له. وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن نجدة الحروري كتب إليه كيف قتله وقد نهى النبي ﷺ عن قتل الولدان، فكتب إليه إن كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل. وقرئ «فخاف ربك» أي فكره كراهة من خاف سوء عاقبته، ويجوز أن يكون قوله ﴿فخشيناً﴾ حكاية قول الله عز وجل.

﴿فَأَرْدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَهْمًا خَيْرًا مِنْهُ﴾ أن يرزقهما ولداً خيراً منه. ﴿زَكَاةً﴾ طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. ﴿وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ رحمة وعطفاً على والديه. قيل ولدت لهما جارية فتزوجها نبي فولدت له نبياً هدى الله به أمة من الأمم، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يبدلهم﴾ بالتشديد وابن عامر ويعقوب وعاصم ﴿رحماً﴾ بالتخفيف، وانتصابه على التمييز والعامل اسم التفضيل وكذلك ﴿زكاة﴾.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢).

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ قيل اسمهما أصرم وصريم، واسم المقتول جيسور. ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ من ذهب وفضة، روي ذلك مرفوعاً والزم على كنزهما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ لمن لا يؤدي زكاتها وما تعلق بهما من الحقوق. وقيل من كتب العلم. وقيل كان لروح من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب،

وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه. قيل كان بينهما وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء وكان سياحاً واسمه كاشع. ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي الحلم وكمال الرأي. ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَثْرَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مرحومين من ربك، ويجوز أن يكون علة أو مصدراً لأراد فإن إرادة الخير رحمة. وقيل متعلق بمحذوف تقديره فعلت ما فعلت رحمة من ربك، ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشر للتعييب وثانياً إلى الله وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين. أو لأن الأول في نفسه شر، والثالث خير، والثاني ممتزج. أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط. ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ وما فعلت ما رأيته. ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ عن رأيي وإنما فعلته بأمر الله عز وجل، ومبني ذلك على أنه إذا تعارض ضرران يجب تحمل أھونھما لدفع أعظمھما، وهو أصل ممهد غير أن الشرائع في تفاصيله مختلفة. ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي ما لم تستطع فحذف التاء تخفيفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه، فلعل فيه سراً لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم، ويراعي الأدب في المقابل وأن ينبه المجرم على جرمه ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره ثم يهاجر عنه.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ﴾ يعني إسكندر الرومي ملك فارس والروم. وقيل المشرق والمغرب ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل كان له قرنان أي ضفيران، وقيل كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كانه ينطح أقرانه. واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه، والسائلون هم اليهود سألوهم امتحاناً أو مشركو مكة. ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ خطاب للسائلين والهاء لذي القرنين. وقيل لله.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي مكنا له أمره من التصرف فيها كيف شاء فحذف المفعول. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه. ﴿سَبِيًّا﴾ وصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة.

﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦).

﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع سبياً يوصله إليه، وقرأ الكوفيون وابن عامر بقطع الألف مخففة التاء.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأ من حمئت البئر إذا صارت ذات حمأة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر «حامية» أي حارة، ولا تنافي بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين أو «حمية» على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فأراها كذلك إذ لم يكن في مفتح بصره غير الماء ولذلك قال ﴿وجدتها تغرب﴾ ولم يقل كانت تغرب. وقيل إن ابن عباس سمع معاوية يقرأ «حامية» فقال «حمئة» فبعث معاوية إلى كعب الأحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطنين كذلك نجده في التوراة ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ عند تلك العين. ﴿قَوْمًا﴾ قيل كان لباسهم جلود

الوحش وطعامهم ما لفظه البحر، وكانوا كفاراً فخيره الله بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان كما حكي بقوله «قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتُ تُعَذَّبُ» أي بالقتل على كفرهم. «وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» بالإرشاد وتعليم الشرائع. وقيل خيره الله بين القتل والأسر وسماه إحساناً في مقابلة القتل ويؤيده الأول قوله:

«قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ الْحَسَنُ وَهُمْ فِيهَا مُقَرَّبُونَ ﴿٨٨﴾».

«قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا» أي فاختار الدعوة وقال: أما من دعوته فظلم نفسه بالإصرار على كفره أو استمر على ظلمه الذي هو الشرك فتعذبه أنا ومن معي في الدنيا بالقتل، ثم يعذبه الله في الآخرة عذاباً منكرًا لم يعهد مثله.

«وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا» وهو ما يقتضيه الإيمان. «فَلَهُ» في الدارين. «جَزَاءُ الْحُسْنَى» فعلته الحسنی. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص «جزاء» منوناً منصوباً على الحال أي فله المثوبة الحسنی مجزياً بها، أو على المصدر لفعله المقدر حالاً أي يجزي بها جزاء أو التمييز، وقرئ منصوباً غير منون على أن تنوينه حذف لالتقاء الساكنين ومنوناً مرفوعاً على أنه المبتدأ و «الحسنی» بدله، ويجوز أن يكون «أما» و «أما» للتقسيم دون التخيير أي ليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان، فالأول لمن أصر على الكفر والثاني لمن تاب عنه، ونداء الله إياه إن كان نبياً فبوحى وإن كان غيره فيإلهام أو على لسان نبي. «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا» بما نأمر به. «يُسْرًا» سهلاً ميسراً غير شاق وتقديره ذا يسر، وقرئ بضميتين.

«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾».

«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا» ثم أتبع طريقاً يوصله إلى المشرق.

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ» يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من معمورة الأرض، وقرئ بفتح اللام على إضمار مضاف أي مكان مطلع الشمس فإنه مصدر. «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا» من اللباس أو البناء، فإن أرضهم لا تمسك الأبنية أو أنهم اتخذوا الأسراب بدل الأبنية.

«كَذَٰلِكَ» أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو «نجعل» أو صفة قوم أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم. «وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ» من الجنود والآلات والعدد والأسباب. «خُبْرًا» علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير.

«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾».

«ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا» يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال.

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ» بين الجبلين المبني بينهما سده وهما جبلا أرمينية وأذربيجان. وقيل جبلان منيفان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك من ورائهما ياجوج وماجوج. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «بَيْنَ السَّدَيْنِ» بالضم وهما لغتان. وقيل المضموم لما خلقه الله تعالى والمفتوح لما عمله الناس لأنه في الأصل مصدر سمي به حدث يحدثه الناس. وقيل بالعكس وبين ها هنا مفعول به

وهو من الظروف المتصرفة. ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم. وقرأ حمزة والكسائي «لا يفقهون» أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لتلغتهم فيه.

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (٩٤) قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) أَتُؤْتِي زُبْرَ الْحَدِيدِ حَقًّا إِذَا سَأَوُا بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَتَفْخُوهَا حَقًّا إِذَا جَعَلُهُ نَارًا قَالَ أَتُؤْتِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦).

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ قال مترجمهم وفي مصحف ابن مسعود قال «الذين من دونهم». ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح، وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجبل. وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقيل عربيان من أج الظليم إذا أسرع وأصلهما الهمز كما قرأ عاصم ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث. ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع. قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه، وقيل كانوا يأكلون الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جعلاً نخرجه من أموالنا. وقرأ حمزة والكسائي «خراجاً» وكلاهما واحد كالنول والنوال. وقيل الخراج على الأرض والذمة والخرج المصدر. ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحجز دون خروجهم علينا وقد ضمه من ضم «السدين» غير حمزة والكسائي.

﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ما جعلني فيه مكيناً من المال والملك خير مما تبدلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه. وقرأ ابن كثير «مكنني» على الأصل. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بقوة فعلة أو بما أتقوى به من الآلات. ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد من قولهم ثوب مردم إذا كان رقاعاً فوق رقاع.

﴿أَتُؤْتِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ قطعه والزبرة القطعة الكبيرة، وهو لا ينافي رد الخراج والاقتصار على المعونة لأن الإيتاء بمعنى المناولة، ويدل عليه قراءة أبي بكر ﴿رَدْمًا أَتُؤْتِي﴾ بكسر التنوين موصولة الهمزة على معنى جيئوني بزبر الحديد، والباء محذوفة حذفها في أمرتك الخير ولأن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة دون الخراج على العمل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَأَوُا بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ بين جانبي الجبلين بتنزيدها. وقرأ ابن كثير وابن عامر والبصريان بضميتين، وأبو بكر بضم الصاد وسكون الدال، وقرئ فتح الصاد وضم الدال وكلها لغات من الصدف وهو الميل لأن كلا منهما منعزل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل. ﴿قَالَ أَتَفْخُوهَا﴾ أي قال للعملة انفخوا في الأكوار والحديد. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُ﴾ جعل المنفوخ فيه. ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء. ﴿قَالَ أَتُؤْتِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أي أتوني قطراً أي نحاساً مذاباً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسك البصريون على أن إعمال الثاني من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد أولى، إذ لو كان قطراً مفعول أتوني لأضمر مفعول أفرغ حذراً من الإلباس. وقرأ حمزة وأبو بكر ﴿قَالَ أَتُؤْتِي﴾ موصولة الألف.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧).

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ بحذف التاء حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام جامعاً بين الساكنين على غير حده. وقرئ بقلب السين صاداً. ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه. ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لثخنه وصلابته. وقيل حفر للأساس حتى بلغ الماء، وجعله من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى ساوى أعلى الجبلين، ثم وضع المنافيخ حتى صارت كالنار فصب النحاس المذاب عليه فاختلف والتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلباً. وقيل بناء من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلايب من حديد ونحاس مذاب في تجاويها.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

﴿قَالَ هَذَا﴾ هذا السد أو الأقدار على تسويته. ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ على عباده. ﴿إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة. ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مذكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض، مصدر بمعنى مفعول ومنه جمل أدك لمنبسط السنام. وقرأ الكوفيون دكاء بالمد أي أرضاً مستوية. ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائناً لا محالة وهذا آخر حكاية قول ذي القرنين.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١).

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد يمجون في بعض مزدحمين في البلاد، أو يموج بعض الخلق في بعض فيضطربون ويختلطون إنهم وجنهم حيارى ويؤيده قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء. ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا﴾ وأبرزناها وأظهرناها لهم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتوحيد والتعظيم. ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ استماعاً لذكري وكلامي لإفراط صممهم عن الحق، فإن الأصم قد يستطيع السمع إذا صبح به وهؤلاء كأنهم أصمت مسامعهم بالكلية.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٠٢).

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أظنوا والاستفهام للإنكار. ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ اتخذهم الملائكة والمسيح. ﴿مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ معبودين نافعين، أو لا أعذبهم به فحذف المفعول الثاني كما يحذف الخبر للقرينة، أو سد أن يتخذوا مسد مفعوليه وقرئ: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أفكافيهم في النجاة، وأن بما في حيزها مرتفع بأنه فاعل حسب، فإن النعت إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل أو خبر له. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ما يقام للنزول، وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقرونه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤).

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز وجمع لأنه من أسماء الفاعلين أو لتنوع أعمالهم.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضاع وبطل لكفرهم وعجبهم كالرهبانة فإنهم خسروا دنياهم وأخراهم، ومحل الرفع على الخبر المحذوف فإنه جواب السؤال أو الجر على البدل أو النصب على الذم. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ بعجبهم واعتقادهم أنهم على الحق.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَآخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا﴾ (١٠٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالقرآن أو بدلائله المنصوبة على التوحيد والنبوة. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث على ما هو عليه أو لقاء عذابه. ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بكفرهم فلا يثابون عليها. ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

وَزُنَا ﴿فَتَزِدِّي بِهِمْ وَلَا نَجْعَلْ لَهُمْ مِقْدَارًا وَاعْتِبَارًا، أَوْ لَا نَضْعَ لَهُمْ مِيزَانًا يوزن به أعمالهم لانتحاباتها. ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك وقوله: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبينة له ويجوز أن يكون ﴿ذلك﴾ مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أي جزاؤهم به، أو جزاؤهم بدله و ﴿جهنم﴾ خبره أو ﴿جزاؤهم﴾ خبره و ﴿جهنم﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا﴾ أي بسبب ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبق من حكم الله ووعده، و ﴿الفردوس﴾ أعلى درجات الجنة، وأصله البستان الذي يجمع الكرم والنخل. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدرة. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ تحولاً إذ لا يجدون أطيب منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم، ويجوز أن يراد به تأكيد الخلود.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ ما يكتب به، وهو اسم ما يمد الشيء كالحبر للدواة والسليط للسراج. ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ لكلمات علمه وحكمته. ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ لنفد جنس البحر بأمره لأن كل جسم متناه. ﴿قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ فإنها غير متناهية لا تنفذ كعلمه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ بمثل البحر الموجود. ﴿مَدَدًا﴾ زيادة ومعونة، لأن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تنامي الأبعاد، والمتناهي ينفذ قبل أن ينفذ غير المتناهي لا محالة. وقرئ «ينفذ» بالياء و «مدداً» بكسر الميم جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب ومداداً. وسبب نزولها أن اليهود قالوا في كتابكم ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ وتقرؤون ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لا ادعي الإحاطة على كلماته. ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وإنما تميزت عنكم بذلك. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ يؤمل حسن لقائه أو يخاف سوء لقائه. ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ يرتضيه الله. ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً. روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: إني لأعمل العمل لله فإذا أطلع عليه سرتني فقال: «إن الله لا يقبل ما شورك فيه». فنزلت تصديقاً له وعنه عليه الصلاة والسلام «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر قال «الرياء». والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة. وعن النبي ﷺ «من قرأها عند مضجعه كان له نوراً في مضجعه يتلأل إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم، فإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلأل من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء».

محتوى الجزء الثالث من تفسير البيضاوي

- ٥..... تفسير سورة الأعراف
- ٦..... بيان أن الوزن في الآخرة هل هو لصحائف الأعمال أم للأشخاص؟
- ٧..... بيان غلط إبليس في دعواه الأفضلية على آدم
- ٨..... بيان ما استدل به على أن الملائكة أفضل من الأنبياء والجواب عنه
- ١١..... بيان معنى السرف المذموم
- ١٣..... بيان معنى إخراج الغل من صدور أهل الجنة
- ١٤..... بيان الأعراف وأهلها
- ١٥..... بيان الإبداع الذي تفرد به الباري في مخلوقاته
- ١٧..... بيان نسب نوح عليه السلام
- ١٨..... بيان نسب هود عليه السلام
- ١٩..... بيان ما فعل الله بعد وما فعلوا
- ٢٠..... بيان نسب صالح عليه السلام
- ٢١..... بيان ما فعلت ثمود وما فعل بهم
- ٢٢..... قوم لوط وعملهم
- ٢٢..... بيان نسب مدين وشعيب عليه السلام
- ٢٧..... بيان حال عصا موسى حين ألقاها عند فرعون
- ٣٠..... بيان ما أرسل على قوم فرعون من الآيات
- ٣٣..... بيان الدليل على جواز رؤية الله تعالى
- ٣٤..... بيان ما فعله السامري من صوغ العجل
- ٣٧..... بيان أن بعثته ﷺ إلى كافة الثقلين
- ٣٩..... بيان القرية التي أهلكك بسبب الصيد في السبت
- ٤٠..... بيان ما عذب به أهل القرية من المسخ
- ٤١..... بيان أخذ الله الميثاق على بني آدم وما قيل في ذلك
- ٤٢..... بيان الذي آتاه الله آياته فأنسلخ منها وكيفية ضلاله
- ٤٥..... بيان ما فعله إبليس مع حواء حين حملت والطعن في ذلك
- ٤٩..... تفسير سورة الأنفال
- ٥١..... بيان السبب في غزوة بدر
- ٥٦..... بيان محاصرة بني قريظة

- ٦٠..... بيان قسمة المغانم وما فيها من الخلاف
- ٦٢..... بيان ما فعله إبليس مع قريش حين أرادوا غزوة بدر
- ٦٧..... بيان ما فعله النبي مع عمه العباس حين دفعه الفداء في غزوة بدر
- ٧٠..... تفسير سورة براءة
- ٧٦..... بيان غزوة حنين وما أصاب المؤمنين فيها
- ٧٧..... بيان الجزية ومن تؤخذ منه
- ٧٩..... بيان التشديد على منع الزكاة
- ٨١..... بيان الغار الذي ذهب إليه ﷺ وما فعله المشركون
- ٨٥..... بيان الأصناف الذين تُصرفُ إليهم الزكاة وذكر الخلاف في تعميمهم
- ٩٠..... بيان الصدقات التي تصدق بها المؤمنون وعابهم عليها المنافقون
- ٩٧..... بيان مسجد الضرار وما بُني لأجله
- ١٠٢..... بيان الدليل على أن أخبار الآحاد حجة
- ١٠٤..... تفسير سورة يونس
- ١٠٧..... بيان جملة ما احتوى عليه القرآن
- ١١٣..... بيان الدليل على أن للعبد كسباً
- ١٢٢..... بيان أن الإنسان وإن عظم شأنه بعيد عن مظان الربوبية
- ١٢٤..... بيان بَعَثَ يُؤْتِس عليه السلام إلى أهل نِيَتَوَى وما فعلوه
- ١٢٧..... تفسير سورة هود
- ١٣٣..... بيان حكم التعليق بشرطين
- ١٣٨..... بيان ما أبداه هود عليه السلام من المعجزة
- ١٤٨..... بيان أن حال أهل الموقف لا يخلو عن السعادة والشقاوة وربما اجتمع الأمران لواحد
- ١٥٤..... تفسير سورة يوسف عليه السلام
- ١٥٦..... بيان جهة البئر الذي رُمِيَ به يوسف عليه السلام
- ١٦٢..... بيان ما كان عليه يوسف عليه السلام من الحسن
- ١٦٧..... بيان ما كان عليه يوسف عليه السلام من معرفة اللغات
- ١٧٥..... بيان ما كان عليه يوسف عليه السلام من كرم الأخلاق
- ١٨٠..... تفسير سورة الرعد
- ١٨٣..... بيان ما فعله أريد وعامر بن الطفيل مع رسول الله ﷺ وما فعل بهما
- ١٨٨..... بيان ما اقترحته قريش على النبي ﷺ من الآيات
- ١٩٢..... تفسير سورة إبراهيم عليه السلام
- ٢٠١..... بيان حال هاجر أم إسماعيل عليه السلام
- ٢٠٦..... تفسير سورة الحجر

٢٠٩.....	بيان قبول المواد للجمع والإحياء
٢١٧.....	بيان ما ورد في فضل من أُوتِيَ القرآن
٢١٩.....	تفسير سورة النحل
٢٢١.....	بيان ما يعتري الحبة عند بذرها مما يدل على عجيب صنع الحكيم جل شأنه
٢٣١.....	بيان حال الغذاء بعد استقراره في الجوف إلى أن يكون دماً ولَبَنًا
٢٤١.....	بيان ما فعلته قريش من التعذيب لعمار وأبوتيه
٢٤٣.....	بيان حصر المحرمات في أجناس أربعة وما ضم إليها
٢٤٧.....	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٢٤٧.....	بيان ما فعله بختنصر ببني إسرائيل
٢٥٥.....	بيان حجة مَنْ مَنَّ التقليد والرد عليه
٢٥٨.....	بيان حجة مَنْ قال: إن الإسراء كان مناماً والردّ عليه
٢٦٢.....	بيان ما قالتها ثقيف للنبي ﷺ وأباه
٢٦٤.....	بيان أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة
٢٧٢.....	تفسير سورة الكهف
٢٧٣.....	بيان من دخلوا غاراً فسد عليهم وخلصوا بتوسلهم بأعمالهم الصالحة
٢٧٩.....	بيان ما طلبته صنديد قريش من إبعاد فقراء المهاجرين عن مجلس النبي ﷺ
٢٨٠.....	بيان حال الأخوين اللذين مات والدهما وافترق حالهما في اليسار والفقر
٢٨٦.....	بيان الذي دعا موسى عليه السلام إلى سؤاله الاجتماع بالخضر

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع الجزء الثالث
من تفسير البيضاوي في مطابع دار إحياء التراث
العربي - بيروت الزاهرة أدامها الله لطبع المزيد من الكتب النافعة
ويليه الجزء الرابع وأوله سورة مريم والله الحمد والمنة

طَبَعَ عَلَى مَطَابَعِ
وَلَا زِلْهِيْنَا، النَّارِشْتِ الْعَرَبِيَّةِ

أنوار التنزيل وأسرار التأويل
المعروف
بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وضع التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف المثنائي

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الرابع

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وُضِعَ التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ٧٩٥٧/١١

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

(١٩) سورة مريم

مكية إلا آية السجدة وهي ثمان أو تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيِّصَ ۝ (١) ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ۝﴾ .

﴿كَهَيِّصَ﴾ أمال أبو عمرو الهاء لأن ألفات أسماء التهجى ياءات وابن عامر وحمزة الياء، والكسائي وأبو بكر كليهما، ونافع بين بين ونافع وابن كثير وعاصم يظهرون دال الهجاء عند الذال، والباقون يدغمونها.

﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر ما قبله إن أول السورة أو بالقرآن، فإنه مشتمل عليه أو خبر محذوف أي: هذا المثلو «ذكر رحمة ربك»، أو مبتدأ حذف خبره أي فيما يتلى عليك ذكرها، وقرىء «ذكر رحمة» على الماضي و«ذكر» على الأمر. ﴿عَبْدُكَ﴾ مفعول الرحمة أو الذكر على أن الرحمة فاعله على الاتساع كقولك: ذكرني جود زيد. ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل منه أو عطف بيان له.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ (٢)﴾ .

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان، والإخفاء أشد إخبائاً وأكثر إخلاصاً أو لثلاً يلام على طلب الولد في إبان الكبر، أو لثلاً يطلع عليه مواليه الذين خافهم، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته. واختلف في سنه حينئذ فقيل ستون، وقيل سبعون، وقيل خمس وسبعون، وقيل خمس وثمانون، وقيل تسع وتسعون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ (٣)﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسير للتداء والوهن الضعف، وتخصيص العظم لأنه دعامة البدن وأصل بنائه ولأنه أصلب ما فيه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن وتوجيه لأن المراد به الجنس، وقرىء «وهن» و«وهن» بالضم والكسر ونظيره كمل بالحركات الثلاث. ﴿وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار وانتشاره وفشوه في الشعر باشتعالها، ثم أخرجه مخرج الاستعارة وأسند الاشتعال إلى الرأس الذي هو مكان الشيب مبالغة، وجعله مميزاً إيضاحاً للمقصود، واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علم المخاطب بتعين المراد يغني عن التقيد. ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلما دعوتك استجبت لي وهو توسل بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيه على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ (٤) يَرْثُنِي وَيَرْثِ

مِنْ عَالٍ يَعْثُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ (٥)﴾ .

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ يعني بني عمه وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف أن لا يحسنوا خلافته على أمته

وبدلوا عليهم دينهم. ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ بعد موتي، وعن ابن كثير بالمد والقصر بفتح الياء وهو متعلق بمحذوف، أو بمعنى الموالى أي خفت فعل الموالى من ورائي، أو الذين يلون الأمر من ورائي. وقرئ «خفت الوالي من ورائي» أي قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعدي، أو خفوا ودرجوا قدامي، فعلى هذا كان الظرف متعلقاً بـ ﴿خفت﴾. ﴿وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد. ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ فإن مثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك، فإني وامراتي لا نصلح للولادة. ﴿وَلِيًّا﴾ من صلي.

﴿يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ صفتان له وجزمهما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء، والمراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال. وقيل يرثني الحبورة فإنه كان حبراً، ويرث من آل يعقوب الملك، وهو يعقوب بن إسحاق عليهما الصلاة والسلام. وقيل يعقوب كان أخاً زكريا أو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام. وقرئ «يرثني وارث آل يعقوب» على الحال من أحد الضميرين، و«أويرث» بالتصغير لصغره، و«وارث من آل يعقوب» على أنه فاعل «يرثني» وهذا يسمى التجريد في علم البيان لأنه جرد عن المذكور أولاً مع أنه المراد. ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ترضاه قولاً وعملاً.

﴿بِزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٧).

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ جواب لندائه ووعد بإجابة دعائه وإنما تولى تسميته تشريفاً له. ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يسم أحد بيحيى قبله، وهو شاهد بأن التسمية بالأسامي الغربية تنويه للمسمى. وقيل سمياً شبيهاً كقوله تعالى: ﴿هل تعلم له سميًّا﴾ لأن المتماثلين يشاركان في الاسم، والأظهر أنه أعجمي وإن كان عربياً فمقول عن فعل كيعيش ويعمر. وقيل سمي به لأنه حيي به رحم أمه، أو لأن دين الله حيي بدعوته.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (٩).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ جساوة وقحولاً في المفاصل، وأصله عتوو كعتود فاستنقلوا توالي الضمتين والواوين فكسروا التاء فانقلبت الواو الأولى ياء، ثم قلبت الثانية وأدغمت وقرأ حمزة والكسائي وحفص «عتياً» بالكسر، وإنما استعجب الولد من شيخ فان وعجز عاقر اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال قدرته وأن الوسائط عند التحقيق ملغاة ولذلك: ﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى أو الملك المبلغ للبشارة تصديقاً له. ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك، ويجوز أن تكون الكاف منصوبة بـ ﴿قَالَ﴾ في: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وذلك إشارة إلى مبهم يفسره. ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ ويؤيد الأول قراءة من قرأ «وهو على هين» أي الأمر كما قلت، أو كما وعدت وهو على ذلك يهون علي، أو كما وعدت وهو علي هين لا احتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب، ومفعول قال الثاني محذوف. ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ بل كنت معدوماً صرفاً، وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء، وقرأ حمزة والكسائي «وقد خلقناك».

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيْلًا سَوِيًّا﴾ (١٠) فَجَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (١١).

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرني به. ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيًّا الخلق ما بك من خرس ولا بكم، وإنما ذكر الليالي هنا والأيام في «آل عمران» للدلالة على أنه استمر عليه المنع من كلام الناس والتجرد للذكر والشكر ثلاثة أيام ولياليهن.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ من المصلى أو من الغرفة. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فأومأ إليهم لقوله ﴿إِلا رمزاً﴾. وقيل كتب لهم على الأرض. ﴿أَنْ مَسْجُوعاً﴾ صلوا أو نزهوا ربكم. ﴿بُكَرَةً وَعَشِيّاً﴾ طرفي النهار، ولعله كان مأموراً بأن يسبح ويأمر قومه بأن يوافقوه، و ﴿أَنْ﴾ تحتمل أن تكون مصدرية وأن تكون مفسرة.

﴿يَتَّبِعِينَ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ ﴿١٢﴾ وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴿١٣﴾.

﴿يَا يَحْيَى﴾ على تقدير القول. ﴿خُذِ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجِد واستظهار بالتوفيق. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ يعني الحكمة وفهم التوراة، وقيل النبوة أحكم الله عقله في صباه واستنباه.

﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ ورحمة منا عليه أو رحمة وتعطفاً في قلبه على أبويه وغيرهما عطف على الحكم. ﴿وَزَكَاةً﴾ وطهارة من الذنوب أو صدقة أي تصدق الله به على أبويه، أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيّاً﴾ مطيعاً متجنباً عن المعاصي.

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴿١٥﴾.

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ وبارأ بهما. ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ عاقاً أو عاصي ربه. ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ من الله. ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم. ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ من عذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ من عذاب النار وهول القيامة.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ في القرآن. ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني قصتها. ﴿إِذِ اتَّخَذَتْ﴾ اعتزلت، بدل من ﴿مَرْيَمَ﴾ بدل الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، أو بدل الكل لأن المراد بـ ﴿مَرْيَمَ﴾ قصتها وبالظرف الأمر الواقع فيه وهما واحد، أو ظرف لمضاف مقدر وقيل ﴿إِذِ﴾ بمعنى أن المصدرية كقولك: أكرمتك إذ لم تكرمني فتكون بدلاً لا محالة. ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ شرقي بيت المقدس، أو شرقي دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة ومكاناً ظرف أو مفعول لأن ﴿اتَّخَذَتْ﴾ متضمن معنى أتت.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً﴾ ﴿١٧﴾.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ سترأ. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً﴾ قيل قعدت في مشقة للاغتسال من الحيض متحجبة بشيء يسترها. وكانت تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت وتعود إليه إذا طهرت. فبينما هي في مغتسلها أتاها جبريل عليه السلام متمثلاً بصورة شاب أمرد سوي الخلق لتستأنس بكلامه، ولعله لتهيج شهوتها به فتتحدث نطقها إلى رحمها.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيّاً ﴿١٩﴾.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً﴾ تتقي الله وتحتفل بالاستعاذة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فإني عاتدة منك، أو فتتعت بتعويذي أو فلا تتعرض لي، ويجوز أن يكون للمبالغة أي إن كنت تقياً متورعاً فإني أتعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به. ﴿لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا﴾ أي لأكون سبياً في هبته بالنفخ في الدرع، ويجوز أن يكون حكاية لقول الله تعالى، ويؤيده قراءة أبي عمرو والأكثر عن نافع ويعقوب بالياء. ﴿رَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب أو نامياً على الخير أي متريفاً من سن إلى سن على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١).

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ولم يباشرني رجل بالحلال، فإن هذه الكنايات إنما تطلق فيه، أما الزنا فإنما يقال فيه خبث بها وفجر ونحو ذلك ويعضده عطف قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه وهو فعول من البغي قلبت واوه ياء وأدغمت ثم كسرت الغين اتباعاً ولذلك لم تلحقه التاء، أو فاعيل بمعنى فاعل ولم تلحقه التاء لأنه للمبالغة، أو للنسب كطالق.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً﴾ أي ونفعل ذلك لنجعله آية أو لنبين به قدرتنا ولنجعله، وقيل عطف على ليهب على طريقة الالتفات. ﴿آيَةً لِلنَّاسِ﴾ علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي تعلق به قضاء الله في الأزل، أو قدر وسطر في اللوح أو كان أمراً حقيقياً بأن يقضى ويفعل لكونه آية ورحمة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (٢٢).

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ في درعها فدخلت النفخة في جوفها وكان مدة حملها سبعة أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية ولم يعيش مولود وضع لثمانية غيره، وقيل ساعة كما حملته نيزته وسنها ثلاث عشرة سنة، وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين. ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ فاعتزلت وهو في بطنها كقوله:

تَدُوْسُ بِنَا الْجَمَاجِمِ وَالْثَرِيْبَا

والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ (٢٣).

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ فالجأها المخاض، وهو في الأصل منقول من جاء لكنه خص به في الاستعمال كآتى في أعطى وقرىء «المخاض» بالكسر وهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء، والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثم غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليربها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها. ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا﴾ استحياء من الناس ومخافة لومهم، وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وأبو بكر ﴿مت﴾ من مات يموت. ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ ما من شأنه أن ينسى ولا يطلب وتظيره الذبح لما يذبح، وقرأ حمزة وحفص بالفتح وهو لغة فيه أو مصدر سمي به، وقرىء به وبالهزم وهو الحليب المخلوط بالماء ينسوّه أهله لقلته. ﴿مَنْسِيًّا﴾ منسى الذكر بحيث لا يخطر ببالهم وقرىء بكسر الميم على الاتباع.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (٢٤).

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ عيسى، وقيل جبريل كان يقبل الولد، وقيل تحتها أسفل من مكانها. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص وروح ﴿من تحتها﴾ بالكسر والجر على أن في نادى ضمير أحدهما، وقيل الضمير

في تحتها للنخلة. ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني أو بأن لا تحزني. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً. هكذا روي مرفوعاً، وقيل سيدا من السرو وهو عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ سَلْقُوطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥).

﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجَنَّةَ﴾ وأمليه إليك، والباء مزيدة للتأكيد أو افعلي الهز والإمالة به، أو «هزي» الشجرة بهزه والهز تحريك بجذب ودفع. ﴿تَساقُطُ عَلَيْكَ﴾ تساقط فادغمت التاء الثانية في السين وحذفها حمزة، وقرأ يعقوب بالياء وحفص «تساقط» من ساقطت بمعنى أسقطت، وقرأ «تساقط» و «تسقط» و «يسقط» فالتاء للنخلة والياء للجدع. ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ تمييز أو مفعول. روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء، فهزتها فجعل الله تعالى لها رأساً وخصاً ورطباً. وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها فإن مثلها لا يتصور لمن يرتكب الفواحش، والمنبهة لمن رآها على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فعل، وأنه ليس ببدع من شأنها مع ما فيه من الشراب والطعام ولذلك رتب عليه الأمرين فقال:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ (٢٦).

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ أي من الرطب وماء السري أو من الرطب وعصيره. ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطببي نفسك وارفضي عنها ما أحزنك، وقرأ «وقري» بالكسر وهو لغة نجد، واشتقاقه من القرار فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، أو من القر فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرّة العين للمحبوب وسختتها للمكروه. ﴿فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فإن تري آدمياً، وقرأ «ترئن» على لغة من يقول لبأت بالحج لتأخ بين الهمزة وحرف اللين. ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ صمتاً وقد قرئ به، أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم. ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا﴾ بعد أن أخبرتكم بنذري وإنما أكلم الملائكة وأناجي ربي. وقيل أخبرتهم بنذرها بالإشارة وأمرها بذلك لكرامة المجادلة والاكتفاء بكلام عيسى عليه الصلاة والسلام فإنه قاطع في قطع الطاعن.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يَتَأَخَتَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ (٢٨).

﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ أي مع ولدها. ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعة إليهم بعد ما طهرت من النفاس. ﴿تَحْمِلُهُ﴾ حاملة إياه. ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي بديعاً منكراً من فري الجلد.

﴿وَيَا أُخْتَ هَرُونَ﴾ يعنون هرون النبي عليه الصلاة والسلام وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة. وقيل هو رجل صالح أو طالح كان في زمانهم شبهوها به تهكماً أو لما رأوا قبل من صلاحها أو شتموها به. ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ تقرير لأن ما جاءت به فري، وتنبه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠).

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أي كلموه ليحييكم. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي

المَهْدِ صَبِيًّا. ولم نعهد صبيًّا في المهد كلمة عاقل، و «كَانَ» زائدة والظرف صلة من، و «صَبِيًّا» حال من المستكن فيه أو تامة أو دائمة كقوله تعالى: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» أو بمعنى صار.

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ» أنطقه الله تعالى به أولاً لأنه أول المقامات والرد على من يزعم ربوبيته. «آتَانِي الْكِتَابَ» الإنجيل. «وَجَعَلَنِي نَبِيًّا».

«وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا» (٣١) «وَبَرًّا بِوَالِدَيْ» وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» (٣٢) «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» (٣٣).

«وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا» نفاعاً معلماً للخير، والتعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع وقيل أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً. «أَيْنَمَا كُنْتُ» حيث كنت. «وَأَوْصَانِي» وأمرني. «بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ» زكاة المال إن ملكته أو تطهير النفس عن الرذائل. «مَا دُمْتُ حَيًّا».

«وَبَرًّا بِوَالِدَيْ» وباراً بها عطف على «مُبَارَكًا»، وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به أو منصوب بفعل دل عليه أوصاني، أي وكلفني برأ ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفاً على «الصلاة». «وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا شَقِيًّا» عند الله من فرط تكبره.

«وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» كما هو على يحيى والتعريف للعهد والأظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه، فإنه لما جعل جنس السلام على نفسه عرض بأن ضده عليهم كقوله تعالى: «وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى» فإنه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى.

«ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» (٣٤).

«ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» أي الذي تقدم نعتة هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ثم عكس الحكم. «قَوْلَ الْحَقِّ» خبر محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، والإضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل صفة «عيسى» أو بدل أو خبر ثان ومعناه كلمة الله. وقرأ عاصم وابن عامر ويعقوب «قول» بالنصب على أنه مصدر مؤكد. وقرئ «قال الحق» وهو بمعنى القول. «الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ» في أمره يشكون أو يتنازعون، فقالت اليهود ساحر وقالت النصارى ابن الله وقرئ بالتاء على الخطاب.

«مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ» إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» (٣٦).

«مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ» تكذيب للنصارى وتنزيه لله تعالى عما بهتوه. «إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» تبيكت لهم، فإن من إذا أراد شيئاً أوجده بـ «كن» كان منزهاً عن شبه الخلق إلى الحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإنان، وقرأ ابن عامر «فيكون» بالنصب على الجواب.

«وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» سبق تفسيره في سورة «آل عمران»، وقرأ الحجازيان والبصريان «وأن» بالفتح على ولأن وقيل إنه معطوف على «الصلاة».

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (٣٧).

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» اليهود والنصارى؛ أو فرق النصارى: نسطورية قالوا إنه ابن الله،

ويعقوبية قالوا هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، وملكانية قالوا هو عبد الله ونبيه. ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود يوم عظيم هوله وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة أو من وقت الشهود أو من مكانه فيه، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن تشهد عليهم الملائكة والأنبياء وألستهم وآرابهم وأرجلهم بالكفر والفسق، أو من وقت الشهادة أو من مكانها. وقيل هو ما شهدوا به في عيسى وأمه.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨)

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجب معناه أن استماعهم وإبصارهم. ﴿يَوْمَ يَأْتُوتُنَا﴾ أي يوم القيامة جدير بأن يتعجب منهما بعد ما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو التهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ. وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحق بهم فيه، والجار والمجرور على الأول في موضع الرفع وعلى الثاني في موضع النصب ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أوقع الظالمين موقع الضمير إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفهم، وسجل على إغفالهم بأنه ضلال بين.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٠)

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسر الناس المسيء على إساءته والمحسن على قلة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فرغ من الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار، وإذ بدل من اليوم أو ظرف لـ ﴿لِحَسْرَةٍ﴾. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حال متعلقة بقوله ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أو بـ ﴿أَنْذَرَهُمْ﴾ أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين، فتكون حالاً متضمنة للتعليل.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك، أو نتوفى الأرض ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفي الوارث لإرثه. ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يردون للجزاء.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢)

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق، أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. ﴿نَبِيًّا﴾ استنبأ الله.

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وما بينهما اعتراض، أو متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ أو بـ ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. ﴿لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ التاء معوضة من ياء الإضافة ولذلك لا يقال يا أبتى ويقال يا أبتا، وإنما تذكر للاستعطاف ولذلك كررها. ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ في جلب نفع أو دفع ضرر، دعاه إلى الهدى وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج وأرشقه برفق وحنن أدب، حيث لم يصرح بضلاله بل طلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام وهو الخالق الرازق المحيي المميت المعاقب المثيب، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح، والشئ لو كان حياً مميّزاً سمياً بصيراً مقتدرّاً على النفع والضرر ولكن كان ممكناً، لاستنكف العقل القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي فقال:

﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ولم يسم أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضرر، فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان من حيث إنه الأمر به فقال:

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ ولما استهجن ذلك بين وجه الضرر فيه بأن الشيطان مستعص على ربك المولي للنعم كلها بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاص وكل عاص حقيق بأن تسترد منه النعم ويتقم منه، ولذلك عقبه بتخويفه سوء عاقبته وما يعجر إليه فقال:

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قريناً في اللعن والعذاب تليه ويليك، أو ثابتاً في موالاته فإنه أكبر من العذاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب. وذكر الخوف والمس وتكثير العذاب إما للمجاملة أو لخشاء العاقبة، ولعل اقتضاه على عصيان الشيطان من بين جنائياته لإرتقاء همته في الربانية، أو لأنه ملاكها أو لأنه من حيث إنه نتيجة معاداته لآدم وذريته منه عليها.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَكْفُرُ لِي لَمْ تَنْتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَنًّا ۝٤٦﴾.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَكْفُرُ لِي﴾ قابل استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناده باسمه ولم يقابل ﴿يَا أَبَتِ﴾: يا بني، وآخره وقدم الخير على المبتدأ وصدده بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضرب من التعجب، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل ثم هدده فقال: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُ﴾ عن مقالك فيها أو الرغبة عنها. ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلساني يعني الشتم والذم أو بالحجارة حتى تموت، أو تبعد مني. ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطف على ما دل عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي فاحذرني واهجرني. ﴿مَنًّا﴾ زماناً طويلاً من الملاوة أو ملياً بالذهاب عني.

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾ وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾.

﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ﴾ توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعد ما يؤذيك ولكن: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته وقد مر تقريره في سورة التوبة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ بليغاً في البر والإلطف.

﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني. ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ وأعبده وحده. ﴿عَسَىٰ أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ خائباً ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتم، وفي تصدير الكلام بـ ﴿عَسَىٰ﴾ التواضع وهضم النفس، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل غير واجبتين، وأن ملاك الأمر خاتمته وهو غيب.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ۝٥٠﴾.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام. ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل من فارقه من الكفرة، قيل إنه لما قصد الشام أتى أولاً حران وتزوج بسارة وولدت له إسحق وولد منه يعقوب، ولعل

تخصيصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد. ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وكلا منهما أو منهم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ النبوة والأموال والأولاد. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويشنون عليهم، استجابة لدعوته ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ والمراد باللسان ما يوجد به، ولسان العرب لغتهم وإضافته إلى الصدق وتوصيفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يشنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الأعصار وتحول الدول وتبدل الملل.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ يُمَيْنًا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحداً أخلص عباده عن الشرك والرياء، أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه، وقرأ الكوفيون بالفتح على أن الله أخلصه. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم ﴿رسولاً﴾ مع أنه أخلص وأعلى.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ من ناحيته اليمنى من اليمين، وهي التي تلي يمين موسى من جانبه الميمون من اليمن بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة. ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريب تشريف شبهه بمن قربه الملك لمناجاته. ﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً حال من أحد الضميرين. وقيل مرتفعاً من النجوة وهو الارتفاع. لما روي أنه رفع فوق السموات حتى سمع صرير القلم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا. ﴿أَخَاهُ﴾ معاضدة أخيه وموازرتة إجابة لدعوته ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ فإنه كان أسن من موسى، وهو مفعول أو بدل على تقدير أن تكون ﴿من﴾ للتبعيض. ﴿هَارُونَ﴾ عطف بيان له. ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذكره بذلك لأنه المشهور به والموصوف بأشياء في هذا الباب لم تعهد من غيره، ونأهيك أنه وعد الصبر على الذبح فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فوفى. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ اشتغالا بالأهم وهو أن يقبل الرجل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه بالتكميل، قال الله تعالى ﴿وانذر عشيرتک الأقربين﴾. ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾، ﴿قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾. وقيل أهله أمته فإن الأنبياء آباء الأمم. ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سبط شيث وجد أبي نوح عليهم السلام، واسمه أخنوخ واشتقاق إدريس من الدرس يرده منع صرفه، نعم لا يبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك فلقلب به لكثرة درسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب. ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله، وقيل الجنة، وقيل السماء السادسة أو الرابعة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس عليهم السلام. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بيان للموصول. ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجار، ويجوز أن تكون ﴿مِنْ﴾ فيه للتبعيض لأن المنعم عليهم أعم من الأنبياء وأخص من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا خصوصاً، وهم من عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الباقون. ﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ ومن جملة من هديناهم إلى الحق. ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ للنبوة والكرامة. ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إن جعلت الموصول صفته، واستئناف إن جعلته خبره لبيان خشيتهم من الله وإخباتهم له مع ما لهم من علو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله تعالى. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا». والبكي جمع باك كالسجود في جمع ساجد. وقرئ «يتلى» بالياء لأن التأنيت غير حقيقي، وقرأ حمزة والكسائي ﴿بُكِيًّا﴾ بكسر الباء.

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء يقال خلف صدق بالفتح، وخلف سوء بالسكون. ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوها أو أخروها عن وقتها. ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ كشرب الخمر واستحلال نكاح الأخت من الأب والانهماك في المعاصي. وعن علي رضي الله عنه في قوله ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾: من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور. ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ شراً كقوله:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَلْقَ لَا يَغْدِمُ عَلَى الْغَيِّ لَا ئِمًّا
أو جزاء غي كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أو غياً عن طريق الجنة، وقيل هو واد في جهنم يستعبد منه أوديتها.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝﴾

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يدل على أن الآية في الكفرة. ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب على البناء للمفعول من أدخل. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ولا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم، ويجوز أن ينتصب ﴿شَيْئًا﴾ على المصدر، وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعدن لأنه المضاف إليه في العلم أو علم للعدن بمعنى الإقامة كبيرة ولذلك صح وصف ما أضيف إليه بقوله: ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي وعدها إياهم وهي غائبة عنهم، أو وهم غائبون عنها، أو وعدهم بإيمانهم بالغيب. ﴿إِنَّهُ﴾ إن الله. ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ الذي هو الجنة. ﴿مَأْتِيًّا﴾ يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة، وقيل هو من أتى إليه إحساناً أي مفعولاً متجزاً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٦٢).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضول كلام. ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، أو تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم، على بعض على الاستثناء المنقطع، أو على أن معنى التسليم إن كان لغواً فلا يسمعون لغواً سواه كقوله:

وَلَا غَيْبٌ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفُهُمْ بِهِنَّ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وأهلها أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهراً وإنما فائدته الإكرام. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين والتوسط بين الزهادة والرغبة، وقيل المراد دوام الرزق ودروره.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ (٦٣).

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ نبقيا عليها من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه، والورثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط. وقيل يورث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادة في كرامتهم، وعن يعقوب «نورث» بالتشديد.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤).

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية قول جبريل عليه الصلاة والسلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجب، ورجا أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعين يوماً حتى قال المشركون ودعه ربه وقلاه، ثم نزل ببيان ذلك. والنزل النزول على مهل لأنه مطاوع نزل وقد يطلق بمعنى النزول مطلقاً كما يطلق نزل بمعنى أنزل، والمعنى وما نزل وقتاً غيب وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وقرئ «وما يتنزل» بالياء والضمير للوحي. ﴿لَمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين لا نتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيئته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تاركاً لك أي ما كان عدم النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك كما زعمت الكفرة وإنما كان لحكمة رآها فيه. وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة، والمعنى وما ننزل الجنة إلا بأمر الله ولطفه، وهو مالك الأمور كلها السالفة والمرتبة والحاضرة فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله «وما كان ربك نسياً» تقرير من الله لقولهم أي وما كان ربك نسياً لأعمال العاملين وما وعد لهم من الثواب عليها وقوله:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ (٦٥).

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه، وهو خبر محذوف أو بدل من «ربك» ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب عليه، أي لما عرفت ربك بأنه لا ينبغي له أن ينساك، أو أعمال العمال فأقبل على عبادته واصطبر عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزه الكفرة، وإنما عدي باللام لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما يورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمحارب: اصطبر لقرنك. ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ مثلاً يستحق أن يسمى إلهاً أو أحداً سمي الله فإن المشركين وإن سموا الصنم إلهاً لم يسموه الله قط، وذلك لظهور أحديته تعالى، وتعالى ذاته عن المماثلة بحيث لم يقبل اللبس والمكابرة، وهو تقرير للأمر

أي إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (١٦) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (١٧).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ المراد به الجنس بأسره فإن المقول مقول فيما بينهم وإن لم يقله كلهم كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً والقاتل واحد منهم، أو بعضهم المعهود وهم الكفرة أو أبي بن خلف فإنه أخذ عظاماً بالية ففتتها وقال: يزعم محمد أنا نبعت بعدما نموت. ﴿إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض أو من حال الموت، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرف الإنكار لأن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابه بفعل دل عليه ﴿أُخْرَجَ﴾ لا به فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، وهي ها هنا مخرصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام في يا الله للتعويض فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وروي عن ابن ذكوان ﴿إِذَا مَا مِثٌ﴾ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿يقول﴾، وتوسيط همزة الإنكار بينه وبين العاطف مع أن الأصل أن يتقدمها للدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه فإنه لو تذكر وتأمل: ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ بل كان عذماً صرفاً، لم يقل ذلك فإنه أعجب من جمع المواد بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وقالون عن يعقوب ﴿يذكر﴾ من الذكر الذي يراد به التفكير، وقرأ «يتذكر» على الأصل.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (١٨).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم باسمه تعالى مضافاً إلى نبيه تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف أو مفعول معه لما روي أن الكفرة يحشرون مع قرائهم من الشياطين الذين أغوهم كل مع شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مخصوصاً بهم ساغ نسبته إلى الجنس بأسره، فإنهم إذا حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا جميعاً معهم. ﴿ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ ليرى السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً، وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم ﴿جِثِيًّا﴾ على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلق، أو لأنه من توابع التوافق للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب، وأهل الموقف جاثون لقوله تعالى ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ على المعتاد في مواقف التقاول، وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يساقون جثاة من الموقف إلى شاطئ جهنم إهانة بهم، أو لعجزهم عن القيام لما عراهم من الشدة. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جِثِيًّا﴾ بكسر الجيم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ (١٩) ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ (٢٠).

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة شاعت ديناً. ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ من كان أعصى وأعتى منهم فنطرحهم فيها، وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو كثيراً من أهل العصيان ولو خسر ذلك بالكفرة فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم ويطرحهم في النار على الترتيب، أو يدخل كلا طبقتهما التي تليق به، و ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبني كسائر الموصولات، لكنه أعرب حملاً

على «كل» وبعض للزوم الإضافة وإذا حذف صدر صلتة زاد نقصه فعاد إلى حقه منصوب المحل بنزعن، ولذلك قرئ منصوباً ومرفوع عند غيره إما بالإبتداء على أنه استفهامي وخبره «أشد»، والجملة محكية وتقدير الكلام: «لننزعن» من كل شيعة الذين يقال فيهم أيهم أشد، أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم، أو مستأنفة والفعل واقع على «من كل شيعة» على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة، وإما بشيعة لأنها بمعنى تشيع وعلى للبيان أو متعلق بافعل وكذا الباء في قوله:

«ثُمَّ لَنُنْخِثَنَّ أَقْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاً» أي لنحن أعلم بالذين هم أولى بالصلي، أو صليهم أولى بالنار. وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتياً رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالتهم وإضلالهم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «صلياً» بكسر الصاد.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا﴾

﴿٧١﴾

«وإن منكم» وما منكم الثقات إلى الإنسان ويؤيده أنه قرئ «وإن منهم». «إلا واردها» إلا واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر رضي الله عنه أنه عليه السلام سئل عنه فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة». وأما قوله تعالى: «أولئك عنها معدون» فالمراد عن عذابها. وقيل ورودها الجواز على الصراط فإنه ممدود عليها. «كان على ربك حتماً مقضياً» كان ورودهم واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى به بأن وعد به وعداً لا يمكن خلفه. وقيل أقسم عليه.

«ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا» فيساقون إلى الجنة وقرأ الكسائي ويعقوب ننجي بالتخفيف، وقرئ ثم بفتح الثاء أي هناك. «ونذّر الظالمين فيها جثا» منهاراً بهم كما كانوا، وهو دليل على أن المراد بالورود الجثو حوالها وأن المؤمنين يفارقون الفجرة إلى الجنة بعد تجاثيهم، وتبقى الفجرة فيها منهاراً بهم على هيئاتهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۖ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

﴿٧٢﴾

«وإذا تلى عليهم آياتنا بينات» مرتلات الألفاظ مبيّنات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول ﷺ أو واصلحات الإعجاز. «قال الذين كفروا للذين آمنوا» لأجلهم أو معهم. «أي الفريقين» المؤمنين والكافرين. «خير» مقاماً موضع قيام أو مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ومنزل. «وأحسن ندياً» مجلساً ومجتمعاً والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله تعالى، لقصور نظرهم على الحال وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا فرد عليهم ذلك أيضاً مع التهديد نقضاً بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا ۖ﴾

«وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثناً ورعاً» و «كم» مفعول «أهلكنا» و «من قرن» بيانه، وإنما سمي أهل كل عصر قرناً أي مقدماً من قرن الدابة. وهو مقدمها لأنه يتقدم من بعده، وهم أحسن صفة لكم و«أثناً» تمييز عن النسبة وهو متاع البيت. وقيل هو ما جد منه والخري ما رث والرثي المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن والخبز، وقرأ نافع وابن عامر «رياً» على قلب الهمزة وإدغامها أو على أنه من الري الذي هو النعمة، وقرأ أبو بكر «ريياً» على القلب، وقرئ «رياً» بحذف الهمزة و«زياً» من الزي وهو الجمع

فإنه محاسن مجموعة، ثم بين أن تمتيعهم استدراج وليس بإكرام وإنما العيار على الفضل والنقص ما يكون في الآخرة بقوله:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فيمده ويمهله بطول العمر والتمتع به، وإنما أخرجه على لفظ الأمر إيداناً بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجاً وقطعاً لمعاذيره كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ وكقوله ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذِرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية المد. وقيل غاية قول الذين كفروا للذين آمنوا أي قالوا أي الفريقين خير حتى إذا رأوا ما يوعدون. ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ تفضيل للموعود فإنه إما العذاب في الدنيا وهو غلبة المسلمين عليهم وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدره وعاد ما متعوا به خذلاناً ووبالاً عليهم، وهو جواب الشرط والجملة محكية بعد ﴿حتى﴾. ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي فئة وأنصاراً قابل به أحسن ندياً من حيث إن حسن النادي باجتماع وجوه القوم وأعيانهم وظهور شوكتهم واستظهارهم.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٧٦).

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ عطف على الشرطية المحكية بعد القول كأنه لما بين أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله، أراد أن يبين أن قصور حظ المؤمن منها ليس لنقصه بل لأن الله عز وجل أراد به ما هو خير له وعوضه منه، وقيل عطف على فلیمدد لأنه في معنى الخبر كأنه قيل من كان في الضلالة يزيد الله في ضلاله ويزيد المقابل له هداية. ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ﴾ الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد، ويدخل فيها ما قيل من الصلوات الخمس وقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. ﴿وَخَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ عائدة مما متع به الكفرة من النعم المخدجة الغانية التي يفتخرون بها سيما ومآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة والعذاب الدائم كما أشار إليه بقوله: ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ والخير ها هنا إما لمجرد الزيادة أو على طريقة قولهم الصيف أحر من الشتاء، أي أبلغ في حره منه في برده.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا

(٧٨).

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلت في العاص بن وائل كان لخباب عليه مال فتقاضاه فقال له: لا حتى تكفر بمحمد فقال: لا والله لا أكفر بمحمد حياً ولا ميتاً ولا حين تبعث، قال فإذا بعثت جئتني فيكون لي ثم مال وولد فأعطيك. ولما كانت الرؤية أقوى سند الإخبار استعمل رأيت بمعنى الإخبار، والفاء على أصلها في التعقيب والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقب حديث أولئك. وقرأ حمزة والكسائي «ولداً» وهو جمع ولد كأمس في أسد أو لغة فيه كالعرب والعرب.

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ أفد بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى علم الغيب الذي توحد به الواحد القهار حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالا وولداً وتآلى عليه. ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقتين. وقيل العهد كلمة الشهادة والعمل الصالح فإن وعد الله بالثواب عليهما كالعهد عليه.

﴿كَأَلَّا سَكَتُكُمْ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُمِ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَرِثُكُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبیه علی أنه مخطئ فیما تصوّره لنفسه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ سنظہر له أنا کتبنا قوله علی طریقۃ قوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة

أي تبين أني لم تلدني لثيمة، أو سنتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه فإن نفس الكتابة لا تتأخر عن القول لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. ﴿وَنُمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ونطول له من العذاب ما يستأمله، أو نزيد عذابه ونضاعفه له لكفره وافتراءه واستهزائه على الله جلّت عظمته، ولذلك أكدّه بالمصدر دلالة على فرط غضبه عليه. ﴿وَوَثَّرْتُهُ﴾ بموته. ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني المال والولد. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة. ﴿فَزَادَا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلاً أن يؤتى ثم زائداً وقيل ﴿فَزَادَا﴾ رافضاً لهذا القول منفرداً عنه.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ليتعززوا بهم حيث يكونون لهم وصلة إلى الله وشفعاء عنده .

﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعززهم بها. ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ ستجحد الآلهة عبادتهم ويقولون ما عبدتمونا لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أو سينكر الكفرة لسوء العاقبة أنهم عبدوها لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْدًا﴾ يؤيد الأول إذا فسر الصدد بضد العز، أي ويكونون عليهم ذلاً، أو بضدهم على معنى أنها تكون معونة في عذابهم بأن توقد بها نيرانهم، أو جعل الواو للكفرة أي يكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها وتوحيده لوحدة المعنى الذي به مضادتهم، فإنهم بذلك كالشيء الواحد ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «وهم يد على من سواهم». وقرئ ﴿كَلَّا﴾ بالتثنية على قلب الألف نوناً في الوقف قلب ألف الإطلاق في قوله:

أَقْلِي اللَّوْمَ عَاذِلُ وَالْعِتَابُنْ

أو على معنى كل هذا الرأي كلا وكلا على إضمار فعل يفسره ما بعده أي سيجحدون ﴿كلا﴾ سيكفرون بعبادتهم ﴿﴾.

﴿۸۴﴾ نَرَأَانَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُّمَ آثَا ﴿۸۳﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ بَأَن سُلْطَنَاهُمْ عَلَيْهِمْ أَوْ قِضْنَا لَهُمْ قِرَاءَهُ. ﴿تَوْرُهُمْ أَزَا﴾ تَهْزُهُمْ وَتَغْرِيبُهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي بِالتَّسْوِيلَاتِ وَتَحْبِيبِ الشَّهَوَاتِ، وَالْمُرَادُ تَعْجِيبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَقَاوِيلِ الْكُفْرَةِ وَتُمَادِيهِمْ فِي الْغَيِّ وَتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ وَضُوحِ الْحَقِّ عَلَى مَا نَطَقَتْ بِهِ الْآيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بَأَن يَهْلِكُوا حَتَّى تَسْتَرِيحَ أَنْتَ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ شُرُورِهِمْ وَتَطْهَرَ الْأَرْضُ مِنْ فُسَادِهِمْ. ﴿إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ﴾ أَيَّامَ آجَالِهِمْ. ﴿عَذَابٌ﴾ وَالْمَعْنَى لَا تَعْجَلْ بِهَلَاكِهِمْ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَى لَهُمْ إِلَّا أَيَّامٌ مُحْصَوَةٌ وَأَنْفَاسٌ مَعْدُودَةٌ.

﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥).

﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ نجمعهم. ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾ إلى ربهم الذي غمرهم برحمته، ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن ولعله لأن مساق هذا الكلام فيها لتعداد نعمه الجسام وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يفد الوفاة على المملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾.

﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم. ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ عطاشاً فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش، أو كالدواب التي ترد الماء.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ الضمير فيها للعباد المدلول عليها بذكر القسمين وهو الناصب لليوم. ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ إلا من تحلى بما يستعد به ويستأهل أن يشفع للعصاة من الإيمان والعمل الصالح على ما وعد الله تعالى، أو إلا من اتخذ من الله إذناً فيها كقوله تعالى: ﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من قولهم: عهد الأمير إلى فلان بكذا إذا أمره به، ومحلّه الرفع على البذل من الضمير أو النصب على تقدير مضاف أي إلا شفاعته من اتخذ، أو على الاستثناء. وقيل الضمير للمجرمين والمعنى: لا يملكون الشفاعة فيهم إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً يستعد به أن يشفع له بالإسلام.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ الضمير يحتمل الوجهين لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن ينسب إليهم.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى، والأدب بالفتح والكسر العظيم المنكر والإداة الشدة وأدنى الأمر، وأدنى أثقلني وعظم عليّ.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى، وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب «ينفطرن»، والأول أبلغ لأن التفعل مطاوع فعل والانفعال مطاوع فعل ولأن أصل الفعل التكلف. ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ تهد هداً أو مهدودة، أو لأنها تهد أي تكسر وهو تقرير لكونه أداً، والمعنى: أن هول هذه الكلمة وعظمتها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفتت من شدتها، أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم وبدد قوائمه غضباً على من تفوه بها.

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾.

﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ يحتمل النصب على العلة لـ ﴿تَكَادُ﴾ أو لـ ﴿هَذَا﴾ على حذف اللام وإفشاء الفعل إليه، والجر بإضمار اللام أو بالإبدال من الهاء في منه والرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب لذلك ﴿أَنْ دَعَا﴾، أو فاعل ﴿هَذَا﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن وهو من دعا بمعنى سمي المتعدي إلى مفعولين، وإنما اقتصر على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دعي له ولداً، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ولا يليق به اتخاذ الولد ولا ينطلب له لو طلب مثلاً له لأنه

مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للإشعار بأن كل ما عدها نعمة ومنعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها ومولي أصولها وفروعها، فكيف يمكن أن يتخذها ولداً ثم صرح به في قوله:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم. ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد، وقرئ «آتَى الرَّحْمَنِ» على الأصل.

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه وقبضة قدرته. ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم فإن كل شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ منفرداً عن الاتباع والأنصار فلا يجانسه شيء من ذلك ليتخذها ولداً ولا يناسبه ليشرك به.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها، وعن النبي ﷺ «إذا أحب الله عبداً يقول لجبريل أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء، ثم توضع له المحبة في الأرض». والسين إما لأن السورة مكية وكانوا ممقوتين حيثن بين الكفرة فوعدهم ذلك إذا دجا الإسلام، أو لأن الموعود في القيامة حين تعرض حسنتهم على رؤوس الأشهاد فينزع ما في صدورهم من الغل.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه بلغتك، والباء بمعنى على أو على أصله لتضمن «يسرناه» معنى أنزلناه أي أنزلناه بلغتك. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى. ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أشداء الخصومة آخذين في كل لديد، أي شق من المراء لفرط لجاجهم فبشر به وأنذر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ تخويف للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم. ﴿هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ هل تشعر بأحد منهم وتراه. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقرئ «تسمع» من أسمعت والركز الصوت الخفي، وأصل التركيب هو الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز المال المدفون. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة مريم أعطي عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورين فيها وبعده من دعا الله في الدنيا ومن لم يدع الله».

(٢٠) سورة طه

محكية وهي مائة أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ ﴿١﴾

﴿طه﴾ فخمها قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الأصل، وفخم الطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباؤون. وهما من أسماء الحروف. وقيل معناه يا رجل على لغة عك، فإن صح فلعل أصله يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار والاستشهاد بقوله:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَاهَا فِي خَلْقِكُمْ لَا قُدُسَ لِلَّهِ أَخْلَقَ الْمَلَائِكِينَ

ضعيف لجواز أن يكون قسماً كقوله حم لا ينصرون، وقرئ ﴿طه﴾ على أنه أمر للرسول ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه، فإنه كان يقوم في تهجد على إحدى رجليه وأن أصله طأ فقلبت همزته هاء أو قلبت في يطاء ألفاً كقوله: لا هناك المرتع. ثم بني عليه الأمر وضم إليه هاء السكت وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل ﴿طه﴾ طأها والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية الأرض، لكن يرد ذلك كتابتهما على صورة الحرف وكذا التفسير بيا رجل أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبر عنهما باسمهما.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿٣﴾

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ خبر ﴿طه﴾ إن جعلته مبتدأ على أنه مؤول بالسورة، أو ﴿القرآن﴾ والقرآن فيه واقع موقع العائد وجوابه إن جعلته مقسماً به ومنادى له إن جعلته نداء، واستئناف إن كانت جملة فعلية أو اسمية بإضمار مبتدأ، أو طائفة من الحروف محكية والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش إذ ما عليك إلا أن تبلغ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التهجد والقيام على ساق. والشقاء شائع بمعنى التعب ومنه أشقى من راض المهر، وسيد القوم أشقاهم. ولعله عدل إليه للإشعار بأنه أنزل عليه ليسعد. وقيل رد وتكذيب للكفرة، فإنهم لما رأوا كثرة عبادته قالوا إنك لتشقى بترك ديننا وإن القرآن أنزل عليك لتشقى به.

﴿إِلَّا تَذَكُّرٌ﴾ لكن تذكيراً، وانتصابها على الاستثناء المنقطع، ولا يجوز أن يكون بدلاً من محل ﴿لتشقى﴾ لاختلاف الجنسین ولا مفعولاً له لـ ﴿أنزلنا﴾، فإن الفعل الواحد لا يتعدى إلى علتين. وقيل هو مصدر في موقع الحال من الكاف أو القرآن، أو مفعول له على أن ﴿لتشقى﴾ متعلق بمحذوف هو صفة القرآن أي ما أنزلنا عليك القرآن المنزل لتتعب بتبليغه إلا تذكرة. ﴿لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن في قلبه خشية ورقة تتأثر بالإندار، أو لمن علم الله منه أنه يخشى بالتخويف منه فإنه المتفع به.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ﴿٤﴾

﴿تنزيلًا﴾ نصب بإضمار فعله أو بـ ﴿يخشى﴾، أو على المدح أو البذل من ﴿تذكرة﴾ إن جعل حالاً،

وإن جعل مقعولاً له لفظاً أو معنى فلا لأن الشيء لا يعلل بنفسه ولا بنوعه. ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ مع ما بعده إلى قوله ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تفخيم لشأن المنزل بفرط تعظيم المنزل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحسن وأظهر عنده من السموات العلى، وهو جمع العليا تأنيث الأعلى، ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها بأن قصد العرش فأجرى منه الأحكام والتقادير، وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝٦﴾

﴿٦﴾

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته، ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم عقب ذلك بإحاطة علمه تعالى بجليات الأمور وخفياتها على سواء فقال:

﴿وَأَن يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾

﴿وَأَن يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم أنه غني عن جهره فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس. وفيه تنبيه على أن شرع الذكر والدعاء والجهر فيما ليس لإعلام الله بل لتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره وهضمها بالتضرع والجوار، ثم إنه لما ظهر بذلك أنه المستجمع لصفات الألوهية بين أنه المتفرد بها والمتوحد بمقتضاها فقال:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝٨﴾

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ومن في ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ صلة لـ ﴿تنزيلاً﴾ أو صفة ﴿له﴾، والانتقال من التكلم إلى الغيبة للتعفن في الكلام وتفخيم المنزل من وجهين إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، ونسبته إلى المختص بصفات الجلال والإكرام والتنبيه على أنه واجب الإيمان به والانقياد له من حيث إنه كلام من هذا شأنه، ويجوز أن يكون أنزلنا حكاية كلام جبريل والملائكة النازلين معه. وقرئ ﴿الرحمن﴾ على الجزر صفة لمن خلق فيكون ﴿على العرش استوى﴾ خبر محذوف، وكذا إن رفع ﴿الرحمن﴾ على المدح دون الابتداء، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، والثرى الطبقة الترايبية من الأرض وهي آخر طبقاتها، و﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن، وفضل أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في الحسن لدلالاتها على معان هي أشرف المعاني وأفضلها.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝٩ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ففى تمهيد نبوته ﷺ بقصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء النبوة وتبليغ الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ ظرف للـ ﴿حديث﴾ لأنه حدث أو مفعول لأذكر. قيل إنه استأذن شعبياً عليهما الصلاة والسلام في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله فلما وافى وادي طوى وفيه الطور ولد له ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة، وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته إذ رأى من جانب الطور ناراً. ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾

امْكُثُوا أَقِيمُوا مَكَانَكُمْ. وقرأ حمزة «ألهه امكثوا ها هنا»، وفي «القصص» بضم الهاء في الوصل والباقون بكسرها. «إِنِّي آنَسْتُ نَارًا» أبصرتها إبصاراً لا شبهة فيه، وقيل الإيناس إبصار ما يؤنس به. «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ» بشعلة من النار وقيل جمرة. «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى» هادياً يدلني على الطريق أو يهديني أبواب الدين، فإن أفكار الأبرار ماثلة إليها في كل ما يعن لهم. ولما كان حصولهما مترتباً بني الأمر فيهما على الرجاء بخلاف الإيناس، فإنه كان محققاً ولذلك حققه لهم ليوطنوا أنفسهم عليه، ومعنى الاستعلاء في «على النار» أن أهلها مشرفون عليها أو مستعلون المكان القريب منها كما قال سيبويه في: مررت بزيد إنه لصوق بمكان يقرب منه.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسٌ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴿١٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي النار وجد ناراً بيضاء تنقد في شجرة خضراء. «نُودِيَ يَا مُوسَى».

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ فتحه ابن كثير وأبو عمرو أي بأنني وكسره الباقون بإضمار القول أو إجراء النداء مجراه، وتكرير الضمير للتوكيد والتحقيق. قيل إنه لما نودي قال: من المتكلم قال: إني أنا الله، فوسوس إليه إبليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال: أنا عرفت أنه كلام الله بأنني أسمع من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً، ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص بعضو وجهة. «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» أمره بذلك لأن الحفوة تواضع وأدب ولذلك طاف السلف حافين. وقيل لنجاسة نعليه فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل معناه فرغ قلبك من الأهل والمال. «إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ» تعليل للأمر باحترام البقعة والمقدس يحتمل المعنيين. «طَوًى» عطف بيان للوادي ونونه ابن عامر والكوفيون بتأويل المكان. وقيل هو كثنى من الطي مصدر لـ «نودي» أو «المقدس» أي: نودي ندائين أو قدس مرتين.

﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾

﴿١٤﴾

﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ﴾ اصطفتك للنبوة وقرأ حمزة «وأنا اخترناك». «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» للذي يوحى إليك،

أو للوحي واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ بدل مما يوحى دال على أنه مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» خصها بالذكر وأفردها بالأمر للعللة التي أناط بها إقامتها، وهو تذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره. وقيل «لِذِكْرِي» لأنني ذكرتها في الكتب وأمرت بها، أو لأن أذكرك بالثناء، أو «لِذِكْرِي» خاصة لا ترائي بها ولا تشوبها بذكر غيري. وقيل لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة أو لذكر صلاتي. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «من نام عن صلاة أو نسيها فليقضها إذا ذكرها إن الله تعالى يقول «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي».

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا

وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة. «أَكَادُ أُخْفِيهَا» أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الإخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعداء لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها من أخفاء إذا سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح من خفاء إذا أظهره. «لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى» متعلق بـ «آتِيَةٌ» أو بـ

﴿أَخْفِيهَا﴾ على المعنى الأخير.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ عن تصديق الساعة، أو عن الصلاة. ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ نهي الكافر أن يصد موسى عليه الصلاة والسلام عنها، والمراد نهي. أن ينصد عنها كقولهم: لا أرنيك ها هنا، تنبيهاً على أن فطرته السليمة لو خليت بحالها لاختارها ولم يعرض عنها، وأنه ينبغي أن يكون راسخاً في دينه فإن صد الكافر إنما يكون بسبب ضعفه فيه. ﴿وَاتَّبِعْ هَوَاةَ﴾ ميل نفسه إلى اللذات المحسوسة المخدجة فقصر نظره عن غيرها. ﴿فَتَرَدَّى﴾ فتهلك بالانصداد بصدده.

﴿وَمَا تِلْكَ بِسَمِيِّكَ يَمُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى (١٨).

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهام يتضمن استيقاظاً لما يريه فيها من العجائب. ﴿بِسَمِيِّكَ﴾ حال من معنى الإشارة، وقيل صلة ﴿تِلْكَ﴾. ﴿يَا مُوسَى﴾ تكرير لزيادة الاستئناس والتنبيه.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقرئ «عَصِي» على لغة هذيل. ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ اعتمد عليها إذا أعيت أو وقفت على رأس القطيع. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ وأخبط الورق بها على رؤوس غنمي، وقرئ «أهش» وكلاهما من هش الخبز يهش إذا انكسر لهشاشته، وقرئ بالسين من الهس وهو زجر الغنم أي أنحي عليها زاجراً لها. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ حاجات آخر مثل أن كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته، وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل به، وإذا قصر الرشاء وصله بها، وإذا تعرضت السباع لغنمه قاتل بها، وكأنه ﷺ فهم أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها وما يرى من منافعها، حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبته بالليل كالشمع، وتصيران دلوأ عند الاستقاء، وتطول بطول البشر وتحارب عنه إذا ظهر عدو، وينبع الماء بركزها، وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا انتهى ثمرة فركزها، على أن ذلك آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله فيها لأجله وليست من خواصها، فذكر حقيقتها ومنافعها مفصلاً ومجماً على معنى أنها من جنس العصي تنفع منافع أمثالها ليطابق جوابه الغرض الذي فهمه.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١).

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قيل لما ألقاها انقلبت حية صفراء بغلظ العصا ثم تورمت وعظمت فلذلك سماها جانا تارة نظراً إلى المبدأ وثعباناً مرة باعتبار المنتهى، وحية أخرى باعتبار الاسم الذي يعم الحالين. وقيل كانت في ضخامة الثعبان وجلادة الجان ولذلك قال ﴿كَانَهَا جَانٌ﴾.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنه لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر خاف وهرب منها. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ هيئتها وحالتها المتقدمة، وهي فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الخافض أو على أن أعاد منقول من عادته بمعنى عاد إليه، أو على الظرف أي سنعيدها في طريقها أو على تقدير فعلها أي سنعيد العصا بعد ذهابها تسير سيرتها الأولى فتنتفع بها ما كنت تنتفع قبل. قيل لما قال له ربه ذلك اطمأن نفسه حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحيتها.

﴿وَأَضْمَمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤).

﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ﴾ إلى جنبك تحت العضد يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر، استعارة من جناحي الطائر سمياً بذلك لأنه يجنحهما عند الطيران. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءُ﴾ كأنها مشعة. ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير عاهة وقبح، كني به عن البرص كما كني بالسوءة عن العورة لأن الطباع تعافه وتنفر عنه. ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ معجزة ثانية وهي حال من ضمير ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءُ﴾ أو من ضميرها، أو مفعول بإضمار خذ أو دونك. ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ متعلق بهذا المضمرة أو بما دل عليه آية أو القصة التي دللنا بها، أو فعلنا ذلك ﴿لِنُرِيكَ﴾ و ﴿الكبرى﴾ صفة ﴿آياتنا﴾ أو مفعول «نريك» و ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ حال منها. ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة. ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾ عصى وتكبر.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَخْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨). ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ لما أمره الله بخطب عظيم وأمر جسيم سأل أن يشرح صدره ويفسح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه، والتلقي لما ينزل عليه ويسهل الأمر له بإحداث الأسباب ورفع الموانع، وفائدة لي إبهام المشروح والميسر أولاً، ثم رفعه بذكر الصدر والأمر تأكيداً ومبالغة. ﴿وَأَخْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ فإنما يحسن التبليغ من البليغ وكان في لسانه رتة من جمرة أدخلها فاه، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ بلحيته ومنتفها، فغضب وأمر بقتله فقالت آسية: إنه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت، فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة ووضعها في فيه. ولعل تبييض يده كان لذلك. وقيل احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ، ثم لما دعاه قال إلى أي رب تدعوني قال إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه. واختلف في زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ ومن لم يقل احتج بقوله ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وقوله ﴿وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾ وأجاب عن الأول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه مطلقاً بل عقدة تمنع الإفهام ولذلك نكرها وجعل يفقهوا جواب الأمر، ومن لساني يحتمل أن يكون صفة عقدة وأن يكون صلة احلل.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢).

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هَرُونَ أَخِي﴾ يعينني على ما كلفتني به، واشتقاق الوزير إما من الوزر لأنه يحمل الثقل عن أميره، أو من الوزر وهو الملجأ لأن الأمير يعتصم برأيه ويلتجئ إليه في أموره، ومنه الموازنة وقيل أصله أوزير من الأزر بمعنى القوة، فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجلس قبليت همزته واواً كقلبها في موازر. ومفعولاً اجعل ﴿وزيراً﴾، و ﴿هرون﴾ قدم ثانيهما للعناية به و ﴿لي﴾ صلة أو حال أو ﴿لي وزيراً﴾ و ﴿هرون﴾ عطف بيان للوزير، أو ﴿وزيراً من أهلي﴾ و ﴿لي﴾ تبين كقوله ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾. و ﴿أخي﴾ على الوجه بدل من ﴿هرون﴾ أو مبتدأ خبره.

﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ على لفظ الأمر وقراءهما ابن عامر بلفظ الخبر على أنهما جواب الأمر.

﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا (٣٥).

﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن التعاون يهيج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايد. ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا﴾ عالماً بأحوالنا وأن التعاون مما يصلحنا، وأن هرون نعم المعين لي فيما أمرتني به.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي مسؤولك، فعل بمعنى مفعول كالخبز والأكمل بمعنى المخبوز والمأكول.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ أي أنعمنا عليك في وقت آخر.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّكَ﴾ بإلهام أو في منام أو على لسان نبي في وقتها أو ملك . لا على وجه النبوة . كما أوحى إلى مريم . ﴿مَا يُوحَى﴾ ما لا يعلم إلا بالوحي ، أو مما ينبغي أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به .

﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُضْمَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ (٣٩)

﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ بأن أقذفيه، أو أي أقذفيه لأن الوحي بمعنى القول . ﴿فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ والقذف يقال للإلقاء وللوضع كقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وكذلك الرمي كقوله: غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا . ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ لما كان إلقاء البحر إياه إلى الساحل أمراً واجب الحصول لتعلق الإرادة به، جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أمره بذلك وأخرج الجواب مخرج الأمر، والأولى أن تجعل الضمائر كلها لموسى مراعاة للنظم، فالمقذوف في البحر والملقى إلى الساحل وإن كان التابوت بالذات فموسى بالعرض . ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ جواب ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ وتكرير ﴿عَدُوٌّ﴾ للمبالغة، أو لأن الأول باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقع . قيل إنها جعلت في التابوت قطعاً ووضعته فيه ثم قبرته وألقته في اليم، وكان يشرع منه إلى بستان فرعون نهر فدفعه الماء إليه فأداه إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأسها مع امرأته آسية بنت مزاحم، فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبي أصبح الناس وجهاً فأحبه حباً شديداً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي محبة كائنة مني قد زرعتها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك فلذلك أحبك فرعون، ويجوز أن يتعلق ﴿مِّنِّي﴾ بـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أي أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب، وظاهر اللفظ أن اليم ألقاه بساحله وهو شاطئه لأن الماء يسحله فالتقط منه، لكن لا يبعد أن يؤول الساحل بجانب فوهة نهره . ﴿وَلَتُضْمَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ لترى ويحسن إليك وأنا راعيك وراقبك، والعطف على علة مضمرة مثل ليتعطف عليك، أو على الجملة السابقة بإضمار فعل معتل مثل فعلت ذلك . وقرئ ﴿وَلَتُضْمَعَ﴾ بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر ﴿وَلَتُضْمَعَ﴾ بالنصب وفتح التاء أي وليكون عملك على عين مني لئلا تخالف به عن أمري .

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاهُ فَوَدَّاعًا فَلَيْتَ سَيِّئِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (٤٠)

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَلْقَيْتُ﴾ أو ﴿لَتُضْمَعَ﴾ أو بدل من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾ على أن المراد بها وقت متسع . ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ﴾ وذلك لأنه كان لا يقبل ثدي المراضع، فجاءت أخته مريم متفحصة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها فقالت ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فجاءت بأمه فقبل ثديها . ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ وفاء بقولنا ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلفظك . ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقك أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها . ﴿وَقَلَلْتَ نَفْسًا﴾ نفس القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي . ﴿فَتَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ غم قتله خوفاً

من عقاب الله تعالى واقتصاص فرعون بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مدين. ﴿وَفَتْنَاكَ فُتُونًا﴾ وابتليناك ابتلاء، أو أنواعاً من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجة وبدرة، فخلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألف، والمشي راجلاً على حذر وفقد الزاد وأجر نفسه إلى غير ذلك أوله ولما سبق ذكره. ﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبثت فيهم عشر سنين قضاء لأوفى الأجلين، ومدين على ثمان مراحل من مصر. ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ﴾ قدرته لأن أكلمك وأستنبك غير مستقدم وقته المعين ولا مستأخر، أو على مقدار من السن يوحى فيه إلى الأنبياء. ﴿يَا مُوسَى﴾ كرهه عقيب ما هو غاية الحكاية للتنبيه على ذلك.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ واصطفيتك لمحبتني مثله فيما خوله من الكرامة بمن قربه الملك واستخلصه نفسه.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ بمعجزاتي. ﴿وَلَا نَبِيًّا﴾ ولا تفترا ولا تقصرا، وقرىء ﴿نَبِيًّا﴾ بكسر التاء. ﴿فِي ذِكْرِي﴾ لا تنسياني حشما تقلبتما. وقيل في تبليغ ذكري والدعاء إليَّ.

﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أمر به أولاً موسى عليه الصلاة والسلام وحده وههنا إياه وأخاه فلا تكرير. قيل أوحى إلى هرون أن يتلقى موسى، وقيل سمع بمقبله فاستقبله.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ مثل «هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى» فإنه دعوة في صورة عرض ومشورة حذراً أن تحمله الحماسة على أن يسطو عليكما، أو احتراماً لما له من حق التربية عليك. وقيل كناية وكان له ثلاث كنى: أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة. وقيل عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا يزول إلا بالموت. ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ متعلق بـ «اذهبا» أو «قولا» أي: بأشرا الأمر على رجائكما. وطمعكما أنه يشر ولا يخيب سعيكما، فإن الراجي مجتهد والآيس متكلف، والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في الاجتهاد مع علمه بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار ما حدث في تضاعيف ذلك من الآيات والتذكر للمتحقق والخشية للمتوهم، ولذلك قدم الأول أي إن لم يتحقق صدقكما ولم يتذكر فلا أقل من أن يتوهمه فيخشى.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أن يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى تمام الدعوة وإظهار المعجزة، من فرط إذا تقدم ومنه الفارط وفرس فرط يسبق الخيل. وقرىء «يفرط» من أفرطته إذا حملته على العجلة، أي نخاف أن يحمله حامل من استكبار أو خوف على الملك أو شيطان إنسي أو جنني على المعالجة بالعقاب، و «يفرط» من الإفراط في الأذية. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أو أن يزداد طغياناً فيتخطى إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا﴾ بالحفظ والنصر. ﴿أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأحدث في كل ما يصرف شره عنكما ويوجب نصرتي لكما، ويجوز أن لا يقدر شيء على معنى إنني حافظكما سامعاً ومبصراً، والحافظ إذا كان قادراً سميعاً بصيراً ثم الحفظ.

﴿فَأَنبِئَهُمْ فَفَوَّلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْلِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْمَهْدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَأَنبِئَهُمْ فَفَوَّلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أطلقهم. ﴿وَلَا تَغْلِبْهُمْ﴾ بالتكاليف الصعبة وقتل ولدان، فإنهم كانوا في أيدي القبط يستخدمونهم ويتعبرونهم في العمل ويقتلون ذكور أولادهم في عام دون عام، وتعقيب الإتيان بذلك دليل على أن تخلص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، ويجوز أن يكون للتدرج في الدعوة. ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جملة مقررّة لما تضمنته الكلام السابق من دعوى الرسالة، وإنما وحد الآية وكان معه آيتان لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددتها، وكذلك قوله: ﴿قَدْ جِئْتَكُمْ بَيِّنَةً﴾، ﴿فَأَنْتَ بِآيَةٍ﴾، ﴿قَالَ أُولُو جِثَّتِكَ بَشِيءٌ مَّبِينٌ﴾. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْمَهْدَىٰ﴾ وسلام الملائكة وخزنة الجنة على المهتدين، أو السلامة في الدارين لهم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أن عذاب المنزلين على المكذبين للرسول، ولعل تغيير النظم والتصريح بالوعيد والتوكيد فيه لأن التهديد في أول الأمر أهم وأنجع وبالواقع أليق.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ أن بعد ما أنبأه وقال له ما أمرا به، ولعله حذف لدلالة الحال عليه فإن المطيع إذا أمر بشيء فعله لا محالة، وإنما خاطب الاثنين وخص موسى عليه الصلاة والسلام بالنداء لأنه الأصل وهرون وزيره وتابعه، أو لأنه عرف أن له رتبة ولأخيه فصاحة فأراد أن يفحمه ويدل عليه قوله ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأنواع ﴿خَلْقَهُ﴾ صورته وشكله الذي يطابق كماله الممكن له، أو أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ويرتفعون به، فقدم المفعول الثاني لأنه المقصود ببيان. وقبل أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة زوجاً. وقرئ ﴿خَلْقَهُ﴾ صفة للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ فيكون المفعول الثاني محذوفاً أي: أعطى كل مخلوق ما يصلحه. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عرفه كيف يرتفق بما أعطي وكيف يتوصل به إلى بقاءه وكماله اختياراً أو طبعاً، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره وإعراجه عن الموجودات بأسرها على مراتبها، ودلالته على أن الغني القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله تعالى وأن جميع ما عده مفتقر إليه منعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك بهت الذي كفر وأفحم عن الدخل عليه فلم ير إلا صَرَفَ الكلام عنه.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي هو غيب لا يعلمه إلا هو وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم منه إلا ما أخبرني به. ﴿فِي كِتَابٍ﴾ مثبت في اللوح المحفوظ، ويجوز أن يكون تمثيلاً لتمكنه في علمه بما استحفظه العالم وقيده بالكتابة ويؤيده. ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ﴾ والضلال أن تخطئ الشيء في مكانه فلم تهتد إليه، والنسيان أن تذهب عنه بحيث لا يخطر ببالك، وهما محالان على العالم بالذات، ويجوز أن يكون سؤاله دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلها وتخصيصه أبعاضها بالصور والخواص المختلفة، بأن ذلك يستدعي علمه بتفاصيل الأشياء وجزئياتها، والقرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدتهم وتباعد أطرافهم كيف أحاط علمه بهم

وبأجزائهم وأحوالهم فيكون معنى الجواب: أن علمه تعالى محيط بذلك كله وأنه مثبت عنده لا يضل ولا ينسى.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ۝٥٣﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ مرفوع صفة لـ ﴿رَبِّي﴾ أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي «الزخرف» «مهداً» أي كالمهد تمتدونها، وهو مصدر سمي به، والباقون مهداً وهو اسم ما يمهّد كالفراش أو جمع مهد ولم يختلفوا في الذي في «النبأ». ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وجعل لكم فيها سبلاً بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيداناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته، وعلى هذا نظائره كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا﴾ «أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق» الآية. ﴿أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض. ﴿مِّنْ نَّبَاتٍ﴾ بيان أو صفة لأزواجاً وكذلك: ﴿شَتَّى﴾ ويحتمل أن يكون صفة لـ

﴿نبات﴾ فإنه من حيث إنه مصدر في الأصل يستوي فيه الواحد والجمع، وهو جمع شتيت كمرضى ومرضى أي متفرقات في الصور والأغراض والمنافع يصلح بعضها للناس وبعضها للبهائم فلذلك قال:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٥٤﴾ ﴿مِنَّا خَلَقْنَاهُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ۝٥٥﴾.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ وهو حال من ضمير ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على إرادة القول أي أخرجنا أصناف النبات قائلين ﴿كُلُوا وَارْعَوْا﴾، والمعنى معديها لاتقاعكم بالأكل والعلف آذنين فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول الناهية عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح جمع نهي.

﴿مِنهَا خَلَقْنَاهُمْ﴾ فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُهُمْ﴾ بالموت وتفكيك الأجزاء. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الصور السابقة ورد الأرواح إليها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِن ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُسُ ۝٥٧﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ بصرنه إياها أو عرفناه صحتها. ﴿كُلَّهَا﴾ تأكيد لشمول الأنواع أو لشمول الأفراد، على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع المختصة بموسى، أو أنه عليه السلام أراه آياته وعدد عليه ما أوتي غيره من المعجزات ﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى من فرط عناده. ﴿وَأَبَى﴾ الإيمان والطاعة لعتوه.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ أرض مصر. ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كونه محقاً حتى خاف منه على ملكه، فإن الساحر لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل سحرك. ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ وعداً لقوله: ﴿لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا

أَنْتَ فَإِنَّ الْإِخْلَافَ لَا يَلِاثِمُ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ وَانْتِصَابَ. ﴿مَكَانًا سَوًى﴾ بفعل دل عليه المصدر لا به لأنه موصوف، أو بأنه يدل من ﴿موعداً﴾ على تقدير مكان مضاف إليه وعلى هذا يكون طباق الجواب في قوله.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ (٥٩).

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ من حيث المعنى فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم، أو بإضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الأول، أو وعدكم وعد يوم الزينة، وقرئ «يوم» بالنصب وهو ظاهر في أن المراد بهما المصدر، ومعنى ﴿سوى﴾ منتصفاً يستوي مسافته إلينا وإليك وهو في النعت كقولهم: قوم عدي في الشذوذ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب بالضم، وقيل في «يوم الزينة» يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، أو يوم عيد كان لهم في كل عام، وإنما عينه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في الأقطار. ﴿وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ عطف على الـ ﴿يوم﴾ أو «الزينة»، وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب فرعون والياء على أن فيه ضمير الـ ﴿يوم﴾ أو ضمير «فرعون» على أن الخطاب لقومه.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ (٦١).

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ ما يكاد به يعني السحرة وآلاتهم. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ الموعد.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدعوا آياته سحراً. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ فيهلككم ويستأصلكم، وبه قرأ حمزة والكسائي وحفص ويعقوب بالضم من الاسحات وهو لغة نجد وتميم، والسحت لغة الحجاز. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ كما خاب فرعون، فإنه افتري واحتال ليبقى الملك عليه فلم ينفعه.

﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ (٦٣).

﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي تنازعت السحرة في أمر موسى حين سمعوا كلامه فقال بعضهم: ليس هذا من كلام السحرة. ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ بأن موسى إن غلبنا اتبعناه أو تنازعوا واختلفوا فيما يعارضون به موسى وتشاوروا في السر. وقيل الضمير لفرعون وقومه وقوله:

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾ تفسير لـ ﴿أسروا النجوى﴾ كأنهم تشاوروا في تلفيقه حذراً أن يغلبا فيتبعهما الناس، و «هذان» اسم إن على لغة بلحرت بن كعب فإنهم جعلوا الألف للثنى وأعربوا المثنى تقديراً. وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف و «هذان لساحران» خبرها. وقيل «إن» بمعنى نعم وما بعدها مبتدأ وخبر وفيهما إن اللام لا تدخل خبر المبتدأ. وقيل أصله إنه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف، وقرأ أبو عمرو «إن هذين» وهو ظاهر، وابن كثير وحفص «إن هذان» على أنها هي المخففة واللام هي الفارقة أو النافية واللام بمعنى إلا. ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ بالاستيلاء عليها. ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾. وقيل أرادوا أهل طريقتكم وهم بنو إسرائيل فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم لقول موسى ﴿أرسل معنا بني إسرائيل﴾. وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرفهم من حيث إنهم قدوة لغيرهم.

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ۝٦٤﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥﴾.

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ فآزمعوه واجعلوه مجمعا عليه لا يتخلف عنه واحد منكم. وقرأ أبو عمرو ﴿فَاجْمَعُوا﴾ ويعضده قوله ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ والضمير في ﴿قَالُوا﴾ إن كان للسحرة فهو قول بعضهم لبعض. ﴿ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ مصطفين لأنه أهيأ في صدور الرائيين. قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل عصا وأقبلوا عليه إقبالة واحدة. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ فاز بالمطلوب من غلب وهو اعتراض.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي بعد ما أتوا مراعاة للأدب و ﴿أَنْ﴾ بما بعده منصوب بفعل مضمر أو مرفوع بخبرية محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا أو الأمر إلقاءك أو إلقاءنا.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ مقابلة أدب بأدب وعدم مبالاة بسحرم، وإسعافاً إلى ما أوهموا من الميل إلى البدء بذكر الأول في شقهم وتغيير النظم إلى وجه أبلغ، ولأن يبرزوا ما معهم ويستنفذوا أقصى وسعهم ثم يظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه. ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ أي قالوا فإذا جبالهم وعصيتهم، وهي للمفاجأة والتحقيق أنها أيضاً ظرفية تستدعي متعلقات ينصبها وجملة تضاف إليها، لكنها خصت بأن يكون المتعلق فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت تخييل سعي جبالهم وعصيتهم من سحرم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخيّل إليه أنها تتحرك. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان وروح «تخيّل» بالتاء على إسناده إلى ضمير الجبال والعصي، وإبدال أنها «تسعى» منه بدل الاشتمال، وقرئ «يخيّل» بالياء على إسناده إلى الله تعالى، و «تخيّل» بمعنى تتخيّل.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ۝٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ ۝٦٩﴾.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته على ما هو مقتضى الجبلية البشرية، أو من أن يخالجه الناس شك فلا يتبعوه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ما توهمت. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكداً بالاستئناف، وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهمه ولم يقل عصاك تحقيراً لها أي لا تبال بكثرة جبالهم وعصيتهم وألقى العويذة التي في يده، أو تعظيماً لها أي لا تحتفل بكثرة هذه الأجرام وعظمتها فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً فالفقه. ﴿تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾ تبتلعه بقدرة الله تعالى، وأصله تتلقف فحذفت إحدى التاءين، وتاء المضارعة تحتل التانيث والخطاب على إسناد الفعل إلى المسبب. وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان بالرفع على الحال أو الاستئناف وحفص بالجزم والتخفيف على أنه من لفظته بمعنى تلقفته. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ أن الذي زوروا وافتعلوا. ﴿كَيْدٌ سِحْرٌ﴾ وقرئ بالنصب على أن ما كافة وهو مفعول صنعوا. وقرأ حمزة والكسائي «سحر» بهاء من سحر، أو بتسمية الساحر سحراً على المبالغة، أو بإضافة الكيد إلى السحر للبيان كقولهم: علم فقه، وإنما وحد الساحر لأن المراد به الجنس المطلق ولذلك قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس وتنكير الأول

لتنكير المضاف كقول العجاج :

يَوْمَ تَرَى الثُّفُوسَ مَا أَعَدَّتْ فِي سَفْيِ ذُنْيَا طَالَمَا قَدَّمَتْ
كانه قيل إنما صنعوا كيد سحري . ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ حيث كان وأين أقبل .

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ .

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أي فالتقى فتلقت فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر وإنما هو آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته ، فالتقاهم ذلك على وجوههم سجداً لله توبة عما صنعوا وإعتاباً وتعظيماً لما رأوا . ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآية ، أو لأن فرعون ربي موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع . روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها .

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ .

﴿قَالَ ءَأَمَنْتُمْ لَهُ﴾ أي لموسى واللام لتضمن الفعل معنى الاتباع . وقرأ قبيل وحفص ﴿ءَأَمَنْتُمْ لَهُ﴾ على الخبر والباقون على الاستفهام . ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له . ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ﴾ لعظيمكم في فنكم وأعلمكم به أو لاستاذكم . ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلتم . ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ اليد اليمنى والرجل اليسرى ، ومن ابتدائية كأن القطع ابتداء من مخالفة العضو العضو وهي مع المجرور بها في حيز النصب على الحال ، أي لأقطعنها مختلفات وقرئ «لأقطعن» «ولأصلبن» بالتخفيف . ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ شبه تمكن المصلوب بالجدع بتمكن المظروف بالظرف ، وهو أول من صلب . ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا﴾ يريد نفسه وموسى لقوله ﴿ءَأَمَنْتُمْ لَهُ﴾ واللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله أراد به توضيح موسى والهزة به ، فإنه لم يكن من التعذيب في شيء . وقيل رب موسى الذي آمنوا به . ﴿أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وأدوم عقاباً .

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧١﴾ إِنَّا ءَأَمْنَا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ .

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك . ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا﴾ موسى به ، ويجوز أن يكون الضمير فيه لما . ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات . ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ما جاءنا أو قسم . ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ ما أنت قاضيه أي صانعه أو حاكم به . ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ إنما تصنع ما تهواه ، أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فهو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده . وقرئ «تقضي هذه الحياة الدنيا» كقولك : صيم يوم الجمعة .

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والمعاصي . ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ من معارضة المعجزة . روي أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائماً فوجدوه تحرسه العصا فقالوا ما هذا بسحر فإن الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه . ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ جزاء أو خير ثواباً وأبقى عقاباً .

﴿إِنَّهُمْ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ جَحِيمًا فَإِنْ لَمْ يَجَهِّمُوا لَهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٢﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ هُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ ﴿٧٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿٧٦﴾ .

﴿إِنَّهُ﴾ إن الأمر. ﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأن يموت على كفره وعصيانه. ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَا﴾ حياة مهناة.

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ المنازل الرفيعة. ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من الدرجات. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال والعامل فيها معنى الإشارة أو الاستقرار. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من أدناس الكفر والمعاصي، والآيات الثلاث يحتمل أن تكون من كلام السحرة وأن تكون ابتداء كلام من الله تعالى.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾

﴿٧٧﴾

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي من مصر. ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ فاجعل لهم، من قولهم ضرب له في ماله سهماً أو فاتخذ من ضرب اللبن إذا عمله. ﴿فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يابساً مصدر وصف به يقال ييس ييساً وييساً كسقم سقماً وسقماً، ولذلك وصف به المؤنث فقيل شاة ييس للتي جف لبنها، وقرئ «يبساً» وهو إما مخفف منه أو وصف على فعل كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد مبالغة كقوله:

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي جِينَ ضَمْتُ حَوَالِبَ غُرَزًا وَمَعِي جِيَاءًا

أو لتعدد معني فإنه جعل لكل سبط منهم طريقاً. ﴿لَا تَخَافْ دَرَكًا﴾ حال من المأمور أي آمناً من أن يدرركم العدو، أو صفة ثانية والعائد محذوف، وقرأ حمزة «لا تخف» على أنه جواب الأمر. ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ استئناف أي وأنت لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق كقوله ﴿وَتُظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أو حال بالواو والمعنى ولا تخشى الغرق.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام خرج بهم أول الليل فَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ بذلك فقص أثرهم، والمعنى فاتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده فحذف المفعول الثاني. وقيل ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ بمعنى فاتبعهم ويؤيده القراءة به والباء للتعدية وقيل الباء مزيدة والمعنى: فاتبعهم جنوده وذادهم خلفهم. ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضمير لجنوده أوله ولهم، وفيه مبالغة ووجازة أي: غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله. وقرئ «فغشاهم ما غشاهم» أي غطاهم ما غطاهم والفاعل هو-الله تعالى أو ما غشاهم أو فرعون لأنه الذي ورطهم للهلاك.

﴿وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم وهو تهكم به في قوله ﴿وما أهديكم إلا سبيلاً الرشاد﴾ أو أضلهم في البحر وما نجا.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْناكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى

﴿٨٠﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ خطاب لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون على إضمار قلنا، أو للذين منهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما فعل آبائهم. ﴿قَدْ أَفْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ﴾ فرعون وقومه. ﴿وَوَاعَدْناكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه، وإنما عد المواعدة إليهم وهي لموسى أوله وللسبعين المختارين للملابسة. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾ يعني في التيه.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۖ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨١).

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته، وقرأ حمزة والكسائي «أنجيبتكم» و«وواعدتكم» و«ما رزقتكم» على التاء. وقرىء «وواعدتكم» و«وواعدناكم»، والأيمن بالجر على الجوار مثل: جحر ضب خرب. ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره والتعدي لما حد الله لكم فيه كالسرف والبطر والمنع عن المستحق. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فيلزمكم عذابي ويجب لكم من حل الدين إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ فقد تردى وهلك، وقيل وقع في الهاوية، وقرأ الكسائي «يحل» و«يخلل» بالضم من حل يحل إذا نزل.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ﴾ عن الشرك. ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب الإيمان به. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور.

﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ ﴿٨٢﴾

﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ سؤال عن سبب العجلة يتضمن إنكارها من حيث إنها نقيصة في نفسها انضم إليها إغفال القوم وإيهام التعظم عليهم فلذلك أجاب موسى عن الأمرين وقدم جواب الإنكار لأنه أهم.

﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطأ يسيرة لا يعتد بها عادة وليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة يتقدم بها الرفقة بعضهم بعضاً. ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك توجب مرضاتك.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي﴾ (٨٦).

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ ابتليناهم بعبادة العجل بعد خروجك من بينهم وهم الذين خلفهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته، وقرىء «وَأَضَلُّهُمْ» أي أشدهم ضلالاً لأنه كان ضالاً مضلاً، وإن صح أنهم أقاموا على الدين بعد ذهابه عشرين ليلة وحسبوا بأيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل، وإن هذا الخطاب كان له عند مقدمه إذ ليس في الآية ما يدل عليه كان ذلك إخباراً من الله له عن المترقب بلفظ الواقع على عادته، فإن أصل وقوع الشيء أن يكون في علمه ومقتضى مشيئته، و«السامري» منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة. وقيل كان علجاً من كرمان. وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقاً.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ بعد ما استوفى الأربعين وأخذ التوراة «غَضْبَانَ» عليهم. ﴿أَسِفًا﴾ حزناً بما فعلوا. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ وبأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي الزمان يعني زمان مفارقتهم لهم. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ يجب عليكم. ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

بعبادة ما هو مثل في الغباوة. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ وعدمكم إياي بالثبات على الإيمان بالله والقيام على ما أمرتكم به، وقيل هو من أخلفت وعده إذا وجدت الخلف فيه، أي فوجدتم الخلف في وعدي لكم بالعود بعد الأربعين، وهو لا يناسب الترتيب على التردد ولا على الشق الذي يليه ولا جوابهم له.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَمْ خُورْ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨) ﴿أَفَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩).

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ بأن ملكنا أمرنا إذ لو خيلنا وأمرنا ولم يسول لنا السامري لما أخلفناه، وقرأ نافع وعاصم ﴿بِمَلِكِنَا﴾ بالفتح وحمزة والكسائي بالضم وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء. ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ حملنا أحمالاً من حلي القبط التي استعرتها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس. وقيل استعاروا لعيد كان لهم، ثم لم يردوا عند الخروج مخافة أن يعلموا به، وقيل: هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم فأخذوه ولعلهم سموها أوزاراً لأنها آثام، فإن الغنائم لم تكن تحمل بعد أو لأنهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي. ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أي في النار. ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي ما كان معه منها. روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم، فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها ففعلوا. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وروح ﴿حَمَلْنَا﴾ بالفتح والتخفيف.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ من تلك الحلي المذابة. ﴿لَهُ خُورٌ﴾ صوت العجل. ﴿فَقَالُوا﴾ يعني السامري ومن افتتن به أول ما رآه. ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند الطور، أو فنسي السامري أي ترك ما كان عليه من إظهار الإيمان.

﴿أَفَلَا يَرْجِعُ﴾ أفلا يعلمون. ﴿أَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أنه لا يرجع إليهم كلاماً ولا يرد عليهم جواباً. وقرئ ﴿يرجع﴾ بالنصب وفيه ضعف لأن أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين. ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا يقدر على إنقاذهم وإضرارهم.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (٩٠) ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٩١).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل رجوع موسى عليه الصلاة والسلام، أو قول السامري كأنه أول ما وقع عليه بصره حين طلع من الحفرة توهم ذلك وبادر تحذيرهم. ﴿يَا قَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ بالعجل. ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ لا غيره. ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ في الثبات على الدين.

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ على العجل وعبادته. ﴿عَاكِفِينَ﴾ مقيمين. ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول.

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٢) ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٣) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤).

﴿قَالَ يَا هَرُونَ﴾ أي قال له موسى حين رجع. ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل.

﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾ أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من كفر به، أو أن تأتي عقيبي وتلحقني و «لا» مزيدة كما في قوله «ما منعك أن لا تسجد». ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ بالصلاة في الدين والمحاماة عليه.

﴿قَالَ يَا ابْنِ آدَمَ﴾ خص الأم استعطافاً وترقيقاً، وقيل لأنه كان أخاه من الأم والجمهور على أنهما كانا من أب وأم. ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي بشعر رأسي قبض عليهما يجره إليه من شدة غيظه وفرط غضبه لله، وكان عليه الصلاة والسلام حديداً خشناً متصلباً في كل شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل. ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لو قاتلت أو فارقت بعضهم ببعض. ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ حين قلت «اخلفني في قومي وأصلح» فإن الإصلاح كان في حفظ الدهماء والمداراة لهم إلى أن ترجع إليهم فتتدارك الأمر برأيك.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِعُ ۖ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۖ﴾ (٩٦).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ثم أقبل عليه وقال له منكراً ما خطبك أي ما طلبك له وما الذي حملك عليه، وهو مصدر خطب الشيء إذا طلبه..

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب أي علمت بما لم تعلموه وفطنت لما لم تفتنوا له، وهو أن الرسول الذي جاءك روحاني لا يمس أثره شيئاً إلا أحياء، أو رأيت ما لم تروه وهو أن جبريل عليه الصلاة والسلام جاءك على فرس الحياة. وقيل إنما عرفه لأن أمه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون وكان جبريل يغذوه حتى استقل. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ من تربة موطنه والقبضة المرة من القبض فأطلق على المقبوض كضرب الأمير، وقرئ بالصاد والأول للأخذ بجميع الكف والثاني للأخذ بأطراف الأصابع ونحوهما الخضم والقضم، والرسول جبريل عليه الصلاة والسلام ولعله لم يسمه لأنه لم يعرف أنه جبريل أو أراد أن ينبه على الوقت وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطور. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحلي المذاب أو في جوف العجل حتى حيي. ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ زينته وحسنته لي.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۖ﴾ (٩٧).

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ عقوبة على ما فعلت. ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفاً من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى ومن مسك فتتحامى الناس ويتحاموك وتكون طريداً وحيداً كالوحش النافر، وقرئ «لا ميساس» كفجار وهو علم للمسة. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة. ﴿لَن يُخْلَفَهُ﴾ لن يخلفكه الله وينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك في الدنيا، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر اللام أي لن تخلف الواعد إياه وسيأتيك لا محالة، فحذف المفعول الأول لأن المقصود هو الموعد ويجوز أن يكون من أخلفت الموعد إذا وجدته خلفاً، وقرئ بالنون على حكاية قول الله. ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ ظلمت على عبادته مقيماً فحذف اللام الأولى تخفيفاً، وقرئ بكسر الظاء على نقل حركة اللام إليها. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي بالنار ويؤيده قراءة ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾، أو بالمبرد على أنه مبالغة في حرق إذ برد بالمبرد ويعضده قراءة ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾. ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ ثم لنذرينه رماداً أو مبروداً وقرئ بضم النسين. ﴿فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ فلا يصادف منه شيء والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار غباوة المفتنين به لمن له أدنى نظر.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ﴾ (٩٨).

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ الْمَسْتُحَقُّ لِعِبَادَتِكُمْ. اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحد يماثله أو يدانيه في كمال العلم والقدرة. ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل ما يصح أن يعلم لا العجل الذي يصاغ ويحرق وإن كان حياً في نفسه كان مثلاً في الغباوة، وقرىء ﴿وسع﴾ فيكون انتصاب ﴿علماً﴾ على المفعولية لأنه وإن انتصب على التمييز في المشهورة لكنه فاعل في المعنى فلما عدي الفعل بالتضعيف إلى المفعولين صار مفعولاً.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ﴾ (٩٩).

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الاقتصاص يعني اقتصاص قصة موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ من أخبار الأمور الماضية والأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتنبهها وتذكيراً للمستبصرين من أمتك. ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ كتاباً مشتملاً على هذه الأفاصيص والأخبار حقيقاً بالتفكر والاعتبار، والتذكير فيه للتعظيم. وقيل ذكراً جميلاً وصيتاً عظيماً بين الناس.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ (١٠٠) ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ﴾ (١٠١).

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة وقيل عن الله. ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ عقوبة ثقيلة فادحة على كفره، وذنبه سماها ﴿وزراً﴾ تشبيهاً في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره، أو إثماً عظيماً.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ في الوزر أو في حمله، والجمع فيه والتوحيد في أعرض للحمل على المعنى واللفظ. ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي بشس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوص بالذم محذوف أي ساء حملاً وزرهم، واللام في ﴿لهم﴾ للبيان كما في ﴿هيت لك﴾ ولو جعلت ﴿ساء﴾ بمعنى أحزن والضمير الذي فيه للوزر أشكل أمر اللام ونصب ﴿حِمْلًا﴾ ولم يفد مزيد معنى.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۖ﴾ (١٠٢).

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النسخ إلى الأمر به تعظيماً له أو للنافخ. وقرىء بالياء المفتوحة على أن فيه ضمير الله أو ضمير إسرافيل وإن لم يجر ذكره لأنه المشهور بذلك، وقرىء «في الصور» وهو جمع صورة وقد سبق بيان ذلك ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقرىء «ويحشر المجرمون» ﴿زُرْقًا﴾ زرق العيون وصفوا بذلك لأن الزرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العين ولذلك قالوا في صفة العدو: أسود الكيد، أصهب السبال، أزرق العين أو عمياً، فإن حدقة الأعمى تزرق.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ﴾ (١٠٣) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۖ﴾ (١٠٤).

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من الرعب والهول والخفت خفض الصوت وإخفاؤه. ﴿إِنْ﴾ ما ﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي في الدنيا يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها، أو لاستطاعتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وعلموا أنهم استحقوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتباع الشهوات، أو في القبر لقوله ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلى آخر الآيات.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدة لبثهم. ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأياً أو عملاً. ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاح لقول من يكون أشد تقلاً منهم.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ عن مآل أمرها وقد سأل عنها رجل من ثقيف. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيذر مقارها، أو الأرض وإضمارها من غير ذكر لدلالة ﴿الجبال﴾ عليها كقوله: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾. ﴿قَاعًا﴾ خاليًا ﴿صَفْصَفًا﴾ مستويًا كأن أجزاءها على صف واحد.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ اعوجاجًا ولا نتوءًا إن تأملت فيها بالقياس الهندسي، وثلاثتها أحوال مترتبة فالأولان باعتبار الإحساس والثالث باعتبار المقياس ولذلك ذكر العوج بالكسر وهو يخص بالمعاني، والأمم وهو التواء السير وقيل لا ترى استئناف مبين للحالين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُمْ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ نسفت على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلًا ثانيًا من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، قيل هو إسرئيل يدعو الناس قائمًا على صخرة بيت المقدس فيقولون من كل أوب إلى صوبه ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه. ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ خفضت لمهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ صوتًا خفيًا ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها إلى المحشر.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة أي إلا شفاعة من أذن له أو من أعم المفاعيل، أي إلا من أذن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه، ف ﴿مَنْ﴾ على الأول مرفوع على البدلية وعلى الثاني منصوب على المفعولية و ﴿أَذِنَ﴾ يحتمل أن يكون من الأذن ومن الأذن. ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما تقدمهم من الأحوال. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وما بعدهم مما يستقبلونه. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ ولا يحيط علمهم بمعلوماته، وقيل بذاته وقيل الضمير لأحد الموصولين أو لمجموعهما، فإنهم لم يعلموا جميع ذلك ولا تفصيل ما علموا منه.

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ ذلت وخضعت له خضوع العنا وهم الأسارى في يد الملك القهار، وظاهرها يقتضي العموم ويجوز أن يراد بها وجوه المجرمين فتكون اللام بدل الإضافة ويؤيده. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمل الحال والاستئناف لبيان ما لأجله عنت وجوههم.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ بعض الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمان شرط في صحة الطاعات وقبول

الخيرات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع ثواب مستحق بالوعد ﴿وَلَا هُضْمًا﴾ ولا كسراً منه بنقصان أو جزاء ظلم وهضم لأنه لم يظلم غيره ولم يهضم حقه، وقرئ «فلا يخف» على النهي.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ عطف على كذلك نقص أي مثل ذلك الإنزال أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ مكررين فيه آيات الوعيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي فتصير التقوى لهم ملكة. ﴿أَوْ يُخْدِتْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة واعتباراً حين يسمعونها فتشطهم عنها، ولهذه النكتة أسند التقوى إليهم والإحداث إلى القرآن.

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

﴿١١٤﴾

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين لا يماثل كلامه كلامهم كما لا تماثل ذاته ذاتهم. ﴿الْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه الحقيقي بأن يرجى وعده ويخشى وعيده. ﴿الْحَقُّ﴾ في ملكوته يستحقه لذاته، أو الثابت في ذاته وصفاته ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل عليه السلام ومساوقته في القراءة حتى يتم وحيه بعد ذكر الإنزال على سبيل الاستطراد. وقيل نهي عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانه. ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال فإن ما أوحى إليك تناله لا محالة.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ﴿١١٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ﴾ ولقد أمرناه يقال تقدم الملك إليه وأوعز إليه وعزم عليه وعهد إليه إذا أمره، واللام جواب قسم محذوف وإنما عطف قصة آدم على قوله ﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان. ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ من قبل هذا الزمان. ﴿فَتَسَى﴾ العهد ولم يعن به حتى غفل عنه، أو ترك ما وصي به من الاحتراز عن الشجرة. ﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ تصميم رأي وثباتاً على الأمر إذ لو كان ذا عزيمة وتصلب لم يزل الشيطان ولم يستطع تغريه، ولعل ذلك كان في بدء أمره قبل أن يجرب الأمور ويدوق شربها وأريها. وعن النبي ﷺ «لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ﴿ولم نجد له عزمًا﴾». وقيل عزمًا على الذنب لأنه أخطأ ولم يتعمده ﴿ونجد﴾ وإن كان من الوجود الذي بمعنى العلم فله عزمًا مفعولاه، وإن كان من الوجود المناقض للعدم فله حال من عزمًا أو متعلق بنجد.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْقَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ مقدر بذكر أي اذكر حاله في ذلك الوقت ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات. ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد سبق القول فيه. ﴿أَبَى﴾ جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود وهو الاستكبار وعلى هذا لا يقدر له مفعول مثل السجود المدلول عليه بقوله ﴿فسجدوا﴾ لأن المعنى أظهر الإباء عن المطاوعة.

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾ فلا يكون سبباً لإخراجكما، والمراد نهيهما عن أن يكون بحيث يتسبب الشيطان إلى إخراجهما. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أفرد به بإسناد الشقاء إليه بعد إصراهما في الخروج اكتفاء باستلزام شقائه شقاءهما من حيث إنه قيم عليها ومحافظة على الفواصل، أو لأن المراد بالشقاء التعب في طلب المعاش وذلك وظيفة الرجال ويؤيده قوله.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ فإنه بيان وتذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية وأقطاب الكفاف التي هي الشبع والري والكسوة والسكن مستغنياً عن اكتسابها والسعي في تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائصها، ليطرق سمعه بأصناف الشقوة المحذر عنها، والعاطف وإن ناب عن أن لكنه ناب من حيث إنه عامل لا من حيث إنه حرف تحقيق فلا يمتنع دخوله على أن امتناع دخول إن عليه. وقرأ نافع وأبو بكر ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾ بكسر الهمزة والباقون بفتحها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبَا رَبَّهُمَا فَأَبَىٰ عَنْهُمَا وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ فانتهى إليه وسوسته. ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الشجرة التي من أكل منها خلد ولم يمت أصلاً. فأضافها إلى الخلد أي الخلود لأنها سببه بزعمه. ﴿وَمُلْكٌ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يزول ولا يضعف.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أخذوا يلزقان الورق على سوائتهما للستر وهو ورق التين ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ بأكل الشجرة. ﴿فَغَوَىٰ﴾ فضل عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو عن المأمور به أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو. وقرىء «فغوى» من غوى الفصيل إذا أتخم من اللبن وفي النعي عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم للزلة وزجر بليغ لأولاده عنها.

﴿ثُمَّ اجْنَبَا رَبَّهُمَا﴾ اصطفاه وقربه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من أجبي إلى كذا فاجتنبته مثل جليت على العروس فاجتلبتها، وأصل معنى الكلمة الجمع. ﴿فَقَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لما تاب. ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والتثبت بأسباب العصمة.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٢٤﴾﴾

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الخطاب لآدم وحواء، أوله ولإبليس ولما كانا أصلي الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب، أو لاختلال حال كل من النوعين بواسطة الآخر ويؤيد الأول قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كتاب ورسول. ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا. ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ عن الهدى الذاكر لي والداعي إلى عبادتي. ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ ضيقاً مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث، وقرىء «ضنكى» كسكرى، وذلك لأن مجامع همتهم ومطامح نظره تكون إلى أعراض الدنيا متهاكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان كما قال ﴿وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الآيات، وقيل هو الضريع والزقوم في النار، وقيل عذاب القبر ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ قرىء بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفاً على محل ﴿فَإِنَّ لَهُ

معيشة ضنكاً» لأنه جواب الشرط. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ أعمى البصر أو القلب ويؤيد الأول.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧).

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالهما حمزة والكسائي لأن الألف متقلبة من الياء، وفرق أبو عمرو بأن الأول رأس الآية ومحل الوقف فهو جدير بالتغيير.

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك فعلت ثم فسرهُ فقال: ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ واضحة نيرة. ﴿فَنَسِيَهَا﴾ فعميت عنها وتركها غير منظور إليها. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل تركك إياها. ﴿الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ تترك في العمى والعذاب.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهٖ﴾ بل كذب بها وخالفها. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ وهو الحشر على العمى، وقيل عذاب النار أي وللنار بعد ذلك ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من ضنك العيش أو منه ومن العمى، ولعله إذا دخل النار زال عماه ليرى محله وحاله أو مما فعله من ترك الآيات والكفر بها.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩).

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مسند إلى الله تعالى أو الرسول أو ما دل عليه. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي إهلاكنا إياهم أو الجملة بمضمونها، والفعل على الأولين معلق بجري مجرى أعلم ويدل عليه القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ﴾ ويشاهدون آثار هلاكهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وهي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان مثل ما نزل بعداد وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة، وهو مصدر وصف به أو اسم آلة سمي به اللازم لفرط لزومه كقولهم لزاز خصم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على كلمة أي ولولا العدة بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم، أو لعذابهم وهو يوم القيامة أو يوم بدر لكان العذاب لازماً والفصل للدلالة على استقلال كل منهما بنفي لزوم العذاب، ويجوز عطفه على المستكن في كان أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين له.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (١٣٠).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وصل وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، أو نزهه عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص حامداً له على ما ميزك بالهدى معترفاً بأنه المولى للنعم كلها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني الظهر والعصر لأنهما في آخر النهار أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ومن ساعاته جمع أنا بالكسر والقصر، أو أناء بالفتح والمد. ﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني المغرب والعشاء وإنما قدم زمان الليل لاختصاصه بمزيد الفضل فإن القلب فيه أجمع والنفس أميل إلى الاستراحة فكانت العبادة فيه أحمر ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾. ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكرير لصلاتي الصبح والمغرب إرادة الاختصاص، ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس كقوله:

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التَّرْسَيْنِ

أو أمر بصلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول من النهار وبداية النصف الآخر وجمعه باعتبار النصفين أو لأن النهار جنس، أو بالتطوع في أجزاء النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ متعلق بـ ﴿مَسِحٌ﴾ أي مسح في هذه الأوقات طمعاً أن تنال عند الله ما به ترضي نفسك. وقرأ الكسائي وأبو بكر بالبناء للمفعول أي يرضيك ربك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

﴿١٣١﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي نظر عينيك. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله. ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ وأصنافاً من الكفرة، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في به والمفعول منهم أي إلى الذي متعنا به، وهو أصناف بعضهم أو ناساً منهم. ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ منصوب بمحذوف دل عليه ﴿متعنا﴾ أو ﴿به﴾ على تضمينه معنى أعطينا، أو بالبدل من محل ﴿به﴾ أو من ﴿أزواجاً﴾ بتقدير مضاف ودونه، أو بالذم وهي الزينة والبهجة. وقرأ يعقوب بالفتح وهو لغة كالجهرة في الجهرة، أو جمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعيمهم وبهاء زيهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزهاد. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبلوهم ونختبرهم فيه، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ وما ادخر لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنه لا ينقطع.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿١٣٢﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أمره بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمر بها ليتعاونوا على الاستعانة بها على خصاصتهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وداوم عليها. ﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا﴾ أي أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم ففرغ بالك لأم الآخرة. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمود. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لدوي التقوى. روي «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أصاب أهله ضرر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٣٣﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بآية تدل على صدقه في ادعاء النبوة، أو بآية مقترحة إنكاراً لما جاء به من الآيات، أو للاعتداد به تعنتاً وعناداً فالزمهم بآتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأبقاها، لأن حقيقة المعجزة اختصاص مدعي النبوة بنوع من العلم أو العمل على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً وأبقى أثراً فكذا ما كان من هذا القبيل، ونبيهم أيضاً على وجه أبين من وجوه إعجاز المختصة بهذا الباب فقال: ﴿أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمالها على زبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية مع أن الآتي بها أُمِّي لم يرها ولم يتعلم ممن علمها إعجاز بين، وفيه إشعار بأنه كما يدل على نبوته برهان لما تقدمه من الكتب من حيث إنه معجز وتلك ليست كذلك، بل هي مفقرة إلى ما يشهد على صحتها. وقرأ «الصحف» بالتخفيف وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿أو لم تأتِهِمْ﴾ بالتاء والباقون بالياء.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا رَسُولًا فَتُبْعَ عَيْنَيْكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَزِلَ وَنُخْرِجَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿١٣٥﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل محمد عليه الصلاة والسلام أو البينة والتذكير لأنها في معنى

البرهان، أو المراد بها القرآن. ﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ﴾ بالقتل والسي في الدنيا. ﴿وَنُخْزَى﴾ بدخول النار يوم القيامة، وقد قرئ بالبناء للمفعول فيهما.

﴿قُلْ كُلُّ﴾ أي كل واحد منا ومنكم. ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وقرئ «فتمتعوا». ﴿فَسْتَغْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السُّوْيِ﴾ المستقيم، وقرئ «السواء» أي الوسط الجيد و «السوأي» و «السوء» أي الشر، و «السوي» هو تصغيره. ﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾ من الضلالة و «من» في الموضعين للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء، ويجوز أن تكون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب أو على الصراط على أن المراد به النبي ﷺ.

وعنه ﷺ «من قرأ طه أعطي يوم القيامة ثواب المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين».

(٢١) سورة الأنبياء

مكية وآيها مائة واثنان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّلُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ بالإضافة إلى ما مضى أو عند الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَزُودُونَ بَعِيداً وَنَوراً قَرِيباً﴾ وقوله ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ أو لأن كل ما هو آت قريب وإنما البعيد ما انقضى ومضى، واللام صلة لـ ﴿اقْتَرَبَ﴾ أو تأكيد للإضافة وأصله اقترب حساب الناس ثم اقترب للناس الحساب ثم اقترب للناس حسابهم، وخص الناس بالكفار لتقييدهم بقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي في غفلة عن الحساب. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن التفكير فيه وهما خبران للضمير، ويجوز أن يكون الظرف حالاً من المستكن في ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ ينبههم عن سنة الغفلة والجهالة. ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ صفة لـ ﴿ذِكْرٍ﴾ أو صلة لـ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾. ﴿تُخَذِّلُ﴾ تنزيلة ليكرر على أسماعهم التنبيه كي يتعظوا، وقرىء بالرفع حملاً على المحل. ﴿إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به ويستسخرون منه لتناهي غفلتهم وفرط إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكير في العواقب ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حال من الواو وكذلك:

﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهي والذهول عن التفكير فيه، ويجوز أن يكون من واو ﴿يلعبون﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر آخر للضمير. ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفائها أو جعلوها بحيث خفي تناجيهم بها. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من واو ﴿وَأَسْرُوا﴾ للإيماء بأنهم ظالمون فيما أسروا به، أو فاعل له والواو لعلامة الجمع أو مبتدأ والجملة المتقدمة خبره وأصله وهؤلاء أسروا النجوى فوضع الموصوك موضعه تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم أو منصوب على الذم. ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ بأمره في موضع النصب بدلاً من ﴿النجوى﴾، أو مفعولاً لقول مقدر كأنهم استدلوا بكونه بشراً على كذبه في ادعاء الرسالة لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً، واستلزموا منه أن ما جاء به من الخوارق كالقرآن سحر فأنكروا حضوره، وإنما أسروا به تشاوراً في استنباط ما يهدم أمره ويظهر فسادهم للناس عامة.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَهْلِيَّ بَلْ أَفْتَرْتُهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ جهراً كان أو سراً فضلاً عما أسروا به فهو أكد من قوله ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولذلك اختير ها هنا وليطابق قوله ﴿وَأَسْرُوا النُّجُومَ﴾ في المبالغة.. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿قَالَ﴾ بالإخبار عن الرسول ﷺ. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه ما يسرون ولا ما يضمرون.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضراب لهم عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام افتراه، ثم إلى أنه قول شاعر والظاهر أن ﴿بَلْ﴾ الأولى لتعام حكاية والإبتداء بأخرى أو للإضراب عن تحاورهم في شأن الرسول ﷺ وما ظهر عليه من الآيات إلى تقاولهم في أمر القرآن، والثانية وللإضراب عن كونه أباطيل خيلت إليه وخلطت عليه إلى كونه مفتریات اختلقها من تلقاء نفسه، ثم إلى أنه كلام شعري يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويرغبه فيها، ويجوز أن يكون الكل من الله تنزيلاً لأقوالهم في درج الفساد لأن كونه شعراً أبعد من كونه مفترى لأنه مشحون بالحقائق والحكم وليس فيه ما يناسب قول الشعراء، وهو من كونه أحلاماً لأنه مشتمل على مغيبات كثيرة طابقت الواقع والمفترى لا يكون كذلك بخلاف الأحلام، ولأنهم جربوا رسول الله ﷺ نيفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه كذباً قط، وهو أبعد من كونه سحراً لأنه يجانسه من حيث إنهما من الخوارق. ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ أي كما أرسل به الأولون مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكف والحياء الموتى، وصحة التشبيه من حيث إن الإرسال يتضمن الإتيان بالآية.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية. ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ باقتراح الآيات لما جاءتهم. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لو جنتهم بها وهم أعتى منهم، وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالمقترح للإبقاء عليهم إذ لو أتى به ولم يؤمنوا استوجبوا عذاب الاستئصال كمن قبلهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جواب لقولهم ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فأمرهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرسل المتقدمة ليزول عنهم الشبهة والإحالة عليهم إما للإلزام فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويشقون بقولهم، أو لأن إخبار الجع الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفاراً. وقرأ حفص ﴿نُوْحِي﴾ بالنون.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ نفي لما اعتقدوا أنها من خواص الملك عن الرسل تحقيقاً لأنهم كانوا أبشاراً مثلهم. وقيل جواب لقولهم ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ تأكيد وتقرير له فإن التعيش بالطعام من توابع التحليل المؤدي إلى الفناء وتوحيد الجسد لا إرادة الجنس، أو لأنه مصدر في الأصل أو على حذف المضاف أو تأويل الضمير بكل واحد وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجساد للزعران. وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أي في الوعد. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني المؤمنين بهم ومن في إيقائه حكمة

كمن سيؤمن هو أو أحد من ذريته، ولذلك حميت العرب من عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يا قريش ﴿كِتَابًا﴾ يعني القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صيتكم كقوله ﴿وَإِنَّ لَكَ لَكُمْ وَلِقَوْمَكَ﴾ أو موعظتكم أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتؤمنون.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ وَتَسْكُنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ ﴿١٣﴾ ..

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ واردة عن غضب عظيم لأن القصم كسر يبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم. ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة لأهلها وصفت بها لما أقيمت مقامه. ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ بعد إهلاك أهلها. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ مكانهم.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ فلما أدركوا شدة عذابنا إدراك المشاهد المحسوس، والضمير للأهل المحذوف. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابهم، أو مشبهين بهم من فرط إسرعهم.

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ على إرادة القول أي قيل لهم استهزاء لا تركضوا إما بلسان الحال أو المقال، والقاتل ملك أو من ثم من المؤمنين. ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أَتَرَقْتُمْ فِيهِ﴾ من التمتع والتلذذ والإتراف بإطار النعمة. ﴿وَمَسَاكِينَكُمْ﴾ التي كانت لكم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ﴾ غدا عن أعمالكم أو تعذبون فإن السؤال من مقدمات العذاب، أو تقصدون للسؤال والتشاور في المهام والنوازل.

﴿قَالُوا يَا بَوَلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ ﴿١٥﴾ ..

﴿قَالُوا يَا بَوَلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لما رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة فلذلك لم ينفعهم. وقيل إن أهل حضور من قرى اليمن بعث إليهم نبي فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فوضع السيف فيهم فنادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء فندموا وقالوا ذلك.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ فما زالوا يرددون ذلك، وإنما سماه دعوى لأن المولود كأنه يدعو الويل ويقول: يا ويل تعال فهذا أوانك، وكل من ﴿تِلْكَ﴾ و ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ يحتمل الاسم والخبيرة. ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ مثل الحصيد وهو النبات المحصود ولذلك لم يجمع. ﴿خَامِدِينَ﴾ ميتين من خمدت النار وهو مع ﴿حَصِيدًا﴾ منزلة المفعول الثاني كقولك: جعلته جلولاً حامضاً إذ المعنى: وجعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو صفة له أو حال من ضميره.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ ..

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ وإنما خلقناها مشحونة بضروب البدائع تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار وتسبيحاً لما ينتظم به أمور العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتسلقوا بها إلى تحصيل الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ما يتلهى به ويلعب. ﴿لَاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ من جهة قدرتنا، أو من عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات لا من الأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقها وتسوية الفرش وتزيينها، وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد به الرد على النصارى ﴿إِنْ كُنَّا

فَالْعِلِينَ ﴿١٧﴾ ذلك ويدل على جواب الجواب المتقدم. وقيل ﴿إِنْ﴾ نافية والجملة كالنتيجة للشرطية.

﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب أي بل من شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من عداوته اللهو. ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ فيمحقه، وإنما استعار لذلك القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرمى، والدمغ الذي هو كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدي إلى زهوق الروح تصويراً لإبطاله به ومبالغة فيه، وقرئ «فيدمغه» بالنصب كقوله:

سَأَتْرُكَ مَنْزِلِي لَبْنِي تَمِيمٍ وَأَلْحَقُ بِالْحِجَارِ قَاسْتَرِيحًا

ووجهه مع بعده الحمل على المعنى والعطف على «الحق». ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ هالك والزهوق ذهاب الروح وذكره لترشيح المجاز. ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ مما تصفونه به مما لا يجوز عليه، وهو في موضع الحال وما مصدرية أو موصولة أو موصوفة.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ يعني الملائكة المنزليين منه لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك، وهو معطوف على «من في السموات» وإفراده للتعظيم أو لأنه أعم منه من وجه، أو المراد به نوع من الملائكة متعال عن التبوؤ في السماء والأرض أو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ لا يتعظمون عنها. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يعيون منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيهاً على أن عبادتهم بقلوبهم ودوامها حقيقة بأن يستحسرونها ولا يستحسرونها.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ينزهونه ويعظمونه دائماً. ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حال من الواو في «يسبحون» وهو استئناف أو حال من ضمير قبله.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا﴾ بل اتخذوا والهمزة لإنكار اتخاذهم: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ صفة لآلهة أو متعلقة بالفعل على معنى الابتداء، وفائدتها التحقير دون التخصيص. ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ الموتى وهم وإن لم يصرحوا به لكن لزم ادعائهم لها الإلهية، فإن من لوازمها الاقتدار على جميع الممكنات والمراد به تجهيلهم والتهكم بهم، وللمبالغة في ذلك زيد الضمير الموهم لاختصاص الإنشار بهم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ غير الله، وصف بـ ﴿إِلَّا﴾ لتعذر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها ودلالته على ملازمة الفساد لكون الآلهة فيهما دونه، والمراد ملازمته لكونها مطلقاً أو معه حملاً لها على غير كما استثنى بغير حملاً عليها، ولا يجوز الرفع على البذل لأنه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون في كلام غير موجب. ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لبطلتا لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع، فإنها إن توافقت في المراد تطاردت عليه القدر وإن تخالفت فيه تعاوتت عنه. ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ المحيط بجميع الأجسام الذي هو محل التدابير ومنشأ التقادير. ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد.

﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وقوة سلطانه وتفردته بالألوهية والسلطنة الذاتية. ﴿وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ لأنهم

مملوكون مستعبدون والضمير للـ ﴿آلهة﴾ أو للعباد.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ كرهه استعظماً لكفرهم واستفظاعاً لأمرهم وتبكيئاً وإظهاراً لجهلهم، أو ضمناً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل على معنى أوجدوا آلهة ينشرون الموتى فاتخذوهم آلهة، لما وجدوا فيهم من خواص الألوهية، أو وجدوا في الكتب الإلهية الأمر بإشراكهم فاتخذوهم متابعة للأمر، ويعضد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساد عقله وعلى الثاني ما يدل على فساد عقله. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ذلك إما من العقل أو من النقل، فإنه لا يصح القول بما لا دليل عليه كيف وقد تطابقت الحجج على بطلانه عقلاً ونقلاً. ﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ من الكتب السماوية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك، والتوحيد لما لم يتوقف على صحته بعثة الرسل وإنزال الكتب صح الاستدلال فيه بالنقل و ﴿من معي﴾ أمته و ﴿من قبلي﴾ الأمم المتقدمة وإضافة الـ ﴿ذِكْرٌ﴾ إليهم لأنه عظمتهم، وقرئ بالتثنية والإعمال وبه و ﴿من﴾ الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وشبههما وبعدهما. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ ولا يميزون بينه وبين الباطل، وقرئ «الحق» بالرفع على أنه خبر محذوف وسط للتأكيد بين السبب والمسبب. ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن التوحيد واتباع الرسول من أجل ذلك.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٨﴾﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٩﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإن ذكر من قبلي من حيث إنه خبر لاسم الإشارة مخصوص بالموجود بين أظهرهم وهو الكتب الثلاثة، وقرأ حفص وحزمة والكسائي «نوحى إليه» بالنون وكسر الحاء والباقون بالياء وفتح الحاء.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله ﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن ذلك. ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون وليسوا بالأولاد. ﴿مُكْرَمُونَ﴾ مقربون وفيه تنبيه على مدحض القوم، وقرئ بالتشديد.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون شيئاً حتى يقوله كما هو ديدن العبيد المؤدبين، وأصله لا يسبق قولهم قوله فنسب السبق إليه وإليه، وجعل القول محله وأداته تنبيهاً على استهجان السبق المعرض به للقائلين على الله ما لم يقله، وأنيبت اللام على الإضافة اختصاراً وتجافياً عن تكرير الضمير، وقرئ «لَا يَسْبِقُونَهُ» بالضم من سابقته فسبقت أسبقه. ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعملون قط ما لم يأمرهم به.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنِكَ نَجْزِيَهُمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، وهو كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده فإنهم لإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم ويراقبون أحوالهم. ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ﴾ أن يشفع له مهابة منه. ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ عظمتهم ومهابته. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتعدون، وأصل الخشية خوف مع تعظيم

ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق خوف مع اعتناء فإن عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر وإن عدي بعلى فبالعكس.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ من الملائكة أو من الخلائق. ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريد به نفي البتة وادعاء ذلك عن الملائكة وتهديد المشركين بتهديد مدعي الربوبية. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ من ظلم بالإشراك وادعاء الربوبية.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠).

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أو لم يعلموا، وقرأ ابن كثير بغير واو. ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ ذات رتق أو مرتوقتين، وهو الضم والالتحام أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متحدة. ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ بالتنوين والتميز، أو كانت السموات واحدة ففتقت بالتحريكات المختلفة حتى صارت أفلاكاً، وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كفياتها وأحوالها طبقات أو أقاليم. وقيل ﴿كانتا﴾ بحيث لا فرجة بينهما ففرج. وقيل ﴿كانتا رَتْقًا﴾ لا تمطر ولا تنبت ففتقناهما بالمطر والنبات، فيكون المراد بـ ﴿السموات﴾ سماء الدنيا وجمعها باعتبار الأفاق أو ﴿السموات﴾ بأسرارها على أن لها مدخلاً ما في الأمطار، والكفرة وإن لم يعلموا ذلك فهم متمكنون من العلم به نظراً فإن الفتق عارض مفتقر إلى مؤثر واجب ابتداء أو بوسط، أو استفساراً من العلماء ومطالعة للكتب، وإنما قال ﴿كانتا﴾ ولم يقل كن لأن المراد جماعة السموات وجماعة الأرض. وقرئ ﴿رتقاً﴾ بالفتح على تقدير شيئاً رَتْقًا أي مرتوقاً كالرفض بمعنى المرفوض. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ وذلك لأنه من أعظم مواده أو لقرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه، أو صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا يحيا دونه. وقرئ ﴿حياً﴾ على أنه صفة ﴿كل﴾ أو مفعول ثان، والظرف لغو والشئ مخصوص بالحيوان. ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهور الآيات.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢).

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّ﴾ ثابتات من رسا الشيء إذا ثبت. ﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ كراهة أن تميل بهم وتضطرب، وقيل لأن لا تميد فحذف لا لأمن الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ في الأرض أو الرواسي. ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ مسالك واسعة وإنما قدم فجاجاً وهو وصف له ليصير حالاً فيدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك، أو ليبدل منها ﴿سبلاً﴾ فيدل ضمناً على أنه خلقها ووسعها للسابلة مع ما يكون فيه من التوكيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مصالحهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا﴾ عن الوقوع بقدرته أو الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراق السمع بالشهب. ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته التي يحس ببعضها ويبحث عن بعضها في علمي الطبيعة والهيئة. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ غير متفكرين.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بيان لبعض تلك الآيات. ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ أي كل واحد منهما، والتنوين بدل من المضاف إليه والمراد بالفلك الجنس كقولهم: كساهم الأمير حلة. ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسرعون على سطح الفلك إسراع السابح على سطح الماء، وهو خبر ﴿كُلِّ﴾ والجملة حال من ﴿الشمس

والقمر»، وجاز إنفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما، وإنما جمع باعتبار المطالع وجعل الضمير وار العقلاء لأن السباحة فعلهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَوْكُمْ بِالْأَشَرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا نترى به ريب المنون وفي معناه قوله:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا
والفاء لتعلق الشرط بما قبله والهمزة لإنكاره بعد ما تقرر ذلك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ذائقة مرارة مفارقتها جسدها، وهو برهان على ما أنكروه. ﴿وَبَلَّوْكُمْ﴾ ونعاملكم معاملة المختبر. ﴿بِالْأَشَرِّ وَالْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنعم. ﴿فِتْنَةً﴾ ابتلاء مصدر من غير لفظه. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر، وفيه إيحاء بأن المقصود من هذه الحياة والابتلاء والتعريض للثواب والعقاب تقريراً لما سبق.

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الْآلِهَتَيْنِ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٦) ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٣٧).

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك. ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ إلا مهزوءاً به ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ أي بسوء، وإنما أطلقه لدلالة الحال فإن ذكر العدو لا يكون إلا بسوء. ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الْآلِهَتَيْنِ﴾ بالتوحيد أو بإرشاد الخلق ببعث الرسل وإنزال الكتب رحمة عليهم أو بالقرآن. ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ منكرون فهم أحق أن يهزا بهم، وتكرير الضمير للتأكيد والتخصيص ولحيلولة الصلة بينه وبين الخبر.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه خلق منه لفرط استعجاله وقلة ثباته كقولك: خلق زيد من الكرم، جعل ما طبع عليه بمنزلة المطبوع وهو منه مبالغة في لزومه له ولذلك قيل: إنه على القلب ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد. روي أنها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب. ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ نقماتي في الدنيا كوقعة بدر وفي الآخرة عذاب النار. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها، والنهي عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٣٩) ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٤٠).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وقت وعد العذاب أو القيامة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ محذوف الجواب و ﴿حِينَ﴾ مفعول ﴿يعلم﴾ أي: لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون منه بقولهم ﴿متى هذا الوعد﴾ وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدر على دفعها ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا، ويجوز أن يترك مفعول ﴿يعلم﴾ ويضمّر لحين فعل بمعنى: لو كان لهم علم لما استعجلوا يعلمون

بطلان ما هم عليه حين لا يكفون، وإنما وضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على ما أوجب لهم ذلك. ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ العدة أو النار أو الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة مصدر أو حال. وقرئ بفتح الغين. ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ فتغلبهم أو تحيرهم. وقرئ الفعلان بالياء والضمير لـ ﴿الوعد﴾ أو الـ ﴿حين﴾ وكذا في قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لأن الوعد بمعنى النار أو العدة والحين بمعنى الساعة، ويجوز أن يكون لـ ﴿النار﴾ أو لـ ﴿بغته﴾. ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ يمهلون وفيه تذكير بإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تسليية لرسول الله ﷺ. ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعد له بأن ما يفعلونه به يحق بهم كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا يعني جزاءه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمستهزئين. ﴿مَنْ يَكْلُؤُكُمْ﴾ يحفظكم. ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ من بأسه إن أراد بكم، وفي لفظ ﴿الرحمن﴾ تنبيه على أن لا كاليء غير رحمته العامة وأن اندفاعه بمهلهته ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه حتى إذا كلوا منه عرفوا الكاليء. وصلحوا للسؤال عنه.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز معنا، أو من عذاب يكون من عندنا والإضرابان عن الأمر بالسؤال على الترتيب، فإنه عن المعرض الغافل عن الشيء بعيد وعن المعتقد لنقيضه أبعد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف بإبطال ما اعتقدوه فإن من لا يقدر على نصر نفسه ولا يصحبه نصر من الله فكيف ينصر غيره.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ إضراب عما توهموا ببيان ما هو الداعي إلى حفظهم وهو الاستدراج والتمتع بما قدر لهم من الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنه تعالى متعمم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقبه بما يدل على أنه أمل كاذب فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أرض الكفرة. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتسليط المسلمين عليها، وهو تصوير لما يجريه الله تعالى على أيدي المسلمين. ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ رسول الله والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ (٤٥) وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ بما أوحى إلي. ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر ولا تسمع الصم على خطاب النبي ﷺ، وقرئ بالياء على أن فيه ضميره، وإنما سماهم ﴿الصم﴾ ووضعه موضع ضميرهم للدلالة على تصامهم وعدم انتفاعهم بما يسمعون. ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوب بـ ﴿يسمع﴾ أو بـ ﴿الدعاء﴾ والتقيد به لأن الكلام في الإنذار أو للمبالغة في تصامهم وتجاسرهم.

﴿وَلَيْتَن مَسْتَهْمُ نَفْعَةٍ﴾ أدنى شيء، وفيه مبالغات ذكر المس وما في النفعة من معنى القلة، فإن أصل النفع هبوب رائحة الشيء والبناء الدال على المرة. ﴿مِنْ عَذَابٍ رَبِّكَ﴾ من الذي يندرون به. ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لدعوا على أنفسهم بالويل واعترفوا عليها بالظلم.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ العدل توزن بها صحائف الأعمال. وقيل وضع الموازين تمثيل لإرصاء الحساب السوي والجزاء على حسب الأعمال بالعدل، وإفراد ﴿القسط﴾ لأنه مصدر وصف به للمبالغة. ﴿لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لجزاء يوم القيامة أو لأهله، أو فيه كقولك: جنت لخمس خلون من الشهر. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ من حقها أو من الظلم. ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وإن كان العمل أو الظلم مقدار حبة، ورفع نافع ﴿مِثْقَالٍ﴾ على ﴿كَانَ﴾ التامة. ﴿آتَيْنَا بِهَا﴾ أحضرناها، وقرئ «آتينا» بمعنى جازينا بها من الإتياء فإنه قريب من أعطينا، أو من المؤاتاة فإنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء وأتينا من الثواب وجئنا، والضمير للمثقال وتأتيه لإضافته إلى ال «حبة». ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٠).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الحق والباطل، ﴿وضياء﴾ يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة، ﴿وذكراً﴾ يتعظ به المتقون أو ذكر ما يحتاجون إليه من الشرائع. وقيل ﴿الفرقان﴾ النصر، وقيل فلق البحر وقرئ «ضياء» بغير واو على أنه حال من ﴿الفرقان﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ صفة ﴿للمتقين﴾ أو مدح لهم منصوب أو مرفوع. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول. ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض. ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القرآن. ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير خيره. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ استفهام توبيخ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (٥٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ الاهتداء لوجوه الصلاح وإضافته ليدل على أنه رشد مثله وأن له شأنًا. وقرئ «رشد» وهو لغة. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل موسى وهرون أو محمد عليه الصلاة والسلام. وقيل من قبل استنبائه أو بلوغه حيث قال: ﴿إِنِّي وَجْهتُ﴾ «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» علمنا أنه أهل لما آتيناه، أو جامع لمحاسن الأوصاف ومكارم الخصال وفيه إشارة إلى أن فعله سبحانه وتعالى باختيار وحكمة وأنه عالم بالجزئيات.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ متعلق بـ «آتينا» أو بـ «رشد» أو بمحذوف: أي اذكر من أوقات رشده وقت قوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ تحقير لسانها وتوبيخ على إجلالها، فإن التمثال صورة لا روح فيها لا يضر ولا ينفع، واللام للاختصاص لا للتعدية فإن تعدية العكوف بعلی. والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها ويجوز أن يؤول بعلی أو يضمن العكوف معنى العبادة.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ فقلدناهم وهو جواب عما لزم الاستفهام من السؤال عما اقتضى عبادتها وحملهم عليها.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْءَ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منخرطين في سلك ضلال لا يخفى على عاقل لعدم استناد الفريقين إلى دليل، والتقليد إن جاز فإنما يجوز لمن علم في الجملة أنه على حق.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أبجد تقوله أم تلعب به.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ﴾ إضراب عن كونه لاعباً بإقامة البرهان على ما ادعاه وهن للسماوات والأرض أو للتمثيل، وهو أدخل في تضليلهم وإلزام الحجة عليهم. ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي المذكور من التوحيد. ﴿مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ من المتحققين له والمبرهنين عليه، فإن الشاهد من تحقق الشيء وحقيقته.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾.

﴿وَتَاللَّهِ﴾ وقرئ بالباء وهي الأصل والتاء بدل من الواو المبدلة منها وفيها تعجب. ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ لأجتهدن في كسرها، ولفظ الكيد وما في التاء من التعجب لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل. ﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا﴾ عنها. ﴿مُدِيرِينَ﴾ إلى عيدكم ولعله قال ذلك سراً.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً﴾ قطاعاً فعال بمعنى مفعول كالحطام من الجذ وهو القطع. وقرأ الكسائي بالكسر وهو لغة، أو جمع جذيد كخفاف وخفيف. وقرئ بالفتح و «جذذاً» جمع جذيد و «جذذاً» جمع جذة. «إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ» للأصنام كسر غيره واستبقاه وجعل الفأس على عنقه. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لتفرد واشتغاره بعداوة آلهتهم فيحاجهم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ فيحجهم، أو أنهم يرجعون إلى الكبير فيسألونه عن كاسرها إذ من شأن المعبود أن يرجع إليه في حل العقد فيبكتهم بذلك، أو إلى الله أي «يرجعون» إلى توحيده عند تحققهم عجز آلهتهم.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾.

﴿قَالُوا﴾ حين رجعوا. ﴿مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بجرأته على الآلهة الحقيقة بالإعظام، أو بإفراطه في حطمها أو بتوريط نفسه للهلاك.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيهم فلعله فعله ويذكر ثاني مفعولي سمع، أو صفة ل «فتى» مصححة لأن يتعلق به السمع وهو أبلغ في نسبة الذكر إليه. ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ خبر محذوف أي هو إبراهيم، ويجوز أن يرفع بالفعل لأن المراد به الاسم.

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيُنِ النَّاسِ﴾ بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم تمكن الراكب على المركوب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ بفعله أو قوله أو يحضرون عقوبتها له.

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِلَهَينَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٢) ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَكُونُوا كَآثَرًا﴾ (٦٣).

﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِلَهَينَا يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ حين أحضروه.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ أسند الفعل إليه تجوزاً لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له تسبب لمباشرته إياه، أو تقريراً لنفسه مع الاستهزاء والتبكيك على أسلوب تعريضي كما لو قال لك من لا يحسن الخط فيما كتبه بخط رشيق: أنت كتبت هذا فقلت بل كتبه أنت، أو حكاية لما يلزم من مذهبه جوازه، وقيل إنه في المعنى متعلق بقوله ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ وما بينهما اعتراض أو إلى ضمير ﴿فتى﴾ أو ﴿إبراهيم﴾، وقوله ﴿كبيرهم هذا﴾ مبتدأ وخبر ولذلك وقف على فعله. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «لإبراهيم ثلاث كذبات» تسمية للمعارض كذباً لما شابهت صورتها صورته.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (٦٥).

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ وراجعوا عقولهم. ﴿فَقَالُوا﴾ فقال بعضهم لبعض. ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بهذا السؤال أو بعبادة من لا ينطق ولا يضر ولا ينفع لا من ظلمتموه بقولكم ﴿إنه لمن الظالمين﴾.

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه. وقرئ «نَكَّسُوا» بالتشديد و«نكسوا» أي نكسوا أنفسهم. ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تأمرنا بسؤالها وهو على إرادة القول.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨).

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فإنه ينافي الألوهية.

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تضجر منه على إصرارهم بالباطل البين، و﴿أف﴾ صوت المتضجر ومعناه قبحاً وتناً واللام لبيان المتأفف له. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم.

﴿قَالُوا﴾ أخذاً في المضارة لما عجزوا عن المحاجة. ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإن النار أهول ما يعاقب به. ﴿وانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ إن كنتم ناصرين لها نصراً مؤزراً، والقاتل فيهم رجل من أكراد فارس اسمه هيون خسف به الأرض وقيل نمرود.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩).

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ ذات برد وسلام أي ابردي برداً غير ضار، وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته مأمورة مطيعة وإقامة «كوني» ذات برد مقام ابردي، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل نصب «سلاماً» بفعله أي وسلمنا سلاماً عليه. روي أنهم بنوا حظيرة بكوئي وجمعوا فيها ناراً عظيمة ثم وضعوه في المنجنيق مغلولاً فرموا به فيها فقال له جبريل: هل لك حاجة، فقال: أما إليك فلا فقال: فسل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فجعل الله تعالى - ببركة قوله - الحظيرة

روضة ولم يحترق منه إلا وثاقه، فاطلع عليه نمرود من الصرح فقال إني مقرب إلى إلهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم عليه السلام. وكان إذ ذاك ابن ست عشرة سنة وانقلاب النار هواء طيباً ليس ببدع غير أنه هكذا على خلاف المعتاد فهو إذن من معجزاته. وقيل كانت النار بحالها لكنه سبحانه وتعالى دفع عنه أذاها كما ترى في السمندل ويشعر به قوله على إبراهيم.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠) ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿٧١﴾

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ مكرأ في إضراره. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أخسر من كل خاسر لما عاد سعيهم برباناً قاطعاً على أنهم على الباطل وإبراهيم على الحق وموجباً لمزيد درجته واستحقاقهم أشد العذاب.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية. وقيل كثرة النعم والخصب الغالب. روي أنه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴿٧٣﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٤﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ عطية فهي حال منهما أو ولد ولد، أو زيادة على ما سأل وهو إسحاق فتختص بيعقوب ولا بأس به للقرينة. ﴿وَكُلًّا﴾ يعني الأربعة. ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ بأن وفقناهم للصالح وحملناهم عليه فصاروا كاملين.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يقتدى بهم. ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى الحق. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم حتى صاروا مكملين. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ ليحثوهم عليها فيتم كمالهم بانضمام العمل إلى العلم، وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات ثم ﴿فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وهو من عطف الخاص على العام للتفضيل، وحذفت تاء الإقامة المعوضة من إحدى الألفين لقيام المضاف إليه مقامها. ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ موحدين في العبادة ولذلك قدم الصلة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حكمة أو نبوة أو فصلاً بين الخصوم. ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ قرية سدوم. ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَاءَ﴾ يعني اللواط وصفها بصفة أهلها أو أسندها إليها على حذف المضاف وإقامتها مقامه ويدل عليه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ فإنه كالتعليل له.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ في أهل رحمتنا أو جنتنا. ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنی.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٦) ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧)

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى﴾ إذ دعا الله سبحانه على قومه بالهلاك. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل المذكورين. ﴿فَاسْتَجَبْنَا

لَهُ دَعَاءُ. ﴿فَتَجْنَبُهَا وَأَقْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الطوفان أو أذى قومه، والكرب الغم الشديد.
 ﴿وَنَصْرَنَاهُ﴾ مطاوع انتصر أي جعلناه منتصراً. ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَآغَرْنَاَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لاجتماع الأمرين تكذيب الحق والانهماك في الشر، ولعلمهما لم يجتمعا في قوم إلا وأهلكهم الله تعالى.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨)
 ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانُ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ في الزرع، وقيل في كرم تدلت عناقيده. ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعته ليلاً. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما عالمين.
 ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانُ﴾ الضمير للحكومة أو للفتوى وقرئ «فأفهمناها». روي أن داود حكم بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة: غير هذا أرقق بهما فأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعود إلى ما كان ثم يترادان. ولعلمهما قالوا اجتهدا والأول نظير قول أبي حنيفة في العبد الجاني والثاني مثل قول الشافعي بغرم الحيلولة في العبد المغصوب إذا أبق، وحكمه في شرعنا عند الشافعي وجوب ضمان المتلف بالليل إذ المعتاد ضبط الدواب ليلاً وهكذا قضى النبي ﷺ لما دخلت ناقة البراء حائطاً وأفسدته فقال «على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل الماشية حفظها بالليل». وعند أبي حنيفة لا ضمان إلا أن يكون معها حافظ لقوله ﷺ «جرح العجماء جبار». ﴿وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليل على أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه. وقيل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لمفهوم قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله فهمناهما لإظهار ما تفضل عليه في صغره. ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ يقصدن الله معه إما بلسان الحال أو بصوت يتمثل له، أو بخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال أو استئناف لبيان وجه التسخير و «مع» متعلقة بـ «سخرنا» أو «يسبحن» عطف على «الجبال» أو مفعول معه. وقرئ بالرفع على الإبتداء أو العطف على الضمير على ضعف. ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لأمثاله فليس ببدع منا وإن كان عجباً عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَصِّنْكُمْ مِنْ بِأَسْكُمُ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ عمل الدرع وهو في الأصل اللباس قال:

الْبِسَ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا إِمَّا نَعِيْمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا

قيل كانت صفائح فحلقتها وسردها. ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بعلم أو صفة لـ «لبوس» ﴿لِنُخَصِّنْكُمْ مِنْ بِأَسْكُمُ﴾ بدل منه بدل الاشتمال بإعادة الجار، والضمير لداود عليه السلام أو لـ «لبوس» وفي قراءة ابن عامر وحفص بالتاء للصنعة أو لـ «لبوس» على تأويل الدرع وفي قراءة أبي بكر ورويس بالنون لله عز وجل ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ذلك أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُّونَ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ. ﴿(٨٢)﴾

﴿وَلَسَلَيْمَانَ﴾ وسخرنا له ولعل اللام فيه دون الأول لأن الخارق فيه عائد إلى سليمان نافع له، وفي الأول أمر يظهر في الجبال والطير مع داود وبالإضافة إليه. ﴿الرَّيْحَ عَاصِفَةً﴾ شديدة الهبوب من حيث إنها تبعد بكرسيه في مدة يسيرة كما قال تعالى: ﴿غَدُوها شهر ورواحها شهر﴾ وكانت رخاء في نفسها طيبة. وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب إرادته. ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته حال ثانية أو بدل من الأولى أو حال من ضميرها. ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ إلى الشام رواحاً بعدما سارت به منه بكرة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ فنجزه على ما تقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ في البحار ويخرجون نفائسها، ﴿وَمِنَ﴾ عطف على ﴿الريح﴾ أو مبتدأ خبره ما قبله وهي نكرة موصوفة. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ ويتجاوزون ذلك إلى أعمال آخر كبناء المدن والقصور واختراع الصنائع الغربية كقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَه ما يشاء من محارِبٍ وتمائيلٍ﴾. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ بآني مسني الضر، وقرأ بالكسر على إضمار القول أو تضمين النداء معناه و ﴿الضر﴾ بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهزال. ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصف ربه بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال، وكان رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله وكثر أهله وماله فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله، والمرض في بدنه ثماني عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة أو سبعا وسبعة أشهر وسبع ساعات. روي أن امرأته ماخير بنت ميثا بن يوسف، أو رحمة بنت إفرائيم بن يوسف قالت له يوماً: لو دعوت الله فقال: كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال: أستحيي من الله أن أدعوه وما بلغت مدة ثلاثي مدة رخائي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ بالشفاء من مرضه. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان أو أحبي ولده وولد له منهم نوافل. ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ﴾ رحمة على أيوب وتذكرا لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب، أو لرحمتنا للعابدين فإننا نذكرهم بالإحسان ولا ننساهم.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ يعني إلياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا سمي به لأنه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل أمته أو له ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم، والكفل يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف. ﴿كُلٌّ﴾ كل هؤلاء. ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على مشاق التكاليف وشدائد النوب.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ يعني النبوة أو نعمة الآخرة. ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد.

﴿وَإِذْ التَّوْنُ إِذْ ذَهَبَ مُغِضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

﴿وَذَا النُّونِ﴾ وصاحب الحوت يونس بن متى ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ لقومه لما برم بطول دعوتهم وشدة شكيمتهم وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم، قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم وغضب من ذلك، وهو من بناء المغالبة للمبالغة أو لأنه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرىء «مغضباً». ﴿فَقَظُنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر، ويعضده أنه قرىء مثقلاً أو لن نعمل فيه قدرتنا؛ وقيل هو تمثيل لحاله بحال من ظن أن لن نقدر عليه في مراغمته قومه من غير انتظار لأمرنا، أو خطرة شيطانية سبقت إلى وهمه فسميت ظناً للمبالغة. وقرىء بالياء وقرأ يعقوب على البناء للمفعول وقرىء به مثقلاً. ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في الظلمة الشديدة المتكاثفة أو ظلمات بطن الحوت والبحر والليل. ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بأنه لا إله إلا أنت. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ من أن يعجزك شيء. ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسه بالمبادرة إلى المهاجرة. وعن النبي عليه الصلاة والسلام «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا أستجيب له».

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان في بطنه. وقيل ثلاثة أيام والغم غم اللتقام وقيل غم الخطيئة. ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من غموم دعوا الله فيها بالإخلاص وفي الإمام: «نجي» ولذلك أخفى الجماعة النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الفم، وقرأ ابن عامر وأبو بكر بتشديد الجيم على أن أصله «تنجي» فحذفت النون الثانية كما حذفت التاء الثانية في «تظاهرون»، وهي وإن كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التي لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتي النونين فإن الداعي إلى الحذف اجتماع المثليين مع تعذر الإدغام وامتناع الحذف في تنجافى، لخوف اللبس. وقيل هو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفاً ورد بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يسكن آخره.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وحيداً بلا ولد يرثني. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للولادة بعد عقرها أو لـ «زكريا» بتحسين خلقها وكانت حردة. ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير. ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية. ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ مخبتين أو دائئين الوجل، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ زَوْجَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا﴾ من الحلال والحرام يعني مريم. ﴿فَفَتَحْنَا فِيهَا﴾ أي في عيسى عليه الصلاة والسلام فيها أي أحييناه في جوفها، وقيل فعلنا النفخ فيها. ﴿مِنْ زَوْجِنَا﴾ من الروح الذي هو بأمرنا وحده أو من جهة روحنا يعني جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ أي قصتهما أو حالهما ولذلك وحد قوله: ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ فإن من تأمل حالهما تحقق كمال قدرة الصانع تعالى.

﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي إن ملة التوحيد والإسلام ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها فكونوا عليها. ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ غير مختلفة فيما بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا مشاركة لغيرها في صحة الاتباع. وقرئ «أُمَّتُكُمْ» بالنصب على البدل و «أُمَّة» بالرفع على الخبر وقرئنا بالرفع عن أنهما خبران. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لا غير.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجْعُونَ ﴿٩٢﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ صرفه إلى الغيبة التفاتاً لينبغي على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبیح فعلهم إلى غيرهم. ﴿كُلُّ﴾ من الفرق المتحزبة. ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فنجازيهم. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله. ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ فلا تضییع. ﴿لِسَعْيِهِ﴾ استعير لمنع الثواب كما استعير الشكر لإعطائه ونفي الجنس للمبالغة. ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ مثبتون في صحيفة عمله لا يضيع بوجه ما.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ﴾ وممتنع على أهلها غير متصور منهم. وقرأ أبو بكر وحزمة والكسائي «وَجَزْمٌ» بكسر الحاء وإسكان الراء و قرئ «حرم». ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ حكمنا بإهلاكها أو وجدناها هالكة. ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ رجوعهم إلى التوبة أو الحياة ولا صلة، أو عدم رجوعهم للجزاء وهو مبتدأ خبره حرام أو فاعل له ساد مسد خبره أو دليل عليه وتقديره: توبتهم أو حياتهم أو عدم بعثهم، أو لأنهم ﴿لا يرجعون﴾ ولا ينيون ﴿وحرام﴾ خبر محذوف أي وحرام عليها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدمة ويؤيده القراءة بالكسر. وقيل ﴿حرام﴾ عزم وموجب عليهم ﴿أنهم لا يرجعون﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتَيْنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْوََةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ متعلق بـ ﴿حرام﴾ أو بمحذوف دل الكلام عليه، أو بـ ﴿لا يرجعون﴾ أي يستمر الامتناع أو الهلاك أو عدم الرجوع إلى قيام الساعة وظهور أماراتها: وهو فتح سد يأجوج ومأجوج وهي حتى التي يحكى الكلام بعدها، والمحكي هي الجملة الشرطية. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فُتِحَتْ﴾ بالتشديد. ﴿وَهُمْ﴾ يعني يأجوج ومأجوج أو الناس كلهم. ﴿مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ نزل من الأرض، وقرئ «جدت» وهو القبر. ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون من نسلان الذئب وقرئ بضم السين.

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ وهو القيامة. ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب الشرط و «إذا» للمفاجأة تسد مسد الفاء الجزائية كقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فإذا جاءت الفاء معها تظاهرتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد، والضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار. ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ مقدر بالقول واقع موقع الحال من الموصول. ﴿قَدْ كُنَّا فِي عَفْوََةٍ مِنْ هَذَا﴾ لم نعلم أنه حق. ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا بالإخلال بالنظر وعدم الاعتداد بالنذر.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يحتمل الأوثان وإبليس وأعوانه لأنهم بطاعتهم لهم في حكم عبدتهم، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما تلا الآية على المشركين قال له ابن الزبيري: قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيزاً والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة، فقال ﷺ: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنا الْحُسْنَى﴾ الآية. وعلى هذا يعم الخطاب ويكون ﴿مَا﴾ مؤولاً بـ ﴿مَنْ﴾ أو بما يعمه، ويدل عليه ما روي أن ابن الزبيري قال: هذا شيء لألهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله فقال ﷺ: «بل لكل من عبد من دون الله». ويكون قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ بياناً للتجاوز أو التخصيص تأخر عن الخطاب. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما يرمى به إليها وتهيج به من حصبه بحصبه إذا رماه بالحصباء وقرىء بسكون الصاد وصفاً بالمنصدر. ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ استئناف أو بدل من ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ واللام معوضة من على للاختصاص والدلالة على أن ورودهم لأجلها.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَا رَدُّوهُمَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَا رَدُّوهُمَا﴾ لأن المؤاخذ بالعذاب لا يكون إلهاً. ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين وتنفس شديد وهو من إضافة فعل البعض إلى الكل للتغلب إن أريد بـ ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ الأصنام. ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ من الهول وشدة العذاب. وقيل ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ ما يسمعهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنا الْحُسْنَى﴾ أي الخصلة الحسنى وهي السعادة أو التوفيق بالطاعة أو البشري بالجنة. ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنهم يرفعون إلى أعلى عليين. روي أن علياً كرم الله وجهه خطب وقرأ هذه الآية ثم قال: أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابن الجراح، ثم أقيمت الصلاة فقام يجر رداءه ويقول:

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو بدل من ﴿مُبْعَدُونَ﴾ أو حال من ضميره سيق للمبالغة في إبعادهم عنها، والحسيس صوت يحس به. ﴿وَهُمْ فِيهَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ دائمون في غاية التمتع وتقديم الظرف للاختصاص والاهتمام به.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ﴾ النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أو الانصراف إلى النار أو حين يطبق على النار أو يذبح الموت. ﴿وَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾ تستقبلهم مهتئين لهم. ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ يوم ثوابكم وهو مقدر بالقول. ﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ مقدر باذكر أو ظرف ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ﴾، أو ﴿تَلْقَاهُمْ﴾ أو حال مقدرة من العائد المحذوف من ﴿تُوعَدُونَ﴾، والمراد بالطي ضد النشر أو المحو من قولك اطو عني هذا الحديث، وذلك لأنها

نشرت مظلة لبني آدم فإذا انتقلوا قوضت عنهم، وقرىء بالياء والتاء والبناء للمفعول. ﴿كَطَي السَّجَلِ لِلْكِتَابِ﴾ طياً كطي الطومار لأجل الكتابة أو لما يكتب أو كتب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وقيل «السجل» ملك يطوي كتب الأعمال إذا رفعت إليه أو كاتب كان لرسول الله ﷺ. وقرىء «السجل» كالدلو و«السجل» كالعتل وهما لغتان فيه. ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أي نعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في كونهما إيجاداً عن العدم، أو جمعاً بين الأجزاء المتبددة والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على الإبداء لشمول الإمكان الذاتي المصحح للمقدورية. وتناول القدرة القديمة لهما على السواء، و «ما» كافة أو مصدرية وأول مفعول لـ ﴿بَدَأْنَا﴾ أو لفعل يفسره «نُعِيدُهُ» أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره «نُعِيدُهُ» أي نعيد مثل الذي بدأنا وأول خلق ظرف لـ ﴿بَدَأْنَا﴾ أو حال من ضمير الموصول المحذوف. ﴿وَعَدْنَا﴾ مقدر بفعله تأكيداً لـ «نُعِيدُهُ» أو مبتصب به لأنه عدة بالإعادة. ﴿عَلَيْنَا﴾ أي علينا إنجازه. ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك لا محالة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٥٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٥٦).

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ في كتاب داود عليه السلام. ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي التوراة، وقيل المراد بـ «الزبور» جنس الكتب المنزل وبـ «الذكر» اللوح المحفوظ. ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي أرض الجنة أو الأرض المقدسة. ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعني عامة المؤمنين أو الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها، أو أمة محمد ﷺ.

﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أي فيما ذكر من الأخبار والمواعظ والمواعيد ﴿لَبَلَاغًا﴾ لكفاية أو لسبب بلوغ إلى البغية. ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ همهم العبادة دون العادة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٥٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٥٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم، وقيل كونه رحمة للكفار أمنهم به من الخسف والمسح وعذاب الاستئصال.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ أي ما يوحى إلي إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد، وذلك لأن المقصود الأصلي من بعثته مقصور على التوحيد فالأولى لقصر الحكم على الشيء والثانية على العكس. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون العبادة لله تعالى على مقتضى الوحي المصدق بالحجة، وقد عرفت أن التوحيد مما يصح إثباته بالسمع.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١٥٩) إِنَّكُمْ يَعْلَمُ السَّجَّارُ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١٦٠) وَإِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّكُمْ فَتَنَةً لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ (١٦١).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم ما أمرت به أو حربي لكم. ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ مستويين في الإعلام به أو مستويين أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعادة أو إيداناً على سواء. وقيل أعلمتكم أنني على «سواء» أي عدل واستقامة رأي بالبرهان النير. ﴿وَإِنِ أَدْرَىٰ﴾ وما أدري. ﴿أَقْرَبُ أَمِ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من غلبة المسلمين أو الحشر لكنه كائن لا محالة.

﴿إِنَّهُ يَغْلِبُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام. ﴿وَيَغْلِبُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من الإحن والأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه.

﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم وزيادة في افتتانكم أو امتحان لينظر كيف تعملون. ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وتمتع إلى أجل مقدر تقتضيه مشيئته.

﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ بِالْحَقِّ﴾ اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لاستعجال العذاب والتشديد عليهم، وقرأ حفص ﴿قَالَ﴾ على حكاية قول رسول الله ﷺ. وقرأ «رَبِّ» بالضم و «رَبِّي أَحْكَمُ» على بناء التفضيل و «أَحْكَمُ» من الأحكام. ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة على خلقه. ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه المعونة. ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من الحال بأن الشوكة تكون لهم وأن راية الإسلام تخفق أياماً ثم تسكن، وأن الموعد به لو كان حقاً لنزل بهم فأجاب الله تعالى دعوة رسوله ﷺ فخبب أمانهم ونصر رسوله ﷺ عليهم، وقرأ بالياء. وعن النبي ﷺ «من قرأ اقترب حاسبه الله حساباً يسيراً وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن» والله تعالى أعلم.

سورة الحج (٢٢)

مكية إلا ست آيات من ﴿هَذَا﴾ خصمان ﴿إلى﴾ صراط الحميد
وأيها ثمان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ تحريكها للأشياء على الإسناد المجازي، أو تحريك الأشياء فيها فأضيفت إليها إضافة معنوية بتقدير في أو إضافة المصدر إلى الظرف على إجرائه مجرى المفعول به. وقبل هي زلزلة تكون قبيل طلوع الشمس من مغربها وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراتها. ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ هائل علل أمرهم بالتقوى بفضاعة الساعة ليتصوروها بعقولهم ويعلموا أنه لا يؤمنهم منها سوى التدرع بلباس التقوى فيبقوا على أنفسهم ويتقوها بملازمة التقوى.

﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تصوير لهولها والضمير للـ ﴿زَلْزَلَةِ﴾، و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بـ ﴿تُذْهِلُ﴾، وقرئ «تذهل» و «تذهل» مجهولاً ومعروفاً أي تذهلها الزلزلة، والذهول الذهاب عن الأمر بدهشة، والمقصود الدلالة على أن هولها بحيث إذا دهشت التي ألقت الرضيع نديها نزعته من فيه وذهلت عنه، و «ما» موصولة أو مصدرية. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ جنينها. ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾ كأنهم سكارى. ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾ على الحقيقة. ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقهم هولها بحيث طير عقولهم وأذهب تمييزهم، وقرئ «ترى» من أريتك قائماً أو رؤيت قائماً بنصب الناس ورفعته على أنه نائب مناب الفاعل، وتأنيسه على تأويل الجماعة وإفراده بعد جمعه لأن الزلزلة يراها الجميع، وأثر السكر إنما يراه كل أحد على غيره وقرأ حمزة والكسائي «سكراً» كعطشى إجراء للسكر مجرى العلل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في النضرين الحرث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت هي تعمه وأضرابه. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلة أو في عامة أحواله. ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ متجرد للفساد وأصله العربي.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ على الشيطان. ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ تبعه والضمير للشأن. ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ خبر لمن أراد له، والمعنى كتب عليه إضلال من يتولاه لأنه جبل عليه، وقرئ بالفتح على تقدير فشأنه أنه يضلله لا على العطف فإنه يكون بعد تمام الكلام. وقرئ بالكسر في الموضعين على حكاية المكتوب أو إضمار القول أو

تضمن الكتب معناه. ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ بالحمل على ما يؤدي إليه.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ من إمكانه وكونه مقدوراً، وقرئ «من البعث» بالتحريك كالجلب. ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي فانظروا في بدء خلقكم فإنه يزيح ريحكم فإننا خلقناكم. ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق آدم منه، أو الأغذية التي يتكون منها المني. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مني من النطف وهو الصب. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ قطعة من الدم جامدة. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ قطعة من اللحم وهي في الأصل قدر ما يمضغ. ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ مسواة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسواة أو تامة وساقطة أو مصورة وغير مصورة. ﴿لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ﴾ بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن ما قبل التغير والفساد والتكون مرة قبلها أخرى، وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً قدر على ذلك ثانياً، وحذف المفعول إيماء إلى أن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وحكمته ما لا يحيط به الذكر. ﴿وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أن نقره. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع وأذناه بعد ستة أشهر وأقصاه أربع سنين، وقرئ «ونقر» بالنصب وكذا قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ عطفاً على «نبيين» كأن خلقهم مدرجاً لغرضين تبين القدرة وتقريرهم في الأرحام حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف، وقرئ بالياء رفعاً ونصباً ويقر بالياء «ونقر» من قررت الماء إذا صببته، و «طفلاً» حال أجريت على تأويل كل واحد أو للدلالة على الجنس أو لأنه في الأصل مصدر. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ كمالكم في القوة والعقل جمع شدة كالأنعم جمع نعمة كأنها شدة في الأمور. ﴿وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عند بلوغ الأشد أو قبله. وقرئ «يتوفى» أو يتوفاه الله تعالى. ﴿وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الهرم والخرف، وقرئ «بسكون الميم». ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه، والآية استدلال ثان على إمكان البعث بما يعترى الإنسان في أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة، فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره. ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً﴾ ميتة يابسة من همدت النار إذا صارت رماداً. ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تحركت بالنبات. ﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت، وقرئ «وربات» أي ارتفعت. ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل صنف «بهيج» حسن رائق، وهذه دلالة ثالثة كررها الله تعالى في كتابه لظهورها وكونها مشاهدة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله على أحوال متضادة، وإحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي بسبب أنه الثابت في نفسه الذي به تتحقق الأشياء. ﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ﴾ وأنه يقدر على إحيائها وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة. ﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته الذي نسبته إلى الكل على سواء، فلما دلت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فإن التغير من مقدمات الانصرام وطلانه. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ بمقتضى وعده الذي لا يقبل الخلف.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ٨ ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ٩ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ١٠.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تكرير للتأكيد ولما نيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ على أنه لا سند له من استدلال أو وحى، أو الأول في المقلدين وهذا في المقلدين، والمراد بالعلم العلم الفطري ليصح عطف الـ ﴿هدى﴾ والـ ﴿كتاب﴾ عليه.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ متكبراً وثني العطف كناية عن التكبر كلي الجيد، أو معرضاً عن الحق استخفافاً به. وقرىء بفتح العين أي مانع تعطفه. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علة للجدال، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء على أن إعراضه عن الهدى المتمكن منه بالإقبال على الجدال الباطل خروج من الهدى إلى الضلال، وأنه من حيث مؤداه كالغرض له. ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابه يوم بدر. ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحروق وهو النار.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ على الالتفات، أو إرادة القول أي يقال له يوم القيامة ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم المبالغة لكثرة العبيد.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ١١.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طرف من الدين لا ثبات له فيه كالذي يكون على طرف الجيش، فإن أحسن بظفر قر وإلا فر. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ روي أنها نزلت في أعراب قدموا المدينة، فكان أحدهم إذا صح بدنه ونتجت فرسه مهراً سرياً وولدت امرأته غلاماً سوياً وكثر ماله وماشيته قال: ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً واطمأن، وإن كان الأمر بخلافه قال ما أصبت إلا شراً وانقلب. وعن أبي سعيد أن يهودياً أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالإسلام، فأتى النبي ﷺ فقال: أقلني فقال «إن الإسلام لا يقال» فنزلت. ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد، وقرىء «خاسراً» بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيماً على خسارته أو على أنه خبر محذوف. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ إذ لا خسران مثله.

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ١٢ ﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ ١٣.

﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ يعبد جماداً لا يضر بنفسه ولا ينفع. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ عن المقصد مستعار من ضلال من أبعد في التيه ضالاً.

﴿يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ﴾ بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في الآخرة. ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ الذي يتوقع بعبادته وهو الشفاعة والتوسل بها إلى الله تعالى، واللام معلقة لـ ﴿يدعو﴾ من حيث إنه بمعنى

يزعم والزعيم قول مع اعتقاد، أو داخله على الجملة الواقعة مقولاً إجراء له مجرى يقول: أي يقول الكافر ذلك بدعاء وصرخ حين يرى استضراره به، أو مستأنفة على أن يدعو تكرير للأول ومن مبتدأ خبره ﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر. ﴿وَلَيْسَ الْعَمِيرُ﴾ صاحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤) ﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِيطُ﴾ (١٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من إثابة الموحد الصالح وعقاب المشرك الطالح لا دافع له ولا مانع.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ كلام فيه اختصار والمعنى: أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه. وقيل المراد بالنصر الرزق والضمير لمن. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فليستقص في إزالة غيظه أو جزعه بأن يفعل كل ما يفعله الممتلىء غيظاً، أو المبالغ جزعاً حتى يمد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره بخيس مجاريه. وقيل فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد في دفع نصره أو تحصيل رزقه. وقرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر ﴿لْيَقْطَعْ﴾ بكسر اللام. ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ فليتصور في نفسه. ﴿هَلْ يُذْهِبُ كَيْدُهُ﴾ فعله ذلك وسماه على الأول كيداً لأنه انتهى ما يقدر عليه. ﴿مَا يَعِيطُ﴾ غيظه أو الذي يغيظه من نصر الله. وقيل نزلت في قوم مسلمين استبطأوا نصر الله لاستعجالهم وشدة غيظهم على المشركين.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَسِّرُهَا وَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالنُّصَارَى وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أنزلنا القرآن كله. ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي﴾ ولأن الله يهدي به أو يثبت على الهدى. ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾ هدايته أو إثباته أنزله كذلك مبيناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالنُّصَارَى وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بالحكومة بينهم وإظهار المحق منهم على المبطل، أو الجزاء فيجازي كلاً ما يليق به ويدخله المحل المعد له، وإنما أدخلت إن على كل واحد من طرفي الجملة لمزيد التأكيد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ عالم به مراقب لأحواله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يتسخر لقدرته ولا يتأنى عن تديبره، أو يدل بذلته على عظمة مدبره، ومن يجوز أن يعم أولي العقل وغيرهم على التغليب فيكون قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أفراداً لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها. وقرئ «والدواب» بالتخفيف كراهة التضعيف أو الجمع بين الساكنين. ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ عطف عليها إن جوز إعمال اللفظ الواحد في

كل واحد من مفهوميه، وإسناده باعتبار أحدهما إلى أمر وباعتبار الآخر إلى آخر، فإن تخصيص الكثير يدل على خصوص المعنى المسند إليهم، أو مبتدأ خبره محذوف يدل عليه خبر قسيمه نحو حق له الثواب، أو فاعل فعل مضمر أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة. «وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» بكفره وإبائه عن الطاعة، ويجوز أن يجعل «وكثير» تكريراً للأول مبالغة في تكثير المحققين بالعذاب أن يعطف به على الساجدين بالمعنى العام موصوفاً بما بعده. وقرئ «حق» بالضم و «حقاً» بإضمار فعله. «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهَ» بالشقاوة «فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ» يكرمه بالسعادة، وقرئ بالفتح بمعنى الإكرام. «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» من الإكرام والإهانة.

﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اٰخَصَمُوْا فِي رَيْبٍۭمۡۤ ۭ فَلَاۤذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِّنۡ نَّارٍۭ يُّصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمۡۚ الْحَمِيْمُ ﴿١٩﴾ يُّضْهِرُّ بِهٖ مَا فِيۢ بُطُوْنِهِمْۚ وَالْجُلُوْدُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿هَذَانِ خَصِمَانِ﴾ أي فوجان مختصمان. ولذلك قال: ﴿اٰخَصَمُوْا﴾ حملاً على المعنى ولو عكس لجاز، والمراد بها المؤمنون والكافرون. ﴿فِي رَيْبٍۭمۡۤ﴾ في دينه أو في ذاته وصفاته. وقيل تخاصمت اليهود والمؤمنون فقال اليهود: نحن أحق بالله وأقدم منكم كتاباً ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله أمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسداً فترلت. ﴿فَلَاۤذِيْنَ كَفَرُوْا﴾ فصل لخصومتهم وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ﴾ قدرت لهم على مقادير جثثهم، وقرئ بالتخفيف. ﴿شِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ نيران تحيط بهم إحاطة الشيا. ﴿يُّصْبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمۡ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ أو خبر ثان، والحميم الماء الحار.

﴿يُّضْهِرُّ بِهٖ مَا فِيۢ بُطُوْنِهِمْۚ وَالْجُلُوْدُ﴾ أي يؤثر من فرط حرارته في باطنهم تأثيره في ظاهرهم فتذاب أحشاؤهم كما تذاب به جلودهم، والجملة حال من ﴿الحميم﴾ أو من ضميرهم. وقرئ بالتشديد للتكثير.

﴿وَلَهُمْ مَّقَامِعٌ مِّنۡ حَدِيدٍۭ ﴿٢١﴾ كَلَّمَآ أَرَادُوْا أَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا مِنْ غَمٍّۭ أُعِيدُوْا فِيْهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيْقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ مَّقَامِعٌ مِّن حديد﴾ سياط منه يجلدون بها جمع مقمعة وحقيقتها ما يقمع به أي يكف بعنف. ﴿كَلَّمَآ أَرَادُوْا أَنْ يَخْرُجُوْا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿مِّن غَمٍّ﴾ من غمومها بدل من الهاء بإعادة الجار. ﴿أُعِيدُوْا فِيْهَا﴾ أي فخرجوا أعيدوا لأن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج، وقيل يضربهم لهيب النار فيرفعهم إلى أعلاها فيضربون بالمقامع فيهرون فيها. ﴿وَذُوقُوا﴾ أي وقيل لهم ذوقوا. ﴿عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾ أي النار البالغة في الإحراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴿٢٣﴾ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ غير الأسلوب فيه وأسند الإدخال إلى الله تعالى وأكدته بأن إحماداً لحال المؤمنين وتعظيماً لشأنهم. ﴿يَدْخُلُونَ فِيْهَا﴾ من حليت المرأة إذا لبستها الحلي، وقرئ بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿مِّنَ الْأَسَاوِرِ﴾ صفة مفعول محذوف و ﴿أَسَاوِرُ﴾ جمع أسورة وهو جمع سوار. ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ بيان له. ﴿وَلَوْلُؤُاْ﴾ عطف عليها لا على ﴿ذهب﴾ لأنه لم يعهد السوار

منه إلا أن يراد المرصعة به، ونصبه نافع وعاصم عطفاً على محلها أو إضمار الناصب مثل ويؤتون، وروى حفص. بهمزتين وترك أبو بكر والسوسي عن أبي عمرو الهمزة الأولى، وقرأ «لؤلؤاً» بقلب الثانية واواً و «لولياً» بقلبهما واوين ثم قلب الثانية ياء و «ليلياً» بقلبهما ياءين و «لول» كأدل. «وَلْيَأْسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» غير أسلوب الكلام فيه للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة، أو للمحافظة على هيئة الفواصل.

﴿وَهَذُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو قولهم «الحمد لله الذي صدقنا وعده» أو كلمة التوحيد. «وَهَذُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة، أو الحق أو المستحق لذاته الحمد وهو الله سبحانه وتعالى وصراطه الإسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا يريد به حالاً ولا استقبلاً وإنما يريد به استمرار الصد منهم كقولهم: فلان يعطي ويمنع، ولذلك حسن عطفه على الماضي. وقيل هو حال من فاعل «كفروا» وخبر «إن» محذوف دل عليه آخر الآية أي معذبون. «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» عطف على اسم الله وأوله الحنفية بمكة واستشهدوا بقوله: «الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» أي المقيم والطارئ، على عدم جواز بيع دورها وإجارتها، وهو مع ضعفه معارض بقوله تعالى: «الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» وشراء عمر رضي الله عنه دار السجن فيها من غير نكير، و «سواء» خبر مقدم والجملة مفعول ثانٍ ل «جعلناه» إن جعل «للناس» حالاً من الهاء وإلا فحال من المستكن فيه، ونصبه حفص على أنه المفعول أو الحال و «العاكف» مرتفع به، وقرأ «الْعَاكِفُ» بالجر على أنه بدل من الناس. «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ» مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول، وقرأ بالفتح من الورود. «بِالْحَكَمِ» عدول عن القصد «بِظْلَمٍ» بغير حق وهما حالان مترادفان، أو الثاني بدل من الأول بإعادة الجار أو صلة له: أي ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقتراف الآثام «نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» جواب ل «من».

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢٦).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي واذكر إذ عيناه وجعلناه له مباءة. وقيل اللام زائدة ومكان ظرف أي وإذا أنزلناه فيه. قيل رفع البيت إلى السماء وانطمس أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه بريح أرسلها فكنت ما حوله فبناه على أسه القديم. «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» «أَنْ» مفسرة ل «بَوَّأْنَا» من حيث إنه تضمن معنى تعبدنا لأن التبوئة من أجل العبادة، أو مصدرية موصولة بالنهي أي: فعلنا ذلك لئلا تشرك بعبادتي وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي فيه، ولعله عبر عن الصلاة بأركانها للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك كيف وقد اجتمعت، وقرأ «يشرك» بالياء وقرأ نافع وحفص وهشام «بَيْتِي» بفتح الياء.

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطَعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (٢٨).

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ ناد فيهم وقرئ «وَأَذِّنْ». ﴿بِالْحَجِّ﴾ بدعوة الحج والأمر به. روي أنه عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق في علمه أن يحج. وقيل الخطاب لرسول الله ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع. ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة جمع راجل كقائم وقيام، وقرئ بضم الراء مخفف الجيم ومثقله و«رجالي» كعجالي. ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ ﴿ضَامِرٍ﴾ محمولة على معناه، وقرئ «يأتون» صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير لـ ﴿الناس﴾. ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍ﴾ طريق. ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد، وقرئ «عميق» يقال بئر بعيدة العمق والمعق بمعنى.

﴿لِيَشْهَدُوا﴾ ليحضروا. ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ دينية ودنيوية، وتنكيرها لأن المراد بها نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وقيل كنى بالذكر عن النحر لأن ذبح المسلمين لا ينفك عنه تنبيهاً على أنه المقصود مما يتقرب به إلى الله تعالى. ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ هي عشر ذي الحجة، وقيل أيام النحر. ﴿عَلَى مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ علق الفعل بالمرزوق وبينه بالبهيمة تحريضاً على التقرب وتنبيهاً على مقتضى الذكر. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من لحومها أمر بذلك إباحة وإزاحة لما عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه، أو ندباً إلى مواساة الفقراء ومساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب. ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْإِنشَاءَ﴾ الذي أصابه بؤس أي شدة. ﴿الْفَقِيرِ﴾ المحتاج، والأمر فيه للوجوب وقد قيل به في الأول.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثم ليزيلوا وسخهم بقص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ﴾ ما يندرون من البر في حجهم، وقيل مواجب الحج. وقرأ أبو بكر بفتح الواو وتشديد الفاء. ﴿وَلِيَطُوفُوا﴾ طواف الركن الذي به تمام التحلل فإنه قرينة قضاء التفث، وقيل طواف الوداع. وقرأ ابن عامر وحده بكسر اللام فيهما. ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ القديم لأنه أول بيت وضع للناس، أو المعتك من تسلط الجبابة فكم من جبار رسا إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى، وأما الحجاج فإنما قصد إخراج ابن الزبير منه دون التسلط عليه.

﴿ذَلِكَ﴾ خبر محذوف أي الأمر ذلك وهو وأمثاله تطلق للفصل بين كلامين. ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه، أو الحرم وما يتعلق بالحج من التكليف. وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمحرم. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ فالتعظيم «خير له». ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ثواباً. ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ إلا المتلو عليكم تحريمه، وهو ما حرم منها لعارض: كالميتة وما أهل به لغير الله فلا تحرموا منها غير ما حرمه الله كالبحيرة والسائبة. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس، وهو غاية المبالغة في النهي عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها.

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص فإن عبادة الأوثان رأس الزور، كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك رداً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والإفتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك. وقيل شهادة الزور لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «عدلت شهادة الزور الإشراف بالله تعالى ثلاثاً وتلا هذه الآية». و «الزور» من الزور وهو الإنحراف كما أن الإفك من الأفك وهو الصرف، فإن

الكذب منحرف مصروف عن الواقع.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكِرَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له. ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ وهما حالان من الواو. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لأنه سقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر. ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ فإن الأهواء الرديئة توزع أفكاره، وقرأ نافع وحده ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بفتح الحاء وتشديد الطاء. ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة وأو للتخيير كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصِيبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، أو للتنويع فإن المشركين من لا خلاص له أصلاً، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة لكن على بعد، ويجوز أن يكون من التشبيهات المركبة فيكون المعنى: ومن يشرك بالله فقد هلك نفسه هلاكاً يشبه أحد الهالكين.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَاثِرَ اللَّهِ﴾ دين الله أو فرائض الحج ومواضع نسكه، أو الهدايا لأنها من معالم الحج وهو أوفق لظاهر ما بعده، وتعظيمها أن تختارها حسناً سماناً غالبية الأثمان. روي أنه ﷺ أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب، وأن عمر رضي الله تعالى عنه أهدى نجبية طلبت منه بثلاثمائة دينار. ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإن تعظيمها منه من أفعال ذوي تقوى القلوب، فحذفت هذه المضافات والعائد إلى من وذكر القلوب لأنها منشأ التقوى والفجور أو الأمرة بهما.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (٣٣).

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي لكم فيها منافع درها ونسلها وصوفها وظهرها إلى أن تنحر، ثم وقت نحرها منتهية إلى البيت أي ما يليه من الحرم، و﴿ثُمَّ﴾ تحتل التراخي في الوقت والتراخي في الرتبة، أي لكم فيها منافع دنيوية إلى وقت النحر وبعده منافع دينية أعظم منها، وهو على الأولين إما متصل بحديث ﴿الأنعام﴾ والضمير فيه لها أو المراد على الأول لكم فيها منافع دينية تنتفعون بها إلى أجل مسمى هو الموت، ثم محلها منتهية إلى البيت العتيق الذي ترفع إليه الأعمال أو يكون فيه ثوابها وهو البيت المعمور أو الجنة، وعلى الثاني ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ التجارات في الأسواق إلى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطواف الزيارة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكَارًا يَكْفُرُونَ﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ولكل أهل دين. ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ متعبداً أو قرباناً يتقربون به إلى الله، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر أي موضع نسك. ﴿لِّذِكْرِهِمْ أَسْمَ اللَّهِ﴾ دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه، علل الجعل به تنبيهاً على أن المقصود من المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذبحها، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً. ﴿فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكَارًا يَكْفُرُونَ﴾ أخلصوا التقرب أو الذكر ولا تشوبوه بالإشراك. ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات صفتهم.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبة منه لإشراق أشعة جلاله عليها. ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من الكلف والمصائب. ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ في أوقاتها، وقرئ «والمقيمين الصلاة» على الأصل. ﴿وَمِمَّا

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» في وجوه الخير.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرٍ ۚ إِنَّكُمْ لَكُمْ فِيهَا حَيَّرٌ ۚ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ ۚ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَالْبَدَنَ﴾ جمع بدنة كخشب وخشبة، وأصله الضم وقد قرئ به وإنما سميت بها الإبل لعظم بدنها مأخوذة من بدن بدانة، ولا يلزم من مشاركة البقرة لها في إجزائها عن سبعة بقوله عليه السلام «البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة» تناول اسم البدنة لها شرعاً، بل الحديث يمنع ذلك وانتصابه بفعل يفسره. ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ ومن رفعه جعله مبتداً. ﴿مِّنْ شَعَاتِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. ﴿لَكُمْ فِيهَا حَيَّرٌ﴾ منافع دينية ودنيوية. ﴿فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك. ﴿صَوَافَّ﴾ قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرئ «صوافن» من صفن الفرس إذا قام على ثلاث وعلى طرف حافر الرابعة لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرئ «صوافنا» بإبدال التنوين من حرف الإطلاق عند الوقف و «صوافي» أي خوالص لوجة الله، و «صوافي» بسكون الياء على لغة من يسكن الياء مطلقاً كقولهم: أعط القوس باريها. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت على الأرض وهو كناية عن الموت. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ﴾ الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ويؤيده قراءة «القنع»، أو السائل من قنعت إليه قنوعاً إذا خضعت له في السؤال. ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ والمعترض بالسؤال، وقرئ «والمعترري» يقال عره وعراه واعتراه واعتراه. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ما وصفنا من نحرها قياماً. ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ مع عظمها وقوتها حتى تأخذوها متفاداة فتعقلوها وتحبسوها صافة قوائمها ثم تطعنون في لبانها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إناعامنا عليكم بالتقرب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿لَن يَنَالَ اللَّهُ﴾ لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول. ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدق بها. ﴿وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ المهرقة بالنحر من حيث إنها لحوم ودماء. ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يصحبه من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمره تعالى والتقرب إليه والإخلاص له، وقيل كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا القرابين لطخوا الكعبة بدمائها قرية إلى الله تعالى فهم به المسلمون فنزلت. ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كره تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي لتعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدر عليه غيره فتوحده بالكبرياء. وقيل هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها، و «ما» تحتمل المصدرية والخبرية و «على» متعلقة ب«تكبروا» لتضمنه معنى الشكر. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ المخلصين فيما يأتونه ويذرونه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غائلة المشركين، وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون «يدافع» أي يبالغ في الدفع مبالغته من يغالب فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانة الله. ﴿كُفُورٍ﴾ لنعمة كمن يتقرب إلى الأصنام بذبيحته فلا يرتضي فعلهم ولا ينصرهم.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿أَذِّنْ﴾ رخص، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحزمة والكسائي على البناء للفاعل وهو الله. ﴿لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ﴾ المشركين والمأذون فيه محذوف لدلالته عليه، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي للذين يقاتلهم المشركون. ﴿يَأْتِيهِمْ ظُلُمًا﴾ بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فانزلت. وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نهى عنه في نيف وسبعين آية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعد لهم بالنصر كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَلَكْتَ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني مكة. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بغير موجب استحقاقه به. ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ على طريقة قول النابغة:

وَلَا غَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوقَهُمْ بِهِنَ قُلُوبٍ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقيل منقطع. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ بتسليط المؤمنين منهم على الكافرين. ﴿لَهَلَكْتَ﴾ لخربت باستيلاء المشركين على أهل الملل، وقرأ نافع ﴿دِفَاعٍ﴾ وقرأ نافع وابن كثير ﴿لَهَلَكْتَ﴾ بالتخفيف. ﴿صَوَامِعُ﴾ صوامع الرهبانية. ﴿وَبِيْعٌ﴾ بيع النصارى. ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ كنائس اليهود، سميت بها لأنها يصلى فيها، وقيل أصلها صلوتا بالعبرانية فحربت. ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ مساجد المسلمين. ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفة للأربع أو لمساجد خست بها تفضيلاً. ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ من ينصر دينه، وقد أنجز وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم وأورثتهم أرضهم وديارهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وصف للذين أخرجوا وهو ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذ لم يستجمع ذلك غيرهم من المهاجرين. وقيل بدل ممن ينصره. ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لما وعده.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ تسلية له ﷺ بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوحدي في التكذيب، فإن هؤلاء قد كذبوا رسلهم قبل قومه. ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ غير فيه النظم وبنى الفعل للمفعول لأن قومه بنو إسرائيل، ولم يكذبوه وإنما كذبه القبط ولأن تكذيبه كان أشنع وآياته كانت أعظم وأشيع. ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ فأمهلتهم حتى انصرفت أجالهم المقدره. ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً والعمارة خراباً.

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ٤٥﴾ .

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ بإهلاك أهلها، وقرأ البصريان بغير لفظ التعظيم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي أهلها. ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ساقطة حيطانها على سقفها بأن تعطل بنيانها فخرت سقفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقف، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فيكون الجار متعلقاً بـ ﴿خَاوِيَةٌ﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر أي هي خالية وهي على عروشها أي: مظلة عليها بأن سقطت وبقيت الحيطان مائلة مشرفة عليها، والجملة معطوفة على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ لا على ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فإنها حال والإهلاك ليس حال خواتها فلا محل لها إن نصبت كأي بمقدر يفسره ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ وإن رفعته بالإبتداء فمحلها الرفع. ﴿وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ﴾ عطف على ﴿قَرْيَةٍ﴾ أي وكم بشر عامرة في البوادي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها، وقرئ بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله. ﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه، وذلك يقوي أن معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية مع بقاء عروشها، وقيل المراد بـ ﴿يَبْرِ﴾ بئر في سفح جبل بحضرموت وبقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلها.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ٤٦﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فلم يسافروا لذلك. ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يعقل من التوحيد بما حصل لهم من الاستبصار والاستدلال. ﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يسمع من الوحي والتذكير بحال من شاهدوا آثارهم. ﴿فَإِنَّهَا﴾ الضمير للقصة أو مبهم يفسره الأبصار. وفي ﴿تَعْمَى﴾ راجع إليه والظاهر أقيم مقامه. ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن الاعتبار أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما أيفت عقولهم باتباع الهوى والانهماك في التقليد، وذكر ﴿الصُّدُورِ﴾ للتأكيد ونفي التجوز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يخص البصر. قيل لما نزل ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ المتوعد به. ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا متناع الخلف في خبره فيصيبهم ما أوعدهم به ولو بعد حين لكنه صبور لا يعجل بالعقوبة. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيان لتناهي صبره وتأنيه حتى استقصر المدد الطوال، أو لتمام عذابه وطول أيامه حقيقة، أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي بالياء.

﴿وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في الإعراب، ورجع الضمائر والأحكام مبالغة في التعميم والتهويل وإنما عطف الأولى بالفاء وهذه بالواو، لأن الأولى بدل من قوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٌ﴾ وهذه في حكم ما تقدمها من الجملتين لبيان أن المتوعد به يحق بهم لا محالة وأن تأخير لعادته تعالى. ﴿أَمَلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمهلتكم. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلكم. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب. ﴿وَالْيَوْمِ الْمَظْهِرِ﴾ وإلى حكمي مرجع الجميع.

﴿قُلْ يَكَايَا النَّاسِ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أوضح لكم ما أنذركم به، والاقتصار على الإنذار مع عموم الخطاب وذكر الفريقين لأن صدر الكلام ومساقه للمشركون، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة في غيظهم. ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لما بدر منهم. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنة وال ﴿كريم﴾ من كل نوع ما يجمع فضائله.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والإبطال. ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مسابقين مشاقين للساعين فيها بالقبول والتحقيق، من عاجزه فأعجزه وعجزه إذا سبقه فسبقه لأن كلاً من المتسابقين يطلب إعجاز الآخر عن اللحق به، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿معجزين﴾ على أنه حال مقدرة. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ النار الموقدة، وقيل اسم دركة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبي يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، ولذلك شبه النبي ﷺ علماء أمته بهم، فالنبي أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، قيل فكم الرسل منهم قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» وقيل الرسول من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبي غير الرسول من لا كتاب له. وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحي، والنبي يقال له ولمن يوحى إليه في المنام. ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ زور في نفسه ما يهواه. ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في تشبيهه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه الصلاة والسلام «وإنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة». ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه. ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الناس. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله بهم، قيل حدث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ﴿والنجم﴾ فأخذ يقرؤها فلما بلغ ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً إلى أن قال: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لِمَا سجد في آخرها، بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد، ثم نبهه جبريل عليه السلام فاغتم لذلك فعزاه الله بهذه الآية. وهو مردود عند المحققين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن المترلزل فيه، وقيل تمنى قرأ كقوله:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ تَمَنَّى دَاوُدُ الرُّزُقَ عَلَى رَسُلِ

وأمنيته قراءته وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظن السامعون أنه من قراءة النبي ﷺ. وقد رد أيضاً بأنه يخل بالوثوق على القرآن ولا يندفع بقوله ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ لأنه أيضاً يحتمله، والآية تدل على جواز السهو على الأنبياء وتطرق الوسوسة إليهم.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي

شَقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٦﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾

﴿لَيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل. ﴿فَتَنَّةٌ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق. ﴿وَالْقَائِنَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ المشركين. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني الفريقين فوضع الظاهر موضع ضميرهم قضاء عليهم بالظلم. ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق أو عن الرسول والمؤمنين.

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن القرآن هو الحق النازل من عند الله، أو تمكين الشيطان من الإلقاء هو الحق الصادر من الله لأنه مما جرت به عادته في الإنس من لدن آدم. ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن أو بالله. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ بالإنقياد والخشية. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيما أشكل. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو نظر صحيح يوصلهم إلى ما هو الحق فيه.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿٥٨﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٩﴾

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْهُ﴾ من القرآن أو الرسول، أو مما ألقى الشيطان في أمنيته يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتد عنها. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ القيامة أو أسراطها أو الموت. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر، سمي به لأن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كالعقم، أو لأن المقاتلين أبناء الحرب فإذا قتلوا صارت عقيماً، فوصف اليوم بوصفها اتساعاً أو لأنه لا خير لهم فيه، ومنه الريح العقيم لما لم تنشأ مطراً ولم تلقح شجراً، أو لأنه لا مثل له لقتال الملائكة فيه، أو يوم القيامة على أن المراد بـ ﴿السَّاعَةِ﴾ غيره أو على وضعه، موضع ضميرها للتحويل.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ﴾ التتوين فيه ينوب عن الجملة التي دلت عليها الغاية أي: يوم تزول مریتهم. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاة، والضمير يعم المؤمنين والكافرين لتفصيله بقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وإدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم فلذلك قال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يقل: هم في عذاب.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٦١﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٦٢﴾

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا﴾ في الجهاد. ﴿أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الجنة ونعيمها، وإنما سوى بين من قتل في الجهاد ومن مات حتف أنفه في الوعد لاستوائهما في القصد وأصل العمل. روي أن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قالوا: يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا إن متنا فنزلت. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإنه يرزق بغير حساب.

﴿لِيَدْخُلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرْزَخٍ بَاطِنٍ﴾ هو الجنة فيها ما يحبونه. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال معادهم. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل في العقوبة.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ (٦٠).

﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك. ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ولم يزد في الاقتصاص، وإنما سمي الابتداء بالعقاب الذي هو الجزاء للزدواج أو لأنه سببه. ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقوبة. ﴿لِيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ﴾ لا محالة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ للمتصبر حيث اتبع هواه في الانتقام وأعرض عما ندب الله إليه بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وفيه تعريض بالحث على العفو والمغفرة، فإنه تعالى مع كمال قدرته وتعالى شأنه لما كان يعفو ويغفر فغيره بذلك أولى، وتنبيه على أنه تعالى قادر على العقوبة إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١)
﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك النصر. ﴿يَأْتِ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض، جار عاداته على المداولة بين الأشياء المتعاندة ومن ذلك إيلاج أحد الملوئين في الآخر، بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار بتغيب الشمس وعكس ذلك بإطلاعها. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع قول المعاقب والمعاقب. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى أفعالهما فلا يهملهما.

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف بكمال القدرة والعلم. ﴿يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثابت في نفسه الواجب لذاته وحده، فإن وجوب وجوده ووحدته يقتضيان أن يكون مبدأ لكل ما يوجد سواء عالمياً بذاته وبما عداه، أو الثابت الإلهية ولا يصلح لها إلا من كان قادراً عالمياً. ﴿وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إلهاً، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو بكر بالتاء على مخاطبة المشركين، وقرأ بالبناء للمفعول فتكون الواو لما فإنه في معنى الآلهة. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته، أو باطل الألوهية. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على الأشياء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ على أن يكون له شريك لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر منه سلطاناً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (٦٣)
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٦٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ استفهام تقرير ولذلك رفع. ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطف على ﴿أَنْزَلَ﴾ إذ لو نصب جواباً لدل على نفي الاخضرار كما في قولك: ألم تر أنني جئتكم فتكرمني، والمقصود إثباته وإنما عدل به عن صيغة الماضي للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه أو لطفه إلى كل ما جل ودق. ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتدابير الظاهرة والباطنة.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ﴾ في ذاته عن كل شيء. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجَرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى

الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ جعلها مذلة لكم معدة لمنافعكم . ﴿وَالْفُلْكَ﴾ عطف على ﴿مَا﴾ أو على اسم ﴿أَنْ﴾ ، وقرئ بالرفع على الابتداء . ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ حال منها أو خبر . ﴿وَيُمِيتُكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على صورة متداعية إلى الاستمساك . ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلا بمشيئته وذلك يوم القيامة ، وفيه رد لاستمساكها بذاتها فإنها مساوية لسائر الأجسام في الجسمية فتكون قابلة للميل الهابط قبول غيرها . ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيا لهم أسباب الاستدلال وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أنواع المضار .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصر ونطفاً . ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاء أجلكم . ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرة . ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ لجحود لنعم الله مع ظهورها .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أهل دين . ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ متعبداً أو شريعة تعبدوا بها ، وقيل عيدا . ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ ينسكونه . ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ﴾ سائر أرباب الملل . ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ في أمر الدين أو النساك لأنهم بين جهال وأهل عناد ، أو لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع ، وقيل المراد نهى الرسول ﷺ عن الالتفات إلى قولهم وتمكينهم من المناظرة المؤدية إلى نزاعهم ، فإنها إنما تنفع طالب الحق وهؤلاء أهل مراء ، أو عن منازعتهم كقولك : لا يضار بك زيد ، وهذا إنما يجوز في أفعال المغالبة للتلازم ، وقيل نزلت في كفار خزاعة قالوا للمسلمين : ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله ، وقرئ ﴿فَلَا يُنْزِعُكَ﴾ على تهيج الرسول والمبالغة في تثبيته على دينه على أنه من نازعته فنزعته إذا غلبته . ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته . ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ طريق إلى الحق سوي .

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾ وقد ظهر الحق ولزمت الحجة . ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المجادلة الباطلة وغيرها فيجازيكم عليها ، وهو وعيد فيه رفق .

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين بالثواب والعقاب . ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كما فصل في الدنيا بالحجج والآيات . ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء . ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له . ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إن الإحاطة به وإثباته في اللوح المحفوظ ، أو الحكم بينكم . ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات على سواء .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حجة تدل على جواز عبادته. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ حصل لهم من ضرورة العقل أو استدلاله. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم. ﴿مِنْ نَصِيرٍ﴾ يقرر مذهبهم أو يدفع العذاب عنهم.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ دَلَّكَ النَّارُ وَعِندَهَا اللَّهُ أَلْزِمَ كَفَرُوا وَيَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ من القرآن. ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على العقائد الحقية والأحكام الإلهية. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الانكار لفرط تكبرهم للحق وغيظهم لأباطيل أخذوها تقليداً، وهذا منتهى الجهالة وللإشعار بذلك وضع الذين كفروا موضع الضمير أو ما يقصدونه من الشر ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ يشبون ويبطشون بهم. ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ دَلَّكُمْ﴾ من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم، أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوا عليكم. ﴿النَّارُ﴾ أي هو النار كأنه جواب سائل قال: ما هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره: ﴿وَعِندَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقرئ بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلاً من شر فتكون الجملة استئنافاً كما إذا رفعت خبراً أو حالاً منها. ﴿وَيَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾

﴿يَتْلِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٢﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ﴾ بين لكم حال مستغربة أو قصة رائعة ولذلك سماها مثلاً، أو جعل الله مثل أي مثل في استحقاق العبادة. ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ للمثل أو لشأنه استماع تدبر وتفكر. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني الأصنام، وقرأ يعقوب بالياء وقرئ به مبنياً للمفعول والراجع إلى الموصول محذوف على الأولين. ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لا يقدرون على خلقه مع صغره لأن ﴿لَنْ﴾ بما فيها من تأكيد النفي دالة على منافاة ما بين المنفي والمنفي عنه، والذباب من الذب لأنه يذب وجمعه أذبة وذبان. ﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي للخلق هو بجوابه المقدر في موضع حال جيء به للمبالغة، أي لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا متفردين. ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جهلهم غاية التجهيل بأن أشركوا إلهاً قدر على المقدورات كلها وتفرّد بإيجاد الموجودات بأسرها - تماثيل هي أعجز الأشياء، وبين ذلك بأنها لا تقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها ولو اجتمعوا له، بل لا تقوى على مقاومة هذا الأقل الأذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها. قيل كانوا يطلونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الأبواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ عابد الصنم ومعبوده، أو الذباب يطلب ما يسلب عن الصنم من الطيب والصنم يطلب الذباب منه السلب، أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف بدرجات.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنِ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَكِيمٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما عرفوه حق معرفته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء وآلهتهم التي يعبدونها عاجزة

عن أقلها مقهورة من أذلها.

﴿اللَّهُ يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي. ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يدعون سائرهم إلى الحق. ويبلغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها بين أن له عبادةً مصطفين للرسالة يتوسل بإجابتهم والإقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وهو أعلى المراتب ومنتهى الدرجات لمن سواه من الموجودات تقريراً للنبوّة وتزييفاً لقولهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، والملائكة بنات الله تعالى، ونحو ذلك. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ مدرك للأشياء كلها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عالم بواقعها ومتربها. ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وإليه ترجع الأمور كلها لأنه مالكها بالذات لا يسأل عما يفعل من الاصطفاء وغيره وهم يسألون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿٧٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ في صلاتكم، أمرهم بهما لأنهم ما كانوا يفعلونها أول الإسلام، أو صلوا وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله وخروا له سجداً. ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبدكم به. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ وتحروا ما هو خير وأصلح فيما تأتون وتذرون كوافل الطاعات وصلة الأرحام ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير متيقنين له واثقين على أعمالكم، والآية آية سجدة عندنا لظاهر ما فيها من الأمر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام «فضلت سورة الحج بسجدين من لم يسجدهما فلا يقرأها».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ هو اجتنابكم وما جعل عليكم في الدين من حرجٍ قلةً أيكم إبراهيم هو ستمكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولكم فنعم المولى ونعم النصير ﴿٧٨﴾.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي لله ومن أجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه رجع من غزوة تبوك فقال «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أي جهاداً فيه حقاً خالصاً لوجهه فعكس وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة كقولك: هو حق عالم، وأضيف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لأنه مختص بالله من حيث إنه مفعول لوجه الله تعالى ومن أجله. ﴿هُوَ اجْتَنَابُكُمْ﴾ اختاركم لدينه ولنصرته، وفيه تنبيه على مقتضى للجهاد والداعي إليه وفي قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق بتكليف ما يشتد القيام به عليكم، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به من حيث شق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام «إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم». وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً بأن رخص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه والأروش والديات في حقوق العباد ملةً أبيكم إبراهيم﴾ منتصبة على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبلها بحذف المضاف أي: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم، أو على الإغراء أو على الاختصاص، وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ وهو كالأب لأمته من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية ووجودهم على الوجه المعتد به في الآخرة، أو لأن أكثر العرب كانوا ذريته فغلبوا على غيرهم. ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل القرآن في الكتب المتقدمة. ﴿وفي هذا﴾ وفي القرآن، والضمير لله تعالى ويدل عليه أنه قرء «الله سماكم»، أو لـ ﴿إبراهيم﴾ وتسميتهم بمسلمين في

القرآن وإن لم تكن منه كانت بسبب تسميته من قبل في قوله ﴿وَمَنْ ذَرِيتُنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ . وقيل وفي هذا تقديره وفي هذا بيان تسميته إياكم مسلمين . ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ﴾ يوم القيامة متعلق بـ﴿شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتماداً على عصمته، أو بطاعة من أطاع وعصيان من عصى . ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم . ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فتقربوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات لما خصكم بهذا الفضل والشرف . ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا به في مجامع أموركم ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه . ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم ومتولي أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو إذ لا مثل له سبحانه في الولاية والنصرة، بل لا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة . عن النبي عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقي» .

(٢٢) سورة المؤمنون

مكية وهي مائة وتسع عشرة آية عند البصريين وثمانية عشرة عند الكوفيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (٢).

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا بأمانيتهم وقد تثبت المتوقع كما أن لما تنفيه وتدل على ثباته إذا دخلت على الماضي، ولذلك تقربه من الحال ولما كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله صدرت بها بشارتهم، وقرأ ورش عن نافع ﴿قد أفلح﴾ بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها، وقرأ «أفلحوا» على لغة: أكلوني البراغيث، أو على الإيهام والتفسير، و«أفلح» بالضم اجتزاء بالضممة عن الواو و«أفلح» على البناء للمفعول.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون من الله سبحانه وتعالى متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم. روي أنه ﷺ كان يصلي رافعاً بصره إلى السماء، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٥).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ عما لا يعينهم من قول أو فعل. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لما بهم من الجد ما شغلهم عنه، وهو أبلغ من الذين لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية وبناء الحكم على الضمير، والتعبير عنه بالاسم وتقدير الصلة عليه وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على بعدهم عنه رأساً مباشرة وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عرض غير عرضه وكذلك قوله:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة ليدل على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ما توجب المروءة اجتنابه، والزكاة تقع على المعنى والعين والمواد الأول لأن الفاعل فاعل الحدث لا المحل الذي هو موقعه أو الثاني على تقدير مضاف.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ لا يبذلونها.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

الْعَادُونَ﴾ (٧).

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ زوجاتهم أو سرياتهم، و﴿على﴾ صلة لـ ﴿حافظون﴾ من قولك احفظ على عنان فرسي، أو حال أي حافظوها في كافة الأحوال إلا في حال التزوج أو التسري، أو بفعل دل عليه غير ملومين وإنما قال: ما إجراء للماليك مجرى غير العقلاء إذ الملك أصل شائع فيه وإفراد

ذلك بعد تعميم قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأن المباشرة أشهى الملاهي إلى النفس وأعظمها خطراً. ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضمير لحافظون، أو لمن دل عليه الاستثناء أي فإن بذلوا لأزواجهم أو إيمانهم فإنهم غير ملومين على ذلك.

﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ المستثنى. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق. ﴿رَاعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها، وقرأ ابن كثير هنا وفي «المعارج» ﴿لأمانتهم﴾ على الأفراد ولأمن الإلباس أو لأنها في الأصل مصدر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها، ولفظ الفعل فيه لما في الصلاة من التجدد والتكرار ولذلك جمعه غير حمزة والكسائي، وليس ذلك تكريراً لما وصفهم به أولاً فإن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة تعظيم لشأنها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١).

﴿أُولَئِكَ﴾ الجامعون لهذه الصفات. ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ الأحقاء بأن يسموا ورثاً دون غيرهم.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لما يرثونه وتقييد للورثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً، وهي مستعارة لاستحقاقهم الفردوس من أعمالهم، وإن كان بمقتضى وعده مبالغة فيه. وقيل إنهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. ﴿هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أنت الضمير لأنه اسم للجنة أو لطبقتها العليا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (١٢) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (١٣).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ﴾ من خلاصة سلت من بين الكدر. ﴿مِّن طِينٍ﴾ متعلق بمحذوف لأنه صفة لـ ﴿سُلَالَةٍ﴾ أو من بيانية أو بمعنى ﴿سُلَالَةٍ﴾ لأنها في معنى مسلوقة فتكون ابتدائية كالأولى، والإنسان آدم عليه السلام خلق من صفوة سلت من الطين، أو الجنس فإنهم خلقوا من سلالات جعلت نطفاً بعد أدوار. وقيل المراد بالطين آدم لأنه خلق منه والسلالة نطفته.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ ثم جعلنا نسله فحذف المضاف. ﴿نُطْفَةً﴾ بأن خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة، وتذكير الضمير على تأويل الجوهر أو المسلول أو الماء. ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مستقر حصين يعني الرحم، وهو في الأصل صفة للمستقر وصف به المحل للمبالغة كما عبر عنه بالقرار.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَبْعَتُونَ﴾ (١٦).

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً﴾ بأن أحلنا النطفة البيضاء علقه حمراء. ﴿فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مِضْغَةً﴾ فصيرناها قطعة لحم. ﴿فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظَامًا﴾ بأن صلبناها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المِضْغَةِ أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها، واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات والجمع لاختلافها في الهيئة والصلابة، وقرأ ابن

عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاء باسم الجنس عن الجمع، وقرئ بإفراد أحدهما وجمع الآخر. ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو صورة البدن أو الروح أو القوى بنفخة فيه أو المجموع، و ﴿ثُمَّ﴾ لما بين الخلقين من التفاوت، واحتج به أبو حنيفة على أن من غصب بيضة أفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في قدرته وحكمته. ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المقدرين تقديراً فحذف المميز لدلالة ﴿الخالقين﴾ عليه.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ لصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك ذكر النعت الذي للثبوت دون اسم الفاعل وقد قرئ به.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ للمحاسبة والمجازاة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (١٧).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سموات لأنها طروق بعضها فوق بعض مطارقة النعل بالنعل وكل ما فوقه مثله فهو طريقه، أو لأنها طرق الملائكة أو الكواكب فيها مسيرها. ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هو السموات أو عن جميع المخلوقات. ﴿غَافِلِينَ﴾ مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال والاختلال وتدبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (١٨) ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنَهَا تَأْكُلُونَ﴾ (١٩).

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بتقدير يكثر نفعه ويقل ضرره، أو بمقدار ما علمنا من صلاحهم. ﴿فَأَسْكَنَّاهُ﴾ فجعلناه ثابتاً مستقراً. ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ﴾ على إزالته بالإفساد أو التصعيد أو التعميق بحيث يتعذر استنباطه. ﴿لَقَادِرُونَ﴾ كما كنا قادرين على إنزاله، وفي تنكير ﴿ذَهَابٍ﴾ إيماء إلى كثرة طرقه ومبالغة في الإبعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ بالماء. ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنات. ﴿فَوَاكِهَ كَثِيرَةً﴾ تفكهون بها. ﴿وَمِنَهَا﴾ ومن الجنات ثمارها وزروعها. ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذياً أو ترتزقون وتحصلون معاشكم من قولهم: فلان يأكل من حرفته، ويجوز أن يكون الضميران للـ ﴿نَحِيلٍ﴾ والـ ﴿أَعْنَابٍ﴾ أي لكم في ثمراتها أنواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورٍ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِئِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على ﴿جَنَّاتٍ﴾ وقرئت بالرفع على الإبتداء أي: ومما أنشأنا لكم به شجرة. ﴿تَخْرُجُ مِن طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل بفلسطين وقد يقال له طور سينين ولا يخلو من أن يكون الطور للجبل وسيناء اسم بقعة أضيف إليها، أو المركب منهما علم له كامرئ القيس ومنع صرفه للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للآلف لأنه فيعال كديماس من السيناء بالمد وهو الرفع، أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين إذ لا فعلاء بألف التأنيث بخلاف ﴿سَيْنَاءَ﴾ على قراءة الكوفيين والشامي ويعقوب فإنه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء لا فعلال إذ ليس في كلامهم، وقرئ بالكسر والقصر. ﴿تَنبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي تنبت ملتبساً بالدهن ومستصحباً له، ويجوز أن تكون الباء صلة معدية لـ ﴿تَنبُتُ﴾ كما في قولك: ذهبت يزيد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب في رواية ﴿تَنبُتُ﴾ وهو إما من أنبت بمعنى

نبت كقول زهير:

رَأَيْتُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عِنْدَ بُيُوتِهِمْ قَطِينًا لَهُمْ حَتَّى أَتَبَتِ الْبَقْلُ

أو على تقدير «نبت» زيتونها ملتسباً بالدهن، وقرىء على البناء للمفعول وهو كالأول وتثمر بالدهن وتخرج بالدهن وتخرج الدهن وتنبت بالدهان. «وَصَيْنَعُ لِلْكَالِيلِ» معطوف على الدهن جار على إعرابه عطف أحد وصفي الشيء على الآخر أي: تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه إداماً يصنع فيه الخبز أي: يغمس فيه للاتخدام، وقرىء «وصباغ» كدباغ في دبغ.

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسَيِّئِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكِنَّ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾ تعتبرون بحالها وتستدلون بها. «تُسَيِّئُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا» من الألبان أو من العلف، فإن اللبن يتكون منه فمن للتبعض أو للإبتداء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب «تُسَيِّئُكُمْ» بفتح النون. «وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ» في ظهورها وأصوافها وشعورها. «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» فتنتفعون بأعيانها. «وَعَلَى الْفَلَكَ» وعلى الأنعام فإن منها ما يحمل عليه كالإبل والبقر، وقيل المراد الإبل لأنها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فإنها سفائن البر قال ذو الرمة:

سَفِينَةٌ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زَمَامُهَا

فيكون الضمير فيه كالضمير في «ويعولتهن أحق بردهن». «وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمَلُونَ» في البر والبحر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرِيصُوا بِهِ حَتَّىٰ جَاءَ جِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلى آخر القصص مسوق لبيان كفران الناس ما عدد عليهم من النعم المتلاحقة وما حاق بهم من زوالها. «مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» استئناف لتعليل الأمر بالعبادة، وقرأ الكسائي «غيره» بالجر على اللفظ. «أَفَلَا تَتَّقُونَ» أفلا تخافون. أن يزيل عنكم نعمه فيهلككم ويعذبكم برفضكم عبادته إلى عبادة غيره وكفرانكم نعمه التي لا تحصى.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الْأَشْرَافُ﴾ «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ» لعوامهم. «مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ» أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم. «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ» أن يرسل رسولا. «لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً» رسلا. «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ» يعنون نوحاً عليه السلام أي ما سمعنا به أنه نبي، أو ما كلمهم به من الحث على عبادة الله سبحانه وتعالى ونفي إله غيره، أو من دعوى النبوة وذلك إما لفرط عنادهم أو لأنهم كانوا في فترة متطاولة.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي جنون ولاجله يقول ذلك «فَنَرِيصُوا بِهِ» فاحتملوه وانتظروا. «حَتَّىٰ جَاءَ جِينٌ» لعله يفيق من جنونه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفَلَكَ يَا عَيْنُنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿قَالَ﴾ بعدما آيس من إيمانهم. ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإهلاكهم أو بإنجاز ما وعدتهم من العذاب. ﴿بِمَا كَذَّبُون﴾ بدل تكذيبهم إياي أو بسببه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بحفظنا نحفظه أن تخطيء فيه أو يفسده عليك مفسد. ﴿وَوَحَيْنَا﴾ وأمرنا وتعليمنا كيف تصنع. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالركوب أو نزول العذاب. ﴿وَفَارَ التَّوَرُّ﴾.

روي أنه قيل لنوح إذا فار الماء من التور اركب أنت ومن معك، فلما نبع الماء منه أخبرته امرأته فركب ومحلّه في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كنده. وقيل عين وردة من الشام وفيه وجوه آخر ذكرت في «هود». ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ فادخل فيها يقال سلك فيه وسلك غيره قال تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾. ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ من كل أمتي الذكر والأنثى واحد من مزدوجين، وقرأ حفص ﴿مِنْ كُلِّ﴾ بالتنوين أي من كل نوع زوجين واثنين تأكيد. ﴿وَأَهْلُكَ﴾ وأهل بيتك أو من آمن معك. ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي القول من الله تعالى بإهلاكه لكفره، وإنما جيء بعلی لأن السابق ضار كما جيء باللام حيث كان نافعاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ﴾. ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالدعاء لهم بالإنجا. ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ لا محالة لظلمهم بالإشراك والمعاصي، ومن هذا شأنه لا يشفع له ولا يشفع فيه كيف وقد أمره بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨) وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠).

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كقوله: ﴿فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

﴿وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي﴾ في السفينة أو في الأرض. ﴿مُنْزَلاً مُبَارَكاً﴾ يتسبب لمزيد الخير في الدارين على قراءة أبي بكر، وقرىء «منزلاً» بمعنى إنزالاً أو موضع إنزال. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ثناء مطابق لدعائه أمره بأن يشفعه به مبالغة فيه وتوسلاً به إلى الإجابة، وإنما أفرده بالأمر والمعلق به أن يستوي هو ومن معه إظهاراً لفضله وإشعاراً بأن في دعائه مندوحة عن دعائهم فإنه يحيط بهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما فعل بنوح وقومه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها ويعتبر أولو الاستبصار والاعتبار. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم، أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات ﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة.

﴿قَدْ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢).

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هم عاد أو ثمود.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هو هود أو صالح، وإنما جعل القرن موضع الإرسال ليدل على أنه لم يأتهم من مكان غير مكانهم وإنما أوحى إليه وهو بين أظهرهم. ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ تفسير لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَلَتَرْقَبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلَكُمْ بِأَكْلٍ وَمَا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ وَمَا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعله ذكر بالواو لأن كلامهم لم يتصل بكلام الرسول ﷺ بخلاف قول قوم نوح حيث استؤنف به، فعلى تقدير سؤال. ﴿وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بقاء ما فيها من الثواب والعقاب، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث ﴿وَأَتَرَفْنَاهُمْ﴾ ونعمناهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد. ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصفة والحالة. ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة و «ما» خبرية والعائد إلى الثاني منصوب محذوف أو مجرور حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه. ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ﴾ فيما يأمركم به. ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ حيث أذلتم أنفسكم، و ﴿إِذَا﴾ جزاء للشرط وجواب للذين قاولوهم من قومه.

﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردة عن اللحم والأعصاب. ﴿أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ من الأجداث أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود، و ﴿أَنْتُمْ﴾ تكرير للأول أكد به لما طال الفصل بينه وبين خبره، أو أنكم لمخرجون مبتدأ خبره الظرف المقدم، أو فاعل للفعل المقدر جواباً للشرط والجملة خبر الأول أي: أنكم إخراجكم إذا متم، أو أنكم إذا متم وقع إخراجكم ويجوز أن يكون خبر الأول محذوفاً لدلالة خبر الثاني عليه لا أن يكون الظرف لأن اسمه جثة. ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ﴾ بعد التصديق أو الصحة. ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أو بعدما توعدون، واللام للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل: فما له هذا الاستبعاد؟ قالوا ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾. وقيل ﴿هِيَاتَ﴾ بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوْعَدُونَ﴾، وقرئ بالفتح منوناً للتكثير، وبالضم منوناً على أنه جمع هيبة وغير منون تشبيهاً بقبل وبالكسر على الوجهين، وبالسكون على لفظ الوقف وبإبدال التاء هاء.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصله إن الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فأقيم الضمير مقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن التكرير وإشعاراً بأن تعينها مغن عن التصريح بها كقوله:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَلَتْهَا تَحْمِلُ

ومعناه لا حياة إلا هذه الحياة لأن ﴿إِنْ﴾ نافية دخلت على ﴿هِيَ﴾ التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فكانت مثل لا التي تنفي ما بعدها نفى الجنس. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت بعضنا ويولد بعض. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدعيه من إرساله له وفيما يعدنا من البعث. ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْحَنَنَّ لِلْبَرِّ نَارِينَ ﴿٤٠﴾ فَآخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَاءً فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم. ﴿بِمَا كَذَبُونَ﴾ بسبب تكذيبهم إياي.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ عن زمان قليل و «ما» صلة لتوكيد معنى القلة، أو نكرة موصوفة. ﴿لَيُضَيِّحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على التوكيد إذا عاينوا العذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فماتوا، واستدل به على أن القرن قوم صالح. ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالوجه الثابت الذي لا دافع له، أو بالعدل من الله كقولك فلان يقضي بالحق. أو بالوعد الصدق. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبههم في دمارهم بغثاء السيل وهو حميله كقول العرب: سال به الوادي، لمن هلك. ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل الإخبار والدعاء، وبعداً مصدر بعد إذا هلك، وهو من المصادر التي تنصب بأفعال لا يستعمل إظهارها، واللام لبيان من دعي عليه بالبعد، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ هي قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم. ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ الوقت الذي حد لها كها و «من» مزيدة للاستغراق. ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ الأجل.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد، والياء بدل من الواو كتولج وتيقور والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالتثنية على أنه مصدر بمعنى المواترة وقع حالاً، وأماله حمزة وابن عامر والكسائي. ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ إضافة الرسول مع الإرسال إلى المرسل ومع المجيء إلى المرسل إليهم لأن الإرسال الذي هو مبدأ الأمر منه والمجيء الذي هو انتهاء إليهم. ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾ في الإهلاك. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم نبق منهم إلا حكايات يسمر بها، وهو اسم جمع للحديث أو جمع أحداثه وهي ما يتحدث به تلهياً. ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا﴾ بالآيات التسع. ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ حجة واضحة ملزمة للخصم، ويجوز أن يراد به العصا وإفرادها لأنها أول المعجزات وأما، تعلقت بها معجزات شتى: كانقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة، وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها، وحراستها ومصيرها شجرة وخضراء مثمرة ورشاء ودلوا، وأن يراد به المعجزات وبالآيات الحجج وأن يراد بهما المعجزات فإنها آيات للنبوة وحجة بينة على ما يدعيه النبي ﷺ.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على الإيمان والمتابعة. ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبرين.

﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ﴾ ثنى البشر لأنه يطلق للواحد كقوله ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ كما يطلق للجمع كقوله: ﴿فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ ولم يثن المثل لأنه في حكم المصدر، وهذه القصص كما نرى تشهد بأن قصارى شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء على أحوالهم لما بينهم من المماثلة في الحقيقة وفساده يظهر للمستبصر

بأدنى تأمل، فإن النفوس البشرية وإن تشاركت في أصل القوى والإدراك لكنها متباينة الأقدام فيهما، وكما ترى في جانب النقصان أغبياء لا يعود عليهم الفكر برادة، يمكن أن يكون في طرف الزيادة أغنياء عن التفكير والتعلم في أكثر الأشياء وأغلب الأحوال، فيدركون ما لا يدرك غيرهم ويعلمون ما لا ينتهي إليه علمهم، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾ خادمون متقادون كالعباد.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعل بني إسرائيل، ولا يجوز عود الضمير إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وقومه لأن التوراة نزلت بعد إغراقهم. ﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارف والأحكام.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ بولادتها إياه من غير مسيس فالآية أمر واحد مضاف إليهما، أو ﴿جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ آية بأن تكلم في المهد وظهرت منه معجزات أخر ﴿وَأُمَّهُ﴾ آية بأن ولدت من غير مسيس فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها. ﴿وَأَوْنَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ أرض بيت المقدس فإنها مرتفعة أو دمشق أو رملة فلسطين أو مصر فإن قراها على الربي، وقرأ ابن عامر وعاصم بفتح الراء وقرىء «رَبَاوَةٌ» بالضم والكسر. ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقر من الأرض منبسطة. وقيل ذات ثمار وزروع فإن ساكنيها يستقرون فيها لأجلها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ وماء معين ظاهر جار، فعيل من معن الماء إذا جرى وأصله الإبعاد في الشيء، أو من الماعون وهو المنفعة لأنه نفاع، أو مفعول من عانه إذا أدركه بعينه لأنه لظهوره مدرك بالعيون وصف ماءها بذلك لأنه الجامع لأسباب التنزه وطيب المكان.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ نداء وخطاب لجميع الأنبياء لا على أنهم خطبوا بذلك دفعة لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهم خطب به في زمانه، فدخل تحته عيسى دخلاً أولاً ويكون ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيئة أسباب النعم لم تكن له خاصة، وأن إباحة الطيبات للأنبياء شرع قديم واحتجاجاً على الرهبانية في رفض الطيبات، أو حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقنّديا الرسل في تناول ما رزقا. وقيل النداء له وللفظ الجمع للتعظيم والطيبات ما يستلذ به من المباحات. وقيل الحلال الصافي القوام فالحلال ما لا يعصى الله فيه والصافي ما لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل. ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ أَمْثَلُكُمْ وَجِدَّةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ أي ولأن ﴿هذه﴾ والمعلل به ﴿فانتقون﴾، أو واعلموا أن هذه، وقيل إنه معطوف على ﴿ما تعملون﴾ وقرأ ابن عامر بالتخفيف والكوفيون بالكسر على الاستئناف. ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ملتكم ملة واحدة أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة ونصب ﴿أمة﴾ على الحال. ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ فذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾.

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فتقطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة، أو ففترقوا وتحزبوا وأمرهم منصوب بنزع الخافض أو التمييز، والضمير لما دل عليه الأمة من أربابها أولها. ﴿زُبُرًا﴾ قطعاً جمع زبور الذي بمعنى الفرقه ويؤيده القراءة بفتح الباء فإنه جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من الواو، أو مفعول ثان لتقطعوا فإنه متضمن معنى جعل. وقيل كتباً من زبرت الكتاب فيكون مفعولاً ثانياً، أو حالاً من أمرهم على تقدير مثل كتب، وقرئ بتخفيف الباء كرسل في «رسل». ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من المتحزبين. ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الدين. ﴿فَرِحُونَ﴾ معجبون معتقدون أنهم على الحق.

﴿فَلَذَرْنَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ في جهالتهم شبهها بالباء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها أو لاعبون بها، وقرئ في «غمراتهم». ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يقتلوا أو يموتوا.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ﴾ أن ما نعطيهم ونجعله لهم مدداً، ﴿مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ بيان لما وليس خيراً له، فإنه غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم خبره.

﴿نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والراجع محذوف والمعنى: أيحسبون أن الذي نمدهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بل هم كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج لا مسارعة في الخير، وقرئ «يمدهم» على الغيبة وكذلك «يسارع» و«يسرع» ويحتمل أن يكون فيهما ضمير الممد به و«يسارع» مبنياً للمفعول.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ من خوف عذابه. ﴿مُشْفِقُونَ﴾ حذرون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنصوبة والمنزلة. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بتصدق مدلولها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ شركاً جلياً ولا خفياً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ يعطون ما أعطوه من الصدقات، وقرئ «يأتون ما أتوا» أي يفعلون ما فعلوا من الطاعات. ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ خائفة أن لا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به. ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأن مرجعهم إليه، أو من أن مرجعهم إليه وهو يعلم ما يخفى عليهم.

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها، أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى: ﴿فَاتَّاهَمَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ فيكون إثباتاً لهم ما نفي عن أصدادهم. ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ لأجلها فاعلون سبق أو سابقون الناس إلى الطاعة أو الثواب أو الجنة، أو سابقونها أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا كقوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدر طاقتها يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على

النفوس. ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال. ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع. ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب أو نقصان ثواب.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب الكفرة. ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ في غفلة غامرة لها. ﴿مِنْ هَذَا﴾ من الذي وصف به هؤلاء أو من كتاب الحفظ. ﴿وَلَهُمْ أَغْمَالٌ﴾ خبيثة ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ متجاوزة لما وصفوا به أو متخطية عما هم عليه من الشرك. ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ معتادون فعلها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتَصِرُونَ﴾ (٦٤) لَا تَخْشَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا كُنَّا لَا نَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ متنعيمهم. ﴿بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر أو الجوع حين دعا عليهم الرسول ﷺ فقال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». ففحطوا حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرقة. ﴿إِذَا هُمْ يَخْأَرُونَ﴾ فاجأوا الصراخ بالاستغاثة، وهو جواب الشرط والجملة مبتدأ بعد حتى ويجوز أن يكون الجواب.

﴿لَا تَخْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ فإنه مقدر بالقول أي قيل لهم لا ﴿تَجَارُوا الْيَوْمَ﴾. ﴿إِنَّا كُنَّا لَا نَنْصُرُونَ﴾ تعليل للنهي أي لا تجاروا فإنه لا ينفعكم إذ لا تمنعون منا، أو لا يلحقكم نصر ومعونة من جهتنا.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ

﴿٦٧﴾

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني القرآن. ﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ تعرضون مدبرين عن سماعها وتصديقها والعمل بها، والنكوص الرجوع قهقري.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير للمبيت وشهرة استكبارهم وافتخارهم بأنهم قوامه أغنت عن سبق ذكره، أو لآياتي فإنها بمعنى كتابي والباء متعلقة بـ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأنه بمعنى مكذبين، أو لأن استكبارهم على المسلمين حدث بسبب استماعه أو بقوله: ﴿سَامِرًا﴾ أي تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه، وهو في الأصل مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة، وقرئ «سمرًا» جمع سامر ﴿تَهْجُرُونَ﴾ من الهجر بالفتح إما بمعنى القطيعة أو الهذيان، أي تعرضون عن القرآن أو تهذون في شأنه أو الهجر بالضم أي الفحش، ويؤيد الثاني قراءة نافع ﴿تهجرون﴾ من أهجر وقرئ «تهجرون» على المبالغة.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ

﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم بإعجاز لفظه ووضوح مدلوله. ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ من الرسول والكتاب، أو من الأمن من عذاب الله تعالى فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كإسماعيل وأعقابه فآمنوا به وكتبه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ بالأمانة والصدق وحسن الخلق وكمال العلم مع عدم التعلم إلى غير ذلك مما هو صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ دعواه لأحد هذه الوجوه إذ لا وجه له غيرها، فإن إنكار الشيء قطعاً أو ظناً إنما يتجه إذا ظهر امتناعه بحسب النوع أو الشخص أو بحث عما يدل عليه أقصى ما يمكن فلم يوجد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ فلا يبالون بقوله وكانوا يعلمون أنه ﷺ أرجحهم عقلاً وأدقهم نظراً. ﴿بَلْ جَاءَهُمْ

بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم فلذلك أنكروه، وإنما قيد الحكم بالأكثر لأنه كان منهم من ترك الإيمان استنكافاً من توبيخ قومه أو لقلّة فطنته وعدم فكرته لا كراهة للحق.

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٧١﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ بأن كان في الواقع آلهة شتى. ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ كما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقيل لو اتبع الحق أهواءهم وانقلب باطلاً لذهب ما قام به العالم فلم يبق، أو لو اتبع الحق الذي جاء به محمد ﷺ أهواءهم وانقلب شركاً لجاء الله بالقيامة وأهلك العالم من فرط غضبه، أو لو اتبع الله أهواءهم بأن أنزل ما يشتهونه من الشرك والمعاصي لخرج عن الألوهية ولم يقدر أن يمسك السموات والأرض وهو على أصل المعتزلة. ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ بالكتاب الذي هو ذكركم أي وعظهم أو صيتهم، أو الذكر الذي تمنوه بقولهم ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ﴾ وقرئ «بذكراهم». ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا يلتفتون إليه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجَاهُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٤﴾﴾

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ قيل إنه قسم قوله ﴿أَمْ بِهِ جَنَّةٌ﴾. ﴿خَرْجًا﴾ أجراً على أداء الرسالة. ﴿فَقَرْجَاهُ رَبِّكَ﴾ رزقه في الدنيا أو ثوابه في العقبى. ﴿خَيْرٌ﴾ لسعته ودوامه ففيه مندوحة لك عن عطائهم والخرج بإزاء الدخل يقال لكل ما تخرجه إلى غيرك، والخراج غالب في الضريبة على الأرض ففيه إشعار بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ ولذلك عبر به عن عطاء الله إياه، وقرأ ابن عامر «خرجاً فخرج» وحمزة والكسائي «خراجاً فخراج» للمزاوجة. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تقرير لخيرية خواجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة على استقامته لا عوج فيه يوجب اتهامهم له، واعلم أنه سبحانه ألزمهم الحجة وأزاح العلة في هذه الآيات بأن حصر أقسام ما يؤدي إلى الإنكار والانهزام وبين انتفاءها ما عدا كراهة الحق وقلة الفطنة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوعُ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ عن الصراط السوي. ﴿لَنُكَابُونَ﴾ لعادلون عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ يعني القحط. ﴿لَلَجُوعُ﴾ لبتوا واللجاج التماس في الشيء. ﴿فِي طُعْيَانِهِمْ﴾ إفراطهم في الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول والمؤمنين. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عن الهدى، روي أنهم قحطوا حتى أكلوا العلهز فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم أأست ترعّم أنك بعثت رحمة للعالمين قال: بلى فقال: قتل الأباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يعني القتل يوم بدر. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بل أقاموا على عتوهم

واستكبارهم، واستكان استفعل من الكون لأن المفتقر انتقل من كون إلى كون أو افتعل من السكون أشبعت فتحته. ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وليس من عاداتهم التضرع وهو استشهاد على ما قبله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوع فإنه أشد من القتل والأسر. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ متحIRON آيسون من كل خير حتى جاءك أعتاهم يستعطفك.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ لتحسوا بها ما نصب من الآيات. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتتفكروا فيها وتستدلوا بها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والدنيوية. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرونها شكراً قليلاً لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله، والإذعان لمانحها من غير إشراك و ﴿مَا﴾ صلة للتأكيد.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ خلقكم وبشكم فيها بالتناسل. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ويختص به تعاقبهما لا يقدر عليه غيره فيكون رداً لنسبته إلى الشمس حقيقة أو لأمره وقضائه تعاقبهما، أو انتقاص أحدهما وازدياد الآخر. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنظر والتأمل أن الكل منا وأن قدرتنا تعم الممكنات كلها وأن البعث من جملتها، وقرئ بالياء على أن الخطاب السابق لتغليب المؤمنين.

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿بَلْ قَالُوا﴾ أي كفار مكة. ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ آباؤهم ومن دان بدينهم. ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ استبعاداً ولم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك أيضاً تراباً فخلقوا.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ إلا أكاذيبهم التي كتبوها، جمع أسطورة لأنه يستعمل فيما يتلوه به كالأعاجيب والأصاحيك. وقيل جمع أسطار جمع سطر.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم أو من العالمين بذلك، فيكون استهانة بهم وتقريراً لفرط جهالتهم حتى جهلوا مثل هذا الجلي الواضح إلزاماً بما لا يمكن لمن له مسكة من العلم إنكاره، ولذلك أخبر عن جوابهم قبل أن يجيبوا فقال.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطربهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها. ﴿قُلْ﴾ أي بعد ما قالوه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من فطر الأرض ومن فيها ابتداء قادر على إيجادها ثانياً، فإن بدء الخلق ليس أهون من إعادته. وقرئ «تذكرون» على الأصل.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِيعِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا لَنُقُوتَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَلَا يُكْفِرُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى

تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فإنها أعظم من ذلك . ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بغير لام فيه وفيما بعده على ما يقتضيه لفظ السؤال . ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ولا تنكروا قدرته على بعض مقدوراته .

﴿قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ملكه غاية ما يمكن وقيل خزائنه . ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ يغيث من يشاء ويحرسه . ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ ولا يغاث أحد ولا يمنع منه ، وتعديته يعلى لتضمن معنى النصرة . ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ فمن أين تخدعون فتصرفون عن الرشد مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة .

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ .

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾ من التوحيد والوعد بالنشور . ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث أنكروا ذلك .

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد . ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يساهمه في الألوهية . ﴿إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ جواب محاجتهم وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه ، أي لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين وظهر بينهم التحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا ، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء واللازم باطل بالإجماع والاستقراء وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد . ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساد .

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبر مبتدأ محذوف وقد جره ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة ، وهو دليل آخر على نفي الشريك بناء على توافقهم في أنه المنفرد بذلك ولهذا رتب عليه . ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء .

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ .

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي﴾ إن كان لا بد من أن تريني لأن ما والنون للتأكيد . ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب في الدنيا والآخرة .

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قريباً لهم في العذاب ، وهو إما لهضم النفس أو لأن شؤم الظلمة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ عن الحسن أنه تعالى أخبر نبيه عليه السلام أنه له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء ، وتصدير كل واحد من الشرط والجزاء به فضل تضرع وجوار .

﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ لكننا نؤخره علمنا بأن بعضهم أو بعض أعقابهم يؤمنون ، أو لأننا لا نعذبهم وأنت فيهم ، ولعله رد لإنكارهم الموعود واستعجالهم له استهزاء به . وقيل قد أراه : وهو قتل بدر أو فتح مكة .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ .

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ وهو الصفح عنها والإحسان في مقابلتها لكن بحيث لم يؤد إلى وهن في الدين. وقيل هي كلمة التوحيد والسيئة الشرك. وقيل هو الأمر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ بما يصفونك به أو بوصفهم إياك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم فكل إلينا أمرهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ وسأوسهم، وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرافض، شبه حثهم الناس على المعاصي بهمز الرافضة للدواب على المشي والجمع للمرات أو لتنوع الوسوس أو لتعدد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ يحوموا حولي في شيء من الأحوال، وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل لأنها أخرى الأحوال بأن يخاف عليه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ .

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ متعلق بـ ﴿يَصِفُونَ﴾، وما بينهما اعتراض لتأكيد الإغضاء بالاستعاذة بالله من الشيطان أن يزله عن الحلم ويغريه على الانتقام أو بقوله ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. ﴿قَالَ﴾ تحسراً على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة لما اطلع على الأمر. ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ردوني إلى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب. وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قفا وأطرقا.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الإيمان الذي تركته أي لعلي آتي الإيمان وأعمل فيه، وقيل في المال أو في الدنيا. وعنه عليه الصلاة والسلام «قال إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أترجعك إلى الدنيا، فيقول إلى دار الهموم والأحزان بل قدوماً إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول رب ارجعون». ﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ معنى قوله ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الخ، والكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض. ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ لا محالة لتسلط الحسرة عليه. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أمامهم والضمير للجماعة. ﴿بَرْزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلي عن الرجوع إلى الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلى الدنيا وإنما الرجوع فيه إلى حياة تكون في الآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لقيام الساعة والقراءة بفتح الواو وبه وبكسر الصاد يؤيد أن ﴿الصُّور﴾ أيضاً جمع الصورة. ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التعاطف والتراحم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنه أو يفتخرون بها. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما يفعلون اليوم. ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولا يسأل بعضهم بعضاً لاشتغاله بنفسه، وهو لا يناقض قوله ﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لأنه عند النفخة وذلك يعد المحاسبة، أو دخول أهل الجنة الجنة والنار النار.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موزونات عقائده وأعماله، أي فمن كانت له عقائد وأعمال صالحة يكون لها وزن عند الله تعالى وقدر. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والدرجات.

﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ومن لم يكن له ما يكون له وزن، وهم الكفار لقوله تعالى: ﴿فَلَا نَقِيم لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وزناً﴾. ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ غبنوها حيث ضيعوا زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ بدل من الصلة أو خبر ثان «لأولئك».

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١١٥) ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَانِي تَتْلَى عَلَيْكَ فَكُنتَ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١١٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١١٦).

﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ تحرقها واللفح كالنفخ إلا أنه أشد تأثيراً. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان، وقرئ «كلحون».

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَانِي تَتْلَى عَلَيْكَ﴾ على إضمار القول أي يقال لهم «ألم تكن» ﴿فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيب وتذكير لهم بما استحقوا هذا العذاب لأجله.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ملكتنا بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة، وقرأ حمزة والكسائي «شقاوتنا» بالفتح كالسعادة وقرئ بالكسر كالكتابة. ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الحق.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١١٧) ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١١٨).

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب. ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا﴾ اسكتوا سكوت هوان في النار فإنها ليست مقام سؤال من خسأت الكلب إذا زجرته فخساً. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب أو لا تكلمون رأساً. قيل إن أهل النار يقولون ألف سنة: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، فيجابون ﴿حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ﴾، فيجابون ﴿ذَلِكَ بِمَا عَدَى إِلَهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ فيقولون ألفاً ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْبُكَ﴾، فيجابون ﴿إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾، فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، فيجابون ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾، فيقولون ألفاً ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، فيجابون ﴿أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ﴾ فيقولون ألفاً ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، فيجابون ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ ثم لا يكون لهم فيها إلا زفير وشهيق وعواء.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١٢٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (١٢١).

﴿إِنَّهُ﴾ إن الشأن وقرئ بالفتح أي لأنه. ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ يعني المؤمنين، وقيل الصحابة وقيل أهل الصفة. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هزواً وقرأ نافع وحمزة والكسائي هنا وفي «ص» بالضم، وهما مصدر سخر زيدت فيهما ياء النسب للمبالغة، وعند الكوفيين المكسور بمعنى الهزء والمضموم من السخرة بمعنى الانقياد والعبودية. ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم فلم تخافوني في أوليائي. ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاء بهم.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم. ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به، وهو ثاني مفعولي «جزيتهم». وقرأ حمزة والكسائي بالكسر استئنافاً.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي الله أو الملك المأمور بسؤالهم، وقرأ ابن كثير وحزمة والكسائي على الأمر للملك أو لبعض رؤساء أهل النار. ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أحياء أو أمواتاً في القبور. ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لكم.

﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدة لبئهم فيها بالنسبة إلى خلودهم في النار، أو لأنها كانت أيام سرورهم وأيام السرور قصار، أو لأنها منقضية والمنقضي في حكم المعدوم. ﴿فَأَسْأَلِ الْعَادِينَ﴾ الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيقها فإننا لما نحن فيه من العذاب مشغولون عن تذكرها وإحصائها، أو الملائكة الذين يعدون أعمار الناس ويحصون أعمالهم. وقرئ «العادين» بالتخفيف أي الظلمة فإنهم يقولون ما نقول، و «العادين» أي القدماء المعمرين فإنهم أيضاً يستقصرون.

﴿قَالَ﴾ وفي قراءة حمزة والكسائي «قل». ﴿إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تصديق لهم في

مقالهم.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخ على تغافلهم، و «عبثاً» حال بمعنى عابثين أو مفعول له أي: لم نخلقكم تلهياً بكم وإنما خلقناكم لتعبدكم ونجازيكم على أعمالكم وهو كالدليل على البعث. ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على «أنما خلقناكم» أو «عبثاً»، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ الذي يحق له الملك مطلقاً فإن من عداه مملوك بالذات مالك بالعرض من وجه دون وجه وفي حال دون حال. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإن ما عداه عبيد له. ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ الذي يحيط بالأجرام وينزل منه محكمات الأقضية والأحكام، ولذلك وصفه بالكرم أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين. وقرئ بالرفع على أنه صفة الرب.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبد إفراداً أو إشراكاً. ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفة أخرى لـ «إلهاً» لازمة له فإن الباطل لا برهان به، جيء بها للتأكيد وبناء الحكم عليه تنبيهاً على أن التدين بما لا دليل عليه ممنوع فضلاً عما دل الدليل على خلافه، أو اعتراض بين الشرط والعجز لذلك: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فهو مجاز له مقدار ما يستحقه. ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ إن الشأن وقرئ بالفتح على التعليل أو الخبر أي حسابه عدم الفلاح. بدأ السورة بتقرير فلاح المؤمنين وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه فقال:

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت». وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ «قد أفلح المؤمنون» حتى ختم العشر». وروي «أن أولها وآخرها من كنوز الجنة، من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح».

(٢٤) سورة النور

مجدنية وهي أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١)

﴿سورة﴾ أي هذه سورة أو فيما أوحينا إليك سورة. ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ صفتها ومن نصيها جعله مفسراً لناصبها فلا يكون له محل إلا إذا قدر اتل أو دونك نحوه ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها أو المفروض عليهم، أو للمبالغة في إيجابها. ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم وقرئ بتخفيف الذال.

﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

﴿الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أو فيما فرضنا أو أنزلنا حكمهما وهو الجلد، ويجوز أن يرفعا بالإبتداء والخبر: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاء لتضمنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي، وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من نصب سورة لأجل الأمر والزان بلا ياء، وإنما قدم ﴿الرَّائِيَةُ﴾ لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها، والجلد ضرب الجلد وهو حكم يخص بمن ليس بمحصن لما دل على أن حد المحصن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريب الحر سنة لقوله عليه الصلاة والسلام «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدهما الآخر نسخاً مقبولاً أو مردوداً، وله في العبد ثلاثة أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلام أيضاً وهو مردود برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين، ولا يعارضه «من أشرك بالله فليس بمحصن» إذ المراد بالمحصن الذي يقتض له من المسلم. ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ في طاعته وإقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها». وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة وقرئت بالمد على فعالة. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجِد في طاعة الله تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهيج. ﴿وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ زيادة في التنكيل فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب، وال «طائفة» فرقة يمكن أن تكون حافة حول شيء من الطوف وأقلها ثلاثة وقيل واحداً واثناً، والمراد جمع يحصل به التشهير.

﴿الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

﴿الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالب أن المائل إلى الزنا

لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافحة لا يرغب فيها الصالحاء، فإن المشاكلة علة للألفة والتضام، والمخالفة سبب للنفرة والافتراق. وكان حق المقابلة أن يقال والزانية لا تنكح إلا من هو زان أو مشرك. لكن المراد بيان أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما هموا أن يتزوجوا بغايا يكرين أنفسهن ليفتن عليهن من أكسابهن على عادة الجاهلية ولذلك قدم الزاني. «وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» لأنه تشبه بالفساق وتعرض للتهمة وتسبب لسوء القالة والظعن في النسب وغير ذلك من المفاسد، ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة. وقيل النفي بمعنى النهي، وقد قرئ به والحرمة على ظاهرها والحكم مخصوص بالسبب الذي ورد فيه، أو منسوخ بقوله: «وَأَنْكَحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ» فإنه يتناول المسافحات، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال»، وقيل المراد بالنكاح الوطء فيؤول إلى نهى الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانية أن يزني بها إلا زان وهو فاسد.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذفونهن بالزنا لوصف المقدوفات بالإحصان، وذكرهن عقيب الزواني واعتبار أربعة شهداء بقوله: «ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً» والقذف بغيره مثل يا فاسق ويا شارب الخمر يوجب التعزير كقذف غير المحصن، والإحصان ها هنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى، وتخصيص «المحصنات» لخصوص البواقة أو لأن قذف النساء أغلب وأشنع، ولا يشترط اجتماع الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادة زوج المقدوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربه أخف من ضرب الزنا لضعف سببه واحتماله ولذلك نقص عدده. «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً» أي شهادة كانت لأنه مفتر، وقيل شهادتهم في القذف ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجلد خلافاً لأبي حنيفة فإن الأمر بالجلد والنهي عن القبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيب بينهما فيترتان عليه دفعة، كيف وحاله قبل الجلد أسوأ مما بعده. «أَبَدًا» ما لم يتب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. «وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» المحكوم بفسقهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن القذف. «مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا» أعمالهم بالتدارك، ومنه الاستسلام للحد أو الاستحلال من المقدوف، والاستثناء راجع إلى أصل الحكم وهو اقتضاء الشرط لهذه الأمور ولا يلزمه سقوط الحد به كما قيل، لأن من تمام التوبة الاستسلام له أو الاستحلال ومحل المستثنى النصب على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحل الجرح على البذل من هم في لهم، وقيل إلى الأخيرة ومحل النصب لأنه من موجب وقيل منقطع متصل بما بعده. «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» علة للاستثناء.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) وَالْخَوَاسَةُ أَنَّ لَعَنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بن أمية رأى رجلاً على فراشه، وأنفسهم بدل من شهداء أو صفة لهم على أن إلا بمعنى غير. «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» فالواجب شهادة أحدهم أو فعليهم شهادة أحدهم، و «أربع» نصب على المصدر وقد رفعه حمزة والكسائي وحفص على أنه خبر «شهادة». «بِاللَّهِ» متعلق بشهادات لأنها أقرب وقيل بشهادة لتقدمها. «إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحذف الجار وكسرت إن وعلق العامل عنه باللام تأكيداً.

﴿وَالْخَامِسَةُ﴾ والشهادة الخامسة. ﴿أَنْ لَعَنْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في الرمي هذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه، وحصول الفرقة بينهما بنفسه فرقة فسخ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً». وتفريق الحاكم فرقة طلاق عند أبي حنيفة ونفي الولد أن تعرض له فيه وثبوت حد الزنا على المرأة لقوله.

﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠).

﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ﴾ أي الحد. ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في ذلك ورفع الخامسة بالإبتداء وما بعدها الخبر أو بالعطف على أن تشهد، ونصبها حفص عطفاً على «أربع». وقرأ نافع ويعقوب «أن لعنة الله» و «أن غضب الله» بتخفيف النون فيهما وكسر الضاد وفتح الباء من «غضب» ورفع الهاء من اسم «الله»، والباقون بتشديد النون فيهما ونصب التاء وفتح الضاد وجر الهاء.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروك الجواب للتعظيم أي لفضلكم وعاجلكم بالعقوبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الإفك، وهو الصرف لأنه قول مأفوك عن وجهه، والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله تعالى عنها. وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلة في القفول بالرحيل، فمشت لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جرع ظفار قد انقطع، فرجعت لتلتزمه فظن الذي كان يرحلها أنها دخلت اليهودج فرحله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمة أحداً فجلست كي يرجع إليها منشداً، وكان صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه قد عرس وراء الجيش فأدلى ف أصبح عند منزلها فعرّفها فأناخ راحلته فركبتها فقادها حتى أتيا الجيش فاتهمت به. «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» جماعة منكم وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبد الله بن أبي، وزيد بن رفاع، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم، وهي خبر إن وقوله: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ» مستأنف والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم والهاء للإفك. «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله بإنزال ثمانين عشرة آية في براءتكم، وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيراً. «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ» لكل جزء ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به. «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ» معظمه وقرأ يعقوب بالضم وهو لغة فيه. «مِنْهُمْ» من الخائضين وهو ابن أبي فإنه بدأ به وأذاعه عداوة لرسول الله ﷺ، أو هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاء بالتصريح به «وَالَّذِي» بمعنى الذين. «لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة أو في الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسان أعمى أشل اليدين، ومسطح مكفوف البصر.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣).

﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾. وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذبح الطاعنين عنهم كما يذّبونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصل بين ﴿لَوْلَا﴾ وفعله بالظرف لأنه منزل منزلة من حيث إنه لا ينفك عنه وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكر الظرف أهم فإن التحضيض على أن لا يخلوا بأوله. ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقن المطلع على الحال.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً فإن ما لا حجة عليه كذب عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (١٥).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿ورحمته﴾ في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِيمَا أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقرونه اللوم والجلد.

﴿إِذْ﴾ ظرف ﴿لمسكم﴾ أو ﴿أفضتم﴾. ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه يقال تلقى القول كتلقفه وتلقته، قرء «تلقونه» على الأصل و «تلقونه» من لقيه إذا لقفه و «تلقونه» بكسر حرف المضارعة و «تلقونه» من إلقائه بعضهم على بعض، و «تلقونه» و «تلقونه» من الألق والألق وهو الكذب، و «تلقونه» من ثقفته إذا طلبته فوجدته و «تلقونه» أي تتبعونه. ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعه له. ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستجرار العذاب، فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم، تلقي الإفك بالسننهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك وهو عند الله عظيم.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) وَيَسِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٨).

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارة إلى القول المخصوص وأن تكون إلى نوعه، فإن قذف آحاد الناس محرم شرعاً فضلاً عن تعرض الصديقة ابنة الصديق حرمة رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تعجب من ذلك الإفك أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يذكر عند كل متعجب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله ثم كثر فاستعمل لكل متعجب، أو تنزيه لله تعالى من أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها ينفر عنه ويخل بمقصود الزواج بخلاف كفرها فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ كراهة أن تعودوا أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمت أحياء مكلفين. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه وفيه تهيج وتقرير.

﴿وَيَسِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيرها ولا يجوز الكشخة على نبيه ولا يقرره عليها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾ أن تنتشر ﴿الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بالجد والسعي إلى غير ذلك. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهر والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عظم الجريمة ولذا عطف قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمته عليهم وحذف الجواب وهو مستغنى عنه بذكره مرة.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١) .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ بإشاعة الفاحشة، وقرئ بفتح الطاء وقرأ نافع والبرقي وأبو عمرو وأبو بكر وحزمة بسكونها. ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بيان لعله النهي عن اتباعه، و «الفحشاء» ما أفرط قبحه، و «المنكر» ما أنكره الشرع. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿مَا زَكَا﴾ ما طهر من دنسها. ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخر الدهر. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ بحمله على التوبة وقبولها. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لمقالهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢) .

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلف افتعال من الآلية، أو ولا يقصر من الألو، ويؤيد الأول أنه قرئ «يأتل». وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين. ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ في الدين. ﴿وَالسَّعَةِ﴾ في المال. وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرفه رضي الله تعالى عنه. ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ على أن لا «يؤتوا»، أو في «أن يؤتوا». وقرئ بالناء على الالتفات. ﴿أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مقامها فيكون أبلغ في تعليل المقصود. ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ عما فرط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغماض عنه. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوك وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال: بلى أحب ورجع إلى مسطح نفقته.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَنْهُمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفاف. ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عما قذفن به. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بالله وبرسوله استباحة لعرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أبي. ﴿لَعَنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم، وقيل هو حكم كل قاذف ما لم يتب، وقيل مخصوص بمن قذف أزواج النبي ﷺ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله تعالى عنها.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ ظرف لما في لهم من معنى الاستقرار لا للعذاب لأنه موصوف، وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها وفي ذلك مزيد تهويل للعذاب.

﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ﴾ جزاءهم المستحق. ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمر. ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ الثابت بذاته الظاهر ألوهيته لا يشاركه في ذلك غيره ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البين أي العادل الظاهر عدله ومن كان هذا شأنه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦).

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي الخباثت يتزوجن الخباثت وبالعكس وكذلك أهل الطيب فيكون كالدليل على قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني أهل بيت النبي ﷺ أو الرسول وعائشة وصفوان رضي الله تعالى عنهم. ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته عليه السلام ولم يقرر عليها، وقيل ﴿الخبثات﴾ و﴿الطيبات﴾ من الأقوال والإشارة إلى «الطيبين» والضمير في ﴿يقولون﴾ للأكفين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم أو «للخبثين» و «الخبثات» أي مبرؤون من أن يقولوا مثل قولهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة رضي الله عنها بهذه الآيات الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصب الرسول ﷺ وإعلاء منزلته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكنونها فإن الآجر والمعير أيضاً لا يدخلان إلا بإذن. ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ تستأذنون من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس الشيء إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش فإن المستأذن مستوحش خائف أن لا يؤذن له فإذا له استأنس، أو تتعرفوا هل ثم إنسان من الآنس. ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أدخل. وعنه عليه الصلاة والسلام «التسليم أن يقول السلام عليكم، أدخل؟ ثلاث مرات، فإن أذن له دخل وإلا رجع». ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي الاستئذان أو التسليم خير لكم من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال: حبيتم صباحاً أو حبيتم مساء ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ «أستأذن على أمي، قال: نعم، قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت، قال: أتحب أن تراها عريانة، قال: لا، قال: فاستأذن». ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف أي أنزل عليكم، أو قيل لكم هذا إرادة أن تذكروا

وتعملوا بما هو أصلح لكم.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذن لكم. ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يأتي من يأذن لكم فإن المانع من الدخول ليس الاطلاع على العورات فقط بل وعلى ما يخفيه الناس عادة مع أن التصرف في ملك الغير بغير إذنه محظور، واستثنى ما إذا عرض فيه حرق أو غرق أو كان فيه منكر ونحوها. ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تلحوا. ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ الرجوع أظهر لكم عما لا يخلو الإلحاح والوقوف على الباب عنه من الكراهة وترك المروءة، أو أنفع لدينكم ودنياكم. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالربط والحوانيت والخانات والخانقات. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَكُمْ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناء من الحكم السابق لشموله البيوت المسكونة وغيرها. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لمن دخل مدخلا لفساد أو تطلع على عورات.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْعَوْنَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي ما يكون نحو محرم. ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، ولما كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغض أطلقه وقيد الغض بحرف التبعيض، وقيل حفظ الفروج ها هنا خاصة سترها. ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ أنفع لهم أو أظهر لما فيه من البعد عن الريبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجماله أبصارهم واستعمال سائر حواسهم وتحريك جوارحهم وما يقصدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيَّاتِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال. ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاوله الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حرجاً، وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجه والكفان لأنها ليست بعورة والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة

وَتَحْمِلُ الشَّهَادَةَ. ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ستراً لأعناقهن. وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو وهشام بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرره لبيان من يحل له الإبداء ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكره. ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وإنما لم يذكر الأعمام والأخوال لأنهم في معنى الإخوان أو لأن الأحوط أن يستترن عنهم حذراً أن يصفوهن لأبنائهم ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ يعني المؤمنات فإن الكافرات لا يتحرجن عن وصفهن للرجال أو النساء كلهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعم الإماء والعبيد، لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب، إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها وإذا غطت رجلها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلارك». وقيل المراد بها. الإماء وعبد المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْزَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الهام والممسوحون، وفي المصنوع والخلفي خلاف وقيل البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء، وقرأ ابن عامر وأبو بكر غير بالنصب على الحال. ﴿أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الإطلاع، أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ليتحقق خلخالها فيعلم أنها ذات خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلوا أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه، في الجاهلية فإنه وإن جب بالإسلام لكنه يجب الندم عليه والعزم على الكف عنه كلما يتذكر، وقرأ ابن عامر «أيه المؤمنون» وفي «الزخرف» ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ وفي «الرحمن» ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء في الوصل في الثلاثة والباقيون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالآلف، ووقف الباقيون بغير الآلف. ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ إن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ لما نهى عما عسى أن يفضي إلى السفاح المخل بالنسب المقتضي للآلفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغة فيه عقبه بأمر النكاح الحافظ له والخطاب للأولياء والسادة، وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعار بأن المرأة والعبد لا يستبدان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولى، و «أيامى» مقلوب أيام كيتامى، جمع أيم وهو العزب ذكراً كان أو أنثى بكرة كان أو ثيباً قال:

فَإِنْ تَنَكَّحَنِى أَنْكِحْ وَإِنْ تَنَأَيْمَنِى وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَىٰ مِنْكُمْ أَتَأَيَّمْ

وتخصيص «الصالحين» لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه، ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ رد لما عسى أن يمنع من النكاح، والمعنى لا يمنع فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غنية عن المال فإنه غاد ورائح، أو وعد من الله بالإعانة لقوله ﷺ «اطلبوا الغنى في هذه الآية». لكن مشروط بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةَ فَسَوْفَ يَغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾. «والله واسع» ذو سعة لا تنفد نعمته إذ لا تنتهي قدرته. ﴿عَلِيمٌ﴾ ييسط الرزق ويقدر على ما تقتضيه حكمته.

﴿وَلَيْسَتَعْفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْغَلَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا لِّبَنَاتِكُمْ أَلْفَاؤُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَيْسَتَعْفِيفَ﴾ وليجتهد في العفة وقمع الشهوة. ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به أو بالوجدان التمكن منه. ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ المكاتبه وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبك على كذا من الكتاب لأن السيد كتب على نفسه عتقه إذا أدى المال، أو لأنه مما يكتب لتأجيله أو من الكتب بمعنى الجمع لأن العوض فيه يكون منجماً بنجوم بضم بعضها إلى بعض. ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ عبداً كان أو أمة والموصول بصلته مبتدأ خبره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أو مفعول لمضمر هذا تفسيره والفاء لتضمن معنى الشرط، والأمر فيه للندب عند أكثر العلماء لأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها واحتجاج الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيف لأن المطلق لا يعم مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السلم فيما لا يوجد عند المحل. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمانة وقدرة على أداء المال بالاحتراف، وقد روي مثله مرفوعاً. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالا وضعفه ظاهر لفظ ومعنى وهو شرط الأمر فلا يلزم من عدمه عدم الجواز. ﴿وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أمر للموالي كما قبله بأن يبدلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حظ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر وكفي أقل ما يتمول. وعن علي رضي الله تعالى عنه يحط الربع، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث، وقيل ندب لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يؤدوا ويعتقوا، وقيل أمر لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة ويحل للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة «هو لها صدقة ولنا هدية». ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾ إماءكم. ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ على الزنا، كانت لعبد الله بن أبي ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن الضرائب فشكا بعضهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت. ﴿إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا﴾ تعففاً شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي بامتناع المنهي عنه، وإيثار إن على إذا لأن إرادة التحصن من الإماء كالشاذ النادر. ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لهن أوله إن تاب، والأول أوفق للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: من بعد إكراههن لهن غفور رحيم ولا يرد عليه أن المكروه غير آثم فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراه لا ينافي المؤاخذه بالذات ولذلك حرم على المكروه القتل وأوجب عليه القصاص.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ يعني الآيات التي بينت في هذه السورة وأوضحت فيها الأحكام والحدود، وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي «الطلاق» لأنها واضحات تصدقها الكتب المتقدمة والعقول المستقيمة من بين بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكام والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو مثلاً من أمثال من قبلكم أي وقصة عجيبة مثل قصصهم، وهي قصة عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسف ومريم. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وعظ به في تلك الآيات، وتخصيص المتقين لأنهم المتفعون بها؛ وقيل المراد بالآيات القرآن والصفات المذكورة صفاته.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا

كَوْكَبٌ ذُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَضَرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر المبصرات كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرم بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منور السموات والأرض وقد قرئ به فإنه تعالى نورهما بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء. أو مدبرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور. أو موجدهما فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره وأصل الظهور هو الوجود كما أن أصل الخفاء هو العدم، والله سبحانه وتعالى موجود بذاته موجد لما عده. أو الذي به تدرك أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات، وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقتها فهي إذن من سبب يفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سماها أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصور الإدراكات عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن، وإضافته إلى ضميره سبحانه وتعالى دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره. ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكوة الغير النافذة. وقرأ الكسائي برواية الدوري بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأنوية في وسط القنديل والمصباح القتيلة المشتعلة. ﴿الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾ في قنديل من الزجاج. ﴿الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ ذُرِّيٌّ﴾ مضيء متلألئ كالزهرة في صفاته وزهرته منسوب إلى الدرة وفعل كمرق من الدرة فإنه يدفع الظلام بضوئه، أو بعض ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قلبت همزته ياء ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي «درى» كشريب وقد قرئ به مقلوباً. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداء ثقب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت ذبالبته بزيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتونة عنها تفخيم لشأنها، وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أوقد وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى ﴿الرُّجَاةِ﴾ بحذف المضاف، وقرئ «توقد» من تتوقد ويوقد بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب. ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى تكون على قلة، أو صحراء واسعة فإن ثمرتها تكون أنضج وزيتها أصفى، أو لا نابتة في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام فإن زيتونه أجود الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائماً فتحرقها أو في مقيأة تغيب عنها دائماً فتركها نيئاً وفي الحديث «لا خير في شجرة ولا نبات في مقيأة ولا خير فيهما في مضحى». ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألئه وفرط وبيصه. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل وضبط المشكاة لأشعته، وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دلت عليه الآيات المبينات في جلاء مدلولها وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوظ بظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإنما ولي الكاف المشكاة لاشتمالها عليه، وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس، أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي: «مثل نور المؤمن»، أو تمثيل لما منح الله به عباده من القوى الداركة الخمس المترتبة التي منوط بها المعاش والمعاد وهي: الحساسة التي تدرك بها المحسوسات

بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صور تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائق الكلية، والمفكرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم، والقوة القدسية التي تتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: «المشكاة»، و «الزجاجة»، و «المصباح»، و «الشجرة»، و «الزيت»، فإن الحساسة كالمشكاة لأن محلها كالكوى ووجهها إلى الظاهر لا تدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارف الإلهية، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها الزيتونة المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصابيح التي لا تكون شرقية ولا غربية لتجردها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة في القبيلين منتفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم مستعدة لقبولها كالمشكاة، ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متألثة في نفسها قابلة للأنوار، وذلك التمكن إن كان بفكر واجتهاد فكالمشكاة الزيتونة وإن كان بالحدس فكالزيت، وإن كان بقوة قدسية فكالتى يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إن العقول تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ لهذا النور الثاقب. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية إذ بها تمامها. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إثناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولا كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعد ووعد لمن تدبرها ولمن لم يكثر بها.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٢٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٢٧) لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٨)﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بعض بيوت فيكون تقييد للممثل به بما يكون تحبيراً ومبالغة فيه فإن قناديل المساجد تكون أعظم، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانهم بالمساجد، ولا ينافي جمع البيوت وحدة المشكاة إذ المراد بها ماله هذا الوصف بلا اعتبار وحدة ولا كثرة أو بما بعده وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد لا يبيد ذكر لأنه من صلة أن لا فلا يعمل فيما قبله أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمراد بها المساجد لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجد الثلاثة والتكبير للتعظيم. ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ عام فيما يتضمن ذكره حتى المذاكرة في أفعاله والمباحثة في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ينزهونه أي يصلون له فيها بالغدوات والعشيات، والغدو مصدر أطلق للوقت ولذلك حسن اقترانه بالآصال وهو جمع أصيل، وقرئ «والإبصال» وهو الدخول في الأصيل وقرأ ابن عامر وأبو بكر «يسبح» بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرئ تسبح بالياء مكسوراً لتأنيث الجمع ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملة رابحة. ﴿وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ مبالغة بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مطلق المعارضة، أو بإفراد ما هو الأهم من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويتوقع بالشراء، وقيل المراد بالتجارة الشراء فإنه أصلها ومبدؤها، وقيل الجلب لأنه الغالب فيها ومنه يقال

تجر في كذا إذا جلبه وفيه إيماء بأنهم تجار. ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ عوض فيه الإضافة من التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال كقوله:

وَأَخْبَلْتُوكَ عَدَّ الْأَمْرِ السَّيِّئِ وَعَدُّوا

﴿وَإِتْيَاءَ الزَّكَاةِ﴾ ما يجب إخراجه من المال للمستحقين. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة. ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالها فتفقه القلوب ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصار ما لم تكن تبصر، أو تتقلب القلوب مع توقع النجاة وخوف الهلاك والأبصار من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى كتابهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون. ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أحسن جزاء ما عملوا الموعود لهم من الجنة. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أشياء لم يعدهم بها على أعمالهم ولم تخطر ببالهم. ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقرير للزيادة وتنبه على كمال القدرة ونفاذ المشيئة وسعة الإحسان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالهم على ضد ذلك فإن أعمالهم التي يحسبونها صالحة نافعة عند الله يجدونها لأغية مخيبة في العاقبة كالسراب، وهو ما يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أي يجزي، والقيعة بمعنى القاع وهو الأرض الخالية عن النبات وغيره المستوية، وقيل جمعه كجار وجيرة. وقرئ «بقيعات» كديمات في ديمة. ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾ أي العطشان وتخصيصه لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند ميسيس الحاجة. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ﴾ جاء ما توهمه ماء أو موضعه. ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مما ظنه. ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ عقابه أو زبانيته أو وجده محاسباً إياه. ﴿فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ استعراضاً أو مجازاة. ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب. روي أنها نزلت في عتبة ابن ربيعة بن أمية تعبد في الجاهلية والتمس الدين فلما جاء الإسلام كفر.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدُرْهُنَّ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٤٠).

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على «كسراب» و «أو» للتخيير فإن أعمالهم لكونها لأغية لا منفعة لها كالسراب، ولكونها خالية عن نور الحق كالظلمات المتراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب، أو للتنوع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحة فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة. ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ ذي لج أي عميق منسوب إلى اللج وهو معظم الماء. ﴿يَغْشَاهُ﴾ يغشى البحر. ﴿مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي أمواج مترادفة متراكمة. ﴿مِنْ فَوْقِهِ﴾ من فوق الموج الثاني. ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجوم وحجب أنوارها، والجملة صفة أخرى للـ «بحر». ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ أي هذه ظلمات. ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير «ظلمات» بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة الـ «سحاب» إليها في رواية البرزي. ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُمُ﴾ وهي أقرب ما يرى إليه. ﴿لَمْ يَكْدُرْهُنَّ﴾ لم يقرب أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة:

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكْدُرْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ

والضمائر للواقع في البحر وإن لم يجز ذكره للدلالة المعنى عليه. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ ومن لم

يقدر له الهداية ولم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ بخلاف الموفق الذي له نور على نور.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢).

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم علماً يشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة بالوحي أو الاستدلال. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ينزه ذاته عن كل نقص وآفة أهل السموات والأرض، و ﴿من﴾ لتغليب العقلاء أو الملائكة والثقلان بما يدل عليه من مقال أو دلالة حال. ﴿وَالطَّيْرِ﴾ على الأول تخصيص لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر ولذلك قيدها بقوله: ﴿صَفَّيْتُ﴾ فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو بأسطة أجنتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره. ﴿كُلِّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير. ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي قد علم الله دعاءه وتنزيهه اختياراً أو طبعاً لقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أو علم كل على تشبيه حاله في الدلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخصه بحال من علم ذلك مع أنه لا يبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيشها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء. ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الخالق لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنة واجبة الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ مرجع الجميع.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ يسوقه ومنه البضاعة المزجاة فإنه يزجيها كل أحد. ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ بأن يكون قرعاً فيضم بعضه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صرح بينه إذ المعنى بين أجزائه، وقرأ نافع برواية ورش ﴿يُولَفُ﴾ غير مهموز. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ الْمَطَرُ﴾ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ من فتوقه جمع خلل كجبال في جبل، وقرئ من «خلله». ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الغمام وكل ما علاك فهو سماء. ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا﴾ من قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها. ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال والمفعول محذوف أي «ينزل» مبتدأ ﴿من السماء من جبال فيها من بردٍ﴾ برءاً، ويجوز أن تكون من الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المظلة وفيها جبال من برد كما في الأرض جبال من حجر، وليس في العقل قاطع يمنعه والمشهور أن الأبخرة إذا تصاعدت ولم تحللها حرارة فبلغت الطبقة الباردة من الهواء وقوي البرد هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل برءاً، وقد يبرد الهواء برءاً مفرطاً فينقبض وينعقد سحاباً. ينزل منه المطر أو الثلج وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالتها وأوقاتها وإليها أشار بقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ﴾ والضمير لل «برد». ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوء برقه، وقرئ بالمد بمعنى العلو ويادغام الدال في السين «ويَرْقَهُ» بضم الباء وفتح الراء وهو جمع برقة وهي المقدار من البرق كالغرفة ويضمها للاتباع. ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد، وقرئ «يذهب» على زيادة الباء.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ

يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ .

﴿يَقْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد والظلمة والنور أو بما يعم ذلك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما تقدم ذكره. ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ لدلالة على وجود الصانع القديم وكمال قدرته وإحاطة علمه ونفاذ مشيئته وتنزهه عن الحاجة وما يفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ حيوان يدب على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي «خالق كل دابة» بالإضافة. ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ هو جزء مادته، أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلاً للغالب منزلة الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ متعلق بـ ﴿دَابَّةٍ﴾ وليس بصلة. ﴿خَلَقَ﴾. ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالحية وإنما سمي الزحف مشياً على الاستعارة أو المشاكلة. ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالنعم والوحش ويندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكير الضمير لتغليب العقلاء والتعبير بمن عن الأصناف ليوافق التفصيل الجملة والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة. ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفعال مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبر لمعانيها. ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بالجنة.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ نزلت في بشر المنافق خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعو إلى النبي ﷺ. وقيل في مغيرة بن وائل خاصم عليّاً رضي الله عنه في أرض فابى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعنهما. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ بالامتناع عن قبول حكمه. ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد قولهم هذا. ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبهم، أو إلى الفريق منهم وسلب الإيمان عنهم لتوليهم، والتعريف فيه للدلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرفتهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعو إليه، وذكر الله لتعظيمه والدلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكم الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فاجأ فريق منهم الإعراض إذا كان الحق عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرح للتولي ومبالغة فيه.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَوْ آذُنَاوَا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ .

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي الحكم لا عليهم. ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، و

﴿إِلَيْهِ﴾ صلة لـ ﴿يَأْتُوا﴾ أو لـ ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وتقديمه للاختصاص.

﴿أَفَبَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر أو ميل إلى الظلم. ﴿أَمْ أَرَأَيْتُمْ﴾ بأن رأوا منك تهمة فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحكومة. ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضراب عن القسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأول، ووجه التقسيم أن امتناعهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقفاً وكلاهما باطل، لأن منصب نبوته وفرط أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف والفصل لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعو إلى حكمه.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المحق المبطل والتنبيه على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرئ ﴿قَوْلُ﴾ بالرفع و ﴿لِيَحْكُمَ﴾ على البناء للمفعول وإسناده إلى ضمير مصدره على معنى ليفعل الحكم. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمرانه أو في الفرائض والسنن. ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب. ﴿وَيَتَّقْهُ﴾ فيما بقي من عمره، وقرأ يعقوب وقالون عن نافع بلا ياء وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء، وحفص بسكون القاف فشبهه تقه بكتف وخفف والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ قُلَّ لَا نَقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا نَعْمَلُونَ﴾ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥٤).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إنكار للامتناع عن حكمه. ﴿لَئِنْ أَمَرْتُمْ﴾ بالخروج عن ديارهم وأموالهم. ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾ جواب لـ ﴿أَقْسَمُوا﴾ على الحكاية. ﴿قُلْ لَا تَقْسِمُوا﴾ على الكذب. ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا اليمين على الطاعة النفاقية المنكرة. أو ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ أمثل منها أو لتكون طاعة، وقرئت بالنصب على أطيعوا طاعة. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا نَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سرائركم.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغة في تبيكتهم. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﷺ. ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ. ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه. ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحق. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ التبليغ الموضح لما كلفتم به، وقد أدى وإنما بقي ﴿مَا حُمِّلْتُمْ﴾ فإن أدبتم فلکم وإن توليتم فعليكم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٥٥).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة أوله وللمن معه ومن آمن ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم، وهو جواب قسم مضمرة تقديره وعدهم الله وأقسم لئلا يستخلفنهم، أو الوعد في تحقيقه منزل منزلة القسم. ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يعني بني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد الجبايرة، وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام وإذا ابتدأ ضم الألف والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف. «وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ» وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت. «وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ» من الأعداء، وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. «أَمَنَّا» منهم وكان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكان يصبحون في السلاح ويمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعود والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوف من العذاب والأمن منه في الآخرة. «يَعْبُدُونَنِي» حال من الذين لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن. «لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» حال من الواو أي يعبدونني غير مشركين. «وَمَنْ كَفَرَ» ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. «بَعْدَ ذَلِكَ» كبعد الوعد أو حصول الخلافة. «فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به ولا يبعد عطف ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعد على المأمور به، فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» كما علق به الهدى.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفار معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و «في الأرض» صلة «معجزين». وقرأ ابن عامر وحزمة بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء أو «الذين كفروا» فاعل والمعنى ولا يحسبن الكفار في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون «معجزين في الأرض» مفعوليه أو لا يحسبونهم «معجزين» فحذف المفعول الأول لأن الفاعل والمفعولين لشيء واحد فاكتمى بذكر اثنين عن الثالث. «وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ» عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين وماوَاهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحساب تحقيق نفي الإعجاز. «وَلَيْسَ الْمَصِيرُ» المأوى الذي يصيرون إليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَإِنْ بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَنْذَرْتُ اللَّهَ فِيكُمْ وَلِلَّهِ عِلْمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ رجوع إلى تنمة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرها والوعد عليها والوعيد على الإعراض عنها، والمراد به خطاب الرجال والنساء غلب فيه الرجال لما روي أن غلام أسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلج بن عمرو الأنصاري وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعو عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله عز وجل نهى آبائنا وأبنائنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعات علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية: «وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ» والصبيان الذين لم يبلغوا من الأحرار فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. «ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» في اليوم واللييلة مرة. «مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ» لأنه وقت القيام من

المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب البقطة، ومحلّه النصب بدلاً من ثلاث مرات أو الرفع خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَجِئَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ أي ثيابكم للبقطة للقليلة. ﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين. ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أي هي ثلاث أوقات يختل فيها تستركم، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده وأصل العورة الخلل ومنها أعور المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ﴿ثَلَاثَ﴾ بالنصب بدلاً من ﴿ثَلَاثَ مَرَاتٍ﴾. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ بعد هذه الأوقات في ترك الاستئذان، وليس فيه ما ينافي آية الاستئذان فينسحبها لأنه في الصبيان ومماليك المدخول عليه وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي هم طوافون استئناف ببيان العذر المرخص في ترك الاستئذان وهو المخالطة وكثرة المداخلة، وفيه دليل على تعليل الأحكام وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وغيرها بأنها عورات. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ طائف على بعض أو يطوف بعضهم على بعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي الأحكام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع لكم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٦٠﴾

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلها، واستدل به من أوجب استئذان العبد البالغ على سيده، وجوابه أن المراد بهم المعهودون الذين جعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل. ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يطمعن فيه لكبرهن. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثياب الظاهرة كالجلباب، والفاء فيه لأن اللام في ﴿القواعد﴾ بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهرات زينة مما أمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ وأصل التبرج التكلف في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينة بارجة لا غطاء عليها، والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطاً بسوادها كله لا يغيب منه شيء، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال. ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ من الوضع لأنه أبعد من التهمة. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لمقاتلتهن للرجال. بمقصودهن.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ فَوَاحِشُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦١﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفي لما كانوا يتخرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم، أو أكلهم من بيت من يدفع إليهم المفتاح ويبيح لهم التبسط فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب، أو من إجابة من دعوهم إلى

بيوت آبائهم وأولادهم وأقاربهم فيطعمونهم كراهة أن يكونوا كلاً عليهم، وهذا إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾. وقيل نفي للخرج عنهم في القعود عن الجهاد وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام «أنت ومالك لأبيك»، وقوله عليه السلام «إن أطيّب ما يأكل المؤمن من كسبه وإن ولده من كسبه». ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضيعة أو ماشية وكالة أو حفظاً. وقيل بيوت الممالك والمفاتيح جمع مفتاح وهو ما يفتح به وقرىء «مفتاحه». ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحب البيت بإذن أو قرينة ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطع بسرقة مال المحرم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ مجتمعين أو متفرقين نزلت في بني ليث ابن عمرو من كنانة كانوا يتخرجون أن يأكل الرجل وحده. أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه. أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبايع في القذارة والنهمة. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة. ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ثابتة بأمره مشروعة من لدنه، ويجوز أن تكون صلة للتحية فإنه طلب الحياة وهي من عنده تعالى واتصاها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَارَكَةٌ﴾ لأنها يرجى بها زيادة الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةٌ﴾ تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي «متى لقيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطل عمرك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين». ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ كره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختمة به وفصل الأولين بما هو المقضى لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحق والخير في الأمور.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ

الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروب والمشاورة في الأمور، ووصف الأمر بالجمع للمبالغة وقرىء «أمر جميع». ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذن لهم، واعتباره في كمال الإيمان لأنه كالصداق لصحته والتمييز للمخلص فيه عن المناقق فإن ديدنه التسلل والفرار، ولتعظيم الجرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنه يفيد أن المستأذن مؤمن لا محالة وأن الذهاب بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرض لهم من المهام، وفيه أيضاً مبالغة وتضييق الأمر. ﴿فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويض للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستدل به على أن بعض الأحكام مفوضة إلى رأيه ومن منع ذلك قيد المشيئة بأن تكون تابعة لعلمه بصدقه فكان المعنى: فأذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفرط العباد.

﴿رَحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٢).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه السلام واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة. وقيل لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداء من وراء الحجرات، ولكن بقلبه المعظم مثل يا نبي الله، ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجب، أو لا تجعلوا دعاءه ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ﴾ ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة ونظير تسلل تدرج وتدخل. ﴿لِوَاذًا﴾ ملاوذة بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينتطلق معه كأنه تابعه وانتصابه على الحال وقرئ بالفتح. ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمناً خلاف سمته، و﴿عَنْ﴾ لتضمنه معنى الإعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتضى لأحد العذابين، فإن الأمر بالحدز عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤).

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وإنما أكد علمه بـ ﴿قَدْ﴾ لتأكيد الوعيد. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجع المنافقون إليه للجزاء، ويجوز أن يكون الخطاب أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الإلتفات، وقرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أُعْطِيَ من الأجرِ عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي».

(٢٥) سورة الفرقان

مكية وآيها سبع وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ يَتَّخِذُ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدَرًا نَقِيرًا﴾ (٢).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ تكاثر خيره من البركة وهي كثرة الخير، أو تزايد على كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، فإن البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتبه عن إنزاله ﴿الفرقان﴾ لما فيه من كثرة الخير أو لدلالته على تعاليه. وقيل دام من برك الطير على الماء ومنه البركة لدوام الماء فيها، وهو لا يتصرف فيه ولا يستعمل إلا الله تعالى و ﴿الفرقان﴾ مصدر فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما سمي به القرآن لفصله بين الحق والباطل بتقريره أو المحق والمبطل بإعجازه أو لكونه مفصلاً بعضه عن بعض في الإنزال، وقرئ «على عباده» وهم رسول الله ﷺ وأمنه كقوله تعالى: ﴿وقد أنزلنا إليكم آيات﴾ أو الأنبياء على أن ﴿الفرقان﴾ اسم جنس للكتب السماوية. ﴿لِيَكُونَ﴾ العبد أو الفرقان. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للجن والإنس. ﴿نَذِيرًا﴾ منذاراً أو إنذاراً كالنكير بمعنى الإنكار، هذه الجملة وإن لم تكن معلومة لكنها لقوة دليلها أجريت مجرى المعلوم وجعلت صلة.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كزعم النصارى. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفي ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصور وأشكال معينة. ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ فقدره وهياه لما أراد منه من الخصائص والأفعال، كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك، أو ﴿فقدره﴾ للبقاء إلى أجل مسمى. وقد يطلق الخلق لمجرد الإيجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤).

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ لما تضمن الكلام إثبات التوحيد والنبوة أخذ في الرد على المخالفين فيهما. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لأن عبدتهم ينحتونهم ويصورونهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ ولا يستطيعون. ﴿لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ دفع ضرر. ﴿وَلَا نفعاً﴾ ولا جلب نفع. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ولا يملكون إماتة أحد وإحياءه أولاً وبعثه ثانياً ومن كان كذلك فمعزل عن الألوهية لعرائه عن لوازمها واتصافه بما ينافيها، وفيه تنبيه على أن الإله يجب أن يكون قادراً على البعث والجزاء.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ كذب مصروف عن وجهه. ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه. ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي اليهود فإنهم يلقون إليه أخبار الأمم وهو يعبر عنها بعبارته، وقيل جبر ويسار وعداس وقد سبق في قوله ﴿إنما يعلمه بشر﴾. ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا﴾ يجعل الكلام المعجز ﴿إفكاً﴾ مختلفاً متلفاً من اليهود. ﴿وَزُورًا﴾ بنسبة ما هو بريء منه إليه وأتى وجاء يطلقان بمعنى فعل فيعديان تعديته.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ اُكْتَتَبَهَا فِي تَمَلُّ عَلَى بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما سطره المتقدمون. ﴿اُكْتَتَبَهَا﴾ كتبها لنفسه أو استكتبها، وقرئ على البناء للمفعول لأنه أمي وأصله: اكتبها كاتب له، فحذف اللام وأفضى الفعل إلى الضمير فصار اكتبها إياه كاتب ثم حذف الفاعل وبني الفعل للضمير فاستتر فيه: ﴿نَهَى تَمَلُّ عَلَى بُكْرَةٍ وَأَصِيلًا﴾ ليحفظها فإنه أمي لا يقدر أن يكرر من الكتاب أو لتكتب.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه أعجزكم عن آخركم بفصاحته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقبلية وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف تجعلونه ﴿أساطير الأولين﴾. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلذلك لا يعجل في عقوبتكم على ما تقولون مع كمال قدرته عليها واستحقاقكم أن يصب عليكم العذاب صباً.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ما لهذا الذي يزعم الرسالة وفيه استهانة وتهكم. ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كما نأكل. ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ لطلب المعاش كما نمشي، والمعنى إن صح دعواه فما باله لم يخالف حاله حالنا، وذلك لعمهم وقصور نظرهم على المحسوسات فإن تميز الرسل عن عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما هو بأحوال نفسانية كما أشار إليه تعالى بقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ لنعلم صدقه بتصديق الملك.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ فيستظهر به ويستغني عن تحصيل المعاش. ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذا على سبيل التنزل أي إن لم يلق إليه كنز فلا أقل من أن يكون له بستان كما للدهاقين والمياسير فيتعيش بريعه، وقرأ حمزة والكسائي بالنون والضمير للكفار. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ وضع ﴿الظالمون﴾ موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون. ﴿إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ سحر فغلب على عقله، وقيل ذا سحر وهو الرثة أي بشراً لا ملكاً.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي قالوا فيك الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادرة. ﴿فَضَلُّوا﴾ عن الطريق الموصل إلى معرفة خواص النبي والمميز بينه وبين المتنبئ فخطبوا خطب عشواء. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القدح في نبوتك أو إلى الرشد والهدى.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ فِي الدُّنْيَا خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ مما قالوا لكن أخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى. ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بدل من ﴿خيرًا﴾. ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ عطف على محل الجزاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز في جزائه الجزم والرفع كقوله:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ يَقُولُ لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرَمٌ

ويجوز أن يكون استئنافاً بوعده ما يكون له في الآخرة، وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ (١١) إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا (١٢).

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ فقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وظنوا أن الكرامة إنما هي بالمال فطعنوا فيك لفقرك، أو فلذلك كذبوك لا لما تمحلوا من المطاعن الفاسدة، أو فكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ويصدقونك بما وعد الله لك في الآخرة، أو فلا تعجب من تكذيبهم إياك فإنه أعجب منه. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاستعار، وقيل هو اسم لجحهم فيكون صرفه باعتبار المكان.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ إذا كانت بمرأى منهم كقوله عليه السلام «لا تراءى ناراهما» أي لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى على المجاز والتأنيث لأنه بمعنى النار أو جهنم. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكن أن يرى منه. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّطًا وَزَفِيرًا﴾ صوت تغيط، شبه صوت غليانها بصوت المغتاط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه، هذا وإن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر. وقيل إن ذلك لزيانيتها فنسب إليها على حذف المضاف.

﴿وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤).

﴿وَإِذَا أَلْفُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾ في مكان ومنها بيان تقدم فصار حالاً. ﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادة العذاب فإن الكرب مع الضيق والروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها كعرض السموات والأرض. ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل. ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكاً أي يتمنون الهلاك وينادونه فيقولون تعال يا ثبوره فهذا حينك.

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا﴾ أي يقال لهم ذلك. ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأن عذابكم أنواع كثيرة كل نوع منها ثبور لشدة، أو لأنه يتجدد لقوله تعالى: ﴿كَلِمَا نَضْجَتِ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أو لأنه لا ينقطع فهو في كل وقت ثبور.

﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾ (١٥) هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦).

﴿قُلْ أَذَلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة إلى العذاب والاستفهام والتفضيل والترديد للتقريع مع التهكم أو إلى الـ ﴿كنز﴾ و الـ ﴿جنة﴾، والراجع إلى الموصول محذوف وإضافة الـ ﴿جنة﴾ إلى ﴿الخلد﴾ للمدح أو للدلالة على خلودها، أو التمييز عن جنات الدنيا. ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علم الله أو اللوح، أو لأن ما وعده الله تعالى في تحققة كالأواقع. ﴿جَزَاءً﴾ على أعمالهم بالوعد. ﴿وَمَصِيرًا﴾ ينقلبون إليه، ولا يمنع كونها جزاء لهم أن يتفضل بها على غيرهم برضاهم مع جواز أن يراد بالمتقين من يتقي الكفر والتكذيب

لأنهم في مقابلتهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ ما يشاءونه من النعيم، ولعله تقصر هم كل طائفة على ما يليق برتبته إذ الظاهر أن الناقص لا يدرك شأو الكامل بالتشهي، وفيه تنبيه على أن كل المرادات لا تحصل إلا في الجنة. ﴿خَالِدِينَ﴾ حال من أحد ضمائرهم. ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْتَوْلاً﴾ الضمير في ﴿كان﴾ لـ ﴿ما يشاءون﴾ والوعد الموعود أي: كان ذلك موعوداً حقيقاً بأن يسأل ويطلب، أو مسؤولاً سأله الناس في دعائهم ﴿ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك﴾. أو الملائكة بقولهم ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾، وما في ﴿على﴾ من معنى الوجوب لامتناع الخلف في وعده تعالى ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإن تعلق الإرادة بالوعود مقدم على الوعد الموجب للإنجاز.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (١٧).

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء، وقرئ بكسر الشين وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص بالياء. ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعم كل معبود سواه تعالى، واستعمال ﴿ما﴾ إما لأن وضعه أعم ولذلك يطلق لكل شبح يرى ولا يعرف، أو لأنه أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم أو لتغليب الأصنام تحقيراً أو اعتبار الغلبة عبادها، أو يخص الملائكة وعزيراً والمسيح بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام ينطقها الله أو تتكلم بلسان الحال كما قيل في كلام الأيدي والأرجل. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للمعبودين وهو على تلوين الخطاب، وقرأ ابن عامر بالنون. ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم عن المرشد النصيح، وهو استفهام تقريع وتبكيت للعبدة، وأصله ﴿أَضَلَلْتُمْ﴾ أم ﴿ضَلُّوا﴾ فغير النظم ليلي حرف الاستفهام المقصود بالسؤال وهو المتولي للفعل دونه لأنه لا شبهة فيه وإلا لما توجه العتاب، وحذف صلة الضل مبالغة.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُفُوزَهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٩).

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تعجباً مما قيل لهم لأنهم إما ملائكة أو أنبياء معصومون، أو جمادات لا تقدر على شيء أو إشعاراً بأنهم الموسومون بتسييحه وتوحيده فكيف يليق بهم إضلال عبيده، أو تنزيهاً لله تعالى عن الأنداد. ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ ما يصح لنا. ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ للعصمة أو لعدم القدرة فكيف يصح لنا أن ندعو غيرنا أن يتولى أحداً دونك، وقرئ ﴿نَتَّخِذُ﴾ على البناء للمفعول من اتخذ الذي له مفعولان كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذْ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ومفعوله الثاني ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ و ﴿مَنْ﴾ للتبعض وعلى الأول مزيدة لتأكيد النفي. ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَأَهُمْ﴾ بأنواع النعم فاستغرقوا في الشهوات. ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ حتى غفلوا عن ذكرك أو التذكر لآلائك والتدبر في آياتك، وهو نسبة للضلال إليهم من حيث إنه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم فحملهم عليه، وهو عين ما ذهبنا إليه فلا ينتهض حجة علينا للمعتزلة. ﴿وَكَانُوا﴾ في قضائك. ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمع باثر كعائد وعود.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ التفات إلى العبدة بالاحتجاج والإلزام على حذف القول والمعنى فقد كذبكم المعبودون. ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولكم إنهم آلهة أو هؤلاء أضلونا والباء بمعنى في، أو مع المجرور بدل من

الضمير، وعن ابن كثير بالياء أي: ﴿كذبوكم﴾ بقولهم ﴿سبحانك ما كان ينبغي لنا﴾. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي المعبودون وقرأ حفص بالتاء على خطاب العابدين. ﴿صُرْفًا﴾ دفعاً للعذاب عنكم، وقيل حيلة من قولهم إنه ليتصرف أي يحتال. ﴿وَلَا نُضْرًا﴾ يعينكم عليه. ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ أيها المكلفون. ﴿ثُدُّهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النار والشرط وإن عم كل من كفر أو فسق لكنه في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقاً، وهو التوبة والإحباط بالطاعة إجماعاً وبالعفو عندنا.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي إلا رسلاً إنهم فحذف الموصوف لدلالة المرسلين عليه وأقيمت الصفة مقامه كقوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾، ويجوز أن تكون حالاً اكتفى فيها بالضمير وهو جواب لقولهم ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾. وقرئ «يمشون» أي تمشيهم حوائجهم أو الناس. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ابتلاء ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء، والمرسلين بالمرسل إليهم ومناصبتهم لهم العداوة وإيذائهم لهم، وهو تسلية لرسول الله ﷺ على ما قالوه بعد نقضه، وفيه دليل على القضاء والقدر. ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ علة للجعل والمعنى ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ لنعلم أيكم يصبر ونظيره قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، أو حث على الصبر على ما افتتوا به. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر أو بالصواب فيما يتبلى به وغيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ لا يأملون. ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخير لكفرهم بالبعث، أولاً يخافون ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالشر على لغة تهامة، وأصل اللقاء الوصول إلى الشيء ومنه الرؤية فإنه وصول إلى المربي، والمراد به الوصول إلى جزائه ويمكن أن يراد به الرؤية على الأول. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فتخبرنا بصدق محمد ﷺ، وقيل فيكونوا رسلاً إلينا. ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بتصديقه واتباعه. ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق لأفراد من الأنبياء الذين هم أكمل خلق الله في أكمل أوقاتها وما هو أعظم من ذلك. ﴿وَعَتَوْا﴾ وتجاوزوا الحد في الظلم. ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى مراتبه حيث عاينوا المعجزات القاهرة فأعرضوا عنها، واقترحوا لأنفسهم الخبيثة ما سدت دونه مطامح النفوس القدسية، واللام جواب قسم محذوف وفي الاستئناف بالجملة حسن وإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم كقوله:

وَجَاوَزَ جَسَّاسُ أَبَانَا بِنَائِبَهَا كَلْبِيَاءَ عَلَتْ نَابَ كَلْبِ بَوَاوَهَا

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ ملائكة الموت أو العذاب، و «يوم» نصب باذكر أو بما دل عليه. ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها، و «يومئذ» تكرير أو خبر و «للمجرمين» تبين أو خبر ثان أو ظرف لما يتعلق به اللام، أو لـ «بشرى» إن قدرت منونة غير مبنية مع «لا» فإنها لا تعمل، ولد «مجرمين» إما عام يتناول حكمه حكمهم من طريق البرهان ولا يلزم من نفي البشرى لعامة المجرمين حيث نفي البشرى بالعفو والشفاعة في وقت آخر، وإما خاص وضع موضع ضميرهم تسجيلاً على جرمهم

فشهدت له، فقال لا أرضى منك إلا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فوجده ساجداً في دار الندوة ففعل ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر فأمر علياً فقتله وطعن أتيماً بأخذ في المبارزة فرجع إلى مكة ومات. ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ طريقاً إلى النجاة أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تشعب بي طرق الضلالة.

﴿يَا وَيْلَتَى﴾ وقرئ بالياء على الأصل. ﴿لَيْتَنِي لَمْ اتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾ يعني من أضله وفلان كناية عن الأعلام كما أن هنا كناية عن الأجناس.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ عن ذكر الله أو كتابه أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة. ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وتمكنت منه. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كل من تشيطن من جن وإنس. ﴿لِلْإِنْسَانِ خُدُولاً﴾ يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه، فعول من الخذلان.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿٣١﴾.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ محمد يومئذ أو في الدنيا بشأ إلى الله تعالى. ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي﴾ قريشاً. ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ بأن تركوه وصدوا عنه، وعنه عليه الصلاة والسلام «من تعلم القرآن وعلق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب عبدك هذا اتخذني مهجوراً أقض بيني وبينه» أو هجروا ولغوا فيه إذا سمعوه أو زعموا أنه هجر وأساطير الأولين، فيكون أصله «مهجوراً» فيه فحذف الجار ويجوز أن يكون بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول، وفيه تخويف لقومه فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما جعلناه لك فاصبر كما صبروا، وفيه دليل على أنه خالق الشر، والعدو يحتمل الواحد والجمع. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ إلى طريق قهرهم. ﴿وَنَصِيرًا﴾ لك عليهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ أي أنزل عليه كخبر بمعنى أخبر لئلا يناقض قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ دفعة واحدة كالكتب الثلاثة، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً مع أن للتفريق فوائد منها ما أشار إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه مفرقاً لتقوي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه، لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان عليه الصلاة والسلام أمياً وكانوا يكتبون، فلو ألقى عليه جملة لعل بحفظه، ولعله لم يستتب له فإن التلقف لا يتأتى إلا شيئاً فشيئاً، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى، ولأنه إذا نزل منجماً وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال يثبت به فؤاده ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية، فإنه يعين على البلاغة، وكذلك صفة مصدر محذوف والإشارة إلى إنزاله مفرقاً فإنه مدلول عليه بقوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكفرة ولذلك وقف عليه فيكون حالاً والإشارة إلى الكتب السابقة، واللام على الوجهين متعلق بمحذوف. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تودة وتمهل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفليجها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣) الَّذِينَ يُخَشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤).

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤال عجيب كأنه مثل في البطلان يريدون به القدح في نبوتك. ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدامغ له في جوابه. ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وبما هو أحسن بياناً أو معنى من سؤالهم، أو ﴿لَا يَأْتُونَكَ﴾ بحال عجيبة يقولون هلا كانت هذه حاله إلا أعطيناك من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا وما هو أحسن كشفاً لما بعثت له.

﴿الَّذِينَ يُخَشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي مقلوبين أو مسحوبين عليها، أو متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم إليها. وعنه عليه الصلاة والسلام «يخسر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف، صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه» وهو ذم منصوب أو مرفوع أو مبدأ خبره. ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضل عليه هو الرسول ﷺ على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لعنة الله وغضبه عليه﴾ كأنه قيل إن حاملهم على هذه الأسئلة تحقير مكانه وتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكاناً وأضل سبيلاً، وقيل إنه متصل بقوله «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً» ووصف السبيل بالضلال من الإسناد المجازي للمبالغة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ (٣٥) فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا﴾ (٣٦) وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ يوازره في الدعوة وإعلاء الكلمة ولا ينافي ذلك مشاركته في النبوة، لأن المشاركين في الأمر متوازرون عليه.

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ يعني فرعون وقومه. ﴿بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ نَذِيرًا﴾ أي فذهب إليهم فكذبوهما فدمرناهم، فاقصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود منها وهو إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم والتعقيب باعتبار الحكم لا الوقوع، وقرئ «فدمرناهم» «فدمرناهم» على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ كذبوا نوحاً ومن قبله، أو نوحاً وحده ولكن تكذيب واحد من الرسل كتكذيب الكل أو بعثة الرسل مطلقاً كالإبراهيم. ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ بالطوفان. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ وجعلنا إغراقهم أو قصتهم. ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمل التعميم والتخصيص فيكون وضعاً للظاهر موضع المضمّر تظليماً لهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ (٣٨) وَكُلًّا صَرْنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا نَبَرْنَا تَنْبِيرًا﴾ (٣٩).

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ عطف على هم في «جعلناهم» أو على «الظالمين» لأن المعنى ووعدنا الظالمين، وقرأ حمزة وحفص «وثمود» على تأويل القبيلة. ﴿وَأَصْحَابَ الرُّسِّ﴾ قوم كان يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم شعبياً فكذبوه، فبينما هم حول الرس وهي البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبديارهم. وقيل «الرس» قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث إليهم نبي فقتلوه فهلكوا. وقيل الأخدود وقيل بئر بأنطاكية قتلوا

فيها حبیباً النجار، وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي ابتلاههم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون، وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح أو دمخ وتنقض على صبيانهم فتحطفهم إذا أعوزها الصيد، ولذلك سميت مغرباً فدعا عليها حنظلة فأصابها الصاعقة ثم أنهم قتلوه فأهلكوا. وقيل هم قوم كذبوا نبیهم ورسوه أي دسوه في بئر. ﴿وَقُرُونًا﴾ وأهل أعصار قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون. ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعلمها إلا الله.

﴿وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ بينا له القصص العجيبة من قصص الأولين إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا كما قال: ﴿وَكَلَّا تَبَرَّأْنَا تَبِيرًا﴾ فتنناه تفتيتاً ومنه التبر لفتات الذهب والفضة، ﴿وَكَلَّا﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ضربنا﴾ كأندرننا والثاني بـ ﴿تبرنا﴾ لأنه فارغ.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّيِّئَةَ فَلَمَّا أَهْلُهَا كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ يعني قريشاً مروا مراراً في متاجرهم إلى الشام. ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا السَّيِّئَةَ﴾ يعني سدوم عظمى قرى قوم لوط أمطرت عليها الحجارة. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مرار مرورهم فيتعظوا بما يرون فيها من آثار عذاب الله. ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نُشُورًا﴾ بل كانوا كفره لا يتوقعون نشوراً ولا عاقبة فلذلك لم ينظروا ولم يتعظوا فمروا بها كما مرت ركابهم، أو لا يأملون نشوراً كما يأمله المؤمنون طمعاً في الثواب، أو لا يخافونه على اللغة التهامية.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَضْلُ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ما يتخذونك إلا موضع هزء أو مهزوءاً به. ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ محكي بعد قول مضمر والإشارة للإستحقار، وإخراج بعث الله رسولاً في معرض التسليم يجعله صلة وهم على غاية الإنكار تهكم واستهزاء ولولاه لقالوا أهذا الذي زعم أنه بعثه الله رسولاً.

﴿إِن﴾ إنه ﴿كَأَدَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يوردها مما يسبق إلى الذهن بأنها حجاج ومعجزات. ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها و ﴿لَوْلَا﴾ في مثله تقيد الحكم المطلق من حيث المعنى دون اللفظ. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ أَضْلُ سَبِيلًا﴾ كالجواب لقولهم ﴿إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا﴾ فإنه يفيد نفي ما يلزمه ويكون الموجب له، وفيه وعيد ودلالة على أنه لا يهملهم وإن أهملهم.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ بأن أطاعه وبنى عليه دينه لا يسمع حجة ولا يبصر دليلاً، وإنما قدم المفعول الثاني للعناية به. ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ حفيظاً تمنعه عن الشرك والمعاصي وحاله هذا فلاستفهام الأول للتقرير والتعجب والثاني للإنكار.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ بل أنتحسب. ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتجدي لهم الآيات أو الحجج فتتهم بشأنهم وتطمع في إيمانهم، وهو أشد مذمة مما قبله حتى حق بالإضراب عنه إليه، وتخصيص الأكثر لأنه كان

منهم من آمن ومنهم من عقل الحق وكابر استكباراً وخوفاً على الرئاسة. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم انتفاعهم بقرع الآيات أذاتهم وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات. ﴿بَلْ هُمْ أَصْلُ سَبِيلٍ﴾ من الأنعام لأنها تنقاد لمن يتعهدا وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تكتسب شراً، بخلاف هؤلاء ولأن جهالتها لا تضر بأحد وجهالة هؤلاء تؤدي إلى هيج الفتن وصد الناس عن الحق، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال فلا تقصير منها ولا ذم وهؤلاء مقصرون ومستحقون أعظم العقاب على تقصيرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَيْكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَيْكَ﴾ ألم تنظر إلى صنعه. ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ كيف بسطه أو ألم تنظر إلى الظل كيف مده ربك، فغير النظم إشعاراً بأنه المعقول من هذا الكلام لوضوح برهانه وهو دلالة حدوثه وتصرفه على الوجه النافع بأسباب ممكنة على أن ذلك فعل الصانع الحكيم كالمشاهد المرئي فكيف بالمحسوس منه، أو ألم ينته علمك إلى أن ربك كيف مده الظل وهو فيما بين طلوع الفجر والشمس وهو أطيب الأحوال، فإن الظلمة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس: يسخن الجو ويبهز البصر، ولذلك وصف به الجنة فقال ﴿وِظِلٌّ مِمْدُودٌ﴾. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ ثابتاً من السكنى أو غير متقلص من السكون بأن يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فإنه لا يظهر للحس حتى تطلع فيقع ضوءها على بعض الأجرام، أو لا يوجد ولا يتفاوت إلا بسبب حركتها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أي أزلناه بإيقاع الشمس موقعه لما عبر عن إحداثه بالمد بمعنى التسيير عبر عن إزالته بالقبض إلى نفسه الذي هو في معنى الكف. ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس لينتظم بذلك مصالح الكون ويتحصل به ما لا يحصى من منافع الخلق، و ﴿ثُمَّ﴾ في الموضعين لتفاضل الأمور أو لتفاضل مبادئ أوقات ظهورها، وقيل ﴿مد الظل﴾ لما بنى السماء بلا نير، ودحا الأرض تحتها فألقت عليها ظلها ولو شاء لجعله ثابتاً على تلك الحالة، ثم خلق الشمس عليه دليلاً، أي مسلطاً عليه مستتباً إياه كما يستتبع الدليل المدلول، أو دليل الطريق من يهديه فإنه يتفاوت بحركتها ويتحول بتحولها، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهي غاية نقصانه، أو ﴿قبضاً﴾ سهلاً عند قيام الساعة بقبض أسبابه من الأجرام المظلمة والمظل عليها.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه ظلامه باللباس في ستره. ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة للأبدان بقطع المشاغل، وأصل السبت القطع أو موتاً كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ لأنه قطع الحياة ومنه المسبوت للميت. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش، أو بعث من النوم بعث الأموات فيكون إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشور.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْشِيَ بِهِ﴾

بَلَدَةً مَّيْتًا وَتُسْقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير على التوحيد إرادة للجنس. ﴿نُشْرًا﴾ ناشرات للحساب جمع نشور، وقرأ ابن عامر بالسكون على التخفيف وحمزة والكسائي به وفتح النون على أنه مصدر وصف به وعاصم ﴿بِشْرًا﴾ تخفيف بشر جمع بشور بمعنى مبشر ﴿بَيْنَ يَدَيَّ رَحْمَتِهِ﴾ يعني قدام المطر. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ مطهراً لقوله ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾. وهو اسم لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به. قال عليه الصلاة والسلام «التراب طهور المؤمن»، «طهور إناء أحلكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبعة أحداهن بالتراب». وقيل بليغاً في الطهارة وفعل وإن غلب في المعنيين لكنه قد جاء للمفعول كالضبوث وللمصدر كالقبول وللإسم كالذنوب، وتوصيف الماء به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميم للمنة فيما بعده فإن الماء الطهور أهناً وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى.

﴿لِنُخَبِّرِي بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ بالنبات وتذكير ﴿مَيْتًا﴾ لأن البلدة في معنى البلد، ولأنه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فأجري مجرى الجامد. ﴿وَتُسْقِيَهُمْ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا﴾ يعني أهل البوادي الذين يعيشون بالحيا ولذلك نكر الأنعام والأناسي، وتخصيصهم لأن أهل المدن والقرى يقيمون بقرب الأنهار، والمنافع فيهم وبما حولهم من الأنعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالباً مع أن مساق هذه الآيات كما هو للدلالة على عظم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة والأنعام قنية الإنسان وعامة منافعهم وعلية معاشهم منوطة بها، ولذلك قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها إحياء الأرض فإنه سبب لحياتها وتعيشها، وقرئ «نفسيه» بالفتح وسقى وأسقى لغتان، وقيل أسقاه جعل له سقياً «وأناسي» بحذف ياء وهو جمع انسي أو إنسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين فقلبت النون ياء.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ صرفنا هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب، أو المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتخيرة وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطل وغيرهما، وعن ابن عباس رضي الله عنه: «ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء وتلا هذه الآية» أو في الأنهار والمنافع. ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة وحق النعمة في ذلك ويقوموا بشكره، أو ليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها، أو جحودها بأن يقولوا مطرنا بنوء كذا، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء كان كافراً بخلاف من يرى أنها من خلق الله، والأنواء وسائط وأمارات بجعله تعالى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ نبياً ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن قَصَرْنَا الأمر عليك إجلالاً لك وتعظيماً لشأنك وتفضيلاً لك على سائر الرسل، فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق.

﴿فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهيج له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين. ﴿وَجَاهِدُهُمْ بِهِ﴾ بالقرآن أو بترك طاعتهم الذي يدل عليه فلا تطع، والمعنى أنهم يجتهدون في إبطال حقك فقابلهم

بالاجتهاد في مخالفتهم وإزاحة باطلهم. ﴿جَهَاداً كَبِيراً﴾ لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف، أو لأن مخالفتهم ومعاداتهم فيما بين أظهرهم مع عتوهم وظهورهم، أو لأنه جهاد مع كل الكفرة لأنه مبعوث إلى كافة القرى.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً﴾

﴿٥٢﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان من مرج دابته إذا خلاها. ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قانع للعطش من فرط عذوبته. ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ الملوحة، وقرئ «ملح» على فعل ولعل أصله مالح فخفف كبرد في بارد. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ حاجزاً من قدرته. ﴿وَحِجْراً مُّحْجُوراً﴾ وتنافراً بليغاً كان كلا منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوز للمتعوذ عنه، وقيل حداً محدوداً وذلك كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم مثل النيل وبالبحر الملح البحر الكبير وبالبرزخ ما يحول بينهما من الأرض فتكون القدرة في الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة أجزاء كل عنصر أن تضام وتلاصقت وتشابهت في الكيفية.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ يعني الذي خمر به طينة آدم، أو جعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتقبل الأشكال والهيات بسهولة، أو النطفة. ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم، وذاتاً صهر أي إنثاءً يصاهر بهن كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكراً وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني الأصنام أو كل ما عبد من دون الله إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضرر. ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يظهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد به ﴿الكافر﴾ الجنس أو أبو جهل. وقيل هيناً مهيناً لا وقع له عنده من قولهم ظهرت به إذا نبذته خلف ظهره فيكون كقوله ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءٍ أَن يَتَّخِذَ إِلَٰهَ رَبِّهِ

سَبِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ للمؤمنين والكافرين.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة الذي يدل عليه ﴿إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾. ﴿مِن أَجْرِ إِلَّا مَن شَاءَ﴾ إلا فعل من شاء. ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أن يتقرب إليه ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، فصور ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود فعله واستثناءه منه قلماً لشبهة الطمع وإظهاراً لغاية الشفقة، حيث اعتد بإنفاعك نفسك بالتعرض للشواب والتخلص عن العقاب أجراً وافياً مرضياً به مقصوراً عليه، وإشعاراً بأن طاعتهم تعود عليه بالشواب من حيث إنها بدالته. وقيل الاستثناء منقطع معناه لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَبِّحْ بِهِ خَبِيرًا ٥٩﴾ .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاء شرورهم والإغناء عن أجورهم، فإنه الحقيق بأن يتوكل عليه دون الأحياء الذين يموتون فإنهم إذا ماتوا ضاع من توكل عليهم. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ ونزله عن صفات النقصان مثنيًا عليه بأوصاف الكمال طالبًا لمزيد الأنعام بالشكر على سوابغه. ﴿وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ ما ظهر منها وما بطن. ﴿خَبِيرًا﴾ مطلعًا فلا عليك أن آمنوا أو كفروا.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ قد سبق الكلام فيه، ولعل ذكره زيادة تقرير لكونه حقيقًا بأن يتوكل عليه من حيث إنه الخالق للكل والمتصرف فيه، وتحريض على الثبات والثبات في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته وسرعة نفاذ أمره في كل مراد خلق الأشياء على تودة وتدرج، و ﴿الرحمن﴾ خبر للذي إن جعلته مبتدأ ولمحذوف إن جعلته صفة للحي، أو بدل من المستكن في ﴿استوى﴾ وقرئ بالجر صفة للحي. ﴿فَسَبِّحْ بِهِ خَبِيرًا﴾ فاسأل عما ذكر من الخلق والاستواء عالمًا بخبرك بحقيقته وهو الله تعالى، أو جبريل أو من وجده في الكتب المتقدمة ليصدقك فيه، وقيل الضمير ﴿للرحمن﴾ والمعنى إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿الرحمن﴾ مبتدأ والخبر ما بعده والسؤال كما يعدي بعن لتضمنه معنى التفتيش يعدي بالياء لتضمنه معنى الاعتناء. وقيل إنه صلة ﴿خَبِيرًا﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ٦١﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله، أو لأنهم ظنوا أنه أراد به غيره ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي للذي تأمرنا يعني تأمرنا بسجوده أو لأمرنا من غير عرفان. وقيل لأنه كان معربًا لم يسمعه. وقرأ حمزة والكسائي «يأمرنا» بالياء على أنه قول بعضهم لبعض. ﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي الأمر بالسجود ﴿للرحمن﴾. ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يعني البروج الاثني عشر سميت به وهي القصور العالية لأنها للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها واشتقاقه من التبرج لظهوره. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمس لقوله ﴿وجعل الشمس سراجًا﴾. وقرأ حمزة والكسائي «سرجًا» وهي الشمس والكواكب الكبار. ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ مضيئًا بالليل، وقرئ «وقمرًا» أي ذا قمر وهو جمع قمراء ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ٦٢﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي ذوي خلفه يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه، أو بأن يعتقبا لقوله تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾. وهي للحالة من خلف كالركبة والجلسة. ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعه فيعلم أن لا بد له من صانع حكيم واجب الذات رحيم على العباد. ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أن يشكر الله تعالى على ما فيه من النعم، أو ليكونا وقتين للمتذكرين الشاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخرة، وقرأ حمزة ﴿أَنْ يَذْكُرَ﴾ من ذكر بمعنى تذكر وكذلك ليدذكروا ووافقه الكسائي فيه.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤﴾

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ خبره ﴿أولئك يجزون الغرفة﴾ أو: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ وإضافتهم إلى الرحمن للتخصيص والتفضيل، أو لأنهم الراسخون في عبادته على أن عباد جمع عابد كتاجر وتجار. ﴿هَوْنًا﴾ هينين أو مشياً هيناً مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ تسليماً منكم ومتاركة لكم لا خير بيننا ولا شر، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والإثم، ولا ينافيه آية القتال لتنسخه فإن المراد به الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ في الصلاة، وتخصيص البيوتة لأن العبادة بالليل أحمز وأبعد عن الرياء وتأخير القيام للروي وهو جمع قائم أو مصدر أجري مجراه.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لازماً ومنه الغريم لملازمته، وهو إيدان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي بنست مستقرًّا، وفيها ضمير مبهم يفسره المميز والمخصوص بالذم ضمير محذوف به ترتبط الجملة باسم إن، أو أحزنت وفيها ضمير اسم إن ومستقرًّا حال أو تمييز والجملة تعليل لليلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يحتملان الحكاية والإبتداء من الله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ لم يجاوزوا حد الكرم. ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ ولم يضيّقوا تضيق الشحيح. وقيل الإسراف هو الإنفاق في المحارم والتقتير منع الواجب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقترو، وقرأ بالتشديد والكل واحد. ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ وسطاً عدلاً سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي سواء لاستوائهما، وقرأ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغوًّا، وقيل إنه اسم ﴿كان﴾ لكنه مبني لإضافته إلى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشيء عن نفسه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَنَّا ۝٦٩﴾

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي حرّمها بمعنى حرم قتلها. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق القتل المحذوف، أو بلا يقتلون ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نفى عنهم أمهات المعاصي بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين ذلك، وتعريضاً للكفرة بأضداده ولذلك عقبه بالوعيد تهديداً لهم فقال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ جزاء إثم أو إثمًا بإضمار الجزاء، وقرأ «أياماً» أي شتاتد يقال يوم ذو أيام أي صعب.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بدل من ﴿يلقى﴾ لأنه في معناه كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا نُلِمِّمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجُجَا

وقرأ أبو بكر بالرفع على الاستئناف أو الحال وكذلك: ﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ وابن كثير ويعقوب ﴿يضعف﴾ بالجزم وابن عامر بالرفع فيهما مع التشديد وحذف الألف في «يضعف»، وقرىء «ويخلد» على بناء المفعول مخففاً، وقرىء مثقلاً وتضعيف العذاب مضاعفته لانضمام المعصية إلى الكفر ويدل عليه قوله:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠) ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٧١).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم، أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثواباً. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فلذلك يعفو عن السيئات ويثبت على الحسنات.

﴿وَمَنْ تَابَ﴾ عن المعاصي بتركها والندم عليها. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يتلافى به ما فرط، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة. ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرجع إلى الله بذلك. ﴿مَتَابًا﴾ مرضياً عند الله ماحياً للعقاب محصلاً للثواب، أو يتوب متاباً إلى الله الذي يحب التائبين ويصطنع بهم؛ أو فإنه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وهو تعميم بعد تخصيص.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمِيانًا﴾ (٧٣).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادة الباطلة، أو لا يحضرون محاضر الكذب فإن مشاهدة الباطل شركة فيه. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ ما يجب أن يلقى ويطرح. ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومن ذلك الإغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية فيما يستهجن التصريح به.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بالوعظ أو القراءة. ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُومًا وَغَمِيانًا﴾ لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا متبصرين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر، بل أكبوا عليها سامعين بأذان واعية مبصرين بعيون واعية، فالمراد من النفي نفي الحال دون الفعل كقولك: لا يلقاني زيد مسلماً. وقيل الهاء للمعاصي المدلول عليها «باللغو».

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ﴾ (٧٤).

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإن المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سر بهم قلبه وقرت بهم عينه لما يرى من مساعدتهم له في الدين وتوقع لحوقهم به في الجنة، و «من» ابتدائية أو بيانية كقولك: رأيت منك أسداً، وقرأ حمزة وأبو عمرو والكسائي وأبو بكر «وذريتنا» وقرأ ابن عامر والحرميان وحفص ويعقوب «وذرياتنا» بالألف، وتنكير ال «أعين» لإرادة تنكير ال «قُرَّة» تعظيماً وتقليلها لأن المراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم. ﴿وَاجْعَلْنَا

لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ يقتدون بنا في أمر الدين بإضافة العلم والتوفيق للعمل، وتوحيده إما للدلالة على الجنس وعدم اللبس كقوله ﴿ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أو لأنه مصدر في أصله، أو لأن المراد واجعل كل واحد منا، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم. وقيل جمع أم كصائم وصيام ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ أعلى مواضع الجنة وهي اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ وللقراءة بها، وقيل هي من أسماء الجنة. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات. ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ دعاء بالتعمير والسلامة أي يحييهم الملائكة ويسلمون عليهم، أو يحيي بعضهم بعضاً ويسلم عليه، أو تبقية دائمة وسلامة من كل آفة، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يلقون﴾ من لقي.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون فيها ولا يخرجون. ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مقابل ﴿سَاءتِ مُسْتَقَرًّا﴾ معنى ومثله إعراباً.

﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي﴾ ما يصنع بكم من عبأت الجيش إذا هيأته أو لا يعتد بكم. ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ لولا عبادتكم فإن شرف الإنسان وكرامته بالمعرفة والطاعة وإلا فهو وسائر الحيوانات سواء. وقيل معناه ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة وما إن جعلت استفهامية فمحلها النصب على المصدر كأنه قيل: أي عبء يعبأ بكم. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما أخبرتكم به حيث خالفتموه. وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم: كذب القتال إذا لم يبالغ فيه. وقرئ «فقد كذب الكافرون» أي الكافرون منكم لأن توجه الخطاب إلى الناس عامة بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكون جزاء التكذيب لازماً يحق بكم لا محالة، أو أثره لازماً بكم حتى يكبكم في النار، وإنما أضمر من غير ذكر للتهويل والتنبيه على أنه لا يكتننه الوصف، وقيل المراد قتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى لازماً، وقرئ «لَزَامًا» بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والشبوت.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفرقان لقي الله وهو مؤمن بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب».

(٢٦) سورة الشعراء

مكية إلا قوله تعالى وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْخَاوُونَ ﴿١﴾ إلى آخرها وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية

﴿طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَلِغٌ قَلِيلًا مِّنَ الدِّينِ إِذْ بَلَغْتَ أَجْرَ الْوُفَايِ ﴿٣﴾﴾

﴿طسّم﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالإمالة، ونافع بين بين كراهة للعود إلى الياء المهروب منها، وأظهر نونه حمزة لأنه في الأصل منفصل عما بعده.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الظاهر إعجازه وصحته، والإشارة إلى السورة أو القرآن على ما قرر في أول «البقرة».

﴿لَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ﴾ قاتل نفسك، وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح، وقرئ «بأخع نفسك» بالإضافة، ولعل للإشفاق أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة. ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا يؤمنوا أو خيفة أن لا يؤمنوا.

﴿إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَائَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿إِنْ نَشَأْ نُذِلَّ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ دلالة ملجئة إلى الإيمان أو بلية قاسرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ متقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الخبر على أصله. وقيل لما وصفت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم. وقيل المراد بها الرؤساء أو الجماعات من قولهم: جاءنا عنق من الناس لفوج منهم، وقرئ «خاضعة» وظلت عطف على «تنزل» عطف وأكن على فأصدق لأنه لو قيل أنزلنا بدله لصح.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنَ دُكْرٍ﴾ موعظة أو طائفة من القرآن. ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ يوحى إليه نبيه. ﴿مُحَدِّثٍ﴾ مجدد إنزاله لتكرير التذكير وتنويع التقرير. ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ إلا جددوا إعراضاً عنه وإصراراً على ما كانوا عليه.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا في تكذيبه بحيث أدى بهم إلى الاستهزاء به المخبر به عنهم ضمناً في قوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ أي إذا مسهم عذاب الله يوم بدر أو يوم القيامة. ﴿أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من أنه كان حقاً أم باطلاً، وكان حقيقاً بأن يصدق ويعظم قدره أو يكذب فيستخف أمره.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرِهْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ أو لم ينظروا إلى عجائبها. ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف «كريم»

محمود كثير المنفعة، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى، وههنا يحتمل أن تكون مقيدة لما يتضمن الدلالة على القدرة، وأن تكون مبينة منبهة على أنه ما من نبت إلا وله فائدة إما وحده أو مع غيره، و ﴿كُلُّ﴾ لإحاطة الأزواج ﴿وَكَمْ﴾ لكثرتها.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ إن في إنبات تلك الأصناف أو في كل واحد. ﴿لَايَةً﴾ على أن منبتها تام القدرة والحكمة، سابغ النعمة والرحمة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في علم الله وقضائه فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام.

﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على الانتقام من الكفرة. ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث أمهلهم أو العزيز في انتقامه ممن كفر الرحيم لمن تاب وآمن.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ مقدر باذكر أو ظرف لما بعده. ﴿أَنْ أَتِيَ﴾ أي ﴿أنت﴾ أو بأن ﴿أنت﴾. ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر واستعباد بني إسرائيل وذبح أولادهم.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من الأول أو عطف بيان له، ولعل الإقتصار على القوم للعلم بأن فرعون كان أولى بذلك. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ استئناف أنبئه إرساله إليهم للإنذار تعجيباً له من إفراطهم في الظلم واجترائهم عليه، وقرئ بالتاء على الالتفات إليهم زجراً لهم وغضباً عليهم، وهم وإن كان غيباً حينئذ أجروا مجرى الحاضرين في كلام المرسل إليهم من حيث إنه مبلغه إليهم وإسماعه مبدأ إسماعهم، مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبره وتأمل مورده، وقرئ بكسر النون اكتفاء بها عن ياء الإضافة، ويحتمل أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون كقوله: ألا يا اسجدوا.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَٰزُونَ﴾ ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَٰزُونَ﴾ رتب استدعاء ضم أخيه إليه وإشراكه له في الأمر على الأمور الثلاثة: خوف التكذيب، وضيق القلب انفعالاً عنه، وازدياد الحبسة في اللسان بانقباض الروح إلى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق، لأنها إذا اجتمعت مسة الحاجة إلى معين يقوى قلبه وينوب منابه متى تعثره حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنبتر حجته، وليس ذلك تعللاً منه وتوقفاً في تلقي الأمر، بل طلباً لما يكون معونة على امتثاله وتمهيد عذره فيه، وقرأ يعقوب ﴿ويضيق﴾ ﴿ولا ينطلق﴾ بالنصب عطفاً على ﴿يكذبون﴾ فيكونان من جملة ما خاف منه.

﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ أي تبعة ذنب فحذف المضاف أو سمي باسمه، والمراد قتل القبطي وإنما سماه ذنباً على زعمهم، وهذا اختصار قصته المبسوطة في مواضع. ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ به قبل أداء الرسالة، وهو أيضاً ليس تعللاً وإنما هو استدفاع للبلية المتوقعة، كما أن ذاك استمداد واستظهار في أمر الدعوة وقوله:

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ ﴿فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ أن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٤﴾.

﴿قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ إجابة له إلى الطلبتين بوعده لدفع بلائهم اللازم رده عن الخوف، وضم أخيه إليه في الإرسال، والخطاب في ﴿فادْهَبَا﴾ على تغليب الحاضر لأنه معطوف على الفعل الذي يدل عليه

﴿كَلَّا﴾ كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت والذي طلبته. ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يعني موسى وهرون وفرعون. ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ سامعون لما يجري بينكما وبينه فأظهركما عليه، مثل نفسه تعالى بمن حضر مجادلة قوم استماعاً لما يجري بينهم وترقباً لإمداد أوليائه منهم، مبالغة في الوعد بالإعانة، ولذلك تجوز بالاستماع الذي هو بمعنى الإصغاء للسمع الذي هو مطلق إدراك الحروف والأصوات، وهو خير ثان أو الخير وحده ﴿ومعكم﴾ لغو.

﴿فَاتَّبِعْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أفرد الرسول لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا قُهِتَ عَنْدهُمْ بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ
ولذلك ثنى تارة وأفرد أخرى، أو لاتحادهما للأخوة أو لوحدة المرسل والمرسل به، أو لأنه أراد أن كل واحد منا.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أرسل لتضمن الرسول معنى الإرسال المتضمن معنى القول، والمراد خلعهم ليذهبوا معنا إلى الشام.

﴿قَالَ أَلَمْ تُؤْتِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك. ﴿أَلَمْ تُؤْتِكْ فِينَا﴾ في منازلنا. ﴿وَلِيدًا﴾ طفلاً سمي به لقربه من الولادة. ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين، ثم بقي بعد الفراق خمسين.

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني قتل القبطي، وبخه به معظماً إياه بعدما عدد عليه نعمته، وقرىء فعلتك بالكسر لأنها كانت قتلة بالوكر. ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمتي حتى عمدت إلى قتل خواصي، أو ممن تكفروهم الآن فإنه عليه السلام كان يعايشهم بالتقية فهو حال من إحدى التاءين، ويجوز أن يكون حكماً مبتدأ عليه بأنه من الكافرين بآلهيته أو بنعمته لما عاد عليه بالمخالفة، أو من الذين كانوا يكفرون في دينهم.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من الجاهلين وقد قرىء به، والمعنى من الفاعلين فعل أولي الجهل والسفه، أو من الخاطئين لأنه لم يتعمد قتله، أو من الداهلين عما يؤول إليه التوكز لأنه أراد به التأديب، أو الناسين من قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾.

﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ حكمة. ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد أولاً بذلك ما وبخه به قدحاً في نبوته ثم كر على ما عد عليه من النعمة ولم يصرح برده لأنه كان صدقاً غير قاذح في دعواه، بل نبه على أنه كان في الحقيقة نقمة لكونه مسبباً عنها فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي وتلك التربية نعمة تمنها علي ظاهراً، وهي في الحقيقة تعبيدك بني إسرائيل وقصدهم بذبح آبائهم، فإنه السبب في وقوعي إليك وحصولي في تربيتك. وقيل إنه مقدر بهمة الإنكار أي أو تلك نعمة تمنها علي وهي ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾، ومحل ﴿أَنْ عَبَّدْتُ﴾ الرفع على أنه خير محذوف أو بدل ﴿نعمة﴾ أو الجر بإضمار الباء أو النصب بحذفها. وقيل تلك إشارة إلى خصلة شنعاء

مبهمة و ﴿أَنْ عِبَدْتَ﴾ عطف ببيانها والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمة ﴿تَمْنَاهَا﴾ علي، وإنما وحد الخطاب في تمنها وجمع فيما قبله لأن المنّة كانت منه وحده، والخوف والفرار منه ومن ملئه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لما سمع جواب ما طعن به فيه ورأى أنه لم يرعو بذلك شرع في الاعتراض على دعواه فبدأ بالاستفسار عن حقيقة المرسل.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عرفه بأظهر خواصه وآثاره لما امتنع تعريف الأفراد إلا بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الأجرام المحسوسة ممكنة لتركيبها وتعددتها وتغير أحوالها، فلها مبدىء واجب لذاته وذلك المبدىء لا بد وأن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لاستحالة التركيب في ذاته.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ جوابه سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله، أو يزعم أنه ﴿رب السموات﴾ وهي واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦) قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ عدولاً إلى ما لا يمكن أن يتوهم فيه مثله ويشك في افتقاره إلى مصور حكيم ويكون أقرب إلى الناظر وأوضح عند التأمل.

﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أسأله عن شيء فيجيبني عن آخر، وسماه رسولاً على السخرية.

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تشهدون كل يوم أنه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك لاينهم أولاً، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وعارضهم بمثل مقالهم.

﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩) قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ شَيْءٌ مُبِينٌ ﴿٣٠﴾.

﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ عدولاً إلى التهديد عن المحاجة بعد الانقطاع وهكذا ديدن المعاند المحجوج، واستدل به على ادعائه الألوهية وإنكاره الصانع وأن تعجبه بقوله ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ من نسبة الربوبية إلى غيره، ولعله كان دهرياً اعتقد أن من ملك قطراً أو تولى أمره بقوة طالعه استحق العبادة من أهله، واللام في ﴿المسجونين﴾ للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني فإنه كان يطرحهم في هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك جعل أبلغ من لأسجنتك.

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْكَ شَيْءٌ مُبِينٌ﴾ أي أنفعل ذلك ولو جثت بك شيء يبين صدق دعواي، يعني المعجزة فإنها

الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته والدلالة على صدق مدعي نبوته، فالواو للحال وليها الهمزة بعد حذف الفعل.

﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُمَّلٌ مُّیْنٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ فَأَتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ في أن لك بينة أو في دعواك، فإن مدعي النبوة لا بُدَّ له من حجة.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُمَّلٌ مُّیْنٌ﴾ ظاهر ثعبانيته واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب إذا فجرت فانفجر.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِیْنَ﴾ روي أن فرعون لما رأى الآية الأولى قال فهل غيرها، فأخرج يده قال فما فيها فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق.

﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فائق في علم السحر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ بهر سلطان المعجزة حتى حطه عن دعوى الربوبية إلى مؤامرة القوم واتثمارهم وتغييرهم عن موسى وإظهار الاستشعار عن ظهوره واستيلائه على ملكه.

﴿قَالُوا أَزْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَابُ لَيْلَتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قَالُوا أَزْجَاهُ وَأَخَاهُ﴾ أي آخر أمرهما، وقيل أحسهما. ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ﴾ شرطاً يحشرون السحرة.

﴿يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ يفضلون عليه في هذا الفن وأمالها ابن عامر وأبو عمرو والكسائي، وقرئ «بكل ساحر».

﴿فَجَمَعَ السَّحَابُ لَيْلَتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَابَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَابُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَیْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِلَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ﴾ فيه استبطاء لهم في الاجتماع حثاً على مبادرتهم إليه كقول تابط شراً: هَلْ أَتَتْ بَاعِثٌ دِيَّارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدٌ رَبِّ أَخَاعُونَ بِنَ مَخْرَاقٍ أي ابعت أحدهما إلينا سريعاً.

﴿لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَابَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ لعلنا نتبعهم في دينهم إن غلبوا والترجي باعتبار الغلبة

المقتضية للاتباع، ومقصودهم الأصلي أن لا يتبعوا موسى لا أن يتبعوا السحرة فساقوا الكلام مساق الكناية لأنهم إذا اتبعوهم لم يتبعوا موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَمُنَافِعُكَ أَمْ لَكَ عَلَيْنَا خِطَابٌ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ نَمُّ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمُقَرَّبِينَ﴾ التزم لهم الأجر والقربة عنده زيادة عليه إن غلبوا فإذا على ما يقتضيه من الجواب والجزاء، وقرىء «نعم» بالكسر وهما لغتان.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي بعدما قالوا له ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَلْقَوْنَ﴾، ولما يرد به أمرهم بالسحر والتمويه بل الإذن في تقديم ما هم فاعلوه لا محالة توسلاً به إلى إظهار الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أقسموا بعزته على أن الغلبة لهم لفرط اعتقادهم في أنفسهم، أو لإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر.

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تبتلع، وقرأ حفص «تلقف» بالتخفيف. ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يقلبونه عن وجهه يتمويههم وتزويرهم فيخيلون بحالهم وعصيتهم أنها حيات تسعى، أو إفكهم تسمية للمأفوك به مبالغة.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِيدٍ﴾ لعلمهم بأن مثله لا يتأتى بالسحر، وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزويق يخيل شيئاً لا حقيقة له، وأن التبحر في كل فن نافع. وإنما بدل الخور بالإنشاء ليشاكل ما قبله ويدل على أنهم لما رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أنفسهم كأنهم أخذوا فطرحوا على وجوههم، وأنه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بدل من «ألقي» بدل الاشتمال أو حال بإضمار قد.

﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إبدال للتوضيح ودفع التوهم والإشعار على أن الموجب لإيمانهم ما أجراه على أيديهما.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فعلمكم شيئاً دون شيء ولذلك غلبكم، أو فواعدكم على ذلك وتواطأتم عليه، وأراد به التلبس على قومه كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وروح «آمنتكم» بهمزتين. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم وقوله: ﴿لَا أَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيان له.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥١﴾.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر علينا في ذلك. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ بما توعدنا به فإن الصبر عليه محاء

للدنوب موجب للشواب والقرب من الله تعالى، أو بسبب من أسباب الموت والقتل أنفعها وأرجاها.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا﴾. «أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ» من أتباع فرعون، أو من أهل المشهد والجملة في المعنى تعليل ثانٍ لنفي الضمير، أو تعليل للعلة المتقدمة. وقرئ «إن كنا» على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة، أو على طريقة المدل بأمره نحو إن أحسنت إليك فلا تنس حقى.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَٰكُم مَّتَّبِعُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزدوا إلا عتواً وفساداً، وقرأ ابن كثير ونافع «أن اسر بعبادي» بكسر النون ووصل الألف من سرى وقرئ «أن سر» من السير. «إِنكُمْ مَّتَّبِعُونَ» يتبعكم فرعون وجنوده وهو علة الأمر بالإسراء أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصباحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣) «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ» (٥٤) «وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآغِطُونَ» (٥٥) «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاقِدُونَ» (٥٦).

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حين أخبر بسراهم. «فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» العساكر ليتبعوهم.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ على إرادة القول وإنما استقلهم وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً بالإضافة إلى جنوده، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبعمائة ألف والشرذمة الطائفة القليلة، ومنها ثوب شرادم لما بلى وتقطع، و «قليلون» باعتبار أنهم أسباط كل سبط منهم قليل.

﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآغِطُونَ﴾ لفاعلون ما يغيظنا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاقِدُونَ﴾ وإنا لجمع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور، أشار أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يظن به ما يكسر سلطانه، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان والكوفيون «حادرون» والأول للثبات والثاني للتجدد، وقيل الحادر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يفعل حذراً، وقرئ «حادرون» بالبدال المهملة أي أقرباء قال:

أَحِبُّ النَّصِيبِ السُّوءِ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ

أو تامو السلاح فإن ذلك يوجب حدارة في أجسامهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧) «وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» (٥٨) «كَذَٰلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ» (٥٩) «فَاتَّبَعُوهُمْ» (٦٠) «مُشْرِقِينَ» (٦١).

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ بأن خلقنا داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه. «مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ».

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يعني المنازل الحسنة والمجالس البهية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر، أو مثل ذلك المقام الذي كان لهم على أنه صفة مقام، أو الأمر كذلك فيكون خبر المحذوف. «وَأَوْثَقْنَاهَا بَنِي إِسْرَٰءِيلَ».

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ وقرئ «فاتبعوهم». «مُشْرِقِينَ» داخلين في وقت شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا تَرَا الْجَمْعَانِ﴾ تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر، وقرىء «تراءت الفئتان» ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ لملحقون، وقرىء «لمدركون» من أدرك الشيء إذا تابع ففني، أي: لمتتابعون في الهلاك على أيديهم.

﴿قَالَ كَلَّا﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم. ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بالحفظ والنصرة. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم، زوي أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى فقال: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون، فقال: أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم أو النيل. ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضرب فانفلق وصار اثني عشر فرقا بينها مسالك. ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب.

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ وقربنا. ﴿ثُمَّ الْآخِرِينَ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ بإطباقه عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وآية آية. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط، وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المستقم من أعدائه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

﴿وَأَنَّا عَلَيْنَهُمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمْنَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَأَنَّا عَلَيْنَهُمْ﴾ على مشركي العرب. ﴿نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ سألهم ليربهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْكُمْنَ﴾ فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحا به وافتخارا، و «نظّل» ها هنا بمعنى ندوم. وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ﴾ يسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة. ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه

وقرىء «يسمعونكم» أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم ومجيئه مضارعاً مع ﴿إِذْ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضرأ لها.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ﴾ على عبادتكم لها. ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ من أعرض عنها.

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم ضرر أو نفع، والتجؤوا إلى التقليد.

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً.

﴿فَأِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في النصيح من التصريح، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول، وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبده وكان من آباءهم من عبد الله.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد كما قال ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدِي﴾ هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين إلى امتصاص دم الطمث من الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعيم بلذاتها، والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية وقوله:

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ على الأول مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم.

﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطف على ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم، ولا ينتقض بإسناد الإمامة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحس به لا ضرر فيه وإنما لضرر في مقدماته وهي المرض، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحق دونها الحياة الدنيوية وخلاص من أنواع المحن والبليات، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم.

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ في الآخرة.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٧) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخَقِيقَةَ بِالصَّالِحِينَ

﴿٨٣﴾

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر، وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفاراً لما عسى يندر منه من الصغائر، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث: «إني سقيم»، «بل فعله كبيرهم هذا»، وقوله «هي أختي»، ضعيف لأنها معارضة وليست خطايا.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ كمالاً في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق. ﴿وَالْخَقِيقَةَ بِالصَّالِحِينَ﴾ ووفقتي للكمال في العمل لأنظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره.

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٨) وَلَجَعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾

﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبوبون له مثنون عليه، أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد ﷺ.

﴿وَاجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الورثة فيها.

﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِي﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ طريق الحق وإن كان هذا الدعاء بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمان تقية من نمرود ولذلك وعده به، أو لأنه لم يمنع بعد من الاستغفار للكفار.

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ بمعاتبتي على ما فرطت، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث، أو بتعذبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً، أو بتعذيب والدي، أو ببعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان، أو من الخزاية بمعنى الحياء. ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أو لـ ﴿الضالين﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته، أو لا ينفعان إلا مال من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة. وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنى إلا غناه. وقيل منقطع والمعنى لكن سلامة ﴿من أتى الله بقلب سليم﴾ تنفعه.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠) وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنِّي مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون بأنهم المحشورون إليها.

﴿وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فيرونها مكشوفة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها، وفي اختلاف الفعلين

ترجيح لجانب الوعد.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيْنَ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَفَعَاؤُكُمْ. ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُم﴾ بدفع العذاب عنكم. ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتهم يدخلون النار كما قال:

﴿فَكُنْكِوْا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾ ﴿٩٤﴾ وَخُودٌ إِلَيْسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿فَكُنْكِوْا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنُ﴾ أي الآلهة وعبدتهم، والكبكة تكرير الكب لتكرير معناه كأن من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها.

﴿وَجُودٌ إِلَيْسَ﴾ متبعوه من عصاة الثقلين، أو شياطينه. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للـ ﴿جُودٍ﴾ إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير و ﴿مَا﴾ عطف عليه وكذا الضمير المنفصل وما يعود إليه في قوله:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ على أن الله ينطق الأصنام فتخاصم العبداء ويؤيده الخطاب في قوله:

﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ أي في استحقاق العبادة، ويجوز أن تكون الضمائر للعبدة كما في ﴿قَالُوا﴾ والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهم مكهم في الضلالة متحسرون عليها.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء.

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ إذ الأجلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعدهم شفعاء وأصدقاء، أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق، وجمع الشافع ووحد الـ ﴿صديق﴾ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق، أو لأن الـ ﴿صديق﴾ الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء، أو لإطلاق الـ ﴿صديق﴾ على الجمع كالعدو لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ تمن للرجعة أقيم فيه «لو» مقام ليت لتلاقيهما في معنى التقدير، أو شرط حذف جوابه. ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب التمني أو عطف على ﴿كررة﴾ أي: لو أن لنا أن نكر فنكون من المؤمنين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْغَزِيرُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم. ﴿لَآيَةً﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفتهم معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصور الأمر في نفسه، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر قومه. ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ به.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على تعجيل الانتقام. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٧﴾ فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٨﴾.

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ الـ «قوم» مؤنثة ولذلك تصغر على قومية وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ لأنه كان منهم. ﴿أَلَا تَنْقُوتُ﴾ الله فتركوا عبادة غيره.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ مشهور بالأمانة فيكم.

﴿فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٩) فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾ ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ (١٢١).

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح. ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿فَانْقُوتُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرهه للتأكيد والتنبيه على دلالة كل واحد من أمانته وحسم طمعه على وجوب

طاعته فيما يدعوههم إليه فكيف إذا اجتمعوا، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في «أَجَرِيَ» في الكلمات الخمس.

﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ الأقلون جاهلاً ومالاً جمع الأردل على الصحة، وقرأ يعقوب «وأتباعك» وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تبع كبطل وأبطال، وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الحطام الدنيوية، حتى جعلوا اتباع المقلين فيها مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بما يدعوههم إليه ودليلاً على بطلانه، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك:

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٢٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢٥﴾.

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ إنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في طعمة وما عليّ إلا اعتبار الظاهر.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطلع عليها. ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾

لعلتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاء طردهم وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا

اتباعهم المانع عنه وقوله:

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجل مبعوث لإندار المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء

كانوا أعزاء أو أذلاء فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء، أو ما عليّ إلا إنداركم إنداراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليّ أن أطردكم لاسترضائكم.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ بِنُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١٢٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٢٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ

فَتَحاً وَبَيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾.

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ﴾ عما تقول. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه.

﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفتاحة. ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم.

﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢١﴾.

﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بعد إنجائه. ﴿الْبَاقِينَ﴾ من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ شاعت وتواترت. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ أنه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَمِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْمَلَمِينَ﴾ تصدير القصص بها دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه، وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية.

﴿أَتَتَّبِعُونَ يَكُلُّ رِيعَ مَائَةٍ تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ وَتَخْلُدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٢٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾.

﴿أَتَتَّبِعُونَ يَكُلُّ رِيعَ﴾ بكل مكان مرتفع، ومنه ريع الأرض لارتفاعها. ﴿مَائَةٍ﴾ علماً للمارة. ﴿تَعْبَثُونَ﴾ بيناتها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام، أو بنياناً يجتمعون إليه للبعث بمن يمر عليهم، أو قصوراً يفتخرون بها.

﴿وَتَخْلُدُونَ مَصَانِعَ﴾ مأخذ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فتحكمون بيناتها.

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ﴾ بسيف أو سوط. ﴿بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ متسلطين غاشمين بلا رافة ولا قصد تأديب ونظر في

العاقبة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك هذه الأشياء. ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٣٠﴾ وَخَنَتِ وَعُيُونِ ﴿١٣١﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾ .

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كرهه مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلًا وتنبيهًا على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالإنقطاع، ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساوئهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مبالغة في الإيقاظ والحث على التقوى فقال .

﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ثم أوعدهم فقال .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الانتقام .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٢٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ .

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فإننا لا نرعوى عما نحن عليه، وتغيير شق النفي عما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه .

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ ما هذا الذي جئنا به إلا كذب الأوليين، أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة ﴿خلق الأولين﴾ بضميتين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادة الأولين كانوا يلقون مثله، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم تزل الناس عليها .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ على ما نحن عليه .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴿١٣٢﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٥﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلَنْتُمْ بِهِ آمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ * إنكار لأن يتركوا كذلك أو تذكير للنعمة في تخليته الله إياهم وأسباب تنعمهم آمينين ثم فسر بقوله :

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ لطيف لين للطف التمر، أو لأن النخل أنشئ وطلع إناث النخل لطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنوت، أو متدل منكسر من كثرة الحمل، وإفراد الـ ﴿نخل﴾ لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار .

﴿وَتَنَجَّيْتُمْ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ فَارِهِينَ ﴿١٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤١﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٢﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ .

﴿وَتَنَجَّيْتُمْ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَئِذٍ فَارِهِينَ﴾ بطرين أو حاذقين من الفراهة وهي النشاط، فإن الحاذق يعمل

بنشاط وطيب قلب. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «فرهين» وهو أبلغ من «فارهم».

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ» استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامثال الأمر، أو نسب حكم الأمر إلى أمره مجازاً.

﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وصف موضع لإسرافهم ولذلك عطف: ﴿وَلَا يُضْلِحُونَ﴾ على يفسدون دلالة على خلوص فسادهم.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِيتَ بِالنَّاسِ أَنْ يَدْعُوا بِهِ﴾ (١٥٤).

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم، أو من ذوي السحر وهي الرقة أي من الأناسي فيكون ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكيداً له. ﴿فَأَبِيتَ بِالنَّاسِ أَنْ يَدْعُوا بِهِ﴾ في دعواك.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ الَّتِي شَرِبَ وَلَكِنَّهَا فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥٦) ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ (١٥٧) ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٨).

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أي بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها. ﴿الَّتِي شَرِبَ﴾ نصيب من الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي والقوت وقرى بالضم. ﴿وَلَكِنَّهَا فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فاقترضوا على شربكم ولا تراحموا في شربها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ كضرب وعقر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسند العقير إلى كلهم لأن عاقرها إنما عقرها برضاهم ولذلك أخذوا جميعاً. ﴿فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبة، أو عند معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي العذاب الموعود. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥٩) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٦١) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٦٢) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٦٣) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٤) ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (١٦٦).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ» «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ» «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ».

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ» أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم، أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم، فالمراد بـ «العالمين» على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ لأجل استمتاعكم. ﴿رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ للبيان إن أريد به جنس الإناث، أو للتبعيض إن أريد به العضو المباح. منهن فيكون تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضاً. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات، أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة.

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَ لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨).

﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَ لُوطُ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا وتقييح أمرنا. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من المنفيين من بين أظهرنا، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ من المبغضين غاية البغض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد، وهو أبلغ من أن يقول ﴿إني لعملكم﴾ قال لدلالته على أنه معدود في زميرهم مشهور بأنه من جملتهم.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩) فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١).

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي من شؤمه وعذابه.

﴿فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أهل بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم. ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط. ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ مقدرة في الباقيين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم. وقيل كائنة فيمن بقي في القرية فإنها لم تخرج مع لوط.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (١٧١) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٤).

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ أهلكتناهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وقيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة فأهلكهم. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء. والمخصوص بالدم محذوف وهو مطرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١).

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة فبعث الله إليهم شعبياً كما بعثه إلى مدين وكان أجنبياً منهم فلذلك قال:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب. وقيل الأيكة شجر ملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «ليكة» بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدتهم، وإنما كتبت ها هنا وفي ص غير ألف اتباعاً للفظ.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أتموه. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الناقصين حقوق الناس بالتطفيف.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (١٨٧) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ بالميزان السوي، وهو وإن كان عربياً فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف. ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ وذوي الجيلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه. ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في دعواك. ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قطعة منها، ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد. وقرأ حفص بفتح السين. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعواك.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾.

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبعذابه منزل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت أنهارهم وأظلمت سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩١) وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلياً لرسول الله ﷺ وتهديداً للمكذبين به، وإطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به، واقتراحهم له استهزاء وعدم مبالاة به يدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان إيتاء لهم لا مؤاخدة على تكذيبهم. ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾.

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد ﷺ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل، والقلب إن أراد به الروح فذاك وإن أراد به العضو فتخصيصه، لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق، ثم تنصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة، و ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ جبريل عليه السلام فإنه أمين الله على وحيه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصب ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ واضح المعنى لثلاثا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق بـ ﴿نَزَلَ﴾، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين أي لتكون ممن أُنذروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا عُلْمَتَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾.

﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد ﷺ. ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقرير لكونه دليلاً. وقرأ ابن عامر ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء و ﴿آيَةٌ﴾ بالرفع على أنها الاسم والخبر ﴿لَهُمْ﴾ ﴿وَأَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بدل أو الفاعل و ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بدل ﴿وَلَهُمْ﴾ حال، أو أن الاسم ضمير القصة و ﴿آيَةٌ﴾ خبر ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ والجملة خبر تكن.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ كما هو زيادة في إعجازه أو بلغة العجم.

﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم، أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم، و ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أدخلناه. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فتدل الآية على أنه بخلق الله، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه ثم لم يؤمنوا به عناداً.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الملجئ إلى الإيمان.

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بآتيانه.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ تحسراً وتأسفاً.

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾.

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فيقولون أمطر علينا حجارة من السماء، ﴿فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدَّنَا﴾، وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ لم يغن عنهم تمتعهم المتطاوّل في دفع العذاب وتخفيفه.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أُنذروا أهلها إلزاماً للحجة.

﴿ذِكْرَى﴾ تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها في معنى الإنذار، أو الرفع على أنها صفة

﴿مَنْذُورُونَ﴾ بإضمار ذور، أو بجعلهم ذكرى لإمعانهم في التذكرة، أو خبر محذوف والجملة اعتراضية. ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنهلك غير الظالمين، أو قبل الإنذار.

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١٥) ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ (٢١٦) ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٢١٧) ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ (٢١٨) ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢١٩).

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يصح لهم أن يتزلوا به. ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ وما يقدرُونَ.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لكلام الملائكة. ﴿لَمْعَزُولُونَ﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقاها إلا من الملائكة.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ تهيج لإزدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين.

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٢٠) ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢١) ﴿إِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢٢).

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم. روي أنه لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال: «لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي» قالوا نعم قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لين جانبك لهم مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط، و ﴿مَنِ﴾ للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره، أو للتبعض على أن المراد ﴿مَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان.

﴿إِنْ عَصَوْكَ﴾ ولم يتبعوك. ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مما تعملونه أو من أعمالكم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٢٣) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢٢٤) ﴿وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾ (٢٢٥) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٢٦).

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. وقرأ نافع وابن عامر «فتوكل» على الإبدال من جواب الشرط.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ إلى التهجد.

﴿وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾ وترددك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي أنه عليه السلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن. أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم، وإنما وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تنويه.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٢٧) ﴿نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاقٍ شِيمٍ﴾ (٢٢٨) ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ

كَذِبُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ﴾ لما بين أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمداً ﷺ لا يصح أن ينزلوا عليه من وجهين: أحدهما أنه إنما يكون على شرير كذاب كثير الإثم، فإن اتصال الإنسان بالغائبات لما بينهما من التناسب والتواد وحال محمد ﷺ على خلاف ذلك. وثانيهما قوله:

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات لنقصان علمهم، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء في الحديث «الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» ولا كذلك محمد ﷺ، فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها، وقد فسر الأكثر بالكل لقوله تعالى: ﴿كُلُّ آفَاكٍ أَثِيمٌ﴾. والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني. وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملائكة الأعلى قبل أن يرجعوا فيختطفون منهم بعض المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، وهو استثناء أبطل كونه عليه الصلاة والسلام شاعراً وقرره بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأغلب كلماتهم في النسيب بالحرم والغزل والابتهاج وتمزيق الأعراض والقدهج في الأنساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه، وإليه أشار بقوله:

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ وكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى، وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين، وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلم في القسمين وبين منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول ﷺ لحال أربابهما. وقرأ نافع ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ على التخفيف، وقرئ بالتشديد وتسكين العين تشبيهاً لبعضه بعضاً.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ ﴿١٢٤﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثر ذكر الله ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته، ولو قالوا هجواً أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هجاة المسلمين كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكميين، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان «قل وروح القدس معك». وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام قال له «اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل» ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم، وفي أي منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهد

إليه، وقرء «أي منفلت ينفلتون» من الانفلات وهو النجاة والمعنى: أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم ويعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام».

(٢٧) سورة النمل

مكية وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ الإشارة إلى أي السورة، والكتاب المبين إما اللوح المحفوظ وإبائه أنه خط فيه ما هو كائن فهو بيّنه للنّاظرين فيه، وتأخيره باعتباره تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار الوجود، أو القرآن وإبائه لما أودع فيه من الحكم والأحكام، أو لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى وتنكيره للتعظيم. وقرئ ﴿وَكِتَابٍ﴾ بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حالان من الـ ﴿آيَاتٍ﴾ والعامل فيهما معنى الإشارة، أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من تمتة الصلة والواو للحال أو للعطف، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه، أو جملة اعتراضية كأنه قيل: وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فإن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العقابة والوثوق على المحاسبة وتكرير الضمير للاختصاص.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ زين لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس، أو الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ عنها لا يدركون ما يتبعها من ضر أو نفع.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر. ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ لتؤتاه. ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي حكيم وأي عليم، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هي حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَبَرٌ أَوْ آيَاتُكُمْ بِشَاهِدٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر قصته ﴿إِذْ قَالَ﴾ ويجوز أن يتعلق بـ ﴿عَلِيمٍ﴾. ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه غير امرأته لما كنى عنها بالأهل، والسين للدلالة على بعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ. ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ شعلة نار مقبوسة، وإضافة الشهاب إليه لأنه قد يكون قبساً وغير قبس، ونونه الكوفيون ويعقوب على أن الـ ﴿قَبَسٍ﴾ بدل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في «طه»، والترديد للدلالة على أنه إن لم يظفر بهما لم يعدم، أحدهما بناء على ظاهر الأمر أو ثقة بعادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده. ﴿لَعَلَّكُمْ تَضْطَلُونَ﴾ رجاء أن تستدثوا بها والصلاء النار العظيمة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿يُمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ﴾ أي «بورك» فإن النداء فيه معنى القول، أو بـ ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة، والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة. ﴿مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ «من» في مكان «النار» وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ ومن حول مكانها والظاهر أنه عام في كل من في تلك الأرض، وفي ذلك الوادي وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى. وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر بركته في أقطار الشام. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تمام ما نودي به لكلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجب من عظمة ذلك الأمر، أو تعجب من موسى لما دهاه من عظمته.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ الهاء للشأن و «أنا الله» جملة مفسرة له، أو للمتكلم و «أنا» خبره و «الله» بيان له. «العزیز الحكيم» صفتان لله ممهدتان لما أراد أن يظهره، يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف على «بورك» أي نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك، ويدل عليه قوله «وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ» بعد قوله «أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ» بتكرير أن. ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ﴾ تتحرك باضطراب. «كَأَنَّهَا جَانٌّ» حية خفيفة سريعة، وقرئ «جان» على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين. «وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ» ولم يرجع من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار، وإنما رعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به ويدل عليه قوله: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقاً لقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق فإنهم أخوف الناس أي من الله تعالى، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة فيخافون منه.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ استثناء منقطع استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم، وفيهم من فرطت منه صغيرة فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فعلها ما يبطلها ويستحقون به من الله مغفرة ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً، وقصد تعريض موسى بوكزه القبطي. وقيل متصل وثم بدل مستأنف معطوف على محذوف أي من ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

﴿١٢﴾

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ لأنه كان بمدرعة صوف لا كم لها. وقيل الجيب القميص لأنه يجاب أي يقطع. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ آفة كبرص. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ في جملتها أو معها على أن التسع هي، الفلق، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجذب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الأخيرين واحداً ولا يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون. أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلأ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل للإرسال.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ بأن جاءهم موسى بها. ﴿مُبْصِرَةً﴾ بينة اسم فاعل أطلق للمفعول، إشعاراً بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمي لا تهدي فضلاً عن أن تهدي، أو مبصرة كل من نظر إليها وتأمل فيها. وقرئ «مبصرة» أي مكاناً يكثر فيه التبصر. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ واضح سحرته.

﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ وكذبوا بها. ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال. ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم. ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً عن الإيمان واتصاها على العلة من ﴿جحدوا﴾. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإخراق في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ طائفة من العلم وهو علم الحكم والشرائع، أو علماً أي علم. ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة كأنه قال: ففعلاً شكراً له ما فعلاً ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. ﴿الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني من لم يؤت علماً أو مثل علمهما، وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبروا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما، وتحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير.

﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عُلْمًا مِنْ طَائِفِ الْأَطْيَرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ

الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾ وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُوْدُهُ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وَالْأَطْيَرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ النبوة أو العلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيهِ وكانوا تسعة عشر. ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلْمُنَا مِنْ طَائِفِ الْأَطْيَرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنوياً بها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطوق الطير وغير ذلك من عظام ما أوتيه، والنطق والمنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوت به على التشبيه، أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات منزلة منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه،

ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية التخليل الذي صوته والغرض الذي توخاه به. ومن ذلك ما حكى أنه مر بيلبل يصوت ويترقص فقال: يقول إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء، وصاحت فاخنة فقال: إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا، فلعله كان صوت البيلبل عن شبع وفراغ بال وصياح الفاخنة عن مقاساة شدة وتآلم قلب، والضمير في «علمنا» و«أوتينا» له ولأبيه عليهما الصلاة والسلام أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة، والمراد «من كل شيء» كثرة ما أوتي كقولك: فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء. «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ» الذي لا يخفى على أحد.

﴿وَحُخِرَ﴾ وجمع «لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ» يحبسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ واد بالشام كثير النمل، وتعدية الفعل إليه بـ «على» إما لأن إتيانهم كان من عال أو لأن المراد قطعه من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أخريات الوادي. «قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ» كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطمتهم فتبعها غيرها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعها، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق. «لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ» نهى لهم عن الحطم، والمراد نهى عن التوقف بحيث يحطمونها كقولهم: لا أرينك ها هنا، فهو استئناف أو بدل من الأمر لا جواب له فإن النون لا تدخل في السعة. «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» بأنهم يحطمونكم إذ لو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء. وقيل استئناف أي فهم سليمان والقوم لا يشعرون.

﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضها ولذلك سأل توفيق شكره. «وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه، وقرأ البري وورش بفتح ياء «أوزعني». «الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ» أدرج فيه ذكر والديه تكثريراً للنعمة أو تعميماً لها، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيما الدينية. «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ» إتماماً للشكر واستدامة للنعمة. «وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ» في عدادهم الجنة.

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهَدْمَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ﴾ وتعرف الطير فلم يجد فيها الهدم. «فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَىٰ الْهَدْمَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ» أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لسائر أو غيره فقال: ما لي لا أراه، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له.

﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس، أو حيث النمل يأكله أو جعله مع ضده في قفص. «أَوْ لَأَذِجَنَّهُ» ليعتبر به أبناء جنسه. «أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» بحجة تبين عذره، والحلف في الحقيقة

على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الأمور الثلاثة ثلث المحلوف عليه بعطفه عليهما، وقرأ ابن كثير أو «ليأتيني» بنونين الأولى مفتوحة مشددة.

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَبِينٍ﴾ (٢٣).

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه، وقرأ عاصم بفتح الكاف. ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ يعني حال سبأ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتحقاق إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه، وقرئ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق. ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بفتح السين. ﴿يَبِينٍ﴾ بفتح الهمزة ساكنة. يخبر متحقق روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهيرة فأعجبه نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء. وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء. فتفقدته لذلك فلم يجده إذ خلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقفاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له، ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستكبرها من ينكرها.

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤).

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان، والضمير لسبأ أو لاهلها. ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الملوك. ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها. وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً وسمكاً، أو ثمانين في ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر. ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها. ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ عبادة الشمس وغيرها من مقايح أعمالهم. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن سبيل الحق والصواب. ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إليه.

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦).

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فصدهم لثلاث يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من «أعمالهم»، أو «لا يهتدون» إلى أن يسجدوا بزيادة «لا». وقرأ الكسائي ويعقوب «إلا» بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف أي: ألا يا قوم اسجدوا كقولهم:

وَقَالَتْ أَلَا يَا أَسْمَعَ أَعْظَمُ بِخَطِيئَةٍ فَقُلْتُ سَمِيعاً فَأَنْطِقِي وَأَصِيبِي

وعلى هذا صح أن يكون استثناءً من الله أو من سليمان والوقف على «لا يهتدون»، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوب السجود في الجملة لا عند قراءتها، وقرئ «هلا» و «هلا» بقلب الهمزة هاء و «ألا تسجدون» و «هلا تسجدون» على الخطاب. ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وصف له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم حثاً على سجوده ورداً على من يسجد لغيره، و «الخباء» ما خفي في غيره

وإخراجه إظهاره، وهو يعم إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجود والوجود معلوم أنه يختص بالواجب لذاته. وقرأ حفص والكسائي ﴿ما تخفون وما تعلنون﴾ بالتاء.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها فيين العظيمين بون.

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧) أَذْهَبَ يَكْتَبِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ﴾ سنعرف من النظر بمعنى التأمل. ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي أم كذبت والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل.

﴿أَذْهَبَ يَكْتَابِي هَذَا قَالِقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه. ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُفِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣١).

﴿قَالَتْ﴾ أي بعد ما ألقى إليها. ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به.

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ استئناف كأنه قيل لها ممن هو وما هو فقالت إنه، أي إن الكتاب أو العنوان من سليمان ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي وإن المكتوب أو المضمون. وقرئ بالفتح على الإبدال من ﴿كتاب﴾ أو التعليل لكرمه. ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ أن مفسرة أو مصدرية فتكون بصلتها خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلموا أو بدل من ﴿كتاب﴾. ﴿وَاتُفِي مُسْلِمِينَ﴾ مؤمنين أو منقادين، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود، لاشتماله على البسمة الدالة على ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهاة الفضائل، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (٣٣).

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أجيبي في أمري وأذكروا ما تستصوبون فيه. ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ ما أبت أمراً. ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ إلا بمحضركم استعطفهم بذلك ليمالئوها على الإجابة.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةً﴾ بالأجساد والعدد. ﴿وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ نجدة وشجاعة. ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ موكل. ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ من المقاتلة أو الصلح نطعك وتتبع رأيك.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أُولَئِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٣٤) وَإِنِّي

مُرْسِلَةً إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرُوا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة. ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خطتهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم أن الحرب سجال لا تدرى عاقبتها. ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾ بنهب أموالهم وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر. ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقرير بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة، أو تصديق لها من الله عز وجل.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ بيان لما ترى تقديمه في المصالحة، والمعنى إني مرسله رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي. ﴿فَنَظَرُوا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك. روي أنها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زي الجوارى وجواري على زي الغلمان، وحققاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وقالت: إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خيطاً، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أي الرسول أو ما أهدت إليه وقرىء «فلما جاؤا». ﴿قَالَ أْتَيْدُونَنِي بِمَالٍ﴾ خطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب. وقرأ حمزة ويعقوب بالإدغام وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذف الياء. ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها وبإمالتها الكسائي وحده. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي. ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم، والإضراب عن إنكار الإمداد بالمال عليه وتقليله إلى بيان السبب الذي حملهم عليه، وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها.

﴿أَرْجِعْ﴾ أيها الرسول. ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إلى بلقيس وقومها. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء «بهم». ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ من سبأ. ﴿أَذِلَّةً﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أسراء مهانون.

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على عظم القدرة وصدقه في دعوى النبوة، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أنعرفه أم تنكره؟. ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ خبيث مارد. ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ بيان له لأنه يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر أقرانه، وكان اسمه ذكوان أو صخرأ. ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف

النهار. ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ﴾ على حمله. ﴿لَقَوِيَّ أَمِينٌ﴾ لا اختزل منه شيئاً ولا أبدله.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٤١).

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ آصف بن برخيا وزيره، أو الخضر أو جبريل عليهما السلام أو ملك أيده الله به، أو سليمان عليه السلام نفسه فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ للتعريف كأنه استبطأه فقال له ذلك، أو أراد إظهار معجزة في نقله فتحدهام أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم، والمراد بـ ﴿الكتاب﴾ جنس الكتب المنزلة أو اللوح، و ﴿آتيك﴾ في الموضعين صالح للفعلية والاسمية، و«الطرف» تحريك الأجفان للنظر فوضع موضعه ولما كان الناظر يوصف بإرسال الطرف كما في قوله:

وَكُنْتُ إِذَا أُرْسِلْتُ طَرْفُكَ زَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبَتْكَ الْمَنَاطِرُ

وصف برد الطرف والطف بالارتداد، والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها بين يديك، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه. ﴿فَلَمَّا رَآهُ﴾ أي العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ حاصلًا بين يديه. ﴿قَالَ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ تفضل به علي من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة إرتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره، والكلام في إمكان مثله قد مر في آية «الإسراء». ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه. ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ بأن أجد نفسي في البين، أو أقصر في أداء واجبه ومحلها النصب على البذل من الياء. ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها ويحط عنها عبء الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره. ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإنعام عليه ثانياً.

﴿قَالَ نَكُرُواْ لَهَا عَرَشَهَا نَظَرْ أُنْهَدِيْ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا أَلَعَلَّ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٣).

﴿قَالَ نَكُرُواْ لَهَا عَرَشَهَا﴾ بتغيير هيئته وشكله. ﴿نَظَرْ﴾ جواب الأمر، وقرئ بالرفع على الاستئناف. ﴿أُنْهَدِيْ أَمْ تَكُوْنُ مِنَ الَّذِيْنَ لَا يَهْتَدُوْنَ﴾ إلى معرفته أو الجواب الصواب، وقيل إلى الإيمان بالله ورسوله إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلفة عليه الأبواب موكلة عليها الحراس.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ تشبيهاً عليها زيادة في امتحان عقلها إذ ذكرت عنده بسخافة العقل. ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تقل هو هو الاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها. ﴿وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ من تمتة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت: وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوتك قبل هذه الحالة، أو المعجزة مما تقدم من الآيات. وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله ورسوله حيث جوزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً، وإحضاره ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أي وأوتينا العلم بالله وقدرته وصحة ما جاء به من عنده قبلها وكنا متقادين لحكمه ولم نزل على دينه، ويكون غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكراً لله تعالى.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام، أو وصدها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان. ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وقرئ بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول، أي صدها نشؤها بين أظهر الكفار أو التعليل له.

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ القصر وقيل عرصة الدار. ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ روي أنه أمر قبل قدومها ببناء قصر صحته من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه، فلما أبصرته ظننته ماء راكداً فكشفت عن ساقها. وقرأ ابن كثير برواية قبل «ساقها» بالهمز حملاً على جمعه سؤوق وأسوق. ﴿قَالَتْ إِنَّهُ﴾ إن ما تظننه ماء. ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مملس. ﴿مِنْ قَوَارِيرَ﴾ من الزجاج.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادتي الشمس، وقيل بظني سليمان فإنها حسبت أنه يغرقها في اللجة. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيما أمر به عباده وقد، اختلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تبع ملك همدان.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْفَوْرُ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٤٦) قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَيَمْنًا مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ بأن اعبدوا الله، وقرئ بضم النون على اتباعها الباء. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ففاجؤا التفرق والاختصاص فأمن فريق وكفر فريق، والواو لمجموع الفريقين.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا. ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إن صدق إيعاده تبنا حينئذ. ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ قبل نزوله. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ.

﴿قَالُوا أَطِئْنَا﴾ تشاء منا. ﴿بِكَ وَيَمْنًا مَعَكَ﴾ إذ تابعت علينا الشدائد، أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم. ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ﴾ سبيكم الذي جاء منه شركم. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء، والإضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَنقُوَنَّ لَوْلِيَهُ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ تسعة أنفس، وإنما وقع تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى، والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة، والنفر من الثلاثة إلى التسعة. ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي شأنهم الإفساد الخالص عن شوب الصلاح.

﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض. ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أمر مقول أو خبر وقع بدلاً أو حالاً بإضمامار قد. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ لنباغتن صالِحاً وأهله ليلاً. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض، وقرئ بالياء على أن تقاسموا خبر. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ فيه القراءات الثلاث. ﴿لَوْلِيَهُ﴾ لولي دمه. ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ فضلاً أن تولينا إهلاكهم، وهو يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا ﴿مَهْلِكَ﴾ في قراءة حفص فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع. وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً. ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ونحلف إننا لصادقون، أو والحال ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً، أو لأننا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين.

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرَنًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ
أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾.

﴿وَمَكْرُؤًا مَكْرًا﴾ بهذه المواضع. ﴿وَمَكْرَنًا مَكْرًا﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك، روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه فقالوا: زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث ففرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة وهلك الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله:

﴿فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُهُمْ مَكْرَهُمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ و ﴿كَانَ﴾ إن جعلت ناقصة فخيرها ﴿كَيْفَ﴾ و ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ استئناف أو خبر محذوف لا خبر ﴿كَانَ﴾ لعدم العائد، وإن جعلتها تامة ف ﴿كَيْفَ﴾ حال. وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ﴾ بالفتح على أنه خبر محذوف أو بدل من اسم ﴿كَانَ﴾ أو خبر له و ﴿كَيْفَ﴾ حال.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ خالية من خوى البطن إذا خلا، أو ساقطة منهزمة من خوى النجم إذا سقط، وهي حال عمل فيها معنى الإشارة. وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيتعظون.

﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صالحاً ومن معه. ﴿وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ الكفر والمعاصي فلذلك خصوا بالنجاة.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ
دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿وَلَوْطًا﴾ واذكر لوطاً، أو وأرسلنا لوطاً للدلالة ولقد أرسلنا عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بدل على الأول وظرف على الثاني. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ تعلمون فحشها من بصر القلب واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش.

﴿أَيْتُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لا قضاء الوطر. ﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ اللاتي خلقن لذلك. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح، أو تجهلون العاقبة والتاء فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْتَهَرُونَ﴾
 ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْتَهَرُونَ﴾ أي ينتزهون عن أفعالنا، أو عن الأقدار ويعدون فعلنا قدراً.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قدرنا كونها من الباقيين في العذاب.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مر مثله.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ أمر رسوله ﷺ. بعدما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظم شأنه وما خص به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا - بتحميده والسلام على المصطفين من عباده شكراً على ما أنعم عليهم، أو علمه ما جهل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين، أو لوطاً بأن يحمده على هلاك كفره قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك. ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم، إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء.

﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿أَمِنْ﴾ بل آمن ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع. وقرأ «أمن» بالتخفيف على أنه بدل من الله. ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ لأجلكم. ﴿مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ﴾ عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته، والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما أشار إليه بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ شجر الحدائق وهي البساتين من الإحداق وهو الإحاطة. ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ أغیره بقرن به ويجعل له شريكاً، وهو المنفرد بالخلق والتكوين. وقرئ «إلهاً» بإضمار فعل مثل أتدعون أو أتشركون ويتوسط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد.

﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾

﴿أَمِنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدل من ﴿أمن خلق السموات﴾ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها. ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ وسطها. ﴿أَنْهَارًا﴾ جارية. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسٍ﴾ جبلاً تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ العذب والمالح، أو خليجي فارس والروم. ﴿حَاجِزًا﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة «الفرقان». ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيشركون به.

﴿أَمِنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا

تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ .

﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجأ إلى الله تعالى من الاضطراب، وهو افتعال من الضرورة واللام فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر. ﴿وَيُكْشِفُ السُّوءَ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوءه. ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سكنائها والتصرف فيها ممن قبلكم. ﴿إِلَٰهَ مَعَ اللَّهِ﴾ الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكرون آلاءه تذكراً قليلاً، وما مزيدة والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة. وقرأ أبو عمرو وهشام وروح بالياء وحزمة والكسائي وحفص بالتاء وتخفيف الذال.

﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض، وال ﴿ظُلُمَاتِ﴾ ظلمات الليالي وإضافتها إلى ﴿البر والبحر﴾ للملاسة، أو مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتي لا منار بها. ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ نَشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يعني المطر، ولو صح أن السبب الأكثر في تكون الرياح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لإنكسار حرها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خلق الله تعالى، والفاعل للسبب فعل للمسبب. ﴿إِلَٰهَ مَعَ اللَّهِ﴾ يقدر على مثل ذلك. ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق.

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ .

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها. ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية. ﴿إِلَٰهَ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على أن غيره يقدر على شيء من ذلك. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية.

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ لما بين اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعه ما هو كاللازم له، وهو التفرد بعلم الغيب والاستثناء منقطع، ورفع المستثنى على اللغة التيمية للدلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها من يعلم الغيب مبالغة في نفيه عنهم، أو متصل على أن المراد ممن في السموات والأرض من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها، فإنه يعلم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصول أو موصوف. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ متى ينشرون مركبة من «أي» «وأن»، وقرئت بكسر الهمزة والضمير لمن وقيل للكفرة.

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ .

﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلهم لا محالة بالغ فيه، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي. ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً. ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم، وهذا وإن اختص بالمشركين ممن في السموات

والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل، والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم، وقيل الأول إضراب عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدم. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص **﴿بَلْ إِدْرِكْ﴾** بمعنى تتابع حتى استحكم، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك، وأبو بكر «أدرك» وأصلهما تفاعل وافتعل. وقرئ «أدرك» و«أم أدرك» بهمزيين «وَأَدْرِكْ» بآلف بينهما و«بَلْ أدرك» و«بَلْ تدارك» و«بَلَى أدرك» و«بَلَى أدرك» و«أم أدرك» و«أم تدارك»، وما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فإنكار وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على التهكم، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها **﴿بَلْ﴾** إنهم **﴿منها صمون﴾** أو رد وإنكار لشعورهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّأَبَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّأَبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّأَبَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ كاليان لعلمهم والعامل في إذا ما دل عليه **﴿أئنا لمخرجون﴾**، وهو نخرج لا مخرجون لأن كلاً من الهمزة وإن واللام مانعة من عمله فيما قبلها، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة، وقرأ نافع «إذا كنا» بهمزة واحدة مكسورة، وقرأ ابن عامر والكسائي «إننا لمخرجون» بنونين على الخبر.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّأَبَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل وعد محمد ﷺ، وتقديم هذا على نحن لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أحر فالقصود به المبعوث. **﴿إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾** التي هي كالأسفار.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم، والتعبير عنهم بـ **﴿المجرمين﴾** ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على تكذبيهم وإعراضهم. **﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾** في حرج صدر، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان، وقرئ ضيق أي أمر ضيق. **﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾** من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ العذاب الموعود. **﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفٌ لَّكُمْ﴾ تبعكم ولحقكم، واللام مزيدة للتأكيد أو الفعل مضمن معنى فعل يتعدى باللام مثل دنا. وقرئ بالفتح وهو لغة فيه. **﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾** حلوله وهو عذاب يوم بدر، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمز منهم كالصرح من غيرهم وعليه جرى وعد الله تعالى ووعيده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾

وَمَا يُغْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ .

﴿وَأِنَّ رَبَّكَ لَلَّذِي فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي، والفضل والفاضلة الأفضال وجمعها فضول وفواضل. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه.

﴿وَأِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ ما تخفيه وقرىء بفتح التاء من كنت أي سترت. ﴿وَمَا يُغْلِنُونَ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ خافية فيهما، وهما من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما في الراوية، أو اسمان لما يغيب ويخفى كالتاء في عافية وعاقبة. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بين أو «مبين» ما فيه لما يطالعه، والمراد اللوح أو القضاء على الاستعارة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح.

﴿وَإِنَّهُمْ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ بين بني إسرائيل. ﴿بِحُكْمِهِ﴾ بما يحكم به وهو الحق، بحكمته ويدل عليه أنه قرىء بحكمه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فلا يرد قضاؤه. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحقيقة ما يقضي فيه، وحكمه.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ .

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تبال بمعاداتهم. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طعمه عن مشايعتهم ومعاذتهم رأساً، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم في قوله: ﴿وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد. وقرأ ابن كثير ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر. وقرأ حمزة وحده «وما أنت تهدي العمى». ﴿إِنْ تُسْمِعُ﴾ أي ما يجدي إسماعك. ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ من هو في علم الله كذلك. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون من أسلم وجهة الله.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ .

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دنا وقوع معناه وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب. ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وهي الجساسة روي أن طولها ستون ذراعاً ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان، لا يفوتها

هارب ولا يدركها طالب. وروي أنه عليه الصلاة والسلام سئل من أين مخرجها فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله، يعني المسجد الحرام. ﴿تَكَلَّمْهُمْ﴾ من الكلام، وقيل من الكلم إذ قرئ «تَكَلَّمْهُمْ». وروي أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام، فتنتك بالعصا في مسجد المؤمن نكتة بيضاء فيبيض وجهه، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسود وجهه. ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ خروجها وسائر أحوالها فإنها من آيات الله تعالى، وقيل القرآن، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح. ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ لا يتيقنون، وهو حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها، أو تكلمها على حذف الجار.

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾.

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ يعني يوم القيامة. ﴿مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ بيان للفوج أي فوجاً مكذبين، و «من» الأولى للتبويض لأن أمة كل نبي وأهل كل قرن شامل للمصدقين والمكذبين. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا، وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ إلى المحشر. ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ الواو للحال أي أكذبتهم بها بادئ الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحقيقها. ﴿أَمَآذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدر أن يقولوا فعلنا غير ذلك.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حل بهم العذاب الموعود وهو كبهم في النار بعد ذلك. ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله. ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦).

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشددهم إلى تجويز الحشر وبعثة الزسل، لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرته قاهر، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان، وأن من جعل النهار ليبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم. ﴿أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِسُكُونٍ فِيهِ﴾ بالنوم والقرار. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فإن أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من أحواله المجهول عليها بحيث لا ينفك عنها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لدلالاتها على الأمور الثلاثة.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (٨٧) فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرٍ.

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ في الصور أو القرن، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق. ﴿فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من الهول وعبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أن لا يفزع بأن يشبث قلبه. قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وقيل الحور والخزنة وحملة العرش، وقيل الشهداء، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صعد مرة ولعل المراد ما يعم ذلك. ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية، أو راجعون إلى أمره وقرأ حمزة وحفص «أتوه» على

الفعل، وقرئ «أتاه» على التوحيد للفظ الكل. ﴿ذَاخِرِينَ﴾ صاغرين وقرئ «دخرين».

﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨).

﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ ثابتة في مكانها. ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ في السرعة، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها. ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمة كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾. ﴿الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي. ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازيكم عليها كما قال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠).

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس والباقي بالفاني وسبعمئة بواحدة، وقيل ﴿خير منها﴾ أي خير حاصل من جهتها وهو الجنة، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وهشام ﴿خير بما يفعلون﴾ بالياء والباقون بالتاء. ﴿وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني به خوف عذاب يوم القيامة، وبالأول ما يلحق الإنسان من التهيب لما يرى من الأهوال والعظائم ولذلك يعم الكافر والمؤمن، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأن المراد فزع واحد من أفزاع ذلك اليوم، وآمن يتعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾. وقرأ الكوفيون ونافع ﴿يومئذ﴾ بفتح الميم والباقون بكسرها.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ قيل بالشرك. ﴿فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فكبوا فيها على وجوههم، ويجوز أن يراد بالوجه أنفسهم كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الالتفات أو بإضمار القول أي قيل لهم ذلك.

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (٩٢).

﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أمر الرسول ﷺ بأن يقول لهم ذلك بعدما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه، وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها وقرئ «التي حرّمها». ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتقادين أو الثابتين على ملة الإسلام.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ وأن أواظب على تلاوته لتكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً، أو اتباعه وقرئ «واتل عليهم» «وأن اتل». ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ باتباعه إياي في ذلك، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فإن منافعه عائدة إليه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بمخالفتي. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ فلا علي من وبال ضلاله شيء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به. ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ القاهرة في

الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الأرض، أو في الآخرة. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلة عن أعمالكم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالياء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة طس كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهوداً وصالحاً وإبراهيم وشعياً، ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله».

(٢٨) سورة القصص

مكية وقيل إلا قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله ﴿لَّا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾
وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

﴿طَسَمَ﴾

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل، ويجوز أن يكون بمعنى نزله مجازاً. ﴿مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾ بعض نبئهما مفعول ﴿نتلو﴾. ﴿بِالْحَقِّ﴾ محقين. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المستمعون به.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ استئناف «مبين» لذلك البعض، والأرض أرض مصر. ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ فرقاً يشيعونه فيما يريد، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه استعمل كل صنف في عمل، أو أحزاباً بأن أغرى بينهم العداوة كي لا يتفقوا عليه. ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل، والجملة حال من فاعل ﴿جعل﴾ أو صفة لـ ﴿شيعاً﴾ أو استئناف، وقوله: ﴿يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ بدل منها، كان ذلك لأن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده، وذلك كان من غاية حمقه فإنه لو صدق لم يندفع بالقتل وإن كذب فما وجهه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ﴾ أن نفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه، ﴿ونريد﴾ حكاية حال ماضية معطوفة على ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيث إنهما واقعان تفسيراً لـ ﴿نبأ﴾، أو حال من ﴿يستضعف﴾ ولا يلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له، لجواز أن يكون تعلق الإرادة به حيثئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منه الله بخلاصهم لما كانت قريبة الوقوع منه جاز أن تجري مجرى المقارن. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ مقدمين في أمر الدين. ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه.

﴿وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر والشام، وأصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ﴾ من بني إسرائيل. ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ويرى﴾ بالياء و ﴿فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾

وَجُنُودُهُمَا بِالرَّفْعِ.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ بِالْهَامِ أَوْ رُيَا. ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ مَا أَمَكَّنَكَ إِخْفَاؤُهُ. ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ﴾ بِأَنْ يَحْسَ بِهِ. ﴿فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فِي الْبَحْرِ يَرِيدُ النَّيْلَ. ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ عَلَيْهِ ضِيعَةٌ وَلَا شِدَّةٌ. ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ لِفِرْعَوْنَ. ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ عَنْ قَرِيبٍ بَحِثْ تَأْمِنِينَ عَلَيْهِ. ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا ضَرَبَهَا الطَّلَقُ دَعَتْ قَابِلَةً مِنَ الْمُوَكَّلَاتِ بِحَبَالَى بَنَى إِسْرَائِيلُ فَعَالَجَتْهَا، فَلَمَّا وَقَعَ مُوسَى عَلَى الْأَرْضِ هَالِكًا نَوَّرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَارْتَعَشَتْ مَفَاصِلُهَا وَدَخَلَ حَبَهُ فِي قَلْبِهَا بَحِثْ مَنَعَهَا مِنَ السَّعَايَةِ، فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ أَلَحَ فِرْعَوْنَ فِي طَلَبِ الْمَوَالِيدِ وَاجْتَهَدَ الْعَيُونَ فِي تَفْحَصِهَا فَأَخَذَتْ لَهُ تَابُوتًا فَقَذَفَتْهُ فِي النَّيْلِ.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تَعْلِيلٌ لِلتَّقَاتِطِ بِمَا هُوَ عَاقِبَتُهُ وَمُؤَدَاهُ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْغُرْضِ الْحَامِلِ عَلَيْهِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً وَالْكَسَائِي «وَحَزَنًا». ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ يَبْدَعُ مِنْهُمْ أَنْ قَتَلُوا أَلُوفًا لِأَجَلِهِ ثُمَّ أَخَذُوهُ يَرْبُونَهُ لِيَكْبِرَ وَيَفْعَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ، أَوْ مَذْنِبِينَ فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ رَبَّى عَدُوَّهُمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ، فَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ لِتَأْكِيدِ خَطِيئَتِهِمْ أَوْ لِبَيَانِ الْمَوْجِبِ لِمَا ابْتَلَوْا بِهِ، وَقُرِئَ «خَاطِئِينَ» تَخْفِيفٌ «خَاطِئِينَ» أَوْ «خَاطِئِينَ» الصَّوَابُ إِلَى الْخَطَا.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أَي لِفِرْعَوْنَ حِينَ أَخْرَجَتْهُ مِنَ التَّابُوتِ. ﴿قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَّ﴾ هُوَ قُرَّةُ عَيْنٍ لَنَا لِأَنَّهُمَا لَمَّا رَأَاهُ أَخْرَجَ مِنَ التَّابُوتِ أَحْيَاهُ، أَوْ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ بِرِصَاءٍ وَعَالَجَهَا الْأَطْبَاءُ بِرَيْقِ حَيَّوَانٍ بَحْرِي يَشْبَهُ الْإِنْسَانَ فَلَطَخَتْ بِرِصْعِهَا بِرَيْقَهُ فَبُرِثَتْ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ: لَكَ لَا لِي. وَلَوْ قَالَ هُوَ لِي كَمَا هُوَ لَكَ لَهْدَاهُ اللَّهُ كَمَا هَدَاهَا. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خُطَابٌ بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِلتَّعْظِيمِ. ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ فَإِنْ فِيهِ مَخَابِلُ الْيَمَنِ وَدَلَائِلُ النِّفَعِ، وَذَلِكَ لَمَّا رَأَتْ مِنْ نُورٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَارْتِضَاعَهُ إِبْهَامَهُ لِبْنًا وَبِرَّ الْبِرْصَاءِ بِرَيْقِهِ. ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أَوْ نَتَّبِعَاهُ فَإِنَّهُ أَهْلٌ لَهُ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَالٌ مِنَ الْمَلْتَقِطِينَ أَوْ مِنَ الْقَائِلَةِ وَالْمَقُولِ لَهُ أَي وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ عَلَى الْخَطَا فِي التَّقَاتِطِ أَوْ فِي طَمَعِ النِّفَعِ مِنْهُ وَالتَّبْنِي لَهُ، أَوْ مِنْ أَحَدٍ ضَمِيرِي تَتَّخِذُهُ عَلَى أَنْ، الضَّمِيرُ لِلنَّاسِ أَي وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهُ لَغَيْرِنَا وَقَدْ تَبْنَيْنَاهُ.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارْغًا﴾ صَفَرًا مِنَ الْعَقْلِ لَمَّا دَهَمَهَا مِنَ الْخَوْفِ وَالْحَيْرَةِ حِينَ سَمِعَتْ بِوُقُوعِهِ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ أَي خَلَاءَ لَا عَقُولَ فِيهَا، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ قُرِئَ «فَرَاغًا» مِنْ قَوْلِهِمْ دَمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ فَرَاغٌ أَي هَدْرٌ، أَوْ مِنَ الْهَمِّ لِفَرَطِ وَثُوقِهَا بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ سَمَاعِهَا أَنَّ فِرْعَوْنَ عَطَفَ عَلَيْهِ وَتَبْنَاهُ. ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾ أَنَّهَا كَادَتْ لِتُظْهِرَ بِمُوسَىٰ أَي بِأَمْرِهِ وَقِصَّتِهِ مِنْ فَرَطِ الضَّجْرِ أَوْ الْفَرَحِ لِتَبْنِيهِ. ﴿لَوْ لَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا﴾ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ. ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنَ الْمَصْدِقِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ، أَوْ مِنَ الْوَائِقِينَ

بحفظه لا يتبني فرعون وعطفه. وقرىء «مؤسى» إجراء للضممة في جوار الواو مجرى ضميتها في استدعاء همزها همز واو وجوه وهو علة الربط، وجواب «لولا» محذوف دل عليه ما قبله:

«وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ مَرْيَمُ. قُضِيَ بِهِ أَتْبَعِي أَثَرَهُ وَتَتَّبِعِي خَبْرَهُ. قَبِضْتُ بِهِ عَنْ جَنْبٍ» عن بعد وقرىء «عن جانب» «وعن جنب» وهو بمعناه. «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» أنها تقص أو أنها أخته.

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ ومنعناه أن يرتضع من المرضعات، جمع مرضع أو مرضع وهو الرضاع، أو موضعه يعني الثدي. «مِنْ قَبْلُ» من قبل قصصها أثره. «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ» لأجلكم. «وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ» لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، روي أن هامان لما سمعه قال: إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله، فقالت: إنما أردت وهم للملك ناصحون، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله فأنت بأمها وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعمله، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها: من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وهو قوله تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها. «وَلَا تَحْزَنَ» بفراقه. «وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» علم مشاهدة. «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أن وعده حق فيرتابون فيه، أو أن الغرض الأصلي من الرد علمها بذلك وما سواه تبع، وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ «وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَّاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ. وروي أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة. «وَاسْتَوَىٰ» قده أو عقله. «آتَيْنَاهُ حُكْمًا» أي نبوة. «وَعِلْمًا» بالدين، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه، وهو أوفق لنظم القصة لأن الاستنباء بعد الهجرة في المراجعة. «وَكَذَٰلِكَ» ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه. «نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» على إحسانهم.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ﴾ ودخل مصر آتياً من قصر فرعون وقيل منف أو حاثين، أو عين شمس من نواحيها. «عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا» في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه فيه، قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين. «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ» أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط، والإشارة على الحكاية. «فَاسْتَنَّاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي هُوَ مِنْ عَدُوِّهِ» فسأله أن يغيبه بالإعانة ولذلك عدي بـ «عَلَىٰ» وقرىء «استعانته». «فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ» فضرب القبطي بجمع كفه، وقرىء فلكزه أي فضرب به صدره. «فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» فقتله وأصله فأنهى حياته من قوله «وقضينا إليه ذلك الأمر». «قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ، وإنما عده من عمل الشيطان وسماء ظلماً

واستغفر منه على عاداتهم في استعظام محقرات فرطت منهم. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إِسْمُهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بقتله. ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ لاستغفاره. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قسم محذوف الجواب أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أو استعطف أي بحق إنعامك علي أعصمني فلن أكون معيماً لمن أدت معاونته إلى جرم. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثن فابتلي به مرة أخرى، وقيل معناه بما أنعمت علي من القوة أعين أوليائك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ قَالَ لَمْ تُؤَمِّسْ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ﴿١٩﴾.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ يترصد الاستقادة. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يستغيث مشتق من الصراخ. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء لبني إسرائيل. ﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيلي لأنه لما سماه غويّاً ظن أنه يبطش عليه، أو القبطي وكأنه توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي. ﴿إِنْ تُرِيدُ﴾ ما تريد. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر في العواقب. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملكه وهموا بقتله فخرج مؤمن آل فرعون وهو ابن عمه ليخبره كما قال تعالى:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يسرع صفة رجل، أو حال منه إذا جعل من أقصى المدينة صفة له لا صلة لجاء لأن تخصيصه بها يلحقه بالمعارف. ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بسببك، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر. ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ اللام للبيان وليس صلة لـ ﴿الناصحين﴾ لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول.

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ لحوق طالب. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ﴾ قبالة مدين قرية شعيب، سميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولم تكن في سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان. ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ توكلت على الله وحسن ظن به، وكان لا يعرف الطريق فعن له ثلاث طرق فأخذ في أوسطها وجاء الطلاب

عقبيه فأخذوا في الآخرين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ وصل إليه وهو بشر كانوا يسقون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوق شفيرها. ﴿أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ جماعة كثيرة مختلفين. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشيهم. ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ في مكان أسفل من مكانهم. ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما تذودان. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه. وقرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿يُصْدِرُ﴾ أي ينصرف. وقرأ «الرعاة» بالضم وهو اسم جمع كالرجال. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبير السن لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً.

﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ مواشيهما رحمة عليهما. قيل كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال أو أكثر فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم، وقيل كانت بئراً أخرى عليها صخرة فرفعها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ﴾ لأي شيء أنزلت إلي. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليل أو كثير وحمله الأكثر على الطعام. ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاج سائل ولذلك عدي باللام، وقيل معناه إني لما أنزلت إلي من خير الدين صرت فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سعة عند فرعون والغرض منه إظهار التبحر والشكر على ذلك.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَتِي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْبَيْتُ اسْتَجِرَّةَ إِنَّكِ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي مستحيية متخففة. قيل كانت الصغرى منهما وقيل الكبرى واسمها صفوراء أو صفراء وهي التي تزوجها موسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِجِزْيِكَ﴾ ليكافئك. ﴿أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاء سقيك لنا، ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً فامتنع عنه وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا حتى قال له شعيب عليه الصلاة والسلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا. هذا وأن كل من فعل معروفاً فأهدى بشيء لم يحرم أخذه. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد فرعون وقومه.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ يعني التي استدعته. ﴿يَا أَبَيْتُ اسْتَأْجِرْهُ﴾ لرعي الغنم. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ تعيل شائع يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه، جعل ﴿خير﴾ اسماً وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤ مجرب معروف. روي أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَّيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ

عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِخْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي تأجر نفسك مني أو تكون لي أجيراً، أو تشيبي من أجرك الله. ﴿ثُمَّ إِنِّي حَجَجْتُ﴾ ظرف على الأولين ومفعول به على الثالث بإضمام مضاف أي رعية ثمانى حجج. ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرًا﴾ عملت عشر حجج. ﴿فَمَنْ عِنْدَكَ﴾ فإتمامه من عندك تفضلاً لا من عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاء العقد لا نفسه، فلعله جرى على أجرة معينة وبمهر آخر أو برعية الأجل الأول ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسر له قبل العقد، وكانت الأغنام للمزوجة مع أنه يمكن اختلاف الشرائع في ذلك. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال، واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه. ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ أطولهما أو أقصرهما. ﴿قَضَيْتُ﴾ وفيتك إياه. ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ لا تعتدي علي بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان، أو فلا أكون متعدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم علي، وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيت الأقصر فلا عدوان علي. وقرئ «أيما» كقوله:

تَنَظَّرْتُ نَضْرًا وَالسَّمَائِينَ أَيَّمَا . عَلَيَّ مِنَ الْعَيْنِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُهُ

وأي الأجلين ما قضيت فتكون ما مزيدة لتأكيد الفعل أي: أي الأجلين جردت عزمي لقضائه، وعدوان بالكسر. ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ من المشاركة. ﴿وَكِيلٌ﴾ شاهد حفيظ.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ بامرأته. روي أنه قضى أقصى الأجلين ومكث بعد ذلك عنده عشراً أخرى ثم عزم على الرجوع. ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أبصر من الجهة التي تلي الطور. ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ بخبر الطريق. ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن.

قال:

بَاسَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا جَزَلَ الْجَذَى غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ
وقال آخر:

وَأَلْقَى عَلَى قَبَسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً شَدِيداً عَلَيْهِ خُرْهَا وَالتَّهَابُهَا
ولذلك بينه بقوله: ﴿مِنَ النَّارِ﴾ وقرأ عاصم بالفتح وحمزة بالضم وكلها لغات. ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تستدفنون بها.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْشِيَ إِفْتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْشِيَ أَقْبَلَ

وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ آتاه النداء من الشاطئ الأيمن لموسى. ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ متصل بالشاطئ أو صلة لـ ﴿نُودِي﴾. ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ بدل من شاطئ بدل الاشتمال لأنها كانت ثابتة على الشاطئ. ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ أي يا موسى. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا وإن خالف ما في «طه» والنمل» لفظاً فهو طبقه في المقصود.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ﴾ أي فآلقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾. ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ فِي الْهَيْئَةِ وَالْجَنَّةِ أَوْ فِي السَّعَةِ﴾. ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ منهزماً من الخوف. ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ ولم يرجع. ﴿يَا مُوسَى﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ من المخاوف، فإنه لا يخاف لدي المرسلون.

﴿أَسْلُوكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَلَذَلِكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿أَسْلُوكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أدخلها. ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ عيب. ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يديك المبسوطتين تنقي بهما الحية كالخائف الفرع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس، أو بإدخالهما في الجيب فيكون تكريراً لغرض آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه. ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ من أجل الرهب أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً وضبطاً لنفسك. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر بضم الراء وسكون الهاء، وقرئ بضمهما، وقرأ حفص بالفتح والسكون والكل لغات. ﴿فَذَلِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد، وشده ابن كثير وأبو عمرو ورويس. ﴿بُرْهَانًا﴾ حجتان وبرهان فعلا لقولهم أبهر الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض، ويقال برهه وبرهته للمرأة البيضاء وقيل فعلا لقولهم برهن. ﴿مِنَ رَبِّكَ﴾ مرسلأ بهما. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ بها.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفع، وقرأ نافع «رداً» بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة. ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة، وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب، وقرأ عاصم وحمزة «يصدقني» بالرفع على أنه صفة والجواب محذوف.

﴿قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور، ولذلك يعبر عنه باليد وشدها بشدة العضد. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ غلبة أو حجة. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاء أو حجاج. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، أو بـ ﴿نَجْعَلُ﴾ أي نسلطكما بها، أو بمعنى «لا يصلون» أي تمتنعون منهم، أو قسم جوابه «لا يصلون»، أو بيان لـ ﴿الغالبون﴾ في قوله: ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ سحر تختلقه لم يفعل قبل مثله، أو سحر عمله ثم تفتريه على الله؛ أو سحر موصوف بالإفراء كسائر أنواع السحر. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يعنون السحر أو ادعاء النبوة. ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ كائنات في أيامهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ فيعلم أنني محق وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير «قال» بغير واو لأنه قال ما قاله جواباً لمقالتهم، ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة فإن المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأنها خلقت مجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض. وقرأ حمزة والكسائي «يكون» بالياء. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في العقبى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرٍ فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْهِ إِلَهُ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣٨) وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعده، ولذلك أمر ببناء الصرح ليصعد إليه ويتطلع على الحال بقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَكُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْهِ إِلَهُ مُوسَى﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسمًا في السماء يمكن الترفي إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أو أراد أن يبني له رصداً يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولة، وقيل المراد بنفي العلم بنفي المعلوم كقوله تعالى: ﴿أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن معناه بما ليس فيهن، وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقيق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاؤها، ولا كذلك العلوم الانفعالية، قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذها على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم؛ ولذلك نادى هامان باسمه بـ ﴿يَا﴾ في وسط الكلام.

﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بغير استحقاق. ﴿وَزَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بالنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ كما مر بيانه، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقار للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرهم في اليم، ونظيره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وحذر قومك عن مثلها.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْعُرُونَ إِلَى الْفَسَادِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾ (٤١) وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا

لَعَنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آئِمَةً﴾ قدوة للضلال بالحمل على الإضلال، وقيل بالتسمية كقوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾، أو بمنع الألفاظ الصارفة عنه. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يَنْصُرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَةً﴾ طرداً عن الرحمة، أو لعن اللاعنين يلعنهم الملائكة والمؤمنون. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين، أو ممن قبح وجوههم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل. ﴿وَهُدًى﴾ إلى الشرائع التي هي سبل الله تعالى. ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حال يرحى منهم التذكر، وقد فسر بالإرادة وفيه ما عرفت.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ يريد الوادي، أو الطور فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى، أو الجانب الغربي منه والخطاب لرسول الله ﷺ أي ما كنت حاضراً. ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه. ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه، وهم السبعون المختارون الميقات، والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله:

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي ولكننا أوحينا إليك لأننا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد، فحرفت الأخبار وتغيرت الشرائع واندرست العلوم، فحذف المستدرك وأقام سببه مقامه. ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيب والمؤمنين به. ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ تقرأ عليهم تعلماً منهم. ﴿آيَاتِنَا﴾ التي فيها قصتهم. ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرين لك بها.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة وبالأول حين ما استنبأه لأنهما المذكوران في القصد. ﴿وَلَكِن﴾ علمناك. ﴿رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ وقرئت بالرفع على هذه ﴿رحمة من ربك﴾. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بالفعل المحذوف. ﴿مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة، أو بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حوالاهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ﴿لَوْلَا﴾ الأولى امتناعية والثانية تحضيضية واقعة في سياقها، لأنها إنما أُجيبَت بالفاء تشبيهاً لها بالأمر مفعول يقولوا المعطوف على تصيبهم بالفاء المعطية معنى السببية المنبهة على أن القول هو المقصود بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة والجواب محذوف والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من المصدقين، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم والزاماً للحجة عليهم. ﴿فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ يعني الرسول المصدق بنوع من المعجزات. ﴿وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها اقتراحاً وتعتناً. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى، أو كان فرعون عربياً من أولاد عاد. ﴿قَالُوا سِحْرَانِ﴾ يعني موسى وهارون، أو موسى ومحمداً عليهما السلام. ﴿تَظَاهَرَا﴾ تعاونا بإظهار تلك الخوارق أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون «سحران» بتقدير مضاف أو جعلهما سحرين مبالغة، أو إسناد تظاهرها إلى فعلهما دلالة على سبب الإعجاز. وقرئ ظاهراً على الإدغام. ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أي بكل منهما أو بكل الأنبياء.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ مما أنزل على موسى وعلى محمد ﷺ وإضمارهما لدلالة المعنى، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنا ساحران مختلفان، وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيك، ولعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعائك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به، ولأن فعل الاستجابة يعدي بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي، فإذا عدي إليه حذف الدعا غالباً كقوله:

وَدَاعٍ دَعَا يَأْمَنْ يُجِيبُ إِلَى التَّدَا قَلَمَ يَسْتَجِيبُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتبعوا حجة لأنوا بها. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهام بمعنى النفي. ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ في موضع الحال للتأكيد أو التقييد، فإن هوى النفس قد يوافق الحق. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير، أو في النظم لتتقر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنْثَلِ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل في أربعين من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام، والضمير في ﴿من قبله﴾ للقرآن كالمستكن في:

﴿وَإِذَا يُنْثَلِ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي بأنه كلام الله تعالى. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به. ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذ، وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن، أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم وثباتهم على الإيمانين، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده، أو على أذى المشركين ومن هاجرهم من أهل دينهم. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالطاعة المعصية لقوله ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها». ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ تكرماً. ﴿وقالوا﴾ للاغين. ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركة لهم وتوديعاً، أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه. ﴿لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدر على أن تدخلهم في الإسلام. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فيدخله في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعدين لذلك. والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله ﷺ وقال: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، قال: يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق ولكن أكره أن يقال خدع عند الموت.

﴿وقالوا إن تتبع الهدى معك نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا﴾ نخرج منها. نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكننا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه يتناحر العرب حوله وهم آمنون فيه. ﴿يُجِبَى إِلَيْهِ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه، وقرأ نافع ويعقوب في رواية بالناء. ﴿ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من كل أوب. ﴿رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام فكيف نعرضهم للتخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموه، وقيل إنه متعلق بقوله ﴿من لدنا﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم لا يعلمون إذ لو علموا لما خافوا غيره، وانتصاب ﴿رِزْقًا﴾ على المصدر من معنى ﴿يجبى﴾، أو حال من الـ ﴿ثمرات﴾ لتخصصها بالإضافة، ثم بين أن الأمر

بالعكس فإنهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله على ما هم عليه بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهَا لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا فدمر الله عليهم وخرب ديارهم. ﴿فَبَلَكَ مَسْكَنُهَا لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السكنى إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم، أو لا يبقى من يسكنها من شوم معاصيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم، وانتصاب ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بنزع الخافض أو بجعلها ظرفاً بنفسها كقولك: زيد ظني مقيم أو بإضمار زمان مضاف إليها أو مفعولاً على تضمين بطرت معنى كفرت.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادته. ﴿مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ في أصلها التي هي أعمالها، لأن أهلها تكون أفطن وأنبّل. ﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ لإلزام الحجة وقطع المَعْدَرَة. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا﴾ تمتعون وتزينون به مدة حياتكم المنقضية. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهو ثوابه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة. ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه أبدي. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود. ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعده، ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية. ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب بالتحسر على الانقطاع. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذاب، و ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الزمان أو الرتبة، وقرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ﴿ثُمَّ هُوَ﴾ بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل، وهذه الآية كالنتيجة للتي قبلها ولذلك رتب عليها بالفاء.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بثبوت مقتضاه وحصول مؤداه وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وغيره من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول. ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ فغروا غياً مثل ما غوينا، وهو استئناف للدلالة على أنهم غروا باختيارهم وأنهم لم يفعلوا بهم إلا وسوسة وتسويلاً، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة

و«أغويناهم» الخبر لأجل ما اتصل به إفادة زيادة على الصفة وهو وإن كان فضلة لكنه صار من اللوازم.
«تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ» منهم ومما اختاروه من الكفر هوى منهم، وهو تقرير للجملية المتقدمة ولذلك خلت عن
العاطف وكذا. «مَا كَانُوا إِلَّا نَارًا يَغْبَدُونَ» أي ما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم. وقيل «ما»
مصدرية متصلة بـ «تبرأنا» أي تبرأنا من عبادتهم إيانا.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ (٦٤).

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ﴾ من فرط الحيرة. «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ» لعجزهم عن الإجابة والنصرة.
«وَرَأَوُا الْعَذَابَ» لازماً بهم. «لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ» لوجه من الحيل يدفعون به العذاب، أو إلى الحق لما
رأوا العذاب وقيل «لو» للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٦٥) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦٦).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به ثم
عن تكذيبهم الأنبياء.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنباء
لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يقبض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة
إلى استحضاره، والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل أو ما يعمها وغيرها، فإذا كانت الرسل يتتبعون في
الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال من أمهم، وتعدية الفعل
بعلی لتضمنه معنى الخفاء. «فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ» لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والعلم بأنه
مثله في العجز.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّاهُ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ (٦٧) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨).

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ من الشرك. «وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». وجمع بين الإيمان والعمل الصالح. «فَغَسَّاهُ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ» عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له. «مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» أي التخير كالطيرة
بمعنى التطير، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأساً والأمر كذلك عند التحقيق، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار
الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها، وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن
العاطف، ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم». وقيل «ما»
موصولة مفعول لـ «يختار» والراجع إليه محذوف والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير
والصلاح. «سُبْحَانَ اللَّهِ» تنزيه له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار. «وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» عن
إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه به.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٦٩) ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَرَبُّكَ يَغْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوة الرسول وحقده. ﴿وَمَا يُغْلِثُونَ﴾ كالطعن فيه.
 ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو. ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
 وَالْآخِرَةِ﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ ابتهاجاً بفضله والتذاذاً بحمده. ﴿وَلَهُ
 الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في كل شيء. ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ بالنشور.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَا
 تَسْمَعُونَ﴾ (٧١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السرد وهو المتابعة والميم مزيدة كميم دلامص.
 ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم
 بِضِيَاءٍ﴾ كان حقه هل إله فذكر بـ ﴿مَنْ﴾ على زعمهم أن غيره آلهة. وعن ابن كثير «بضياء» بهمزتين. ﴿أَوْ لَا
 تَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واستبصار.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُم
 بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢) ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بإسكانها في وسط السماء أو تحريكها على
 مدار فوق الأفق. ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحة عن متاعب الأشغال، ولعله لم يصف
 الضياء بما يقابله لأن الضوء نعمة في ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك الليل، ولأن منافع الضوء أكثر مما يقابله
 ولذلك قرن به ﴿أَوْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ وبالليل. ﴿أَوْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من
 البصر.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ في النهار بأنواع
 المكاسب. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤) ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
 فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقرير بعد تقرير للإشعار بأنه لا شيء أجلب
 لغضب الله من الإشراك به، أو الأول لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وإنما كان محض
 تشبه وهوى.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا. ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأنبياء.
 ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم تدبون به. ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ. ﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشاركه
 فيها أحد. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم غيبة الضائع. ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الباطل.

﴿إِنْ قَرُّونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مِنَ الْكَوْثَرِ مَا إِنَّ مَفَاصِعَهُمْ لَنُتُوًا بِالْمُضْبَكَةِ
 أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمْ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾

وَلَا تَنسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى وكان ممن آمن به. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره، أو تكبر عليهم أو ظلمهم. قيل وذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل، أو حسدهم لما روي أنه قال لموسى عليه السلام: لك الرسالة ولهارون الجبورة وأنا في غير شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله. ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ من الأموال المدخرة. ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ مفاتيح صناديقه جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به، وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتاح. ﴿لَتَنْوُءَ بِالْمُضْطَبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ خبر إن والجملة صلة ما وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله، والعصبية والعصاة الجماعة الكثيرة واعصوبوا اجتمعوا. وقرئ «الينوء» بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ منصوب بـ «تنوء». ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطر والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح كما قيل:

أشد الغم عُنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، وعلل النهي ها هنا بكونه مانعاً من محبة الله تعالى فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارف الدنيا.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ﴾ من الغنى. ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها. ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ولا تترك ترك المنسي. ﴿نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِنَ﴾ إلى عباد الله. ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعم الله عليك. وقيل ﴿أَحْسِنَ﴾ بالشكر والطاعة ﴿كَمَا أَحْسَنَ﴾ إليك بالإِنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي، نهى له عما كان عليه من الظلم والبغي. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالجاه والمال، و ﴿على علم﴾ في موضع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها، وقيل هو الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب، وقيل العلم بكنوز يوسف، و ﴿عِنْدِي﴾ صفة له أو متعلق بـ ﴿أُوتِيتُهُ﴾ كقولك: جاز هذا عندي أي في ظني واعتقادي. ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ، أو رد لادعائه للعلم وتعظمه به بنفي هذا العلم عنه أي أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعى ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين. ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ سؤال استعلام فإنه تعالى مطلع عليها أو معاتبة فإنهم يعذبون بها بغتة، كأنه لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه واغنى أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مطلعاً على ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم معاقبهم عليها لا محالة.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْآصِفُونَ ﴿٨٠﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه. ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة. ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً عن الحسد. ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بأحوال الآخرة للمتقين. ﴿وَنِلَّكُمْ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى. ﴿ثَوَابَ اللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ الضمير فيه للكلمة التي تكلم بها العلماء أو للـ ﴿ثَوَابٍ﴾، فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة. ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ على الطاعات وعن المعاصي.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾

(٨١)

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ روي أنه كان يؤدي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقربته حتى نزلت الزكاة، فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره، فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه، فبرطل بغية لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال: من سرق قطعناه، ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه، فقال قارون ولو كنت قال: ولو كنت، قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلاتة فأحضرت، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت: جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي، فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت فقال: يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال خذيه فأخذته إلى وسطه، ثم قال خذيه فأخذته إلى عنقه، ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه، فأوحى الله إليه ما أفضك استرحمك مراراً فلم ترحمه، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجته، ثم قال بنو إسرائيل: إنما فعله ليرثه، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أعوان مشتقة من فأوت رأسه إذا ميلته. ﴿يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيدفعون عنه عذابه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآثُ اللَّهُ بِسُوءِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآثُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢) ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣).

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ﴾ منزلته. ﴿بِالْأَمْسِ﴾ منذ زمان قريب. ﴿يَقُولُونَ وَيَكَآثُ اللَّهُ بِسُوءِ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض، و﴿ويَكَآثُ﴾ عند البصريين مركب من «وي» للتعجب «وكان» للتشبيه والمعنى: ما أشبه الأمر أن الله يبسط الرزق. وقيل من «ويك» بمعنى ويلك و«أن» تقديره ويك اعلم أن الله. ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعطنا ما تمنينا. ﴿لَخَسَفَ بَنَّا﴾ لتوليدته فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله. وقرأ حفص بفتح الخاء والسين. ﴿وَيَكَآثُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم ثواب الآخرة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ إشارة تعظيم كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، و﴿الدار﴾ صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ .

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ذاتاً وقدرأً ووصفاً. ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير تهجيناً لحالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم ﴿ما كانوا يعملون﴾ مقامه مبالغة في المحاملة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه. ﴿لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ أي معاد وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه، أو مكة التي اعتدت بها على أنه من العادة رده إليها يوم الفتح، كأنه لما حكم بأن ﴿العاقبة للمتقين﴾ وأكد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين وعده بالعاقبة الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغ جحفة في مهاجرة اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى﴾ وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يفسره أعلم. ﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وما استحقه من العذاب والإذلال يعني به نفسه والمشركون، وهو تقرير للوعد السابق وكذا قوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦) وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ .

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي سيردك إلى معادك كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولكن ألقاه رحمة منه، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ بمداراتهم والتحمل عنهم والإجابة إلى طلبتهم.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ عن قراءتها والعمل بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقرئ ﴿يَصُدُّكَ﴾ من أصد. ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيده. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْفُكْرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) .

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ هذا وما قبله للتبهيح وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ إلا ذاته فإن ما عداه ممكن هالك في حد ذاته معدوم. ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في الخلق. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء بالحق. عن النبي ﷺ «من قرأ طسّم القصص كان له من الأجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه صادقاً».

(٢٩) سورة العنكبوت

مكية وآيها تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَمْ﴾ ١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾

﴿الَمْ﴾ سبق القول فيه، ووقوع الاستفهام بعده دليل استقلاله بنفسه أو بما يضمير معه.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ الحسبان مما يتعلق بمضامين الجمل للدلالة على جهة ثبوتها ولذلك اقتضى مفعولين متلازمين أو ما يسد مسدهما كقوله: ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فإن معناه أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم ﴿آمنّا﴾، فالترك أول مفعوليه وغير مفتونين من تمامه ولقولهم ﴿آمنّا﴾ هو الثاني كقولك: حسبت ضربه للتأديب، أو أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم ﴿آمنّا﴾ بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف، كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال لتمييز المخلص من المنافق والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب. روي أنها نزلت في ناس من الصحابة جزعوا من أذى المشركين، وقيل في عمار وقد عذب في الله تعالى، وقيل في مهجع مولى عمر بن الخطاب رماه عامر بن الحضرمي بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامراته.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ٣ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ٤

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ متصل بـ ﴿أَحَسِبَ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفْتَنُونَ﴾، والمعنى أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافه. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فليتعلقن علمه بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذبوا فيه، وينوط به ثوابهم وعقابهم لذلك وقيل المعنى وليميزن أو ليجازين، وقرئ «وليعلنن» من الإعلام أي وليعرفنهم الله الناس أو لَيَسْمَنَّهُمْ بِسْمَةِ يَعْرِفُونَ بها يوم القيامة كيباض الوجوه وسوادها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح. ﴿أَنْ يُسْبِقُونَا﴾ أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم على مساويهم وهو ساد مسد مفعولي ﴿حَسِبَ﴾ لاشتماله على مسند ومُسند إليه ويجوز أن يضمن ﴿حَسِبَ﴾ معنى قدر أو أم منقطعة والإضراب فيها لأن هذا الحسبان أبطل من الأول ولهذا عقبه بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بشس الذي يحكمونه، أو حكماً يحكمونه حكمهم هذا فحذف المخصوص بالذم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّكِينُ عَلَيْهِ﴾ ٥

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ في الجنة، وقيل المراد بلقاء الله الوصول إلى ثوابه، أو إلى العاقبة من الموت

والبعث والحساب والجزاء على تمثيل حاله بحال عبد قدم على سيده بعد زمان مديد وقد اطلع السيد على أحواله، فإما أن يلقاه ببشر لما رضي من أفعاله أو بسخط لما سخط منها. ﴿فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ فإن الوقت المضروب للقاءه. ﴿لَا ت﴾ لجاؤا وإذا كان وقت اللقاء آتياً كان اللقاء كائناً لا محالة، فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يستوجب به القربة والرضا. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعقائدهم وأفعالهم.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه بالصبر على مضض الطاعة والكف عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعتها لها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم، وإنما كلف عباده رحمة عليهم ومراعاة لصلاحهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم.

﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ حُسْنًا﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حسن، أو كأنه في ذاته حسن لفرط حسنه ووصى يجري مجرى أمر معنى وتصرفاً، وقيل هو بمعنى قال، أي وقفنا له أحسن بوالديك ﴿حَسَنًا﴾، وقيل ﴿حَسَنًا﴾ منتصب بفعل مضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أي قلنا أولهما أو افعل بهما ﴿حَسَنًا﴾ وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على ﴿بُولَدِيهِ﴾، وقرئ ﴿حَسَنًا﴾ و ﴿إِحْسَانًا﴾. ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بالهيته عبر عن نفيتها بنفي العلم بها إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فضلاً عما علم بطلانه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل. ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عقى. ﴿فَأُنَبِّتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه، والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه خمنة، فإنها لما سمعت بإسلامه خلقت أنها لا تتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبيت ثلاثة أيام كذلك وكذا التي في لقمان و ﴿الأحقاف﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين ومتمنى أنبياء الله المرسلين، أو في مدخلهم وهو الجنة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بأن عذبهم الكفرة على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيتهم في الصرف عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الصرف عن الكفر. ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ فتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين فأشركونا فيه، والمراد المنافقون أو قوم ضعف إيمانهم

فارتدوا من أذى المشركين ويؤيد الأول. ﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من الإخلاص والنفاق. ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم. ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ فيجازي الفريقين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٢) ﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَقْرَءُونَ﴾ (١٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ الذي نسلكه في ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ﴾ إن كان ذلك خطيئة أو إن كان بعث ومواخذه، وإنما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين على أمرهم بالاتباع مبالغة في تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الأوزار عنهم إن كانت تشجيعاً لهم عليه، وبهذا الاعتبار رد عليهم وكذبهم بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ من الأولى للتبيين والثانية مزيدة والتقدير: وما هم بحاملين شيئاً من خطاياهم.

﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقال ما اقترفته أنفسهم. ﴿وَاتَّقَالَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وأثقالاً آخر معها لما تسببوا له بالإضلال والحمل على المعاصي من غير أن ينقص من أثقال من تبعهم شيء. ﴿وَلَيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سؤال تقرير وتبكيث. ﴿عَمَّا كَانُوا يَقْرَءُونَ﴾ من الأباطيل التي أضلوا بها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٥).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعد المبعث، إذ روي أنه بعث على رأس الأربعين ودعا قوماً تسعمائة وخمسين وعاش بعد الطوفان ستين، ولعل اختيار هذه العبارة للدلالة على كمال العدد فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما في ذكر الألف من تخيل طول المدة إلى السامع، فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله ﷺ وتبئته على ما يكابده من الكفرة واختلاف المميزين لما في التكرير من البشاعة. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ طوفان الماء وهو لما طاف بكثرة من سيل أو ظلام أو نحوهما. ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالكفر.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام. ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ ومن أركب معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين. وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة نصفهم ذكور ونصفهم إناث. ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي السفينة أو الحادثة. ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يتعظون ويستدلون بها.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٦) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٧).

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ عطف على ﴿نوحاً﴾ أو نصب بإضمار اذكر، وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين إبراهيم. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظرف لأرسلنا أي أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره بحيث عرف الحق وأمر الناس به، أو بدل منه بدل اشتغال إن قدر بذكر. ﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه. ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر وتميزون ما هو خير مما هو شر، أو كنتم تنظرون في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذبون كذباً في تسميتها آلهة وادعاء شفاعتها عند الله تعالى، أو تعملونها وتحتونها للإفك وهو استدلال على شرارة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل، وقرىء «تخلقون» من خلق للتكثير و«تخلقون» من تخلق للتكلف، و«أفكاً» على أنه مصدر كالكذب أو نعت بمعنى خلقاً ذا إفك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليل ثان على شرارة ذلك من حيث إنه لا يجدي بطائل، و«رِزْقًا» يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم وأن يراد المرزوق وتنكيره للتعميم. ﴿فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كله فإنه المالك له. ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ متوسلين إلى مطالبكم بعبادته مقيدين لما حفيكم من النعم بشكره، أو مستعدين للقائه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء يفتح التاء.

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾.

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا﴾ وإن تكذبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من قبلي من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي يزال معه الشك وما عليه أن يصدق ولا يكذب، فالآية وما بعدها من جملة قصة إبراهيم عليه السلام إلى قوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ ويحتمل أن تكون اعتراضاً بذكر شأن النبي ﷺ وقرش وهدم مذهبهم والوعيد على سوء صنيعهم، توسط بين طرفي قصته من حيث إن مساقها لتسلية رسول الله ﷺ والتنفيس عنه، بأن أباه خليل الله صلوات الله عليهما كان ممنواً بنحو ما مني به من شرك القوم وتكذيبهم وتشبيه حاله فيهم بحال إبراهيم في قومه

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ من مادة ومن غيرها، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالناء على تقدير القول وقرىء «يبدأ». ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبار بالإعادة بعد الموت معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لا على «يبدأ»، فإن الرؤية غير واقعة عليه ويجوز أن تؤول الإعادة بأن ينشئ في كل سنة مثل ما كان في السنة السابقة من النبات والثمار ونحوهما وتعطف على «يبدأ». ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الإعادة أو إلى ما ذكر من الأمرين. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يفتر في فعله إلى شيء.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حكاية كلام الله لإبراهيم أو محمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على اختلاف الأجناس والأحوال. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد النشأة الأولى التي هي الإبداء، فإنه والإعادة نشأتان من حيث إن كلا اختراع وإخراج من العدم، والإفصاح باسم الله مع إيقاعه مبتدأ بعد إضماره في بدأ والقياس للاقتصار عليه للدلالة على أن المقصود بيان الإعادة، وأن من عرف بالقدرة على الإبداء ينبغي أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأنها أهون والكلام في العطف ما مر، وقرىء «النشأة» كالرأفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كل الممكنات على سواء فيقدر على النشأة الأخرى كما قدر على النشأة الأولى.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته. ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تردون.

﴿وَمَا أَنشَأَ مِنْ جَنَّتَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم عن إدراككم. ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إن فررتم من قضائه بالتواري في الأرض أو الهبوط في مهاويها، والتحصن ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أو القلاع الذاهبة فيها وقيل ولا من في السماء كقول حسان:

أَمِنْ يَهْجُرُ رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءً

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يحرسكم عن بلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بدلائل وحدانيته أو بكتبه. ﴿وَلِقَائِهِ﴾ بالبعث. ﴿أُولَئِكَ يَتَّخِذُونَ رَحْمَتِي﴾ أي يياسون منها يوم القيامة، فعبر عنه بالماضي للتحقق والمبالغة، أو آيسوا في الدنيا لإنكار البعث والجزاء. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم له. وقرئ بالرفع على أنه الاسم والخبر. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ وكان ذلك قول بعضهم لكن لما قيل فيهم ورضي به الباقون أسند إلى كلهم. ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي فقدوه في النار فأنجاه الله منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في إنجائه منها. ﴿لَآيَاتٍ﴾ هي حفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها في زمان يسر وإنشاء روض مكانها. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بالتفحص عنها والتأمل فيها.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ (٢٥).

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها، وثاني مفعولي ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ محذوف ويجوز أن تكون مودة المفعول الثاني بتقدير مضاف أي اتخذتم أوثاناً سبب المودة بينكم أو بتأويلها بالمودودة، وقرأها نافع وابن عامر وأبو بكر منونة ناصبة بينكم والوجه ما سبق، وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس مرفوعة مضافة على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي مودودة أو سبب مودة بينكم، والجملة صفة ﴿أَوْثَانًا﴾ أو خير إن على أن ما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف وهو المفعول الأول، وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح ﴿بَيْنِكُمْ﴾ كما قرئ. ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وقرئ «إنما مودة بينكم». ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقوم التناكر والتلاعن بينكم، أو بينكم وبين الأوثان على تغليب المخاطبين كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾. ﴿وَمَا أَوَّاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٦) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧).

﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ هو ابن أخيه وأول من آمن به، وقيل إنه آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي. ﴿الْحَكِيمُ﴾

الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. روي أنه هاجر من كوثي من سواد الكوفة مع لوط وامراته سارة ابنة عمه إلى حران، ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدأ وناقلة حين أيس من الولادة من عجوز عاقر ولذلك لم يذكر إسماعيل. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ فكثر منهم الأنبياء. ﴿وَالْكِتَابَ﴾ يريد به الجنس ليتناول الكتب الأربعة. ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ﴾ على هجرته إلينا. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإعطاء الولد في غير أوانه، والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل إليه والثناء والصلاة عليه إلى آخر الدهر. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لفي عداد الكاملين في الصلاح.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَلُوطًا﴾ عطف على إبراهيم أو على ما عطف عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح، وقرأ الحرميان وابن عامر وحفص بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام وأجمعوا على الاستفهام في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استئناف مقرر لفاحشتها من حيث إنها مما اشمأزت منه الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى أقدموا عليها لخبث طبيعتهم.

﴿أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

﴿أَيُّكُمْ لَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ وتعرضون للسبالة بالقتل وأخذ المال أو بالفاحشة حتى انقطعت الطرق، أو تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث. ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ﴾ في مجالسكم الغاصة بأهلها ولا يقال للنادي إلا لما فيه أهله. ﴿الْمُنْكَرُ﴾ كالجماع والضراط وحل الإزار وغيرها من القبائح عدم مبالاة بها. وقيل الخذف ورمي البنادق. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في استقباح ذلك أو في دعوى النبوة المفهومة من التوبيخ.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بانزال العذاب. ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم، وصفهم بذلك مبالغة في استئزال العذاب وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٣٢﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالبشارة بالولد والناقلة. ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ قرية سدوم والإضافة لفظية لأن المعنى على الاستقبال. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانَُوا ظَالِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم لهم بإصرارهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواع المعاصي.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراض عليهم بأن فيها من لم يظلم، أو معارضة للموجب بالمانع وهو كون النبي بين أظهرهم. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ تسليم لقوله مع ادعاء مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلين عنه، وجواب عنه بتخصيص الأهل بمن عداه وأهله أو تأقبت الإهلاك بإخراجهم منها، وفيه تأخير

للبيان عن الخطاب. ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقيين في العذاب أو القرية.

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٣٣).

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ يَوْمِهِمْ﴾ جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء، و
﴿أَنْ﴾ صلة لتأكيد الفعلين واتصالهما. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته
كقولهم ضاقت يده وبإذاؤه رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير
الذراع. ﴿وَقَالُوا﴾ لما رأوا فيه أثر الضجرة. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكنهم منا. ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا
أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب «لننجينه» و «منجوك» بالتخفيف ووافقهم أبو
بكر وابن كثير في الثاني، وموضع الكاف الجر على المختار ونصب «أهلك» بإضمار فعل أو بالعطف على
محلها باعتبار الأصل.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا
مِنْهَا آيَةً يَتَذَكَّرُونَ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥).

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً منها سمي بذلك لأنه يقلق المعذب من قولهم
ارتجز إذا ارتجس أي اضطرب، وقرأ ابن عامر «مُنْزِلُونَ» بالتشديد. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.
﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي حكايتها الشائعة أو آثار الديار الخربة، وقيل الحجارة الممطرة فإنها كانت
باقية بعد وقيل بقية أنهارها المسودة. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، وهو متعلق
بـ «تركنا» أو «آية».

﴿وَالِىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ (٣٧).

﴿وَالِىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجون به ثوابه فأقيم
المسبب مقام السبب، وقيل إنه من الرجاء بمعنى الخوف. ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.
﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة وقيلة صيحة جبريل لأن القلوب ترجف لها. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي
دَارِهِمْ﴾ في بلدهم أو دورهم ولم يجمع لأمن اللبس. ﴿جَنِينَ﴾ باركين على الركب ميتين.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَرِثَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ﴾ (٣٨).

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ منصوبان بإضمار اذكر أو فعل دل عليه ما قبله مثل أهلكننا، وقرأ حمزة وحفص
ويعقوب «وثموداً» غير منصرف على تأويل القبيلة. ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ أي تبين لكم بعض
مساكنهم، أو إهلاكهم من جهة مساكنهم إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. ﴿وَرِثَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ من
الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ السوي الذي بينه الرسل لهم. ﴿وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ﴾ متمكنين من
النظر والاستبصار ولكنهم لم يفعلوا، أو متبينين أن العذاب لا حق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجوا حتى
هلكوا.

﴿وَقَرُّوْكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ معطوف على عاداً وتقديم ﴿قارون﴾ لشرف نسبه. ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾ فائتين بل أدركهم أمر الله من سبق طالبه إذا فاته. ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ عاقبناه بذنبه. ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباء، أو ملكاً رماهم بها كقوم لوط. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كمدين وشمود. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح وفرعون وقومه. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم إذ ليس ذلك من عادته عز وجل. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعريض للعذاب.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فيما اتخذوه معتمداً ومتكلاً. ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجته في الوهن والخور بل ذاك أوهن فإن لهذا حقيقة وانتفاعاً ما، أو مثلهم بالإضافة إلى الموحد كمثلاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من حجر وجص، والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، والتاء فيه كطاء طاغوت ويجمع على عناكيب وعنكاب وعكاب وعكبة وأعكب. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم وأن دينهم أوهن من ذلك، ويجوز أن يكون المراد بيوت العنكبوت دينهم سماه به تحقيقاً للتمثيل فيكون المعنى: وإن أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ على إضمار القول أي قل للكفرة إن الله يعلم، وقرأ البصريان بالياء حملاً على ما قبله و ﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بـ ﴿تدعون﴾ و ﴿يعلم﴾ معلقة عنها و ﴿من﴾ للتبيين أو نافية و ﴿من﴾ مزیدة و ﴿شيء﴾ مفعول ﴿تدعون﴾ أو مصدرية و ﴿شيء﴾ مصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول ﴿تدعون﴾ عائدها المحذوف، والكلام على الأولين تجهيل لهم وتوكيد للمثل وعلى الأخيرين وعيد لهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل على المعنيين فإن من فرط الغباوة إشراك ما لا يعد شيئاً بمن هذا شأنه، وأن الجماد بالإضافة إلى القادر القاهر على كل شيء البالغ في العلم وإتقان الفعل الغاية كالمعدوم، وأن من هذا وصفه قادر على مجازاتهم.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ يعني هذا المثل ونظائره. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بعد من أنهامهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ ولا يعقل حسناتها وفائدتها. ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغي. وعنه ﴿تِلْكَ﴾ أنه تلا هذه الآية

فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ محققاً غير قاصد به باطلاً، فإن المقصود بالذات من خلقها إفادة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المتفعلون به.

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ تقريباً إلى الله تعالى بقرائه وتحفظاً لألفاظه واستكشافاً لمعانيه، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ بأن تكون سبباً للانتهاء عن المعاصي حال الاشتغال بها وغيرها من حيث إنها تذكر الله وتورث النفس خشية منه. روي أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله ﷺ الصلوات ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ارتكبه، فوصف له عليه السلام فقال: «إن صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبر عنها به للتعليل بأن اشتغالها على ذكره هو العمدية في كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات، أو ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُنَّ وَالْهَكُمُ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشغبة بالنصح، وقيل هو منسوخ بآية السيف إذ لا مجادلة أشد منه وجوابه أنه آخر الدواء، وقيل المراد به ذو العهد منهم. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد أو بإثبات الولد وقولهم «يد الله مغلولة» أو بنهذ العهد ومنع الجزية. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ هو من المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلاً لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم». ﴿وَاللَّهُنَّ وَالْهَكُمُ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مطيعون له خاصة وفيه تعريض باتخاذهم أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإنزال. ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وحيّاً مصداقاً لسائر الكتب الإلهية وهو تحقيق لقوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هم عبد الله بن سلام وأضرابه، أو من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ ومن العرب أو أهل مكة أو ممن في عهد الرسول من أهل الكتابين. ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهورها وقيام الحجة عليها. ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ إلا المتوغلون في الكفر فإن جزمهم به يمنعهم عن التأمل فيما يفيد لهم صدقها لكونها معجزة بالإضافة إلى الرسول ﷺ كما أشار إليه بقوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْتَطِلُونَ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ﴾ فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم

الشريفة على أُمِّي لم يعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى ونفي للتجاوز في الإسناد. ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتبابهم بانتفاء وجه واحد من وجوه الإعجاز المتكاثرة، وقيل لارتباب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ بل القرآن ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي ضُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يحفظونه لا يقدر أحد على تحريفه. ﴿وَمَا يَجْعَلُ بَيِّنَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ المتوغلون في الظلم بالمكابرة بعد وضوح دلائل إعجازها حتى لم يعتدوا بها.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾
 أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى، وقرأ نافع وابن عامر والبصريان وحفص ﴿آيَاتٌ﴾. ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزلها كما يشاء لست أملكها فاتيكم بما تترحونه. ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار وإبانتته بما أعطيت من الآيات. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آية مغنية عما اقترحوه. ﴿أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ تدوم تلاوته عليهم متحدين به فلا يزال معهم آية ثابتة لا تضمحل بخلاف سائر الآيات، أو يتلى عليهم يعني اليهود بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الكتاب الذي هو آية مستمرة وحجة مبينة. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة. ﴿وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتذكرة لمن همه الإيمان دون التعنت. وقيل إن أناساً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ بكتف كتب فيها بعض ما يقول اليهود، «فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاء به غير نبيهم» فنزلت.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَسَتَجْلِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا﴾ بصدقي وقد صدقني بالمعجزات، أو بتبليغي ما أرسلت به إليكم ونصحي ومقابلتكم إياي بالتكذيب والتعنت. ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفي عليه حالي وحالكم. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ﴾ وهو ما يعبد من دون الله. ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ منكم. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿وَسَتَجْلِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ بقولهم: أمطر ﴿علينا حجارة من السماء﴾. ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ لكل عذاب أو قوم. ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة في الدنيا كوقعة بدر أو الآخرة عند نزول الموت بهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بآتيانه.

﴿وَسَتَجْلِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿يَوْمَ يَعَشُفُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿وَسَتَجْلِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ستحيط بهم يوم يأتيهم العذاب، أو هي كالمحيطة

بهم الآن لإحاطة الكفر والمعاصي التي توجبها بهم، واللام للعهد على وضع الظاهر موضع المضمحل للدلالة على موجب الإحاطة، أو للجنس فيكون استدلالاً بحكم الجنس على حكمهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ ظرف ﴿للمحيط﴾ أو مقدر مثل كان كيت وكيت. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ الله أو بعض ملائكته بأمره لقراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالنون. ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ﴿كُلْ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧)

﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل لكم العبادة في بلدة ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فهاجروا إلى حيث يتمشى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام». والفاء جواب شرط محذوف إذ المعنى إن أرضي واسعة إن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها.

﴿كُلْ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تناله لا محالة. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء ومن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له وقرأ أبو بكر بالياء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٥٨) ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٥٩)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لنزلهم. ﴿مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علالي، وقرأ حمزة والكسائي «لنؤتيهم» أي لنقيمهم من الثواء فيكون انتصاب غرماً لإجرائه مجرى لنزلهم، أو بنزع الخافض أو تشبيه الظرف المؤقت بالمبهم. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ وقرئ «فنعم» والمخصوص بالمدح محذوف دل عليه ما قبله.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذية المشركين والهجرة للدين إلى غير ذلك من المحن والمشاق. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على الله.

﴿وَكَايُنْ مِنْ دَائِهِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٠) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ (٦١)

﴿وَكَايُنْ مِنْ دَائِهِ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق حمله لضعفها أو لا تدخره، وإنما تصبح ولا معيشة عندها. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفها وتوكلها وإياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء في أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله، لأن رزق الكل بأسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا على معاشكم بالهجرة، فإنهم لما أمروا بالهجرة قال بعضهم كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم هذا. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضميركم.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ المسؤول عنهم أهل مكة. ﴿لِيَقُولَ﴾ الله لما تقرر في العقول من وجوب انتهاء الممكنات إلى واحد واجب الوجود. ﴿فَأِنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون الموسع له والمضيق عليه واحداً على أن البسط والقبض على التعاقب وألا يكون على وضع الضمير موضع من يشاء وإبهامه لأن من يشاء مبهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالحهم ومفاسدهم.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ معترفين بأنه الموجد للممكّنات بأسرها أصولها وفروعها، ثم إنهم يشركون به بعض مخلوقاته الذي لا يقدر على شيء من ذلك. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما عصمك من مثل هذه الضلالة، أو على تصديقك وإظهار حجتك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فيتناقضون حيث يقرون بأنه المبدئ لكل ما عداه ثم إنهم يشركون به الصنم، وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ إشارة تحقير وكيف لا وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة. ﴿إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ﴾ إلا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويتهجون به ساعة ثم يتفرقون متعبين. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ﴾ لهى دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت عليها، أو هي في ذاتها حياة للمبالغة، و ﴿الحيوان﴾ مصدر حين سمي به ذو الحياة وأصله حيان فقلبت الياء الثانية واواً وهو أبلغ من الحياة لما في بناء فعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة ولذلك اختير عليها ها هنا. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لم يؤثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة والحياة فيها عارضة سريعة الزوال.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ متصل بما دل عليه شرح حالهم أي هم على ما وصفوا به من الشرك فإذا ركبوا البحر. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ كاثنين في صورة من أخلص دينه من المؤمنين حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون سواه لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجزوا المعاودة إلى الشرك.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه لام كي أي يشركون ليكونوا كافرين بشركهم نعمة النجاة. ﴿وَلِيَسْتَمْتَعُوا﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادمهم عليها، أو لام الأمر على التهديد ويؤيده قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون عن نافع ﴿وَلِيَسْتَمْتَعُوا﴾ بالسكون. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك حين يعاقبون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْحِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة. ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ أي جعلنا بلدكم مصوناً عن النهب والتعدي آمناً

أهله عن القتل والسبي. ﴿وَيَتَحَفَّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ يختلسون قتلاً وسبياً إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب. ﴿أَفَالْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعد هذه النعمة المكشوفة وغيرها مما لا يقدر عليه إلا الله يؤمنون بالصنم أو الشيطان. ﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أشركوا به غيره وتقديم الصلتين للاهتمام أو الاختصاص على طريق المبالغة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ بأن زعم أن له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ يعني الرسول أو الكتاب، وفي ﴿لَمَّا﴾ تسفيه لهم بأن لم يتوافقوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿الْإِنْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تقرير لثوابهم كقوله:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا

أي ألا يستوجبون الثواب فيها وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب، أو لاجترائهم أي ألم يعلموا أن ﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ حتى اجترؤوا مثل هذه الجراءة.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩).

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ في حقنا وإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا، أو لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقاً لسلوكها كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ وفي الحديث «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصر والإعانة.

قال رسول الله ﷺ «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

(٣٠) سورة الروم

مكية إلا قوله ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ﴾ الآية وآيها ستون أو تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي غَلَبَ الرُّومَ ﴿١﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٢﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿٣﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿الْم﴾

﴿غَلَبَ الرُّومَ﴾ «فِي أَدْنَى الْأَرْضِ» أرض العرب منهم لأنها الأرض المعهودة عندهم، أو في أدنى أرضهم من العرب واللام بدل من الإضافة. «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ» من إضافة المصدر إلى المفعول، وقرئ «غلبهم» وهو لغة كالجلب والجلب. «سَيَغْلِبُونَ».

﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ روي أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى، وقيل بالجزيرة وهي أدنى أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتموا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرون عليكم فنزلت، فقال لهم أبو بكر: لا يقرن الله أعينكم فوالله لتظهرون الروم على فارس بعد بضْع سنين، فقال له أبي بن خلف: كذبت اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعلنا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في الخطر وماده في الأجل، فجعلناه مائة قلوصل إلى تسع سنين ومات أبي من جرح رسول الله ﷺ بعد قفوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبي، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال تصدق به. واستبدلت به الحنفية على جواز العقود الفاسدة في دار الحرب، وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار، والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب. وقرئ «غَلَبَتْ» بالفتح و «سَيَغْلِبُونَ» بالضم ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام والمسلمون سيغلبونهم، وفي السنة التاسعة من نزوله غزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم وعلى هذا تكون إضافة الغلب إلى الفاعل. «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ» من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين أي له الأمر حين غلبوا وحين يغلبون ليس شيء منهما إلا بقضائه، وقرئ «من قبل ومن بعد» من غير تقدير مضاف إليه كأنه قيل قبل وبعد أي أولاً وآخراً. «وَيَوْمَئِذٍ» ويوم تغلب الروم. «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ».

﴿يَنْصُرُ اللَّهُ﴾ من له كتاب على من لا كتاب له لما فيه من انقلاب التفاؤل وظهور صدقهم فيما أخبروا به المشركين وغلبتهم في رهانهم وازدياد يقينهم وثباتهم في دينهم، وقيل ينصر الله المؤمنين بإظهار صدقهم أو بأن ولي بعض أعدائهم بعضاً حتى تفانوا. «يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ» فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى. «وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» ينتقم من عباده بالنصر عليهم تارة ويفضل عليهم بنصرهم أخرى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن ما قبله في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لامتناع الكذب عليه تعالى. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده ولا صحة وعده لجهلهم وعدم تفكيرهم.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما يشاهدونه منها والتمتع بزخارفها. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ﴾ التي هي غايتها والمقصود منها. ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ لا تخطر ببالهم، و ﴿هُمْ﴾ الثانية تكرير للأولى أو مبتدأ و ﴿غَافِلُونَ﴾ خبره والجملة خبر الأولى، وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة المبدلة من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ تقريراً لجهالتهم وتشبيهاً لهم بالحيوانات المقصور إدراكها من الدنيا ببعض ظواهرها، فإن من العلم بظواهرها معرفة حقائقها وصفاتها وخصائصها وأفعالها وأسبابها وكيفية صدورها منها وكيفية التصرف فيها ولذلك نكر ظاهراً، وأما باطنها فإنها مجاز إلى الآخرة ووصلة إلى نيلها وأنموذج لأحوالها وإشعاراً بأنه لا فرق بين عدم العلم والعلم الذي يختص بظاهر الدنيا.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أو لم يحدثوا التفكير فيها، أو لم يَتَفَكَّرُوا في أمر أنفسهم فإنها أقرب إليهم من غيرها ومرة يجتلى فيها للمستبصر ما يجتلى له في الممكنات بأسرها ليتحقق لهم قدرة مبدعها على إعادتها مثل قدرته على إبدائها. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ متعلق بقول أو علم محذوف يدل عليه الكلام. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهي عنده ولا تبقى بعده. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ﴾ بقاء جزائه عند انقضاء الأجل المسمى أو قيام الساعة. ﴿لَكَافِرُونَ﴾ جاحدون يحسبون أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقرير لسيرهم في أقطار الأرض ونظرهم في آثار المدمرين قبلهم. ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعاد وشمود. ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ وقلبوا وجهها لاستنباط المياه واستخراج المعادن وزرع البذور وغيرها. ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ وعمروا الأرض. ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارة أهل مكة إياها فإنهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيرها، وفيه تهكم بهم من حيث إنهم مغترون بالدنيا مفتخرون بها وهم أضعف حالاً فيها، إذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة وهم ضعفاء ملجؤون إلى دار لا نفع لها. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ ليفعل بهم ما تفعل الظلمة فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير. ﴿وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث عملوا ما أدى إلى تدميرهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوَىٰ﴾ أي ثم كان عاقبتهم العاقبة ﴿السَّوَىٰ﴾ أو الخصلة ﴿السَّوَىٰ﴾،

فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم وأنهم جاءوا بمثل أفعالهم، و ﴿السوأي﴾ تأنيث الأسوأ كالحسنى أو مصدر كالإشرى نعت به. ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ علة أو بدل أو عطف بيان لـ ﴿السوأي﴾، أو خبر كان و ﴿السوأي﴾ مصدر أسأوا أو مفعوله بمعنى، ﴿ثم كان عاقبة﴾ الذين اقترفوا الخطيئة أن طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا بآيات الله واستهزؤوا بها، ويجوز أن تكون ﴿السوأي﴾ صلة الفعل و ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ تابعها والخبر محذوف للإبهام والتهويل، وأن تكون ﴿أَنْ﴾ مفسرة لأن الإساءة إذا كانت مفسرة بالكذب والاستهزاء كانت متضمنة معنى القول، وقرأ ابن عامر والكوفيون ﴿عاقبة﴾ بالنصب على أن الاسم ﴿السوأي﴾ و ﴿أَنْ كَذَّبُوا﴾ على الوجوه المذكورة.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾

﴿الله يبدؤ الخلق﴾ ينشئهم. ﴿ثم يعيده﴾ يعيدهم. ﴿ثم إليه ترجعون﴾ للجزاء والعدول إلى الخطاب للمبالغة في المقصود، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروح بالياء على الأصل.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يسكتون متحيرين آيسين يقال ناظرته فأبلس إذا سكت وأيس من أن يحتج ومنه الناقة المبلّاس التي لا ترغو، وقرئ بفتح اللام من أبلسه إذا أسكته.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُ بِتَفْرِقِهِمْ ﴿١٤﴾

﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾ ممن أشركوهم بالله. ﴿شفعاء﴾ يجيرونهم من عذاب الله، ومجيئه بلفظ الماضي لتحققه. ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ يكفرون بالهتهم حين يشكوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم، وكتب في المصحف ﴿شفعاء﴾ و﴿علموا بني إسرائيل﴾ بالواو وكذا ﴿السوأي﴾ بالألف إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِرُ بِتَفْرِقِهِمْ﴾ أي المؤمنون والكافرون لقوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة﴾ أرض ذات أزهار وأنهار. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون سروراً تهللت له وجوههم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مدخلون لا يغيبون عنه.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾

﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون﴾ ﴿وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تُظهرون﴾ إخبار في معنى الأمر بتنزيه الله تعالى والثناء عليه في هذه الأوقات التي تظهر فيها قدرته وتتجدد فيها نعمته، أو دلالة على أن ما يحدث فيها من الشواهد الناطقة بتنزهه واستحقاقه الحمد ممن له تمييز من أهل السموات والأرض، وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح لأن آثار القدرة والعظمة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشي الذي هو آخر النهار من عشي العين إذا نقص نورها والظهيرية التي هي وسطه لأن تجدد النعم فيهما أكثر،

ويجوز أن يكون ﴿عشياً﴾ معطوفاً على ﴿حين تمسون﴾ وقوله ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس أن الآية جامعة للصلوات الخمس ﴿تمسون﴾ صلاتا المغرب والعشاء، و ﴿تصبحون﴾ صلاة الفجر، و ﴿عشياً﴾ صلاة العصر، و ﴿تظهرون﴾ صلاة الظهر. ولذلك زعم الحسن أنها مدنية لأنه كان يقول كان الواجب بمكة ركعتين في أي وقت اتفقتا وإنما فرضه الخمس بالمدينة، والأكثر على أنها فرضت بمكة. وعنه عليه الصلاة والسلام «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون الآية». وعنه عليه الصلاة والسلام «من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون إلى قوله وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في يومه». وقرئ «حيناً تمسون» و «حيناً تصبحون» أي تمسون فيه وتصبحون فيه.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِئِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (١٩)

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالنطفة والبيضة، أو يعقب الحياة الموت وبالعكس. ﴿ويُمِئِي الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل ذلك الإخراج. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيب للحياة الموت، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي في أصل الإنشاء لأنه خلق أصلهم منه. ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ثم فاجأكم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم وسائر النساء خلقن من نطف الرجال، أو لأنهن من جنسهم لا من جنس آخر. ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ لتميلوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسية علة للمضم والاختلاف سبب للتنافر. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي بين الرجال والنساء، أو بين أفراد الجنس. ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطة الزواج حال الشبق وغيرها بخلاف سائر الحيوانات نظماً لأمر المعاش، أو بأن تعيش الإنسان متوقف على التعارف والتعاون المحوج إلى التواد والتراحم، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كقوله تعالى: ﴿ورحمة منا﴾. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّاتِ وَالْأَنْوَاعِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ السِّنِّاتِ﴾ لغاتكم بأن علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها، أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين مساويين في الكيفية. ﴿وَالْأَنْوَاعِ﴾ بياض الجلد وسواده، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها، وحلاها بحيث وقع التمايز والتعارف حتى أن التوائمين مع توافق موادهما وأسبابهما والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محالة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ لا تكاد تخفى على عاقل من ملك أو إنس أو جن، وقرأ حفص بكسر اللام ويؤيد قوله: ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ منامكم في الزمانين لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية وطلب معاشكم فيهما، أو منامكم بالليل وابتغائكم بالنهار فلف وضم بين الزمانين والفعلين بعاطفين إشعاراً بأن كلا من الزمانين وإن اختص بأحدهما فهو صالح للآخر عند الحاجة، ويؤيده سائر الآيات الواردة فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واستبصار فإن الحكمة فيه ظاهرة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ﴾ مقدر بأن المصدرية كقوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَخْضِرِ الْوَعَى وَأَنْ أَشْهَدُ اللَّذَاتِ هَلْ أَنتَ مُخْلِدِي

أو الفعل فيه منزلة المصدر كقولهم: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، أو صفة لمحذوف تقديره آية يريكم بها البرق كقوله:

فَمَا الدُّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا أُمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتِغِي الْعَيْشَ أَكْذَحُ

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة للمسافر. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث للمقيم، ونصبهما على العلة لفعل يلزم المذكور فإن إراءتهم تستلزم رؤيتهم أوله على تقدير مضاف نحو إرادة خوف وطمع، أو تأويل الخوف والطمع بالإخافة والإطماع كقولك فعلته رغماً للشيطان، أو على الحال مثل كَلَمْتُهُ شِفَاهًا. ﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وقرئ بالتشديد. ﴿فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِثُونَ﴾ (٢٦)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ قيامهما بإقامته لهما وإرادته لقيامهما في حيزيهما المعينين من غير مقيم محسوس، والتعبير بالأمر للمبالغة في كمال القدرة والغنى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطف على ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ على تأويل مفرد كأنه قيل: ومن آياته قيام السموات والأرض بأمره ثم خروجكم من القبور ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ واحدة فيقول أيها الموتى اخرجوا، والمراد تشبيه سرعة ترتب حصول ذلك على تعلق إرادته بلا توقف واحتياج إلى تجشم عمل بسرعة ترتب إجابة الداعي المطاع على دعائه، وثم إما لتراخي زمانه أو لعظم ما فيه ومن الأرض متعلق بدعا كقولك: دعوته من أسفل الوادي فطلع إلي لا بتخرجون لأن ما بعد إذا لا يعمل فيما قبلها، و ﴿إِذَا﴾ الثانية للمفاجأة ولذلك نابت مناب الغاء في جواب الأولى.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِثُونَ﴾ منقادون لفعله فيهم لا يمتنعون عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد هلاكهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والإعادة أسهل عليه من الأصل بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم وإلا فهما عليه سواء ولذلك قيل الهاء لـ ﴿الخلق﴾، وقيل ﴿أهون﴾ بمعنى هين وتذكير هو لأهون أو لأن الإعادة بمعنى أن يعيد. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ﴾ الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة ومن فسر بقول لا إله إلا الله أراد به الوصف بالوحدانية. ﴿الْأَعْلَى﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يصفه به ما فيها دلالة ونطقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجز عن إبداء ممكن وإعادته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَضَلِّ أَلْفٍ وَلَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الأمور إليكم. ﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من ممالككم. ﴿مِّنْ شُرَكَاءَ فِيَمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها. ﴿فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فتكونون أنتم وهم فيه سواء يتصرفون فيه كتصرفكم مع أنهم بشر مثلكم وأنها معارة لكم، و ﴿مِّنْ﴾ الأولى للابتداء والثانية للتبويض والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أن يستبدوا بتصرف فيه. ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك التفصيل. ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نبينها فإن التفصيل مما يكشف المعاني ويوضحها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالإشراك. ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلين لا يكفهم شيء فإن العالم إذا اتبع هواه ربما ردعه علمه. ﴿فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَضَلِّ أَلْفٍ﴾ فمن يقدر على هدايته. ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ يخلصونهم من الضلالة ويحفظونهم عن آفاتهما.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَهَا لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْدِّينُ الْفَيْيُومُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مَبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فقومه له غير ملتفت أو ملتفت عنه، وهو تمثيل للإقبال والاستقامة عليه والاهتمام به. ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ خلقته نصب على الإغراء أو المصدر لما دل عليه ما بعدها. ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْنَهَا﴾ خلقهم عليها وهي قبولهم للحق وتمكنهم من إدراكه، أو ملة الإسلام فإنهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم إليها، وقيل العهد المأخوذ من آدم وذريته. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ لا يقدر أحد أن يغيره أو ما ينبغي أن يغير. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الدين المأمور بإقامة الوجه له أو الفطرة إن فسرت بالملة. ﴿الَّذِينَ الْقَيْمُ﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامته لعدم تدبرهم.

﴿مُبِينٌ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى، وقيل منقطعين إليه من الناب وهو حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لأن الآية خطاب للرسول ﷺ والأمة لقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ غير أنها صدرت بخطاب الرسول ﷺ تعظيماً له.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بدل من المشركين وتفريقهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم،

وقرأ حمزة والكسائي ﴿فارقوا﴾ بمعنى تركوا دينهم الذي أمروا به. ﴿وكانوا شيعاً﴾ فرقاً تشايح كل إمامها الذي أضل دينها. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون ظناً بأنه الحق، ويجوز أن يجعل فرحون صفة كل على أن الخبر ﴿من الذين فرقوا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٣) ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٤) ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ شدة. ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه من دعاء غيره. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ خلاصاً من تلك الشدة. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأ فريق منهم بالإشراك بربهم الذي عافاهم.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ اللام فيه للعاقبة وقيل للأمر بمعنى التهديد لقوله: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ غير أنه التفت فيه مبالغة وقرئ و «ليتمتعوا». ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تمتعكم، وقرئ بالياء التحتية على أن تمتعوا ماض. ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حجة وقيل ذا سلطان أي ملكاً معه برهان. ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تكلم دلالة كقوله ﴿كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أو نطق. ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ بإشراكهم وصحته، أو بالأمر الذي بسببه يشركون به في ألوهيته.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٧).

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ نعمة من صحة وسعة. ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ بطروا بسببها. ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ شدة. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بشؤم معاصيهم. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فاجؤوا القنوط من رحمته وقرأ الكسائي وأبو عمرو بكسر النون.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا في السراء والضراء كالمؤمنين. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة.

﴿فَاتَّخَذَ الْفَرِيقَ حَقًّا وَالْمُسْكِينَ وَالْأَنْفُسَ حَقًّا وَالسَّيْلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٣٨).

﴿فَاتَّخَذَ الْفَرِيقَ حَقًّا﴾ كصلة الرحم، واحتج به الحنفية على وجوب النفقة للمحارم وهو غير مشعر به. ﴿وَالْمُسْكِينَ وَالْأَنْفُسَ حَقًّا﴾ ما وظف لهما من الزكاة، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لمن بسط له ولذلك رتب على ما قبله بالفاء. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ ذاته أو جهته أي يقصدون بمعروفهم إياه خالصاً، أو جهة التقرب إليه لا جهة أخرى. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم.

﴿وَمَا ءَانَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَانَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْضِعُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ﴾ زيادة محرمة في المعاملة أو عطية يتوقع بها مزيد مكافأة، وقرأ ابن كثير بالقصر بمعنى ما جتتم به من إعطاء ربا. ﴿لَيْرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ ليزيد ويزكو في أموالهم. ﴿فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا

يزكو عنده ولا يبارك فيه، وقرأ نافع ويعقوب ﴿لَتَرْبُوا﴾ أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا. ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ تبتغون به وجهه خالصاً ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ ذوو الأضعاف من الثواب ونظير المضعف المقيوي والموسر لذي القوة واليسار، أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم ببركة الزكاة، وقرئ بفتح العين وتغييره عن سنن المقابلة عبارة ونظماً للمبالغة، والاتفات فيه للتعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعل ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾، والراجع منه محذوف إن جعلت ما موصولة تقديره المضعفون به، أو فَمُؤْتُوهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً﴾ أثبت له لوازم الألوهية ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاء له من الأصنام وغيرها مؤكداً بالإنتكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق، ثم استنتج من ذلك تقدسه عن أن يكون له شركاء فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن تكون الكلمة الموصولة صفة والخبر ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ والرباط ﴿مَنْ ذَلِكَ﴾ لأنه بمعنى من أفعاله، و ﴿مَنْ﴾ الأولى والثانية تفيد أن شيوع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفي وكل منها مستقلة بتأكيد لتعجيز الشركاء، وقرأ حمزة والكسائي بالتاء.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق وإخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار، أو الضلالة والظلم. وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى و «البحور». ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ بشؤم معاصيهم أو بكسبهم إياه، وقيل ظهر الفساد في البر بقتل قاييل أخاه وفي البحر بأن جلنداً ملك عمان كان يأخذ كل سفينة غصباً. ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ بعض جزائه فإن تمامه في الآخرة واللام للعللة أو للعاقبة. وعن ابن كثير ويعقوب ﴿لَنُذِيقَهُمْ﴾ بالنون. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ لتشاهدوا مصداق ذلك وتحققوا صدقه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ استئناف للدلالة على أن سوء عاقبتهم كان لفسو الشرك وغلبيته فيهم، أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْذَعُونَ﴾ (٤٣).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ البليغ الاستقامة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ لا يقدر أن يرده أحد، وقوله: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ متعلق بـ «يَأْتِي»، ويجوز أن يتعلق بـ «مَرَدٌ» لأنه مصدر على معنى لا يرده الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه. ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْذَعُونَ﴾ يتصدعون أي يفرقون «فريق في الجنة وفريق في السعير» كما قال

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ أَنْ يُبَدِّلَ عَمِلَ سَاحِجاً فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ أَنْ يُبَدِّلَ عَمِلَ سَاحِجاً﴾ (٤٤) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥).

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي وباله وهو النار المؤبدة. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ أَنْ يُبَدِّلَ عَمِلَ سَاحِجاً﴾ يسوون منزلاً في الجنة، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص.

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار ولذلك جمعه ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص. ﴿كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وقرئ بالتاء على إسناده إلى ضمير الرحمة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني إن الذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها. ﴿لَمُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ لقادر على إحيائهم فإنه إحداث لمثل ما كان في مواد أبدانهم من القوى الحيوانية، كما أن إحياء الأرض إحداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية، هذا ومن المحتمل أن يكون من الكائنات الراحنة ما يكون من مواد تفتت وتبددت من جنسها في بعض الأعوام السالفة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة قدرته إلى جميع الممكنات على سواء.

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١).

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثر أو الزرع فإنه مدلول عليه بما تقدم، وقيل السحاب لأنه إذا كان «مصفراً» لم يمطر واللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وقوله: ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ جواب سد مسد الجزاء ولذلك فسر بالاستقبال. وهذه الآية ناعية على الكفار بقلة تثبتهم وعدم تدبرهم وسرعة تزلزلهم لعدم تفكيرهم وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ويلتجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم ولا يياسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر والاستدامة بالطاعة إذا أصابهم برحمته ولم يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه إذا ضرب زروعهم بالاصفرار ولا يكفروا نعمه.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٣).

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلهم لما سدوا عن الحق مشاعرهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ قيد الحكم به ليكون أشد استحالة، فإن الأصم المقبل وإن لم يسمع الكلام يظن منه بواسطة الحركات شيئاً، وقرأ ابن كثير بالياء مفتوحة ورفع «الصُّمَّ».

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ سماهم عمياً لفقدهم المقصود الحقيقي من الأبصار أو لعمي قلوبهم، وقرأ حمزة وحده «تهدي العمي». ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى تلقي اللفظ وتدبر المعنى، ويجوز أن يراد بالمؤمن المشارف للإيمان. ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهم به.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله «خلق الإنسان ضعيفاً» أو خلقكم من أصل ضعيف وهو النطفة. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغت الحلم أو تعلق بأبدانكم الروح. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذ منكم السن، وفتح عاصم وحمزة الضاد في جميعها والضم أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما: قرأتها على رسول الله ﷺ «من ضعف فأقرأني من ضعف». وهما لغتان كالفقر والفقير والتكثير مع التكرير لأن المتأخر ليس عين المتقدم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من ضعف وقوة وشيبة وشيبة. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ فإن الترديد في الأحوال المختلفة مع إمكان غيره دليل العلم والقدرة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنِي عَنْ سَاعَتِي كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ القيامة سميت بها لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة

وصارت علماً لها بالغلبة كالكوكب للزهرة. ﴿يُقَسِّمُ الْمُخْرَمُونَ مَا لَبِثُوا﴾ في الدنيا أو في القبور أو فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم، وفي الحديث «ما بين فناء الدنيا والبعث أربعون» وهو محتمل للساعات والأيام والأعوام. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدة لبثهم إضافة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصدق والتحقيق. ﴿كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون في الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في علمه أو قضائه، أو ما كتبه لكم أي أوجه أو اللوح أو القرآن وهو قوله: ﴿وَمَنْ وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾. ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ ردوا بذلك ما قالوه وحلفوا عليه. ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتموه. ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لفريطكم في النظر، والفاء لجواب شرط محذوف تقديره: إن كنتم منكبين البعث فهذا يومه، أي فقد تبين بطلان إنكاركم. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيون بالياء لأن المعذرة بمعنى العذر، أو لأن تأنيثها غير حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يدعون إلى ما يقتضي إعتابهم أي إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إليه في الدنيا من قولهم استعطني فلان فأعتبه أي استرضاني فأرضيته.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون لهم من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بينا لهم من كل مثل ينبههم على التوحيد والبعث وصدق الرسول. ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ من آيات القرآن. ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من فرط عنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزورون.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الطبع. ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبون العلم ويصرون على خرافات اعتقدوها فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق ويوجب تكذيب المحق.

﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٦٠﴾.

﴿فَأَصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله. ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ﴾ ولا يحملنك على الخفة والقلق. ﴿الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوب بتخفيف النون، وقرئ «ولا يستحقنك» أي لا يزيغنك فيكونوا أحق بك مع المؤمنين. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليته».

(٣١) سورة لقمان

مكية إلا آية وهي ﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيؤْتُونَ الزكاةَ﴾ فإن وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لأنه لا ينافي شرعيتهما بمكة وقيل إلا ثلاثاً من قوله

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾

وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيؤْتُونَ الزكاةَ﴾ هدى ورحمة للمحسنين ﴿١﴾

﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيؤْتُونَ الزكاةَ﴾ سبق بيانه في «يونس».

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعامل فيهما معنى الإشارة، ورفعها حمزة على الخبر بعد الخبر أو الخبر لمحذوف.

﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣﴾

﴿الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيان لإحسانهم أو تخصيص هذه الثلاثة من شعبه لفضل اعتداد بها وتكرير الضمير للتوكيد ولما حيل بينه وبين خبره.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدة الحققة والعمل الصالح.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٤﴾

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ما يلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتبار بها والمصاحك وفضول الكلام، والإضافة بمعنى من وهي تبينية إن أراد بالحديث المنكر وتبعيضه إن أراد به الأعم منه. وقيل نزلت في النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة. وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشرته من أراد الإسلام ومنعه عنه. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه أو قراءة كتابه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء بمعنى ليثبت على ضلاله ويزيد فيه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سخريّة، وقد نصبه حمزة والكسائي ويعقوب وحفص عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتهم الحق باستئثار الباطل عليه.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبراً لا يعبا بها. ﴿كَأَنَّ لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ مشابهاً حاله حال من لم يسمعها. ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ مشابهاً من في أذنيه ثقل لا يقدر أن يسمع، والأولى حال من المستكن في ﴿وَلَّىٰ﴾ أو في ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في ﴿لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ ويجوز أن يكونا استئنافين، وقرأ نافع ﴿فِي أُذُنَيْهِ﴾. ﴿فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ﴾ أعلمه بأن العذاب يحق به لا محالة وذكر البشارة على التهكم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيم الجنات فعكس للمبالغة. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ أو من ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ والعامل ما تعلق به اللام. ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان الأول لنفسه والثاني لغيره لأن قوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ﴾ وعد وليس كل وعد حقاً. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه شيء فيمنعه عن إنجاز وعده ووعيده. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمته.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرَ عَمَدِ تَرْوَنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ يَغْفِرَ عَمَدِ تَرْوَنَهَا﴾ قد سبق في «الرعد». ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبلاً شوامخ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد بكم، فإن تشابه أجزائها يقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيز ووضع معينين. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة وكأنه استدلل بذلك على عزته التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي كمال العلم، ومهد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هذا الذي ذكر مخلوقه فماذا خلق ألهمتكم حتى استحقوا مشاركته، و ﴿مَاذَا﴾ نصب بـ ﴿خَلَقَ﴾ أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته ﴿فَأَرُونِي﴾ معلق عنه. ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إضراب عن تبكيثهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفى على ناظر، ووضع الظاهر موضع المضممر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ يعني لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب أو خالته، وعاش حتى أدرك داود عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعثه، والجمهور على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً. والحكمة في عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً وكان يسرد الدرر فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت فقال: الصمت حكم وقليل فاعله، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحت فقال أصبحت في يدي غيري، فتفكر داود فيه فصعق صعقة. وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتي بأطيب مضغتين منها فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتى بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب شيء

إذا طاب وأخبت شيء إذا خبثا. ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لأن أشكر أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول. ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه عائد إليها وهو دوام النعمة واستحقاق مزيدها. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى الشكر. ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد وإن لم يحمد، أو محمود ينطق بحمده جميع مخلوقاته بلسان الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمْنُنْ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣).

﴿وَإِذْ قَالَ لِقَمْنُنْ لِابْنِهِ﴾ أنعم أو أشكم أو ماثان. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بَنِيَّ﴾ تصغير إشفاق، وقرأ ابن كثير هنا وفي ﴿يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ بإسكان الياء، وحفص فيهما وفي ﴿يَا بَنِي إِنهَا إِنْ تَكُ﴾ بفتح الياء ومثله البزي في الأخير وقرأ الباقر في الثلاثة بكسر الياء. ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومن وقف على ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ جعل بالله قسماً. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا منه ومن لا نعمة منه.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ (١٤).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا﴾ ذات وهن أو تهن وهناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضعفها والجملة في موضع الحال، وقرئ بالتحريك يقال وهن يهن وهناً وهناً ووهن يوهن وهناً. ﴿وَوَصَّيْنَاهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وطاقمه في انقضاء عامين وكانت ترضعه في تلك المدة، وقرئ «وفصله في عامين» وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حولان. ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ تفسير لـ ﴿وَصَّيْنَا﴾ أو علة له أو بدل من والديه بدل الاشتمال، وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكداً للتوصية في حقها خصوصاً ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال من أبير «أمك ثم أمك ثم أمك ثم أمك ثم قال بعد ذلك أباك». ﴿إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ فأحاسبك على شركك وكفرتك.

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَعَالَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٥).

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما، وقيل أراد أن بني العلم به نفيه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صحاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَاتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعكم ومرجعهما. ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما، والآيتان معترضتان في تضاعيف وصية لقمان تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصي به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تلو الباري في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما ونزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمه مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تطعم فيها شيئاً، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

﴿يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالٌ حَبْرٌ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦).

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِنْقَالٌ حَبْرٌ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تك مثلاً في الصغر كحبة الخردل. ورفع نافع ﴿مِنْقَالٌ﴾ على أن الهاء ضمير القصة وكان تامة وتأنيتها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شرقت صدر القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحذب السموات أو أسفله كمقعر الأرض. وقرئ بكسر الكاف من وكن الطائر إذا استقر في مكانه. ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ يحضرها فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿يَبْنِي أَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

﴿يَا بَنِي أَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد سيما في ذلك. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر أو إلى كل ما أمر به. ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قطع إيجاب مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد.

﴿وَلَا تُصَوِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ١٨ ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ ١٩.

﴿وَلَا تُصَوِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تمله عنهم ولا تولهم صفحة وجهك كما يفعل المتكبرون من الصعر وهو داء يعتري البعير فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحزمة والكسائي ﴿وَلَا تَصَاعِرْ﴾، وقرئ «ولا تصعر» والكل واحد مثل علاه وأعلاه وعلاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي فرحاً مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي وتأخير الـ ﴿فَخُورٍ﴾ وهو مقابل للمصعر خذه والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسط فيه بين الدبيب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن»، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما كان إذا مشى أسرع فالمراد ما فوق دبيب المتماوت، وقرئ بقطع الهمزة من أقصد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ وانقص منه واقصر. ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ والحمير مثل في الدم سيما نهاقه ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين، وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراج مخرج الإستعارة مبالغة شديدة وتوحيد الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في التكثير دون الأحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ٢٠.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الإنتفاع به بوسط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة، وقرئ «وأصبغ» بالإبدال وهو جار في كل سين اجتمع من الغين أو الخاء أو القاف كصلخ وصقر، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص ﴿نِعَمَهُ﴾ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى رسول. ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله بل بالتقليد كما قال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ٢١ ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ

عَقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهو منع صريح من التقليد في الأصول. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثل لا تبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجب.

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بأن فوض أمره إليه وأقبل بشرائعه عليه من أسلمت الميثاق إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد وحيث عدي باللام فلتضمن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُخْسِنٌ﴾ في عمله. ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ تعلق بأوثق ما يتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ إذ الكل صائر إليه.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِيَّاكَ مَرْجِعُهُمْ فَتَنْتَبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة، وقرئ «فلا يحزنك» من أحزن وليس بمستفيض. ﴿إِيَّاكَ مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين. ﴿فَتَنْتَبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فمجاز عليه فضلاً عما في الظاهر.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتعاً أو زماناً قليلاً فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم ثقل الأجرام الغلاظ أو يضم إلى الإحراق الضغط.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذعانه. ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الإعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يستحق العبادة فيهما غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يحمد.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ﴾ ولو ثبت كون الأشجار أقلاماً، وتوحيد «شجرة» لأن المراد تفصيل الأحاد. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحر المحيط بسعته مداداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المداد يمدد لأنه من مد الدواة وأمددها، ورفعها للعطف على محل أن ومعموليها ويمده حال أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال، ونصبه البصريان بالعطف على اسم «أن» أو إضمار فعل يفسره «يمده»، وقرئ «تمده» «ويمده» بالياء والتاء. ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ بكتبها بتلك الأقلام بذلك المداد وإيثار جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، والآية جواب لليهود سألو رسول الله ﷺ أو أمروا وقد قرئ أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَا أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وقد أنزل التوراة وفيها علم كل شيء.

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٨) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠).

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلق إرادته الواجبة مع قدرته الذاتية كما قال ﴿إِنَّمَا أَمَرْنَا شَيْءًا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مبصر لا يشغله إدراك بعضها عن بعض فكذا الخلق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي﴾ كل من النيرين يجري في فلكه. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى متى معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر. وقيل إلى يوم القيامة والفرق بينه وبين قوله ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أن الـ ﴿أَجَلٍ﴾ ها هنا منتهى الجري وثمة غرضه حقيقة أو مجازاً وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابت إلهيته. ﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله أو الباطل إلهيته، وقرأ البصريان والكوفيون غير أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَرِفُ بِإِذْنِ اللَّهِ لِيُزَيِّكُم مِّن مَّا تَبْتَغُونَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلُلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْصَرِفُ﴾ بإحسانه في تهية أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وكمال حكمته وشمول إنعامه والباء للصلة أو الحال، وقرئ «الفلك» بالثقل و «بنعمات الله» بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُزَيِّكُم مِّن آيَاتِهِ﴾ دلالة. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الأفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرف النعم ويتعرف مانحها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ علامهم وغطاهم. ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلُلِ﴾ كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما، وقرئ كالظلال جمع ظله كقلة وقلال. ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصد الذي هو التوحيد، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار فإنه نقض للعهد الفطري، أو لما كان في البحر والختر أشد الغدر. ﴿كُفُورٍ﴾ للنعم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ لا يقضي عنه، وقرئ «لا يجزي» من

أجزأ إذا أغنى والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزى فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على ﴿والد﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي، وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالشواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خلفه. ﴿فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ علم وقت قيامها. لما روي أن الحرث بن عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيام الساعة؟ وإني قد ألقيت حباتي في الأرض فمتى السماء تمطر؟ وحمل امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فنزلت. وعنه عليه الصلاة والسلام «مفاتيح الغيب خمس» وتلا هذه الآية. ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ في إيبانه المقدر له والمحل المنعين له في علمه، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظم إليه، فقال الرجل من هذا؟ قال: ملك الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح أن تحملني وتلقيني بالهند ففعل فقال الملك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذ أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك، وإنما جعل العلم لله تعالى والدراية للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العلمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه، وقرئ «بأية أرض» وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل في ﴿كلهن﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها.

وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقاً يوم القيامة، وأعطى من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر».

(٣٢) سورة السجدة

مكية وآيها ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَمْ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ .

﴿الَمْ﴾ إن جعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأ خبره:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ على أن التنزيل بمعنى المنزل، وإن جعل تعديداً للحروف كان ﴿تنزيل﴾ خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فيكون ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في ﴿فيه﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ولا ﴿رب فيه﴾ حال من ﴿الكتاب﴾، أو اعتراض والضمير فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين وقوله: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فإنه تقرير له، ونظم الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيهه من رب العالمين، وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه، فإن ﴿أَمْ﴾ منقطعة ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزل من الله وبين المقصود من تنزيهه فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذ كانوا أهل الفترة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ مر بيانه في «الأعراف». ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ إذا جاوزتم رضا الله أحد ينصركم ويشفع لكم، أو ﴿مَا لَكُمْ﴾ سواء ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في موطن نصركم على أن الشفيع متجاوز به للناصر، فإذا خذلكم لم يبق لكم ولي ولا ناصر. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله تعالى.

﴿يُنذِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ .

﴿يُنذِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلة آثارها إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في برهة من الزمان متطاولة يعني بذلك استطالة ما بين التدبير والوقوع، وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملك ثم يعرج إليه في زمان هو كألف سنة، لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرة ألف سنة فإن ما بين

السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة. وقيل يقضي قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الألف لألف آخر. وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمر كله يوم القيامة. وقيل يدبر الأمور به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي، ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلصين والأعمال الخالص، وقرئ «يعرج» و «يعدون».

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فيدبر أمرهما على وفق الحكمة. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره. ﴿الرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره، وفيه إيماء بأنه يراعي المصالح تفضلاً وإحساناً.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ خلقه موفراً عليه ما يستعد له ويليق به على وفق الحكمة والمصلحة، وخلقته بدل من كل بدل الاشتمال وقل علم كيف يخلقه من قولهم قيمة المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، و «خلقته» مفعول ثان. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ يعني آدم. ﴿مِنْ طِينٍ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذريته سميت بذلك لأنها تنسل منه أي تنفصل. ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ممتن. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ قُوَّمَهُ بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب، وأن له شأناً له مناسبة ما إلى الحضرة الربوبية ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعتقلوا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غيبنا فيها. وقرئ «ضللنا» بالكسر من ضل يضل «وصللنا» من صل اللحم إذا أنتن، وقرأ ابن عامر «إذا» على الخير والعامل فيه ما دل عليه. ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو: نبعث أو يجدد خلقنا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب «إنا» على الخبر، والقائل أبي بن خلف وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَافِرُونَ﴾ جاحدون.

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يبقى منكم أحداً، والتفعل والإستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيته وإستقصيته وتعجلته واستعجلته. ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بقبض أرواحكم وإحصاء أجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَانْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخزي. ﴿رَبَّنَا﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتنا. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَانْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا

شك بما شاهدنا، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيماً، ويجوز أن تكون للتمني والمضي فيها وفي ﴿إذ﴾ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع، ولا يقدر لـ ﴿تري﴾ مفعول لأن المعنى لو يكون منك رؤية في هذا الوقت، أو يقدر ما دل عليه صلة إذ والخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك تصريح بعدم إيمانهم لعدم المشيئة المسبب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعل ذوق العذاب مسبباً عن نسيانهم العاقبة وعدم تفكرهم فيها بقوله:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب ترك المنسي وفي استنفاه وبناء الفعل على إن واسمها تشديد في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كرر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله وتعليله بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي كما علله بتركهم تدبر أمر العاقبة والتفكر فيها دلالة على أن كلا منهما يقتضي ذلك.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٥) ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦).

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ وعظوا بها. ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿وَسَبَّحُوا﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شكراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطاعة كم يفعل من يصر مستكبراً.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحى. ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ الفرش ومواضع النوم. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه. ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها «قيام العبد من الليل». وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد منادٍ ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي: ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس» وقيل كان أناس من الصحابة يصلون من المغرب إلى العشاء فتزلت فيهم. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل. ﴿مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تقر به عيونهم. وعنه عليه الصلاة والسلام «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل ما أطلعتهم عليه، اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾». وقرأ حمزة ويعقوب «أخفي لهم» على أنه مضارع أخفيت، وقرئ «نخفي» و«أخفي» والفاعل للكل هو الله، «وقرأت أعين»

لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة و ﴿مَا﴾ موصولة أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزوا جزاء أو أخفي للجزاء فإن إخفائه لعلو شأنه. وقيل هذا لقوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ (١٨) ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩).

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ في الشرف والمثوبة تأكيد وتصريح والجمع للحمل على المعنى.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ فإنها المأوى الحقيقي والدنيا منزل مرتحل عنها لا محالة، وقيل المأوى جنة من الجنان. ﴿نُزُلًا﴾ سبق في سورة «آل عمران». ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِهِمْ﴾ (٢١).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مكان جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ عبارة عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا يريد ما منحوا به من السنة سبع سنين والقتل والأسر. ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عذاب الآخرة. ﴿لَعْلَهُمْ﴾ لعل من بقي منهم. ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخر علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٣).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتفكر فيها، و ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإعراض عنها مع فرط وضوحها وإرشادها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلَا يَكْشِفُ السُّمَاءَ إِلَّا ابْنُ حِرَّةٍ يَرَىٰ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِنْ لِقَائِهِ﴾ من لقاءك الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ فإننا آتيناك من الكتاب مثل ما آتيناه منه فليس ذلك بدع لم يكن قط حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسى الكتاب أو من لقاءك موسى. وعنه عليه الصلاة والسلام «رأيت ليلة أسري بي موسى ﷺ رجلاً آدم طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة». ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي المنزل على موسى. ﴿هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحكم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوَفُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المحق من المبطل. ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على منوي من جنس المعطوف والفاعل ضمير ما دل عليه. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكتهم من القرون الماضية، أو ضمير الله بدليل القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ يعني أهل مكة يمشون في متاجرهم على ديارهم، وقرىء «يمشون» بالتشديد. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر واتعاظ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ التي جرز نباتها أي قطع وأزيل لا التي لا تنبت لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ وقيل اسم موضع باليمن. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع. ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتين والورق. ﴿وَأَنْفُسُهُمْ﴾ كالحب والتمر. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ النصر أو الفصل بالحكومة من قوله ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الوعد به.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وهو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكفرة والفصل بينهم. وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة، والمراد بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانهم حال القتل ولا يمهلون وانطباقه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عرف من غرضهم، فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكديماً واستهزاء أجيوا بما يمنع الاستعجال.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ (٣٠) ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ (٣١).

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم، وقيل هو منسوخ بآية السيف. ﴿وَانْتَظِرْ﴾ النصره عليهم. ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ الغلبة عليك، وقرىء بالفتح على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أو أن الملائكة ينتظرونه.

عن النبي ﷺ من قرأ «الْم تنزيل، وتبارك الذي بيده الملك أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر». وعنه «من قرأ «الْم تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام».

سورة الأحزاب (٣٣)

محذية وآياتها ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ناداه بالنبي وأمره بالتقوى تعظيماً له وتفهيماً لشأن التقوى، والمراد به الأمر بالثبات عليه ليكون مانعاً له عما نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فيما يعود بوهن في الدين. روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا عليه في الموقعة التي كانت بينه وبينهم وقام معهم بن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا له: ارفض ذكر آلهتنا وقل إن لها شفاعة وندعك وربك فنزلت. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فموج إليك ما تصلح به أعمالك ويغني عن الاستماع إلى الكفرة، وقرأ أبو عمرو بالياء على أن الواو ضمير الكفرة والمنافقين أي أن الله خير بمكايدهم فيدفعها عنك.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وكل أمرك إلى تديره. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمور كلها.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي ما جمع قلبين في جوف لأن القلب معدن الروح الحيواني المتعلق بالنفس الإنساني أولاً ومنع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد. ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ أي ما جمع قلبين في جوف لأن القلب معدن الروح الحيواني المتعلق بالنفس الإنساني أولاً ومنع القوى بأسرها وذلك يمنع التعدد. ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ وما جمع الزوجية والأمومة في امرأة ولا الدعوة والبنوة في رجل، والمراد بذلك رد ما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الأريب له قلبان ولذلك كانوا يقولون لزيد بن حارثة الكلبي عتيق رسول الله ﷺ ابن محمد، أو المراد نفى الأمومة والبنوة عن المظاهر عنها والمتبنين ونفي القلبين لشمهيد أصل يحملان عليه. والمعنى كما لم يجعل الله قلبين في جوف لأدائه إلى التناقض وهو أن يكون كل منهما أصلاً لكل القوى وغير أصل لم يجعل الزوجية والدعي للذين لا ولادة بينهما وبينه أمه وابنه للذين بينهما وبينه ولادة، وقرأ أبو عمرو «اللاي» بالياء وحده على أن أصله اللاء بهمزة فخففت وعن الحجازيين مثله، وعنهما وعن يعقوب بالهمز وحده، وأصل تظهرون تنظرون فأدغمت التاء الثانية في الظاء. «تظهرون» من ظاهر، وقرئ «تظهرون» من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد و«تظهرون» من الظهور. ومعنى الظهار: أن يقول للزوجة: أنت عليّ

كَظَهَرَ أَمِي، مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من ليك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لأنه كان طلاقاً في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاق أو الحرمة إلى أداء الكفارة كما عدي آلى بها، وهو بمعنى حلف وذكر الظهر للكنية عن البطن الذي هو عموده فإن ذكره يقارب ذكر الفرج، أو للتغليظ في التحريم فإنهم كانوا يحرمون إتيان المرأة وظهرها إلى السماء، وأدعياء جمع دعي على الشذوذ وكأنه شبه بفعل بمعنى فاعل فجمع جمعه. **﴿ذَلِكُمْ﴾** إشارة إلى ما ذكر أو إلى الأخير. **﴿قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾** لا حقيقة له في الأعيان كقول الهادي. **﴿وَالله يَقُولُ الْحَقَّ﴾** ما له حقيقة عينية مطابقة له. **﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾** سبيل الحق.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥).

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أنسبهم إليهم، وهو أفراد للمقصود من أقواله الحق وقوله: **﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾** تعليل له، والضمير لمصدر **﴿ادْعُوهُمْ﴾** و **﴿اقسط﴾** أفل تفضيل قصد به الزيادة مطلقاً من القسط بمعنى العدل ومعناه البالغ في الصدق. **﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾** فتنسبهم إليهم. **﴿فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾** أي فهم إخوانكم في الدين. **﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾** وأولياؤكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويل. **﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾** ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهي أو بعده على النسيان أو سبق اللسان. **﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾** ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم أو ولكن ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح. **﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** لعفوه عن المخطيء. واعلم أن التبني لا عبرة به عندنا وعند أبي حنيفة يوجب عتق مملوكه ويثبت النسب لمجهوله الذي يمكن إلحاقه به.

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٦).

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، فلذلك أطلق فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ عليهم من أمرها وشفتتهم عليه، أتم من شفقتهم عليها. روي: أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس: نستأذن آبائنا وأمهاتنا فنزلت. وقرئ: «وهو أب لهم» أي في الدين فإن كل نبي أب لأمته من حيث إنه أصل فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوة. **﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾** منزلات منزلتهن في التحريم واستحقاق التعظيم وفيما عدا ذلك فكالأجنبيات، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها: لسنا أمهات النساء. **﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾** وذوو القربات. **﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾** في التوارث وهو نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالة في الدين. **﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾** في اللوح أو فيما أنزل، وهو هذه الآية أو آية المواريث أو فيم فرض الله. **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾** بيان لأولي الأرحام، أو صلة لأولي أي أولوا الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة. **﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾** استثناء من أعم ما يقدر الأولوية فيه من النفع والمراد بفعل المعروف التوصية أو منقطع **﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾** كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) **﴿لَسْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** (٨).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ مقدر بذكر وميثاقهم عهدهم بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم. **﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع وقدم نبينا

عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عظيم الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكرير لبيان هذا الوصف تعظيماً له.

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الذين صدقوا عهدهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقهم إياهم تبيكياً لهم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فإن مصدق الصادق صادق، أو المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم. ﴿وَأَعَدُّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على ﴿أَخَذْنَا﴾ من جهة أن بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لإثابة المؤمنين، أو على ما دل عليه ليسأل كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريح الصبا. ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكة. روي أنه عليه الصلاة والسلام لما سمع بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة ثم خرج إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى بعث الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتية، فأخسرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض وكبرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طليحة بن خويلد الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهمزوا من غير قتال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وقرأ البصريان بالياء أي بما يعمل المشركون من التحزب والمحاربة. ﴿بَصِيرًا﴾ راءياً.

﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (١٠).

﴿إِذْ جَاءَكُمْ﴾ بدل من إذ جاءكم. ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قبل المشرق بنو غطفان. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي من قبل المغرب قريش. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخصاً. ﴿وَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ رعباً فإن الرثة تنتفخ من شدة الروح فيرتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة، وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ الأنواع من الظن فظن المخلصون الثبت القلوب أن الله منجز وعده في إعلاء دينه، أو ممتحنهم فخافوا الزلزل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكي عنهم، والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي وقد أجرى نافع وابن عامر وأبو بكر فيها الوصل مجرى الوقف، ولم يزدها أبو عمرو وحمزة ويعقوب مطلقاً وهو القياس.

﴿هَٰذَاكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (١١) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢).

﴿هَٰذَاكَ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل. ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدة الفرع وقرىء «زلزالاً» بالفتح.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد. ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ من الظفر وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعداً باطلاً. قيل قائله معتب بن قشير قال يعدنا محمد بفتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر أن يبرز فرقا ما هذا إلا وعد غرور.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْهْلُ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١٣).

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ يعني أوس بن قيطي وأتباعه. ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهل المدينة، وقيل هو اسم أرض وقعت المدينة في ناحية منها. ﴿لَا مُقَامَ﴾ لا موضع قيام. ﴿لَكُمْ﴾ ها هنا، وقرأ حفص بالضم على أنه مكان أو مصدر من أقام. ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هاربين، وقيل المعنى لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى الشرك وأسلموه لتسلموا، أو لا مقام لكم يثرب فارجعوا كفاراً ليمكنكم المقام بها. ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ﴾ للرجوع. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غير حصينة وأصلها الخلل، ويجوز أن يكون تخفيف العورة من عورت الدار إذا اختلت وقد قرئ بها. ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينة. ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنفَقْنَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ (١٤).

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ﴾ دخلت المدينة أو بيوتهم. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحذف الفاعل للإيماء بأن دخول هؤلاء المتحزبين عليهم ودخول غيرهم من العساكر سيان في اقتضاء الحكم المرتب عليه. ﴿ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الردة ومقاتلة المسلمين. ﴿لَأَنفَقْنَاهَا﴾ لأعطوها، وقرأ الحجازيان بالقصر بمعنى لجأوها وفعلوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا بَسِيرًا﴾ ريشما يكون السؤال والجواب، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد تمام الارتداد إلا يسيراً.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآذِينَ وَالْأَذِينَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مِنْهُمْ أَن يَنْفَعَهُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥).

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْآذِينَ﴾ يعني بني حارثة عاهدوا رسول الله ﷺ يوم أحد حين فشلوا ثم تابوا أن لا يعودوا لمثله. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مِنْهُمْ أَن يَنْفَعَهُمُ الْفِرَارُ﴾ إن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم. ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً فتمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع إلا تمتيعاً، أو زماناً قليلاً.

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٦) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧).

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام كما في قوله: متقلداً سيفاً ورمحاً

أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع. ﴿وَلَا يَحِذُّونَ لَهُمْ مِّنْ ذُنُوبِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضر عنهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ المشبطين عن رسول الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ من

ساكني المدينة. ﴿هَلُمُّوا إِلَيْنَا﴾ قربوا أنفسكم إلينا وقد ذكر أصله في «الإنعام». ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرون ويتشبثون ما أمكن لهم، أو يخرجون مع المؤمنين ولكن لا يقاتلون إلا قليلاً كقوله ﴿مَا قَاتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقيل إنه من تنمة كلامهم ومعناه لا يأتي أصحاب محمد حرب الأحزاب ولا يقاومونهم إلا قليلاً.

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْمَوْتُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٩).

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بالمعونة أو النفقة في سبيل الله أو الظفر أو الغنيمة، جمع شحيح ونصبها على الحال من فاعل «يأتون» أو «المعوقين» أو على الذم. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم. ﴿كَالَّذِي يُغْتَنَّى عَلَيْهِ﴾ كنظر المغشي عليه أو كدوران عينية، أو مشبهين به أو مشبهة بعينه. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من معالجة سكرات الموت خوفاً ولو أذاب بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم. ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ ضربوكم. ﴿بِالسِّنَةِ جِدَادٍ﴾ ذرية يطلبون الغنيمة، والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان. ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ نصب على الحال أو الذم، ويؤيده قراءة الرفع وليس بتكرير لأن كلا منهما مقيد من وجه. ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ إخلاصاً. ﴿فَاحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأظهر بطلانها إذ لم تثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإحباط. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً لتعلق الإرادة به وعدم ما يمنعه عنه.

﴿يَخْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتْ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوكَ عَنْ أَتْبَائِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢٠).

﴿يَخْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاء لجبنهم يظنون أن الأحزاب لم يهزموا، وقد انهزموا ففروا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كرة ثانية. ﴿يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادَوْتْ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنوا أنهم خارجون إلى البدو حاصلون بين الأعراب. ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة. ﴿عَنْ أَتْبَائِهِمْ﴾ عما جرى عليكم. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال. ﴿مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء وخوفاً من التعيير.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١).

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خصلة حسنة من حقها أن يؤتسى بها كالشبات في الحرب ومقاساة الشدائد، أو هو في نفسه قدوة يحسن التأسي به كقولك في البيضة عشرون منا حديداً أي هي في نفسها هذا القدر من الحديد، وقرأ عاصم بضم الهمزة وهو لغة فيه. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي ثواب الله أو لقاءه ونعيم الآخرة، أو أيام الله واليوم الآخر خصوصاً. وقيل هو كقولك أرجو زيدا وفضله، فإن «اليوم الآخر» داخل فيها بحسب الحكم والرجاء يحتمل الأمل والخوف و «لِّمَن كَانَ» صلة لحسنة أو صفة لها. وقيل بدل من «لكم» والأكثر على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه. ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وقرن بالرجاء كثرة الذكر المؤدية إلى ملازمة الطاعة، فإن المؤتسى بالرسول من كان كذلك.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا

وَتَسْلِمًا ﴿٢٢﴾ .

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام «سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم». وقوله عليه الصلاة والسلام: إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر» وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الراء وفتح الهمزة. ﴿وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ ظهر صدق خبر الله ورسوله أو صدقا في النصرة والثواب كما صدقا في البلاء، وإظهار الاسم للتعظيم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضمير ﴿لَمَّا﴾ رأوا، أو الخطب أو البلاء. ﴿إِلَّا إِيْمَانًا﴾ بالله ومواعيده. ﴿وَتَسْلِمًا﴾ لأوامره ومقاديره.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ .

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ والمقاتلة لإعلاء الدين من صدقني إذا قال لك الصدق، فإن المعاهد إذا وفى بعهده فقد صدق فيه. ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ نذره بأن قاتل حتى استشهد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر، والنجب النذر واستعير للموت لأنه كندر لازم في رقبة كل حيوان. ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ﴾ الشهادة كعثمان وطلحة رضي الله عنهما. ﴿وَمَا بَدَّلُوا﴾ العهد ولا غيره. ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئا من التبديل. روي أن طلحة ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أخذ حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام: «أوجب طلحة» وفيه تعريض لأهل النفاق ومرض القلب بالتبديل، وقوله:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليل للمنطوق والمعرض به، فكان المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنی، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ فَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الأحزاب. ﴿بَغَيْظِهِمْ﴾ متغيظين. ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ غير ظافرين وهما حالان بتداخل أو تعاقب. ﴿وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث ما يريد. ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كل شيء.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسَرُوا فَرِيقًا﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ ظاهرُوا الأحزاب. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني قريظة. ﴿مِنْ صَاحِبَيْهِمْ﴾ من حصونهم جمع صيصية وهي ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبي وشوكة الديك. ﴿وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف وقرئ بالضم. ﴿فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسَرُوا فَرِيقًا﴾ وقرئ بضم السين روي: أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب فقال: أنتزع لامتك والملائكة لم يضعوا السلاح إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة وأنا عامد إليهم فاذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فحاصرهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين حتى جهدهم الحصار فقال لهم: تنزلون على

حكمتي فأبوا فقال: على حكم سعد بن معاذ فرضوا به، فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم، فكبر النبي عليه الصلاة والسلام فقال: لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسر منهم سبعمائة.

﴿وَأَوْزَنْتُكُمْ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (٢٧).

﴿وَأَوْزَنْتُكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارعهم. ﴿وَوَيْتَارَهُمْ﴾ حصونهم. ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ نقودهم ومواشيهم وأثاثهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام جعل عقارهم للمهاجرين فتكلم فيه الأنصار فقال: إنكم في منازلكم وقال عمر رضي الله عنه: أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال: لا إنما جعلت هذه لي طعمة. ﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها﴾ كفارس والروم، وقيل خيبر وقيل كل أرض تفتح إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدر على ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرْذَنُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتَعَكُنْ وَأَسْرَحَكُنْ سَرًا حَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرْذَنُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرْذَنُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ السعة والتنعم فيها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارفها. ﴿فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتَعَكُنْ﴾ أعطكن الممتعة. ﴿وَأَسْرَحَكُنْ سَرًا حَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضرار وبدعة. روي أنهم سألته ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت. فبدأ بعائشة رضي الله عنها فخيرها فاختارت الله ورسوله، ثم اختارت الباقيات اختارها فشكر الله لهن ذلك فأنزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ وتعليق التسريح بإرادتهن الدنيا وجعلها قسماً لإرادتهن الرسول يدل على أن المخيرة إذا اختارت زوجها لم تطلق خلافاً لزيد والحسن ومالك وإحدى الروایتين عن علي، ويؤيده قول عائشة رضي الله عنها «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه». ولم يعده طلاقاً وتقديم التمتع على التسريح المسبب عنه من الكرم وحسن الخلق. قيل لأن الفرق كانت بإرادتهن كاختيار المخيرة نفسها فإنه طلقة رجعية عندنا وبائنة عند الحنفية، واختلف في وجوبه للمدخل بها وليس فيه ما يدل عليه، وقرئ «أمتعن وأسرحكن» بالرفع على الاستئناف.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرْذَنُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يستحقرونه الدنيا وزينتها ومن للتيسين لأنهن كلهن كن محسنات.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْدَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١).

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ بكبيرة. ﴿مُبِينَةٍ﴾ ظاهر قبحها على قراءة ابن كثير وأبي بكر والباقون بكسر الياء. ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضعفي عذاب غيرهن أي مثليه، لأن الذنب منهن أقبح فإن زيادة قبحه تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعفي حد العبد، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم وقرأ البصريان «يضعف» على البناء للمفعول، ورفع «العذاب» وابن كثير وابن عامر «نضعف» بالنون وبناء الفاعل ونصب «العذاب». ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي وكيف وهو سببه.

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ ومن يدم على الطاعة. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولعل ذكر الله للتعظيم أو لقوله: ﴿وَتَعْمَلْ

صَالِحاً نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴿٣٢﴾ مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي عليه الصلاة والسلام بالقناعة وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي «ويعمل» بالياء حملاً على لفظ «من ويؤتها» على أن فيه ضمير اسم الله. ﴿وَأَخَذْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾ في الجنة زيادة على أجراها.

﴿يَلْبَسَ النَّبِيُّ لِسْتَنَ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (٣٢).

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل. ﴿إِنْ أَتَيْتُنَّ﴾ مخالفة حكم الله ورضا رسوله. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فلا تجتن بقولكن خاضعاً ليناً مثل قول المربيات. ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ فجور، وقرىء بالجزم عطفاً على محل فعل النهي على أنه نهى مريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الخضوع بالقول. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الريبة.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣٣).

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من وقر يقر وقاراً أو من قر يقر حذف الأولى من رأي اقرن ونقلت كسرتها إلى القاف، فاستغني عن همزة الوصل ويؤيده قراءة نافع وعاصم بالفتح من قررت أقر وهو لغة فيه، ويحتمل أن يكون من قار يقار إذا اجتمع. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تتبخترن في مشيكن. ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ تبرجاً مثل تبرج النساء في أيام الجاهلية القديمة، وقيل هي ما بين آدم ونوح، وقيل الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال والجاهلية الأخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق في الإسلام ويعضده قوله عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداء رضي الله عنه «إن فيك جاهلية، قال جاهلية كفر أو إسلام قال بل جاهلية كفر». ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ الذنب المندس لعرضكم وهو تعليل لأمرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم. ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نصب على النداء أو المدح. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي. واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير للتشهير عنها، وتخصيص الشيعة أهل البيت بفاطمة وعلي وإبنيهما رضي الله عنهم لما روي «أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات غدوة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجلس فأثت فاطمة رضي الله عنها فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين رضي الله عنهما فأدخلهما فيه ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾»، والاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون إجماعهم حجة ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضي أنهم من أهل البيت لا أنه ليس غيرهم.

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤).

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بين الأمرين وهو تذكير بما أنعم الله عليهن من حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برحاء الوحي مما يوجب قوة الإيمان والحرص على الطاعة حثاً على الانتهاء والالتزام فيما كلفن به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبر ما يصلح في الدين ولذلك خيركن ووعظكن، أو يعلم من يصلح لنبوته ومن يصلح أن يكون أهل بيته.

كان فيه ما يخشى، والواو للحال، وليست المعاتبة على الإخفاء وحده فإنه حسن بل على الإخفاء مخافة قاله الناس وإظهار ما ينافي إضمماره، فإن الأولى في أمثال ذلك أن يصمت أو يفوض الأمر إلى ربه. ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها. ﴿زَوْجَتَكُنَّهَا﴾ وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي فيك. وقرئ «زوجتكها»، والمعنى أنه أمر بتزويجها منه أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد. ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي ﷺ: إن الله تعالى تولى إنكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن. وقيل كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه. ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ علة للتزويج، وهو دليل على أن حكمه وحكم الأمة واحد إلا ما خصه الدليل ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أمره الذي يريده ﴿مَفْعُولًا﴾ مكنونا لا محالة كما كان تزويج زينب.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان، ومنه فروض العسكر لأرزاقهم. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ سن ذلك سنة. ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ من الأنبياء، وهو نفى الحرج عنهم فيما أباح لهم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً.

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا أو مدح لهم منصوب أو مرفوع، وقرئ «رسالة الله». ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ تعريض بعد تصريح. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ كافياً للمخاوف أو محاسباً فينبغي أن لا يخشى إلا منه.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠).

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ على الحقيقة فيثبت بينه وبينه ما بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها، ولا ينتقض عمومها بكونه أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال ولو بلغوا كانوا رجاله لا رجالهم. ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وكل رسول أبو أمته لا مطلقاً بل من حيث إنه شقيق ناصح لهم، واجب التوقير والطاعة عليهم وزيد منهم ليس بينه وبينه ولادة. وقرئ «رَسُولُ اللَّهِ» بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ولكن بالتشديد على حذف الخبر أي ﴿ولكن رسول الله﴾ من عرفتم أنه لم يعش له ولد ذكر. ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وآخرهم الذي ختمهم أو ختموا به على قراءة عاصم بالفتح، ولو كان له ابن بالغ لاق بمنصبه أن يكون نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيم حين توفي: لو عاش لكان نبياً، ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أن المراد منه أنه آخر من نبي. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة وكيف ينبغي شأنه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يغلب الأوقات ويعم الأنواع بما هو أهله من التقديس والتحميد والتهليل والتمجيد..

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره خصوصاً، وتخصيصهما بالذكر للدلالة على فضلها على سائر الأوقات لكونهما مشهودين كإفراد التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدة فيها. وقيل الفعلان موجهان

إليهما. وقيل المراد بالتسبيح الصلاة.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُكُمْ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾
 تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ٤٤﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ بالرحمة. ﴿وَمَلَائِكَتُكُمْ﴾ بالاستغفار لكم والاهتمام بما يصلحكم، والمراد بالصلاة المشترك وهو العناية بصلاح أمركم وظهور شرفكم مستعار من الصلوة. وقيل الترحم والانعطاف المعنوي مأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصوري الذي هو الركوع والسجود، واستغفار الملائكة ودعائهم للمؤمنين ترحم عليهم سيما وهو السبب للرحمة من حيث إنهم مجابو الدعوة. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر والمعصية إلى نوري الإيمان والطاعة. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيث اعتنى بصلاح أمرهم وإنافة قدرهم واستعمل في ذلك ملائكته المقربين.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول أي يحيون. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يوم لقائه عند الموت أو الخروج من القبور، أو دخول الجنة. ﴿سَلَامٌ﴾ إخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هي الجنة، ولعل اختلاف النظم لمحافظة الفواصل والمبالغة فيما هو أهم.

﴿يَتَأْتِيَ آلَ النَّبِيِّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ٤٦﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهو حال مقدرة. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وتوحيده وما يجب الإيمان به من صفاته. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتيسيره وأطلق له من حيث إنه من أسبابه وقيد به الدعوة إيداناً بأنه أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه. ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ يستضاء به عن ظلمات الجهالات ويقبض من نوره أنوار البصائر.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ ٤٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ٤٩﴾.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأمم أو على جزاء أعمالهم، ولعله معطوف على محذوف مثل فراقب أحوال أمتك.

﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ تهيج له على ما هو عليه من مخالفتهم. ﴿وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ إيداءهم إياك ولا تحتفل به، أو إيداءك إياهم مجازاة أو مواخذة على كفرهم، ولذلك قيل إنه منسوخ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فإنه يكفيهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكلًا إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله تعالى لما وصفه بخمس صفات قابل كلاً منها بخطاب يناسبه، فحذف مقابل الشاهد وهو الأمر بالمراقبة لأن ما بعده كالتفصيل له، وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين والنذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمبالاة بأذاهم والداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه والسراج المنير بالاكتماء به فإن من أناره الله برهانا على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفي به عن غيره.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ

عَدُوٌّ تَعْتَدُونَهَا فَمِيعُهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ تجمعهن، وقرأ حمزة والكسائي بآلف وضم التاء. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ﴾ أيام يترصدن فيها بأنفسهن. ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها كقولك: كلته فاكثاله، أو تعدونها. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدة حق الأزواج كما أشعر به فما لكم، وعن ابن كثير ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ مخففاً على إبدال إحدى الدالين بالياء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تمتدون فيها، وظاهره يقتضي عدم وجوب العدة بمجرد الخلوة وتخصيص المؤمنات والحكم عام للتنبيه على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيراً لنظفته، وفائدة ثم إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخي الطلاق ريثما تمكن الإصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة. ﴿فَمِيعُهُنَّ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها فإن الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة ويجوز أن يؤول التمتع بما يعمهما، أو الأمر بالمشتراك بين الوجوب والتدب فإن المتعة سنة للمفروض لها. ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهن من منازلكن إذ ليس لكم عليهن عدة. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ولا منع حق، ولا يجوز تفسيره بالطلاق السني لأنه مرتب على الطلاق والضمير لغير المدخول بهن.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّاكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ مهورهن لأن المهر أجر على البضع، وتقيد الإحلال له بإعطائها معجلة لا لتوقف الحل عليه بل لإيثار الأفضل له كتقيد إحلال المملوكة بكونها مسبية بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإن المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها، وتقيد القرائب بكونها مهاجرات معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عِمَّاكِ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَكِ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويحتمل تقيد الحل بذلك في حقه خاصة وبعضه قول أم هانئ بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ نصب بفعل يفسره ما قبله أو عطف على ما سبق، ولا يدفعه التقيد بأن التي للاستقبال فإن المعنى بالإحلال الإعلام بالحل أي: أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهرأ إن اتفق ولذلك نكرها. واختلف في اتفاق ذلك والقائل به ذكر أربعاً: ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم. وقرئ «أن» بالفتح أي لأن وهبت أو مدة أن وهبت كقولك: اجلس ما دام زيد جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ شرط للشرط الأول في استيجاب الحل فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ النبي مكرراً، ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿وَخَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إيدان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاق الكرامة لأجله. واحتج به أصحابنا على أن النكاح لا ينعقد بلفظ الهبة لأن اللفظ تابع للمعنى وقد خص عليه الصلاة والسلام بالمعنى فيختص باللفظ، والاستكاح طلب النكاح والرغبة فيه، ﴿وَخَالِصَةً﴾ مصدر مؤكد أي خلص إحلالها أو إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك، أو حال من الضمير في ﴿وهبت﴾ أو صفة لمصدر محذوف أي هبة خالصة. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء حيث لم يسم. ﴿وَمَا مَلَكَتْ

أَيَّمَانُهُمْ» من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أن يفرض عليهم، والجملة اعتراض بين قوله: ﴿لَكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلقه وهو «خالصة» للدلالة على أن الفرق بينه وبين «المؤمنين» في نحو ذلك لا لمجرد قصد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى. «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا» لما يعسر التحرز عنه. «رَحِيمًا» بالتوسعة في مظان الحرج.

﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَىٰ بِمَا آتَيْتَهُمْ كُلُّهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾.

«تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ» تؤخرها وتترك مضاجعتها. «وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ» وتضم إليك من تشاء وتضاجعها، أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص «ترجي» بالياء والمعنى واحد. «وَمَنْ ابْتِغَيْتَ» طلبت. «مِنْ عَزَلْتَ» طلقت بالرجعة. «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ» في شيء من ذلك. «ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَىٰ بِمَا آتَيْتَهُمْ كُلُّهُمْ» ذلك التفويض إلى مشيتك أقرب إلى قرة عيونهم وقلة جزنهم ورضاهن جميعاً، لأن حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله تعالى فطمئن به نفوسهن، وقرئ «تقر» بضم التاء و«أعينهن» بالنصب و«تقر» بالبناء للمفعول و«كلهن» تأكيد نون «يرضين»، وقرئ بالنصب تأكيداً لهن. «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ» فاجتهدوا في إحسانه. «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا» بذات الصدور. «حَلِيمًا» لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقى.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾.

«لَا يَحِلُّ لَكَ الْإِسَاءُ» بالياء لأن تأنيث الجمع غير حقيقي، وقرأ البصريان بالتاء. «مِنْ بَعْدُ» من بعد التسع وهو في حقه كالأربع في حقنا، أو من بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى. «وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ» فطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى و«من» مزيدة لتأكيد الاستغراق. «وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ» حسن الأزواج المستبدلة، وهو حال من فاعل «تبدل» دون مفعوله وهو «من أزواج» لتوغله في التنكير، وتقديره مفروضاً إعجابك بهن واختلف في أن الآية محكمة أو منسوخة بقوله: «تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ فَإِنَّهُ وَإِنْ تَقَدَّمَا قِرَاءَةً فَهُوَ مَسْبُوقٌ بِهَا نَزُولاً. وقيل المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأجناس الأربعة اللاتي نص على إحلالهن لك ولا أن تبدل بهن أزواجاً من أجناس آخر. «إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج والإماء، وقيل منقطع. «وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا» فتحفظوا أمركم ولا تتخطوا ما حد لكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبِطِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِجِدِّتِ إِنَّ ذَلِكَُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. إلا وقت أن يؤذن لكم أو إلا مآذونا لكم. ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ متعلق بـ ﴿يُؤْذَنُ﴾ لأنه متضمن معنى يدعى للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة وإن أذن كما أشعر به قوله: ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ إِيَّاهُ﴾ غير منتظرين وقته، أو إدراكه حال من فاعل ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ أو المجرور في ﴿لَكُمْ﴾. وقرئ بالجرح صفة لطعام فيكون جارياً على غير من هوله بلا إبراز الضمير، وهو غير جائز عند البصريين وقد أمال حمزة والكسائي إياه لأنه مصدر أنى الطعام إذا أدرك. ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ تفرقوا ولا تمكثوا، ولأنه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، مخصوصة بهم وبأمثالهم وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لمهم. ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ لحديث بعضكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ﴿ناظرين﴾ أو مقدر بفعل أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكثوا مستأنسين. ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ اللبث ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وإشغاله بما لا يعنيه. ﴿فَيَسْتَخِي مِنْكُمْ﴾ من إخراجكم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيي فأمركم بالخروج، وقرئ «لا يستحي» بحذف الياء الأولى وإلقاء حركتها على الحاء. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾ شيئاً ينتفع به. ﴿فَسَأَلُوهُنَّ﴾ المتاع. ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ستر. روي «أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت». وقيل إنه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل يد عائشة رضي الله عنها فكره النبي ﷺ ذلك فنزلت. ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر النفسانية الشيطانية. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صح لكم. ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أن تفعلوا ما يكرهه. ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَغْدِهِ أَبَدًا﴾ من بعد وفاته أو فراقه، وخص التي لم يدخل بها، لما روي أن أشعث بن قيس تزوج المستعينة في أيام عمر رضي الله عنه فهم برجمها، فأخبر بأنه عليه الصلاة والسلام فارقها قبل أن يمسه فتركها من غير نكير. ﴿إِنْ ذَلِكُمْ﴾ يعني إيذاه ونكاح نسائه. ﴿كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾ ذنباً عظيماً، وفيه تعظيم من الله لرسوله وإيجاب لحرمة حياً وميتاً ولذلك بالغ في الوعيد عليه فقال:

﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٥٤) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَسْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا إِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾.

﴿إِنْ تَبْدُوا شَيْئًا﴾ كنكاحهن على ألسنتكم. ﴿أَوْ تُخْفُوا﴾ في صدوركم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فيعلم ذلك فيجازيكم به، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَسْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا إِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ استثناء لمن لا يجب الاحتجاب عنهم. روي: أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله أو نكلهن أيضاً من وراء حجاب فنزلت. وإنما لم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمي العم أباً في قوله ﴿وَالِهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ أو لأنه كره ترك الاحتجاب عنهما مخافة أن يصفوا لأبنائهما. ﴿وَلَا إِسَائِهِنَّ﴾ يعني نساء المؤمنات. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماء، وقيل من الإماء خاصة وقد مر في سورة «النور». ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أمرتن به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ اعتنوا أنتم أيضاً فإنكم أولى بذلك وقولوا اللهم صلي على محمد. ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وقولوا السلام عليك أيها النبي وقيل وانقادوا لأوامره، والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وقيل تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي» وقوله «من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار فأبعده الله»، وتجوز الصلاة على غيره تبعاً. وتكره استقلالاً لأنه في العرف صار شعاراً لذكر الرسول ﷺ ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً وجليلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧) ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (٥٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم شاعر مجنون ونحو ذلك وذكر الله للتعظيم له. ومن جوز إطلاق اللفظ على معنيين فسرهم بالمعنيين باعتبار المعمولين. ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم من رحمته. ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ يهينهم مع الإيلام.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ بغير جنابة استحقوا بها الإيذاء. ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ ظاهراً. قيل إنها نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، وقيل في أهل الإفك، وقيل في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات.

﴿يَتَابَهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرِقَنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٥٩).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُذْنِبْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ﴾ يغطين وجوههن وأبدانهن بملاحفهن إذا برزن لحاجة، و ﴿مِنْ﴾ للتبعض فإن المرأة ترخي بعض جلبابها وتتلفع ببعض ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرِقَنَ﴾ يميزن من الإماء والقينات. ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾ فلا يؤذيهن أهل الريبة بالتعرض لهن. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف. ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠).

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُتَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف إيمان وقلة ثبات عليه، أو فجور عن تزلزلهم في الدين أو فجورهم. ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يرجفون أخبار السوء عن سرايا المسلمين ونحوها من إرجافهم، وأصله التحريك من الرجة وهي الزلزلة سمي به الإخبار الكاذب لكونه متزلزلاً غير ثابت. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنك بقتالهم وإجلالهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطف على ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾، و ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول أعظم ما يصيبهم. ﴿فِيهَا﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِمَلْعُونَةٍ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتِيلًا﴾ (٦٢).

﴿مَلْعُونِينَ﴾ نصب على الشتم أو الحال والاستثناء شامل له أيضاً أي: ﴿لا يجاورونك﴾ إلا ملعونين، ولا

يجوز أن يتصب عن قوله: ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا﴾ لأن ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها.
 ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مصدر مؤكد أي سن الله ذلك في الأمم الماضية، وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدلها ولا يقدر أحد أن يبدلها.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (٦٣).

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ عن وقت قيامها استهزاء وتعتنا أو امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يطلع عليه ملكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكون الساعة عن قريب وانتصابه على الظرف، ويجوز أن يكون التذكير لأن ﴿السَّاعَةَ﴾ في معنى اليوم، وفيه تهديد للمستعجلين وإسكات للمتعتنين.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارا شديدة الانتقاد.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب عنهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى بالنار، أو من حال إلى حال، وقرئ «تقلب» بمعنى تتقلب و «تقلب» ومتعلق الظرف. ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فلن نبتلى بهذا العذاب.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ (٦٧) رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلْوَنًا ﴿٦٨﴾

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ يعنون قاداتهم الذين لقنوهم الكفر، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» على جمع الجمع للدلالة على الكثرة. ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ بما زينوا لنا. ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلْوَنًا﴾ مثلي ما آتينا منه لأنهم ضلوا وأضلوا. ﴿وَالْعَنَاهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ كثير العدد، وقرأ عاصم بالباء أي لعناً هو أشد اللعن وأعظمه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (٦٩).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ فأظهر براءته من مقولهم يعني مؤداه ومضمونه، وذلك أن قارون حرض امرأة على قذفه بنفسها فعصمه الله كما مر في «القصص»، أو اتهمه ناس بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك، فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول. وقيل أحياء الله فأخبرهم ببرائه، أو قذفوه بعبث في بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فأطلعهم الله على أنه بريء منه. ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ ذا قرينة ووجاهة، وقرئ «وكان عبد الله وجيهاً».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ارتكاب ما يكرهه فضلاً عما يؤدي رسوله. ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

قاصداً إلى الحق من سد يسد سداداً، والمراد النهي عن ضده كحديث زينب من غير قصد.
﴿يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها. **﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** ويجعلها مكفرة باستقامتكم في القول والعمل. **﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** في الأوامر والنواهي. **﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾** يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢).

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ تقرير للوعد السابق بتعظيم الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء، والمعنى أنها لعظمة شأنها بحيث لو عرضت على هذه الأجرام العظام وكانت ذات شعور وإدراك لأبين أن يحملنها، وأشفقن منها وحملها الإنسان مع ضعف بنيته ورخاوة قوته لا جرم فاز الراعي لها والقائم بحقوقها بخير الدارين. **﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾** حيث لم يف بها ولم يراع حقها. **﴿جَهُولًا﴾** بكنه عاقبتها، وهذا وصف للجنس باعتبار الأغلب. وقيل المراد بـ **﴿الأمانة﴾** الطاعة التي تعم الطبيعية والاختيارية، وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وإرادة صدور من غيره، وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن أدائها ومنه قولهم حامل الأمانة ومحملها لمن لا يؤديها فتبرأ ذمته، فيكون الإياء عنه اتياناً بما يمكن أن يتأتى منه والظلم والجهالة الخيانة والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهماً وقال لها: إني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلبن نحن مسخرات على ما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلق آدم عرض عليه مثل ذلك فحملة، وكان ظلوماً لنفسه بتحملة ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبته، ولعل المراد بـ **﴿الأمانة﴾** العقل أو التكليف، وبعرضها عليهن اعتبارها بالإضافة إلى استعدادهن، وبإيائهن الإياء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد، وبحمل الإنسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوماً جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية، وعلى هذا يحسن أن يكون علة للحمل عليه فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمناً على القوتين حافظاً لهما عن التعدي ومجاوزة الحد، ومعظم مقصود التكليف تعديلها وكسر سورتها.

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٣).

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ تعليل للحمل من حيث إنه نتيجة كالتأديب للضرب في ضربته تأديباً، وذكر التوبة في الوعد إشعار بأنه كونهم ظلوماً جهولاً في جبلتهم لا يخليهم عن فرطات. **﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** حيث تاب عن فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم. قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الأحزاب وعلمها أهله أو ما ملك يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر».

سورة سبأ

مكية وقيل إلا قوله: وَيُرِي الَّذِينَ أُوتُوا الْحِكْمَ الْآيَةَ.

وأيها أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ①﴾
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً ونعمة، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته وعلى تمام نعمته. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ لأن ما في الآخرة أيضاً كذلك، وليس هذا من عطف المقيد على المطلق فإن الوصف بما يدل على أنه المنعم بالنعم الدنيوية قيد الحمد بها، وتقديم الصلة للاختصاص فإن النعم الدنيوية قد تكون بواسطة من يستحق الحمد لأجلها ولا كذلك نعم الآخرة. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدارين. ﴿الْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالغيث ينفذ في موضع وينبع في آخر، وكالكنوز والدفائن والأموات. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفلزات وماء العيون. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والأنداء والصواعق. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة. ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للمفترطين في شكر نعمته مع كثرتها، أو في الآخرة مع ما له من سوابق هذه النعم الفاتنة للحصر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ③﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ رد لكلامهم وإثبات لما نفوه. ﴿وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ تكرير لإيجابه مؤكداً بالقسم مقررأ لوصف المقسم به بصفات تقرر إمكانه وتنفي استبعاده على ما مر غير مرة، وقرأ حمزة والكسائي «علام الغيب» للمبالغة، ونافع وابن عامر ورويس «عالم الغيب» بالرفع على أنه خير محذوف أو مبتدأ خيره. ﴿لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائي «لا يعزب» بالكسر. ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ جملة مؤكدة لنفي العزوب، ورفعها بالابتداء ويؤيده القراءة بالفتح على نفي الجنس، ولا يجوز عطف المرفوع على «مِثْقَالٍ» والمفتوح على «ذرة» بأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف لأن الاستثناء يمنعه، اللهم إلا إذا جعل الضمير في «عنه» للغيب وجعل المثبت في اللوح خارجاً عنه لظهوره على المطالعين له فيكون المعنى لا يفصل عن الغيب شيء إلا مسطوراً في اللوح.

﴿لَيَجْزِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفُورُونَ وَرَزَقَ كَرِيمٌ ④﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ⑤﴾.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ علة لقوله ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعب فيه ولا من عليه.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ بإبطال وتزهيد الناس فيها. ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مسابقين كي يفوتونا. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿معجزين﴾ أي مثبطين عن الإيمان من أرادته. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ﴾ من سيئ العذاب. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم، ورفعه ابن كثير ويعقوب وحفص.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٦﴾.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ ويعلم أولو العلم من الصحابة ومن شايعهم من الأمة، أو من مسلمي أهل الكتاب. ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ القرآن. ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ ومن رفع ﴿الحقُّ﴾ جعل هو مبتدأ و ﴿الحقُّ﴾ خبره والجملة ثاني مفعولي ﴿يرى﴾، وهو مرفوع مستأنف للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات. وقيل منصوب معطوف على ﴿ليجزي﴾ أي وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق عياناً كما علموه الآن برهاناً ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيد والتدرج بلباس التقوى.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧﴾
﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٨﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿يُنْبِئُكُمْ﴾ يحدثكم بأعجب الأعاجيب. ﴿إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ﴾ إنكم تشؤون خلقاً جديداً بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزيق وتفريق بحيث تصير تراباً، وتقديم الظرف للدلالة على البعد والمبالغة فيه، وعامله محذوف دل عليه ما بعده فإن ما قبله لم يقارنه وما بعده مضاف إليه، أو محجوب بينه وبينه بأن و ﴿ممرق﴾ يحتمل أن يكون مكاناً بمعنى إذا مزقتم وذهبت بكم السيول كل مذهب وطرحتم كل مطرح و ﴿جديد﴾ بمعنى فاعل من جد كحديد من حد، وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب إذا قطعه.

﴿أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه، واستدل بجعلهم إياه قسيم الافتراء غير معتردين صدقه على أن بين الصدق والكذب واسطة، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه وضعفه بين لأن الافتراء أخص من الكذب. ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ رد من الله تعالى عليهم ترديدهم وإثبات لهم ما هو أفظع من القسمين، وهو الضلال البعيد عن الصواب بحيث لا يرجى الخلاص منه وما هو مؤداه من العذاب، وجعله رسيلاً له في الوقوع ومقدماً عليه في اللفظ للمبالغة في استحقاقهم له، والبعيد في الأصل صفة الضال ووصف الضلال به على الإسناد المجازي.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ٩﴾

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إن نشأ نخيف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء. تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرة الله وما يحتمل فيه إزاحة لاستحالتهم الإحياء حتى جعلوه افتراء وهزأ، وتهديداً عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا إلى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقاً أم السماء، وإنا ﴿إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾، لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البيئات. وقرأ حمزة والكسائي ﴿يشأ﴾ و ﴿يخسف﴾ و ﴿يسقط﴾ بالياء لقوله: ﴿أفترى على الله﴾. والكسائي وحده بإدغام الفاء في الباء وحفص ﴿كسفاً﴾ بالتحريك. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ النظر والتفكر فيها

وما يدلان عليه. ﴿لَايَةً﴾ للدلالة. ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه فإنه يكون كثير التأمل في أمره.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنجِيَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائر الأنبياء وهو ما ذكر بعد، أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن. ﴿يَا جِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ﴾ رجعي معه التسبيح أو النوحة على الذنب، وذلك إما بخلق صوت مثل صوته فيها أو بحملها إياه على التسبيح إذا تأمل ما فيها، أو سيرى معه حيث سار. وقرئ «أوبي» من الأوب أي ارجعي في التسبيح كلما رجعت فيه، وهو بدل من ﴿فضلاً﴾ أو من ﴿آتيناً﴾ بإضمار قولنا أو قلنا. ﴿وَالطَّيْرُ﴾ عطف على محل الجبال ويؤيده القراءة بالرفع عطفاً على لفظها تشبيهاً للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية أو على ﴿فضلاً﴾، أو مفعول معه لـ ﴿أوبي﴾ وعلى هذا يجوز أن يكون الرفع بالرفع على ضميره وكان الأصل: ولقد آتيناً داود منا فضلاً تأويب الجبال والطيور، فبدل بهذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظم شأنه وكبرياء سلطانه، حيث جعل الجبال والطيور كالعقلاء المتفادين لأمره في نفاذ مشيئته فيها. ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ جعلناه في يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء وطرق بالآلة أو بقوته.

﴿أَنْ أَعْمَلَ﴾ أمرناه أن اعمل فـ ﴿أَنْ﴾ مفسرة أو مصدرية. ﴿سَابِغَاتٍ﴾ دروعاً واسعات، وقرئ «صابغات» وهو أول من اتخذها. ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وقدر في نسجها بحيث يتناسب حلقتها، أو قدر مساميرها فلا تجعلها دقاقاً فتقلق ولا غلاظاً فتتخرق. ورد بأن دروعه لم تكن مسمرة ويؤيده قوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. ﴿وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا﴾ الضمير فيه لداود وأهله. ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَلِسَلِيمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ الْجِنُّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَعْتِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلِسَلِيمَانَ الرِّيحَ﴾ أي وسخرنا له الريح، وقرئ «الريح» بالرفع أي ولسليمان الريح مسخرة وقرئ «الرياح». ﴿غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ﴾ جربها بالغداة مسيرة شهر وبالعشي كذلك، وقرئ «غدوتها» «وروحتها». ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ النحاس المذاب أساله له من معدنه فنبع منه نبوع الماء من ينبوع، ولذلك سماه عيناً وكان ذلك باليمن. ﴿وَمَنْ الْجِنُّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطف على ﴿الريح﴾ «وَمَنْ الْجِنُّ» حال مقدمة، أو جملة «من» مبتدأ وخبر. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بأمره. ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومن يعدل منهم. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمان، وقرئ «يزغ» من أزاغه. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾ قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بها لأنها يذب عنها ويحارب عليها. ﴿وَتَعْتِيلٍ﴾ وصوراً هي تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراهم الناس فيعبدوا نحو عبادتهم وحرمة التصاوير شرع مجدّد. روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. ﴿وَجِفَانٍ﴾ وصحاف. ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياض الكبار جمع جابية من الجبابة وهي من الصفات الغالبة كالدابة. ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها. ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ حكاية عما قيل لهم «وشكراً» نصب على العلة أي: اعملوا له واعبدوه شكراً، أو المصدر لأن العمل له شكراً أو الوصف له أو الحال أو المفعول به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ

عِبَادِي الشُّكُورُ المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه، لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكراً آخر لا إلى نهايته، ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي على سليمان. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ﴾ ما دل الجن وقيل آله. ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي الأرضه أضيفت إلى فعلها، وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال: أرضت الأرضه الخشبة أرضاً فأرضت أرضاً مثل أكلت القوادح الأسنان أكلاً فأكلت أكلاً. ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ عصاه من نسأت التعبير إذا طردته لأنها يطرد بها، وقرئ بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً على غير قياس إذ القياس إخراجها بين بين، و «منسأته» على مفعالة كمبضأة في ميضأة و «من سأت» أي طرف عصاه مستعار من سأت القوس، وفيه لغتان كما في قحة وقحة، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿منسأته﴾ بآلف بدلاً من الهمزة وابن ذكوان بهمزة ساكنة وحمزة إذا وقف جعلها بين بين. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ علمت الجن بعد التباس الأمر عليهم. ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا في تسخيره إلى أن خَرَّ، أو ظهرت الجن وأن بما في حيزه بدل منه أي ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب. وذلك أن داود أسس بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليهما الصلاة والسلام فمات قبل تمامه، فوصى به إلى سليمان عليه السلام فاستعمل الجن فيه فلم يتم بعد إذ دنا أجله وأعلم به، فأراد أن يعمي عليهم موته ليمتوه فدعاهم فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب، فقام يصلي متكئاً على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها، فبقي كذلك حتى أكلتها الأرضه فخر ثم فتحوا عنه وأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضه على العصا فأكلت يوماً وليلة مقداراً فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة وملك وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضي من ملكه. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لأولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، ومنع الصرف عنه ابن كثير وأبو عمرو لأنه صار اسم القبيلة، وعن ابن كثير قلب همزته ألفاً ولعله أخرجه بين بين فلم يؤده الراوي كما وجب. ﴿فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾ في مواضع سكناهم، وهي باليمن يقال لها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث، وقرأ حمزة وحفص بالإفراد والفتح، والكسائي بالكسر حملاً على ما شذ من القياس كالمسجد والمطلع. ﴿آيَةٌ﴾ علامة دالة على وجود الصانع المختار، وأنه قادر على ما يشاء من الأمور العجيبة مجاز للمحسن والمسيء معاضدة للبرهان السابق كما في قصتي داود وسليمان عليهما السلام. ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من ﴿آيَةٌ﴾ أو خبر محذوف تقديره الآية جنتان، وقرئ بالنصب على المدح والمراد جماعتان من البساتين. ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة منهما في تقاربها وتضامهما كأنها جنة واحدة، أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله. ﴿كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قال لهم نبيهم، أو لسان الحال أو دلالة بأنهم كانوا أحقاء بأن يقال لهم ذلك. ﴿بَلَدٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ استئناف للدلالة على موجب الشكر، أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور فرطات من يشكره. وقرئ الكل بالنصب على المدح. قيل كانت أخصب البلاد وأطيبها لم يكن فيها عاهة ولا هامة.

﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَىٰ مِنْ سِدْرٍ

قِيلَ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ .

﴿فَأَعْرِضُوا﴾ عن الشكر. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سيل الأمر العرم أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم، وعرم إذا شرس خلقه وصعب، أو المطر الشديد أو الجرد، أضاف إليه الـ ﴿سَيْل﴾ لأنه نقب عليهم سكرًا ضربته لهم بلقيس فحقنت به ماء الشجر وتركت فيه ثقباً على مقدار ما يحتاجون إليه، أو المسناة التي عقدت سكرًا على أنه جمع عرمة وهي الحجارة المركومة، وقيل اسم وإد جاء السيل من قبله وكان ذلك بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكْلٍ خَمْطٍ﴾ ثمر شبع فإن الخمط كل نبت أخذ طعمًا من مرارة، وقيل الأراك أو كل شجر لا شوك له، والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه في كونه بدلًا، أو عطف بيان. ﴿وَأَثَلِ وَشْيٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفان على ﴿أَكَلٍ﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإن الأثل هو الطرفاء ولا ثمر له، وقرئ بالنصب عطفًا على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ ووصف السدر بالقلة فإن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين، وتسمية البدل ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ للمشاكلة والتهكم. وقرأ أبو عمرو «ذواتي أكل» بغير تنوين اللام وقرأ الحرمان بتخفيف ﴿أَكَلٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرانهم النعمة أو بكفرهم بالرسول، إذ روي أنه بعث إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم، وتقديم المفعول للتعظيم لا للتخصيص. ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ وهل يجازى بمثل ما فعلنا بهم إلا البليغ في الكفران أو الكفر. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص ﴿نُجَازِي﴾ بالنون و ﴿الكفور﴾ بالنصب.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعة على أهلها وهي قرى الشام. ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ متواصلة يظهر بعضها لبعض، أو راکبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بحيث يقبل الغادي في قرية ويبيت الراح في قرية إلى أن يبلغ الشام. ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل أو نهار. ﴿آمِنِينَ﴾ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيرواً آمنين وإن طال مدة سفرهم فيها، أو سيرواً فيها ليلي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا﴾ أشروا النعمة وملوا العافية كبنی إسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد، فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام «بعد»، ويعقوب «ربنا بعد» بلفظ الخبر على أنه شكوى منهم لبعد سفرهم إفراطاً في الترفه وعدم الاعتداد بما أنعم الله عليهم فيه، ومثله قراءة من قرأ «ربنا بعد» أو «بعد» على النداء وإسناد الفعل إلى «بين». ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها. ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجباً وضرب مثل فيقولون: تفرقوا أيدي سبأ. ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرقناهم غاية التفريق حتى لحق غسان منهم بالشام، وأنمار يثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر. ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴿٢١﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه مثل فعلته جهده، ويجوز أن يعدى الفعل إليه بنفسه كما في: ﴿صدق وعده﴾. لأنه نوع من القول، وشده الكوفيون بمعنى حقق ظنه أو وجده صادقاً. وقرئ بنصب ﴿إبليس﴾ ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقاً، والتخفيف بمعنى قال له ظنه الصدق حين خيله إغواءهم، وبرفعهما والتخفيف على الأبدان وذلك إما ظنه بسبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات أو ببني آدم حين رأى أباهم النبي ضعيف العزم، أو ما ركب فيهم من الشهوة والغضب، أو سمع من الملائكة قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ فقال: ﴿لأضلنهم﴾ و ﴿لأغوينهم﴾. ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار، أو إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه في العصيان وهم المخلصون.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء. ﴿إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَنْ يُلَاحِظُ﴾ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ. إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقاً يترتب عليه الجزاء، أو ليميز المؤمن من الشاك، أو ليؤمن من قدر إيمانه ويشك من قدر ضلاله، والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة، وفي نظم الصلوتين نكتة لا تخفى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ محافظ والزتان متآخيتان.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قُلِ﴾ للمشركين. ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي زعمتموهم آلهة، وهما مفعولاً زعم حذف الأول لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفة مقامه، ولا يجوز أن يكون هو مفعوله الثاني لأنه لا يلتزم مع الضمير كلاماً ولا ﴿لا يملكون﴾ لأنهم لا يزعمونه. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ والمعنى ادعوه فيما يهكم من جلب نفع أو دفع ضرر لعلهم يستجيبيون لكم إن صح دعواكم، ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب وأنه لا يقبل المكابرة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خير أو شر. ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في أمر ما وذكرهما للعموم العرفي، أو لأن آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأن الأسباب القريبة للشر والخير سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ﴾ من شركة لا خلقاً ولا ملكاً. ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبير أمرهما.

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ﴾ فلا ينفعهم شفاعة أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفع الشفاعة عند الله. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أذن له أن يشفع، أو أذن أن يشفع له لعلو شأنه ولم يثبت ذلك، واللام على الأول كاللام في قولك: الكرم لزيد وعلى الثاني كاللام في قولك: جئتك لزيد، وقرأ أبو عمرو وحزمة والكسائي بضم الهمزة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ غاية لمفهوم الكلام من أن ثم توقفاً وانتظاراً للإذن أي: يترصدون فزعين حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن، وقيل الضمير للملائكة وقد تقدم ذكرهم ضمناً. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فزع﴾ على البناء للفاعل. وقرئ «فرغ» أي نفى الوجل من فرغ الزاد إذا فني. ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ قالوا قال القول الحق وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى وهم المؤمنون، وقرئ بالرفع أي مقوله الحق. ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ذو العلو والكبرياء ليس لملك ولا نبي من الأنبياء أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْفَعُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يريد به تقرير قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾. ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ إذ لا جواب سواه، وفيه إشعار بأنهم إن سكتوا أو تلعثوا في الجواب مخافة الإلزام فهم مقرون به بقلوبهم. ﴿وَأَنَا أُوِيَّاكُمْ لَعَلِّي هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي وإن أحد الفريقين من الموحدين المتوحد بالرزق والقدرة الذاتية بالعبادة، والمشركون به الجماد النازل في أدنى المراتب الإمكانية لعلي أحد الأمرين من الهدى والضلال المبينين، وهو بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال على من هو على الهدى ومن هو في الضلال أبلغ من التصريح لأنه في صورة الانصاف المسكت للخصم المشاغب، ونظيره قول حسان:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍ فَشَرُّكُمْ بِالْخَيْرِ كَمَا الْفِدَاءُ

وقيل إنه على اللف والنشر وفيه نظر، واختلاف الحرفين لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر الأشياء ويتطلع عليها أو ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك لا يرى شيئاً أو محبوس في مطمورة لا يستطيع أن يتفصى منها.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أدخل في الإنصاف وأبلغ في الإخبات حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم والعمل إلى المخاطبين.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفاصل في القضايا المغلقة. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضى به.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ لأرى بأي صفة ألحقتموهم بالله في استحقاق العبادة، وهو استفسار عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم زيادة في تبكيثهم. ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة. ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة، وهؤلاء الملبقون به متسمون بالدلة متأية عن قبول العلم والقدرة رأساً، والضمير لله أو للشأن.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ إلا إرسالاً عامة لهم من الكف فإنها إذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال من الكاف والتاء للمبالغة، ولا يجوز جعلها حالاً من الناس على المختار. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فرط جهلهم. ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعد بقوله: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يخاطبون به رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ﴾ وعد يوم أو زمان وعد، وإضافته إلى اليوم للتبيين ويؤيده أنه قرء «يوم» على البدل، وقرء «يوماً» بإضمار أعني. ﴿لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجأكم وهو جواب تهديد جاء مطابقاً لما قصدوه بسؤالهم من التعتن والإنكار.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدمه من الكتب الدالة على النعت. قيل إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن الرسول ﷺ فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بين يديه يوم القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضع المحاسبة. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ يتحاورون ويتراجعون القول. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا﴾ يقول الاتباع. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ للرؤساء. ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادين لهم عن الإيمان وأثبتوا أنهم هم الذين صدوا أنفسهم حيث أعرضوا عن الهدى وآثروا التقليد عليه، ولذلك بنوا الإنكار على الاسم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إضراب عن إضرابهم أي: لم يكن إجرامنا الصاد بل مكرهم لنا دائماً ليلاً ونهاراً حتى أعورتم علينا رأينا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ والعاطف يعطفه على كلامهم الأول وإضافة الـ «مكر» إلى الظرف على الاتساع، وقرئ «مكر الليل» بالنصب على المصدر و «مكر الليل» بالتثنية ونصب الظرف و «مكر الليل» من الكرور. ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال وأخفاها كل عن صاحبه مخافة التعبير، أو أظهرها فإنه من الأضداد إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب كما في أشكيت. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في أعناقهم فجاء بالظاهر تنويعاً بدمهم وإشعاراً بموجب أغلالهم. ﴿هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعل بهم ما يفعل إلا جزاء على أعمالهم، وتعديّة يجزى إما لتضمنين معنى يقضى أو بنزع الخافض.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ مما مني به من قومه، وتخصيص المتنعمين بالكذب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضموها التهكم والمفاخرة إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ على مقابلة الجمع بالجمع.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ فنحن أولى بما تدعونه إن أمكن. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ إما لأن العذاب لا يكون، أو لأنه أكرمنا بذلك فلا يهيننا بالعذاب.

﴿قُلْ﴾ ردًا لحسابانهم. ﴿إِنَّ رَبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلف فيه الأشخاص المتماثلة في الخصائص والصفات، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة وكثيراً ما يكون للاستدراج كما قال:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتَاهُنَا جَنَازِينٌ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ قرينة والتي إما لأن المراد وما جماعة أموالكم وأولادكم، أو لأنها صفة محذوف كالتقوى والخصلة. وقرىء «بالذي» أي بالشيء الذي يقربكم. ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء من مفعول «تقربكم»، أي الأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح، أو من «أموالكم» و «أولادكم» على حذف المضاف. ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ﴾ أن يجازوا الضعف إلى عشر فما فوقه، والإضافة إضافة المصدر إلى المفعول، وقرىء بالإعمال على الأصل وعن يعقوب رفعهما على إبدال الضعف، ونصب الجزاء على التمييز أو المصدر لفعله الذي دل عليه لهم. ﴿بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ من المكارة، وقرىء بفتح الراء وسكونها، وقرأ حمزة «في الغرفة» على إرادة الجنس.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالرد والطمع فيها. ﴿مُعَاجِرِينَ﴾ مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتونا. ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ يوسع عليه تارة ويضيق عليه أخرى، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين وما سبق في شخصين فلا تكرير. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ عوضاً إما عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فإن غيره وسط في إيصال رزقه لا حقيقة لرازيته.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلَاءٌ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبرين والمستضعفين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلَاءٌ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ تقريباً للمشركين وتبكيئاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقعون من شفاعتهم، وتخصيص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم، ولأن عبادتهم مبدأ الشرك وأصله. وقرأ حفص ويعقوب بالياء فيهما.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أنت الذي نواله من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله. وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون إليهم أنهم

الملائكة فيعبدونهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للإنس أو للمشركين، والأكثر بمعنى الكل والثاني لـ ﴿الجن﴾.

﴿قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾.

﴿قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذ الأمر فيه كله له لأن الدار دار جزاء وهو المجازي وحده. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ مبين للمقصود من تمهيده.

﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ آبَاؤَكُمْ﴾ فيستبعمكم بما يستبدعه. ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا﴾ يعنون القرآن. ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ لعدم مطابقة ما فيه الواقع. ﴿مُفْتَرًى﴾ بإضافته إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لأمر النبوة أو للإسلام أو للقرآن، والأول باعتبار معناه وهذا باعتبار لفظه وإعجازه. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر سحره، وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وما في ﴿لَمَّا﴾ من المبادأة إلى البت بهذا القول إنكار عظيم له وتعجب ببلغ منه.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾.

﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ فيها دليل على صحة الإشراك. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرهم على تركه، وقد بان من قبل أن لا وجه له فمن أين وقع لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية التجهيل لهم والتسفيه لرأيهم ثم هددهم فقال:

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما كذبوا. ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى. ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحين كذبوا رسلهم إنكارهم بالتدمير فكيف كان نكيرهم لهم فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خَالٍ وَقَدْ أُنْزِلَتْ مَائِدَتُكُمْ مِنْ سَمَاءٍ وَتَنْتَفِكُوهَا مِنْ حِجَابٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٤٦).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ وهو القيام من مجلس رسول الله ﷺ، أو الانتصاب في الأمر خالصاً لوجه الله معرضاً عن المراء والتقليد. ﴿وَمِثْلَ خَالٍ﴾ متفرقين اثنين اثنين وواحدًا واحدًا، فإن الازدحام يشوش الخاطر ويخلط القول. ﴿وَتَنْتَفِكُوهَا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقته، ومحل الجهر على البدل أو البيان أو الرفع أو النصب بإضمار هو أو أعني. ﴿مِنْ حِجَابٍ﴾ فتعلموا ما به من جنون يحمله على ذلك، أو استئناف منه لهم على أن ما عرفوا من رجاحة عقله كاف في ترجيح صدقه، فإنه لا يدعه أن يتصدى لادعاء أمر خطير وخطب عظيم من

غير تحقق ووثوق ببرهان، فيفتضح على رؤوس الأشهاد ويلقي نفسه إلى الهلاك، فكيف وقد انضم إليه معجزات كثيرة. وقيل ﴿مَا﴾ استفهامية والمعنى: ثم تفكروا أي شيء به من آثار الجنون: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا تَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قدامه لأنه مبعوث في نسمة الساعة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة. ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال عنه، كأنه جعل النبي مستلزماً لأحد الأمرين إما الجنون وإما توقع نفع دنيوي عليه، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره وأياً ما كان يلزم أحدهما ثم نفى كلا منهما. وقيل ﴿مَا﴾ موصولة مراد بها ما سألهم بقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ شَاءِ أَنْ يَتَخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ وقوله: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ واتخاذ السبيل ينفعهم وقرباه قرباهم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي، وقرأ ابن كثير وأبو بكر وحمة والكسائي بإسكان الياء.

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَамُ الْغُيُوبِ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (٤٩).

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يلقيه وينزله على من يجتبه من عباده، أو يرمي به الباطل فيدمغه أو يرمي به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام وإفشائه. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿عَلامُ الْغُيُوبِ﴾ صفة محمولة على محل ﴿إِنْ﴾ واسمها، أو بدل من المستكن في ﴿يَقْذِفُ﴾ أو خبر ثان أو خبر محذوف. وقرئ بالنصب صفة لـ ﴿رَبِّي﴾ أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزة وأبو بكر «الغيوب» بالكسر كالبيوت وبالضم كالعشور، وقرئ بالفتح كالصبور على أنه مبالغة غائب.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي الإسلام. ﴿وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وزهق الباطل أي الشرك بحيث لم يبق له أثر مأخوذ من هلاك الحي، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء ولا إعادة قال:

أَقْرَمَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدٌ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

وقيل الباطل إبليس أو الصنم، والمعنى لا ينشئ خلقاً ولا يعيده، أو لا يبدي خيراً لأهله ولا يعيده. وقيل ﴿مَا﴾ استفهامية منتصبة بما بعدها.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ﴾ عن الحق. ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ فإن وبال ضلالي عليها لأنه بسببها إذ هي الجاهلة بالذات والأمانة بالسوء، وبهذا الاعتبار قابل الشرطية بقوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فإن الاهتداء بهدائته وتوفيقه. ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدرك قول كل ضال ومهتد وفعله وإن أخفاه.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٥١).

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا﴾ عند الموت أو البعث أو يوم بدر، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً. ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ فلا يفوتون الله بهرب أو تحصن. ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار أو من صحراء بدر إلى القلب، والعطف على ﴿فَرَغُوا﴾ أو لا فوت ويؤيده أنه قرئ «وأخذ» عطفاً على محله أي: فلا فوت هناك وهناك أخذ.

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ يَعْبُدُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مر ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾. ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ﴾ ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيز التكليف وقد بعد عنهم، وهو تمثيل لحالهم في الاستخلاص بالإيمان بعدما فات عنهم أوانه وبعد عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة، وقرأ أبو عمرو والكوفيون غير حفص بالهمز على قلب الواو لضمته.

أو أنه من ناشت الشيء إذا طلبته قال رؤية:

أَفَحَمَّيْنِي جَارُ أَبِي الْجَامُوشِ إِلَيْكَ نَاشَ الْقَدَرِ النَّبُوشِ

أو من ناشت إذا تأخرت ومنه قوله:

تَمَنَّى نَشِيئاً أَنْ يَكُونَ أَطَاعِنِي وَقَدْ حَدَّثْتُ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ

فيكون بمعنى التناول من بعد.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك أوان التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن، أو في العذاب من البت على نفيه. ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من جانب بعيد من أمره، وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الرسول ﷺ، أو حال الآخرة كما حكاه من قبل. ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه، وقرئ «ويَقْذِفُونَ» على أن الشيطان يلقي إليهم ويلقنهم ذلك، والعطف على ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلاً لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفع الإيمان والنجاة به من النار، وقرأ ابن عامر والكسائي بإشمام الضم للحاء. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ بأشباهم من كفره الأمم الدارجة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، أو ذي ريبة منقول من المشبك، أو الشك نعت به الشك للمبالغة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً».

(٣٥) سورة الملائكة

مكية وآيها خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَشَى وَتِلْكَ أَرْبَعُونَ آيَةً﴾ وَرَبُّكَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما من الفطر بمعنى الشق كأنه شق العدم بإخراجهما منه، والإضافة محضة لأنه بمعنى الماضي. ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، أو بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار صنعه. ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ مَشَى وَتِلْكَ أَرْبَعُونَ آيَةً﴾ ذوي أجنحة متعددة متفاوتة بتفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون، أو يسرعون بها نحو ما وكلهم الله عليه فيتصرفون فيه على أمرهم به، ولعله لم يرد به خصوصية الأعداد ونفي ما زاد عليها، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمائة جناح ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ استئناف للدلالة على أن تفاوتهم في ذلك بمقتضى مشيئته ومؤدى حكمته لا أمر تستدعيه ذواتهم، لأن اختلاف الأصناف والأنواع، بالخواص والفصول إن كان لذواتهم المشتركة لزم تنافي لوازم الأمور المتفقة وهو محال، والآية متناولة زيادات الصور والمعاني كملاحة الوجه وحسن الصوت وحصافة العقل وسماحة النفس. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيص بعض الأشياء بالتحصيل دون بعض، إنما هو من جهة الإرادة.

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿٢﴾

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يطلق لهم ويرسل وهو من تجوز السبب للمسبب. ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ كنعمة وأمن وصحة وعلم ونبوة. ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبسها. ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ﴾ يطلقه، واختلاف الضميرين لأن الموصول الأول مفسر بالرحمة والثاني مطلق بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعار بأن رحمته سبقت غضبه. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إمساكه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يشاء ليس لأحد أن ينازعه فيه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ لا يفعل إلا بعلم وإتقان. ثم لما بين أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما على الإطلاق أمر الناس بشكر إنعامه فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْكُوتُ﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليتها، ثم أنكر أن يكون لغيره في ذلك مدخل فيستحق أن يشرك به بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى إشراك غيره به، ورفع ﴿غير﴾ للحمل على محل ﴿من خالق﴾ بأنه وصف أو بدل، فإن الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعل ﴿خالق﴾ وجره حمزة والكسائي حملاً على لفظه، وقد نصب على الاستثناء، و ﴿يرزقكم﴾ صفة لـ ﴿خالق﴾ أو استئناف مفسر له أو كلام مبتدأ، وعلى الأخير يكون إطلاق ﴿هل من خالق﴾ مانعاً من إطلاقه على غير الله.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي فتأس بهم في الصبر على تكذيبهم، فوضع ﴿فقد كذبت﴾ موضعه استغناء بالسبب عن المسبب، وتنكير رسل للتعظيم المقتضي زيادة التسلية والحث على المصابرة. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالحرش والجزاء. ﴿حَقٌّ﴾ لا خلف فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فيذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشيطان بأن يمينكم المغفرة مع الإصرار على المعصية، فإنها وإن أمكنت لكن الذنب بهذا التوقع كتناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. وقرئ بالضم وهو مصدر أو جمع كقعود.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوة عامة قديمة. ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ في عقائدكم وأفعالكم وكونوا على حذر منه في مجامع أحوالكم. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته وبيان لغرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى الدنيا.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ قَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيد لمن أجاب دعاءه ووعد لمن خالفه وقطع للأمانى الفارغة، وبناء للأمر كله على الإيمان والعمل الصالح وقوله.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوُّ عَمَلِهِ قَرَأَهُ حَسَنًا﴾ تقرير له أي أفمن زين له سوء عمله بأن غلب وهمه وهواه على عقله حتى انتكس رأيه فرأى الباطل حقاً والقيح حسناً، كمن لم يزين له بل وفق حتى عرف الحق واستحسن الأعمال واستقبحها على ما هي عليه، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وقيل تقديره أفمن زين له سوء عمله ذهب نفسك عليهم حسرة، فحذف الجواب لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَسْرَةً﴾ عليه ومعناه فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب، والفاءات الثلاث للسببية غير أن الأوليين دخلتا على السبب والثالثة دخلت على المسبب، وجمع الحسرات للدلالة على تضاعف اغتمامه على أحوالهم أو كثرة مساوي أفعالهم المقتضية للتأسف، وعليهم ليس صلة لها لأن صلة المصدر لا تقدمه بل صلة تذهب أو بيان للمتحرر عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّعُورُ ﴿٩﴾﴾

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ على حكاية الحال

الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال الحكمة، ولأن المراد بيان إحداثها بهذه الخاصية ولذلك أسنده إليها، ويجوز أن يكون اختلاف الأفعال للدلالة على استمرار الأمر. ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ وقرأ نافع وحمرزة والكسائي وحفص بالتشديد. ﴿فَأَخَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالمطر النازل منه وذكر السحاب كذكره، أو بالسحاب فإنه سبب السبب أو الصائر مطراً. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يبسها والعدول فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص لما فيهما من مزيد الصنع. ﴿كَذَلِكَ الثُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية، إذ ليس بينهما إلا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها. وقيل في كيفية الإحياء فإنه تعالى يرسل ماء من تحت العرش تنبت منه أجساد الخلق.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ الشرف والمنعة. ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي فليطلبها من عنده فإن له كلها، فاستغنى بالدليل عن المدلول. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إياهما، أو صعود الكتب بصحيفتهما، والمستكن في ﴿يرفعه﴾ لـ ﴿الكلم﴾ فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد ويؤيده أنه نصب ﴿العمل﴾، أو لـ ﴿العمل﴾ فإنه يحقق الإيمان ويقويه، أو لله وتخصيص العمل بهذا الشرف لما فيه من الكلفة. وقرئ «يصعد» على البناءين والمصعد هو الله تعالى أو المتكلم به أو الملك. وقيل ﴿الكلم الطيب﴾ يتناول الذكر والدعاء وقراءة القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل». ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ المكرات السيئات يعني مكرات قريش للنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداولهم الرأي في إحدى ثلاث حبسه وقته وإجلاله. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يؤبه دونه بما يَمْكُرُونَ به. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يفسد ولا يتفذ لأن الأمور مقدره لا تتغير به كما دل عليه بقوله:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١١).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بخلق آدم عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ بخلق ذريته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ ذكراناً وإناثاً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا معلومة له. ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ﴾ وما يمد في عمر من مصيره إلى الكبر. ﴿وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ﴾ من عمر المعمار لغيره بأن يعطى له عمر ناقص من عمره، أو لا ينقص من عمر المنقوص عمره بجعله ناقصاً، والضمير له وإن لم يذكر لدلالة مقابلة عليه أو للعمر على التسامح فيه ثقة بفهم السامع كقولهم: لا يئيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق. وقيل الزيادة والنقصان في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبت في اللوح مثل: أن يكون فيه إن حج عمرو فعمره ستون سنة وإلا فأربعون. وقيل المراد بالنقصان ما يمر من عمره وينقضي فإنه يكتب في صحيفة عمره يوماً فيوماً، وعن يعقوب «ولا ينقص» على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هو علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ أو الصحيفة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارة إلى الحفظ أو الزيادة أو النقص.

﴿وَمَا يَسْتَوِ الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازٍ لِنَبْتِغَا مِنْ فَبْضِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْتَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضرب مثل للمؤمن والكافر، والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره، والأجاج الذي يحرق بملوحته. وقرئ «سبيغ» بالتشديد و«سبيغ» بالتخفيف و«ملح» على فعل. ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم، أو تمام التمثيل والمعنى: كما أنهما وإن اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث إنهما لا يتساويان فيما هو المقصود بالذات من الماء، فإنه خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته، لا يتساوى المؤمن والكافر وإن اتفق اشتراكهما في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة لاختلافهما فيما هو الخاصية العظمى وهي بقاء أحدهما على الفطرة الأصلية دون الآخر، أو تفضيل للأجاج على الكافر بما يشارك فيه العذب من المنافع. والمراد بـ ﴿الحلية﴾ اللآلئ واليواقيت. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كل. ﴿مَوَاحِرَ﴾ تشق الماء بجريها. ﴿لَتَلْبَثُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من فضل الله بالنقلة فيها، واللام متعلقة بـ ﴿مواخير﴾، ويجوز أن تتعلق بما دل عليه الأفعال المذكورة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك وحرف الترجي باعتبار ما يقتضيه ظاهر الحال.

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤)

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدة دوره أو انتهاه أو يوم القيامة. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الإشارة إلى الفاعل لهذه الأشياء. وفيها إشعار بأن فاعليته لها موجبة لثبوت الأخبار المترادفة، ويحتمل أن يكون ﴿له الملك﴾ كلاماً مبتدأ في قرآن. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ للدلالة على تفرده بالألوهية والربوبية، والقطمير لفافة النواة.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ﴾ لأنهم جماد ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض. ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم على الإنفاع، أو لتبرئهم منكم مما تدعون لهم. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم يقرون ببطلانه أو يقولون ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر ﴿مثل خبير﴾ به أخبرك وهو الله سبحانه وتعالى، فإنه الخبير به على الحقيقة دون سائر المخبرين. والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفي ما يدعون لهم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ في أنفسكم وما يعن لكم، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ولذلك قال: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾. ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات حتى استحق عليهم الحمد.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوم آخرين أطوع منكم، أو بعالم آخر غير ما تعرفونه.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٨)

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، وأما قوله: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ﴾ واثقالاتهم مع أثقالهم، ففي الضالين المضلين فإنهم يحملون أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفس أثقلها الأوزار. ﴿إِلَىٰ جِهْلِهَا﴾ تحمل بعض أوزارها. ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تجب لحمل شيء منه نفى أن يحمل عنها ذنبها كما نفى أن يحمل عليها ذنب غيرها. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المدعو ذا قرابتها، فأضمر المدعو لدلالة إن تدع عليه. وقرئ «ذو قربي» على حذف الخبر وهو أولى من جعل كان التامة فإنها لا تلائم نظم الكلام. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ غائبين عن عذابه، أو عن الناس في خلواتهم، أو غائباً عنهم عذابه. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فإنهم المنتفعون بالإنذار لا غير، واختلاف الفعلين لما مر من الاستمرار. ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهر من دنس المعاصي. ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ إذ نفعه لها، وقرئ «ومن أزكى فإنما يزكى» وهو اعتراض مؤكد لخشيته وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي. ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازيهم على تركيهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ (٢١) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢) ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ (٢٣)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الكافر والمؤمن، وقيل هما مثلاً للصنم والله عز وجل. ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ ولا الباطل ولا الحق.

﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ولا الثواب ولا العقاب، ولا لتأكيد نفى الاستواء وتكريرها على الشقين لمزيد التأكيد. و ﴿الْحُرُورُ﴾ فعول من الحر غلب على السموم. وقيل السموم ما يهب نهاراً والحرور ما تهب ليلاً. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الأول ولذلك كرر الفعل. وقيل للعلماء والجهلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته فيوفقه لفهم آياته والاعتاظ بعظاته. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ترشيح لتمثيل المصيرين على الكفر بالأموات ومبالغة في إقناطه عنهم. ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذار وأما الإسماع فلا إليك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (٢٤)

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ محققين أو محققاً، أو إرسالاً مصحوباً بالحق، ويجوز أن يكون صلة لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق. ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أهل عصر. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى. ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من نبي أو عالم ينذر عنه، والاكتفاء بذكره للعلم بأن النذارة قريبة البشارة سيما وقد قرن به من قبل، أو لأن الإنذار هو الأهم المقصود من البعثة.

﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (٢٥)

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الشاهدة على نبوتهم. ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ كالتوراة والإنجيل على إرادة التفصيل دون الجمع، ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير الوصفين.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري بالعقوبة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أجناسها وأصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة، أو هيئاتها من الصفرة والخضرة ونحوهما. ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي ذو جدد أي خطوط وطرائق يقال جدة الحمار للخطوة السوداء على ظهره، وقرىء «جدد» بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة و «جدد» بفتحتين وهو الطريق الواضح. ﴿بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدة والضعف. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ عطف على «بَيَضٌ» أو على «جدد» كأنه قيل: ومن الجبال ذو جدد مختلفة اللون ومنها «غرابيب» متحدة اللون، وهو تأكيد مضمهر يفسره ما بعده فإن الغريب تأكيد للأسود ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظير ذلك في الصفة قول النابغة:

وَالْمُؤْمِنُ الْعَائِذَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا

وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرير باعتبار الإضمار والإظهار.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ كاختلاف الثمار والجبال. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكم لله وأتقاكم له» ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر. وقرىء برفع اسم الله ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فإن المعظم يكون مهيباً. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورُهُمْ وَيُزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يداومون على قرائته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنواناً، والمراد بكتاب الله القرآن أو جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الأمم بعد اقتصاص حال المكذبين. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتفق من غير قصد إليهما. وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة. ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً﴾ تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر إن. ﴿لَّنْ تَبُورَ﴾ لن تكسد ولن تهلك بالخسران صفة للتجارة وقوله:

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورُهُمْ﴾ علة لمدلولة أي ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله ليوفيهم بنفاقها أجور أعمالهم، أو لمدلولة ما عد من امتثالهم نحو فعلوا ذلك «ليؤفيهم» أو عاقبة ل «يرجون». ﴿وَيُزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ما

يقابل أعمالهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ لفرطاتهم. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم أي مجازيهم عليها، وهو علة للتوفية والزيادة أو خبر إن و﴿يرجون﴾ حال من واو و﴿أنفقوا﴾.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١)

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعني القرآن و﴿من﴾ للتبيين أو الجنس و﴿من﴾ للتبعض. ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أحقه مصدقاً لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيقته تستلزم موافقته إياه في العقائد وأصول الأحكام. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ عالم بالبوطن والظواهر فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، وتقديم الخبر للدلالة على أن العمدية في ذلك الأمور الروحانية.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢)

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ حكماً بتوريثه منك أو نورثه فعبّر عنه بالماضي لتحقيقه، أو أورثناه من الأمم السالفة، والعطف على ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ﴾، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اعتراض لبيان كيفية التورث. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ يعمل به في غالب الأوقات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ﴾ بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم. وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيئ والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته». وقيل الظالم الكافر على أن الضمير للعباد، وتقديمه لكثرة الظالمين ولأن الظلم بمعنى الجهل والركون إلى الهوى مقتضى الجبلة والاقتصاد والسبق عارضان. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى التورث أو الاصطفاء أو السبق.

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَطْعَمَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)

﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأ وخبر والضمير للثلاثة أو للـ ﴿الذين﴾ أو للـ ﴿مقتصد﴾ والـ ﴿سابق﴾، فإن المراد بهما الجنس وقرئ «جنة عدن» و«جنان عدن» منصوب بفعل يفسره الظاهر، وقرأ أبو عمرو «يدخلونها» على البناء للمفعول. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبر ثان أو حال مقدرة، وقرئ يحلون من حليت المرأة فهي حالية. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ من الأولى للتبعض والثانية للتبيين. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على ﴿ذهب﴾ أي «من ذهب» مرصع باللؤلؤ، أو «من ذهب» في صفاء اللؤلؤ ونصبه نافع وعاصم رحمهما الله عطفاً على محل «من أساور». ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ همهم من خوف العاقبة، أو همهم من أجل المعاش وآفاته

أو من وسوسة إبليس وغيرها، وقرئ «الحزن». «وَأَنَّ رَبَّنَا لَتَفُوزَ» للمذنبين. «شُكُورٌ» للمطيعين.
«الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ» دار الإقامة. «مِنْ فَضْلِهِ» من إنعامه وتفضله إذ لا واجب عليه. «لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ» تعب. «وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُثُوبٌ» كلال، إذ لا تكليف فيها ولا كد، أتبع نفي النصب نفي ما يتبعه مبالغة.

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ» (٣٦) «وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (٣٧).

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ» لا يحكم عليهم بموت ثان. «فَيَمُوتُوا» فيستريحوا، ونصبه بإضمار أن، وقرئ «فيموتون» عطفًا على «يُقْضَىٰ» كقوله: «وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدُونَ». «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» بل كلما خبت زيد إسعارها. «كَذَلِكَ» مثل ذلك الجزاء. «نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ» مبالغ في الكفر أو الكفران، وقرأ أبو عمرو «يجزى» على بناء المفعول وإسناده إلى «كل»، وقرئ «يجازي».

«وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا» يستغيثون يفتعلون من الصراخ وهو الصياح استعمل في الاستغاثة لجهر المستغيث صوته. «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» بإضمار القول وتقيد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به، والإشعار بأن استخراجهم لتلافيه وأنهم كانوا يحسبون أنه صالح والآن تحقق لهم خلافه. «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ» جواب من الله وتوبيخ لهم و «ما يتذكر» فيه متناول كل عمر يمكن المكلف فيه من التفكير والتذكر، وقيل ما بين العشرين إلى الستين. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة». والعطف على معنى «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم» فإنه للتقرير كأنه قال: عمرناكم وجاءكم النذير وهو النبي ﷺ أو الكتاب، وقيل العقل أو الشيب أو موت الأقارب. «فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» يدفع العذاب عنهم.

«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (٣٨) «هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا» (٣٩).

«إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» لا يخفى عليه خافية فلا يخفى عليه أحوالهم. «إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» تعليل له لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها.
«هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ» ملقى إليكم مقاليد التصرف فيها، وقيل خلفًا بعد خلف جمع خليفة والخلفاء جمع خليف. «فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» جزاء كفره. «وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا» بيان له، والتكرير للدلالة على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين مستقل باقتضاء قبحه ووجوب التجنب عنه، والمراد بالمقت وهو أشد البغض مقت الله وبالخسار خسار الآخرة.

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الْقَاطِلُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا» (٤٠).

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» يعني آلهتهم والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله

أو لأنفسهم فيما يملكونه. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿أَرَيْتُمْ﴾ بدل الاشتمال لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء أروني أي جزء من الأرض استبدوا بخلقه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أم لهم شركة مع الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك شركة في الألوهية ذاتية. ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ ينطق على أنا اتخذناهم شركاء. ﴿فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ على حجة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة جعلية، ويجوز أن يكون هم للمشركين كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والكلبي ﴿على بينات﴾ فيكون إيماء إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل. ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نفى أنواع الحجج في ذلك أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغيير الأسلاف الأخلاف، أو الرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقرب إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤١﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ كراهة أن تزولا فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ، أو يمنعهما أن تزولا لأن الإمساك منع. ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكهما. ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ من بعد الله أو من بعد الزوال، والجملة سادة مسد الجوابين ومن الأولى زائدة والثانية للابتداء. ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهذا هدأ كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿٤٣﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾. وذلك أن قرشاً لما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى لو أننا رسول لكونن ﴿أهدى من إحدى الأمم﴾، أي من واحدة من الأمم اليهود والنصارى وغيرهم، أو من الأمة التي يقال فيها هي ﴿إحدى الأمم﴾ تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي النذير أو مجيئه على التسبب. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق.

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بدل من نفوراً أو مفعول له. ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أصله وإن مكروا المكر السيئ فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف. وقرأ حمزة وحده بسكون الهمزة في الوصل. ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيط. ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر وقد حاق بهم يوم بدر، وقرئ «ولا يحيق المكر» أي ولا يحيق الله. ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدلها يجعله غير التعذيب تعذيباً ولا يحولها بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم، وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّتٍ وَلَئِنْ يُوَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعِزُّونَ

كَانَ يَبْعَادُهُ بِصِيرًا ﴿٤٥﴾ .

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ استشهاد علم بما يشاهدونه في مسائرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين . ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُنْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ليسبقه ويفوته . ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلها . ﴿قَدِيرًا﴾ عليها . ﴿وَلَوْ يُوَاقِظُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي . ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا﴾ ظهر الأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من نسمة تدب عليها بشؤم معاصيهم ، وقيل المراد بالدابة الإنس وحده لقوله : ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة . ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ فيجازيهم على أعمالهم . عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة : أن أدخل من أي باب شئت» .

(٣٦) سورة يس

مكية وعنه عليه الصلاة والسلام «يس تدعى المعجزة تعجز صاحبها خير الدارين والدافعة والقارضية تدفع عنه كل سوء وتقضي له كل حاجة»

وآيها ثلاث وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾

﴿يَس ١﴾ ك ﴿آلَمْ﴾ في المعنى والإعراب، وقيل معناه يا إنسان بلغه طييء، على أن أصله يا أنيسين فاقصر على شطره لكثرة النداء به كما قيل (من الله) في أيمن. وقرئ بالكسر كجبر وبالفتح على البناء كآين، أو الإعراب على اتل يس أو بإضمار حرف القسم والفتحة لمنع الصرف وبالضم بناء كحيث، أو إعراباً على هذه ﴿يَس﴾ وأمال الياء حمزة والكسائي وروح وأبو بكر، وأدغم النون في واو: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ ابن عامر والكسائي وأبو بكر وورش ويعقوب، وهي واو القسم أو العطف إن جعل ﴿يَس﴾ مقسماً به.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لمن الذين أرسلوا.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيد والإستقامة في الأمور، ويجوز أن يكون ﴿على صراط﴾ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكن في الجار والمجرور، وفائدته وصف الشرع صريحاً بالاستقامة وإن دل عليه ﴿لمن المرسلين﴾ التزاماً.

﴿تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ ٥﴾ لِنَذِيرٍ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾

﴿تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ﴾ خبر محذوف والمصدر بمعنى المفعول. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالنصب بإضمار أعني أو فعله على أنه على أصله، وقرئ بالجر على البدل من القرآن.

﴿لِنَذِيرٍ قَوْمًا﴾ متعلق بـ ﴿تنزيل﴾ أو بمعنى ﴿لمن المرسلين﴾. ﴿مَّا أَنْذَرْنَا آبَاؤَهُمْ﴾ قولاً غير منذر آبائهم يعني آبائهم الأقربين لتطاول مدة الفترة، فيكون صفة مينة لشدة حاجتهم إلى إرساله، أو الذي أنذر به أو شيئاً أنذر به آبائهم الأبعدون، فيكون مفعولاً ثانياً ﴿لننذر﴾، أو إنذار آبائهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بالنفي على الأول أي لم يندروا فبقوا غافلين، أو بقوله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ على الوجوه الأخرى أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَلاً فَهِيَ إِلَى الْآذِقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا تغني عنهم الآيات والنذر، بتمثيلهم بالذين غلت أعناقهم. ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ فالأغلال، واصله إلى أذقانهم فلا تخليهم يطأطئون رؤوسهم له. ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم في أنهم لا يلتفتون لفت الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاط بهم سدان فغطى أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في مطمورة الجهالة ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل. وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سَدًّا﴾ بالفتح وهو لغة فيه، وقيل ما كان يفعل الناس فبالفتح وما كان بخلق الله فبالضم. وقرأ «فأغشيناهم» من العشاء. وقيل الآيتان في بني مخزوم حلف أبو جهل أن يرضخ رأس النبي ﷺ فأتاه وهو يصلي ومعه حجر ليدمغه، فلما رفع يده انشنت إلى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكه عنها بجهد، فرجع إلى قومه فأخبرهم، فقال مخزومي آخر: أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله بصره.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سبق في «البقرة» تفسيره.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه البغية المرومة. ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به. ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ وخاف عقابه قبل حلوله ومعابنة أهواله، أو في سريرته ولا يغتر برحمته فإنه كما هو رحمن، منتقم قهار. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَيْنَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٢﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ الأموات بالبعث أو الجهاد بالهداية. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطلاحة. ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحيس وقفوه، والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرِبْ لَمْثًا مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد، وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنته معنى الجعل وهما: ﴿مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ على حذف مضاف أي اجعل لهم مثل أصحاب القرية مثلاً، ويجوز أن يقتصر على واحد ويجعل المقدر بدلاً من الملفوظ أو بياناً له، والقرية أنطاكية. ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ بدل من أصحاب القرية، و «المرسلون» رسل عيسى عليه الصلاة والسلام إلى أهلها وإضافته إلى نفسه في قوله:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ لأنه فعل رسوله وخليفته وهما يحيى ويونس، وقيل غيرهما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فَعَزَّزْنَا، فقوينا، وقرأ أبو بكر مخففاً من عزه إذا غلبه وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولأن المقصود ذكر المعزز به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون. ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فأرسل إليهم عيسى عليه السلام اثنين، فلما قربا من المدينة رأيا حبيباً التجار يرعى غنماً فسألتهما فأخبراه فقال: أمعكما آية

فقالا: نشفي المريض ونبريء الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض فمسحاه فبرأ فأمن حبيب وفشا الخبر، فشفي على أيديهما خلق كثير وبلغ حديثهما إلى الملك وقال لهما: ألنا إله سوى آلهتنا؟

قالا: نعم من أوجدك وآلهتك؛ قال حتى أنظر في أمركما فحبسهما، ثم بعث عيسى شمعون فدخل متنكراً وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به وأوصلوه إلى الملك فأنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه، قال لا، فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قال: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال صفاه وأجزأ، قال: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال وما آيتكما، قال: ما يتمنى الملك، فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصره، وأخذوا بندقتين فوضعاها في صدقيه فصارتا مقلتين ينظر بهما، فقال شمعون أرأيت لو سألت آلهتك حتى تصنع مثل هذا حتى يكون لك ولها الشرف، قال ليس لي عنك سر آلهتنا لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع، ثم قال إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به، فأتوا بغلام مات منذ سبعة أيام فدعوا الله فقام وقال: إني أدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فأمنوا، وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شاباً حسناً يشفع لهؤلاء الثلاثة فقال الملك من هم قال شمعون وهذان فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فأمن في جمع، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فهلكوا.

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (١٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْنَا لَمَرْسَلُونَ﴾ (١٦) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٧).

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا تقتضي اختصاصكم بما تدعون، ورفع بشر لا تنقاض النفي المقتضي إعمال ما يبالا. ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ وحي ورسالة. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْنَا لَمَرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم.

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته، وهو المحسن للاستشهاد فإنه لا يحسن إلا بيينة.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنفَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨) ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١٩).

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقبحهم له وتنفرهم عنه. ﴿لَئِن لَّمْ تَنفَهُوا﴾ عن مقالتيكم هذه. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ سبب شؤمكم معكم وهو سوء عقيدتكم وأعمالكم، وقرئ «طيركم معكم». ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ وعظمت، وجواب الشرط محذوف مثل تطيئرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب، وقد قرئ بالالف بين الهمزتين ويفتح أن بمعنى أنطيرتكم لأن ذكركم وإن وأن بغير الاستفهام و «أين ذكركم» بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قوم عادتكم الإسراف في العصيان فمن ثم جاءكم الشؤم، أو في الضلال ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب أن يكرم ويتبرك به.

﴿رَجَاءٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٍ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢٠) ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٢١).

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام وبينهما ستمائة سنة، وقيل كان في غار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على النصيح وتبليغ الرسالة. ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢) ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرِّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (٢٣) ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٤).

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على قراءة غير حمزة فإنه يسكن الياء في الوصل، تلتطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصيح، حيث أراد لهم ما أراد لها والمراد تقيعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد ثم عاد إلى المساق الأول فقال:

﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرِّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لا تنفعني شفاعتهم. ﴿وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ بالنصرة والمظاهرة.

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فإن إشار ما لا ينفع ولا يدفع ضرراً بوجه ما على الخالق المقتدر على النفع والضر وإشراكه به ضلال بين لا يخفى على عاقل، وقرأ نافع ويعقوب وأبو عمرو بفتح الياء.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿يَا عَفْرَى رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ (٢٧).

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿فاسمعون﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطاب للرسل فإنه لما نصح قومه أخذوا يرجمونه فأسرع نحوهم قبل أن يقتلوه.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه بشرى له بأنه من أهل الجنة، أو إكراماً وإذناً في دخولها كسائر الشهداء، أو لما هموا بقتله رفعه الله إلى الجنة على ما قاله الحسن وإنما لم يقل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم، والكلام استئناف في حيز الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

﴿يَا عَفْرَى رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ﴾ فإنه جواب عن السؤال عن قوله عند ذلك القول، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة على دأب الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق، وقرئ «المكرمين» و «ما» خبرية أو مصدرية والباء صلة «يعلمون» أو استفهامية جاء على الأصل، والباء صلة غفر أي بأي شيء «غفر» لي، يريد به المهاجرة عن دينهم والمصابرة على أدينتهم.

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨).

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إهلاكه أو رفعه. ﴿مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ لإهلاكهم كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفيينا أمرهم بصيحة ملك، وفيه استحقاق لإهلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ وما صح في حكمتنا أن ننزل جنداً لإهلاك قومه إذ قدرنا لكل شيء سبباً وجعلنا ذلك سبباً لاتصارك من قومك، وقيل «ما» موصولة معطوفة على «جند» أي ومما كنا منزلين على من قبلهم من

حجارة وريح وأمطار شديدة.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (٢٩) يَحْضَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ ما كانت الأخذة أو العقوبة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام، وقرئت بالرفع على كان التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ ميتون، شبهوا بالنار رمزاً إلى أن الحي كالنار الساطعة والميت كرمادها كما قال لبيد:

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْؤُهُ يَحُورُ زَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ تعالي فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليها: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسروا عليهم، وقد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين، ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ﴿يَا حَسْرَةً﴾ ونصبها لطولها بالجار المتعلق بها، وقيل بإضمار فعلها والمنادى محذوف، وقرئ «يا حسرة العباد» بالإضافة إلى الفاعل أو المفعول، و «يا حسرة» بالهاء على العباد بإجراء الوصل مجرى الوقف.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ لأن ﴿كَمْ﴾ لا يعمل فيها ما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الاستفهام. ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل من ﴿كَمْ﴾ على المعنى أي ألم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم، وقرئ بالكسر على الاستئناف.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة للجزاء، و ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة و «ما» مزيدة للتأكيد، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمة ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا فتكون إن نافية وجميع فعيل بمعنى مفعول، و ﴿لَدَيْنَا﴾ ظرف له أو لـ ﴿محضرون﴾.

﴿وَأَيُّ لَمَّا الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَبِتُّهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾.

﴿وَأَيُّ لَمَّا الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ وقرأ نافع بالتشديد. ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ خبر لـ ﴿الْأَرْضُ﴾، والجملة خبر ﴿أَيُّ﴾ أو صفة لها إذ لم يرد بها معينة وهي الخبر أو المبتدأ والآية خبرها، أو استئناف لبيان كونها ﴿أَيُّ﴾. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب. ﴿فَبِتُّهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ من أنواع النخل والعنب، ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الأنواع، وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعنان باختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرئ بالتخفيف، والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، أو ﴿العيون﴾ و ﴿من﴾ مزيدة عند الأخفش.

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٥) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله تعالى على طريقة الالتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، وقرأ حمزة والكسائي بضميتين وهو لغة فيه، أو جمع ثمار وقرئ بضمة وسكون. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير واللبس ونحوهما، وقيل ﴿ما﴾ نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد الأول قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن من غيرها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أمر بالشكر من حيث إنه إنكار لتركه.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ الأنواع والأصناف. ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر. ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الذكر والأنثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يطلعهم الله تعالى عليه ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفته.

﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٢٨).

﴿وَأَيَّاهُ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ نزله ونكشفه عن مكانه مستعار من سلخ الجلد والكلام في إعرابه ما سبق. ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ لحد معين ينتهي إليه دورها، فشيء بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لكبد السماء فإن حركتها فيه يوجد فيها ببطء بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالْجَوِّ تَذْوِيمٌ

أو لاستقرار لها على نهج مخصوص، أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فإن لها في دورها ثلثمائة وستين مشرقاً ومغرباً، تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل، أو لمتقطع جريها عند خراب العالم. وقرئ «لا مستقر لها» أي لا سكون فإنها متحركة دائماً و «لا مستقر» على أن «لا» بمعنى ليس. ﴿ذَلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكم التي تكل الفطن عن إحصائها. ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور. ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (٢٩) ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٠).

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ﴾ قدرنا مسيره. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سيره في منازل وهي ثمانية وعشرون: الشرطان، البطين، الشرا، الدبران، الهقعة، الهنعة، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصرفة، العواء، السماك، الغفر، الزبانا، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، فرغ الدلو المقدم، فرغ الدلو المؤخر، الرشا، وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازلها وهو الذي يكون فيه قبيل الاجتماع دق واستقوس، وقرأ الكوفيون وابن عامر ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بنصب الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ﴾ كالشمرخ المعوج، فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج، وقرئ «كالعرجون» وهما لغتان كالزبون والبرزون. ﴿الْقَدِيمِ﴾ العتيق وقيل ما مر عليه حول فصاعداً.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا﴾ يصح لها ويتسهل. ﴿أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ في سرعة سيره فإن ذلك يخل بتكون

النبات وتعيش الحيوان، أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله، أو سلطانه فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي ﴿الشمس﴾ للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد بها. ﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه، وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران، وبالسبق سبق القمر إلى سلطان الشمس فيكون عكساً للأول وتبديل الإدراك بالسبق لأنه الملائم لسرعة سيره. ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلهم والتنوين عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات، أو للكواكب فإن ذكرهما مشعر بهما. ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسرون فيه بانسباط.

﴿وَمَا يَهُتُّ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم الذين يعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم، فإن الذرية تقع عليهن لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقرأ نافع وابن عامر ﴿ذرياتهم﴾. ﴿فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء، وقيل المراد فلك نوح عليه الصلاة والسلام، وحمل الله ذرياتهم فيها أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وتخصيص الذرية لأنه أبلغ في الامتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ﴾ من مثل الفلك. ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من السفن والزوارق.

﴿وَلَن تَشَاءُ نَقْرِفَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَن تَشَاءُ نَقْرِفَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ﴾ فلا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق، أو فلا إغاثة كقولهم أتاها الصريح. ﴿وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ﴾ ينجون من الموت به.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمة ولتمتع بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمان قدر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الوقائع التي خلت أو العذاب المعد في الآخرة، أو نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله: ﴿أَو لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو عكسه، أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجين رحمة الله، وجواب إذا محذوف دل عليه قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوا عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على محاوئجكم. ﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانع يعني معطلة كانوا بمكة. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكمأ بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمور بمشيئته. ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ﴾ على زعمكم، وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين إيهاماً بأن الله تعالى لما كان قادراً أن يطعمهم ولم يطعمهم فحن أحق بذلك، وهذا من فرط جهالتهم فإن الله يطعم بأسباب منها حث الأغنياء على إطعام الفقراء وتوفيقهم له. ﴿إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله، ويجوز أن

يكون جواباً من الله لهم أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون وعد البعث.

﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ ما ينتظرون. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم أمرها كقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأصله يختصمون فسكنت الناء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بكسر الياء للاتباع، وقرأ ابن كثير وورش وهشام بفتح الخاء على إلقاء حركة الناء إليه، وأبو عمرو وقالون به مع الاختلاس وعن نافع الفتح فيه والإسكان والتشديد وكأنه جوز الجمع بين الساكنين إذا كان الثاني مدغماً، وقرأ حمزة ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ من خصمه إذا جادله.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم. ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فيروا حالهم بل يموتون حيث تبغتهم.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي مرة ثانية وقد سبق تفسيره في سورة «المؤمنين». ﴿إِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ من القبور جمع جدث وقرئ بالفاء. ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ يسرعون وقرئ بالضم.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ وقرئ «يا ويلتنا» ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وقرئ «من أهبنا» من هب من نومه إذا انتبه ومن هبنا بمعنى أهبنا، وفيه ترشيح ورمز وإشعار بأنهم لا اختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياماً، و ﴿مَن بَعَثَنَا﴾ و «من هبنا» على من الجارة والمصدر، وسكت حفص وحده عليها سكتة لطيفة والوقف عليها في سائر القراءات حسن. ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿مَا﴾ مصدرية، أو موصولة محذوفة الراجع، أو ﴿هَذَا﴾ صفة لـ ﴿مَرْقَدِنَا﴾ و ﴿مَا وَعَدَ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أو ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ حق وهو من كلامهم، وقيل جواب للملائكة أو المؤمنين عن سؤالهم، معدول عن سنته تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنهم قالوا: بعثكم الرحمن الذي وعدكم البعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون، فإنه ليس يبعث النائم فيهمكم السؤال عن الباعث وإنما هو البعث الأكبر ذو الأحوال.

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٥٣) قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ ما كانت الفعلة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأخيرة، وقرئت بالرفع على كان التامة. ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمجرد تلك الصيحة وفي كل ذلك تهوين أمر البعث والحشر واستغناؤهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه.

﴿قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حكاية لما يقال لهم حينئذ تصويراً للموعود

وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَهُونَ﴾ متلذذون في النعمة من الفكاهة، وفي تنكير ﴿شغل﴾ وإيهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ، وتنبيه على أنه أعلى ما يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿في شغل﴾ بالسكون، ويعقوب في رواية «فكهون» للمبالغة وهما خبران لـ ﴿إِنَّ﴾، ويجوز أن يكون ﴿في شغل﴾ صلة ﴿لِفَاكِهِونَ﴾، وقرأ «فكهون» بالضم وهو لغة كنطس ونطس «وفاكهين» «وفكهين» على الحال من المستكن في الظرف، و﴿شغل﴾ بفتحين وفتحة وسكون والكل لغات.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلٍّ﴾ جمع ظل كشعاب أو ظلة كقباب ويؤيده قراءة حمزة والكسائي في «ظلل». ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ على السرر المزينة. ﴿مُتَكُونَ﴾ و﴿هُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِي ظِلٍّ﴾، و﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جملة مستأنفة أو خبر ثان أو «متكونون» والجاران صلتان له، أو تأكيد للضمير في شغل أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكونون خبر آخر لأن أزواجهم عطف على ﴿هُمْ﴾ للمشاركة في الأحكام الثلاثة، و﴿فِي ظِلٍّ﴾ حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ما يدعون به لأنفسهم يفتعلون من الدعاء كاشتوى واجتمل إذا شوى وجمل لنفسه، أو ما يتداعونه كقولك ارتموه بمعنى تراموه، أو يتمنون من قولهم ادع علي ما شئت بمعنى تمنه علي، أو ما يدعونه في الدنيا من الجنة ودرجاتها و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة مرتفعة بالابتداء، و﴿لَهُمْ﴾ خبرها وقوله:

﴿سَلَّمَ﴾ بدل منها أو صفة أخرى، ويجوز أن يكون خبرها أو خبر محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر أي ولهم سلام، وقرأ بالنصب على المصدر أو الحال أي لهم مرادهم خالصاً. ﴿قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ﴾ أي يقول الله أو يقال لهم قولاً كائناً من جهته، والمعنى أن الله يسلم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومتمناهم، ويحتمل نصبه على الاختصاص.

﴿وَأَمَّا زَوْجُكَ يَا بَنِي آدَمَ اتَّبِعِ إِذْ يَدْعُوكَ إِلَى الْجَنَّةِ فَطِعْنَاهُ نَارًا لَكُم مَخْرَجٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَأَمَّا زَوْجُكَ يَا بَنِي آدَمَ اتَّبِعِ إِذْ يَدْعُوكَ إِلَى الْجَنَّةِ فَطِعْنَاهُ نَارًا لَكُم مَخْرَجٌ﴾ وانفردوا عن المؤمنين وذلك حين يسار بهم إلى الجنة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَثَدُ بِيَتَفَرَّقُونَ﴾. وقيل اعتزلوا من كل خير أو تفرقوا في النار فإن لكل كافر بيتاً ينفرد به لا يرى ولا يرى.

﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ من جملة ما يقال لهم تقريباً وإلزاماً للحجة، وعهده إليهم ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته الزاجرة عن عبادة غيره وجعلها عبادة الشيطان، لأنه الأمر بها والمزين لها، وقرأ «اعهد» بكسر حرف المضارعة و«أعهد» و«أحد» على لغة بني تميم. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تحليل للمنع عن عبادته بالطاعة فيما يحملهم عليه.

﴿وَأَنْ أَضِلُّوكُمْ عَلَى طَرَفٍ أَوْ أَتَقَرَّبَ إِلَى جَنَّةٍ مَسْكُونَةٍ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته، فالجملة استئناف لبيان مقتضي للعهد بشقيه أو بالشق الآخر، والتذكير للمبالغة والتعظيم، أو للتبعض

فإن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٢﴾ أَضَلُّوهُمُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي، والجبل الخلق، وقرأ يعقوب بضمين وابن كثير وحزمة والكسائي بهما مع تخفيف اللام وابن عامر وأبو عمرو بضمة وسكون مع التخفيف والكل لغات، وقرئ «جبلًا» جمع جبلة كخلفة وخلق و «جبلًا» واحد الأجيال.

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

﴿أَضَلُّوهُمُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرها اليوم بكفركم في الدنيا.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ نمنعها عن الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بظهور آثار المعاصي عليها ودلالاتها على أفعالها، أو إنطاق الله إياها وفي الحديث «إنهم يجحدون ويخاصمون فيختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم».

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسنا أعينهم حتى تصير ممسوحة. ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه، وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الابتدار، أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو بالظرف. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ الطريق وجهة السلوك فضلاً عن غيره.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَبَقُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ تُعْصِرْهُ تَصَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم. ﴿عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾ مكانهم بحيث يجمدون فيه، وقرأ أبو بكر «مكاناتهم». ﴿فَمَا اسْتَبَقُوا مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً فوضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن تكذيبهم، وقرئ «مضياً» بإتباع الميم الضاد المكسورة لقلب الواو ياء كالعتي والعتي و«مضياً» كصبي، والمعنى أنهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن يفعل بهم ذلك لكننا لم نفعل لشمول الرحمة لهم واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿وَمَنْ تُعْصِرْهُ﴾ ومن نطل عمره. ﴿تُصَكِّسُهُ فِي الْخَلْقِ﴾ نغلقه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاض بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، وابن كثير على هذه يشيع ضمة الهاء على أصله، وقرأ عاصم وحزمة ﴿تُصَكِّسُهُ﴾ من التنكيس وهو أبلغ والنكس أشهر. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسح فإنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه على تدرج، وقرأ نافع برواية ابن عامر وابن ذكوان ويعقوب بالتاء لجري الخطاب قبله.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ رد لقولهم إن محمداً شاعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، فإنه لا يماثله لفظاً ولا معنى لأنه غير مقفى ولا موزون، وليس معناه ما يتوخاه الشعراء من التخيلات المرغبة والمنفرة ونحوها. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له الشعر ولا يتأتى له إن أراد قرضه على ما خبرتم طبعه نحواً من أربعين سنة، وقوله عليه الصلاة والسلام:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»
وقوله:

هَلْ أَنتَ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيئٌ وفي سبيل الله مَالٌ قَلِيلٌ

اتفاقي من غير تكلف وقصد منه إلى ذلك، وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المثورات على أن الخليل ما عد المشطور من الرجز شعراً، هذا وقد روي أنه حرك الباءين وكسر التاء الأولى بلا إشباع وسكن الثانية، وقيل الضمير للـ «قرآن» أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى. ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ وكتاب سماوي يتلى في المعابد، ظاهر أنه ليس من كلام البشر لما فيه من الإعجاز.

﴿لِيُنذِرَ﴾ القرآن أو الرسول ﷺ، ويؤيده قراءة نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء. ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فهماً فإن الغافل كالميت، أو مؤمناً في علم الله تعالى فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به لأنه المستفيع به. ﴿وَيَحَقِّقُ الْقَوْلُ﴾ وتجب كلمة العذاب. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المصيرين على الكفر، وجعلهم في مقابلة من كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مما تولينا إحداثه ولم يقدر على إحداثه غيرنا، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص، والتفرد بالإحداث. ﴿أَنْعَمًا﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ ممتلكون لها بتمليكنا إياها، أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم قال:

أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا أَمْلِكُ رَأْسَ الْبَعِيرِ إِنْ نَفَرَا

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وصيرناها منقادة لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبهم، وقرئ «ركوبتهم»، وهي بمعنى كالحلوب والحلوبة، وقيل جمعه وركوبهم أي ذو ركوبهم أو فمن منافعها «ركوبهم». ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللبن جمع مشرب بمعنى الموضع، أو المصدر وأمال الشين ابن عامر وحده برواية هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله في ذلك إذ لولا خلقه لها وتذليله إياها كيف أمكن التوصل إلى تحصيل هذه المنافع المهمة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْصَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُلْعَلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة، وعلموا أنه المتفرد بها. ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاء أن ينصروهم فيما حاربهم من الأمور والأمور بالعكس لأنهم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ لآلهتهم. ﴿جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم، أو «محضرون» أثرهم في النار.

﴿فَلَا يَخْزَنُكَ﴾ فلا يهكم، وقرئ بضم الياء من أحن. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد والشرك، أو فيك بالتكذيب والتهجين. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُغْلَثُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتسلى به، وهو تعليل للنهي على الاستئناف ولذلك لو قرئ «أنا» بالفتح على حذف لام التعليل جاز.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨).

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تسلية ثانية بتهوين ما يقولونه بالنسبة إلى إنكارهم الحشر، وفيه تقبيح بليغ لإنكاره حيث عجب منه وجعله إفراطاً في الخصومة بيناً ومنافاة لوجود القدرة على ما هو أهون مما عمله في بدء خلقه، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقه من أخس شيء وأمهنة شريفاً مكرماً بالعقوق والتكذيب. روي «أن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم بال يفتته بيده وقال: أترى الله يحيي هذا بعد ما رم، فقال عليه الصلاة والسلام: نعم وبيعثك ويدخلك النار فنزلت. وقيل معنى «فإذا هو خصيم مبين» فإذا هو بعد ما كان ماء مهيناً مميز منطبق قادر على الخصام معرب عما في نفسه.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفي القدرة على إحياء الموتى، أو تشبيهه بخلقه بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ خلقنا إياه. ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكر إياه مستبعداً له، والرميم ما بلي من العظام، ولعله فعيل بمعنى فاعل من رم الشيء صار اسماً بالغلبة ولذلك لم يؤنث، أو بمعنى مفعول من رمته. وفيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠).

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كانت لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم تفاصيل المخلوقات بعلمه وكيفية خلقها، فيعلم أجزاء الأشخاص المتفتتة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطريق تمييزها، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو إحداث مثلها.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعفار. ﴿نَارًا﴾ بأن يسحق المرخ على العفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء فتندح النار. ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ لا تشكون في أنها نار تخرج منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكييفيتها كان أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غصاً فيس وبلي، وقرئ «من الشجر الخضراء» على المعنى كقوله «فماثلون منها البطون».

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢).

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع كبر جرهما وعظم شأنهما. ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما، أو مثلهم في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد، وعن يعقوب «يقدر». ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله تعالى لتقرير ما بعد النفي مشعر بأنه لا جواب سواه. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ كثير

المخلوقات والمعلومات .

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ إِنَّمَا شَأْنُهُ . ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ أي تكون . ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون أي يحدث ، وهو تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاوله عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة ، وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخلق ، ونصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على ﴿يقول﴾ .

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدْرِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدْرِي مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تنزيه عما ضربوا له ، وتعجيب عما قالوا فيه معللاً بكونه مالكا للأمر كله قادراً على كل شيء . ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعد ووعد للمقرين والمنكرين ، وقرأ يعقوب بفتح التاء . وعن ابن عباس رضي الله عنه : كنت لا أعلم ما روي في فضل يس كيف خصت به فإذا أنه بهذه الآية . وعنه عليه الصلاة والسلام «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس ، وأيما مسلم قرأها يريد بها وجه الله غفر الله له وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرأه عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً يصلون عليه ويستغفرون له ، ويشهدون غسله ويشيعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشرية من الجنة ، فيشربها وهو على فراشه ، فيقبض روحه وهو ريان ، ويمكث في قبره وهو ريان ، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان» .

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع الجزء الرابع

من تفسير البيضاوي في مطابع دار إحياء التراث العربي - بيروت

الزاهرة ، أدامها الله لطبع المزيد من الكتب النافعة ، وآخر

دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

محتوى الجزء الرابع من تفسير البيضاوي

٥	تفسير سورة مريم
٧	بيان الحكم الذي آتاه الله يحيى عليه السلام وهو صبي
١٠	بيان ما ذهبت إليه النسطورية والملكانية في السيد عيسى عليه السلام
١١	بيان ما قام به إبراهيم عليه السلام مع أبيه من النصيحة والأدب
١٤	بيان ما يلزم قارئ القرآن من البكاء
١٧	بيان ورود المؤمنين وغيرهم على النار
٢٢	تفسير سورة طه
٢٦	بيان سبب العقدة التي كانت في لسان سيدنا موسى عليه السلام
٢٧	بيان المحبة التي أعطاها الله لسيدنا موسى في صغره
٢٩	بيان الخطأ والنسيان واستحالتهم على الله تعالى
٣١	بيان ما صنعتته السحرة من السحر لموسى عليه السلام
٣٤	بيان أصل موسى السامري وما فعله
٤٠	بيان ما كان عليه آدم عليه السلام من الحلم
٤٥	تفسير سورة الأنبياء
٤٨	بيان الفرق بين إلا الاستثنائية والتي بمعنى غير
٥٠	بيان معنى رتق الأرض والسموات وفتحهما
٥٥	بيان ما فعل إبراهيم عليه السلام حين رُمي في النار وما قاله
٥٧	بيان الخصومة التي عرضت على داود وسليمان وحكم كل فيها وبيان الحكم في شريعتنا
٦٤	تفسير سورة الحج
٦٩	بيان الخلاف في جواز بيع دور الحرم وإجارتها وبسط الدليل لكل
٧٢	بيان ما كان يفعله أهل الجاهلية مع المسلمين في ابتداء الأمر
٧٥	بيان الفرق بين النبي والرسول وبيان عدد الأنبياء
٧٦	بيان ما قيل في الغرائق
٨٠	بيان السجدة الثانية من تلك السورة
٨٢	تفسير سورة المؤمنون

- ٨٨ بيان ما في عصا موسى عليه السلام من الآيات
- ٩٢ بيان معنى فساد السموات عند اتباع الحق الأهواء
- ٩٨ تفسير سورة النور
- ٩٩ بيان معنى الإحصان وبيان الخلاف في أن التائب عن القذف تقبل شهادته أم لا ؟
- ١٠٠ بيان أسباب حديث الإفك
- ١٠٣ بيان أن القاذف لأزواج النبي هل له توبة أم لا ؟
- ١٠٤ بيان الأربعة الذين برأهم الله
- ١٠٤ بيان ما يجوز اظهاره للمرأة من زينتها وبدنها
- ١٠٦ بيان الكتابة للأرقاء
- ١٠٧ بيان معنى النور ووجه إطلاقه على الله تعالى
- ١١٠ بيان ما قيل في المطر والسحاب والبرد والثلج
- ١١٧ تفسير سورة الفرقان
- ١٢٢ بيان السبب في إخطاط أعمال الكفار
- ١٢٩ بيان السبب الذي يدعو إلى التوكل
- ١٣٣ تفسير سورة الشعراء
- ١٣٦ بيان أن الواجب تعالى لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية
- ١٤١ بيان أن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب
- ١٤٩ بيان أن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح، ثم منها إلى القلب، ثم منه إلى الدماغ
- ١٥٤ تفسير سورة النمل
- ١٥٦ بيان ما أوتي سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير
- ١٥٧ بيان السبب في تفقد سليمان الطير حتى علم بغياب الهدد
- ١٦١ بيان أن إحصار عرش بلقيس من المعجزات
- ١٦٧ بيان الدابة التي تخرج آخر الزمان تكلم الناس
- ١٧١ تفسير سورة القصص
- ١٧٤ بيان المدينة التي دخلها موسى عليه السلام
- ١٧٥ بيان الشروط التي جرى عقد زواج موسى عليها
- ١٨٣ بيان معنى الاختيار
- ١٨٥ بيان نسب قازون وأسباب حسده

١٨٨	تفسير سورة العنكبوت
١٩٦	بيان معنى المجادلة بالتي هي أحسن
٢٠١	تفسير سورة الروم
٢٠٣	بيان أن آية ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ ، جامعة للصلوات الخمس وبيان فضلها
٢١١	بيان الأسباب التي تقتضي عدم التوكل
٢١٢	تفسير سورة لقمان
٢١٣	بيان نسب لقمان ومعنى الحكمة
٢١٩	تفسير سورة السجدة
٢٢٤	تفسير سورة الأحزاب
٢٢٥	بيان معنى كون ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾
٢٢٦	بيان غزوة الخندق
٢٢٩	بيان غزوة بني قريظة
٢٣٢	بيان زواجه ﷺ زينب بنت جحش
٢٣٧	بيان وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ
٢٤١	تفسير سورة سبأ
٢٤٣	بيان معنى تسبيح الجبال والطير مع داود عليه السلام
٢٤٤	بيان كيفية موت سليمان عليه السلام وما فيه من الآيات
٢٤٤	بيان نسب سبأ ومسكنهم
٢٤٥	بيان ما فعل بسبأ وتخريب ديارهم
٢٥٣	تفسير سورة فاطر ﴿الملائكة﴾
٢٦٣	تفسير سورة يس
٢٦٤	بيان رسل عيسى عليه السلام إلى أنطاكية وما فعلوه
٢٦٧	بيان العذاب الذي فعل بأصحاب القرية

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وضع التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف المثنائي

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي

تأليف

ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد
الشيرازي الشافعي البيضاوي
(ت ٦٩١ هـ)

إعداد وتقديم

محمد عبد الرحمن المرعشلي

الجزء الخامس

طبعة جديدة مصححة ومنقحة وُضِعَ التفسير فيها تحت آيات القرآن
الكريم من المصحف العثماني

مؤسسة التاريخ العربي

دار إحياء التراث العربي

بيروت

تفسير البيضاوي

(٥)

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI

Publishing & Distributing

دار إحياء التراث العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ٧٩٥٧/١١

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

(٣٧) سورة الصافات

مكية وآيها مائة واثنان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمَلَكُ صَفًا﴾ ① ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ ② ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ③

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًا﴾ على مراتب باعتبارها تفيض عليهم الأنوار الإلهية، منتظرين لأمر الله الزاجرين الأجرام العلوية والسفلية بالتدبير المأمور به فيها، أو الناس عن المعاصي بإلهام الخير، أو الشياطين عن التعرض لهم التالين آيات الله وجلالها قدسه على أنبيائه وأوليائه، أو بطوائف الأجرام المرتبة كالصفوف المرصوفة والأرواح المدبرة لها والجواهر القدسية المستغرقة في بحار القدس ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أو بنفوس العلماء الصافين في العبادات الزاجرين عن الكفر والفسوق بالحجج والنصائح التالين آيات الله وشرائعه، أو بنفوس الغزاة الصافين في الجهاد الزاجرين الخيل، أو العدو التالين ذكر الله لا يشغلهم عنه مباراة العدو والعطف لاختلاف الذوات، أو الصفات والفاء لترتيب الوجود كقوله:

يا لهف زبابة للحارث الص - ابح فالغانم فالآيب

فإن الصف كمال والزجر تكميل بالمنع عن الشر، أو الإشاقة إلى قبول الخير والتلاوة إفاضته أو الرتبة كقوله عليه الصلاة والسلام «رحم الله المحلقين فالمقصرين» غير أنه لفضل المتقدم على المتأخر وهذا للعكس، وأدغم أبو عمرو وحمزة التاءات فيما يليها لتقاربها فإنها من طرف اللسان وأصول الثنايا.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ④ ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ ⑤

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسمة والفائدة فيه تعظيم المقسم به وتأکید المقسم عليه ما هو المؤلف في كلامهم، وأما تحقيقه فبقوله تعالى:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ فإن وجودها وانتظامها على الوجه الأكمل مع إمكان غيره دليل على وجود الصانع الحكيم ووحدته على ما مر غير مرة، ﴿ورب﴾ بدل من واحد أو خير ثان أو خير محذوف وما بينهما يتناول أفعال العباد فيدل على أنها من خلقه، و ﴿المشارق﴾ مشارق الكواكب أو مشارق الشمس في السنة وهي ثلاثمائة وستون مشرقاً، تشرق كل يوم في واحد وبحسبها تختلف المغارب، ولذلك اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة وأبلغ في النعمة، وما قيل إنها مائة وثمانون إنما يصح لو لم تختلف أوقات الانتقال.

﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ ⑥ ﴿وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ ⑦

﴿إِنَّا زَيْنًا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا﴾ القريبى منكم. ﴿بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ بزينة هي «الكواكب» والإضافة للبيان، ويعضده قراءة حمزة ويعقوب وحفص بثنوين «زينة» وجر «الكواكب» على إبدالها منه، أو بزينة هي لها

كأضوائها وأوضاعها، أو بأن زينا «الكواكب» فيها على إضافة المصدر إلى المفعول فإنها كما جاءت اسماً كالليقة جاءت مصدراً كالنسبة ويؤيده قراءة أبي بكر بالتنوين، والنصب على الأصل أو بأن زيتها «الكواكب» على إضافته إلى الفاعل وركوز الثوابت في الكرة الثامنة وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينها وبين السماء الدنيا إن تحقق لم يقدح في ذلك، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة متألثة على سطحها الأزرق بأشكال مختلفة.

«وَحِفْظًا» منصوب بإضمار فعله، أو العطف على «زينة» باعتبار المعنى كأنه قال إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء الدنيا وحفظاً. «مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ» خارج من الطاعة يرمي الشهب.

«لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ» (١٠).

«لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى» كلام مبتدأ لبيان حالهم بعد ما حفظ السماء عنهم، ولا يجوز جعله صفة لكل شيطان فإنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون، ولا علة للحفظ على حذف اللام كما في جتتك أن تكرمني ثم حذف أن وإهدرها كقوله:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي

فإن اجتماع ذلك منكر والضمير لـ «كل» باعتبار المعنى، وتعدي السماع بإلى لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة لنفيه وتهريلاً لما يمنعهم عنه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص بالتشديد من التسمع وهو طلب السماع و «الملا الأعلى» الملائكة وأشرافهم. «وَيُقَذَّفُونَ» ويرمون. «مِنْ كُلِّ جَانِبٍ» من جوانب السماء إذا قصبوا صعوده.

«دُحُورًا» علة أي للدحور وهو الطرد، أو مصدر لأنه والقذف متقاربان، أو حال بمعنى مدحورين أو منزوع عنه الباء جمع دحر، وهو ما يطرد به ويقويه القراءة بالفتح وهو يحتمل أيضاً أن يكون مصدراً كالقبول أو صفة له أي قذفاً دحوراً. «وَلَهُمْ عَذَابٌ» أي عذاب آخر. «وَاصِبٌ» دائم أو شديد وهو عذاب الآخرة.

«إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ» استثناء من واو «يسمعون» ومن يدل منه، والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة ولذلك عرف الخطفة، وقرئ «خطف» بالتشديد مفتوح الخاء ومكسروها وأصلها اختطف. «فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ» أتبع بمعنى تبع، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض، وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك إذ ليس فيه ما يدل على أنه ينقض من الفلك ولا في قوله «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين» فإن كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض وزينة للسماء من حيث إنه يرى كأنه على سطحه، ولا يبعد أن يصير الحادث كما ذكر في بعض الأوقات رجماً لشياطين تتصعد إلى قرب الفلك للتسمع، وما روي أن ذلك حدث بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام إن صح فلعل المراد كثرة وقوعه، أو مصيره «دحوراً». واختلف في أن المرجوم يتأذى به فيرجع أو يحترق به لكن قد يصيب الصاعد مرة وقد لا يصيب كالموج لراكب السفينة ولذلك لا يرتدعون عنه رأساً، ولا يقال إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصرف كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها. «ثَاقِبٌ» مضيء كأنه يثقب الجو بضوئه.

«فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۖ» (١١).

«فَاسْتَفْتِهِمْ» فاستخبرهم والضمير لمشركي مكة أو لبني آدم. «أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا» يعني ما ذكر من الملائكة والسماء والأرض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب، و «من» لتغليب

العقلاء ويدل عليه إطلاقه ومجيئه بعد ذلك، وقراءة من قرأ «أم من عددنا»، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ فإنه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم كعاد وشمود، وأن المراد إثبات المعاد ورد استحالته والأمر فيه بالإضافة إليهم وإلى من قبلهم سواء، وتقريره أن استحالة ذلك إما لعدم قابلية المادة ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب الحاصل من ضم الجزء المائي إلى الجزء الأرضي وهما باقيا قابلان للانضمام بعد، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه إما لاعترافهم بحدوث العالم أو بقصة آدم وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه بلا توسط واقعة، فلزمهم أن يجوزوا إعادتهم كذلك، وإما لعدم قدرة الفاعل ومن قدر على خلق هذه الأشياء قدر على ما لا يعتد به بالإضافة إليها سيما ومن ذلك بدوهم أولاً وقدرته ذاتية لا تتغير.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۖ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۖ وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۖ﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى وإنكارهم للبعث. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجبك وتقريرك للبعث، وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء أي بلغ كمال قدرتي وكثرة خلافتي أن تعجبت منها، وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها. أو عجبت من أن ينكر البعث ممن هذه أفعاله وهم يسخرون ممن يجوزه. والعجب من الله تعالى إما على الفرض والتخيل أو على معنى الاستعظام اللازم له فإنه روعة تعري الإنسان عند استعظامه الشيء، وقيل إنه مقدر بالقول أي: قال يا محمد بل عجبت.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا عظوا بشيء لا يتعظون به، أو إذا ذكر لهم ما يدل على صحة الحشر لا يتتبعون به لبلاذتهم وقلة فكرهم.

﴿وَإِنَّا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزة تدل على صدق القائل به. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية ويقولون إنه سحر، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۖ﴾ ﴿أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۖ﴾ ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۖ﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۖ﴾.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا﴾ يعنون ما يرونه. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر سحرته.

﴿أَنَذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ۖ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصله انبعث إذا متنا فبدلوا الفعلية بالاسمية وقدموا الظرف وكرروا الهمزة مبالغة في الإنكار، وإشعاراً بأن البعث مستنكر في نفسه وفي هذه الحالة أشد استنكاراً، فهو أبلغ من قراءة ابن عامر بطرح الهمزة الأولى وقراءة نافع والكسائي ويعقوب بطرح الثانية.

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ عطف على محل ﴿إِنْ﴾ واسمها، أو على الضمير في «مبعوثون» فإنه مفصول منه بهمزة الاستفهام لزيادة الاستبعاد لبعد زمانهم، وسكن نافع برواية قالون وابن عامر الواو على معنى التردد.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكتفى به في الجواب لسبق ما يدل على جوازه وقيام المعجز على صدق المخبر عن وقوعه، وقرئ «قال» أي الله أو الرسول وقرأ الكسائي وحده «نعم» بالكسر وهو لغة فيه.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۖ﴾ ﴿وَقَالُوا يُتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ ۖ﴾ ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۖ﴾.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ جواب شرط مقدر أي إذا كان ذلك فإنما البعثة «زجرة» أي صيحة واحدة،

وهي النسخة الثانية من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها وأمرها في الإعادة كأمر ﴿كُنْ﴾ في الإبداء ولذلك رتب عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فإذا هم قيام من مراقدهم أحياء يصرون، أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ اليوم الذي نجازى بأعمالنا وقد تم به كلامهم وقوله:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَضْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكْذِبُونَ﴾ جواب الملائكة، وقيل هو أيضاً من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء، أو الفرق بين المحسن والمسيء.

﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣).

﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أمر الله للملائكة، أو أمر بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم إلى الموقف. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ وأشباههم عابد الصنم مع عبدة الصنم وعابد الكوكب مع عبدة كقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أو نساءهم اللاتي على دينهم أو قرناءهم من الشياطين. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأصنام وغيرها زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم، وهو عام مخصوص بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ الْآيَةَ، وفيه دليل على أن﴾ الَّذِينَ ظَلَمُوا هم المشركون. ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ فعرفوهم طريقاً ليلسكوها.

﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦).

﴿وَقَفَّوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف. ﴿إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن عقائدهم وأعمالهم والواو لا توجب الترتيب مع جواز أن يكون موقفهم متعدداً.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ لا ينصر بعضكم بعضاً بالتخليص، وهو توبيخ وتقريع.

﴿بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون لعجزهم وانسداد الجيل عليهم، وأصل الاستسلام طلب السلامة أو التسالمون كأنه يسلم بعضهم بعضاً ويخذه.

﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨).

﴿وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني الرؤساء والأنبياء أو الكفرة والقرناء. ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فسر بـ ﴿يَتَخَاصِمُونَ﴾.

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوه وأيمنها، أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبينناكم وهلكنا، مستعار من يمين الإنسان الذي هو أقوى الجانبين وأشرفهما وأنفعهما ولذلك سمي يميناً وتيمن بالسانح، أو عن القوة والقهر فتقسرونا على الضلال، أو عن الحلف فإنهم كانوا يحلفون لهم أنهم على الحق.

﴿قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا

قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَعْوَيْتَكُمْ إِنَّا كَمَا غَوَيْنَ (٣٢).

﴿قَالُوا بَلْ لَرَّ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ﴾ أجابهم الرؤساء أولاً بمنع إضلالهم بأنهم

ضالين في أنفسهم، وثانياً بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه لأنهم كانوا قوماً مختارين الطغيان.

﴿فَعَقَّ عَلَيْنَا قَوْلَ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ ثم بينوا أن ضلال الفريقين ووقوعهم في العذاب كان أمراً مقضياً لا محيص لهم عنه، وأن غاية ما فعلوا بهم أنهم دعوهم إلى الغي لأنهم كانوا على الغي فأحبوا أن يكونوا مثلهم، وفيه إيماء بأن غوايتهم في الحقيقة ليست من قبلهم إذ لو كان كل غواية لإغواء غاو فمن أغواهم.

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿فَأَنذَرْتُهُمْ﴾ فإن الاتباع والمتبعين. ﴿يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشاركين لقوله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمة التوحيد، أو على من يدعوهم إليه.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا كُنَّا نَقُولُ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَئِنَّا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون محمداً عليه الصلاة والسلام.

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ رد عليهم بأن ما جاء به من التوحيد حق قام به البرهان وتطابق عليه

المرسلون.

﴿إِنَّا كُنَّا لَنَذَقُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسل، وقرئ بنصب ﴿العذاب﴾، على تقرير النون

كقوله:

وَلَا ذَاكِرُ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا

وهو ضعيف في غير المحلى باللام وعلى الأصل.

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَهَهُمْ مَّكْرُمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع إلا أن يكون الضمير في ﴿تُجْزَوْنَ﴾ لجميع المكلفين فيكون استثناءهم عنه باعتبار المماثلة، فإن ثوابهم مضاعف والمنقطع أيضاً بهذا الاعتبار.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائصه من الدوام، أو تمحض اللذة ولذلك فسرهُ بقوله:

﴿فَوَاكِهَ﴾ فإن الفاكهة ما يقصد للتلذذ دون التغذية والقوت بالعكس، وأهل الجنة لما أعيدوا على خلقة

محكمة محفوظة عن التحلل كانت أرزاقهم فواكه خالصة. ﴿وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ في نيله يصل إليهم من غير تعب وسؤال كما عليه رزق الدنيا.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ في جنات ليس فيها إلا النعيم، وهو ظرف أو حال من المستكن في ﴿مَكْرُمُونَ﴾،

أو خبر ثان ﴿لأولئك﴾ وكذلك:

﴿عَلَى مُرَرٍ مَّنْقَلِيلٍ﴾ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ يَبَاشَرُهُمُ اللَّذَقَاتُ لِلشَّرْبِ لَئِنْ لَّا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا

هُم عَنْهَا يُتَزَوَّنُونَ ﴿٤٧﴾

﴿عَلَى سُورٍ﴾ يحتمل الحال أو الخبر فيكون: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ حالاً من المستكن فيه أو في ﴿مَكْرُمُونَ﴾، وأن يتعلق بـ ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيكون حالاً من ضمير ﴿مَكْرُمُونَ﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر أو خمر كقوله: وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ. ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ من شراب معين أو نهر معين أي ظاهر للعيون، أو خارج من العيون وهو صفة للماء من عان الماء إذا نبع. وصف به خمر الجنة لأنها تجري كالماء، أو للإشعار بأن ما يكون لهم بمنزلة الشراب جامع لما يطلب من أنواع الأشربة لكمال اللذة، وكذلك قوله:

﴿بَيْضَاءُ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتان لكأس، ووصفها بـ ﴿لَذَّةٍ﴾ إما للمبالغة أو لأنها تأتي لذ بمعنى لذيق كطب ووزنه فعل قال:

وَلَذَّ كَطَعَمِ الصَّرْخِ دِي تَرَكْتُهُ بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ
﴿لَا فِيهَا عَوَلٌ﴾ غائلة كما في خمر الدنيا كالخمار من غاله يغوله إذا أفسده ومنه الغول. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُتَزَوَّنُونَ﴾ يسكرون من نرف الشارب فهو نزيف ومنزوف إذا ذهب عقله، أفرده بالنفي وعطفه على ما يعمه لأنه من عظم فساده كأنه جنس برأسه، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الزاي وتابعهما عاصم في «الواقعة» من أنزف الشارب إذا نفذ عقله أو شرابه، وأصله للنفاد يقال نزف المطعون إذا خرج دمه كله ونزحت الركبة حتى نزفتها.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرَفِ عَيْنٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرَفِ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن. ﴿عَيْنٌ﴾ نجل العيون جمع عيناء. ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ شبههن ببياض النعام المصون عن الغبار ونحوه في الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فإنه أحسن ألوان الأبدان.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتَيْتُكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٢﴾ أَلَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوف على ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يشربون فيتحدثون على الشراب قال:

وَمَا بَقِيََتْ مِنَ اللَّذَاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ
والتعبير عنه بالماضي للتأكيد فيه فإنه ألد تلك اللذات إلى العقل، وتساؤلهم عن المعارف والفضائل وما جرى لهم وعليهم في الدنيا.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ في مكالمتهم. ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليس في الدنيا...

﴿يَقُولُ أَتَيْتُكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ﴾ يوبخني على التصديق بالبعث، وقرىء بتشديد الصاد من التصديق.

﴿أَنْتَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزيون من الدين بمعنى الجزاء.

﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ فَأَطَّلَعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل. ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ﴾ إلى أهل النار لأريكم ذلك القرين، وقيل القائل هو الله أو

بعض الملائكة يقول لهم: هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم؟ وعن أبي عمرو ﴿مطلعون، فاطلع﴾ بالتخفيف وكسر النون وضم الألف على أنه جعل اطلاعهم سبب اطلاعه من حيث أن أدب المجالسة يمنع الاستبداد به، أو خاطب الملائكة على وضع المتصل موضع المنفصل كقوله:

هُمَ الْأَمْرُونَ الْخَيْرَ وَالْفَاعِلُونَ

أو شبه اسم الفاعل بالمضارع.

﴿فَاطْلَعُ﴾ عليهم. ﴿قَرَأَ﴾ أي قرينه. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَتُرْدِينَ﴾ لتهلكني بالإغواء، وقرئ «لتغوين» و ﴿إِنْ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهداية والعصمة. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ معك فيها. ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطف على محذوف أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين، أي بمن شأنه الموت وقرئ «بماتين».

﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى﴾ التي كانت في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال، ونصبها على المصدر من اسم الفاعل. وقيل على الاستثناء المنقطع. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفار، وذلك تمام كلامه لقرينه تقرّباً له أو معاودة إلى مكالمته جلسائه تحدثاً بنعمة الله، أو تبجحاً بها وتعجباً منها وتعرضاً للقرين بالتوبيخ.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يحتمل أن يكون من كلامهم وأن يكون كلام الله لتقرير قوله والإشارة إلى ما هم عليه من النعمة والخلود والأمن من العذاب.

﴿لِيُمِثِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ أي لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون لا للحفظ الدنيوية المشوبة بالآلام السريعة الانصرام، وهو أيضاً يحتمل الأمرين.

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ زُهُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ﴾ شجرة ثمرها نزل أهل النار، وانتصاب ﴿نَزْلاً﴾ على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأنفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار، وهو: اسم شجرة صغيرة الورق دفر مرة تكون بتهامة سميت به الشجرة الموصوفة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ محنة وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاء في الدنيا فإنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك والنار تحرق الشجر، ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ منبتها في قعر جهنم وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.
 ﴿طَلْعُهَا﴾ حملها مستعار من طلع التمر لمشاركته إياه في الشكل، أو الطلوع من الشجر. ﴿كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ﴾ في تنامي القبح والهول، وهو تشبيه بالمتخيل كتشبيه الفائق الحسن بالملك. وقيل ﴿الشَّيَاطِينِ﴾ حيات هائلة قيحة المنظر لها أعراف، ولعلها سميت بها لذلك.
 ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْلُونُ مِنْهَا﴾ من الشجرة أو من طلوعها. ﴿فَمَا لَثَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونُ﴾ لغلبة الجوع أو الجبر على أكلها.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوًّا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٧٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم، ويجوز أن يكون ثم لما في شرايبهم من مزيد الكراهة والبشاعة. ﴿لَشَوًّا مِنْ حَمِيمٍ﴾ لشراباً من غساق، أو صديد مشوباً بماء حميم يقطع أمعاءهم، وقرىء بالضم وهو اسم ما يشاب به والأول مصدر سمي به.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم. ﴿إِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتها أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نزل يقدم إليهم قبل دخولهم، وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرِمُونَ يَظُنُّونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً﴾ يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم، ويؤيده أنه قرىء «ثم إن منقلبهم».

﴿إِنَّهُمْ أَلقُوا آبَاءَهُمْ ذَالِينَ ﴿٧٦﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ صَلَ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٧٩﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلقُوا آبَاءَهُمْ ذَالِينَ﴾ ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليل لاستحقاقهم تلك الشدائد بتقليد الآباء في الضلال، والإهراع: الإسراع الشديد كأنهم يزعجون على الإسراع على «آثارهم»، وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى ذلك من غير توقف على نظر وبحث.

﴿وَلَقَدْ صَلَ قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أنبياء أنذروهم من العواقب.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ من الشدة والفضاعة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبهوا بإنذارهم فأخلصوا دينهم لله، وقرىء بالفتح أي الذين أخلصهم الله لدينه والخطاب مع الرسول ﷺ، والمقصود خطاب قومه فإنهم أيضاً سمعوا أخبارهم ورأوا آثارهم.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْسَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا قَابِيقًا ﴿٧٧﴾ وَرَكَّنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا﴾ شروع في تفصيل القصص بعد إجمالها، أي ولقد دعانا حين أيس من قومه. ﴿فَلَيْسَ الْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبنه أحسن الإجابة فوالله لنعم المجيبون نحن، فحذف منها ما حذف لقيام ما يدل عليه.
 ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من الغرق أو أذى قومه.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ إذ هلك من عداهم وبقوا متناسلين إلى يوم القيامة، إذ روي أنه مات كل من كان معه في السفينة غير بنيه وأزواجهم.
﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ من الأمم.

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ﴾ هذا الكلام جيء به على الحكاية والمعنى يسلمون عليه تسليماً. وقيل هو سلام من الله عليه ومفعول ﴿تركنا﴾ محذوف مثل الشاء. ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبوت هذه النحية في الملائكة والتقلين جميعاً.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فعل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصاله أمره.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ يعني كفار قومه.

﴿وَاتَّكَ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿وَاتَّكَ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ ممن شايعه في الإيمان وأصول الشريعة. ﴿لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ولا يبعد اتفاق شرعهما في الفروع أو غالباً، وكان بينهما ألفان وستمئة وأربعون سنة، وكان بينهما نبيان هود وصالح.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ﴾ متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة أو بمحذوف هو اذكر. ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفات القلوب أو من العلائق خالص لله أو مخلص له، وقيل حزين من السليم بمعنى اللديغ. ومعنى المجيء به ربه: إخلاصه له كأنه جاء به متحفاً إياه.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لـ ﴿جاء﴾ أو ﴿سليم﴾.

﴿أَفَبِكُمْ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون آلهة دون الله إفاً مقدم المفعول للعناية ثم المفعول له لأن الأهم أن يقرر أنهم على الباطل ومبنى أمرهم على الإفاك، ويجوز أن يكون إفاً مفعولاً به و ﴿آلهة﴾ بدل منه على أنها إفاك في نفسها للمبالغة، أو المراد بها عبادتها بحذف المضاف أو حالاً بمعنى أفكين.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين حتى تركتم عبادته، أو أشركتم به غيره أو أمنتهم من عذابه، والمعنى إنكار ما يوجب ظناً فضلاً عن قطع يصد عن عبادته، أو يجوز الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام وهو كالحجة على ما قبله.

﴿فَنَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

﴿فَنَنْظُرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فرأى مواقعها واتصالاتها، أو في علمها أو في كتابها، ولا منع منه مع أن قصده إيهامهم وذلك حين سألوه أن يعبد معهم.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراهم أنه استدل بها لأنهم كانوا منجمين على أنه مشارف للسقم لثلا يخرجه إلى معبدهم، فإنه كان أغلب أسقامهم الطاعون وكانوا يخافون العدوى، أو أراد إني سقيم القلب لكفركم، أو خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه أو بصدد الموت ومنه المثل: كفى بالسلامة داء، وقول لبيد:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصَحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ
﴿فَقُولُوا عَنَّا مُذِيرِينَ﴾ هاربين مخافة العدو.

﴿فَرَاغَ إِلَهُ الْهَيْمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَهُ الْهَيْمِ﴾ فذهب إليها في خفية من روعة الثعلب وأصله الميل بحيلة. ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنام استهزاء. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان عندهم. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ بجوابي.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمال عليهم مستخفياً، والتعدي بعلی للاستعلاء وإن الميل لمكروه. ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ مصدر «لراغ عليهم» لأنه في معنى ضربهم، أو لمضمر تقديره فراغ عليهم يضربهم وتقبيده باليمين للدلالة على قوته فإن قوة الآلة تستدعي قوة الفعل، وقيل «باليمين» بسبب الحلف وهو قوله: ﴿تَاللَّهِ لَا كِيدَنَ أَصْنَامُكُمْ﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ﴾ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعدما رجعوا فأروا أصنامهم مكسرة وبحشوا عن كاسرها فظنوا أنه هو كما شرحه في قوله: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ الآية. ﴿يَزِفُونَ﴾ يسرعون من زيف النعام. وقرى حمزة على بناء المفعول من أزفه أي يحملون على الزيف. وقرى «يزفون» أي يزف بعضهم بعضاً، و«يزفون» من وزف يزف إذا أسرع و«يزفون» من زفاه إذا حداه كان بعضهم يزفو بعضاً لتسارعهم إليه ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإن جوهرها بخلقها وشكلها وإن كان بفعلهم، ولذلك جعل من أعمالهم فيقدره إياهم عليه وخلقهم ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد، أو عملكم بمعنى معمولكم ليطابق ما تنحتون، أو أنه بمعنى الحدث فإن فعلهم إذا كان بخلق الله تعالى فيهم كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك، وبهذا المعنى تمسك أصحابنا على خلق الأعمال ولهم أن يرجحوه على الأولين لما فيهما من حذف أو مجاز.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدة من الجحمة وهي شدة التاجع، واللام بدل الإضافة أي جحيم ذلك البنيان.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ فإنه لما قهرهم بالحجة قصدوا تعذيبه بذلك لئلا يظهر للعامة عجزهم. ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ الأدلين بإبطال كيدهم وجعله برهاناً نيراً على علو شأنه، حيث جعل النار عليه برداً وسلاماً.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْتَهُ يَقُولُ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني ربي وهو الشام، أو حيث أتجرد فيه لعبادته. ﴿سَيِّدِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ديني أو إلى مقصدي، وإنما بت القول لسبق وعده أو لفرط توكله، أو البناء على عادته معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه الصلاة والسلام حين ﴿قَالَ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ فلذلك ذكر بصيغة التوقع.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة، يعني الولد لأن لفظ الهبة غالب فيه ولقوله:

﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ بشره بالولد وبأنه ذكر يبلغ أو ان الحلم، فإن الصبي لا يوصف بالحلم ويكون حليماً وأي حلم مثل حكمه حين عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق فقال ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. وقيل ما نعت الله نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالهما المذكورة بعد تشهد عليه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَىٰ قَالَ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّنَىٰ﴾ أي فلما وجد وبلغ أن يسعى معه في أعماله، و ﴿معه﴾ متعلق بمحذوف دل عليه ﴿السعي﴾ لا به لأن صلة المصدر لا تتقدمه ولا بـ ﴿بلغ﴾ فإن بلوغهما لم يكن معاً كأنه لما قال: ﴿فلما بلغ السني﴾ فقليل مع من قليل ﴿معه﴾، وتخصيصه لأن الأب أكمل في الرفق والاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه، أو لأنه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ﴾ وقرأ حفص بفتح الياء. ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أنه رأى ذلك وأنه رأى ما هو تعبيره، وقيل إنه رأى ليلة التروية أن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك، فلما أصبح روى أنه من الله أو من الشيطان، فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره وقال له ذلك، ولهذا سميت الأيام الثلاثة بالتروية وعرفة والنحر، والأظهر أن المخاطب إسماعيل عليه السلام لأنه الذي وهب له أثر الهجرة ولأن البشارة بإسحاق بعد معطوفة على البشارة بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابن الذبيحين». فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله، فإن جده عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل الله له حفر زمزم أو بلغ بنوه عشرة، فلما سهل أقرع فخرج السهم على عبد الله ففداه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة ولأن ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا معها في أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة ولأن البشارة بإسحاق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبها الأمر بذبحه مراهقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل أي النسب أشرف فقال: يوسف صديق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن خليل الله؛ فالصحيح أنه قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» والزوائد من الراوي. وما روي أن يعقوب كتب إلى يوسف مثل ذلك لم يثبت. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء فيهما. ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ من الرأي، وإنما شاوره فيه وهو حتم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله فيثبت قدمه إن جزع، ويأمن عليه إن سلم وليوطن نفسه عليه فيهن ويكتسب المثوبة بالانقياد له قبل نزوله، وقرأ حمزة والكسائي ﴿مَاذَا تَرَىٰ﴾ بضم التاء وكسر الراء خالصة، والباقون بفتحهما وأبو عمرو يميل فتحة الراء وورش بين بين والباقون بإخلاص فتحها. ﴿قَالَ يَا أَبَتِ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاء. ﴿أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي ما تؤمر به فحذفا دفعة، أو على الترتيب كما عرفت أو أمرك على إرادة المأمور به والإضافة إلى المأمور، أو لعله فهم من كلامه أنه رأى أنه يذبحه مأموراً به، أو علم أن رؤيا الأنبياء حق وأن مثل ذلك لا يقدمون عليه إلا بأمر، ولعل الأمر به في المنام دون اليقظة لتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص، وإنما ذكر بلفظ المضارع لتكرار الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ على الذبح أو على قضاء الله، وقرأ نافع بفتح الياء.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ استسلما لأمر الله أو سلما الذبيح نفسه وإبراهيم ابنه، وقد قرئ بهما وأصلها سلم هذا لفلان إذا خلص له فإنه سلم من أن ينازع فيه. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ صرعه على شقه فوق جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة. وقيل كبه على وجهه بإشارته لثلا يرى فيه تغييراً يرق له فلا يذبحه، وكان ذلك عند الصخرة بمنى أو في الموضع المشرف على مسجده، أو المنحر الذي ينحر فيه اليوم.

﴿وَلَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَابِرَهُ ۖ ﴿١١٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۖ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾﴾

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ بالعزم والإتيان بالمقدمات. وقد روي أنه أمر السكين بقوته على حلقة مراراً فلم تقطع، وجواب «لما» محذوف تقديره كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال، من استبشارهما وشكرهما لله تعالى على ما أنعم عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق بما لم يوفق غيرهما لمثله، وإظهار فضلهما به على العالمين مع إحراز الثواب العظيم إلى غير ذلك. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لإفراج تلك الشدة عنهما بإحسانهما، واحتج به من جوز النسخ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبح لقوله ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يحصل.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ الابتلاء البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره، أو المحنة البينة الصعوبة فإنه لا أصعب منها.

﴿وَلَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَلَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيم الجثة سمين، أو عظيم القدر لأنه يفدي به الله نبياً ابن نبي وأي نبي من نسله سيد المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنة. وقيل وعلاً أهبط عليه من ثبير. وروي أنه هرب منه عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فصارت سنة، والفادي على الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وإنما قال ولدناه لأن الله المعطي له والأمر به على التجوز في القداء أو الإسناد، واستدل به الحنفية على أن من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة وليس فيه ما يدل عليه.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصة نوح عليه السلام. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ لعله طرح عنه إنا اكتفاء بذكره مرة في هذه القصة.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ مقضياً نبوته مقدراً كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة إلى وجود المبشر به وقت البشارة، فإن وجود ذي الحال غير شرط بل الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار المعنى بالحال، فلا حاجة إلى تقدير مضاف يجعل عاملاً فيهما مثلاً و ﴿بَشَّرْنَاهُ﴾ بوجود إسحاق أي بأن يوجد إسحاق نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصير نظير قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ فإن الداخلين مقدرون خلودهم وقت الدخول وإسحاق لم يكن مقدراً نبوة نفسه صلاحها حينما يوجد، ومن فسر الذبيح بإسحاق جعل المقصود من البشارة نبوته، وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وإيماء بأنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده. ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب، أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا، وقرىء «وبركنا». ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسه بالإيمان والطاعة. ﴿وَوَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفي ذلك تنبيه على أن النسب لا أثر له في الهدى والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يعود عليهما بنقيصة وعيب.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٤﴾ وَبَيَّنَّاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمَا

فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾

﴿وَلَقَدْ مَتَّأ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدينية.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ من تغلب فرعون أو الفرق.

﴿وَنَضَرْنَاهُمْ﴾ ثم الضمير لهما مع القوم. ﴿فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ على فرعون وقومه.

﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ البليغ في بيانه وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريق الموصل إلى الحق والصواب.

﴿وَوَرَّكُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٩﴾

﴿وَوَرَّكُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثل ذلك.

﴿وَإِنَّ إِلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴿١٢٦﴾

﴿وَإِنَّ إِلَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياس بن ياسين سبط هرون أخي موسى بعث بعده. وقيل إدريس لأنه

قرىء إدريس وإدراش مكانه وفي حرف أبي رضي الله عنه. «وإن إليس» وقرأ ابن ذكوان مع خلاف عنه بحذف همزة إلياس.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله.

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أطلبون الخير منه، وهو اسم صنم كان لأهل بك من الشام وهو البلد الذي

يقال له الآن بعلبك وقيل البعل الرب بلغة اليمن، والمعنى أتدعون بعض البعول. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

وتتركون عبادته، وقد أشار فيه إلى المقتضى للإنكار المعني بالهمزة ثم صرح به بقوله:

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وحفص بالنصب على البدل.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ﴾ أي في العذاب، وإنما أطلقه اكتفاء منه بالقرينة، أو لأن الإحضار المطلق

مخصوص بالشر عرفاً.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواو لا من المحضرين لفساد المعنى.

﴿وَوَرَّكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَى إِيَّاسَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾

﴿وَوَرَّكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

﴿سَلَامٌ عَلَى إِيَّاسَ﴾ لغة في إلياس كسيناء وسينين، وقيل جمع له مراد به هو وأتباعه كالمهلبين،

لكن فيه أن العلم إذا جمع يجب تعريفه باللام أو للمنسوب إليه بحذف ياء النسب كالأعجميين وهو قليل

ملبس، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب على إضافة «إل» إلى «ياسين» لأنهما في المصحف مفصولان فيكون

«ياسين» أبا «إلياس»، وقيل محمد عليه الصلاة والسلام أو القرآن أو غيره من كتب الله والكل لا يناسب

نظم سائر القصص ولا قوله:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ الظاهر أن الضمير لإلياس.

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ ﴿وَلِئَلَّا لَتَمُرُّنَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿وَبِالْأَيْلَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾.

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ سبق بيانه.

﴿وَأَنكُمْ﴾ يا أهل مكة. ﴿لَتَمُرُّنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على منازلهم في متاجرهم إلى الشام فإن سدوم في طريقه. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿وَبِالْأَيْلَ﴾ أي ومساء أو نهراً وليلاً، ولعلها وقعت قريب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحاً والقاصد لها مساء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقل تعتبرون به.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقرئ بكسر النون.

﴿إِذْ أَتَى﴾ هرب، وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه حسن إطلاقه عليه. ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء.

﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارع أهله. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبين بالقرعة، وأصله المزلق عن مقام الظفر. روي أنه لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله، فركب السفينة فوقفت فقالوا: ها هنا عهد أبى فاقترعوا فخرجت القرعة عليه، فقال أنا الأبق ورمى بنفسه في الماء.

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ فابتلعه من اللقمة. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخل في الملامة، أو آت بما يلام عليها أو مليم نفسه، وقرئ بالفتح مبنياً من ليم كمشيب في مشوب.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح مدة عمره، أو في بطن الحوت وهو قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقيل من المصلين.

﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيل ميتاً، وفيه حث على إكثار الذكر وتعظيم لشأنه، ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء.

﴿فَتَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿فَتَأْمَرُوا فَمَتَّعْنَاهُمُ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿١٤١﴾.

﴿فَتَبَدَّلْنَاهُ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه. ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبت. روي أن الحوت سار مع السفينة رافعاً رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح حتى انتهوا إلى البر فلفظه، واختلف في مدة لبثه فقيل بعض يوم وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة، وقيل عشرون وقيل أربعون. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما ناله قيل صار بدنه كبذن الطفل حين يولد.

﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ﴾ أي فوقه مظلة عليه. ﴿شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ من شجر ينسبط على وجه الأرض ولا يقوم

على ساقه، يفعل من قطن بالمكان إذا أقام به، والأكثر على أنها كانت الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فإنه لا يقع عليه، ويدل عليه أنه قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس». وقيل التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ﴾ هم قومه الذين هرب عنهم وهم أهل نينوى، والمراد به ما سبق من إرساله أو إرسال ثان إليهم أو إلى غيرهم. ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر أي إذا نظر إليهم، قال هم مائة ألف أو يزيدون والمراد الوصف بالكثرة وقرئ بالواو.

﴿فَأَمَّاؤُا﴾ فصدقوه أو فجددوا الإيمان به بمحضره. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ إلى أجلهم المسمى، ولعله إنما لم يختم قصته وقصة لوط بما ختم به سائر القصص تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع الكبير وأولي العزم من الرسل، أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة.

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْيَاكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ (١٤٩) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ (١٥١) ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٥٢).

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ إِرْيَاكَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾ معطوف على مثله، في أول السورة أمر رسوله أولاً باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث، وساق الكلام في تقريره جاراً لما يلائمه من القصص موصولاً بعضها ببعض، ثم أمر باستفتائهم عن وجه القسمة حيث جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين في قولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالات أخرى، التجسيم وتجويز الفناء على الله تعالى، فإن الولادة مخصوصة بالأجسام الكائنة الفاسدة، وتفضيل أنفسهم عليه حيث جعلوا أوضاع الجنسين له وأرفعهما لهم، واستهانتهم بالملائكة حيث أنشؤهم ولذلك كرر الله تعالى إنكار ذلك وإبطاله في كتابه مراراً، وجعله مما «تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً»، والإنكار ما هنا مقصور على الأخيرين لاختصاص هذه الطائفة بهما، أو لأن فسادهما مما تدركه العامة بمقتضى طباعهم حيث جعل المعادل للاستفهام عن التقسيم.

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ وإنما خص علم المشاهدة لأن أمثال ذلك لا تعلم إلا بها، فإن الأنوثة ليست من لوازم ذاتهم لتمكن معرفته بالعقل الصرف مع ما فيه من الاستهزاء، والإشعار بأنهم لفرط جهلهم يبتون به كأنهم قد شاهدوا خلقهم.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ لعدم ما يقتضيه وقيام ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به، وقرئ «ولد الله» أي الملائكة ولده، فعل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأَنذَرْنَا يُكذِّبُكَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٥٧).

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد، والاصطفاء أخذ صفوة الشيء، وعن نافع كسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام لدلالة أم بعدها عليها أو على الإثبات بإضمار القول أي: لكاذبون في قولهم اصطفى، أو إبداله من «ولد الله».

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيه عقل.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزه عن ذلك.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته.

﴿قَاتُوا بِكُتَابِكُمْ﴾ الذي أنزل عليكم. ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني الملائكة ذكرهم باسم جنسهم وضعا منهم أن يبلغوا هذه المرتبة، وقيل قالوا إن الله تعالى صاهر الجن فخرجت الملائكة، وقيل قالوا الله والشياطين إخوان. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إن الكفرة أو الإنس والجن إن فسرت بغير الملائكة ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذاب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والنسب.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من المحضرين منقطع، أو متصل إن فسر الضمير بما يعمهم وما بينهما اعتراض أو من ﴿يصفون﴾.

﴿فَالْتَكِرْ وَمَا كُنْتُم بِتَعْبُدُونَ﴾ مَا أَنتَر عَلَيْهِ يَفْقَهُنَّ ﴿١٦١﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٢﴾.

﴿فَالْتَكِرْ وَمَا كُنْتُم بِتَعْبُدُونَ﴾ عود إلى خطابهم.

﴿مَا أَنتُم عَلَيْهِ﴾ على الله. ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ مفسدين الناس بالإغواء.

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ إلا من سبق في علمه أنه من أهل النار ويصلاها لا محالة، ﴿وَأَنْتُمْ﴾ ضمير لهم ولآلهتهم غلب فيه المخاطب على الغائب، ويجوز أن يكون ﴿وما تعبدون﴾ لما فيه من معنى المقارنة ساداً مسد الخبر أي إنكم وآلهتكم قرناء لا تزالون تعبدونها، ما أنتم على ما تعبدونه بفاتنين يباعثين على طريق الفتنة إلا ضالاً مستوجبا للنار مثلكم، وقرئ «صال» بالضم على أنه جمع محمول على معنى من ساقط واوه لالتقاء الساكنين، أو تخفيف صائل على القلب كشاك في شاك، أو المحذوف منه كالمنسي كما في قولهم: ما باليت به بالة، فإن أصلها بالية كعافية.

﴿وَمَا مِثْلًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٤﴾.

﴿وَمَا مِثْلًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ حكاية اعتراف الملائكة بالعبودية للرد على عبدتهم والمعنى: وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاى إلى أمر الله في تدبير العالم، ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله ﴿سبحان الله﴾ من كلامهم ليتصل بقوله: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ كأنه قال ولقد علمت الملائكة أن المشركين معذبون بذلك وقالوا ﴿سبحان الله﴾ تنزيهاً له عنه، ثم استثنوا ﴿المخلصين﴾ تبرة لهم منه، ثم خاطبوا المشركين بأن الافتتان بذلك للشقاوة المقدرة، ثم اعترفوا بالعبودية وتفاوت مراتبهم فيه لا يتجاوزونها فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازل الخدمة.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزهون الله عما لا يليق به، ولعل الأول إشارة إلى درجاتهم في الطاعة وهذا في المعارف، وما في إن واللام وتوسط الفصل من التأكيد والاختصاص لأنهم المواطنون على ذلك دائماً من غير فترة دون غيرهم. وقيل هو من كلام النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين والمعنى: وما منا إلا له مقام معلوم في الجنة أو بين يدي الله يوم القيامة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ له في الصلاة والمنزهون له عن السوء.

﴿وَإِنْ كَانُوا يَقُولُوا﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٥﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٦﴾ فَكَفَرُوا بِهِمْ سَوَفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ﴾ أي مشركو قريش.

﴿لَوْ أَنَّ جُنْدَنَا ذُكِّرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلت عليهم.

﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصنا العبادة له ولم نخالف مثلهم.

﴿فَكْفَرُوا بِهِ﴾ أي لما جاءهم الذكر الذي هو أشرف الأذكار والمهيمن عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة

كفرهم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١٧٤) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٥).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم النصر والغلبة وهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ

الْمَنْصُورُونَ﴾.

﴿وَإِنْ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ وهو باعتبار الغالب والمقضى بالذات، وإنما سماه كلمة وهي كلمات

لانتظامهم في معنى واحد.

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعد لنصرهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حيثئذ والمراد بالأمر بالدلالة على أن ذلك كائن قريب كأنه قدامه. ﴿فَسَوْفَ

يُبْصِرُونَ﴾ ما قضينا لك من التأييد والنصرة والثواب في الآخرة، و«سوف» للوعيد لا للتبديد.

﴿أَفَعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٧٧) ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١٧٨) ﴿وَأَبْصِرْ﴾

﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ (١٧٩).

﴿أَفَعَدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا متى هذا فنزلت.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ﴾ فإذا نزل العذاب بفنائهم، شبهه بجيش مجهم فأناخ بفنائهم بغته، وقيل الرسول

وقريء ﴿نَزَلَ﴾ على إسناده إلى الجار والمجرور و ﴿نَزَلَ﴾ أي العذاب. ﴿فَسَاءَ الْمُنْذِرِينَ﴾ فبئس صباح

المنذرين صباحهم، واللام للجنس والـ ﴿صباح﴾ مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، ولما

كثر فيهم الهجوم والغارة في الصباح سموا الغارة صباحاً وإن وقعت في وقت آخر.

﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد إلى تأكيد وإطلاق بعد تقييد للإشعار بأنه

يبصر وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أصناف المسرة وأنواع المساءة، أو الأول لعذاب الدنيا والثاني

لعذاب الآخرة.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَلِلَّهِ رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿١٨٢﴾.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركون فيه على ما حكى في السورة، وإضافة الرب

إلى العزة لاختصاصها به إذ لا عزة إلا له أو لمن أعزه، وقد أدرج فيه جملة صفاته السلبية والاثبتية مع

الإشعار بالتوحيد.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ تعميم للرسل بالتسليم بعد تخصيص بعضهم.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على ما أفاض عليهم وعلى من اتبعهم من النعم وحسن العاقبة ولذلك

آخره عن التسليم، والمراد تعليم المؤمنين كيف يحمدونه ويسلمون على رسله. وعن علي رضي الله عنه: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه من مجلسه: سبحان ربك إلى آخر السورة.

وعن النبي ﷺ «من قرأ «والصافات» أُعْطِيَ من الأجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان، وتباعدت عنه مردة الجن والشياطين، وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلين».

سورة ص

مكية وآياتها ست أو ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾

﴿صَ﴾ وقرئ بالكسر لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أمر من المصاداة بمعنى المعارضة، ومنه الصدى فإنه يعارض الصوت الأول أي عارض القرآن بعملك، وبالفتح لذلك أو لحذف حرف القسم وإيصال فعله إليه، أو إضماره والفتح في موضع الجبر فإنها غير مصروفة لأنها علم السورة وبالجبر والتنوين على تأويل الكتاب. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم إن جعل ﴿صَ﴾ اسماً للحرف أو مذكوراً للتحدي، أو للرمز بكلام مثل صدق محمد عليه الصلاة والسلام، أو للسورة خبر المحذوف أو لفظ الأمر، وللعطف إن جعل مقسماً به. كقولهم: الله لأفعلن بالجبر والجواب محذوف دل عليه ما في ﴿صَ﴾ من الدلالة على التحدي، أو الأمر بالمعادلة أي إنه لمعجز أو لواجب العمل به، أو إن محمداً لصديق أو قوله:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ به. ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أي استكبار عن الحق. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلاف لله ورسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأولين الإضراب أيضاً من الجواب المقدر ولكن من حيث إشعاره بذلك والمراد بالذكر العظة أو الشرف والشهرة، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من العقائد والشرائع والمواعيد، والتذكير في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ للدلالة على شدتهما، وقرئ في «غرة» أي غفلة عما يجب عليهم النظر فيه.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَنَادُوا ذَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ وعيد لهم على كفرهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿مَنَادُوا﴾ استغاثة أو توبة أو استغفاراً. ﴿ذَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليس الحين حين مناص، ولا هي المشبهة بليس زیدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زیدت على رب وثم، وخصت بلزوم الأحيان وحذف أحد المعمولين، وقيل هي النافية للجنس أي ولا حين مناص لهم، وقيل للفعل والنصب بإضماره أي ولا أرى حين مناص، وقرئ بالرفع على أنه اسم لا أو مبتدأ محذوف الخبر أي ليس حين مناص حاصل لهم، أو لا حين مناص كائن لهم وبالكسر كقوله:

طَلَبُوا صُلْحًا ذَلَّاتٍ أَوَانٌ فَأَجْبَيْنَا أَنْ لَا تَحِينَ بَقَاءً

إما لأن لات تجر الأحيان كما أن لولا تجر الضمائر في قوله: لَوْلَاكَ هَذَا الْعَامُ لَمْ أَخْجِجْ، أو لأن أوان شبه باذ لأنه مقطوع عن الإضافة إذ أصله أوان صلح، ثم حمل عليه ﴿مَنَاصٍ﴾ تنزيلاً لما أضيف إليه الظرف منزلة لما بينهما من الاتحاد، إذ أصله يحن مناصهم ثم بنى الحين لإضافته إلى غير متمكن ﴿ذَلَّاتٍ﴾ بالكسر كجبر، وتقف الكوفية عليها بالهاء كالأسماء والبصرية بالتاء كالأفعال. وقيل إن التاء مزيدة على حين لاتصالها به في الامام ولا يرد عليه أن خط المصحف خارج عن القياس إذ مثله لم يعهد فيه، والأصل اعتباره إلا فيما خصه الدليل ولقوله:

وَالْمَطْعَمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مَطْعَمٍ
وَالْمَنَاصِ الْمَنَجَا مِنْ نَاصِهِ يَنُوصُهُ إِذَا فَاتَهُ .

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (١) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ .

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ بشر مثلهم أو أمي من عدادهم . ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وذماً لهم، وإشعاراً بأن كفرهم جسرهم على هذا القول . ﴿هَذَا سَاحِرٌ﴾ فيما يظهره معجزة . ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على الله تعالى .

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بأن جعل الألوهية التي كانت لهم لواحد . ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغ في العجب فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، وقرىء مشدداً وهو أبلغ ككرام وكرام . وروي أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش، فأتوا أبا طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وإنا جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فاستحضر رسول الله ﷺ وقال: هؤلاء قومك يسألونك سواء فلا تمل كل الميل عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ماذا يسألونني، فقالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهمنا وتدعك وإلهك، فقال: «أرايتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم»، فقالوا: نعم وعشراً، فقال: «قولوا لا إله إلا الله»، فقاموا وقالوا ذلك .

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا بِأَحْسَنِ الظَّنِّ مِنْ هَذَا لَشَيْءٍ يُرَادُ﴾ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ .

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله ﷺ . ﴿أَنْ آمَنُوا﴾ قائلين بعضهم لبعض «امشوا» . ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ واثبتوا . ﴿عَلَى آلِهِمْ كُفْرَهُمْ﴾ على عبادتها فلا ينفعكم مكالمتها، و ﴿أَنْ﴾ هي المفسرة لأن الانطلاق عن مجلس التقاؤل يشعر بالقول . وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول، و «امشوا» من مشت المرأة إذا كثرت أولادها ومنه الماشية أي اجتمعوا، وقرىء بغير ﴿أَنْ﴾ وقرىء «يمشون أن اصبروا» . ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له، أو أن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة، والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى أو يريده كل أحد، أو أن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم .

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ بالذي يقوله . ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، أو في ملة عيسى عليه الصلاة والسلام التي هي آخر الملل فإن النصارى يثلثون . ويجوز أن يكون حالاً من هذا أي ما سمعنا من أهل الكتاب ولا الكهان بالتوحيد كائناً في الملة المترتبة . ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ كذب اختلقه .

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ﴾ (٨) أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ .

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ إنكار لاختصاصه بالوحي وهو مثلهم أو أدون منهم في الشرف والرئاسة كقولهم «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وأمثال ذلك دليل على أن مبدأ تكذيبهم لم يحس إلا الحسد وقصور النظر على الحطام الدنيوي . ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى

التقليد وإعراضهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبتون به من قولهم ﴿هَذَا سَاحِرُ كَذَابٍ﴾ ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾. ﴿بَلْ لَّمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ﴾ بل لم يذوقوا عذابي بعد فإذا ذاقوه زال شكهم، والمعنى أنهم لا يصدقون به حتى يمسه العذاب فيلجئهم إلى تصديقه.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ بل أعندهم خزائن رحمته وفي تصرفهم حتى يصيبوا بها من شأوا ويصرفوها عن شأوا فيتخير للنوبة بعض صناديدهم، والمعنى أن النبوة عطية من الله يتفضل بها على من يشاء من عباده لا مانع له فإنه العزيز أي الغالب الذي لا يغلب، الوهاب الذي له أن يهب كل ما يشاء لمن يشاء، ثم رشح ذلك فقال:

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرف في نبوته بأن ليس عندهم خزائن رحمته التي لا نهاية لها، أردف ذلك بأنه ليس لهم مدخل في أمر هذا العالم الجسماني الذي هو جزء يسير من خزائنه فمن أين لهم أن يتصرفوا فيها. ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ جواب شرط محذوف أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في المعارج التي يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم، فينزّلوا الوحي إلى من يستصوبون. وهو غاية التهكم بهم، والسبب في الأصل هو الوصلة، وقيل المراد بالأسباب السموات لأنها أسباب الحوادث السفلية.

﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل ﴿مَهْزُومٌ﴾ مكسور عما قريب فمن أين لهم التدابير الإلهية والتصرف في الأمور الربانية، أو فلا تكثر بما يقولون و ﴿مَا﴾ مزيدة للتقليل كقولك أكلت شيئاً ما، وقيل للتعظيم على الهزء وهو لا يلائم ما بعده، وهنالك إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل هذا القول.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾. ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذو الملك الثابت بالأوتاد كقوله:

وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مَلِكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

مأخوذ من ثبات البيت المطنب بأوتاده، أو ذو الجموع الكثيرة سموا بذلك لأن بعضهم يشد بعضاً كالوتد يشد البناء. وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدي المعذب ورجليه إليها ويضرب عليها أوتاداً ويتركه حتى يموت.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وأصحاب الغيضة وهم قوم شعيب، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «ليكة». ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبين على الرسل الذين جعل الجند المهزوم منهم.

﴿إِنْ كُلُّ كَذَبَ الرُّسُلِ﴾ بيان لما أسند إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمل على أنواع من التأكيد ليكون تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رتب عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وهو إما مقابلة الجمع بالجمع أو جعل تكذيب الواحد منهم تكذيب جميعهم.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦).

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ﴾ وما ينتظر قومك أو الأحزاب فإنهم كالحضور لاستحضرهم بالذكر، أو حضورهم في علم الله تعالى: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى. ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين، أو رجوع وترداد فإنه فيه يرجع اللبن إلى الضرع، وقرأ حمزة والكسائي بالضم وهما لغتان.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطَّنَا﴾ قسطنا من العذاب الذي توعدنا به، أو الجنة التي تعدها للمؤمنين وهو من قطه إذا قطعه، وقيل لصحيفة الجائزة قط لأنها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أي: عجل لنا صحيفة أعمالنا للنظر فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ استعجلوا ذلك استهزاء.

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨).

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ واذكر لهم قصته تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والمكرمات لما أتى صغيرة نزل عن منزلته ووبخه الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفتن فاستغفر ربه وأتاب فما الظن بالكفرة وأهل الطغيان، أو تذكر قصته وصن نفسك أن نزل فيلقاك ما لقيه من المعاتبة على إهمال عنان نفسه أدنى إهمال. ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ ذا القوة يقال فلان أيد وذو أيد وآد وأياد بمعنى. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاع إلى مرضاة الله تعالى، وهو تعليل لـ ﴿الْأَيْدِ﴾ ودليل على أن المراد به القوة في الدين، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ويقوم نصف الليل.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مر تفسيره، و ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حال وضع موضع مسبحات لاستحضار الحال الماضية والدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال. ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ووقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى، وأما شروقها فطلوعها يقال شرفت الشمس ولما تشرق. وعن أم هانئ رضي الله عنها: أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال «هذه صلاة الإشراق». وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية.

﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ (٢٠).

﴿وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراع المطابقة بين الحاليين لأن الحشر جملة أدل على القدرة منه مدرجاً، وقرئ «والطير محشورة» بالمبتدأ والخبر. ﴿كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجاع إلى التسبيح، والفرق بينه وبين ما قبله أنه يدل على الموافقة في التسبيح وهذا على المداومة عليها، أو كل منهما ومن داود عليه السلام مرجع لله التسبيح.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود، وقرئ بالتشديد للمبالغة. قيل: إن رجلاً ادعى بقرة على آخر وعجز عن البيان، فأوحى إليه أن اقتل المدعى عليه فأعلمه فقال: صدقت إنني قتلت أباه وأخذت البقرة فعظمت بذلك هيئته. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوة أو كمال العلم واتقان العمل. ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ وفصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، أو الكلام المخلص الذي ينه المخاطب على المقصود من غير التباس يراعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ونحوها، وإنما سمي به أما بعد لأنه يفصل المقصود عما سبق مقدمة له من الحمد والصلاة، وقيل هو الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل كما جاء في وصف كلام الرسول عليه الصلاة والسلام «فصل لا نزر ولا هذر».

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (٢١) ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ (٢٢) ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِي نَجَةٍ وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْثَلُنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (٢٣).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ استفهام معناه التعجب والتشويق إلى استماعه، والخصم في الأصل مصدر ولذلك أطلق على الجمع. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سور الغرفة، تفعل من السور كتسنم من السنام، وإذ متعلق بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا﴾، أو بالنبا على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام، وأن إسناد أتى إليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم لما فيه من معنى الفعل لا يأتي لأن إتيانه الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن حينئذ ﴿وَإِذْ﴾ الثانية في ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ بدل من الأولى أو ظرف لـ ﴿تَسَوَّرُوا﴾. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم نزلوا عليه من فوق في يوم الاحتجاب والحرس على الباب لا يتركون من يدخل عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزأ زمانه: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصته، فتسور عليه ملائكة على صورة الإنسان في يوم الخلوة. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ﴾ نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصماً. ﴿بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ وهو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور. ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تجر في الحكومة، وقرئ «ولا تشطط» أي ولا تبعد عن الحق ولا تشطط ولا تشاط، والكل من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد. ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي إلى وسطه وهو العدل.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ بالدين أو بالصحة. ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَةً وَلِي نَجَةً وَاحِدَةً﴾ هي الأنثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة، والكناية والتمثيل فيما يساق للتعريض أبلغ في المقصود، وقرئ «تسع وتسعون» بفتح التاء ونعجة بكسر النون، وقرأ حفص بفتح ياء ﴿لِي نَجَةٍ﴾. ﴿فَقَالَ أَكْثَلُنِيهَا﴾ ملكيتها وحقيقتها اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل اجعلها كفلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ وغلبنني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده، أو في مغالبتة إياي في الخطبة يقال: خطبت المرأة وخطبها هو فخطبني خطاباً حيث زوجها دوني، وقرئ «وعازني» أي غالبنني «وعزني» على تخفيف غريب.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نَجَاجِيٍّ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (٢٤)

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نَجَاجِيٍّ﴾ جواب قسم محذوف قصد به المبالغة في إنكار فعل خليطه وتهجين طمعه ولعله قال ذلك بعد اعترافه، أو على تقدير صدق المدعي والسؤال مصدر مضاف إلى مفعوله وتعديته إلى مفعول آخر بإلى لتضمنه معنى الإضافة. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم جمع خليط ﴿لَيَبْنِي﴾ ليتعدى. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها كقوله: اضْرِبْ عَنْكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا. وب حذف الياء اكتفاء بالكسرة. ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهم قليل، و ﴿مَّا﴾ مزيدة للإبهام والتعجب من قلتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ابتليناه بالذنوب أو امتحناه بتلك الحكومة هل ينتبه بها. ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسمية السجود ركوعاً لأنه مبدؤه، أو خر للسجود راکعاً أي مصلياً كأنه أحرم بركعتي الاستغفار. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجع إلى الله بالتوبة، وأقصى ما في هذه القضية الإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام ود أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله فبينه الله بهذه القصة فاستغفر وأتاب عنه. وما روي أن بصره وقع على امرأة فعشقها وسعى حتى تزوجها وولدت منه سليمان، إن صح فلعله خطب مخطوبته أو استنزله عن زوجته، وكان ذلك معتاداً فيما بينهم وقد وصى الأنصار المهاجرين بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسل أوربا إلى الجهاد مراراً وأمر أن يقدم حتى قتل فتزوجها هزء وافتراء، ولذلك قال علي رضي الله عنه: من حدث بحديث داود عليه

السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين. وقيل إن قوماً قصدوا أن يقتلوه فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواماً فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم غرضهم وأراد أن ينتقم منهم، فظن أن ذلك ابتلاء من الله له ﴿فاستغفر ربه﴾ مما هم به ﴿وأناب﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نُسَوِّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي ما استغفر عنه. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربة بعد المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ مرجع في الجنة.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ استخلفناك على الملك فيها، أو جعلناك خليفة ممن قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ بحكم الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفس، وهو يؤيد ما قيل إن ذنبه المبادرة إلى تصديق المدعي وتظليم الآخر قبل مسألته. ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دلالة التي نصبها على الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ نُسَوِّدُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل، فإن تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ كَتَبَ آيَاتُهُ إِلَيْكَ مَبْرُورًا لِّيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ خلقاً باطلاً لا حكمة فيه، أو ذوي باطل بمعنى مبطلين عابثين كقوله: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ أو للباطل الذي هو متابعة الهوى، بل للحق الذي هو مقتضى الدليل من التوحيد والتدرع بالشرع كقوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ على وضعه موضع المصدر مثل هنيئاً ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الإشارة إلى خلقها باطلاً والظن بمعنى المظنون. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ بسبب هذا الظن.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أم ﴿نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكر التسوية أولاً بين المؤمنين والكافرين ثم بين المتقين من المؤمنين والمجرمين منهم، ويجوز أن يكون تكريراً للإنكار الأول باعتبار وصفين آخرين يمنعان التسوية من الحكيم الرحيم، والآية تدل على صحة القول بالحشر، فإن التفاضل بينهما إما أن يكون في الدنيا والغالب فيها عكس ما يقتضي الحكمة فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أن يكون لهم حالة أخرى يجازون فيها.

﴿كِتَابَ آيَاتِهِ إِلَيْكَ مَبْرُورًا﴾ نفاع، وقرىء بالنصب على الحال. ﴿لِيَذَكَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ليتفكروا فيها فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة. وقرىء «ليتدبروا» على الأصل «لتدبروا» أي أنت وعلماء أمك. ﴿وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وليتعض به ذوو العقول السليمة، أو ليستحضروا ما هو كالمركز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته بما نصب عليه من الدلائل، فإن الكتب الإلهية بيان لما لا يعرف إلا من الشرع، وإرشاد إلى ما يستقل به العقل، ولعل التدبر للمعلوم الأول والتذكر الثاني.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَتِ الْجَادُ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ أي نعم العبد سليمان إذ ما بعده تعليل للمدح وهو من حاله. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رجاء إلى الله بالتوبة، أو إلى التسييح مرجع له.

﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ﴾ ظرف ل ﴿أَوَّابٌ﴾ أو ل ﴿نِعْمَ﴾، والضمير ل ﴿سليمان﴾ عند الجمهور ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ بعد الظهر ﴿الصَّافِنَاتُ﴾ الصافن من الخيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل، وهو من الصفات المحمودة في الخيل الذي لا يكاد يكون إلا في العرباب الخالص. ﴿الْحَيَّادُ﴾ جمع جواد أو جود، وهو الذي يسرع في جريه وقيل الذي يجود في الركض، وقيل جمع جيد. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس، وقيل أصابها أبوه من العمالة فورثها منه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر، أو عن ورد كان له فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقرباً لله.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿٣٢﴾ رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ ﴿٣٣﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أصل ﴿أحببت﴾ أن يعدى بعلی لأنه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدي تعديته، وقيل هو بمعنى تقاعدت من قوله:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحْبَبَا

أي برك، و ﴿حب الخير﴾ مفعول له والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام «الخيـل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة». وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس، شبه غروبها بتواري المخبأة بحجابها وإضمارها من غير ذكر لدلالة العشي عليها.

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ الضمير ل ﴿الصافنات﴾. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذ بمسح السيف مسحاً. ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته إذا ضرب عنقه، وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبالها، وعن ابن كثير «بالسُّوقِ» على همز الواو لضمه ما قبلها كمؤمن، وعن أبي عمرو «بالسُّوقِ» وقرئ «بالساق» اكتفاء بالواحد عن الجمع لأمن الإلباس.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ ﴿٣٤﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهر ما قيل فيه ما روى مرفوعاً «أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتي كل واحدة بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فو الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرساناً». وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك، فكان يغدوه في السحاب فما شعر به إلا أن ألقى على كرسية ميتاً فتنبه على خطئه بأن لم يتوكل على الله. وقيل إنه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب ابنته جرادة، فأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعاً على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته فكانت تغدو إليها وتروح مع ولائها يسجدن لها كعاداتهن في ملكه، فأخبره آصف فكسر الصورة وضرب المرأة وخرج إلى القلعة باكياً متضرعاً، وكانت له أم ولد اسمها أمينة إذا دخل للطهارة أعطاها خاتمه وكان ملكه فيه، فأعطاه يوماً فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم وتختم به وجلس على كرسية، فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شيء إلا في نسائه وغير سليمان عن هيئته، فأتاها لطلب الخاتم فطرده فعرّف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البيوت يتكفف حتى مضى أربعون يوماً عدداً ما عبدت الصورة في بيته، فطار الشيطان وقذف الخاتم في البحر فابتلعه سمكة فوقعت في يده فبقر بطنها فوجد الخاتم فتختم به وخر ساجداً

وعاد إليه الملك، فعلى هذا الجسد صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكن كذلك، والخطيئة تغافله عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل كان جائزاً حينئذ، وسجود الصورة بغير علمه لا يضره.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٣٥).

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي مناسبة لحالي، أو لا ينبغي لأحد أن يسلبه مني بعد هذه السلبه، أو لا يصح لأحد من بعدي لعظمته كقولك: لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال، على إرادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة، وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء بصد الإجابة. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء.

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (٣٧) ﴿وَأَخْرَيْنَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٣٨).

﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ فذلّلناها لطاعته إجابة لدعوته وقرىء «الرياح». ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ لينة من الرخاوة لا تزعزع، أو لا تخالف إرادته كالأمر المنقاد. ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أراد من قولهم أصاب الصواب فأخطأ الجواب.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطف على «الريح». ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدل منه.

﴿وَأَخْرَيْنَ مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ عطف على «كل». كأنه فصل الشياطين إلى عملة استعملهم في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص، ومردة قرن بعضهم مع بعض في السلاسل ليكفوا عن الشر، ولعل أجسامهم شفافة صلبة فلا ترى ويمكن تقييدها، هذا والأقرب أن المراد تمثيل كفهم عن الشرور بالإقران في الصفد وهو القيد، وسمي به العطاء لأنه يرتبط به المنعم عليه. وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه عكس وعد وأوعد وفي ذلك نكتة.

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٩) ﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ وَحُشْنٌ مَتَابٍ﴾ (٤٠).

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك والبسطة والتسلط على ما لم يسلط به غيرك عطائنا. ﴿فَإَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ فاعط من شئت وامنع من شئت. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حال من المستكن في الأمر، أي غير محاسب على منه وإمساكه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء أو صلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارة إلى تسخير الشياطين، والمراد باليمن والإمساك إطلاقهم وإبقاءهم في القيد.

﴿وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلٌ﴾ في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا. ﴿وَحُشْنٌ مَتَابٍ﴾ هو الجنة.

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بُُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) ﴿أَرْكُضْ بِرَحْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَبِ﴾ (٤٣) ﴿وَحَذَّ يَدَكَ ضَعْفًا فَأَضْرِبْ يَدَهُ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤٤).

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ هو ابن عيص بن إسحاق وامراته ليا بنت يعقوب صلوات الله عليه. ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ بدل من «عبدنا» و «أيوب» عطف بيان له. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأنني مسني، وقرأ حمزة بإسكان الياء وإسقاطها في الوصل. ﴿الشَّيْطَانُ بُِصْبٍ﴾ بتعب. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألم وهي حكاية لكلامه الذي ناداه به ولولا هي

لقال إنه مسه، والإسناد إلى «الشيطان» إما لأن الله مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل إنه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهه ولم يغزه، أو لسؤاله امتحاناً لصبره فيكون اعترافاً بالذنب أو مراعاة للأدب، أو لأنه وسوس إلى أتباعه حتى رفضوه وأخرجوه من ديارهم، أو لأن المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس إليه في مرضه من عظم البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الجزع، وقرأ يعقوب بفتح النون على المصدر، وقرأ بفتحيتين وهو لغة كالرشد والرشد وبضمتين للتثقل.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ حكاية لما أجيب به أي اضرب برجلك الأرض. ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ أي فضربها فنبعت عين فقيل هذا مغتسل أي ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهره، وقيل تَبَعَتْ عَيْنَانِ حَارَةٌ وَبَارِدَةٌ فَاغْتَسَلَ مِنَ الْحَارَةِ وَشَرَبَ مِنَ الْآخَرَى.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ بأن جمعناهم عليه بعد تفرقهم أو أحييناهم بعد موتهم، وقيل وهبنا له مثلهم. ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ حتى كان له ضعف ما كان. ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ لرحمتنا عليه ﴿وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرج بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحق بهم.

﴿وَاخْذُ بِيَدِكَ ضِغْتًا﴾ عطف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه. ﴿فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَخَنْتُ﴾ روي أن زوجته ليا بنت يعقوب وقيل رحمة بنت افرائيم بن يوسف ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف إن يرى ضربها مائة ضربة، فحلل الله يمينه بذلك وهي رخصة باقية في الحدود. ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ ضَالِّاً﴾ فيما أصابه في النفس والأهل والمال، ولا يخل به شكواه إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمى جزعاً كتمني العافية وطلب الشفاء مع أنه قال ذلك خيفة أن يفتنه أو قومه في الدين. ﴿نَعْمَ الْعَبْدُ﴾ أيوب. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ مقبل بشاره على الله تعالى.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقرأ ابن كثير ﴿عبدنا﴾ وضع الجنس موضع الجمع، أو على أن ﴿إبراهيم﴾ وحده لمزيد شرفه عطف بيان له، ﴿وإسحاق ويعقوب﴾ عطف عليه. ﴿أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أولي القوة في الطاعة والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفة، فعبر بالأيدي عن الأعمال لأن أكثرها بمباشرتها وبالأبصار عن المعارف لأنها أقوى مبادئها، وفيه تعريض بالبطلة الجهال أنهم كالزمنى والعماة.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة لا شوب فيها هي: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾ تذكرهم الدار الآخرة دائماً فإن خلوصهم في الطاعة بسببها، وذلك لأن مطمح نظرهم فيما يأتون ويدرون جوار الله والفوز ببلقائه وذلك في الآخرة، وإطلاق ﴿الدار﴾ للإشعار بأنها الدار الحقيقة والدنيا معبر، وأضاف نافع وهشام ﴿بخالصة﴾ إلى ﴿ذكرى﴾ للبيان أو لأنه مصدر بمعنى الخلوص فأضيف إلى فاعله.

﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير جمع خير كشر وأشرار. وقيل جمع خير أو خير على تخفيفه كأموات في جمع ميت أو ميت.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ هو ابن أخطوب استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثم استنبىء، واللام فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكاً. وقرأ حمزة والكسائي «واليسع» تشبيهاً بالمنقول من ليسع من اللسع. ﴿وَذَا

الكفيل ﴿ابن عم يسع أو بشر بن أيوب﴾. واختلف في نبوته ولقبه فقيل فر إليه مائة نبي من بني إسرائيل من القتل فأواهم وكفلهم، وقيل كفيل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة ﴿وَكُلُّ﴾ أي وكلهم. ﴿مِنَ الْأَخْيَارِ﴾.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْهُنَّ الْمَأْوَىٰ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم من أمورهم. ﴿ذِكْرٌ﴾ شرف لهم، أو نوع من الذكر وهو القرآن. ثم شرع في بيان ما أعد لهم ولأمثالهم فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ مرجع.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ عطف بيان ﴿لحسنى مآب﴾ وهو من الأعلام الغالية لقوله ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ وعد الرحمن عباده بالغيث. وانتصب عنها. ﴿مِّنْهُنَّ الْمَأْوَىٰ﴾ على الحال والعامل فيها ما في المتقين من معنى الفعل، وقرئتا مرفوعتين على الابتداء والخبر أو أنهما خبران لمحذوف.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ حالان متعاقبان أو متداخلان من الضمير في لهم لا من المتقين للفصل، والأظهر أن يدعون استئناف لبيان حالهم فيها ومتكئين حال من ضميره، والاقتصار على الفاكهة للإشعار بأن مطاعهم لمحض التلذذ، فإن التغذيةى للتحلل ولا تحلل ثمة.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرِيفِ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرِيفِ﴾ لا ينظرون إلى غير أزواجهن. ﴿أَنْزَابٍ﴾ لذات لهم فإن التحاب بين الأقران أثبت، أو بعضهم لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية، واشتقاقه من التراب فإنه يمسهن في وقت واحد.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ لأجله فإن الحساب علة الوصول إلى الجزاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء ليوافق ما قبله.

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ انقطاع.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْمَهَادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿هَذَا﴾ أي الأمر هذا أو هذا كما ذكر أو خذ هذا. ﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابه ما سبق. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حال من جهنم. ﴿فَنَسَّ الْمَهَادُ﴾ المهد والمفترش، مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو ﴿جهنم﴾ لقوله ﴿لهم من جهنم مهاد﴾.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾، أي ليدوقوا هذا فليذوقوه، أو العذاب هذا فليذوقوه، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو على الأولين خبر محذوف أي هو ﴿حميم﴾، والغساق ما يغسق من صديد أهل النار من غسقت العين إذا سال دمعها، وقرأ حفص وحزمة والكسائي ﴿غَسَّاقٌ﴾ بتشديد السين.

﴿وَآخِرُ﴾ أي مذوق أو عذاب آخر، وقرأ البصريان «وأخرى» أي ومذوقات أو أنواع عذاب آخر. ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ من مثل هذا المذوق أو العذاب في الشدة، وتوحيد الضمير على أنه لما ذكر أو للشراب الشامل للحميم والغساق أو للغساق. وقرئ بالكسر وهو لغة. ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أجناس خبر لـ ﴿آخر﴾ أو صفة له أو للثلاثة، أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِتْمَمَ صَلَاؤُا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكاية ما يقال للرؤساء الطاغين إذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج تبهم في الضلال، والاقترحام ركوب الشدة والدخول فيها. ﴿لَا مَرْجَا بِهِمْ﴾ دعاء من المتبوعين على أتباعهم أو صفة لـ ﴿فوج﴾، أو حال أي مقولاً فيهم لا مرجحاً أي ما أتوا بهم رحباً وسعة. ﴿إِنَّهُمْ صَلَّوْا النَّارَ﴾ داخلون النار بأعمالهم مثلنا.

﴿قَالُوا﴾ أي الاتباع للرؤساء. ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ﴾ بل أنتم أحق بما قلتم، أو قيل لنا لضلالكم وإضلالكم كما قالوا: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ قدمتم العذاب أو الصلي لنا بإغوائنا وإغرائنا على ما قدمتموه من العقائد الزائفة والأعمال القبيحة. ﴿فَيَنْسُ الْقَرَارُ﴾ ينس المقرر جهنم.

﴿قَالُوا﴾ أي الاتباع أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ مضاعفاً أي ذا ضعف وذلك أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين كقوله ﴿رَبَّنَا أَتَاهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي الطاغوت. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ يعنون فقراء المسلمين الذين يسترذلونهم ويسخرون بهم.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًا﴾ صفة أخرى لـ ﴿رجالاً﴾، وقرأ الحجازيان وابن عامر وعاصم بهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحزمة والكسائي ﴿سُخْرِيًا﴾ بالضم وقد سبق مثله في «المؤمنين»: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالت. ﴿عَنْهُمْ الْبَصَرُ﴾ فلا نراهم و ﴿أَمْ﴾ معادلة لـ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾ على أن المراد نفى رؤيتهم لغيبتهم كأنهم قالوا: أليسوا ها هنا أم زاغت عنهم أبصارنا، أو لاتخذناهم على القراءة الثانية بمعنى أي الأمرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم تحقيرهم، فإن زيغ الأبصار كناية عنه على معنى إنكارهما على أنفسهم، أو منقطعة والمراد الدلالة على أن استرذالهم والاستسخار منهم كان لزيغ أبصارهم وقصور أنظارهم على رثالة حالهم.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بد أن يتكلموا به ثم بين ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ وهو بدل من لحق أو خبر محذوف، وقرئ بالنصب على البدل من ذلك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين. ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ أنذركم عذاب الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ الذي لا يقبل الشراكة والكثرة في ذاته. ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء يريد قهره.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقها وإليه أمرها. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب. ﴿الْغَفَّارُ﴾ الذي يغفر ما يشاء من الذنوب لمن يشاء، وفي هذه الأوصاف تقرير للتوحيد ووعد ووعد للموحدين والمشركين، وتثنية ما يشعر بالوعد وتقديمه لأن المدعو به هو الإنذار.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ إن

يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني نذير من عقوبة من هذه صفته وأنه واحد في ألوهيته، وقيل ما بعده من نبي آدم. ﴿نَبَأًا عَظِيمًا﴾.

﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتماذي غفلتكم فإن العاقل لا يعرض عن مثله كيف وقد قامت عليه الحجج الواضحة، أما على التوحيد فما مرّ وأما على النبوة فقلوه:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإن إخباره عن تقاؤل الملائكة وما جرى بينهم على ما ورد في الكتب المتقدمة من غير سماع ومطالعة كتاب لا يتصور إلا بالوحي، و ﴿إِذْ﴾ متعلق بـ ﴿عِلْمٍ﴾ أو بمحذوف إذ التقدير من علم بكلام الملا الأعلى.

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لأنما كانه لما جوز أن الوحي يأتيه بين بذلك ما هو المقصود به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ ويجوز أن يرتفع بإسناد يوحى إليه، وقرئ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكسر على الحكاية.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجْدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ بدل من ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مبين له فإن القصة التي دخلت إذ عليها مشتملة على تقاؤل الملائكة وإبليس في خلق آدم عليه السلام، واستحقاقه للخلافة والسجود على ما مر في «البقرة»، غير أنها اختصرت اكتفاءً بذلك واقتصاراً على ما هو المقصود منها، وهو إنذار المشركين على استكبارهم على النبي عليه الصلاة والسلام بمثل ما حاق بإبليس على استكباره على آدم عليه السلام، هذا ومن الجائز أن يكون مقالة الله تعالى إياهم بواسطة ملك، وأن يفسر «الملا الأعلى» بما يعم الله تعالى والملائكة.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ عدلت خلقته. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وأحييته بنفخ الروح فيه، وإضافته الى نفسه لشرفه وطهارته. ﴿فَقَعُوا لَهُ﴾ فخرؤا له. ﴿سَاجِدِينَ﴾ تكرمة وتبجيلاً له وقد مر الكلام فيه في «البقرة».

﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ تعظم. ﴿وَكَانَ﴾ وصار. ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ باستنكاره أمر الله تعالى واستكباره عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ خلقته بنفسه من غير توسط كآب وأم، والشبهة لما في خلقه من مزيد القدرة واختلاف الفعل، وقرئ على التوحيد وترتيب الإنكار عليه للإشعار بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبث به في تركه وهو لا يصلح مانعاً إذ للسيد أن يستخدم بعض عبيده لبعض سيما وله مزيد اختصاص. ﴿اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ تكبرت من غير استحقاق أو كنت ممن علا واستحق التفوق، وقيل استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين، وقرئ «استكبرت» بحذف الهمزة لدلالة ﴿أَمْ﴾ عليها أو بمعنى الإخبار.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إيداء للمانع وقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ دليل عليه وقد سبق الكلام فيه.

﴿قَالَ فَاصْرُخْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١).

﴿قَالَ فَاصْرُخْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماء، أو من الصورة الملكية. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود من الرحمة ومحل الكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» مر بيانه في «الحجر».

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَذِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥).

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فبسلطانك وقهرك. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» الذين أخلصهم الله لطاعته وعصمهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبهم لله على اختلاف القراءتين.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي فأحق الحق وأقوله، وقيل «الحق» الأول اسم الله نصبه بحذف حرف القسم كقوله: إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهُ أَنْ تُبَايَعًا.

وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينهما اعتراض وهو على الأول جواب محذوف والجملة تفسير لـ ﴿الحق﴾ المقول، وقرأ عاصم وحمة برفع الأول على الابتداء أي الحق يميني أو قسمي، أو الخبر أي أنا ﴿الحق﴾، وقرأنا مرفوعين على حذف الضمير من أقول كقوله: كله لم أصنع. ومجرورين على إضمار حرف القسم في الأول وحكاية لفظ المقسم به في الثاني للتأكيد، وهو سائغ فيه إذا شارك الأول وبرز الأول وجره ونصب الثاني وتخريجه على ما ذكرناه، والضمير في منهم للناس إذ الكلام فيهم والمراد بمنك من جنسك ليتناول الشياطين، وقيل للثقلين وأجمعين تأكيد له أو للضميرين.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨).

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآن أو تبليغ الوحي. ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتصفين بما ليسوا من أهله على ما عرفتم من حالي فأنحل النبوة، وأقول القرآن.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ للثقلين. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ وهو ما فيه من الوعد والوعيد، أو صدقه بإتيان ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفيه تهديد.

وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة (ص) كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات، وعصمه الله أن يصير على ذنب صغير أو كبير».

سورة الزمر (٣٩)

مكية إلا قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ الآية

وآيها خمس وسبعون أو اثنتان وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاغْبِذْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② .

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ خبر محذوف مثل هذا أو مبتدأ خبره. ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهو على الأول صلة لـ ﴿تَنْزِيلِ﴾، أو خبر ثان أو حال عمل فيها معنى الإشارة أو الـ ﴿تَنْزِيلِ﴾، والظاهر أن ﴿الْكِتَابِ﴾ على الأول السورة وعلى الثاني القرآن، وقرئ «تَنْزِيلِ» بالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ أو الزم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحق أو بسبب إثبات الحق وإظهاره وتفصيله. ﴿فَاغْبِذْ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ محصاً له الدين من الشرك والرياء، وقرئ برفع «الدين» على الاستئناف لتعليل الأمر وتقديم الخبر لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام كما صرح به مؤكداً وإجراؤه مجرى المعلوم المقرر لكثرة حججه وظهور براهينه فقال:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ ③ .

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي ألا هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة، فإنه المتفرد بصفات الألوهية والاطلاع على الأسرار والضمائر. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل المتخذين من الكفرة والمتخذين من الملائكة وعيسى والأصنام على حذف الراجع وإضمار المشركين من غير ذكر لدلالة المساق عليهم، وهو مبتدأ خبره على الأول. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ بإضمار القول. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعين على الثاني، وعلى هذا يكون القول المضمر بما في حيزه حالاً أو بدلاً من الصلة و ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدر أو حال، وقرئ «قالوا ما نعبدكم» و «ما نعبدكم إلا لتقربونا إلى الله» حكاية لما خاطبوا به ألهمهم و «نعيدهم» بضم النون اتباعاً. ﴿فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإدخال المحق الجنة والمبطل النار والضمير للكفرة ومقابلتهم، وقيل لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجون شفاعتهم وهم يلعنونها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ لا يوفق للاعتداء إلى الحق. ﴿مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنهما فاقداء البصيرة.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْكَنُهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ④ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ⑤ .

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعموا. ﴿لَا ضَظْفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا موجود سواه إلا وهو مخلوقه لقيام الدلالة على امتناع وجود واجبين ووجوب استناد ما عدا الزوج إلى، ومن البين أن المخلوق لا يماثل الخالق فيقوم مقام الوالد له ثم قرر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فإن الألوهية الحقيقية تتبع الوجوب المستلزم للوحدة الذاتية، وهي تنافي المماثلة فضلاً عن التوالد لأن كل واحد من المثلين مركب من الحقيقة المشتركة، والتعين المخصوص والقهارية المطلقة تنافي قبول الزوال المحوج إلى الولد، ثم استدل على ذلك بقوله:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس باللباس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كالأرض عليه كروراً متتابعاً تتابع أكوام العمامة. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو منتهى دوره أو منقطع حركته. ﴿إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء. ﴿الْعَفَّارُ﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآتَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلال آخر بما أوجده في العالم السفلي مبدوءاً به من خلق الإنسان لأنه أقرب وأكثر دلالة وأعجب، وفيه على ما ذكره ثلاث دلالات: خلق آدم أولاً من غير أب وأم، ثم خلق حواء من قصيره، ثم تشعب الخلق الفاتت للحصر منهما. و ﴿ثُمَّ﴾ للعطف على محذوف هو صفة ﴿نفس﴾ مثل خلقها أو على معنى واحدة أي من نفس وحدث ثم جعل منها زوجها فشفعها بها، أو على ﴿خلقكم﴾ لتفاوت ما بين الآيتين، فإن الأولى عادة مستمرة دون الثانية. وقيل أخرج من ظهره ذريته كالذر ثم خلق منها حواء. ﴿وَآتَزَلَ لَكُمْ﴾ وقضى أو قسم لكم، فإن قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث كتبت في اللوح المحفوظ، أو أحدث لكم بأسباب نازلة كاشعة الكواكب والأمطار. ﴿مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان لكيفية ما ذكر من الأناسي والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائب القدرة، غير أنه غلب أولي العقل أو خصهم بالخطاب لأنهم المقصودون. ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سوياً من بعد عظام مكسوة لحماً من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هذه أفعاله. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحق لعبادتكم والمالك. ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشاركه في الخلق غيره. ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ يعدل بكم عن عبادته إلى الإشراك.

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عِندَ اللَّهِ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستضرارهم به رحمة عليهم. ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلا حكم، وقرأ ابن كثير ونافع في رواية وأبو عمرو والكسائي بإشباع ضمة الهاء لأنها صارت بحذف الألف موصولة بمتحرك، وعن أبي عمرو ويعقوب إسكانها وهو لغة فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ

بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٨﴾ فَلَا تَخْضِي عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوال ما ينازع العقل في الدلالة على أن مبدأ الكل منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ﴾ أعطاه من الخول وهو التعهد، أو الخول وهو الافتخار. ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ﴾ أي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه، أو ربه الذي كان يتضرع إليه و ﴿مَا﴾؛ مثل الذي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الباء، والضلال والإضلال لما كانا نتيجة جعله صح تعليله بهما وإن لم يكونا غرضين. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمر تهديد فيه إشعار بأن الكفر نوع تشبه لا سند له، وإقناط للكافرين من التمتع في الآخرة ولذلك علله بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ على سبيل الاستئناف للمبالغة.

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الْآيِلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ قائم بوظائف الطاعات. ﴿ءَانَاءَ الْآيِلِ﴾ ساعاته وأم متصلة بمحذوف تقديره الكافر خير أم من هو قانت، أو منقطعة والمعنى بل ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ كمن هو بضده، وقرأ الحجازيان وحمزة بتخفيف الميم بمعنى أمن هو قانت لله كمن جعل له أندادا. ﴿سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ حالان من ضمير ﴿قَانِتٌ﴾، وقرأنا بالرفع على الخبر بعد الخبر والواو للجمع بين الصفتين ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ في موضع الحال أو الاستئناف للتعليل. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفى لاستواء الفريقين باعتبار القوة العلمية بعد نفيه باعتبار القوة العملية على وجه أبلغ لمزيد فضل العلم. وقيل تقرير للأول على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون والعاصون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ بأمثال هذه البيانات، وقرئ «يذكر» بالإدغام.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بلزوم طاعته. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعات في الدنيا مثوبة حسنة في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنة في الدنيا هي الصحة والعافية، وفي هذه بيان لمكان ﴿حَسَنَةٍ﴾. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على الإحسان في وطنه فليهاجر إلى حيث يتمكن منه. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ﴾ على مشاق الطاعات من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان لها. ﴿أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حساب الحساب، وفي الحديث إنه «ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلاء بل يصب عليهم الأجر صبا حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل».

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١٢﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ موحداً له .

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، لأن قصب السبق في الدين بالإخلاص أو لأنه أول من أسلم وجهه لله من قريش ومن دان بدينهم، والعطف لمغايرة الثاني الأول بتقييده بالعلة، والإشعار بأن العبادة المقرونة بالإخلاص وإن اقتضت لذاتها أن يؤمر بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمها من السبق في الدين، ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما في أردت لأن أفعل فيكون أمر بالتقدم في الإخلاص والبدء بنفسه في الدعاء إليه بعد الأمر به .

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بترك الإخلاص والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك والرياء . ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمة ما فيه .

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ (١٤) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (١٥) ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُمْ يَأْتِقُونَ﴾ (١٦) .

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ أمر بالإخبار عن إخلاصه وأن يكون مخلصاً له دينه بعد الأمر بالإخبار عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاص خائفاً عن المخالفة من العقاب قطعاً لأطماعهم، ولذلك رتب عليه قوله :

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم . ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسران . ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالضلال . ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال . ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حين يدخلون النار بدل الجنة لأنهم جمعوا وجوه الخسران . وقيل وخسروا أهلهم لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده . ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ مبالغة في خسرانهم لما فيه من الاستئناف والتصدير بـ ﴿ألا﴾، وتوسيط الفصل وتعريف الخسران ووصفه بـ ﴿المبين﴾ .

﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ شرح لخسرانهم . ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباق من النار هي ظلل للآخرين . ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ذلك العذاب هو الذي يخوفهم به ليجتنبوا ما يوقعهم فيه . ﴿يَا عِبَادُ فَاتَّقُوا﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (١٧) ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٨) .

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ البالغ غاية الطغيان فعلت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت، ثم وصف به للمبالغة في النعت ولذلك اختص بالشیطان . ﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتغال منه . ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشرائهم عما سواه . ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بالشواب على السنة الرسل، أو الملائكة عند حضور الموت . ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ .

﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ وضع فيه الظاهر موضع ضمير ﴿الذين اجتنبوا﴾ للدلالة على مبدأ اجتنابهم وأنهم نقاد في الدين يميزون بين الحق والباطل ويؤثرون الأفضل فالأفضل . ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لدينه . ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة عن منازعة الوهم والعادة، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها .

﴿أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ (١٩) ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَفْقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِنْ قَوْفِهَا﴾

عُرِفَ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾.

﴿أَقَمْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتِ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ جملة شرطية معطوفة على محذوف دل عليه الكلام تقديره أنت مالك أمرهم فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه، فكررت الهمزة في الجزء لتأكيد الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿من في النار﴾ موضع الضمير لذلك والدلالة على أن من حكم عليه بالعذاب كالواقع فيه لامتناع الخلف فيه، وأن اجتهدا الرسل في دعائهم إلى الإيمان سعي في إنقاذهم من النار، ويجوز أن يكون ﴿أفأنت﴾ تنقذ جملة مستأنفة للدلالة على ذلك والإشعار بالجزاء المحذوف.

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقَ غُرَفٍ عَلَالِي بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مَبْنِيَّةٌ﴾ بنيت بناء النازل على الأرض. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله ﴿لهم غرف﴾ في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ ولأن الخلف نقص وهو على الله محال.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفًى ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَاءً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو المطر. ﴿فَسَلَكَهُ﴾ فادخله. ﴿يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ هي عيون ومجاري كائنه فيها، أو مياه نابعات فيها إذ ينبوع جاء للمنبع وللنابع فنصبها على الظرف أو الحال. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أصنافه من بر وشعير وغيرهما، أو كيفياته من خضرة وحمرة وغيرهما. ﴿ثُمَّ يَهْبِيجُ﴾ يتم جفافه لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منبته. ﴿فَتَرَاهُ مُصْفًى﴾ من يسه. ﴿ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَاءً﴾ فتاتاً. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾ لتذكيراً بأنه لا بد من صانع حكيم دبره وسواه، أو بأنه مثل الحياة الدنيا فلا تغتر بها. ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إذ لا يتذكر به غيرهم.

﴿أَقَمْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَقَمْنِ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ حتى تمكن فيه بيسر عبر به عن خلق نفسه شديدة الاستعداد لقبوله غير متأبئة عنه من حيث إن الصدر محل القلب المنبع للروح المتعلق للنفس القابلة للإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعني المعرفة والاهتداء إلى الحق. وعنه عليه الصلاة والسلام «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح، فقليل فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله». وخبر ﴿من﴾ محذوف دل عليه ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره وهو أبلغ من أن يكون عن مكان من، لأن القاسي من أجل الشيء أشد تأبياً عن قبوله من القاسي عنه لسبب آخر، وللمبالغة في وصف أولئك بالقبول وهؤلاء بامتناع ذكر شرح الصدر وأسنده إلى الله وقابله بقساوة القلب وأسنده إليه. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يظهر للنظر بآدنى نظر، والآية نزلت في حمزة وعلي وأبي لهب وولده.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسِرُهُ مِنْهُ جُلُودٌ لِلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن، روي أن أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة فقالوا له حدثنا فنزلت. وفي الابتداء باسم الله وبناء نزل عليه تأكيد للإسناد إليه وتفخيم للمنزل واستشهاد على حسنه. ﴿كِتَابًا

مُتَشَابِهًا» بدل من «أحسن» أو حال منه، وتشابهه تشابه أبعاضه في الإعجاز وتجاوب النظم وصحة المعنى والدلالة على المنافع العامة. «مُتَّانِي» جمع متنى أو مثنى أو مثنى على ما مر في «الحجر»، وصف به كتاباً باعتبار تفاصيله كقولك: القرآن سور وآيات، والإنسان: عظام وعروق وأعصاب، أو جعل تمييزاً من «متشابهاً» كقولك: رأيت رجلاً حسناً شمائله. «تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ» تَشْمَتَزُ خوفاً مما فيه من الوعيد، وهو مثل في شدة الخوف واقشعرار الجلد تقبضه وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس بزيادة الراء ليصير رباعياً كتركيب أقمطر من القمط وهو الشد. «ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ» بالرحمة وعموم المغفرة، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه، والتعديدية بـ «إلى» لتضمين معنى السكون والاطمئنان، وذكر القلوب لتقدم الخشية التي هي من عوارضها. «ذَلِكَ» أي الكتاب أو الكائن من الخشية والرجاء. «هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ» هدايته. «وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ» ومن يخذله. «فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» يخرجهم من الضلال.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ﴾ يجعله درقة بقي به نفسه لأنه يكون يداه مغلولة إلى عنقه فلا يقدر أن يتقي إلا بوجهه. «سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ» كمن هو آمن منه، فحذف الخبر كما حذف في نظائره. «وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ» أي لهم فوضع الظاهر موضعه تسجيلاً عليهم بالظلم وإشعاراً بالموجب لما يقال لهم وهو: «ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» أي وباله، والواو للحال وقد مقدرة. «كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» من الجهة التي لا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذل. «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» كالمسخ والخسف والقتل والسبي والإجلاء. «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ» المعد لهم. «أَكْبَرُ» لشدة ودوامه. «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» لو كانوا من أهل العلم والنظر لعلموا ذلك واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمر دينه. «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» يتعظون به.

﴿قُرْآنًا غَرِيبًا﴾ حال من هذا والاعتماد فيها على الصفة كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً، أو مدح له. «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» لا اختلال فيه بوجه ما، وهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعاني. وقيل بالشك استشهداً بقوله:

وَقَدْ أَتَاكَ بِقَيْنَ غَيْرِ ذِي عِوَجٍ مِنْ إِلَهِ وَقَوْلُ غَيْرِ مَكْذُوبٍ
وهو تخصيص له ببعض مدلوله. «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» علة أخرى مرتبة على الأولى.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للممشرِك والموحد. ﴿رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَامًا لِرَجُلٍ﴾ مثل الممشرِك على ما يقتضيه مذهبه من أن يدعي كل واحد من معبوديه عبوديته، ويتنازعوا فيه بعبد يتشارك فيه جمع، يتجاذبون ويتعاورونه في مهماتهم المختلفة في تحيره وتوزع قلبه، والموحد بمن خلص لواحد ليس لغيره عليه سبيل و ﴿رجلاً﴾ بدل من مثل وفيه صلة ﴿شركاء﴾، والتشاكس والتشاخص الاختلاف. وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿سَلَامًا﴾ بفتح السين وكسرها مع سكون اللام وثلاثتها مصادر سلم نعت بها، أو حذف منها ذا و﴿رجل سالم﴾ أي وهناك رجل سالم، وتخصيص الرجل لأنه أفطن للضر والنفع. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفة وحالاً ونصبه على التمييز ولذلك وحده، وقرأ «مثلين» للإشعار باختلاف النوع، أو لأن المراد على «يستويان» في الوصفين على أن الضمير للمثلين فإن التقدير مثل رجل ومثل رجل. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يشاركه فيه على الحقيقة سواء، لأنه المنعم بالذات والمالك على الإطلاق. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره من فرط جهلهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فإن الكل بصدد الموت وفي عداد الموتى، وقرأ «ماتت» و «ماتتون» لأنه مما سيحدث.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليب المخاطب على الغيب. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك كنت على الحق في التوحيد وكانوا على الباطل في التشريك، واجتهدت في الإرشاد والتبليغ ولجوا في التكذيب والعناد، ويعتذرون بالأباطيل مثل ﴿أطعنا ساداتنا﴾ و ﴿وجدنا آباءنا﴾. وقيل المراد به الاختصاص العام بخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِالْصَّدَقِ﴾ وهو ما جاء به محمد ﷺ. ﴿إِذْ جَاءَهُ﴾ من غير توقف وتفكر في أمره. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ وذلك يكفيهم مجازاة لأعمالهم، واللام تحتل العهد والجنس، واستدل به على تكفير المبتدعة فإنهم يكذبون بما علم صدقه وهو ضعيف لأنه مخصوص بمن فاجأ ما علم مجيء الرسول به بالتكذيب.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ اللام للجنس ليتناول الرمل والمؤمنين لقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وقيل هو النبي ﷺ والمراد هو ومن تبعه كما في قوله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾. وقيل الجائي هو الرسول والمصدق أبو بكر رضي الله عنه، وذلك يقتضي إضمار ﴿الذي﴾ وهو غير جائز. وقرأ «وصدق به» بالتخفيف أي صدق به الناس فأداه إليهم كما نزل من غير تحريف، أو صار صادقاً بسببه لأنه معجز يدل على صدقه «وصدق به» على البناء للمفعول.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ خص الأسوأ للمبالغة فإنه إذا كفر كان غيره أولى بذلك، أو

للإشعار بأنهم لاستعظامهم الذنوب يحسبون أنهم مقصرون مذنبون وأن ما يفرط منهم من الصغائر أسوأ ذنوبهم، ويجوز أن يكون بمعنى السيء كقولهم: الناقص والأشج أعداء بني مروان، وقرئ «أسوء» جمع سوء. «وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ» ويعطيهم ثوابهم. «بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» فيعد لهم محاسن أعمالهم بأحسنها في زيادة الأجر وعظمه لفرط إخلاصهم فيها.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ استفهام إنكار للنفي مبالغة في الإثبات، والعبد رسول الله ﷺ ويحتمل الجنس ويؤيده قراءة حمزة والكسائي «عباده»، وفسر بالأنبياء صلوات الله عليهم. «وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا بعبيك إياها. وقيل إنه بعث خالداً ليكسر العزى فقال له سادنها أحتذركها فإن لها شدة، فعمد إليها خالد فهشم أنفها فنزل تخويف خالد منزلة تخويفه لأنه الأمر له بما خوف عليه. «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ» حتى غفل عن كفاية الله له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر. «فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» يهديهم إلى الرشاد.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ إذ لا راد لفعله كما قال: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ» غالب منيع. «ذِي انْتِقَامٍ» ينتقم من أعدائه.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ لوضح البرهان على تفرده بالخالقية. «قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ» أي أرايتم بعد ما تحققت أن خالق العالم هو الله تعالى وأن آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضر هل يكشفه. «أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ» بنفع. «هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ» فيمسكها عني، وقرأ أبو عمرو «كاشفات ضره» «ممسكات رحمته» بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته. «قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» كافياً في إصابة الخير ودفع الضر إذ تقرر بهذا التقرير أنه القادر الذي لا مانع لما يريد من خير أو شر. روي أن النبي عليه الصلاة والسلام سألهم فسكتوا فنزل ذلك، وإنما قال «كاشفات» و «ممسكات» على ما يصفونها به من الأنوثة تنبيهاً على كمال ضعفها. «عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» لعلمهم بأن الكل منه تعالى.

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَا فَلَنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم، اسم للمكان استعير للحال كما استعير هنا وحيث من المكان للزمان، وقرئ «مكاناتكم». «إِنِّي عَمِلْتُ» أي على مكانتي فحذف للاختصار والمبالغة في الوعيد، والإشعار بأن حاله لا يقف فإنه تعالى يزيده على مر الأيام قوة ونصرة ولذلك توعدهم بكونه منصوراً عليهم في الدارين فقال: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه دليل غلبته، وقد أخزاهم الله يوم بدر. ﴿وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم وهو عذاب النار.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم فإنه مناط مصالحهم في معاشهم ومعادهم. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متلبساً به. ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ إذ نفع به نفسه. ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَلِئِمَّا يَضِلَّ عَلَيْهَا﴾ فإن وباله لا يتخطاها. ﴿وَمَا آتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِيلٌ﴾ وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى وإنما أمرت بالبلاغ وقد بلغت.

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي يقبضها عن الأبدان بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها إما ظاهراً وباطناً وذلك عند الموت، أو ظاهراً لا باطناً وهو في النوم. ﴿فِيْمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن، وقرأ حمزة والكسائي ﴿قَضَىٰ﴾ بضم القاف وكسر الضاد والموت بالرفع. ﴿وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ﴾ أي النائمة إلى بدننها عند اليقظة. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقت المضروب لموته وهو غاية جنس الإرسال. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والحياة، فيتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم. قريب مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ من التوفي والإمساك والإرسال. ﴿لَآيَاتٍ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته وشمول رحمته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلقها بالأبدان وتوفيها عنها بالكلية حين الموت، وإمساكها باقية لا تفنى بفنائها، وما يعترها من السعادة والشقاوة والحكمة في توفيها عن ظواهرها وإرسالها حيناً بعد حين إلى توفي آجالها.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٤٤).

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذ قريش. ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ تشفع لهم عند الله. ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونها جمادات لا تقدر ولا تعلم.

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لعله رد لما عسى يجيبون به وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون هي تماثيلهم، والمعنى أنه مالك الشفاعة كلها لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ورضاه، ولا يستقل بها ثم قرر ذلك فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه مالك الملك كله لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة فيكون الملك له أيضاً حينئذ.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٥).

﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم. ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ انقبضت ونفرت. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتنانهم بها ونسيانهم حق الله، ولقد بالغ في الأمرين حتى بلغ الغاية فيهما، فإن الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه، والاشمئزاز أن يمتلىء غماً حتى ينقبض أديم وجهه، والعامل في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العامل في إذ المفاجأة.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ التَّجِيءُ إِلَى اللَّهِ بِالِدَعَاءِ لِمَا تَحِيرَتْ فِي أَمْرِهِمْ وَضَجَرَتْ مِنْ عُنَادِهِمْ وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ، فَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالْعَالِمُ بِالْأَحْوَالِ كُلِّهَا. ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فَأَنْتَ وَحْدَكَ تَقْدِرُ أَنْ تَحْكُمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَإِقْنَاطٌ كُلِّي لَهُمْ مِنَ الْخُلَاصِ. ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ زِيَادَةٌ مَبَالِغَةٌ فِيهِ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾ فِي الْوَعْدِ.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سَيِّئَاتُ أَعْمَالِهِمْ أَوْ كَسْبُهُمْ حِينَ تَعْرَضُ صَحَائِفُهُمْ. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وَأَحَاطَ بِهِمْ جَزَاؤُهُ.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاكُمْ إِذَا حَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ .

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاكُمْ﴾ إِخْبَارٌ عَنِ الْجِنْسِ بِمَا يَغْلِبُ فِيهِ، وَالْعُطْفُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ بِالْفَاءِ لِبَيَانِ مَنَاقِضَتِهِمْ وَتَعْكِيْسِهِمْ فِي التَّسَبُّبِ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَشْمَتُونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِ الْآلِهَةِ، فَإِذَا مَسَّهُمْ ضَرٌّ دَعَا مِنْ أَشْمَازُوا مِنْ ذِكْرِهِ دُونَ مَنْ اسْتَبْشَرُوا بِذِكْرِهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ مُؤَكِّدٌ لِلنَّكَارِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ. ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِنَّا﴾ أُعْطِيْنَاهُ إِيَّاهُ تَفْضُلًا فَإِنْ التَّخْوِيلُ مُخْتَصٌّ بِهِ. ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ مِنْ بِي بُوْجُوهٍ كَسْبِهِ، أَوْ بِأَنِّي سَأَعْطَاهُ لِمَا لِي مِنْ اسْتِحْقَاقِهِ، أَوْ مِنْ اللَّهِ بِي وَاسْتِحْقَاقِي، وَالْهَاءُ فِيهِ لِمَا إِنْ جَعَلْتُ مُوصُولَةً وَإِلَّا فَلِلنِّعْمَةِ وَالتَّذْكِيرِ لِأَنَّ الْمُرَادَ شَيْءٌ مِنْهَا. ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ امْتِحَانٌ لَهُ أَيشْكُرُ أَمْ يَكْفُرُ، وَهُوَ رَدٌّ لِمَا قَالَهُ وَتَأْنِيثٌ لِلضَّمِيرِ بِاعْتِبَارِ الْخَيْرِ أَوْ لَفْظِ الـ «نِعْمَةِ»، وَقُرِئَ بِالتَّذْكِيرِ. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لِلْجِنْسِ.

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الْهَاءُ لِقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَوْ جُمْلَةٌ، وَقُرِئَ بِالتَّذْكِيرِ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قَارُونَ وَقَوْمُهُ فَإِنَّهُ قَالَ وَرَضِي بِهِ قَوْمُهُ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ .

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جَزَاءُ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِمْ أَوْ جَزَاءُ أَعْمَالِهِمْ، وَسَمَاءُ سَيِّئَةٍ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ رَمَزًا إِلَى أَنَّ جَمِيعَ أَعْمَالِهِمْ كَذَلِكَ. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْمَتَرِ. ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الْمُشْرِكِينَ وَ﴿مَنْ﴾ اللَّيَّانَ أَوْ لِلتَّبْعِيضِ. ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كَمَا أَصَابَ أَوْلَئِكَ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا سَبْعَ سَنِينَ وَقَتْلَ بَيْدَرٍ صَنَادِيدَهُمْ. ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بِفَاتَتَيْنِ.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ حَيْثُ حَبَسَ عَنْهُمْ الرِّزْقَ سَبْعًا ثُمَّ بَسَطَ لَهُمْ سَبْعًا.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادث كلها من الله بوسط أو غيره.

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٢) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لِمَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾

﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطوا في الجناية عليها بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا من مغفرته أولاً وتفضله ثانياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً ولو بعدُ بعدُ وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر وبدل على إطلاقه فيما عدا الشرك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، والتعليل بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة وإفادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة، وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في ﴿عِبَادِيَ﴾ من الدلالة على الذلة، والإختصاص بالمقتضيين للترحم، وتخصيص ضرر الإسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة، وإطلاقها وتعليله بأن الله يغفر الذنوب جميعاً، ووضع اسم ﴿الله﴾ موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الإطلاق والتأكيد بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «ما أحب أن تكون لي الدنيا وما فيها بها، فقال رجل يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة ثم قال: ألا ومن أشرك ثلاث مرات». وما روي أن أهل مكة قالوا: يزعم محمد أن من عبد الوثن وقتل النفس بغير حق لم يغفر له فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس فترلت. وقيل في عياش والوليد بن الوليد في جماعة افتتنوا أو في الوحشي لا ينفي عمومها وكذا قوله:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنها لا تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن التوبة والإخلاص في العمل وتنافي الوعيد بالعذاب.

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦).

﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه، أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ، ولعله ما هو أنجى وأسلم كالإنابة والمواظبة على الطاعة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمجيئه فتداركوا.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ كَرَاهَةً أَن تَقُولَ وَتَكْثِيرَ «نَفْسٍ»﴾ لأن القائل بعض الأنفس أو للتكثير كقول الأعشى: وَرُبَّ بَقِيعٍ لَّوْهَتْ بِجَوْهٍ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضِباً يٰٓأَحْسَرْتَنِي﴾ وقرئ بالياء على الأصل. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾ بما قصرت. ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ في جانبه أي في حقه وهو طاعته. قال سابق البربري:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جُنْبٍ وَامِي لَهُ كَبِدٌ حَزَىٰ عَلَيْكَ تَقَطَّعَ
وهو كناية فيها مبالغة كقوله:

إِنَّ السَّمَاخَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنُّدَىٰ فِي قُبَّةٍ ضَرَبَتْ عَلَىٰ ابْنِ الْحَبْرِجِ

وقيل ذاته على تقدير مضاف كالطاعة وقيل في قربه من قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنبِ﴾ وقرئ «في ذكر الله». ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله ومحل ﴿إِن كُنتُ﴾ نصب على الحال كأنه قال فرطت وأنا ساخر.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٥٩).

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بالإرشاد إلى الحق. ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ الشرك والمعاصي.
﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل، وأو للدلالة على أنها لا تخلوا من هذه الأقوال تحيراً وتعللاً بما لا طائل تحته.

﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ رد من الله عليه لما تضمنه قوله ﴿لو أن الله هداني﴾ من معنى النفي وفصله عنه لأن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المودود يخل بالنظم المطابق للوجود لأنه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة، وهو لا يمنع تأثير قدرة الله فعل العبد ولا ما فيه من إسناد الفعل إليه كما عرفت وتذكير الخطاب على المعنى، وقرئ بالتأنيث للنفس.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) وَيُنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارَتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦١).

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يجوز كاتخاذ الولد. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل، والجملة حال إذ الظاهر أن ترى من رؤية البصر واكتفى فيها بالضمير عن الواو. ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مقام. ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقرير لأنهم يرون كذلك.

﴿وَيُنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وقرئ «وينجي». ﴿بِمَقَارَتِهِمْ﴾ بفلاحهم مفعلة من الفوز وتفسيرها بالنجاة تخصيصها بأهم أقسامه وبالسعادة والعمل الصالح إطلاق لها على السبب، وقرأ الكوفيون غير حفص بالجمع تطبيقاً له بالمضاف إليه والباء فيها للسببية صلة لينجي أو لقوله: ﴿لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو حال أو استئناف لبيان المفازة.

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٣).

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من خير وشر وإيمان وكفر. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، وهو كناية عن قدرته وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاختصاص، لأن الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا من يده مفاتيحها، وهو جمع مقلد أو مقلاد من قلده إذا ألزمته، وقيل جمع إقليد معرب إكليد على الشذوذ كمذاكير. وعن عثمان رضي الله عنه: أنه سأل النبي ﷺ عن المقاليد فقال «تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير». والمعنى على هذا أن الله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السموات والأرض من تكلم بها أصابه. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ متصل بقوله ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ وما بينهما اعتراض للدلالة على أنه مهيمن على العباد مطلع على أفعالهم مجاز عليها، وتغيير

النظم للإشعار بأن العمدة في فلاح المؤمنين فضل الله وفي هلاك الكافرين أن خسروا أنفسهم، وللتصريح بالوعد والتعريض بالوعيد قضية للكرم أو بما يليه، والمراد بآيات الله دلائل قدرته واستبداده بأمر السموات والأرض، أو كلمات توحيده وتمجيده وتخصيص الخسار بهم لأن غيرهم ذو حظ من الرحمة والثواب.

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾.

﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدْ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي أغفِر الله أعبد بعد هذه الدلائل والمواعيد، و «تأمروني» اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك لفرط غباوتهم، ويجوز أن ينتصب غير بما دل عليه تأمروني أن أعبد لأنه بمعنى تعبدوني على أن أصله تأمروني أن أعبد فحذف أن ورفع كقوله:

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَخْضِرِ الْوَعَى

ويؤيده قراءة «اعبد» بالنصب، وقرأ ابن عامر «تأمروني» بإظهار النونين على الأصل ونافع بحذف الثانية فإنها تحذف كثيراً.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من الرسل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كلام على سبيل الفرض والمراد به تهيج الرسل وإقنات الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح، وأن يكون على التقييد بالموت كما صرح به في قوله «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم» وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبُذْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاغْبُذْ﴾ رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على الاختصاص لم يكن كذلك. «وكن من الشاكرين» إنعامه عليك وفيه إشارة إلى موجب الاختصاص.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ما قدروا عظمتهم في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به، وقرئ بالتشديد. «وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» تنبيه على عظمتهم وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأوهام بالإضافة إلى قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبض واليمين حقيقة ولا مجازاً كقولهم: شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبض وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة. وقرئ بالنصب على الظرف تشبيهاً للمؤقت بالمبهم، وتأکید «الأرض» بالجميع لأن المراد بها الأرضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة. وقرئ «مطويات» على أنها حال و «السموات» معطوفة على «الأرض» منظومة في حكمها. «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ما أبعد وأعلى من هذه قدرته وعظمتهم عن إشراكهم، أو ما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني المرة الأولى. ﴿فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خر ميتاً أو مغشياً عليه. ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ قيل جبريل وميكائيل وإسرافيل فإنهم يموتون بعد، وقيل حملة العرش. ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ نفخة أخرى وهي تدل على أن المراد بالأولى ﴿ونفخ في الصور نفخة واحدة﴾ كما صرح به في مواضع، وأخرى تحتل النصب والرفع. ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قائمون من قبورهم أو متوقفون، وقرئ بالنصب على أن الخبر. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ وهو حال من ضميره والمعنى: يلقبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُصِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه «نور» لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما سمي الظلم ظلمة. وفي الحديث «الظلم ظلمات يوم القيامة». ولذلك أضاف اسمه إلى «الأرض» أو بنور خلق فيها بلا واسطة أجسام مضيئة ولذلك أضافه الى نفسه. ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ للحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه، أو صحائف الأعمال في أيدي العمال، واكتفى باسم الجنس عن الجمع. وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف ﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ الذين يشهدون للآمم وعليهم من الملائكة والمؤمنين، وقيل المستشهدون. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين العباد. ﴿بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ جزاءه. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم، ثم فصل التوفية فقال:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَشِّرْهُم بِمَوْتِ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أفواجا متفرقة بعضها في أثر بعض على تفاوت أقدامهم في الضلالة والشرارة، جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت إذ الجماعة لا تخلو عنه، أو من قولهم شاة زمرة قليلة الشعر ورجل زمر قليل المروءة وهي الجمع القليل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ليدخلوها و ﴿حتى﴾ وهي التي تحكي بعدها الجملة، وقرأ الكوفين ﴿فتحت﴾ بتخفيف التاء. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تقريباً وتوبيخاً. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ من جنسكم. ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث إنهم علموا توبيخهم بإتيان الرسل وتبليغ الكتب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ كلمة الله بالعذاب علينا وهو الحكم عليهم بالشقاوة، وأنهم من أهل النار ووضع الظاهر فيه موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بالكفرة، وقيل هو قوله ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبهم القائل لتحويل ما يقال لهم. ﴿فَبَشِّرْهُم بِمَوْتِ﴾ مكان. ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللام فيه للجنس والمخصوص بالذم سبق ذكره، ولا ينافي إشعاره بأن مثاهم في النار لتكبرهم عن الحق أن يكون دخولهم فيها لأن كلمة العذاب حقت عليهم، فإن تكبرهم وسائر مقابحهم مسببة عنه كما قال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل

من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة. وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ﴾ إسراراً بهم إلى دار الكرامة، وقيل سيق مراكبهم إذ لا يذهب بهم إلا راكبين. ﴿زُمَرًا﴾ على تفاوت مراتبهم في الشرف وعلو الطبقة. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ حذف جواب إذا للدلالة على أن لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف، وأن أبواب الجنة تفتح لهم قبل مجيئهم غير منتظرين، وقرأ الكوفيون ﴿فُتِحَتْ﴾ بالتخفيف. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتریکم بعد مكروه. ﴿طِبْتُمْ﴾ طهرتم من دنس المعاصي. ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود فيها، والفاء للدلالة على أن طيبهم سبب لدخولهم وخلودهم، وهو لا يمنع دخول العاصي بعفوه لأنه مطهره.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ بالبعث والثواب. ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة، وإيراثها تملیکها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي يتبوأ كل منا في أي مقام أَرَادَهُ من جنته الواسعة، مع أن في الجنة مقامات معنوية لا يتمنع واردة. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الجنة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ﴾ محذقين. ﴿مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي حوله و ﴿مِنْ﴾ مزيدة أو لابتداء الحذف. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حال ثانية أو مقيدة للأولى، والمعنى ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً به، وفيه إشعار بأن منتهى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في صفات الحق. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين الخلق بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينهم أو الملائكة وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين». عن عائشة رضي الله عنها: «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر» والله أعلم.

(٤٠) سورة المؤمن

مكية وآيها خمس وثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ .

﴿حَمِّ﴾ أماله ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافع برواية ورش وأبو عمرو بين بين، وقرئ بفتح الميم على التحريك لالتقاء الساكنين، أو النصب بإضمار اقرأ ومنع صرفه للتعريف والتأنيث، أو لأنها على زنة أعجمي كقائيل وهابيل .

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ لعل تخصيص الوصفين لما في القرآن من الإعجاز والحكم الدال على القدرة الكاملة والحكمة البالغة .

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ صفات أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود منه، والإضافة فيها حقيقة على أنه لم يرد بها زمان مخصوص، وأريد بـ ﴿شديد العقاب﴾ مشددة أو الشديد عقابه فحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس، أو إبدال وجعله وحده بدلاً مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد، أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر فيكون للذنوب باق وذلك لمن لم يتب فإن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» . والتوب مصدر كالتوبة وقيل جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل رجحانها . ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلي على عبادته . ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيع والعاصي .

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ٤﴾ .

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لما حقق أمر التنزيل سجل بالكفر على المجادلين فيه بالطمع وإدحاض الحق لقوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ وأما الجدل فيه لحل عقده واستنباط حقائقه وقطع تشبث أهل الزيغ به وقطع مطاعنهم فيه فمن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إن جدلاً في القرآن كفر» بالتنكير مع أنه ليس جدلاً فيه على الحقيقة . ﴿فَلَا يَغْرُزُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ فلا يغرك إهمالهم وإقبالهم في دنياهم وتقلبهم في بلاد الشام واليمن بالتجارات المربحة فإنهم مأخوذون عما قريب بكفرهم أخذ من قبلهم كما قال :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِكُلِّ ظَالِمٍ عَذَابُهُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٦﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزبوا على الرسل وناصروهم بعد قوم نوح كعاد وثمود. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ «يرسولهم» وقرىء «برسولها». ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيب وقتل من الأخذ بمعنى الأسر. ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بما لا حقيقة له. ﴿لِيُذْخِصُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليزيلوه به. ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ بالإهلاك جزاء لهم. ﴿فَكَيفَ كَانَ عِقَابُ﴾ فإنكم تمررون على ديارهم وترون أثره. وهو تقرير فيه تعجيب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيده أو قضاؤه بالعذاب. ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكفرهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ بدل من كلمة «ربك» بدل الكل أو الاشتمال على إرادة اللفظ أو المعنى.

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (٧).

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الكروبيون أعلى طبقات الملائكة وأولهم وجوداً وحملهم إياه وحفيظهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، أو كناية عن قربهم من ذي العرش ومكانتهم عنده وتوسطهم في نفاذ أمره. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون الله بمجامع الثناء من صفات الجلال والإكرام، وجعل التسبيح أصلاً والحمد حالاً لأن الحمد مقتضى حالهم دون التسبيح. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخبر عنهم بالإيمان إظهاراً لفضله وتعظيماً لأهله ومساق الآية لذلك كما صرح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وإشعاراً بأن حملة العرش وسكان الفرش في معرفته سواء رداً على المجسمة واستغفارهم شفاعتهم وحملهم على التوبة وإلهامهم ما يوجب المغفرة، وفيه تنبيه على أن المشاركة في الإيمان توجب النصيح والشفقة وإن تخالفت الأجناس لأنها أقوى المناسبات كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون «ربنا» وهو بيان لـ «يستغفرون» أو حال. ﴿وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ أي وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم والمبالغة في عمومها، وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ها هنا. ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه وهو تصريح بعد إشعار للتأكيد والدلالة على شدة العذاب.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٨) ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ وعدتهم إياها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطف على هم الأول أي أدخلهم ومعهم هؤلاء ليتم سرورهم، أو الثاني لبيان عموم الوعد، وقرىء «جنة عدن» و«صلح» بالضم و«ذريرتهم» بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنع عليه مقدور. ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته ومن ذلك الوفاء بالوعد. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ العقوبات أو جزاء السيئات، وهو تعميم بعد تخصيص، أو تخصيص بمن «صلح» أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ أي ومن تقها في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا السبب بعد ما سألوا المنسب. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمة أو الوقاية أو مجموعهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَدُونَ لَعَنَ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَفْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ

فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِي فَأَعْرَفْنَا بِدُثُونِنَا قَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادُونَ﴾ يوم القيامة فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ الله أَكْبَرَ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم أنفسكم الأمانة بالسوء. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرف لفعل دل عليه المقت الأول لا له لأنه أخبر عنه، ولا للثاني لأن مقتهم أنفسهم يوم القيامة حين عابوا جزاء أعمالهم الخبيثة إلا أن يؤول بنحو: بالصَّيْفِ ضَيَعَتِ اللَّبَنُ. أو تعليل للحكم وزمان المقتين واحد.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي﴾ إمامتين بأن خلقنا أمواتاً أولاً ثم صيرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالنا، فإن الإمامة جعل الشيء عادم الحياة ابتداءً أو بتصيير كالتصغير والتكبير، ولذلك قيل سبحانه من صغر البعوض وكبر الفيل، وإن خص بالتصيير فاختيار الفاعل المختار أحد مفعوليه تصيير وصرف له عن الآخر. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِي﴾ الإحياء الأولى وإحياء البعث. وقيل الإمامة الأولى عند انقضاء الأجل والثانية في القبر بعد الإحياء للسؤال والإحياء ما في القبر والبعث، إذ المقصود اعترافهم بعد المعايينة بما غفلوا عنه ولم يكتفوا به ولذلك تسبب بقوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِدُثُونِنَا﴾ فإن اعترافهم لها من اغترارهم بالدنيا وإنكارهم البعث. ﴿قَهْلَ إِلَى خُرُوجٍ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريق فنسلكه وذلك إنما يقولونه من فرط قنوطهم تعللاً وتحيراً ولذلك أجبوا بقوله:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مَّآبِتَكُمْ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أنه. ﴿إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ﴾ متحداً أو توحد وحده فحذف الفعل وأقيم مقامه في الحالية. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ بالإشراك. ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحق للعبادة حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد الدائم. ﴿الْعَلِيِّ﴾ عن أن يشرك به ويسوى بغيره. ﴿الْكَبِيرِ﴾ حيث حكم على من أشرك وسوى به بعض مخلوقاته في استحقاق العبادة بالعذاب السرمد.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ﴾ الدالة على التوحيد وسائر ما يجب أن يعلم تكميلاً لنفوسكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أسباب رزق كالمطر مراعاة لمعاشكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات التي هي كالمركوزة في العقول لظهورها المغفول عنها للانهماك في التقليد واتباع الهوى. ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن الإنكار بالإقبال عليها والتفكر فيها، فإن الجازم بشيء لا ينظر فيما ينافيه.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِمَّنْ أَمَرَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿١٥﴾

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم وشق عليهم. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران آخران للدلالة على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرد في الألوهية، فإن من ارتفعت درجات كماله بحيث لا يظهر دونها كمال وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به، وقيل الدرجات مراتب المخلوقات أو مصاعد الملائكة إلى العرش أو السموات أو درجات الثواب. وقرئ «رَفِيعٌ» بالنصب على المدح. ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِمَّنْ أَمَرَهُ﴾ خبر رابع للدلالة على أن الروحانيات أيضاً مسخرات لأمره بإظهار آثارها وهو الوحي، وتمهيد للنبوة بعد تقرير التوحيد والروح الوحي ومن أمره بيانه لأنه أمر بالخير أو مبدؤه والأمر هو الملك المبلغ. ﴿عَلَىٰ مَن

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» يختاره للنوبة، وفيه دليل على أنها عطائية. ﴿لِيُنْزِلَ﴾ غاية الإلقاء والمستكن فيه لله، أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني. ﴿يَوْمَ الثَّلَاقِ﴾ يوم القيامة، فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ أَيْ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ خارجون من قبورهم أو ظاهرين لا يسترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالهم وسرائرهم. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم، وهو تقرير لقوله ﴿هم بَارِزُونَ﴾ وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فنانقة بذلك دائماً.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كأنه نتيجة لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذتها وألمها. ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعاً.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ ﴿١٨﴾

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قريبا، أو الخطة ﴿الأرزاق﴾ وهي مشارفتهم النار وقيل الموت. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفع عن أماكنها فتلتصق بحلقوقهم فلا تعود فيترحوا ولا تخرج فيستريحوا. ﴿كَظِيمِينَ﴾ على التغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله: ﴿فظلمت أعناقهم لها خاضعين﴾. أو من مفعول ﴿أنذرهم﴾ على أنه حال مقدرة. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾ قريب مشفق. ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ ولا شفيع مشفع، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه، أو خيانة الأعين. ﴿وما تخفي الصدور﴾ من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء ﴿والله يقضي بالحق﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه بـ ﴿خائنة الأعين﴾ وقضائه بالحق ووعد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما ﴿يدعون من دونه﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ

قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود. ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة وتمكناً، وإنما جيء بالفصل وحقه أن يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه. وقرأ ابن عامر «أشد منكم» بالكاف. ﴿وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مثل القلاع والمدائن الحصينة. وقيل المعنى وأكثر آثاراً كقوله: متقلداً سيفاً ورمحاً. ﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾ يمنع العذاب عنهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الأخذ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الأحكام الواضحة. ﴿فَكَفَرُوا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن. ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَكَانَ قُلُوبُهُمْ مُّصْجِرَةً ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ يعني المعجزات. ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وحجة قاهرة ظاهرة، والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيماً لشأنه.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ وَكَانَ قُلُوبُهُمْ مُّصْجِرَةً﴾ يعنون موسى عليه الصلاة والسلام، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربهم زماناً.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي أعيذوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام. ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ في ضياع، ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا يكفونه عن قتله ويقولون إنه ليس الذي تخافه بل هو ساحر، ولو قتلته ظن أنك عجزت عن معارضته بالحجة وتعلله بذلك مع كونه سفاكاً في أهون شيء دليل على أنه يتقن أنه نبي فخاف من قتله، أو ظن أنه لو حاوله لم يتيسر له ويؤيده قوله. ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ فإنه تجلد وعدم مبالاة بدعائه. ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ إن لم أقتله. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أن يغير ما أنتم عليه من عبادته وعبادة الأصنام لقوله: ﴿وِيلَكُمْ وَالْهَتِكُمْ﴾. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم من التحارب والتهاجر إن لم يقدر أن يبطل دينكم بالكلية. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالواو على معنى الجمع، وابن كثير وابن عامر والكوفيون غير حفص بفتح الياء والهاء ورفع ﴿الفساد﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ أي لقومه لما سمع بكلامه. ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ صدر الكلام بأن تأكيداً وإشعاراً على أن السبب المؤكد في دفع الشر هو العياذ بالله، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفاظ والتربية، وإضافته إليه وإليهم حثاً لهم على موافقته لما في تظاهر الأرواح من

استجلاب الإجابة، ولم يسم فرعون وذكر وصفاً يعمه وغيره لتعميم الإستعاذة ورعاية الحق والدلالة على الحامل له على القول. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عدت» فيه وفي سورة «الدخان» بالإدغام وعن نافع مثله.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ۝٢٨﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ من أقاربه. وقيل «من» متعلق بقوله: «يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» والرجل إسرائيلي أو غريب موحد كان يناقهم. «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا» أتقصدون قتله. «أَن يَقُولَ» لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير روية وتأمل في أمره. «رَبِّيَ اللَّهُ» وحده وهو في الدلالة على الحصر مثل صديقي زيد. «وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» المتكثرة الدالة على صدقه من المعجزات والاستدلالات. «مِن رَّبِّكُمْ» أضافه إليهم بعد ذكر البينات احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعتراف به، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: «وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ» لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه إلى قتله. «وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» فلا أقل من أن يصيبكم بعضه، وفيه مبالغة في التحذير وإظهار للإنصاف وعدم التعصب، ولذلك قدم كونه كاذباً أو يصيبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض مواعيده، كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالاً عندهم وتفسير الـ «بعض» بالكل كقول لييد:

تَرَكَ أَمَكْنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ الثُّفُوسِ حَمَامُهَا

مردود لأنه أراد بالـ «بعض» نفسه. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ» احتجاج ثالث ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات ولما عضده بتلك المعجزات.

وثانيهما: أن من خذله الله أهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله. ولعله أراد به المعنى الأول وخيل إليهم الثاني لتلين شكيמתهم، وعرض به لفرعون بأنه «مسرف كذاب» لا يهديه الله سبيل الصواب وطريق النجاة.

﴿يَقُولُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٢٩﴾.

﴿يَا قَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالين. «فِي الْأَرْضِ» أرض مصر. «فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا» أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فإنه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد، وإنما أدرج نفسه في الضميرين لأنه كان منهم في القرابة وليريهم أنه معهم ومساهمهم فيما ينصح لهم. «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ» ما أشير إليكم. «إِلَّا مَا أَرَىٰ» وأستصوبه من قتله وما أعلمكم إلا ما علمت من الصواب وقلبي ولساني متواطئان عليه. «وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» طريق الصواب، وقرئ بالتشديد على أنه فعال للمبالغة من رشد كعلام، أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لأنه مقصور على السماع أو للنسبة إلى الرشد كمواج وبتات.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ ۝٣١﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ في تكذيبه والتعرض له. «مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ» مثل أيام

الأمم الماضية يعني وقائعهم، وجمع «الأحزاب» مع التفسير أغنى عن جمع «اليوم».

﴿مِثْلُ ذَابٍ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثل جزاء ما كانوا عليه دائماً من الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلي الظالم منهم بغير انتقام، وهو أبلغ من قوله: ﴿وما ريك بظلام للمبيد﴾ من حيث إن المنفي فيه حدوث تعلق إرادته بالظلم.

﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۝٣٢﴾ يَوْمَ تُولُونَ مُذَبِّرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم القيامة ينادي فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار كما حكى في «الأعراف». وقرئ بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله «يوم يفر المرء من أخيه».

﴿يَوْمَ تُولُونَ﴾ عن الموقف. «مُذَبِّرِينَ» منصرفين عنه إلى النار. وقيل فارين عنها. ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم من عذابه. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝٣٤﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ يوسف بن يعقوب على أن فرعون فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد أو سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف. «مِنْ قَبْلُ» من قبل موسى. «بِالْبَيِّنَاتِ» بالمعجزات. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ من الدين. «حَتَّى إِذَا هَلَكَ» مات. «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا» ضمناً إلى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده، أو جزماً بأن لا يبعث من بعده رسول مع الشك في رسالته، وقرئ «لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ» على أن بعضهم يقرر بعضاً بنفي البعث. «كَذَلِكَ» مثل ذلك الضلال. «يُضِلُّ اللَّهُ» في العصيان. «مِنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» شك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ۝٣٥﴾.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ بدل من الموصول الأول لأنه بمعنى الجمع. «بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» بغير حجة بل إما بتقليد أو بشبهة داحضة. «كُفْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» فيه ضمير من وإفراده للفظ، ويجوز أن يكون «الَّذِينَ» مبتدأ وخبره «كُفْرٌ» على حذف مضاف أي: وجدال الذين يجادلون كبر مقتاً أو بغير سلطان وفاعل «كُفْرٌ» أي كبر مقتاً مثل ذلك الجدال فيكون قوله: «يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ» استئنافاً للدلالة على الموجب لجدهم. وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان قلب بالتونين على وصفه بالتكبر والتجبر لأنه منبعهما كقولهم: رأت عيني وسمعت أذني، أو على حذف مضاف أي على كل ذي قلب متكبر.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنَى صَرَمًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَيَّ إِلَهَ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي بَبَابٍ مُنْتَهَى ۝٣٧﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِي صَرِّحاً﴾ بناء مكشوفاً عالياً من صرح الشيء إذا ظهر. ﴿لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ﴾ الطرق.

﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ بيان لها وفي إبهامها ثم إيضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع إلى معرفتها. ﴿فَأُطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ عطف على ﴿أَبْلُغَ﴾. وقرأ حفص بالنصب على جواب الترجي ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الأرضية، فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه، أو أن يرى فساد قول موسى بأن أخباره من إله السماء يتوقف على إطلاعه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتى إلا بالصعود إلى السماء وهو مما لا يقوى عليه الإنسان، وذلك لجهله بالله وكيفية استنباطه. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ في دعوى الرسالة. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ ومثل التزيين، ﴿رُئِيَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الرشاد، والفاعل على الحقيقة هو الله تعالى ويدل عليه أنه قرىء زين بالفتح وبالتوسط الشيطان. وقرأ الحجازيان والشامي وأبو عمرو ﴿وَصُدَّ﴾ على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التموهيات والشبهات ويؤيده: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي خسارة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَنْقُورُ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ يعني مؤمن آل فرعون. وقيل موسى عليه الصلاة والسلام. ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ﴾ بالدلالة. ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما عليه فرعون وقومه سبيل الغي.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ تمتع يسير لسرعة زوالها. ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لخلودها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بمثلها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه ورحمة، ولعل تقسيم العمال وجعل الجزاء جملة إسمية مصدرة باسم الإشارة، وتفضيل الثواب لتغليب الرحمة، وجعل العمل عمدة والإيمان حالاً للدلالة على أنه شرط في اعتبار العمل وأن ثوابه أعلى من ذلك.

﴿وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة واهتماماً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نصحه، وعطفه على النداء الثاني الداخل على ما هو بيان لما قبله ولذلك لم يعطف على الأول، فإن ما بعده أيضاً تفسير لما أجمل فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأول.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية في التعدية بالى واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ﴾ بربوبيته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان فاعتقادها لا

يصح إلا عن إيقان. ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنْتُمْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (٤٣) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمَرْتُ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٤٤).

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا رد لما دعوه إليه، و ﴿جرم﴾ فعل بمعنى حق وفاعله: ﴿أَنْتُمْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حق عدم دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلاً لأنها جمادات ليس لها ما يقتضي ألوهيتها أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها. وقيل ﴿جرم﴾ بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء إليه أن لا دعوة له بمعنى ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته، وقيل فعل من الجرم بمعنى القطع كما أن بدا من لا بد فعل من التبديد وهو التفريق، والمعنى لا قطع لبطلان دعوة ألوهية الأصنام أي لا ينقطع في وقت ما فتنقلب حقاً، ويؤيده قولهم لا جرم أنه يفعل لغة فيه كالرشد والرشد. ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيان كالإشراك وسفك الدماء. ﴿هُم أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقرئ «فستذكرون» أي فسيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب. ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من النصيحة. ﴿وَأَفَؤُصْ أَمَرِي إِلَى اللَّهِ﴾ ليعصمني من كل سوء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرسهم وكأنه جواب توعدهم المفهوم من قوله:

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (٤٥) ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (٤٦).

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ شدائد مكرهم. وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعون وقومه فاستغنى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك. وقيل بطلبة المؤمن من قومه فإنه فر إلى جبل فاتبعه طائفة فوجدوه يصلي والوحوش حوله صفوفاً فرجعوا رعباً فقتلهم. ﴿سُوءُ الْعَذَابِ﴾ الغرق أو القتل أو النار.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنفة أو «النار» خبر محذوف و «يعرضون» استئناف للبيان، أو بدل و «يعرضون» حال منها، أو من الآل وقرئت منصوبة على الاختصاص أو بإضمار فعل يفسره «يعرضون» مثل يصلون، فإن عرضهم على النار إحراقهم بها من قولهم: عرض الأسارى على السيف إذا قتلوا به، وذلك لأرواحهم كما روى ابن مسعود أن أرواحهم في أجواف طيور سود تعرض على النار بكرة وعشياً إلى يوم القيامة، وذكر الوقتين تحتل التخصيص والتأييد، وفيه دليل على بقاء النفس وعذاب القبر. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آل فرعون. ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم فإنه أشد مما كانوا فيه، أو أشد عذاب جهنم. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ويعقوب وحفص «أَدْخِلُوا» على أمر الملائكة بإدخالهم النار.

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرْنَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّعْفَتَوَا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَشْتَرُ مُتْعُونًا

عَنَّا نَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ﴾ واذكر وقت تخاصمهم فيها ويحتمل العطف على غدواً. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيل له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تبعاً كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع بمعنى أتباع على الإضمار أو التجوز. ﴿فَقُلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ﴾ بالدفع أو الحمل، و ﴿نَصِيْبًا﴾ مفعول به لما دل عليه ﴿مغنون﴾ أوله بالتضمن أو مصدر كشيئاً في قوله: ﴿لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. فيكون من صلة لـ ﴿مغنون﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لأغنيا عن أنفسنا، وقرئ «كلاً» على التأكيد لأنه بمعنى كلنا وتوينة عوض عن المضاف إليه، ولا يجوز جعله حالاً من المستكن في الظرف فإنه لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم كقولك كل يوم لك ثوب. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، و ﴿لَا مَعْقِبَ لِحُكْمِهِ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَأْتِكُمْ رُسُلَكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لخزنتها، ووضع ﴿جهنم﴾ موضع الضمير للتهويل أو لبيان محلهم فيها، إذ يحتمل أن تكون ﴿جهنم﴾ أبعد دركاتهما من قولهم: بشر جهنم بعيدة القعر. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قدر يوم. ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب، ويجوز أن يكون المفعول «يوماً» بحذف المضاف و ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ بيانه.

﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَأْتِكُمْ رُسُلَكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرادوا به إلزامهم للحجة وتوبيخهم على إضاعتهم أوقات الدعاء وتعطيلهم أسباب الإجابة. ﴿قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإننا لا نجترى فيه إذ لم يؤذن لنا في الدعاء لأمثالكم، وفيه إقناط لهم عن الإجابة. ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياع لا يجاب، وفيه إقناط لهم عن الإجابة.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي في الدارين ولا ينتقض ذلك بما كان لأعدائهم عليهم من الغلبة أحياناً إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر، و ﴿الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد كصاحب وأصحاب، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة الشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾ بدل من الأول وعدم نفع المعذرة لأنها باطلة، أو لأنه لم يؤذن لهم فيعتذروا. وقرأ غير الكوفيين ونافع بالناء. ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد عن الرحمة. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ جهنم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ ما يهتدى به في الدين من المعجزات والصحف والسرائع. ﴿وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ﴾ وتركنا عليهم بعده من ذلك التوراة.

﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾ هداية وتذكرة أو هادياً ومذكراً. ﴿لأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۖ﴾ (٥٥).

﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركين. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بالنصر لا يخلفه، واستشهد بحال موسى وفرعون. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ وأقبل على أمر دينك وتدارك فرطاتك بترك الأولى والاهتمام بأمر العدا بالاستغفار، فإنه تعالى كافيك في النصر إظهار الأمر. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ ودم على التسبيح والتحميد لربك. وقيل صلّ لهذين الوقتين، إذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشياً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ﴾ (٥٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ عام في كل مجادل مبطل وإن نزل في مشركي مكة أو اليهود حين قالوا: لست صاحبنا بل هو المسيح بن داود يبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الأنهار. ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكير والتعلم، أو إرادة الرياسة أو أن النبوة والملك لا يكونان إلا لهم. ﴿مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ ببالغي دفع الآيات أو المراد. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ فالتجىء إليه. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۖ﴾ (٥٨).

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ فمن قدر على خلقها مع عظمها أولاً من غير أصل قدر على خلق الإنسان ثانياً من أصل، وهو بيان لأشكال ما يجادلون فيه من أمر التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لفرط غفلتهم واتباعهم أهواءهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الغافل والمستبصر. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ والمحسن والمسيء فينبغي أن يكون لهم حال يظهر فيها التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادة لا في المسيء لأن المقصود نفي مساوئته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة، والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على ﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكر ما قليلاً يتذكرون، والضمير للناس أو الكفار. وقرأ الكوفيون بالتاء على تغليب المخاطب، أو الالتفات أو أمر الرسول بالمخاطبة.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ﴾ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۖ﴾ (٦٠).

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوح الدلالة على جوازها وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدقون بها لقصور نظرهم على ظاهر ما يحسون به.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ اعبدونني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أثبكم لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿صَاغِرِينَ، وَإِنْ فُسِّرَ الدُّعَاءُ بِالسُّؤَالِ كَانَ الِاسْتِكْبَارُ الصَّارِفُ عَنْهُ مَنْزَلاً مَنْزِلَةً لِلْمِبَالِغَةِ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ فَإِنَّهُ مِنْ أَبْوَابِهَا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو بَكْرٍ ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الْخَاءِ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لَتَسْتَرِيحُوا فِيهِ بِأَنْ خَلَقَهُ بَارِداً مُظْلِماً لِيُؤْدِيَ إِلَى ضَعْفِ الْحَرَكَاتِ وَهَدْوِ الْحَوَاسِ. ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يَبْصُرُ فِيهِ أَوْ بِهِ، وَإِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مُجَازٌ فِيهِ مِبَالِغَةٌ وَلِذَلِكَ عُدِلَ بِهِ عَنِ التَّعْلِيلِ إِلَى الْحَالِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لَا يَوَازِيهِ فَضْلٌ، وَلِلْإِشْعَارِ بِهِ لَمْ يَقُلْ لِمَفْضَلٍ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لَجَهْلِهِمْ بِالنِّعَمِ وَإِغْفَالِهِمْ مَوَاقِعَ النِّعَمِ، وَتَكَرُّرِ النَّاسِ لِتَخْصِيصِ الْكَفَرَانِ بِهِمْ.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفَكُونَ ﴿١٢﴾﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الْمَخْصُوصُ بِالْأَفْعَالِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْأُلُوهِيَّةِ وَالرَّبُوبِيَّةِ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ تَخْصُصُ الْلاحِقَةَ السَّابِقَةَ وَتَقَرُّرُهَا، وَقُرِئَ «خَالِقُ» بِالنَّصْبِ عَلَى الْإِخْتِصَاصِ فَيَكُونُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اسْتِنْفَافاً بِمَا هُوَ كَالنَّاتِجَةِ لِلْأَوْصَافِ الْمَذْكُورَةِ. ﴿فَاتَى تَوْفَكُونَ﴾ فَكَيْفَ وَمَنْ أَيْ وَجْهَ تَصْرِفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ.

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أَيْ كَمَا أَفْكُوا أَفَكَ عَنْ الْحَقِّ كُلِّ مَنْ جَحَدَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلَهَا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ بِصُورَةٍ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ اسْتِدْلَالُ ثَانٍ بِأَفْعَالٍ أُخْرٍ مَخْصُوصَةٌ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ بِأَنْ خَلَقَكُمْ مُنْتَصِبِ الْقَامَةِ بِأَدَى الْبَشَرَةِ مُتَنَاسِبِ الْأَعْضَاءِ، وَالتَّخْطِيطَاتِ مَتَهِيًّا لِمَزَالَةِ الصَّنَائِعِ وَاکْتِسَابِ الْكِمَالَاتِ. ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ اللَّذَائِدِ. ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فَإِنْ كُلُّ مَا سِوَاهُ مَرْبُوبٌ مُفْتَقِرٌ بِالذَّاتِ مُعْرِضٌ لِلزَّوَالِ.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الْمَتَفَرِّدُ بِالْحَيَاةِ الذَّاتِيَّةِ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إِذْ لَا مُوجِدَ سِوَاهُ وَلَا مُوجُودَ يَسَاوِيهِ أَوْ يَدَانِيهِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ. ﴿فَكَادَعُوهُ﴾ فَاعْبُدُوهُ. ﴿مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أَيْ الطَّاعَةَ مِنَ الشُّرْكِ وَالرِّيَاءِ. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَائِلِينَ لَهُ.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ مِنَ الْحُجُجِ وَالْآيَاتِ أَوْ مِنَ الْآيَاتِ فَإِنَّهَا مُقَوِّيةٌ لِأَدْلَةِ الْعَقْلِ مُنْهِيَةً عَلَيْهَا. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بِأَنْ أَتَّقَادَ لَهُ أَوْ أَخْلَصَ لَهُ دِينِي.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُخَيِّتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أطفالا، والتوحيد لإرادة الجنس أو على تأويل كل واحد منكم. ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ اللام فيه متعلقة بمحذوف تقديره: ثم يبيقكم لتبلغوا وكذا في قوله: ﴿ثُمَّ لَيَكُونُوا شُيُوخًا﴾ ويجوز عطفه على ﴿لتبلغوا﴾ وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام ﴿شُيُوخًا﴾ بضم الشين. وقرئ «شيخاً» كقوله ﴿طِفْلاً﴾. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ من قبل الشيخوخة أو بلوغ الأشد. ﴿وَلْيَبْلُغُوا﴾ ويفعل ذلك لتبلغوا: ﴿أَجْلاً مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحجج والعبر.

﴿هُوَ الَّذِي يُخَيِّتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ فإذا أَرَادَهُ. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج في تكوينه إلى عدة وتجشم كلفة، والفاء الأولى للدلالة على أن ذلك نتيجة ما سبق من حيث إنه يقتضي قدرة ذاتية غير متوقفة على العدد والمواد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصْرَفُونَ﴾ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهِ وَتَكْرِيرِ ذِمِّ الْمَجَادِلَةِ لَتَعْدُدِ الْمَجَادِلَ، أَوِ الْمَجَادِلَ فِيهِ، أَوِ لِلتَّكْذِيبِ.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن أو بجنس الكتب السماوية. ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ من سائر الكتب أو الوحي والشرائع. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاء تكذيبهم.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَوْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ظرف لـ ﴿يعلمون﴾ إذ المعنى على الاستقبال، والتعبير بلفظ الماضي لتيقنه. ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على ﴿الأغلال﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ والعائد محذوف أي يسحبون بها، وهو على الأول حال. وقرئ «والسلاسل يسحبون» بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية، ﴿والسلاسل﴾ بالجر حملاً على المعنى ﴿إِذِ الْإِغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ بمعنى أعناقهم في الأغلال، أو إضماراً للباء ويدل عليه القراءة به. ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يحرقون من سجر التنور إذا ملأه بالوقود، ومنه السجير للصديق كأنه سجر بالحب أي ملئ. والمراد أنهم يعذبون بأنواع من العذاب وينقلون من بعضها إلى بعض.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ غابوا عنا وذلك قبل أن تقرن بهم آلهتهم، أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم. ﴿بَلْ لَوْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً بعبادتهم فإنهم ليسوا شيئاً يعتد به كقولك: حسبته شيئاً فلم يكن. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضلال. ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ حتى لا يهتدوا إلى شيء ينفعهم في الآخرة، أو يضلهم عن آلهتهم حتى لو

تطالبوا لم يتصادفوا.

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ اَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ الْمَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الإضلال. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ تبطرون وتتكبرون. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان. ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ توسعون في الفرح، والعدول إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ. ﴿اَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأبواب السبعة المقسومة لكم. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود. ﴿فَبئسَ الْمَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق جهنم، وكان مقتضى النظم فبئس مدخل المتكبرين ولكن لما كان الدخول المقيد بالخلود بسبب الثواء عبر بالمشوى.

﴿فَاضِرٍ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِذَا نُرِيَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَاضِرٍ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بهلاك الكافرين. ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالة. ﴿فَإِذَا نُرِيَكَ﴾ فإن نرك، وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحق مع إن وحدها. ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر. ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ قبل أن تراه. ﴿فَإِنَّا يَرْجِعُونَ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿تَوَفَّيْنَاكَ﴾، وجواب ﴿نُرِيَكَ﴾ محذوف مثل فذاك، ويجوز أن يكون جواباً لهما بمعنى إن نعذبهم في حياتك أو لم نعذبهم فإننا نعذبهم في الآخرة أشد العذاب، ويدل على شدته الاقتصار بذكر الرجوع في هذا المعرض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والمذكور قصصهم أشخاص معدودة. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن المعجزات عطايا قسمها بينهم على ما اقتضته حكمته كسائر القسم، ليس لهم اختيار في إظهار بعضها والاستبداد بآياتان المقترح بها. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا أو الآخرة. ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المحق وتعذيب المبطل. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون باقتراح الآيات بعد ظهور ما يغيثهم عنها.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا هُنَّ عَالِيَاتٌ لِقُوتِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ عَالِيَاتٌ لِقُوتِكُمْ وَهِيَ خَالِدَةٌ فِي الْأَنْعَامِ لَكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإن من جنسها ما يؤكل كالغنم ومنها ما يؤكل ويركب كالإبل والبقر.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرة عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البر. ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ في البحر. ﴿تُخَمَلُونَ﴾ وإنما قال ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ ولم يقل في الفلك للمزاوجة، وتغيير النظم في الأكل لأنه في حيز الضرورة. وقيل لأنه يقصد به التعيش وهو من الضروريات والتلذذ والركوب والمسافرة عليها قد تكون لأغراض دينية واجبة أو مندوبة، أو للفرق بين العين والمنفعة.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ دلالة الدالة على كمال قدرته وفرط رحمته. ﴿فَإِنِّي آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي فأي آية من تلك

الآيات. ﴿تُنَكِّرُونَ﴾ فإنها لظهورها لا تقبل الإنكار، وهو ناصب «أي» إذ لو قدرته متعلقاً بضميره كان الأولى رفعه والتفرقة بالتاء في أي أغرب منها في الأسماء غير الصفات لإبهامه.

﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ما بقي منهم من القصور والمصانع ونحوهما، وقيل آثار أقدامهم في الأرض لعظم أجرامهم. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما» الأولى نافية أو استفهامية منصوبة بـ ﴿أغنى﴾، والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة به.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو الآيات الواضحات. ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾ واستحقروا علم الرسل، والمراد بالعلم عقائدهم الزائفة وشبههم الداحضة كقوله: ﴿بل ادرك علمهم في الآخرة﴾ وهو قولهم: لا نبعث ولا نعذب، وما أظن الساعة قائمة ونحوها، وسماها علماً على زعمهم تهكماً بهم، أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو علم الأنبياء، وفرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقيل الفرح أيضاً للرسل فإنهم لما رأوا تمادي جهل الكفار وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا أَنفُسَافَهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُصْبِحُونَ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا أَنفُسَافَهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُصْبِحُونَ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ شدة عذابنا. ﴿قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَعُوا أَنفُسَافَهُمْ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُصْبِحُونَ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ يعنون الأصنام.

﴿فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِنَّمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قال: ﴿لم يك﴾ بمعنى لم يصح ولم يستقم، والفاء الأولى لأن قوله: ﴿فما أغنى﴾ كالنتيجة لقوله: ﴿كانوا أكثر منهم﴾، والثانية لأن قوله: ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ كالتفسير لقوله: ﴿فما أغنى﴾ والباقيتان لأن رؤية البأس مسببة عن مجيء الرسل وامتناع نفي الإيمان مسبب عن الرؤية. ﴿سُئِلَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ﴾ أي سن الله ذلك سنة ماضية في العباد وهي من المصادر المؤكدة. ﴿وَوَحِّسَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس، اسم مكان استعير للزمان.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».

(٤١) سورة فطلت

مكية وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

﴿حَمْدٌ﴾ إن جعلته مبتدأ فخبره:

﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وإن جعلته تعديداً للحروف فـ ﴿تَنْزِيلٌ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ لتخصيصه بالصفة وخبره:

﴿كِتَابٌ﴾ وهو على الأولين يدل منه أو خبر آخر أو خبر محذوف، ولعل افتتاح هذه السور السبع بـ ﴿حَمْدٍ﴾ وتسميتها به لكونها مصدرة ببيان الكتاب متشاكلة في النظم والمعنى، وإضافة الـ ﴿تَنْزِيلِ﴾ إلى الرحمن الرحيم للدلالة على أنه مناط المصالح الدينية والدنيوية. ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ ميزت باعتبار اللفظ والمعنى. وقرئ «فصلت» أي فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني، أو فصلت بين الحق والباطل. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على المدح أو الحال من ﴿فصلت﴾، وفيه امتنان بسهولة قراءته وفهمه. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمون العربية أو لأهل العلم والنظر، وهو صفة أخرى لـ ﴿قُرْءَانًا﴾ أو صلة لـ ﴿تَنْزِيلِ﴾، أو لـ ﴿فصلت﴾، والأول أولى لوقوعه بين الصفات.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۝٤ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٥ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ۝٦ وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ ۝٧﴾

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ للعاملين به والمخالفين له، وقرئنا بالرفع على الصفة للـ ﴿كِتَابِ﴾ أو الخبر لمحذوف. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقوله. ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تأمل وطاعة.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أغطية جمع كنان. ﴿مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ ۝٦﴾ وفي أذاننا وقرئ صمم، وأصله الثقل، وقرئ بالكسر. ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يمنعنا عن التواصل، ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ منهم ومنه بحيث استوعب المسافة المتوسطة ولم يبق فراغ. وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك ما يدعوههم إليه واعتقادهم ومج أسماعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ. ﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك أو في إبطال أمرنا. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على ديننا أو في إبطال أمرك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۚ وَأَنذَرْتُ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٨ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٩﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول والأسماع، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل، وقد يدل

عليهما دلائل العقل وشواهد النقل. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستقيموا في أفعالكم متوجهين إليه، أو فاستووا إليه بالتوحيد والإخلاص في العمل. ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما أنتم عليه من سوء العقيدة والعمل، ثم هددهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من فرط جهالتهم واستخفافهم بالله.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق، وذلك من أعظم الرذائل، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة. ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في طلب الدنيا وإنكارهم للآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ﴾ عظيم. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل، أو لا يقطع من مننت الحبل إذا قطعت. وقيل نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون.

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ (١٠).

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ في مقدار يومين، أو نوبتين وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون. ولعل المراد من ﴿الأرض﴾ ما في جهة السفلى من الأجرام البسيطة ومن خلقها ﴿في يومين﴾ أنه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها صارت أنواعاً، وكفرهم به إلحادهم في ذاته وصفاته. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ ولا يصح أن يكون له ند. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ﴿خلق الأرض في يومين﴾. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ خالق جميع ما وجد من الممكنات ومربيها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسٍ﴾ استئناف غير معطوف على ﴿خلق﴾ للفصل بما هو خارج عن الصلة. ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾ مرتفعة عليها ليظهر للنظار ما فيها من وجوه الاستبصار وتكون منافعها معرضة للطلاب. ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ وأكثر خيرها بأن خلق فيها أنواع النبات والحيوان. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أقوات أهلها بأن عين لكل نوع ما يصلحه ويعيش به، أو أقواتاً تنشأ منها بأن خص حدوث كل قوت بقطر من أقطارها، وقرىء «وقسم فيها أقواتها». ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تنمة أربعة أيام كقولك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً. ولعله قال ذلك ولم يقل في يومين للإشعار باتصالهما باليومين الأولين. والتصريح على الفلزكة. ﴿سَوَاءً﴾ أي استوت سواء بمعنى استواء، والجملة صفة أيام ويدل عليه قراءة يعقوب بالجر. وقيل حال من الضمير في أقواتها أو في فيها، وقرىء بالرفع على هي سواء. ﴿لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للناس لئلا ينسبوا هذا الحصر إلى قدر فيها الأقوات للطلابين لها.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَصَوَّرَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢).

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ قصد نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يليو على غيره، والظاهر أن ثم لتفاوت ما بين الخليقتين لا للتراخي في المدة لقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾

ودحوها متقدم على خلق الجبال من فوقها. ﴿وَمِنْ دُخَانٍ﴾ أمر ظلماني، ولعله أراد به مادتها أو الأجزاء المتصغرة التي ركبت منها ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا﴾ بما خلقت فيكما من التأثير والتأثر وأبرزاً ما أودعتكما من الأوضاع المختلفة والكائنات المتنوعة. أو ﴿ائْتِيَا﴾ في الوجود على أن الخلق السابق بمعنى التقدير أو الترتيب للرتبة، أو الإخبار أو إتيان السماء حدودها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة، وقد عرفت ما فيه أو لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما ويؤيده قراءة ﴿وَأْتِيَا﴾ من المؤاتة أي لتوافق كل واحدة أختها فيما أردت منكما. ﴿طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾ شتتا ذلك أو أبيتما والمراد إظهار كمال قدرته ووجوب وقوع مراده لا إثبات الطوع والكره لهما، وهما مصدران وقعا موقع الحال. ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ منقادين بالذات، والأظهر أن المراد تصوير تأثير قدرته فيهما وتأثرهما بالذات عنها، وتمثيلهما بأمر المطاع وإجابة المطيع الطائع كقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وما قيل من أنه تعالى خاطبهما وأقدرهما على الجواب إنما يتصور على الوجه الأول والأخير، وإنما قال طائعين على المعنى باعتبار كونهما مخاطبتين كقوله: ﴿ساجدين﴾.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ فخلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن، والضمير لـ ﴿السماء﴾ على المعنى أو مبهم، و ﴿سبع سموات﴾ حال على الأول وتمييز على الثاني. ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قيل خلق السموات يوم الخميس والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة. ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ شأنها وما يتأتى منها بأن حملها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلها بأوامره ونواهيها. ﴿وَوَرَّثْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ فإن الكواكب كلها ترى كأنها تتلألأ عليها. ﴿وَحِفْظاً﴾ أي وحفظناها من الآفات، أو من المسترقة حفظاً. وقيل مفعول له على المعنى كأنه قال: وخصصنا السماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ البالغ في القدرة والعلم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (١٤).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان بعد هذا البيان. ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ فحذرهم أن يصيبهم عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة. ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقرئ «صعقة مثل صعقة عاد وثمود» وهي المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ﴾ حال من ﴿صاعقة عادٍ﴾، ولا يجوز جعله صفة لـ ﴿صاعقة﴾ أو ظرفاً لـ ﴿أنذرتكم﴾ لفساد المعنى. ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أتوهم من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة، أو من جهة الزمن الماضي بالإنذار عما جرى فيه على الكفار، ومن جهة المستقبل بالتحذير عما أعد لهم في الآخرة، وكل من اللفظين يحتملها، أو من قبلهم ومن بعدهم إذ قد بلغتهم خبر المتقدمين وأخبرهم هود وصالح عن المتأخرين داعين إلى الإيمان بهم أجمعين، ويحتمل أن يكون عبارة عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بأن لا تعبدوا أو أي لا تعبدوا. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ إرسال الرسل. ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ برسالته. ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ على زعمكم. ﴿كَافِرُونَ﴾ إذ أنتم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٦).

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ فَتَعَزَّمُوا فِيهَا عَلَى أَهْلِهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ. ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتراراً بقوتهم وشوكتهم. قيل كان من قوتهم أن الرجل ينزع الصخرة فيقتلعها بيده. ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرة فإنه قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى، قوي على ما لا يقدر عليه أحد غيره. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعرفون أنها حق وينكرونها وهو عطف على ﴿فاستكبروا﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ باردة تهلك بشدة بردها من الصر وهو البرد الذي يصير أي يجمع، أو شديدة الصوت في هبوبها من الصرير. ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ جمع نحسة من نحس نحساً نقيض سعد سعداً، وقرأ الحجازيان والبصريان بالسكون على التخفيف أو النعت على فعل، أو الوصف بالمصدر، قيل كن آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء وما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء. ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضاف الـ ﴿عذاب﴾ إلى ﴿الخيي﴾ وهو الذل على قصد وصفه به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ وهو في الأصل صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة. ﴿وَهُمْ لَا يَنْصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل، وقرئ «ثمود» بالنصب بفعل مضمر يفسره ما بعده ومنوناً في الحاليين ويضم الثاء. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ فاختاروا الضلالة على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ صاعقة من السماء فأهلكتهم، وإضافتها إلى ﴿العذاب﴾ ووصفه بـ «الهون» للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالة. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ من تلك الصاعقة.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وقرئ «يحشر» على البناء للفاعل وهو الله عز وجل. وقرأ نافع «نحشر» بالنون مفتوحة وضم الشين ونصب «أعداء». ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يحبس أولهم على آخرهم لثلاث ينفرقوا وهو عبارة عن كثرة أهل النار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ إذا حضروها و «ما» مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأن ينطقها الله تعالى، أو يظهر عليها أثراً تدل على ما اقترف بها فتتطرق بلسان الحال.

﴿وَقَالُوا لِمَ جُلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب، ولعل المراد به نفس التعجب. ﴿قَالُوا أَنُطَقُّ اللَّهُ الَّذِي أَنُطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنُطِقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنْ تَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لِمَ جُلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ سؤال توبيخ أو تعجب، ولعل المراد به نفس التعجب. ﴿قَالُوا أَنُطَقُّ اللَّهُ الَّذِي أَنُطَقْنَا﴾ أي ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، أو ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذي أنطق كل حي، ولو أول الجواب والنطق بدلالة الحال بقى الشيء عاماً في

الموجودات الممكنة. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. يحتمل أن يكون تمام كلام الجلود وأن يكون استثناءً.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَشِيرُونَ﴾ أن يشهد عليكم سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضاحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم بها فما استترتم عنها. وفيه تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن يتحقق أنه لا يمر عليه حال إلا وهو عليه رقيب. ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك اجترأتم على ما فعلتم.

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَالْتَأَرُّ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ظنهم هذا، وهو مبتدأ وقوله: ﴿ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ﴾ خبران له ويجوز أن يكون ﴿ظنكم﴾ بدلاً و ﴿أرداكم﴾ خبراً. ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ما منحوا للاستعداد به في الدارين سبباً لشقاء المنزلين.

﴿فَإِنْ يَصِيرُوا فَالْتَأَرُّ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاص لهم عنها. ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ يسألوا العتبي وهي الرجوع إلى ما يحبون. ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى حكاية ﴿أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ وقرئ ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة.

﴿وَقَفَّضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَفَّضْنَا﴾ وقدرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿قُرْآنًا﴾ أخذاناً من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القبض على البيض وهو القشر. وقيل أصل القفّض البذل ومنه المقايضة للمعاوضة. ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا واتباع الشهوات. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة وإنكاره. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي كلمة العذاب. ﴿فِي أُمِّهِمْ﴾ في جملة أمم كقوله:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَا فُوكَا فِي فِي آخِرِينَ قَدْ أَفْكُوا
وهو حال من الضمير المجرور. ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسِ﴾ وقد عملوا مثل أعمالهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب، والضمير ﴿لَهُمْ﴾ وللا ﴿أمم﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ وعارضوه بالخرافات أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشه على القاريء، وقرئ بضم الغين والمعنى واحد يقال لغى يلغي ولغا يلغو إذا هذى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تغلبونه على قراءته.

﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المراد بهم هؤلاء القائلون، أو عامة الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيئات أعمالهم وقد سبق مثله.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ ضَلَلْنَا مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى الأسوأ. ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ خبره. ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للـ ﴿جَزَاءِ﴾ أو خبر محذوف. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ فإنها دار إقامتهم، وهو كقولك: في هذه الدار دار سرور، وتعني بالدار عينها على أن المقصود هو الصفة. ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون الحق أو يلغون، وذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ ضَلَلْنَا مِنَ الْحَيِّ وَالْإِنْسِ﴾ يعني شيطاني النوعين الحاملين على الضلالة والعصيان. وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر والسوسي ﴿أَرَنَا﴾ بالتخفيف كفخذ في فخذ، وقرأ الدوري باختلاس كسرة الراء. ﴿نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندسهما انتقاماً منهما، وقيل نجعلهما في الدرك الأسفل. ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ مكاناً أو ذلاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيته وإقراراً بوحدانيته. ﴿ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا﴾ في العمل و ﴿ثم﴾ لتراخيه عن الإقرار في الرتبة من حيث أنه مبدأ الاستقامة، أو لأنها عسر قلما تتبع الإقرار، وما روي عن الخلفاء الراشدين في معنى الاستقامة من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض فجزئياتها. ﴿تَنْزِيلَ الْمَلَائِكَةِ﴾ فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو عند الموت أو الخروج من القبر. ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم وأن مصدرية أو مخففة مقدرة بالباء أو مفسرة. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسل.

﴿تَحْنُ أُولَآئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١) نَزَّلَ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ .

﴿تَحْنُ أُولَآئِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نلهمكم الحق ونحملكم على الخير بدل ما كانت الشياطين تفعل بالكفرة. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والكرامة حيشما يتعاضد الكفرة وقرناؤهم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من اللذائذ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ما تتمنون من الدعاء بمعنى الطلب وهو أعم من الأول. ﴿نَزَّلَ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ حال من ما تدعون للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى عبادته. ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ فيما بينه وبين ربه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ تفاخراً به واتخاذاً للإسلام ديناً ومذهباً من قولهم: هذا قول فلان لمذهبه. والآية عامة لمن استجمع تلك الصفات. وقيل نزلت في النبي ﷺ وقيل في المؤذنين.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في الجزاء وحسن العاقبة و ﴿لَا﴾ الثانية مزيدة لتأكيد النفي. ﴿ادْفَعْ

بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» ادفع السيئة حيث اعترضتك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً، أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات، وإنما أخرجه مخرج الاستئناف على أنه جواب من قال؛ كيف أصنع؟ للمبالغة ولذلك وضع «أحسن» موضع الحسنة. «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» أي إذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق.

﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٣٥) ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٦).

﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ وما يلقي هذه السحبة وهي مقابلته الإساءة بالإحسان. «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا» فإنها تحبس النفس عن الانتقام. «وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة.

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ نخس شبه به وسوسته لأنها تبعث الإنسان على ما لا ينبغي كالدفع بما هو أسوأ، وجعل النزغ نازغاً على طريقة جديدة، أو أريد به نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر. «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» من شره ولا تطعه. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» لاستعدادك. «الْعَلِيمُ» بنيتك أو بصلاحك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (٣٧) ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (٣٨) ↑

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لانهما مخلوقان مأموران مثلكم. «وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» الضمير للأربعة المذكورة، والمقصود تعليق الفعل بهما إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار. «إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» فإن السجود أخص العبادات وهو موضع السجود عندنا لاقتران الأمر به، وعند أبي حنيفة آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن الامثال. «فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» من الملائكة. «يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أي دائماً لقوله: «وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ» أي لا يملون.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤٠).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل. «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» تزخرت وانتفخت بالنبات، وقرئ «ربأت» أي زادت. «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا» بعد موتها. «لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» من الإحياء والإماتة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون عن الاستقامة. «فِي آيَاتِنَا» بالطمع والتحريف والتأويل الباطل والإلغاء فيها. «لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا» فنجازيهم على إلحادهم. «أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قابل الإلقاء في النار بالإتيان آمناً بمبالغة في إحماد حال المؤمنين. «أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» تهديد شديد. «إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» وعيد بالمجازاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاِبَتٌ عَرِيزٌ﴾ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ

خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بدل من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ أو مستأنف وخبر ﴿إِنْ﴾ محذوف مثل معاندون أو هالكون، أو «أولئك ينادون» و «الذكر» القرآن. «وإنه لكتاب عزيز» كثير النفع عديم النظير أو منيع لا يتأنى إبطاله وتحريفه.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات أو مما فيه من الأخبار الماضية والأمور الآتية. «تنزيل من حكيم» أي حكيم. «حميد» يحمده كل مخلوق بما ظهر عليه من نعمه.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ .

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقول لك كفار قومك. «إلا ما قد قيل للرسول من قبلك» إلا مثل ما قال لهم كفار قومهم، ويجوز أن يكون المعنى ما يقول الله لك إلا مثل ما قال لهم. «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ» لأنبيائه. «وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» لأعدائهم، وهو على الثاني يحتمل أن يكون المقول بمعنى أن حاصل ما أوحى إليك وإليهم، وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمِيًّا﴾ جواب لقولهم: هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير «الذكر». «لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» بينت بلسان نفقه. «أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» أكلام أعجمي ومخاطب عربي إنكار مقرر للتخصيص، والأعجمي يقال للذي لا يفهم كلامه. وهذا قراءة أبي بكر وحزمة والكسائي، وقرأ قالون وأبو عمرو بالمد والتسهيل وورش بالمد وإبدال الثانية ألفاً، وابن كثير وابن ذكوان وحفص بغير المد بتسهيل الثانية وقرئ «أعجمي» وهو منسوب إلى العجم، وقرأ هشام «أعجمي» على الإخبار، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب، والمقصود إبطال مقترحهم باستلزامه المحذور، أو للدلالة على أنهم لا يتفكرون عن التعنت في الآيات كيف جاءت. «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ» إلى الحق. «وَشِفَاءٌ» لما في الصدور من الشك والشبه. «وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» مبتدأ خبره: «فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ» على تقدير هو في «آذَانِهِمْ وَقْرٌ» لقوله: «وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» وذلك لتصامهم عن سماعه وتعاميهم عما يريهم من الآيات، ومن جوز العطف على عاملين مختلفين عطف ذلك على «لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى». «أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ» أي صم، وهو تمثيل لهم في عدم قبولهم الحق واستماعهم له بمن يصاح به من مسافة بعيدة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿٤٥﴾ مَن عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ ﴿٤٦﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختلف في القرآن. «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ» وهي العدة بالقيامة وفصل الخصومة حينئذ، أو تقدير الآجال. «لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ» باستئصال المكذبين. «وَإِنَّهُمْ» وإن اليهود أو «الذين لا يؤمنون». «لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ» من التوراة أو القرآن. «مُرِيبٍ» موجب للاضطراب.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه. ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضره. ﴿وَمَا رَيْكَ بِظُلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيفعل بهم ما ليس له أن يفعله.

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَبْنَا مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ۖ﴾ (٤٧) ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٤٨).

﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي إذا سئل عنها إذ لا يعلمها إلا هو. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ من أوعيتها جمع كم بالكسر. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿من ثمرات﴾ بالجمع لاختلاف الأنواع، وقرأ بجمع الضمير أيضاً و ﴿ما﴾ نافية و ﴿من﴾ الأولى مزيدة للاستغراق، ويحتمل أن تكون موصولة معطوفة على ﴿الساعة﴾ و ﴿من﴾ مبينة بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ﴾. يمكن. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إلا مقروناً بعلمه واقعاً حسب تعلقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بزعمكم. ﴿قَالُوا أَدْنَبْنَاكَ﴾ أعلمناك. ﴿مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ من أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا عنهم لما عاينا الحال فيكون السؤال عنهم للتوبيخ، أو من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنا. وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من يشهد لهم بأنهم كانوا محقين.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يعبدون. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لا ينفعهم أو لا يروونه. ﴿وُظَلُّوا﴾ وأيقنوا. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي.

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠).

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾ لا يمل. ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ من طلب السعة في النعمة، وقرأ «من دعاء بالخير». ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضيقة. ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضل الله ورحمته وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَبَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ وقد بولغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ حقي أستحقه لمالي من الفضل والعمل، أولي دائماً لا يزول. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ تقوم. ﴿وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئن قامت على التوهم كان لي عند الله الحالة الحسنی من الكرامة، وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا فلاستحقاق لا ينفك عنه. ﴿فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلنخيرنهم. ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها. ﴿وَلَنُدِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكنهم التقصي عنه.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٢).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكر. ﴿وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ وانحرف عنه أو ذهب بنفسه وتباعد عنه بكلية تكبراً، والجانب مجاز عن النفس كالجنب في قوله: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير مستعار مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره، وهو أبلغ من الطويل إذ الطويل أطول

الامتدادين، فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي القرآن. ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ من غير نظر واتباع دليل. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضل منكم، فوضع الموصول موضع الضمير شرحاً لحالهم وتعليلاً لمزيد ضلالهم.

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ خِطْبًا ۝٥٤﴾.

﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ يعني ما أخبرهم النبي عليه الصلاة والسلام به من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية، وما يسر الله له ولخلفائه من الفتوح والظهور على ممالك الشرق والغرب على وجه خارق للعادة. ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم، أو ما في بدن الإنسان من عجائب الصنع الدالة على كمال القدرة. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن أو الرسول أو التوحيد أو الله ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يكف ربك، والباء مزيدة للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصل الكفاية به ولا تكاد تزداد في الفاعل إلا مع كفى. ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه، والمعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شيء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة، أو مطلع فيعلم حالك وحالهم، أو أو لم يكف الإنسان رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلع على كل شيء لا يخفى عليه خافية.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك، وقرئ بالضم وهو لغة كخفية وخفية. ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث والجزاء. ﴿أَلَّا يَكُنْ كُلُّ شَيْءٍ خِطْبًا﴾ عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة السجدة أعطاه الله بكل حرف عشر حسنات».

(٤٢) سورة حم عسق

مكية وهي ثلاث وخمسون آية وتسمى سورة «الشورى»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤﴾ .

﴿حَمْدٌ﴾ . ﴿عَسَقَ﴾ لعله اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعدا آيتين، وإن كانا اسماً واحداً فالفصل ليطابق سائر الحواميم، وقرئ «حم سق» .

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي مثل ما في هذه السورة من المعاني، أو إحياء مثل إحيائها أوحى الله إليك وإلى الرسل من قبلك، وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية للدلالة على استمرار الوحي وأن إحياء مثله عادته، وقرأ ابن كثير ﴿يُوحَىٰ﴾ بالفتح على أن كذلك مبتدأ و ﴿يُوحَىٰ﴾ خبره المسند إلى ضميره، أو مصدر و ﴿يُوحَىٰ﴾ مسند إلى إليك، و ﴿اللَّهُ﴾ مرتفع بما دل عليه ﴿يُوحَىٰ﴾، و ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان له مقررتان لعلو شأن الموحى به كما مر في السورة السابقة، أو بالابتداء كما في قراءة «نوحى» بالنون و ﴿العزیز﴾ وما بعده أخبار أو ﴿العزیز الحکیم﴾ صفتان. وقوله:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ خبران له وعلى الوجوه الأخر استئناف مقرر لعزته وحكمته.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾ .

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن من عظمة الله، وقيل من ادعاء الولد له. وقرأ البصريان وأبو بكر «يفطرن» بالنون والأول أبلغ لأنه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر، وقرئ «تفطرن» بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر. ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية، وتخصيصها على الأول لأن أعظم الآيات وأدلها على علو شأنه من تلك الجهة، وعلى الثاني ليدل على الانفطار من تحتهن بالطريق الأولى. وقيل الضمير للأرض فإن المراد بها الجنس. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من الشفاعة والإلهام وإعداد الأسباب المقربة إلى الطاعة، وذلك في الجملة يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعي فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد، وحيث خص بالمؤمنين فالمراد به الشفاعة. ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إذ ما من مخلوق إلا وهو ذو حظ من رحمته، والآية على الأول زيادة تقرير لعظمته وعلى الثاني دلالة على تقدسه عما نسب إليه، وإن عدم معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشعاء باستغفار الملائكة وفرط غفران الله ورحمته.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ شركاء وأنداداً. ﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾ رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَا أَنْتَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ بموكل بهم أو بموكل إليك أمرهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارة إلى مصدر ﴿يُوحِي﴾ أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكرر في القرآن في مواضع جمة فتكون الكاف مفعولاً به و ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ حال منه. ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أهل أم القرى وهي مكة شرفها الله تعالى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. ﴿وَتُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يوم القيامة يجمع فيه الخلائق أو الأرواح أو الأشباح، أو العمال والأعمال وحذف ثاني مفعولي الأول وأول مفعولي الثاني للتحويل وإيهام التعميم، وقرئ «لننذر» بالياء والفعل «للقرآن». ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ اعتراض لا محل له من الإعراب. ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي بعد جمعهم في الموقف يجمعون أولاً ثم يفرقون، والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين للدلالة الجمع عليه، وقرئنا منصوبين على الحال منهم أي وتنذر يوم جمعهم متفرقين بمعنى مشارفين للتفرق، أو متفرقين في داري الثواب والعقاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مهتدين أو ضالين. ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والحمل على الطاعة. ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي يدعمهم بغير ولي ولا نصير في عذابه، ولعل تغيير المقابلة للمبالغة في الوعيد إذ الكلام في الإنذار.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا﴾ بل اتخذوا. ﴿مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ كالأصنام. ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ جواب لشرط محذوف مثل إن أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفار. ﴿فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ مفوض إليه يميز المحق من المبطل بالنصر أو بالإثابة والمعاقبة. وقيل ﴿وما اختلفتم فيه﴾ من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكم من كتاب الله. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامع الأمور. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلات.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَيْسَ كَيْمَلِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ لَكُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خير آخر لـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أو مبتدأ خبره. ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ وقرئ بالجر على البدل من الضمير أو الوصف لإلى الله. ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ من جنسكم. ﴿أَزْوَاجًا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي وخلق للأنعام من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذُرُّكُمْ﴾ يكثركم من الذرة وهو البث وفي معناه الذر والذرو والضمير على الأول للناس، و ﴿الأنعام﴾ على تغليب المخاطبين

العقلاء. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبير وهو جعل الناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالد، فإنه كالمَنْع للبت والتكثير. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس مثله شيء يزوجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاته كما في قولهم: مثلك لا يفعل كذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفى عن يناسبه ويسد مسده كان نفيه عنه أولى، ونظيره قول رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب: أَلَا وَفِيهِمُ الطُّيُبُ الطَّاهِرُ لِدَاثِهِ. ومن قال الكاف فيه زائدة لعله عنى أنه يعطى معنى ﴿ليس مثله﴾ غير أنه أكد لما ذكرناه. وقيل «مثله» صفته أي ليس كصفته صفة. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصر.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خزائنها. ﴿يَنْسُطُ الرُّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسع ويضيق على وفق مشيئته. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَن أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ أي شرع لكم من الدين دين نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومن بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشترك فيما بينهم المفسر بقوله: ﴿أَن أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقه والطاعة في أحكام الله ومحله النصب على البديل من مفعول «شرع»، أو الرفع على الاستئناف كأنه جواب وما ذلك المشروع أو الجبر على البديل من هاء به. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصل أما فروع الشرائع فمختلفة كما قال. ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا﴾. ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ عظم عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ﴾ يجتلب إليه والضمير لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ بالإشارة والتوفيق. ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبل إليه.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ يعني الأمم السالفة. وقيل أهل الكتاب لقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ العلم بأن التفرق ضلال متوعد عليه، أو العلم بمبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، أو أسباب العلم من الرسل والكتب وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَقِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ عداوة أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ بِالْإِمْهَالِ﴾ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى هو يوم القيامة أو آخر أعمارهم المقدرة. ﴿لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ باستتصال المبطلين حين افترقوا لعظم ما افترقوا. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أو المشركين الذين أورثوا القرآن من بعد أهل الكتاب. وقرئ «ورثوا» و«ورثوا». ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حق الإيمان، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق أو مدخل في الريبة.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعِ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَلْبِغْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مَحْجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿فَلِذَلِكَ﴾ فلاجل ذلك التفرق أو الكتاب، أو العلم الذي أوتيته. ﴿فَادَّعِ﴾ إلى الاتفاق على الملة

الحنيفية أو الإتياع لما أوتيت، وعلى هذا يجوز أن تكون اللام في موضع إلى لإفادة الصلة والتعليل. **﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾** واستقم على الدعوة كما أمرك الله تعالى. **﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾** الباطلة. **﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾** يعني جميع الكتب المنزلة لا كالكفار الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. **﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾** في تبليغ الشرائع والحكومات، والأول إشارة إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارة إلى كمال القوة العملية. **﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾** خالق الكل ومتولي أمره. **﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾** وكل مجازى بعمله. **﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾** لا حجاج بمعنى لا خصومة إذ الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة مجال ولا للخلاف مبدأ سوى العناد. **﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾** يوم القيامة. **﴿وَالِإِيَّاهِ الْمَصِيرُ﴾** مرجع الكل لفصل القضاء، وليس في الآية ما يدل على متاركة الكفار رأساً حتى تكون منسوخة بآية القتال.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ في دينه. **﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾** من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب الله لرسوله فأظهر دينه بنصره يوم بدر، أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بأن أقروا بنبوته واستفتحوا به. **﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** زائلة باطلة. **﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾** لمعاندتهم. **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾** على كفرهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) **﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾** مَتَاهَا يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب. **﴿بِالْحَقِّ﴾** ملتبساً بعيداً من الباطل، أو بما يحق إنزاله من العقائد والأحكام. **﴿وَالْمِيزَانَ﴾** والشرع الذي توزن به الحقوق ويسوي بين الناس، أو العدل بأن أنزل الأمر به أو آلة الوزن بأن أوحى بإعدادها. **﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾** إتيانها فاتح الكتاب واعمل بالشرع وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي توزن فيه أعمالك وتوفى جزاءك، وقيل تذكير القريب لأنه بمعنى ذات قرب، أو لأن الساعة بمعنى البعث.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاء. **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾** خائفون منها مع اغتيالها لتوقع الثواب. **﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾** أي الكائن لا محالة. **﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارِضُونَكَ فِي السَّاعَةِ﴾** يجادلون فيها من المرية، أو من مريب الناقة إذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لأن كلاً من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة. **﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾** عن الحق فإن البعث أشبه الغائبات إلى المحسوسات، فمن لم يهتد لتجويزه فهو أبعد عن الاهتداء إلى ما وراءه.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) **﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾** (٢٠).

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ ير بهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام. **﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾** أي يرزقه كما يشاء فيخص كلاً من عباده بنوع من البر على ما اقتضته حكمته. **﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾** الباهر القدرة. **﴿الْعَزِيزُ﴾** المنيع الذي لا يغلب.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ ثوابها شبهه بالزرع من حيث إنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ولذلك قيل: الدنيا مزرعة الآخرة، والحرث في الأصل إلقاء البذر في الأرض ويقال للزرع الحاصل منه. **﴿نَزَدَ لَهُ فِي﴾**

حَزَنِهِ ﴿فَنَعَطُهُ بِالوَاحِدِ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ فَمَا فَوْقَهَا. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَزَنَ الدُّنْيَا نَوَّهَ مِنْهَا﴾ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى مَا قَسَمْنَا لَهُ. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ إِذَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ بَلْ أَلْهَمَ شُرَكَاءَ، وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّقْرِيعِ وَشُرَكَاءُ هُمْ شَيَاطِينُهُمْ. ﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ بِالْتَّزْيِينِ. ﴿مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ كَالشُّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَيْعِ وَالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا. وَقِيلَ شُرَكَاءُ هُمْ أَوْلِيَائُهُمْ وَإِضَافَتُهَا إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ مَتَّخِذُوها شُرَكَاءَ، وَإِسْنَادُ الشَّرْعِ إِلَيْهَا لِأَنَّهُ سَبَبُ ضَلَالَتِهِمْ وَافْتِنَانِهِمْ بِمَا تَدِينُوا بِهِ، أَوْ صُورَ مِنْ سُنَّةِ لَهُمْ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أَيِ الْقَضَاءِ السَّابِقِ بِتَأْجِيلِ الْجَزَاءِ، أَوْ الْعِدَّةِ بِأَنَّ الْفَصْلَ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿لَفُصِّيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَوْ الْمَشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَقُرِئَ «أَنَّ» بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى كَلِمَةِ «الْفَصْلِ» أَيِ «وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ». وَتَقْدِيرُ عَذَابِ الظَّالِمِينَ فِي الْآخِرَةِ لِقَضَى بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ غَالِبٌ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣).

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ فِي الْقِيَامَةِ. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ. ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ مِنَ السَّيِّئَاتِ. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أَيِ وَبَالِهِ لَاحِقٌ بِهِمْ أَشْفَقُوا أَوْ لَمْ يَشْفَقُوا. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ فِي أَطْيَبِ بَقَاعِهَا وَأَنْزَعِهَا. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيِ مَا يَشْتَهُونَهُ ثَابِتٌ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ. ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الَّذِي يَصْغُرُ دُونُهُ مَا لِيْغَرِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ذَلِكَ الثَّوَابُ الَّذِي يُبَشِّرُهُمُ اللَّهُ بِهِ فَحَذَفَ الْجَارَ ثُمَّ الْعَائِدَ، أَوْ ذَلِكَ التَّبَشِيرُ الَّذِي يُبَشِّرُهُ اللَّهُ عِبَادَهُ. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ «يُبَشِّرُ» مِنْ بَشَرَهُ وَقُرِئَ «يُبَشِّرُ» مِنْ أَبْشَرَهُ. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مَا أَعْطَاهُ مِنَ التَّبْلِيغِ وَالبَشَارَةِ. ﴿أَجْرًا﴾ نَفْعًا مِنْكُمْ. ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أَيِ تَوَدُّونِي لِقَرَابَتِي مِنْكُمْ، أَوْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي، وَقِيلَ الْإِسْتِثْنَاءُ مَنْقُطِعٌ وَالْمَعْنَى: لَا أَسْأَلُكُمْ أَجْرًا قَطُّ وَلَكِنِّي أَسْأَلُكُمْ الْمَوَدَّةَ، وَ «فِي الْقُرْبَى» حَالُ مَتْنِهَا أَيِ «إِلَّا الْمَوَدَّةَ» ثَابِتَةٌ فِي ذَوِي الْقُرْبَى، مَتَمَكِّنَةٌ فِي أَهْلِهَا، أَوْ فِي حَقِّ الْقَرَابَةِ وَمَنْ أَجْلَهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالبَغْضُ فِي اللَّهِ». رَوَى: أَنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ مَوَدَّتُهُمْ عَلَيْنَا قَالَ: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا». وَقِيلَ «الْقُرْبَى» التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ أَيِ إِلَّا أَنْ تَوَدُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي تَقَرُّبِكُمْ إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقُرِئَ «إِلَّا مَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى». ﴿وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً﴾ وَمَنْ يَكْتَسِبُ طَاعَةَ سَيِّمًا حَبَّ آلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقِيلَ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَوَدَّتِهِ لَهُمْ. ﴿نَزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ فِي الْحَسَنَةِ بِمُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، وَقُرِئَ «يَزِدْ» أَيِ يَزِدُّ اللَّهُ وَحَسَنَى. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ أَذْنَبَ. ﴿شَكُورٌ﴾ لِمَنْ أَطَاعَ بِتَوْفِيَةِ الثَّوَابِ وَالتَّفَضُّلِ عَلَيْهِ بِالزِّيَادَةِ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْقَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَتَمَسَّحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤).

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمد بدعوى النبوة أو القرآن. ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ استبعاد للافتراء عن مثله بالإشعار على أنه إنما يجترىء عليه من كان مختوماً على قلبه جاهلاً بربه، فأما من كان ذا بصيرة ومعرفة فلا، وكأنه قال: إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالافتراء عليه. وقيل يختم على قلبك يمسك القرآن أو الوحي عنه، أو يربط عليه بالصبر فلا يشق عليك أذاهم. ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ استئناف لنفي الافتراء عما يقوله بأنه لو كان مفترى لمحقه إذ من عادته تعالى محو الباطل وإثبات الحق بوحيه أو بقضائه أو بوعده، بمحو باطلهم وإثبات حقه بالقرآن، أو بقضائه الذي لا مرد له، وسقوط الواو من ﴿يَمْنَحُ﴾ في بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما في قوله: ﴿ويدع الإنسان بالشر﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢٥) ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ بالتجاوز عما تابوا عنه، والقبول يعدى إلى مفعول ثان بمن وعن لتضمنه معنى الأخذ والإبانة، وقد عرفت حقيقة التوبة. وعن علي رضي الله عنه: هي اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفرائض الإعادة، ورد المظالم وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية وإذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته. ﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ صغيرها وكبيرها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمة، وقرأ الكوفيون غير أبي بكر ﴿ما تفعلون﴾ بالتاء.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي يستجيب الله لهم فحذف اللام كما حذف في ﴿وَإِذَا كَالَهُمْ﴾ والمراد إجابة الدعاء أو الإجابة على الطاعة، فإنها كدعاء وطلب لما يترتب عليها. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل الدعاء الحمد لله»، أو يستجيبون الله بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ على ما سألوا واستحقوا واستوجبوا له بالاستجابة. ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدل ما للمؤمنين من الثواب والتفضل.

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧)

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ لتكبروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضهم على بعض استيلاء واستعلاء وهذا على الغالب، وأصل البغي طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى كمية أو كيفية. ﴿وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. ﴿مَا يَشَاءُ﴾ كما اقتضته مشيئته. ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ يعلم خفايا أمرهم وجلايا حالهم فيقدر لهم ما يناسب شأنهم. روي أن أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت. وقيل في العرب كانوا إذا أخصبوا تحاربوا وإذا أجذبوا انتجعوا.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٨) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ المطر الذي يغيثهم من الجذب ولذلك خص بالنافع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ﴿ينزل﴾ بالتشديد. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أيسوا منه، وقرىء بكسر النون. ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ في كل شيء من السهل والجبل والنبات والحيوان. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يتولى عبادته بإحسانه ونشر رحمته.

﴿الْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد على ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدل على وجود صانع قادر حكيم. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطف على ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أو الـ ﴿خلق﴾. ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من حي على إطلاق اسم المسبب على السبب، أو مما يدب على الأرض وما يكون في أحد الشئيين يصدق أن فيهما في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ﴾ أي في أي وقت يشاء. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكن منه و ﴿إِذَا﴾ كما تدخل على الماضي تدخل على المضارع.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسبب معاصيكم، والفاء لأن ﴿مَا﴾ شرطية أو متضمنة معناه، ولم يذكرها نافع وابن عامر استغناء بما في الباء من معنى السببية. ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا يعاقب عليها. والآية مخصوصة بالمجرمين، فإن ما أصاب غيرهم فلا أسباب آخر منها تعريضه للأجر العظيم بالصبر عليه.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فأتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ يَحْرُسَكُمْ عَنْهَا.﴾ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعها عنكم.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ يَمًا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ السفن الجارية. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال. قالت الخنساء: وَإِنْ صَخْرًا لَنَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ وقرئ «الرياح». ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ فيبقين ثوابت على ظهر البحر. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل من وكل همته وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكر في آياته، أو لكل مؤمن كامل الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر.

﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ﴾ أو يهلكهن بإرسال الرياح العاصفة المغرقة، والمراد إهلاك أهلها لقوله: ﴿يَمًا كَسَبُوا﴾ وأصله أو يرسلها فيوقفهن لأنه قسيم يسكن فاقصر فيه على المقصود كما في قوله: ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلها فيوقف ناساً بذنوبهم وينج ناساً على العفو منهم، وقرئ «ويعفو» على الاستئناف.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَلَئِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم ﴿ويعلم﴾، أو على الجزاء ونصب نصب الواقع جواباً للأشياء الستة لأنه أيضاً غير واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف، وقرئ بالجزم عطفاً على ﴿يعف﴾ فيكون المعنى ويجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَخِصٍ﴾ محيد من العذاب والجملة معلق عنها الفعل.

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تمتعون به مدة حياتكم. ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلوص نفعه ودوامه و ﴿مَا﴾ الأولى موصولة تضمنت معنى الشرط من حيث أن إتياء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية.

وعن علي رضي الله عنه: تصدق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كله فلامه جمع فترلت.

﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَآئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَآئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «والذين» بما بعده عطف على «الذين آمنوا» أو مدح منصوب أو مرفوع، وبناء «يغفرون» على ضميرهم خبراً للدلالة على أنهم الأخفاء بالمغفرة حال الغضب، وقرأ حمزة والكسائي «كبير الإثم».

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى بينهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجمعوا عليه، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور، وهي مصدر كالفتيا بمعنى التشاور. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله الخير.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ على ما جعله الله لهم كراهة التذلل، وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر أمهات الفضائل وهو لا يخالف وصفهم بالغفران، فإنه ينبىء عن عجز المغفور والانتصار عن مقاومة الخصم، والحلم عن العاجز محمود وعن المتغلب مذموم لأنه إجراء وإغراء على البغي، ثم عقب وصفهم بالانتصار للمنع عن التعدي.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وسمى الثانية «سيئة» للازدواج، أو لأنها تسوء من تنزل به. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ عدة مبهمة تدل على عظم الموعود. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئة والمتجاوزين في الانتقام.

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ بعد ما ظلم، وقد قرئ به. ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ بالمعاقبة والمعاقبة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ يبتدونهم بالإضرار ويطلبون ما لا يستحقونه تجبراً عليهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصر. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي إن ذلك منه فحذف كما حذف في قولهم: السمن منوان بدرهم، للعلم به.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ من ناصر يتولاه من بعد خذلان الله إياه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ حين يروونه فذكر بلفظ الماضي تحقيقاً. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هل إلى رجعة إلى

الدنيا.

﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار، ويدل عليه ﴿العذاب﴾. ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ﴾ متذللين متقاصرين مما يلحقهم من الدل. ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي يتدبىء نظرهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر إلى السيف. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخلد. ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ظرف لـ ﴿خَسِرُوا﴾ والقول في الدنيا، أو لقال أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحال. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ تمام كلامهم أو تصديق من الله لهم.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّهْمُ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿اَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ لا يرده الله بعدما حكم به و ﴿من﴾ صلة لـ ﴿مرد﴾. وقيل صلة ﴿يأتي﴾ أي من قبل أن يأتي يوم من الله لا يمكن رده. ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ﴾ مفر. ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون في صحائف أعمالكم تشهد عليه ألسنتكم وجوارحكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ رقيباً أو محاسباً. ﴿إِنْ عَلَيْنَاكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلغت. ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا﴾ أراد بالإنسان الجنس لقوله: ﴿وَإِنْ تَصَبَّهْمُ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغ الكفران ينسى النعمة رأساً ويذكر البلية ويعظمها ولا يتأمل سببها، وهذا وإن اختص بالمجرمين جاز إسناده إلى الجنس لغلبتهم واندراجهم فيه. وتصدير الشرطية الأولى بـ ﴿إذا﴾ والثانية بـ ﴿إن﴾ لأن إذاقة النعمة محققة من حيث إنها عادة مقتضاة بالذات بخلاف إصابة البلية، وإقامة علة الجزاء مقامه ووضع الظاهر موضع المضمرة في الثانية للدلالة على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعمة.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله أن يقسم النعمة والبلية كيف يشاء. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير لزوم ومجال اعتراض. ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بدل من ﴿يخلق﴾ بدل البعض، والمعنى يجعل أحوال العباد في الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعاً ويعقم آخرين، ولعل تقديم الإناث لأنها أكثر لتكثير النسل، أو لأن مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما يتعلق به مشيئة الله لا مشيئة الإنسان والإناث كذلك، أو لأن الكلام في البلاء والعرب تعدهن بلاء، أو لتطبيب قلوب آبائهن أو للمحافظة على الفواصل ولذلك عرف الذكور، أو لجبر التأخير وتغيير العاطف في

الثالث لأنه قسيم المشترك بين القسمين، ولم يحتج إليه الرابع لإفصاحه بأنه قسيم المشترك بين الأقسام المتقدمة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يفعل بحكمة واختيار.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَمِيمٍ﴾ (٥١).

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ وما صح له. ﴿أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفياً يدرك لأنه بسرعة تمثيل ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة، وهو ما يعم المشافه به كما روي في حديث المعراج، وما وعد به في حديث الرؤية والمهتف به كما اتفق لموسى في طوى والطور، ولكن عطف قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ عليه يخصه بالأول فالآية دليل على جواز الرؤية لا على امتناعها. وقيل المراد به الإلهام والإلقاء في الروح أو الوحي المنزل به الملك إلى الرسل فيكون المراد بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل إليه نبياً فيبلغ وحيه كما أمره، وعلى الأول المراد بالرسول الملك الموحى إلى الرسل، ووحياً بما عطف عليه منتصب بالمصدر لأن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ صفة كلام محذوف والإرسال نوع من الكلام، ويجوز أن يكون وحياً ويرسل مصدرين و ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ظرفاً وقعت أحوالاً، وقرأ نافع ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ برفع اللام. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمته فيكلم تارة بوسط، وتارة بغير وسط إما عياناً وإما من وراء حجاب.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أوحى إليه، وسماه روحاً لأن القلوب تحيا به، وقيل جبريل والمعنى أرسلناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي قبل الوحي، وهو دليل على أنه لم يكن متعبداً قبل النبوة بشرع. وقيل المراد هو الإيمان بما لا طريق إليه إلا السمع. ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي الروح أو الكتاب أو الإيمان. ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيق للقبول والنظر فيه. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقرئ «لَتَهْدِي» أي ليهديك الله.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ﴾ بدل من الأول. ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائط والتعلقات، وفيه وعد ووعد للمطيعين والمجرمين. عن النبي ﷺ «من قرأ حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له».

(٤٢) سورة الزخرف

مكية وقيل إلا قوله: **وَإِسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا**

وَأَيُّهَا تَسْجَعُ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّمَ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ٣﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٤ ﴿وَلَيْسَ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ٥﴾

﴿حَمِّمَ﴾ «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ» «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآنًا عربيًّا، وهو من البدائع لتناسب القسم والمقسم عليه كقول أبي تمام: وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعل أقسام الله بالأشياء استشهاد بما فيها من الدلالة على المقسم عليه، وبالقرآن من حيث إنه معجز مبين لطرق الهدى وما يحتاج إليه في الديانة، أو بين للعرب ما يدل على أنه تعالى صيره كذلك **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** لكي تفهموا معانيه.

﴿وَلَيْسَ﴾ عطف على إنا، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على الاستئناف. «فِي أَمِّ الْكِتَابِ» في اللوح المحفوظ فإنه أصل الكتب السماوية، وقرأ أم الكتاب بالكسر. «لَدَيْنَا» محفوظاً عندنا عن التغيير. «لَعَلٌّ» رفيع الشأن في الكتب لكونه معجزاً من بينها. «حَكِيمٌ» ذو حكمة بالغة، أو محكم لا ينسخه غيره. وهما خبران لأن «وَفِي أَمِّ الْكِتَابِ» متعلق بـ «عَلِيٍّ» واللام لا تمنعه، أو حال منه و «لَدَيْنَا» بدل منه أو حال من «أَمِّ الْكِتَابِ».

﴿أَفَنْضَبِ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ٦﴾ أَنْفَذُوهُ وَنَبَعْدُهُ عَنْكُمْ مَجَازٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: ضَرَبَ الْغَرَائِبَ عَنِ الْحَوْضِ،

قال طرفة:

اضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ضَرْبِكَ بِالسَّيْفِ قَوَّاسِ الْفَرَسِ

والفاء للعطف على محذوف أي أنهملكم فنضرب «عَنْكُمْ الذِّكْرَ»، و «صَفْحًا» مصدر من غير لفظه فإن تنحية الذكر عنهم أعراض أو مفعول له أو حال بمعنى صافحين، وأصله أن تولي الشيء صفحة عنقك. وقيل إنه بمعنى الجانب فيكون ظرفاً ويؤيده أنه قرئ «صَفْحًا» بالضم، وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح بمعنى صافحين، والمراد إنكار أن يكون الأمر على خلاف ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. «أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ» أي لأن كنتم، وهو في الحقيقة علة مقتضية لترك الإعراض عنهم، وقرأ نافع وحمزة والكسائي «إِنْ» بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك استجهاً لهم، وما قبلها دليل الجزاء.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي من القوم المفسرين لأنه صرف الخطاب عنهم إلى الرسول مخبراً عنهم. ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ وسلف في القرآن قصتهم العجيبة، وفيه وعد للرسول ووعد لهم بمثل ما جرى على الأولين.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ لعله لازم مقولهم أو ما دل عليه إجمالاً أقيم مقامه تقريراً لإلزام الحجة عليهم، فكانهم قالوا «الله» كما حكى عنهم في مواضع آخر وهو الذي من صفته ما سرد من الصفات، ويجوز أن يكون مقولهم وما بعده استئناف.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرون فيها وقرأ غير الكوفيون «مهاداً» بالالف. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، أو إلى حكمة الصانع بالنظر في ذلك.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ بمقدار ينفع ولا يضر. ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ مال عنه النماء. وتذكيره لأن البلدة بمعنى البلد والمكان. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإنشار. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تنشرون من قبوركم، وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي «تخرجون» بفتح التاء وضم الراء.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات. ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدي بنفسه على المتعدي بغيره إذ يقال: ركبت الدابة وركبت في السفينة، أو المخلوق للركوب على المصنوع له أو الغالب على النادر ولذلك قال:

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي ظهور ما تركبون وجمعه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروها بقلوبكم معترفين بها حامدين عليها. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين من أقرن الشيء إذا أطاقه، وأصله وجد قرينته إذ الصعب لا يكون قرينة الضعيف. وقرئ بالتشديد والمعنى واحد. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فإذا استوى على الدابة قال: الحمد لله على كل حال. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ إلى قوله:

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصاله بذلك لأن الركوب للتنقل والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى، أو لأنه مخطر فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ويستعد للقاء الله تعالى.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ (١٥).

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: «ولئن سألتهم» أي وقد جعلوا له بعد ذلك الاعتراف من عباده ولداً فقالوا الملائكة بنات الله، ولعله سماه جزءاً كما سمي بعضاً لأنه بضعة من الوالد دلالة على استحالة على الواحد الحق في ذاته، وقرأ أبو بكر «جزوا» بضمين. «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ» ظاهر الكفران ومن ذلك نسبة الولد إلى الله لأنها من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

﴿أَوِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ (١٦) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (١٧).

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ معنى الهمزة في «أم» للإنكار والتعجب من شأنهم حيث لم يقتنعوا بأن جعلوا له جزءاً حتى جعلوا له من مخلوقاته أجزاء أحسن مما اختير لهم وأبغض الأشياء إليهم، بحيث إذا بشر أحدهم بها اشتد غمه به كما قال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً إذ الولد لا بد وأن يماثل الوالد. «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا» صار وجهه أسود في الغاية لما يعتربه من الكآبة. «وَهُوَ كَظِيمٌ» مملوء قلبه من الكرب، وفي ذلك دلالات على فساد ما قالوه، وتعريف البنين بما مر في الذكور، وقرئ «مسوداً» و «مسواداً» على أن في «ظَلَّ» ضمير المبشر و «وَجْهُهُ مسود» جملة وقعت خبراً.

﴿أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (١٨) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١٩).

﴿أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ﴾ أي أو جعلوا له، أو اتخذ من يتربى في الزينة يعني البنات. «وَهُوَ فِي الْخِصَامِ» في المجادلة. «غَيْرُ مُبِينٍ» مقرر لما يدعيه من نقصان العقل وضعف الرأي، ويجوز أن يكون من مبتدأ محذوف الخبر أي أو من هذا حالة ولده و «فِي الْخِصَامِ» متعلق بـ «مُبِينٍ»، وإضافة «غَيْرٍ» إليه لا يمنعه لما عرفت. وقرأ حمزة والكسائي وحفص «يُنْشَأُ» أي يربي. وقرئ «ينشأ» و «ينشأ» بمعناه ونظير ذلك أعلاه وعلاه وعلاه بمعنى.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ كفر آخر تضمنه مقالهم شنع به عليهم، وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله تعالى أنقصهم رأياً وأخسهم صنفاً. وقرئ عبيد وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب «عند» على تمثيل زلفاهم. وقرئ «أنثا» وهو جمع الجمع. «أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ» أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إنثاء، فإن ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل وتهكم بهم. وقرأ نافع «أشهدوا» بهمزة الاستتهام وهمزة مضمومة بين بين، و «أشهدوا» بمدة بينهما. «سُتُكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ» التي شهدوا بها على الملائكة. «وَيُسْأَلُونَ» أي عنها يوم القيامة، وهو وعيد شديد. وقرئ «سيكتب» و «سكتب» بالياء والنون. و «شهاداتهم» وهي أن الله جزءاً أو أن له بنات وهن الملائكة ويسألون من المسألة.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٢٠) ﴿أَمْ أَلَيْسَتْ لَهُمْ كُتُبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْمِكُونَ﴾ (٢١).

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي لو شاء عدم عبادة الملائكة ما عبدناهم فاستدلوا بنفي مشيئة عدم العبادة على امتناع النهي عنها أو على حسنها، وذلك باطل لأن المشيئة ترجع بعض الممكنات على

بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيره، ولذلك جهلهم فقال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحلون تمحلاً باطلاً، ويجوز أن تكون الإشارة إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدى وجوه فسادها وحكى شبهتهم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل، ثم أضرب عنه إلى إنكار أن يكون لهم سند من جهة النقل فقال:

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ من قبل القرآن أو ادعائهم ينطق على صحة ما قالوه. ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتاب متمسكون.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ أي لا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة، وال «أمة» الطريقة التي تؤم كالراحلة للمرحول إليه، وقرئت بالكسر وهي الحالة التي يكون عليها الأم أي القاصد ومنها الدين.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ تسليية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدميهم أيضاً لم يكن لهم سند منظور إليه، وتخصيص المترفين إشعار بأن النعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ﴾ أي أتبعون آبائكم ولو جئتمكم بدين أهدى من دين آبائكم، وهي حكاية أمر ماض أوحى إلى النذير، أو خطاب لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأول أنه قرأ ابن عامر وحفص «قال» وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي وإن كان أهدى إقناطاً للنذير من أن ينظروا أو يفكروا فيه.

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالاستتصال. ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكثر بتكذيبهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ وإذكر وقت قوله هذا ليروا كيف تبرأ عن التقليد وتمسك بالدليل، أو ليقلدوه إن لم يكن لهم بد من التقليد فإنه أشرف آبائهم. ﴿لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بريء من عبادتكم أو معبودكم، مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث، وقرىء «بريء» و «براء» ككريم وكرام.

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن «ما» يعم أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله والأصنام والأوثان، أو صفة على أن «ما» موصوفة أي إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني. ﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ سيهتدي على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراء ما هداني إليه.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام أو الله كلمة التوحيد. ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، وقرىء «كلمة» و «في عقبه» على التخفيف و«في عقبه»

أي فيمن عقبه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك بدعاء من وحد.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ (٢٩) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ﴾ هَؤُلَاءَ المعاصرين للرسول ﷺ من قريش وآباءهم بالمد في العمر والنعمة، فاغثروا لذلك وانهمكوا في الشهوات. وقرئ «متعت» بالفتح على أنه تعالى اعترض به على ذاته في قوله: «وجعلها كلمة باقية» مبالغة في تعييرهم. «حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ» دعوة التوحيد أو القرآن. «وَرَسُولٌ مُبِينٌ» ظاهر الرسالة بما له من المعجزات، أو «مُبِينٌ» للتوحيد بالحجج والآيات.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ لينبهم عن غفلتهم «قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ» زادوا شرارة فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به، فسموا القرآن سحراً وكفروا به واستحققوا الرسول.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١) ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتين مكة والطائف. «عَظِيمٍ» بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، فإن الرسالة منصب عظيم لا يليق إلا بعظيم، وكلم يعلموا أنها رتبة روحانية تستدعي عظم النفس بالتحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية. «أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ» إنكار فيه تجهيل وتعجب من تحكمهم، والمراد بالرحمة النبوة. «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خويصة أمرهم في دنياهم، فمن أين لهم أن يدبروا أمر النبوة التي هي أعلى المراتب الإنسية، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكون حلالها وحرامها من الله. «وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ» وأوقعنا بينهم التفاوت في الرزق وغيره. «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا» ليستعمل بعضهم بعضاً في حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وتضام يتنظم بذلك نظام العالم، لا لكمال في الموسع ولا لنقص في المقتر، ثم إنه لا اعتراض لهم علينا في ذلك ولا تصرف فكيف يكون فيما هو أعلى منه. «وَرَحِمَتْ رَبِّكَ» يعني هذه النبوة وما يتبعها. «خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» من حطام الدنيا والعظيم من رزق منها لا منه.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَزُخْرُفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْمَيُوتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥).

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لولا أن يرغبوا في الكفر إذا رأوا الكفار في سعة وتنعم لحبهم الدنيا فيجتمعوا عليه. «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ» ومساعد جمع معراج، وقرئ «ومعاريج» جمع معراج. «عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ» يعلون السطوح لحقارة الدنيا، «ولبيوتهم» بدل من «لمن» بدل الاشتمال أو على كقولك: وهبت له ثوباً لقميصه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «وسقفاً» اكتفاء بجمع البيوت، وقرئ «سقفاً» بالتخفيف و«سقوفاً» و«سقفاً» وهي لغة في سقف. «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ» أي أبواباً وسرراً من فضة.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينة عطف على ﴿سَقْفًا﴾ أو ذهباً عطف على محل من فضة ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إن هي المخففة واللام هي الفارقة. وقرأ عاصم وحزمة وهشام بخلاف عنه لما بالتشديد بمعنى إلا وإن نافية، وقرئ به منع أن وما ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالة على أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا، وإشعار بما لأجله لم يجعل ذلك للمؤمنين حتى يجتمع الناس على الإيمان، وهو أنه تمتع قليل بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة محل به في الأغلب لما فيه من الآفات قل من يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُمْ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يتعام ويعرض عنه لفرط اشتغاله بالمحسوسات وإنهماكه في الشهوات، وقرئ «يعشو» بالفتح أي يعم يقال عشى إذا كان في بصره آفة وعشى إذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج، وقرئ «يعشو» على أن «من» موصولة. ﴿نُقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ يوسوسه ويغويه دائماً، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير «الرحمن»، ومن رفع «يعشو» ينبغي أن يرفع «نقيض».

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقه أن يسبل، وجمع الضميرين للمعنى إذ المراد جنس العاشي والشيطان المقيض له. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائر الثلاثة الأول له والباقيان للشيطان.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيان وابن عامر وأبو بكر «جاءنا» أي العاشي والشيطان. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشيطان. ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ بعد المشرق من المغرب، فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد إليهما. ﴿فَيَتَسَّ الْقَرَيْنِ﴾ أنت.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمني. ﴿إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ إذ صح أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بدل من «اليوم». ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه، ويجوز أن يسند الفعل إليه بمعنى. ولن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في أمر صعب معاونتهم في تحمل أعبائه وتقسيمهم لمكابدة عنائه، إذ لكل منكم ما لا تسعه طاقته. وقرئ «إِنَّكُمْ» بالكسر وهو يقوي الأول.

﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ تُرْسِكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى﴾ إنكار وتعجب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم بعد تمرنهم على الكفر واستغراقهم في الضلال بحيث صار عشاها عمى مقروناً بالصمم. كان رسول الله ﷺ يتعب نفسه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيا فتزلت. ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عطف على «العمي» باعتبار تغاير الوصفين، وفيه إشعار بأن الموجب لذلك تمكنهم في ضلال لا يخفى.

﴿فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ﴾ أي فإن قبضناك قبل أن تبصرك عذابهم، و «ما» مزيدة مؤكدة بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكدة ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ بعذاب في الدنيا والآخرة.

﴿أَوْ تُرِيَّتِكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ أو إن أردنا أن نريك ما وعدناهم من العذاب، وقرأ يعقوب برواية رويس أو نرينك﴾ بإسكان النون وكذا ﴿بذمهم﴾. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ لا يفتوتونا.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ من الآيات والشرائع، وقرىء «أوحى» على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا عوج له.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ لشرف لك. ﴿وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي عنه يوم القيامة وعن قيامكم بحقه.

﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي واسأل أمهم وعلماء دينهم، وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيف الهمزة. ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ﴾ هل حكمنا بعبادة الأوثان وهل جاءت في ملة من مللهم، والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد والدلالة على أنه ليس ببدع ابتدعه فيكذب ويعادى له، فإنه كان أقوى ما حملهم على التكذيب والمخالفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد باقتصاصه تسليية رسول الله ﷺ ومناقضة قولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملوا فيها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فاجؤوا وقت ضحكهم منها، أي استهزؤوا بها أول ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمراد وصف الكل بالكبر كقولك: رأيت رجلاً بعضهم أفضل من بعض، وكقوله:

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ ثَقُلَ لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ الثُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي
أو ﴿إلا﴾ وهي مختصة بنوع من الإعجاز مفضلة على غيرها بذلك الاعتبار. ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالسنين والظوفان والجراد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يرجي رجوعهم.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيمتهم وفرط حماقتهم، أو لأنهم كانوا يسمون العالم الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضم الهاء ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فيكشف عنا العذاب. ﴿بِمَا عَهِدَ

عِنْدَكَ ﴿بَعْدَهُ عِنْدَكَ مِنَ النُّبُوَّةِ، أَوْ مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبَ دَعْوَتَكَ، أَوْ أَنْ يَكْشِفَ الْعَذَابَ عَنْهُمْ اهْتَدَى، أَوْ ﴿بِمَا عَهْدَ عِنْدَكَ﴾ فَوَيْتَ بِهِ وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ. ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ فاجزوا نكث عهدهم بالاهتداء.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ الْآلِيسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢).

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ في مجتمعهم أو فيما بينهم بعد كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمن بعضهم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ الْآلِيسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ﴾ أنهار النيل ومعظمها أربعة أنهار: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تيس. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ تحت قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني والواو إما عاطفة لهذه ﴿الأنهار﴾ على الملك و ﴿تَجْرِي﴾ حال منها. أو واو حال وهذه مبتدأ و ﴿الأنهار﴾ صفتها و ﴿تَجْرِي﴾ خبرها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة. ﴿مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي﴾ ضعيف حقير لا يستعد للرياسة، من المهانة وهي القلة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرتبة فكيف يصلح للرسالة، و ﴿أَمْ﴾ إما منقطعة والهمزة فيها للتقرير إذ قدم من أسباب فضله، أو متصلة على إقامة المسبب مقام السبب. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمون أنني خير منه.

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ (٥٣) ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٤).

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي فهلا ألقى عليه مقاليد الملك إن كان صادقاً، إذ كانوا إذا سودوا رجلاً سوروه وطوقوه بسوار وطوق من ذهب، وآسورة جمع إسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساور. وقد قرئ به وقرأ يعقوب وحفص «أسورة» وهي جمع سوار. وقرئ «أساور» جمع «أسورة» و «ألقى عليه أسورة» و «أساور» على البناء للفاعل وهو الله تعالى. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن، أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ﴾ فطلب منهم الخفة في مطاوعته أو فاستخف أحلامهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسق.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥٥) ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ (٥٦).

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أغضبونا بالإفراط في العناد والعصيان منقول من أسف إذا اشتد غضبه. ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا﴾ قدوة لمن بعدهم من الكفار يقتدون به في استحقاق مثل عقابهم، مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم وخادم، وقرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام جمع سليف كرغف ورغيف، أو سالف كصبر جمع صابر أو سلف كخشيب. وقرئ «سلفاً» بإبدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أي ثلة قد سلفت. ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ وعظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الأمثال لهم فيقال: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) ﴿وَقَالُوا ءِالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا

ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابن الزبيري لما جادل رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أو غيره بأن قال النصارى أهل كتاب وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابن الله والملائكة أولى بذلك، أو على قوله تعالى: ﴿وَإِسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أو أن محمداً يريد أن نعبد كما عبد المسيح. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قرش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثل. ﴿يَصُدُّونَ﴾ يصدون فرجاً لظنهم أن الرسول ﷺ صار ملزماً به. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالضم من الصدود أي يصدون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل هما لغتان نحو يعكف ويعكف.

﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا خير عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فلتكن آلهتنا معه، أو آلهتنا الملائكة خير أم عيسى عليه السلام فإذا جاز أن يعبد ويكون ابن الله كانت آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خير أم محمد ﷺ فنعبد ونُدع آلهتنا. وقرأ الكوفيون «آلهتنا» بتحقيق الهمزتين وألف بعدهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ ما ضربوا هذا المثل إلا لأجل الجدل والخصومة لا لتمييز الحق من الباطل. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ شداد الخصومة حراس على اللجاج.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائر لبني إسرائيل، وهو كالجواب المزيج لتلك الشبهة.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ لولدنا منكم يا رجال كما ولدنا عيسى من غير أب، أو لجعلنا بدلکم. ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ ملائكة يخلقونكم في الأرض، والمعنى أن حال عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبة فإنه تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك، وأن الملائكة مثلکم من حيث إنها ذوات ممكنة يحتمل خلقها توليداً كما جاز خلقها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاق الألوهية والانتساب إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَإِنَّهُمْ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ﴾ وإن عيسى عليه السلام. ﴿لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ﴾ لأن حدوثه أو نزوله من أشراط الساعة يعلم به دنوها، أو لأن أحياء الموتى يدل على قدرة الله تعالى عليه. وقرئ «لعلم» أي لعلامة ولذكر على تسمية ما يذكر به ذكراً، وفي الحديث ينزل عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسة يقال لها أفيق ويده حربة يقتل بها الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى عليه السلام ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به. وقيل الضمير للقرآن فإن فيه الإعلام بالساعة والدلالة عليها. ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكن فيها. ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي. وقيل هو قول الرسول ﷺ أمر أن يقوله. ﴿هَذَا﴾ الذي أدعوكم إليه. ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ثابت عداوته بأن أخرجكم عن الجنة وعرضكم للبلية.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ .

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشرعة. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلق بأمر الدنيا، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يبعثوا لبيانه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلم بأمر دنياكم». ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ فيما أبلغه عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ بيان لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين وهو تمتة كلام عيسى عليه السلام، أو استئناف من الله تعالى يدل على ما هو المقضي للطاعة في ذلك.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة. ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهود والنصارى من بين قومه المبعوث إليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من المتحزبين ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ﴾ هو القيامة.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو «للذين ظلموا». ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من «الساعة» والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. «بَغْتَةً» فجأة. «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» غافلون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارهم لها.

﴿الْأَخِلَاءُ﴾ الأحباء ﴿يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادون يومئذ لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتخالون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإن خلتهم لما كانت في الله تبقى نافعة أبد الآباد.

﴿يَتَعَبَّدُونَ لَكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ .

﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكاية لما ينادي به المتقون المتحابون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير في حمزة والكسائي وحفص بغير الياء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾ صفة المنادى. ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ حال من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أن هذه العبارة أكد وأبلغ.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ ﴿٧١﴾ .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات. ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سروراً يظهر حباره أي أثره على وجوهكم، أو تزينون من الحبر وهو حسن الهيئة أو تكرمون إكراماً يبالغ فيه، والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصحف جمع صحيفة، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا

عروة له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وحفص ﴿تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ﴾ على الأصل. ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ بمشاهدته وذلك تعميم بعد تخصيص ما يعد من الزوائد في التمتع والتلذذ. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فإن كل نعيم زائل موجب لكلفة الحفظ وخوف الزوال ومستعقب للتحسر في ثاني الحال.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتموها، شبه جزاء العمل بالميراث لأنه يخلفه عليه العامل، وتلك إشارة إلى الجنة المذكورة وقعت مبتدأ والجنة خبرها، و ﴿الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفتها أو ﴿الجنة﴾ صفة ﴿تلك﴾ و ﴿التي﴾ خبرها أو صفة ﴿الجنة﴾ والخبر ﴿بما كنتم تعملون﴾، وعليه يتعلق الباء بمحذوف لا بـ ﴿أورثتموها﴾.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بعضها تأكلون لكثرتها ودوام نوعها، ولعل تفصيل التمتع بالمطاعم والملابس وتكريره في القرآن وهو حقير بالإضافة إلى سائر نعائم الجنة لما كان بهم من الشدة والفاقة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴿٧٤﴾ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجمام وهم الكفار لأنه جعل قسيم المؤمنين بالآيات، وحكى عنهم ما يخص بالكفار. ﴿فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ خبر إن أو خالدون خبر والظرف متعلق به.

﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف عنهم من فترت عنه الحمى إذا سكنت قليلاً والتركيب للضعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبْسُوتُونَ﴾ آيسون من النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ مر مثله غير مرة وهم فصل.

﴿وَنَادَا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكَ قَالَ إِنْكُرْتُمْ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ الْكِبْرَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَنَادَا يَا مَلِكُ﴾ وقرأ «يا مال» على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعله إشعار بأنهم لضعفهم لا يستطيعون تأدية اللفظ بالتمام ولذلك اختصروا فقالوا: ﴿لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكُ﴾ والمعنى سل ربنا أن يقضي علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي إيلاسهم فإنه جوار وتمن للموت من فرط الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكُونُونَ﴾ لا خلاص لكم بموت ولا بغيره.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزال، وهو تتممة الجواب إن كان في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله وإلا فجواب منه فكانه تعالى تولى جوابهم بعد جواب مالك. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ الْكِبْرَ﴾ لما في اتباعه من إعتاب النفس وآداب الجوارح.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ في تكذيب الحق ورده ولم يقتصروا على كراهته. ﴿فإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم والعدول عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأ من كراهتهم، أو أم أحكم المشركون أمراً من كيدهم بالرسول

﴿فَإِنَّا مَبْرُمُونَ﴾ كيدنا بهم، ويؤيده قوله:

﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديث أنفسهم بذلك. ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ وتناجيهم. ﴿بَلَى﴾ نسمعهما. ﴿وَرُسُلَنَا﴾ والحفظة مع ذلك. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمة لهم. ﴿يَكْتُمُونَ﴾ ذلك.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ (٨١).

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ منكم فإن النبي ﷺ يكون أعلم بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يوجب تعظيمه ومن تعظيم الوالد تعظيم ولده، ولا يلزم من ذلك صحة كينونة الولد وعبادته له إذ المحال قد يستلزم المحال بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ غير أن ﴿لَوْ﴾ ثم مشعرة بانتفاء الطرفين، و ﴿إِنْ﴾ ههنا لا تشعر به ولا بنقيضه فإنها لمجرد الشريطة بل الانتفاء معلوم لانتهاء الدال على انتفاء ملزومه، والدلالة على أن إنكاره الولد ليس لعناد ومراء بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به. وقيل معناه إن كان له ولد في زعمكم فأنا أول العابدين لله الموحدين له أو الأنفين منه، أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتد أنفه، أو ما كان له ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة. وقرأ حمزة والكسائي ﴿ولد﴾ بالضم وسكون اللام.

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢) ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يَلْقَؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣).

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولد فإن هذه الأجسام لكونها أصولاً ذات استمرار تبرات عما يتصف به سائر الأجسام من توليد المثل، فما ظنك بمبدعها وخالقها. ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ﴾ في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُونَ﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّى يَلْقَؤُا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو دلالة على أن قولهم هذا جهل واتباع هوى، وأنهم مطبوع على قلوبهم معذبون في الآخرة.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) ﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ مستحق لأن يعبد فيهما، والظرف متعلق به لأنه بمعنى المعبود أو متضمن معناه كقولك: هو حاتم في البلد، وكذا فيمن قرأ «الله» والراجع مبتدأ محذوف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه، ولا يجوز جعله خبراً له لأنه لا يبقى له عائد لكن لو جعل صلة وقدر الإله مبتدأ محذوف يكون به جملة مبنية للصلة دالة على أن كونه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرار، وفيه نفي الآلهة السماوية والأرضية واختصاصه باستحقاق الألوهية. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ كالدليل عليه.

﴿وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء. ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ العلم بالساعة التي تقوم القيامة فيها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم وروح بالتاء على الالتفات للتهديد.

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧).

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعائهم عند الله. ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾

وَهُمْ يَعْلَمُونَ بالتوحيد، والاستثناء متصل إن أريد بالموصول كل ما عبد من دون الله لاندرج الملائكة والمسيح فيه، ومنفصل إن خص بالأصنام.

«وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ» سألت العابدين أو المعبودين. «لَيَقُولَنَّ اللَّهُ» لتعذر المكابرة فيه من فرط ظهوره «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره.

«وَقِيلَ يَا رُبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾».

«وَقِيلَ» وقول الرسول ونصبه للعطف على سرهم، أو على محل الساعة أو لإضمار فعله أي وقال «قِيلَ». وجره عاصم وحمزة عطفاً على «الساعة»، وقرأ بالرفع على أنه مبتدأ خبره: «يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» أو معطوف على «علم الساعة» بتقدير مضاف. وقيل هو قسم منصوب بنحذف الجار أو مجرور بإضماره، أو مرفوع بتقدير «وقيله يا رب» قسمي، و «إِنَّ هَؤُلَاءِ» جوابه.

«فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ» فأعرض عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. «وَقُلْ سَلَامٌ» تسلم منكم ومتاركة. «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تسلية للرسول وتهديد لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاء على أنه من المأمور بقوله.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة «يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون»».

(٤٤) سورة الدخان

مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشَفُوا الْعَذَابَ﴾ الآية.

ولهي سبع أو تسع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمِّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾ .

﴿حَمِّ﴾ «وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ» القرآن والواو للعطف إن كان «حَمِّ» مقسماً به وإلا فللقسم والجواب قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» ليلة القدر، أو البراءة ابتدء فيها إنزاله، أو أنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسول ﷺ نجومياً وبركتها لذلك، فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدنيوية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الأفضية. «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» استئناف يبين مقتضى الإنزال وكذلك قوله:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ .

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فَإِنْ كَوْنُهَا مَفْرُقُ الْأُمُورِ الْمُحْكَمَةِ أَوِ الْمُنْتَبَةِ بِالْحِكْمَةِ يَسْتَدْعِي أَنْ يَنْزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ الَّذِي هُوَ مِنْ عِظَائِمِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً «لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ لِأَنَّهُ صَفَتُهَا لِقَوْلِهِ: «تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» وَقُرِئَ «يُفْرَقُ» بِالتَّشْدِيدِ وَ «يُفْرَقُ كُلُّ» أَيُّ يَفْرُقُهُ اللَّهُ، وَ«يُفْرَقُ» بِالنُّونِ.

﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾ أَيُّ أَعْنِي بِهَذَا الْأَمْرَ أَمْرًا حَاصِلًا مِنْ عِنْدِنَا عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِنَا، وَهُوَ مُزِيدٌ تَفْخِيمٍ لِلأَمْرِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ (كُلِّ) أَوْ أَمْرٍ، أَوْ ضَمِيرُهُ الْمُسْتَكْنَى فِي «حَكِيمٍ» لِأَنَّهُ مُوصُوفٌ، وَأَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ مُقَابِلُ النَّهْيِ وَقَعَ مُصَدَّرًا لـ «يُفْرَقُ» أَوْ لِفَعْلِهِ مُضْمَرًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْفَرْقَ بِهِ، أَوْ حَالًا مِنْ أَحَدِ ضَمِيرِي «أَنْزَلْنَاهُ» بِمَعْنَى أَمْرَيْنِ أَوْ مَأْمُورًا. «إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ».

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ» أَيُّ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِأَنَّهُ مِنْ عَادَتِنَا إِسْرَافَ الرُّسُلِ بِالْكِتَابِ إِلَى الْعِبَادِ لِأَجْلِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَضَعُ الرَّبِّ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ اقْتَضَتْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ أَوْ عِلَّةٍ لـ «يُفْرَقُ» أَوْ «أَمْرًا»، وَ «رَحْمَةً» مَفْعُولٌ بِهِ أَيُّ يَفْضَلُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ أَوْ تُصَدَّرُ الْأَوَامِرُ «مِنْ عِنْدِنَا» لِأَنَّ مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نُرْسِلَ رَحْمَتَنَا، فَإِنَّ فَضْلَ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ قِسْمَةِ الْأَرْزَاقِ وَغَيْرِهَا وَصُدُورُ الْأَوَامِرِ الْإِلَهِيَةِ مِنْ بَابِ الرَّحْمَةِ، وَقُرِئَ «رَحْمَةً» عَلَى تِلْكَ رَحْمَةٍ. «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» يَسْمَعُ أَقْوَالَ الْعِبَادِ وَيَعْلَمُ أَحْوَالَهُمْ، وَهُوَ بِمَا بَعْدَهُ تَحْقِيقُ لِرُبُوبِيَّتِهِ فَإِنَّهَا لَا تَحَقُّ إِلَّا لِمَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ

﴿أَبَايَكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ .

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ خبر آخر أو استئناف . وقرأ الكوفيون بالجبر بدلاً ﴿من ربك﴾ .
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقان في العلوم، أو كنتم موقنين في إقراركم إذا سئلتم من خلقها؟
فقلتم الله، علمتم أن الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك .

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالق سواه . ﴿يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون . ﴿وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾
وقرنا بالجبر بدلاً ﴿من ربك﴾ .

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ رد لكونهم موقنين .

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ .

﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر لهم . ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء
كهيئة الدخان من ضعف بصره، أو لأن الهواء يظلم عام القحط لقلة الأمطار وكثرة الغبار، أو لأن العرب تسمي الشر
الغالب دخاناً وقد قحطوا حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها، وإسناد الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفه عن الأمطار،
أو يوم ظهور الدخان المعداد في أشراط الساعة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال : أول الآيات الدخان ونزول
عيسى عليه السلام، ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر . قيل وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية
وقال : «يملا ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكام وأما الكافر فهو
كالسكران يخرج من منخره وأذنيه ودبره» أو يوم القيامة والدخان يحتمل المعنيين .

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ يحيط بهم صفة للدخان وقوله : ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَفْ هُمْ الذَّكَرَىٰ وَفَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ .

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ مقدر بقول وقع حالاً و ﴿إنا مؤمنون﴾ وعد بالإيمان إن كشف
العذاب عنهم .

﴿أَتَىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ من أين لهم وكيف يتذكرون بهذه الحالة . ﴿وَفَدَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بين لهم ما
هو أعظم منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات .

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ﴾ أي قال بعضهم يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وقال آخرون إنه
﴿مجنون﴾ .

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ .

﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رفع القحط ﴿قَلِيلًا﴾ كشفاً قليلاً أو
زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم . ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى الكفر غب الكشف، ومن فسر الدخان بما هو من
الأشراط قال إذا جاء الدخان غوث الكفار بالدعاء فيكشفه الله عنهم بعد الأربعين، فريشما يكشفه عنهم
يرتدون، ومن فسرهما بما في القيامة أوله بالشرط والتقدير :

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يوم القيامة أو يوم بدر ظرف لفعل دل عليه . ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون
فإن إن تحجزه عنه، أو بدل من ﴿يوم تأتي﴾ . وقرئ «نبتش» أي نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم، أو
تحمل الملائكة على بطشهم وهو التناول بصولة .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّائِي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ امتحناهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم. وقرىء بالتشديد للتأكيد أو لكثرة القوم. ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرف نسبه وفضل حسبه.

﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّائِي﴾ بأن أدوهم إليّ وأرسلوهم معي، أو بأن أدوا إلي حق الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مخففة ومفسرة لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ غير متهم لدلالة المعجزات على صدقه، أو لاتتمان الله إياه على وحيه وهو علة الأمر.

﴿وَأَنْ لَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ بَرِيءٌ وَرَبِّكُمْ أَنْ تَزْحُمُونَ ﴿١٩﴾﴾. ﴿وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تتكبروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، و ﴿أَنْ﴾ كالأولى في وجهيها. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ علة للنهي ولذكر الـ ﴿أَمِينِ﴾ مع الأداء، والسلطان مع العلاء شأن لا يخفى. ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ التجأت إليه وتوكلت عليه. ﴿أَنْ تَزْحُمُونَ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتماً أو أن تقتلوني. وقرىء «عت» بالادغام فيه.

﴿وَأَنْ لَّيْزُومُنَا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٢٠﴾﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢١﴾﴾. ﴿وَأَنْ لَّمْ تُوْثِقُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ﴾ فكونوا بمعزل مني لا علي ولا لي، ولا تتعرضوا إليّ بسوء فإنه ليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلا حكم. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعدما كذبوه. ﴿أَنْ هَؤُلَاءِ﴾ بأن هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذكر ما استوجبوه به ولذلك سماه دعاء، وقرىء بالكسر على إضمار القول.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٣﴾﴾. ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي فقال أسر أو قال إن كان الأمر كذلك ﴿فأسر﴾، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير بوصل الهمزة من سرى ﴿إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم. ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعة أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزته ولا تضربه بعصاك ولا تغير منه شيئاً ليدخله القبط ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقرىء بالفتح بمعنى لأنهم.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٤﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٦﴾﴾. ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ كثيراً تركوا. ﴿مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافل مزينة ومنازل حسنة. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ وتنعم. ﴿كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ متنعمين، وقرىء «فاكهين».

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو الأمر كذلك. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ عطف على المقدر أو على ﴿تركوا﴾. ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيل، وقيل غيرهم لأنهم لم يعودوا إلى مصر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ مجاز من عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم كقولهم: بكت عليهم السماء والأرض وكسفت لمهلكهم الشمس في نقيض ذلك. ومنه ما روي في الأخبار: إن المؤمن ليكي عليه مصلاه. ومحل عبادته ومصعد عمله ومهبط رزقه. وقيل تقديره فما بكت عليهم أهل السماء والأرض ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ مهلين إلى وقت آخر.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم.

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من ﴿العذاب﴾ على حذف المضاف، أو جعله عذاب لإفراطه في التعذيب، أو حال من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرئ «من فرعون» على الاستفهام تنكير له لنكر ما كان عليه من الشيطنة. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ متكبراً. ﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في العتو والشرارة، وهو خير ثان أي كان متكبراً مسرفاً، أو حال من الضمير في ﴿عَالِيًّا﴾ أي كان رفيع الطبقة من بينهم.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَمَا كُنَّا بِمُنْظَرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقاء بذلك، أو مع علم منا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالمي زمانهم.

﴿وَأَتَيْنَاهُم بِالْآيَاتِ﴾ كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ نعمة جليلة أو اختبار ظاهر.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني كفار قريش لأن الكلام فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على أنهم مثلهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حل بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصد فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك. حج زيد الحجة الأولى ومات. وقيل لما قيل إنكم تموتون مorte يعقبها حياة كما تقدم منكم مorte كذلك قالوا إن هي إلا موتتنا الأولى، أي ما الموتة التي من شأنها كذلك إلا الموتة الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

﴿فَاتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿فَاتُوا بِآيَاتِنَا﴾ خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في وعدكم

ليدل عليه.

﴿أَهْمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمنعة. ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ﴾ تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند. وقيل هدمها وكان مؤمناً وقومه كافرين ولذلك ذمهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تبع نبياً أم غير نبي». وقيل لملوك اليمن التابعة لأنهم يتبعون كما قيل لهم الأقيال لأنهم يتقبلون. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استئناف بمآل قوم تبع، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هدد به كفار قريش أحوال بإضمار قد أو خير من الموصول إن استؤنف به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بيان للجامع المقتضي للإهلاك.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَئِيْبِكُمْ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما بين الجنسين وقرىء «وما بينهما». ﴿لَئِيْبِكُمْ﴾ لاهين، وهو دليل على صحة الحشر كما مر في الأنبياء وغيرها.
﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلا بسبب الحق الذي اقتضاه الدليل من الإيمان والطاعة، أو البعث والجزاء.
﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة نظرهم.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ فصل الحق عن الباطل، أو المحق عن المبطل بالجزاء، أو فصل الرجل عن أقرابه وأحبائه. ﴿مِيقَاتُهُمْ﴾ وقت مواعدهم. ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وقرىء «مِيقَاتُهُمْ» بالنصب على أنه الاسم أي إن ميعاد جزائهم في «يوم الفصل».

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾ بدل من «يوم الفصل» أو صفة لـ «مِيقَاتُهُمْ»، أو ظرف لما دل عليه الفصل لا له الفصل. ﴿مَوْلَى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَنْ مَوْلَى﴾ أي مولى كان. ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لـ «مولى» الأول باعتبار المعنى لأنه عام.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه، ومحلّه الرفع على البدل من الواو أو النصب على الاستثناء ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا ينصر منه من أراد تعذيبه. ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن أراد أن يرحمه.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ وقرىء بكسر الشين ومعنى «الزقوم» سبق في «الصفات».

﴿طَعَامُ الْآثِمِ﴾ الكثير الآثام، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ وهو ما يمهل في النار حتى يذوب. وقيل دردي الزيت. ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ وقرأ ابن كثير وحفص ورويس بالياء على أن الضمير لـ «طعام»، أو «الزقوم» لا «للمهل» إذ الأظهر أن الجملة حال من أحدهما.

﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ غليانا مثل غليه.

﴿حُدُّوهُ فَاغْلُتْلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْمَكْرِهُمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿حُدُّوهُ﴾ على إرادة القول والمقول له الزبانية. ﴿فَاغْلُتْلُوهُ﴾ فجروه والعتل الأخذ بمجامع الشيء وجره بقهر، وقرأ الحجازيان وابن عامر ويعقوب بالضم وهما لغتان. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ كان أصله يصب من فوق رؤوسهم الحميم فقيل يصب من «فوق» رؤوسهم «عذاب» هو «الحميم» للمبالغة، ثم أضيف الـ «عذاب» إلى «الحميم» للتخفيف وزيد من للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النوع.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي وقولوا له ذلك استهزاء به وتقريعاً على ما كان يزعمه، وقرأ الكسائي ﴿أَنْتَ﴾ بالفتح أي ذق لأنك أو ﴿عَذَابٌ﴾ ﴿أَنْتَ﴾. ﴿إِنْ هَذَا﴾ إن هذا. ال ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ تشكون وتمارون فيه.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضع إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم ﴿آمِنِينَ﴾ يأمن صاحبه عن الآفة والانتقال.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من مقام جيء به للدلالة على نزاهته، واشتماله على ما يستلذ به من المأكول والمشرب.

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثان أو حال من الضمير في الجار أو استئناف، والسندس ما رُق من الحرير والإستبرق ما غلظ منه معرب استبره، أو مشتق من البراقة. ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضهم ببعض. ﴿كَذَلِكَ﴾ الأمر كذلك أو آتيناهم مثل ذلك. ﴿وَرَوَّجْنَاهُمْ بِخُورٍ عَيْنٍ﴾ قرناهم بهن ولذلك عدي بالباء، والحوراء البيضاء والعيناء عظمة العينين، واختلف في أنهن نساء الدنيا أو غيرها.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتخصص شيء منها بمكان ولا بزمان. ﴿آمِنِينَ﴾ من الضرر.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ بل يحيون فيها دائماً، والاستثناء منقطع أو متصل والضمير للآخرة و ﴿الموت﴾ أول أحوالها، أو الجنة والمؤمن يشارفها بالموت ويشاهدها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي وامتناع ﴿الموت﴾ فكأنه قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ إلا إذا أمكن ذوق الموتة الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ وقرئ «ووقَّاهم» على المبالغة.

﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي أعطوا كل ذلك عطاء وتفضلاً منه. وقرئ بالرفع أي ذلك فضل. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاص عن المكاره وفوز بالمطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَلْسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ (٥٩).

﴿فَإِنَّمَا يَسْرِزْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحل بهم. ﴿إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظرون ما يحل بك.

عن النبي ﷺ «من قرأ حمّ الدخان ليلة جمعة أصبح مغفوراً له».

(٤٥) سورة الجاثية

مكية وآيها سبع أو ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ③ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ④ .

﴿حَمْدٌ﴾ «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» إن جعلت ﴿حَمْدٌ﴾ مبتدأ خبره «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» احتجت إلى إضمار مثل ذلك «تَنْزِيلُ» ﴿حَمْدٌ﴾، وإن جعلتها تعديداً للحروف كان «تَنْزِيلُ» مبتدأ خبره: «مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» وقيل ﴿حَمْدٌ﴾ مقسم به و «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» صفة وجواب القسم:

«إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ» وهو يحتمل أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله:

«وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ» وَلَا يَحْسُنُ عطف ما على الضمير المجرور بل عطفه على المضاف إليه بأحد الاحتمالين، فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما به يتم معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع المختار. «آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» محمول على محل إن واسمها، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب بالنصب حملاً على الاسم.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ⑤ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ⑥ .

﴿وَاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ من مطر وسماء رزقاً لأنه سببه. «فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا» ييسها. «وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ» باختلاف جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي «وتصريف الرياح». «آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» فيه القراءتان ويلزمهما العطف على عاملين في والابتداء، أو إن إلا أن يضم في أو ينصب «آيَاتٍ» على الاختصاص أو يرفع بإضمار هي، ولعل اختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أي تلك الآيات دلائله «تَتْلُوهَا عَلَيْكَ» حال عاملها معنى الإشارة. «بِالْحَقِّ» ملتبس به أو ملتبسة به. «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ» أي بعد «آيَاتِ اللَّهِ»، وتقديم اسم «اللَّهُ» للمبالغة والتعظيم كما في قولك أعجبني زيد وكرمه أو بعد حديث «اللَّهُ» وهو القرآن كقوله تعالى: «اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ» و «آيَاتِهِ» دلائله المتلوة أو القرآن، والعطف لتغاير الوصفين. وقرأ الحجازيان وحفص وأبو عمرو وروح «يؤمنون» بالياء ليوافق ما قبله.

﴿وَلِلَّ كُلِّ أُولَئِكَ أَصْنَانٌ ⑦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصْرُّ مُسْتَكْبِرًا ⑧ كَانَتْ يَسْمَعُهَا فَتَشْرُءُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ⑨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ⑩ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ⑪ وَمِنْ رِزْقِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا ⑫﴾

شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ .

﴿وَنَزَلَ لِكُلِّ آفَاقٍ﴾ كذاب. ﴿أَلِيمٌ﴾ كثير الآثام.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم على كفره. ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن الإيمان بالآيات و ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله: يَرَى عَمْرَاتٍ ثُمَّ يَزُورُهَا. ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي كأنه فحفت وحذف ضمير الشأن والجملة في موضع الحال، أي يصير مثل غير السامع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره والبشارة على الأصل أو التهكم.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ وإذا بلغه شيء من ﴿آيَاتِنَا﴾ وعلم أنه منها. ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لذلك من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزاء، والضمير لـ ﴿آيَاتِنَا﴾ وفائدته الإشعار بأنه إذا سمع كلاماً وعلم أنه من الآيات بادر إلى الاستهزاء بالآيات كلها ولم يقتصر على ما سمعه، أو لشيء لأنه بمعنى الآية. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ من قدامهم لأنهم متوجهون إليها، أو من خلفهم لأنها بعد آجالهم. ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ﴾ ولا يدفع عنهم. ﴿مَا كَسَبُوا﴾ من الأموال والأولاد. ﴿شَيْئًا﴾ من عذاب الله. ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحملونه.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْزِ أَلِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿هَذَا هُدًى﴾ الإشارة إلى القرآن ويدل عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن كثير ويعقوب وحفص برفع ﴿أليم﴾ والـ ﴿رجز﴾ أشد العذاب.

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ بأن جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه. ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بتسخيره وأنتم راكبوها. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ التجارة والغوص والصيد وغيرها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأن خلقها نافعة لكم. ﴿مِنْهُ﴾ حال من ما أي سخر هذه الأشياء كائنة منه، أو خير لمحذوف أي هي جميعاً منه، أو لـ ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ وسخر لكم تكرير للتأكيد أو لـ ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ﴾، وقرئ منه على المفعول له ومنه على أنه فاعل ﴿سخر﴾ على الإسناد المجازي أو خبر محذوف. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ في صنائعه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ حذف المقول لدلالة الجواب عليه، والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا أي يغفوا ويصفحوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لا يتوقعون وقائمه بأعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعهم، أو لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لنصر المؤمنين وثوابهم ووعدهم بها. والآية نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه غفاري فهم أن يبطش به، وقيل إنها منسوخة بآية القتال. ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ علة للأمر، والقوم هم المؤمنون أو الكافرون أو كلاهما فيكون التنكير للتعظيم أو التحقير أو الشيوخ، والكسب المغفرة أو

الإساءة أو ما يعمهما. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «النجزي» بالنون وقرأ «ليجزى قوم» و«ليجزى قوماً» أي ليجزي الخير أو الشر أو الجزاء، أعني ما يجزى به لا المصدر فإن الإسناد إليه سيما مع المفعول به ضعيف.

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لها ثواب العمل وعليها عقابه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَاقِبْنَاهُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا يَبْقَىٰ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة. ﴿وَالْحُكْمَ﴾ والحكمة النظرية والعملية أو فصل الخصومات. ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ إذ كثر فيهم الأنبياء ما لم يكثروا في غيرهم. ﴿وَزَكَّيْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مما أحل الله من اللذائذ. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم.

﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أدلة في أمر الدين ويندرج فيها المعجزات. وقيل آيات من أمر النبي عليه الصلاة والسلام مبينة لصدقه. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في ذلك الأمر. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحال. ﴿بَعِيًّا يَبْقَىٰ بَيْنَهُم﴾ عداوة وحسداً. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمواخاة والمجازاة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقة ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ من أمر الدين. ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فاتبع شريعتك الثابتة بالحجج. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراء الجاهل التابعة للشهوات، وهم رؤساء قريش قالوا له ارجع إلى دين آبائك.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ مما أراد بك. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسية علة الانضمام فلا توألم باتباع أهوائهم. ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فواله بالتقي واتباع الشريعة.

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿هَذَا﴾ أي القرآن أو اتباع الشريعة. ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ بينات تبصرهم وجه الفلاح. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة من الله. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقين.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمة فيها إنكار الحساب والاجترار الاكتساب ومنه الجارحة. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أن نصيرهم. ﴿كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مثلهم وهو ثاني مفعولي نجعل وقوله: ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدل منه إن كان الضمير للموصول الأول لأن المماثلة فيه إذ المعنى إنكار أن يكون حياتهم ومماتهم سيئين في البهجة والكرامة كما هو للمؤمنين، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص ﴿سواء﴾ بالنصب على البديل أو الحال من الضمير في الكاف، أو المفعولية والكاف حال وإن كان للثاني فحال منه أو استئناف يبين المقتضى للأنكار، وإن كان لهما فبدل أو حال من الثاني، وضمير الأول والمعنى إنكار أن يستوا بعد الممات في الكرامة أو ترك المواخاة كما استوا في الرزق والصحة في الحياة،

أو استئناف مقرر لتساوي محيا كل صنف ومماته في الهدى والضلال، وقرئ «مَمَاتُهُمْ» بالنصب على أن «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» ظرفان كمقدم الحاج. «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» ساء حكمهم هذا أو بشئ شيئاً حكموا به ذلك.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ كأنه دليل على الحكم السابق من حيث إن خلق ذلك بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات. «وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ» عطف على بالحق لأنه في معنى العلة أو على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل «ولتجزى». «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» بنقص ثواب وتضعيف عقاب، وتسمية ذلك ظلماً ولو فعله الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعله غيره لكان ظلماً كالابتلاء والاختبار.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعُ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِنَّ كُتُبَ صَدِيقِينَ﴾ (٢٥).

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ ترك متابعة الهدى إلى متابعة الهوى فكانه يعبد، وقرئ «آلهة هواه» لأنه كان أجدهم يستحسن حجراً فيعبده فإذا رأى أحسن منه رفضه إليه. «وَأَضَلَّهُ اللَّهُ» وخذله. «عَلَىٰ عِلْمٍ» عالماً بضلاله وفساد جوهر روحه. «وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ» فلا يبالي بالمواعظ ولا يتفكر في الآيات. «وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً» فلا ينظر بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائي «غشوة». «فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ» من بعد إضلاله. «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» وقرئ «تذكرون».

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ﴾ ما الحياة أو الحال. «إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» التي نحن فيها. «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي نكون أمواتاً نطفاً وما قبلها ونحيا بعد ذلك، أو نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا، أو يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة ويحتمل أنهم أرادوا به التناسخ فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان. «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» إلا مرور الزمان وهو في الأصل مدة بقاء العالم من دهره إذا غلبه. «وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ» يعني نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك وما يتعلق بها على الاستقلال، أو إنكار البعث أو كليهما. «إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» إذ لا دليل لهم عليه وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يحسوا به.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما يخالف معتقدهم أو ميقات له. «مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ» ما كان لهم متشبه يعارضونها به. «إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاتِنَا إِنَّ كُتُبَ صَادِقِينَ» وإنما سماه حجة على حسابانهم ومساقهم، أو على أسلوب قولهم: تحية بينهم ضرب وجيع. فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء حالاً امتناعه مطلقاً.

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْشَرُ الْمَبْطُلُونَ﴾ (٢٧).

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على ما دلت عليه الحجج. «ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ» فإن من قدر على الابتداء قدر على الإعادة، والحكمة اقتضت الجمع للمجازاة على ما قرر مراراً، والوعد

المصدق بالآيات دل على وقوعها، وإذا كان كذلك أمكن الإتيان بآبائهم لكن الحكمة اقتضت أن يعادوا يوم الجمع للجزاء. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلة تفكرهم وقصور نظرهم على ما يحسونه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعميم للقدرة بعد تخصيصها. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويخسر يوم تقوم و ﴿يومئذ﴾ بدل منه.

﴿وَنَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ هذا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَنَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾ مجتمعة من الجثوة وهي الجماعة، أو بركة مستوفزة على الركب. وقرى «جاذية» أي جالسة على أطراف الأصابع لاستيفازهم. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ صحيفة أعمالها. وقرأ يعقوب ﴿كل﴾ على أنه بدل من الأول وتدعى صفة أو مفعول ثان. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمول على القول.

﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ أضاف صحائف أعمالهم إلى نفسه لأنه أمر الكتية أن يكتبوا فيها أعمالهم. ﴿يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يشهد عليكم بما عملتم بلا زيادة ولا نقصان. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتب الملائكة. ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالكم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَا بَيْنَ يَدَيِّكَ عَلَيَّكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ التي من جملتها الجنة. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ الظاهر لخلوصه عن الشوائب.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ مَا بَيْنَ يَدَيِّكَ عَلَيَّكَ﴾ أي فيقال لهم ألم يأتكم رسلي ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾، فحذف القول والمعطوف عليه اكتفاء بالمقصود واستغناء بالقرينة. ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتكم الإجرام.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَذِرُ مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يحتمل الموعود به والمصدر. ﴿حَقٌّ﴾ كائن هو. أو متعلقه لا محالة: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أفراد للمقصود، وقرأ حمزة بالنصب عطفاً على اسم إن. ﴿قُلْ مَا نَذِرُ مَا السَّاعَةُ﴾ أي شيء الساعة استغراباً لها. ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصله نظن ظناً فأدخل حرفا النفي والاستثناء لإثبات الظن ونفى ما عداه كأنه قال: ما نحن إلا نظن ظناً، أو لنفي ظنهم فيما سوى ذلك مبالغة ثم أكد بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعل ذلك قول بعضهم تحيروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تليت عليهم من الآيات في أمر الساعة.

﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهر لهم. ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانت عليه بأن عرفوا قبحها وعابوها وخامة عاقبتها، أو جزاءها. ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو الجزاء.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا

«أَيَّدَ اللَّهُ هُزُؤًا وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» ﴿٣٥﴾.

«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ» تترككم في العذاب ترك ما ينسى. «كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا» كما تركتم عدته ولم تبالوا به، وإضافة لقاء إلى يوم إضافة المصدر إلى ظرفه. «وَمَا أَوَّاكُم النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» يخلصونكم منها.

«ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا» استهزأتم بها ولم تفكروا فيها. «وَعَرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا» فحسبتم أن لا حياة سواها. «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا» وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وضم الراء. «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه لفوات أوانه.

«فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾.

«فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» إذ الكل نعمة منه ودال على كمال قدرته. «وله الكبرياء في السموات والأرض» إذ ظهر فيها آثارها. «وهو العزيز» الذي لا يغلب. «الحكيم» فيما قدر وقضى فاحمدوه وكبروه وأطيعوا له. عن النبي ﷺ «من قرأ حم الجاثية ستر الله عورته وسكن روعته يوم الحساب».

(٤٦) سورة الأحقاف

مكية وأبيها أربع أو خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝﴾

﴿حَمْدٌ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ «مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ» إلا خلقاً ملتبساً بالحق وهو ما تقتضيه الحكمة والمعدلة، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم، والبعث للمجازاة على ما قرناه مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير أجل مسمى ينتهي إليه الكل وهو يوم القيامة، أو كل واحد وهو آخر مدة بقائه المقدرة له. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أخبروني عن حال آلهتكم بعد تأمل فيها، هل يعقل أن يكون لها في أنفسها مدخل في خلق شيء من أجزاء العالم فتستحق به العبادة. وتخصيص الشرك بالسماوات احتراز عما يتوهم أن للوسائط شركة في إيجاد الحوادث السفلية. ﴿أَتُنَبِّئُونَ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل هذا الكتاب يعني القرآن فإنه ناطق بالتوحيد. ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين عل فيها ما يدل على استحقاقهم للعبادة أو الأمر به. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم، وهو إلزام بعدم ما يدل على ألوهيتهم بوجه ما نقلاً بعد إلزامهم بعدم ما يقتضيهما عقلاً، وقرىء «إثارة» بالكسر أي مناظرة فإن المناظرة تثير المعاني، و «أثرة» أي شيء أوثرت به. و«أثرة» بالحركات الثلاث في الهمزة وسكون الثاء فالمفتوحة للمرة من مصدر أثر الحديث إذا رواه والمكسورة بمعنى الأثرة والمضمومة اسم ما يؤثر.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ إنكار أن يكون أحد أضل من المشركين حيث تركوا عبادة السميع البصير المجيب القادر الخبير إلى عبادة من لا يستجيب لهم لو سمع دعاءهم، فضلاً أن يعلم سرائرهم وبرايعي مصالحهم. ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ما دامت الدنيا. ﴿وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ لأنهم إما جمادات وإما عباد مسخرون مشغولون بأحوالهم.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يضرونهم ولا ينفعونهم. ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ مكذبين بلسان

الحال أو المقال. وقيل الضمير للعابدين وهو كقوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات أو مبينات. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمراد به الآيات ووضعه موضع ضميرها ووضع ﴿الذين كفروا﴾ موضع ضمير المتلو عليهم للتسجيل عليها بالحق وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ حينما جاءهم من غير نظر وتأمل. ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر بطلانه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب عن ذكر تسميتهم إياه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه وإنكار له وتعجيب. ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على الفرض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي إن عاجلني الله بالعقوبة فلا تقدرُونَ على دفع شيء منها فكيف أجترأ عليه وأعرض نفسي للعقاب من غير توقع نفع ولا دفع ضرر من قبلكم. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تندفعون فيه من القدح في آياته. ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والإنكار، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله عنهم مع عظم جرمهم.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أَدْعُوكُمْ إِلَى مَا لَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ، أو أَقْدِرُ عَلَى مَا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وهو الإتيان بالمقترحات كلها ونظيره الخف بمعنى الخفيف. وقرئ بفتح الدال على أنه كقيم أو مقدر بمضاف أي ذا بدع. ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفضيل إذ لا علم لي بالغيب، و ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي المشتمل على ما يفعل بي ﴿وما﴾ إما موصولة منصوبة أو استفهامية مرفوعة. وقرئ «يفعل» أي يفعل الله. ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ لا أتجاوزوه، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار عما لم يوحى إليه من الغيوب، أو استعجال المسلمين أن يتخلصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار بالشواهد المبيّنة والمعجزات المصدقة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي القرآن. ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ وقد كفرتم به، ويجوز أن تكون الواو عاطفة على الشرط وكذا الواو في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إلا أنها تعطفه بما عطف عليه على جملة ما قبله، والشاهد هو عبد الله بن سلام وقيل موسى عليه الصلاة والسلام وشهادته ما في التوراة من نعت الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن وهو ما في التوراة من المعاني المصدقة للقرآن المطابقة له، أو مثل ذلك وهو كونه من عند الله. ﴿فَقَامَ﴾ أي بالقرآن لما رآه من جنس الوحي مطابقاً للحق. ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ استئناف مشعر بأن كفرهم به لضلالتهم المسبب عن ظلمهم، ودليل على الجواب المحذوف مثل أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُنَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأجلهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمان أو ما أتى به محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهم سقاط إذ عامتهم فقراء وموال ورعاة، وإنما قاله قريش وقيل بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار، أو اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ ظرف لمحذوف مثل ظهر عنادهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبب عنه وهو كقولهم: أساطير الأولين. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ ومن قبل القرآن وهو خبر لقوله: ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ ناصب لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قرئ به. ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كِتَابٌ﴾ في ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أو منه لتخصيصه بالصفة، وعاملها معنى الإشارة وفائدتها الإشعار بالدلالة على أن كونه مصدقاً للتوراة كما دل على أنه حق دل على أنه وحي وتوقيف من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعول ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي يصدق ذا لسان عربي بإعجازه. ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ علة ﴿مُصَدِّقٌ﴾، وفيه ضمير الكتاب أو الله أو الرسول، ويؤيد الأخير قراءة نافع وابن عامر والبيزي بخلاف عنه ويعقوب بالتاء ﴿وَيُنَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطف على محله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والإستقامة في الأمور التي هي منتهى العمل، وثم للدلالة على تأخر رتبة العمل وتوقف اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوق مكروه. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فوات محبوب، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلمية والعملية، وخالدين حال من المستكن في أصحاب وجزاء مصدر لفعل دل عليه الكلام أي جوزوا جزاء.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ وقرأ الكوفيون «إحساناً»، وقرئ حسناً أي إيصاء «حسناً». ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذات كره أو حملاً ذا كره وهو المشقة، وقرأ الحجازيان وأبو عمرو وهشام بالفتح وهما لغتان كالفقر والفقر. وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر. ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ﴾ ومدة ﴿حمله وفصاله﴾، والفصال الفطام ويدل عليه قراءة يعقوب «وفصله» أو وقته والمراد به الرضاع التام المنتهي به ولذلك عبر به كما يعبر بالأمدة عن المدة، قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ الْعُمَرِ وَمَوَدَّ إِذَا انْتَهَى أَمَدُهُ

﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ كل ذلك بيان لما تكايد الأم في تربية الولد بمبالغة في التوصية بها، وفيه دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه إذا حط منه للفصال حولان لقوله: ﴿حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾

بقي ذلك وبه قال الأطباء ولعل تخصيص أقل الحمل وأكثر الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط حكم النسب والرضاع بهما. «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ» إذا اكتمل واستحكم قوته وعقله. «وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» قيل لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين. «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي» ألهمني وأصله أولعني من أوزعته بكذا. «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ» يعني نعمة الدين أو ما يعمرها وغيرها، وذلك يؤيد ما روي أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يكن أحد أسلم هو وأبواه من المهاجرين والأنصار سواه. «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ» نكره للتعظيم أو لأنه أراد نوعاً من الجنس يستجلب رضا الله عز وجل. «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» واجعل لي الصلاح سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوه قوله:

وَأِنْ تَعَنَّى بِالْمَحَلِّ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّيْفِ يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيبِهَا نَضْلِي

«إِنِّي ثَبْتُ إِلَيْكَ» عما لا ترضاه أو يشغل عنك. «وَأَتَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ» المخلصين لك.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihan اللهَ وَيَلَكَّ آمِنَ. إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعني طاعاتهم فإن المباح حسن ولا يثاب عليه. «وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ» لتوبتهم، وقرأ حمزة الكسائي وحفص بالنون فيهما. «فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ» كائنين في عدادهم أو مثابين أو معدودين فيهم. «وَعَدَ الصَّادِقُ» مصدر مؤكد لنفسه فإن يتقبل ويتجاوز وعد. «الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ» أي في الدنيا.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبَانِي﴾ مبتدأ خبره «أولئك»، والمراد به الجنس وإن صح نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، فإن خصوص السبب لا يوجب التخصيص. وفي «أف» قراءات ذكرت في سورة «بني إسرائيل». «تُعَذِّبَانِي أَنْ أَخْرَجَ» أبعث، وقرأ هشام «تُعَذِّبَانِي» بنون واحدة مشددة. «وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فلم يرجع أحد منهم. «وَهُمَا يَسْتَفِihan اللهَ» يقولان الغياث بالله منك، أو يسألانه أن يغيثه بالتوفيق للإيمان. «وَيَلَكَّ آمِنَ» أي يقولان له «ويلك»، وهو الدعاء بالشبور بالحث على ما يخاف على تركه. «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» أباطيلهم التي كتبوها.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بأنهم أهل النار وهو يرد النزول في عبد الرحمن لأنه يدل على أنه من أهلها لذلك وقد جب عنه إن كان لإسلامه. «فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ» كقوله في أصحاب الجنة. «مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» بيان للأمم. «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» تعليل للحكم على الاستئناف.

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الفريقين. «دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا» مراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر، أو من أجل ما عملوا وال «درجات» غالبية في المثوبة وها هنا جاءت على التغليب. «وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ» جزاءها، وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وابن ذكوان بالنون. «وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ» بتقص ثواب وزيادة عقاب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَائِفَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ سَاءَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يعذبون بها. وقيل تعرض النار عليهم فقلبي مبالغة كقولهم: عرضت الناقة على الحوض. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يقال لهم أذهبتم، وهو ناصب اليوم وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالاستفهام غير أن ابن كثير يقرؤه بهمة مدودة وهما يقرآن بها وبهمزتين محقتين. ﴿طَبَّاتِكُمْ﴾ لذاتكم. ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَأَسْتَفْتَحْتُمْ بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيء. ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الهوان وقد قرئ به. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسبب الاستكبار الباطل والفسوق عن طاعة الله، وقرئ «تَفْسُقُونَ» بالكسر.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتْ أَلْبُدُّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّكَ عَنْ الْوَيْلِ قَائِلًا إِنَّمَا نَعْبُدُ مَا كُنْتُمْ مِنَ الْصَادِقِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هودا. ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشجر من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْبُدُّ﴾ الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قبل هود وبعده والجملة حال أو اعتراض. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأن لا تعبدوا فإن النهي عن الشيء إنذار من مضرته. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائل بسبب شرككم.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّكَ عَنْ عِبَادَتِنَا﴾ نصرفنا. ﴿عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عن عبادتها. ﴿قَائِلًا إِنَّمَا نَعْبُدُ مَا كُنْتُمْ مِنَ الْصَادِقِينَ﴾ في وعدك. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا علم لي بوقت عذابكم ولا مدخل لي فيه فاستعجل به، وإنما علمه عند الله فيأتيكم به في وقته المقدر له. ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ﴾ لا تعلمون أن الرسل بعثوا مبلغين منذرين لا معذبين مقترحين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرض في أفق السماء. ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ متوجه أوديتهم، والإضافة لفظية وكذا في قوله: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرٌ﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هود عليه الصلاة والسلام ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ من العذاب، وقرئ «قل» «بل»: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريح، ويجوز أن يكون بدل ما. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتها وكذا قوله:

﴿تُدْمِرُ﴾ تهلك. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجد نابضة حركة ولا قابضة سكون إلا بمشيئته، وفي ذكر الأمر والرب وإضافة إلى الريح فوائد سبق ذكرها مراراً، وقرئ «يدمر كل شيء» من دمر دماراً إذا هلك فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ﴿رَبِّهَا﴾، ويحتمل أن يكون استئنافاً للدلالة على أن لكل ممكن فناء مقضياً لا يتقدم ولا يتأخر، وتكون الهاء لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لو حضرت بلادهم لا ترى إلا مساكنهم، وقرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ بالياء المضمومة ورفع المساكن. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. روي أن هوداً عليه السلام لما أحس بالريح اعتزل بالمؤمنين في الحظيرة وجاءت الريح فأمالت الأحقاف على الكفرة، وكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام، ثم كشفت عنهم واحتملتهم فقذفتهم في البحر.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ «إن» نافية وهي أحسن من ما ههنا لأنها توجب التكرير لفظاً ولذلك قلبت ألفها هاء في مهمما، أو شرطية محذوفة الجواب والتقدير، ولقد مكناهم في الذي أوفي شيء إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر، أو صلة كما في قوله:

يُرجي المَرْءَ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ ويعرض دُونَ أدناه السُّطُوبُ

والأول أظهر وأوفق لقوله: «هم أحسن أثاثاً» «كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثراً». «وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة» ليعرفوا تلك النعم ويستدلوا بها على ما منحها تعالى ويواظبوا على شكرها. «فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء» من الإغناء وهو القليل. «إذ كانوا يجحدون بآيات الله» صلة «فما أغنى» وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث إن الحكم مرتب على ما أضيف إليه وكذلك حيث «وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ﴾ يا أهل مكة. «من القرى» كحجر ثمود وقرى قوم لوط. «وصرفنا الآيات» بتكريرها. «لعلهم يرجعون» عن كفرهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ فهلا منعتهم من الهلاك ألهمت الذين يتقربون بهم إلى الله تعالى حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وأول مفعولي «اتخذوا» الراجع إلى الموصول محذوف، وثانيهما «قرباناً» و «آلهة» بدل أو عطف بيان، أو «آلهة» و «قرباناً» حال أو مفعول له على أنه بمعنى التقرب. وقرى «قرباناً» بضم الراء. «بل ضلوا عنهم» غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدوا بهم امتناع الاستمداد بالضال. «وذلك إفكهم» وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره صرفهم عن الحق، وقرى «أفكهم» بالتشديد للمبالغة، و «أفكهم» أي جعلهم آفكين و «أفكهم» أي قولهم الأفك أي ذو الإفك. «وما كانوا يفترُونَ».

﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافِثًا مِنْ الْحَقِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَافِثًا مِنْ الْحَقِّ﴾ أملناهم إليك والنفر دون العشرة وجمعه أنفار. «يستمعون القرآن» حال محمولة على المعنى. «فلما حضروه» أي القرآن أو الرسول. «قالوا أنصتوا» قال بعضهم لبعض استكثوا لنسمعه. «فلما قضى» أتم وفرغ من قراءته، وقرى على بناء الفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام. «ولوا إلى قومهم منذرين» أي منذرين إياهم بما سمعوا. روي أنهم وافوا رسول الله ﷺ بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف يقرأ في تهجده.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. «مصدقاً لما بين يديه إلى الحق» من العقائد. «وإلى طريق مستقيم» من

الشرائع.

﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، وهو ما يكون في خالص حق الله فإن المظالم لا تغفر بالإيمان. ﴿وَيُجِزَّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ هو معد للكفار، واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارة على أن لا ثواب لهم، وألا ظهر أنهم في توابع التكليف كبنى آدم.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهرب. ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يمنونه منه. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سَائِلٌ مِنْ عِندٍ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ سَبِيلٍ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ سَائِلٌ مِنْ عِندٍ﴾ ولم يتعب ولم يعجز، والمعنى أن قدرته واجبة لا تنقص ولا تنقطع بالإيجاد أبد الأبد. ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْوَلَدَ﴾ أي قادرة ويدل عليه قراءة يعقوب «يقدر»، والباء مزيدة لتأكيد النفي فإنه مشتمل على «أن» وما في حيزها ولذلك أجاب عنه بقوله: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدر السورة بتحقيق المبدأ أراد ختمها بإثبات المعاد.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ منصوب بقول مضمّر مقوله: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ والإشارة إلى العذاب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفركم في الدنيا، ومعنى الأمر هو الإهانة بهم والتوبيخ لهم.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَبَلَّغْ فَهَلْ يَنْهَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أولوا الثبات والجد منهم فإنك من جملتهم، و «من» للتبيين، وقيل للتبعيض، و «أولو العزم» أصحاب الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاودة الطاعنين فيها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى صلى الله عليه وسلم عليهم. وقيل الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذى قومه، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم على النار وذبح ولده والذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد والبصر، ويوسف على الحب والسجن، وأيوب على الضر، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة، وعيسى لم يضع لينة على لينة. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لكفار قريش بالعذاب فإنه نازل بهم في وقته لا محالة. ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ استقصروا من هوله مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة. ﴿بَلَاغٌ﴾ هذا الذي وعظمت به أو هذه السورة بلاغ أي كفاية، أو تبليغ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده أنه قرئ «بلغ»، وقيل «بلاغ» مبتدأ خبره «لهم» و «ما» بينهما اعتراض أي لهم وقت يبلغون إليه كأنهم إذا بلغوه ورأوا ما فيه استقصروا مدة عمرهم، وقرئ بالنصب أي بلغوا بلاغاً. ﴿فَبَلَّغْ يَنْهَكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾

الخارجون عن الاعتاز أو الطاعة، وقرئ «يهلك» بفتح اللام وكسرهما من هلك وهلك، و«نهلك» بالنون ونصب القوم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا».

(٤٧) سورة محمد ﷺ

وتسمى سورة القتال وهي مدنية وقيل مكية

وأيها سبح أو ثمان وثلاثون أو أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ .

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخول في الإسلام وسلوك طريقه، أو منعوا الناس عنه كالمطعمين يوم بدر، أو شياطين قريش أو المصريين من أهل الكتاب. أو عام في جميع من كفر وصد. ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ جعل مكارمهم كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار ضالة أي ضائعة محبطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن، أو ضلال حيث لم يقصدوا به وجه الله، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعم المهاجرين والأنصار والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم. ﴿وآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ تخصيص للمنزّل عليه مما يجب الإيمان به تعظيماً له وإشعاراً بأن الإيمان لا يتم دونهُ، وأنه الأصل فيه ولذلك أكدهُ بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصر. وقيل حقيقة بكونه ناسخاً لا ينسخ، وقرئ «نزل» على البناء للفاعل و«أنزل» على البناءين و«نزل» بالتخفيف. ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ سترها بالإيمان وعملهم الصالح. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝٣﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مر من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأ خبره. ﴿بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بسبب اتباع هؤلاء الباطل واتباع هؤلاء الحق، وهذا تصريح بما أشعر به ما قبلها ولذلك سمي تفسيراً. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الضرب. ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ يبين لهم. ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾ أحوال الفريقين أو أحوال الناس، أو يضرب أمثالهم بأن جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخبيثتهم واتباع الحق مثلاً للمؤمنين، وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتُمُومِرُ فَتُدَوُّوا أَلْوَانَكُم مِّنَّا بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لِّنَبِّئُوكُمْ بِبَعْضِ الَّذِي قُلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ يُعْذِلَ أَعْمَالَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ۝٤ وَيُخْلِفُهُمْ لِيَنْتَهِ عَرَفَهَا لَهُمْ ۝٥﴾ .

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في المحاربة. ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر، وأنيب منابه مضافاً إلى المفعول ضمّاً إلى التأكيد والاختصار. والتعبير به عن القتل إشعاراً بأنه ينبغي أن يكون بضرب الرقاب حيث أمكن، وتصوير له بأشنع صورة. ﴿حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ﴾ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الثخين وهو الغليظ. ﴿فَقُتِلُوا الْوَثَاقَ﴾ فأسروهم واحفظوهم، والوثاق بالفتح والكسر ما يوثق به. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي فإما تمنون منا أو تغدون فداء، والمراد التخيير بعد الأسر بين المن والإطلاق وبين أخذ الفداء، وهو ثابت عندنا فإن الذكر الحر المكلف إذا أسر تخير الإمام بين القتل والمن والفداء، والاسترقاق منسوخ عند الحنفية أو مخصوص بحرب بدر فإنهم قالوا يتعين القتل أو الاسترقاق. وقرئ «فدا» كعصا. ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع، أي تنقضي الحرب ولم يبق إلا مسلم أو مسالم. وقيل آثامها والمعنى حتى يضع أهل الحرب شركهم ومعاصيهم، وهو غاية للضرب أو الشد أو للمن والفداء أو للمجموع بمعنى أن هذه الأحكام جارية فيها حتى لا يكون حرب مع المشركين بزوال شوكتهم. وقيل ينزل عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ذَلِكَ﴾ أي الأمر ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ لا نتقم منهم بالاستئصال. ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَغْضَكُمْ يَبْغُضَ﴾ ولكن أمركم بالقتال ليلبوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فيستوجبوا الثواب العظيم والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر. ﴿وَالَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريان وحفص ﴿قتلوا﴾ أي استشهدوا. ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلن يضيعها، وقرئ «يضل» من ضل و«يضل» على البناء للمفعول.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثواب، أو سيثبت هدايتهم. ﴿وَيُضِلُّعْ بِالْهَمِّ﴾

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقوها به، أو بينها لهم بحيث يعلم كل واحد منزله ويهتدي إليه كأنه كان ساكنه منذ خلق، أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة، أو حدها لهم بحيث يكون لكل جنة مفرزة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ إن تنصروا دينه ورسوله. ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على عدوكم. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدة مع الكفار.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ فعثوراً لهم وانحطاطاً ونقيضه لما قال الأعشى. فالتعس أولى بها من أن أقول تعسا. وانتصابه بفعله الواجب إضماره سماعاً، والجملة خبر ﴿الذين كفروا﴾ أو مفسرة لنصبه. ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ عطف عليه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ القرآن لما فيه من التوحيد والتكاليف المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم، وهو تخصيص وتصريح بسببية الكفر بالقرآن للتعس والإضلال. ﴿فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ كرهه إشعاراً بأنه يلزم الكفر بالقرآن ولا ينفك عنه بحال.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَسْهَلُ﴾ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استأصل عليهم ما

اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم. ﴿وَاللَّكَافِرِينَ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمرة. ﴿أَمْثَالَهَا﴾ أمثال تلك العاقبة أو العقوبة، أو الهلكة لأن التدمير يدل عليها، أو السنة لقوله تعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت﴾. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ناصرهم على أعدائهم. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ فيدفع العذاب عنهم وهو لا يخالف قوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ فإن المولى فيه بمعنى المالك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ يتمتعون بمتاع الدنيا. ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ حريصين غافلين عن العاقبة. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ منزل ومقام.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ على حذف المضاف وإجراء أحكامه على المضاف إليه، والإخراج باعتبار التسبب. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ بأنواع العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يدفع عنهم العذاب وهو كالحال المحكية.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ حجة من عنده وهو القرآن، أو ما يعمه والحجج العقلية كالنبي ﷺ والمؤمنين. ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ كالشرك والمعاصي. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في ذلك لا شبهة لهم عليه فضلاً عن حجة.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصصنا عليك صفتها العجيبة. وقيل مبتدأ خبره: ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، وتقدير الكلام أمثال أهل الجنة كمثال من هو خالد، أو أمثال الجنة كمثال جزاء من هو خالد فعرى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف استغناء يجري مثله تصويراً لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبيئة والتابع للهوى، بمكابرة من يسوي بين الجنة والنار، وهو على الأول خبر محذوف تقديره: أفمن هو خالد في هذه الجنة كمن هو خالد في النار، أو بدل من قوله: ﴿كَمَنْ زُيِّنَ﴾ وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بيئة في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة. ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ استئناف لشرح المثل أو حال من العائد المحذوف، أو خبر لمثل و ﴿آسِنٍ﴾ من أسن الماء بالفتح إذا تغير طعمه وريحه، أو بالكسر على معنى الحدوث. وقرأ ابن كثير «أسن». ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ لم يصر قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ لذيدة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار تأنيث لذ أو مصدر نعت به بإضمار ذات، أو تجوز وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلة. ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها، وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينغصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ صنف على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ عطف على الصنف المحذوف، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم مغفرة. ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾

من فرط الحرارة.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَؤُلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٦).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ يعني المنافقين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ ويسمعون كلامه فإذا خرجوا. ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي لعلماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿مَاذَا قَالَ﴾ أي الذي قال الساعة، استهزاء أو استعلاماً إذ لم يلقوا له أذانهم تهاوناً به، و ﴿أَنفًا﴾ من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة، ومنه استأنف وائتف وهو ظرف بمعنى وقتاً مؤتلفاً، أو حال من الضمير في ﴿قال﴾ وقرأ ابن كثير «أنفًا».

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فلذلك استهزؤا وتهاونوا بكلامه.

﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّبَعُوا تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ (١٨).

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ أي زادهم الله بالتوفيق والإلهام، أو قول الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاتَّبَعُوا تَقْوَاهُمْ﴾ بين لهم ما يتقون أو أعانهم على تقواهم، أو أعطاهم جزاءها.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ فهل ينتظرون غيرها. ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ بدل اشتغال من ﴿السَّاعَةَ﴾، وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ كالعلة له، وقرئ «أَن تَأْتِيَهُمْ» على أنه شرط مستأنف جزاؤه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ والمعنى أن تأتهم الساعة بغتة لأنه قد ظهر أماراتها كمبعث النبي عليه الصلاة والسلام، وانشقاق القمر فكيف لهم ﴿ذكرهم﴾ أي تذكرهم ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ الساعة بغتة، وحيث لا يفرغ له ولا ينفق.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (١٩).

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أي إذا علمت سعادة المؤمنين وشقاوة الكافرين فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية وتكميل النفس بإصلاح أحوالها وأفعالها وهضمها بالاستغفار ﴿لِذَنبِكَ﴾. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ولذنوبهم بالدعاء لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانهم، وفي إعادة الجار وحذف المضاف إشعار بفرط احتياجهم وكثرة ذنوبهم وأنها جنس آخر، فإن الذنب له ماله تبعه ما بترك الأولى. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا فإنها مراحل لا بد من قطعها. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في العقبى فإنها دار إقامتكم فاتقوا الله واستغفروه وأعدوا للمعادكم.

﴿وَيَقُولَ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ﴾ (٢٠) ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَا صُدُوقًا لِلَّهِ لَكَآنَ حَيًّا لَهُمْ ۖ﴾ (٢١) ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ۚ﴾ (٢٢) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ﴾ (٢٣) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۚ﴾ (٢٤).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي هلا «نزلت سورة» في أمر الجهاد. ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ مبينة لا تشابه فيها. ﴿وَذُكِّرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي الأمر به. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ضعف في الدين وقيل نفاق. ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ جبناً ومخافة. ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ فويل ﴿لَهُمْ﴾، أفعّل من الولي وهو القرب، أو فعلى من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ استئناف أي أمرهم ﴿طاعة﴾ أو ﴿طاعة وقول معروف﴾ خير لهم، أو حكاية قولهم لقراءة أبي «يقولون طاعة». ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أي جد وهو لأصحاب الأمر، وإسناده إليه مجاز وعامل الظرف محذوف، وقيل ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما زعموا من الحرص على الجهاد أو الإيمان. ﴿لَكَانَ﴾ الصدق. ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ فهل يتوقع منكم. ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أمور الناس وتأمرتهم عليهم، أو اعرضتم وتوليتهم عن الإسلام. ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تناحراً على الولاية وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب، والمعنى أنهم لضعفهم في الدين وحرصهم على الدنيا أحقاء بأن يتوقع ذلك منهم من عرف حالهم ويقول لهم: هل عسيتم، وهذا على لغة الحجاز فإن بني تميم لا يلحقون الضمير به وخبره ﴿أَنْ تُفْسِدُوا﴾ و ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ اعتراض، وعن يعقوب ﴿توليتهم﴾ أي إن تولاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم ﴿وتقطعوا﴾ من القطع، وقرئ تقطعوا من التقطع.

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين. ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ لإفسادهم وقطعهم الأرحام. ﴿فَأَصْحَابُ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ فلا يهتدون سبيله.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصي. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر، وقيل ﴿أَمْ﴾ منقطعة ومعنى الهمزة فيها التقرير، وتنكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم أو للإشعار بأنها لإبهاام أمرها في القساوة، أو لفرط جهالتها ونكرها كأنها مبهمة منكورة وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تتجانس الأقفال المعهودة. وقرئ «إقفالها» على المصدر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾ أي إلى ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهل لهم اقتراح الكبائر من السؤل وهو الاسترخاء. وقيل حملهم على الشهوات من السؤل وهو التمني، وفيه أن السؤل مهموز قلبت همزته واواً لضم ما قبلها ولا كذلك التسويل، ويمكن رده بقولهم هما يتساولان وقرئ «سؤل» على تقدير مضاف أي كيد الشيطان ﴿سؤل لهم﴾. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومد لهم في الآمال والأمانى، أو أمهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة لقراءة يعقوب ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي وأنا أملي لهم فتكون الواو للحال أو الاستئناف، وقرأ أبو عمرو ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول وهو ضمير ﴿الشيطان﴾ أو ﴿لهم﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي قال اليهود للذين كفروا بالنبي عليه الصلاة والسلام بعدما تبين لهم نعتة للمنافقين، أو المنافقون لهم أو أحد الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ في بعض أموركم أو في بعض ما تأمرون به كالقعود عن الجهاد والموافقة في الخروج معهم إن أخرجوا، والتظاهر على الرسول ﷺ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولهم هذا الذي أفشاء الله عليهم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿إسراهم﴾ على المصدر.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَفَهُمْ﴾ (٢٩).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالون حينئذ، وقرئ «توفاهم» وهو يحتمل الماضي والمضارع المحذوف إحدى تاءيه. «يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ» تصوير لتوفيههم بما يخافون منه ويجنبون عن القتال له.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى التوفي الموصوف. «بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْخَطَ اللَّهَ» من الكفر ككتمان نعت الرسول عليه الصلاة والسلام وعصيان الأمر. «وَكْرَهُوا رِضْوَانَهُ» ما يرضاه من الإيمان والجهاد وغيرها من الطاعات. «فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ» لذلك.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ﴾ أن لن يبرز الله لرسوله ﷺ والمؤمنين. «أَصْغَفَهُمْ» أحقادهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم. «فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ» بعلاماتهم التي نسهم بها، واللام لام الجواب كررت في المعطوف. «وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» جواب قسم محذوف و «لَحْنِ الْقَوْلِ» أسلوبه، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية، ومنه قيل للمخطيء لحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب. «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ» فيجازيكم على حسب قصدكم إذ الأعمال بالنيات.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة. «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ» على مشاقه. «وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها، أو أخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم المؤمنين في صدقها وكذبها. وقرأ أبو بكر الأفعال الثلاثة بالياء لتوافق ما قبلها، وعن يعقوب «ونبلو» بسكون الواو على تقدير ونحن نبلو.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٣٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ هم قريظة والنضير أو المطعمون يوم بدر. «لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا» بكفرهم وصددهم، أو لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته وحذف المضاف لتعظيمه وتفضيحه مشاقته. «وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ» ثواب حسنات أعمالهم بذلك، أو مكايدهم التي نصبوها في مشاقته فلا يصلون بها إلى مقاصدهم ولا تثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطل به هؤلاء كالكفر والنفاق والمعجب والرياء والمن والأذى ونحوها، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤) ﴿فَلَا تَهْتَبُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآغْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَهُمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عام في كل من مات على كفره وإن صح نزوله في أصحاب القليب، ويدل بمفهومه على أنه قد يغفر لمن لم يميت على كفره سائر ذنوبه .

﴿فَلَا تَهْتُوا﴾ فلا تضعفوا. ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خوراً وتذللاً، ويجوز نصبه بإضمار إن وقرئ «ولا تدعوا» من ادعى بمعنى دعا، وقرى أبو بكر وحمزة بكسر السين. ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبون. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصركم. ﴿وَلَنْ يَبْزِكَ أَعْمَالُكُمْ﴾ ولن يضيع أعمالكم، من وترت الرجل إذا قتلت متعلقاً به من قريب أو حميم فأفردته منه من الوتر، شبه به تعطيل ثواب العمل وإفراده منه.

﴿إِنَّمَا لِلْحَيَوةِ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ﴾ (٣٦) ﴿إِنْ سَأَلْتُمُوهُمَا فَيُخْبِعْكُم بِأَفْئِدَتِكُمْ بَلْخَلُوا وَخُجِرَ أَصْفَانِكُمْ﴾ (٣٧).

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثبات لها. ﴿وَإِنْ تُوْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ﴾ ثواب إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ جميع أموالكم بل يقتصر على جزء يسير كربع العشر والعشر.

﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ﴾ فيجهدكم بطلب الكل والإحفاء والإلحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال: أحفى شاربهُ إذا استأصله. ﴿تَبَحَّلُوا﴾ فلا تعطوا. ﴿وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ﴾ ويضغنكم على رسول الله ﷺ والضمير في يخرج الله تعالى، ويؤيده القراءة بالنون أو البخل لأنه سبب الإضغان، وقرئ «وتخرج» بالياء ورفع «أضغانكم».

﴿هَاسَأْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ
نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله: ﴿تَدْعُونَ لِتُقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استئناف مقرر لذلك، أو صلة لـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ على أنه بمعنى الذين وهو يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما. ﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ ناس يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدمة. ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فإن نفع الإنفاق وضرر البخل عائدان إليه، والبخل يعدي بعن وعلى لتضمنه معنى الإمساك والتعدي فإنه إمساك عن مستحق. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ فما يأمركم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلتم فلكم وإن توليتم فعليكم. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عطف على ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾. ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقيم مقامكم قوماً آخرين. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ في التولي والزهد في الإيمان، وهم الفرس لأنه سئل عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمان إلى جنبه فضرب فخذه وقال: «هذا وقومه»: أو الأنصار أو اليمن أو الملائكة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة».

(٤٨) سورة الفتح

مكية نزلت في مرجع رسول الله ﷺ من الحديبية وآيها تسع وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وعد بفتح مكة، والتعبير عنه بالماضي لتحقيقه أو بما اتفق له في تلك السنة كفتح خيبر وفدك، أو إخبار عن صلح الحديبية وإنما سماه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلح وتسبب لفتح مكة، وفرغ به رسول الله ﷺ لسائر العرب فغزاهم وفتح مواضع وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آية عظيمة وهي أنه نزع ماؤها بالكلية فتمضمض ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه، أو فتح الروم فإنهم غلبوا الفرس في تلك السنة. وقد عرفت كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة «الروم». وقيل الفتح بمعنى القضاء أي قضينا لك أن تدخل مكة من قابل.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ علة للفتح من حيث إنه مسبب عن جهاد الكفار والسعي في إزاحة الشرك وإعلاء الدين وتكميل النفوس الناقصة قهراً ليصير ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليص الضعفة عن أيدي الظلمة. ﴿وَمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميع ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه. ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة. ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرئاسة. ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نصراً فيه عز ومنعة، أو يعز به المنصور فوصف بوصفه مبالغة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة. ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى ثبتوا حيث تعلق النفوس وتدحض الأقدام. ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، أو أنزل فيها السكون إلى ما جاء به الرسول ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها فيسلط بعضها على بعض تارة ويوقع فيما بينهم السلم أخرى كما تقتضيه حكمته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يقدر ويدبر.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْوَا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَرْفُ السَّوْءِ

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ .

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ علة بما بعده لما دل عليه قوله : «ولله جنود السموات والأرض» من معنى التدبير، أي دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله فيه ويشكروها فيدخلهم الجنة ويعذب الكفار والمنافقين لما غاظهم من ذلك، أو «فتحنا» أو «أنزل» أو جميع ما ذكر أو «ليزدادوا»، وقيل إنه بدل منه بدل الاشتغال. «وَيَكْفُرُ عَنْهُمْ سَائِبَهُمْ» يغطيها ولا يظهرها. «وَكَانَ ذَلِكَ» أي الإدخال والتكفير. «عِنْدَ اللَّهِ قُوزًا عَظِيمًا» لأنه منتهى ما يطلب من جلب نفع أو دفع ضرر، وعند حال من الفوز.

«وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ» عطف على «يدخل» إلا إذا جعلته بدلاً فيكون عطفاً على المبدل منه. «الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُلْمَ السُّوءِ» ظن الأمر السوء وهو أن لا ينصر رسوله والمؤمنين. «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ» دائرة ما يظنونه ويربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «دائرة السوء» بالضم وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه والمضموم جرى مجرى الشر وكلاهما في الأصل مصدر «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ» عطف لما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا، والواو في الآخرين والموضع موضع الفاء إذ اللعن سبب للإعداد، والغضب سبب له لاستقلال الكل في الوعيد بلا اعتبار السببية. «وَسَاءَتْ مَصِيرًا» جهنم. «وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ على أمتك. «وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الطاعة والمعصية.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والأمة، أو لهم على أن خطابه منزل منزلة خطابهم. «وَتُعَزِّرُوهُ» وتقووه بتقوية دينه ورسوله «وَتُوَقِّرُوهُ» وتعظموه. «وَتُسَبِّحُوهُ» وتنزهوه أو تصلوا له. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» غدوة وعشيًا أو دائماً. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الأربعة بالياء، وقرأ «تعزروه» بسكون العين و «تعزروه» بفتح التاء وضم الزاي وكسرها و «تعزروه» بالزاءين «وتوقروه» من أوقره بمعنى وقره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنه المقصود ببيعته. «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» حال أو استئناف مؤكد له على سبيل التخييل. «فَمَنْ نَكَثَ» نقض العهد. «فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ» في مبايعته «فَمَسِيئَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا» هو الجنة، وقرأ «عهد» وقرأ حفص «عليه» بضم الهاء وابن كثير ونافع وابن عامر وروح «فمسيئته» بالنون. والآية نزلت في بيعة الرضوان.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١١﴾ .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم أسلم وجهينة ومزينة وغفار استغفرهم رسول الله ﷺ عام

الحديبية فتخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلفهم الخذلان وضعف العقيدة والخوف من مقاتلة قريش إن صدوهم. «سَخَّلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا» إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم، وقرىء بالتشديد للتكثير. «فَاسْتَفْزَعْنَا» من الله على التخلف. «يَقُولُونَ بِالنَّسْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» تكذيب لهم في الاعتذار والاستغفار. «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» فمن يمنعكم من مشيئته وقضائه. «إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا» ما يضركم كقتل أو هزيمة أو خلل في المال والأهل عقوبة على التخلف، وقرأ حمزة والكسائي بالضم. «أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا» ما يضاد ذلك، وهو تعريض بالرد. «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» فيعلم تخلفكم وقصدكم فيه.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ (١٢).

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنكم أن المشركين يستأصلونهم، وأهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات كأرضات على أن أصله أهلة وأما أهال فاسم جمع كليلال. «وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ» فتمكن فيها، وقرىء على البناء للفاعل وهو الله أو الشيطان. «وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوءِ» الظن المذكور، والمراد التسجيل عليه بـ «السوء» أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائغة. «وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا» هالكين عند الله لفساد عقيدتكم وسوء نيتكم.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٤).

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضع الكافرين موضع الضمير إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر وأنه مستوجب للسعير بكفره، وتكثير سعيراً للتهويل أو لأنها نار مخصوصة.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبره كيف يشاء. «يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» إذ لا وجوب عليه. «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» فإن الغفران والرحمة من ذاته والتعذيب داخل تحت قضائه بالعرض، ولذلك جاء في الحديث الإلهي «سبقت رحمتي غضبي».

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥).

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. «إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا» يعني مغنم خيبر فإنه عليه السلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم. «ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ» أن يغيروه وهو وعده لأهل الحديبية أن يعوضهم من مغنم مكة مغنم خيبر، وقيل قوله: «لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا» والظاهر أنه في تبوك. والكلام اسم للتكليم غلب في الجملة المفيدة وقرأ حمزة والكسائي «كلم الله» وهو جمع كلمة. «قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا» نفى في معنى النهي. «كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ». من قبل تهيبهم للخروج إلى خيبر. «فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا» أن يشارككم في الغنائم، وقرىء بالكسر. «بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ» لا يفهمون. «إِلَّا قَلِيلًا» إلا فهماً قليلاً وهو فطنتهم لأمر الدنيا، ومعنى الإضراب الأول رد منهم أن يكون

حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات للحسد، والثاني رد من الله لذلك وإثبات لجهلهم بأمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرر ذكرهم بهذا الاسم مبالغة في الذم وإشعاراً بشناعة التخلف. ﴿سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفة أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا غير كما دل عليه قراءة «أو يسلموا»، ومن عداهم يقاتل حتى يسلم أو يعطي الجزية. وهو يدل على إمامة أبي بكر رضي الله عنه إذا لم تتفق هذه الدعوة لغيره إلا إذا صح أنهم ثقيف وهوازن فإن ذلك كان في عهد النبوة. وقيل فارس والروم ومعنى «يسلمون» يتقادون ليتناول ثيابهم الجزية. ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنime في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعد على التخلف نفى الحرج عن هؤلاء المعذورين استثناء لهم عن الوعيد. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فصل الوعد وأجمل الوعيد مبالغة في الوعد لسبق رحمته، ثم جبر ذلك بالتكرير على سبيل التعظيم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ التهيب ها هنا أنفع من الترغيب، وقرأ نافع وابن عامر «ندخله» و«نعذبه» بالنون.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ روي: أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث جواس ابن أمية الخزاعي إلى أهل مكة، فهموا به فمنعه الأحابيش فرجع، فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه فحبسوه فأرجف بقتله، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه وكانوا ألفاً وثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة، وبايعهم على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا عنهم وكان جالساً تحت سمره أو سدره. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص. ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينة وسكون النفس بالتشجيع أو الصلح. ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر غب انصرافهم، وقيل مكة أو هجر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني مغنم خيبر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالباً مراعياً مقتضى الحكمة.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني مقام خيبر. ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد وغطفان، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة أو الغنime. ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها أنهم من الله بمكان، أو

صدق الرسول في وعدهم فتح خيبر في حين رجوعه من الحديبية، أو وعد المغانم أو عنواناً لفتح مكة والعطف على محذوف هو علة لـ ﴿كَفَ﴾، أو «عجل» مثل لتسلموا، أو لتأخذوا أو العلة لمحذوف مثل فعل ذلك. ﴿وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَى﴾ ومغانم أخرى معطوفة على هذه، أو منصوبة بفعل يفسره ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ مثل قضى، ويحتمل رفعها بالابتداء لأنها موصوفة وجرها بإضمار رب. ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولة. ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ استولى فأظفركم بها وهي مغانم هوازن أو فارس. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأن قدرته ذاتية لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْيَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرَا﴾ ٢٢ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ٢٣ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ٢٤.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ولم يصالحوها. ﴿لَوَلَّوْا الْأَذْيَارَ﴾ لانهزموا. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ وَإِنَّا وَلَا نَصِيرَا﴾ يحرسهم. ﴿وَلَا نَصِيرَا﴾ ينصرهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سن غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى: ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَرَسُولِي﴾. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً.

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكة. ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد. وقيل كان ذلك يوم الفتح واستشهد به على أن مكة فتحت عنوة وهو ضعيف إذ السورة نزلت قبله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم أولاً طاعة لرسوله وكفهم ثانياً لتعظيم بيته، وقرأ أبو عمرو بالياء. ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ وَلَوْ أَنَّ رِجَالَ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ٢٥.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَنَى مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ﴾ يدل على أن ذلك كان عام الحديبية، والهدي ما يهدي إلى مكة. وقرئ «الهدى» وهو فاعل بمعنى مفعول، ومحلّه مكانه الذي يحل فيه نحره والمراد مكانه المعهود وهو منى لا مكانه الذي لا يجوز أن ينحر في غيره، وإلا لما نحره الرسول ﷺ حيث أحصر فلا ينتهض حجة للحنفية على أن مذبح هدي المحصر هو الحرم. ﴿وَلَوْ أَنَّ رِجَالَ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أن توقعوا بهم وتبيدهم قال:

وَوَطَّئْتُنَا وَطْأً عَلَى حَقِّ وَطْءِ الْمُقَيَّدِ ثَابِتِ الْهَرَمِ

وقال عليه الصلاة والسلام «إن آخر وطأة وطئها الله بوج» وطهر وإد بالطائف كان آخر وقعة للنبي ﷺ بها، وأصله الدوس وهو بدل الاشتمال من «رجال» و«نساء» أو من ضميرهم في «تعلموهم». ﴿فَنُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعَرَّةٌ﴾ مكروه كوجوب الدية والكفارة بقتلهم والتأسف عليهم، وتعبير الكفار بدد والإثم بالتقصير في البحث عنهم مفعلة من عره إذا عراه ما يكرهه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أي تطوهم غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى «لولا» كراهة أن تهلكتوا

أناساً مؤمنين بين أظهر الكافرين جاهلين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه لما كف أيديكم عنهم. ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علة لما دل عليه كف الأيدي عن أهل مكة صوناً لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير أو للإسلام. ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من مؤمنيههم أو مشركيههم. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض، وقرئ «تزايدوا». ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ بالقتل والسبي.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ۝٢٦﴾.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقدر باذكر أو ظرف ﴿لعذبنا﴾ أو ﴿صدوكم﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفة. ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التي تمنع إذعان الحق. ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثبات والوقار وذلك ما روي «أنه عليه الصلاة والسلام لما هم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزي ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع من عامه على أن يخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام، فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا ما نعرف هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون» فَهَمَّ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَأْبُوا ذَلِكَ وَيَبْطِشُوا عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فَتَوَقَّروا وَتَحَمَّلُوا. ﴿وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله اختارها لهم، أو الثبات والوفاء بالعهد وإضافة الـ «كلمة» إلى «التقوى» لأنها سببها أو كلمة أهلها. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ. وَأَهْلَهَا﴾ والمستأهلين لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ فيعلم أهل كل شيء ويسره له.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ۝٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ۝٢٨﴾.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسبوا أن ذلك يكون في عامهم، فلما تأخر قال بعضهم والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا البيت فنزلت والمعنى صدقه في رؤياه. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبساً به فإن ما رآه كائن لا محالة في وقته المقدر له وهو العام القابل، ويجوز أن يكون ﴿بالحق﴾ صفة مصدر محذوف أي صدقاً ملتبساً ﴿بالحق﴾ وهو القصد إلى التمييز بين الثابت على الإيمان والمترلزل فيه، وأن يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جوابه وعلى الأولين جواب قسم محذوف. ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق للعدة. بالمشيئة تعليمًا للعباد، أو إشعاراً بأن بعضهم لا يدخل لموت أو غيبة أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبي ﷺ لأصحابه. ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال من الواو والشرط معترض. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون. ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حال مؤكدة أو استئناف أي لا تخافون بعد ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير ذلك. ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة. ﴿فَتْحاً قَرِيباً﴾ هو فتح خيبر ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ ملتبساً به أو بسببه أو لأجله. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ودين الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبه على جنس الدين كله بنسخ ما كان حقاً وإظهار فساد ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهله إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه تأكيد لما وعده من الفتح.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن أو على نبوته بإظهار المعجزات.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ زُكَّاءٌ يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩).

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ جملة مبينة للمشهود به، ويجوز أن يكون ﴿رسول الله﴾ صفة و ﴿محمد﴾ خبر محذوف أو مبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وخبرهما. ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ و ﴿أَشِدَّاءُ﴾ جمع شديد و ﴿رحماء﴾ جمع رحيم، والمعنى أنهم يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم كقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ﴿تَرَاهُمْ زُكَّاءً سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم. ﴿يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الثواب والرضا. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يريد السمة التي تحدث في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سامه إذا أعلمه وقد قرئت ممدودة و ﴿من أثر السجود﴾ بيانها أو حال من المستكن في الجار. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الوصف المذكور. أو إشارة مبهمة يفسرها ﴿كزراع﴾. ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ صفتهم العجيبة الشأن المذكورة فيها. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ عطف عليه أي ذلك مثلهم في الكتابين وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيل مستأنف أو تفسير أو مبتدأ و ﴿كزراع﴾ خبره. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿شَطْأَهُ﴾ بفتحات وهو لغة فيه، وقرئ «شطاء» بتخفيف الهمزة و «شطاء» بالمد و «شطه» بنقل حركة الهمزة وحذفها و «شطوه» بقلبها واوًا. ﴿فَآزَرَهُ﴾ فقواه من المؤازرة وهي المعاونة أو من الإيثار وهي الإعانة وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان ﴿فَآزَرَهُ﴾ كأجره في أجره. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ. ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقام على قصبه جمع ساق، وعن ابن كثير «سوقه» بالهمزة. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره، وهو مثل ضربه الله تعالى للصحابه قلوا في بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس. ﴿لِيُغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ علة لتشبيههم بالزرع في زكائه واستحكامه أو لقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإن الكفار لما سمعوه غاظهم ذلك ومنهم للبيان.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام فتح مكة».

(٤٩) سورة الحجرات

مدنية وآيها ثمانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا﴾ أي لا تقدموا أمراً، فحذف المفعول ليذهب الوهم إلى كل ما يمكن، أو ترك لأن المقصود نفي التقديم رأساً أو لا تتقدموا ومنه مقدمة الجيش لمتقدميهم، ويؤيده قراءة يعقوب ﴿لا تقدموا﴾. وقرئ «لا تقدموا» من القдом. ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مستعار مما بين الجهتين المسامتين ليدي الإنسان تهجيناً لما نهوا عنه، والمعنى لا تقطعوا أمراً قبل أن يحكما به. وقيل المراد بين يدي رسول الله ﷺ وذكر الله تعظيم له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجب إجلاله. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في التقديم أو مخالفة الحكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي إذا كلمتموه فلا تجاوزوا أصواتكم عن صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته محاماة على الترحيب ومراعاة للأدب. وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً وخاطبوه بالنبي والرسول، وتكرير النداء لاستدعاء مزيد الاستبصار والمبالغة في الاتعاظ والدلالة على استقلال المنادى له وزيادة الاهتمام به. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ كراهة أن تحبط فيكون علة للنهي، أو لأن تحبط على أن النهي عن الفعل المعلن باعتبار التادية لأن في الجهر والرفع استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذ انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة. وقد روي: أن ثابت بن قيس كان في أذنه قر وكان جهورياً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ فتفقده ودعاه فقال: يا رسول الله لقد أنزلت إليك هذه الآية وإنني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك إنك تعيش بخير وتموت بخير وإنك من أهل الجنة». ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ يخفضونها. ﴿عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مراعاة للأدب أو مخافة عن مخالفة النهي. قيل كان أبو بكر وعمر بعد ذلك يسرانه حتى يستفهمهما. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ جربها للتقوى ومرنها عليها، أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها، فإن الامتحان سبب المعرفة واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها، أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب إذا أذابه وميز إبريزه من خبثه. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم، والتشكير للتعظيم والجملة خبر ثان لأن، أو استئناف لبيان

ما هو جزاء الغاضبين إحماداً لحالهم كما أخبر عنهم بجملة مؤلفة من معرفتين، والمبتدأ إسم الإشارة المتضمن لما جعل عنواناً لهم، والخبر الموصول بصلة دلت على بلوغهم أقصى الكمال مبالغة في الاعتداد بغضهم والارتضاء له، وتعريضاً بشناعة الرفع والجهر وأن حال المرتكب لهما على خلاف ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ من خارجها خلفها أو قدامها، ومن ابتدائية فإن المناداة نشأت من جهة الراء، وفائدتها الدلالة على أن المنادى داخل الحجرة إذ لا بد وأن يختلف المبتدأ والمتنهي بالجهة، وقرئ «الحجرات» بفتح الجيم، وسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الأرض المحجورة بحائط، ولذلك يقال لحظيرة الإبل حجرة. وهي فعلة بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة، والمراد حجرات نساء النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كناية خلوته بالنساء ومناداتهم من ورائها إما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها، أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له، فأسند فعل الأبعاض إلى الكل. وقيل إن الذي ناداه عبيدة بن حصن والأقرع بن حابس، وفدا على رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج إلينا، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم رضوا بذلك أو أمروا به، أو لأنه وجد فيما بينهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة سيما لمن كان بهذا المنصب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم، فإن أن وإن دلت بما في حيزها على المصدر دلت بنفسها على الثبوت، ولذلك وجب إضمار الفعل وحتى تفيد أن الصبر ينبغي أن يكون مغياً بخروجه، فإن حتى مختصة بغاية الشيء في نفسه ولذلك تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولا تقول حتى نصفها، بخلاف إلى فإنها عامة، وفي ﴿إِلَيْهِمْ﴾ إشعار بأنه لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والشواب، والإسعاف بالمسؤول إذ روي أنهم وفدوا شافعين في أساري بني العنبر فأطلق النصف وفادى النصف. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث اقتصر على النصح والتفريع لهؤلاء المسيئين الأدب التاركين تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرفوا وتصفحوا، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث

﴿١٦﴾

الوليد بن عتبة مصداً إلى بني المصطلق وكان بينه وبينهم إحنة، فلما سمعوا به استقبلوه فحسبهم مقاتليه فرجع وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم بقتالهم فنزلت. وقيل بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدتهم منادين بالصلاة متجهدين فسلموا إليه الصدقات فرجع، وتنكير الفاسق والنبا للتعميم، وتعليق الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضي جواز قبول خبر العدل من حيث إن المعلق على شيء بكلمة إن عدم عدمه، وأن خبر الواحد لو وجب تبينه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسق، إذ الترتيب يفيد التعليل وما بالذات لا يعلل بالغير. وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا أي فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال. ﴿أَنْ تُصَيَّبُوا﴾ كراهة إصابتكم. ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ جاهلين بحالهم. ﴿فَتُصَيَّبُوا﴾ فتصيروا. ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ مغتمين غما لازماً متمنين أنه لم يقع، وتركيب هذه الأحرف الثلاثة دائر مع الدوام.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أن بما في حيزه ساد مسد مفعولي اعلموا باعتبار ما قيد به من الحال وهو قوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ فإنه حال من أحد ضميري فيكم، ولو جعل استئنافاً لم يظهر للأمر فائدة. والمعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك ﴿لَعَنِتُمْ﴾ أي لوقعتم في الجهد من العنت، وفيه إشعار بأن بعضهم أشار إليه بالإيقاع بيني المصطلق وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ استدراك ببيان عذرهم، وهو أنه من فرط حبهم للإيمان وكرهتهم للكفر حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد، أو بصفة من لم يفعل ذلك منهم إحكاماً لفعلهم وتعريضاً بدم من فعل ويؤيده قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي، ﴿وَكُرَّهَ﴾ يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد فإذا شدد زاد له آخر، لكنه لما تضمن معنى التبغض نزل كره منزلة بغض فعدي إلى آخر بإلى، أو نزل إليكم منزلة مفعول آخر. و ﴿الكفر﴾: تغطية نعم الله بالجحود. ﴿والفسوق﴾: الخروج عن القصد ﴿والعصيان﴾: الامتناع عن الانقياد.

﴿فَضَلَّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ﴾ تعليل لـ ﴿كره﴾ أو ﴿حبب﴾، وما بينهما اعتراض لا لـ ﴿الراشدون﴾ فإن الفضل فعل الله، والرشد وإن كان مسبباً عن فعله مسند إلى ضميرهم أو مصدر لغير فعله فإن التحبيب والرشد فضل من الله وإنعام. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ حيث يفضل وينعم بالتوفيق عليهم.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع. ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله تعالى. ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ تعدت عليها. ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَىٰ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ترجع إلى حكمه أو ما أمر به، وإنما أطلق الفاء على الظل لرجوعه بعد نسخ الشمس، والغنيمة لرجوعها من الكفار إلى المسلمين. ﴿فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على ما حكم الله، وتقييد الإصلاح بالعدل ها هنا لأنه مظنة الحيف من حيث إنه بعد المقاتلة. ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ واعدلوا في كل الأمور. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء. والآية نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال، وهي تدل على أن الباغي مؤمن وأنه إذا قبض عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمر الله تعالى، وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ من حيث إنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية، وهو تعليل وتقرير للأمر بالإصلاح ولذلك كرره مرتباً عليه بالفاء فقال: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ووضع الظاهر موضع الضمير مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص، وخص الإثنين بالذكر لأنهما أقل من يقع بينهما الشقاق. وقيل المراد بالأخوين الأوس والخزرج. وقرأ ﴿بين إخوانكم﴾ و ﴿إخوانكم﴾. ﴿وَاتَّقُوا

الله في مخالفة حكمه والإهمال فيه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ على تقواكم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، والقوم مختص بالرجال لأنه إما مصدر نعت به فشاع في الجمع أو جمع لقائم كزائر وزور، والقيام بالأمور وظيفة الرجال كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ وحيث فسر بالقبيلين كقوم عاد وفرعون، فإما على التغليب أو الاكتفاء بذكر الرجال على ذكرهن لأنهن توابع، واختيار الجمع لأن السخرية تغلب في المجامع و ﴿عسى﴾ باسمها استئناف بالعلة الموجبة للنهي ولا خبر لها لإغناء الإسم عنه. وقرئ «عسا أن يكونوا» و «عسين أن يكن» فهي على هذا ذات خير. ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي ولا يغتب بعضكم بعضاً فإن المؤمنين كنفس واحدة، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه. واللمز الطعن باللسان. وقرأ يعقوب بالضم. ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً. ﴿بِئْسَ الْأَاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتغالهم به، والمراد به إما تهجين نسبة الكفر والفسق إلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها، أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقرن لي يا يهودية بنت يهوديين، فقال لها «هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد عليهم السلام». أو الدلالة على أن التنازع فسق والجمع بينه وبين الإيمان مستقيم. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهى عنه. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانب، وإيهام الكثير لاحتياط في كل ظن ويتأمل حتى يعلم أنه من أي القبيل، فإن من الظن ما يجب اتباعه كالظن حيث لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظن في الإلهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين، وما يباح كالظن في الأمور المعاشية. ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ مستأنف للأمر، والإثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه. والهمزة فيه بدل من الواو كأنه يشم الأعمال أي بكسرها. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، تفعل من الجسس باعتبار ما فيه من معنى الطلب كالتمس، وقرئ بالخاء من الحسن الذي هو أثر الجسس وغايته ولذلك قيل للحواس الخمس الجواس. وفي الحديث «لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته». ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته. وسئل عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال: «أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبه، وإن لم يكن فيه فقد بهته». ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيل لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه مع مبالغات الاستهزام المقرر، وإسناد الفعل إلى أحد للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتيا بأكُل لحم الإنسان وجعل المأكول أخاً وميتاً وتعقيب ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى إن صح ذلك أو عرض عليكم هذا فقد كرهوه ولا يمكنكم إنكله كراهته، وانتصاب «ميتاً» على الحال من اللحم أو الأخ وشده نافع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن اتقى ما نهى عنه وتاب مما فرط منه، والمبالغة في ال «تواب» لأنه بليغ في قبول التوبة إذ

يجعل صاحبها كمن لم يذنب، أو لكثرة المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم، روي: أن رجلين من الصحابة بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً، وكان أسامة على طعامه فقال: ما عندي شيء فأخبرهما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «ما لي أرى حضرة اللحم في أفواهكما»، فقالا: ما تناولنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما» فنزلت.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب. ويجوز أن يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الاغتياب. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد وهو يجمع القبائل. والقبيلة تجمع العائلات. والعمارة تجمع البطون. والبطن تجمع الأفخاذ. والفخذ يجمع الفضائل، فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وعباس فصيلة. وقيل الشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضاً لا للتفاخر بالآباء والقبائل. وقرىء «لتعارفوا» بالإدغام و«لتعارفوا» و«لتعرفوا». ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فإن التقوى بها تكمل النفوس وتتفاضل بها الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتزمه منها كما قال عليه الصلاة والسلام «من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله» وقال عليه السلام «يا أيها الناس إنما الناس رجلان مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله». ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزَلُوا يَكْفُرُونَ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أنتناك بالأنقال والعيال، ولم تقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون. ﴿قُلْ لَمْ تَزَلُوا يَكْفُرُونَ﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصل لكم إلا لما منتهم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وترك المقاتلة كما دل عليه آخر السورة. ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم وإظهار الشهادتين وترك المحاربة، يشعر به وكان نظم الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، أو لم تؤمنوا ولكن أسلمتم فعدل منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القول بالإيمان والجزم بإسلامهم، وقد فقد شرط اعتباره شرعاً. ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لـ ﴿قولوا﴾ فإنه حال من ضميره أي: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ولم تواطىء قلوبكم ألسنتكم بعد. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص وترك النفاق. ﴿لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ لا ينقصكم من أجورها. ﴿شَيْئاً﴾ من لا يليت شيئاً إذا نقص، وقرأ البصريان «لا يالتكم» من الألت وهو لغة غطفان. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط من المطيعين. ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ قُلْ أَتَسْلِمُونَ لِلَّهِ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَزْتَابُوا﴾ لم يشكوا من ارتاب مطاوع رابه إذا أوقعه في الشك مع التهمة، وفيه إشارة إلى ما أوجب نفي الإيمان عنهم، و ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس حال الإيمان فقط بل فيه وفيما يستقبل فهي كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾. ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ في طاعته والمجاهدة بالأموال والأنفس تصلح للعبادات المالية والبدنية بأسرها. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في ادعاء الإيمان.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾ أتخبرونه به بقولكم ﴿آمَنَّا﴾. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية، وهو تجهيل لهم وتوبيخ. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون فنزلت هذه الآية.

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يعدون إسلامهم عليك منه وهي النعمة التي لا يستثيب موليا ممن بذلها إليه، من المن بمعنى القطع لأن المقصود بها قطع حاجته. وقيل النعمة الثقيلة من المن. ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي بإسلامكم، فنصب بنزع الخافض أو تضمين الفعل معنى الاعتدال. ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء، وقرئ «إن هداكم» بالكسر و «إذ هداكم». ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أي فله المنة عليكم، وفي سياق الآية لطف وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيماناً ومنوا به فنفى أنه إيمان وسماه إسلاماً بأن قال يمنون عليكم بما هو في الحقيقة إسلام وليس بجدير أن يمن به عليك، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان فله المنة عليهم بالهداية له لا لهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب فيهما. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرهم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائرهم، وقرأ ابن كثير بالياء لما في الآية من الغيبة. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحجرات أعطي من الأجر بعدد من أطاع الله وعصاه».

(٥٠) سورة ق

مكية، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أُوحِيَ إِلَيْنَا وَمَا كُنَّا نُرَآكَ إِلَّا كَذَلِكَ رَجِعْ بَعِيدٌ ۝٣﴾

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ الكلام فيه كما مر في ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾. و ﴿الْمَجِيدِ﴾ ذو المنجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علم معانيه وامتلأ أحكامه مجد.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب، وهو أن يندبرهم أحد من جنسهم أو من أبناء جلدتهم. ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكاية لتعجبهم، وهذا إشارة إلى اختيار الله محمداً للرسالة، وإضمار ذكرهم ثم إظهاره للأشعار بتعجبهم بهذا المقال، ثم التسجيل على كفرهم بذلك أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة، والمبالغة فيه بوضع الظاهر موضع ضميرهم وحكاية تعجبهم مبهماً إن كانت الإشارة إلى مبهم يفسره ما بعده، أو مجملاً إن كانت الإشارة إلى محذوف دل عليه منذر، ثم تفسيره أو تفصيله لأنه أدخل في الإنكار إذ الأول استبعاد لأن يفضل عليهم مثلهم، والثاني استقصار لقدرة الله تعالى عما هو أهون مما يشاهدون من صنعه.

﴿أَيْدَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا﴾ أي أنرجع إذا متنا وصرنا تراباً، ويدل على المحذوف قوله: ﴿ذَلِكَ رَجِعْ بَعِيدٌ﴾ أي بعيد عن الوهم أو العادة أو الإمكان. وقيل الرجع بمعنى المرجوع.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝٥﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأكل من أجساد موتاهم، وهو رد لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه، وقيل إنه جواب القسم واللام محذوف لطول الكلام. ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، أو محفوظ عن التغيير، والمراد إما تمثيل علمه بتفاصيل الأشياء بعلم من عنده كتاب محفوظ يطالعه، أو تأكيد لعلمه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ يعني النبوة الثابتة بالمعجزات، أو النبي ﷺ، أو القرآن. ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وقرئ «لَمَّا» بالكسر. ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ مضطرب من مرج الخاتم في أصبعه إذا خرج، وذلك قولهم تارة أنه «شاعر» وتارة أنه «ساحر» وتارة أنه كاهن.

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَلَّيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَاهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَرْعٍ بِهِجٍ ۝٧ تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾

﴿أَنلَمْ يَنْظُرُوا﴾ حين كفروا بالبعث. ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرة الله تعالى في خلق العالم. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿وَوَزَّيْنَاهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ فتوق بأن خلقها ملساء متلاصقة الطباق.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت. ﴿وَوَاتَّيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي من كل صنف. ﴿بِهَيْجٍ﴾ حسن. ﴿تَنْبِصَةً وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه متفكر في بدائع صنعه، وهما علتان للأفعال المذكورة معنى وإن انتصبتا عن الفعل الأخير.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ كثير المنافع ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أشجاراً وأثماراً. ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد كالبر والشعير.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً أو حوامل من أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من أفعال فهو فاعل، وإفرادها بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها. وقرئ «باصقات» لأجل القاف. ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ منصود بعضه فوق بعض، والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ علة لـ ﴿أَنْبَتْنَا﴾ أو مصدر، فإن الإنبات رزق. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ بذلك الماء. ﴿بَلَدَةً مَيِّتًا﴾ أرضاً جديبة لا نماء فيها. ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ كما حيت هذه البلدة يكون خروجكم أحياء بعد موتكم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ أراد بفرعون إياه وقومه ليلائم ما قبله وما بعده. ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ أخدانه لأنهم كانوا أصهاره.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُيُوسُفَ﴾ سبق في «الحجر» و«الدخان». ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم، وإفراد الضمير لإفراد لفظه. ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ فوجب وحل عليه وعيدي، وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة، من عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة فيه للإنكار. ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول بل هم في خلط، وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة، وتنكير الخلق الجديد لتعظيم شأنه والإشعار بأنه على وجه غير متعارف ولا معتاد.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ما تحدث به نفسه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسة الصوت الخفي ومنها وسواس الحلي، والضمير لـ ﴿مَا﴾ إن جعلت موصولة والباء مثلها في صوت بكذا، أو لـ ﴿الإنسان﴾ إن جعلت مصدرية والباء للتعدية. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي ونحن أعلم بحاله ممن

كان أقرب إليه ﴿من حبل الوريد﴾، تجوز بقرب الذات لقرب العلم لأنه موجه و ﴿حبل الوريد﴾ مثل في القرب قال: والموت أدنى من الوريد. وال ﴿حبل﴾ العرق وإضافته لليبان، والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه، وقيل سمي وريداً لأن الروح ترده.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۗ﴾ (١٨)

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدر باذكر أو متعلق بـ ﴿أقرب﴾، أي هو أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقى أي يتلقن الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين فإنه أعلم منهما ومطلع على ما يخفى عليهما، لكنه لحكمة اقتضته وهي ما فيه من تشديد يشبط العبد عن المعصية، وتأكيد في اعتبار الأعمال وضبطها للجزاء والزام للحجة يوم يقوم الأشهاد. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي ﴿عن اليمين﴾ قعيد ﴿وعن الشمال قعيد﴾، أي مقاعد كالجلس فحذف الأول لدلالة الثاني عليه كقوله: فإني وقيار بها لغريب. وقد يطلق الفعيل للواحد والمتعد كقوله: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فيه. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملك يرقب عمله. ﴿عَتِيدٌ﴾ معد حاضر، ولعله يكتب عليه ما فيه ثواب أو عقاب وفي الحديث «كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر».

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۚ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۗ﴾ (١٩)

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ لما ذكر استبعادهم البعث للجزاء وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريب عند الموت وقيام الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبر عنه بلفظ الماضي، وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباء للتعدي كما في قولك: جاء زيد بعمرو. والمعنى وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر أو الموعد الحق، أو الحق الذي ينبغي أن يكون من الموت أو الجزاء، فإن الإنسان خلق له أو مثل الباء في ﴿تنبت بالدهن﴾. وقرئ «سكرة الحق بالموت» على أنها لشدتها اقتضت الزهوق أو لاستعقابها له كأنها جاءت به، أو على أن الباء بمعنى مع. وقيل ﴿سكرة الحق﴾ سكرة الله وإضافتها إليه للتهويل. وقرئ «سكرات الموت». ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت. ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل وتنفر عنه والخطاب للإنسان.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يعني نفخة البعث. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي وقت ذلك يوم تحقق الوعيد وإنجازه والإشارة إلى مصدر ﴿نُفِخَ﴾.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۚ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ

حَدِيدٌ ۗ﴾ (٢٠)

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ملكان أحدهما يسوقه والآخر يشهد بعمله، أو ملك جامع للوصفين. وقيل السائق كاتب السيئات، والشاهد كاتب الحسنات. وقيل السائق نفسه أو قرينه والشاهد جوارحه أو أعماله، ومحل ﴿مَعَهَا﴾ النصب على الحال من كل لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ على إضمار القول والخطاب ﴿لكل نفس﴾. إذ ما من أحد إلا وله اشتغال ما عن الآخرة أو للكافر. ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء الحاجب لأمر المعاد، وهو الغفلة والانهماك في المحسوسات والإلف بها وقصور النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذ لزوال المانع للإبصار. وقيل

الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: كنت في غفلة من أمر الديانة فكشفنا عنك غطاء الغفلة بالوحي وتعليم القرآن، «فبصرك اليوم حديد» ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون. ويؤيد الأول قراءة من كسر التاء والكافات على خطاب النفس.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَتِيدٌ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُّعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ قال الملك الموكل عليه. «هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» هذا ما هو مكتوب عندي حاضر لدي، أو الشيطان الذي قبض له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيد لجهنم هيأته لها باغوائي وإضلالي، و «ما» إن جعلت موصوفة ف «عتيد» صفتها وإن جعلت موصولة فبدلها أو خبر بعد خبر أو خبر محذوف.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ﴾ خطاب من الله تعالى للساكن والشهيد، أو لملكين من خزنة النار، أو لواحد وثنية الفاعل منزل منزلة ثنية الفعل وتكريره كقوله:

فَإِنْ تَرْجُرَانِي يَا ابْنَ عَمَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدْعَانِي أَخْمِ عِزْضًا مُمْنَعًا
أو الألف بدل من نون التأكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، ويؤيده أنه قرئ «ألقين» بالنون الخفيفة. «عَتِيدٌ» معاند للحق.

﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل المراد بالخير الإسلام فإن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه عنه. «مُعْتَدٌ» متعدد. «مُرِيبٌ» شاك في الله وفي دينه.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُمْ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمن معنى الشرط وخبره. «فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ» أو بدل من «كل كفار» فيكون «فَأَلْقِيَاهُ» تكريراً للتوكيد، أو مفعول لمضمر يفسره «فَأَلْقِيَاهُ».

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي الشيطان المقيض له، وإنما استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاويل فإنه جواب لمحذوف دل عليه. «رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُمْ» كأن الكافر قال هو أطغاني ف «قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُمْ» بخلاف الأولى فإنها واجبة العطف على ما قبلها للدلالة على الجمع بين مفهوميهما في الحصول، أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه: «وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» فأعنته عليه فإن إغواء الشياطين إنما يؤثر فيمن كان مختل الرأي مائلاً إلى الفجور كما قال: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي».

﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي الله تعالى. «لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ» أي في موقف الحساب فإنه لا فائدة فيه، وهو استئناف مثل الأول. «وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ» على الطغيان في كتبي وعلى السنة رسلي فلم يبق لكم حجة. وهو حال فيه تعليل للنهي أي «لَا تَخْصِمُوا» عالمين بأنني أوعدتكم، والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم، ويجوز أن يكون «بالوعد» حالاً والفعل واقعاً على قوله:

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي بوقوع الخلف فيه فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي. وعفو بعض المذنبين لبعض الأسباب ليس من التبديل فإن دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد. «وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ» فأعذب من

ليس لي تعذيه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠).

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ سؤال وجواب جيء بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع اتساعها تطرح فيها الجنة والناس فوجاً فوجاً حتى تمتلئ لقوله تعالى: ﴿لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ﴾، أو أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد فراغ، أو أنها من شدة زفيرها وحدتها وتشبثها بالعصاة كالمستكثرة لهم والطالبة لزيادتهم. وقرأ نافع وأبو بكر ﴿يقول﴾ بالياء وال ﴿مزيد﴾ إما مصدر كالمحيد أو مفعول كالسبيح، و ﴿يوم﴾ مقدر باذكر أو ظرف ل ﴿نُفَخَ﴾ فيكون ذلك إشارة إليه فلا يفتقر إلى تقدير مضاف.

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥).

﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قربت لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكاناً غير بعيد، ويجوز أن يكون حالاً وتذكيره لأنه صفة محذوف، أو شيئاً غير بعيد أو على زنة المصدر أو لأن الجنة بمعنى البستان.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القول والإشارة إلى الثواب أو مصدر ﴿أزلفت﴾. وقرأ ابن كثير بالياء. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجاء إلى الله تعالى، بدل من «المتقين» بإعادة الجار. ﴿حَفِيفٌ﴾ حافظ لحدوده.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ بدل بعد بدل أو بدل من موصوف ﴿أَوَّابٍ﴾، ولا يجوز أن يكون في حكمه لأن ﴿مَنْ﴾ لا يوصف به أو مبتدأ خبره:

﴿ادْخُلُوهَا﴾ على تأويل يقال لهم ﴿ادخلوها﴾، فإن من بمعنى الجمع وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول، أو صفة لمصدر أي خشية ملتبسة بالغيب حيث خشي عقابه وهو غائب، أو العقاب بعد غيب. أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد. وتخصيص ﴿الرحمن﴾ للإشعار بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، أو بأنهم يخشون مع علمهم بسعة رحمته، ووصف القلب بالإجابة إذ الاعتبار برجوعه إلى الله. ﴿بِسَلَامٍ﴾ سالمين من العذاب وزوال النعم، أو مسلماً عليكم من الله وملائكته. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ يوم تقدير الخلود كقوله: ﴿فادخلوها خالدين﴾.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَخِصٍ﴾ (٣٦).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك. ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ قوة كعاد وشمود وفرعون. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فخرقوا في البلاد وتصرفوا فيها، أو جالوا في الأرض كل مجال حذر الموت، فالفاء على الأول للتسبب وعلى الثاني لمجرد التعقيب، وأصل التنقيب التنقيب عن الشيء والبحث عنه. ﴿هَلْ مِنْ مَخِصٍ﴾ أي لهم من الله أو من الموت. وقيل الضمير في ﴿نَقَّبُوا﴾ لأهل مكة أي ساروا في أسفارهم في بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصاً حتى يتوقعوا مثله لأنفسهم، ويؤيده أنه قرئ «فَنَقَّبُوا» على الأمر، وقرئ «فَنَقَّبُوا» بالكسر من النقب وهو أن يتنقب خف البعير أي أكثروا السير حتى نقتب أقدامهم أو أخفاف مراكبهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۚ﴾ (٢٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝﴾ (٢٨).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر في هذه السورة. ﴿لَذِكْرَى﴾ لتذكرة. ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي قلب واع يتفكر في حقائقه. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ أي أصغى لاستماعه. ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بذهنه ليفهم معانيه، أو شاهد بصدقه فيتعظ بظواهره وينتجر بزواجه، وفي تنكير الـ ﴿قلب﴾ وإبهامه تفخيم وإشعار بأن كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر كلا قلب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مر تفسيره مراراً. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ من تعب وإعياء، وهو رد لما زعمت اليهود من أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ﴾ (٢٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ۝﴾ (٤٠).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركون من إنكارهم البعث، فإن من قدر على خلق العالم بلا إعياء قدر على بعثهم والانتقام منهم، أو ما يقول اليهود من الكفر والتشبيه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ونزهه عن العجز عما يمكن والوصف بما يوجب التشبيه حامداً له على ما أنعم عليك من إصابة الحق وغيرها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ يعني الفجر والعصر وقد عرفت فضيلة الوقتين.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي وسبحه بعض الليل. ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ وأعقاب الصلوات جمع دبر من أدبر، قرأ الحجازيان وحمزة وخلف بالكسر من أدبرت الصلاة إذا انقضت. وقيل المراد بالتسبيح الصلاة، فالصلاة قبل الطلوع: الصبح وقبل الغروب: الظهر، والعصر. ومن الليل: العشاءان، والتهجد. وأدبار السجود النوافل بعد المكتوبات، وقيل الوتر بعد العشاء.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝﴾ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ۝﴾ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝﴾ (٤٣).

﴿وَاسْتَمِعْ﴾ لما أخبرك به من أحوال القيامة، وفيه تهويل وتعظيم للمخبر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ إسرافيل أو جبريل عليهما السلام فيقول: أيتها العظام البالية واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء، ولعله في الإعادة نظير «كن» في الإبداء، ويوم نصب بما دل عليه يوم الخروج.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ بدل منه و ﴿الصَّيْحَةَ﴾ النفخة الثانية. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿الصَّيْحَةَ﴾ والمراد به البعث للجزاء. ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماء يوم القيامة وقد يقال للعيد.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ﴾ (٤٤) ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝﴾ (٤٥) نَحْنُ أَكْبَرُ ۚ إِنَّمَا تَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝﴾ (٤٦).

﴿يَوْمَ تَشْهَقُ﴾ تشقق، وقرى «تنشق». وقرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف وأبو عمرو بتخفيف الشين. ﴿الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا﴾ مسرعين. ﴿ذَلِكَ حَشَرٌ﴾ بعث وجمع. ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين، وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنكُمْ إِلَّا كُنُفٌ وَاحِدَةٌ﴾.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وتهديد لهم. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ بمسلط تقصرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد وإنما أنت داع. ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنه لا يتنفع به غيره. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة «ق» هون الله عليه تارات الموت وسكراته». والله أعلم.

(٥١) سورة والذاريات

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ (١) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ (٢) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ (٣).

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا﴾ يعني الرياح تذر التراب وغيره، أو النساء الولود فإنهن يذرين الأولاد، أو الأسباب التي تدرى الخلائق من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فالسحب الحاملة للأمطار، أو الرياح الحاملة للسحاب، أو النساء الحوامل، أو أسباب ذلك. وقرئ «وَقْرًا» على تسمية المحمول بالمصدر.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالسفن الجارية في البحر سهلاً، أو الرياح الجارية في مهابها، أو الكواكب التي تجري في منازلها. و «يسراً» صفة مصدر محذوف أي جرياً ذا يسر.

﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (٥) ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (٦).

﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها، أو ما يعمهم وغيرهم من أسباب القسمة، أو الرياح يقسمن الأمطار بتصرف السحاب، فإن حملت على ذوات مختلفة فالقاء لترتيب الأقسام بها باعتبار ما بينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلا فالقاء لترتيب الأفعال إذ الريح مثلاً تذر الأبخرة إلى الجو حتى تتعقد سحاباً، فتحمله فتجري به باسطة له إلى حيث أمرت به فتقسم المطر. ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ جواب القسم كأنه استدل باقتداره على هذه الأشياء العجيبة المخالفة لمقتضى الطبيعة على اقتداره على البعث للجزاء الموعود، وما موصولة أو مصدرية و «الدين» الجزاء والواقع الحاصل.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ (٧) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ (٨) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنِ أَفْكَ﴾ (٩).

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ ذات الطرائق، والمراد إما الطرائق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو المعقولة التي يسلكها النظار وتتوصل بها إلى المعارف، أو النجوم فإن لها طرائق أو أنها تزيناها كما يزين الموشي طرائق الرشي. جمع حبيكة كطريقة وطرق أو حباك كمثل ومثل. وقرئ «الحبك» بالسكون و «الحبك» كالإبل و «الحبك» كالسلك و «الحبك» كالجبل و «الحبك» كالنعم و «الحبك» كالبرق.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ وهو قولهم تارة أنه «شاعر» وتارة أنه «ساحر» وتارة أنه «مجنون»، أو في القرآن أو القيامة أو أمر الديانة، ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السموات في تباعدها واختلاف غاياتها.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنِ أَفْكَ﴾ يصرف عنه والضمير للرسول أو القرآن أو الإيمان، من صرف إذ لا صرف أشد

منه فكانه لا صرف بالنسبة إليه، أو يصرف من صرف في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضمير للـ ﴿قول﴾ على معنى يصدر إفاك من أفك عن القول المختلف وبسببه كقوله: ينهون عن أكل وعن شرب. أي يصدر تناهيهم عنهما وبسببهما وقرئ «أفك» بالفتح أي من أفك الناس وهم قريش كانوا يصدون الناس عن الإيمان.

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ سَاهَوْنَ ١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ١٤﴾.

﴿قِيلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابين من أصحاب القول المختلف، وأصله الدعاء بالقتل أجري مجرى اللعن.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ في جهل يغمرهم. ﴿سَاهَوْنَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي فيقولون متى يوم الجزاء أي وقوعه، وقرئ «إيان» بالكسر.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون جواب للسؤال أي يقع ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾، أو هو ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾، وفتح ﴿يوم﴾ لإضافته إلى غير متمكن ويدل عليه أنه قرئ بالرفع.

﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم هذا القول. ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذاب هو الذي كنتم به تستعجلون، ويجوز أن يكون هذا بدلاً من ﴿فتنكم﴾ و ﴿الذي﴾ صفته.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٥ مَا فِيهَا مِنْ ثَمَرٍ إِلَّا هُوَ يُسْقَوْنَ ١٦ وَفِيهَا زَوْجٌ مِمَّا يَحِبُّونَ ١٧ وَالْخَالِدِينَ فِيهَا لَا يَسْأَلُونَ ١٨ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقًّا لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ١٩﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ قابلين لما أعطاهم راضين به، ومعناه أن كل ما آتاهم حسن مرضي متلقى بالقبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُخْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالهم وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسير لإحسانهم و ﴿ما﴾ مزيدة أي يهجعون في طائفة من الليل، أو يهجعون هجوعاً قليلاً أو مصدرية أو موصولة أي في قليل من الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه ولا يجوز أن تكون نافية لأن ما بعدها لا يعمل فيما قبلها. وفيه مبالغت لتقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل و ﴿الليل﴾ الذي هو وقت السبات، والهجوع الذي هو الفرار من النوم وزيادة ﴿ما﴾.

﴿وَبِالْأَنْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم، وفي بناء الفعل على الضمير إشعاراً بأنهم أحقاء بذلك لوفور علمهم بالله وخشيتهم منه.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يستوجبونه على أنفسهم تقريباً إلى الله وإشفاقاً على الناس. ﴿لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفف الذي يظن غنياً فيحرم الصدقة.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو والسكون وارتفاع بعضها عن الماء واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته ووحدته وفرط رحمته.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسكم آيات إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان له نظير يدل دلالاته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع

المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة. ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ تنظرون نظر من يعتبر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ٢٢ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ٢٣.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل المراد بـ ﴿السَّمَاءِ﴾ السحاب وبالرزق المطر فإنه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثواب لأن الجنة فوق السماء السابعة، أو لأن الأعمال وثوابها مكتوبة مقدرة في السماء. وقيل إنه مستأنف خبره:

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضمير لـ ﴿مَا﴾ وعلى الأول يحتمل أن يكون له ولما ذكر من أمر الآيات والرزق والوعد. ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في تحقق ذلك، ونصبه على الحال من المستكن في ﴿لَحَقٌّ﴾ أو الوصف لمصدر محذوف أي أنه لحق حقاً مثل نطقكم. وقيل إنه مبني على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو ما إن كانت بمعنى شيء، وأن بما في حيزها إن جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة ﴿لَحَقٌّ﴾، ويؤيده قراءة حمزة والكسائي وأبي بكر بالرفع.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ٢٤ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ٢٥.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه أوحى إليه، والضيف في الأصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد والمتعدد. قيل كانوا إثني عشر ملكاً. وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل، وسماهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي مكرمين عند الله أو عند إبراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ ظرف للـ ﴿حَدِيثِ﴾ أو الـ ﴿ضَيْفِ﴾ أو ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾. ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي عليكم سلام عدل به إلى الرفع بالابتداء لقصد الثبات حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم، وقرئنا مرفوعين وقرأ حمزة والكسائي ﴿قال سلم﴾ وقرئ منصوباً والمعنى واحد. ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، وإنما أنكرهم لأنه ظن أنهم بنو آدم ولم يعرفهم، أو لأن السلام لم يكن تحيتهم فإنه علم الإسلام وهو كالتعرف عنهم.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ٢٦ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ٢٧ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِقُلُوبٍ عَلَيْهِمُ﴾ ٢٨.

﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ فذهب إليهم في خفية من ضيفه فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى حذراً من أن يكفه الضيف أو يصير منتظراً. ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنه كان عامة ماله البقر.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ بأن وضعه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي منه، وهو مشعر بكونه حنيذاً، والهمزة فيه للعرض والحث على الأكل على طريقة الأدب إن قاله أول ما وضعه، وللإنكار إن قاله حينما رأى إعراضهم.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمر منهم خوفاً لما رأى إعراضهم عن طعامه لظنه أنهم جاؤوه لشر. وقيل وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. قيل مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه فعرّفهم وأمن منهم. ﴿وَبَشِّرُوهُ بِقُلُوبٍ عَلَيْهِمُ﴾ هو اسحق عليه السلام. ﴿عَلَيْهِمُ﴾ يكمل علمه إذ بلغ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْثَهَا فِي صَرْقٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ٢٩ ﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ

الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ .

﴿فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ﴾ سارة إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم. ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صيحة من الصرير، ومحلّه النصب على الحال أو المفعول إن أول فأقبلت بأخذت. ﴿فَنَصَبَتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمت بأطراف الأصابع وجهها فعل المتعجب. وقيل وجدت حرارة دم الحيض فلطمت وجهها من الحياء. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الذي بشرنا به. ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ وإنما نخبرك به عنه. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ فيكون قوله حقاً وفعله محكماً.

﴿قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ .

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد السجيل فإنه طين متحجر.

﴿مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ رسالة من أسمت الماشية، أو معلمة من السومة وهي العلامة. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ .

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط وإضمارها ولم يجر ذكرها لكونها معلومة. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ غير أهل بيت من المسلمين، واستدل به على اتحاد الإيمان والإسلام وهو ضعيف لأن ذلك لا يقتضي إلا من صدق المؤمن والمسلم على من اتبعه، وذلك لا يقتضي اتحاد مفهوميهما لجواز صدق المفهومات المختلفة على ذات واحدة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ علامة. ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ فإنهم المعتبرون بها وهي تلك الأحجار، أو صخر منضود فيها أو ماء أسود متتن.

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتُهُمْ وَخَوَّدَهُمْ فَأَنْبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ .

﴿وَفِي مُوسَى﴾ عطف على ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾، أو ﴿تركنا فيها﴾ على معنى وجعلنا في موسى كقوله: علقتها تبناً وماء بارداً. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ هو معجزاته كالعصا واليد.

﴿فَتَوَلَّىٰ رُكُوبَهُ﴾ فأعرض عن الإيمان به كقوله ﴿ونأى بجانبه﴾ أو فتولى بما كان يتقوى به من جنوده، وهو اسم لما يركن إليه الشيء ويتقوى به. وقرئ بضم الكاف. ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ﴾ أي هو ساحر. ﴿أَوْ يُجْنُونُ﴾ كأنه جعل ما ظهر عليه من الخوارق منسوباً إلى الجن، وتردد في أنه حصل ذلك باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فأغرقناهم في البحر. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آت بما يلام عليه من الكفر والعناد، والجملة حال من الضمير في ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) مَا نَذَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢).

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ سماها عقيماً لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن منفعة، وهي الدبور أو الجنوب أو النكباء.

﴿مَا نَذَّرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ﴾ مرت. ﴿عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ كالرماد من الرم وهو البلي والتفتت.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣) فَتَوَّأ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥).

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيره قوله: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾.

﴿فَتَوَّأ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي العذاب بعد الثلاث. وقرأ الكسائي «الصعقة» وهي المرة من الصعق. ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليها فإنها جاءتهم معانية بالنهار.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ كقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. وقيل من قولهم ما يقوم به إذا عجز عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ ممتنعين منه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦).

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه. أو اذكر ويجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿في عاد﴾، ويؤيده قراءة أبي عمرو وحزمة والكسائي بالجر. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل هؤلاء المذكورين. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩).

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوة. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق. أو ﴿لموسعون﴾ السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق.

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها لتستقروا عليها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحن.

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن التعدد من خواص الممكنات وأن الواجب بالذات لا يقبل التعدد والانقسام.

﴿فَقَرِّءُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٥٠) وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١).

﴿فَقَرِّءُوا إِلَى اللَّهِ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمة الطاعة. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي من عذابه المعد لمن أشرك أو عصى. ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ بين كونه منذراً من الله بالمعجزات، أو ﴿مبين﴾ ما يجب أن يحذر عنه.

﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أفراد لأعظم ما يجب أن يفر منه. ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول مرتب على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراك.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٦﴾ أَتَوَصَّوْنَ بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٧﴾ فَنُوحِلْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٨﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿كَذَلِكَ﴾ أي الأمر مثل ذلك، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ كالتفسير له، ولا يجوز نضبه بـ ﴿أَتَى﴾ أو ما يفرضه لأن ما بعد ﴿مَا﴾ النافية لا يعمل فيما قبلها. ﴿أَتَوَصَّوْنَ بِهِ﴾ أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول مشاركتهم في الطغيان الحامل عليه.

﴿فَنُوحِلْهُمْ﴾ فأعرض عن مجادلتهم بعدما كررت عليهم الدعوة فأبوا إلا الإصرار والعناد. ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جهدك في البلاغ. ﴿وَذَكَرْ﴾ ولا تدع التذكير والموعظة. ﴿فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من قدر الله إيمانه أو من آمن فإنه يزداد بها بصيرة.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها، جعل خلقهم مغنياً بها مبالغة في ذلك، ولو حمل على ظاهره مع أن الدليل يمنعه لنا في ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ وقبل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾ أي ما أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والماهورين به، والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم، ويحتمل أن يقدر بقل فيكون بمعنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق، وفيه إيماء باستغنائه عنه، وقرئ: «إني أنا الرزاق» ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ شديد القوة، وقرئ: «المتين» بالجر صفة لـ ﴿القوة﴾.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٩﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أي للذين ظلموا رسول الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب. ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاء الماء بالدلاء، فإن الذنوب هو الدلو العظيم المملوء. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ جواب لقولهم: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة أو يوم بدر. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والذاريات أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا».

(٥٢) سورة الطور

مكية وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٣﴾ .

﴿وَالطُّورِ﴾ يريد طور سين، وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى، ﴿وَالطُّورِ﴾ الجبل بالسريانية أو ما طار من أوج الإيجاد إلى حضيض المواد، أو من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ﴾ مكتوب، والسطر ترتيب الحروف المكتوبة. والمراد به القرآن أو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ، أو ألواح موسى عليه السلام، أو في قلوب أوليائه من المعارف والحكم أو ما تكتبه الحفظة.

﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾ الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما كتب فيه الكتاب، وتنكيرهما للتعظيم والإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦﴾ .

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ يعني الكعبة وعمارتها بالحجاج والمجاورين، أو الضراح وهو في السماء الرابعة وعمراته كثرة غاشيته من الملائكة، أو قلب المؤمن وعمارته بالمعرفة والإخلاص.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي المملوء وهو المحيط، أو الموقد من قوله: ﴿وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ﴾ روي أنه تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً يسجر بها نار جهنم، أو المختلط من السجير وهو الخليط.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧﴾ مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ ٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩﴾ - وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠﴾ .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ لنازل.

﴿مَا لَمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ووجه دلالة هذه الأمور المقسم بها على ذلك أنها أمور تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وصدق أخباره وضبطه أعمال العباد للمجازاة.

﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تضطرب، والمور تردد في المجيء والذهاب، وقيل تحرك في تموج و ﴿يوم﴾ ظرف.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣﴾

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ .

﴿قَوْلٌ يُؤْمَدُ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في الخوض في الباطل .

﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ يدفعون إليها دفعاً بعنف، وذلك بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار . وقرئ «يدعون» من الدعاء فيكون دعاً حلاً بمعنى مدعوين، و «يوم» بدل من «يوم تمور» أو ظرف لقول مقدر محكيه .

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك .

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (١٥) أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ .

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحر أفهذا المصداق أيضاً سحر، وتقديم الخبر لأنه المقصود بالإنكار والتوبيخ . ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، ما يدل عليه وهو تفرغ وتهكم أو: أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حين قلتم «إنما سكرت أبصارنا» .

﴿أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ أي ادخلوها على أي وجه شئت من الصبر وعدمه فإنه لا محيص لكم عنها . ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران الصبر وعدمه . ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء فإنه لما كان الجزاء واجب الوقوع كان الصبر وعدمه سيين في عدم النفع .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٧) فَكَهَيْنَ بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْصُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في آية جنات وأي نعيم، أو في «جَنَاتٍ وَنَعِيمٍ» مخصوصة بهم .

﴿فَكَهَيْنَ﴾ ناعمين متلذذين . ﴿بِمَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وقرئ «فكهين» و «فاكهون» على أنه الخبر والظرف لغو . ﴿وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ عطف على «آناهم» إن جعل «ما» مصدرية، أو «في جنات» أو حال بإضمار قد من المستكن في الظرف أو الحال، أو من فاعل أتى أو مفعوله أو منهما .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ أي أكلاً وشراباً «هنيئاً»، أو طعاماً وشراباً «هنيئاً» وهو الذي لا تنغيص فيه . ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بدله، وقيل الباء زائدة و «ما» فاعل «هنيئاً»، والمعنى هناكم ما كنتم تعملون أي جزاؤه .

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْصُوفَةٍ﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ الباء لما في التزويج من معنى الوصل والإلصاق، أو للسببية إذ المعنى صيرناهم أزواجاً بسببهن، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقرن ولذلك عطف :

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (٢١) .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على حور أي قرانهم بأزواج حور ورفقاء مؤمنين . وقيل إنه مبتدأ خبره «ألحقنا بهم» وقوله : ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ اعتراض للتعليل، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» بالجمع وضم التاء

للمبالغة في كثرتهم والتصريح، فإن الذرية تقع على الواحد والكثير، وقرأ أبو عمرو و «أتبعناهم ذرياتهم» أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقيل «بإيمان» حال من الضمير أو الذرية أو منهما وتنكيره للتعظيم، أو الإشعار بأنه يكفي للإلحاق المتابعة في أصل الإيمان. «أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» في دخول الجنة أو الدرجة. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقر بهم عينه ثم تلا هذه الآية» وقرأ نافع وابن عامر والبصريان «ذرياتهم». «وَمَا أَلْتَنَاهُمْ» وما نقصناهم. «مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» بهذا الإلحاق فإنه كان يحتمل أن يكون بنقص مرتبة الآباء أو بإعطاء الأبناء بعض مئوباتهم، ويحتمل أن يكون بالتفضل عليهم وهو اللائق بكمال لطفه. وقرأ ابن كثير بكسر اللام من ألت يألت، وعنه «لتناهم» من لات يليت و «ألتناهم» من ألت يولت، و «ولتناهم» من ولت يلت ومعنى الكل واحد. «كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ وَهَيْنٌ» بعمله مرهون عند الله تعالى فإن عمل صالحاً فكه وإلا أهلكه.

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۚ﴾ (٢٧) ﴿يَشْرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ۚ﴾ (٢٨) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۚ﴾ (٢٩).

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقت ما يشتهون من أنواع التمتع. ﴿يَشْرَعُونَ فِيهَا﴾ يتعاطون هم وجلساؤهم بتجاذب. «كَأْسًا» خمرأ سماها باسم محلها ولذلك أنت الضمير في قوله: «لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ» أي لا يتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلوا ما يؤثم به فاعله كما هو عادة الشاربين في الدنيا، وذلك مثل قوله تعالى: «لَا فِيهَا غَوْلٌ» وقرأهما ابن كثير والبصريان بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي بالكأس. «غِلْمَانٌ لَهُمْ» أي ممالك مخصوصون بهم. وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم. «كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ» مصون في الصدف من بياضهم وصفائهم. وعنه «والذي نفسي بيده إن فضل المخدم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ﴾ (٣٠) ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۚ﴾ (٣١) ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ (٣٢) ﴿وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ ۚ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۚ﴾ (٣٤).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله. ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عصيان الله معتنين بطاعته، أو وجلين من العقابة. ﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ﴾ بالرحمة والتوفيق. «وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُورِ» عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم، وقرئ «وَوَقَّانَا» بالتشديد.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ذلك في الدنيا. «نَدْعُوهُ» نعبده أو نسأله الوقاية. «إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ» المحسن، وقرأ نافع والكسائي «أنه» بالفتح. «الرَّحِيمُ» الكثير الرحمة.

﴿فَذَكَّرَ فَأَمَّا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۚ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ۚ﴾ (٣٦) ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ ۚ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلَهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۚ﴾ (٣٨).

﴿فَذَكَّرَ﴾ فأنبت على التذكير ولا تكثر بقولهم. «فَأَمَّا أَنْتَ يَنْعَمَتِ رَبِّكَ» بحمد الله وإنعامه. «بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ»، كما يقولون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ ما يقلق النفوس من حوادث الدهر، وقيل «المنون» الموت

فَعُول مِنْ مَنَّهُ إِذَا قَطَعَهُ.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ﴾ عقولهم. ﴿بِهَذَا﴾ بهذا التناقض في القول فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى عقله والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق مخيل، ولا يتأتى ذلك من المجنون وأمر الأحلام به مجاز عن أدائها إليه. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في العناد وقرىء «بل هم».

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بِلَآ يَأْمُرُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بِلَآ يُوَفِّقُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ اختلقه من تلقاء نفسه. ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونه بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ مثل القرآن. ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في زعمهم إذ فيهم كثير ممن عدوا فضحاء فهو رد للأقوال المذكورة بالتحدي، ويجوز أن يكون رداً للقول فإن سائر الأقسام ظاهر الفساد.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم أحدثوا وقدروا من غير محدث ومقدر فلذلك لا يعبدونه، أو من أجل لا شيء من عبادة ومجازاة. ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يؤيد الأول فإن معناه أم خلقوا أنفسهم ولذلك عقبه بقوله:

﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ و ﴿أَمْ﴾ في هذه الآيات منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار. ﴿بَلْ لَا يُؤَفِّقُونَ﴾ إذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنوا ذلك لما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَوِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ خزائن رزقه حتى يرزقوا النبوة من شاؤوا، أو خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختارته حكمته. ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾ الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف شاؤوا. وقرأ قبل وحفص بخلاف عنه وهشام بالسين وخمزة بخلاف عن خلاد بين الصاد والزاي، والباقون بالصاد خاصة.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ بحجة واضحة تصدق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْنُتُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ فيه تسفيه لهم وإشعار بأن من هذا رأي لا يعد من العقلاء فضلاً أن يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيتطلع على الغيوب.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من التزام غرم. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح المحفوظ المثبت فيه المغيبات. ﴿فَهُمْ يَكْنُتُونَ﴾ منه.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ. ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص فيكون وضعه موضع الضمير للتسجيل على كفرهم، والدلالة على أنه الموجب للحكم المذكور.

﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم الكيد أو يعود عليهم وبال كيدهم، وهو قتلهم يوم بدر أو المغلوبون في الكيد من كايده فكدته.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو شركة ما يشركونه به.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ (٤٤) ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ (٤٥) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ قطعة. ﴿مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم. ﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ هذا سحب تراكم بعضه على بعض، وهو جواب قولهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو عند النفخة الأولى، وقرىء. «يلقوا» وقرأ ابن عامر وعاصم ﴿يُصْعَقُونَ﴾ على المبني للمفعول من صعقه أو أصعقه.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الإغناء في رد العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل العموم والخصوص. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي دون عذاب الآخرة وهو عذاب القبر أو المواخذة في الدنيا كقتلهم ببدر والقحط سبع سنين. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ.

﴿وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٤٨) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩).

﴿وَاضْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بامهالهم وإيقائك في عنائهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفظنا بحيث نراك ونكلوك وجمع العين لجمع الضمير والمبالغة بكثرة أسباب الحفظ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت أو من منامك أو إلى الصلاة.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء، ولذلك أفردته بالذكر وقدمه على الفعل ﴿وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل، وقرىء بالفتح أي في أعقابها إذا غربت أو خفيت. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة والطور كان حقاً على الله أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته».

(٥٣) سورة النجم

مكية وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ٢ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٣ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٤ ﴿

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم بجنس النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غرب أو انتثر يوم القيامة أو انقض أو طلع فإنه يقال. هوى هويًا بالفتح إذا سقط وغرب، وهويًا بالضم إذا علا وصعد، أو بالنجم من نجوم القرآن إذا نزل أو النبات إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفع على قوله.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدل محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، والخطاب لقريش. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ وما اعتقد باطلاً والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى.

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآن أو الذي ينطق به. ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي إلا وحى يوحى الله إليه، واحتج به من لم ير الاجتهاد له. وأجيب عنه بأنه إذا أوحى إليه بأن يجتهد كان اجتهاده وما يستند إليه وحياً، وفيه نظر لأن ذلك حينئذ يكون بالوحي لا الوحي.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٥ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ ٦ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٧ ﴿

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فإن الوسطة في إبداء الخوارق، روي أنه قلع قرى قوم لوط ورفها إلى السماء ثم قلبها وصاح صيحة بشمود فأصبحوا جائمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافة في عقله ورأيه. ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها. قيل ما رآه أحد من الأنبياء في صورته غير محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرة في السماء ومرة في الأرض، وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ في أفق السماء والضمير لجبريل.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ٨ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ٩ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ١٠ ﴿

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿فَتَدَلَّى﴾ فتعلق به وهو تمثيل لعروجه بالرسول. وقيل ثم تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول فيكون إشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله تقريراً لشدة قوته، فإن التدلي استرسال مع تعلق كتدلي الثمرة، ويقال دلى رجله من السرير وأدلى دلوه، والدوالي الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ﴾ جبريل عليه السلام كقولك: هو مني معقد الإزار، أو المسافة بينهما. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارهما. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقدير كم كقوله أو يزيدون، والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما

أوحى إليه بنفي البعد الملبس.

﴿فَأَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام. ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ عبد الله واضماره قبل الذكر لكونه معلوماً كقوله: ﴿عَلَى ظَهَرِهَا﴾ ﴿مَا أَوْحَى﴾ جبريل عليه السلام وفيه تفخيم للموحى به أو الله إليه، وقيل الضمائر كلها لله تعالى وهو المعنى بشديد القوى كما في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ ودنوه منه برفع مكانته وتدليه جذبه بشرائره إلى جناب القدس.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ١١ ﴿أَفْتَمْرُؤُهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ ١٢ ﴿

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ما رأى يبصره من صورة جبريل عليه السلام أو الله تعالى، أي ما كذب بصره بما حكا له فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصر، أو ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه يبصره، أو ما رآه بقلبه والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدل عليه «أنه عليه الصلاة والسلام سئل هل رأيت ربك؟ فقال رأيت بـفؤادي». وقرأ هشام ما كذب أي صدقه ولم يشك فيه.

﴿أَفْتَمْرُؤُهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ أفتجادلونه عليه، من المراء وهو المجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كأن كلاً من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب «أفتمرونه» أي أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته، أو أفتجحدونه من مراه حقه إذا جحده وعلى لتضمين الفعل معنى الغلبة فإن المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ١٣ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ١٤ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ١٥ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ١٦ ﴿

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ مرة أخرى فعلة من النزول أقيمت مقام المرة ونصبت نصبها إشعاراً بأن الرؤية في هذه المرة كانت أيضاً بنزول ودنو والكلام في المرئي والدنو ما سبق. وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى، ونصبها على المصدر والمراد به نفي الريبة عن المرة الأخيرة.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ التي ينتهي إليها أعمال الخلائق وعلمهم، أو ما ينزل من فوقها ويصعد من تحتها، ولعلها شبهت بالسدره وهي شجرة النبق لأنهم يجتمعون في ظلها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعة.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ الجنة التي يأوي إليها المتقون أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يكتننها نعت ولا يحصبها عد، وقيل يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ١٧ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ١٨ ﴿

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَى﴾ وما تجاوزه بل أثبتته إثباتاً صحيحاً مستيقناً، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ أي والله لقد رأى الكبرى من آياته وعجائبه الملكية والملكوتية ليلة المعراج وقد قيل إنها المعنية بما «رأى». ويجوز أن تكون «الكبرى» صفة للآيات على أن المفعول محذوف أي شيئاً من آيات ربه أو «من» مزيدة.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (١٩) ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (٢٠) ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ (٢١) ﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ (٢٢).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ هي أصنام كانت لهم، فالات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة وهي فعلة من لوى لأنهم كانوا يلون عليها أي يطوفون. وقرأ هبة الله عن البرقي ورويس عن يعقوب «اللات» بالتشديد على أنه سمي به لأنه صورة رجل كان يلت السوق بالسمن ويطعم الحاج. «والعزى» بالتشديد سمرة لغطفان كانوا يعبدونها فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، وأصلها تأنيث الأعز «ومناة» صخرة كانت لهذيل وخزاعة أو لثقيف وهي فعلة من مناه إذا قطعه فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين ومنه منى. وقرأ ابن كثير «مناة» وهي مفعلة من النوء فإنهم كانوا يستمطرون الأنواء عندها تبركاً بها، وقوله «الثالثة الأخرى» صفتان للتأكيد كقوله: «يطير بجناحيه» أو «الأخرى» من التأخر في الرتبة.

﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ إنكار لقولهم الملائكة بنات الله، وهذه الأصنام استوطنها جنيات هن بناته، أو هياكل الملائكة وهو المفعول الثاني لقوله «أفرأيتم».

﴿تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ جائزة حيث جعلتم له ما تستنكفون منه وهي فعلى من الضيز وهو الجور، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل في بيض فإن فعلى بالكسر لم تأت وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمزة من ضأزه إذا ظلمه على أنه مصدر نعت به.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ (٢٣).

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ﴾ الضمير للأصنام أي ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها لأنهم يقولون أنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها، والعزى لعزتها ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين. «سَمِيَتْهُمَا» سميت بها.

﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ بهواكم. «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ» برهان تتعلقون به. «إِنْ يَتَّبِعُونَ» وقرئ بالتاء. «إِلَّا الظَّنَّ» إلا توهم أن ما هم عليه حق تقليداً وتوهمًا باطلاً. «وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» وما تشتهي أنفسهم. «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ» الرسول أو الكتاب فتركوه.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ (٢٤) ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (٢٥) ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (٢٦).

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ «أم» منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، والمعنى ليس له كل ما يتمناه والمراد نفى طمعهم في شفاعاة الآلهة وقولهم: «لئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى» وقولهم: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» ونحوهما.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريد وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما. «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا» وكثير من الملائكة لا تغني شفاعتهم شيئاً ولا

﴿إِلَّا مَنِ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ في الشفاعة. ﴿لَمَنْ يَشَاءُ﴾ من الملائكة أن يشفع أو من الناس أن يشفع له. ﴿وَيَرْضَى﴾ ويراه أهلاً لذلك فكيف تشفع الأصنام لعبدتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْيِئَةً الْأُنثَى﴾ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي كل واحد منهم. ﴿تَسْيِئَةً الْأُنثَى﴾ بأن يسموه بتناً. ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بما يقولون، وقرئ بها أي بالملائكة أو بالتسمية. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ فإن الحق الذي هو حقيقة الشيء لا يدرك إلا بالعلم، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية، وإنما العبرة به في العمليات وما يكون وصلة إليها.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (٣٠).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فأعرض عن دعوته والاهتمام بشأنه فإن من غفل عن الله وأعرض عن ذكره. وانهمك في الدنيا بحيث كانت تنتهي همته ومبلغ علمه لا تزيده الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

﴿ذَلِكَ﴾ أي أمر الدنيا أو كونها شهية. ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لا يتجاوز علمهم والجملة اعترض مقرر لقصور همهم بالدنيا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ تعليل للأمر بالإعراض أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب فلا تتعب نفسك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغ وقد بلغت.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (٣٢).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿ليجزى الذين أسأوا بما عملوا﴾ بعقاب ما عملوا من السوء أو بمثله أو بسبب ما عملوا من السوء، وهو علة لما دل عليه ما قبله أي خلق العالم وسواه للجزاء، أو ميز الضال عن المهتدي وحفظ أحوالهم لذلك ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ بالمشوبة الحسنى وهي الجنة، أو بأحسن من أعمالهم أو بسبب الأعمال الحسنى.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه. وقيل ما أوجب الحد. وقرأ حمزة والكسائي وخلف كبير الإثم على إرادة الجنس أو الشرك. ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾ وما فحش من الكبائر خصوصاً. ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ إلا ما قل وصغر فإنه مغفور من مجتنبى الكبائر، والاستثناء منقطع ومحل ﴿الذين﴾ النصب على الصفة أو المدح أو الرفع على أنه خير محذوف. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو له أن يغفر ما شاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين لئلا يياس صاحب الكبيرة من رحمته ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالكم منكم. ﴿إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ علم أحوالكم ومصارف أموركم حين ابتداء خلقكم من التراب بخلق آدم وحينما صوركم في الأرحام. ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تتنوا

عليها بركاء العمل وزيادة الخير، أو بالطهارة عن المعاصي والردائل. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ فإنه يعلم التقى وغيره منكم قبل أن يخرجكم من صلب آدم عليه السلام.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٣٣) ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (٣٤) ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ (٣٥).

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ عن اتباع الحق والثبات عليه.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ وقطع العطاء من قولهم أكدى الحافر إذا بلغ الكدية وهي الصخرة الصلبة فترك الحفر. والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يتبع رسول الله ﷺ فغيره بعض بعض المشركين وقال: تركت دين الأشياخ وضللتهم فقال أخشى عذاب الله تعالى فضمن أن يتحمل عنه العقاب إن أعطاه بعض ماله فارتد وأعطى بعض المشروط ثم بخل بالباقي.

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ يعلم أن صاحبه يتحمل عنه.

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٣٦) ﴿وَأَنذَرَهُمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٧) ﴿أَلَا نَزَرُ وَازِرَةً وَزَرَ﴾ (٣٨).

﴿أَمْ لَمْ يَلْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ ﴿وَأَنذَرَهُمَ الَّذِي وَفَّى﴾ وفى وأتم ما التزمه أو أمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أناه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال ألك حاجة، فقال أما إليك فلا، وذبح الولد وأنه كان يمشي كل يوم فرسحاً يرتاد ضعيفاً فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم، وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم.

﴿أَلَا نَزَرُ وَازِرَةً وَزَرَ﴾ ﴿وَزَرَ﴾ أن هي المخففة من الثقيلة وهي بما بعدها في محل الجر بدلاً مما ﴿في﴾ ﴿صحف موسى﴾، أو الرفع على هو أن ﴿لا تزور﴾ كأنه قيل ما في صحفهما؟ فأجاب به، والمعنى أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يخالف ذلك قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام، «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» فإن ذلك للدلالة والتسبب الذي هو وزره.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَن سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ (٤٠) ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ (٤١).

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ إلا سعيه أي كما لا يؤاخذ أحد بذنب الغير لا يثاب بفعله، وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت فلكون النايي له كالثائب عنه.

﴿وَأَن سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾ أي يجزي العبد سعيه بالجزاء الأوفر فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون مصدرأ وأن تكون الهاء للجزاء المدلول عليه بيجزي و ﴿الجزاء﴾ بدله.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ (٤٢) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ (٤٣) ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ (٤٤).

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ انتهاء الخلائق ورجوعهم، وقرىء بالكسر على أنه منقطع عما في الصحف وكذلك ما بعده.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيره فإن القاتل ينقض البنية والموت يحصل عنده بفعل الله تعالى على سبيل العادة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (٤٥) ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ (٤٦) ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾ (٤٧).

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ تدفق في الرحم أو تخلق، أو يقدر منها الولد من منى إذا قدر.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى﴾ الإحياء بعد الموت وفاء بوعده، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشأة بالمدة وهو أيضاً مصدر نشأ.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطى القنية وهو ما يتأثّل من الأموال، وإفرادها لأنها أشف الأموال أو أرضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ يعني العبور وهي أشد ضياء من الغميصاء، عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ وخالف قريشاً في عبادة الأوثان، ولذلك كانوا يسمون الرسول ﷺ ابن أبي كبشة، ولعل تخصيصها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإن وافق أبا كبشة في مخالفتهم خالفه أيضاً في عبادتها.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ﴿٥١﴾ وَمِمَّا أَتَىٰ ﴿٥٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٤﴾ فَفَشَّنَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٥﴾.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ القدماء لأنهم أولى الأمم هلاكاً بعد قوم نوح عليه والسلام. وقيل «عاد الأولى» قوم هود وعاد الأخرى إرم. وقرئ «عاداً لولى» بحذف الهمزة ونقل ضمها إلى لام التعريف وقرأ نافع وأبو عمرو «عاداً لولى» بضم اللام بحركة الهمزة وبإدغام التنوين، وقالون بعد ضمة اللام بهمزة ساكنة في موضع الواو.

﴿وَتَمُودًا﴾ عطف على «عاداً» لأن ما بعده لا يعمل فيه، وقرأ عاصم وحمزة بغير تنوين ويقفان بغير الألف والباقون بالتنوين ويقفون بالألف. ﴿فَمَا أَتَى﴾ الفريقين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أيضاً معطوف عليه. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبل عاد وثمود. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونه وينفرون عنه ويضربونه حتى لا يكون به حراك.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقرى التي انتفكت بأهلها أي انقلبت وهي قرى قوم لوط. ﴿أَهْوَى﴾ بعد أن رفعها فقلبها.

﴿فَفَشَّنَا مَا غَشَّى﴾ فيه تهويل وتعميم لما أصابهم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكك والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد والمعدودات وإن كانت نعماً ونقماً سماها «آلاء» من قبل ما في نقمه من العبر والمواعظ للمعتبرين، والانتقام للأنبياء والمؤمنين.

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ أي هذا القرآن إنذار من جنس الإنذارات المتقدمة، أو هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الأولين.

﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ﴾ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾.

﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ﴾ دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله: «اقتربت الساعة».

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله لكنه لا يكشفها، أو

الآن بتأخيرها إلا الله، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلا الله إذ لا يطلع عليه سواه، أو ليس لها من غير الله كشف على أنها مصدر كالعافية.

﴿أَفَرَأَى هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦١﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦٢﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۝﴾

﴿أَفَرَأَى هَذَا الْحَدِيثَ﴾ يعني القرآن ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ إنكاراً.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزناً على ما فرطتم.

﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لاهون أو مستكبرون من سمد البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود وهو الغناء.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أي واعبدوه دون الآلهة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة».

(٥٤) سورة القمر

مكية وأبها خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ .

﴿اَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ روي أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية فانشق القمر . وقيل معناه سينشق يوم القيامة ويؤيد الأول أنه قرئ «وقد انشق القمر» أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها انشقاق القمر، وقوله:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ عن تأملها والإيمان بها. ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ مطرد وهو يدل على أنهم رأوا قبله آيات آخر مترادفة ومعجزات متتابعة حتى قالوا ذلك، أو محكم من المرة يقال أمرته فاستمر إذا أحكمته فاستحكم، أو مستبشع من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته أو ماز ذاهب لا يبقى.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زين لهم الشيطان من رد الحق بعد ظهوره، وذكرهما بلفظ الماضي للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ منته إلى غاية من خذلان أو نصر في الدنيا وشقاوة، أو سعادة في الآخرة فإذا الشيء إذا انتهى إلى غايته ثبت واستقر، وقرئ بالفتح أي ذو مستقر بمعنى استقرار وبالكسر والجر على أنه صفة أمر، وكل معطوف على الساعة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۖ﴾ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ في القرآن ﴿مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة. ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ ازدجار من تعذيب أو وعيد، وتاء الافتعال تقلب دالاً مع الذال والذال والزاي للتناسب، وقرئ «مزجر» بقلبها زايًا وإدغامها.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتها لا خلل فيها وهي بدل من ما أو خبر لمحدوف، وقرئ بالنصب حالاً من ما فإنها موصولة أو مخصوصة بالصفة نصب الحال عنها. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ نفي أو استفهام إنكار، أي فأي غناء تغني النذر وهو جمع نذير بمعنى المنذر، أو المنذر منه أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَىٰ مَوْءٍ تُكْرُ ۖ﴾ (٦) خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِ ۖ﴾ (٨) .

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يغني فيهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ﴾ إسرافيل، ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر في قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة للتخفيف وانتصاب «يوم» بـ «يخرجون» أو بإضمار أذكر. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ تُكْرُ﴾ فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد مثله وهو هول يوم القيامة، وقرأ ابن كثير بالتخفيف، وقرئ «نكر» بمعنى أنكر.

﴿خَاشِعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من قبورهم خاشعاً ذليلاً أبصارهم من الهول، وإفراده وتذكيره لأن فاعله ظاهر غير حقيقي التأنيث، وقرئ «خاشعة» على الأصل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم «خُشْعاً»، وإنما حسن ذلك ولم يحسن مررت برجال قائمين غلمانهم لأنه ليس على صيغة تشبه الفعل، وقرئ «خشع أبصارهم» على الابتداء والخبر فتكون الجملة حالاً. ﴿كَانَهُمْ جَرَادٌ مُتْتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعب.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ﴾ ﴿١٠﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبل قومك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيل بعد إجمال، وقيل معناه كذبوه تكديباً على عقب تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل. ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون. ﴿وَازْدُجِرَ﴾ وزجر عن التبليغ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلهم أي هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته.

﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي﴾ باني وقرئ بالكسر على إرادة القول. ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي. ﴿فَأَنْتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم وذلك بعد يأسه منهم. فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشياً عليه فيفيق ويقول: «اللَّهُم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ﴿١٢﴾

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ﴾ منصب، وهو مبالغة وتمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها، وقرأ ابن عامر ويعقوب ففتحنا بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة، وأصله وفجرنا عيون الأرض فغير للمبالغة. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض، وقرئ «الماءان» لاختلاف النوعين «الماوان» بقلب الهزة واواً. ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدرها الله تعالى في الأزل من غير تفاوت، أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج، أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ ذات أخشاب عريضة. ﴿وَدُسْرٍ﴾ ومسامير جمع دسار من الدسر، وهو الدفع الشديد وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث إنها كالشرح لها تؤدي مؤداها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلنا ذلك جزاء لنوح لأنه نعمة كفروها، فإن كل نبي نعمة من الله تعالى ورحمة على أمته، ويجوز أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل إلى الضمير، وقرئ «لمن كفر» أي للكافرين.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ﴿١٧﴾

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أي السفينة أو الفعلة. ﴿آيَةً﴾ يعتبر بها إذ شاع خبرها واشتهر. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

معتبر، وقرئ «مذكّر» على الأصل، و «مذكّر» بقلب التاء ذالاً والإدغام فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ استفهام تعظيم ووعيد، والنذر يحتمل المصدر والجمع.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ سهّلناه أو هيّأناه من يسر ناقته للسفر إذا رحلها. ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للادكار والاعتاظ بأن صرفنا فيه أنواع المواعظ والعبر، أو للحفظ بالاختصار وعذوبة اللفظ. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ متعظ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) نَزَغُ النَّاسِ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنُفَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (٢١).

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبل نزوله، أو لمن بعدهم في تعذيبهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً أو شديد الصوت. ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم. ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ أي استمر شؤمه، أو استمر عليهم حتى أهلكهم، أو على جميعهم كبيرهم وصغيرهم فلم يبق منهم أحداً، أو اشتد مرارته وكان يوم الأربعاء آخر الشهر.

﴿نَزَغُ النَّاسِ﴾ تقلعهم، روي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح منها وصرعتهم موتى. ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنُفَعِرٍ﴾ أصول نخل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض. وقيل شبهوا بالأعجاز لأن الريح طيرت رؤوسهم وطرحت أجسادهم، وتذكير «منقعر» للحمل على اللفظ، والتأنيث في قوله «أعجاز نخل خاوية» للمعنى.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ كرهه للتحويل. وقيل الأول لما حاق بهم في الدنيا، والثاني لما يحيق بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصتهم «لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى».

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا ابْنُوا لَنَا وَجِدًا فنَبِّعْهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ (٢٥).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ «كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ» بالإشارات والمواعظ، أو الرسل.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا لَنَا﴾ من جنسنا أو من جملتنا لا فضل له علينا، وانتصابه بفعل يفسره وما بعده وقرئ بالرفع على الابتداء والأول أوجه للاستفهام. ﴿وَاجِدًا﴾ منفرداً لاتبع له أو من آحادهم دون أشرافهم. ﴿نَبِّعْهُ﴾ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ جمع سعيير كأنه عكسوا عليه فرتبوا على اتباعهم إياه ما رتبته على ترك اتباعهم له، وقيل السعير الجنون ومنه ناقة مسعورة.

﴿ءَالْقَى الذِّكْرَ﴾ الكتاب أو الرحي. ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وفيما من هو أحق منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾ حمله بطره على الترفع علينا بادعائه إياه.

﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنْ الْكُذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ (٢٦) إِنَّا مَرْسِلُوا الْتَافَةٍ فَبَنَ لَهُمْ قَارِيعُهُمْ وَأَصْطَلِرَ (٢٧) وَيَنْتَهُمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ (٢٨).

﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ﴾ عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة. ﴿مَنْ الْكُذَّابِ الْأَشِرِّ﴾ الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل أصالح عليه السلام أم من كذبه؟ وقرأ ابن عامر وحزمة ورويس ستعلمون على الالتفات أو حكاية ما أجابهم به صالح، وقرئ «الأشر» كقولهم حذر في حذر و «الأشر» أي الأبلغ في الشرارة وهو أصل مفروض كالآخر.

﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ مخرجوها وباعثوها. ﴿فِئْتَةً لَهُمْ﴾ امتحاناً لهم. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصر ما يصنعون. ﴿وَأَصْطَبِرْ﴾ على أذاهم.

﴿وَبَنَيْنَاهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم لها يوم ولهم يوم، و ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّخْتَصِرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته أو يحضره عنه غيره.

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (٢٩) ﴿كَفَيْكَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٠) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ (٣١).

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار بن سالف أحيمر ثمود ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ فاجترأ على تعاطي قتلها فقتلها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطى تناول الشيء بتكلف.

﴿فَكَفَيْكَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صيحة جبريل عليه السلام. ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ﴾ كالشجر اليابس المتكسر الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء، وقرىء بفتح الظاء أي كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (٣٢) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ حَشَتْهُمْ بِسَحْرِ﴾ (٣٤) ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصيهم بالحجارة أي ترميهم. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ﴾ في سحر وهو آخر الليل أو مسحرين.

﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاماً منا وهو علة لنجينا. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَقَطَمْنَا آغْيَيْنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٧) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (٣٨) ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٩).

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ لوط. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ﴾ فكذبوا بالنذر متشاكين.

﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ قصدوا الفجور بهم. ﴿فَقَطَمْنَا آغْيَيْنَهُمْ﴾ فمسحناها وسويناها بسائر الوجه. روي أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فأعماهم. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ فقلنا لهم ذوقوا على السنة الملائكة أو ظاهر الحال.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً﴾ وقرىء «بكرة» غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار معين. ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ يستقر بهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ (٤٠) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ مَالَ رَعُونَ النُّذُرِ﴾ (٤١) ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٤٢).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب واستماع كل قصة مستدع للادكار والاتعاظ، واستئنافاً للتنبيه والاتعاظ لثلا يغلبهم السهر والغفلة، وهكذا تكرير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ونحوهما.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ اكتفى بذكرهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعني الآيات التسع. ﴿فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب. ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾.

﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يا معشر العرب. ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ الكفار المعدودين قوة وعدة أو مكانة وديناً عند الله تعالى. ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أم نزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب. ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جماعة أمرنا مجتمع ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ ممتنع لا ترام أو منتصر من الأعداء لا تغلب، أو متناصر ينصر بعضنا بعضاً والتوحيد على لفظ الجميع.

﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ﴾ أي الأدبار وإفراذه لإرادة الجنس، أو لأن كل واحد يولي دبره وقد وقع ذلك يوم بدر وهو من دلائل النبوة. وعن عمر رضي الله تعالى عنه «أنه لما نزلت قال لم أعلم ما هو فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدرع ويقول. سيهزم الجمع، فعلمته».

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ موعد عذابهم الأصلي وما يحق بهم في الدنيا فمن طلائعه. ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى﴾ أشد، والداهية أمر فظيع لا يهتدي لدوائه. ﴿وَأَمَرُّ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق في الدنيا. ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ يجرون عليها. ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يقال لهم ذوقوا حر النار وألمها فإن مسها سبب التألم بها، وسقر علم لجهنم ولذلك لم يصرف من سقرته النار وصقرته إذا لوحته.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً على مقتضى الحكمة، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل وقوعه، وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده، وقرئ بالرفع على الابتداء وعلى هذا فالأولى أن يجعل خلقناه خبراً لا نعتاً ليطابق المشهورة في الدلالة على أن كل شيء مخلوق بقدر، ولعل اختيار النصب ها هنا مع الإضمار لما فيه من النصوصية على المقصود.

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ إلا فعلة واحدة وهو الإيجاد بلا معالجة ومعاناة، أو ﴿إِلَّا﴾ كلمة واحدة وهو قوله كن. ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ في اليسر والسرعة، وقيل معناه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾..

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ﴾ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ كَبِيرٌ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر ممن قبلكم. ﴿فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ﴾ متعظ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ مكتوب في كتب الحفظ.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمال. ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ مسطور في اللوح.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار واكتفى باسم الجنس، أو سعة أو ضياء من النهار. وقرىء «نهر» ويضم الهاء جمع نهر كأسد وأسد.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي، وقرىء «مقاعد صدق». ﴿عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقربين عند من تعالى أمره في الملك، والاعتدال بحيث أبهمه ذوو الأفهام.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القمر في كل غيب بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».

(٥٥) سورة الرحمن

مكية أو مدنية أو متباعدة وأيهما ثماث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ① ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ② ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ③ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ④ .

﴿الرَّحْمَنُ﴾، وقدم ما هو أصل النعم الدينية وأجلها وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين ومنشأ الشرع وأعظم الوحي وأعز الكتب، إذ هو بإعجازه واشتماله على خلاصتها مصدق لنفسه ومصدق لها، ثم أتبعه قوله:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ⑤ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع، وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة لـ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد.

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ⑥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ⑦ .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب معلوم مقدر في بروجهما ومنازلهما، وتتسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب.

﴿وَالنَّجْمُ﴾ والنبات الذي ينجم أي يطلع من الأرض ولا ساق له. ﴿وَالشَّجَرُ﴾ الذي له ساق. ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقياد الساجد من المكلفين طوعاً، وكان حق النظم في الجملتين أن يقال: وأجرى الشمس والقمر، وأسجد النجم والشجر. أو ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدهما في اتصالهما بـ ﴿الرَّحْمَنُ﴾، لكنهما جردتا عما يدل على الاتصال إشعاراً بأن وضوحه يغني عن البيان، وإدخال العاطف بينهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يحس به من تغيرات أحوال الأجرام العلوية والسفلية بتقديره وتديره.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ⑧ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ⑨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ⑩ .

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة محلاً ومرتبة، فإنها منشأ أقضيته ومتنزل أحكامه ومحل ملائكته، وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ العدل بأن وفر على كل مستعد مستحقه، ووفى كل ذي حق حقه حتى انتظم أمر العالم واستقام كما قال عليه السلام «بالعدل قامت السموات والأرض». أو ما يعرف به مقادير الأشياء من ميزان ومكيال ونحوهما، كأنه لما وصف السماء بالرفعة من حيث إنها مصدر القضايا والإقذار أراد وصف الأرض بما فيها مما يظهر به التفاوت ويعرف به المقدار ويسوى به الحقوق والمواجب.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ لئلا تطفوا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف، وقرئ «لا تطفوا» على

إرادة القول.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوه فإن من حقه أن يسوى لأنه المقصود من وضعه، وتكريره مبالغة في التوصية به وزيادة حث على استعماله، وقرئ ﴿ولا تخسروا﴾ بفتح التاء وضم السين وكسرهما، و ﴿تخسروا﴾ بفتحها على أن الأصل ﴿ولا تخسروا﴾ في ﴿الميزان﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل.

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنْحَارِ ﴿١٢﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا﴾ خفضها مدحوة. ﴿لِلْأَنْحَامِ﴾ للخلق. وقيل الأنام كل ذي روح. ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ضروب مما يتفكه به. ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أوعية التمر جمع كم، أو كل ما يكمن أي يغطى من ليف وسعف وكفرى فإنه ينتفع به كالمكموم كالجذع والجمار والتمر.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ كالحنطة والشعير وسائر ما يتغذى به، و ﴿العصف﴾ ورق النبات اليابس كالتين. ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعني المشموم، أو الرزق من قولهم: خرجت أطلب ريحان الله، وقرأ ابن عامر «والحب ذا العصف والريحان» أي وخلق الحب والريحان أو وأخص، ويجوز أن يراد وذا الريحان فحذف المضاف، وقرأ حمزة والكسائي «والريحان» بالخفض ما عدا ذلك بالرفع، وهو فيعلان من الروح فقلبت الواو ياء وأدغم ثم خفف، وقيل «روحان» فقلبت واوه ياء للتخفيف.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطاب للنفلين المدلول عليهما بقوله: ﴿لِلْأَنْحَامِ﴾ وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ الصلصال الطين اليابس الذي له صلصلة، والفخار الخزف وقد خلق الله آدم من تراب جعله طيناً ثم حمأ مسنوناً، ثم صلصالاً فلا يخالف ذلك قوله خلقه من تراب ونحوه. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ الجن أو أبا الجن. ﴿مِنْ مَّارِجٍ﴾ من صاف من الدخان. ﴿مِنْ نَارٍ﴾ بيان لـ ﴿مَّارِجٍ﴾ فإنه في الأصل للمضطرب من مرج إذا اضطرب.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاض عليكم في أطوار خلقتكما حتى صيركما أفضل المركبات وخلاصة الكائنات.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ شرقي الشتاء والصيف ومغربيهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من القوائد التي لا تحصى، كاعتدال الهواء واختلاف الفصول وحدوث ما يناسب كل فصل فيه إلى غير ذلك.

﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح والبحر العذب. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاوران ويتماس سطوحهما، أو بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط لأنهما خليجان يتشعبان منه.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى أو من الأرض. ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ لا ينبغي أحدهما على الآخر بالمازجة وإبطال الخاصة، أو لا يتجاوزان حديهما باغراق ما بينهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ كبار الدر وصغاره، وقيل المرجان الخرز الأحمر، وإن صح أن الدر يخرج من الملح فعلى الأول إنما قال منهما لأنه مخرج من مجتمع الملح والمذنب، أو لأنهما لما اجتماعاً صاراً كالشيء الواحد فكان المخرج من أحدهما كالمخرج منهما. وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب «يخرج»، وقرئ «نخرج» و «يخرج» بنصب «اللؤلؤ والمرجان».

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ﴾ أي السفن جمع جارية، وقرئ بحذف الياء ورفع الراء كقوله:

لَهَا نَائِيَا أَزْبَعُ حِسَانٌ وَأَزْبَعُ فَكُلْهَا نَمَانٌ

﴿الْمُنشَآتُ﴾ المرفوعات الشرع، أو المصنوعات وقرأ حمزة وأبو بكر بكسر الشين أي الرافعات الشرع، أو اللاتي ينشئن الأمواج أو السير. ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ كالجبال جمع علم وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها غيره.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ من على الأرض من الحيوانات أو المركبات و «من» للتغليب، أو من الثقلين. ﴿فَانٍ﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذاته ولو استقرت جهات الموجودات وتفحصت وجوها وجدتها بأسرها فانية في حد ذاتها إلا وجه الله أي الوجه الذي يلي جهته. ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناء المطلق والفضل العام.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما ذكرنا قبل من بقاء الرب وإبقاء ما لا يحصى مما هو على صدد الفناء رحمة وفضلاً، أو مما يترتب على فناء الكل من الإعادة والحياة الدائمة والنعيم المقيم.

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَإِنَّهُمْ مَفْقَرُونَ إِلَيْهِ فِي ذَوَاتِهِمْ وصفاتهم وسائر ما يهمهم، ويعن لهم والمراد بالسؤال ما يدل على الحاجة إلى تحصيل الشيء في ذواتهم وصفاتهم نطقاً كان أو غيره. ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل وقت يحدث أشخاصاً ويجدد أحوالاً على ما سبق به قضاؤه، وفي الحديث «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين». وهو رد لقول اليهود إن الله لا يقضي يوم السبت شيئاً.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يسعف به سؤالكما وما يخرج لكما من مكنى العدم حيناً فحيناً.

﴿سَنَقَرُ لَكُمْ أَنَّهُ الثَّقَلَانِ﴾ (٣١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمْشُرُ الْمَوْتِ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَقْتَمَ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُدُوا لَا تَفْذُوتَ إِلَّا سُلْطَانٌ ﴿٣٣﴾.

﴿سَنَقَرُ لَكُمْ أَنَّهُ الثَّقَلَانِ﴾ أي ستجرد لحسابكم وجزائكم وذلك يوم القيامة، فإنه تعالى لا يفعل فيه

غيره وقيل تهديد مستعار من قولك لمن تهدده سأفرغ لك، فإن المتجرد للشيء كان أقوى عليه وأجد فيه، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وقرأ «سفرغ إليكم» أي ستقصد إليكم. و «الثقلان» الإنس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض أو لرزاقتهما وقدرهما، أو لأنهما مثقلان بالتكليف.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله فارين من قضائه. ﴿فَانْفُذُوا﴾ فاحرجوا. ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ. ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ إلا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك، أو إن قدرتم أن تنفذوا لتعلموا ما في السموات والأرض ﴿فَانْفُذُوا﴾ لتعلموا لكن ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾ ولا تعلمون إلا بيينة نصبها الله تعالى فتخرجون عليها بأفكاركم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة، أو مما نصب من المصاعد العقلية والمعارج الثقيلة فتنفذون بها إلى ما فوق السموات العلا. ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ﴾ لهب. ﴿مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ﴾ ودخان قال:

نُضِيءٌ كَضَوْءِ السِّرَاجِ السَّلِيلِ ط لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ فِيهِ نُحَاسًا

أو صفر مذاب يصب على رؤوسهم، وقرأ ابن كثير «شواظ» بالكسر وهو لغة «ونحاس» بالجر عطفاً على «نار»، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوب في رواية، وقرأ «ونحاس» وهو جمع كلحف. ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنعان. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإن التهديد لطف والتميز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار في عداد الآلاء.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَيَوْمَذٍ لَا يَنْفُلُ عَنْ ذُلِّهِمْ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي حمراء كوردة وقرئت بالرفع على كان التامة فيكون من باب التجريد كقوله:

وَلَيْنَ بَقِيَتْ لِأَزْحَلْنَ بِغَزْوَةٍ تَخْوِي الْعَنَائِمَ أَوْ يَمُوتَ كَرِيمٌ

﴿كَالدِّهَانِ﴾ مذابة كالدهن وهو اسم لما يدهن به كالحزام، أو جمع دهن وقيل هو الأديم الأحمر.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يكون بعد ذلك.

﴿فَيَوْمَذٍ﴾ أي فيوم تنشق السماء. ﴿لَا يَنْفُلُ عَنْ ذُلِّهِمْ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم وذلك حين ما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف ذوداً ذوداً على اختلاف مراتبهم، وأما قوله تعالى: ﴿فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ﴾ ونحوه فحين يحاسبون في المجمع، والهاء للإنس باعتبار اللفظ فإنه وإن تأخر لفظاً تقدم رتبة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم.

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيَوْحَدُ بِالنَّوْصَى وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ

بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَاكِنٍ ﴿٤٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾.

﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَاهُمْ﴾ وهو ما يعلوهم من الكآبة والحزن. ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ مجموعاً بينهما، وقيل يؤخذون ﴿بِالنَّوَاصِي﴾ تارة و﴿الْأَقْدَامِ﴾ أخرى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يحرقون بها. ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار. ﴿أَنْ﴾ بلغ النهاية في الحرارة يصب عليهم، أو يسقون منه، وقيل إذا استغاثوا من النار أغشيوا بالحميم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، أو قيامه على أحواله من قام عليه إذا راقبه، أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين فأضيف إلى الرب تفخيماً وتهويلاً، أو ربه و ﴿مَقَامٍ﴾ مقم للمبالغة كقوله:

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَتَفَنَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّبِّ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

﴿جَنَّاتٍ﴾ جنة للخائف الإنسي والأخرى للخائف الجنى، فإن الخطاب للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكل واحد جنة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها وأخرى يفضل بها عليه، أو روحانية وجسمانية وكذا ما جاء مثني بعد.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والشمار جمع فن، أو أغصان جمع فنن وهي الغصنة التي تشعب من فرع الشجرة، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر وتمتد الظل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل. قيل إحداهما التسليم والأخرى السلسيل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رُوحَانٍ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٍ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٍ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٍ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رُوحَانٍ﴾ صنفان غريب ومعروف، أو رطب ويابس.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكِينٍ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ﴾ من ديباج نخين وإذا كانت البطائن كذلك فما ظنك بالظواهر، و ﴿مُتَكِينٍ﴾ مدح للخائفين أو حال منهم، لأن من خاف في معنى الجمع. ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريب يناله القاعد والمضطجع، ﴿وَجَنَى﴾ اسم بمعنى مجنى وقرىء بكسر الجيم.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا مِنْ قَصِيرَتِ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئْنُ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهَا مِنْ قَصِيرَتِ الظَّرْفِ لَمْ يَطْمِئْنُ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أي وحمرة الوجنة وبياض البشرة وصفائهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ في العمل. ﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ في الثواب وهو الجنة.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَمَّمَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دونهم من أصحاب اليمين.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُدْهَمَّمَتَانِ﴾ خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض، وعلى الأوليين الأشجار والفواكه دلالة على ما بينهما من التفاوت. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوارتان بالماء هو أيضاً أقل مما وصف به الأوليين وكذا ما بعده.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾ عطفهما على الفاكهة بياناً لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء وثمره الرمان فاكهة ودواء، واحتج به أبو حنيفة رضي الله عنه على أن من حلف لا يأكل فاكهة فاكل رطباً أو رماناً لم يحنث. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾﴾

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أي خيرات فخفت لأن خيراً الذي بمعنى أخير لا يجمع، وقد قرئ على الأصل: ﴿حِسَانٌ﴾ حسان الخلق والخلق.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ قصرن في خدورهن، يقال امرأة قصيرة وقصورة ومقصورة أي مخدرة، أو مقصورات الطرف على أزواجهن.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ كحور الأولين وهم أصحاب الجنتين فإنهما يدلان عليهما.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ بَرَزَكَ أَتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ﴾ وسائد أو نمارق جمع رفرقة. وقيل الرفرف ضرب من البسط أو ذيل الخيمة وقد يقال لكل ثوب عريض. ﴿خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عبقر، تزعم العرب أنه اسم بلد للجن فينسبون إليه كل شيء عجيب، والمراد به الجنس ولذلك جمع ﴿حِسَانٍ﴾ حملاً على المعنى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمه من حيث إنه مطلق على ذاته فما ظنك بذاته، وقيل الاسم بمعنى الصفة أو مقحم كما في قوله:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا

﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفع صفة للاسم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الرحمن أدى شكر ما أنعم الله تعالى عليه».

(٥٦) سورة الواقعة

مكية وآيها ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إذا حدثت القيامة، سماها واقعة لتحقيق وقوعها وانتصاب ﴿إِذَا﴾ بمحذوف مثل اذكر أو كان كيت وكيت.

﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله تعالى، أو تكذب في نفسها كما تكذب الآن، واللام مثلها في قوله: ﴿قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أو ليس لأحد في وقعتها كاذبة فإن من أخبر عنها صدق، أو ليس لها حينئذ نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها من قولهم: كذبت فلاناً نفسه في الخطب العظيم، إذا شجعت عليه وسولت له أنه يطيقه.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ تخفض قوماً وترفع آخرين، وهو تقرير لعظمتها فإن الوقائع العظام كذلك، أو بيان لما يكون حينئذ من خفض أعداء الله ورفع أوليائه، أو إزالة الأجرام عن مقارها بنثر الكواكب وتسيير الجبال في الجو، وقرئنا بالنصب على الحال.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا ۝٦ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧﴾

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ حركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل، والظرف متعلق بـ ﴿خافضة﴾ أو بدل من ﴿إِذَا وقعت﴾.

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ أي فتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لته، أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها،

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا﴾ متشراً.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً. ﴿ثَلَاثَةً﴾ وكل صنف يكون أو يذكر مع صنف آخر زوج.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩﴾

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنيئة من تيمنهم باليمين وتشاؤمهم بالشمال، أو «أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» و «أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم والذين يؤتونها بشمائلهم، أو أصحاب اليمن والشؤم فإن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم. والجملةتان الاستفهاميتان خبران لما قبلهما بإقامة الظاهر مقام الضمير ومعناهما التعجب من حال الفريقين.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة بعد ظهور الحق من غير تلعمش وتوان، أو سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات، أو الأنبياء فإنهم مقدمو أهل الأديان هم الذين عرفت حالهم وعرفت مالهم كقول أبي النجم:

أَنَا أَبُو النُّجْمِ وَشِغْفَرِي شِغْفَرِي

أو الذين سبقوا إلى الجنة ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الذين قربت درجاتهم في الجنة وأعليت مراتبهم.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي هم كثير من الأولين يعني الأمم السالفة من لدن آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ يعني أمة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يخالف ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «إن أمتي يكثرون سائر الأمم». لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو هذه أكثر من تابعيهم، ولا يردده قوله في أصحاب اليمين، ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمة، واشتقاقها من الثل وهو القطع.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْشَوْنَ﴾ خبر آخر للضمير المحذوف، والـ ﴿مَوْشَوْنَ﴾ المنسوجة بالذهب مشبكة بالدار والياقوت، أو المتواصلة من الوضن وهو نسج الدرع.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ حالان من الضمير في ﴿على سرر﴾.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة. ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حال الشرب وغيره، والكوب إناء بلا عروة ولا خرطوم له، والإبريق إناء له ذلك.

﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ من خمر.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ بخمار. ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ ولا تنزف عقولهم، أو لا ينفد شرابهم. وقرأ الكوفيون

بكسر الزاي ﴿لَا يُصَدَّعُونَ﴾ بمعنى لا يتصدعون أي لا ينفرون.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَنْتَحِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورٌ عَيْنٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يختارون.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ يتمنون.

﴿وَخُورٌ عَيْنٌ﴾ عطف على ﴿ولدان﴾، أو مبتدأ محذوف الخبر أي وفيها أو ولهم حور، وقرأ سراً

والكسائي بالجر عطفاً على ﴿جنات﴾ بتقدير مضاف أي هم في جنات ومصاحبة حور، أو على أكواب لأن معنى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب﴾ ينعمون بأكواب، وقرئنا بالنصب على ويؤتون حوراً.

﴿كَأَنَّمَالِ اللَّؤْلُؤُ الْمَكْنُونِ﴾ المصون عما يضربه في الصفاء والنقاء.

﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعل ذلك كله بهم جزاء بأعمالهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٦).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ باطلاً. ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ولا نسبة إلى الإثم أي لا يقال لهم أثمتم.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي قولاً. ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدل من ﴿قِيلًا﴾ كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أو صفته أو مفعوله بمعنى إلا أن يقولوا سلاماً، أو مصدر والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم. وقرئ «سلام سلام» على الحكاية.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلِّ مَمْدُودٍ (٣٠).

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ «في سِدْرٍ مَخْضُودٍ» لا شوك فيه من خضد الشوك إذا قطعه، أو مثني أغصانه من كثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب.

﴿وَطَلْحٍ﴾ وشجر موز، أو أم غيلان وله أنوار كثيرة طيبة الرائحة، وقرئ بالعين. ﴿مَنْضُودٍ﴾ نضد حمله من أسفله إلى أعلاه.

﴿وَظِلِّ مَمْدُودٍ﴾ منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ (٣١) وَفَكَهْوَ كَثِيرٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣).

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا بلا تعب، أو مصبوب سائل كأنه لما شبه حال السابقين في النعم بأعلى ما يتصور لأهل المدن شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَكَهْوَ كَثِيرٍ﴾ كثيرة الأجناس.

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في وقت. ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تمنع عن تناولها بوجه.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) غُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧).

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعه القدر أو منضدة مرتفعة. وقيل الفرش النساء وارتفاعها أنها على الأرائك، ويدل عليه قوله:

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً﴾ أي ابتدأناهن ابتداءً جديداً من غير ولادة إبداء أو إعادة. وفي الحديث «هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز شمطاً رمصاً، جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً».

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾. ﴿غُرُبًا﴾ متحبيات إلى أزواجهن جمع عروب، وسكن راء حمزة وأبو بكر وروي عن نافع وعاصم مثله. ﴿أَتْرَابًا﴾ فإن كلهن بنات ثلاث وثلاثين وكذا أزواجهن.

﴿لَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

﴿لَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ متعلق بـ «أنشأنا» أو «جعلنا»، أو صفة لـ «بأكراً» أو خبر لمحذوف مثل هن أو

لقوله:

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ وهي على الوجه الأول خبر محذوف.

﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ﴾ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٌّ مِّنْ يَّخْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ (٤٤).

﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ﴾ ﴿فِي سَمُومٍ﴾ في حر نار ينفذ في السَّام. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماء متناه في الحرارة.

﴿وَظِلٌّ مِّنْ يَّخْمُومٍ﴾ من دخان أسود يفعل من الحممة.

﴿لَا بَارِدٌ﴾ كسائر الظل. ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ ولا نافع، نفى بذلك ما أوهم الظل من الاستراح.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم يعني الشرك، ومنه بلغ الغلام الحنث أي الحلم ووقت المواخذه بالذنب، وحنث في يمينه خلاف بر فيها وتحنث إذا تأثم.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٤٧) أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠).

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقت كما دخلت العاطفة في قوله:

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ للدلالة على أن ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقدم زمانهم وللفضل بها حسن العطف على المستكن في «لمبعوثون»، وقرأ نافع وابن عامر «أو» بالسكون وقد سبق مثله، والعامل في الظرف ما دل عليه «مبعوثون» لا هو للفضل بأن والهمزة.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ «لَمَجْمُوعُونَ». وقرئ «لمجمعون». «إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» إلى ما وقت به الدنيا وحدث من يوم معين عند الله معلوم له.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ (٥١) لَا يَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّنْ رَّقُومٍ (٥٢) فَمَا تَلَوْنَ مِنهَا الْبُطُونَ (٥٣).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ أي بالبعث والخطاب لأهل مكة وأضرابهم.

﴿لَا يَكُلُونَ مِن شَجَرٍ مِّنْ رَّقُومٍ﴾ «من» الأولى للابتداء والثانية للبيان.

﴿فَمَا تَلَوْنَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ من شدة الجوع.

﴿فَقَسَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ (٥٤) فَقَسَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نَزُّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦).

﴿فَقَسَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ لغلبة العطش، وتأنيت الضمير في منها وتذكيره في «عليه» على معنى الشجر ولفظه، وقرئ «من شجرة» فيكون التذكير للـ «رقوم» فإنه تفسيرها.

﴿فَقَسَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾ الإبل التي بها الهيام وهو داء يشبه الاستسقاء، جمع أهيم وهيماء قال ذو

الرمة:

فَأَصْبَحَتْ كَالْهَيْمَاءِ لَا الْمَاءَ مُبَرَّدٌ صَدَّاهَا وَلَا يَقْضِي عَلَيْهَا هَيَامُهَا

وقيل الرمال على أنه جمع هيام بالفتح وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على هيم كسحب، ثم خفف وفعل به ما فعل بجمع أبيض وكل من المعطوف والمعطوف عليه أخص من الآخر من وجه فلا اتحاد، وقرأ نافع وحمزة وعاصم ﴿شرب﴾ بضم الشين.

﴿هَذَا نَزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء فما ظنك بما يكون لهم بعد ما استقروا في الجحيم، وفيه تهكم كما في قوله: ﴿فبشرهم بعذاب اليم﴾ لأن النزل ما يعد للنازل تكرمة له، وقرأ «نزلهم» بالتخفيف.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ (٥٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ (٥٨) ﴿أَنشَأْتُمْ خَلَاقَهُمْ ۖ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (٥٩).

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق متيقنين محققين للتصديق بالأعمال الدالة عليه، أو بالبعث فإن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحام من النطف، وقرأ بفتح التاء من منى النطفة بمعنى أمنائها.

﴿أَلَمْ تَخْلُقُوهُمْ﴾ تجعلونه بشراً سوياً. ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٦٠) ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٦٢).

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ قسمناه عليكم وأقتنا موت كل بوقت معين، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدال. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقته، أو لا يغلبنا أحد من سبقته على كذا إذا غلبته عليه.

﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ على الأول حال أو علة لـ ﴿قَدَرْنَا﴾ وعلى بمعنى اللام، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ اعتراض وعلى الثاني صلة، والمعنى على أن نبدل منكم أشباهكم فنخلق بديلكم، أو نبدل صفاتكم على أن أمثالكم جمع مثل بمعنى صفة. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلق أو صفات لا تعلمونها. ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى فإنها أقل صنماً لحصول المواد وتخصيص الاجزاء وسبق المثال، وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ﴿أَنشَأْتُمْ زُرْعَهُمْ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (٦٧).

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ تبدرون حبه.

﴿أَلَمْ تَنْشَأُوا نَبْتَهُ﴾. ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ المنبتون.

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ هسيماً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبون أو تندمون على اجتهدكم فيه، أو على ما أصبتم لأجله من المعاصي فتحدثون فيه، والفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث، وقرأ «فظلتم» بالكسر و «فظلتم» على الأصل.

﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ لملزمون غرامة ما أنفقنا، أو مهلكون لهلاك رزقنا من الغرام، وقرأ أبو بكر «أئنا لمغرمون» على الاستفهام.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قوم. ﴿مُحْرُومُونَ﴾ حرماناً رزقنا، أو محدودون لا مجدودون.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ أي العذب الصالح للشرب.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ من السحاب واحده مزنه، وقيل ﴿المزن﴾ السحاب الأبيض وماؤه أعذب. ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ بقدرتنا والرؤية إن كانت بمعنى العلم فمتعلقة بالاستفهام.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً أو من الأجاج فإنه يحرق الفم، وحذف اللام الفاصلة بين جواب ما يتمحض للشرط وما يتضمن معناه لعلم السامع بمكانها، أو الاكتفاء بسبق ذكرها أو يختص ما يقصد لذاته ويكون أهم وفقده أصعب بمزيد التأكيد. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثال هذه النعم الضرورية.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ تقدحون.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ يعني الشجرة التي منها الزناد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا﴾ جعلنا نار الزناد. ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصرة في أمر البعث كما مر في سورة «يس»، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنار جهنم. ﴿وَمَتَاعًا﴾ ومنفعة. ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ الذين ينزلون القواء وهي القفر، أو للذين خلت بطونهم أو مزادهم من الطعام، من أقوت الدار إذا خلت من ساكنيها.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء ذكره والعظيم صفة للاسم أو الرب، وتعقيب الأمر بالتسبيح لما عدد من بدائع صنعه وإنعامه إما لتنزيهه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيته الكافرون لنعمته، أو للتعجب من أمرهم في غمط نعمه، أو للشكر على ما عدها من النعم.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، أو فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد كما في «لئلا يعلم». أو فلأنا أقسم فحذف المبتدأ وأشيع فتحة لام الابتداء، ويدل عليه قراءة «فلا قسم» أو «فلا» رد لكلام يخالف المقسم عليه. ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بمساقطها، وتخصيص المغارب لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر لا يزول تأثيره، أو بمنازلها ومجاريها. وقيل النجوم نجوم القرآن ومواقعها أوقات نزولها، وقرأ حمزة والكسائي ﴿بموقع﴾.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسم به من الدلالة على عظم القدرة وكمال الحكمة وفرة الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سدى، وهو اعتراض في اعتراض فإنه اعتراض بين القسم والمقسم عليه، و «لو تعلمون» اعتراض بين الموصوف والصفة.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ كثير النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسن

مرضي في جنسه .

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ مصون وهو اللوح المحفوظ .

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ لا يطلع على اللوح إلا المطهرون من الكدورات الجسمانية وهم الملائكة، أو لا يمس القرآن ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث فيكون نفيًا بمعنى النهي، أو لا يطلبه ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الكفر، وقرئ «الْمُطَهَّرُونَ» و «الْمُطَهَّرُونَ» من أطهره بمعنى طهره و «الْمُطَهَّرُونَ» أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والإلهام .

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ صفة ثالثة أو رابعة للقرآن، وهو مصدر نعت به وقرئ بالنصب أي نزل تنزيلاً .

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن . ﴿أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ متهاونون به كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه ولا يتصلب فيه تهاوناً به .

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم . ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بمانحه حيث تنسبونه إلى الأنواء، وقرئ «شركم» أي وتجعلون شرككم لنعمة القرآن أنكم تكذبون به وتكذبون أي بقولكم في القرآن أنه سحر وشعر، أو في المطر أنه من الأنواء .

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِلِيذٌ نَظْرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ أي النفس .

﴿وَأَنْتُمْ حِلِيذٌ تَنْظُرُونَ﴾ حالكم، والخطاب لمن حول المحتضر والواو للحال .
﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ أي ونحن أعلم . ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى المحتضر . ﴿مِنْكُمْ﴾ عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع . ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ لا تدركون كنه ما يجري عليه .

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي مجزيين يوم القيامة أو مملوكين مقهورين من دانه إذا أذله واستعبده، وأصل التركيب للذل والانقياد .

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ترجعون النفس إلى مقرها وهو عامل الظرف والمحضض عليه بلولا الأولى والثانية تكرير للتوكيد وهي بما في حيزها دليل جواب الشرط، والمعنى إن كنتم غير مملوكين مجزيين كما دل عليه جحدكم أفعال الله وتكذيبكم بآياته . ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أباطيلكم ﴿فَلَوْلَا﴾ ترجعون الأرواح إلى الأبدان بعد بلوغها الحلقوم .

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَحَتَّى نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَمٌ لَكَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي إن كان المتوفى من السابقين .

﴿فَرُوحٌ﴾ فله استراحة وقرئ «فَرُوحٌ» بالضم وفسر بالرحمة لأنها كالسبب لحياة المرحوم وبالحياة

الدائمة. ﴿وَرَيْنَحَانٌ﴾ ورزق طيب. ﴿وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ ذات تنعم.
 ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿فَسَلَامٌ لَكَ﴾ يا صاحب اليمين. ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي من
 إخوانك يسلمون عليك.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ﴾ ﴿٩٤﴾.
 ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ يعني أصحاب الشمال، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها وإشعاراً
 بما أوجب لهم ما أوعدهم به.

﴿فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ﴾ وذلك ما يجد في القبر من سموم النار ودخانها.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٩٦﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي الذي ذكر في السورة أو في شأن الفرق. ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فنزله بذكر اسمه تعالى عما لا يليق بعظمة شأنه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً».

(٥٧) سورة الحديد

مَدَنِيَّةٌ وَقِيلَ مَكِّيَّةٌ وَأَيُّهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ .

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكرها هنا وفي «الحشر» و «الصف» بلفظ الماضي، وفي «الجمعة» و «التغابن» بلفظ المضارع إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته، لأنه دلالة جبليّة لا تختلف باختلاف الحالات، ومجيء المصدر مطلقاً في «بني إسرائيل» أبلغ من حيث إنه يشعر بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال، وإنما عدي باللام وهو متعد بنفسه مثل نصحت له في نصحته أشعاراً بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حال يشعر بما هو المبدأ للتسبيح.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنه الموجد لهما والمتصرف فيهما. ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ استئناف أو خبر لمحذوف أو حال من المجرور في له ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتة وغيرهما. ﴿قَدِيرٌ﴾ تام القدرة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ .

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات من حيث إنه موجد لها ومحدثها. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها، أو ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي تبتدأ منه الأسباب وتنتهي إليه المسببات، أو ﴿الأول﴾ خارجاً و ﴿الآخر﴾ ذهنياً. ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجوده لكثرة دلائله والباطن حقيقة ذاته فلا تكتنفها العقول، أو الغالب على كل شيء والعالم بباطنه والواو الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين، والمتوسطة للجمع بين المجموعين. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عنده الظاهر والخفي.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ كالبدور. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع. ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالأمطار. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ لا ينفك علمه وقدرته عنكم بحال. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، ولعل تقديم الخلق على العلم لأنه دليل عليه.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٥) يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ .

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذكره مع الإعادة كما ذكره مع كالإبداء لأنه كالمقدمة لهما. ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بمكنوناتها.

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلكم الله خلفاء في التصرف فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عن قبلكم في تملكها والتصرف فيها، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعد فيه مبالغات جعل الجملة اسمية وإعادة ذكر الإيمان والإنفاق وبناء الحكم على الضمير وتنكير الأجر ووصفه بالكبر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي وما تصنعون غير مؤمنين به كقولك: مالك قائماً. ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ حال من ضمير تؤمنون، والمعنى أي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان قبل، وذلك بنصب الأدلة والتحكيم من النظر، والواو للحال من مفعول «يدعوكم»، وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول ورفع «ميثاقكم». ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ لموجب ما فإن هذا موجب لا مزيد عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي الله أو العبد. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث نبهكم بالرسول والآيات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الحجج العقلية.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ أي شيء لكم في «الأنفاق». ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يكون قربة إليه. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شيء فيهما فلا يبقى لأحد مال، وإذا كان كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى وهو الثواب كان أولى. ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً﴾ بيان لتفاوت المنفقين باختلاف أحوالهم من سبق وقوة اليقين، وتحري الحاجات حثاً على تحري الأفضل منها بعد الحث على الإنفاق، وذكر القتال للاستطراد وقسيم من أنفق محذوف لوضوحه ودلالة ما بعده عليه، و«الفتح» فتح مكة إذ عز الإسلام به وكثر أهله وقلت الحاجة إلى المقاتلة والإنفاق. ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أي من بعد الفتح. ﴿وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي وعد الله كلاً من المنفقين المثوبة الحسنى وهي الجنة. وقرأ ابن عامر «وَكُلُّ» بالرفع على الابتداء أي وكل وعده الله ليطلق ما عطف عليه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بظاهره وبباطنه فيجازيكم على حسبه، والآية نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه فإنه أول من آمن وأنفق في سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضرب ضرباً أشرف به على الهلاك.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى

تُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيُؤَيِّنُهِمْ لَبِئْسَ الْيَوْمَ جَزَاءُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ .

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ أي من الذي ينفق ماله في سبيله رجاء أن يعوضه، فإنه كمن يقرضه وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له. ﴿فِيضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي يعطي أجره أضعافاً. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر المضموم إليه الأضعاف كريم في نفسه ينبغي أن يتوخى وإن لم يضاعف، فكيف وقد يضاعف أضعافاً. وقرأ عاصم ﴿فيضاعفه﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى فكانه قال: أيقرض الله أحد فيضاعفه له. وقرأ ابن كثير «فيضعفه» مرفوعاً وقرأ ابن عامر ويعقوب «فيضعفه» منصوباً.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرف لقوله ﴿وله﴾ أو ﴿فيضاعفه﴾ أو مقدر بذكر ﴿يَسْمَى تُورُهُمْ﴾ ما يوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين. ﴿بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ أي يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة ﴿بشراكم﴾ أي المبشر به جنات، أو ﴿بشراكم﴾ دخول جنات. ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من النور والبشرى بالجنات المخلدة.

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِس مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْخُذْ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدل من ﴿يوم ترى﴾. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا فإنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنور بين أيديهم. وقرأ حمزة «انظرونا» على أن اتأدهم ليلحقوا بهم إمهال لهم. ﴿نَقْتَسِ مِنْ تُورِكُمْ﴾ نصب منه. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة، فإنه يتولد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمة يقتبس، أو إلى حيث شئت فاطلبوا نوراً آخر فإنه لا سبيل لكم إلى هذا، وهو تهكم بهم وتخيب من المؤمنين أو الملائكة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين والمنافقين. ﴿بِسُورٍ﴾ بحائط. ﴿لَهُ بَابٌ﴾ يدخل منه المؤمنون. ﴿بِاطْنِ السُّورِ﴾ بطن السور أو الباب. ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنة. ﴿وَظَاهِرٌ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته لأنه يلي النار.

﴿يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبَسْتُمْ وِعَرَّيْتُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسِّرُ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ يريدون موافقتهم في الظاهر. ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بالنفاق. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر. ﴿وَارْتَبَسْتُمْ﴾ وشككتهم في الدين. ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ كامتداد العمر. ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت. ﴿وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورَ﴾ الشيطان أو الدنيا. ﴿قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداء وقرأ ابن عامر ويعقوب بالناء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هي أولى بكم كقول لبيد:

فَقَدْتُ كَيْلَا الْفَرَجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلَفَهَا وَأَمَامَهَا

وحقيقته محرركم أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم كقولك: هو مثنة الكرم أي مكان قول القائل

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل، بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جداً إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، ولهم يلهون به أنفسهم عما يهتمهم وزينة كالملاابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعدد والعدد، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ وهو تمثيل لها في سرعة تفضيها وقلة جدواها بحال نبات أنبته الغيث فاستوى وأعجب به الحزاث، أو الكافرون بالله لأنهم أشدء إعجاباً بزينة الدنيا ولأن المؤمن إذا رأى معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها، والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً، ثم هاج أي ييس بعاهة فاصفر ثم صار حطاماً، ثم عظم أمور الآخرة الأبدية بقوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ تنفيراً عن الانهماك في الدنيا وحثاً على ما يوجب كرامة العقبي، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب إلا الآخرة. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي لمن أقبل عليها ولم يطلب بها الآخرة.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

﴿سَابِقُوا﴾ سارعوا مسارعة المسابقين في المضمار. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجباتها. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي عرضها كعرضهما وإذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول، وقيل المراد به البسطة كقوله: ﴿فَذُو دَعَاءٍ عَرِضٌ﴾ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ ذلك الموعود يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ منه التفضل بذلك وإن عظم قدره.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب وعاهة. ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة. ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ إلا مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله تعالى. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نخلقها والضمير للـ ﴿مُصِيبَةٍ﴾ أو ﴿الْأَرْضِ﴾ أو للأنفس. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباته في كتاب. ﴿عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة. ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ أي أثبت وكتب كي لا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدر هان عليه الأمر، وقرأ أبو عمرو ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ من الإتيان ليعادل ما فاتكم، وعلى الأول فيه إشعار بأن فواتها يلحقها إذا خليت وطباعها، وأما حصولها وإبقاؤها فلا بد لهما من سبب يوجدها ويبقيها، والمراد به نفي الآسي المانع عن التسليم لأمر الله والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قل من يثبت نفسه في حالي الضراء والسراء.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢٤).

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بدل من كل مختال فإن المختال بالمال يضمن به غالباً أو مبتدأ خبره محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ لأن معناه ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غني عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعمه، وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وقرأ نافع وابن عامر ﴿فإن الله الغني﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكة إلى الأنبياء أو الأنبياء إلى الأمم. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج والمعجزات. ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ لبيان الحق ويميز صواب العمل. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ لتسوية الحقوق ويقام به العدل كما قال تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وإنزاله إنزال أسبابه والأمر بأعداده، وقيل أنزل الميزان إلى نوح عليه السلام، ويجوز أن يراد به العدل. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ لتقام به السياسة وتدفع به الأعداء كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإن آلات الحروب متخذة منه. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد آلاتها. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار والعطف على محذوف دل عليه ما قبله فإنه حال يتضمن تعليلاً، أو اللام صلة لمحذوف أي أنزله ليعلم الله. ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من المستكن في ينصره. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾، على إهلاك من أراد إهلاكه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نصره وإنما أمرهم بالجهاد ليتنفعوا به ويستوجبوا ثواب الامتثال فيه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب. وقيل المراد الكتاب الخط. ﴿فَمِنْهُمْ﴾ فمن الذرية أو من المرسل إليهم وقد دل عليهم ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم والعدول عن السنن المقابلة للمبالغة في الذم والدلالة على أن الغلبة للضلال.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام، والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم، أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية، فإن الرسل الملقى بهم من الذرية. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وقرأ بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي. ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وقرأ «رأفة» على فعالة. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، أو رهبانية مبتدعة على أنها من المجموعات وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس، منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشي، وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان. ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فرضناها عليهم. ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها «ابتغاء رضوان الله». وقيل متصل فإن ﴿ما كتبناها عليهم﴾ بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي التنب المقصود منه

مجرد حصول مرضاة الله، وهو يخالف قوله ﴿ابْتَدِعُوهَا﴾ إلا أن يقال ﴿ابْتَدِعُوهَا﴾ ثم ندبوا إليها، أو ﴿ابْتَدِعُوهَا﴾ بمعنى استحدثوها وأتوا بها، أولاً أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم. ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي فما رعوها جميعاً. ﴿حَقَّ رِعَايَتُهَا﴾ بضم التثنية والقول بالاتحاد وقصد السمعة والكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها. ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أتوا بالإيمان الصحيح ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وحافظوا حقوقها. ﴿مِنْهُمْ﴾ من المتسمين باتباعه. ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن حال الاتباع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالرسل المتقدمة. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيين. ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لإيمانكم بمحمد ﷺ وإيمانكم بمن قبله، ولا يبعد أن يثابوا على دينهم السابق وإن كان منسوخاً ببركة الإسلام، وقيل الخطاب للنصارى الذين كانوا في عصره. ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يريد المذكور في قوله: ﴿يَسْمَى نُورَهُمْ﴾ أو الهدى الذي يسلك به إلى جناب القدس. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

﴿لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ أي ليعلموا و «لا» مزيدة ويؤيده أنه قرىء «ليعلم» و «لكي يعلم» و «لأن يعلم» بادغام النون في الباء. ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أن هي المخففة والمعنى: أنه لا يتألون شيئاً مما ذكر من فضله ولا يتمكنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله وهو مشروط بالإيمان به، أو لا يقدرُونَ على شيء من فضله فضلاً عن أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة فيخصوها بمن أرادوا ويؤيده قوله: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وقيل «لا» غير مزيدة، والمعنى لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله ولا يتألونه، فيكون ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ﴾ عطفاً على ﴿لَيْلًا يعلم﴾، وقرىء «ليلا يعلم» ووجهه أن الهمزة حذفت وأدغمت النون في اللام ثم أبدلت ياء. وقرىء «ليلا» على أن الأصل في الحروف المفردة الفتح.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا بالله ورسوله أجمعين».

٥٨ سورة المجادلة

مدنية وقيل العشر الأول مكّي والباقي مدني، وآيها اثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ روي أن خولة بنت ثعلبة ظاهر عنها زوجها أوس بن الصامت، فاستفتت رسول الله ﷺ فقال: «حرمت عليه»، فاشتكت لزوجها وشكت إلى الله تعالى فنزلت هذه الآيات الأربع، وقد تشعر بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلة يتوقع أن الله يسمع مجادلتها وشكواها ويفرج عنها كربها، وأدغم حمزة والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السين. ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تراجعكما الكلام وهو على تغليب الخطاب. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ (٢).

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ الظهار أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي مشتق من الظهر، والحق به الفقهاء تشبيها بجزء أنثى محرم، وفي «منكم» تهجين لعادتهم فيه فإنه كان من إيمان أهل الجاهلية، وأصل «يظاهرون» يظهرون وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «يظاهرون» من أظاھر، وعاصم «يظَاهِرُونَ» من ظاهر. «مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ» أي على الحقيقة. «إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ» فلا تشبه بهن في الحرمة إلا من أحقها الله بهن كالمرضعات وأزواج الرسول، وعن عاصم «أُمَّهَاتُهُمْ» بالرفع على لغة بني تميم، وقرئ بـ «أُمَّهَاتُهُمْ» وهو أيضاً على لغة من ينصب. «وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ» إذ الشرع أنكره. «وَزُورًا» منحرفاً عن الحق فإن الزوجة لا تشبه الأم. «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ» لما سلف منه مطلقاً، أو إذا تيب عنه.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣).

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي إلى قولهم بالتدارك ومنه المثل: عاد الغيث على ما أفسد، وهو بنقض ما يقتضيه وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر عنها في النكاح زماناً يمكنه مفارقتها فيه، إذ التشبيه يتناول حرمة لصحة استثنائها عنه وهو أقل ما ينتقض به. وعند أبي حنيفة باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة. وعند مالك بالعزم على الجماع، وعند الحسن بالجماع. أو بالظهار في الإسلام على أن قوله «يظاهرون» بمعنى يعتادون الظهار إذ كانوا يظاهرون في الجاهلية، وهو قول الثوري أو بتكراره لفظاً وهو قول

الظاهرة، أو معنى بأن يحلف على ما قال وهو قول أبي مسلم أو إلى المقول فيها بإمسакها، أو استباحة استمتاعها أو وطئها. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعلیهم أو فالواجب إعتاق رقبة والفاء للسببية، ومن فوائدها الدلالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار، والرقبة مقيدة بالإيمان عندنا قياساً على كفارة القتل. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ أن يستمتع كل من المظاهر عنها بالآخر لعموم اللفظ ومقتضى التشبيه، أو أن يجامعها وفيه دليل على حرمة ذلك قبل التكفير. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ذلكم الحكم بالكفارة. ﴿تَوْعُظُونَ بِهِ﴾ لأنه يدل على ارتكاب الجناية الموجبة للغرامة ويردع عنه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١).

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي الرقبة والذي غاب ماله واجد. ﴿فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا﴾ فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف وإن أفطر لعذر ففيه خلاف، وإن جامع المظاهر عنها ليلاً لم ينقطع التتابع عندنا خلافاً لأبي حنيفة ومالك رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي الصوم لهرم أو مرض مزمن أو شبق مفروط فإنه ﷺ رخص للأعرابي المفطر أن يعدل لأجله. ﴿فِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ ستين مداً بمد رسول الله ﷺ، وهو رطل وثلاث لأنه أقل ما قيل في الكفارات وجنسه المخرج في الفطرة، وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره، وإنما لم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلال الإطعام كما قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك البيان أو التعليم للأحكام ومحلّه النصب بفعل معلل بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي فرض ذلك لتصدقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفض ما كُتِّمَ عَلَيْهِ في جاهليتكم ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوز تعديها. ﴿وَاللْكَافِرِينَ﴾ أي الذين لا يقبلونها. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو نظير قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٢).
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادونهما فإن كلا من المتعاضدين في حد غير حد الآخر، أو يضعون أو يختارون حدوداً غير حدودهما. ﴿كُنُوا﴾ أخزوا أو أهلكوا وأصل الكبت الكب. ﴿كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفار الأمم الماضية. ﴿وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ﴾ تدل على صدق الرسول وما جاء به. ﴿وَاللْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ يذهب عزهم وتكبرهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوب بـ ﴿مُهِينٌ﴾ أو بإضمار اذكر. ﴿جَمِيعًا﴾ كلهم لا يدع أحداً غير مبعوث أو مجتمعين. ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي على رؤوس الأشهاد تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم. ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً لم يغيب منه شيء. ﴿وَسُوهُ﴾ لكثرت أو تهاونهم به. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حَاسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُسُهُمْ وَلَا آذَنٌ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (٤).
﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ (٥).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة، ويجوز أن يقدر مضاف أو يؤول ﴿نجوى﴾ بمتناجين ويجعل ﴿ثلاثة﴾ صفة لها، واشتقاقها من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض فإن السر أمر مرفوع إلى الذهن لا يتيسر لكل أحد أن يطلع عليه. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا الله يجعلهم أربعة من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع عليها، والاستثناء من أعم الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةَ﴾ ولا نجوى خمسة. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين، أو لأن الله تعالى وتر يحب الوتر، والثلاثة أول الأوتار أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهما، وقرئ ﴿ثلاثة﴾ و ﴿خمس﴾ بالنصب على الحال بإضمار ﴿يتناجون﴾ أو تأويل ﴿نجوى﴾ بمتناجين. ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ ولا أقل مما ذكر كالواحد والاثنين. ﴿وَلَا أَكْثَرَ كَالسَّتَةِ وَمَا فَوْقَهَا﴾. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم. وقرأ يعقوب ولا أكثر بالرفع عطفاً على محل من ﴿نجوى﴾ أو محل لا أدنى بأن جعلت لا لنفي الجنس. ﴿أَيْنَمَا كَانُوا﴾ فإن علمه بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقونه من الجزاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل على السواء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْفُسُ الْمَصِيرُ﴾ (٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يُعَادُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل فعلهم. ﴿وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول، وقرأ حمزة «ويتنجون» وهو يفتعلون من النجوى وروي عن يعقوب مثله. ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ فيقولون السام عليك، أو أنعم صباحاً والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾. ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فيما بينهم. ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلا يعذبنا الله بذلك لو كان محمد نبياً. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً. ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يدخلونها. ﴿فَيَنْفُسُ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَجَوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون وعن يعقوب «فلا تتجوا». ﴿وَتَتَجَوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ بما يتضمن خير المؤمنين والافتاء عن معصية الرسول. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تاتون وتذرون. فإنه مجازيكم عليه.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ فإنه المزين لها والحامل عليها. ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوهمهم أنها في نكبة أصابتهم. ﴿وَلَيْسَ﴾ أي الشيطان أو التناجي. ﴿بِضَارِّهِمْ﴾ بضر المؤمنين. ﴿شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بمشيئته. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا

فَاشْرُؤْا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ﴾ توسعوا فيه وليفسح بعضكم عن بعض من قولهم: افسح عني أي تنح، وقرىء «تفاسحوا» والمراد بالمجلس الجنس ويدل عليه قراءة عاصم بالجمع، أو مجلس رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يتضامون به تنافساً على القرب منه وحرصاً على استماع كلامه. ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصبر وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا﴾ انهضوا للتوسعة أو لما أمرتم به كصلاة أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلس. ﴿فَانشُرُوا﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان في الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به مزيد رفعة، ولذلك يقتدى بالعالم في أفعاله ولا يقتدى بغيره. وفي الحديث «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمن لم يتمثل الأمر أو استكرهه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَيَّعْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٣﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَيَّعْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ فتصدقوا قدامها مستعار ممن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول وإنفاع الفقراء والنهي عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا، واختلف في أنه للندب أو للوجوب لكنه منسوخ بقوله: ﴿أَشْفَقْتُمْ﴾ وهو وإن اتصل به تلاوة لم يتصل به نزولاً. وعن علي كرم الله وجهه إن في كتاب الله آية ما عمل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته فكنت إذا ناجيته تصدقت ب درهم. وهو على القول بالوجوب لا يقدر في غيره فلعلة لم يتفق للأغنياء مناجاة في مدة بقائه، إذ روي أنه لم يبق إلا عشر أو قيل إلا ساعة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التصدق. ﴿خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي لأنفسكم من الريبة وخب المال وهو يشعر بالندبية لكن قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن لم يجده حيث رخص له في المناجاة بلا تصدق أدل على الوجوب.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أخفتم الفقر من تقديم الصدقة أو أخفتم التقديم لما يعدمكم الشيطان عليه من الفقر وجمع ﴿صدقات﴾ لجمع المخاطبين، أو لكثرة التناجي. ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم أن لا تفعلوه، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم مما قام مقام توبتهم وإذ على بابها وقيل بمعنى إذا أو إن. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. فلا تفرطوا في أدائهما. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ والوا. ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود. ﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ وهو ادعاء الإسلام. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن المحلوف عليه كذب كمن يحلف بالغموس، وفي هذا التقييد دليل على أن الكذب يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته وما لا

يعلم. وروي أنه عليه السلام كان في حجرة من حجراته فقال «يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعين شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق وكان أزرق فقال عليه الصلاة والسلام له: علام تشمتني أنت وأصحابك، فحلف بالله ما فعل ثم جاء بأصحابه فحلفوا فنزلت».

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فتمرنوا على سوء العمل وأصروا عليه.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧).

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي التي حلفوا بها، وقرئ بالكسر أي «إيمانهم» الذي أظهره. ﴿جُنَّةً﴾ وقاية دون دمائهم وأموالهم. ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا الناس في خلال أمنهم عن دين الله بالتحريش والتشبيط. ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم. وقيل الأول عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة. ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قد سبق مثله.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨) اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَانَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِدُونَ (١٩).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أي الله تعالى على أنهم مسلمون. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا ويقولون إنهم لمنكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ في حلفهم الكاذب لأن تمكن النفاق في نفوسهم بحيث يخيل إليهم في الآخرة أن الأيمان الكاذبة تروج الكذب على الله كما تروجه عليكم في الدنيا. ﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ البالغون الغاية في الكذب حيث يكذبون مع عالم الغيب والشهادة ويحلفون عليه.

﴿اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ﴾ استولى عليهم من حذت الإبل وأخذتها إذا استوليت عليها، وهو مما جاء على الأصل. ﴿فَانْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ لا يذكرونه بقلوبهم ولا بالسننهم. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ جنوده وأتباعه. ﴿أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِدُونَ﴾ لأنهم فوتوا على أنفسهم النعيم المؤبد وعرضوها للعذاب المخلد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذل خلق الله. ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ في اللوح. ﴿لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي بالحجة، وقرأ نافع وابن عامر «رُسُلِي» بفتح الياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على نصر أنبيائه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلب عليه شيء في مراده.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٢).

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا ينبغي أن تجدهم وادين

أعداء الله، والمراد أنه لا ينبغي أن يوادوهم. ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولو كان المحادون أقرب الناس إليهم. ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الذين لم يوادوهم. ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾ أثبتته فيها، وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان، فإن جزء الثابت في القلب يكون ثابتاً فيه، وأعمال الجوارح لا تثبت فيه. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي من عند الله وهو نور القلب أو القرآن، أو بالنصر على العدو. قيل الضمير لـ ﴿الإيمان﴾ فإنه سبب لحياة القلب. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بقضائه أو بما وعدهم من الثواب. ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ جنده وأنصار دينه. ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدارين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب الله يوم القيامة».

(٥٩) سورة الحشر

مدنية وآيها أربع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ روي «أنه عليه السلام لما قدم المدينة صالح بني النضير على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر يوم بدر قالوا: إنه النبي المنعوت في التوراة بالنصرة، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسول الله ﷺ أخا كعب من الرضاعة فقتله غيلة، ثم صبحهم بالكتائب وحاصروهم حتى صالحوا على الجلاء فجلا أكثرهم إلى الشام ولحقت طائفة بخيبر والحيرة» فأنزل الله تعالى ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (٢)

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي في أول حشرهم من جزيرة العرب إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك، أو في أول حشرهم للقتال أو الجلاء إلى الشام، وآخر حشرهم إجلاء عمر رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبر إليه، أو في أول حشر الناس إلى الشام وآخر حشرهم أنهم يحشرون إليه عند قيام الساعة فيدركهم هناك، أو أن ناراً تخرج من المشرق فتحشرهم إلى المغرب. والحشر إخراج جمع من مكان إلى آخر. ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ لشدة بأسهم ومنعتهم. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وتغيير النظم وتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بحصانها واعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة بسببها، ويجوز أن تكون ﴿حُصُونُهُمْ﴾ فاعلاً لـ ﴿مانعتهم﴾. ﴿فَأَنَّا هُمْ اللَّهُ﴾ أي غدا به وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء، وقيل الضمير لـ ﴿المؤمنين﴾ أي فأناهم نصر الله، وقرئ «فأناهم الله» أي العذاب أو النصر. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لقوة وثوقهم. ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ وأثبت فيها الخوف الذي يربعها أي يملؤها. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنا من آلتها. ﴿وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم أيضاً كانوا يخربون ظواهرها نكايه وتوسيعاً لمجال القتال. وعطفها على «أيديهم» من حيث إن تخريب المؤمنين مسبب عن نقضهم فكانهم استعملوهم فيه، والجملة حال أو تفسير لـ ﴿الرعب﴾. وقرأ أبو عمرو «يخربون» بالتشديد وهو أبلغ لما فيه من التكثير. وقيل الإخراب التعطيل أو ترك الشيء خراباً والتخريب الهدم. ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ فاتعظوا بحالهم فلا تغدروا ولا تعتمدوا على غير الله، واستدل به على أن القياس حجة من حيث إنه أمر بالمجاورة من حال إلى حال وحملها عليها في حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية

له على ما قرناه في الكتب الأصولية.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۚ﴾ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ﴾ (٤).

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الخروج من أوطانهم. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي كما فعل بني قريظة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ استئناف معناه أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر مما حاق بهم وما كانوا بصددده وما هو معد لهم أو إلى الأخير.

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ۚ﴾ (٥).

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ﴾ أي شيء قطعتم من نخلة فعلة من اللون ويجمع على ألوان، وقيل من اللين ومعناها النخلة الكريمة وجمعها أليان. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لما وتأنيته لأنه مفسر باللين. ﴿قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا﴾ وقرئ «أصلها» اكتفاء بالضممة عن الواو أو على أنه كرهن. ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فبإمره. ﴿وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ علة لمحذوف أي وفعلتم أو وأذن لكم في القطع ليخزيهم على فسقهم بما غاظهم منه. روي أنه عليه السلام لما أمر بقطع نخيلهم قالوا: قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها فترلت. واستدل به على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ﴾ (٦).

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وما أعاده عليه بمعنى صيره له أو رده عليه، فإنه كان حقيقاً بأن يكون له لأنه تعالى خلق الناس لعبادته وخلق ما خلق لهم ليتوسلوا به إلى طاعته فهو جدير بأن يكون للمطيعين. ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير أو من الكفرة. ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ فما أجريتم على تحصيله من الوجيف وهو سرعة السير. ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ما يركب من الإبل غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه، وذلك إن كان المراد فيء بني النضير، فلأن قراهم كانت على ميلين من المدينة فمشوا إليها رجالاً غير رسول الله ﷺ فإنه ركب جملأ أو حمارأ، ولم يجر مزيد قتال ولذلك لم يعط الأنصار منه شيئاً إلا ثلاثة كانت بهم حاجة. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ بقذف الرعب في قلوبهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يريد تارة بالوسائل الظاهرة وتارة بغيرها.

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ۚ وَمَا إِلَانَكُمْ الرَّسُولُ فَاخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۚ﴾ (٧).

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ بيان للأول ولذلك لم يعطف عليه. ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ اختلف في قسم الفياء، فقيل يسدس لظاهر الآية ويصرف سهم الله في عمارة الكعبة وسائر المساجد، وقيل يخمس لأن ذكر الله للتعظيم ويصرف الآن سهم الرسول عليه الصلاة

والسلام إلى الإمام على قول وإلى العساكر والشعور على قول وإلى مصالح المسلمين على قول. وقيل يخمس خمسه كالغنيمة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسم الخمس كذلك ويصرف الأخماس الأربعة كما يشاء والآن على الخلاف المذكور. «كَيْلًا يَكُونُ» أي الفيء الذي حقه أن يكون للفقراء. وقرأ هشام في رواية بالتاء. «دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ» الدولة ما يتداوله الأغنياء ويدور بينهم كما كان في الجاهلية، وقرئ «دولة» بمعنى كيلا يكون الفيء ذا تداول بينهم أو أخذه غلبة تكون بينهم، وقرأ هشام «دولة» بالرفع على كان التامة أي كيلا يقع دولة جاهلية. «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ» وما أعطاكم من الفيء أو من الأمر. «فَخُذُوهُ» لأنه حلال لكم، أو فتمسكوا به لأنه واجب الطاعة. «وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ» عن أخذه منه، أو عن إتيانه. «فَانْتَهُوا» عنه. «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في مخالفة رسوله. «إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» لمن خالفه.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بدل من «الذي القريب» و «ما» عطف عليه فإن «الرسول» لا يسمى فقيراً، ومن أعطى أغنياء ذوي القربى خصص الإبدال بما بعده، أو الفيء بفيء بني النضير. «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ» فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم. «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا» حال مقيدة لإخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم. «وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» بأنفسهم وأموالهم. «أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» في إيمانهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠).

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ عطف على المهاجرين، والمراد بهم الأنصار الذين ظهر صدقهم فإنهم لزموا المدينة والإيمان وتمكنوا فيها، وقيل المعنى تبؤوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف من الثاني والمضاف إليه من الأول وعوض عنه اللام، أو تبؤوا الدار وأخلصوا الإيمان كقوله: عَلَفْتُهَا تَبْنَا وَمَاءً بَارِداً. وقيل سمي المدينة بالإيمان لأنها مظهره ومصيره. «مِنْ قَبْلِهِمْ» من قبل هجرة المهاجرين. وقيل تقدير الكلام والذين تبؤوا الدار من قبلهم والإيمان. «يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ» ولا يثقل عليهم. «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ» في أنفسهم. «حَاجَةً» ما تحمل عليه الحاجة كالطلب والحزاة والحسد والغيظ. «مِمَّا أُوتُوا» مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره. «وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ» ويقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم. «وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ» حاجة من خصائص البناء وهي فرجة. «وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ» حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال ويغض الإنفاق. «فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الفاترون بالثناء العاجل والثواب الآجل.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلام، أو التابعون بإحسان وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل: إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. «يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ» أي لإخواننا في الدين. «وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا» حقداً لهم. «رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ» فحقيق بأن تجيب دعائنا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ نَصُرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يريد الذين بينهم وبينهم أخوة الكفر أو الصداقة والموالة. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم. ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالكم أو خذلانكم. ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي من رسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ لنعاوننكم. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك كما قال:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك فإن ابن أبي وأصحابه راسلوا بني النضير بذلك ثم أخلفوهم، وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن. ﴿وَلَئِنْ نَصُرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير. ﴿لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارُ﴾ انهزاماً. ﴿ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾ بعد بل يخذلهم الله ولا ينفعهم نصرة المنافقين، أو نفاقهم إذ ضمير الفعلين يحتمل أن يكون لليهود وأن يكون للمنافقين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُم جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَادٍ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً﴾ أي أشد مرهوبة مصدر للفعل المبني للمفعول. ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ فإنهم كانوا يضمرون مخافتهم من المؤمنين. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ على ما يظهرونه نفاقاً فإن استبطان رهبتكم سبب لإظهار رهبة الله. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته ويعلموا أنه الحقيق بأن يخشى.

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ اليهود والمنافقون. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين. ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق. ﴿أَوْ مِنْ وَادٍ جُدُرٍ﴾ لفرط رهبتهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «جدار» وأمال أبو عمرو فتحة الدال. ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزيز يذل إذا حارب الله ورسوله. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين. ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشتت القلوب يوهن قواهم.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل اليهود كمثال أهل بدر، أو بني قينقاع إن صح أنهم أخرجوا قبل النضير، أو المهلكين من الأمم الماضية. ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب وانتصابه بمثل إذ التقدير كوجود مثل. ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثال الشيطان. ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ أغراه على الكفر إغراء الأمر المأمور. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تبرأ عنه

مخافة أن يشاركه في العذاب ولم ينفعه ذلك كما قال.

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ والمراد من الإنسان الجنس. وقيل أبو جهل قال له إبليس يوم بدر ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارك لكم﴾ الآية. وقيل راهب حملة على الفجور والارتداد وقرىء «عاقبتهما» و«خالدان» على أنه خبر إن و«في النار» لغو.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
 ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة سماه به لدنوه أو لأن الدنيا كيوم والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم وأما تنكير النفس فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدم من للآخرة كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك. ﴿واتقوا الله﴾ تكرير للتأكيد، أو الأول في أداء الواجبات لأنه مقرون بالعمل والثاني في ترك المحارم لاقرانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ نسوا حقه. ﴿فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوها ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلصها، أو أراهم يوم القيامة من الهول ما أنساهم أنفسهم. ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين استكملوا نفوسهم فاستأهلوا للجنة والذين استمهنوها فاستحقوا النار، واحتج به أصحابنا على أن المسلم لا يقتل بالكافر. ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيْعًا مُّصْصَدَعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
 ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّصْصَدَعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تمثيل وتخيل كما مر في قوله: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾ ولذلك عقبه بقوله: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ فإن الإشارة إليه وإلى أمثاله. والمراد توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن لقساوة قلبه وقلة تدبره، والتصدع التشقق. وقرىء «مصدعاً» على الإدغام.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب عن الحس من الجواهر القدسية وأحوالها، وما حضر له من الأجرام وأعراضها، وتقديم «الغيب» لتقدمه في الوجود وتعلق العلم القديم به، أو المعدوم والموجود، أو السر والعلانية. وقيل الدنيا والآخرة. ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
 ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ البالغ في النزاهة عما يوجب نقصاناً. وقرىء بالفتح وهو لغة فيه. ﴿السَّلامُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة، مصدر وصف به للمبالغة. ﴿المؤمن﴾ واهب الأمن،

وقرىء بالفتح بمعنى المؤمن به على حذف الجار. ﴿الْمُهَيِّمِينَ﴾ الرقيب الحافظ لكل شيء مفعِل من الأمن قلبت همزته هاء. ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ الذي جبر خلقه على ما أراد، أو جبر حالهم بمعنى أصلحه. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشركه في شيء من ذلك. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ المقدر للأشياء على مقتضى حكمته. ﴿الْبَارِئُ﴾ الموجد لها بريئاً من التفاوت. ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكييفياتها كما أراد. (ومن أراد الإطناب في شرح هذه الأسماء وأخواتها فعليه بكتابي المسمى بـ «منتهى المنى». ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ لأنها دالة على محاسن المعاني. ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لتنزهه عن النقائص كلها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات بأسرها فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

(٦٠) سورة الممتحنة

مدنية وأبها ثلاث عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في خاطب بن أبي بلتعة، فإنه لما علم أن رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة كتب إليهم أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام فأعلم رسول الله ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب خاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها، فأدركوها ثمة فجحدت فهموا بالرجوع، فسل علي رضي الله تعالى عنه السيف فأخرجته من عقاصها، فاستحضر رسول الله ﷺ خاطباً وقال: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله ما كبرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولكني كنت امرأً ملصقاً في قريش وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً وقد علمت أن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره. ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ تفضون إليهم المودة بالمكاتبة، والباء مزيدة أو أخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة، والجملة حال من فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أو صفة لأولياء جرت على غير من هي له، ولا حاجة فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروط في الاسم دون الفعل. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ حال من فاعل أحد الفعلين. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكة وهو حال من ﴿كفروا﴾ أو استئناف لبيانه. ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن تؤمنوا به وفيه تغليب المخاطب والالتفات من التكلم إلى الغيبة للدلالة على ما يوجب الإيمان. ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم. ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ علة للخروج وعمدة للتعليل وجواب الشرط محذوف دل عليه ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ﴾ بدل من ﴿تلقون﴾ أو استئناف معناه: أي طائل لكم في إسرار المودة أو الإخبار بسبب المودة. ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي منكم. وقيل ﴿أعلم﴾ مضارع والباء مزيدة و «ما» موصولة أو مصدرية. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي من يفعل الاتخاذ. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأه.

﴿إِنْ يَشْفِقُوا عَلَيْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنْ يَشْفِقُوا عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ولا ينفعكم إلقاء المودة إليهم. ﴿وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُم بِالسُّوءِ﴾ ما يسوؤكم كالقتل والشتيم. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنوا ارتدادكم، ومجيء ﴿ودوا﴾ وحده بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ﴿ودوا﴾ قبل كل شيء، وأن ودادتهم حاصلة وإن لم يشفقوكم.

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قربانكم. ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُفْصَلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفرق بينكم بما عراكم من الهول فيفر بعضكم من بعض فما لكم ترفضون اليوم حق الله لمن يفر منكم غداً، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الصاد والتشديد وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر ﴿يفصل﴾ على البناء للمفعول وهو ﴿بينكم﴾، وقرأ عاصم ﴿يفصل﴾. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة. اسم لما يؤتسى به. ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ صفة ثانية أو خبر كان و ﴿لكم﴾ لغو أو حال من المستكن في ﴿حسنة﴾ أو صلة لها لا لـ ﴿أسوة﴾ لأنها وصفت. ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ ظرف لخبر كان. ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ﴾ جميع بريء كظريف وظرفاء. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم أو بمعبودكم، أو بكم وبه فلا نعتد بشأنكم وألهتكم. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ فتقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُشْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء من قوله ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فإن استغفاره لأبيه الكافر ليس مما ينبغي أن يأتسوا به، فإنه كان قبل النهي أو لموعدة وعدها إياه. ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من تمام قوله المستثنى ولا يلزم من استثناء المجموع استثناء جميع أجزائه. ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ متصل بما قبل الاستثناء أو أمر من الله للمؤمنين بأن يقولوه تميمًا لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفار.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا تحمله. ﴿وَآغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يجير المتوكل ويعجب الداعي.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير لمزيد الحث على التآسي بإبراهيم ولذلك صدر بالقسم وأبدل قوله: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ من ﴿لكم﴾ فإنه يدل على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التآسي بهم، وأن تركه مؤذن بسوء العقيدة ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه جدير بأن يوعده به الكفرة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ لما نزل ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ عادى المؤمنون أقاربهم المشركين وتبرؤوا عنهم، فوعدهم الله بذلك وأنجز إذ أسلم أكثرهم وصاروا لهم أولياء. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من قبل ولما بقي في قلوبكم من ميل الرحم.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرّة

هؤلاء لأن قوله: ﴿أَنْ تَبْرُوهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿وَتَقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتفضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿إِنْ﴾ الله يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ العادلين، روي أن قتيلة بنت عبد العزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول فنزلت.

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين. ﴿أَنْ تَتَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ بدل الاشتمال. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْكِحُ الَّذِينَ ظَنَافِرٌ هُنَّ أُولَىٰ لَكُمْ مِمَّا فَرَغْتُمْ وَلَٰكِن مَّنْ جَاءَكُم مِّنْهُنَّ فَاحْتَبِرُوهُنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَحِلُّ لَهُنَّ وَلَا تَحِلُّ لَهُنَّ وَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهن الكفرة لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتكرير للمطابقة والمبالغة، أو الأولى لحصول الفرقة والثانية للمنع عن الاستئناف. ﴿وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا﴾ ما دفعوا إليهن من المهور، وذلك لأن صلح الحديبية جرى: على أن من جاءنا منكم رددناه. فلما تعذر عليه ردهن لورود النهي عنه لزمه رد مهورهن. إذ روي أنه عليه السلام كان بعد الحديبية إذ جاءته سبيعة بنت الحرث الأسلمية مسلمة فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالباً لها فنزلت. فاستخلفها رسول الله ﷺ فحلقت فأعطى زوجها ما أنفق وتزوجها عمر رضي الله تعالى عنه. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فإن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ شرط إتياء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطى أزواجهن لا يقوم مقام المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد وسبب جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن النكاح المشركات، وقرأ البصريان ﴿وَلَا تُمْسِكُوا﴾ بالتشديد. ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار. ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهور أزواجهن المهاجرات. ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني جميع ما ذكر في الآية. ﴿يَنْكِحُ الَّذِينَ ظَنَافِرٌ﴾ استئناف أو حال من الحكم على حذف الضمير، أو جعل الحكم حاكماً على المبالغة. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع ما تقتضيه حكمته.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكَحُوا الَّذِيكُ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ وإن سبقكم وانفلت منكم. ﴿شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أحد من أزواجكم، وقد قرئ به وإيقاع ﴿شَيْءٍ﴾ موقعه للتحقير والمبالغة في التعميم، أو ﴿شَيْءٍ﴾ من مهورهن. ﴿إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ﴾ فجاءت عقببتكم أي نوبتكم من أداء المهر، شبه الحكم بأداء مهور نساء أولئك تارة وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهر المهاجرة ولا تؤتوه زوجها الكافر. روي أنه لما نزلت الآية المتقدمة أبى المشركون أن يؤدوا مهر الكوافر فنزلت. وقيل معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى وهي الغنيمة ﴿فَآتُوا﴾ بدل الفائت من الغنيمة. ﴿وَاتَّقُوا﴾

الله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِهِ يَقْتَضِي التَّقْوَى مِنْهُ .

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعُهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ نزلت يوم الفتح فإنه عليه السلام لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء . ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريد وأد البنات . ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في حسنة تأمرهن بها، والتقيد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به تنبيهه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق . ﴿قَبَائِعُهُنَّ﴾ إذا بايعنك بضمنان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء . ﴿وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامة الكفار أو اليهود . إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم . ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكفرهم بها أو لعلمهم بأنهم لاحظ لهم فيها لغنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيد بالآيات . ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يبعثوا أو يثابوا أو ينالهم خير منهم، وعلى الأول وضع الظاهر فيه موضع المضمرة للدلالة على أن الكفر آيسهم .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاء يوم القيامة» .

سورة الزمزم

مكية، وقيل مكية وآية أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فولوا يوم أحد فنزلت. و ﴿لم﴾ مركبة من لام الجر وما الاستفهامية والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر لكثرة استعمالهم معاً واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقمت أشد البغض ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقمت خالص ﴿كبر﴾ عند من يحقر دونه كل عظيم، مبالغة في المنع عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنَيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ مصطفين مصدر وصف به. ﴿كَأَنَّهُمْ بُنَيَانٌ مَرْصُورٌ﴾ في تراصهم من غير فرجة، حال من المستكن في الحال الأولى. والرص اتصال بعض البناء ببعض واستحكامه. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ مقدر باذكر أو كان كذا. ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ﴾ بالعصيان والرمي بالأدرة. ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جنتكم من المعجزات، والجملة حال مقررة للإنكار فإن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذائه، ﴿وقد﴾ لتحقيق العلم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عن الحق. ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٦)

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولعله لم يقل ﴿يا قوم﴾ كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم. ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا﴾ في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري ﴿برسول يأتي من بعدي﴾. والعامل في الحاليين ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجار لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل. ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام،

والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه، فذكر أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين. «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» الإشارة إلى ما جاء به أو إليه، وتسميته سحر للمبالغة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي «هذا ساحر» على أن الإشارة إلى عيسى عليه السلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الإسلام الظاهر حقيقته المقتضى له خير الدارين فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً فإنه يعلم إثبات المنفي ونفي الثابت وقرىء «يدعى» يقال دعاه وادعاه كلمسه والتمسه. «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ أي يريدون أن يطفئوا، واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زيدت لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبا لك، أو «يريدون» الافتراء «ليطفئوا». «نور الله» يعني دينه أو كتابه أو حجته. «بأفواههم» بطعنهم فيه. «وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ» مبلغ غايته بنشره وإعلانه، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص بالإضافة. «وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» إرغاماً لهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ بالقرآن أو المعجزة. «وَدِينِ الْحَقِّ» والملة الحنيفة. «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» ليغلبه على جميع الأديان. «وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» لما فيه من محض التوحيد وإبطال الشرك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ١٠ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن عامر «تُنْجِيكُمْ» بالتشديد. «تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» استئناف مبين للتجارة وهو الجمع بين الإيمان والجهاد المؤدي إلى كمال عزهم، والبراد به الأمر وإنما جيء بلفظ الخبر إيداناً بأن ذلك مما لا يترك... «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ» يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد. «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهل لا يعتد بفعله.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفُّ عَنْكُمْ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ١٢ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ١٣﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخير، أو لشروط أو استفهام دل عليه الكلام تقديره إن تؤمنوا وتجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلكم يغفر لكم، ويبعد جعله جواباً لهل أدلكم لأن مجرد دلالة لا توجب المغفرة «وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَذْنِ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ» الإشارة إلى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة، وفي «تُحِبُّونَهَا» تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل، وقيل «أُخْرَى» منصوبة بإضمار يعطيكم، أو تحبون أو مبتدأ خبره: «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ» وهو على الأول بدل أو بيان وعلى قول النصب خبر محذوف، وقد قرىء بما عطف

عليه بالنصب على البدل، أو الاختصاص أو المصدر. ﴿وَفَتَحْ قَرِيبٌ﴾ عاجل. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على محذوف مثل: قل يا أيها الذين آمنوا ﴿وبشروا﴾، أو على ﴿تؤمنون﴾ فإنه في معنى الأمر كأنه قال: آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون وبشروهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما أجلاً وعاجلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ وقرأ الحجازيان وأبو عمرو بالتنوين واللام لأن المعنى كونوا بعض أنصار الله. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصرته الله ليطابق قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ والإضافة الأولى إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينهما من الاختصاص، والثانية إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى إذ المراد قل لهم كما قال عيسى ابن مريم، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى ﴿من أنصاري إلى الله﴾. والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً من الحور وهو البياض. ﴿فَأَمَنَّا طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أي بعيسى. ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ بالحجة وبالحرث وذلك بعد رفع عيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فصاروا غاليين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الصف كان عيسى مصلياً عليه مستغفراً له ما دام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه».

(٦٢) سورة الجمعة

مدنية وأیها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② .
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وقد قرئ الصفتان الأربع بالرفع على المدح.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي في العرب لأن أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون. ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جملتهم أمياً مثلهم. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ مع كونه أمياً مثلهم لم يعهد منه قراءة ولا تعلم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائث العقائد والأعمال. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآن والشريعة، أو معالم الدين من المنقول والمعقول، ولو لم يكن له سواه معجزة لكفاه. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ من الشرك وخبث الجاهلية، وهو بيان لشدة احتياجهم إلى نبي يرشدهم، وإزاحة لما يتوهم أن الرسول تعلم ذلك من معلم، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة واللام تدل عليها.

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ .

﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ﴾ عطف على ﴿الأميين﴾، أو المنسوب في ﴿يعلمهم﴾ وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم الدين، فإن دعوته وتعليمه يعم الجميع. ﴿لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في تمكنه من هذا الأمر الخارق للعادة. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في اختياره وتعليمه.
﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ ذلك الفضل الذي امتاز به عن أقرانه فضله. ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تفضلاً وعطية. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقر دونه نعيم الدنيا، أو نعيم الآخرة أو نعيمهما.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ⑤ .

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ﴾ علموها وكلفوا العمل بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بها فيها. ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ كتباً من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها، ويحمل حال العامل فيه معنى المثل أو صفة إذ ليس المراد من ﴿الحمار﴾ معيناً. ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي مثل الذين كذبوا وهم اليهود المكذبون بآيات الله الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون الذين صفة للقوم والمخصوص بالذم محذوفاً. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ تهودوا. ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه. ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة. ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ بسبب ما قدموا من الكفر والمعاصي. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم فتؤخذوا بأعمالكم. ﴿فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكأن فرارهم يسرع لحوقه بهم. وقد قرئ بغير فاء ويجوز أن يكون الموصول خبراً والفاء عاطفة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن يجازيكم عليه.

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أي إذا أذن لها. ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيان لـ ﴿إِذَا﴾ وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، وكانت العرب تسميه العروبة. وقيل سماه كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه، وأول جمعة جمعها رسول الله ﷺ أنه لما قدم المدينة نزل قباء فأقام بها إلى الجمعة، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة في واد لبني سالم بن عوف. ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فامضوا إليه مسرعين قصداً فإن السعي دون العدو، والـ ﴿ذَكَرَ﴾ الخطبة، وقيل الصلاة والأمر بالسعي إليها يدل على وجوبها. ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملة. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي السعي إلى ذكر الله. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملة فإن نفع الآخرة خير وأبقى. ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر الحقيقين، أو إن كنتم من أهل العلم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ أدبت وفرغ منها. ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ إطلاق لما حظر عليهم، واحتج به من جعل الأمر بعد الحظر للإباحة. وفي الحديث «ابتغوا من فضل الله ليس بطلب الدنيا وإنما هو عيادة مريض وحضور جنازة وزيادة أخ في الله». ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامع أحوالكم ولا تخصوا ذكره بالصلاة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بخير الدارين.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب للجمعة فمرت عليه غير تحمل الطعام، فخرج الناس إليهم إلا اثني عشر رجلاً فتزلت. وإفراد التجارة برد الكناية لأنها المقصودة، فإن المراد من اللهو الطبل الذي كانوا يستقبلون به العير، والترديد للدلالة على أن منهم من انفض لمجرد سماع الطبل ورؤيته، أو للدلالة على أن الإنفضاخ إلى التجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها إذا كان مذموماً

كان الانفضاض إلى الله أولى بذلك . وقيل تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه : **﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾** أي على المنبر . **﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** من الثواب . **﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التَّجَارَةِ﴾** فإن ذلك محقق مخلد بخلاف ما تتوهمون من نفعهما **﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه .
 عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الجمعة أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أتى الجمعة ومن لم يأتها في أمصار المسلمين» .

سورة المنافقين (٦٣)

مكية وآية إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ الشهادة إخبار عن علم من الشهود وهو الحضور والاطلاع، ولذلك صدق المشهور به وكذبهم في الشهادة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ حلفهم الكاذب أو شهادتهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلف في التوكيد، وقرء «إيمانهم» «جُنَّةً» وقاية من القتل والسبي. ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدأ أو صدوداً. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقهم وصددهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الكلام المتقدم أي ذلك القول الشاهد على سوء أعمالهم، أو إلى الحال المذكورة من النفاق والكذب والاستعجان بالإيمان. ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بسبب أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ سرّاً، أو ﴿آمَنُوا﴾ إذا رأوا آية ﴿ثم كفروا﴾ حيثما سمعوا من شياطينهم شبهة. ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرنوا على الكفر فاستحكموا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقية الإيمان ولا يعرفون صحته.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنُلَاقُهُمُ اللَّهُ أَكْثَرُ يُؤَفِّكُونُ ﴿٤﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها وصباحتها. ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذلاقتهم وحلاوة كلامهم، وكان ابن أبي جسيماً فصيحاً يحضر مجلس رسول الله ﷺ في جمع مثله، فيعجب بهيكلهم ويصغي إلى كلامهم. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿قَوْلِهِمْ﴾ أي تسمع لما يقولونه مشبهين بأخشاب منصوبة مسندة إلى الحائط في كونهم أشباحاً خالية عن العلم والنظر، وقيل الـ ﴿خُشُبُ﴾ جمع خشب وهي الخشبة التي تُخَرَّ جَوْفُهَا، شبهوا بها في حسن المنظر وقبح المخبر، وقرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل عن ابن كثير بسكون الشين على التخفيف، أو على أنه كبدين في جمع بدنة ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعة عليهم لجبنهم واتهامهم، و ﴿عليهم﴾ ثاني مفعولي ﴿يَحْسَبُونَ﴾، ويجوز أن يكون صلته والمفعول: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ وعلى هذا يكون الضمير للكل وجمعه بالنظر إلى الخبر لكن ترتب قوله: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عليه يدل على أن الضمير للمنافقين. ﴿فَنُلَاقُهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم وهو طلب من ذاته أن يلعنهم، أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. ﴿أَنَّى يُؤَفَّفُكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾
 سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك، وقرأ نافع بتخفيف الواو. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون عن الاستغفار. ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار.
 ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرسوخهم في الكفر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن مظنة الاستصلاح لانهماكهم في الكفر والنفاق.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٦﴾ يَقُولُونَ لِيَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ۚ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ ۖ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي للانصار. ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يعنون فقراء المهاجرين. ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيده الأرزاق والقسم. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله.

﴿يَقُولُونَ لِيَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ روي أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماء، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة، فشكى إلى ابن أبي فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة فليخرجنا الأعز منها الأذل، عني بالأعز نفسه وبالأذل رسول الله ﷺ. وقرئ «ليخرجن» بفتح الياء و«ليخرجن» على بناء المفعول و«لنخرجن» بالنون، ونصب «الأعز» و«الأذل» على هذه القراءات مصدر أو حال على تقدير مضاف كخروج أو إخراج أو مثل. ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين. ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا يشغلكم تدبيرها والاهتمام بها عن ذكره كالصلوات وسائر العبادات المذكورة للمعبود، والمراد نهيمهم عن اللهو بها. وتوجيه النهي إليها للمبالغة ولذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي اللهو بها وهو الشغل. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ بعض أموالكم إدخاراً للآخرة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي يرى دلالة ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ هلا أمهلتنني. ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمد غير بعيد. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فاتصدق. ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بالتدارك، وجزم «أكن» للعطف على موضع الفاء وما بعده، وقرأ أبو عمرو «وأكون» منصوباً عطفاً على «فأصدق»، وقرئ بالرفع على وأنا أكون فيكون عدة بالصلاح.

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلها. ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ آخر عمرها. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجاز عليه، وقرأ أبو بكر بالياء ليوافق ما قبله في الغيبة.
 عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المنافقين برىء من النفاق».

سورة التغابن (٦٤)

مختلف فيها وأيّها ثمانى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفْسَكُمْ كَافِرٌ وَنُفْسُكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بدالاتها على كماله واستغنائه. ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ قدم الطرفين للدلالة على اختصاص الأمرين به من حيث الحقيقة. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكل على سواء ثم شرع فيما ادعاه فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفْسُكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدر كفره. موجه إليه ما يحمله عليه. ﴿وَنُفْسُكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ مقدر إيمانه موفق لما يدعوه إليه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعاملكم بما يناسب أعمالكم.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فصوركم من جملة ما خلق فيهما بأحسن صورة، حيث زينكم بصفوة أوصاف الكائنات، وخصكم بخلاصة خصائص المبدعات، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات. ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فأحسنوا سرائركم حتى لا يمسح بالعذاب ظواهركم.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلا يخفى عليه ما يصح أن يعلم كلياً كان أو جزئياً، لأن نسبة المقتضى لعلمه إلى الكل واحدة، وتقديم تقرير القدرة على العلم لأن دلالة المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات وعلى علمه بما فيها من الإتيان والاختصاص ببعض الأنحاء.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يا أيها الكفار. ﴿نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم السلام. ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ضرر كفرهم في الدنيا، وأصله الثقل ومنه الويل لطعام يثقل على المعدة، والوبال المطر الثقيل القطار. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الويل والعذاب. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بسبب أن الشأن. ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكروا وتعجبوا من أن يكون الرسل بشراً والبشر يطلق للواحد والجمع. ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالرسول ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن التدبر في البينات. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن كل شيء فضلاً عن طاعتهم. ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ يدل على حمده كل مخلوق.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ الزعم ادعاء العلم ولذلك يتعدى إلى مفعولين وقد قام مقامهما أن بما في حيزه. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ أي بلى تبعثون. ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ قسم أكد به الجواب. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقبول المادة وحصول القدرة التامة. ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني القرآن فإنه بإعجازه ظاهر بنفسه مظهر لغيره مما فيه شرحه وبيانه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فمجاز عليه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ﴾ ظرف ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو مقدر باذكر، وقرأ يعقوب «نجمعكم». ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ لأجل ما فيه من الحساب والجزاء والجمع جمع الملائكة والثقلين. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يغبن فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس، مستعار من تغابن التجار واللام فيه للدلالة على أن التغابن الحقيقي وهو التغابن في أمور الآخرة لعظمها ودوامها. ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أي عملاً صالحاً. ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر بالنون فيها. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى مجموع الأمرين، ولذلك جعله الفوز العظيم لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ كأنها والآية المتقدمة بيان لـ ﴿التغابن﴾ وتفصيل له.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلا بتقديره وإرادته. ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ للثبات والاسترجاع عند حلولها، وقرئ «يهدي قلبه» بالرفع على إقامته مقام الفاعل وبالنصب على طريقة «سفه نفسه»، و«يهدي» بالهمزة أي يسكن. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالها.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي فإن توليتم فلا بأس عليه إذ وظيفته التبليغ وقد بلغ.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن إيمانهم بأن الكل منه يقتضي ذلك.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَرْزَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا أَرْزَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ﴾ يشغلكم عن طاعة الله أو يخاصمكم في أمر

الدين أو الدنيا. ﴿فَاخْذِرُوهُمْ﴾ ولا تأمنوا غوائلهم. ﴿وَإِنْ تَغْفُوا﴾ عن ذنوبهم بترك المعاقبة. ﴿وَتَضْفَحُوا﴾ بالإعراض وترك الشرب عليها. ﴿وَتَغْفِرُوا﴾ بإخفائها وتمهيد معذرتهم فيها. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم ويتفضل عليكم.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار لكم. ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٦) إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ لِلْعَكِيدِ (١٨).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابدلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم. ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ مواعظه. ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أوامره. ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ في وجوه الخير خالصاً لوجهه. ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خير لها، وهو تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً أو خيراً لكان مقدراً جواباً للأوامر. ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيره.

﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ تصرفوا المال فيما أمره. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بإخلاص وطيب قلب. ﴿يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾. يجعل لكم بالواحد عشر إلى سبعمائة وأكثر، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يضاعفه لكم». ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركة الإنفاق. ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بالقليل. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ لا يخفي عليه شيء. ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تام القدرة والعلم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة التغابن دفع عنه موت الفجأة» والله أعلم.

(٦٥) سورة الطلاق

مجنية وآيها اثنتا عشرة أو إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ خص النداء وعم الخطاب بالحكم لأنه أمام أمته فنداؤه كندائهم، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم. والمعنى إذا أردتم تطليقهن على تنزيل المشارف له منزلة الشارع فيه. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي في وقتها وهو الطهر، فإن اللام في الأزمان وما يشبهها للتأقبت، ومن عدة العدة بالحيض علق اللام بمحذوف مثل مستقبلات، وظاهره يدل على أن العدة بالأطهار وأن طلاق المعتدة بالأقراء ينبغي أن يكون في الطهر، وأنه يحرم في الحيض من حيث إن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده ولا يدل على عدم وقوعه، إذ النهي لا يستلزم الفساد، كيف وقد صبح أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما لما طلق امرأته حائضاً أمره النبي ﷺ بالرجعة وهو سبب نزوله. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدة والإضرار بهن. ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكنهن وقت الفراق حتى تنقضي عدتهن. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باستبدادهن أما لو اتفقا على الانتقال جاز إذ الحق لا يعدوهما، وفي الجمع بين النهيين دلالة على استحقاتها السكنى ولزومها ملازمة مسكن الفراق وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ مستثنى من الأول، والمعنى إلا أن تبذوا على الزوج فإنه كالنشوز في إسقاط حقها، أو إلا أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها، أو من الثاني للمبالغة في النهي والدلالة على أن خروجها فاحشة. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى الأحكام المذكورة. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بأن عرضها للعقاب. ﴿لَا تَدْرِي﴾ أي النفس أو أنت أيها النبي أو المطلق. ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرغبة في المطلقة برجعة أو استئناف.

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ﴾ شارفن آخر عدتهن. ﴿فَامْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهن. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسن عشرة وإنفاق مناسب، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحق واتقاء الضرر مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدتها. ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ على الرجعة أو الفرقة تبرياً عن الريبة وقطعاً للتنازع، وهو ندب كقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وعن الشافعي وجوبه في الرجعة. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أيها الشهود عند الحاجة. ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً لوجهه. ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾ يريد الحث على الإشهاد والإقامة، أو على جميع ما في الآية. ﴿مَنْ كَانَ

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَإِنَّهُ الْمُسْتَفْعُ بِهِ وَالْمَقْصُودُ بِذِكْرِهِ. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق بالوعد على الاتقاء عما نهى عنه صريحاً أو ضمناً من الطلاق في الحيض، والإضرار بالمعتدة وإخراجها من المسكن، وتعددي حدود الله وكتمان الشهادة وتوقع جعل على إقامتها بأن يجعل الله له مخرجاً مما في شأن الأزواج من المضايق والغموم، ويرزقه فرجاً وخلفاً من وجه لم يخطر بباله. أو بالوعد لعامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون. أو كلام جيء به للاستطراد عند ذكر المؤمنين. وعنه عليه السلام «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتمهم». ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ فما زال يقرؤها ويعيدها. وروي «أن سالم بن عوف بن مالك الأشجعي أسره العدو، فشكا أبوه إلى رسول الله ﷺ فقال له «اتق الله وأكثر قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. ففعل فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها». وفي رواية «رجع ومعه غنيمات ومتاع». ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ كافيته. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد، وقرأ حفص بالإضافة، وقرأ «بالغ أمره» أي نافذ و «بالغا» على أنه حال والخبر: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ تقديره أو مقدراً، أو أجلاً لا يتأتى تغييره، وهو بيان لوجوب التوكل وتقرير لما تقدم من تأقيت الطلاق بزمان العدة والأمر بإحصائها، وتمهيد لما سيأتي من مقاديرها.

﴿وَاللَّاتِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَاللَّاتِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ لكبرهن. ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ شككتم في عدتهن أي جهلتم. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزل ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ قيل فما عدة اللاتي لم يحضن فنزلت: ﴿وَاللَّاتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾ أي واللاتي لم يحضن بعد كذلك. ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدتهن. ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكم يعم المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، والمحافظة على عمومته أولى من محافظة عموم قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ لأن عموم أولات الأحمال بالذات وعموم أزواجاً بالعرض، والحكم معلل ها هنا بخلافه ثمة، ولأنه صح أن سبعة بنت الحُرث وضعت بعد وفاة زوجها بليال فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «قد حلت فتزوجي»، ولأنه متأخر النزول فتقدمه في العمل تخصيص وتقديم الآخر بناء للعام على الخاص والأول راجح للوافق عليه. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها. ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه للخير.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأحكام. ﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في أحكامه فيراعي حقوقها. ﴿يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ بالمضاعفة.

﴿أَسْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنُوا مِنْكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِنَصِيقُوا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِزْقَهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْعُكُمْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾﴾ لِنُفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ مبتدأ وخبر. ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض، وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر: ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن وينفذ حكمه فيهن. ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ علة لـ ﴿خلق﴾ أو لـ ﴿يتنزل﴾، أو مضمرة يعمهما فإن كلا منهما يدل على كمال قدرته وعلمه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الطلاق مات على سنة رسول الله ﷺ».

(٦٦) سورة التحريم

مكية وآية اثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْصَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في نوبة عائشة رضي الله تعالى عنها أو حفصة، فاطلعت على ذلك حفصة فعاتبته فيه، فحرم مارية فنزلت. وقيل شرب عسلاً عند حفصة، فواطأت عائشة سودة وصفية فقلن له إنا نشتم منك ريح المغافير فحرم العسل فنزلت. ﴿تَبَيَّنَ لَكَ مَرْصَاتُ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسير لـ ﴿تحريم﴾ أو حال من فاعله أو استئناف لبيان الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلة فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله. ﴿رَحِيمٌ﴾ رحمك حيث لم يؤاخذك به وعاتبك محاماة على عصمتك.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرع لكم تحليلها وهو حل ما عقدته بالكفارة، أو الاستثناء فيها بالمشيئة حتى لا تحث من قولهم: حلل في يمينه إذا استثنى فيها، واحتج بها من رأى التحريم مطلقاً أو تحريم المرأة يميناً، وهو ضعيف إذ لا يلزم من وجوب كفارة اليمين فيه كونه يميناً مع احتمال أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمين كما قيل ﴿والله مولاكم﴾ متولي أمركم ﴿وهو العليم﴾ بما يصلحكم ﴿الحكيم﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ نَبْأَهَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني حفصة ﴿حديثاً﴾ تحريم مارية أو العسل أو أن الخلافة بعده لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما ﴿فلما نبأت به﴾ أي فلما أخبرت حفصة عائشة رضي الله تعالى عنهما بالحديث. ﴿وأظهره الله عليه﴾ واطلع النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائه. ﴿عرف بفضه﴾ عرف الرسول ﷺ حفصة بعض ما فعلت. ﴿وأعرض عن بعض﴾ عن إعلام بعض تكراً أو جازاها على بعض بتطبيقه إياها وتجاوز عن بعض، ويؤيده قراءة الكسائي بالتخفيف فإنه لا يحتمل ههنا غيره لكن المشدد من باب إطلاق اسم المسبب على السبب والمخفف بالعكس، ويؤيد الأول قوله: ﴿فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال تبأني العليم الحبير﴾ فإنه أوفق للإعلام.

﴿إِنْ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ﴾ خطاب لحفصة وعائشة على الالتفات للمبالغة في المعاتبة. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من مخالصة رسول الله عليه الصلاة والسلام بحب ما يحبه وكرهه ما يكرهه. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإن تتظاهرا عليه بما يسؤوه، وقرأ الكوفيون بالتخفيف.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَا وَجِبْرِيلَ وَصَالِحِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلن يعدم من يظاھره من الله والملائكة وصلحاء المؤمنين، فإن الله ناصره وجبريل رئيس الكروبيين قرينه، ومن صلح من المؤمنين أتباعه وأعوانه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرون، وتخصيص جبريل لتعظيمه، والمراد بالصالح الجنس ولذلك عمم بالإضافة ويقول بعد ذلك تعظيم لمظاهرة الملائكة من جملة ما ينصره الله تعالى به.

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ سَيِّدَاتٍ سَيِّحَاتٍ نَجَبَاتٍ وَأَنْكَارًا ۝٥﴾

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ﴾ على التغليب، أو تعميم الخطاب، وليس فيه ما يدل على أنه لم يطلق حفصة وأن في النساء خيراً منهن لأن تعليق طلاق الكل لا ينافي تطبيق واحدة والمعلق بما لم يقع لا يجب وقوعه، وقرأ نافع وأبو عمرو ﴿يبدله﴾ بالتخفيف. ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ﴾ مقرات مخلصات أو منقادات مصدقات. ﴿قَنَاطَاتٍ﴾ مصليات أو مواظبات على الطاعات. ﴿تَنَائِبَاتٍ﴾ عن الذنوب. ﴿عَابِدَاتٍ﴾ متعبدات أو متذللات لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائمات سمي الصائم سائحاً لأنه يسبح بالنهار بلا زاد، أو مهاجرات. ﴿نَجَبَاتٍ وَأَنْكَارًا﴾ وسط العاطف بينهما لتنافيهما ولأنهما في حكم صفة واحدة إذ المعنى مشتملات على الشيات والأبكار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجَزَّوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب، وقرئ و «أهلوكم» عطف على واو ﴿قوا﴾، فيكون ﴿أنفسكم﴾ أنفس القبيلين على تغليب المخاطبين. ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ناراً تنقد بهما اتقاد غيرها بالحطب. ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ﴾ تلي أمرها وهم الزبانية. ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظ الأقوال شداد الأفعال، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة. ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضى. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيما يستقبل، أو لا يمتنعون عن قبول الأوامر والتزامها ويؤدون ما يؤمرون به.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجَزَّوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار لأنه لا عذر لهم أو العذر لا يفهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّاسَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ بالغة في النصح وهو صفة التائب فإنه ينصح نفسه بالتوبة، وصفت به على الإسناد المجازي مبالغة أو في النصيحة، وهي الخياطة كأنها تنصح ما خرق الذنب. وقرأ أبو بكر بضم النون وهو مصدر بمعنى النصح كالشكر والشكور، أو النصيحة كالثبات والثبوت تقديره ذات نصوح أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسكم. وسئل علي رضي الله تعالى عنه عن التوبة فقال:

يجمعها ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة، وللغرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على أن لا تعود، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَكْفُرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ذكر بصيغة الأطماع جرياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضل والتوبة غير موجهة وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ ظرف لـ ﴿يدخلكم﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ عطف على النبي عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم، وقيل مبتدأ خبره: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي على الصراط. ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طفىء نور المنافقين. ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا وَافْخِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضلاً.

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جِهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ۝٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة. ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمل الخشونة فيما تجاهدهم به إذا بلغ الفرق مداه. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ جهنم أو مأواهم.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ﴾ مثل الله تعالى حالهم في أنهم يعاقبون بكفرهم ولا يحابون بما بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من النسبة بحالهما. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ يريد به تعظيم نوح ولوط عليهما السلام. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلم يغن النبيان عنهما بحق الزواج شيئاً إغناء ما. ﴿وَقِيلَ﴾ أي لهما عند موتهما أو يوم القيامة. ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوَارِ الْأَثَلِيمِينَ ۝١١﴾ وَزَمَرَ ابْنُ عِمْرَانَ إِلَىٰ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ ۝١٢﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبه حالهم في أن وصلة الكافرين لا تضرهم بحال آسية رضي الله عنها ومنزلتها عند الله مع أنها كانت تحت أعدى أعداء الله. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرف للمثل المحذوف. ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ من نفسه الخبيثة وعمله السيئ. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوَارِ الْأَثَلِيمِينَ﴾ من القبط التابعين له في الظلم.

﴿وَزَمَرَ ابْنُ عِمْرَانَ﴾ عطف على ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ تسلية للأرامل. ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فرجها، وقرئ «فيها» أي في «مریم» أو في الجملة. ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ من روح خلقناه بلا توسط أصل. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ بصحفه المنزلة أو بما أوحى إلى أنبيائه. ﴿وَكُتِبَ﴾ وما كتب في اللوح المحفوظ، أو جنس الكتب المنزلة وتدلل عليه قراءة البصريين وحفص بالجمع، وقرئ «بكلمة الله وكتابه» أي بعيسى عليه السلام والإنجيل. ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ من عداد المواطنين على الطاعة، والنسب ير للتغليب والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال الكاملين حتى عدت من جملتهم، أو من نسلهم فتكون ﴿مِنْ﴾ ابتدائية.

عن النبي ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً».

(٦٧) سورة الملك

مكية، وتسمى الواقية والمنجية لأنها تقي قارئها وتنجيه من عذاب القبر، وأيها ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ بقبضة قدرته التصرف في الأمور كلها. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل ما يشاء قدير.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدرهما أو أوجد الحياة وأزالها حسبما قدره، وقدم الموت لقوله: ﴿وَكُتِمَ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ولأنه أدعى إلى حسن العمل. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف أيها المكلفون. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصوبه وأخلصه، وجاء مرفوعاً: «أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعته»، جملة واقعة موقع المفعول ثانياً لفعل البلوى المتضمن معنى العلم، وليس هذا من باب التعليق لأنه يخل به وقوع الجملة خبراً فلا يعلق الفعل عنها بخلاف ما إذا وقعت موقع المفعولين. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل. ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن تاب منهم.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقة بعضها فوق بعض مصدر طابقت النعل إذا خصفتها طبقاً على طبق وصف به، أو طوبقت طباقاً أو ذات طباق جمع طبق كجبل وجبال، أو طبقة كرحبة ورحاب. ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائي «من تفوت» ومعناها واحد كالتعاهد والتعهد، وهو الاختلاف وعدم التناسب من الفوت كأن كلاً من المتفاوتين فات عنه بعض ما في الآخر، والجملة صفة ثانية لـ ﴿سَبْعَ﴾ وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للتعظيم، والإشعار بأنه تعالى يخلق مثل ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلاً، وأن في إبداعها نعماً جليلة لا تحصى، والخطاب فيها للرسول أو لكل مخاطب وقوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ متعلق به على معنى التسبب أي قد نظرت إليها مراراً فانظر إليها مرة أخرى متأملاً فيها لتعائن ما أخبرت به من تناسبها واستقامتها واستجماعها ما ينبغي لها، والـ ﴿فُطُورٍ﴾ الشقوق والمراد الخلل من فطره إذا شقه.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعتين آخرين في ارتياد الخلل والمراد بالثنية التكرير والتكثير كما في ليك وسعديك، ولذلك أجاب الأمر بقوله: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِسًا﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طرد عنه طرداً بالصغار ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليل من طول المعادة وكثرة المراجعة.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ٥﴾ .

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أقرب السموات إلى الأرض . ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة السرج فيها، والتنكير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها . ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرمج به بانقضاض الشهب المسببة عنها . وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشیاطین الإنس وهم المنجمون . ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعد الإحراق بالشهب في الدنيا .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرهم . ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وقرئ بالنصب على أن للذين عطف على لهم و عذاب على عذاب السعير .

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوت الحمير . ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ٩﴾ .

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تتفرق غيظاً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية . ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعة من الكفرة . ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوفكم هذا العذاب وهو توبيخ وتبكيت .

﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي فكذبنا الرسل وأفترطنا في التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذار، أو منعوت به للمبالغة أو الواحد والخطاب له ولأمثاله على التغليب، أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل، أو على أن المعنى قالت الأفواج قد جاء إلى كل فوج منا رسول من الله فكذبناهم وضللناهم، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول فيكون الضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابه الذي يكونون فيه .

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١﴾ .

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلام الرسل فتقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات . ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فتفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين . ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ في عدادهم ومن جملتهم .

﴿فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ حين لا ينفعهم، والاعتراف إقرار عن معرفة، والذنب لم يجمع لأنه في الأصل مصدر، أو المراد به الكفر . ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فأسحقهم الله سحقاً أبعدهم من رحمته، والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل . وقرأ الكسائي بالثقل .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٧) وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٨﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يخافون عذابه غائباً عنهم لم يعاينوه بعد، أو غائبين عنه أو عن أعين الناس، أو بالمخفي منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تصغر دونه لذائد الدنيا. ﴿وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بالضمائر قبل أن يعبر عنها سراً أو جهراً.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٩) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿٢٠﴾ .

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلم السر والجهر من أوجد الأشياء حسبما قدرته حكمته. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن، أو ألا يعلم الله من خلقه، وهو بهذه المثابة والتقيد بهذه الحال يستدعي أن يكون لـ ﴿يعلم﴾ مفعول ليفيد، روي: أن المشركين كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياء، فيخبر الله بها رسوله فيقولون: أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فبه الله على جهلهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ لينة يسهل لكم السلوك فيها. ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مثل لفرط التذليل فإن منكب البعير ينبو عن أن يطأه الراكب ولا يتذلل له، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يبق شيء لم يتذلل. ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ والتمسوا من نعم الله. ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ المرجع فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (٢١) أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿٢٢﴾ .

﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ يعني الملائكة الموكلين على تدبير هذا العالم، أو الله تعالى على تأويل ﴿من في السماء﴾ أمره أو قضاؤه، أو على زعم العرب فإنهم زعموا أنه تعالى في السماء، وعن ابن كثير «وَأَمِنتُمْ» بقلب الهمزة الأولى واواً لانضمام ما قبلها، «وَأَمِنتُمْ» بقلب الثانية ألفاً، وهو قراءة نافع وأبي عمرو ورويس. ﴿أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ فيغيبكم فيها كما فعل بقارون وهو بدل من بدل الاشتمال. ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ تضطرب، والمور التردد في المجيء والذهاب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أن يمطر عليكم حصباء. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيف إنذاري إذا شاهدتم المنذر به ولكن لا ينفعكم العلم حينئذ.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (٢٣) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتًا وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْنُ إِنَّهُمْ يَكِلُ شَيْئاً بَصِيرُ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزال العذاب، وهو تسلية للرسول ﷺ وتهديد لقومه المشركين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ﴾ باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها، فإنهن إذا بسطنها صفن قوادمها. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن وقتاً بعد وقت للاستظهار به على التحريك، ولذلك عدل به إلى صيغة الفعل للفرقة بين الأصل في الطيران والطارىء عليه. ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ في الجو على خلاف

الطبع. ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الشامل رحمته كل شيء بأن خلقهن على أشكال وخصائص هيأتهن للجري في الهواء. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (٢٠) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ عدل لقوله ﴿أو لم يروا﴾ على معنى أو لم تنظروا في أمثال هذه الصنائع، فلم تعلموا قدرتنا على تعذيبهم بنحو خسف وإرسال حاصب، أم لكم جند ينصركم من دون الله إن أرسل عليكم عذابه فهو كقوله ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ إلا أنه أخرج مخرج الاستفهام عن تعيين من ينصرهم إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم، و ﴿من﴾ مبتدأ و ﴿هذا﴾ خبره و ﴿الذي﴾ بصلته صفة و ﴿ينصركم﴾ وصف لـ ﴿جند﴾ محمول على لفظه. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ لا معتمد لهم. ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ أم من يشار إليه ويقال ﴿هذا الذي يرزقكم﴾. ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ بامسك المطر وسائر الأسباب المخلصة والموصلة له إليكم. ﴿بَلْ لَجُوا﴾ تمادوا. ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ عناد. ﴿وَنُفُورٍ﴾ شراد عن الحق لتنفّر طباعهم عنه.

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٢).

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ﴾ يقال كيبته فأكب وهو من الغرائب كقشع الله السحاب فأقشع، والتحقيق أنهما من باب أنفض بمعنى صار ذا كب وذا قشع، وليسا مطاوعي كب وقشع بل المطاوع لهما انكب وانقشع، ومعنى ﴿مكباً﴾ أنه يعثر كل ساعة ويخر على وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العثار. ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء والجهة، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين، ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقاً، كمشي المتعسف في مكان متعاد غير مستو. وقيل المراد بالمكب الأعمى فإنه يتعسف فينكب وبالسوي البصير، وقيل من ﴿يمشي مكباً﴾ هو الذي يحشر على وجهه إلى النار ومن ﴿يمشي سويًّا﴾ الذي يحشر على قدميه إلى الجنة.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا المواعظ. ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتنظروا صنائعه. ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خلقت لأجلها. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ (٢٧).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي الحشر أو ما وعدوا به من الخسف والحاصب. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنون النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي علم وقته. ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يطلع عليه غيره. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ والإنذار يكفي

فيه العلم بل الظن بوقوع المحذر منه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعد فإنه بمعنى الموعد. ﴿زُلْفَةً﴾ ذا زلفة أي قرب منهم. ﴿سَمِعَتْ وَجْوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن علتها الكآبة وساءتها رؤية العذاب. ﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ تطالبون وتستعجلون تفتعلون من الدعاء، أو ﴿تدعون﴾ أن لا بعث فهو من الدعوى.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٢٩) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ (٣٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ﴾ أماتني. ﴿وَمَنْ مَعِيَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا. ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحد من العذاب متنا أو بقينا، وهو جواب لقولهم ﴿نتربص به رب المنون﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه مولي النعم كلها. ﴿أَمَّا بِهِ﴾ للعلم بذلك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوق عليه والعلم بأن غيره بالذات لا يضر ولا ينفع، وتقديم الصلة للتخصيص والإشعار به. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ منا ومنكم، وقرأ الكسائي بالياء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بحيث لا تناله الدلاء مصدر وصف به. ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جار أو ظاهر سهل المأخذ.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الملك فكأنما أحيأ ليلة القدر».

سورة ن

مكية وآيها ثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

﴿٢﴾ من أسماء الحروف، وقيل اسم الحوت والمراد به الجنس أو البهيموت وهو الذي عليه الأرض، أو الدواة فإن بعض الحيتان يستخرج منه شيء أشد سواداً من النفس يكتب به، ويؤيد الأول سكونه وكتبه بصورة الحرف. ﴿وَالْقَلَمِ﴾ وهو الذي خط اللوح، أو الذي يخط به أقسم به تعالى لكثرة فوائده وأخفى ابن عامر والكسائي ويعقوب النون إجراء للواو المنفصل مجرى المتصل، فإن النون الساكنة تخفى مع حروف الفم إذا اتصلت بها. وقد روي ذلك عن نافع وعاصم، وقرئت بالفتح والكسر كـ ﴿صَرَ﴾. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتبون والضمير لـ ﴿القلم﴾ بالمعنى الأول على التعظيم، أو بالمعنى الثاني على إرادة الجنس وإسناد الفعل إلى الأدلة وإجراؤه مجرى أولي العلم لإقامته مقامهم، أو لأصحابه أو للحفظة و ﴿مَا﴾ مصدرية أو موصولة.

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسم والمعنى ما أنت بمجنون منعماً عليك بالنبوة وحصافة الرأي، والعامل في الحال معنى النفي وقيل ﴿بمجنون﴾ الباء لا تمنع عمله فيما قبله لأنها مزيدة، وفيه نظر من حيث المعنى.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمال والإبلاغ. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسط.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إذ تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك، وسئلت عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلقه ﷺ فقالت: كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ، أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ﴾ ﴿بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ أيكم الذي فتن بالجنون والباء مزيدة، أو بأيكم الجنون على أن المفتون مصدر كالمعقول والمجلود، أو بأي الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أو بفريق الكافرين، أي في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم المجانين على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمال العقل.

﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ نَذَرْنَا فَعِدْنَاهُمْ﴾

﴿فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ تهيج للتصميم على معاصاتهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تَذَهَّنْ﴾ تلاميذهم بأن تدع نهيمهم عن الشرك، أو توافقهم فيه أحياناً. ﴿فَيَذْهَبُونَ﴾ فيلانيونك بترك الطعن والموافقة، والفاء للعطف أي ودوا التذاهن وتمنوه لكنهم أخروا ادهانهم حتى تذهن، أو للسببية أي «ودوا لو تذهن» فهم يذهنون حيثذ، أو ودوا ادهانك فهم الآن يذهنون طمعاً فيه، وفي بعض المصاحف «فيذهنوا» على أنه جواب التمني.

﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مِّمَّيْنٍ﴾ ﴿١١﴾ هَمَّازٌ مَشْلَمٌ بِمِيمٍ ﴿١٢﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتِيماً ﴿١٣﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴿١٤﴾.

﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف في الحق والباطل. ﴿مِّمَّيْنٍ﴾ حقير الرأي من المهانة وهي الحقارة. ﴿هَمَّازٌ﴾ عياب. ﴿مَشْلَمٌ بِمِيمٍ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية. ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿أَتِيماً﴾ كثير الآثام.

﴿عَتَلٌ﴾ جاف غليظ من عتله إذا قاده بعنف وغلظة. ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعدما عد من مثالبه. ﴿زَنِيمٌ﴾ دعي مأخوذ من زنمتي الشاة وهما المتدليتان من أذنهما وحلقهما، قيل هو الوليد بن المغيرة ادعاه أبوه بعد ثمانين عشرة من مولده. وقيل الأخنس بن شريق أصله من ثقيف وعداده في زهرة.

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿١٥﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ سَتِمْهُ عَلَى الْغُرُطِ

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ ﴿١٥﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال ذلك حينئذ لأنه كان متمولاً مستظهِراً بالبنيين من فرط غروره، لكن العامل مدلول قال لانفسه، لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، ويجوز أن يكون علة لـ ﴿لَا تُطْعِ﴾ أي لا تطع من هذه مثاله لأن كان ذا مال. وقرأ ابن عامر وحزمة ويعقوب وأبو بكر «أن كان» على الاستفهام، غير أن ابن عامر جعل الهمزة الثانية بين بين أي «الأن كان ذا مال» كذب، أو أظيعه لأن كان ذا مال. وقرئ «إن كان» بالكسر على أن شرط الغنى في النهي عن الطاعة كالتعليل بالفقر في النهي عن قتل الأولاد، أو «أن» شرطه للمخاطب أي لا تطعه شارطاً يساره لأنه إذا أطاع للغنى فكانه شرطه في الطاعة.

﴿سَتِمْهُ﴾ بالكسبي. ﴿عَلَى الْغُرُطِ﴾ على الأنف وقد أصاب أنف الوليد جراحة يوم بدر فبقي أثره، وقيل هو عبارة عن أن يذله غاية الإذلال كقولهم: جدد أنفه، رغم أنفه، لأن السمة على الوجه سيما على الأنف شين ظاهر، أو نسود وجهه يوم القيامة.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبَةِ إِذْ أَوْسَمُوا لَيْصَرْمَتَهَا مُصْبِحِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ بلونا أهل مكة - شرفها الله تعالى - بالقحط. ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْكَلْبَةِ﴾ يريد البستان الذي كان دون صنعاء بفرسخين، وكان لرجل صالح وكان ينادي الفقراء وقت الصرام ويترك لهم ما أخطأه المنجل وألقته الريح، أو بعد من البساط الذي يسط تحت النخلة فيجتمع لهم شيء كثير، فلما مات قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعله أبونا ضاق علينا الأمر، فحلفوا «لئصرمتها» وقت الصباح خفية عن المساكين كما قال: ﴿إِذْ أَوْسَمُوا لَيْصَرْمَتَهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنها داخلين في الصباح.

﴿وَلَا يَسْتَنْتُونَ﴾ ولا يقولون إن شاء الله، وإنما سماه استثناء لما فيه من الإخراج غير أن المخرج به

خلاف المذكور والمخرج بالاستثناء عنه، أو لأن معنى لا أخرج إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد، أو «ولا يستثنون» حصة المساكين كما كان يخرج أبوهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنة. ﴿طَائِفٌ﴾ بلاء طائف. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ منه. ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ كالبيستان الذي صرم ثماره بحيث لم يبق فيه شيء. فعيل بمعنى مفعول، أو كالليل باحتراقها واسودادها، أو كالنهار بابيضاضها من فرط اليبس سمياً بالصريم لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه أو كالرمل.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ «أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ» أن اخرجوا أو بأن اخرجوا إليه غدوة، وتعدية الفعل بعلی إما لتضمنه معنى الاقبال أو لتشبيه الغدو للصرام بغدو العدو المتضمن لمعنى الاستيلاء. «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» قاطعين له.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ﴾ يتشاورون فيما بينهم وخفي وخفت وخفد بمعنى الكتم، ومنه الخفدود للخفاش.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾ «أَنْ» مفسرة وقرئ بطرحها على إضمار القول، والمراد بنهي المسكين عن الدخول المبالغة في النهي عن تمكينه من الدخول كقولهم: لا أرينك ها هنا.

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرِّ قَادِرٍ﴾ وغدوا قادرين على نكد لا غير، من حاردت السنة إذا لم يكن فيها مطر، وحاردت الإبل إذا منعت درها. والمعنى أنهم عزموا أن يتنكدوا على المساكين فتتكد عليهم بحيث لا يقدرول إلا على النكد، أو غدوا حاصلين على النكد والحرمان مكان كونهم قادرين على الانتفاع. وقيل الحرد بمعنى الحرد وقد قرئ به أي لم يقدرول إلا على حنق بعضهم لبعض كقوله: «يتلاومون» وقيل الحرد القصد والسرعة قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرُدُ خَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغْلَةِ

أي غدوا قاصدين إلى جنتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صرامها وقيل علم للجنة.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أول ما رأوها. ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ طريق جنتنا وما هي بها.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي بعد ما تأملوه وعرفوا أنها هي قالوا «بل نحن» «محرومون» حرماناً خيراً لجنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رايّاً، أو سناً. «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» لولا تذكرونه وتتوبون إليه من خيب نيتكم، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدل على هذا المعنى.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لولا تستثنون فسمي الاستثناء تسييحاً لتشاركهما في التعظيم، أو لأنه تنزيه على أن يجري في ملكه ما لا يريده.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا يَنْتَلِينَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣٦﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً فإن منهم من أشار بذلك ومنهم من استصوبه، ومنهم من سكت راضياً، ومنهم من أنكره.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ﴾ متجاوزين حدود الله تعالى.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. وقد روي أنهم أبدلوا خيراً منها وقرئ ﴿يُبَدِّلُنَا﴾ بالتخفيف. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ راجون العفو طالبون الخير و ﴿إِلَى﴾ لانتهاه الرغبة، أو لتضمنها معنى الرجوع.

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ مثل ذلك العذاب الذي بلونا به أهل مكة وأصحاب الجنة العذاب في الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لاحتروزوا عما يؤذيهم إلى العذاب.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ أَفْتَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدس. ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلا التمتع الخالص.

﴿أَفْتَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ إنكار لقول الكفرة، فإنهم كانوا يقولون: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفات فيه تعجب من حكمهم واستبعاد له، وإشعار بأنه صادر من اختلال فكر واعوجاج رأي.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٤﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٥﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٦﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٧﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٨﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٤٩﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٠﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥١﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٢﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٣﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٥﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٦﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٧﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٥٩﴾﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماء. ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرأون.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تختارونه وتشتهونه، وأصله «أن لكم» بالفتح لأنه المدروس فلما جيء باللام كسرت، ويجوز أن يكون حكاية للمدروس أو استئنافاً وتخيير الشيء واختاره أخذ خيره.

﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَظِيمَةٌ﴾ عهود مؤكدة بالإيمان. ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ متناهية في التوكيد، وقرئت بالنصب على الحال والعامل فيها أحد الطرفين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بالمقدر في ﴿لَكُمْ﴾ أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامة لا نخرج عن عهدها حتى نحكمكم في ذلك اليوم، أو بـ ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ أي إيمان تبلغ ذلك اليوم. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جواب القسم لأن معنى ﴿أَمْ لَكُمْ إيمان علينا﴾ أم أقسمنا لكم.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ بذلك الحكم قائم يدعيه ويصححه.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم إذ لا أقل من التقليد، وقد نبه سبحانه وتعالى في هذه الآيات على نفي جميع ما يمكن أن يتشبثوا به من عقل أو نقل يدل عليه الاستحقاق أو وعد أو محض تقليد، على الترتيب تنبيهاً على مراتب النظر وتزييفاً لما لا سند

له. وقيل المعنى «أم لهم شركاء» يعني الأصنام يجعلونهم مثل المؤمنين في الآخرة كأنه لما نفى أن تكون التسوية من الله تعالى نفى بهذا أن تكون مما يشاركون الله به.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب وكشف الساق مثل في ذلك، وأصله تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب. قال حاتم.

أَخُو الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا
أو يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان، وتذكيره للتحويل أو للتعظيم. وقرئ «تكشف» و«تكشف» بالياء على بناء الفاعل أو المفعول والفعل للساعة أو الحال. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ توبيخاً على تركهم السجود إن كان اليوم يوم القيامة، أو يدعون إلى الصلوات لأوقاتها إن كان وقت النزاع. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهاب وقته أو زوال القدرة عليه.
﴿خَاشِعَةً أَنْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾ تلحقهم ذلة. ﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ في الدنيا أو زمان الصحة. ﴿وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ متمكنون منه مزاحوا للعلل فيه.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ كله إليّ فإني أكفيكم. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ سندنيهم من العذاب درجة درجة بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراج وهو الإنعام عليهم لأنهم حسبه تفضيلاً لهم على المؤمنين.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ لا يدفع بشيء، وإنما سمي إنعامه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشاد. ﴿فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ﴾ من غرامة. ﴿مُثْقَلُونَ﴾ بحملها فيعرضون عنك.
﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ اللوح أو المغيبات. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون به ويستغنون به عن علمك.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُمُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْ رَبَّهُمْ فَعَلَّمُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يونس عليه السلام. ﴿إِذْ نَادَى﴾ في بطن الحوت. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوء غيظاً من الضجرة فتبتلي ببلاته.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُمُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ يعني التوفيق للتوبة وقبولها وحسن تذكير الفعل للفصل، وقرئ «تداركته» و«تداركه» أي تداركه على حكاية الحال الماضية بمعنى لولا أن كان يقال فيه تداركه. ﴿لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ﴾ بالأرض الخالية عن الأشجار. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مليم مطرود عن الرحمة والكرامة. وهو حال يعتمد عليها الجواب لأنها المنفية دون النبذ.

﴿فَاجْتَنِبْ رَبَّهُ﴾ بأن رد الوحي إليه، أو استنبأه إن صح أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعة. ﴿فَعَجَّلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل ما تركه أولى، وفيه دليل على خلق الأفعال

والآية نزلت حين هم رسول الله ﷺ أن يدعو على ثقيف، وقيل بأحد حين حل به ما حل فأراد أن يدعو على المنهزمين.

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ ۖ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ «إن» هي المخففة واللام دليلها والمعنى: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شزراً بحيث يكادون يزلون قدمك، أو يهلكونك من قولهم نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، أي لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعين. إذ روي أنه كان في بني أسد عيانون، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ فنزلت. وفي الحديث «إن العين لتدخل القبر والجمل القدر» ولعله يكون من خصائص بعض النفوس. وقرأ نافع ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ من زلقته فزلق كحزنته فحزن، وقرئ «لَيُزْهِقُونَكَ» أي ليهلكونك. ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي القرآن أي ينبعث عند سماعه بغضهم وحسدهم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيرة في أمره وتنفيراً عنه.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لما جنتوه لأجل القرآن بين أنه ذكر عام لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأميزهم رأياً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسن الله أخلاقهم».

سورة الحاقة

مكية، وآيها اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ١ ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٢ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ٣ .

﴿الحاقة﴾ أي الساعة أو الحالة التي يحق وقوعها، أو التي تحقق فيها الأمور أي تعرف حقيقتها، أو تقع فيها حواق الأمور من الحساب والجزاء على الإسناد المجازي، وهي مبتدا خبرها:

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأصله ما هي أي: أي شيء هي على التعظيم لشأنها والتهويل لها، فوضع الظاهر موضع الضمير لأنه أهول لها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ وأي شيء أعلمك ما هي، أي أنك لا تعلم كنهها فإنها أعظم من أن تبلغها دراية أحد، و ﴿ما﴾ مبتدا و ﴿أدراك﴾ خبره.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ٤ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ ٥ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ٦ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَثَلَ خَاوِيَةٌ﴾ ٧ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ ٨ .

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ بالحالة التي تفرع فيها الناس بالإفزع والأجرام بالانفطار والانتشار، وإنما وضعت موضع ضمير ﴿الحاقة﴾ زيادة في وصف شدتها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعة المجاوزة للحد في الشدة وهي الصبحة، أو الرجفة لتكذيبهم ﴿بالقارعة﴾، أو بسبب طغيانهم بالتكذيب وغيره على أنها مصدر كالعاقبة وهو لا يطابق قوله:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدة الصوت أو البرد من الصر أو الصر. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف كأنها عنت على خزائنها فلم يستطيعوا ضبطها، أو على ﴿عاد﴾ فلم يقدروا على ردها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلطها عليهم بقدرته، وهو استئناف أو صفة جيء به لنفي ما يتوهم من أنها كانت من اتصالات فلكية، إذ لو كانت لكان هو المقدر لها والمسبب. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعات جمع حاسم من حسمت الدابة إذا تابعت بين كيهما، أو نحسات حسمت كل خير واستأصلته، أو قاطعات قطعت دابره، ويجوز أن يكون مصدراً منتصباً على العلة بمعنى قطعاً، أو المصدر لفعله المقدر حالاً أي تحسمهم ﴿حُسُومًا﴾ ويؤيده القراءة بالفتح، وهي كانت أيام العجوز من صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنما سميت عجوزاً لأنها عجز الشتاء، أو لأن عجوزاً من عاد توارت في سرب فانتزعها الريح في الثامن فأهلكتها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضرهم ﴿فِيهَا﴾ في مهابها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرْعَى﴾ موتى جمع صريع. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَارٌ نَثَلَ﴾ أصول نخل. ﴿خَاوِيَةٌ﴾ متأكلة الأجواف.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ من بقية أو نفس باقية، أو بقاء.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْثَىٰ وَرِيعَةً ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ ومن تقدمه، وقرأ البصريان والكسائي ﴿ومن قبله﴾ أي ومن عنده من أتباعه، ويدل عليه أنه قرئ «ومن معه». ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ قرى قوم لوط والمراد أهلها. ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعلة، أو الأفعال ذات الخطأ.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصت كل أمة رسولها. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾ زائدة في الشدة وزيادة أعمالهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ جاوز حده المعتاد، أو طغى على خزانته وذلك في الطوفان وهو يؤيد من قبله. ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ أي آباءكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾ في سفينة نوح عليه الصلاة والسلام.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعل الفعلة وهي إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين. ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبرة ودلالة على قدرة الصانع وحكمته وكمال قهره ورحمته. ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وتحفظها، وعن ابن كثير ﴿تَعِيَهَا﴾ بسكون العين تشبيهاً بكتف، والوعى أن تحفظ الشيء في نفسك والإيعاء أن تحفظه في غيرك. ﴿أُنْثَىٰ وَرِيعَةً﴾ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه والعمل بموجبه، والتذكير للدلالة على قلتها وأن من هذا شأنه مع قلته تسبب لإنجاء الجم الغفير وإدامة نسلهم. وقرأ نافع ﴿أُنْثَىٰ﴾ بالتخفيف.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ لما بالغ في تهويل القيامة وذكر مآل المكذبين بها تفخيماً لشأنها وتنبهاً على مكانها عاد إلى شرحها، وإنما حسن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيده وحسن تذكيره للفصل، وقرئ «نَفْخَةٌ» بالنصب على إسناد الفعل إلى الجار والمجرور والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خراب العالم.

﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ رقت من أماكنها بمجرد القدرة الكاملة، أو بتوسط زلزلة أو ريح عاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ فضربت الجملتان بعضها ببعض ضربة واحدة فيصير الكل هباء، أو فبسطنا بسطة واحدة فصارتا أرضاً لا عوج فيها ولا أمناً لأن الدك سبب للتسوية، ولذلك قيل ناقة دكاء للتي لا سنام لها، وأرض دكاء للمتسعة المستوية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ. ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ قامت القيامة.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمِئِذٍ وَاهِيَةً ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ لتزول الملائكة. ﴿فِي يَوْمِئِذٍ وَاهِيَةً﴾ ضعيفة مسترخية.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ والجنس المتعارف بالملك. ﴿عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ جوانبها جمع رجا بالقصر، ولعله تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان وانصواء أهلها إلى أطرافها وحواليها، وإن كان على ظاهره فعل هلاك الملائكة أثر ذلك. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء، أو فوق الثمانية لأنها في نية التقديم. ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ ثمانية أملاك، لما روي مرفوعاً «أنهم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أمداهم الله

بأربعة آخرين». وقيل ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدتهم إلا الله، ولعله أيضاً تمثيل لعظمته بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العام وعلى هذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرض السلطان العسكر لتعرف أحوالهم، وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لما كان اليوم اسماً لزمان متسع تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار صرح جعله ظرفاً للكل. ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرة على الله تعالى حتى يكون العرض للاطلاع عليها، وإنما المراد منه إفشاء الحال والمبالغة في العدل، أو على الناس كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالياء للفصل.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ تفصيل للعرض. ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجحاً. ﴿هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً﴾ هاء اسم لخذ، وفيه لغات أجودها هاء يا رجل وهاء يا امرأة وهاء يا رجلاً أو امرأتان، وهاء يا رجال وهاء يا نسوة، ومفعوله محذوف و ﴿كِتَابِيَّةً﴾ مفعول ﴿اقْرَؤُوا﴾ لأنه أقرب العاملين، ولأنه لو كان مفعول ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ لقبل اقْرَؤوه إذ الأولى إضماره حيث أمكن، والهاء فيه وفي ﴿حِسَابِيَّةٍ﴾ و ﴿مَالِيَّةٍ﴾ و ﴿سُلْطَانِيَّةٍ﴾ للسكت تثبت في الوقف وتسقط في الوصل واستحب الوقف لثباتها في الإمام ولذلك قرئ بابتائتها في الوصل.

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ أي علمت، ولعله عبر عنه بالظن إشعاراً بأنه لا يقدر في الاعتقاد ما يهجم في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الدَّالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ذات رضا على النسبة بالصيغة. أو جعل الفعل لها مجازاً وذلك لكونها صافية عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكان لأنها في السماء، أو الدرجات أو الأبنية والأشجار. ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قطف وهو ما يجتنى بسرعة والقطف بالفتح المصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناولها القاعد. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القول وجمع الضمير للمعنى. ﴿هَنِيئًا﴾ أكلاً وشراباً ﴿هَنِيئًا﴾ أو هنتم ﴿هَنِيئًا﴾. ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتم من الأعمال الصالحة. ﴿فِي الْأَيَّامِ الدَّالِيَةِ﴾ الماضية من أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأُتُ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾ وَلَرَأُ مَا حِصَابِيَّةٍ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قبح العمل وسوء العاقبة. ﴿يَا لَيْتَنِي لَرَأُتُ كِتَابِيَّةً﴾. ﴿وَلَرَأُ مَا حِصَابِيَّةٍ﴾ ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ يا ليت الموتة التي متها. ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها، أو يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضت علي لأنه صادفها أمر من الموت فتمنأ عندها، أو يا ليت حياة الدنيا كانت الموتة ولم أخلق فيها حياً.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ مالي من المال والتبع وما نفى والمفعول محذوف، أو استفهام إنكار مفعول لأغنى.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ملكي وتسلطي على الناس، أو حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا، وقرأ حمزة «عني مالي عني سلطاني» بحذف الهاءين في الوصل والباقون بإثباتها في الحالين.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ ٣٠ ﴿ثُمَّ لَئِنْ لَجِجِمَ صَلَواتُهُ﴾ ٣١ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ ٣٢ ﴿

﴿خُذُوهُ﴾ يقول الله تعالى لخزنة النار. ﴿فَغُلُّوهُ﴾.

﴿ثُمَّ لَئِنْ لَجِجِمَ صَلَواتُهُ﴾ ثم لا تصلوه إلا الجحيم، وهي النار العظمى لأنه كان يتعظم على الناس.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي طويلة. ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ فأدخلوه فيها بأن تلفوها على جسده وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة، وتقديم الـ «سلسلة» كتقديم «الجحيم» للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به، و «ثم» لتفاوت ما بينها في الشدة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ ٣٣ ﴿وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ٣٤ ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حِمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ ٣٥ ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ ٣٦ ﴿

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة، وذكر «العظيم» للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك.

﴿وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ولا يحث على بذل طعامه أو على إطعامه فضلاً عن أن يبذل من ماله، ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعل. وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع، ولعل تخصيص الأمرين بالذكر لأن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حِمِيمٌ﴾ قريب يحميه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غسالة أهل النار وصديدهم فعلين من الغسل.

﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ أصحاب الخطايا من خطيء الرجل إذا تعمد الذنب لا من الخطأ المضاد للصواب، وقرئ «الخاطيون» بقلب الهمزة ياء و «الخاطون» بظرحها.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٨ ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٣٩ ﴿إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ٤٠ ﴿

﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق بالقسم، أو فـ «أقسم» و «لا» مزيدة أو فلا رد لإنكارهم البعث و «أقسم» مستأنف. «بِمَا تُبْصِرُونَ» و «وَمَا لَا تُبْصِرُونَ» بالمشاهدات والمفريات وذلك يتناول الخالق والمخلوقات بأسرها.

﴿إِنَّهُمْ﴾ إن القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلغه عن الله تعالى فإن الرسول لا يقول عن نفسه. ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمد أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ ٤١ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ ٤٢ ﴿نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٣ ﴿

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارة. ﴿قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ﴾ تصدقون لما ظهر لكم صدقه تصديقاً قليلاً لفرط عنادكم.

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ كما تدعون أخرى. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ تذكرون تذكراً قليلاً، فلذلك يلتبس الأمر

عليكم وذكر الإيمان مع نفي الشاعرية والتذكر مع نفي الكاهنية، لأن عدم مشابهة القرآن للشعر أمر بين لا ينكره إلا معاند بخلاف مباينته للكهانة، فإنها تتوقف على تذكر أحوال الرسول ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكهنة ومعاني أقوالهم. وقرأ ابن كثير ويعقوب بالياء فيهما.

﴿تَنْزِيلٌ﴾ هو تنزيل. ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نزله على لسان جبريل عليه السلام.

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦) ﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ سمي الافتراء نقولاً لأنه قول متكلف والأقوال المفتراة أقاويل تحقيراً لها كأنه جمع أفعولة من القول كالأضاحيك.

﴿لَاخِذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بيمينه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أي نياط قلبه بضرب عنقه، وهو تصوير لإهلاكه بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القتال بيمينه ويكفحه بالسيف ويضرب به جيده، وقيل اليمين بمعنى القوة.

﴿فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتل أو المقتول. ﴿حَاجِزِينَ﴾ دافعين وصف لأحد فإنه عام والخطاب للناس.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنُذَكِّرُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١) ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢).

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإن القرآن. ﴿لَنُذَكِّرُ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم المستفعدون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَسِرَةٌ عَلَى الْكُفْرِينَ﴾ إذا رأوا ثواب المؤمنين به.

﴿وَإِنَّهُمْ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ لليقين الذي لا ريب فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيهاً له عن الرضا بالتقول عليه وشكراً على ما أوحى إليك.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً».

(٧٠) سورة المعارج

مكية وآيها أربع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داع به بمعنى استدعاه ولذلك عدي الفعل بالباء والسائل هو النضر ابن الحرث فإنه قال ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية أو أبو جهل فإنه قال ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ سأله استهزاء أو الرسول عليه الصلاة والسلام استعجل بعذابهم وقرأ نافع وابن عامر ﴿سأل﴾ وهو إما من السؤال على لغة قريش قال:

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

أو من السيلان ويؤيده أنه قرئ «سال سيل» على أن السيل مصدر بمعنى السائل كالغور والمعنى سال واد بعذاب ومضى الفعل لتحقيق وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدر أو في الآخرة وهو عذاب النار.

﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ صفة أخرى لعذاب أو صلة لـ ﴿واقِعٍ﴾ وإن صح أن السؤال كان عمن يقع به العذاب كان جواباً والباء على هذا لتضمن ﴿سأل﴾ معنى اهتم. ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يرده.

﴿مَنْ أَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾

﴿مَنْ أَلَّهِ﴾ من جهته لتعلق إرادته ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعد وهي الدرجات التي يصعد فيها الكلم الطيب والعمل الصالح أو يترقى فيها المؤمنون في سلوكهم أو في دار ثوابهم أو مراتب الملائكة أو في السموات فإن الملائكة يعرجون فيها.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها على التمثيل والتخييل والمعنى أنها بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدنيا وقيل معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة من حيث إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيها لو فرض لا أن ما بين أسفل العالم وأعلى شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة لأن ما بين مركز الأرض ومقر السماء الدنيا على ما قيل مسيرة خمسمائة عام وثخن كل واحدة من السموات السبع والكرسي والعرش كذلك وحيث قال ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ يريد زمان عروجهم من الأرض إلى محذب السماء الدنيا وقيل ﴿في يوم﴾ متعلق بـ ﴿واقِعٍ﴾ أو ﴿سأل﴾ إذا جعل من السيلان والمراد به يوم القيامة واستطالته إما لشدة على الكفار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات أو لأنه على الحقيقة كذلك والروح جبريل عليه السلام وإفراده لفضله أو خلق أعظم من الملائكة.

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَتْهُ قَرِيًّا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ

لِلْجِبَالِ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾

﴿فَاضْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشوبه استعجال واضطراب قلب وهو متعلق بـ ﴿سأل﴾ لأن السؤال كان عن استهزاء أو تعنت وذلك مما يضجره أو عن تضجر واستبطاء للنصر أو بـ ﴿سأل﴾ لأن المعنى قرب وقوع العذاب ﴿فاصبر﴾ فقد شارفت الانتقام.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ الضمير للعذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان.

﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ منه أو من الوقوع.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ظرف لـ ﴿قريباً﴾ أي يمكن ﴿يوم تكون﴾ أو لمضمر دل عليه ﴿واقع﴾ أو بدل من ﴿في يوم﴾ إن علق به والمهل المذاب في «مهل» كالفلزات أو دردي الزيت.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألواناً لأن الجبال مختلفة الألوان فإذا بست وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ١٥ ﴿يَصْرُوفُهُمْ يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُهُ بِبَيْنِهِ﴾ ١١ ﴿وَصَاحِبِهِ وَأَخِيهِ﴾ ١٢ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ ١٣ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ١٤.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ولا يسأل قريب قريباً عن حاله وعن ابن كثير ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على بناء المفعول أي لا يطلب من حميم حميم أو لا يسأل منه حاله.

﴿يَصْرُوفُهُمْ﴾ استئناف أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال كيباض الوجه وسواده وجمع الضميرين لعموم الحميم. ﴿يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمُهُ بِبَيْنِهِ﴾ ﴿وَصَاحِبِهِ وَأَخِيهِ﴾ حال من أحد الضميرين أو استئناف يدل على أن اشتغال كل مجرم بنفسه بحيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلاً أن يهتم بحاله ويسأل عنها وقرأ نافع والكسائي بفتح ميم ﴿يَوْمُهُ﴾ وقرئ بتووين ﴿عَذَابٍ﴾ ونصب ﴿يَوْمُهُ﴾ به لأنه بمعنى تعذيب. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرته الذين فصل عنهم ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ تضمه في النسب أو عند الشدائد.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلين أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ عطف على ﴿يَفْتَدِي﴾ أي ثم ينجيه الافتداء و ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعاد.

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى﴾ ١٥ ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ ١٦ ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ ١٧ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ ١٨.

﴿كَلَّا﴾ ردع للمجرم عن الودادة ودلالة على أن الافتداء لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنار أو مبهم يفسره ﴿لَأَطْلَى﴾ وهو خبر أو بدل أو للقصة و ﴿لَطَى﴾ مبتدأ خبره.

﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى﴾ وهو اللهب الخالص وقيل علم للنار منقول من اللظى بمعنى اللهب وقرأ حفص عن عاصم ﴿نَزَاعَةً﴾ بالنصب على الاختصاص أو الحال المؤكدة أو المتنقلة على أن ﴿لَطَى﴾ بمعنى متلطفية والشوى الأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُوا﴾ تجذب وتحضر كقول ذي الرمة:

تَدْعُوا أَنْفُسَهُ الرِّيبَ.

مجاز عن جذبها وإحضارها لمن فر عنها وقيل تدعو زبانياتها وقيل تدعو تهلك من قولهم دعاه الله إذا أهلكه ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ وجمع المال فجعله في وعاء وكنزه حرصاً وتأملاً.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (٢١).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ شديد الحرص قليل الصبر.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الضر ﴿جَزُوعًا﴾ يكثر الجزع.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ﴾ السعة ﴿مَنُوعًا﴾ يبالغ بالإمساك والأوصاف الثلاثة أحوال مقدرة أو محققة لأنها طبائع

جبل الإنسان عليها و ﴿إِذَا﴾ الأولى ظرف لـ ﴿جَزُوعًا﴾ والآخرى لـ ﴿مَنُوعًا﴾.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢٢) ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ (٢٤) ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَرْغُومِ﴾

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ (٢٦).

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ استثناء للموصوفين بالصفات المذكورة بعد من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبل

لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق والإشفاق على الخلق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليها.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ لا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ كالزكوات والصدقات الموظفة.

﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمَرْغُومِ﴾ الذي لا يسأل فيحسب نفسه غنياً فيحرم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ﴾ تصديقاً بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعاً في المثوبة

الأخروية ولذلك ذكر ﴿الَّذِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٢٨) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (٢٩)

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (٣٠) ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (٣١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراض يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله وإن بالغ في

طاعته.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿فَمَنْ

ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة «المؤمنين».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٣٤)

﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ حافظون وقرأ ابن كثير ﴿لأماناتهم﴾ يعني لا يخونون ولا ينكرون

ولا يخفون ما علموه من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ وقرأ يعقوب وحفص ﴿بشهاداتهم﴾ لاختلاف الأنواع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فيراعون شرائطها ويكملون فرائضها وسننها وتكرير ذكر الصلاة

ووصفهم بها أولاً وآخرأ باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها على غيرها وفي نظم هذه الصلاة مبالغات لا تخفى.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ بثواب الله تعالى .

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَتَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك﴾ حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين .

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ فرقا شتى جمع عزة وأصلها عزوة من العزو وكان كل فرقة تعتزى إلى غير من تعتزى إليه الأخرى . كان المشركون يحتفون حول رسول الله ﷺ حلقاً حلقاً ويستهزئون بكلامه .
﴿أَتَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان وهو إنكار لقولهم لو صح ما يقوله لنكون فيها أفضل حظاً منهم كما في الدنيا .

﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تعليل له والمعنى أنهم مخلوقون من نطفة مذرة لا تناسب عالم القدس فمن لم يستكمل بالإيمان والطاعة ولم يتخلق بالأخلاق الملكية لم يستعد لدخولها أو إنكم مخلوقون من أجل ما تعلمون وهو تكميل النفس بالعلم والعمل فمن لم يستكملها لم يتبوأ في منازل الكاملين أو الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان النشأة الثانية التي بنوا الطمع على فرضها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردعهم عنه .

﴿فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ ﴿عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي نهلكهم ونأتي بخلق أمثل منهم أو نعطي محمداً بدلكم من هو خير منكم وهم الأنصار . ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك .

﴿فَذَرُهُمْ يُخَوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿فَذَرُهُمْ يُخَوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ مر في آخر سورة «الطور» .

﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمع سريع ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ منصوب للعبادة أو علم يفتح النون وسكون الصاد وقرىء بالضم على أنه تخفيف ﴿نُصُبٍ﴾ أو جمع .

﴿خَشِيعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ﴾ مر تفسيره ﴿ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا .

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة «سأل سائل» أعطاه الله ثواب الذين هم «لأماناتهم وعهدهم راعون»» .

من الأفراد لتراخي بغضها عن بعض، و «جهاراً» نصب على المصدر لأنه أحد نوعي الدعاء، أو صفة مصدر محذوف بمعنى دعاء «جهاراً» أي مجاهراً به أو الحال فيكون بمعنى مجاهراً.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْقَارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر. «إِنَّكُمْ كَانُمْ عَنْقَارًا» للتائبين وكأنهم لما أمرهم بالعبادة قالوا: إن كنا على حق فلا نتركه وإن كنا على باطل فكيف يقلبنا ويلطف بنا من عصيانه، فأمرهم بما يجب معاصيهم ويجلب إليهم المنح ولذلك وعدهم عليه ما هو أوقع في قلوبهم. وقيل لما طالبت دعوتهم وتمادى إصرارهم حبس الله عنهم القطر أربعين سنة، وأعقم أرحام نساءهم فوعدهم بذلك على الاستغفار عما كانوا عليه بقوله:

﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء. و «السما» تحتمل المظلة والسحاب، والمدار كثير الدور ويستوي في هذا البناء المذكر والمؤنث، والمراد بال «جئات» البساتين.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ لا تأملون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبده وأطاعه فتكونوا على حال تأملون فيها تعظيمها إياكم، و «الله» بيان للموقر ولو تأخر لكان صلة للوقار، أو لا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه، وإنما عبر عن الاعتقاد بالرجاء التابع لأدنى الظن مبالغة.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حال مقررة للإنكار من حيث إنها موجبة للرجاء فإنه خلقهم «أطواراً» أي تارات، إذ خلقهم أولاً عناصر، ثم مركبات تغذى بها الإنسان، ثم أخلاطاً، ثم نطقاً، ثم علقاً، ثم مضغاً، ثم عظماً ولحوماً، ثم أنشأهم خلقاً آخر، فإنه يدل على أنه يمكن أن يعيدهم تارة أخرى فيعظمهم بالشواب وعلى أنه تعالى عظيم القدرة تام الحكمة، ثم أتبع ذلك ما يؤيده من آيات الآفاق فقال.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ «وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا» أي في السموات وهو في السماء الدنيا وإنما نسب إليهن لما بينهن من الملابس. «وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا» مثلها به لأنها تزيل ظلمة الليل عن وجه الأرض كما يزيلها السراج عما حوله.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأصله «أنبتكم من الأرض» إنباتاً فنبتم نباتاً، فاختصره اكتفاء بالدلالة الالتزامية.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ مقبورين. «وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا» بالحشر، وأكده بالمصدر كما أكد به الأول دلالة على أن الإعادة محققة كالإبداء، وأنها تكون لا محالة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلبون عليها.

﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ واسعة جمع فج ومن لتضمن الفعل معنى الاتخاذ.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٢١).

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به. «وَاتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا» واتبعوا رؤساءهم البطرين بأموالهم المغترين بأولادهم بحيث صار ذلك سبباً لزيادة خسارهم في الآخرة، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهة حصلت لهم بالأموال والأولاد وأدت بهم إلى الخسار، وقرأ ابن كثير وحمة والكسائي والبصريان «وولده» بالضم والسكون على أنه لغة كالحزن والحزن أو جمع كالأسد.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ (٢٢) وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَتَكَ وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا وَلَا شُوعًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا﴾ (٢٣).

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطف على «لم يزد» والضمير لمن وجمعه للمعنى. «مَكَرًا كَبِيرًا» كبيراً في الغاية فإنه أبلغ من كبار وهو من كبير، وذلك احتيالهم في الدين وتحريش الناس على أذى نوح.

﴿وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَتَكَ﴾ أي عبادتها. «وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا وَلَا شُوعًا وَلَا يَفُوتَ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا» «ولا تنزل»

هؤلاء خصوصاً، قيل هي أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح فلما ماتوا صوروا تبركاً بهم، فلما طال الزمان عبدوا. وقد انتقلت إلى العرب فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويعفوت لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير. وقرأ نافع «وداً» بالضم وقرئ «يعفوثاً» و «يعوقاً» للتناسب، ومنع صرفهما للعلمية والعجمة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (٢٤) وَمَا خَطِيبَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْجَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ (٢٥).

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء أو للأصنام كقوله: «إنهم أضلن كثيراً». «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا

ضَلَالًا» عطف على «رب إنهم عصوني»، ولعل المطلوب هو الضلال في ترويج مكرهم ومصالح دنياهم لا في أمر دينهم، أو الضياع والهلاك كقوله: «إن المجرمين في ضلال وسعر».

﴿مِمَّا خَطِيبَاتِهِمْ﴾ من أجل خطيئاتهم، و «ما» مزيدة للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو «مما خطاياهم».

﴿أُغْرِقُوا﴾ بالطوفان. «فَأَذْجَلُوا نَارًا» المراد عذاب القبر أو عذاب الآخرة، والتعقيب لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، أو لأن المسبب كالمتعقب للسبب وإن تراخى عنه لفقد شرط أو وجود مانع، وتنكير النار للتعظيم أو لأن المراد نوع من النيران. «فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا» تعريض لهم باتخاذ آلهة من دون الله لا تقدر على نصرهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (٢٨).

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَابًا﴾ أي أحداً وهو مما يستعمل في النفي العام فيعال

من الدار، أو الدور وأصله ديوار ففعل به ما فعل بأصل سيد الأفعال وإلا لكان دواراً.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال ذلك لما جربهم واستقرى أحوالهم ألف

سنة إلا خمسين عاماً فعرف شيمهم وطباعهم.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ لملك بن متوشلح وشمخا بنت أنوش وكانا مؤمنين. «وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي» منزلي أو

مسجدي أو سفيتي. «مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» إلى يوم القيامة. «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا» هلاكاً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرکہم دعوة نوح».

سورة الجن (٧٢)

مكية، وآيها ثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقرئ «أحي» وأصله وحى من وحى إليه فقلبت الواو همزة لضميتها ووحى على الأصل وفاعله: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة، و ﴿الجن﴾ أجسام عاقلة خفية يغلب عليهم النارية أو الهوائية. وقيل نوع من الأرواح المجردة وقيل نفوس بشرية مفارقة عن أبدانها، وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأ عليهم وإنما اتفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبر الله به رسوله. ﴿فَقَالُوا﴾ لما رجعوا إلى قومهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً مبيناً لكلام الناس في حسن نظمه ودقة معناه. وهو مصدر وصف به للمبالغة.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ إلى الحق والصواب. ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ على ما نطق به الدلائل القاطعة على التوحيد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر على أنه من جملة المحكي بعد القول، وكذا ما بعده إلا قوله: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا﴾ «وَأَن المساجد»، «وَأَنه لما قام» فإنها من جملة الموحى به ووافقهم نافع وأبو بكر إلا في قوله: ﴿وَأَنه لما قام﴾ على أنه استئناف أو مقول، وفتح الباقون الكل إلا ما صدر بالقاء على أن ما كان من قولهم فمعطوف على محل الجار والمجرور في «به» كأنه قيل: صدقناه وصدقنا «أنه تعالى جد ربنا» أي عظمته من جد فلان في عيني إذا عظم، أو سلطانه أو غناه مستعار من الجد الذي هو البخت، والمعنى وصفه بالتعالي عن صاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغناه وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيان لذلك، وقرئ «جداً» على التمييز «جدُّ رَبِّنَا» بالكسر أي صدق ربوبيته، كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ صاحبة والولد.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس أو مرده الجن. ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً ذا شطط وهو البعد ومجاوزة الحد، أو هو شطط لفرط ما أشط فيه، وهو نسبة صاحبة والولد إلى الله.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذار عن اتباعهم السفیه في ذلك بظنهم أن أحداً لا يكذب على الله، و «كذباً» نصب على المصدر لأنه نوع من القول أو الوصف المحذوف، أي قولاً مكذوباً فيه، ومن قرأ ﴿أَن لَّنْ نَقُولَ﴾ كيعقوب جعله مصدراً لأن القول لا يكون إلا «كذباً».

﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٦) ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (٧).

﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالًا مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ فإن الرجل كان إذا أمسى بقفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فزادوا الجن باستعازتهم بهم. ﴿رَهَقًا﴾ كبراً وعتواً، أو فزاد الجن الإنس غياً بأن أضلوهم حتى استعازوا بهم، والرهق في الأصل غشيان الشيء.

﴿وَأَنْتُمْ﴾ وأن الإنس. ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ أيها الجن أو بالعكس، والآيتان من كلام الجن بعضهم لبعض أو استئناف كلام من الله تعالى، ومن فتح ﴿أَنْ﴾ فيهما جعلهما من الموحى به. ﴿أَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ساد مسد مفعولي ﴿ظنوا﴾.

﴿وَأَنَا لَسَلَّمْتُ السَّمَاءَ فَوَجَدْتَهَا مُلْكَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ (٨) ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ (٩).

﴿وَأَنَا لَسَلَّمْتُ السَّمَاءَ﴾ طلبنا بلوغ السماء أو خبرها، واللمس مستعار من المس للطلب كالجس يقال لمسه والتمسه وتلمسه كطلبه واطلبه وتطلبه. ﴿فَوَجَدْتَهَا مُلْكَتْ حَرَسًا﴾ حراساً اسم جمع كالخدم. ﴿شَدِيدًا﴾ قوياً وهم الملائكة الذين يمنعونهم عنها. ﴿وَشُهَبًا﴾ جمع شهاب وهو المضيء المتولد من النار.

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مقاعد خالية عن الحرس والشهب، أو صالحة للترصد والاستماع، و﴿لِلسَّمْعِ﴾ صلة لـ ﴿نقعد﴾ أو صفة لـ ﴿مقاعد﴾. ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي شهاباً راصداً له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم، أو ذوي شهاب راصدين على أنه اسم جمع للراصد، وقد مر بيان ذلك في «الصفات».

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (١٠) ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ (١١).

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء. ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً. ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرار. ﴿وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي قوم دون ذلك فحذف الموصوف وهم المقتصدون. ﴿كُنَّا طَرَائِقَ﴾ ذوي طرائق أي مذاهب، أو مثل طرائق في اختلاف الأحوال أو كانت طرائقنا طرائق. ﴿قِدْدًا﴾ متفرقة مختلفة جمع قدة من قد إذا قطع.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ (١٢) ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ (١٣).

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا﴾ علمنا. ﴿أَنْ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنا فيها. ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ هارين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمراً ولن نعجزه هرباً إن طلبنا.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ أي القرآن. ﴿آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف، وقرئ «فلا يخف» والأول أدل على تحقيق نجاة المؤمنين واختصاصها بهم. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ نقصاً في الجزاء ولا أن يرهقه ذلة، أو جزاء بخس لأنه لم يبخل لأحد حقاً ولم يرهق ظلماً، لأن من حق المؤمن بالقرآن أن يجتنب ذلك.

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الجائر عن طريق الحق وهو الإيمان والطاعة. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ توخوا رشداً عظيماً يبلغهم إلى دار الثواب.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ توقد بهم كما توقد بكفار الإنس.

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۝١٦﴾ لِنَقْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾

﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا﴾ أي أن الشأن لو استقام الجن أو الإنس أو كلاهما. ﴿عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أي على الطريقة المثلى. ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ لوسعنا عليهم الرزق، وتخصيص الماء الغدق وهو الكثير بالذكر لأنه أصل المعاش والسعة ولعزة وجوده بين العرب.

﴿لِنَقْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه، وقيل معناه أن لو استقام الجن على طريقتهم القديمة ولم يسلموا باستماع القرآن لوسعنا عليهم الرزق مستدرجين لهم لنوقعهم في الفتنة ونعذبهم في كفرانهم. ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ عن عبادته أو موعظته أو وحيه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخله وقرأ غير الكوفيين بالنون. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذب ويغلبه مصدر وصف به.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ مختصة به. ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدوا فيها غيره، ومن جعل ﴿أَنَّ﴾ مقدرة باللام علة للنهي ألغى فائدة الفاء، وقيل المراد بـ ﴿المساجد﴾ الأرض كلها لأنها جعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً. وقيل المسجد الحرام لأنه قبلة المساجد ومواضع السجود على أن المراد النهي عن السجود لغير الله، وآراؤه السبعة أو السجودات على أنه جمع مسجد.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي النبي عليه الصلاة والسلام وإنما ذكر بلفظ العبد للتواضع فإنه واقع موقع كلامه عن نفسه، والإشعار بما هو المقتضى لقيامه. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبده ﴿كَادُوا﴾ كاد الجن. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ متراكمين من ازدحامهم عليه تعجباً مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته، أو كاد الإنس والجن يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره، وهو جمع لبدة وهي ما تلبد بعضه على بعض كلبدة الأسد، وعن ابن عامر ﴿لِبَدًا﴾ بضم اللام جمع لبدة وهي لغة. وقرأ ﴿لِبَدًا﴾ كسجداً جمع لا بد و ﴿لِبَدًا﴾ كصبر جمع لبود.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾

﴿قَالَ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدع ولا منكر يوجب تعجبكم أو إطباقكم على مقتي، وقرأ عاصم وحمزة ﴿قُلْ﴾ على الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام ليوافق ما بعده.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعا أو غيا، عبر عن أحدهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو منسبه إشعاراً بالمعنيين.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢﴾ إِلَّا بَلَّغَا مِنَ اللَّهِ مَا رَسَلْتَهُ وَمَنْ يُعِصْ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلَرُ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أراد بي سوءاً. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ منحرفاً أو ملتجئاً وأصله المدخل من اللحد.

﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِنَ اللَّهِ﴾ استثناء من قوله لا أملك فإن التبليغ إرشاد وإنقاذ وما بينهما اعتراض مؤكداً لنفي الاستطاعة، أو من ملتحداً أو معناه أن لا أبلغ بلاغاً وما قبله دليل الجواب. ﴿وَرِسَالَاتِهِ﴾ عطف على ﴿بِلَاغٍ﴾ و ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ صفته فإن صلته عن كقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية». ﴿وَمَنْ يَغْنَصِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في الأمر بالتوحيد إذ الكلام فيه. ﴿فَإِنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ وقرئ «فإن» على فجزاؤه أن. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ جمعه للمعنى.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا كوقعة بدر، أو في الآخرة والغاية لقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ بالمعنى الثاني، أو لمحذوف دل عليه الحال من استضعاف الكفار له وعصيانهم له. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقْلَرُ عَدَدًا﴾ هو أم هم.

﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي﴾ ما أدري. ﴿أَقْرَبُ مِمَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ غاية تطول مدتها كأنه لما سمع المشركون ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ قالوا متى يكون إنكاراً، فقل قل إنه كائن لا محالة ولكن لا أدري ما وقته.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ هو عالم الغيب. ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع. ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ أي على الغيب المخصوص به علمه.

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ﴾ لعلم بعضه حتى يكون له معجزة. ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ بيان لـ ﴿مَنْ﴾، واستدل به على إبطال الكرامات، وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير وسط، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء. ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي المرتضى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ جرساً من الملائكة يحرسونه من اختطاف الشياطين وتخاليلهم.

﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَفُوا﴾ أي ليعلم النبي الموحى إليه أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحي، أو ليعلم الله تعالى أن قد أبلغ الأنبياء بمعنى ليعلم علمه به موجوداً. ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي محروسة من التغير. ﴿وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عند الرسل. ﴿وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ حتى القطر والرمل.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الجن كان له بعدد كل جنّي صدق محمداً أو كذب به عتق رقبة».

(٧٣) سورة المزمل

مكية، وآياتها تسع عشرة أو عشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ﴿١﴾ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ﴾ أصله المزمّل من زمّل بشيابه إذا تلفف بها فأدغم التاء في الزاي وقد قرئ به، وبـ «الْمَزْمُلُ» مفتوحة الميم ومكسورتها أي الذي زمّله غيره، أو زمّل نفسه، سمي به النبي عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً، أو مرتعداً مما دهشه من بدء الوحي متزماً في قطيفة أو تحسناً له. إذ روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلفاً بمرط مفروش على عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت. أو تشبيهاً له في ثقافته بالمزمّل لأنه لم يتمرن بعد في قيام الليل، أو من زمّل الزمل إذا تحمل الحمل أي الذي تحمل أعباء النبوة.

﴿قُمِ اللَّيْلُ﴾ أي قم إلى الصلاة، أو داوم عليها فيه، وقرئ بضم الميم وفتحها للإتياع أو التخفيف. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَخَّلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾

﴿يَضَعُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ «أَوْ زِدْ عَلَيْهِ» الاستثناء «من الليل» و «نصفه» بدل من «قليلًا» وقلته بالنسبة إلى الكل، والتخيير بين قيام النصف والزائد عليه كالثلاثين والناقص عنه كالثلاث، أو «نصفه» بدل من «الليل» والاستثناء منه والضمير في «منه» و «عليه» للأقل من النصف كالثلاث فيكون التخيير بينه وبين الأقل منه كالربع، والأكثر منه كالنصف أو للنصف والتخيير بين أن يقوم أقل منه على البت وأن يختار أحد الأمرين من الأقل والأكثر، أو الاستثناء من إعداد الليل فإنه عام والتخيير بين قيام النصف والناقص عنه والزائد عليه. «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» أقرأه على تؤدة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من عدها من قوله ثغر رتل ورتل إذا كان مقلجاً.

﴿إِنَّا سَخَّلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآن فإنه لما فيه من التكاليف الشاقة ثقل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته، والجملة اعتراض يسهل التكليف عليه بالتهجد، ويدل على أنه مشق مضاد للطبع مخالف للنفس، أو رصين لرزانة لفظه ومثانة معناه، أو ثقل على المتأمل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفية للسر وتجريد للنظر، أو ثقل في الميزان أو على الكفار والفجار، أو ثقل تلقيه لقوله عائشة رضي الله تعالى عنها: رأيت عليه الصلاة والسلام ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليبرض عرقاً. وعلى هذا يجوز أن يكون صفة للمصدر والجملة على هذه الأوجه للتعليل مستأنف، فإن التهجد يعد للنفس ما به تعالج ثقله.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ .

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ إن النفس التي تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام قال :

نَشَأْنَا إِلَى خَوْصٍ بَرَى نِيهَا السَّرَى وَأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِقَاتِ الْقَمَاجِدِ

أو قيام الليل على أن الـ «ناشئة» له أو العبادة التي تنشأ بالليل أي تحدث، أو ساعات الليل لأنها تحدث واحدة بعد أخرى، أو ساعاتها الأول من نشأت إذا ابتدأت. «هي أَشَدُّ وَطْأً» أي كلفة أو ثبات قدم، وقرأ أبو عمرو وابن عامر «وطاء» بكسر الواو وألف ممدودة أي مواطأة القلب اللسان لها، أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والإخلاص. «وَأَقْوَمُ قِيلاً» أي وأسد مقالاً أو أثبت قراءة لحضور القلب وهدوء الأصوات.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تقلباً في مهماتك واشتغلاً بها فعليك بالتهجد، فإن مناجاة الحق تستدعي فراغاً. وقرئ «سبخاً» أي تفرق قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه.

﴿وَاذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ .

﴿وَاذْكُرْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾ ودم على ذكره ليلاً ونهاراً، وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم. «وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً» وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه، ولهذه الرزمة ومراعاة الفواصل وضعه موضع تبتلاً.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبر محذوف أو مبتدأ خبره: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» وقرأ ابن عامر والكوفيون غير حفص ويعقوب بالجر على البدل من ربك، وقيل بإضمار حرف القسم وجوابه «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ». «فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» مسبب عن التهليل، فإن توحده بالالوهية يقتضي أن توكل إليه الأمور.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ .

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافات. «وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً» بأن تجانبهم وتداريهم ولا تكافئهم وتكل أمرهم إلى الله فالله يكفيهم كما قال :

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وإياهم وكل أمرهم فإن بي غنية عنك في مجازاتهم. «أُولَى النَّعْمَةِ» أرباب التمتع، يريد صناديد قريش. «وَمَهَلْهُمْ قَلِيلاً» زماناً أو إمهالاً.

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلاً ﴿١٤﴾ .

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ تعليل للأمر، والنكل القيد الثقيل. «وَجَحِيمًا» .

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعاماً ينشب في الحلق كالضريع والزقوم. «وَعَذَابًا أَلِيمًا» ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً لا يعرف كنهه إلا الله تعالى، ولما كانت العقوبات الأربع مما تشترك فيها الأشباح والأرواح فإن النفوس العاصية المنهمكة في الشهوات تبقى مقيدة بحبها والتعلق بها، عن التخلص إلى عالم المجردات متحرقة بحرقة الفرقة متجرعة غصة الهجران معذبة بالحرمان عن تجلي أنوار القدس، فسر العذاب بالحرمان عن لقاء الله تعالى.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ تضطرب وتترززل ظرف لما في «إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا» من معنى الفعل.

﴿وَكَاثُ الْجِبَالِ كَثِيْبًا﴾ رملًا مجتمعًا كأنه فعيل بمعنى مفعول من كثبت الشيء إذا جمعته. ﴿مَهِيْلًا﴾ مشورًا من هيل هيلًا إذا نثر.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيْلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهل مكة. ﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد عليكم يوم القيامة بالإجابة والامتناع. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ولم يعينه لأن المقصود لم يتعلق به. ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ عرفه لسبق ذكره. ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيْلًا﴾ ثقيلاً من قولهم طعام وبيل لا يستمرأ لثقله، ومنه الوابل للمطر العظيم.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسكم. ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ بقیتم على الكفر. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ من شدة هوله وهذا على الفرض أو التمثيل، وأصله أن الهموم تضعف القوى وتسرع الشيب، ويجوز أن يكون وصفاً لليوم بالطول.

﴿السَّمَاءَ مُنْفَطِرٌ﴾ منشق والتذكير على تأويل السقف أو إضممار شيء. ﴿بِهِ﴾ بشدة ذلك اليوم على عظمها وأحكامها فضلاً عن غيرها والباء للالة. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عز وجل أو لليوم على إضافة المصدر إلى المفعول.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ﴾ أي الآيات الموعدة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظة. ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ أن يتعظ. ﴿اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي يتقرب إليه بسلوك التقوى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكَ فَقَرَأُوا مَا تَسْرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَعَاخَرُونَ بِضُرِيُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَارِئُوا مَا تَسْرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْرِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ استعمار الأدنى للأقل لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعداً منه، وقرأ ابن كثير والكوفيون ﴿وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿أَدْنَىٰ﴾. ﴿وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقوم ذلك جماعة من أصحابك. ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ لا يعلم مقادير ساعاتهما كما هي إلا الله تعالى، فإن تقديم اسمه مبتداً مبنياً عليه ﴿يقدر﴾ يشعر بالاختصاص ويؤيده قوله: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ أي لن تحصوا تقدير الأوقات ولن تستطيعوا ضبط الساعات. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالترخص في ترك القيام المقدر ورفع التبعة فيه كما رفع التبعة عن الثائب. ﴿فَقَارِئُوا مَا تَسْرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها، قيل كان التهجد واجباً على التخيير المذكور ففسر عليهم القيام به فنسخ به، ثم نسخ هذا بالصلوات الخمس، أو فارقوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم. ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ﴾ استئناف يبين حكمة أخرى مقتضية للترخيص والتخفيف ولذلك كرر الحكم مرتباً

عليه وقال: «وَأَخْرُؤْنَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» والضرب في الأرض ابتغاء للفضل المسافرة للتجارة وتحصيل العلم «وَأَخْرُؤْنَ يَفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَافْرَأُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ» المفروضة. «وَأَتُوا الزُّكَاةَ» الواجبة. «وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً» يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبل الخيرات، أو بأداء الزكاة على أحسن وجه، والترغيب فيه بوعده العوض كما صرح به في قوله: «وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً» من الذي تؤخرونه إلى الوصية عند الموت أو من متاع الدنيا، و«خيراً» ثاني مفعولي «تجدوه» وهو تأكيد أو فصل، لأن أفعل من كالمعرفة ولذلك يمتنع من حرف التعريف، وقرئ «هو خير» على الابتداء والخبر. «وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ» في مجامع أحوالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفریط. «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المزمل رفع الله عنه العسر في الدنيا والآخرة».

(٧٤) سورة المدثر

مكية، وآيها خمس وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتدثر وهو لابس الدثار. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «كنت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني وشمالي فلم أر شيئاً، فنظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبت فرجعت إلى خديجة فقلت: دثروني، فنزل جبريل وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ولذلك قيل هي أول سورة نزلت. وقيل تأذى من قریش فتغطى بثوبه مفكراً، أو كان نائماً متدثراً فنزلت، وقيل المراد بالمدثر المتدثر بالنبوة والكمالات النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراء كالمختفي فيه على سبيل الاستعارة، وقرئ «المدثر» أي الذي دثر هذا الأمر وعصب به.

﴿قُمْ﴾ من مضجعتك أو قم قيام عزم وجد. ﴿فَأَنْذِرْ﴾ مطلق للتعميم أو مقدر بمفعول دل عليه قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَبَّاكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصص ربك بالتكبير وهو وصفه بالكبرياء عقداً وقولاً، روي أنه لما نزل كبر رسول الله ﷺ وأيقن أنه الوحي، وذلك لأن الشيطان لا يأمر بذلك والفاء فيه وفيما بعده لإفادة معنى الشرط وكأنه قال: وما يكن فكبر ربك، أو الدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبر ربه عن الشرك والتشبيه، فإن أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه، والقوم كانوا مقرين به.

﴿وَيَبَّاكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاسات فإن التطهير واجب في الصلوات محبوب في غيرها، وذلك بغسلها أو بحفظها عن النجاسة بتقصيرها مخافة جر الذبول فيها، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة، أو طهر نفسك من الأخلاق الذميمة والأفعال الدنيئة، فيكون أمراً باستكمال القوة العملية بعد أمره باستكمال القوة النظرية والدعاء إليه، أو فطهر دثار النبوة عما يدنس من الحقد والضجر وقلة الصبر.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فاهجر العذاب بالثبات على هجر ما يؤدي إليه من الشرك وغيره من القبائح، وقرأ يعقوب وحفص «والرُّجْزُ» بالضم وهو لغة كالذكر.

﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعط مستكثراً، نهى عن الاستفزاز وهو أن يهب شيئاً طامعاً في عوض أكثر، نهى تنزيه أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام «المستفز يثاب من هبته» والموجب له ما فيه من الحرص والضنة، أو ﴿لا تمنن﴾ على الله تعالى بعبادتك مستكثراً إياها، أو على الناس بالتبليغ مستكثراً به الأجر منهم أو مستكثراً إياه، وقرئ «تستكثر» بالسكون للوقف أو الإبدال من تمنن على أنه من من بكذا، أو

﴿تستكثر﴾ بمعنى تجده كثيراً وبالنصب على إضمار أن، وقد قرئ بها وعلى هذا يجوز أن يكون الرفع بحذفها وإبطال عملها، كما روي: احضر الوغى. بالرفع.

﴿وَلَرَبُّكَ﴾ لوجهه أو أمره. ﴿فَاصْبِرْ﴾ فاستعمل الصبر، أو فاصبر على مشاق التكليف وأذى المشركين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾.

﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ نفخ. ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ في الصور فاعول من النقر بمعنى التصويت وأصله القرع الذي هو سبب الصوت، والفاء للسببية كأنه قال: اصبر على زمان صعب تلقى فيه عاقبة صبرك وأعداؤك عاقبة ضرهم، و «إذا» ظرف لما دل عليه قوله:

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن معناه عسر الأمر على الكافرين، وذلك إشارة إلى وقت النقر، وهو مبتدأ خبره «يوم عسير» و «يومئذ» بدل أو ظرف لخبره إذ التقدير: فذلك الوقت وقت وقوع «يوم عسير». «غَيْرُ يَسِيرٍ» تأكيد بمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ويشعر بيسره على المؤمنين.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، و «وحيداً» حال من الباء أي ذرني وحدي معه فإنني أكفيكه، أو من التاء أي ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو من العائد المحذوف أي من خلقته فريداً لا مال له ولا ولد، أو ذم فإنه كان ملقباً به فسماه الله به تهكماً، أو إرادة أنه وحيد ولكن في الشراة أو عن أبيه فإنه كان زنياً.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو ممدداً بالنماء، وكان له الزرع والضرع والتجارة.

﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته، ولا يحتاج إلى أن يرسلهم في مصالحه لكثرة خدمه، أو في المحافل والأندية لوجاهتهم واعتبارهم. قيل كان له عشرة بنين أو أكثر كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة خالد وعمارة وهشام.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾.

﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطت له الرياسة والجاه العريض حتى لقب ربحانة قريش والوحيد أي باستحقاقه الرياسة والتقدم.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيته وهو استبعاد لطمعه إما لأنه لا مزيد على ما أوتي، أو لأنه لا يناسب ما هو عليه من كفران النعم ومعاداة المنعم ولذلك قال:

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَنْ لَّيْتِنَا عَيْنِدَا﴾ ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾.

﴿كَلَّا إِنَّكُمْ كَأَنْ لَّيْتِنَا عَيْنِدَا﴾ فإنه ردع له عن الطمع وتعليل للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة المانعة عن الزيادة، قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان ماله حتى هلك.

﴿سَأَرْهَقُهُمْ صَعُودًا﴾ سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهو مثل لما يلقي من الشدائد. وعنه عليه الصلاة والسلام «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً».

﴿إِنَّكُمْ فَكَّرْ وَقَدَّرَ﴾ ﴿١٨﴾ فَقُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾.

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل للوعيد أو بيان للعناد، والمعنى فكر فيما يخيل طعناً في القرآن وقدر في نفسه ما يقول فيه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجب من تقديره استهزاء به، أو لأنه أصاب أقصى ما يمكن أن يقال عليه من قولهم: قتله الله ما أشجع، أي بلغ في الشجاعة مبلغاً يحق أن يحسد ويدعو عليه خاسده بذلك. روي أنه مر بالنبى ﷺ وهو يقرأ ﴿حم﴾ «السجدة»، فأتى قومه وقال لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلو. فقالت قريش صبا الوليد فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكموه، فقعده إليه حزينا وكلمه بما أحماه فناداهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخفق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً، فقالوا لا فقال: ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين منه.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للمبالغة وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥).

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي في أمر القرآن مرة بعد أخرى.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً ولم يدر ما يقول، أو نظر إلى رسول الله ﷺ وقطب في وجهه. ﴿وَبَسَرَ﴾ اتباع لعبس.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق أو الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعه.

﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ يروى ويتعلم، والفاء للدلالة على أنه لما خطرت هذه الكلمة بباليه تفوه بها من غير تلبث وتفكر.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ كالتأكيد للجملة الأولى ولذلك لم يعطف عليها.

﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرَ﴾ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠).

﴿سَأُضْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدل من «سأرهقه صعوداً»:

﴿وما أدراك ما سقر﴾ تفخيم لشأنها تعالى وقوله: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بيان لذلك أو حال من سقر، والعامل فيها معنى التعظيم والمعنى لا تبقي على شيء يلقي فيها ولا تدعه حتى تهلكه.

﴿لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي مسودة لأعالي الجلد، أو لائحة للناس وقرئت بالنصب على الاختصاص.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملكاً أو صنفاً من الملائكة يلون أمرها، والمخصص لهذا العدد أن اختلال النفوس البشرية في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانية الاثنتي عشرة والطبيعة السبع، أو أن لجهنم سبع دركات ست منها لأصناف الكفار وكل صنف يعذب بترك الاعتقاد والإقرار، والعمل أنواعاً من العذاب تناسبها على كل نوع ملك أو صنف يتولاه وواحدة لعصاة الأمة يعذبون فيها بترك العمل نوعاً يناسبه ويتولاه ملك، أو صنف أو أن الساعات أربع وعشرون خمسة منها مصروفة في الصلاة فيبقى تسعة عشر قد تصرف فيما يؤاخذ به بأنواع من العذاب يتولاه الزبانية، وقرئ «تِسْعَةُ عَشَرَ» بسكون العين كراهة توالي حركات فيما هو كاسم واحد و «تسعة أعشر» جمع عشير كيمين وأيمن، أي تسعة كل عشير جمع يعني نقيبهم أو جمع عشر فتكون

تسعين .

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۝﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ ليخالفوا جنس المعذنين فلا يرقون لهم ولا يسترحون إليهم، ولأنهم أقوى الخلق بأساً وأشدهم غضباً لله . روي أن أبا جهل لما سمع عليها تسع عشر قال لقريش : أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فترلت . ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر، فعبّر بالآثر عن المؤثر تنبيهاً على أنه لا ينفك منه وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين، ولعل المراد الجعل بالقول ليحسن تعليله بقوله : ﴿لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد ﷺ وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم . ﴿وَيَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ بالإيمان به ويتصدق أهل الكتاب له . ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ونفي لما يعرض للمتيقن حشماً عراه شبهة . ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك أو نفاق، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة . ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيب . ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب . ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين . ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموع خلقه على ما هم عليه . ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة . ﴿وَمَا هِيَ﴾ وما سقر أو عدة الخزنة أو السورة . ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرة لهم .

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ ٢٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ ٢٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ ٢٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ ٢٥﴾ .

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن أنكرها، أو إنكار لأن يتذكروا بها . ﴿وَالْقَمَرِ﴾ .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ﴾ أي أدبر كقبل بمعنى أقبل، وقرأ نافع وحزمة ويعقوب وحفص ﴿إذا أدبر﴾ على

المضي .

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أضاء .

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي لإحدى البلايا الكبرى أي البلايا الكبيرة كثيرة و ﴿سُقْرٍ﴾ واحدة منها، وإنما جمع كبرى على «كبر» إلحاقاً لها بفعله تنزيلاً للألف منزلة التاء كما ألحقت قاصعاء بقاصعة فجمعت على قواصع، والجملة جواب القسم أو تعليل لـ ﴿كَلَّا﴾، والقسم معترض للتأكيد .

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝ ٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝ ٣٧﴾ .

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ تمييز أي ﴿لإحدى الكبرى﴾ إنذاراً أو حال عما دلت عليه الجملة أي كبرت منذرة، وقرئ بالرفع خبراً ثانياً أو خبراً لمحذوف .

﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل من ﴿للبشر﴾ أي نذيراً للمتمكنين من سبق إلى الخير والتخلف عنه، أو ﴿لمن شاء﴾ خبر لـ ﴿أن يتقدم﴾ فيكون في معنى قوله : ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء

فليكفر».

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونة عند الله مصدر كالشكيمة أطلقت للمفعول كالرهن ولو كانت صفة لقليل رهين.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ فإنهم فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم، وقيل هم الملائكة أو الأطفال.
﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ لا يكتنه وصفها وهي حال من «أصحاب اليمين»، أو ضميرهم في قوله: ﴿يَسَاءَلُونَ﴾.
﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم عن حالهم كقولك: تداعيناه أي دعواناه وقوله:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ بجوابه حكاية لما جرى بين المسؤولين والمجرمين أجابوا بها.

﴿قَالُوا لَوْ نَكَّ مِنْ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكْ نَطْعُمُ الْمُسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالُوا لَمْ نَكْ مِنْ الْمُصَلِّينَ﴾ الصلاة الواجبة.

﴿وَلَمْ نَكْ نَطْعُمُ الْمُسْكِينِ﴾ أي ما يجب إعطاؤه، وفيه دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع.

﴿وَكُنَّا نَحْوُضُ﴾ نشرع في الباطل. «مَعَ الْخَائِضِينَ» مع الشارعين فيه.

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أخره لتعظيمه أي وكنا بعد ذلك كله مكذبين بالقيامة.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ الموت ومقدماته.

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لو شفَعوا لهم جميعاً.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي معرضين عن التذكرة يعني القرآن، أو ما يعمله و «معرضين» حال.

﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ شبههم في إعراضهم ونفارهم عن استماع الذكر بحمر نافرة.

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي أسد فعولة من القسر وهو القهر.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ قراطيس تنشر وتقرأ وذلك أنهم قالوا للنبي ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً.

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكَرُوا ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُوا ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن اقتراحهم الآيات. «بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ» فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إعراضهم. ﴿إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ وأي تذكرة.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ فمن شاء أن يذكره.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذكرهم أو مشيئتهم كقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وهو تصريح

بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى، وقرأ نافع ﴿تَذْكُرُونَ﴾ بالتاء وقرئ بهما مشدداً. ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ حقيق بأن يتقى عقابه. ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ حقيق بأن يغفر لعباده سيما المتقين منهم.

وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة المدثر أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد عليه الصلاة

والسلام وكذب به بمكة شرفها الله تعالى».

(٧٥) سورة القيامة

مكية وآيها أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ (١) ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ﴾ (٢) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّخَذَ عِظَامُهُ ۖ﴾ (٣) .

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إدخال ﴿لا﴾ النافية على فعل القسم للتأكيد شائع في كلامهم قال امرؤ القيس:

لَا وَأَبِيكَ إِنِّي الْعَامِرِي لَا يَدْعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرُ

وقد مر الكلام فيه في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ وقرأ قبل ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ بغير ألف بعد اللام وكذا

روي عن البزي.

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ بالنفس المتقية التي تلوم النفوس المقصرة في التقوى يوم القيامة على تقصيرها، أو التي تلوم نفسها أبداً وإن اجتهدت في الطاعة أو النفس المطمئنة اللائمة للنفس الأماراة أو بالجنس. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وتلوم نفسها يوم القيامة، إن عملت خيراً قالت كيف لم أزد وإن عملت شراً قالت يا ليتني كنت قصرت». أو نفس آدم فإنها لم تزل تتلوم على ما خرجت به من الجنة، وضمتها إلى يوم القيامة لأن المقصود من إقامتها مجازاتها.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ يعني الجنس وإسناد الفعل إليه لأن فيهم من يحسب، أو الذي نزل فيه وهو عدي بن أبي ربيعة سأل رسول الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك. أو يجمع الله هذه العظام. ﴿أَنْ لَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد تفرقها، وقرأ «أَنْ لَّنْ يَجْمَعُ» على البناء للمفعول.

﴿كُلٌّ قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٤) ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (٥) ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۖ﴾ (٦) .

﴿بَلَى﴾ نجمعها. ﴿قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ بجمع سلامياته وضم بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرهما ولطافتها فكيف بكبار العظام، أو ﴿على أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ الذي هو أطرافه فكيف بغيرها، وهو حال من فاعل الفعل المقدر بعد ﴿بَلَى﴾، وقرأ بالرفع أي نحن قادرون.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ﴾ عطف على ﴿أَيَحْسَبُ﴾ فيجوز أن يكون استفهاماً وأن يكون إيجاباً لجواز أن يكون الإضراب عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ليدوم على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ متى يكون يوم القيامة استبعاداً له أو استهزاء.

﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ﴾ (٧) ﴿وَحُشِفَ الْقَمَرُ ۖ﴾ (٨) ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ﴾ (٩) ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ۖ﴾ (١٠) .

﴿إِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ تحير فرعاً من برق الرجل إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، وقرأ نافع بالفتح وهو لغة، أو من البريق بمعنى لمع من شدة شخوصه، وقرأ «بلق» من بلق الباب إذا انفتح.

﴿وَحُشِفَ الْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه وقرأ على البناء للمفعول.

﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في ذهاب الضوء أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوف فإنه مستعار للمحاق، ولمن حمل ذلك على أمارات الموت أن يفسر الخسوف بذهاب ضوء البصر والجمع باستتباع الروح الحاسة في الذهاب، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقل من سكان القدس، وتذكير الفعل لتقدمه وتغليب المعطوف.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنِّ الْمَفْرُ﴾ أي القرار يقوله قول الآيس من وجدانه المتمني، وقرئ بالكسر وهو المكان.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن طلب المفرد. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ مستعار من الجبل واشتقاقه من الوزر وهو الثقل. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ إليه وحده استقرار العباد، أو إلى حكمه استقرار أمرهم، أو إلى مشيئته موضع قرارهم يدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار.

﴿يَتَّبِعُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمل، أو بما قدم من عمل عمله وبما أخر من سنة حسنة أو سيئة عمل بها بعده، أو بما قدم من مال تصدق به وبما أخر فخلفه، أو بأول عمله وآخره.

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ ۝ لَا تَحْرُكَ بِهِ لِسَانُكَ لَتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُ وَقُرْآنِهِ ۝ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ ۝﴾

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ حجة بينة على أعمالها لأنه شاهد بها، وصفها بالبصيرة على المجاز، أو عين بصيرة فلا يحتاج إلى الإنباء.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرُهُ﴾ ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به جمع معذار وهو العذر، أو جمع معذرة على غير قياس كالمناكير في المنكر فإن قياسه معاذر وذلك أولى وفيه نظر.

﴿لَا تَحْرُكَ﴾ يا محمد، ﴿بِهِ﴾ بالقرآن. ﴿لِسَانُكَ﴾ قبل أن يتم وحيه. ﴿لَتَعْجَلَ بِهِ﴾ لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك.

﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ﴾ في صدرك. ﴿وَقُرْآنُهُ﴾ وإثبات قراءته في لسانك وهو تعليل للنهي.

﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ﴾ بلسان جبريل عليك. ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قراءته وتكرر فيه حتى يرسخ في ذهنك.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بيان ما أشكل عليك من معانيه، وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وهو اعتراض بما يؤكد التوبيخ على حب العجلة لأن العجلة إذا كانت مذمومة فيما هو أهم الأمور وأصل الدين فكيف بها في غيره، أو بذكر ما اتفق في أثناء نزول هذه الآيات. وقيل الخطاب مع الإنسان المذكور والمعنى أنه يؤتى كتابه فيتجلجل لسانه من سرعة قراءته خوفاً، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به فإن علينا بمقتضى الوعد جمع ما فيه من أعمالك وقراءته، فإذا قرأناه فاتبع قراءته بالإقرار أو التأمل فيه، ثم إن علينا بيان أمره بالجزاء عليه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ نَاصِرٌ ۝ إِلَ رَبِّهَا نَاطِرٌ ۝﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للرسول عن عادة العجلة أو للإنسان عن الاغترار بالعاجل. ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ تعميم للخطاب إشعاراً بأن بني آدم مطبوعون على الاستعجال وإن كان الخطاب

للإنسان، والمراد به الجنس فجمع الضمير للمعنى ويؤيده قراءة ابن كثير وابن عامر والبصريين بالياء فيهما.
﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ فَاصِرَةً﴾ بهية متهلة.

﴿إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةً﴾ تراه مستغرقة في مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه ولذلك قدم المفعول، وليس هذا في كل الأحوال حتى ينافيه نظرها إلى غيره، وقيل منتظرة إنعامه ورد بأن الانتظار لا يسند إلى الوجه وتفسيره بالجملة خلاف الظاهر، وأن المستعمل بمعناه لا يتعدى إلى قول الشاعر:
وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرِ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمًا
بمعنى السؤال فإن الانتظار لا يستعقب العطاء.

﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ بِاسِرَةٍ﴾ (٢٤) تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةً (٢٥).

﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ بِاسِرَةٍ﴾ شديدة العبوس والباسل أبلغ من الباسر لكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه.
﴿تَنْظُرُ﴾ تتوقع أربابها. ﴿أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةً﴾ داهية تكسر الفقار.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧).

﴿كَلَّا﴾ ردع عن إشار الدنیا على الآخرة ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ إذا بلغت النفس أعالي الصدر وإضمامها من غير ذكر للدلالة الكلام عليها.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال حاضر وصاحبها من يرقيه مما به من الرقية، أو قال ملائكة الموت أيكم يرقى بروحه ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب من الرقي.

﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨) وَالتَّقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يُؤْمِدُ الْمَسَاقُ (٣٠).

﴿وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ وظن المحتضر أن الذي نزل به فراق الدنيا ومحابها.

﴿وَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما، أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة.

﴿إِلَى رَبِّكَ يُؤْمِدُ الْمَسَاقُ﴾ سوقه إلى الله تعالى وحكمه.

﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣).

﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ما يجب تصديقه، أو فلا صدق ماله أي فلا زكاه. ﴿وَلَا صَلَّى﴾ ما فرض عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾.

﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ يتبختر افتخاراً بذلك من المط، فإن المتبختر يمد خطاه فيكون أصله يتمطط، أو من المطا وهو الظهر فإنه يلويه.

﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى (٣٥).

﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ ويل لك من الولي، وأصله أولاك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ أو ﴿أَوَّلَى لَكَ﴾ الهلاك. وقيل أفعّل من الويل بعد القلب أدنى من أدون، أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار.

﴿ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرة بعد أخرى.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ ﴿٤٠﴾ .

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهملاً لا يكلف ولا يجازى، وهو يتضمن تكرير إنكاره للحشر والدلالة عليه من حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن والنهي عن القبائح، والتكليف لا يتحقق إلا بالمجازاة وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فقدره فعده.

﴿فَعَمَلَ مِنْهُ الذَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ وهو استدلال آخر بالإبداء على الإعادة على ما مر تقريره مراراً ولذلك رتب عليه قوله:

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتَ﴾.

عن النبي ﷺ «أنه كان إذا قرأها قال سبحانك بلى» وعنه ﷺ «من قرأ سورة القيامة شهدت له أنا وجبريل يوم القيامة أنه كان مؤمناً به».

(٧٦) سورة الإنسان

مكية وآيها إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴿٢﴾﴾ .

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ استفهام تقرير وتقريب ولذلك فسر بقد وأصله أهل كقوله: أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم. ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود. ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ بل كان شيئاً منسياً غير مذكور بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والجملة حال من ﴿الإنسان﴾ أو وصف لـ ﴿حين﴾ يحذف الراجع والمراد بالإنسان الجنس لقوله:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أو آدم بين أولاً خلقه ثم ذكر خلقه بنيه. ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط جمع مشج أو مشج أو مشيج من مشجت الشيء إذا خلطته، وجمع النطفة به لأن المراد بها مجموع مني الرجل والمرأة وكل منهما مختلف الأجزاء في الرقة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منهما مادة عضو. وقيل مفرد كأعشار وأكباش. وقيل ألوان فإن ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اختلطا اخضرا، أو أطوار فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة إلى تمام الخلقة. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره أو ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء. ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات، فهو كالمسبب عن الابتلاء ولذلك عطف بالفاء على الفعل المقيد به ورتب عليه قوله:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِيناً وَآْغْلَالاً وَسَعيراً ﴿٤﴾﴾ .

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات. ﴿إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ حالان من الهاء، و ﴿إِمَّا﴾ للتفصيل أو التقسيم أي ﴿هديناه﴾ في حاله جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضهم ﴿شَاكِراً﴾ بالاهتداء والاختذ فيه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، أو من ﴿السبيل﴾ ووصفه بالشكر والكفر مجاز. وقرئ «أما» بالفتح على حذف الجواب ولعله لم يقل كافراً ليطابق قسمه محافظة على الفواصل، وإشعاراً بأن الإنسان لا يخلو عن كفران غالباً وإنما المؤاخذ به التوغل فيه.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِيناً﴾ بها يقادون. ﴿وَآْغْلَالاً﴾ بها يقيدون. ﴿وَسَعيراً﴾ بها يحرقون، وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم لأن الإنذار أهم وأنفع، وتصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن، وقرأ نافع والكسائي وأبو بكر «سلاسل» للمناسبة.

﴿إِنَّ الْآبَتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾﴾ .

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جمع بر كأرباب أو بار كأشهاد. ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ من خمر وهي في الأصل القدح تكون فيه. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ ما يمزج بها. ﴿كَافُورًا﴾ لبرده وعذوبته وطيب عرقه وقيل اسم ماء في الجنة يشبه الكافور في رائحته وبياضه. وقيل يخلق فيها كفيات الكافور فتكون كالمزوجة به.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾ إن جعل اسم ماء أو من محل ﴿مِنْ كَأْسٍ﴾ على تقدير مضاف، أي ماء عين أو خمرها أو نصب على الاختصاص أو بفعل يفسره ما بعدها. ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل الباء مزيدة أو بمعنى من لأن الشرب مبتدأ منها كما هو. ﴿يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يجرونها حيث شاؤوا إجراء سهلاً.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨).

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ استئناف ببيان ما رزقه لأجله كأنه سئل عنه فأجيب بذلك، وهو أبلغ في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات لأن من وفى بما أوجبه على نفسه الله تعالى كان أوفى بما أوجبه الله تعالى عليه. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ شدائده. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ فاشياً منتشراً غاية الانتشار من استطار الحريق والفجر، وهو أبلغ من طار، وفيه إشعار بحسن عقيدتهم واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ حب الله تعالى أو الطعام أو الإطعام. ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يعني أسراء الكفار فإنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول «أحسن إليه»، أو الأسير المؤمن ويدخل فيه المملوك والمسجون، وفي الحديث «غريمك أسيرك فأحسن إلى أسيرك».

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا (١٠).

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله. ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أي شكراً.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾ فلذلك نحسن إليكم أو لا نطلب المكافأة منكم. ﴿يَوْمًا﴾ عذاب يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجه أو يشبه الأسد العبوس في ضراوته. ﴿قَطَطِيرًا﴾ شديد العبوس كالذي يجمع ما بين عينيه من اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قريظها أو مشتق من القطر والميم مزيدة.

﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَخَرِيرًا (١٢).

﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفظهم عنه. ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بدل عبوس الفجار وحزنهم.

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات وإيثار الأموال. ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَوَخَّرِيرًا﴾ يلبسونه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الحسن والحسين رضي الله عنهما مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضة جارية لهما صوم ثلاث إن برئا، فشفا وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخبيري ثلاثة أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فآثروه، ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك، فنزل جبريل عليه السلام بهذه السورة

وقال خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك.

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾

﴿مُتَكِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ حال من هم في ﴿جزاهم﴾ أو صفة لـ ﴿جنة﴾. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يحتملها وأن يكون حالاً من المستكن في ﴿مُتَكِّينَ﴾، والمعنى أنه يمر عليهم فيها هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذ، وقيل الزمهرير القمر في لغة طيء قال راجزهم:

وَلَيْلَةٌ ظَلَامُهَا قَدْ اغْتَكَّرَ قَطَفُهَا وَالزَّمْهَرِيرُ مَا زَهَرَ

والمعنى أن هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس وقمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾ حال أو صفة أخرى معطوفة على ما قبلها، أو عطف على ﴿جنة﴾ أي وجنة أخرى دانية على أنهم وعدوا جنتين كقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ وقرئت بالرفع على أنها خبر ﴿ظلالها﴾ والجملة حال أو صفة. ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ معطوف على ما قبله أو حال من دانية، وتذليل القُطُوف أن تجعل سهلة التناول لا تمتنع على قطفها كيف شاؤوا.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝١٨﴾

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وأباريق بلا عروة. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾

﴿قَوَارِير مِّن فِضَّةٍ﴾ أي تكونت جامعة بين صفاء الزجاج وشفيفها وبياض الفضة ولينها، وقد نون ﴿قوارير﴾ من نون «سلاسلا» وابن كثير الأولى لأنها رأس الآية، وقرئ «قوارير من فضة» على هي «قوارير». ﴿قَدَرُهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدروها في أنفسهم فجاءت مقاديرها وأشكالها كما تمنوه، أو قدروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها، أو قدر الطائفون بها المدلول عليهم بقوله يطاف شرابها على قدر اشتهاهم، وقرئ «قدروها» أي جعلوا قادرين لها كما شاؤوا من قدر منقولاً من قدرت الشيء.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ما يشبه الزنجبيل في الطعم وكانت العرب يستلذون الشراب الممزوج به ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها، يقال شراب سلسل وسلسال وسلسيل، ولذلك حكم بزيادة الباء والمراد به أن ينفي عنها لدغ الزنجبيل ويصفها بنقيضه، وقيل أصله سل سبيلاً فسميت به كتابط شراً لأنه لا يشرب منها إلا من سأل إليها سبيلاً بالعمل الصالح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ من صفاء ألوانهم وانبشاثهم في مجالسهم وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدر لأنه عام معناه إن بصرك أينما وقع. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً، وفي الحديث «أدنى أهل الجنة منزلة ينظر في ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه» هذا وللعارف أكبر من ذلك وهو أن تتنقش نفسه بجلايا الملك وخفايا الملكوت، فيستضيء بأنوار قدس الجبروت.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مُسْتَدْسٍ خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مُسْتَدْسٍ خَضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يعلمونهم ثياب الحرير الخضر ما رق منها وما غلظ، ونصبه على الحال من هم في عليهم أو ﴿حسبتهم﴾، أو ﴿ملكاً﴾ على تقدير مضاف أي وأهل ملك كبير عليهم، وقرأ نافع ﴿عَالِيَهُمْ﴾ وحمزة بالرفع على أنه خبر ﴿ثياب﴾. وقرأ ابن كثير وأبو بكر ﴿خَضِرٌ﴾ بالجر حملاً على ﴿سندس﴾ بالمعنى فإنه اسم جنس، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿ثياب﴾، وقرأهما حفص وحمزة والكسائي بالرفع، وقرئ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بوصل الهمزة والفتح على أنه استفعل من البرق جعل علماً لهذا النوع من الثياب. ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ عطف على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ ولا يخالفه قوله ﴿أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ لإمكان الجمع والمعاقبة والتبعيض، فإن حلي أهل الجنة تختلف باختلاف أعمالهم، فلعله تعالى يفيض عليهم جزاء لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوت تفاوت الذهب والفضة، أو حال من الضمير في ﴿عَالِيَهُمْ﴾ بإضمار قد، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدم وذلك للمخدومين. ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريد به نوعاً آخر يفوق على النوعين المتقدمين ولذلك أسند سقيه إلى الله عز وجل، ووصفه بالطهورية فإنه يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ما سوى الحق، فيتجرد لمطالعة جماله ملتذاً بلفائه باقياً ببقائه، وهي متهى درجات الصديقين ولذلك ختم بها ثواب الأبرار.

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على إضمار القول والإشارة إلى ما عد من ثوابهم. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ مجازي عليه غير مضيع.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ مفروقاً منجماً لحكمة اقتضته، وتكرير الضمير مع أن مزيد لاختصاص التنزيل به.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرته على كفار مكة وغيرهم. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَةً أَوْ كُفُورًا﴾ أي كل واحد من مرتكب الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفر الداعي لك إليه، وأو للدلالة على أنهما سيان في استحقاق العصيان والاستقلال به والتقسيم باعتبار ما يدعونه إليه، فإن ترتب النهي على الوصفين مشعر بأنه لهما وذلك يستدعي أن تكون المطاوعة في الإثم والكفر. فإن مطاوعتهما فيما ليس بإثم ولا كفر غير محظور.

﴿وَإِذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾.

﴿وَإِذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوم على ذكره أو دم على صلاة الفجر والظهر والعصر فإن الأصيل يتناول وقتيهما.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ وبعض الليل فصل له تعالى، ولعل المراد به صلاة المغرب والعشاء وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجد له طائفة طويلة من الليل.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَیْجُوعُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ﴾ أمامهم أو خلف ظهورهم. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعار من الثقل الباهظ للحامل، وهو كالتعليل لما أمر به ونهى عنه.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ وأحكامنا ربط مفاصلهم بالأعصاب. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ وإذا شئنا أهلكناهم و ﴿بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ في الخلقة، وشدة الأسر يعني النشأة الثانية ولذلك جيء بـ ﴿إِذَا﴾ أو بدلنا غيرهم ممن يطيع ﴿وَإِذَا﴾ لتحقيق القدرة وقوة الداعية.

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١).

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارة إلى السورة أو الآيات القريبة، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ تقرب إليه بالطاعة.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وما تشاؤون ذلك إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿يَشَاءُونَ﴾ بالياء. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهل كل أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمته.

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة. ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ نصب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ بفعل يفسره ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ مثل أوعد وكافاً ليطابق الجملة المعطوف عليها، وقرئ بالرفع على الابتداء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة هل أتى كان جزاؤه على الله جنة وحريراً».

(٧٧) سورة المرسلات

مكية وآيها خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ١ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ ٢ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ ٣ ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ ٤ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ٥

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ أقسام بطوائف من الملائكة أرسلهن الله تعالى بأوامره متتابعة. فعصفن عصف الرياح في امتثال أمره، ونشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالجهل بما أوحين من العلم، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين إلى الأنبياء ذكراً عذراً للمحققين ونذراً للمبطلين، أو بآيات القرآن المرسلة بكل عرف إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فعصفن سائر الكتب والأديان بالنسخ ونشرن آثار الهدى والحكم في الشرق والغرب، وفرقن بين الحق والباطل فألقين ذكر الحق فيما بين العالمين. أو بالنفوس الكاملة المرسلة إلى الأبدان لاستكمالها فعصفن ما سوى الحق ونشرن أثر ذلك في جميع الأعضاء، ففرقن بين الحق بذاته والباطل في نفسه فيرون كل شيء هالكاً إلا وجهه، فألقين ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنة إلا ذكر الله تعالى. أو بريح عذاب أرسلن فعصفن، ورياح رحمة نشرن السحاب في الجو، ففرقن فألقين ذكراً أي تسبين له، فإن العاقل إذا شاهد هبوبها وآثارها ذكر الله تعالى وتذكر كمال قدرته، و﴿عُرْفًا﴾ إما نقيض النكر وانتصابه على العلة أي أرسلن للإحسان والمعروف، أو بمعنى المتابعة من عرف الفرس وانتصابه على الحال.

﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ ٦ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ﴾ ٧ ﴿فَإِذَا الْتُجُومُ طُمِسَتْ﴾ ٨ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ ٩ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ ١٠

﴿عُذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ مصدران لعذر إذا محا الإساءة وأنذر إذا خوف، أو جمعان لعذر بمعنى المعذرة ونذير بمعنى الإنذار، أو بمعنى العاذر والمنذر، ونصبهما على الأولين بالعلية أي ﴿عُذْرًا﴾ للمحققين ﴿أو نذراً﴾ للمبطلين، أو البديل من ﴿ذكرًا﴾ على أن المراد به الوحي أو ما يعم التوحيد والشرك والإيمان والكفر وعلى الثالث بالحالية، وقراهما أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص بالتخفيف.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ﴾ جواب القسم ومعناه أن الذي توعده من مجيء القيامة كائن لا محالة.

﴿فَإِذَا الْتُجُومُ طُمِسَتْ﴾ محقت أو أذهب نورها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ صدعت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ﴾ كالحب ينسف بالمنسف.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَضْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ ﴿١٤﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾ عين لها وقتها الذي يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله، فإنه لا يتعين لهم قبله، أو بلغت ميقاتها الذي كانت تنتظره، وقرأ أبو عمرو «وقت» على الأصل.

﴿لَأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ أي يقال لأي يوم أخرت، وضرب الأجل للجمع وهو تعظيم لليوم وتعجيب من هوله، ويجوز أن يكون ثاني مفعولي ﴿أقبت﴾ على أنه بمعنى أعلمت.

﴿ليوم الفضل﴾ بيان ليوم التأجيل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَضْلِ﴾ ومن أين تعلم كنهه ولم تر مثله.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي بذلك، و ﴿ويل﴾ في الأصل مصدر منصوب بإضمار فعله عدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلك للمدعو عليه، و ﴿يومئذ﴾ ظرفه أو صفته.

﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تَنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوح وعاد وثمود، وقرئ «نهلك» من هلكه بمعنى أهلكه.

﴿ثُمَّ تَنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ أي ﴿ثم﴾ نحن ﴿تنبئهم﴾ نظراءهم ككفار مكة، وقرئ بالعجز عطفاً على ﴿نهلك﴾ فيكون ﴿الآخرين﴾ المتأخرين من المهلكين كقوم لوط وشعيب وموسى عليهم السلام.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل. ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ بكل من أجرم.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه فليس تكريراً، وكذا إن أطلق التكذيب أو علق في الموضعين بواحد، لأن الـ ﴿ويل﴾ الأول لعذاب الآخرة وهذا للإهلاك في الدنيا، مع أن التكرير للتوكيد حسن شائع في كلام العرب.

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّ قَدْرَ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾ نطفة مذرة ذليلة.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ هو الرحم.

﴿إِلَى قَدْرِ مَعْلُومٍ﴾ إلى مقدار معلوم من الوقت قدره الله تعالى للولادة.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك، أو فقدرناه وبدل عليه قراءة نافع والكسائي بالتشديد. ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ نحن.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَجَرًا وَسَاقِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَاءً قُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ كافتة اسم لما يكفت أي يضم ويجمع كالضمام والجماع اسم لما يضم ويجمع، أو مصدر نعت به أو جمع كافت كصائم وصيام، أو كفت وهو الوعاء أجرى على الأرض باعتبار أقطارها.

﴿أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ منتصبان على المفعولية وتنكيرهما للتفخيم، أو لأن أحياء الإنس وأمواتهم بعض الأحياء والأموات، أو الحالية من مفعوله المحذوف للعلم به وهو الإنس، أو بنجعل على المفعولية و﴿كِفَاتًا﴾ حال أو الحالية فيكون المعنى بالأحياء ما ينبت وبالأموات ما لا ينبت.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِي شَامِخَاتٍ﴾ جبالاً ثوابت طوالة والتنكير للتفخيم، أو الإشعار بأن فيها ما لم يعرف ولم ير ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ بخلق الأنهار والمنايع فيها.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ (٣١).

﴿انْطَلِقُوا﴾ أي يقال لهم انطلقوا. ﴿إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

﴿انْطَلِقُوا﴾ خصوصاً وعن يعقوب ﴿انْطَلِقُوا﴾ على الإخبار عن امتثالهم للأمر اضطراراً. ﴿إِلَى ظِلِّ﴾ يعني ظل دخان جهنم كقوله تعالى: ﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. ﴿ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يتشعب لعظمه كما ترى الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب، وخصوصية الثلاث إما لأن حجاب النفس عن أنوار القدس الحسن والخيال والوهم، أو لأن المؤدي إلى هذا العذاب هو القوة الواهمة الحالية في الدماغ والغضبية التي في يمين القلب والشهوية التي في يساره، ولذلك قيل شعبة تقف فوق الكافر وشعبة عن يمينه وشعبة عن يساره.

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ تهكم بهم ورد لما أوهم لفظ ال ﴿ظِلِّ﴾. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ﴾ وغير مغن عنهم من حر اللهب شيئاً.

﴿إِنِّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ﴾ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ (٣٣).

﴿إِنِّهَا تَرْمِي بِشَرِّرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي كل شرارة ﴿كَالْقَصْرِ﴾ في عظمها، ويؤيده أنه قرىء «بشرار»، وقيل هو جمع قصرة وهي الشجرة الغليظة، وقرىء «كالقصر» بمعنى القصور كرهن ورهن و «كالقصر» جمع قصرة كحاجة وحوج، و «كالقصر» جمع قصرة وهي أصل العنق والهاء للشعب.

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَاتٌ﴾ جمع جمال أو جمالة جمع جمل. ﴿صُفْرٌ﴾ فإن الشرار بما فيه من النارية يكون أصفر، وقيل سود لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، والأول تشبيه في العظم وهذا في اللون والكثرة والتابع والاختلاط وسرعة الحركة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿جِمَالَةً﴾ وعن يعقوب ﴿جِمَالَاتٌ﴾ بالضم جمع جمالة، وقد قرىء بها وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة شبهه بها في امتداده والتفافه.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٤) هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧).

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي بما يستحق فإن النطق بما لا ينفع كلا نطق، أو بشيء من فرط الدهشة والحيرة وهذا في بعض المواقف، وقرىء بنصب ال ﴿يَوْمٌ﴾ أي هذا الذي ذكر واقع يومئذ.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ «وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» عطف «فَيَعْتَذِرُونَ» على «يُؤْذَنُ» ليدل على نفي الإذن والاعتذار عقبيه مطلقاً، ولو جعله جواباً لدل على أن عدم اعتذارهم لعدم الإذن فأوهم ذلك أن لهم عذراً لكن لا يؤذن لهم فيه.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠).

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين المحق والمبطل. «جَمَعْتُمْكُمْ وَالْأَوَّلِينَ» تقرير وبيان للفصل.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهار لعجزهم.

﴿وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلة لهم في التخلص من العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذبين. «فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ».

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مستقرون في أنواع الترفه.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقولاً لهم ذلك.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة.

﴿وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يمحض لهم العذاب المخلد ولخصومهم الثواب المؤبد.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ (٤٦) وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧).

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ حال من المكذبين أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك،

تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جنوا على أنفسهم من إثارة المتاع القليل على النعيم المقيم.

﴿وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ (٤٨) وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ يُؤْمِنُونَ (٥٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا﴾ أطيعوا وإخضعوا أو صلوا أو اركعوا في الصلاة. إذ روي: أنه نزل حين أمر رسول الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة فقالوا: لا نجبي أي لا نركع فلإنها مسبة. وقيل هو يوم القيامة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. «لَا يَرْكَعُونَ» لا يمثلون واستدل به على أن الأمر للوجوب وأن الكفار مخاطبون بالفروع.

﴿وَنُذِلَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ «فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدُ» بعد القرآن «يُؤْمِنُونَ» إذا لم يؤمنوا به وهو معجز في ذاته

مشمتمل على الحجج الواضحة والمعاني الشريفة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والمرسلات كتب له أنه ليس من المشركين».

سورة النبأ

مكية، وآيها إحدى وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أصله عما فحذف الألف لما مر، ومعنى هذا الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه كأنه لفخامته خفي جنسه فيسأل عنه، والضمير لأهل مكة كانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم، أو يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين عنه استهزاء بقولهم: يتداعونهم ويتراءونهم أي يدعونهم ويرونهم، أو للناس. ﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المفخم أو صلة ﴿يتساءلون﴾ و ﴿عَمَّ﴾ متعلق بمضمر مفسر به، ويدل عليه قراءة يعقوب: «عمه».

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بجزم النفي والشك فيه، أو بالإقرار والإنكار.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردع عن التساؤل ووعد عليه.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرير للمبالغة و ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد، وقيل الأول عند النزول والثاني في القيامة، أو الأول للبعث والثاني للجزاء. وعن ابن عامر «ستعلمون» بالتاء على تقدير قل لهم ستعلمون.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكير ببعض ما عاينوا من عجائب صنعه الدالة على كمال قدرته ليستدلوا بذلك على صحة البعث كما مر تقريره مراراً، وقرئ «مهداً» أي أنها لهم كالمهد للصبي مصدر سمي به ما يمهد لينوم عليه.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكراً وأنثى.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً عن الإحساس والحركة استراحة للقوى الحيوانية وإراحة لكلالها، أو موتاً لأنه أحد التوفيق ومنه المسبوت للميت، وأصله القطع أيضاً.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ غطاء يستتر بظلمته من أراد الاختفاء.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقت معاش تتقبلون فيه لتحصيل ما تعيشون به، أو حياة تنبعثون فيها عن

نومكم.

﴿وَبَيَّنَّا فُوقَكُمْ سَنَابِلَ شِدَادٍ﴾ سبع سموات أقوياء محكمات لا يؤثر فيها مرور الدهور.
﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألأ وقاداً من وهجت النار إذا أضاءت، أو بالغاً في الحرارة من الوهج وهو الحر والمراد الشمس.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ ١٤ ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ١٥ ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ ١٦.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السحاب إذا أعصرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر كقولك: أحصد الزرع إذا حان له أن يحصد، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض، أو من الرياح التي حان لها أن تعصر السحاب، أو الرياح ذوات الأعاصير، وإنما جعلت مبدأ للإنزال لأنها تنشئ السحاب وتدرأ خلافه، ويؤيده أنه قرئ «بالمعصرات». «مَاءٌ ثَجَّاجًا» منصباً بكثرة يقال ثجه وثج بنفسه. وفي الحديث «أفضل الحج العج والثج» أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدي، وقرئ «ثججاً» و«ثاجج» الماء مصابه.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ما يقتات به وما يعتلف من التبن والحشيش.

﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ ملتفة بعضها ببعض جمع لف كجذع. قال:

جِنَّةٌ لَفٌ وَعَيْشٌ مُغْدَقٌ وَتَدَامَى كُلُّهُمْ بَيْضُ زَهَرٍ

أو ليف كشریف أو لف جمع لقاء كخضراء وخضر وأخضار أو ملتفة بحذف الزوائد.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا﴾ ١٧ ﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ١٨.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ﴾ في علم الله تعالى أو في حكمه. «مِيقَاتًا» حداً تؤقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حداً للخلائق يتجهون إليه.

﴿يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ﴾ بدل أو بيان ليوم الفصل. «فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا» جماعات من القبور إلى المحشر. روي «أنه ﷺ سئل عنه فقال: يحشر عشرة أصناف من أمتي بعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكسون يسحبون على وجوههم، وبعضهم عمي وبعضهم صم بكم، وبعضهم يمشغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم فيسيل القيح من أفواههم يتقذرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلوبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد تنناً من الجيف، وبعضهم ملبسون جباباً سابعة من قطران لازقة بجلودهم» ثم فسره بالقتات وأهل السحت وأكلة الربا والجائرين في الحكم والمعجيين بأعمالهم، والعلماء الذين خالف قولهم عملهم، والمؤذين جيرانهم والساعين بالناس إلى السلطان، والتابعين للشهوات المانعين حق الله، والمتكبرين الخيلاء.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ ١٩ ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ٢٠.

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ وشقت وقرأ الكوفيون بالتخفيف. «فَكَانَتْ أَبْوَابًا» فصارت من كثرة الشقوق كأن الكل أبواب أو فصارت ذات أبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي في الهواء كالهباء. «فَكَانَتْ سَرَابًا» مثل سراب إذ ترى على صورة الجبال ولم تبق على حقيقتها لتفتت أجزائها وانبثاثها.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ ٢١ ﴿لِلظَّالِمِينَ مَتَابًا﴾ ٢٢ ﴿لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ٢٣.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار، أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها، كالمضمار فإنه الموضع الذي تضرع فيه الخيل، أو مجدة في ترصد الكفرة لئلا يشذ منها واحد كالمطعمان، وقرئ ﴿أَنَّ﴾ بالفتح على التعليل لقيام الساعة.

﴿لِلطَّاغِيَةِ مَنَآبًا﴾ مرجعاً ومأوى.

﴿لَابِثِينَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزة وروح «البشين» وهو أبلغ. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهوراً متتابعة، وليس فيها ما يدل على خروجهم منها إذ لو صح أن الحقب ثمانون سنة أو سبعون ألف سنة، فليس فيه ما يقتضي تنامي تلك الأحقاب لجواز أن يكون المراد أحقاباً مترادفة كلما مضى حقب تبعه آخر، وإن كان فمن قبيل المفهوم فلا يعارض المنطوق الدال على خلود الكفار، ولو جعل قوله:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦).

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا﴾ حالاً من المستكن في ﴿لابسين﴾ أو نصب ﴿أحقاباً﴾ بـ ﴿لا يذوقون﴾ احتمال أن يلبثوا فيها أحقاباً غير ذاتيين إلا حميمًا وغساقًا، ثم يبدلون جنساً آخر من العذاب، ويجوز أن يكون جمع حقب من حقب الرجل إذا أخطأ الرزق، وحقب العام إذا قل مطره وخيره فيكون حالاً بمعنى لابسين فيها حقيين، وقوله ﴿لا يذوقون﴾ تفسير له والمراد بالبرد ما يروحهم وينفس عنهم حر النار، أو النوم وبالفساق ما يفسد أي يسيل من صديدهم، وقيل الزمهرير وهو مستثنى من البرد إلا أنه آخر ليتوافق رؤوس الآي، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ أي جوزوا بذلك جزاء ذا وفاق لأعمالهم، أو موافقاً لها أو وافقها وفاقاً، وقرئ «وفاقاً» فعال من وفقه كذا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بيان لما وافقه هذا الجزاء.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ تكذيباً وفعال بمعنى تفعيل مطرد شائع في كلام الفصحاء. وقرئ بالتخفيف وهو بمعنى الكذب كقوله:

فَصَدَّقَتْهَا وَكَذَّبَتْهَا وَالْمِرَّةُ يَنْقَعُهُ كِذَابُهُ

وإنما أقيم مقام التكذيب للدلالة على أنهم كذبوا في تكذيبهم، أو المكاذبة فإنهم كانوا عند المسلمين كاذبين وكان المسلمون كاذبين عندهم فكان بينهم مكاذبة، أو كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالين فيه، وعلى المعنيين يجوز أن يكون حالاً بمعنى كاذبين أو مكاذبين، ويؤيده أنه قرئ «كَذَابًا» وهو جمع كاذب، ويجوز أن يكون للمبالغة فيكون صفة للمصدر أي تكذيباً مفرطاً كذبه.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ وقرئ بالرفع على الابتداء. ﴿كِتَابًا﴾ مصدر لأحصيناه فإن الأحصاء والكتبة يتشاركان في معنى الضبط أو لفعله المقدر أو حال بمعنى مكتوباً في اللوح، أو صحف الحفظة والجملة اعتراض وقوله:

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات ومجيئه على سرر الالتفات للمبالغة. وفي الحديث «هذه الآية أشد ما في القرآن على أهل النار».

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَتَّايًا وَاعْتَبَا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضع فوز.
 ﴿حَتَّايًا وَاعْتَبَا﴾ بسايتين فيها أنواع الأشجار المثمرة بدل من ﴿مَفَازًا﴾ بدل الاشتمال أو البعض.
 ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نساء فلكت تديهن ﴿أَزَابًا﴾ لدات. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ملائناً وأدهق الحوض ملأه.
 ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيف أي كذباً أو مكاذبة، إذ لا يكذب بعضهم بعضاً.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾.
 ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾. بمقتضى وعده. ﴿عَطَاءٌ﴾ تفضلاً منه إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل من ﴿جزاء﴾، وقيل منتصب به نصب المفعول به. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي، أو على حسب أعمالهم وقرىء «حساباً» أي محسباً كالدرّك بمعنى المدرك.
 ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل من ربك وقد رفعه الحجازيان وأبو عمرو على الابتداء.
 ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالجر صفة له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصم ويعقوب وبالرفع في قراءة أبي عمرو، وفي قراءة حمزة والكسائي بجر الأول ورفع الثاني على أنه خبر محذوف، أو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ والواو لأهل السموات والأرض أي لا يملكون خطابه، والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب لأنهم مملوكون له على الإطلاق فلا يستحقون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعة بإذنه.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اخْذِلْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقرير وتوكيد لقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذا لم يقدرُوا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه، فكيف يملكه غيرهم و ﴿يوم﴾ ظرف لـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، أو لـ ﴿يتكلمون﴾ و ﴿الروح﴾ ملك موكل على الأرواح أو جنسها، أو جبريل أو خلق أعظم من الملائكة.
 ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ﴾ الكائن لا محالة. ﴿فَمَن شَاءَ اخْذِلْ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَتَابًا﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذاب الآخرة، وقربه لتحقيقه فإن كل ما هو آت قريب ولأن مبداء الموت. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدمه من خير أو شر، و ﴿المرء﴾ عام. وقيل هو الكافر لقوله: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ﴾ فيكون الكافر ظاهراً وضع موضع الضمير لزيادة الدم، و ﴿ما﴾ موصولة منصوبة بينظر أو استفهامية منصوبة بـ ﴿قَدَّمَتْ﴾، أي ينظر أي شيء قدمت يده. ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ في الدنيا فلم أخلق ولم أكلف، أو في هذا اليوم فلم أبعث، وقيل يحشر سائر الحيوانات للاقتصاص ثم ترد تراباً فيود الكافر حالها.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة عم سقاه الله برد الشراب يوم القيامة».

سورة النازعات (٧٩)

مكية وآيها خمس أو ست وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ① ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ② ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ ③ ﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ ④ ﴿وَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ⑤

⑤

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ① والنَّازِعَاتِ غَرْقًا أي غرقاً أي إغراقاً في النزاع، فإنهم ينزعونها من صفات ملائكة الموت فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غرقاً أي إغراقاً في النزاع، فإنهم ينزعونها من أقاصي الأبدان، أو نفوساً غرقاً في الأجساد وينشطون أي يخرجون أرواح المؤمنين برفق من نشط الدلو من البشر إذا أخرجها، ويسبحون في إخراجها سباح الغواص الذي يخرج الشيء من أعماق البحر، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنة، فيدبرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيئوها لإدراك ما أعد لها من الآلام واللذات، أو الأوليان لهم والباقيات لطوائف من الملائكة يسبحون في مضيتها أي يسرعون فيه فيسبقون إلى ما أمروا به فيدبرون أمره، أو صفات النجوم فإنها تنزع من المشرق إلى المغرب غرقاً أي تنزع بأن تقطع الفلك حتى تنحط في أقصى الغرب، وتنشط من برج إلى برج أي تخرج من نشط الشور إذا خرج من بلد إلى بلد، ويسبحن في الفلك فيسبق بعضهن في السير لكونه أسرع حركة فيدبر أمراً أي يهيئها، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيت العبادات، ولما كانت حركاتها من المشرق إلى المغرب قسرية وحركاتها من برج إلى برج ملائمة سمي الأولى نزاعاً والثانية نشطاً، أو صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة فإنها تنزع عن الأبدان غرقاً أي نزاعاً شديداً من إغراق النازع في القوس، وتنشط إلى عالم الملكوت وتسبح فيها فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات، أو حال سلوكها فإنها تنزع عن الشهوات فتتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات، أو صفات أنفس الغزاة، أو أيديهم تنزع القسي بإغراق السهام وينشطون بالسهم للرمي ويسبحون في البر والبحر فيسبقون إلى حرب العدو فيدبرون أمرها، أو صفات خيلهم فإنها تنزع في أعنتها نزاعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها وتخرج من دار الإسلام إلى دار الكفر، وتسبح في حربها فتسبق إلى العدو فتدبر أمر الظفر.

أقسم الله تعالى بها على قيام الساعة وإنما حذف دلالة ما بعده عليه.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ⑥ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ⑦ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ⑧ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ⑨

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ⑥ وهو منصوب به والمراد به ﴿الراجفة﴾ الأجرام الساكنة التي تشتد حركتها حينئذ كالأرض والجبال لقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أو الواقعة التي ترجف الأجرام عندها وهي النفخة الأولى.

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ ⑦ التابعة وهي السماء والكواكب تنشق وتنتشر، أو النفخة الثانية. والجملة في موقع

الحال.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ شديدة الاضطراب من الوجيف وهي صفة القلوب والخبر:
﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أي أبصار أصحابها ذليلة من الخوف ولذلك أضافها إلى القلوب.

﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿أَوَّا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً﴾ ﴿١١﴾ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿١٢﴾

﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ في الحالة الأولى يعنون الحياة بعد الموت من قولهم رجع فلان في حافرته أي طريقه التي جاء فيها، فحفرها أي أثر فيها بمشيئه على النسبة كقوله: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أو تشبيه القابل بالفاعل وقرئ «في الحفرة» بمعنى المحفورة يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حفرة.
﴿إِذًا كُنَّا﴾ وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿إِذَا كُنَّا﴾ على الخبر. ﴿عِظَمًا نَخِرَةً﴾ بالية وقرأ الحجازيان والشامي وحفص وروح ﴿نَخِرَةً﴾ وهي أبلغ.
﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ذات خسران أو خاسر أصحابها، والمعنى أنها إن صحت فنحن إذا خاسرون لتكذيبنا بها وهو استهزاء منهم.

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ﴿١٤﴾

﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا يستصعبوها فما هي إلا صيحة واحدة يعني النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في بطنها، والساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها وفي ضدها نائمة، أو لأن سالكها يسهر خوفاً وقيل اسم لجهنم.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿١٥﴾ ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٦﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَيْنِ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿١٧﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ ﴿١٩﴾

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أليس قد أتاك حديثه فيسليك على تكذيب قومك وتهدهم عليه بأن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منهم.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مر بيانه في سورة «طه».

﴿أَذْهَبَ إِلَيْنِ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ على إرادة القول، وقرئ «أن أذهب» لما في النداء من معنى القول.

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا﴾ هل لك ميل إلى أن تتطهر من الكفر والطغيان، وقرأ الحجازيان ويعقوب ﴿تَرْكَبُنَا﴾ بالتشديد.

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ وأرشدك إلى معرفته. ﴿فَتَخْشَى﴾ بأداء الواجبات وترك المحرمات، إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة وهذا كالتفصيل لقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾.

﴿فَأَرَاهُ الْكُتُبَى﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ ﴿٢١﴾ ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿٢٢﴾

﴿فَأَرَاهُ الْكُتُبَى﴾ أي فذهب وبلغ فأراه المعجزة الكبرى وهي قلب العصا حية فإنه كان المقدم والأصل، أو مجموع معجزاته فإنها باعتبار دلالتها كالأية الواحدة.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ فكذب موسى وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقيق الأمر.

﴿ثُمَّ أَذِيزَ﴾ عن الطاعة. ﴿يَسْمَى﴾ ساعياً في إبطال أمره أو أدبر بعدما رأى الشعبان مرعوباً مسرعاً في

مشيه.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن

يَخْشَى (٢٦).

﴿فَحَشَرَ﴾ فجمع السحرة أو جنوده. ﴿فَنَادَى﴾ في المجمع بنفسه أو بمناد.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أعلى كل من يلي أمركم.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أخذاً منكلاً لمن رآه، أو سمنه في الآخرة بالإحراق وفي الدنيا

بالإغراق، أو على كلمته ﴿الآخرة﴾ وهي هذه وكلمته الأولى وهو قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أو للتكثير فيهما، أو لهما، ويجوز أن يكون مصدراً مؤكداً مقدراً بفعله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ لمن كان من شأنه الخشية.

﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَسَمَاءُ بَنَٰهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا (٢٨) وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩).

﴿إِنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعب خلقاً. ﴿أَسَمَاءُ بَنَٰهَا﴾ ثم بين كيف خلقها فقال: ﴿بَنَٰهَا﴾ ثم بين البناء فقال:

﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها الذاهب في العلو رفيعاً. ﴿فَسَوَّيَهَا﴾

فعدلها أو فجعلها مستوية، أو فتممها بما يتم به كمالها من الكواكب والتداوير وغيرها من قولهم: سوى فلان أمره إذا أصلحه.

﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا﴾ أظلمه منقول من غطش الليل إذا أظلم، وإنما أضافه إليها لأنه يحدث بحركتها.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ وأبرز ضوء شمسها. كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ يريد النهار.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَّعْنَاكُمْ

لَا تَعْمَلُونَ (٣٣).

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ بسطها ومهدا للسكنى.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بتفجير العيون. ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ ورعيها وهو في الأصل لموضع الرعي، وتجريد

الجملة عن العاطف لأنها حال بإضمار قد أو بيان للدحو.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أثبتها وقرىء «والأرض» و«الجبال» بالرفع على الابتداء، وهو مرجوح لأن العطف

على فعلية.

﴿مَتَّعْنَاكُمْ لَكُم وَلَاتَعْمَلِكُمْ﴾ تمتعاً لكم ولمواشيكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَوُزِّيَتْ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى (٣٦) قَالَمًا مِّن

طَفَى (٣٧) وَآثَرَ لِمَيِّتَةِ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ﴾ الداهية التي تنظم أي تعلقو على سائر الدواهي. ﴿الْكُبْرَى﴾ التي هي أكبر الطامات

وهي القيامة، أو النفخة الثانية أو الساعة التي يساق فيها أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ بأن يراه مدوناً في صحيفته وكان قد نسيه من فرط الغفلة أو طول المدة،

وهو بدل من «إذا جاءت» و «ما» موصولة أو مصدرية «وَيُورِزَتُ الْجَحِيمُ» وأظهرت. «لَمَنْ يَرَى» لكل راء بحيث لا تخفى على أحد، وقرئ «وبرزت» و «لَمَنْ رَأَى» و «لَمَنْ تَرَى» على أن فيه ضمير الجحيم كقوله تعالى: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ». أو أنه خطاب للرسول ﷺ أي لمن تراه من الكفار، وجواب «فإذا جاءت» محذوف دل عليه «يوم يتذكر» أو ما بعده من التفصيل.

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ حتى كفر.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فانهك فيها ولم يستعد للآخرة بالعبادة وتهذيب النفس.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ هي مأواه واللام فيه سادة مسد الإضافة للعلم بأن صاحب المأوى هو الطاغى، وهي فصل أو مبتداً.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿٤١﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ لعلمه بأنه مرد.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ليس له سواها مأوى.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَا﴾ ﴿٤٤﴾.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ متى إرساؤها أي إقامتها وإثباتها، أو منتهاها ومستقرها من مرسى السفينة وهو حيث تنتهي إليه وتستقر فيه.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ في أي شيء أنت من أن تذكر وقتها لهم أي ما أنت من ذكرها لهم، وتبيين وقتها في شيء فإن ذكرها لا يزيدهم إلا غيًّا. ووقتها مما استأثره الله تعالى بعلمه. وقيل «قيم» إنكار لسؤالهم و «أنت من ذكرها» مستأنف، ومعناه أنت ذكر من ذكرها أي علامة من أشراتها، فإن إرساله خاتماً للأنبياء أمانة من أماراتها، وقيل إنه متصل بسؤالهم والجواب.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ أي منتهى علمها.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ إنما بعثت لإنذار من يخاف هولها، وهو لا يناسب تعيين الوقت وتخصيص من يخشى لأنه المنتفع به، وعن أبي عمرو ومنذر بالتنوين والإعمال على الأصل لأنه بمعنى الحال.

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا أو في القبور. «إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا» أي عشية يوم أو ضحاه كقوله «إلا ساعة من نهار» ولذلك أضاف الضحى إلى ال «عشية» لأنهما من يوم واحد.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النازعات كان ممن حبسه الله في القيامة حتى يدخل الجنة قدر صلاة المكتوبة».

(٨٠) سورة عبس

مكية وآيها ثنتان وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾. «أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى» روي: أن ابن أم مكتوم أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله، وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت، فكان رسول الله ﷺ يكرمه ويقول إذا رآه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، واستخلفه على المدينة مرتين. وقرئ «عَبَسَ» بالتشديد للمبالغة و «أَنْ جَاءَهُ» علة ل «تَوَلَّى»، أو «عبس» على اختلاف المذهبيين، وقرئ «أَنْ» بهمزتين ويألف بينهما بمعنى ألثن جاءه الأعمى فعل ذلك، وذكر الأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله ﷺ بالقوم والدلالة على أنه أحق بالرافة والرفق، أو لزيادة الإنكار كأنه قال: تولى لكونه أعمى كالالتفات في قوله:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى﴾ أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك. وفيه إيحاء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أو يتعظ فتتنفعه موعظتك، وقيل الضمير في «لعله» للكافر أي أنك طمعت في تزكيه بالإسلام وتذكره بالموعظة ولذلك أعرضت عن غيره، فما يدريك أن ما طمعت فيه كائن، وقرأ عاصم فتتنفع بالنصب جواباً للعل.

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ﴿٧﴾﴾

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى﴾ «فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى» تتعرض له بالإقبال عليه وأصله تتصدي، وقرأ ابن كثير ونافع «تَصَدَّى» بالإدغام وقرئ. «تَصَدَّى» أي تعرض وتدعى إلى التصدي. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض عن أسلم «إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ».

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يسرع طالباً للخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ الله أو أذية الكفار في إتيانك، أو كبوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له.

﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ تتشاغل، يقال لها عنه والتهى و «تلهى»، ولعل ذكر التصدي والتلهي للإشعار بأن

العتاب على اهتمام قلبه بالغني وتلهيه عن الفقير، ومثله لا ينبغي له ذلك.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْفَعُهُمْ مَطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾

كِرَامٍ بَرَرُوا ﴿١٦﴾

﴿كَلَامٌ﴾ ردع عن المعاتب عليه أو عن معاودة مثله. ﴿إِنَّمَا تَذَكُّرَةٌ﴾.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ﴾ حفظه أو اتعظ به والضميران للقرآن، أو العتاب المذكور وتأنيث الأول لتأنيث خبره.

﴿فِي ضُحُفٍ﴾ مثبتة فيها صفة لتذكرة، أو خبر ثان أو خبر لمحذوف. ﴿مَكْرَمَةٌ﴾ عند الله.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ منزهة عن أيدي الشياطين:

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كتبة من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي، أو سفراء يسفرون

بالوحي بين الله تعالى ورسله، أو الأمة جمع سافر من السفر، أو السفارة والتركيب للكشف يقال سفرت المرأة إذا كشفت وجهها.

﴿كِرَامٍ﴾ أعزاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ اتقياء.

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُهُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ دعاه عليه بأشنع الدعوات وتعجب من إفراطه في الكفران، وهو مع قصره يدل على سخط عظيم وذم يبلغ.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ بيان لما أنعم عليه خصوصاً من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير ولذلك أجاب عنه بقوله:

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرُهُ﴾ فهيأ لما يصلح له من الأعضاء والأشكال، أو ﴿فقدرة﴾ أطواراً إلى أن تم خلقته.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرُهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنْشِرُهُ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ﴾ ثم سهل مخرجه من بطن أمه بأن فتح فوهة الرحم وألهمه أن ينتكس، أو ذلل له سبيل الخير والشر ونصب السبيل بفعل يفسره الظاهر للمبالغة في التيسير، وتعريفه باللام دون الإضافة للإشعار بأنه سبيل عام، وفيه على المعنى الأخير إيماء بأن الدنيا طريق والمقصد غيرها ولذلك عقبه بقوله:

﴿ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرُهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنْشِرُهُ﴾ وعد الإماتة والإقبار في النعم لأن الإماتة وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية واللذات الخالصة والأمر بالقبر تكرمة وصيانة عن السباع، وفي ﴿إِذَا شَاءَ﴾ إشعار بأن وقت النشور غير متعين في نفسه، وإنما هو موكل إلى مشيئته تعالى.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضِ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ فَلَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿كَلَامٌ﴾ ردع للإنسان بما هو عليه. ﴿لَمَّا يَقُضِ مَا أَمَرُهُ﴾ لم يقض بعد من لدن آدم إلى هذه الغاية ما أمره الله بأسره، إذ لا يخلو أحد من تقصير ما.

﴿فَلَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إتياع للنعم الذاتية بالنعم الخارجية.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ استئناف مبين لكيفية إحداث الطعام، وقرأ الكوفيون بالفتح على البذل منه بدل الاشتمال.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبَلْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنبات أو بالكراب، وأسند الشق إلى نفسه إسناد الفعل إلى السبب.

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطة والشعير.

﴿وَعَبَبًا وَقَضْبًا﴾ يعني الرطبة سميت بمصدر قضبه إذا قطعه لأنها تقضب مرة بعد أخرى.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢).

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا عظاماً وصف به الحدائق لتكاثفها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ومرعى من أب إذا أم لأنه يؤم ويتجمع، أو من أب لكذا إذا تهيأ له لأنه متهيئ للرعي، أو فاكهة يابسة تزوب للشتاء.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أُمْرٍي مَنَظَرٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧).

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ أي النسخة وصفت بها مجازاً لأن الناس يصخون لها.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ «وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ» «وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ» لاشتغاله بشأنه وعلمه بأنهم لا ينفعونه، أو للحذر من مطالبتهم بما قصر في حقهم وتأخير الأحب فالأحب للمبالغة كأنه قيل: يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبه وبنيه.

﴿لِكُلِّ أُمْرٍي مَنَظَرٌ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، وقرئ «يعنيه» أي يهمله.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضبئة من إسفار الصبح.

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترى من النعيم.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبار وكدورة.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يَغشاها سواد وظلمة.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجور، فلذلك يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة.

قال النبي ﷺ «من قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهه ضاحك مستبشر».

(٨١) سورة التكويد

مكية وآيها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لفت من كورت العمامة إذا لفتتها بمعنى رفعت لأن الثوب إذا أريد رفعه لف، أو لف ضوءها فذهب انبساطه في الآفاق وزال أثره، أو ألقيت عن فلکها من طعنه فكوره إذا ألقاه مجتمعاً والتركيب للإدارة والجمع وارتفاع الشمس بفعل يفسره ما بعدها أولى لأن إذا الشرطية تطلب الفعل.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ انقضت قال: أَبْصَرَ خَزْيَانٌ قَضَاءً فأنكدر. أو أظلمت من كدرت الماء فأنكدر.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرض أو في الجو.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ النوق اللواتي أتى على حملهن عشرة أشهر جمع عشاء. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت مهملة، أو السحائب عطلت عن المطر، وقرئ بالتخفيف.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعت من كل جانب أو بعثت للقصاص ثم ردت تراباً، أو أميتت من قولهم إذا أجمعت السنة بالناس حشرتهم، وقرئ بالتشديد.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أحميت أو ملئت بتفجير بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، من سجر التنور إذا ملأه بالحطب ليحميه، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروح بالتخفيف.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قرنت بالأبدان أو كل منها بشكلها، أو بكتابها وعملها أو نفوس المؤمنين بالحرور ونفوس الكافرين بالشیاطين.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ﴾ المدفونة حية وكانت العرب تئد البنات مخافة الإملاق، أو لحقوق العار بهم من أجلهن.

﴿سُئِلَتْ﴾ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ تبيكاً لوائدها كتبكت النصرارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقرئ «سألت» أي خاصمت عن نفسها وسألت، وإنما قيل «قتلت» على الإخبار عنها وقرئ «قتلت» على الحكاية.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحف الأعمال فإنها تطوى عند الموت وتنشر وقت الحساب. وقيل «نشرت» فرقت بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي بالتشديد للمبالغة في النشر، أو

لكثرة الصحف أو شدة التطاير.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَبْهَتُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة، وقرىء «كشطت» واعتقاب القاف والكاف كثير.

﴿وَإِذَا الْجَبْهَتُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدت إيقاداً شديداً وقرأ نافع وابن عامر وحفص ورويس بالتشديد. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قربت من المؤمنين. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ وإنما صح والمذكور في سياقها اثنتا عشرة خصلة ست منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا وست بعده، لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها، و «نفس» في معنى العموم كقولهم ثمرة خير من جرادة.

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَمَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْخُنُوسِ﴾ بالكواكب الرواجع من خنس إذا تأخر، وهي ما سوى النيرين من الكواكب السيارات ولذلك وصفها بقوله:

﴿الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ أي السيارات التي تختفي تحت ضوء الشمس من كنس الوحش إذا دخل كناسه، وهو بيته المتخذ من أغصان الشجر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَمَسَ﴾ أقبل ظلامه أو أدبر وهو من الأضداد يقال عمس الليل وسعسع إذا أدبر. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي أضاء غيرته عند إقبال روح ونسيم.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني جبريل فإنه قاله عن الله تعالى. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله شديد القوى. ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ عند الله ذي مكانة. ﴿مُطَاعٍ﴾ في ملائحته. ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ على الوحي، وثم يحتمل اتصاله بما قبله وما بعده، وقرىء «ثم» تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفات.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ كما تبهته الكفرة واستدل بذلك على فضل جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي ﷺ، وهو ضعيف إذ المقصود منه نفي قولهم «إنما يعلمه بشر» «افترى على الله كذباً أم به جنة» لا تعداد فضلها والموازنة بينهما.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ ولقد رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه الصلاة والسلام. ﴿بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمد عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ على ما يخبره من الموحى إليه وغيره من الغيوب. ﴿بِضَنِينٍ﴾ بمتهم من الظنة، وهي التهمة، وقرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر «بضنين» بالضاد من

الضن وهو البخل أي لا يبخل بالتبليغ والتعليم، والضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره، والظاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ بقول بعض المسترقة للسمع، وهو نفي لقولهم إنه لكهانة وسحر.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦) **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** (٢٧) **لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ** (٢٨) **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٢٩).

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر الرسول ﷺ والقرآن، كقولك لتارك الجادة: أين تذهب.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ تذكير لمن يعلم.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ بتحري الحق وملازمة الصواب وإبداله من العالمين لأنهم المنتفعون بالتذكير.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الاستقامة يا من يشاؤها. ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا وقت أن يشاء الله مشيئتكم فله الفضل والحق عليكم باستقامتكم. ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك الخلق كله.

قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة التكويد أعاده الله أن يفضحه حين تنتشر صحيفته».

(٨٢) سورة الانفطار

مكية وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾﴾

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ انشقت.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ﴾ تساقطت متفرقة.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فتح بعضها إلى بعض فصار الكل بحراً واحداً.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ﴾ قلب ترابها وأخرج موتاها. وقيل إنه مركب من بعث وراء الإثارة كبسمل ونظيره

بحثر لفظاً ومعنى.

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ من عمل أو صدقة. ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ من سيئة أو تركة، ويجوز أن يراد بالتأخير

التضييع وهو جواب ﴿إِذَا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أي شيء خدعك وجراك على عصيانه، وذكر ﴿الكريم﴾ للمبالغة

في المنع عن الاغترار فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم وتسوية الموالى والمعادى والمطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام والإشعار بما به يغره الشيطان، فإنه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجِدَّ في طاعته لا الانهماك في عصيانه اغتراراً بكرمه.

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقررة للربوبية مبينة للكرم منبهة على أن من قدر على ذلك أولاً قدر عليه ثانياً، والتسوية جعل الأعضاء سليمة مسواة معدة لمنافعها، والتعديل جعل البنية معتدلة متناسبة الأعضاء، أو معدلة بما تسعدها من القوى. وقرأ الكوفيون ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت، أو فصرفك عن خلقه غيرك وميزك بخلقة فارقت خلقة سائر الحيوان.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركبك في أي صورة شاءها، و ﴿مَّا﴾ مزيدة وقيل شرطية، و

﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابها و ﴿الظرف﴾ صلة ﴿عدلك﴾، وإنما لم يعطف الجملة على ما قبلها لأنها بيان لعدلك.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكرم الله وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ إضراب إلى بيان ما هو السبب الأصلي

في اغترارهم، والمراد ﴿بالذين﴾ الجزء أو الإسلام.

﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ ﴿كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيق لما يكذبون به ورد لما يتوقعون من التسامح والإهمال، وتعظيم الكتبة بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزاء.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿وَلِلَّ الْفَجَّارِ لَفِي جَحِيمٍ﴾ ﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ بيان لما يكتبون لأجله.
﴿يَصَلُّونَهَا﴾ يقاسون حرها. ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾. لخلودهم فيها. وقيل معناه وما يغيبون عنها قبل ذلك إذ كانوا يجدون سمومها في القبور.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ تعجيب وتفخيم لشأن الـ ﴿يوم﴾، أي كنه أمره بحيث لا تدركه دراية دار.

﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ تقرير لشدة هوله وفخامة أمره إجمالاً، ورفع ابن كثير والبصريان ﴿يوم﴾ على البدل من ﴿يوم الدين﴾، أو الخبر المحذوف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة إذا السماء انفطرت كتب الله له بعدد كل قطرة من السماء حسنة، وبعدد كل قبر حسنة». والله أعلم.

(٨٣) سورة المطففين

مختلف فيها وآيها ست وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)

﴿٣﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير. روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه، وفي الحديث «خمس بخمس: ما نقض العهد قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر».

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل ﴿على﴾ بمن للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم. ﴿يُخْسِرُونَ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُوا وَعَسَاقِلًا. بمعنى جنيت لك، أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع، لا في المباشرة وعدمها ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴿٦﴾

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن تيقنه وفيه انكار وتعجب من حالهم.

﴿ليوم عظيم﴾ عظمه لعظم ما يكون فيه ﴿يوم يقوم الناس﴾ نصب بمبعوثون أو بدل من الجار والمجرور ويؤيده القراءة بالجر ﴿لرب العالمين﴾ لحكمه.

وفي هذا الانكار والتعجب وذكر الظن ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله، والتعبير عنه برب العالمين مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم. ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ كتاب جامع لأعمال الفجرة من الثقيلين كما قال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مسطور بين الكتابة أو معلم يعلم من رآه أنه لا خير فيه،

فعيل من السجن لقب به الكتاب لأنه سبب الحبس، أو لأنه مطروح كما قيل: تحت الأرضين في مكان وحش، وقيل هو اسم مكان والتقدير ما كتاب السجين، أو محل كتاب مرقوم فحذف المضاف.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحق أو بذلك.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ صفة مخصصة أو موضحة أو دامة.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوز عن النظر غال في التقليد حتى استقصر قدرة الله تعالى وعلمه فاستحال منه الإعادة. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في الشهوات المخدجة بحيث أشغلتها عما وزاها وحملت على الإنكار لما عداها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من فرط جهله وإعراضه عن الحق فلا تنفعه شواهد النقل كما لم تنفعه دلائل العقل.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن هذا القول. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ رد لما قالوه وبيان لما أدى بهم إلى هذا القول، بأن غلب عليهم حب المعاصي بالانهماك فيها حتى صار ذلك صدأ على قلوبهم فغمى عليهم معرفة الحق والباطل، فإن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكات كما قال عليه الصلاة والسلام «إن العبد كلما أذنب ذنباً حصل في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه» والرين الصدأ، وقرأ حفص ﴿بَلْ رَانَ﴾ بإظهار اللام.

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الكسب الرائن. ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ فلا يروونه بخلاف المؤمنين ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلاً لإهانتهم بإهانة من يمنع عن الدخول على الملوك، أو قدر مضافاً مثل رحمة ربهم، أو قرب ربهم.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ليدخلون النار ويصلون بها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ تقوله لهم الزبانية.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ تكرير ليعقب بوعد الأبرار كما عقب الأول بوعيد الفجار إشعاراً بأن التطفيف فجور والإيفاء بر، أو ردع عن التكذيب. ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ «كِتَابٌ مَرْقُومٌ» الكلام فيه ما مر في نظيره.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يحضرونه فيحفظونه، أو يشهدون على ما فيه يوم القيامة.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ «عَلَى الْأَرَائِكِ» على الأسرة في الحجال. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما يسرهم من النعم والمتفرجات.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

الْمُنْتَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ .

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ بهجة التنعيم وبريقه، وقرأ يعقوب ﴿تعرف﴾ على البناء للمفعول و ﴿نضرة﴾ بالرفع .

﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ شراب خالص . ﴿مَخْتُومٌ﴾ خَتَامُهُ مِنْكَ أي مختوم أوانيه بالمسك مكان الطين، ولعله تمثيل لنفاسه، أو الذي له ختام أي مقطع هو رائحة المسك، وقرأ الكسائي «خَاتَمَهُ» بفتح التاء أي ما يختم به ويقطع . ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ يعني الرحيق أو النعيم . ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ فليرتغب المرتغبون .

﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ علم لعين بعينها سميت تسنيماً لارتفاع مكانها أو رفعة شرابها .
﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنهم يشربونها صرفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، وتمزج لسائر أهل الجنة وانتصاب ﴿عَيْنًا﴾ على المدح أو الحال ﴿من تسنيم﴾ والكلام في الباء كما في ﴿يشرب بها عباد الله﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾
﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ يعني رؤساء قريش . ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزئون بفقراء المؤمنين .

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم .
﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ متلذذين بالسخرية منهم، وقرأ حفص ﴿فكهمين﴾ .
﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنين نسبهم إلى الضلال .
﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين . ﴿حَافِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أعمالهم ويشهدون برشدتهم وضلالهم .

﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم أذلاء مغلوبين في النار . وقيل يفتح لهم باب إلى الجنة فيقال لهم اخرجوا إليها، فإذا وصلوا أغلق دونهم فيضحك المؤمنون منهم .
﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ حال من ﴿يضحكون﴾ .

﴿هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ﴾ أي هل أثيبتوا . ﴿وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بادغام اللام في التاء .
عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المطففين سقاء الله من الرحيق المختوم يوم القيامة» .

(٨٤) سورة الانشقاق

مكية وآيها خمس وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ بالغمام كقوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وعن علي رضي الله تعالى عنه: تنشق من المجرة.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطوع الذي يأذن للأمر ويدعن له. ﴿وَحُقَّتْ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد يقال: حق بكذا فهو محقق وحقيق.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت بأن تزال جبالها وآكامها.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموال ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وتكلفت في الخلو أقصى جهدها حتى لم يبق شيء في باطنها.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلي. ﴿وَحُقَّتْ﴾ للإذن وتكرير ﴿إِذَا﴾ لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة، وجوابه محذوف للتحويل بالإبهام أو الاكتفاء بما مر في سورتي «التكوير» و«الانفطار» أو لدلالة قوله.

﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقْلُبُ إِلَيْهِ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ عليه وتقديره لاقى الإنسان كدحه أي جهداً يؤثر فيه من كدحه إذا خدشه، أو «فملاقية» و «يأتيها الإنسان إنك كادح إلى ربك» اعتراض، والكدح إليه السعي إلى لقاء جزائه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ «فسوف يحاسب حساباً يسيراً» سهلاً لا يناقش فيه.

﴿وَنَقْلُبُ إِلَيْهِ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريق المؤمنين، أو «أهله» في الجنة من الحور.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره. قيل تغل يمينه إلى عنقه وتجعل يسراه وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ يتمنى الثبور ويقول يا ثبوره وهو الهلاك.

﴿وَيُضَلَّى سَعِيرًا﴾ وقرأ الحجازيان والشامي ﴿وَيُضَلَّى﴾ لقوله: ﴿وتصلية جحيم﴾ وقرأ ﴿وَيُضَلَّى﴾ لقوله: ﴿ونصلية جهنم﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ مَسْرُورًا﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ لَنْ يَحْجُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِمْ﴾ أي في الدنيا. ﴿مَسْرُورًا﴾ بطراً بالمال والجاه فارغاً عن الآخرة.

﴿إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَنَّ لَنْ يَحْجُورَ﴾ لن يرجع إلى الله تعالى.

﴿بَلَى﴾ إيجاب لما بعد ﴿لَنْ﴾. ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالماً بأعماله فلا يهمله بل يرجعه ويجازيه.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ الحمرة التي ترى في أفق المغرب بعد الغروب. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنه البياض الذي يليها، سمي به لرقته من الشفقة.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جمعه وستره من الدواب وغيرها يقال: وسقه فاتسق واستوسق، قال: مُتَوَسِّقَاتٍ لَوْ يَجِدُنَّ سَائِقًا. أو طرده إلى أماكنه من الوسيقة.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ اجتمع وتم بدرًا.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال مطابقة لأختها في الشدة، وهو لما طابق غيره ف قيل للحال المطابقة، أو مراتب من الشدة بعد المراتب هي الموت ومواطن القيامة وأحوالها، أو هي وما قبلها من الدواهي على أنه جمع طبقة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ﴿لتركين﴾ بالفتح على خطاب الإنسان باعتبار اللفظ، أو الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ﴿لتركين﴾ حالاً شريفة ومرتبة عالية بعد حال ومرتبة، أو ﴿طَبَقًا﴾ من أطباق السماء بعد طبق ليلة المعراج وبالكسر على خطاب النفس، وبالياء على الغيبة و ﴿عَنْ طَبَقٍ﴾ صفة لـ ﴿طَبَقًا﴾ أو حال من الضمير بمعنى مجاوز الـ ﴿طَبَقِ﴾ أو مجاوزين له.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيوم القيامة.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ لا يخضعون أو ﴿لا يسجدون﴾ لتلاوته. لما روي: أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿واسجد واقترب﴾ فسجد بمن معه من المؤمنين، وقرش تصفق فوق رؤوسهم فنزلت. واحتج به أبو حنيفة على وجوب السجود فإنه ذم لمن سمعه ولم يسجد. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي بالقرآن.

﴿وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم من الكفر والعداوة.

﴿قَبَسْنَاهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاء بهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطع أو متصل، والمراد من تاب وآمن منهم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ مقطوع أو «ممنون» به عليهم.

وعن النبي ﷺ «من قرأ سورة الانشقاق أعاده الله أن يعطيه كتابه وراء ظهره».

(٨٥) سورة البروج

مكية وآياتها ثنتان وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ يعني البروج الاثني عشر شبهت بالقصور لأنها تنزلها السيارات وتكون فيها الثوابت، أو منازل القمر أو عظام الكواكب سميت بروجاً لظهورها، أو أبواب السماء فإن النوازل تخرج منها وأصل التركيب للظهور.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ومن يشهد في ذلك اليوم من الخلائق وما أحضر فيه من العجائب، وتنكيرهما للإيهام في الوصف أي ﴿وشاهد ومشهود﴾ لا يكتنه وصفهما، أو المبالغة في الكثرة كأنه قيل: ما أفرطت كثرتهم من شاهد ومشهود، أو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته، أو أمته وسائر الأمم، أو كل نبي وأمته، أو الخالق والخلق، أو عكسه فإن الخالق مطلع على خلقه وهو شاهد على وجوده، أو الملك الحفيظ والمكلف أو يوم النحر، أو عرفة والحجيج، أو يوم الجمعة والجمع فإنه يشهد له أو كل يوم وأهله.

﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾﴾

﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ قيل إنه جواب القسم على تقدير لقد ﴿قتل﴾، والأظهر أنه دليل جواب محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق. روي مرفوعاً: أن ملكاً كان له ساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليه من الساحر فاقتلها فقتلها، وكان الغلام بغد يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء، وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه فقال ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب ففقه بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل لي طرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله رب هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوق في صدغه فمات، فأمن الناس برب الغلام، فأمر بأخايد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق فاقترحت. وعن علي رضي الله تعالى عنه: كان بعض ملوك المجوس خطب الناس وقال: إن الله أحل نكاح الأخوات فلم يقبلوه، فأمر بأخايد النار فطرح فيها من أبي، وقيل لما تنصر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخاديد من لم يرتد.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ .

﴿النَّارِ﴾ بدل من ﴿الأخدود﴾ بدل الاشتمال. ﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ صفة لها بالعظمة وكثرة ما يرتفع به لهبها، واللام في ﴿الوقود﴾ للجنس.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافة النار. ﴿قُعُودٌ﴾ قاعدون.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنهم لم يقصروا فيما أمروا به، أو يشهدون على ما يفعلون يوم القيامة حين تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩ .

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا. ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ استثناء على طريقة قوله:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَن سُيُوفَهُمْ يَهِنُ قُلُوبٌ مِّن قِرَاعِ الْكِتَابِ

ووصفه بكونه عزيزاً غالباً يبخس عقابه حميداً منعماً يرجى ثوابه وقرر ذلك بقوله:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعار بما يستحق أن يؤمن به ويعبد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ ١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بلوهم بالأذى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ العذاب الزائد في الإحراق بفتنتهم. بل المراد بـ ﴿الذين فتنوا﴾ أصحاب الأخدود. وبـ ﴿عذاب الحريق﴾ ما روي أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ إذ الدنيا وما فيها تصغر دونه.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥ فَمَّا لِمَا يُرِيدُ ١٦ .

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ مضاعف عتفه فإن البطش أخذ بعنف.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ «يبديء» الخلق ويعيده، أو «يبديء» البطش بالكفرة في الدنيا ويعيده في الآخرة.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب. ﴿الْوَدُودُ﴾ المحب لمن أطاع.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خالقه، وقيل المراد بـ ﴿العرش﴾ الملك، وقرئ «ذي العرش» صفة لـ ﴿ربك﴾.

﴿الْمَجِيدُ﴾ العظيم في ذاته وصفاته، فإنه واجب الوجود تام القدرة والحكمة، وجره حمزة والكسائي صفة لـ ﴿ربك﴾، أو لـ ﴿العرش﴾ ومجده علوه وعظمته.

﴿فَمَّا لِمَا يُرِيدُ﴾ لا يمتنع عليه مراد من أفعاله وأفعال غيره.

﴿هَلْ أُنَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۚ﴾ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾

﴿هَلْ أُنَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ «فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ» أبدلهما من الجنود لأن المراد بـ «فِرْعَوْنَ» هو وقومه، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسول وما حاق بهم فتسل واصبر على تكذيب قومك وحذرهم مثل ما أصابهم. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ لا يرفعون عنه، ومعنى الإضراب أن حالهم أعجب من حال هؤلاء فإنهم سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم وكذبوا أشد من تكذيبهم. ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط المحيط.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۚ﴾ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ بل هذا الذي كذبوا به كتاب شريف وحيد في النظم والمعنى، وقرىء «قرآن مجيد» بالإضافة أي قرآن رب مجيد.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التحريف، وقرأ نافع «مَحْفُوظٌ» بالرفع صفة للـ «قُرْآنٍ»، وقرىء «في لوح» وهو الهواء يعني ما فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة البروج أعطاه الله بعدد كل جمعة وعرفة تكون في الدنيا عشر حسنات».

(٨٦) سورة الطارق

مكية وآيها سبع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ والكوكب البادي بالليل وهو في الأصل لسالك الطريق، واختص عرفاً بالآتي ليلاً ثم استعمل للبادي فيه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ «النَّجْمُ الثَّاقِبُ» المضيء كأنه يشق الظلام بضوئه فينفذ فيه، أو الأفلاك والمراد الجنس أو معهود بالثقب وهو زحل، عبر عنه أولاً بوصف عام ثم فسره بما يخصه تفخيماً لشأنه.

﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا﴾ أي إن الشأن كل نفس لعلها. «حَافِظٌ» رقيب فإن هي المخففة واللام الفاصلة وما مزيدة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحزمة لما على أنها بمعنى إلا وإن نافية، والجملة على الوجهين جواب القسم.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذكر أن كل نفس عليها حافظ أتبعه توصية الإنسان بالنظر في مبدئه ليعلم صحة إعادته فلا يملئ على حافظه إلا ما يسره في عاقبته.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ جواب الاستفهام و «ماء» بمعنى ذي دفق، وهو صب فيه دفع والمراد الممتزج من المائين في الرحم لقوله:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي عظام صدرها، ولو صح أن النطفة تتولد من فضل الهضم الرابع وتنفصل عن جميع الأعضاء حتى تستعد لأن يتولد منها مثل تلك الأعضاء، ومقرها عروق ملتف بعضها ببعض عند البيضتين، فلا شك أن الدماغ أعظم الأعضاء معونة في توليدها، ولذلك تشبهه، ويسرع الإفراط في الجماع بالضعف فيه وله خليفة وهو النخاع وهو في الصلب وشعب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقرب إلى أوعية المنى فلذلك خصاً بالذكر. وقرئ «الصلب» بفتحيتين و «الصلب» بضميتين وفيه لغة رابعة وهي «صالب».

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ والضمير للمخالق ويدل عليه «خلق».

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ تتعرف ويميز بين ما طاب من الضمائر وما خفي من الأعمال وما خبث منها، وهو ظرف ل «رجعه».

﴿فَمَا لَهُ﴾ فما للإنسان. «مِنْ قُوَّةٍ» من منعة في نفسه يتمتع بها. «وَلَا نَاصِرٍ» يمنعه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۖ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۖ﴾ (١١).

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ترجع في كل دورة إلى الموضع الذي تتحرك عنه، وقيل الرجع المطر سمي به كما سمي أوباً لأن الله يرجعه وقتاً فوقتاً، أو لما قيل من أن السحاب يحمل الماء من البحار ثم يرجعه إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أن يراد بـ ﴿السَّمَاءِ﴾ السحاب.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ ما تنصدع عنه الأرض من النبات أو الشق بالنبات والعيون.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۖ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۚ﴾ (١٣) ﴿وَهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ﴾ (١٤) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ﴾ (١٥) ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِدًا ۖ﴾ (١٦).

﴿إِنَّهُ﴾ إن القرآن. ﴿لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ فاصل بين الحق والباطل.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ فإنه جد كله.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهل مكة. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ في إبطاله وإطفاء نوره.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأقابلهم بكيد في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيث لا يحتسبون.

﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تشتغل بالانتقام منهم، أو لا تستعجل بإهلاكهم. ﴿أَهْلُهُمْ رُؤِدًا﴾ أمهالاً يسيراً والتكرير وتغيير البنية لزيادة التسكين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الطارق أعطاه الله بعدد بكل نجم في السماء عشر حسنات».

(٨٧) سورة الأعلى

مكية وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾﴾

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ نزه اسمه عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة وإطلاقه على غيره زاعماً أنهما فيه سواء وذكره لا على على وجه التعظيم، وقرأ «سبحان ربي الأعلى». وفي الحديث «لما نزلت ﴿سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في ركوعكم، فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال عليه الصلاة والسلام اجعلوها في سجودكم» وكانوا يقولون في الركوع اللهم لك زكعت وفي السجود اللهم لك سجدت.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ خلق كل شيء فسوى خلقه بأن جعل له ما به يتأتى كماله ويتم معاشه.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي قدر أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها وآجالها. ﴿فَهَدَى﴾ فوجهه إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلق الميول والإلهامات ونصب الدلائل وانزال الآيات.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أنبت ما ترعاه الدواب.

﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد خضرته. ﴿غَنَاءً أَحْوَى﴾ يابساً أسود. وقيل ﴿أَحْوَى﴾ حال من المرعى أي أخرجه ﴿أَحْوَى﴾ أي أسود من شدة خضرته.

﴿سَتَقَرُّكَ فَلَاقُنَّ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾﴾

﴿سَتَقَرُّكَ﴾ على لسان جبريل عليه الصلاة والسلام، أو سنجعلك قارئاً بإلهام القراءة. ﴿فَلَاقُنَّ﴾ أصلاً من قوة الحفظ مع أنك أُمي ليكون ذلك آية أخرى لك مع أن الإخبار به عما يستقبل ووقوعه كذلك أيضاً من الآيات، وقيل نهي والالف للفاصلة كقوله ﴿السَّبِيلَا﴾. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نسيانه بأن نسخ تلاوته، وقيل أراد به القلة والندرة. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أسقط آية في قراءته في الصلاة فحسب أبي أنها نسخت فسأله فقال: نسيته». أو نفى النسيان رأساً فإن القلة تستعمل للنفي. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ما ظهر من أحوالكم وما بطن، أو جهرك بالقراءة مع جبريل عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافة النسيان فيعلم ما فيه صلاحكم من إبقاء وإنشاء.

﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾﴾

﴿وَيُنِيرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ونعذك للطريقة اليسرى في حفظ الوحي، أو التدين ونوفقك لها ولهذه النكتة قال ﴿نيسرك﴾ لا نيسر لك عطف على ﴿ستقرتك﴾، و﴿إنه يعلم﴾ اعتراض.

﴿فَذَكِّرْ﴾ بعد ما استتب لك الأمر. ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لعل هذه الشرطية إنما جاءت بعد تكرير التذكير وحصول اليأس من البعض لثلا يتعب نفسه ويتلهف عليهم كقوله: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ الآية، أو لذم المذكرين واستبعاد تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأن التذكير إنما يجب إذا ظن نفعه ولذلك أمر بالإعراض عن تولى.

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ سيتعظ ويستفيع بها من يخشى الله تعالى بأن يتأمل فيها فيعلم حقيقتها، وهو يتناول العارف والمتردد.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣).

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنب ﴿الذكرى﴾. ﴿الاشقى﴾ الكافر فإنه أشقى من الفاسق، أو ﴿الاشقى﴾ من الكفرة لتوغله في الكفر.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ نار جهنم فإنه عليه الصلاة والسلام قال «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، أو ما في الدرك الأسفل منها.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح. ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياة تنفعه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ تطهر من الكفر والمعصية، أو تكثر من التقوى من الزكاء، أو تطهر للصلاة أو أدى الزكاة.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّى﴾ كقوله: ﴿اقم الصلاة لذكركي﴾ ويجوز أن يراد بالذكر تكبيرة التحريم، وقيل ﴿تزكى﴾ تصدق للفظ ﴿وذكر اسم ربه﴾ كبره يوم العيد ﴿فصلّى﴾ صلاته.

﴿بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فلا تفعلون ما يسعدكم في الآخرة، والخطاب للأشقيين على الالتفات أو على إضمار قل، أو للكل فإن السعي للدنيا أكثر في الجملة، وقرأ أبو عمرو بالياء.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فإن نعيمها ملذ بالذات خالص عن الغوائل لا انقطاع له.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩).

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ الإشارة إلى ما سبق من ﴿قد أفلح﴾ فإنه جامع أمر الديانة وخلاصة الكتب المنزلة.

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ بدل من الصحف الأولى.

قال ﷺ «من قرأ سورة الأعلى أعطاه الله عشر حسنات بعدد كل حرف أنزله الله على إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام».

سورة الغاشية

مكية وهي ست وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ۝٥﴾ .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها يعني يوم القيامة، أو النار من قوله تعالى ﴿وتغشى وجوههم النار﴾ .
﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة .

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ تعمل ما تتعب فيه كجر السلاسل وخوضها في النار خوض الإبل في الوحل، والصعود والهبوط في تلالها ووهادها، أو عملت ونصبت في أعمال لا تنفعها يومئذ .
﴿تَصَلَّى نَارًا﴾ تدخلها وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر ﴿تُصَلَّى﴾ من أصلاه الله، وقرأ «تُصَلِّ» بالتشديد للمبالغة . ﴿حَامِيَةً﴾ متناهية في الحر .
﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ﴾ بلغت أنها في الحر .

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧﴾ .

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ يبيس الشبرق وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً، وقيل شجرة نارية تشبه الضريع، ولعله طعام هؤلاء والزقوم والغسلين طعام غيرهم، أو المراد طعامهم ما تتحاماه الإبل وتعافه لضره وعدم نفعه كما قال :

﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ والمقصود من الطعام أحد الأمرين .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَةٌ ۝١١﴾ .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة أو متعمة .

﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيت بعملها لما رأت ثوابه .

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عليا المحل أو القدر .

﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب أو الوجوه، وقرأ على بناء المفعول بالياء ابن كثير وأبو عمرو ورويس وبالناء نافع . ﴿فِيهَا لَا لُغِيَةٌ﴾ لغواً أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو، فإن كلام أهل الجنة الذكر والحكم .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَمَنَاقِبُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَائِقُ

مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ .

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع والتنكير للتعظيم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ رقيقة السمك أو القدر.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عروة لها. ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد جمع نمرة بالفتح والضم. ﴿مَضْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض.

﴿وَزَرَائِبُ﴾ بسط فاخرة جمع زريبة. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ نظر اعتبار. ﴿إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية، فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة بالحمل منقاداً لمن اقتادها طوال الأعناق لينوء بالأوقار، ترعى كل نابت وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً ليتأتى لها قطع البرادي والمفاوز، مع مالها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبئة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنفاً، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع. وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عمد.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخة لا تميل.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً، وقرئ الأفعال الأربعة على بناء الفاعل المتكلم وحذف الراجع المنصوب، والمعنى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتداره على البعث ولذلك عقب به أمر المعاد ورتب عليه الأمر بالتذكير فقال:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغ.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ بمتسلط، وعن الكسائي بالسين على الأصل وحمزة بالإشمام.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ لكن من تولى وكفر.

﴿فَعَذَابُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يعني عذاب الآخرة. وقيل متصل فإن جهاد الكفار وقتلهم تسلط، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة وقيل هو استثناء من قوله ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر إلا من تولى وأصر فاستحق العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراض ويؤيد الأول أنه قرئ «ألا» على التثنية.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم، وقرئ بالتشديد على أنه فيعال مصدر فيعمل من الإياب، أو فعال من الأوب قلبت واوه الأولى قلبها في ديوان ثم الثانية للإدغام.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ في المحشر، وتقديم الخبر للتخصيص والمبالغة في الوعيد.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حساباً يسيراً».

(٨٩) سورة الفجر

مكية وآيها ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ﴾ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ③ .

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم بالصبح أو فلقه كقوله: «والصبح إذا تنفس» أو بصلاته.
﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشر ذي الحجة ولذلك فسر «الفجر» بفجر عرفة، أو النحر أو عشر رمضان الأخير وتنكيرها للتعظيم، وقرئ «وَلَيَالٍ عَشْرٍ» بالإضافة على أن المراد بالعشر الأيام.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ والأشياء كلها شفعتها ووترها، أو الخلق لقوله: «ومن كل شيء خلقنا زوجين» والخالق لأنه فرد، ومن فسرهما بالعناصر والأفلاك أو البروج والسيارات أو شفيع الصلوات ووترها، أو بيومي النحر وعرفة، وقد روي مرفوعاً، أو بغيرها فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ما رآه أظهر دلالة على التوحيد، أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبلهما أو أكثر منفعة موجبة للشكر، وقرئ «والوتر» بكسر الواو وهما لغتان كالجبر والحبر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ ④ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حَجْرِ ⑤ .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ﴾ إذا يمضي كقوله: «والليل إذ أذرب» والتقييد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة، أو يسرى فيه من قولهم صلى المقام وحذف الياء للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً، وقد خصه نافع وأبو عمرو بالوقف لمراعاة الفواصل ولم يحذفها ابن كثير ويعقوب أصلاً، وقرئ «يسر» بالتونين المبدل من حرف الإطلاق.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ القسم أو المقسم به «قَسَمٌ» حلف أو محلف به. «لِذِي حَجْرِ» يعتبره ويؤكد به ما يريد تحقيقه، وال «حجر» العقل سمي به لأنه يحجر عما لا ينبغي كما سمي عقلاً ونهية وحصة من الإحصاء، وهو الضبط والمقسم عليه محذوف وهو ليغذين يدل عليه قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ⑧ .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هود سموا باسم أبيهم كما سمي بنو هاشم باسمه.

﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لـ «عاد» على تقدير مضاف أي سبَطُ «إرم»، أو أَهْلُ «إرم» إن صح أنه إسم بلدتهم. وقيل سمي أوائلهم وهم «عاد الأولى» باسم جدتهم ومنع صرفه للعلمية والتأنيث. «ذَاتِ الْعِمَادِ» ذات البناء الرفيع أو القدود الطوال، أو الرفعة والثبات. وقيل كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا، ثم مات شديد فخلص الأمر لشداد وملك المعمورة وذات له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فبنى على مثالها في بعض صحاري عدن جنة وسماها إرم، فلما تمت سار إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث

الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابه أنه خرج في طلب إبله فوقع عليها.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة أخرى لـ ﴿اسم﴾ والضمير لها سواء جعلت اسم القبيلة أو البلدة.

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (٩) ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ (١٠) ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ (١١) ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ (١٢).

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ﴾ قطعوه واتخذوه منازل لقوله: ﴿وتنتحون من الجبال بيوتا﴾. ﴿بالوادي﴾ وادي القرى.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتاد.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ صفة للمذكورين «عاد» ﴿وتمود﴾ ﴿وفرعون﴾، أو ذم منصوب أو مرفوع.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ بالكفر والظلم.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ (١٣) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِاصِدٌ﴾ (١٤).

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ما خلط لهم من أنواع العذاب، وأصله الخلط وإنما سمي به الجلد المضفور الذي يضرب به لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض، وقيل شبه بالسوط بالـ ﴿سوط﴾ ما أحل بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياس إلى ما أعد لهم في الآخرة من العذاب كالسوط إذا قيس إلى السيف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِاصِدٌ﴾ المكان الذي يترقب فيه الرصد، مفعول من رصده كالميقات من وقته، وهو تمثيل لإرصاده العصاة بالعقاب.

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦).

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ متصل بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِاصِدٌ﴾ كأنه قيل إنه ﴿لَبَلِاصِدٌ﴾ من الآخرة فلا يريد إلا السعي لها فأما الإنسان فلا يهيمه إلا الدنيا ولذاتها. ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليسر. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاه والمال. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي﴾ فضلني بما أعطاني، وهو خبر المبتدأ الذي هو ﴿الإنسان﴾، والفاء لما في «أما» من معنى الشرط، والظرف المتوسط في تقدير التأخير كأنه قيل: فأما الإنسان فقاتل ربي أكرمني وقت ابتلائه بالإنعام، وكذا قوله:

﴿وَأَمَّا إِذَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ إذ التقدير وأما الإنسان إذا ما ابتلاه أي بالفقر والتقتير ليوازن قسيمه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِي﴾ لقصور نظره وسوء فكره، فإن التقتير قد يؤدي إلى كرامة الدارين، والتوسعة قد تفضي إلى قصد الأعداء والانهماك في حب الدنيا ولذلك ذمه على قوله وردعه عنه بقوله:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧) ﴿وَلَا تَحْضُونَّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨) ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩) ﴿وَتَحْبُوتُ أَمْالَ حِيًّا جَمًّا﴾ (٢٠).

﴿كَلَّا﴾ مع أن قوله الأول مطابق لأكرمه ولم يقل فأهانته وقدر عليه كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأن التوسعة تفضل والإخلال به لا يكون إهانته، وقرأ ابن عامر والكوفيون «أكرمن» و«أهانن» بغير ياء في الوصل والوقف. وعن أبي عمرو مثله ووافقهم نافع في الوقف وقرأ ابن عامر ﴿فَقَدَّرَ﴾ بالتشديد.

﴿بَلْ لَا يَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ﴿وَلَا يَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي يل فعلهم أسوأ من قولهم وأدل على

تعالكمهم بالمال وهو أنهم لا يكرمون اليتيم بالنفقة والمبرة، ولا يحثون أهلهم على طعام المسكين فضلاً عن غيرهم، وقرأ الكوفيون «ولا تحاضون».

﴿وَيَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ﴾ الميراث وأصله وراث. ﴿أَكْلًا لَمَّا﴾ ذا لم أي جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان يأكلون أنصباؤهم، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك: ﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرص وشره، وقرأ أبو عمرو وسهل ويعقوب «لا يكرمون» إلى «ويحبون» بالياء والباقون بالتاء.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ﴿وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم وما بعده وعيد عليه. ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكا بعد دك حتى صارت منخفضة الجبال والتلال، أو «هباء منبثاً».

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان من آثار هيئته وسياسته. ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسب منازلهم ومراتبهم.

﴿وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: «وبرزت الجحيم» وفي الحديث «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من إذا دكت الأرض والعامل فيهما. ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أي يتذكر معاصيه أو يتعظ لأنه يعلم قبحها فيندم عليها. ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي منفعة الذكرى لئلا يناقض ما قبله، واستدل به على عدم وجوب قبول التوبة، فإن هذا التذكر توبة غير مقبولة.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ ﴿وَلَا يُؤْتِقُ وِثَاقُهُ أَحَدًا﴾.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أي لحياتي هذه، أو وقت حياتي في الدنيا أعمالاً صالحة، وليس في هذا التمني دلالة على استقلال العبد بفعله فإن المحجور عن شيء قد يتمنى أن كان ممكناً منه.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ ﴿وَلَا يُؤْتِقُ وِثَاقُهُ أَحَدًا﴾ الهاء لله أي لا يتولى عذاب الله ووثاقه يوم القيامة سواه إذ الأمر كله له، أو للإنسان أي لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه، وقرأهما الكسائي ويعقوب على بناء المفعول.

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادة القول وهي التي اطمأنت بذكر الله، فإن النفس تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات إلى الواجب لذاته فتستغفر دون معرفته وتستغني به عن غيره، أو إلى الحق بحيث لا يريبها شك أو الآمنة التي لا يستغرها خوف ولا حزن، وقد قرئ بهما.

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى أمره أو مواعده بالموت، ويشعر ذلك بقول من قال: كانت النفوس قبل الأبدان موجودة في عالم القدس أو البعث، ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيت. ﴿مَرْضِيَّةً﴾ عند الله تعالى.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ في جملة عبادي الصالحين.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم أو في زمرة المقربين فتستضيء بنورهم، فإن الجواهر القدسية كالمرايا المتقابلة، أو ادخلي في أجساد عبادي التي فارقت عنها، وادخلي دار ثوابي التي أعدت لك.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفجر في الليالي العشر غفر له، ومن قرأها في سائر الأيام كانت له نوراً يوم القيامة».

(٩٠) سورة البلد

مكية، وآيها عشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ① ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ② ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ ③ .

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ «وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول عليه الصلاة والسلام فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. وقيل ﴿حِلٌّ﴾ مستحل تعرضك فيه كما يستحل تعرض الصيد في غيره، أو حلال لك أن تفعل فيه ما تريد ساعة من النهار فهو وعد بما أحل له عام الفتح.

﴿وَوَالِدٍ﴾ عطف على ﴿هذا البلد﴾. والوالد آدم أو إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريته أو محمد عليه الصلاة والسلام، والتذكير للتعظيم وإثارة ما على من لمعنى التعجب كما في قوله ﴿والله أعلم بما وضعت﴾.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ④ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ⑤ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ⑥ .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ تعب ومشقة من كبد الرجل كبداً إذا رجعت كبده ومنه المكابدة، والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقة ومنتهاها الموت وما بعده، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قريش والضمير في:

﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضهم الذي كان يكابده منه أكثر، أو يفتر بقوته كأبي الأشد بن كلدة فإنه كان ييسط تحت قدميه أديم عكاظي ويجذبه عشرة فيقطع ولا تزال قدماء، أو لكل أحد منهم أو للإنسان. ﴿أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فينتقم منه.

﴿يَقُولُ﴾ أي في ذلك الوقت ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ كثيراً، من تلبد الشيء إذا اجتمع، والمراد ما أنفقه سمعة ومفاخرة، أو معاداة للرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ⑦ ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ⑧ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ⑨ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ⑩ .

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق أو بعد ذلك فيسأله عنه، يعني أن الله سبحانه وتعالى يراه فيجازيه، أو يجده فيحاسبه عليه ثم بين ذلك بقوله.

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا﴾ يترجم به عن ضميره. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب

وغيرها.

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريقَي الخير والشر، أو التدين وأصله المكان المرتفع.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ١١ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ١٢ ﴿فَكُ رَقَبَةٌ﴾ ١٣ ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ﴾ ١٤ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ١٥ ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ ١٦ .

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي فلم يشكر تلك الأيادي باقتحام العقبة وهو الدخول في أمر شديد، و «العقبة» الطريق في الجبل استعارها بما فسرنا به من الفك والإطعام في قوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ «فَكُ رَقَبَةٌ» «أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ» «يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ» «أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ» لما فيهما من مجاهدة النفس ولتعدد المراد بها حسن وقوع لا موقع لم فإنها لا تكاد تقع إلا مكررة، إذ المعنى: فَلَا فَكُ رَقَبَةٌ وَلَا أَطْعَمَ يَتِيمًا أَوْ مَسْكِينًا. والمسغبة والمقربة والمتربة مفعلات من سغب إذا جاع وقرب في النسب وترب إذا افتقر، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «فك رقة * أو أطعم» على الإبدال من «اقتحم» وقوله: «وما أدراك ما العقبة» اعتراض معناه إنك لم تدري كنه صعوبتها وثوابها.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ١٧ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ١٨ .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطفه على «اقتحم»، أو «فك» بـ «ثُمَّ» لتباعد الإيمان عن العتق والإطعام في الرتبة لاستقلاله واشتراط سائر الطاعات به. «وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» وأوصى بعضهم بعضاً. «بِالصَّبْرِ» على طاعة الله تعالى. «وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» بالرحمة على عباده، أو بموجبات رحمة الله تعالى. «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» اليمين أو اليمن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبُنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ١٩ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ ٢٠ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبُنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحق من كتاب وحجة أو بالقرآن. «هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» الشمال أو الشؤم، ولتكرير ذكر المؤمنين باسم الإشارة والكفار بالضمير شأن لا يخفى. «عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ» مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته وأغلقتة. وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفص بالهمزة من آصدت.

عن النبي ﷺ «من قرأ لا أقسم بهذا البلد أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمان من غضبه يوم القيامة».

(٩١) سورة الشمس

مكية، وآيها خمس عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ (١) ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ (٢) ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ (٣).

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وضوئها إذا أشرقت، وقيل الضحوة ارتفاع النهار والضحى فوق ذلك، والضحاء بالفتح والمد إذا امتد النهار وكاد يتتصف.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا﴾ تلا طلوعه طلوع الشمس أول الشهر أو غروبها ليلة البدر، أو في الاستدارة وكمال النور.

﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ جلى الشمس فإنها تتجلى إذا انبسط النهار أو الظلمة، أو الدنيا أو الأرض وإن لم يجر ذكرها للعلم بها.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (٤) ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ (٥) ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾ (٦).

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشى الشمس فيغطي ضوءها أو الآفاق، أو الأرض. ولما كانت آوات العطف نوابغ للواو الأولى القسمية الجارة بنفسها النائية مناب فعل القسم من حيث استلزمت طرحه معها، ربطن المجرورات والظرف بالمجرور والظرف المتقدمين ربط الواو لما بعدها في قولك: ضرب زيد عمراً وبكر خالدًا على الفاعل والمفعول من غير عطف على عاملين مختلفين.

﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ ومن بناها وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل: والشيء القادر الذي بناها ودل على وجوده وكمال قدرته بناؤها، ولذلك أفرد ذكره وكذا الكلام في قوله: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا﴾.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٧) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (٨).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ وجعل الماءات مصدرية يجرد الفعل عن الفاعل ويخل بنظم قوله:

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بقوله ﴿وما سواها﴾ إلا أن يضم فيه اسم الله للعلم به وتنكير ﴿نفس﴾ للتكثير كما في قوله: ﴿علمت نفس﴾ أو للتعظيم والمراد نفس آدم وإلهام الفجور والتقوى إلهامهما وتعريف حالهما أو التمكين من الإتيان بهما.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ (٩) ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ (١٠).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ أنماها بالعلم والعمل جواب القسم، وحذف اللام للطول كأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويذكرهم عظام آلائه ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه الذي

هو منتهى كمالات القوة العملية. وقيل هو استطراد بذكر بعض أحوال النفس، والجواب محذوف تقديره لِيَذْمِدِمَنَّ اللهُ عَلَى كَفَارِ مَكَّةَ لِتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَهُ ﷺ كما دمدم على ثمود لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق، وأصل دسى دسس كتقضى وتقضض.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣).

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ بسبب طغيانها، أو بما أوعدت به من عذابها ذي الطغوى كقوله: ﴿فَاهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وأصله طغيانها وإنما قلبت ياؤه واواً تفرقة بين الاسم والصفة، وقرئ بالضم كما ﴿الرجعى﴾. ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ حين قام ظرف لـ ﴿كذبت﴾ أو طغوى. ﴿أَشْقَاهَا﴾ أشقى ثمود وهو قدار بن سالف، أو هو ومن ماله على قتل الناقة فإن أفعال التفضيل إذا أضفته صلح للواحد والجمع وفضل شقاوتهم لتوليهم العقر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ أي ذروا ناقة الله واحذروا عقرها. ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ وسقيها فلا تذودوها عنها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥).

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا، ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ فأطبق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة إذا ألبسها الشحم. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسببه. ﴿فَسَوَّاهَا﴾ فسوى الدمدة بينهم أو عليهم فلم يفلت منهم صغير ولا كبير، أو ثمود بالإهلاك.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي عاقبة الدمدة أو عاقبة هلاك ثمود وتبعثها فيبقى بعض الإبقاء، والواو للحال وقرأ نافع وابن عامر ﴿فلا﴾ على العطف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الشمس فكأنما تصدق بكل شيء طلعت عليه الشمس والقمر».

سورة الليل (٩٢)

مكية، وآيها إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾﴾

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ أي يغشى الشمس أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل، أو تبين بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ والقادر الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد، أو آدم وحواء

وقيل ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ إن مساعيكم لأشياء مختلفة جمع شتيت.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ تفصيل مبين لتشتت المساعي. والمعنى من أعطى الطاعة

واتقى المعصية وصدق بالكلمة الحسنى وهي ما دلت على حق ككلمة التوحيد.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ فسنهيئه للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة، من يسر الفرس إذا هياه

للركوب بالسرج واللجام.

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَفْتَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ﴾ بما أمر به. ﴿وَاسْتَفْتَى﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ بإنكار مدلولها.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾﴾

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفي أو استفهام إنكار. ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ هلك تفعل من الردى، أو تردى في حفرة

القبر أو قعر جهنم.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ للإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا، أو ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ طريقة الهدى

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء، أو ثواب الهداية للمهتدين، أو فلا

يضرنا ترككم الاهتداء.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ .

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ تلهب .

﴿لَا يَضِلَّاهَا﴾ لا يلزمها مقاسياً شدتها . ﴿إِلَّا الْأَشْقَى﴾ إلا الكافر فإن الفاسق وإن دخلها لا يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله :

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي كذب الحق وأعرض عن الطاعة .

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ الذي اتقى الشرك والمعاصي فإنه لا يدخلها فضلاً عن أن يدخلها ويصلاها ، ومفهوم ذلك أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها فلا يخالف الحصر السابق .
﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ﴾ يصرفه في مصارف الخير لقوله : ﴿يَتَزَكَّى﴾ فإنه بدل من ﴿يؤتي﴾ أو حال من فاعله .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ فيقصد بإيتائه مجازاتها .

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ استثناء منقطع أو متصل عن محذوف مثل لا يؤتى إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة .

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه . والآيات نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم ، ولذلك قيل : المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف .
عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الليل أعطاه الله سبحانه وتعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر» .

(٩٣) سورة الضحى

مكية، وآيها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ .

﴿وَالضُّحَى﴾ ووقت ارتفاع الشمس وتخصيصه لأن النهار يقوى فيه، أو لأن فيه كلم موسى ربه وألقي السحرة سجداً، أو النهار ويؤيده قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في مقابلة ﴿يَبَاتًا﴾.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ سكن أهله أو ركذ ظلامه من سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه، وتقديم الليل في السورة المتقدمة باعتبار الأصل، وتقديم النهار هنا باعتبار الشرف.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قطعك قطع المودع، وقرئ بالتخفيف بمعنى ما تركك وهو جواب القسم. ﴿وَمَا قَلَى﴾ وما أبغضك، وحذف المفعول استغناء بذكره من قبل ومراعاة للفواصل. روي أن الوحي تأخر عنه أياماً لتركه الاستثناء كما مر في سورة «الكهف»، أو لجزره سائلاً ملحاً، أو لأن جرواً ميتاً كان تحت سريره أو لغيره فقال المشركون: إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت رداً عليهم.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ .

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فإنها باقية خالصة عن الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار، كأنه لما بين أنه سبحانه وتعالى لا يزال يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا وعد له ما هو أعلى وأجل من ذلك في الآخرة، أو لنهاية أمرك خير من بدايته، فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه، واللام للابتلاء دخل الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير: ولأنت سوف يعطيك لا للقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة، وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧ .

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ تعديد لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يحسن إليه فيما يستقبل وإن تأخر. و ﴿يجدك﴾ من الوجود بمعنى العلم و ﴿يتيمًا﴾ مفعوله الثاني أو المصادفة و ﴿يتيمًا﴾ حال.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علم الحكم والأحكام. ﴿فَهَدَى﴾ فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر. وقيل وجدك ضالاً في الطريق حين خرج بك أبو طالب إلى الشام أو حين فطمتك حليلة وجاءت بك لتردك إلى جدك، فأزال ضلالك عن عمك أو جدك.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ذا عيال. ﴿فَأَغْنَى﴾ بما حصل لك من ربح التجارة.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبه على ماله لضعفه، وقرىء «فلا تكهر» أي فلا تعبس في وجهه.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجره.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإن التحدث بها شكرها، وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحديث بها تبليغها.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الضحى جعله الله سبحانه وتعالى فيمن يرضى لمحمد ﷺ أن يشفع له وعشر حسنات، يكتبها الله سبحانه وتعالى له بعدد كل يتيم وسائل».

(٩٤) سورة ألم نشرح

مكية، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّشَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾

﴿الرَّشَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً، أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل، أو بما يسرنا لك تلقي الوحي بعدما كان يشق عليك، وقيل إنه إشارة إلى ما روي «أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسول الله ﷺ في صباه أو يوم الميثاق، فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً». ولعله إشارة إلى نحو ما سبق ومعنى الاستفهام إنكار نفي الانسراح مبالغة في إثباته ولذلك عطف عليه.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ عبأك الثقيل.

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الذي حملة على النقيض وهو صوت الرجل عند الانتقال من ثقل الحمل وهو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة، أو جهله بالحكم والأحكام أو حيرته، أو تلقي الوحي أو ما كان يرى من ضلال قومه من العجز عن إرشادهم، أو من إصرارهم وتعديهم في إيذائه حين دعاهم إلى الإيمان.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالنبوة وغيرها، وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب، وإنما زاد ﴿لَكَ﴾ ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كضيق الصدر والوزر المنقوض للظهر وضلال القوم وإيذائهم. ﴿يُسْرًا﴾ كالشرح والوضع والتوفيق للاهتمام والطاعة فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يغمك، وتنكيره للتعظيم والمعنى بما في «إن مع» من المصاحبة المبالغة في معاقبة اليسر للعسر، واتصاله به اتصال المتقاربين.

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكرير للتأكيد أو استئناف وعده بأن ﴿العسر﴾ متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك: إن للصائم فرحة، إن للصائم فرحة أي فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب. وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «لن يغلب عسر يسرين» فإن العسر معروف فلا يتعدد سواء كان للعهد أو للجنس، واليسر منكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد يغير ما أريد بالأول.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من التبليغ. ﴿فَانصَبْ﴾ فاتعب في العبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة

ووعدناك من النعم الآتية. وقيل إذا فرغت من الغزو فانصب في العبادة، أو ﴿فإذا فرغت﴾ من الصلاة فانصب بالدعاء.

﴿وإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك، وقرئ «فَرْغَبْ» أي فرغب الناس إلى طلب ثوابه.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني».

(٩٥) سورة التين

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ① ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ② ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ③ .

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ خصهما من الثمار بالقسم لأن التين فاكهة طيبة لا فضل له وغذاء لطيف سريع الهضم، ودواء كثير النفع فإنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكلتيين، ويزيل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال، ويسمن البدن وفي الحديث أنه يقطع البواسير وينفع من النقرس. والزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن لطيف كثير المنافع، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال، وقيل المراد بهما جبلان من الأرض المقدسة أو مسجدا دمشق وبيت المقدس، أو البلدان.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربه و ﴿سِينِينَ﴾ و ﴿سِينَاء﴾ اسمان للموضع الذي هو فيه.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ أي الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين، أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يريد به الجنس. ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديل بأن خص بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ بأن جعلناه من أهل النار أو إلى أسفل سافلين وهو النار. وقيل هو أرذل العمر فيكون قوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء منقطعاً. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا ينقطع أو لا يمن به عليهم، وهو على الأول حكم مرتب على الاستثناء مقرر له.

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾ ⑦ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ ⑧ .

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ﴾ أي فأي شيء يكذبك يا محمد دلالة أو نطقاً. ﴿بَعْدَ بِالذِّينِ﴾ بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل وقيل «ما» بمعنى من، وقيل الخطاب للإنسان على الالتفات، والمعنى فما الذي يحملك على هذا الكذب.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ تحقيق لما سبق. والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد ﴿بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ صنفاً وتديباً ومن كان كذلك كان قادراً على الإعادة والجزاء على ما مر مراراً.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والتين أعطاه الله العافية واليقين ما دام حياً، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بمعدد من قرأ هذه السورة».

(٩٦) سورة العلق

مكية، وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأ القرآن مفتتحاً باسمه سبحانه وتعالى . أو مستعيناً به . ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي الذي له الخلق أو الذي خلق كل شيء ، ثم أفرد ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتديبياً وأدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال :

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ أو الذي ﴿خلق الإنسان﴾ فابهم أولاً ثم فسر تفخيماً لخلقهِ ودلالة . على عجب فطرته . ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمعه على ﴿الإنسان﴾ في معنى الجمع ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزل أولاً ما يدل على وجوده وفطرته وكماله حكمته .

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾

﴿أَقْرَأْ﴾ تكرير للمبالغة ، أو الأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة ولعله لما قيل له : ﴿أقرأ باسم ربك﴾ فقال : ما أنا بقارئ ، فقيل له اقرأ : ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الزائد في الكرم على كل كريم فإنه سبحانه وتعالى ينعم بلا عوض ويحلم من غير تخوف ، بل هو الكريم وحده على الحقيقة .

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أي الخط بالقلم ، وقد قرئ به لتقيد به العلوم ويعلم به البعيد .

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بخلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً ، وقد عدد سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومتهاه إظهاراً لما أنعم عليه ، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته ، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل عليها سمعاً .

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ إِنَّهُ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجُعُ ﴿٧﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه . ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾

﴿إِنَّ رَأَةً اسْتَعْتَى﴾ أن رأى نفسه ، واستغنى مفعوله الثاني لأنه بمعنى علم ولذلك جاز أن يكون فاعله ومفعوله ضميرين لواحد .

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجُعُ﴾ الخطاب للإنسان على الالتفات تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان ، و ﴿الرجعى﴾ مصدر كالبشرى .

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٨﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٩﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١٠﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١١﴾﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ نزلت في أبي جهل قال لو رأيت محمداً ساجداً لوطئت عنقه ،

فجاءه ثم نكص على عقبيه فقليل له مالك، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فنزلت ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقييح النهي والدلالة على كمال عبودية المنهي.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ «أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى» أَرَأَيْتَ تكرير للأول وكذا الذي في قوله:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ ﴿١٤﴾.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ «أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى» والشرطية مفعوله الثاني وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسم له. والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو أمراً «بالتقوى» فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب كما تقول، «أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى» ويطلع على أحواله من هداه وضلاله. وقيل المعنى «أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا» يصلي والمنهي على الهدى أمراً بالتقوى، والناهى مكذب متولي فما أعجب من ذا. وقيل الخطاب في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى، وكأنه قال يا كافر أخبرني إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أنتهاه، ولعله ذكر الأمر بالتقوى في التعجب والتوبيخ ولم يتعرض له في النهي لأن النهي كان عن الصلاة والأمر بالتقوى، فاقصر على ذكر الصلاة لأنه دعوة بالفعل أو لأن نهى العبد إذا صلى يحتمل أن يكون لها ولغيرها، وعامة أحوالها محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وغيره بالدعوة.

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي. «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ» عما هو فيه. «لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ» لناخذن بناصيته ولنسحقه بها إلى النار، والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة، وقرئ «لَنَسْفَعُنَّ» بنون مشددة و«لأسفعن»، وكتابته في المصحف بالآلف على حكم الوقف والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها، وقرئت بالرفع على هي ناصية والنصب على الذم ووصفها بالكذب والخطأ، وهما لصاحبها على الإسناد المجازي للمبالغة.

﴿فَلْيَنْدِعْ نَادِيَهُ﴾ ﴿١٧﴾ سَتَدُعُ الزَّبَانِيَّةَ﴾ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطْفَعُ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَسْجُدْ﴾ ﴿٢٠﴾ وَاقْتَرِبْ﴾ ﴿٢١﴾.

﴿فَلْيَنْدِعْ نَادِيَهُ﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم. روي أنا أبا جهل لعنه الله مر برسول الله ﷺ وهو يصلي فقال: ألم أنهك، فاعلظ له رسول الله ﷺ فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت.

﴿سَتَدُعُ الزَّبَانِيَّةَ﴾ ليجروه إلى النار وهو في الأصل الشرط واحدها زبانية كعفوية من الزين وهو الدفع، أو زبني على النسب وأصلها زباني والتاء معوضة عن الياء.

﴿كَلَّا﴾ ردع أيضاً للناهي. «لَا تَطْفَعُ» أي اثبت أنت على طاعتك. «وَأَسْجُدْ» داوم على سجودك. «وَاقْتَرِبْ» وتقرب إلى ربك وفي الحديث «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد». عن النبي ﷺ «من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله».

(٩٧) سورة القدر

مختلف فيها، وآياتها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ الضمير للقرآن فخمه بإضماره من غير ذكر شهادة له بالنباهة المغنية عن التصريح كما عظمه بأن أسند نزله إليه، وعظم الوقت الذي أنزل فيه بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» وإنزاله فيها بأن ابتدأ بإنزاله فيها، أو أنزله جملة من اللوح إلى السماء الدنيا على السفرة، ثم كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزله على رسول الله ﷺ نجوماً في ثلاث وعشرين سنة. وقيل المعنى «أنزلناه» في فضلها وهي في أوتار العشر الأخير من رمضان، ولعلها السابعة منها. والداعي إلى إخفائها أن يحيي من يريد لها ليالي كثيرة، وتسميتها بذلك لشرفها أو لتقدير الأمور فيها لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا يَفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وذكر الألف إما للتكثير، أو لما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكر إسرائيلياً يلبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة القدر هي خير من مدة ذلك الغازي.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لما له فَضَّلَتْ على ألف شهر وتنزلهم إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا أو تقربهم إلى المؤمنين. ﴿مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجل كل أمر قدر في تلك السنة، وقرئ «من كل امرئ» أي من أجل كل إنسان.

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ ما هي إلا سلامة أي لا يقدر الله فيها إلا السلامة، ويقضي في غيرها السلامة والبلاء، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي وقت مطلع أي طلوعه. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه كالمراجع أو اسم زمان على غير قياس كالمشرق.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأخيا ليلة القدر».

(٩٨) سورة لم يكن

مختلف فيها، وآيات ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١).

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى فإنهم كفروا بالإلحاد في صفات الله سبحانه وتعالى و ﴿مِنْ﴾ للتبيين. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وعبدة الأصنام. ﴿مُتَفَكِّينَ﴾ عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعد باتباع الحق إذا جاءهم الرسول ﷺ. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام أو القرآن، فإنه مبين للحق أو معجزة الرسول بأخلاقه والقرآن بإفحامه من تحدى به.

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ (٣).

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ بدل من ﴿البينة﴾ بنفسه أو بتقدير مضاف أو مبتدأ. ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ صفته أو خبره، والرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان آمياً لكنه لما تلا مثل ما في الصحف كان كالتالي لها. وقيل المراد جبريل عليه الصلاة والسلام وكون الصحف ﴿مُطَهَّرَةً﴾ أن الباطل لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسها إلا المطهرون.

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ (٤) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الَّذِينَ حَقَّاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (٥).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم أو تردد في دينه، أو عن وعدهم بالإصرار على الكفر. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ فيكون كقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يُسْتَفْتَحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وإفراد أهل الكتاب بعد الجمع بينهم وبين المشركين للدلالة على شناعة حالهم، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي في كتبهم بما فيها. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ لا يشركون به. ﴿حَقَّاءَ﴾
مائتين عن العقائد الزائغة. ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ ولكنهم حرفوا وعصوا. ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ دين
الملة القيمة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي يوم القيامة، أو في الحال لملاستهم ما يوجب ذلك، واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب اشتراكهما في نوعه فلعله يختلف

لتفاوت كفرهما. ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقة. وقرأ نافع «البرية» بالهمز على الأصل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فيه مبالغات تقديم المدح، وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأنه من ﴿عند ربهم﴾، وجمع ﴿جَنَّاتٍ﴾ وتقييدها إضافة ووصفاً بما تزداد لها نعيماً، وتأكيدهم بالخلود بالتأبيد. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف بما يكون لهم زيادة على جزائهم. ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لأنه بلغهم أقصى أمانهم. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة لم يكن الذين كفروا كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً».

(٩٩) سورة الزلزلة

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ اضطرابها المقدر لها عند النفخة الأولى، أو الثانية أو الممكن لها أو اللاتق بها في الحكمة، وقرئ بالفتح وهو اسم الحركة وليس في الأبنية فعلا إلا في المضاعف.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأموات جمع ثقل وهو متاع البيت.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ لما يبههم من الأمر الفطيع، وقيل المراد بـ «الإنسان» الكافر فإن المؤمن يعلم ما لها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ تحدث الخلق بلسان الحال. «أَخْبَارَهَا» ما لأجله زلزالها وإخراجها. وقيل ينطقها الله سبحانه وتعالى فتخبر بما عمل عليها، و «يومئذ» بدل من «إذا» وناصبهما «تحدث»، أو أصل و «إذا» منتصب بمضمر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي تحدث بسبب إحياء ربك لها بأن أحدث فيها ما دلت على الأخبار، أو أنطقها بها ويجوز أن يكون بدلاً من أخبارها إذ يقال: حدثته كذا ويكذا، واللام بمعنى إلى أو على أصلها إذ لها في ذلك تشف من العصاة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف. «أَشْتَاتًا» متفرقين بحسب مراتبهم. «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» جزاء أعمالهم، وقرئ بفتح الياء.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» تفصيل «ليروا» ولذلك قرئ «يَرَهُ» بالضم، وقرأ هشام بإسكان الهاء ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب. وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة، أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله «أَشْتَاتًا»، وال «ذرة» النملة الصغيرة أو الهباء.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة إذا زلزلت الأرض أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله».

(١٠٠) سورة العاديات

مختلف فيها، وآيها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (١) ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ (٢) ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (٣) ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ نَقْعًا﴾ (٤) ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (٥).

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أقسم سبحانه ببخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً، وهو صوت أنفاسها عند العدو ونصبه بفعله المحذوف، أو بـ ﴿العاديات﴾ فإنها تدل بالاتزام على الضابحات، أو ضبحاً حال بمعنى ضابحة. ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ فالتى توري النار، والإبراء إخراج النار يقال قدح الزند فأورى. ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ يغير أهلها على العدو. ﴿ضَبْحًا﴾ أي في وقته. ﴿فَأَثَرُنَّ﴾ فهيجن. ﴿بِهِ﴾ بذلك الوقت. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً أو صياحاً.

﴿فَوْسَطْنَ بِهِ﴾ فتوسطن بذلك الوقت أو بالعدو، أو بالنقع أي ملتبسات به. ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، روي: أنه عليه الصلاة والسلام بعث خيلاً فمضت أشهر لم يأتهم خبر فتزلت. ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كمالهن الموريات بأفكارهن أنوار المعارف، والمغيرات على الهوى والعادات إذا ظهر لهن مثل أنوار القدس، ﴿فَأَثَرُنَّ بِهِ﴾ شوقاً ﴿فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ من جموع العليين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (٦) ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧) ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٨).

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ لكفور من كَنَدِ النعمة كنوداً، أو لعاص بلغة كندة، أو لبخيل بلغة بني مالك وهو جواب القسم.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وإن الإنسان على كنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه لظهور أثره عليه، أو أن الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيد فيكون وعيداً.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ المال من قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيل أو لقوي مبالغ فيه.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ فِي الْقُبُورِ﴾ (٩) ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ (١٠) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ (١١).

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ﴾ بعث. ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾ من الموتى وقرىء «بحثر» و «بحث». ﴿وَحُصِّلَ﴾ جمع محصلاً في الصحف أو ميز. ﴿مَا فِي الصُّدُورِ﴾ من خير أو شر، وتخصيصه لأنه

الأصل.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ عالم بما أعلنوا وما أسروا فيجازيهم عليه، وإنما قال

﴿ما﴾ ثم قال ﴿بهم﴾ لاختلاف شأنهم في الحالين، وقرء «أن» و «خبير» بلا لام.
عن النبي ﷺ «من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد
جمعاً».

سورة القارعة

مكية، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ﴾ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ ⑩ نَارٌ حَامِيَةٌ ⑪

﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ «وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ» سبق بيانه في «الحاقة».

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ في كثرتهم وذلتهم وانتشارهم واضطرابهم، وانتصاب «يوم» بمضمّر دلت عليه «القارعة».

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوف ذي الألوان. «المنفوش» المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها في الجو.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن ترجحت مقادير أنواع حسناته.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في عيش. «راضية» ذات رضا أو مرضية.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم يكن له حسنة يعبأ بها، أو ترجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ فمأواه النار المحرقة والهاوية من أسماؤها ولذلك قال:

﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ «نار حامية» ذات حمى.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة».

سورة التكاثر

مختلف فيها، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③.

﴿أَلْهَنَكُمْ﴾ شغلکم وأصله الصرف إلى اللهو منقول من لها إذا غفل. ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرة.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ إذا استوعبتكم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات، عبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة المقابر. روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالكثرة فكثرتهم بنو عبد مناف، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرتهم بنو سهم، وإنما حذف الملهى عنه وهو ما يعينهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة. وقيل معناه ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا عما هو أهم لكم، وهو السعي لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همه ومعظم سعيه للدنيا فإن عاقبة ذلك وبال وخسارة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأ رأيكم إذا عايتم ما وراءكم وهو إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد وفي ﴿ثم﴾ دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول، أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين أي كعلمكم ما تستيقنون له لشغلكم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتفخيم ولا يجوز أن يكون قوله:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جواباً له لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ⑦ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأيتم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة وبالثانية الإبصار. ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي ألهاكم، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿النَّعِيمِ﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله: ﴿من حرم زينة الله﴾ ﴿كلوا من الطيبات﴾ وقيل يعمان

إذ كل يسأل عن شكره. وقيل الآية مخصوصة بالكفار.

عن النبي ﷺ «من قرأ ﴿الهاكم﴾ لم يحاسبه الله سبحانه وتعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية».

(١٠٣) سورة والعصر

مكية، وآيها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾

﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها، أو بعصر النبوة أو بالدهر لاشتغاله على الأعاجيب والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إن الناس لفى خسران في مساعيهم وصرف أعمارهم في مطالبهم، والتعريف للجنس والتكثير للتعظيم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عن المعاصي أو على الحق، أو ما يبلى الله به عباده. وهذا من عطف الخاص على العام للمبالغة إلا أن يخص العمل بما يكون مقصوراً على كماله، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عدا ما يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرماً فإن الإبهام في جانب الخسر كرم.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة ﴿والعصر﴾ غفر الله له وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

(١٠٤) سورة الهمزة

مكية، وآياتها تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزة الكسر كالهزم، واللزم الطعن كالهزم فشاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم، وبناء فعله يدل على الاعتياد فلا يقال ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود، وقرئ «همزة لمزة» بالسكون على بناء المفعول وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتم. ونزلها في الأخنس بن شريق فإنه كان مغيباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابه رسول الله ﷺ.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا﴾ بدل من كل أو ذم منصوب أو مرفوع، وقرأ ابن عامر وخمزة والكسائي بالتشديد للتكثير «وَعَدَّدَهُ» وجعله عدة للنوازل أو عدة مرة بعد أخرى، ويؤيده أنه قرئ «وعدده» على فك الإدغام.

﴿يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبه كما يحب الخلود، أو حب المال أغفله عن الموت أو طول أمله حتى حسب أنه مخلد فعمل عمل من لا يظن الموت، وفيه تعريض بأن المخلد هو السعي للأخرة.

﴿كَلَّا لَيُبَدِّلَنَّ فِي السَّعْيَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَاكَ مَا السَّعْيَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَةِ ﴿٧﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن حسابه. ﴿لَيُبَدِّلَنَّ﴾ ليطرحن. ﴿فِي السَّعْيَةِ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يطرح فيها.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا السَّعْيَةُ﴾ ما النار التي لها هذه الخاصية.

﴿نَارُ اللَّهِ﴾ تفسير لها. ﴿الْمَوْقُودَةُ﴾ التي أوقدها الله وما أوقده لا يقدر غيره أن يطفئه.

﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَةِ﴾ تعلق أوساط القلوب وتشتمل عليها، وتخصيصها بالذكر لأن الفؤاد أطف ما في البدن وأشدّه تألماً، أو لأنه محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة.

﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته، قال:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي
وقرأ حفص وأبو عمرو وحمزة بالهمزة.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أي موثقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص وقرأ الكوفيون غير حفص بضميتين، وقرأ «عَمَدٍ» بسكون الميم مع ضم العين.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه» رضوان الله عليهم أجمعين.

(١٠٥) سورة الفيل

مكية، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وإنما قال ﴿كَيْفَ﴾ ولم يقل ما لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإرهاصات. إذ روي أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ. قصتها أن أبرهة بن الصباح الأشرم - ملك اليمن من قبل أصحابه النجاشي - بنى كنيسة بصنعاء سماها القليس، وأراد أن يصرف الحاج إليها، فخرج رجل من كنانة فقعدها ليلاً فأغضبه ذلك، فحلف ليهدم الكعبة فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود، وفيلة أخرى فلما تهيأ للدخول وعبى جيشه قدم الفيل، وكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هروا، فأرسل الله تعالى طيراً، كل واحد في منقاره حجر وفي رجله حجران، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، فترميهم فيقع الحجر في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً. وقرئ «ألم تر» جداً في إظهار أثر الجازم، وكيف نصب بفعل لا بتر لما فيه من معنى الاستفهام.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ﴾ في تعطيل الكعبة وتخريبها. ﴿فِي تَضَلُّلٍ﴾ في تضييع وإبطال بأن دمرهم وعظم شأنها.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعات جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة، شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها. وقيل لا واحد لها كعباديد وشماطيط.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ﴾ وقرئ بالياء على تذكير الطير لأنه اسم جمع، أو إسناده إلى ضمير ربك. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين متحجر معرب سنك كل وقيل من السجل وهو الدلو الكبير، أو الأسجال وهو الأرسال، أو من السجل ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورق زرع وقع فيه الآكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفرأ منه، أو كتبن أكلته الدواب وراثته.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسح».

(١٠٦) سورة قريش

مكية، وآيها أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَیْلَافٍ قُرَیْشٍ ۝١﴾ إِلَیْلَهِمْ رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّیْفِ ۝٢﴾ .

﴿إِلَیْلَافٍ قُرَیْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ والفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لساثر نعمه فليعبدوه لأجل:

﴿إِلَیْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّیْفِ﴾ أي الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون، أو بمحذوف مثل اعجبوا أو بما قبله كالتضمين في الشعر أي ﴿فجعلهم كمصف مأكول﴾ ﴿إِلَیْلَافٍ قُرَیْشٍ﴾، ويؤيده أنهما في مصحف أبي سورة واحدة، وقرئ «ليالاف قريش إلفهم رحلة الشتاء»، وقريش ولد النضر بن كنانة منقول من تصغير قرش، وهو دابة عظيمة في البحر تعبت بالسفن فلا تطاق إلا بالنار، فشبها بها لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلق، وصغر الاسم للتعظيم وإطلاق الإيلاف، ثم إبدال المقيد عنه للتفخيم. وقرأ ابن عامر «لثلاف» بغير ياء بعد الهمزة.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٣﴾ .

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ أي بالرحلتين والتذكير للتعظيم، وقيل المراد به شدة أكلوا فيها الجيف والعظام. ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أصحاب الفيل أو التخطف في بلدهم ومسائرهم، أو الجذام فلا يصيبهم ببلدهم.

عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة إيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها».

(١٠٧) سورة الماعون

مختلفة فيها، وآيات سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُخْصُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿٣﴾﴾.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ استفهام معناه التعجب، وقرئ «أريت» بلا همز إلحاقاً بالمضارع، ولعل تصديرها بحرف الاستفهام سهل أمرها و «أرايتك» بزيادة الكاف. «الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ» بالجزء أو الإسلام والذي يحتمل الجنس والعهد ويؤيد الثاني قوله:

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ يدفعه دفعاً عنيفاً؛ وهو أبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه، أو أبو سفيان نحر جزوراً فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه، أو الوليد بن المغيرة، أو منافق بخيل. وقرئ «يدع» أي يترك.

﴿وَلَا يُخْصُ﴾ أهله وغيرهم. «عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ» لعدم اعتقاده بالجزء ولذلك رتب الجملة على «يكذب» بالفاء.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ «الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ» أي غافلون غير مباليين بها.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ يرون الناس أعمالهم ليروهم الشاء عليهم.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الزكاة أو ما يتعاور في العادة والفاء جزائية. والمعنى إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أحق بذلك ولذلك رتب عليها الويل، أو للسببية على معنى «فويل» لهم، وإنما وضع المصلين موضع الضمير للدلالة على سوء معاملتهم مع الخالق والخلق.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة ﴿أرأيت﴾ غفر له إن كان للزكاة مؤدياً».

(١٠٨) سورة الكوثر

مكية، وآيها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾

﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ﴾ وقرأ «أنطيناك». «الكوثر» الخير المفرط الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين. وروي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد، حافته الزبرجد وأوانيه من فضة لا يظمأ من شرب منه»، وقيل حوض فيها، وقيل أولاده وأتباعه، أو علماء أمته أو القرآن العظيم.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فذم على الصلاة خالصاً لوجه الله خلاف الساهي عنها المرائي فيها شكراً لأنعامه، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر. «وأنحر» البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على المحاييج خلافاً لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتضحية.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إن من أبغضك لبغضه الله. «هُوَ الْأَبْتَرُ» الذي لا عقب له إذ لا يبقى له نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك. وأثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر له في الجنة، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر العظيم».

سورة الكافرون

مكية، وآياتها ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون. روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فنزلت.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي فيما يستقبل فإن ﴿لَا﴾ تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن ﴿مَا﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي فيما يستقبل لأنه في قران ﴿لَا أَعْبُدُ﴾.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ أي في الحال أو فيما سلف.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده، ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ وإنما لم يقل ما عبدت ليطلق ﴿ما عبدتم﴾ لأنهم كانوا موسومين قبل المبعث بعبادة الأصنام، وهو لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله، وإنما قال ﴿ما﴾ دون من لأن المراد الصفة كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق أو للمطابقة. وقيل إنها مصدرية وقيل الأوليان بمعنى الذي والآخران مصدريتان.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركوه. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليكون منسوخاً بآية القتال، اللهم إلا إذا فسر بالمشاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه، وقد فسر الـ ﴿دين﴾ بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك».

(١١٠) سورة النصر

معنية، وأيهما ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾ .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إظهاره إياك على أعدائك. ﴿وَالْفَتْحُ﴾ وفتح مكة، وقيل المراد جنس نصر الله المؤمنين وفتح مكة وسائر البلاد عليهم، وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها فتقرب منها شيئاً فشيئاً، وقد قرب النصر من وقته فكان مترقياً لوروده مستعداً لشكره.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ جماعات كثيفة كاهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، و ﴿يدخلون﴾ حال على أن ﴿رأيت﴾ بمعنى أبصرت أو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ .

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد حامداً له عليه، أو فصل له حامداً على نعمه. «روي أنه ﷺ لما دخل مكة بدأ بالمسجد فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات» أو فتره تعالى عما كانت الظلمة يقولون فيه حامداً له على أن صدق وعده، أو فائز على الله بصفات الجلال حامداً له على صفات الإكرام. ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك واستدراكاً لما فرط منك من الالتفات إلى غيره. وعنه عليه الصلاة والسلام «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة». وقيل استغفره لأمتك، وتقديماً للتسبيح على الحمد ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق. كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله. ﴿إِنَّكُمْ كَانْتُمْ تَوَّابًا﴾ لمن استغفره مذ خلق المكلفين، والأكثر على أن السورة نزلت قبل فتح مكة، وأنه نعي لرسول الله ﷺ لأنه لما قرأها بكى العباس، فقال عليه الصلاة والسلام ما يبكيك؟ فقال: نعيث إليك نفسك، فقال «إنها لكما تقول»، ولعل ذلك لدلائلها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين فهي كقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ أو لأن الأمر باستغفار تنبيه على دنو الأجل، ولهذا سميت سورة التوديع.

وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة ﴿إِذَا جَاءَ﴾ أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة شرفها الله تعالى».

(١١١) سورة تبت

مكية، وآيها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١)

﴿تَبَّتْ﴾ هلكت أو خسرت والتهاب خسران يؤدي إلى الهلاك. ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ نفسه كقوله: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقيل إنما خصنا لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزل عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا دعوتنا، وأخذ حجراً ليرميه به فترلت. وقيل المراد بهما دنياه وأخراه، وإنما كناه والتكنية تكزيم لاشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى فاستكره ذكره، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله، أو ليجانس قوله: ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقرئ «أبو لهب» كما قيل علي بن أبو طالب. ﴿وَتَبَّ﴾ إخبار بعد دعاء والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه كقوله:

جَزَانِي جَزَاءُ اللَّهِ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ
ويدل عليه أنه قرئ «وقد تب» أو الأول إخبار عما كسبت يده والثاني عن عمل نفسه.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (٢) ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٣)

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ نفى لإغناء المال عنه حين نزل به التباب أو استفهام إنكار له ومحلها النصب. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهة والإتباع، أو عمله الذي ظن أنه ينفعه أو ولده عتبة، وقد افترسه أسد في طريق الشام وقد أحرق به العير ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة، وترك ثلاثاً حتى أتنن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه، فهو إخبار عن الغيب طابقه وقوعه.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ اشتعال يريد نار جهنم، وليس فيه ما يدل على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون صليها للفسق، وقرئ «سَيَصْلَىٰ» بالضم مخففاً و«سَيَصْلَىٰ» مشدداً.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (٤) ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾ (٥)

﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عطف على المستتر في «سَيَصْلَىٰ» أو مبتدأ وهي أم جميل أخت أبي سفيان. ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني حطب جهنم فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاذة الرسول ﷺ وتحمل زوجها على إيدائه، أو النيمة فإنها كانت توقد نار الخصومة، أو حزمة الشوك أو الحسك، فإنها كانت تحملها فتشرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ، وقرأ عاصم بالنصب على الشتم.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ﴾ أي ممّا مُسَدَّ أي قتل، ومنه رجل ممسود الخلق أي مجدوله، وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الخطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها، أو بياناً لحالها في

نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع، وفي جيدها سلسلة من النار، والظرف في موضع الحال أو الخبر وحبل مرتفع به.

عن النبي ﷺ «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة».

سورة الإخلاص

مختلفة فيها، وأيهما أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن كقولك: هو زيد منطلق وارتفاعه بالإبتداء وخبره الجملة ولا حاجة إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سُئِلَ عنه أي الذي سألتُموني عنه هو الله، إذ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي تدعوننا إليه فنزلت. وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزّه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للالوهية وقرئ «هو الله» بلا ﴿قُلْ﴾ مع الاتفاق على أنه لا بد منه في ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولا يجوز في «تبت»، ولعل ذلك لأن سورة «الكافرون» مشاقة الرسول أو موادعته لهم و«تبت» معاتبته عمه فلا يناسب أن تكون منه، وأما هذا فتوحيد يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ السيد المصمود إليه في الحوائج من صمد إليه إذا قصد، وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغني عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير لفظة ﴿الله﴾ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٣﴾﴾

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه، ولعل الاقتصار على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله أو ليطابق قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها، وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة ﴿كُفُوًا﴾ لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديماً للأهم، ويجوز أن يكون خالاً من المستكن في ﴿كُفُوًا﴾ أو خبراً، ويكون ﴿كُفُوًا﴾ حالاً من ﴿أحَدٌ﴾، ولعل ربط الجمل الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي أقسام الأمثال فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجميل، وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية ﴿كُفُوًا﴾ بالتخفيف، وحفص ﴿كُفُوًا﴾ بالحركة وقلب الهمزة واواً، ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها، جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن. فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها ب كله اعتبر المقصود بالذات من ذلك.

وعنه عليه السلام، أنه سمع رجلاً يقرأها فقال: «وجبت» قيل: يا رسول الله وما وجبت قال: «وجبت له الجنة».

(١١٣) سورة الفلق

مختلف فيها، وآيها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ما يفلق عنه أي يفرق كالفرق فعل بمعنى مفعول، وهو يعم جميع الممكنات، فإنه تعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل كالعيون والأمطار والنبات والأولاد، ويختص عرفاً بالصبح ولذلك فسر به. وتخصيصه لما فيه من تغير الحال وتبدل وحشة الليل بسرور النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة، والإشعار بأن من قدر أن يزيل به ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائد به ما يخافه، ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لأن الإعادة من المضار تربية.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خص عالم الخلق بالاستعانة عنه لانحصار الشر فيه، فإن عالم الأمر خير كله، وشره اختياري لازم ومتعد كالكفر والظلم، وطبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ﴾ ليل عظيم ظلامه من قوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وأصله الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً. وقيل السيلان و ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ انصباب ظلامه وغسق العين سيلان دمه. ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ دخل ظلامه في كل شيء، وتخصيصه لأن المضار فيه تكثر ويعسر الدفع، ولذلك قيل الليل أخفى للويل. وقيل المراد به القمر فإنه يكسف فيغسق ووقوبه دخوله في الكسوف.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، والنفت النفخ مع ريق وتخصيصه: لما روي أن يهودياً سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة في وتر دسه في بثر، فمرض النبي ﷺ ونزلت المعوذتان، وأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بموضع السحر فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقراهما عليه، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور، لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر. وقيل المراد بالنفت في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد بنفت الريق ليسهل حلها وإفراقها بالتعريف لأن كل نفثة شريرة بخلاف كل غاسق وحاسد.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه، فإنه لا يعود ضرر منه قبل ذلك إلى المحسود بل يخص به لاغتمامه بسروره، وتخصيصه لأنه العمدة في إضرار الإنسان بل الحيوان غيره، ويجوز أن يراد بالـ ﴿غَاسِقٍ﴾ ما يخلو عن النور وما يضاهيه كالقوى و ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النباتات، فإن قواها النباتية من

حيث إنها تزيد في طولها وعرضها وعمقها كأنها تنفث في العقد الثلاثة، وبإلـهـ حاسـدـ الحيوان فإنه إنما يقصد غيره غالباً طمعاً فيما عنده، ولعل أفرادها من عالم الخلق لأنها الأسباب القريبة للمضرة.

عن النبي ﷺ «لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أَرْضَى عند الله منهما يعني المعوذتين».

(١١٤) سورة الناس

مختلف فيها، وآيات ست

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتهما إلى اللام. ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية وهي تعم الإنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الأضرار التي تعرض للنفوس البشرية وتخصها، عموماً بالإضافة ثم وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ عطفاً ببيان له فإن الرب قد لا يكون ملكاً والملك قد لا يكون إلهاً، وفي هذا النظم دلالة على أنه حقيق بالإعادة قادر عليها غير ممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في المعارف فإنه يعلم أولاً بما عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقق أنه غني عن الكل وذات كل شيء له ومصارف أمره منه، فهو الملك الحق ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير، وتدرج وجوه الاستعاذة كما يتدرج في الاستعاذة المعتادة، تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المستعاذ منها، وتكرير ﴿الناس﴾ لما في الإظهار من مزيد البيان، والإشعار بشرف الإنسان.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال، والمراد به الموسوس وسمي بفعله مبالغة. ﴿الْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم، وذلك كالقوة الوهمية، فإنها تساعد العقل في المقدمات، فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنس وأخذت توسوسه وتشككه، ومحل ﴿الذي﴾ الجر على الصفة أو النصب أو الرفع على الذم.

﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ بيان لـ ﴿الوسواس﴾، أو للذي أو متعلق بـ ﴿يوسوس﴾ أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنّة والناس. وقيل بيان لـ ﴿الناس﴾ على أن المراد به ما يعم الثقلين، وفيه تعسف إلا أن يراد به الناسي كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ فإن نسيان حق الله تعالى يعم الثقلين.

عن النبي ﷺ «من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى».

قال المصنف رحمه الله تعالى: وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن

الإضلال، الموسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، وأسأل الله تعالى أن يتم نفعه للطلاب، ولا يخلي سعي من يتعب فيه من الأجر والثواب، ويختتم كل خاتمة امرئ يؤمه بتمحيص عن الآثام ويبلغني أعلى منازل دار السلام، في جوار العلين من النيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً وهو سبحانه حقيق بأن يحقق رجاء الراجين تحقيقاً، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وأتباعهم أجمعين.

محتوى الجزء الخامس من تفسير البيضاوي

٥	تفسير سورة الصافات
٦	بيان معنى الشهاب وأنه رجوم للشياطين
١٥	بيان الذبيح وأنه إسماعيل ورد ما استدل به من قال إنه إسحاق
٢٣	تفسير سورة ص
٢٧	بيان ما اشتملت عليه محاكمة الخصمين بين يدي سيدنا داود
٢٩	بيان ما فتن به سيدنا سليمان والجسد الذي أُلقي على كرسيه
٣٦	تفسير سورة الزمر
٤٣	بيان ما فعله خالد بن الوليد بالعزّي
٤٧	بيان ما فسر به رسول الله ﷺ المقاليد
٤٩	بيان أن العدل نور والظلم ظلمات
٥١	تفسير سورة المؤمن (غافر)
٥٢	بيان استغفار الملائكة للمؤمنين
٥٦	بيان مؤمن آل فرعون
٦٤	بيان عدد الأنبياء
٦٦	تفسير سورة السجدة (فصلت)
٧٢	بيان موضع السجود في السورة عند الأئمة
٧٦	تفسير سورة حم عسق (الشورى)
٧٨	بيان الدين المشترك بين الأنبياء
٨٠	بيان القزوين الذين تجب مؤدنتهم
٨٦	تفسير سورة الزخرف
٩٠	بيان الرجلين اللذين كانت قريش تجلها وتقول «لولا أنزل القرآن» على أحدهما
٩٩	تفسير سورة الدخان
١٠٥	تفسير سورة الجاثية
١١١	تفسير سورة الأحقاف
١١٥	بيان مساكن عاد
١١٦	بيان وقت سماع الجن القرآن من رسول الله
١١٩	تفسير سورة القتال (محمد)
١٢٠	بيان ما يسوغ للإمام فعله مع الأسير

١٢٦	تفسير سورة الفتح
١٢٩	بيان أسباب المبايعات تحت الشجرة
١٢٩	بيان دلالة القرآن على صحة بيعة أبي بكر رضي الله عنه
١٣٣	تفسير سورة الحجرات
١٣٤	بيان بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق وكذبه عليهم
١٣٧	بيان الشعوب والقبائل والبطون والأفخاذ
١٣٩	تفسير سورة ق
١٤٦	تفسير سورة الذاريات
١٥٢	تفسير سورة الطور
١٥٧	تفسير سورة النجم
١٥٩	بيان الأصنام التي كانت للعرب وأسباب اتخاذها
١٦٤	تفسير سورة القمر
١٧٠	تفسير سورة الرحمن
١٧٧	تفسير سورة الواقعة
١٨٥	تفسير سورة الحديد
١٨٦	بيان أسباب تفاوت الاتفاق قبل الفتح وبعده
١٩٢	تفسير سورة المجادلة
١٩٨	تفسير سورة الحشر
١٩٩	بيان الاختلاف في قسم الفيء
٢٠٤	تفسير سورة الممتحنة
٢٠٦	بيان ما كان يفعله ﷺ بعد صلح الحديبية من رد مهر من جاءت مُسَلِّمة
٢٠٨	تفسير سورة الصف
٢١١	تفسير سورة الجمعة
٢١٤	تفسير سورة المنافقين
٢١٧	تفسير سورة التغابن
٢٢٠	تفسير سورة الطلاق
٢٢٤	تفسير سورة التحريم
٢٢٨	تفسير سورة الملك
٢٣٣	تفسير سورة ن
٢٣٩	تفسير سورة الحاقة
٢٤٤	تفسير سورة المعارج
٢٤٨	تفسير سورة نوح

٢٥١	تفسير سورة الجن
٢٥٥	تفسير سورة المزمل
٢٥٩	تفسير سورة المدثر
٢٦٥	تفسير سورة القيامة
٢٦٩	تفسير سورة الإنسان
٢٧٤	تفسير سورة المرسلات
٢٧٨	تفسير سورة النبأ
٢٨٢	تفسير سورة النازعات
٢٨٦	تفسير سورة عبس
٢٨٩	تفسير سورة التكويد
٢٩٢	تفسير سورة الانفطار
٢٩٤	تفسير سورة المطففين
٢٩٧	تفسير سورة الانشقاق
٣٠٠	تفسير سورة البروج
٣٠٣	تفسير سورة الطارق
٣٠٥	تفسير سورة سبح (الأعلى)
٣٠٧	تفسير سورة الغاشية
٣٠٩	تفسير سورة الفجر
٣١٣	تفسير سورة البلد
٣١٥	تفسير سورة الشمس
٣١٧	تفسير سورة الليل
٣١٩	تفسير سورة الضحى
٣٢١	تفسير سورة ألم نشرح
٣٢٣	تفسير سورة التين
٣٢٥	تفسير سورة العلق
٣٢٧	تفسير سورة القدر
٣٢٨	تفسير سورة لم يكن (البيئة)
٣٣٠	تفسير سورة الزلزلة
٣٣١	تفسير سورة والعاديات
٣٣٣	تفسير سورة القارعة
٣٣٤	تفسير سورة التكاثر
٣٣٦	تفسير سورة العصر

٣٣٧	تفسير سورة الهمزة
٣٣٩	تفسير سورة الفيل
٣٤٠	تفسير سورة قريش
٣٤١	تفسير سورة الماعون
٣٤٢	تفسير سورة الكوثر
٣٤٣	تفسير سورة الكافرون
٣٤٤	تفسير سورة النصر
٣٤٥	تفسير سورة نبت
٣٤٧	تفسير سورة الإخلاص
٣٤٨	تفسير سورة الفلق
٣٥٠	تفسير سورة الناس

تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع نهاية
تفسير البيضاوي في مطابع دار إحياء التراث العربي - بيروت
الزاهرة أدامها الله لطبع المزيد من الكتب
النافعة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
والعاقبة للمتقين

طبع على مطابع
وزارة التعليم والثقافة العربية